مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ العِشرُونَ

سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

حكومة الشارقة Government of Sharjah

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ العِشرُونَ

سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40

نُخبةٌ مِنْ عُلَماء مَجمَعِ القُرآنِ الكَريمِ بِالشّارِقةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].- الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزءُ الحَادِي عَشَرَ

سُورَةُ يُونُسَ

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾ [يونس: 76 - 77]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهما:

الرّبطُ بينَ تكذيبِ موسى وهارونَ، وادّعاءُ المُكذّبينَ أنّ ما جَاءَا بِهِ سِحرٌ

مُناسبةُ الآيتينِ لِما قبلَهما أنّ اللّه تعالى لمّا أخبرَ أنّهُم قدِ استكبَرُوا: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ "بَيَّنَ أنّهُ تَسَبَّبَ عَنهُ طَعنُهم في مُعجِزاتِهِ مِن غيرِ تَأمُّلٍ، بل بغايةِ المُبادَرَةِ والإسراعِ بما أشعَرَت بِهِ الفاءُ والسّياقُ، فقالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ﴾"[1]، ذلك أنّه" لمّا جاءَهُم مُوسى وهارونُ بالحقِّ الواضحِ، والدّليلِ القاطعِ على صِدقِ نبوّتِهما، قالُوا: إنّ هذا لَسِحرٌ واضحٌ لِمَن رآهُ وعاينَهُ، وهُم يَعلمونَ في قَرارةِ نفوسِهِم أنّهُم كاذبونَ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَسِحۡرٞ﴾: (سحر) أصلٌ يدلُّ على الخدعِ وشِبْهِهِ، فَالسِّحرُ: إخرَاجُ البَاطِلِ في صُورَةِ الحَقِّ، ويُقَالُ هُوَ الخَدِيعَةُ[3]. والسِّحرُ يُقالُ على مَعانٍ؛ منها: الخِداعُ، وتَخْييلاتٌ لا حَقيقةَ لَها، نحو مَا يفعلُهُ المُشَعْوِذُ بصرفِ الأبصارِ عمّا يفعلُهُ لِخفَّةِ يدٍ، ومَا يَفعلُهُ النَّمَّامُ بقولٍ مُزَخرَفٍ عائِقٍ لِلأسماعِ، وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ [الأعراف: 116]، وقالَ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ﴾ [طه: 66]، وبهذا النّظرِ سمَّوْا مُوسى عليه السلام سَاحِرًا فقالُوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزّخرف: 49]، ومنها: استجلابُ مُعاونةِ الشّيطانِ بضربٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/170.
(2) أسعد حومد، أيسر التفاسير، ص: 1441.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).

مِنَ التَّقرُّبِ إليه، كقولِه تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ [الشّعراء: 221 - 222][1].

2) ﴿وَلَا يُفۡلِحُ﴾: (فلح) الفاءُ واللَّامُ والحَاءُ أصلَانِ صَحِيحَانِ؛ أحَدُهُمَا: يَدُلُّ عَلَى شَقٍّ، والآخَرُ: عَلَى فَوزٍ وبَقَاءٍ[2]. والفَلَح والفَلاحُ: الفوزُ والنَّجَاةُ والبَقَاءُ في النَّعِيمِ والخَيرِ[3]، وهو: الظَّفَرُ وإدراكُ بُغيَةٍ، وذلك ضربَانِ: دُنيَوِيٌّ وأُخرَوِيٌّ؛ فالدُّنيويُّ: الظَّفرُ بالسَّعادَاتِ الّتي تَطِيبُ بها الحَيَاةُ الدُّنيَا، وهو البقاءُ والغنَى والعِزُّ، وفَلَاحٌ أُخرَوِيٌّ، وذلك أربعةُ أشياء: بَقاءٌ بلا فَناء، وغنى بلا فَقرٍ، وعِزٌّ بلا ذُلٍّ، وعِلمٌ بلا جَهلٍ، كقولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22][4].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

تأكيدُ موسى أنّ ما جاءَ بهِ مِنَ اللهِ، وليس سِحرًا، فالسَّحرةُ لا يُفلِحون

يخبرُ اللّه تعالى عنِ المحاورةِ بينَ مُوسى عليه السلام بعدَ أنْ أظهرَ لَهُم الحقَّ بالبراهينِ القاطعةِ؛ أنّهُم "لمّا ظَهَرَ لَهُم الحقُّ مِن عندِنا على يدِ مُوسى قالوا في مُعجزةِ مُوسى، وهي العصا الّتي انقلبَت حيّةً أمامَ أعينِهم: إنّ هذا سِحرٌ مُؤكّدٌ واضحٌ، قالَ لَهُم مُوسى مُستنكِرًا: أتصفونَ الحقَّ الّذي جِئتُكم بهِ مِن عندِ اللّه بأنّهُ سِحرٌ؟ أتكونُ هذه الحقيقةُ الّتي عاينتُمُوها سِحرًا؟"[5]، والحالُ أنّ السّاحِرينَ لن يُفلِحُوا أبدًا.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ التَّدرُّجِ في الآيَةِ:

الاستكبارُ والتَّولِّي يُفضي إلى الافتراءِ والإفكِ

في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ

(1) الرّاغب، المفردات: (سحر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فلح).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فلح).
(4) الرّاغب، المفردات: (فلح).
(5) جماعة منَ العلماء، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 299 - 299.

﴿مُّبِينٌ﴾ بيانٌ لإيغالِهم في الضّلالِ، فلمّا "رَأوا المُعجزاتِ الّتي هي حقٌّ ثابتٌ، وليسَت بِتَخيُّلاتٍ وتَمويهاتٍ، وعَلِمُوا أنّ مُوسى صادِقٌ فيما ادَّعاهُ، تَدَرَّجُوا من مُجرَّدِ الإباءِ المُنبَعِثِ عَنِ الاستكبارِ إلى البُهتانِ المُنبَعِثِ عَنِ الشُّعورِ بالمَغلُوبيَّةِ"[1]، وهذا يُبيّنُ على سَبقِ إصرارِهِم على مُواجهةِ الحقِّ بالتَّمسُّكِ بضلالِهِم.

الفاءُ مُبيِّنةٌ عن مَحذوفٍ ذُكِرَ في مَواضِعَ أُخر

دلالةُ الفاءِ الفصيحةِ في ﴿فَلَمَّا﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ افتتحَ النّظمُ الكريمُ الآيةَ بالفاءِ الفصيحةِ؛ لِتُفْصِحَ عن مَحذوفٍ، قد صُرِّحَ بِهِ في آياتٍ أخرى، "كأنَّهُ قِيلَ: قالَ مُوسى: ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾"[2]، كما أنّ العطفَ بالفاءِ يدُلُّ على السَّببيّةِ والمبادرةِ بلا مُهلةٍ، فبيَّنَ "أنّهُ تَسَبَّبَ عنهُ طَعنُهم في مُعجزاتِهِ من غيرِ تَأمُّلٍ، بل بغايةِ المُبادرةِ والإسراعِ بما أشعَرَت بِهِ الفاءُ والسِّياقُ، فقالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ﴾"[3].

مِن سوءِ التّقديرِ أن يُبادِروا الحقَّ المُستبينَ بالاتّهامِ المهينِ

دلالةُ (لمّا) في ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ بَيَّنَ النّظمُ الكريمُ أنّ نسبتَهُم لِمَا جاءَ بِهِ مُوسى إلى السِّحرِ، كانَ حينَ رأيتهم المعجزة، فعَمَدُوا على وجهِ العجالةِ إلى الافتراءِ، من غيرِ تأنٍّ ولا نظرٍ، لما أسقطَ في أيديهم، إذ لم يجدُوا له رَدًّا يجيبونَهُ بِهِ غير نسبتِهِ إلى ما يُجهَلُ، ولا يعرفُ حقيقتَهُ مِنَ الأوهامِ والتَّخييلِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/248.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/167.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/170.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿جَآءَهُمُ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ دلَّ الفعلُ (جَاءَ) على ثبوتِ الحقِّ، والمقصودُ مِن ذكرِ مجيءِ الحقِّ إثباتُ صدقِ مُوسى في رسالتِهِ، فَمجيءُ الحقِّ ثبوتُهُ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ [الإسراء: 81][1]، ومفادُ السِّياقِ: فلمّا جاءَهُمُ الحقُّ مِن عندِنا، وعَرَفُوهُ، قالُوا مِن فَرْطِ عُتُوِّهِم وَعِنَادِهِم، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي: ظاهِرٌ كونُهُ سِحرًا، أو فائِقٌ في بابِهِ، واضِحٌ فيما بينَ أضرابِهِ، وقُرِئَ: (لَساحِرٌ)[2].

مجيءُ الحقِّ حجَّةٌ على المُخاطَبينَ بالبلاغِ

الغرضُ مِنَ المجازِ في قولِهِ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أسندَ المجيءَ إلى الحقِّ، والحقُّ لا يأتي؛ ولكِنْ يُؤتَى بِه، على طريقةِ المجازِ العقليِّ، وهذا يَخْلَعُ على المعنى قوّةً وجمالًا؛ حيث جَعَلَ الحقَّ مُشخَّصًا يأتي بنفسِهِ دليلًا على قُوَّةِ الحضورِ والاتّضاحِ، وفي ذلكَ قالَ الشِّهابُ الخفاجيُّ: "جَعَلَ الحقَّ كشخصٍ جاءَهُم مِنَ اللهِ على طريقِ الكنايةِ والتَّخييلِ، وهذا يدُلُّ على غايةِ ظهورِهِ، بحيثُ لا يَخفَى على ذي بَصَرٍ وبَصيرةٍ"[3].

مجيءُ الحقِّ ظاهرٌ ظهورَ الشّخصِ للعيانِ بحضورِهِ

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ أطلقَ النَّظمُ الكريمُ على رسالةِ مُوسى عليه السلام لفظَ الحقِّ؛ تعبيرًا عن صدقِ الرّسولِ والرّسالةِ، وفي ذلك تصريحٌ بأنّهُم أدركُوا حقّيّةَ الدَّعوةِ وصدقَها، فالتّعبيرُ عنها بالحقِّ تأكيدٌ لِكونِها قد ثَبَتَت لَهُم بهذا الوصفِ، ولولم يكُنْ قد ثَبَتَ لَهُم ذلكَ لَمَا أطلقَ عليه (الحقّ)، وقولُهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ

التّعبيرُ عنِ الدّعوةِ بلفظِ (الحقّ)، تأكيدٌ لثبوتِها بهذا الوصفِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/249.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/168.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/50.

﴿ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾؛ "يَعني: الآياتِ المُزِيحَةَ لِلشّكِّ، ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ يعني مِن فَرطِ التَّمرُّدِ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾؛ أي: تَلبِيسٌ ظاهِرٌ"[1].

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿مِنۡ عِندِنَا﴾ وإيجازها:

مصدرُ الآياتِ مِن عطاءِ الرّحمنِ، فهي جديرةٌ بالبيانِ

في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ قَيَّدَ الحقَّ بكونِه جاءَ مِنَ اللّه تعالى؛ تَعظيمًا لهُ، وإعلامًا بأنّهُ حقٌّ ظاهِرٌ، بحيثُ إنّهُ لا تغيبُ صحّتُهُ عن أحدٍ، وفيه تأكيدٌ لاستِحقاقِهِ أن يُوصَفَ بالحقِّ لكونه صادرًا مِنَ اللّه تعالى، كما أنّه يُشيرُ إلى علّةِ كونِه حقًّا، وهو أنّهُ آتٍ مِن عندِ اللّه العظيم.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿عِندِنَا﴾:

مجيءُ الحقِّ مِنَ اللهِ تعالى، لا مِنَ المُبَلِّغينَ

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ أضافَ الظّرفَ إلى ضميرِ التّعظيمِ؛ أي: جاءَهُمُ الحقُّ "على ما لَنا مِنَ العَظمةِ الّتي عَرَفُوا بها أنّهُ مِنَّا، لا مِنَ الرَّسُولَينِ"[2]، كما أنّهُ يُصرِّحُ بأنّهُ حقٌّ صادرٌ مِنَ اللّه تعالى لا مِن مُوسى وهارونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ[3].

دلالةُ جملةِ القولِ في قولِه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾:

لابُدَّ لِلمَغلوبِ مِن زائفِ العذرِ

في قولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ بيانٌ لِشدَّةِ ما وَقَعُوا بِهِ؛ منه: الغَلَبُ بعدَ أن أظهرَ مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ آياتِهِ البيّناتَ، فتركُوا الحقَّ، وبادرُوا بالاتّهامِ، فَنَسبُوهُ لِلسِّحرِ، فإنّ "اعتِذارَهُم عن ظهورِ الآياتِ بأنّها سِحرٌ، هو اعتذارُ المَغلوبِ العَديمِ الحُجَّةِ الّذي قهرَتهُ الحُجَّةُ، وبَهَرَهُ سُلطانُ الحَقِّ، فلَم يبقَ لَهُ مُنتَشَبٌ مِنَ المُعارَضَةِ المَقبُولَةِ، فَهُوَ يَهرَعُ إلى انتِحالِ مُعارَضاتٍ بِمَعاذِيرَ لا تَدخُلُ تحتَ التَّمحِيصِ، ولا تَثبُتُ في مَحَكِّ النَّقدِ"[4].

---

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/51.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/170.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/361.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/249.

علّةُ وصفِهم الحقَّ بأنّهُ (سِحرٌ):

وَصَفَ الحقَّ بالسِّحرِ؛ لِكونِهِ يُفضي إلى ما في نفوسِ المَسحورينَ كالسِّحرِ

في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ نَسَبُوا مُوسى عليه السلام إلى السِّحرِ، ووصفُوا الحقَّ بأنَّهُ سِحرٌ، والغرضُ مِن ادِّعاءِ الحقِّ سِحرًا؛ "أنَّ دَلائِلَهُ مِن قَبيلِ التَّخَيُّلاتِ والتَّمويهاتِ، فَكَذلِكَ مَدلُولُهُ، هُوَ مَدلولُ السِّحرِ، وهُوَ إنشاءُ تَخَيُّلٍ بَاطلٍ في نفوسِ المَسحورينَ، وقد حَمَلَهُمُ استِشعارُهُم وهَنَ مَعذِرتِهم، على أن أبرَزُوا دَعواهُم في صورةِ الكلامِ المُتَثَبِّتِ صاحِبُهُ، فَأَكَّدُوا الكلامَ"[1].

الغرضُ مِن تأكيدِ الخبرِ بثلاثةِ مُؤكِّداتٍ في الآية:

لمّا خافُوا تطرُّقَ الإيمانِ لقلوبِ النّاسِ أكَّدُوا افتراءَهُمُ المشؤومَ

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ لمّا كانَ مجيءُ مُوسى بالآياتِ في مَشهدٍ مِنَ الملأ، والنّاسُ أجْرَوْا حُكمَهُم عليهِ بالسِّحرِ على وجهِ التّأكيدِ، فأكّدُوا ذلكَ بصيغةِ الجملةِ الاسميّةِ، وحرفِ التّأكيدِ (إنّ)، واللّامِ؛ دَفعًا لِمَا يكونُ قد أثَّرَ في بعضِ الملأ منهُم، فأعلنُوا نسبتَهُ لِلسِّحرِ بطريقةِ الكلامِ الموثوقِ بهِ والمقطوعِ دَفعًا لِلشّكِّ، فقالُوا ذلك "مُؤكِّدينَ لِما عَلِمُوا مِن تصديقِ النّاسِ بهِ"[2]، "لم يكفِهِم - قبّحَهُمُ اللهُ - إعراضُهُم ولا ردُّهُم إيّاهُ، حتّى جعلوهُ أبطلَ الباطلِ، وهو السِّحرُ: الّذي حقيقتُهُ التّمويهِ، بل جعلُوهُ سِحرًا مُبينًا، ظاهرًا، وهو الحقُّ المُبينُ"[3].

دلالةُ اللّامِ المُزحلَقةِ في ﴿لَسِحۡرٞ﴾:

التّأكيدُ بأنّ الحقَّ سِحرٌ، قلبٌ لِلمَوازين، ومُناوأةٌ لِلهُدى المُبين

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ لمّا سَاقُوا الإخبارَ عن كونِهِ سِحرًا على وجهِ التّأكيدِ، ثمّ زادوا التّأكيدَ تأكيدًا بإدخالِ اللّامِ التّوكيديّةِ المُزحلَقةِ على خبرِ (إنّ)؛ قطعًا لكلِّ احتمالٍ في تطرُّقِ الشَّكِّ مِنَ السّامِعينَ بكذبِ ادّعائِهِم، وقد يكونُ السّياقُ دالًّا على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/249.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/171.

(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 370.

القَسمِ المُقدَّرِ؛ بمعنى: "أي: أقسَمُوا بإنّ هذا الّذي جاءَ بِهِ مُوسى مِنَ الآياتِ الدّالّةِ على صدقِهِ، إنّما هو سِحرٌ بيّنٌ ظاهِرٌ، وإنّما السِّحرُ صناعةٌ باطلةٌ، هُمُ أحذَقُ النّاسِ بها، فكيفَ يتّبِعونَ مَن جاءَ يُنازِعُهُم سُلطانهم بها"(1).

دلالةُ وصفِ السِّحرِ بـ ﴿مُّبِينٌ﴾:

سِحرُ البشرِ يَتهافَتُ أمامَ آياتِ اللهِ لِمُوسى وأخيهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٌ مُّبِينٌ﴾ وَصَفُوا السِّحرَ بكونِهِ مُبينًا، فلَم يَكتفوا بافتراءِ نسبتِهِ إلى السِّحرِ، وتأكيدِهِم لِذلكَ؛ بل أضافُوا إليهِ وَصفًا يدلُّ على كونِهِ الغايةَ في السِّحرِ؛ أي: هو حَاذِقٌ في السِّحرِ(2)، وسِحرُهُ "ظاهِرٌ كونُهُ سِحرًا، أو فائقٌ في بابِهِ، واضحٌ فيما بينَ أضرابِهِ"(3)، ولا شُبهةَ في ذلك؛ إيغالًا منهُم في إضلالِ النّاسِ وصرفِهِم عن آياتِ مُوسى البيّناتِ.

بلاغةُ الفصلِ في قولِهِ: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ﴾:

تقديرُ السّؤالِ في الآيةِ تحريكٌ لِذهنِ السّامِعِ، واستكمالٌ لِهيكلِ القصّةِ

الجُملةُ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾ استئنافٌ "مَبنيٌّ على سؤالٍ تَنساقُ إليهِ الأذهانُ، كأنَّهُ قِيلَ: فماذَا قَالَ لَهُم مُوسى حِينَئذٍ؟ فقيلَ: قالَ على طريقةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخِيِّ"(4)، فقولُ مُوسى عليه السلام جوابٌ لِقولِهِم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٌ مُّبِينٌ﴾، فَفُصِلَ مِنَ العطفِ؛ لأنّهُ حكايةٌ لِلأقوالِ المُساقةِ على طريقةِ المُحاورةِ(5).

دلالةُ الاستفهامِ في ﴿أَتَقُولُونَ﴾:

تَكرارُ التَّوبيخِ علامةٌ على قُبحِ ما ادَّعَوْهُ

حكى النّظمُ الكريمُ ردَّ مُوسى عليه السلام على تأكيدِهِم وجزمِهِم بأنّ ما جاءَ بِهِ سِحرٌ مُبينٌ، فقالَ تعالى حكايةً عَن مُوسى: ﴿أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ﴾ "مُستفهمًا على جهةِ الإنكارِ والتَّوبيخِ، حيثُ جعلُوا الحقَّ

---

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/381.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/50.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/167 - 168.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/168، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/171.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/250.

سِحرًا: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾؛ أي: مِثلَ هذا الحقِّ لا يُدَّعى أنَّهُ سِحرٌ"[1]، فالاستفهامُ في الآيةِ لإنكارِ قولِهم وتوبيخِهم عليه، وكَرَّرَ الاستفهامَ، فَقالَ: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾؛ لإنكارِ الوقوعِ، أي: أنّهُ ليسَ بسِحرٍ، فكيفَ تقولونَ لِلحَقِّ الّذي هو أبعدُ شيءٍ مِنَ السِّحرِ أنّهُ سِحرٌ؟! والسِّحرُ باطِلٌ مَحضٌ.

دلالةُ التعديةِ بـ ﴿لِلۡحَقِّ﴾:

الحقُّ لا يَستحِقُّ بأيِّ وجهٍ كانَ أن يُوصَفَ بأنّهُ سِحرٌ

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ تعديةَ فعلِ القولِ إلى المَقولِ باللّامِ في قولِهِ: ﴿أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ﴾، ولم يقُلْ: (أتقولونَ عنِ الحقِّ)؛ لأنّهُ أرادَ معنى الاستحقاقِ، فأنكرَ عليهم اعتقادَهُم استحقاقَ دعوتِهِ وصفَ السّحرِ، فَهُم جعلُوا الحقَّ الّذي جاءَ به مُوسى مُستحِقًّا أن يُوصَفَ بالسِّحرِ، فأنكرَ عليهِم ذلكَ.

دلالةُ حذفِ مَقولِ القولِ في الآيةِ:

حَذَفَ ما يُستَنكرُ ويُحرِجُ مِن أساليبِ البيانِ القرآنيِّ الفصيحةِ

قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾ حَذَفَ النّظمُ الكريمُ مَقولَ القولِ "ثقةً بدِلالةِ مَا قبلَهُ وما بعدَهُ عليه، وإيذانًا بأنّهُ ممّا لا ينبغي أن يُتفوَّهَ بِهِ، ولَو على نَهجِ الحكايةِ؛ أي: أتقولُونَ لَهُ ما تقولونَ من أنّهُ سِحرٌ، يَعني بِهِ أنّهُ ممّا لا يُمكِنُ أن يقولَهُ قائِلٌ، ويَتكَلَّمَ بِهِ مُتكَلِّمٌ"[2]، فَحَذَفَ ما قالُوهُ، ولم يحكِهِ لدلالةِ الكلامِ عليهِ، وتقديرُهُ: أتقولُونَ لهذا الحقِّ الّذي جاءَكُم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٌ مُّبِينٌ﴾، فَحَذَفَهُ لأنّهُ قولٌ مُنكَرٌ، يَعِفُّ لسانُ العاقِلِ عن مثلِه، ثمّ قالَ: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾؟ فَهُوَ مِن قولِ مُوسى لا مِن قولِهِم، ومِثلُ هذا التّقديرِ المحذوفِ مَوجودٌ في كلامِ العربِ، فيجوزُ حذفُ مَعمولِ القولِ لِلدّلالةِ عليهِ[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/91.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/168، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/287.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/134، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/91.

الأجدرُ بالتّقديم في السّياقِ، ما كانَ سَببًا لِلحديثِ وأصلًا له

نكتةُ التقديمِ في ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾ قَدَّمَ إنكارَ السِّحرِ على الإشارةِ إليه، لأنّ المطلوبَ أوّلًا إنكارُ أن يكُونَ هذا الّذي جاءَ بهِ مُوسى سِحرًا، فَقَدَّمَ "الخبرَ للإيذانِ بأنّه مَصَبُّ الإنكارِ"[1]، فالمقصودُ بالإنكارِ قولُهُم أنّهُ سِحرٌ، فتقديمُ ذلكَ أبلغُ في الإنكارِ.

فلاحُ السَّحرة مُنتفٍ في كلِّ زمانٍ، وذلك حُكمُ اللهِ المُستحقُّ عليهم

دلالةُ النفي في ﴿وَلَا يُفۡلِحُ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ أن ينفيَ الفعلَ المضارعَ بلا النّافيةِ؛ للدّلالةِ على تجدُّدِ النّفي في كُلِّ زمانٍ، وليدلَّ على أنّ انتفاءَ الفَلاحِ عنِ السَّحرةِ حقيقةٌ راسِخةٌ دائِمةٌ لا تَنتقِضُ، فالصّالحُ لذلك هو نفيُ الزّمانِ في كلِّ حالٍ، وذلك هو مَدلولُ النّفي بـ (لا).

سِحرُ السَّحرة ضلالٌ وخَيبَةٌ، وآياتُ اللهِ إعجازٌ وفَلاحٌ

دلالةُ النَّفي في قولِهِ: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ جاءَ فيه النّفيُ لتقريرِ أمرِ السِّحرِ، وسُوءِ عقباهُ في الدّنيا والآخرةِ، فَسَلَبَ عنِ السِّحرِ صفةَ الفلاحِ، وهذا يُثبتُ نقيضَها، وهي الخَيبةُ والخسرانُ، كما أنّ فيهِ إثباتًا بأنّ مُوسى صاحبُ المُعجزاتِ المُبطلَةِ للسِّحرِ، والقاهرةِ لِلسَّحرةِ، مُفلحٌ لأنّهُ ليسَ بساحِرٍ.

النُّبوّةُ مُنزَّهةٌ عن أباطيلِ السِّحرِ وضلالاتِهِ

دلالةُ إعرابِ جملة ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن اسمِ الإشارةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾، وفائدةُ هذه الحالِ تأكيدُ الإنكارِ، فلمّا نَسبُوهُ إلى السِّحرِ استلزمَ ذلك أن يكُونَ مُوسى عليه السلام سَاحرًا، فأكّدَ "الإنكارُ السّابقُ، وما فيهِ مِنَ التّوبيخِ والتّجهيلِ، بقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾، وهو جُملةٌ حاليَّةٌ من

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/168.

ضميرِ المُخاطَبينَ، والرَّابطُ هُوَ الواوُ بلا ضميرٍ...؛ أي: أتقولونَ لِلحقِّ إنّهُ سِحرٌ، والحالُ أنّهُ لا يُفلِحُ فاعِلُهُ؛ أي: لا يَظفَرُ بمطلوبٍ ولا يَنجُو مِن مَكروهٍ، فكيفَ يُمكِنُ صُدُورُهُ مِن مِثلِي مِنَ المُؤيَّدِينَ مِن عندِ اللّه العزيزِ الحكيمِ، الفائِزينَ بكلِّ مَطلَبٍ، النّاجِينَ مِن كُلِّ مَحذُورٍ"(1).

المُتشابِهُ اللّفظيُّ:

التّشابُهُ بينَ قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، وقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾ [القصص: 48].

الاختلافُ في اتّهامِ مُوسى بالسِّحرِ المبينِ، والمُقارنةُ بالتّكذيبِ مع النّبيِّ الأمينِ

خَصَّ النّظمُ كلَّ آيةٍ بمَقولِ قولٍ مُناسِبٍ لكلٍّ منهما؛ حيثُ سُبِقَت آيةُ يونس بقولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾، فلمّا كانَ أبرزُ آياتِ مُوسى عليه السلام ما هو كائنٌ مِن جنسِ السِّحرِ ظاهرًا؛ ناسبَهُ أن يحكيَ قولَهُم عنهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، أمّا الآيةُ في سورةِ القَصصِ فهي مَسبوقةٌ بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [القصص: 47]، فلمّا كانَ هؤلاء لم يتَّبعوا الآياتِ، إنّما اتَّبعوا اليهودَ حين قالُوا لِمَن كَفَرَ مِنَ العربِ قولُوا لِمحمّد صلى الله عليه وسلم: لولا أُوتيتَ مثلَ ما أُوتيَ مُوسى، فإنّهُ أُوتيَ التّوراةَ دُفعةً واحدةً؛ ناسبَهُ قولُهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾.

الفروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الحقُّ والعدلُ:

العَدلُ: مَا قَامَ في النُّفُوسِ أنّهُ مُستقيمٌ، وَهُوَ ضِدُّ الجَوْرِ، وعَدَلَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/168، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/171.

العـدلُ أخـصُّ مِنَ الحقِّ؛ لأنّه جزءٌ مِنَ الحقِّ

الحاكِمُ في الحُكم يَعدِلُ عَدلًا، وعَدَلَ عَلَيهِ في القضيَّةِ، فَهُوَ عادِلٌ. وفي أسماءِ اللهِ سبحانَهُ: العَدْلُ، هو الَّذي لا يَميلُ بِهِ الهَوَى فيَجور في الحُكم[1]، والعَدَالَةُ والمُعَادَلَةُ: لفظٌ يَقتضي معنى المَساواةِ، والعَدْلُ والعِدْلُ يَتقاربان، لكن العَدْلُ يُستعمَلُ فيما يُدرَكُ بالبصيرةِ كالأحكام، وعلى ذلك قولُهُ: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: 95]، والعِدْلُ والعَدِيلُ فيما يُدرَكُ بالحاسّة، كالموزُوناتِ والمَعدُوداتِ والمكِيلاتِ[2]، أمّا الحقُّ فأصلُهُ المُطابقَةُ والمُوافقَةُ، كمُطابقةِ رِجْلِ البابِ في حَقِّهِ لِدَوَرانهِ على الاستقامةِ[3]، والحقُّ يُقالُ على أوجهٍ: الأوّلُ: يُقالُ لِموجِدِ الشّيءِ بسببِ ما تقتضيهِ الحكمةُ، ولهذا قِيلَ في اللّه تعالى: هو الحقُّ. والثّاني: يُقالُ لِلمُوجَدِ بِحَسَبِ مُقتَضى الحِكمَةِ، ولِهذا يُقالُ: فِعْلُ اللّه تعالى كُلُّهُ حقٌّ، نحو قولِنا: الموتُ حقٌّ، والبعثُ حقٌّ. والثّالث: في الاعتقادِ لِلشّيءِ المُطَابقِ لما عليهِ ذلك الشّيءُ في نفسِهِ، كقولِنا: اعتقادُ فُلانٍ في البعثِ والثّوابِ والعقابِ والجنّةِ والنّارِ حقٌّ. والرّابع: لِلفعلِ والقولِ بحسَبِ ما يَجِبُ وبقَدرِ ما يَجِبُ، وفي الوقتِ الّذي يَجِبُ، كقولِنا: فِعلُكَ حقٌّ وقولُكَ حقٌّ، قالَ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس: 33][4]. والحقُّ ثابتٌ لا يتغيَّرُ، ونقيضُهُ الباطلُ، ونقيضُ العدلِ الظّلمُ؛ إذ بانتفائِهِ يحدثُ الميلُ. فالحقُّ هو الوجود على الوجهِ المُطابقِ للحقيقةِ، أمّا العدلُ فهو الوجودُ على مُقتَضى الحقِّ والاستحقاقِ.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عدل).
(2) الرّاغب، المفردات: (عدل).
(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (الحقّ).
(4) الرّاغب، المفردات: (حقق).

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨﴾ [يونس: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ألزمَهُم مُوسى بقوّةِ الاحتجاجِ عدلُوا إلى البهتانِ واللّجاجِ

مُناسبةُ الآيةِ لِما قبلَها أنّ الله تعالى لمّا ذكَرَ إنكارَ مُوسى عليه السلام: ﴿أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾، فبيّن أنّهُ ليسَ سِحرًا على وجهِ التّأكيدِ والإلزام، بَيَّنَ أنّهُم لم يَثْبُتوا أمامَ حُجَّتِه، بل "عَدَلُوا عَن جوابِهِ إلى الإخبارِ بِما يَتَضَمَّنُ أَنَّهُم لا يُقِرُّونَ بِحَقِّيَّتِه؛ لأنّهُ يَلزَمُ عَن ذَلِكَ تَركُ مَا هُم عليهِ مِنَ العُلُوِّ، وهُم لا يَترُكونَهُ، وأوهَمُوا الضُّعَفاءَ أنّ مُرادَهُ عليه السلام الاستكبارُ، مُعَلِّلِينَ لِاستِكبارِهِم عَن اتِّباعِهِ بما دَلَّ على أنّهُم لا مَانِعَ لَهُم منهُ إلّا الكِبرُ، فقالَ تعالى حِكايةً عنهُم: ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: مُنكِرِينَ عليهِ مُعَلِّلِينَ بِأمرَينِ: التَّقليدِ، والحِرصِ على الرِّئاسَةِ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِتَلۡفِتَنَا﴾: "لفتَه، يَلفته، لفتًا: لواهُ على غيرِ جهتِهِ، واللّفتُ: لَيُّ الشَّيءِ عن جهتِهِ، كما تقبضُ على عنقِ إنسانٍ فتلفته. (و) يُقالُ: اللّفتُ: الصّرفُ، يُقالُ: لفتَهُ عنِ الشّيءِ يلفتُهُ لفتًا: (صرفَهُ)... قالَ الفرّاءُ: اللّفتُ: الصّرفُ"[2]، و(لَفَتَ) أصلٌ يدلُّ عَلَى اللَّيِّ وَصَرفِ الشَّيءِ عَن جِهَتِهِ المُستَقِيمَةِ[3]، لَفَتَ وجهَهُ عَنِ القَومِ: صَرَفَه، والتَفَتَ التِفاتًا[4]، يُقالُ: لَفَتَهُ عن كذا: صَرَفَهُ عنهُ، قالَ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾؛ أي: تَصرِفَنَا[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/172.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (لفت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لفت).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (لفت).
(5) الرّاغب، المفردات: (لفت).

2) ﴿ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾: (كبر) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الصِّغَرِ، وَالكِبْرُ: العَظَمَةُ، وكَذَلِكَ الكِبرِيَاءُ[1]، والكِبرِيَاءُ: التَّرفُّعُ عنِ الانقيادِ، وذلك لا يستحقُّهُ غيرُ اللّه تعالى، فقالَ: ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الجاثية: 37]، ورُوِيَ عنهُ ﷺ يقول عنِ اللّه تعالى: «الكبرياءُ رِدَائي والعَظَمَةُ إزارِي، فَمَن نَازَعَني في واحدٍ منهُما قَصَمتُهُ»[2]، وقالَ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: 78][3].

❁ المَعنَى الإجماليُّ:

إصـرارُ قـومِ مُوسى على إنكارِ رسالتِهِ والكفرِ بها في استكبارٍ وصَلَفٍ

يخبرُ اللّه تعالى عن تمامِ المُحاورة، فقالَ فِرعونُ وقومُهُ لِمُوسى: "إنّما جئتَ إلينا قاصدًا أن تصرِفَنا عن دينِ آبائِنا، وتقاليدِ قومِنا؛ لكي نصيرَ لكما أتباعًا، ويكونَ لكَ ولأخيكَ المُلكُ والعظمةُ والرّياسةُ المُسيطِرةُ المُتحكِّمةُ؟ وإذن فلن نؤمنَ بكُما، ولا برسالتِكُما"[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفصلِ في سياقِ الآيَة:

مُـراعـاةُ فصلِ الجملِ؛ لِتداولِ أطرافِ الخطابِ الكلام

الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ افتُتِحَت بفعلِ القولِ؛ لأنّها سِيقَت على طريقِ المحاورة، فالكلامُ يدورُ بينَ القائلِ ومجيبيه، فلا يَلزمُ العطف؛ لأنّ الكلامَ مُتَّصلٌ بالجوابِ والحوارِ الحضوريِّ، أو أنّهُ استئنافٌ بيانيٌّ "مَسوقٌ لبيانِ أنّهُ ﷺ ألقمَهُمُ الحَجرَ فانقطَعُوا عنِ الإتيانِ بكلامٍ لهُ تعلّقٌ بِكَلامِهِ ﷺ، فضلًا عنِ الجَوابِ الصّحيحِ، واضطَرُّوا إلى التّشبُّثِ بذيلِ التّقليدِ الّذي هو دَأْبُ كُلِّ عاجزٍ مَحجُوجٍ، ودَيدَنُ كُلِّ مُعانِدٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبر).
(2) أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب البرّ والصّلة، الحديث رقم: (2620).
(3) الرّاغب، المفردات: (كبر).
(4) جماعة منَ العلماء، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 300.

لَجُوجٍ، على أنّهُ استئنافٌ وَقَعَ جوابًا عمّا قبلَهُ مِن كلامِهِ ﷺ... كأنّهُ قِيلَ فماذا قالُوا لِموسى ﵇ عندما قالَ لَهُم مَا قالَ؟ فَقِيلَ: قالُوا عاجِزينَ عنِ المُحاجَّةِ: أجِئتَنا..."(1).

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ ﴿قَالُوٓاْ﴾:

إيضاحُ القرآنِ لِمَضامينِ المُحاجَجَةِ بينَ مُوسى وقومِهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾ عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ عن جوابِهِم لِمُوسى ﵇ بالفعلِ الماضي المُسنَدِ إلى واوِ الجماعةِ، ﴿قَالُوٓاْ﴾ إبرازًا لأقوالِهِم، لِمَا لها مِن أهمّيّةٍ؛ إذ إنّها تحكي مَا واجهُوا بهِ الحقَّ، وتبيّنُ أثرَها في الخطابِ والمُحاجَجَةِ، وقد قالُوا لهُ: "إنّما جئتَ إلينا قاصدًا أن تصرِفَنا عن دينِ آبائِنا، وتقاليدِ قومِنا؛ لكي نصيرَ لكما أتباعًا، ويكونَ لك ولأخيك المُلكُ والعظمةُ والرّياسةُ المُسيطرةُ المُتحكِّمةُ؟ وإذن فلن نؤمنَ بكُما ولا برسالتِكُما"(2).

الغرضُ مِنَ الاستفهامِ في ﴿أَجِئۡتَنَا﴾:

إذا استولى الجهلُ على الجهلةِ ظنُّوا الباطلَ حقًّا

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ دلَّت همزةُ الاستفهامِ على إنكارِهِم لغايةِ مجيءِ مُوسى إليهِم، فالاستفهامُ إنكاريٌّ؛ حيثُ "بَنَوا إنكارَهُم على تَخطِئَةِ مُوسى فيما جاءَ بهِ، وعلى سُوءِ ظَنِّهِم بهِ وبهارونَ في الغايةِ الّتي يَتَطَلَّبانِها ممّا جاءَ بهِ مُوسى"(3)، فالاستفهامُ البيانيُّ تعبيرٌ عن حالِ المُكابرينَ، إذ يستفرغونَ بهِ حُججَهُم المتهافتةَ، لِيبرّروا إصرارَهُم على كفرِهِم وعنادِهِم.

الغرضُ مِنَ المجازِ في ﴿لِتَلۡفِتَنَا﴾:

تقليدُ الآباءِ في عبادةِ الأصنامِ جمودٌ لِلعقلِ واختلالٌ لِلميزانِ

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ جاءَ استعمالُ الفعلِ (لفتَ) في غايةِ البلاغةِ، فهو مُستعمَلٌ مَجازًا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/169.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 300.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/251.

"في التّحويلِ عنِ العَمَلِ أو الاعتِقادِ إلى غيرِهِ تحويلًا لا يَبقى بعدَهُ نَظَرٌ إلى ما كانَ يَنظُرُهُ"[1]، فالفعلُ (لفتَ) يحكي حقيقةَ ما انطوَت عليهِ قلوبُهُم، مِن أنّهُم حينَ لم يتّبِعُوا الحقَّ، إنّما كانَ ذلكَ مِن أجلِ المُكابرةِ، ومُراعاةً للتَّمسُّكِ بدينِ آبائِهِم، وليسَ لأنّهُ الأجدرُ بالاتّباعِ.

استعمالُ أزمنةِ الأفعالِ، يَستوعِبُ القصّةَ والحوارَ والجِدالَ

دلالةُ تجاورِ الفعلَين في ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ تَجاورَ الفعلُ الماضي مع الفعلِ المضارعِ، وهما قولُهُ: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾؛ تأكيدًا لِمَجيئِهِ لغايةِ أن يلفتَهُم، مع الدّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، فيكون المرادُ أنّ مَجيئَهُ ثابتٌ مُقرَّرٌ ومَقطوعٌ بِهِ لتلكَ الغايةِ المُتجدِّدةِ.

تهمةُ النّياتِ دونَ مُدارسةِ الأدلّةِ سبيلُ المُنهزمينَ

دلالةُ اللّامِ في ﴿لِتَلۡفِتَنَا﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ أدخلَ النّظمُ الكريمُ لامَ التّعليلِ على الفعلِ ﴿لِتَلۡفِتَنَا﴾؛ تعليلًا لِلمَجيءِ؛ أي: أجئتَ لهذا الغرضِ، فأنكروا عليه مَجيئَهُ لهذهِ العلّةِ. وهذا مِن خبثِ طويّتِهِم؛ إذْ هُم مَن قرَّرَ له غايتَهُ، ولم يلتفتوا إلى مَقصدِهِ، فساقوها مَساقَ الكلامِ المُسلَّمِ بِهِ، مُوجِّهينَ لَهُ السّؤالَ التّقريريَّ مع الإنكارِ عن هذهِ العلّةِ، وكأنّها لَيسَت مجالَ شكٍّ، أو في مَوضِعِ إنكارٍ ونفيٍ.

التّعريضُ بالتّقليدِ الأعمى واتّباعِ الآخرينَ مِن غيرِ دليلٍ

دلالةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿وَجَدۡنَا﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعلِ ﴿وَجَدۡنَا﴾ دليلًا على أنّ دينَهُم يُؤخذُ لا مِن علمٍ، بل بالتّقليدِ، فهُم ألفَوْا آباءَهُم على دينٍ، فهُم لَهُم تَبَعٌ، فهُم يَستندونَ على التّقليدِ، ولا يَستحونَ مِن اتّباعِ ما لا دليلَ عليهِ[2]، وهذا يدُلُّ على شدَّةِ تعلُّقِ الأبناءِ بتقليدِ الآباءِ، وهو هنا تقليدٌ سلبيٌّ مَقيتٌ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/251، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/91.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/172.

إرثُ الكفرِ شاهدًا عن شاهدٍ، يُؤكِّدُ رسوخَهُ في العقائدِ

دلالةُ الحرفِ ﴿عَلَيْهِ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ عَبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بحرفِ الاستعلاءِ (على)؛ لِلدّلالةِ على أنّ آباءَهُم كانُوا مُتمسِّكِينَ بدينِهِم الّذي ورثُوهُ عنهُم، فهُم مُتمكِّنونَ من ذلكَ، فالإتيانُ "بحرفِ (على) لِلدّلالةِ على تَمَكُّنِ آبائِهِم من تلكَ الأحوالِ ومُلازَمَتِهِم لَها"[1].

الكلامُ عنِ الاعتقادِ مُقدَّمٌ لأهمِّيّتِه، ومُراعاةُ ذلك مِنَ البلاغةِ القويّةِ

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

في قوله تعالى: ﴿لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ قَدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ على المفعولِ بهِ، فلم يقُلْ: (لِتلفِتَنَا عَمَّا وَجدنا آباءَنا عليهِ)؛ لأنّهُ هو الأهمُّ، إذ هو المقصودُ بسياقِ الحديثِ والمُجادلةِ، وليسَ السّياقُ في الحديثِ عنِ الآباءِ، بل عنِ الدّينِ والتّوحيدِ، فكانَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ المُتضمّنِ الضّميرَ المعبِّرَ عن طريقةِ آبائِهم أولى مِن تقديمِ المفعولِ بهِ.

يُعرَفُ الرّجالُ بالحقِّ، ولا يُعرَفُ الحقُّ بالرّجالِ

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿ءَابَآءَنَا﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ قد جَعلُوا قَوْلَ آبائِهم الضّالّينَ حُجّةً، يردّونَ بها الحقَّ الّذي جاءَهُم بهِ مُوسى عليه السلام، ومِنَ الحكمةِ: إنّ الرّجالَ يُعرَفونَ بالحقِّ، ولا يُعرَفُ الحقُّ بالرّجالِ، وحاصلُ كلامِهِم " أنّهُم قالُوا: لا نَترُكُ الدِّينَ الّذي نحنُ عليهِ، لِأنّا وَجدْنا آباءَنا عليهِ، فَقَد تَمَسَّكُوا بالتّقليدِ، ودَفعُوا الحُجَّةَ الظّاهِرةَ بمُجرَّدِ الإصرارِ"[2]، "وتلك هي علّةُ الجاهلينَ، وداءُ السُّفهاءِ والحمقى... التَّمسُّكُ بالقديمِ، وعقدُ القلوبِ عليهِ، وإنْ كانَ بلاءً وشرًّا...لأنّهُم أعفوا عقولَهُم مِنَ النّظرِ والتّفكيرِ، ورضُوا بما استقرَّ فيها مِن كُلِّ غَثٍّ وزيفٍ..."[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/252.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/287.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1058.

كانَ البلاغُ من مُوسى وهارونَ، فناسبَهُ الرّدُّ بتوجيهِ الخطابِ إليهما

المُرادُ مِن ضميرِ التَّثنيةِ في ﴿لَكُمَا﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾ خاطبَ الملأُ مُوسى وهارونَ ، وإنْ كانَ المُتكلّمُ معهم مُوسى وحدَهُ؛ ولكنَّهُم أجرَوُا الخطابَ لِكليهما؛ لِلدّلالةِ على أنّ مَضمونَ الكلامِ، وهو طلبُهُمُ الكبرياءَ والمُلكَ، كائنٌ مِن مَجموعِهما؛ إشعارًا بأنّ هذا أمرٌ دُبِّرَ بينَهُما.

اتّهامُ الحقِّ بالأباطيلِ، والصّدودُ عن الإيمانِ بالمراوغةِ والتّضليلِ

دلالةُ العطفِ في قولِه: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾ مَعطوفٌ على الجملةِ في قولِه جلّ شأنُهُ: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾؛ أي: أنّهُم قالُوا ذلكَ وقالُوا هذا[1]، فكلتا الجُملتينِ مِن قولِهم، كما يُوحي أنّ الجملةَ الثّانيةَ تقعُ مَوقِعَ النّتيجةِ للأولى، فلمّا قرّرُوا أنّهُم إنّما جاؤوا طلبًا لِلكبرياءِ بَنَوا على ذلك انتفاءَ إيمانِهم.

نفيُ الإيمانِ في الحاضرِ والمُستقبلِ، مِن سفهِ الرّأيِ وسُوءِ التّقديرِ

نكتةُ إيثارِ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالجملةِ الاسميّةِ، ولم يقُلْ: (وَمَا نُؤۡمِنُ لَكُمَا)؛ لأنّ الجملةَ الاسميّةَ تدُلُّ على الثّباتِ واللّزومِ، وكون مضمونها مُؤكّدًا، فلمّا جاءَت مَنفيّةً دلَّ على أنّ النّفيَ فيها جاءَ لتأكيدِ انتفاءِ إيمانِهم، "نَفَوْا عن أنفسِهم صفةَ الإيمانِ نفيًا مُؤكّدًا، وكانَ ذلك: أوّلًا: بذكرِ الضّميرِ الدّالِّ على التّعظيم. ثانيًا: بالجملةِ الاسميّةِ، وقولُهُ: (لَكُمَا) لامتناعِ التّسليمِ، بل إنّهُم مُناوِئونَ غيرُ مُستسلِمينَ، بل هُم مُنصرِفُونَ"[2].

المبالغةُ في نفيِ الإيمانِ عنهم، دليلٌ على أنّ إيمانَهُم مَيؤوسٌ منهُ

غرض المبالغةِ في ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ أن يأتيَ النّفيُ بالجملةِ الاسميّةِ الدّالّةِ على التّأكيدِ، مع تأكيدِ النّفي

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/173.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/173.

بالباءِ في الخبرِ ﴿بِمُؤۡمِنِينَ﴾، مُبالغةً في النّفي، تأكيدًا لِتمسُّكِهِم بدينِهِم مهما جاءَتهُم الآياتُ؛ ارتماءً في بَراثِنِ التّقليدِ، وقَطعًا لأملِ مُوسى عليه السلام بإيمانِهِم لِما رأوا مِن قوّةِ حُجَجِهِ، ووضوحِ صدقِهِ، فأكَّدُوا رغمَ ذلك أن ليسَ هناك مَطمَعٌ في إيمانِهِم.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ٧٩﴾ [يونس: 79]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استمرار فرعون في بثّ الأوهام

قولُ فرعونَ فيهِ تلبيسٌ وإيهامٌ على أنَّ ما جاءَ بهِ مُوسى إنّما هوَ سحرٌ، يمكنُ أنْ يعارضوهُ بسحرٍ مثلهِ؛ منعًا للنّاسِ عن اتّباعهِ، فعطفَ قولَ فرعونَ هذا على ما سبقَ منْ قولهِ: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾؛ أي: مِنَ السّحرِ بزَعْمِهم[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿سَٰحِرٍ﴾: أصلُ (سحر) يدلُّ على خَدْعٍ وشِبْهِهِ[2]، وحقيقةُ السِّحْرِ صَرْفُ الشَّيءِ عن حَقيقَتِهِ إلى غَيْرِهِ، فكأنَّ السَّاحِرَ لَمَّا أرَى الباطلَ في صُورَةِ الحَقِّ، وخَيَّلَ الشّيءَ على غيرِ حَقيقَتِه، قَدْ سَحَرَ الشَّيءَ عَنْ وَجْهِهِ؛ أي: صَرَفَهُ[3]. تَقول العَرَبُ للرَّجُلِ: مَا سَحَرَكَ عَن وَجْه كَذَا وَكَذَا؟، أي: ما صَرَفَك عَنهُ؟[4]، والسِّحْرُ: الأُخْذَةُ. وكلُّ ما لَطُفَ مَأْخَذُه ودَقَّ، فَهُوَ سِحْرٌ، والجَمْعُ: أَسحارٌ وسُحُورٌ، ورجلٌ ساحِرٌ مِنْ قَوْمٍ سَحَرَةٍ، والسِّحْرُ: البيانُ في فِطْنَةٍ[5]، والمقصود بـ ﴿سَٰحِرٍ﴾ في الآيةِ: مَن يَعمل السِّحْرَ، ويُزاوِلُه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الظَّالمون لا يفتؤون عن مقاومة دعوة المُصلحين

يُخبِرُ اللهُ تعالى بأنَّ فِرعونَ قد قال لِمَلَئِه بعد أنْ يئس مِن إلزام موسى بالقول: اعملوا على دفع حُجَّته بالفِعل، جِيئوني مِنَ المدائِنِ بكلِّ ساحرٍ مُتقِنٍ للسِّحرِ[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/173.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سحر).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (رهق).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/241، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/287، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/143.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ وإنْ كانتْ للعطفِ إلّا أنّها لا تقتضي ترتيبًا ولا تعقيبًا، لما تقرّرَ في معاني الحروفِ أنّها تفيدُ الجمعَ مطلقًا[1]؛ فهذا القولُ ليسَ مُرتّبًا على سابقِه؛ فإنّهُ واقعٌ في ابتداءِ القصّةِ، والغايةُ: بيانُ ذِكْرِ القصّةِ على وجهِ العمومِ، لا بقصدِ التّرتيبِ[2].

المقصودُ بيانُ ذِكْرِ القصّةِ لا بقيْدِ ترتُّبِها

الآيةُ معطوفةٌ على قولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧٦﴾ [يُونُس: 76] فهيَ جوابٌ ثانٍ للحرفِ (لمّا)، فقدْ حكَى أوّلًا نفْيَ فرعونَ أنْ تكونَ دعوةُ مُوسى حقًّا من اللهِ، ثمَّ حكَى رميهُ تلكَ الدّعوةَ بالسّحرِ إثباتًا على قُدْرتِهمْ على أنْ يأتوا بمثلِها؛ فإنَّ تحصيلَ مثلِ هذهِ الأسبابِ مِن وظائفِ فرعونَ، لما فيه مِنَ الأمرِ لخاصَّةِ الأُمَّةِ بالاستعدادِ لإبطالِ ما يُخشَى منه[3].

فرعون يحشد لمواجهة موسى بعد رَمْيه بالسِّحر

سِرُّ توحيدِ الفِعلِ ﴿وَقَالَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ وَحَّدَ الفعلَ هنا بعدَ أن كانَ مُسندًا للجَمعِ في الآيةِ الّتي عطفَ عليها؛ المبدوءةِ بـ ﴿قَالُوٓاْ﴾ [يونس: 78]، وسرُّ توحيدِ الفعلِ أنّ الأمرَ من خصائصِ فرعونَ[4] لا يُشاركهُ فيه أحدٌ، وهذا شأنُ الجبابرةِ الظّالمينَ، الّذين لا يرون إلّا ذَوَاتِهم، ولا يسمعون سوى صوتِ أنفسِهم.

الانفراد بالأمر سلوكٌ فرعونيٌّ وكذلك كلّ الطُّغاة

نكتةُ التّصريحِ باسمِ فرعونَ:

نُكْتَةُ التّصريحِ باسمِ ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ أنّهُ لمّا شعرَ بخطورةِ دعوةِ مُوسى عليه السلام على مُلكِه، تصدّى للأمرِ بنفسِه؛ بعدما خيَّلَ للنَّاسِ زُورًا وبهتانًا

بيان خداعه لهم بادّعاء الألوهيَّة وطاعتهم له

(1) ابن يعيش، شرح المُفصَّل: 7/5.
(2) الصّاويّ، حاشية على الجلالَيْن، ص: 818.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/253.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/169.

واستخفافًا بعقولهم السَّاذَجة أنّهُ إلهٌ، ويعني ذلك: أنَّه إذا جاءَ الأمرُ مِنَ الإلهِ فالاستجابة حتمًا ستكون على الفور بلا تَراخٍ، وهوَ ما حصلَ؛ فقدْ جيءَ بالسّحرةِ في الوقت الذي حَدَّده فرعون(1).

علّةُ نسبةِ إتيانِ السَّحرةِ إليه:

الأمرُ من وظائفِ فرعونَ، بوصفه إلهًا عندهم

وقد أُسند الفعل إلى فرعون وَحْدَه؛ لأنَّ الأمر مِن وظائفه هو دونَ الملأ من قومه، وهذا بخلاف الأفعال السَّابقة مِنَ الاستكبار ونحوه، فإنَّها مما تُسنَد إليه وإلى مَلَئِه(2).

دلالة الأمر:

ألزمهم فرعون بالفعل بعدَ اليأسِ مِن إلزامهم بالقولِ

وفي أمرِ فرعونَ لِمَلَئِهِ أن يأتوهُ بالسّحرةِ الحاذقينَ، دلالةٌ على إرادتهِ أنْ يُرتِّبَ أُسُسَ إلزامِ موسى وهارون عليهما السلام بالفعلِ، بعدَ أنْ يئسَ مِنْ أن يُلزِمَهُما بالقولِ(3)، إذِ السِّحر - من وجهة نظرِهِ القاصرة - لا يُمكن أن يُواجَهَ بغير السِّحر، ومِنَ السَّحرة الحاذقين، لا من ضعفائهم قليلي الحيلة، ولذلك نجد السَّحرةَ أنفسَهم يُؤكِّدون في موضع آخر على ضرورة التَّكافؤ في قوّة السِّحر: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [طه: 58].

الإلهُ الحقّ غيرُ مُفتقِرٍ إلى غيره:

الاستعانة بالسَّحَرَة عجزٌ ينقضُ ألوهيَّته المزعومة

وفي أمرِ فرعونَ لقومهِ بأن يأتوهُ بالسّحرةِ الحاذقينَ الماهرينَ، دلالةٌ تَنقضُ ادِّعاءهُ الألوهيّةَ من قولِه: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: 38]، فإنّ أمرَهُ ذاكَ دالٌّ على احتياجهِ لهم، ولا يجوزُ أن يكونَ الإلهُ في حاجةٍ إلى غيرهِ، فإنّها صفاتُ نقصٍ.

إيثارُ لفظِ الإتيانِ دونَ المجيءِ:

الإتيانُ المجيءُ بسهولةٍ، ويُقالُ باعتبارِ القصدِ

في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي﴾ آثرَ التّعبيرَ بفعلِ الإتيانِ

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6142.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/169، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/156.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/169.

دونَ فعلِ المجيءِ، معَ تقاربهما في المعنى؛ لأنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولةٍ، ويُقال باعتبار القَصْدِ[1]، وكلاهُما مُتحقّقانِ في أمرِ فرعونَ لملئه وسَحرتهِ؛ فلا أحدَ يعصي قولَه، وما كان لمغرورٍ مثلِه أن يقول بغير الإتيان، إذْ فيه تأكيدٌ لسطوته وقُوَّته، وإنّ قصْدَهُ بادٍ جليٌّ في معارضةِ مُوسى والغَلبةِ عليه، فضلًا عن أنّ الأمر بالإتيان قيل باعتبار القَصْد إلى أن يأتوا بهم، ولم يجيئوا بهم بعدُ، ولو تحقَّق لعبّر بفعل المجيء.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾:

سحرةُ فرعونَ أداةٌ يستعينُ بها في استدفاعِ دعوةِ مُوسى جهلًا أو عنادًا

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ دالّةٌ على الاستعانة[2]، فإنّ سَحَرَتهُ الّذين طلبهُم همُ الأداةُ التي استعانَ بها في مُعارضةِ مُوسى في دعوتِه إلى اللهِ، واستدفاعًا لها، ظنًّا منه أنّها مِنَ السّحرِ، أو عنادًا ومكابرةً.

إيثارُ لفظِ (كلّ) دونَ (جميع):

شملَ كلَّ السَّحَرة ليتعاونوا؛ ولكي لا يفوته شيءٌ مِنَ السِّحْر

آثرَ لفظَ ﴿بِكُلِّ﴾ دونَ (جميع) في قولِه تعالى: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾؛ طلبًا للتّعاونِ فيما بينهم، ولئلّا يفوتَه شيءٌ مِنَ السِّحر بتخلُّفِ البعضِ[3]، فإنّه أرادَ السّحرةَ الحاذقينَ كلَّهم، بحيث يُعضِّدُ بعضُهم بعضًا، لدلالة (كلّ) على الشُّمولِ والاستغراق؛ إذِ العمومُ في هذهِ الجملةِ عمومٌ عُرفيّ؛ فإنّ طَلبَهُ دالّ شاملٌ كلَّ ساحرٍ يعرفونهُ ويَظفرونَ به، أو أُريدَ به معنى التّكثير[4]، ظنًّا منه أنّها تنفعُهُ في استدفاعِ ما جاءَ به مُوسى مِنَ البيِّناتِ، وتسكينٌ لقلقِ نفسه، وتطمينٌ له في مواجهته المُرتقَبة.

سِرُّ التّعبيرِ عنِ السّحرةِ باسمِ الفاعلِ مفردًا:

قصدَ كلَّ السّحرةِ الرَّاسخين في عِلمهم، البارعين فيه

في قولِه: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ عبرَّ باسمِ الفاعلِ ﴿سَٰحِرٍ﴾؛ لأنّهُ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 212.

(2) وهو من أشهر معانيها، كقولك: كتبتُ بالقلم، وعملَ النّجار بالقَدّوم...، ونحو ذلك. ينظر: المُبرّد، المُقتَضَب: 1/39.

(3) النَّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 8/111، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 743.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/253.

أرادَ كلّ منْ لهُ إلمامٌ وعلمٌ بالسّحرِ، وكلّ منْ هوَ ماهرٌ بهِ، أي: كلّ منْ هوَ قادرٌ على حملِ السّلاحِ في هذهِ المعركةِ[1]، وهو سلاحُ السّحرِ؛ فإنَّ لفظ ﴿سَٰحِرٍ﴾ يعمُّ مَن كانَ لهُ إلمامٌ بالسّحرِ، ومَن هوَ بارعٌ فيه، راسخٌ في عِلْمه.

توجيه قراءة قوله تعالى: ﴿سَحَّارٍ﴾:

الـدّلالـةُ على المبالغةِ مناسبةً لقَصْدِ فرعونَ إلى الانتصار

وقُرئ قولُه: ﴿سَٰحِرٍ﴾ بصيغةِ ﴿سَحَّارٍ﴾ على وزنِ (فَعّال)، وهي قراءةُ حمزةَ والكسائيّ وخَلَفٍ[2]، وهذه الصِّيغةُ دالَّةٌ على المبالغةِ وتكرارِ الفعلِ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، ثمّ إنّه دالٌّ على المُضيّ[3]، أي: أنّه مارَسَ السّحرَ وباشَرهُ وخَبِرهُ؛ فصارَ ضليعًا به، وهو مناسبٌ لقصدِ فرعونَ الّذي كانَ حريصًا على تهيئةِ الظّروفِ المناسبةِ للانتصارِ على مُوسى.

إيثارُ (العليم) لفظًا وصيغة:

قَـصْـدُ السّاحرَ المتقِنَ للسّحرِ العليمِ به

وفي التّعبير بـ ﴿عَلِيمٍ﴾ وصفًا لـ﴿سَٰحِرٍ﴾؛ لقصد فرعون أن يكونَ المدعوُّ لمواجهة موسى ساحرًا واسعَ العلم، راسخًا فيه، متميّزًا بالإتقانِ للسّحرِ والعملِ فيه[4].

وفي التّعبير بـ ﴿سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ أمرَ فرعونَ كانَ مُقتصرًا على كبارِ السّحَرةِ ورموزهم في مصر آنذاك، فهم أبصرُ بدقائقه، وأقدَر منْ غيرهِمْ على أنْ يُظهروا من القُدراتِ ما يفوقُ خوارقَ مُوسى - حسب تقدير فرعون ومَن استخفه من قومه - والتّعبيرُ بـ ﴿عَلِيمٍ﴾ مانعٌ من قدوم سَحَرَةٍ لا يكونُ عملهُمْ مكافئًا لما يُظهرهُ مُوسى؛ لأنَّ فشلَهمْ ترويجٌ لدعوةِ مُوسى بينَ عامَّةِ الأمّة[5].

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/133.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/270.
(3) ابن خالويه، الحُجّة في القراءات السّبع، ص: 160، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/333.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/382.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/253.

صيغةُ (فَعِيل) في قولِه (عَلِيمٍ) لإفادةِ المبالغةِ

في قولِه: ﴿عَلِيمٍ﴾ صيغةُ مبالغةٍ زِنةُ (فَعِيل)[1]، فَوَصْفُ السّاحر بالعليم دالٌّ على مبالغتِه، أي: أنّهُ عليمٌ بالسّحرِ، كثيرُ العلمِ بأنواعِه وعملِه[2].

توجيهُ المُتشابهِ اللَّفظيّ:

تعاظُم خوفِ فرعونَ هو الدَّافع لطلب السَّحرة

تتشابه الآية هنا مع قولِه تعالى: ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢﴾ [الأعراف: 112]، وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾، ووجهُ التّشابهِ بينَ الآيتينِ: هو خِتام الآيتين بقولِه: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾، والفرقُ بينَ التّعبيريْنِ أنَّ القائلينَ في سورةِ الأعرافِ همُ الملأُ منْ قوم فرعونَ، أمّا في هذهِ الآيةِ؛ فالقائلُ هوَ فرعونُ نفسُه، وسرُّ ذلكَ أنّهُ أرادَ أن يأخذَ معارضةَ مُوسى على الغايةِ مِنَ الأهميّةِ والجدِّ؛ فكانَ الأمرُ صادرًا منهُ، وفيهِ إيذانٌ بالخوفِ والهَلعِ مِنْ دعوةِ مُوسى، حتَّى تصدّى لهُ بنفسِه.

التّعبيرُ بـ ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ في الموضعين:

وقولُه: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ في يونسَ مناسبةً لقولِه: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾ [يونس: 77] قبلَه، أمّا في الأعرافِ فمناسبةً لقولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩﴾ [الأعراف: 109][3].

الفروقُ المُعجَميَّةُ:

عليم وخبير وحكيم:

العليمُ: القَويُّ العِلْم، وهو في أسمائه تعالى دالٌّ على أكمل العِلْم، أي: العِلْم المحيطِ بكلِّ معلوم. والخَبير: أخصُّ مِنَ العَليم؛ لأنّه مُشتقٌّ من خَبرَ الشَّيء؛ إذا أحاطَ بمعانيه ودخائله؛ ولذلك يُقال: خبرتُه، أي: بلوتُه وتطلَّعتُ بواطنَ أمرِه.

(1) سيبويه، الكتاب: 1/110.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/122.
(3) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/204.

والحكيمُ: وَصْفٌ مِنَ الحِكمة، وهي مُنتهى العِلْم، أو مِنَ الإحكام: وهو إتقان الصُّنع[1].
وناسَبَ طلبَ فرعونَ السَّحرةَ المُتقنين المحيطين بهذا العِلْم لفظُ ﴿عَلِيمٍ﴾؛ سعيًا إلى غَلَبَة موسى عليه السلام.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/197، و28/354.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ٨٠﴾

[يونس: 80]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا أحسَّ فرعون بالخطر الـمُحدِق به، قرَّر الاستعانةَ بالسّحرة؛ لمعارضة معجزة موسى ومقاومة دعوته، فأمر بإحضار حُذّاق السّحرة وأمهرهم، من كلّ حَدَبٍ وصَوْب؛ ليُظهرَ للنّاس أنّ ما أتى به موسى نوعٌ مِنَ السّحر، الّذي يريد أن يسْحَر به النّاس ليتّبعوه، فيَصدَّ النّاسَ عنِ اتّباعه، باعتبار أنّه ساحر[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَلْقُواْ﴾: أصلُ (لقي) يَدلُّ على طَرْحِ شَيْءٍ[2]، واللَّقَى: الشَّيْءُ الـمُلْقى الـمَنْبُوذ[3]، والإِلْقَاءُ: طَرْحُ الشَّيء حيث تلقاه، أي: تراه، ثمَّ صارَ في التَّعارف اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[4]، ويُطلَقُ على الإفضاءِ بالكلام: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [الشُّعراء: 223]، وعلى حُصُولِ الشَّيءِ في النَّفْسِ كأنَّ مُلقيًا ألقاهُ، أي: مِنْ غير سَبْقِ تهيُّؤ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: 64][5]، والمُراد بالإلقاء في الآية: رَمْيُ شَيءٍ في اليَدِ إلى الأرْضِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ثقة المؤمن بربِّه تجعله مُطمئنًّا بنصره

لـمَّا جاء السَّحرةُ، قال لهم موسى: اطرَحوا على الأرضِ ما تُريدون طرحَه، ممّا مَعَكم مِنَ الحِبالِ والعِصِيِّ، بعد أن خيَّروه بينَ

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/240.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (لقى).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 4/123.

أنْ يُلقِيَ ما عندَه أوّلًا، أو يُلقوا ما عندَهم، كما جاء ذلك في سورتي الأعراف وطه؛ ليَظْهَرَ الحَقُّ ويُبطلَ الباطل[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الوَصْلِ بالفاءِ:

عَطَفَ مجيءَ السَّحرةِ، وقولَ مُوسى لهم على جملةِ (وقالَ فِرْعَوْنُ)

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ من بابِ العطفِ؛ فقدْ عطفَ هذه الجملة على ما سبقَها[2] من قولِه: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي﴾، فوصلَ مجيءَ السّحرةِ بقولِ فرعونَ بالفاءِ، ودلالةُ ذلكَ اتِّصالُ هذهِ الجملةِ معَ سابقتِها اتّصالًا وثيقًا؛ لأنّ الأُولى أمرٌ، وهذهِ جوابُ الأمرِ فلا انفصالَ بينهُما.

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَلَمَّا﴾:

الفاء للتَّعقيب أفادت أنَّ الأمر على الفور لا على التَّراخي

والفاءُ في: ﴿فَلَمَّا﴾ هي فاءُ التّعقيبِ المؤذِنةُ بسرعةِ الاستجابةِ في إحضارِ السّحرةِ، بعدَ أن جاءَ الأمرُ من فرعونَ بإحضارهم؛ فَسُرعَةُ التّعقيبِ تُماثِلُ الإسراعَ بالشّيءِ المأمورِ به[3].

فإذا لمْ يمكنْ عَطْفُ هذهِ الجملةِ على سابقتِها، واقتضى التّركيبُ كلامًا مُقدّرًا يستدعيهِ المقامُ، فهيَ الفاءُ الفصيحةُ المؤذِنةُ بسُرعةِ امتثالِهمْ لأمرِ فرعونَ؛ فالمقامُ لا يَحْتَمِلُ كلامًا آخرَ؛ لسُرعةِ إجابتِهم، والتّقديرُ: فأتَوا بكلّ ساحرٍ؛ فلمّا جاؤوا[4] قالَ: ألقوا.

بلاغة حذف المعطوف:

حَذَفَ إتيانَهم بالسَّحَرة واستغنى عنه بدلالة السّياق

في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ حَذْفُ مُرَتَّبٌ على أمرِ فرعونَ بأن يُؤتَى بكلّ ساحرٍ، فتقديرُ الكلامِ بعدَ أمرِ فرعونَ: (فأتَوا بهم إليه)[5]، فَحَذَفَهُ لضآلةِ جدواهُ، وهوانِ مغزاهُ في الغايةِ الّتي

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/241، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/367، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/143.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/253.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/253.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/169.

(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/529.

سيقتِ القصّةُ لأجلها، ففي السّياقِ ما يُغني عنهُ، ويدلّ عليهِ عقلًا ولفظًا؛ تحقيقًا للإيجازِ[1].

التّعبيرُ عنِ المجيءِ بالماضي:

امـتـثـلـوا أمـرَ فرعونَ، وجُمعَ السّحرةُ لمواجهة مُوسى

وعبَّر بالفعلِ الماضي في قولِه: ﴿جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ دلالةً على امتثالِهم لأمرِ فرعونَ وجمعِهم السّحرةَ[2]، وذلك لما يُؤدّيهِ الفعلُ الماضي مِنَ التَّحَقُّقِ والوقوعِ؛ معارضةً لمُوسى عليه السلام بسحرِهم.

سرُّ إيثار التّعبير بـ (المجيءِ) دونَ (الإتيانِ):

فعلُ المجيءِ دالٌّ على الحصولِ، فمَجيءُ السّحرة واقعٌ لا محالة

أُوثِرَ التّعبيرُ بفعلِ المجيءِ في قولِه: ﴿جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ دونَ الإتيانِ؛ لما في الفعلِ ﴿جَآءَ﴾ من دلالةِ الحصولِ[3]، أي: إنَّ مجيئَهُمْ حاصلٌ لا محالةَ بلا تباطؤٍ، وكيفَ لا يكونُ كذلكَ والآمِرُ فرعونُ الإلهُ بزعمهِ - لعنه اللّه -، ومن دِقّة النَّظم القرآنيّ التَّعبيرُ عنِ القصد بالإتيان، وعنِ التَّحقّق بالمجيء.

دلالةُ (أل) في لفظ: ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾:

الـسّـحـرةُ المطلوبونَ هم المـذكـورون بالوصف

التّعريف في قولِه: ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾ دالٌّ على التّعريفِ العهديّ الذِّكريّ، والمعنى: أنّهم السّحرةُ المطلوبونَ الموصوفونَ[4] في أمرِ فرعونَ، وأنَّ مِن صفاتِهم كيتَ وكيتَ، في قولِه: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾.

وجهُ جمعِ: ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾:

أرادَ فرعونُ أن يأتوهُ بجميعِ السّحرةِ في أرضِ مصرَ

و﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾ جمعُ مُكسّرٌ، مفردهُ (ساحرٌ)، وجاءَ به جمعًا، وهو مِن جموع الكَثْرة على وزن (فَعَلَة) كـ(خَدَمَة)؛ لأنّه أرادَ كلَّ مَنِ اجتمعتْ فيهِ هذهِ الصّفةُ، وهيَ السّحرُ في أرض مصرَ[5]، وهم كثيرون آنَذاك، فطَلَبهم على كَثرتهم، وحضروا بعديدهم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/254.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/174.

(3) الرّاغب، المفردات، ص: 212.

(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/382، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/254.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/174.

وجهُ الفصلِ بالقولِ:

الجري على طريقةِ القولِ في المحاورةِ دفعًا لتكرارِ العاطفِ

الفصلُ في فعلِ القولِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾، يجري على طريقةِ المحاوَرةِ؛ فلم يَعْطِفْ دَرءًا لتكرارِ العاطفِ، فَفِعْلُ القولِ يَرِدُ مُكرَّرًا مثلَما تقتضيهِ المحاوراتُ، نحو: (قالَ:...، وقلتُ:...)، وهو أسلوبٌ عربيّ فصيحٌ يَطَّرِدُ في آيِ التّنزيلِ، في تعويضِ فعلِ القولِ مِن أدواتِ العطفِ.

بلاغةُ تقديمِ شِبهِ الجملةِ ﴿لَهُم﴾ على الفاعلِ:

اختصّهم بالكلامِ لأنّهم الْمُلْقُونَ لا غيرَهُم

بلاغةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ هنا ﴿لَهُم﴾ مُتوجّهٌ إلى الاختصاصِ، فمعنى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ أي: لهُم لا لغيرِهم، فهُم المعنيّونَ بالإلقاءِ لا يتعدّاهُ إلى غيرِهم.

نُكْتَةُ التّصريحِ بالفاعلِ مقابلَ حَذْفِ فرعونَ:

ليسَ في الآيةِ ذِكرٌ لنداءِ السّحرةِ مُوسى وتخييرِهِمْ لهُ فأظهرهُ

وصرّحَ بالفاعلِ في قولِه: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ وأظهرَ اسمَ مُوسى؛ لأنّهُ لم يَرِدْ "ذِكْرٌ لنداءِ السّحرةِ إيّاهُ وتخييرِهم له"[1]؛ فرامَ إبرازَهُ دفعًا لما يُتوهّمُ أنّهُ ليسَ هو القائلَ؛ لأنّ قولَه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ جوابٌ لطلبِ فرعونَ، فلو لم يُظْهِر اسمَ مُوسى لتُوهِّمَ أنّ القائلَ هو فرعونُ.

دلالةُ فعلِ الأمرِ ﴿أَلْقُواْ﴾:

الواثق بنصر ربّه تتملّكه الثّقة

فعلُ الأمرِ ﴿أَلْقُواْ﴾ في الآيةِ دالٌّ على التّسويةِ على إرادةِ الاختيارِ، وبيانِ عدمِ المبالاةِ وقلّةِ الاهتمامِ لأيٍّ مِنَ الأمرينِ[2]، بأنْ يبتدئوا همْ بالإلقاءِ، أو يكونَ هوَ البادئَ؛ فالأمرُ عندَهُ سواء.

سحرُهم حقيرٌ بالنسبةِ لمعجزة مُوسى عليه السلام

يدلّ فعلُ الأمرِ على الاحتقارِ؛ لأنّ ما جئتُم به مِن سحركُم صغيرٌ وحقيرٌ بالنِّسبةِ إلى ما جاءَ به مُوسى عليه السلام منَ المعجزاتِ[3].

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/57.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/254.

(3) الدّسوقيّ، حاشية على مختصر المعاني: 2/414.

إيثارُ لفظِ (الإلقاء):

فعلُ الأمرِ ﴿أَلْقُواْ﴾ مِنَ الإلقاءِ، ومعناهُ: طَرْحُ الشّيءِ حيثُ تجدهُ، أي: تراهُ وتَعْثُرُ عليهِ، ثمّ غدا الإلقاءُ اسمًا مُتعارفًا عليهِ لكلِّ طرحٍ[1]؛ فوردَ على لسانِ مُوسى عليه السلام في مقاولتهِ سَحَرَةَ فرعونَ.

الإلـقـاءُ طـرحُ الـشّيءِ حيثُ تـراهُ، ثـمّ صارَ في العرفِ اسمًا لكلِّ طَرْحٍ

وحقيقةُ الإلقاءِ أنْ ترميَ ما في اليدِ إلى الأرضِ، وفي التّعبيرِ عنْ عملِ السّحرِ بلفظِ الإلقاءِ تناسُبٌ في الهيئةِ والمعنى؛ فإنَّ أكثرَ تصاريفِ السّحرةِ في ما يصنعونَ من سحرٍ، يكونُ برَميهِم الأشياءَ على الأرضِ[2]؛ ليَسْحروا أعينَ النّاسِ ويَسترهبوهُم، كقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ٦٦﴾ [طه: 66].

الإلـقـاءُ رمـيُ الأشـيـاءِ إلى الأرضِ، وهو أكثرُ تصاريفِ السّحرة

إيثارُ التّعبيرِ بالموصولِ ﴿مَآ﴾:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بـ ﴿مَآ﴾ في قولِه: ﴿مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾؛ لأنّهُ قصدَ بهِ العمومَ البدليَّ، على تقديرِ: (ألقوا أيَّ شيءٍ تُلقونهُ)، وفي ذلكَ زيادةٌ في إبداءِ عدمِ اهتمامِهِمْ بما جاءَ بهِ أولئكَ السّحرةُ، وتوطئةٌ للملأِ الموجودينَ، بأنَّ الحقَّ سبحانَهُ سيُبطلُ سحرَهَمْ على يدِ مُوسى عليه السلام[3].

إظـهـارُ عـدمِ الاكـتراثِ بسحرِهِم تهيئةً لـلـحـاضـريـنَ بأنّ اللهَ مبطلٌ عملَهم

سرّ الإتيانِ بالضّميرِ المُنفصلِ:

السِّرُ في الإتيانِ بالضّميرِ المُنفصلِ ﴿أَنتُم﴾ هو إظهارُ قِلَّةِ الاكتراثِ بهم؛ والاستِطالةُ عليهم، وعدَمُ المُبالاةِ بهم، والتَّخسيسِ لشأنهم، وتقليلُ منزلتهم على كَثْرتهم وعُلوّ كَعْبهم في عِلْمِ السّحر، وللإعلامِ بأنَّهم وما سيفعلونه لا يَسْتَحِقُّ الالتفاتَ إليه.

الـسَّـحـرةُ وسِـحْـرُهـم لا يستحقانِ الاكتراثَ

وجهُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ على صيغةِ الجمعِ:

وجاءَ باسمِ الفاعلِ المجموعِ جمعَ مذكرٍ سالمًا في قولِه: ﴿مُّلْقُونَ﴾

في قولهِ (مُلْقُونَ) إشـارةٌ إلى رسـوخِـهِـم في صنعةِ إلقاءِ ما يتعاطونهُ مِنَ السّحرِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/156.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/254.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/254.

في سياقِ الجملةِ الاسميّةِ؛ إشارةً إلى ثباتِهمْ ورسوخِهمْ وعراقتِهم في صُنعةِ إلقاءِ ما يتعاطَونَهُ مِنَ السّحرِ[1]، وعلى كثرة ما سيُلقُونه مِن سحرٍ، ويستعملونه مِن أدواته.

نُكْتَةُ إبهامِ المُلقى:

الـغـرض مِـن طَـيِّ ذِكْـرِ صورة سحرهِمْ وصفُ إعـراضِ فرعونَ ومَلَئِه

في قولِه: ﴿مُّلۡقُونَ﴾ إبهامٌ وتعميةٌ بطَيِّ ذِكْرِ سِحرِهِمْ هاهنا؛ فإنَّ الغايةَ مِنْ إيرادِ ذلكَ وصفُ إصرارِ فرعونَ ومَلَئِهِ على الصَّدِّ عنِ الدّعوةِ، وما كابَدَهُ المستضعفونَ الَّذينَ آمنوا بمُوسى، ثمّ ما كانَ مِن عاقبتِهم الحُسنى؛ فإنَّ هذا أهمُّ في هذا المقامِ من ذكْرِ سحرةِ فرعونَ، وما كانَ مِنِ انهزامِهمْ واندحارِ سِحْرِهِمْ أمامَ معجزةِ مُوسى عليه السلام[2]. وفي إبهامِ المُلْقَى وتعميَتِه إشارةٌ إلى أنّ الّذي جاؤوا به حقيرٌ لا يُعتدّ به، وليسَ له قيمةٌ ولا اعتبارٌ، وليسَ أهلًا لأَنْ يُلقَى إليهِ بالٌ، ولا ينبغي الالتفاتُ إليه[3]، وهذا دليلٌ على أنّ مثل هذا يكون مِنَ الأمور التي لا يجب الخوضُ فيها، والسُّؤالُ عنها؛ إذْ هي عِلْمٌ لا يَنفع، وجهلٌ لا يَضرّ.

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ: ﴿أَلۡقُواْ﴾ و﴿مُّلۡقُونَ﴾:

توكيدُ الإبـهـامِ زيادةٌ في التّحقير

في قولِه: ﴿أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ تلوينٌ لفظيٌّ في الخطابِ يُسمّى الجناسَ، وهو ينتمي إلى جناسِ الاشتقاقِ[4]، والغرضُ منه "حُسْنُ الإفادةِ معَ أنّ الصّورةَ صورةُ التّكريرِ والإعادةِ"[5]، ففي ﴿مُّلۡقُونَ﴾ عودٌ على ﴿أَلۡقُواْ﴾، وفيه نوعٌ مِن توكيدِ الإبهامِ، غرضُه: زيادةُ التّحقيرِ والتّخسيسِ لما يُلقونَ، وأنّه ممّا لا يُؤْبَهُ له، ولا يُهْتَمُّ به.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/174.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/255.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/92، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/174.
(4) ضربٌ بديعيّ بأن ترد كلمتان مختلفتان حرفًا متفقتان أصلًا واشتقاقًا. يُنظر: العَلويّ، الطّراز لأسرار البلاغة: 2/187.
(5) الجُرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 17.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

آيةُ يونسَ قائمةٌ على الإيجازِ، وآيتا الشُّعراءِ على التّفصيلِ

قال تعالى في سورة [يونس: 80 - 81]: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٨٠ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ﴾، وقال في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٤٣ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ [الشعراء: 43- 44]، والسُّؤال: لمَ خُصّتْ كلُّ آيةٍ بما وردَ فيها بعدَ طلبِ مُوسى أن يُلقوا ما هم ملقونَ؟ والجوابُ عن ذلكَ؛ أنّ الواردَ في سورةِ يونسَ سياقٌ قائمٌ على الإيجازِ في ذِكْرِ سحرةِ فرعونَ - فلم يذكر المحاورة كما ذكرها في سورة الشعراء في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: 41- 42] - ولهذا الإيجاز الحاصل في سورة يونس في الانتقال إلى حدث الإلقاء مباشرة، ناسبه أن يُوجز ويحذف مفعولَ ﴿أَلْقَوْاْ﴾، أمّا سياقُ آيتي الشُّعراء فمبنيٌّ على إظهار توالي الأحداثِ، والتَّفصيلِ بما يتعلّقُ بالسّحرةِ، فذكرَ المفعولَ ﴿حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ [الشعراء: 44].

إظهارُ فرعون في سورة الأعراف بوصفه المقصودَ من مجيئهم

إظهار المفعول ﴿فِرْعَوْنَ﴾ في: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝١١٣﴾ [الأعراف: 113] دليلٌ على أنّه المقصودُ مِن مجيئهم، فهو المكافئُ لهم إنِ انتصروا، والمنعِمُ عليهم إن غَلبوا وأظْهَروه؛ لأنّ مَلْمَحَ سورةِ الأعراف التَّفصيلُ، أمّا هنا فاستغنى بالمذكور عن التَّصريح بفرعون بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾؛ لأنّ مَلْمَح سورةِ يونس الإيجازُ؛ فالمقطع مِن قصّة موسى عليه السلام جاء بعد إشارةٍ قصيرةٍ إلى نبأ نوحٍ وقومه، تتبعُها لمحةٌ عامّةٌ عنِ الرُّسل مِن بعد نوح، وموقفِ قومِهم منهم، ولذلك نجدها لا تتناول مِنَ التَّفاصيل إلّا القدرَ الّذي يرتبط بموقف فرعونَ ومَلَئِه من موسى، والمصيرِ الّذي لاقاهُ هؤلاءِ نتيجةً لإعراضهم عنِ الدّعوة وتكذيبِهم بها.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

أَلْقى ورَمَى وقَذَفَ:

يُصرِّفُ السَّحرة أعمالَهم بـ رَمْي أشياءَ إلى الأرض

الإلقاءُ: رَميُ شيءٍ في اليد إلى الأرض، ومنه الإلقاء على عمل السِّحر؛ لأنَّ أكثر تصاريفِ السَّحرة في أعمالهم السِّحريَّة يكون برَمي أشياء إلى الأرض.

والرَّميُ: حقيقته إلقاءُ شيءٍ أمسكَتْه اليدُ، ويُطلق على الإصابة بسُوءٍ مِن فِعْلٍ أو قولٍ[1]، ويُختصُّ في الأصل بالأشياء المحسوسة، ويُستعار للقذف بالزِّنا والإثم والخطيئة.

والقَذْفُ: الرَّميُ البعيد؛ ولاعتبار البُعد فيه قيل: مَنْزِلٌ قَذَفٌ وقَذِيفٌ، وبَلْدَةٌ قَذُوفٌ: بعيدة. واستُعيرَ القَذْفُ للشّتْم والعَيب، كما استُعيرَ الرَّمي[2]. ولمّا كان أسلوبُ السَّحرةِ طرحَ أعمالِهم السِّحريّةِ أرضًا، ناسبَ لفظُ الإلقاء الّذي يعني رَميَ شيءٍ في اليد إلى الأرض.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/254، و9/294.
(2) الرّاغب، المفردات: (قذف).

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ٨١﴾ [يونس: 81]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أثر في النَّاس إلقاؤهم ما ألْقَوْا

لَمّا طلبَ منهم مُوسى أنْ يُلقوا ما بأيديهم أوَّلًا، أجابَهُ السّحرةُ؛ ووقعَ منهم الإلقاءُ بِحِبالِهِمْ وعِصِيِّهِمْ جوابًا لمقالته، وسحروا أعينَ النّاسِ بما أفسدَ عقولَهُم وزلزلَها[1]، وما علموا أنّه تعالى مُبطِلٌ صنيعَ المفسدينَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾: أصلُ (بطل): يدُلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ وقِلَّةِ مُكْثِه وَلُبْثِهِ. وسُمِّيَ الشَّيطانُ: الباطِلَ؛ لأنَّهُ لا حَقيقَةَ لِأَفْعالِه، وكُلُّ شَيءٍ منه فلا مَرْجُوعَ له، ولا مُعَوَّلَ عليه[2]. والإبْطالُ: التَّضييعُ وَالإهْدارُ[3]. والبطل: الشجاع، قال أصحاب هذا القياس سُمّي بذلك لأنه يُعَرِّضُ نفسه لِلْمَتالِف[4]. وهو صحيح، يقال: بطل بين البطولة والبطالة.

والإبْطالُ والبُطْلانُ: إفْسادُ الشَّيءِ وإتْلافُه، سَواءٌ كانَ حَقًّا أو باطِلًا[5]، تَقُولُ: بَطَلَ الدَّوَاءُ إذا فَسَدَ وَتَلِفَ وذَهَبَ ضَياعًا وخُسْرَانًا. والمقصود بالإبطال في الآية: إظهارُ أنّ السِّحرَ تخييلٌ وليس بحقيقةٍ؛ لأنَّ إظهار ذلك إبطالٌ لما أُريد منه[6].

2) ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: أَصْلُ الفَسَادِ: الخُرُوجُ عنِ الاِعْتِدالِ[7]، يُقال:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/174.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطل).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بطل).
(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطل).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (بطل).
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/256.
(7) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (فسد).

فَسَدَ الكَلامُ، أيْ: خَرَجَ عن حَدِّهِ. وضِدُّه: الصَّلاحُ[1]، والفَسَادُ في الأرضِ هَيجُ الحروب والفِتَن؛ لأنَّ في ذلك فسادَ ما في الأرض، وانتفاءَ الاستقامة عن أحوال النَّاس والزَّرع والمنافع الدِّينيّة والدُّنيويَّة[2]. والمقصود بالمفسدين في الآية: السَّاعون في أرض اللّه بما يكرهه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّوكُّل على الله تعالى من صفات المؤمن القويِّ

لَمَّا طرحوا ما عندهم مِنَ السِّحر قالَ لهُم مُوسى عليه السلام: إنَّ الَّذي جِئتُم به وألقَيتُموه هو السِّحرُ عينُهُ، إنَّ اللّه سيُصيِّر ما صنعتم باطلًا لا أثر له، فإنَّه لا يُصلِحُ أعمالَ الَّذين يَسعَونَ في الأرض بما يَكرَهُه، فلا يُتِمُّها لهم فينتَفِعونَ بها، ولا يُثيبُهم عليها[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَلَمَّآ﴾:

المجاوبة بين الطَّرفين تقتضي التَّرتيب والتَّعقيب

الفاءُ في: ﴿فَلَمَّآ﴾ هي الفاءُ الدّالَّة على العطف والتّعقيبِ والتَّرتيب، نتيجةَ المجاوَبة والمقاوَلة بينَ الطَّرفَيْن، لطلب مُوسى عليه السلام أن يكونوا أوَّلَ المُلْقين[4].

بلاغةُ الوَصْلِ بالفاءِ:

الفعلُ موصولٌ عطفًا على محذوفٍ مُقدَّر

في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ﴾ جملةٌ موصولةٌ بما سبقهَا بالفاءِ العاطفة؛ فوصلَ فعلَ الإلقاءِ بكلام محذوفٍ مُتّصلٍ بما قبلَهُ تقديرُهُ: (فألقى السّحرةُ سِحرهُم أو ما عندَهم)[5]، وهذا المحذوفُ المُقدّرُ جوابٌ لطلبِ مُوسى؛ فالجُمَل متعالِقةٌ فيما بينها، شديدةُ الاتّصالِ.

(1) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (فسد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (فسد).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/244، والواحديّ، التّفسير البسيط: 11/279.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3621.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/335.

دلالة أداة الشَّرط ﴿فَلَمَّآ﴾:

رتّبَ الجوابَ ترتُّبَ المعلولِ على العِلّةِ

﴿فَلَمَّآ﴾ في الجملةِ أداةُ شرطٍ غيرُ جازمةٍ، وهيَ حرفٌ عندَ ابن هشام، ومنْ أنواعِها الدّخولُ على الفعلِ الماضي[1]، وتُسمّى (لَمّا الحِينِيَّة)؛ لدلالتِها على الظّرفِ، وتفيدُ تعليقَ الجوابِ على الشّرطِ؛ فإنّهمْ لَمّا ألقوا ما عندهُمْ قالَ لهمْ مُوسى قولتَهُ، وفعلُ القولِ جوابُ لَمّا[2]، فقدْ رتّبَ الجواب ترتُّبَ المعلولِ على العلّةِ.

نكتةُ صوغِ فعلِ الإلقاءِ ماضيًا، مجموعًا:

الإلـقـاءُ واقـعٌ حتمًا، وفِعلُ الجمع يفوق فِعلَ الأفرادِ

الفعلُ ﴿أَلْقَوْاْ﴾ دالٌّ على المُضِي، مُسنَدٌ لجمع السّحرةِ المُلْقِينَ، ودلالةُ صَوْغِهِ ماضيًا مجموعًا؛ أنَّ الإلقاءَ قدْ وقعَ منهُمْ بحِبالِهِمْ جوابًا لمقالتهِ[3]، والفعلَ الماضي يدلُّ على التّحقُّقِ والوقوعِ، ثمَّ إنَّ كونَهُ مجموعًا دالٌّ على حرصِهمْ على إرهابِ النّاسِ وزلزلةِ عقولِهمْ، وإخافةِ مُوسى، وإرضاءِ فرعونَ؛ فإنَّ عملَ الجَمعِ فائقٌ طبيعةَ عَمَلِ الأفرادِ.

حذفُ مفعولِ الإلقاءِ:

تنزيلُ فعلِ الإلقاءِ منْزلةَ اللّازم؛ لتأكيد الإلقاء والاعتبار بانتصار المُستَضعَفين

لفظةُ ﴿أَلْقَوْاْ﴾ فعلٌ وفاعلٌ حُذفَ مفعولُه، وسِرُّ حَذْفِ مفعولِه أنّهُ أرادَ تنزيلَ الفعلِ المتعدّي منْزلةَ الفعلِ اللّازمِ؛ فالغرضُ بيانُ الإلقاءِ فعلًا وفاعلًا، ولا يتعلّقُ الغرضُ بذِكْرِ المفعولِ وبيانِه، بلْ كانَ الغرضُ الاعتبار ممّا حصلَ منْ نُصرةِ اللّه المستضعفينَ الّذينَ آمنوا بمُوسى، وكيفَ ختمَ لهم الحقُّ سبحانهُ بحسنِ العاقبةِ[4].

وجهُ الإبهامِ في التّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾:

ما استُفْهِمَ عنهُ ليسَ جهلًا؛ بل احتقارًا وإنكارًا

وجهُ التّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾ الدّالّة على الإبهامِ في قولِه: ﴿مَا جِئۡتُم﴾،

(1) ابن هشام، مُغني اللبيب، ص: 369.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/335.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/174.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/255.

هوَ على تقديرِ: أيُّ شيءٍ جئتُم بِهِ ليسَ جهلًا؛ بل تحقيرًا وتصغيرًا لهم، وإنكارًا لما جاؤوا بِه[1].

أبهمَهُ لقصدِ الاهتمامِ بذِكْرِه والتّشويقِ إلى معرفةِ الخبرِ

ودلالة ﴿مَا﴾ على الإبهامِ في قولِه: ﴿مَا جِئۡتُم﴾، الغرضُ منه: الاهتمام بذِكْره، ثمّ جَعَل المخاطَب مُتشوِّقًا إلى معرفة الخبر[2].

بلاغةُ المجازِ في لفظِ المجيء:

الّذي يجيءُ بالشّيءِ يُظهِرُهُ في المكانِ الّذي حلَّ فيه

معنى قولِه: ﴿جِئۡتُم بِهِ﴾ أي: أظهرتموهُ لنا، وليسَ المُرادُ أنّهم أتَوا من أمكنةٍ أُخرى ومعهُم السّحرُ؛ لأنّهُ وإن كانَ حاصلًا معَ بعضِ منهُم، إلّا أنّهُ لا يَطّردُ في كلّ تعبيرٍ مُشابِه، فالتّعبيرُ بالمجيءِ ليسَ على وجهِ الحقيقةِ إذنْ؛ بل هوَ مجازٌ؛ فإنّ الّذي يجيءُ بشيءٍ يُظهرهُ في ذلكَ الموضعِ الّذي حلّ فيه[3].

دلالةُ الباءِ وَعَودُ ضميرِهِ في ﴿بِهِ﴾:

استعانوا بالسّحرِ طاعةً لفرعونَ ونُصْرةً لمذهبِهم الباطلِ

الباءُ في ﴿بِهِ﴾ دالّةٌ على الاستعانةِ بالسّحرِ؛ فإنّهمْ أظهروا سحرَهُمْ أمامَ مُوسى عليه السلام استعانةً منهمْ بِهِ في بيانِ مذهبِهمُ الباطلِ، ونصرةً لضلالهِمْ، وطاعةً لفرعونَ، والضّميرُ يعودُ على ﴿مَا﴾ بمعنى الّذي[4] المفسَّرِ بالسّحرِ.

سِرّ تقديمِ جملةِ المُسنَدِ ﴿مَا جِئۡتُم بِهِ﴾:

حَصْرُ السِّحْرِ بهِم، وقَصْرُه عليهِم

سِرُّ تقديمِ جملةِ: ﴿مَا جِئۡتُم بِهِ﴾ على ﴿ٱلسِّحۡرُۖ﴾ أنّهُ أرادَ معنى الحصرِ على القراءةِ المشهورةِ، أي: الّذي جئتُم بِهِ هوَ السّحرُ، ولا سِحْرَ غيرُهُ ممّا سمّاهُ فرعونُ وقومُه سِحرًا[5]، ولَمّا أُريدَ الحصرُ فإنّ المحصورَ ﴿ٱلسِّحۡرُۖ﴾ يكونُ مُتأخِّرًا، وغيرُ المحصورِ ﴿مَا جِئۡتُم﴾ يَتقدّمُ عليهِ.

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/368، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/174.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/255.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/255.
(4) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/135.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/543.

تعريفُ السّحرِ بيَن الجنسِ والعهديّة:

أوردَ لفظةَ ﴿ٱلسِّحۡرُ﴾ مُعرَّفةً، والتّعريفُ هنا للجنسِ، أي: عامٌّ في كلِّ ما يدخلُ تحتَ هذا الجنسِ، وهذا النّوعُ مِنَ التّعريفِ يُفيدُ القصرَ الإفراديَّ فضًّا لشراكتهِ مع سِحْرٍ آخَرَ، والمعنى أنَّ الّذي أتيتُمْ بهِ هوَ السّحرُ، لا الّذي ادّعاهُ فرعونُ مِن آياتهِ تعالى؛ فإنّهُ ليس سحرًا[1].

ما جئتُم بهِ هوَ السّحرُ لا الّذي ادّعاه فرعونُ بتَدْليسه

ويجوزُ في تعريفِ لفظةِ ﴿ٱلسِّحۡرُ﴾ تعريفًا جنسيًّا أن تكونَ إفادتُها لقصرِ الجنسِ على المُسنَدِ إليهِ قصرًا حقيقيًّا، فلا سحرَ غيرُه، أو يكون قصرًا للمبالغةِ[2]؛ فإنّهُ لشناعتهِ وتمويههِ وتلبيسهِ على النّاسِ، فكأنّه لا سحرَ أضرّ على النّاسِ منهُ.

بالَغَ في وَصْفِ سِحْرِهم لشَناعتِهِ وشِدّةِ ضَرَرِهِ

ويجوزُ في تعريفِ لفظةِ ﴿ٱلسِّحۡرُ﴾ أن يكون للعهدِ؛ لأنّهُ جوابٌ لكلامٍ سابقٍ هو قولُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧٦﴾ [يونس: 76] بالتّنكيرِ، وكلُّ لفظٍ يَرِدُ مُنكَّرًا أوّلًا يُعادُ مُعرَّفًا إذا كُرِّرَ، كقولكَ: وجدتُّ درهمًا، فتقولُ لهُ: أرني الدِّرهمَ، ولو نكّرتَهُ لكنتَ سائلًا عن درهمٍ غيرِه[3].

تعريفُ السّحرِ هنا للعَهدِ؛ لأنّهُ قد تقدّمَ مُنَكَّرًا

توجيهُ القراءةِ في (السِّحر):

لفظةُ ﴿ٱلسِّحۡرُ﴾ في الجملةِ خبرُ ﴿مَا جِئۡتُم بِهِ﴾، وهي قراءةُ عامّةِ القرّاءِ، فيما قرأ أبو عمرو وأبو جعفرٍ ﴿ءَآلسِّحۡرُ﴾ بالاستفهامِ[4]، على تقديرِ: أيّ شيءٍ أتيتُم بهِ؟ هل هو السّحرُ؟[5] وهو هنا على معنى التّوبيخِ والتّقريعِ[6]؛ أي: ماذا حملكُم على أن أتيتُم بهذا المُنكرِ المُسمَّى سحرًا؟.

قراءةُ الاستفهامِ دالّةٌ على التَّوبيخِ

وقراءةُ الخبرِ أقوى، فإنَّ مُوسى لمْ يكنْ يشكُّ في أنّهُ سحرٌ لا

لمْ يكنْ مُوسى يَشُكُّ في أنَّ ما رأى هو السّحرُ بعينِهِ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/156، والقونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/538.

(2) زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاويّ: 4/597.

(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/475، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/135.

(4) ابن الجزريّ، النّشر: 1/378.

(5) الفرّاء، معاني القرآن: 1/475.

(6) النّحّاس، معاني القرآن: 3/308.

حقيقةٌ، وليستْ بِهِ حاجةٌ للاستخبارِ عنْ حقيقةِ ما رأى، في كونهِ سِحرًا أمْ غيرَ ذلك(1).

﴿مَا﴾ بيَن الاستفهاميّةِ والموصوليَّة:

في الموصولة أُريدَ العمومُ، وفي الاستفهاميّة أُريدَ التّوبيخُ والتّحقيرُ

﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ﴾ مُتردِّدةٌ بينَ الموصوليَّةِ والاستفهاميَّةِ، فعلى قراءةِ الجمهورِ في لفظةِ ﴿ٱلسِّحۡرُۖ﴾ بهمزةِ الوصلِ تكونُ ﴿مَا﴾ موصولةً و﴿ٱلسِّحۡرُۖ﴾ عطفَ بيانٍ، والمعنى: الَّذي جئتُم به السِّحْرُ، مع ما تحمله ﴿مَا﴾ من دلالة العموم. وعلى قراءةِ أبي عمرٍو وأبي جعفرٍ ﴿ٱلسِّحۡرُۖ﴾ بهمزةِ الاستفهام تكونُ ﴿مَا﴾ استفهاميَّةً، وتكونُ كلمةُ ﴿ٱلسِّحۡرُۖ﴾ بيانًا لـ﴿مَا﴾ المُستَفهَم بها، والغرضُ: إظهارُ كمالِ شناعةِ فعلهِم، فيُرادُ منهُ التَّوبيخُ والتَّحقيرُ(2)، والمعنى: أنّهُ أمرٌ يستطيعهُ ويعرفُ حالَهُ كلُّ أحدٍ، ولا يتصدَّى له ذو عقلٍ وحِجًا(3).

نُكْتَةُ التّوكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ:

في التّوكيدِ زيادةٌ في إلقاءِ الرّوْعِ في نفوسهِم

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ تقعُ خبرًا لـ﴿مَا﴾ الموصولة على قراءةِ الجمهورِ، أي: إنّ الّذي جئتُم بهِ هوَ السّحرُ، وإنَّ اللّه سيبطلُهُ بمَا أتيتُ بهِ منَ الحقِّ واليقينِ(4)، وقدْ أكّدها بـ ﴿إِنَّ﴾ زيادةً في تخويفِهم، وإلقاءِ الهَلَعِ في نفوسِهِم(5).

توجيهُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ:

زيادة المهابةِ في نفوسِ المعانِدينَ

في إظهارِ اسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ زيادةٌ للمهابةِ وإدخالِ الخوفِ في نفوسِ المُعانِدينَ مِنْ قومِ فرعونَ وسَحَرَتِه، بما لهُ تعالى مِنْ صفاتِ الجلالِ والكمالِ من العلمِ والقدرةِ والإحاطةِ(6).

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/160.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/256، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/368.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/170.
(4) رضا، تفسير المنار: 11/382.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/256.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/174.

دلالةُ السِّين في ﴿سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾:

والسّينُ في قولِه: ﴿سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ دالَّةٌ على كَوْنِ السِّحْر حقيقةً واقعةً، إذْ لوْ كانَ باطلًا في أصلهِ لاستحالَ إبطالُه على الاستقبالِ[1]، كما تدلُّ سينُ الاستقبالِ هنا على القريب الأمد، وليس المتطاولِ بـ (سوف) أو بالمضارع المُجرّد. وفي ذلكَ إشارةٌ إلى دُنُوّ محوهِ وإبطالهِ، وحصولِ ذلكَ العلم لمُوسى عليه السلام إمّا وحيًا، أو بفعلِ سُنّتِهِ الكونيَّة؛ بأنّه تعالى لا يُصلحُ عملَ المفسدينَ[2].

سينُ الاستقبالِ مؤكِّدةٌ للسِّحر ومؤذِنةٌ بقُربِ إبطاله

ويجوزُ في سينِ الاستقبالِ هذهِ أن تكونَ دالَّةً على التَّأكيدِ، أي: إنّ الحقّ سبحانَهُ سيمحقُ السّحرَ ويُهلكهُ ولا يُبقي لهُ أثرًا، ويُصيِّرهُ باطلًا بما يُظهرُهُ على يَدَيْ مُوسى عليه السلام منَ الآياتِ البيِّنة المُعجزة[3].

إيثارُ لفظِ الإبطال:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الإبطالِ في قولِه: ﴿سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾؛ لأنَّ الإبطالَ معناهُ: الإظهارُ، أي: إظهارُ أنّهُ ليسَ حقيقةً، بلْ هوَ تخييلٌ وتصويرٌ؛ لأنَّ إظهارَهُ على هذهِ الهيئةِ إبطالٌ لما أُريدَ منهُ، فهوَ قائمٌ على فضحِ سِرّهِ، ومنْ ثَمَّ سيَبطلُ تأثيرهُ على النّاسِ[4].

إظهارُ السِّحْر على أنّهُ تخييلٌ إبطالٌ لتأثيره

عودُ الهاءِ في ﴿سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾:

الهاءُ في قولِه: ﴿سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ مفعولٌ للفعلِ يبطلُ وهوَ عائدٌ على السّحرِ[5]، وهوَ من بابِ إيقاعِ المُضمَرِ بعدَ ذكرِ الظَّاهرِ؛ تحليةً للَّفظِ، وإيجازًا للعبارةِ.

أُضمِرَ العائدُ تحليةً للَّفظِ وإيجازًا للعبارةِ

بلاغة الإطناب:

في قولِه: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾

تقرير الخطاب تمكينٌ للخبر في الأذهان، وإيقاعٌ للرُّعب في النُّفوس

---

(1) السّخاويّ، تفسير القرآن العظيم: 1/372، و(السّين) و(سوف) حرفان يخلّصان الفعل المضارع للاستقبال، و(السّين) أقرب وقوعًا من: (سوف)، يُنظر: السّيرافيّ، شرح كتاب سيبويه: 1/31.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/256.

(3) القنوجيّ، فتح البيان في مقاصد القرآن: 6/107.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/256.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/255.

نظمَ الكلامَ على طريقةِ بسطِ عنانِ الخطابِ، المُسمَّى عندَ البلاغيِّين بالإطنابِ[1]؛ فقدْ جعلَ فعلَ المجيءِ مُسنَدًا إليهِ، منْ غيرِ أنْ يكونَ مفعولًا لفعلِ الإبطالِ، وأنَّه جاءَ مُبهمًا، ثمَّ فسّرهُ بجُملة: ﴿جِئۡتُم﴾، ثمَّ بيّنهُ بعطفِ البيانِ؛ قصدًا إلى الاهتمامِ والتّشويقِ، ثمَّ مجيءِ المفعولِ ضميرًا للفعلِ ﴿سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾، فكلّ ذلكَ على خِلافِ مُقتَضى الظّاهرِ؛ لتتقرّرَ حقيقةُ السّحرِ، وتتمكّنَ في أذهانِ السّامعينَ والمُخاطَبينَ خيرَ تمكُّنٍ، ويقعَ الرُّعْبُ والهَلَعُ في نفوسِهِمْ[2].

دلالة تقديم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾:

لا يتحقّقُ نفيُ الإصلاحِ إلّا بتسليطِ أسبابِ بُطلانهِ عليهِ، حتَّى يكونَ تأثيرُهُ باطلًا

جُملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ مُقدَّمةٌ على جُملةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، والمرادُ منْ هذا التّقديمِ: أنّهُ لا يتحقّقُ نفيُ الإصلاحِ إلّا بتسليطِ أسبابِ بُطلانهِ عليهِ؛ حتّى يكونَ تأثيرُهُ باطلًا، وأنّ فسادَ أعمالِ أمثالِهِمْ هوَ إبطالُ أغراضِهِمْ منها، وفسادُها وإظهارُ بُطلانِها[3].

تكرارُ إظهارِ اسمِه الأعظمِ:

الكمالُ كلّهُ للهِ وحدَه ﷻ

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أعادَ إظهارَ الاسمِ الجليلِ، وعلّةُ هذا التّكرارِ هي إظهارُ الكمالِ كلّهِ له وَحْدَهُ تعالى في ملكوتهِ[4]، وفي تكرارِه - أيضًا - إلقاءٌ للرَّوعةِ، وتربيةُ المهابةِ[5].

سجَّلَ عليهم بالإفسادِ والإشعارِ بعلَّةِ الحكمِ

فلمْ يقلْ: (إنّ اللهَ لا يُصلحُ عملَكُم)؛ فهم المخاطَبونَ بذلكَ؛ وسرُّ ذلكَ تأكيدُ الإفسادِ عليهم، إذِ السِّحرُ مِنَ المفاسدِ الكبرى الموبِقَة، والإشعارُ بعِلّةِ الحُكمِ، أي: مُسوِّغِ الإبطالِ.

(1) ومعناه الاصطلاحيّ: "زيادة اللّفظ على المعنى لفائدة جديدة من غير تكرير، وهو وادٍ من أودية البلاغة، ولا يَرِد إلا في الكلام المُؤتلِف، ولا يُختصُّ بالمفردات، فمعناه لا يحصل إلّا في الأمور المُركَّبة". يُنظر: يحيى العلويّ، الطِّراز: 2/123.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/255.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/257.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/175.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/171.

دلالةُ النّفيِ بـ ﴿لَا﴾:

في قولِه تعالى: ﴿لَا يُصۡلِحُ﴾: ﴿لَا﴾ هنا نافيةٌ، فقدْ نفتِ الإصلاحَ، ونفْيُ الإصلاحِ يكونُ بالتّركِ والإهمالِ[1]، مثلَما يكونُ الإصلاحُ بالمَنْحِ والإعطاءِ، وقد يكون نفيُ الإصلاحِ بعدم إتمام العمل، وبأنْ يمحق تعالى بَرَكَتَه، ويُسلِّطَ عليه الدَّمارَ والبَوَارَ.

إذا نفى اللَّهُ إصلاحهَا فذلكَ بتَرْكِهَا وشأنَها

نُكْتَةُ التّعبيرِ عن نفيِ الإصلاحِ بالمضارعِ:

وجاءَ فعلُ الإصلاحِ المنفيُّ مضارعًا على معنى أنّهُ تعالى يتركهُمْ وإفسادَهُمْ، فإذا كانَ الإصلاحُ مضارعًا، بمعنى: التّجدُّدِ والدَّوامِ؛ فإنَّ نفيَ الإصلاحِ مُتعيَّنٌ فيهِ عدمُ الدَّوامِ وعدمُ الثَّباتِ، فيكونُ باطلًا زائلًا[2]، أي: إنّ نفيَه تعالى لإصلاح عمل المفسدين دائمٌ ومستمرٌّ، فلا بركةَ في أعمالهم، ولا توفيقَ في مآلاتها.

ما لم يُصْلحْهُ اللهُ لا يدومُ ولا يَثبتُ

بلاغةُ تضمين ﴿يُصۡلِحُ﴾ معنى (يرضى):

والمُرادُ من نفيِ إصلاحِ عملِ المفسدينَ في الآيةِ، أيْ: إنَّه تعالى لا يُؤيِّدُهُ، لا نفيَ جَعْلِهِ صالحًا، فأصلُ الإفسادِ لا يَصيرُ صلاحًا حتّى ينفيَ تصييرَها عن اللّه تعالى[3]، وقوله: ﴿لَا يُصۡلِحُ﴾ مضمّنٌ معنى (لا يرضى)[4]، أي: لا يرضى عملَ المفسدينَ ولا يُؤيِّدُهُ؛ بل يُبطلُهُ.

لا يَـرضى الله عملَ المفسدينَ ولا يُـؤيِّـدُهُ، بل يُبطلهُ

وجهُ الطِّباقِ بيَن ﴿يُصۡلِحُ﴾، و﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

وبينَ عــدمِ الإصــلاحِ في ﴿لَا يُصۡلِحُ﴾، والإفســاد في ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ طِباقٌ، فبَيْنَ الإصلاحِ والإفسادِ وشيجةٌ قائمةٌ على الضِّدِّيَّةِ في المعنى، وإنِ اختلفَ الأسلوبُ بيَن الفعليَّةِ والاسميَّةِ، "وعدمُ الإصلاحِ وإنْ لمْ يستلزمِ الإفسادَ، لكنْ بمعونةِ المقابلةِ

عدمُ الإصلاحِ لا يقتضي الإفسادَ، لكنْ حُملَ عليهِ بالمُقَابَلَةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/256.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/544.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/256.
(4) الزّركشيّ، البرهان: 3/342.

حُملَ عليهِ"[1]، فوُرُودُهُما في سياقٍ واحدٍ ممّا يخلعُ على العبارةِ نصاعةً بيانيَّةً.

وجهُ التّعليلِ في جملةِ الفاصلةِ:

تنازعُ الحقِّ والباطلِ والصَّلاحِ والفسادِ، والسّحرُ باطلٌ وفسادٌ لا يُصلحه الله

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ جملةٌ تعليليَّةٌ لما سبقَها، تندرجُ تحتَ قاعدةٍ عامَّةٍ وسُنَّةٍ من سُننه تعالى، في نزاعِ الحقِّ والباطلِ والصّلاحِ والفسادِ، والسِّحرُ مندرجٌ تحتَ بابِ الباطلِ والفسادِ، فالحقّ تعالى لا يجعلُ عملَ السَّحرةِ المفسدينَ صالحًا[2]؛ لكونه يُسبِّب الفسادَ والخرابَ في الأرض، فضلًا عن كونه يتعارض مع تعاليمه سبحانه وسُنَنِه وقوانينه في الأرض؛ الَّتي بلَّغها عن طريق الرُّسل.

علَّةُ تعريفِ (العملِ) بالإضافةِ:

الإفسادُ مُكتسَبٌ يتعاطونهُ نسجًا على مِنوالِهِمْ، وسَيْرًا على مُعتادِهِمْ

قولُه: ﴿عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ مركّبٌ إضافيٌّ مؤذِنٌ بفسادِ العملِ؛ "لأنَّهُ فِعْلُ مَن شأنُهُمُ الإفسادُ؛ فيكونُ نسْجًا على مِنوالهِمْ، وسِيرَةً على معتادهِمْ"[3] فالإفسادُ مُكتَسَبٌ ممّا يتعاطونه. فمغزى الإضافة التَّخصيصُ والتَّعيين، وفي ذلك انحرافٌ عن عموم العمل؛ بل هو العمل الَّذي يقوم به المفسدون.

سِرُّ إطلاقِ لفظِ العملِ على سِحرِهِم:

السِّحر وإن كان إفسادًا إلَّا أنَّه عملٌ يتطلَّب جُهدًا مِن صاحبه

في إطلاقِ لفظِ (العملِ) على السّحرِ الّذي أتَوا به إشارةٌ إلى هذا الجنسِ مِنَ العملِ؛ لأنّهُ يشملُ كلَّ منْ يَصدقُ عليهِ معنى الإفسادِ، والسِّحرُ داخلٌ فيهِ معَ مَن يقومُ بهِ منْ بابِ أوْلَى[4]، ويُشير اصطفاءُ لفظِ (العمل) أيضًا إلى أنَّ السِّحر ليس مجرّدَ فعلٍ عابرٍ؛ بل هو نشاطٌ مستمرٌّ يتطلّب جهدًا، وكَدًّا، وتخطيطًا.

---

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/539.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/382.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/256.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/529.

نُكْتَةُ إيثارِ لفظِ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

قصدُهُم تضليلُ عقولِ النّاسِ غرضًا لتسخيرِهِم

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بـ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ لأنّ القصدَ من أعمالِهم السَّيِّئةِ إضلالُ النّاسِ، وزلزلةُ عقولِهم؛ لغرضِ تسخيرِهِم وتعميَةِ أسبابِ الأشياءِ عليهم؛ فيكونوا كالأداةِ الطَّيِّعةِ بأيديهِم وتحتَ إمْرَةِ سِحْرِهم؛ فلا يَجِدُ الهُدى إلى أنفسِهم سبيلًا[1].

السِّحرُ مِن أسبابِ الفسادِ في الأرضِ

أُطْلِقَ على السَّحرةِ وَصْفُ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ لأنّ عملَهمُ السِّحرَ سببٌ عظيمٌ مِن أسبابِ الفسادِ في الأرضِ، وقد نعى عليهمُ القرآنُ بأنّهم يُفرّقون بهِ بينَ المرءِ وزوجِهِ؛ فَعَمَلُهم هذا الّذي اتَّخذوهُ مِهنةً يُعدُّ فسادًا وتخريبًا وشرًّا في الأرضِ، كما يفعلُ المُفسِدونَ[2].

وجهُ تعريفِ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

سحرهُمْ هوَ مِن عملِ المُفسِدينَ

الألفُ واللّامُ في ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ تُفيدُ الجنسَ لأجلِ التّعميمِ؛ إعلامًا للمُخاطَبِ بأنَّ ما يقومونَ بهِ من عملِ السّحرِ إنّما هو مِن جنسِ عملِ المفسدين[3] الّذي لا يرتضيه اللّه تعالى.

دلالةُ الجمعِ السّالمِ لـ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

الفسادُ عندَهم ثابتٌ دائمٌ، وهو فعلُ جماعتِهِم

في جَمْعِه ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ جمعَ مذكّرٍ سالمًا؛ دلالةٌ على الثُّبوتِ والدَّوام، أي: إنّ الفسادَ ثابتٌ عندَهم، لما يُعطيهِ الاسمُ من هذهِ الخاصّةِ[4]. ثمّ إنّ الجمع يدلُّ على أنّ الفساد والخَراب لا يقعان نتيجةً لأفعالِ فردٍ واحدٍ فحسبُ؛ بل تَقْوى وتتمكّن بتعاضُدِ مجموعةٍ مِنَ الأفرادِ عليها.

بلاغةُ حذفِ إلقاءِ مُوسى عصاهُ والْتِقامِ ما ألْقَوهُ:

فَضّلتِ السُّورُ الأُخرى إبطالَ السِّحْرِ، وأُوجِزَ هنا لهوانِهِ وحقارتِهِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾؛ على تقديرِ: فلمّا ابتلعتْ عصا مُوسى ما جاؤوا بِهِ مِن حبالِهم وعصيّهم جميعًا حالَ كونِها حيّةً؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/257.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/124.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/256.
(4) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/124.

أدركوا أنّهُ تعالى أبطلَ تلكَ الأعيانَ وأفناها، وأخبرَ تعالى هذا التّفصيلَ مِن إبطاله السّحرَ في سورٍ أخرى[1]، والغرض من الإيجاز في إيراد الحادثة هنا هو الدّلالة على حَقارة السّحر وهَوانه عند اللّه، والتّأكيد على إبطال عمل المفسدين.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/288.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨٢﴾ [يونس: 82]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

يُصلحُ الله عملَ المصلحينَ بتثبيتِ الحقِّ وتقويته وإظهاره

بعدَ أنْ بيّنَ تعالى أنّهُ لا يُصلحُ عملَ المفسدينَ، عطفَ عليهِ نقيضَهُ وهوَ إصلاحُ عملِ المُصلحينَ[1]، وإثباتُهُ وإظهاره وتقويته، بأوامرِهِ وكلماتهِ التّكوينيّةِ، ومُقتَضى مشيئتهِ التّشريعيَّةِ إلى رسلهِ ولو كره المفسدون المجرمونَ؛ كفِرعونَ ومَن شايعَهُ، ومَن سار على نهجه إلى يوم القيامة.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيُحِقُّ﴾: أصلُ (حقّ) يَدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[2]، فالحَقُّ: الثَّابِتُ، يُقالُ: حُقَّ لَهُ أن يَفعَلَ كذا، يَحِقُّ، حَقًّا، أيْ: ثَبَتَ. وضِدُّه: الباطِلُ[3]. ويأتي الحَقُّ بمعنى المَوجود، وضِدُّه: المَعدومُ. ويُطلَق على الواجبِ واللّازمِ، فيُقَال: يَحِقُّ عليك أن تَفعَلَ كذا؛ أيْ: يَجِبُ[4]. ويُستَعمَلُ بمعنى المُؤَكَّدِ المُتَيَقَّنِ. والحَقِيقَةُ: اليَقِينُ، وضِدُّها: الشَّكُّ[5].

2) ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: أصلُ اشتقاق الكلام مِنَ الكَلْم، وهو التَّأثير المدرَك بإحدى الحاسَّتين، فَٱلْكَلَامُ: مُدرَكٌ بحاسَّة السَّمع، والكَلْمُ: بحاسَّة البَصَر[6]، وَحقيقته: النُّطْقُ المَفْهُومُ، يُقَالُ: كَلَّمَ يُكَلِّمُ تَكْلِيمًا وكَلَامًا، أيْ: نَطَقَ نُطْقًا مَفْهُومًا، وقيلَ: أَصْلُ الكَلَامِ مِنَ الكَلْمِ، وَهُوَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/175.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (حقق).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حق).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (حقق).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (كلم)، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/73، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعريف، ص: 283.

الجَرْحُ والشّقُّ؛ لِأنَّه يَشُقُّ الأسْمَاعَ بِوُصُولِه إلَيْهَا، وَقِيلَ: لِأنَّه يَشُقُّ المَعَانِي[1]، وكلماتُ اللّه تعالى: حُجَجُه الَّتي جعلَها لعباده سلطانًا مُبينًا. والمراد بـ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ في الآية: الحُجَّة القويَّة.

3) ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: أصْلُ الكَلِمَةِ مِنَ الجَرْم، وهو: القَطْعُ[2]، وقِيل: أصْلُه الكَسْبُ، وفُلانٌ جَرِيمَةُ أهْلِه، أي: كاسِبُهُم، ومنه سُمِّيَ الذَّنْبُ جُرْمًا؛ لأنَّه كَسْبٌ لِصاحِبِه[3]. والْإِجْرَامُ: ارْتِكَابُ الْجُرْمِ؛ وَهُوَ الْإِثْمُ الْعَظِيمُ، وَأعْظَمُ بالإجرام الكفر[4]، يُقال: أجْرَمَ الرَّجُلُ: إذا ارْتَكَبَ ذَنْبًا أو جَنَى جِنايَةً[5]. وَالْمُجْرِمُ في اصْطِلَاحِ الْقُرْآنِ هو الْكَافِرُ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾ [المُطفِّفين: 29]، وهو المُراد هنا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يُصلح اللهُ عملَ المفسدين، بل يمحقُه ويُبطلُه

يُثبِّتُ اللّه الحقَّ الّذي جاء مِن عنده، ويُوضِّحُه ويُظهِرُه على مَن خالَفَه، بكَلِماته الكونيَّة، وكَلِماته التَّنْزيليَّةِ التي يُوحيها إلى رُسُله، ومِنها: الإخبارُ بإظهارِ الحقِّ وإعزازِه، ولو كَرِه ذلك الكافرون المُجرِمون من آل فرعون[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوَصْلِ بالعطفِ:

إثرَ إبطالِ الباطل يُحقُّ اللهُ الحقَّ ويُقوِّيهِ وينصرهُ ويثبتُ المعجزةَ

قولُه تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ﴾ جملةٌ موصولةٌ بما قبلَها، معطوفةٌ على قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾؛ فإنّ في إبطال الباطلِ نُصْرةً للحقّ، وتقويةً لهُ، وإحقاقًا وإثباتًا للمعجزة[7].

(1) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر في علم الوجوه والنَّظائر، ص: 523.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جرم).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهريّ، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/210.
(5) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جرم).
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/369، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/529، رشيد رضا، تفسير المنار: 11/382.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/257.

بيانُ إصلاحه عملَ المُصلحين هوَ إحقاقٌ للحقّ وإظهارٌ لهُ

والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلَها[1] من قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّـهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، فإنّ عدمَ إصلاحِ عملِ المفسدين من سَحَرَةِ فرعونَ ومَن مالأَهُ هو إصلاحٌ، وهو في حقيقتِه نُصرةٌ للحقّ وإظهارٌ وتثبيتٌ له.

إحقاقُ الحقّ توكيدٌ لنفي إصلاحِ عملِ المفسدينَ وتقريرٌ لهُ

وعطفُ جملةِ إحقاقِ الحقّ هنا هوَ في حقيقتِه توكيدٌ لنَفْي إصلاحِه عملَ المفسدينَ، وتقريرٌ لهُ على طريقةِ الإثباتِ؛ فقدْ جمعَ بينَ النَّفي: ﴿لَا يُصْلِحُ﴾، وبين الإثباتِ: ﴿وَيُحِقُّ﴾؛ لتقريرِ هذهِ الحقيقة[2]، وأنّه تعالى المصدرُ الوحيدُ لإحقاقِ الحقّ، وإبطالِ الفسادِ، وأنّ نفيَه إصلاحَ عملِ المفسدين وإثباتَ الحقِّ، إحقاقٌ لمنهجه، وترسيخٌ لسُنَنِه الكونيّة.

التّعبيرُ عن فعلِ الحقّ مضارعًا:

إحقاقُ الحقِّ وتثبيتهُ مستمرٌّ أمامَ الباطلِ حتّى قيامِ السّاعةِ

قالَ تعالى: ﴿وَيُحِقُّ﴾ فعلٌ بصيغةِ المضارعِ، أيْ: يُثبتُ الحقّ الّذي يأتي بِه الرّسلُ رحمةً للعالمينَ[3]، والتّثبيتُ بِه حاجةٌ إلى العملِ والحركةِ والتَّجدُّدِ، والمضارعُ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ؛ فهوَ متجدّدُ المعاني، وهكذا هو دأبُ الرُّسلِ ﷺ ومَنْ تبعهُمْ في إحقاقٍ دائمٍ مستمرٍّ للحقِّ معَ الباطلِ حتّى قيامِ السّاعةِ.

إظهارُ لفظِ الجلالةِ:

إظهارُ اسمِ الجلالةِ وحقّهُ الإضمارُ بغرضِ إلقاءِ الرَّوعِ والمهابةِ

أظهرَ الاسمَ الجليلَ في قولِه تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾، والمقامُ مقامُ إضمارٍ بعدَ أن ذَكَرهُ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وفي إظهارِه قصدٌ إلى إلقاءِ الرَّوعِ، وتربيةِ المهابةِ في نفوسِ المخاطَبينَ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/175.
(2) الطّباطبائيّ، الميزان: 11/111.
(3) مجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 4/128.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/170، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/257.

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلْحَقَّ﴾:

أوردَ لفظَ ﴿ٱلْحَقَّ﴾ مُعرَّفًا بالألفِ واللّامِ، والتَّعريفُ هنا للعَهْدِ؛ فالمرادُ بالحقِّ هنا: دينُ الإسلامِ المعروفِ عندَ المسلمينَ وغيرهِم، وهو مبثوثٌ بهذا الاسمِ في مواضعَ كثيرةٍ مِنَ القرآنِ الكريمِ[1].

التّعريفُ للعهدِ، فالمرادُ به دينُ الحقِّ وهوَ الإسلامُ

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ في ﴿وَيُحِقُّ﴾ ﴿ٱلْحَقَّ﴾:

بينَ ﴿وَيُحِقُّ﴾ و﴿ٱلْحَقَّ﴾ جناسُ اشتقاقٍ[2]، ودلالتُهُ: أنّ الأصلَ في مادّةِ الحقّ هوَ فعلُ الحقّ[3]، ونظيرُهُ قولُه ﷺ: «لا تَقُولُوا السَّلامُ على اللّه؛ فَإنَّ اللّه هُوَ السَّلامُ»[4]. وحاصل الجمع بينَ اللَّفظين في هذا الجناس: ديمومة إعلائه تعالى للحَقّ؛ فالحقّ ثابتٌ، وإحقاقُه مُتجدِّد مُستمِرٌّ.

الأصلُ في مادَّةِ (الحقّ) هوَ فعلُ الحقّ

في قولِه تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ نجد أنَّ محصولَ التّعليلِ هوَ محصولُ المُعلَّلِ نفسِه، وشأنُ العِلّةِ أن تكونَ خِلافَ ذلكَ، فإذا جاءَ التّعليلُ مُساويًا للفعلِ؛ فإنَّ القَصْدَ أن يكونَ إحقاقُ الحَقِّ لذاتِ الفعلِ، لا لغرضٍ آخرَ يعودُ عليه[5].

تعليلُ الإحقاقِ بالحقِّ

والتَّعليلُ بالمعلّلِ نفسِه في جملةِ ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ يتحصّلُ منه معنى الحَصْرِ، أي: إنّهُ لا يحقّ إلّا الحقّ، وهو حصرٌ ناشئٌ مِن مستتبعاتِ الجملةِ أو التَّركيبِ، وليسَ مِن دلالةِ اللّفظِ[6]؛ فإنّ أسلوبَ الحصرِ معروفٌ بألفاظهِ وأدواتِه، وليسَ التّعليلُ واحدًا منها.

التّعليلُ يفيدُ الحصرَ المُستفادَ من مُستتبعاتِ التَّركيبِ، وليسَ من دلالةِ اللّفظِ

دلالةُ إحقاقِ الحقّ:

والمُرادُ مِنْ تحقيقِ الحقِّ أوْ إحقاقهِ في الآيةِ الإظهارُ، أي: إظهارُ كونِ ذلكَ الحقّ حقًّا، تارةً بإظهارِ البراهينِ والبيِّناتِ، وتارةً بنصرِ

إحقاقُ الحقِّ يكونُ بالدّلائلِ وبتقويةِ أمرِ الحقِّ وقهرِ رؤوسِ الباطلِ، أو بإظهارِ الإسلامِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/271.
(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/239.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/271.
(4) مالك، الموطأ، الحديث رقم: (148).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/272.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/272.

أمراءِ الحقِّ وخذلانِ رؤساء الباطلِ[1]. أو أنّهُ يريدُ أنْ يُظهرَ الإسلامَ على جعلِ الحقِّ اسمًا معرِفةً واقعًا على دينِ الإسلام، والقولُ بإظهارِه تحقيقٌ وإحقاقٌ لهُ؛ لأنّ عدمَ ظهورهِ يُصيِّرُهُ مُشبهًا الباطلَ[2].

بلاغةُ الطّباقِ:

بين جملةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾؛ وجملةِ ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ﴾ طباقٌ، وهو من بديعِ الأسلوبِ البلاغيِّ، ويُسمّى أيضًا بمجاورةِ الأضدادِ[3]، ففي هاتين الجملتيْنِ معنًى داخلٌ تحتَ هذا الفنّ؛ فالمعنى أنّه تعالى يُبطلُ سِحْرَهمُ الباطلَ ويُحقُّ الحقّ[4]، فإنّ عملَهمُ السّحرَ هو الباطلُ بعينِه، كما عُلِمَ في الآيةِ السّالفةِ، وأنّه تعالى قادرٌ على إزالته ومَحْقِه، وإثباتِ الحقِّ في الوقت نفسه.

المعنى إنّ اللهَ تعالى يُبطلُ سِحرَهُم الباطلَ ويُحقُّ الحقَّ

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾:

البـاءُ في قولِه: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ دالَّةٌ على السَّببيَّةِ، أي: إنّ هذا الإحقاقَ كانَ بمدعاةِ كلماتِه وأوامرهِ الّتي تقعُ لا محالةَ، وفيهِ مدحُ هذا الإحقاقِ؛ لأنّهُ حادثٌ بسببِ كلماتِه تعالى[5].

الباءُ للسَّببيَّةِ، وهذا الإحقاقُ ممدوحٌ لحصولِه بموجبِ كلماتِ اللهِ

إيثارُ لفظِ الكلماتِ:

ومعنى (الكلماتِ) في قولِه: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: هيَ كلُّ ما أنزلهُ الحقُّ سبحانَهُ في كُتبِه على رُسُلِه وأنبيائه، المتضمِّنةِ على البراهينِ والأدلَّةِ والحُجَجِ، أو أنّها الوعدُ الصّادقُ لمُوسى عليه السلام في أن يُظهرَهُ، أو وَعْدُهُ السَّابقُ منْ قضائهِ وقَدَرِه في نَصْرِه على السّحرةِ، بأوامرِه وأحكامِه وقضائهِ[6].

كلماتُهُ سبحانَهُ هي ما أنزلَ على أنبيائِهِ أو بوعدِهِ الصّادقِ لمُوسى عليه السلام

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/458.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/369.
(3) ابن المعتزّ، البديع في البديع، ص: 65.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/341.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/272، 11/257.
(6) القنوجيّ، فتح البيان في مقاصد القرآن: 6/107.

كلماتُ اللهِ هي ما دلّ على مُرادِه؛ حقيقةً أو مجازًا

وآثرَ البيانُ القرآنيُّ مفردةَ الكلماتِ لدقّةِ تعبيرِها؛ فهيَ تدلُّ على مُرادِه تعالى وكلامِه النّفسيّ، وهو على صنفيْن: أن تكونَ على وجهِ الحقيقةِ؛ بأن تأتيَ على الأشكالِ اللّفظيّةِ المعهودةِ الّتي يفهمُها البشرُ ويُبلّغون بها؛ كالقرآنِ ونحوِه، وقد تكونُ على وجهِ المجازِ؛ بأن تأتيَ على غيرِ المعهودِ منَ الألفاظِ، كخطابِه للملائكةِ المحكيِّ في الكتابِ الكريم[1].

كلماتُ اللهِ هيَ أوامرُه وما قضاهُ

والمرادُ بكلماتِ اللّه الواردةِ في الآيةِ: الأوامرُ والقضايا منهُ[2]؛ وهي تُشير إلى مجموعة منَ المفاهيم أو التّعاليم، والأقضيَة الرّبّانيّة في مختلف الشُّؤون الكونيّة.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾:

كلماتُه هيَ تعلّقُ قُدرتِه تعالى بالإيجادِ

في قولِه تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ استعارةٌ؛ فإنَّ لفظَ الكلماتِ ليس على الحقيقةِ، وإنّما هيَ تعلّقُ القُدرةِ الإلهيَّةِ بالإيجادِ، الّذي يعبّرُ عنه بالتّكوينِ الّذي يسيرُ على وَفْقِ إرادتهِ وعِلْمِه سبحانَهُ، وهو تعلّقٌ يُشبهُ الكلامَ الّذي يَنْتُج عنه استيعابُ المعاني، مع دلالتهِ على إرادةِ المتكلّم[3].

دلالةُ جمعِ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾:

تدلّ على جمعِ الأوامرِ المقابلةِ للنّواهي

قوله: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: بأوامره وقضاياه، وحيث جِيء بالكلمات جمعًا فهي الأوامرُ التي تقابل النَّواهي، وحيث جيء بها مُفردًا فهو الأمر الذي هو واحدُ الأمور[4].

تفيدُ عمومَ أنواعِ الكلامِ الّذي يُوحِي بِهِ اللهُ

وهذا الجمعُ يدلُّ على العموم؛ فإنَّ الكلماتِ عامّةٌ في أنواعِ الكلامِ الّذي يُوحيه سبحانَهُ، وهوَ دالّ على الإرادةِ الرّبّانيّةِ في إحقاقِ الحقِّ وتثبيتِه؛ كآياته القرآنيّةِ في قتالِ الكافرينَ، ووَحْيِه إلى الملائكةِ في نُصرةِ المسلمينَ[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/271.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/170.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/257.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/544.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/272.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ دالّةٌ على الحالِ[1]، أي أنّهُ تعالى يُحقّ الحقَّ بكلماتهِ في الحالِ الّتي يكرهُ فيها المجرمون ذلك.

يحقّ اللهُ الحقّ بكلماتهِ في حالِ كَـرِهِ المجرمونَ ذلكَ

معنى ﴿وَلَوۡ﴾:

معنى ﴿وَلَوۡ﴾ في الآيةِ هو معنى (إنْ) نفسِه، وهو القطعُ في الشّكِّ؛ فإنَّ حصولَ الكُرْهِ مِنَ المجرمينَ لا يمنعُ مِن إظهارِ الحقِّ؛ فإنّهُ ثابتٌ ولا يُتوَهَّمُ نفيُهُ، وفيهِ إخبارٌ بجهلِهم وحماقتِهم، وأنّ مقامَهمْ مقامُ ظنٍّ، يظنُّ بهِ المرءُ أنّهم لو كرهوا انبعاثَ الحقِّ وظهورَه لمْ يظهرْ[2].

إخبـارٌ بجهلِ المجرمينَ ونفي توهُّمِهم أنَّ كُرهَهم مانعٌ مِن إظهارِ الحقِّ

و﴿وَلَوۡ﴾ وصليّةٌ مقتضيَةٌ أنَّ ما بعدَها غايةٌ لمَنْ يظنُّ تخلّفَ حُكمِ ما سبقَها، وإنّما كانَ الكُرهُ الحاصلُ مِنَ المجرمينَ لإحقاقِ الحقِّ غايةً وغرَضًا، لما يُظنُّ فيهِ تخلُّفُ الإحقاقِ وعدمُ حصولهِ؛ لأنَّ تلكَ الكراهيَةَ باعثٌ لهمْ على معارضتِهِ ومحاولةِ دَحْضهِ[3].

كراهية المجرمين للحقِّ باعثٌ لهمْ على معارضتِهِ ومحاولةِ دَحْضهِ

التّعبيرُ عنِ الكُرهِ بصيغةِ الماضي:

جاءَ بفعلِ الكراهيَةِ في قولِه: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ ماضيًا لدلالتهِ على ثبوتهِ عليهِم؛ فإنّهم عريقونَ في ممارستهِ والتّخلُّقِ بهِ، وفي قطعِ ما أمَرَ أنْ يُوصَلَ؛ فكانَ أن بطلَ سِحْرُهم، واندحرَ مكرُهم[4]، وظهرَ الحقُّ جليًّا واضحًا؛ بما عبّرَ عنه بإحقاقهِ.

الكُرْهُ ثابتٌ فيهم فهم عريقونَ في ممارستهِ والتّخلُّقِ بهِ

بلاغةُ الكنايةِ في لفظِ (الكُرْه):

التّعبيرُ بفعلِ الكُرْهِ مِن بابِ الكنايةِ[5]؛ فالكراهيَةُ هنا تعبيرٌ

إرادةُ الله نافذةٌ رغم كراهيةِ المجرمينَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/257.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/350.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/257.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/175.
(5) الكناية: "لفظٌ أُريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه أي: إرادة ذلك المعنى مع لازمه كلفظ: (طويل النِّجاد)، والمُراد به طُول القامة مع جواز أن يُراد حقيقة طول النّجاد أيضًا". يُنظر: التّفتازانيّ، مختصر المعاني: 1/257.

عن لوازمِها، وهيَ الاستعدادُ لمعارضةِ غرضِ تلكَ الإرادةِ، فإرادةُ المشركينَ إحقاقُ الباطلِ، وإرادةُ اللّه نافذةٌ رغمًا عن كراهيةِ المجرمينَ، ومجرَّدُ الكراهية ليسَ مانعًا منْ إحقاقِ الحقِّ؛ لقُصورِه على الكارهِ، إلّا إذا كان الكُرْهُ باعثًا على مُدافعة الحقِّ المكروهِ بزَعْمِهم(1).

وجْهُ تعريفِ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾:

أرادَ بالمجرمينَ فرعونَ ومَلَأَهُ، ويجوزُ عموم المجرمين

التّعريفُ في لفظةِ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ للعَهدِ، وهم فرعونُ وقومُهُ ممّن تبِعَ سبيلَهُ، أو يُرادُ منهُ الجنسُ؛ فيكونُ الإطلاقُ على المجرمينَ عمومًا، وآلُ فرعونَ داخلونَ تحتَ هذا العمومِ مِن بابِ أَوْلى(2).

عِلَّة جمعِ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ جمعَ سلامةٍ:

عافوا العقلَ وانضموا إلى زُمرةِ المجرمينَ

المرادُ بـ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ كلُّ مَنِ اتّصفَ بالإجرامِ مِن سَحَرةِ فرعونَ وغيرِهم(3)، وفي جمعهِم هذا الجمعَ تشنيعٌ عليهم، وتبشيعٌ لحالهِم؛ فإنّ شأنّ الدّاخلِ تحتَ هذا الجمعِ أن يكونَ عاقلًا(4) لكنّهم تركوا العقلَ والحِجا، وانضموا إلى زُمرةِ المجرمينَ المُستحقّينَ عذابَ اللّه وغضبَه.

وجهُ العدولِ عن ضميرِ الخطابِ إلى الاسمِ الظَّاهرِ:

وَصَفَهُم بالإجرامِ من بابِ التّعريضِ، ورعايةً للفاصلةِ

في العدولِ عن ضميرِ الخطابِ إلى الاسمِ الظّاهرِ وجهٌ ومعنًى، وهو وصفُهم بالإجرامِ مِن بابِ التّعريضِ بهم(5)، فلو لم يعدِلْ لكانَ الكلامُ خاليًا مِن ذاكَ الوصفِ، بقولِه: ولو كرهتُم؛ فيفوتُ المقصودُ، فضلًا عن رعايةِ الفاصلةِ القرآنيَّةِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/273.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/529.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/169.
(4) جمع المُذكّر السّالم يُشترط فيه العقل وليس كذلك مع جمع التّكسير. يُنظر: ابن السّرّاج، الأصول في النّحو: 1/47.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/258.

سِرّ العدولِ عن خطابِهم بصفةِ الإجرامِ:

عدلَ عن خطابِهم بصفةِ الإجرامِ بأنْ يقولَ لهمْ: (وإنْ كرهتُمْ أيّها المجرمونَ)؛ لأنّهُ لمْ يُردْ أن يُواجهَهُم بالذّمِّ والتّوبيخِ المباشِرِ، وقوفًا عندَ أمرِه تعالى بأنْ يُلَاينَهُمْ بالقولِ؛ لقولِه تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [طه: 44]؛ فجاءَهمُ الكلامُ في صورةٍ عامّةٍ كلّيَّةٍ، وهم مِن جزئيَّاتِها تلميحًا لا تصريحًا[1].

لايَنَهم بالقولِ تلميحًا لا تصريحًا

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، والتّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ في الآيةِ قبلَها:

وصفَهُم البيانُ القرآنيُّ في الآيةِ السّابقةِ بالمفسدينَ؛ لأنَّ السّحرَ سببٌ رئيسٌ مِن أسبابِ الإفسادِ في الأرضِ، فيما وصفَهم هنا بالمجرمينَ، والإجرامُ يعني في أصلِه اللُّغويّ: القَطعَ والانفصالَ[2]، فكأنّهم قطعوا سبيلَ الحقِّ والهدايةِ على أنفسِهِمْ، وبَنَوا على ذلك أمرَهُم؛ كراهيَةَ عُلُوِّ الحقِّ وظُهورِهِ[3]؛ فيكونُ وَصْفُ الإفسادِ مُتقدِّمًا على الإجرامِ، فإنّهم لَمّا أفسدوا بسِحْرِهِم؛ أوصلَهم ذلك إلى الانقطاعِ عن هدايتِه تعالى، والانبتاتِ عنِ الحقِّ وأهلِه.

لَمّا أفسدوا بسِحرِهِم، انقطعوا عن هدايتِهِ سبحانَه، وانفصلوا عنِ الحقِّ وأهلِهِ

دلالةُ حاليَّةِ جُملةِ الفاصِلةِ:

وقولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ جملةٌ في موضعِ الحالِ مِن الإحقاقِ المذكورِ آنفًا، وهي معطوفةٌ على مُقدَّرٍ؛ فإنَّ إحقاقَ الحقِّ يقعُ في الأحوالِ كلِّها، ولو في هذهِ الحالِ، وإنَّما قَدَّرَ ذلك لاستقصاءِ الأحوالِ جميعًا[4].

يُحقُّ اللهُ الحقَّ في كلّ حالٍ

وهذهِ الجملةُ الدَّالةُ على كراهتِهم إحقاقَ الحقِّ جملةً، التَّحقيقُ فيها أنّها معطوفةٌ على مُقدَّرٍ يقعُ في موضعِ الحالِ، وما عُطفَ على الحالِ حالٌ مثلُه، ومثَّلوا لهُ بقولِهم: (أعطوا السّائلَ ولوْ جاءَ على

ما عُطِفَ على الحالِ حالٌ مثلُهُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/258.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جرم).
(3) الطّباطبائيّ، الميزان: 11/111.
(4) الخرّاط، المُجتبى من مُشكل إعراب القرآن: 2/446.

فرسٍ)[1]؛ فإنَّ القولَ أنْ يُعطَى على كلِّ حالٍ، ولوْ كانَ راكبًا على فرسٍ، فحالتهُ تُنافي الصّدقةَ[2].

وُصِفَ مُشركو مكَّة بالجهل إنكارًا عليهم، وقومُ موسى بالإجرام ترغيبًا وليِنًا

بيانُ الشَّبهِ بيَن الوصفِ بلفظِ الإجرامِ والجهل:

عبّرَ في هذهِ الآيةِ بوصفِ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، فيما عبّرَ في سورةِ الزُّمرِ بـ﴿ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤﴾ في قولِه: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤﴾ [الزُّمر: 64]، والأمرُ هنا مُتعلّقٌ بمقامهِ ﷺ، فخاطبَهم بهذا الخِطابِ بعدَ أنْ كرّرَ دعوتَهم مرارًا، وكانوا يُريدونَ منَ الرّسولِ عبادةَ آلهتِهم؛ فكانَ الإنكارُ عليهم أبلغَ وأشدّ، أمّا مُوسى عليه السلام فقد كانَ في ابتداءِ دعوتِهِ مُلاينًا لهم على أملِ أنْ يؤمنوا[3]، فثَمّة فرقٌ بينَ التّعبيريْنِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البُغْض والكَراهَة:

قال أبو هلالٍ العَسكريُّ: "الفَرقُ بينَ البُغضِ والكراهةِ: أنَّه قد اتُّسِعَ بالبُغْضِ ما لم يُتَّسَعْ بالكراهةِ؛ فقيل: أُبغِضُ زيدًا، أي: أُبغِضُ إكرامَه ونَفعَه، ولا يُقالُ: أَكْرَهُه، بهذا المعنى، كما اتُّسِعَ بلفظِ المحبَّةِ، فقيل: أُحِبُّ زيدًا، بمعنى: أحِبُّ إكرامَه ونَفْعَه، ولا يُقالُ: أُريدُه، في هذا المعنى، ومع هذا فإنَّ الكراهةَ تُستعمَلُ فيما لا يُستعمَلُ فيه البُغْضُ، فيُقالُ: أَكْرَهُ هذا الطَّعامَ. ولا يُقالُ: أُبغِضُه، كما تقولُ: أحِبُّه. والمرادُ أنِّي أكرَهُ أكلَه، كما أنَّ المُرادَ بقولِك: أُريدُ هذا الطَّعامَ، أنَّك تُريدُ أكلَه أو شِراءَه"[4]. والموضعُ يُناسب لفظَ الكُرْه، بوصفه دالًّا على عدمِ الرَّغبة في إحقاقِ الحقِّ، واستيائهم من ذلك، وليس للعداءِ الّذي يتضمَّنُه لفظ (البُغْض)، بوصفه شعورًا أقوى وأعمقَ منَ الكُرْه؛ محلٌّ هاهنا.

---

(1) يروى على أنه حديث، والأظهر - كما عند مالك في الموطأ: 2/996 -: أنه مرسل من قول التابعي زيد بن أسلم.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/278.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/258.

(4) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 104.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٨٣﴾ [يونس: 83]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أهلُ الإيمانِ في كلِّ وقتٍ قليلٌ عددُهم، كبيرٌ عندَ اللهِ قدْرُهم

لَمّا حكى الحقُّ سبحانَهُ أنّهُ أبطلَ السِّحرَ، وأنّه من عملِ المفسدينَ، وأحقَّ الحقّ بكلماته، بيّنَ أنّهُ معَ معاينةِ المعجزاتِ الخارقةِ الّتي جاءَ بها مُوسى، إلّا أنّهُ لمْ يؤمنْ بهِ مِن ذرِيَّة قومِه إلّا نفرٌ قليلٌ؛ تسليةً للنبيِّ محمدٍ ﷺ، لما كانَ يرى منْ إعراض قومِه عنْ دعوتهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذُرِّيَّةٞ﴾: أصلُ (ذرّ) يَدُلُّ على لَطافَةٍ وانتِشارٍ[2]، ومَصْدَرُه: ذَرَرْتُ، وهو أخذُك الشَّيءَ بأطرافِ أصابعك تَذُرُّه ذَرَّ المِلْحِ المَسْحُوقِ على الطَّعَامِ[3]. والذُّرِّيَّةُ: الخَلْقُ والنَّسْلُ، مَأْخوذَةٌ مِن الذَّرْءِ، فتقول: ذَرَأَ اللّه الخَلْقَ، أيْ: خَلَقَهُم، وذُرِّيَّةُ الرَّجُلِ: وَلَدُهُ[4]. وقِيل: هو مأخوذٌ مِنَ الذَّرِّ، وهو: النَّشْرُ، فيُقال: ذَرَّ الشَّيءَ، يَذُرُّهُ، أيْ: نَشَرَهُ. أو مِنْ صِغارِ النَّمْلِ؛ لأنَّ اللّه أخْرَجَ الخَلْقَ مِن صُلْبِ آدَمَ كَالذَّرِّ[5]. والجَمْعُ: الذَّرارِي والذُّرِّيّاتُ. والمقصود من ﴿ذُرِّيَّةٞ﴾ في الآية: نسلُ الإنسانِ مِن ذُكورٍ وإناثٍ.

2) ﴿يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾: أصلُ الفِتْنَةِ مِنَ الفَتْنِ، وهو الإحْراقُ[6]، يُقالُ:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/288.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرَّ).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (ذرر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرَّ).
(5) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرَّ - ذرر).
(6) الخليل، العين: (فتن).

فَتَنْتُ الذَّهَبَ، أيْ: أحْرَقْتُهُ بِالنّارِ؛ لِتَمْيِيزِ الجَيِّدِ مِنَ الرَدِيءِ، ويُسَمَّى الصّائِغُ: الفَتّانَ، وَكَذَلِكَ الشَّيْطَانُ[1]. والفَتْنُ أيضًا: إدْخَالُ الرَّوْعِ وَالِاضْطِرَابِ على العَقْلِ؛ بِسَبَبِ تَسْلِيطِ مَا لَا تَسْتَطِيعُ النَّفْسُ تَحَمُّلَهُ[2]، والفِتْنَةُ: الابْتِلاءُ والامتحانُ والاختبارُ، يُقالُ: فَتَنْتُهُ، أفْتِنُهُ، فَتْنًا وفُتُونًا: إذا امْتَحَنْتُهُ[3]. والمقصود في الآية: إدْخَالُ الرَّوْعِ وَالِاضْطِرَابِ على العَقْلِ.

3) ﴿لَعَالٍ﴾: أصلُ (علو) يَدُلُّ على السُّمُوِّ وَالِارْتِفَاعِ، لا يَشِذُّ عَنْهُ شَيْءٌ[4]، قال الخليلُ: "أصْلُ هَذَا الْبِنَاءِ الْعُلُوُّ. فأمّا العَلاءُ فالرِّفْعَةُ. وَأمّا العُلُوُّ فالعَظَمَةُ والتَّجَبُّرُ. يَقُولُونَ: عَلَا المَلِكُ في الْأَرْضِ عُلُوًّا كَبِيرًا. قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: 4]، ويَقُولُونَ: رَجُلٌ عَالِي الْكَعْبِ، أيْ: شَرِيفٌ"[5]، والعُلُوُّ: ضِدّ السُّفْل، والعُلْوِيُّ والسُّفْلِيُّ المنسوب إليهما[6]. والعُلُوُّ في الآية مُستعارٌ لِلغَلَبَةِ والاستِبدادِ.

4) ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾: أصْلُ الإسْرَافِ: مجاوزةُ الحَدِّ، وَالْإغْفَالُ - أيْضًا - لِلشَّيْءِ. يُقَالُ: أسْرَفَ يُسْرِفُ إسْرَافًا وَسَرَفًا، أيْ: جَاوَزَ الحَدَّ وَلَمْ يَعْتَدِلْ، وَضِدُّهُ: القَصْدُ وَالاعْتِدَالُ[7]، وَأمّا الْإغْفَالُ: فَقَوْلُ القَائِلِ: مَرَرْتُ بِكُمْ فَسَرِفْتُكُمْ، أيْ: أغْفَلْتُكُمْ[8]. والإسْرَافُ أيْضًا: التَّبْذِيرُ، وَالمُسْرِفُ: المُبَذِّرُ[9]. وَيُطْلَقُ الإسْرَافُ - أيْضًا - عَلَى الإتْلَافِ وَالتَّضْيِيعِ، تَقُولُ: سَرِفَ الطَّعَامُ؛ أيْ: ضَاعَ وَتَلِفَ[10]. والمُرادُ بالإسراف في الآية: تَجَاوُزُ حَدِّ الاعْتِدَالِ المَعْرُوفِ فِي فِعْلٍ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه لم يُؤمِنْ لِموسى عليه السلام - مع ما أتى به مِنَ الحُجَجِ والأدِلَّةِ على صِدقِه

(1) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فتن).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/91.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(5) الخليل، العين: (علو).
(6) الرّاغب، المفردات: (علا).
(7) الخليل، العين: (سرف).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سرف).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (سرف).
(10) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (سرف).

- إلَّا عددٌ قليلٌ مِن شَبابِ قَومِه من بني إسرائيلَ، وهم خائفونَ مِن فرعونَ وأشرافِ قَومِهم أن يَفتِنوهم بالعذاب، فيصدُّوهم عن دينِهم، وإنَّ فِرعونَ لَجبَّارٌ مُستكبِرٌ في الأرضِ، وإنَّه لَمِن المُتَجاوِزينَ الحَدَّ في الكُفْرِ والفَسادِ(1).

الصِّدِّيقون قليلون في كلِّ زمان، وإيذاءُ المصلحين لا يخلو منه أوانٌ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوَصْلِ بالفاءِ:

قولُه تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾، الآيةُ هنا موصولةٌ بالفاءِ بما قبلَها لإفادةِ السّببيّةِ، أو أنّها مفرّعةٌ على ما سبقَ، فإنَّ إصرارَ فرعونَ ومَن شايعَهُ على الكفرِ وعدمِ التّصديقِ بمُوسى عليه السلام بعدَ أنْ خابَ سَحَرتُه وخسروا، وبعد ظهورِ الحقِّ وانبلاجِه، ثمَّ عزمِه على قتلِ مُوسى بقولِه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ﴾ [غافر: 26]، فكلُّ ما سبقَ أشاعَ الرُّعبَ في بني إسرائيلَ(2).

إصرارُ فرعونَ وقومِهِ على الكفرِ بعدَ ظهورِ الحقِّ أوقعَ الخوفَ في بني إسرائيلَ

والآيةُ تفريعٌ على ما سبقَها مِنَ المقاولةِ والمحاورةِ بينَ مُوسى وفرعونَ، ومَن معه من قومِه وسَحَرَتِه، بعدَ أنْ رأى أولئكَ القومُ مِن ظهورِ الحقِّ على يدِ مُوسى؛ إلّا أنَّ فرعونَ ومَن سارَ في ضلالِه لمْ يؤمنوا بما جاءَ به(3) عليه السلام جهلًا واستكبارًا.

لم يؤمنْ فرعونُ ومَلَؤُه بمُوسى رَغمَ ظهورِ الحقِّ على يَدَيْه

والآيةُ معطوفةٌ بالفاءِ على ما سبقَ، معَ أنَّ ما سبقَها بمنزلةِ العَدَمِ المستمرِّ؛ فإنَّ النّفيَ بـ (ما) هو مِنْ نحوِ قولِك: وعظتُهُ فلمْ يتّعظْ، وإنّ دوامَهم على ضلالِهم بعدَ وُرودِ ما يُوجِبُ الإقلاعَ عنه هوَ فعلٌ جديدٌ حادثٌ، والمعنى: أنّهُ لمْ يؤمنْ لموسى عليه السلام برؤيةِ تلكَ البراهينِ السّاطعةِ إلّا نفرٌ قليلٌ(4).

لم يتّعظوا بانجلاءِ الآياتِ الباهراتِ وظهورِ الحقّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/250، والواحديّ، البسيط: 11/285، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/370.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/383.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/258.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/170.

كِبْرُهم علّة إصرارهم على الكُفر

والآيةُ معطوفةٌ على ما سبقَها بالفاءِ المفيدةِ التّرتيبَ؛ فعُتوُّهم في ضلالتهِمْ وتيههم سببٌ لعدمِ إيمانهِمْ؛ فلمْ يؤمنْ لموسى ﷺ إلّا ذريةٌ قليلةٌ مِنْ قومِه[1].

آمنَ بموسى أوّلَ مبعثِه قليلٌ مِنَ الشُّبَّانِ أبناءِ الخائفين مِن فرعونَ

وتحتملُ الفاءُ العطفَ فحسبُ لا التّرتيبَ، وذلك بعطفِ هذهِ الجملةِ على سابقتِها، على جعلِ الهاءِ في ﴿قَوۡمِهِۦ﴾ عائدةً على مُوسى، أيْ: أنَّ الآيةَ تصفُ حالَ موسى أوّلَ بِعْثَتِه حينَما لمْ يُؤمنْ بِهِ إلّا قليلٌ مِنَ الشُّبَّانِ، وكانَ آباؤهمْ تحتَ خوفٍ وهَلَعٍ مِنْ فرعونَ ومَلَأ بني إسرائيلَ؛ فالضّميرُ في الملأ يَعُودُ على الذُّرّيّة، فتكونُ الفاءُ عاطفةً لا مُرتِّبةً[2].

بلاغةُ الإيجازِ بالقَصرِ:

حصرُ المؤمنينَ في ذُرِّيّةٍ مِن قومِ مُوسى يُفيدُ أنّ غيرَهم لَمْ يؤمنُوا البتّةَ

قولُه تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ مقامٌ فيهِ إيجازٌ بالقصرِ، فالمعنى أنّهُ حصرَ الإيمانَ في ذرِّيَّةٍ مِنْ قومِ مُوسى ﷺ، وهو يفيدُ انتفاءَ الإيمانِ عن غيرِهِمْ[3]، وهو المعنى المُرادُ مِنَ الآيةِ على وجهِ التَّمام.

بلاغةُ حذفِ إلقاءِ مُوسى عصاهُ، والتقامِ ما ألْقَوهُ:

حذفَ ما حذفَ تعويلًا على ذِكْرِهِ في مواضعَ أخرى، وإيثارًا للإيجازِ

قولُه تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ معطوفٌ على جُملةٍ مُقدَّرةٍ فصّلَ فيها في مواضعَ أُخرى مِنَ الكتابِ الكريمِ على تقديرِ: (فألقى عَصاهُ فإذا هيَ تلقف ما يأفِكون) ونحوِهِ مِنَ المعاني الدّالَّةِ على آياتِهِ وبراهينِه، وإنّما لم يُذْكر هنا تعويلًا على ما سبقَ، وإيثارًا للإيجازِ[4].

أظهرَ إعراضَهُم تشبيهًا لهم بحالِ مُشركي مكّةَ

وقد حذفَ أمرَ إلقاءِ مُوسى عصاهُ ثمَّ التقامِها ما ألْقَوهُ مِن سِحرِهِم، وهو ما حصلَ بينَ المحاورةِ والإعراضِ عن دعوتِهِ ﷺ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3623.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/136.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/258.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/170.

وسببُ ذلكَ أنَّ الغرضَ الّذي سيقت لأجلِه الآيةُ غيرُ متعلِّقٍ بذلكَ المحذوفِ، بل إنَّ المرادَ هو تصميمهم على الإعراضِ؛ فهو على إرادةِ تمثيلِ أعمالهم بحالِ المشركينَ من أهلِ مكّةَ(1).

وجهُ تعديةِ الفعلِ ﴿ءَامَنَ﴾ باللّامِ:

والفعلُ ﴿ءَامَنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ بمعنى: صدّقَ؛ فكانَ حقّهُ أن يتعدّى بنفسه(2)؛ لكنّهُ جاءَ هنا مُتعدّيًا باللّام؛ لأنَّه مِنَ الأمانةِ، ومعناهُ: التّصديقُ والإذعانُ لهُ، لا على معنى جعْلِه في مأمنٍ بانتفاءِ الخوفِ عنهُ(3).

معنى الإيمان التّصديق والإذعان

معنى اللّامِ في قوله: ﴿لِمُوسَىٰٓ﴾:

اللّام في قولِه: ﴿لِمُوسَىٰٓ﴾ لامُ التّبيينِ(4) دخلتْ على المفعولِ لتقويتِهِ أوّلًا، ورفعِ التّوهّمِ في الفعلِ ﴿ءَامَنَ﴾ بمعنى: صدّقَ، أن يكونَ مُلتبِسًا بالفعلِ (آمَنَهُ) بمعنى: جعلهُ في مأمنٍ(5)، لو وُصِلَ الفعلُ إلى مفعولِهِ مِن دونِ اللّام، وهو غيرُ مقصودٍ؛ بلِ القصدُ مَن يؤمنُ له، أي: يُصدِّقُهُ ويُذعنُ لهُ.

زيدت اللّامُ دفعًا لتوهّمِ التباسِ الفعلِ (آمَنَ) بالفعلِ (آمَنَهُ)

نُكتَةُ التّصريحِ باسمِ ﴿لِمُوسَىٰٓ﴾ عليه السلام:

وجهُ التَّصريحِ باسمِ مُوسى عليه السلام: أنَّ هدايتَهمْ وتصديقَهمْ كانَ بسببِه، وأنّ الآياتِ قد لا تكونُ سببًا للهداية؛ إنّما الأمرُ منوطٌ بإرادتِه تعالى ومشيئتِه (6) عز وجل.

إيمانُهم لموسى بسببِ فِعْلِه، ولا يهتدي بالآياتِ كلُّ ضالٍّ خارجٍ عن إرادة الله

بلاغةُ الاستثناءِ في الآيةِ:

قولُه تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ مُشتمِلٌ على

ما آمنَ لمُوسى إلّا بعضٌ مِن أولادِ قومِهِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/258 - 259.

(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (أمن).

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/259.

(4) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 292.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/259.

(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/175.

الاستثناء المُفَرَّغ[1]، فإنّه لم يؤمِن لموسى إلّا طائفةٌ مِن ذَراري بني إسرائيل؛ أي: أولادٌ مِن أولاد قومه، أمَّا الآباءُ فحملَهم خوفُهم مِن فرعون على عدم الإيمان[2].

في تقليل عدد المؤمنين تسليةٌ للنَّبيِّ محمّدٍ ﷺ

ويُستفادُ من جملةِ الاستثناءِ معنى الحصرِ؛ فإنّ معنى (ما قامَ إلّا زيدٌ)؛ أي: لم يقمْ غيرهُ[3]، والمعنى: أنّهُ لمْ يؤمن إلّا هؤلاءِ، وفيهِ تقليل، وفي هذا التّقليلِ تسليةٌ للرّسولِ ﷺ؛ فقدْ كانَ يغتمُّ لإعراض قومِهِ واستمرارِهم على كفرِهم وضلالهم؛ ففي هذهِ التّسليةِ بيانُ أنَّ ذلكَ شأنُ الأنبياءِ، وأنّ ما ابتُليَ بهِ موسى أعظمُ؛ فإنّهُ أرَى قومَهُ مِنَ المعجزاتِ رأيَ العينِ، ومعَ ذلكَ ما آمنَ منهم إلّا قليلٌ[4]، وهذا دأبُ المُصلِحين بشكلٍ عامٍّ، والرُّسلِ بشكل خاصٍّ، وفي قِصَّة نوحٍ عليه السلام وغيرِه مِنَ الأنبياء مثلُ ذلك.

دلالةُ التّعبيرِ بالذّرّيَّةِ:

الـصّـغـارُ هم الأسـرعُ إلى قبولِ الهدايةِ

عبّرَ البيان القرآنيُّ عنِ القِلّةِ القليلةِ الّتي آمنَتْ لموسى بلفظِ الذُّرّيَّة، وهمُ الصّغارُ مِنَ الأولادِ والشُّبّان، وهم أسرعُ مِن غيرِهم في القبولِ للتّوفيقِ الإلهيّ؛ حيث لم تتلوّثْ أرواحُهم بعبثِ الدّنيا وأهوائِها، وهم أهل لأنْ تُذَرَّ فيهم البركة[5].

توجيه جمعِ الذُّرّيّة:

همُ الأحداثُ مِنَ الشُّبّان، أو هم قـومُ فـرعـونَ، أو همُ الصّغارُ والكبارُ معًا

عبّرَ عنِ الذّرّيةِ بالجمعِ؛ لأنّهم الأحداثُ مِنَ الشّبابِ والمراهقينَ، وقدْ يُطلقُ على الصّغارِ والكبارِ من بابِ العُرْفِ، ويقعُ على الواحدِ والجمعِ، وقيلَ: هم قومُ فرعونَ إلّا أنَّ منهُمْ منْ كانَ يكتمُ إيمانَهُ خوفًا[6].

(1) "إذا استثنيت بـ (إلّا) من كلام منفيٍّ غيرِ تامّ، وذلك بأن يكون ما قبل (إلّا) مُحتاجًا إلى ما بعدها". يُنظر: ابن يعيش، شرح المُفصّل: 2/67، أو أنّ (إلّا) لا أثر لها في الإعراب.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/363، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/170.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/157.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/288.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/175.
(6) رضا، تفسير المنار: 11/383.

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾:

حرفُ الجرّ ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ دالٌّ على التّبعيضِ، أي: من قومِ مُوسى عليه السلام؛ إذ كان هو نفسُه مِن أبناءِ إسرائيلَ[1]، وتحتملُ أن تكونَ للابتداءِ، والتَّبعيضُ مُستفادٌ مِنَ التّنوينِ[2].

المؤمنون هم بعضُ قومِ موسى

توجيهُ نسبةِ القومِ، وعودُ الضّميرِ فيه:

في قولِه: ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾، الهاءُ المتّصلةُ في ﴿قَوۡمِهِۦ﴾ تعودُ على مُوسى عليه السلام، والمُرادُ بالقومِ: المؤمنونَ مِن بني إسرائيلَ، الّذينَ توالدوا في مصرَ بعدَ دخولِه عليه السلام إليها، أو أولادُ الّذينَ أُرسلَ إليهم مُوسى بعدَ هلاكِ آبائهم بطولِ الزّمانِ[3].

الهاءُ راجعةٌ إلى مُوسى، والقومُ هم مؤمنو بني إسرائيلَ، أو أولادُ الّذينَ أُرسِلَ إليهم

يحتملُ معنى: ﴿مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ أنْ تكونَ الهاءُ راجعةً إلى فرعونَ، وهم في ذلكَ على ضَرْبيْنِ؛ مُعيَّنٌ وغيرُ مُعيَّنٍ، فأمّا المُعيَّنُ: فمنهُم امرأةُ فرعونَ، ومؤمنُ آلِ فرعونَ، وخازنُ فرعونَ، وامرأةُ خازنِه، وماشطتُهُ، وغيرُ المُعيّنِ: وهم نحو سبعينَ بيتًا مِنَ الأقباطِ مِن آلِ فرعونَ، أمهاتهُم مِن بني إسرائيلَ[4].

الهاءُ راجعةٌ إلى فرعونَ، والقومُ على ضَرْبيْنِ مُعيَّنونَ وغيرُ معيَّنينَ

دلالةُ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه: ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ﴾:

يدلّ الحرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ﴾ على المعيّةِ، مُكافئًا لـ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: 177]، أي: معَ حُبّهِ، والمعنى في الآيةِ محلّ البحثِ؛ أي: إنّ إيمانهُم مُتحقّقٌ معَ خوفهِم مِن فرعونَ وقومِه[5].

آمنوا لموسى معَ خوفِهم من فرعونَ ومَلَئِهِ

والحرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ دالٌّ على الاستعلاءِ في أشهرِ معانيهِ[6]، وقولُه:

(على) يُفيدُ الاستعلاءَ، فهم مستعلون فوقَ الخوفِ

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السنّة: 6/75.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/157.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 14/260 - 261.
(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 14/261.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/259، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3623.
(6) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 190.

﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ﴾ يفيدُ معنى الاستعلاءِ والتّمكُّنِ؛ فيصيرُ المعنى: كأنَّهم مُستعلونَ فوقَ الخوفِ، مُتمكّنونَ منه، يسيرُ بهم أنّى شاءَ في دهاليزِ المواجعِ والآلامِ[1].

سرُّ تنوينِ الخوفِ، وتنكيرِه:

التّنوينُ والتّنكيرُ للتّعظيمِ، أي كانوا على خوفٍ عظيمٍ من فرعونَ ومَلَئِهم

وردَ الخوفُ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ﴾ مُنكَّرًا مُنوَّنًا، والتّنوينُ والتَّنكيرُ هنا لإفادةِ التَّعظيمِ، أي: أنّهم كانوا على خوفٍ عظيمٍ، وفزعٍ وقلقٍ شديديْن مِن فرعونَ ومَلَئِهم[2].

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ﴾:

خوفهُم حاصلٌ بسببِ فرعونَ

﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ﴾ واردةٌ على معنى السَّببيَّةِ والتّعليلِ، وهو مِن معانيها[3]؛ فإنّهُ لَمّا "كانَ إنكارُ الملأِ هو بسببِ فرعونَ أن يَسلبَهم رئاستَهُم؛ انحصرَ الخوفُ فيه"[4]، فقولهُ: ﴿مِّن فِرۡعَوۡنَ﴾؛ أي: بسببِ فرعونَ.

وجهُ التّصريحِ باسمِ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾:

لَمّا كان الضّميرُ في (قومِهِ) عائدًا على مُوسى، ذكرَ اسمَ (فرعونَ) تصريحًا

في التّصريحِ بلفظِ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ وجهٌ ومعنى، وهو أنَّ الضّميرَ في ﴿قَوۡمِهِۦ﴾ راجعٌ إلى مُوسى المُتحدَّثِ عنهُ في الآيةِ، وكونهُ أقربَ مذكورٍ، فلو كانَ الضّميرُ عائدًا على فرعونَ لم يظهرْ لفظهُ تصريحًا، ولكانَ التَّركيبُ (على خوفٍ منهُ) بالإضمارِ[5].

في إظهارِ لفظِ (فرعونَ) آيةٌ على تمكُّنِ الخوفِ منهُ عندهُم

في إظهارِ لفظِ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ مزيدُ عنايةٍ بهِ مِن جهةِ الخوفِ والهَلعِ منهُ، "فالخوفُ مِن فرعونَ مُتمكِّنٌ لا يحتاجُ معهُ إلى إضمارٍ"[6]، وإنّ في الإظهارِ استحضارَ الهيئةِ والجُثّةِ ممّا يُلقِي مزيدًا مِنَ الخوفِ؛ لأنّ الخوفَ متعلِّقٌ حقيقةً بالأفعالِ لا الأعيانِ.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6149.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/158.
(3) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 421.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/176.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/94.
(6) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/137.

بيانُ عطفِ ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ على ﴿فِرْعَوْنَ﴾:

مَلأُ فرعونَ هم أصحابهُ الّذينَ يُطيعونه، والرّؤساءُ الّذينَ يَرجِعُ إلى قولِهم

في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ عطفَ (الملأ) على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ بقولِه: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾؛ فالمعلومُ أنّ مع فرعونَ مَن يُتابعهُ ويأتمرُ بأمرِه، ويَرجِعُ إلى قولِه، ويتّخذُهُ مَرجعًا له(1).

نُكْتَةُ إضافةِ (المَلأ) إلى ضميرِ الجَمْعِ، وعَودُ الضّميرِ فيهِ:

إذا ذُكرَ الملكُ بخوفٍ أو نحوِه، ذهبَ الوَهْمُ إليهِ وإلى مَن معه

قال: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ عاطفًا بما اتّصلَ بضميرِ الجمعِ على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وهوَ واحدٌ، وفي ذلك خلافٌ لمقتضى الظّاهر، ونُكْتَتُهُ أنّ ذِكْرَ الملكِ بخَوفٍ أوْ نحوِه ينصرفُ الذّهنُ إليهِ على وجهِ التّعيينِ، وإلى مَنْ معهُ أيضًا، ألَا تراهُمْ يقولونَ: قَدِمَ الخليفةُ فَكَثُرَ النّاسُ، أي: إنّهمْ زادوا بـ مَن معهُ(2).

الضّميرُ عائدٌ للذُّرّيةِ الّذين هم بقيّةُ القومِ الغائبينَ عنِ المشهدِ

ويُحتمَلُ عودةُ الضّميرِ في قولِه: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ إلى الذّريةِ، والمعنى: على خَوفٍ مِن فرعونَ ومِن قومِهم؛ فهم بقيَّةُ القومِ الّذينَ غابوا عنِ المشهدِ؛ خوفًا مِن أن يصيبَهم الغضبُ والأذى لإيمانِهم بموسى، ولِظَنّهم بمؤاخذةِ فرعونَ لهم، لما عُهِدَ مِن عادةِ الجبابرةِ في أخْذِ الجميعِ بجريرةِ بعضِهم(3).

الضّميرُ لـ(فرعونَ)، والجمعُ تعبيرًا عنِ العَظَمةِ

ويُحتمَلُ عَودُ الضّميرِ إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾، وجاءَ بِه مجموعًا لِمَا اعتيدَ مِنَ التّعبيرِ بِه في ضمائرِ العُظَماءِ، ولا يأباهُ المقامُ؛ فهو مقامُ بيانِ عُلُوِّهِ في الفسادِ والتّسلُّطِ، والغلوِّ في الشّرِّ والعدوانِ(4).

توجيهُ العُدُولِ عنِ المصدرِ الصَّريحِ إلى المُنْسَبِكِ:

المصدرُ المُنسَبِكُ دالٌّ على التّعليلِ والتّوكيدِ؛ فهوَ عِلَّةُ خوفِهم مِن عذابِه وبَطْشه

عدَلَ عنِ المصدرِ الصّريحِ (فتنته) أو (فتنة فرعونَ) إلى المصدرِ المُنْسَبِكِ (أنْ والفعلُ المضارعُ) في قولِه: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾؛

(1) النّحّاس، معاني القرآن: 3/309.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 1/476.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/260.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/170.

لدلالتهِ على التّعليلِ والتّوكيدِ[1]؛ أي: أن يفتنهُم بالعذابِ والقَسْوةِ والبطشِ؛ فهو عِلّةٌ خوفهِم منهُ. فضلًا عن دلالة المصدر المُنْسَبِك (أَنْ يَفْتِنَهُمْ) على إرادة حَدَث الفتنة، دونَ ملابساته وكيفيّاته.

الفتنةُ هنا الابتلاءُ والعذابُ والشّدّةُ

دلالةُ الفتنةِ في الآيةِ:

قولُه تعالى: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْۚ﴾، أي: أن يبتليَهُم ويُعذِّبَهُم، والأصلُ في الفَتْنِ: تعريضُ الذّهبِ للنّارِ لتتبيّنَ جودتُهُ مِن رَدَاءتِه، واستُعملَ في الإنسانِ مجازًا بقولِه تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ١٣﴾ [الذّاريات: 13]، وهو هنا بمعنى الشِّدَّةِ والبلاءِ المُتحَصّلِ من فرعونَ عليهِم[2].

الفتنةُ هي الابتلاءُ الشّديدُ حملًا على الشّيءِ أوْ تَرْكِه

و(الفتنةُ) بمعنى التّعذيبِ والإرهاقِ، ويُستعملُ (الفُتُونُ) للابتلاءِ والاختبارِ؛ حَمْلًا على الشّيءِ أو تركًا لهُ، واستعملهُ الجبابرةُ كفرعونَ في الاضطهادِ والتّعذيبِ؛ للارتدادِ عنِ الدّينِ وطريقِ الحقِّ بكثرةٍ[3].

التّعبيرُ بالمضارعِ يُفيدُ ديمومةَ إكراه فرعونَ لهم على اتّباعِه

التّعبيرُ عنِ الفتنةِ بالمضارعِ:

عبّرَ عنِ الفتنةِ في قولِه تعالى: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْۚ﴾ بالفعلِ المضارعِ، وهو الدَّالُّ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، على إرادةِ "أن يُكرِهَهُم على استدامَةِ ما هم عليهِ"[4]، من متابعتِه واتّخاذِه إلهًا دونَ اللّه.

كلُّ ظالمٍ يستمدّ ظُلْمَهُ وجبروتَهُ مِن فرعون

حَذْفُ فاعلِ الفتنةِ:

حَذَفَ الفاعلَ في قولِه: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْۚ﴾، فلمْ يَقلْ: (أن يفتنوهُم)؛ كي يكونَ فعلُ الفتنةِ شاملًا فرعونَ ومَلَأَهُم؛ فإنّ الخوفَ مِنَ الملأِ سببُهُ فرعونُ، فكلُّ ظالمٍ مُتجبِّرٍ عاتٍ في دولةِ فرعونَ إنّما يستمدُّ ظُلْمَهُ من فرعونَ وطُغيانِه[5].

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/126.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/159.
(3) رضا، تفسير المنار: 11/384.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/446.
(5) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 4/129.

توجيهُ ذِكْرِ ضميرِ الفتنةِ بالْمفرَد:

في الإفرادِ إخبارٌ عن فرعونَ وقومِهِ، إذْ كانوا على مثلِ ما كان هو عليه

في قوله: ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾ أسندَ فعلَ الفتنةِ للمُفردِ بمعنى: يصرفُهم عن دينِهم بالتّعذيبِ والتّرويعِ. ولمْ يُسنده للجمعِ؛ لأنَّ فيهِ إخبارًا عن فرعونَ وقومِهِ؛ فقومُهُ كانوا على مثلِ ما كانَ عليهِ فرعونُ نفسُه[1]، فقد مالَؤُوهُ وناصروه، حتّى أصبح فعلُهم واحدًا.

وَحْدَةُ الضَّميرِ تُشيرُ إلى انحصارِ الفتنةِ في فرعون

ولَمّا أنكرَ المَلَأُ دعوةَ مُوسى ﷺ؛ مخافةَ أنْ يسلبهُمْ فرعونُ الرّياسةَ، جُعلَ الخوفُ مِنْ فتنتهِ وعذابهِ مُنحصِرًا في فرعونَ؛ فكانتْ إشارتُهُ إلى ذلكَ المعنى بوَحْدةِ الضّميرِ بقولِه: ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾[2].

فرعونُ هو الفاعلُ في الحقيقةِ، وغيرُهُ تَبَعٌ لهُ

وفي إسنادِ فِعْلِ الفتنةِ إليهِ دونَ سواهُ في قوله: ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾ إيماءٌ إلى أنّ فرعونَ في حقيقتهِ هو الآمرُ والنّاهي، وغيرُه تَبَعٌ له[3]، فهو مَنْ "قَطّعَ أيديَ المؤمنينَ وصَلَّبهم في جُذُوعِ النّخْلِ، فنُسِبَتِ الفتنةُ إليهِ دونَ مَلَئِهم"[4]، ولذلك قرَّر القرآنُ الكريم إمامَةَ فرعونَ لأتباعه، وقيادَتَه لهم يومَ القيامة إلى النَّار، فقال تعالى: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾ [هود: 98].

في تعذيبِ الزّبانيَةِ إرضاءٌ لرَغبة فرعون

وفي التّعبيرِ بضميرِ الواحدِ ﴿يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾ لا الجمعِ (يفتنوهُم) مَلْحَظٌ دقيقٌ، ومَغْزًى عميقٌ، وهو أنَّ الزّبانيةَ ومَن لفَّ لفَّهم لا يُمارسونَ التّعذيبَ والقَهْرَ شَهْوةً مِن عندِ أنفسِهم، بل تنفيذًا لشهوةِ الفرعونِ[5] ونزعاتِه النّفسيَّةِ المريضة.

سِرّ التّوكيدِ بـ (إنّ) والجملةِ الاسميَّةِ واللَّام:

التّوكيدُ للاهتمامِ بتحقيقِ بَطْشِ فرعونَ ونَفْيِ توقُّعِ إيمانِه

في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أكّدَ الجملةَ بـ ﴿إِنَّ﴾ اهتمامًا بتحقيقِ جبروتِ فرعونَ وبَطْشِه، كما أنَّ عُلُوَّهُ مستعارٌ

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 14/263.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/176.
(3) المُنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/416.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3623.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6149.

لاستبدادِهِ وغَلَبتِهِ وقَهْرِهِ[1]، والتّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ واللّامِ فيه دلالةٌ على الثَّباتِ والاستقرارِ؛ فإنَّ فرعونَ لمْ يكنْ مُتنازِلًا عمّا كانَ فيهِ مِن عُلُوٍّ وطُغيان، ولمْ يكنْ ليُؤمنَ ذاتَ يومٍ.

وجهُ تكرارِ اسم ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾:

التّكرار والإظهار ترسيخٌ لشناعة الوصف والفعل، وتنفيرٌ منهما

في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ﴾ إظهارٌ في محلّ الإضمارِ؛ فقدْ كَرّرَ ذِكْرَ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ بعدَ ما صرّحَ به قبلَهُ في قولِه: ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ﴾، والغرضُ مِن ذلكَ: زيادةٌ في البيانِ، وتقويَةٌ للمعنى وتحقيقُهُ؛ لقصدِ التّخويفِ منهُ، والتّنفيرِ مِن أفعاله؛ وأنّ مجرّدَ ذِكْرِهِ كافٍ في تصوُّرِ ما يكونُ منه، مِن تجبُّرٍ وطُغيانٍ وعَنَتٍ وفسادٍ[2]؛ ولأنّ ما بعدَه مُعتمِدٌ عليه من عُلوّهِ وإسرافِه. وفي الإظهار والتّكرار في مواقف التّجبّر والتّكبّر والطُّغيان، مزيدُ ترسيخٍ لشناعة فعله، وقبيحِ وَصْفِه.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ (العُلوّ):

المُستبِدّ القاهرُ كأنّهُ مُستَعلٍ على مَقهورِه مُتمكِّنٌ منهُ

في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ استعملَ العُلوَّ للغلبةِ والقهرِ والاستبدادِ استعمالًا مجازيًّا[3] من بابِ الاستعارةِ؛ فالمستبدُّ القاهرُ كأنّهُ مُستَعلٍ على مقهورِهِ متمكِّنٌ منهُ.

تخصيصُ العلوّ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

لكثرةِ ما في أرضِ مصرَ مِنَ المرافقِ، وكأنّها جميعُ الأرضِ

تخصيصُ العلوّ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ومعناهَا أرضُ مصرَ؛ وذلك لكثرةِ ما يوجدُ فيها مِنَ المرافقِ والبُنيانِ كأنّها الأرضُ جميعًا[4].

توجيهُ الحاليَّةِ في جملةِ: ﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

لمْ يصدَّهم عن الإيمانِ خوفُهم من فرعونَ

جملةُ: ﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حاليَّةٌ، والمعنى: إنَّ فرعونَ لعالٍ في حالِ خوفهم الّذي يتمكّنُ منهُم، وفي هذا ثناءٌ ومدحٌ لهم؛ فلم يصدَّهم عنِ الإيمانِ خوفُهم مِن فرعونَ وبَطْشِه[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/261.
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/858.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/159.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/176.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/259.

فائدةُ التَّعليلِ في الجملةِ:

إنّهم مُحِقُّونَ في خوفِهِمُ الشّديدِ

الجملةُ الدَّالةُ على علوِّ فرعونَ جملةٌ تُفيدُ معنى التّعليلِ؛ لخوفهِم من فرعونَ وطُغيانِه، فهُم على حقٍّ في خوفهم، بعدَ أن أثنى على إيمانهِمْ معَ حالِ خوفهم الشّديدِ، الّذي تتطرّقُ آثارُه جميعَ أحوالِ المرءِ بما فيها خَلْوَتُهُ؛ لشِدّةِ مُلابَسةِ قومِه إيَّاهُ، فلا يجدُ مَفرًّا منهم[1]، والقرآن في ذلك يُثبت وجود الخوف كحقيقة وغريزة بشريَّة لا يمكن إنكارها، ولا تنفي وجودَ الإيمان، ولكن هناك مَن يملك شجاعةَ المواجهة مُتحدِّيًا غريزتَه مُستعليًا عليها، حتَّى إنّ موسى وهارون أنفسَهما ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ﴾ [طه: 45].

تكرارُ التَّوكيدِ في جملةِ الفاصلةِ:

حشدُ المؤكّداتِ في السّياقِ لمزيدِ التّنفيرِ مِن فرعونَ ومُرتكباتِه

ختمَ الحقّ سبحانَه الآيةَ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ مُكرِّرًا التّوكيدَ بـ (إنّ، واللّامِ، وجمعِ السّلامةِ)[2]، وهو توكيدٌ يُفيدُ معنى الاختصاصِ، أي: إنَّه لا غيرُه، وجمعُ السّلامةِ في انتظامه في الجملةِ الاسميَّة يدلّ على الثّبوتِ، أي: ثبوتِ الإسرافِ عندَ فرعونَ[3]، ثمّ إنّ حشدَ المؤكّداتِ في السّياقِ جاءَ لبيانِ تمامِ الاعتناءِ بمضمونِها، ومزيدِ عنايةٍ بالتّنفيرِ مِن فرعونَ ومرتكباتِه.

بيانُ العدولِ مِنَ التّصريحِ باسمِ فرعونَ إلى ضميرِه:

التّعبيرُ بالضّميرِ جارٍ مجرى الكنايةِ المفيدةِ الإيجازَ

في قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ عُدُولٌ مِنَ التّصريحِ باسمِ فرعونَ إلى ضميرِه؛ فهو جارٍ مجرى الكنايةِ الّتي تفيدُ الاختصارَ والإيجازَ والإجمالَ، المُغنيَةَ عن طولِ الاسمِ، وهو أبلغُ وأوكدُ مِن ذِكْرِه. فضلًا عمّا في العُدُول مِنَ التّلميح إلى تخصيص الحديث عن صفات فرعونَ وخصالِه وأفعالِه، وليس عن شخصه، لتكتملَ صورةُ الكلامِ عليه شخصًا.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/260.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3623.

(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/126.

فرعون من جملة الّذين دأبوا على الإسراف قتلًا وإفسادًا وتكبُّرًا

دلالةُ ﴿لَمِنَ﴾ في قولِه: ﴿لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾:

﴿لَمِنَ﴾ في قولِه: ﴿لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ دالَّةٌ على التَّبعيضِ؛ فإنّ فرعونَ من جُملةِ الّذين داوموا على الإسرافِ، وهوَ مجاوزةُ الحَدِّ في الظُّلمِ، قتلًا وإفسادًا في الأرضِ، كما كانَ مُبالغًا في الكِبْرِ والتَّجبُّرِ والاستعلاءِ[1].

الإخبارُ عن فرعونَ بأنّهُ واحدٌ مِن طائفةِ المُسرفِين أبلغُ

براعةُ العُدولِ مِنَ الوصفِ (إنّه لمسرف) إلى ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾:

عدلَ عن قولِه: (وإنّهُ لمسرفٌ) بالإفرادِ إلى قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾؛ لأنّ الثّاني أبلغُ في وَصْفِه بالإسرافِ[2]؛ لكون التّعريف في ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ تعريفَ جنسٍ؛ فيكونُ خبرًا عن فرعونَ بأنّه واحدٌ مِنَ الطّائفةِ المعروفةِ عندَ النّاسِ بأنّها طائفةُ المسرفينَ، وهو من قبيلِ الكنايةِ بإثباتِ الشّيءِ عن طريقِ إثباتِ مَلزومه، وهو أبلغُ مِنَ التّصريحِ، وهو كقولهم: "فلانٌ مِنَ العلماءِ، أبلغُ من قولكَ: فلانٌ عالمٌ؛ لأنّك تشهدُ لهُ بكونهِ معدودًا في زُمرتهِمْ، ومعروفةً مساهمته لهم في العِلْمِ"[3].

وفي قوله ﴿لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ فرعون ليس شخصًا تنتهي أباطيلُه وبَطْشُه وجبروتُه بموته؛ إنَّما هو فكرة مُتجدِّدة؛ وكما قالوا قديمًا: لكلِّ زمانٍ فراعينُه.

في الجمع إثباتُ الذّمّ على فرعونَ بأنّه من أهل الإسراف العَريقِينَ

ولإيرادِه جمعًا مَلْحَظٌ آخرُ، ففي قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾ [الشُّعراء: 136] لم يقل: (أوعظتَ أم لم تعظْ)؛ مع أنّه أخصرُ وأوجزُ، والمعنى واحدٌ.

والجوابُ عن ذلكَ: أنّ بينهمَا فرقًا في المعنى؛ "لأنَّ المُرادَ سواءٌ علينَا أفَعَلْتَ هذا الفعلَ الّذي هو الوعظُ، أمْ لَمْ تكنْ أصلًا من أهلهِ

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 4/129.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/261.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/331.

ومباشرته. فهو أبلغُ في قلّةِ الاعتدادِ بوعظهِ مِن قوله: أَمْ لَمْ تعظْ"[1]؛ فالمعنى هنا إثباتُ المَذَمَّة على فرعونَ، وأنّهُ مِنَ الزُّمرةِ المعروفةِ المعهودةِ بالإسرافِ، وأنّهُ من أهلِها العريقينَ فيها، فهوَ أبلغُ مِن نعْتِهِ بالإسرافِ مُفرَدًا.

مناسبةُ وصْفَي: (العلوّ، والإسراف):

ختمَ الحقّ سبحانَهُ الآيةَ بصفتَيْنِ من صفاتِ فرعونَ المذمومة؛ الأولى: صفةُ العُلوّ بقولِه: ﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾. والثّانيةُ: صفةُ الإسرافِ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾، وفي الجمعِ بينهمَا مناسبةٌ؛ وهيَ أنَّ كِلَا الوصفيْنِ ممّا يمنعُ الاستجابةَ لدعوةِ مُوسى عليه السلام، وممّا يصدُّ عنها، فالعُلوُّ وَصْفٌ ذميمٌ يُشعِرُ المُتعاليَ أنّهُ فوقَ النّاسِ جميعًا، وأنّهُ ليسَ من جنسهِمْ وطينتهِمْ، والمسرفُ مُغالٍ في كلِّ شيءٍ عُتُوًّا وفسادًا[2].

كِلَا الوَصفيْنِ ممّا يمنعُ الاستجابةَ لدعوةِ مُوسى عليه السلام ويَصُدُّ عنها

الفُروقُ المُعجَمِيَّة:

العُلُوُّ والصُّعود والرُّقِيُّ والعُرُوجُ:

الصُّعود مقصور على الارتفاع في المكان، ولا يُستعمل في غيره، والارتفاع والعُلُوُّ يُشترط فيهما جميع ذلك[3]. أمَّا الفرق بينَ الرُّقيِّ والصُّعودِ: فالرُّقي أعمُّ مِنَ الصُّعود؛ ألَا ترى أنَّه يُقال: رَقِيْتُ في العِلْمِ والشَّرَفِ إلى أبعد غايَةٍ، ورَقِيَ في الفَضْل، ولا يُقال في ذلك صَعَد. فالصُّعود مقصورٌ على المكان، والرُّقِيُّ يُستعمل فيه وفي غيره، فهو أعمّ[4]، زد على ذلك أنَّ من معاني العُلُوِّ التَّجبُّر والطُّغيانُ في الأرض، وتجاوزُ الحدودِ المعهودةِ في الظُّلم والعُدْوانِ. والعُرُوج صعودٌ بتَأَنٍّ. ومن هاهنا اصطُفِيَ في سياق الآية ليُناسبَ وَصْفَ فرعونَ بالتَّجبُّر والطُّغيان.

من معاني العُلُوِّ التَّجبُّر والطُّغيان في الأرض، وهو يناسب وَصْفَ فرعونَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/327، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/263 - 264.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3623.
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 314.
(4) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 259.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ [يونس: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لا يتحقّقُ الإيمانُ بالأقوالِ حتّى ينضمَّ معها صدقُ الأحوالِ

لَمّا ذَكَرَ الحقُّ سبحانَه في الآيةِ السّابقةِ خوفَهم ورهبتَهم مِن فرعونَ ومَلَئِه وعُلُوِّه وإسرافِه، أتبَعَه بما يُوجِبُ طمأنينتَهم وإيمانَهم بأن يتوكَّلوا عليه سبحانَه[1]؛ فمن توكّلَ عليه كفاهُ حالَ اتّصافِهم بأن يجمعوا بينَ تصديقِ القلبِ وإذعانِ الجوارحِ، وهو الإسلامُ الحقُّ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمرُ بالتّوكُّلِ والثّباتِ في المِحَنِ مِن صفاتِ الرُّسلِ والمُصلِحين

قال موسى لِقَومِه بني إسرائيلَ لـمّا رأى خوفَهم مِن فرعون: ثِقُوا باللّه واعتَمِدُوا عليه، ولا تُبالوا بغيره إن كُنْتُم مُستسلمين لقضاء اللّه، أو مُنقادِين لأحكامه، قائمينَ بطاعته بعد تحصيل الإيمانِ به، وقال لهم ذلك مع عِلْمه بإيمانهم وإسلامهم؛ إنهاضًا لهم، وتحريضًا على الصَّبر، كما تقول: إن كُنْتَ رجلًا فافعل كذا[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

توجيهُ الوَصْلِ بالعطفِ:

عَطفُ ما بَقِيَ مِن قصّةِ مُوسى وفِرعونَ على أوّلِها

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ﴾ الآيةَ، موصولةٌ بالعطفِ على ما سبقَها مِن قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾، وهو عطفُ ما بقيَ مِن قِصَّةِ مُوسى وفرعونَ على أوَّلِها[3]؛ فإنّهُ لَمّا ذكرَ ما كانَ مِن شأنِ فرعونَ ومقاومةِ دعوةِ موسى، أردفَهُ ما كانَ مِن أمرِ بني إسرائيلَ مع موسى عليه السلام، تمهيدًا لخروجهِم مِن مصرَ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/177.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/493.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/261.
(4) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 12/314.

إظهارُ الفاعلِ ﴿مُوسَىٰ﴾:

أظهرَ الفاعلَ مُوسى عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾، وهو ابتداءُ الحكايةِ لبني إسرائيلَ، وفي إظهارِه إيناسٌ لهم، ونَدْبَةٌ إلى أن يتوكّلوا عليهِ سبحانَه في أن ينصرَهم[1]، وإشاعةً للطّمأنينة والسّكونِ على قلوبهم بعدَ ما رأى الخوفَ والرُّعبَ يعلو وجوهَ المؤمنينَ فَرَقًا من فرعونَ ومَلَئِه[2].

أَظْـهَـرَ الـفـاعـلَ إيـنـاسًـا لـهـم، وحَثًّا على إفرادِهِ سبحانه بالتَّوكُّلِ

وفي إظهارِ لفظِ مُوسى عليه السلام الدَّالِّ على الفاعِليَّةِ مَلْمَحٌ لفظيٌّ، وهو دَرْءُ الوَهْمِ واللَّبْسِ بينَهُ وبينَ فرعونَ؛ فإنَّ خاتمةَ الآيةِ الّتي سبقت كانت في شأنِ فرعونَ وعُلُوِّهِ في الأرضِ وإسرافه، وعدمُ ذكرِ مُوسى يُوقِعُ في اللَّبْسِ بأنّهُ فرعونُ؛ لعودِ الضَّميرِ على أقربِ مذكورٍ.

دَرْءُ الـوَهْـمِ والـلَّـبـسِ بينَهُ وبـيـنَ فـرعـونَ، فما سبقَ كانَ في شأنِ فرعونَ

دلالةُ النّداءِ بالياءِ:

قولُه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ نادى قومَه بالياءِ استعطافًا بالتّذكيرِ بالقُربِ، ومُنشِّطًا لهم، ومُرغِّبًا بما أُودِعَ فيهم مِنَ القُوّةِ والاستطاعةِ[3]، ولتأليفِ قلوبهم واستمالةِ نفوسِهم؛ كي يُذعنوا لهُ، ويقبلوا نصيحتَهُ وإرشادَهُ، وفيه إشارةٌ إلى أنّهُ يبتغي لهم الخيرَ، ولا يُضمرُ لهم السّوءَ، وأنّهُ مُشفِقٌ عليهم، رؤوفٌ بهم.

نـــداءٌ فـيـه اسـتـعـطـافٌ بالتّذكيرِ بالقُرْبِ

توجيهُ حذفِ الياءِ مِنَ المنادى ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

المنادى ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ أصلُهُ (يا قومِي)، لكنّهُ حَذَفَ الياءَ مِن آخِرِه، ممّا خلَعَ عليهِ عطفًا وحنانًا ولينًا، وهو قولٌ صدرَ عن مُوسى، بعدَ أن شكا قومُهُ مِن سُوءِ معاملةِ قومِ فرعونَ لهم[4].

نداءٌ فيهِ عطفٌ ولِـيـنٌ، بـعـدَ شـكـوى بـنـي إسـرائـيـلَ مِـن سُـوءِ معاملةِ الفراعنةِ

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/137.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/119.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/177.
(4) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/127.

دلالةُ (إنْ) الشَّرطيّةِ:

جاءَ قولهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم﴾ بـ (إنْ) الشّرطيَّةِ الدَّالَّةِ على الشّكِّ وعدمِ التَّحقُّقِ؛ فأدخلَها على فعلِ الإيمانِ في الزّمنِ الماضي، معَ أنّهُ عالمٌ بأنَّ إيمانهم مُتحقِّقٌ؛ لكنّهُ أرادَ أن يُقيمَ الحُجّةَ، ويُنبّهَ النّفوسَ، ويثيرَ الأنَفَةَ فيهم، كما يُقالُ: إنْ كنتَ رجلًا فقاتِلْ، وهو رجلٌ في حقيقته، وإنّما خُوطِبَ بوَصْفِهِ الكائنِ فيهِ لإقامةِ البيّنةِ[1].

أرادَ موسى إقامةَ الحُجّةِ، وتنبيهَ الأنفُسِ، وإثارةَ الأنَفَةِ

وعبّرَ بـ (إنْ) الدّالَّةِ على الشّكِّ لإثارةِ إيمانهم إن كانوا صادقينَ فيهِ، وإلهابِ قلوبهم وتهييجِها، وبعثِ همَّتِهم على التّوكّلِ، بأن علّقَهُ بالشّرطِ المُحتَمَلِ الوقوعِ؛ فتخَوُّفُهم مِن فتنةِ فرعونَ جعلَهُم يكتمونَ إيمانَهم تَقيَّةً[2].

قَـصَـدَ إثـارةَ صِدْقِ إيمانِهم، وإلـهـابَ قلوبِهم، وبعثَ همَّتِهم

نُكْتَةُ التّعبيرِ بفعلِ الكونِ ماضيًا:

عبّرَ عن فعلِ الكونِ ماضيًا بقولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم﴾؛ لدلالتهِ على التَّحقُّقِ والاستقرارِ؛ بوقوعِ فعلِ الإيمانِ منهم، فإنّهُ كالخَلْقِ غيرُ آيلٍ إلى الزَّوالِ[3].

هو كونٌ واقعٌ كالخَلْقِ الّذي لا يزولُ

التّعبيرُ عنِ الإيمانِ ماضيًا:

أوردَ فعلَ الإيمانِ بصيغةِ الماضي بقولِه: ﴿ءَامَنتُم﴾؛ لأنَّ الإيمانَ حقيقةٌ ثابتةٌ تقومُ بالقلبِ، ودلالتُهُ على الثّبوتِ واضحةٌ، ولكنّهُ قد يزيدُ وينقصُ كما وردَ في الأثرِ.

الإيمانُ حقيقةٌ ثابتةٌ تقومُ بالقلبِ

دلالةُ الباءِ في قولِه: ﴿ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾:

الباءُ في قولِه: ﴿ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾؛ تحتملُ أن تكونَ بمعنى المُصاحَبةِ والمُلابَسةِ، وهو من أشهرِ معانيها[4]، فهم على مُلابَسةِ الإيمانِ به تعالى ومصاحبتِه حقيقةً، وإنّما أوردَهُ في سياقِ الشّرطِ إلهابًا وتهييجًا.

ملابَسةُ الإيمانِ باللهِ ومصاحبتُه واقعةٌ منهم حقيقةً

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/96.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/262.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/177.
(4) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 140.

علّةُ إظهارِ اسمِ الله الأعظمِ:

في ذِكْرِ الاسمِ الجليلِ تثبيتٌ لهم وتطمينٌ لقلوبهم

في إظهارِ الاسمِ الجليلِ علّةٌ وغايةٌ؛ فإنّهُ أرادَ تثبيتَهُم "بذِكْرِ الاسمِ الأعظمِ وما دلَّ عليهِ مِنَ الصّفاتِ"[1]؛ فيتحصَّلُ مِن ذِكْرِه تعالى ما يدلُّ على الذَّاتِ الإلهيَّةِ، معَ صفةِ العَظَمَةِ والكمالِ القائمةِ، بما يُنَاسبُ حالَهم مِن خوفِهِم الّذي كانوا فيه.

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾:

إيمانُهُم باللهِ تعالى يُسرِّعُ بهم إلى التّوكُّلِ عليهِ مِن غيرِ إبطاءٍ

الفاءُ في قولِه: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ دالَّةٌ على التّعقيبِ من غيرِ مُهْلةٍ؛ فإنَّ إيمانهم باللّه تعالى يجبُ أن يكونَ مُسرعًا بهم إلى عقدِ العزمِ على التّوكّلِ على اللّه سبحانهُ من غيرِ بُطءٍ ولا تأخيرٍ، بل على وجهِ السّرعةِ والمبادرةِ.

وجهُ تقديمِ شِبهِ الجملةِ ﴿فَعَلَيۡهِ﴾:

كلّ ما سواهُ تحتَ مُلكِهِ وتَصَرّفِهِ وتدبيرِه، فكيفَ يُتوكَّلُ على غيرِه؟!

قدّمَ شبهَ الجملةِ ﴿فَعَلَيۡهِ﴾ في قولِه: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾؛ لإفادةِ الحصرِ؛ فإنّ التّوكُّلَ يكونُ عليهِ سبحانَه لا على غيرِه؛ فإنّ كلّ ما سواهُ تحتَ مُلْكِه وتَصرُّفِه، وتحتَ حكمِه وتدبيرِه؛ فيمتنعُ عقلًا أن يَتوكّلَ الإنسانُ على غيرِه[2].

في قصْرِ التّوكُّلِ عليهِ سبحانَهُ نهيٌ عن الخوفِ مِنْ فتنةِ فرعونَ وأتباعِه

وفي تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على مُتعلّقهِ فائدةُ القصرِ الإضافيِّ[3]، يُفسِّرُه ما حُكيَ مِن خوفِهِم مِن فرعونَ أن يفتنَهُم؛ فصارَ المعنى إلى نهيِهم عنِ الخوفِ مِن فرعونَ[4] بمدْعاةِ توكُّلِهم على اللّه المُتَّصفِ بالعَظَمةِ؛ فإنّ مَن توكّلَ على اللّه كفاهُ فرعونَ ومَن والاهُ.

إيثارُ الإضمارِ بدلَ إظهارِ لفظِ الجلالةِ:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بالضّميرِ في ﴿فَعَلَيۡهِ﴾ على إظهارِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/177.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/290.
(3) معنى القصر عمومًا راجع إلى تخصيص الموصوف عند السّامع بوصفٍ دون ثانٍ، وفيه أنواعٌ كثيرةٌ كالإضافيّ والادّعائيّ وغيرها. يُنظر: السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 288.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/262.

الضميرُ يُعوِّضُ مِن تكرارِ الأسماءِ الظّاهرةِ؛ طلبًا للإيجازِ ولكمالِ الارتباطِ بينَ الجملتين

الاسمِ الجليلِ (اللّه) في قولِه: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ لأنَّه مذكورٌ قبلَهُ؛ كما هوَ شأنُ الضّمائرِ الّتي تُعوِّضُ مِن تكرارِ الأسماءِ الظّاهرةِ، ولإفادةِ كمالِ الارتباطِ بينَ الجملتينِ بعودِ المُضمَرِ على الظّاهرِ.

دلالةُ التّعبيرِ عنِ التّوكّلِ مجموعًا:

أمرَ مُوسى قومَهُ بالتَّوكّل، فكانَ فوقَ التّمامِ

عبَّرَ عنِ التّوكّلِ مجموعًا بإسنادِ فعلِ الأمرِ إلى ضميرِ الجمعِ؛ ليدُلَّ على عُلوِّ الدّرجةِ هنا؛ فإنَّ نوحًا ﷺ وصفَ نفسَهُ بالتّوكُّلِ على اللّه بقولِه: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ [يُونُس: 71]، وهوَ أمرٌ محمودٌ مرغوبٌ، موصوفٌ بالتّمام، أمّا مُوسى فقدْ أمرَ قومَهُ بالتّوكّلِ، فكانَ موصوفًا بأنّهُ فوقَ التّمامِ[1].

توجيهُ صيغةِ التّفعُّلِ في ﴿تَوَكَّلُوٓاْ﴾:

التّفعُّلُ في تكريرِ الممارسةِ حتّى تكونَ مألوفةً، فيصيرَ التّوكّلُ شعارًا ودِثارًا

الفعلُ ﴿تَوَكَّلُوٓاْ﴾ على زنةِ (تَفَعّلَ)، ومعنى التّفعُّلِ: ممارسةُ الفعلِ وتكريره[2]، وإخراجُ طاقةِ المرءِ وجهدِهِ ليحصُلَ المرادُ، وهذا شأنُ التّوكّلِ، فينبغي تكريرُ "الممارسةِ حتّى يألفَها إلفًا، ويختارَها اختيارًا، فيصيرُ التّوكُّلُ والهُدُوُّ والسّكونُ والرّضا والصّبرُ لهُ شعارًا ودِثارًا"[3]؛ فلا يحصلُ التّوكّلُ بينَ ليلةٍ وضحاهَا؛ بل بهِ حاجةٌ للصّبرِ، وبعدهُ يأتي نصرُ اللّه وتأييدُهُ.

وجهُ حذفِ جوابِ الشّرطِ في قولِه: ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾:

دلّ جوابُ الأوّلِ على الثّاني فحُذف

في قولِه: ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ شرطٌ ثانٍ، جوابُهُ محذوفٌ، دلّ عليهِ جوابُ الشّرطِ الأوّلِ مِن قولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾، على تقديرِ: (إن كنتم مسلمينَ، فإن كنتمْ آمنتمْ باللّه فعليهِ توكّلوا)، فحذفَ جوابَ الثّاني لدلالةِ جوابِ الأوّلِ عليهِ[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/290.
(2) الرّضيّ، شرح الشّافية: 1/92.
(3) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/261. والهُدُوُّ: من الهداية. ينظر: ابن منظور، لسان العرب: (هدى).
(4) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 2/372.

دلالةُ جملةِ ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾:

جملةُ: ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ دالَّةٌ على الإلهابِ والتّهييجِ والتّحفيزِ لأجلِ الثّباتِ[1]؛ لأنّهُ لا يَشْتَرِطُ عليهم الإسلامَ؛ فهم مسلمونَ حقيقةً.

في الجملةِ أسلوبُ إلهابٍ وتهييجٍ لأجلِ الثّباتِ

بلاغةُ تكرارِ جملةِ الشّرط:

قولهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ من بابِ تعليقِ الشَّرطِ على الشَّرطِ[2]، ففي الآيةِ شرطانِ: الأوَّلُ: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾، والثّاني: ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾، والحاصلُ مِنَ الشّرطينِ أنّ توكّلَهُم موقوفٌ على إيمانهم وإسلامهم، وفي ذلكَ مزيدُ عنايةٍ بالتّوكُّلِ وملازمتِهِ للإيمانِ والإسلامِ، وأنّ الشّرطَ الثّاني مُبيِّنٌ ومُؤكِّدٌ للأوّلِ[3].

مِن شروطِ التَّوكُّلِ ملازمَتُه للإيمانِ والإسلامِ

وُرودُ شرطِ الإيمانِ مُتقدِّمًا لفظًا، وشرطِ الإسلامِ متأخِّرًا، لا يقتضي التّرتُّبَ الوجوديّ[4]، بل العكسَ؛ فإنَّ شرطَ الإسلامِ مُتقدِّمٌ على شرطِ الإيمانِ؛ فالإيمانُ يقتضي أن يكونوا مسلمينَ أوّلًا، كحالِ طالبٍ معاقَبٍ مِن مديرِ مدرستهِ بأن يشترطَ عليهِ بقولهِ: (إنْ جئتَ يومَ السَّبتِ القادمِ قَبلَتُكَ في المدرسةِ إن كانَ معكَ وليُّ أمرِكَ)، فَمَجيءُ وليِّ الأمرِ هنا مُقدَّمٌ على مجيءِ الطّالبِ ومُعلَّقٌ عليهِ، ومثلُهُ تعليقُ الشّرطِ الثّاني على الأوّلِ، وتقديمُه عليهِ في المعنى[5].

شرطُ الإسلامِ مُتقدِّمٌ على شرطِ الإيمانِ، الّذي يقتضي الإسلامَ أوّلًا

موقعُ جملةِ: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾:

موقعُ جملةِ: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ واقعةٌ بينَ جُملتيّ: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ و﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾، وهما شرطانِ؛ أحدهُما مُتقدِّمٌ والآخَرُ

جملةٌ متوسطةٌ بينَ الإيمانِ والإسلامِ، وهيَ جوابٌ للاثنيْنِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/177.
(2) ألّف فيه ابن هشام الأنصاريّ كتابًا بمسمّى: (اعتراض الشّرط على الشّرط)، وهو " أَن يتوارد شَرْطَانِ على جَوَاب وَاحِد فِي اللَّفْظ على الْأَصَح" وقد ذكر الآية موضع البحث. يُنظر: ابن هشام، اعتراض الشّرط على الشّرط، ص: 43، 31.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/262.
(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/258.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6152.

مُتأخِّرٌ، وهي جوابٌ للشّرطيْنِ جميعًا[1]، وفيه مَلْمَحٌ لطيفُ الصَّنعةِ يكادُ يكونُ خفيًّا؛ فإنّهُ قد وَسَّطَ الجوابَ بينَ الشَّرطيْنِ، في إشارةٍ إلى أنّهُ مُتعلِّقٌ بكليهما؛ فالإيمانُ عن يمينِه، والإسلامُ عن شِمالِه، فالأوّلُ واجبٌ، والثّاني ممّا ينبغي لهم تحقُّقُه فيهم.

سرّ التّعبير بـ ﴿مُّسْلِمِينَ﴾ دونَ (مؤمنيَن):

إسلامُ النَّفسِ وخلوصُها مِن حظِّ الشَّيطانِ شرطُ التَّوكّلِ

في قولِه: ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ عبّرَ بلفظِ المسلمينَ دونَ لفظِ المؤمنينَ في إشارةٍ إلى أنّ شرطَ التّوكّلِ على اللّه هوَ الإسلامُ، وهوُ الخلوصُ للحقّ سبحانَهُ من غيرِ أن يكونَ للشّيطانِ أدنى حظّ؛ لأنّ التّوكّلَ عليهِ سبحانَه لا يكونُ معَ التّخليطِ[2].

تشفيع تصديقِ القلبِ إلى إذعانَ الجوارحِ

وعدلَ عن لفظِ (المؤمنينَ) إلى لفظِ (المسلمينَ)؛ لأنّهُ ذكَّرهُم بالإيمانِ في الجملةِ الشّرطيَّةِ الأولى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾، فلمّا ذَكَرَ الإيمانَ أوّلًا ذكرَ الإسلامَ بعدَهُ ليَجمعَ إذعانَ الجوارحِ إلى تصديقِ القلبِ[3].

ذِكْرُ الإسلامِ فيهِ زيادةُ معنًى

واشتراطهُ أن يكونوا ﴿مُّسْلِمِينَ﴾ غايتُه أنّهم أهلُ طاعةٍ وخضوعٍ يُزادُ على إيمانِهم المشروطِ، ممّا يشي بأنّ ذِكرَ الإسلامِ بعدَ الإيمانِ يدلُّ على زيادةِ معنًى[4]، مِن اطمئنانِ القلبِ وإخلاصِ النّيّةِ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/263.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/364.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/177.

(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/138.

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥﴾

[يونس: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ما سبقَ مِن اشتراطِهِ ﷺ أن يتوكّلوا على الله إن صحَّ منهم الإسلامُ هذا جوابُهُ؛ فالشّرطُ يقتضي جوابًا؛ فهما متعالقان، فإنّ الفاءَ أفادتْ ترتُّبَ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها، ومناسبتَها لها مَعَ التّعقيبِ[1]، فتوكّلُهم على الله فيهِ إثباتُ كونِهم مسلمينَ، وأنّ التّوكّل مَلْجَؤُهُم ومَعاذُهم، معَ دعواهُمْ بألّا يكونوا موضعَ فتنةٍ للقوم الظّالمينَ.

على المسلم أنْ يكونَ مُتوكِّلًا على الله وحدَهُ بمنأًى عنِ الظّالمينَ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِتۡنَةٗ﴾: والمقصود بالفَتْنِ في الآية - كما تقدّم[2] -: إدخالُ الرَّوعِ والاضطِرابِ على العَقْلِ بسببِ تَسليطِ ما لا تستطيعُ النَّفْسُ تحمُّلَهُ، والمُراد بالفتنة هنا: الكُفْر[3].

المَعنى الإجْماليُّ:

أجابوا موسى عليه السلام، فقالوا: على اللّه وَحْدَه - لا شريكَ له - اعتَمَدْنا، وإليه فوَّضْنا أمْرَنا، ربَّنا لا تُسلِّطْ علينا الظّالمين، فيَفتِنونا عن دينِنا بالتَّعذيب والقتل والإغراء.

التَّوكُّل هو ثمرة الإيمان ونتيجتُه

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تقديمُ هذهِ الآيةِ على ما بعدَها:

قولُه تعالى: ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ الآيةَ، ثمّ بعدَها قولُه:

التّرتيبُ دالٌّ علَى أنّ اهتمامَهم بأمرِ دينِهم يفوق أمرَ دنياهُمْ

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/544.
(2) سبق شرحُ لفظ (الفتنة) في تفسير سورة يونس: الآية: 83.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/91.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ﴾ الآيةَ، ترتيبٌ يدلُّ على أنَّ اهتمامَ القوم بأمرِ دينهِم في توكّلِهم، ودعواهُمْ ألّا يكونوا فتنةً للظّالمينَ، فيُظنّ بُطلانُ الدّينِ وهوَ حقٌّ، وهو مُقدَّمٌ على اهتمامهم بأمرِ دُنياهُمْ، وهوَ طَلَبُ نجاتهِمْ بأبدانهِمْ[1].

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَقَالُواْ﴾:

صدقُ الإيمانِ والنُّورُ النَّبويُّ كانَ مُسرِعًا بهم إلى التّوكُّلِ

الفاءُ في قولهِ تعالى: ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ الآيةَ، عاطفةٌ مُعقّبةٌ هذهِ الجملةَ على مقالةِ مُوسى عليه السلام، خلافًا لمقتضى الحالِ مِن جريانِ الأقوالِ في المحاوراتِ مِن غيرِ عطفٍ، أمّا التّعقيبُ: فإنَّ صدقَ الإيمانِ ونورَ الهَدي النّبويِّ كانَ مُسرعًا في مُبادرتِهمْ إلى عقدِ العزمِ في التّوكُّلِ عليهِ سبحانَه[2].

دلالةُ فعلِ القولِ ماضيًا مجموعًا:

لكونهم مخلصينَ؛ قَبِلَ اللهُ سبحانَه توكُّلَهم، وأجابَ دُعاءَهُم

جاءَ فعلُ القولِ منهم بصيغةِ الماضي في: ﴿فَقَالُواْ﴾؛ لأنّهم كانوا مُخلصينَ مُتوكّلينَ عليهِ سبحانَهُ كما هوَ شأنُ الماضي من تحقُّقِ الوقوعِ، وأنّهُ تعالى قَبِلَ توكّلَهُم، وأجابَ دعوتَهم جميعًا[3].

معنى ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾:

بيد الله تعالى وحدَه تدبيرُ الأمور

﴿عَلَى﴾ في قولهِ تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ دالّةٌ على الاستعانةِ والاعتمادِ[4] والاتّكاءِ؛ فهو المُعينُ في جميعِ أمورِنا، والرّجوعُ إليه في جملةِ أحوالِنا؛ فهو مالكُ تدبيرِ الأمورِ كلّها، والقادرُ عليها، وكأنَّ المتوكِّلَ مُتّكئٌ على الحقّ سبحانَه.

إظهارُ الفاعلِ لفظِ الجلالةِ:

العَظَمَةُ لله وحدَهُ، ومَن يتوكّل عليهِ لَا تُرهبُهُ قوةٌ في الأرضِ

في قولهِ تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ أظهرَ الفاعلَ، وهو: لفظَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/290.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/363.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/364.
(4) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/128.

الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لبيانِ عَظَمتهِ تعالى، وأنّها لهُ وحدَهُ[1]، في تلاؤم معَ سياقِ التّوكّلِ، فإنّ مَن يتوكّلْ على اللّه بعَظَمتهِ وجَبَروته، لا تُخيفُه أيّةُ قوّةٍ على الأرضِ[2].

تقديمُ الجارّ و(لفظِ الجلالةِ) على فعلِ التّوكُّل:

التّوكّلُ مقصورٌ عليهِ سبحانهُ، وفي التّقديمِ اقتضاءُ التَّجرّد له وحده

في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ قدّمَ الجارّ والاسمَ الجليلَ على فعلِ التّوكُّلِ؛ لإفادةِ خصوصيّةِ القصرِ المُتضمّنِ أنّهم متجرِّدون كلّ التّجرّد عنِ التّوكّل على غيرِ الحقّ سبحانَه؛ فهو كافٍ أمورَهُم لا أحدَ سواهُ[3].

إسنادُ التّوكّل إلى ضميرِ المتكلّمِ المجموعِ:

أيْ إنّ جميعَهُم يُـفـوِّضـون أمـورَهـم كلَّها إليهِ سبحانَه

قولُه: ﴿تَوَكَّلۡنَا﴾ أسندَ فعلَ التّوكُّلِ إلى ضميرِ المُتكلّمِ المجموعِ إيذانًا بأنّهم بجمعهم يُفوِّضونَ إليهِ جميعَ أمورهِم[4] لا يَنِدُّ أحدٌ منهم عن ذلكَ، فإنّ يدَ اللّه معَ الجماعة.

سرّ تقديمِ التّوكُّل على الدّعاء:

في تقديمِ التّوكُّل على الدُّعاءِ إشارةٌ إلى شرطيّةِ التّوكُّل للاستجابة

في الآيةِ قدّمَ التّوكُّلَ على الدّعاءِ: ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا﴾ وبعدَهُ ﴿وَنَجِّنَا﴾، في إشارةٍ إلى أنّ على الدّاعي أن يُباشرَ فعلَ التّوكّلِ أوّلًا؛ لكي يكونَ مجابَ الدّعوةِ؛ فإنَّ في التّوكّلِ إسقاطَ الخوفِ والرّجاء عن غيرهِ تعالى[5].

التّوكّلُ أساسٌ، والدّعاءُ بناؤه

وفي تقديمِ التّوكّلِ وتأخيرِ الدّعاءِ؛ تلويحٌ بأنَّ الدّاعيَ يَبني دُعاءَهُ على توكّلهِ على اللّه[6]؛ فالتّوكّلُ كالأساسِ، والدّعاءُ كالبُنيانِ، ولا يقومُ بُنيانٌ منْ غيرِ أساسٍ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/177.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3624.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/263.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/177.

(5) حقّيّ، روح البيان: 4/72.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/171.

افتتاحُ الدُّعاءِ بلفظِ الرّبوبيّةِ:

إجابة الدّعاءِ مِن آثارِ التّربيةِ

بعدَ أن بادروا بالإخبارِ عن توكّلِهم عليهِ سبحانَهُ، صَدّروا دعاءَهُم باسمِ الرّبّ: ﴿رَبَّنَا﴾، واختاروا هذا الاسمَ مِن بينِ أسماءِ الجليل السّاميةِ؛ لكونِ إجابةِ الدّعاءِ مِنْ آثارِ الرّبوبيّةِ؛ ولذلكَ كثُرَ استهلالُ الدُّعاءِ بهذا الاسم[1].

دلالةُ حذفِ ياءِ النّداءِ مِن ﴿رَبَّنَا﴾:

حَذَفَ الياءَ للتّعظيم وللإجلال والتَّنْزيه عن معنى الأمرِ

قولهُم: ﴿رَبَّنَا﴾ نداءٌ حُذِفت منهُ الأداةُ تقديرهُ: (يا ربّنا)، وهوَ شائعٌ سائغٌ في القرآنِ الكريم، ودلالةُ حذفِ (يا النّداءِ) معَ الربِّ تعالى الإشارةُ إلى معنى التّعظيم والتّنْزيهِ والإجلالِ لهُ تعالى؛ ذلكَ أنَّ النّداءَ فيهِ شيءٌ مِن معنى الأمرِ، فمعنى (يا فلانُ) أي: (تعالَ أو أدعو فلانًا)[2]؛ فحذفَ الأداةَ لينتفيَ هذا المعنى الّذي لا يجوزُ في حقّهِ تعالى[3].

تقديمُ لفظِ الرّبوبيّةِ:

بذكر الله تعالى تطمئنُّ القلوب

في تقديم لفظِ الرّبوبيَّةِ في دعائهِم مَلمَحٌ لطيفٌ؛ وهو أنَّ في ذِكرهِ سبحانَهُ شعورًا بالطّمأنينةِ والاستقرارِ، وهم الخارجونَ توًّا مِنْ خوفِ فرعونَ وفَزَعِه، وفيهِ إشارةٌ إلى عظيمِ لُطفِ اللّه ﷻ بعبادِه، وتَعَهُّدِهِ إيّاهُم بفضلِهِ ورحمتِهِ؛ وأنّ الّذي خَلَقَهُم وربَّاهم في أحسنِ صورةٍ هو الّذي سيُجيبُ دعاءَهم، وفي ذلك بعثٌ للطّمأنينة في نفوسهم.

إضافةُ لفظِ الرّبّ إلى ضميرهم:

نداؤه تعالى بصيغة التَّعظيم سبيلُ استجابة الدّعاء

أضافَ لفظَ الرّبّ إلى ضميرِ الجمعِ (نا) بقولهِ: ﴿رَبَّنَا﴾، على معنى "ربَّنا يا مَن ربّانا بلطفكِ، وهدانَا إلى توحيدِكِ؛ لا تجعلنَا

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/544.
(2) ابن السّرّاج، الأصول في النّحو: 1/370.
(3) مكّيّ القيسيّ، مُشكل إعراب القرآن: 1/285.

بِحَوْلِكَ وقوَّتِكَ فتنةً، أي: محلّ فتنةٍ"[1] للقوم الظّالمِينَ، ودعاؤه سبحانه بصيغة التَّعظيم والتَّفخيم المُعبَّر عنه بالضَّمير (نا) مظِنّةُ التّذلُّل له، والتّسليمِ بربوبيّته، والاعترافِ بتفرُّده؛ طلبًا في استجابة الدّعوة.

التّعبيرُ عن نفي الجَعلِ مضارِعًا:

الفتنةُ جاريةٌ في كلّ زمانٍ

وقولهُم: ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ﴾ عبّروا عن نفي جعْلِهم فتنةً بصيغةِ المضارِعِ، وفي ذلك إشارةٌ منهم إلى تجدُّد دعائِهم هذا، واستمرارِه، فإنّ الفتنةَ جاريةٌ في كلّ زمانٍ، وطلبُهم غيرُ محدّدٍ بزمانٍ دونَ زمانٍ.

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ الماضي ﴿تَوَكَّلۡنَا﴾ إلى المستقبل:

حصولُ التّوكّلِ ماضيًا موصِّلٌ إلى إجابةِ دعائهم مستقبلًا

وبعدَ تعبيرِهم عنِ التّوكّلِ بالفعلِ الماضي: ﴿تَوَكَّلۡنَا﴾، دَعَوا اللّه تعالى أن لا يجعلَهم فتنةً بصيغةِ المستقبلِ ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ﴾، وفيه التفاتٌ مِنَ الماضي إلى المستقبلِ، والغايةُ منه أن يُنبهَهم على أمرٍ مُهِمٍّ، فيه تطريةٌ لنشاطِ السّامعِ، حتّى لا يبقى الكلامُ على سَنَنٍ واحدٍ، وأنّ حصولَ التّوكّلِ ماضيًا، موصِّلٌ إلى إجابةِ دعائهم مستقبلًا.

دلالةُ تنكيرِ الفتنةِ:

وجهُ التّنكيرِ ليشملَ كلَّ معانيَ الفتنة

في قولِهِ تعالى: ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ﴾ أوردَ لفظَ الفتنةِ مُنكَّرًا؛ لأنّهُ يحتملُ معانيَ عديدةً لا معنًى مُعيَّنًا واحدًا؛ كشأنِ المُعرَّفِ، فيحتملُ معنى الفاتنِ، فلو تسلّطَ عليهم الظّالمونَ لفُتنوا وضَعُفوا وتولَّوا عن اتّباعِ النّبيِّ، ولوِ انتصرَ عليهم أهلُ الباطلِ لفُتِنوا وازدادوا كُفْرًا وعنادًا بظهورهم على أهلِ الحقِّ[2]، وقد يكونُ معنى الفتنةِ: العذابَ.

بلاغةُ المجازِ العقلِّي في لفظِ الفتنةِ:

سؤالُهم أنْ لا يجعلَهُمُ اللّهُ سببَ فتنةٍ

التّعبيرُ بالفتنةِ ليس من بابِ الحقيقةِ؛ فالفتنةُ في اللّغةِ مِنَ الاختبارِ والامتحانِ، وأصلُها من تعريضِ الذّهبِ والفضّةِ للنّارِ؛

---

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/341.

(2) رضا، تفسير المنار: 11/384.

ليتميّزَ الجيّدُ مِنَ الرَّديءِ[1]، ودعاؤهم ألّا يجعلَهم فتنةً، أي: ألّا يجعلَهم سببَ فتنةٍ، فَفِعْلُ الجَعْلِ المُسندِ إلى الضّميرِ إسنادٌ على طريقةِ المجازِ العقليّ بعلاقةِ السّببيّة[2].

سألوا الله ألّا يجعلهُم موضعَ فتنةٍ

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ التّقدير: موضعَ فتنةٍ؛ لانعدامِ صحّةِ الجُملةِ من دونِ هذا التّقديرِ، وحُذِفَ ما حُذِفَ لأجلِ المبالغةِ[3]؛ فقد سألوا الله ألّا يجعلَهم موضعَ فتنةٍ.

دلالةُ اللّامِ في ﴿لِّلۡقَوۡمِ﴾:

لا تجعلْنا مخصوصين بالظّالمين على سبيلِ الافتتانِ

في قولِه تعالى: ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اللّامُ الدّاخلة على (القومِ) تفيدُ الاختصاصَ[4]، وكأنّهم مخصوصونَ بهؤلاءِ الظّالمينَ في تصييرِهم فتنةً.

سِرّ التّعبير عنهم بالقوميّة:

بَلَغوا مَبلَغًا مِنَ الظّلم حتّى تمكّنَ منهم وتَجذّر فيهم

سِرّ التّعبيرِ بـ ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وعدم الاكتفاءِ بوصفِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فيهِ تيئيسٌ وقطعُ أملٍ عنِ الإقلاعِ والكَفِّ عن ظُلمهم هذا؛ فإنَّ بلوغَهم هذا المبلغَ مِنَ الظّلمِ ممّا لا طَمَعَ ولا رجاءَ فيه بإصلاحهم؛ فقد تمكّنَ الظُّلمُ منهم، وتجذّرَ فيهم، حتّى خالطَهم ولابسَ سجاياهم، وتقوّمَ معَ قوميَّتِهم، وصارَ مِن مُقوِّماتِها[5]، ولو لم يُذكَرْ لكانَ لفظُ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بمنزلةِ اللّقبِ، فيصدقُ على مَن كان الظّلمُ غيرَ راسخٍ فيهِ، فهذا مَرجُوُّ الصّلاحِ والعدلِ، والحالُ الّذي هم عليهِ خِلافُهُ.

إيثار لفظِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ومناسبتُه للسّياق:

تلبّسوا بأنواعِ الظّلم ظلم أنفسِهم، وظُلْمِ الخلائق

آثرَ لفظَ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في وَصْفِهِ الكُفّارَ؛ لأنّ الشِّركَ ظُلْمٌ؛

---

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (فتن).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/263 - 264.

(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/544.

(4) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/128.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/189.

ولإشعاره بأنّ الموصوفين قد تلبّسوا بأنواعِ الظُّلْمِ وخالطوها؛ كظُلمِهم أنفسَهم وظلمِهمُ الخلائقَ[1].

نُكْتَةُ جمعِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

التّعبيرُ بالجمعِ ليَعُمّ كلَّ ظالمٍ

وعبّرَ عنِ الموصوفينَ بالظّلم جمعًا: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأنّهُ جزاؤهم؛ فالمناسِبُ أن يأتيَ به على صيغةِ الجمعِ ليشملَ كلَّ ظالمٍ، فينزجرَ عن ذلكَ مَن كانت هذهِ صفتهُ، والجمعُ مَظِنّة الكثرةِ، والدّعاء بالنّجاة مِنَ الظّالمين جميعًا أيًّا كانوا، ومهما بلغ عددُهم.

بيانُ المتشابهِ معَ آية الممتحنة:

سبق آيةَ يونسَ حديثٌ عنِ الظُّلم، وسبقت آيةَ الممتحنةِ حكايةُ كُفرِ قومِ إبراهيمَ عليه السلام

قولهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقولهُ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الممتحنة: 5]، اختصّت كلُّ آيةٍ بما اختصّت به مِنَ المجرورِ؛ مِن حيثُ إنَّ آيةَ يونسَ تَقَدَّمَها حالُ آلِ فرعونَ وما كانَ مِن سَعْيِهِمُ الدّائبِ لمجاوزةِ الحدِّ، ووضعِ الأشياءِ في غيرِ موضعِها، وسلبِ الآخرينَ حقوقَهم، وهذا كلّهُ ممّا يناسبهُ التّعبيرُ بوصفِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أمّا آيةُ الممتحنةِ فقدَ تقدّمتها حكايةُ إبراهيمَ عليه السلام ومَن معهُ: ﴿إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: 4]؛ فالسّياق هنا في كُفرِ قومِ إبراهيمَ عليه السلام؛ فذِكْرُ ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الممتحنة: 5] يناسبُه أشدَّ المناسبةِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/264.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾ [يونس: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الاهتمامُ بحفظِ الأديانِ أهمُّ مِنَ الاهتمامِ بحفظِ الأبدانِ

لَمّا كانَ مِن دعوتِهم أن لا يجعلَهم اللّه تعالى فتنةً للقوم الظّالمينَ مِن قومِ فرعونَ، زادوا هنا دعاءً مُكَمّلًا بأن يُنَجيَهم برحمتِه وعطْفِه مِنَ القومِ الكافرينَ، وجعلوهُ آخرَ دعائِهم؛ فإنَّ الاهتمامَ بحفظِ الأديانِ أهمُّ مِنَ الاهتمامِ بحفظِ الأبدانِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

(1) ﴿وَنَجِّنَا﴾: أصلُ النَّجَاءِ: الانفصالُ مِنَ الشَّيءِ، ومنه: نَجا فلانٌ من فلانٍ، وأنْجَيْتُهُ ونَجَّيْتُه، قال تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النَّمل: 53][2]، والنَّجاةُ: الخلاصُ ممَّا فيهِ المَخافَةُ، ونَظيرُها السَّلامَةُ، والتَّنْجِيَةُ: الإنْجاءُ: وَهُوَ جَعْلُ الغيْرِ ناجيًا[3]. والنَّجْوَةُ: المكان المُرتفع المنفصل بارتفاعه عمَّا حولَه، وقيل: سُمِّي لكونه ناجِيًا مِنَ السَّيل، وَنَجَّيْتُهُ: تركتُه بنَجْوَة، وعلى هذا: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92][4]، فالمقصود بالنَّجاة في الآية: الخلاصُ من ضُرٍّ وَاقِعٍ.

المَعنى الإجماليُّ:

بيان أهمية الدُّعاء، وأنَّه من صِفات المتوكِّلين

أضافوا دعاءً مُكَمّلًا لما دَعَوا به، فقالوا: وخلِّصنا - يا رَبَّنا - برَحمتِك مِن كيدهم، ومِن بَطشِ قَومِ فِرعونَ الكافرينَ وسُلطانِهم، فقدِ استعبدونا وآذَوْنا بالتَّعذيب والقتل[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/290.
(2) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (نجو)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/130.
(4) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/254، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/370، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/289.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ وصلِ الدّعاءِ في الآيةِ:

الآيةُ تُلخِّص اشتغالَهم بالدُّعاءِ لأنفسهم بالنّجاة، بعدَ دعائِهم لِأَنْ يُثبّتَهُمُ اللّه تعالى على الدّينِ، وألّا يجعلَهم فتنةً؛ فوصلَ هذا الدُّعاء بما قبلَهُ بالعطفِ على الغايةِ مِنَ الكمالِ؛ لأنّهُ مُتَمِّمٌ لهُ، لا ينفصلُ عنهُ، ووُرُودُهُ بعدَه بحسبِ الاهتمامِ منهم، فإنَّ سلامةَ دينِهِم أهمُّ عندَهم مِن سلامةِ أنفسِهم[1].

دعـاءُ سلامةِ الأبدانِ موصولٌ بـدعـاءِ سلامةِ الأديانِ

دلالةُ فِعْلِ الأمرِ المُشدَّدِ ﴿وَنَجِّنَا﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَنَجِّنَا﴾ أوردهُ بصيغةِ التّضعيفِ (فَعّلَ)، الدّالِّ على المبالغةِ والتّكثيرِ في غالبِ أحوالِه في لسانِ العربِ[2]؛ فطلبوا النّجاةَ على وجهِ المبالغةِ والتّكثيرِ؛ لما يرونَهُ مِن سلطانِ فرعونَ وعذابِه؛ فإنّهُ كانَ يُسخِّرهم بالأعمالِ الشّاقّةِ المُرهِقة[3].

طلبوا النّجاةَ مِنَ العذابِ على وجهِ المبالغةِ، فإنّ حُكْمَ الكافرِ لا يُطاقُ

ومِن مقتضياتِ التّعبيرِ بالفعلِ المُشدَّدِ ﴿وَنَجِّنَا﴾ - فضلًا عنِ المبالغةِ والتّكثيرِ - أن يكونَ الحَدَثُ بطيئًا، وأن يستغرقَ وقتًا أطولَ[4]، وفي ذلكَ مَلْمَحٌ خَفِيٌّ، وهو إظهارُ امتنانِه سبحانَهُ عليهم؛ فقد نجّاهم بعدَ طُولِ لُبْثٍ وانتظارٍ كانوا تحتَ فرعونَ وعذابِه.

التّشديدُ يقتضي زمنًا أطولَ، وفيهِ إظهارُ الامتنانِ

بلاغةُ المجازِ في قولِه: ﴿وَنَجِّنَا﴾:

الفعلُ المدعوُّ بِهِ ليس مِن بابِ الحقيقةِ، بل هوَ مجازٌ، فإنَّ ﴿وَنَجِّنَا﴾، أي: اجعلْنا بِنَجْوَةٍ ممّن يتسلّطُ علينا، ويَسُومُنا سُوءَ العذابِ؛ فالنَّجوَةُ: المكانُ المرتفعُ الّذي يَلْجَأُ النّاسُ إليهِ عندَ حدوثِ السَّيْلِ[5]، فاستعملَهُ هنا للنَّجاةِ مِن فرعونَ وقومِه.

النَّجوَةُ المكانُ المرتفعُ الّذي يُلْجَأُ إليهِ عندَ حدوثِ السَّيْلِ

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/96.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/64.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/370.
(4) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/129.
(5) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 10/6157.

دلالةُ الباءِ في قوله: ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾:

رحمتُهُ سببٌ لنجاتِنا ممّا نحنُ فيهِ مِنَ العذابِ والهَوانِ

قولهُم: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ﴾ الباءُ هنا تُفيدُ السَّببيَّة والتّعليلَ، وهو من معانيهَا في لسانِ العربِ[1]، أي: إنَّ نجاتَنا حاصلةٌ بسببِ رحمتِك الّتي وسعتْ كلَّ شيءٍ، وإنعامِك علينا؛ فنحنُ المحتاجونَ لهذا الإنعام في دَفْعِ ما وَقَعَ علينا مِن ضُرٍّ وأذًى[2].

أحسَنوا التوسُّل إلى اللهِ ليستجيبَ دعاءَهُم

وتحتملُ الباءُ في قوله: ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾ أن تكونَ دالَّةً على الاستعانةِ[3] والتّوسُّلِ والاستعطافِ؛ فإنّ تعبيرهُم هذا يدخلُ في بابِ حُسنِ التّوسُّلِ، أي: أنّهم توسَّلوا إلى اللهِ برحمتهِ كي يستجيبَ دعاءَهُم[4]، وبينَ التّوسُّلِ والاستعانةِ علائقُ ووشائجُ بيِّنةٌ.

وجهُ اختيارِ صفةِ الرَّحمةِ دونَ غيرِها:

اختيارُ صفةِ الرَّحمةِ للتّبرُّؤِ مِنَ الإدلالِ بإيمانِهم؛ لأنَّ المنّةَ للّهِ عليهم بأن نجّاهم

وفي دعائهم أن يُنَجِّيَهمُ اللّه مِنَ القومِ الكافرينَ، زادوا ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾ تبرُّؤًا مِن أن يكونَ إيمانهُم دافعًا لاستجابةِ دعائِهم ونجاتِهم، بل للإيذانِ بأنّ المنّةَ للّه عليهم[5]، ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الحجرات: 17] بأن أنقذكُم ونجّاكم برحمتهِ، لا بإيمانكُم. وتوسُّلُ المؤمنين إلى اللّه برحمته لأنّها المصدرُ الأساسُ لخَلاصِهم وسَلامتِهم.

نُكْتَةُ إضافةِ الرّحمةِ إلى الله تعالى بضميرِ المخاطَبِ:

في القُربِ منه تعالى مزيدُ لطفٍ وعنايةٍ

قولُه: ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾ مِن إضافةِ الاسمِ الظّاهرِ إلى ضميرِ الخطابِ العائدِ عليهِ سبحانَه، وفي هذهِ الإضافةِ مزيدُ بيانِ لطفهِ تعالى وقُربهِ؛ لأنّ المخاطَبَ قريبٌ، وفي القُربِ مزيدُ وُدٍّ وعنايةٍ.

(1) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 139.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/129.
(3) وهو من معانيها المشهورة، يُنظر: ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 139.
(4) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/500.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/264.

سِرُّ تقديمِ شِبهِ الجملةِ ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾:

في قولهِ تعالى: ﴿بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ قدّمَ شِبهَ الجملةِ ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾ على ما بَعْدَهُ معَ جوازِ تأخيرِه، وتقديمُ بعضِ المتعلّقاتِ على بعضٍ يجري على نَسَقٍ دقيقٍ، مِن مراقبةِ المعاني وتحرّي الدِّلالاتِ، وهو أنَّ التّقديمَ يكونُ بما هو أوثقُ بغرضِ الكلامِ، وأكثرُ صلةً بسياقهِ الّذي يجري فيهِ[1]، وسرُّ ذلكَ الاهتمامِ أنَّ النّجاةَ إنمّا تكونُ برحمتهِ تعالى، والتّقديمُ يُفيدُ الاهتمامَ وتأكيدَ سببِ النَّجاةِ، وهي الرَّحمةُ، ففي التّقديمِ تأكيدٌ أيضًا.

النّجاةُ إنّما تكونُ برحمتهِ تعالى، وسببُ النَّجاةِ مؤكَّدٌ برحمتهِ

معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾:

﴿مِنَ﴾ في الآيةِ دالَّةٌ على الفَصْلِ والتّمييزِ، وهو أحدُ معانيها[2]؛ فقد دَعوا اللّه تعالى أن يُنجِّيَهم، أي: يُخلِّصَهم، ويَميِّزَهم مِنَ القومِ الكافرينَ، وهم قومُ فرعونَ الّذين كانوا يستعبدونَهُم، ويستعملونَهُم في خسيسِ الأعمالِ[3]، وهو ردُّ فعلٍ طبيعيٍّ لخوفهم مِن فرعون وقومه.

دَعَوا اللهَ تعالى أن يُخلِّصَهم ويَميزَهم مِنَ القومِ الكافرينَ

تكرارُ لفظِ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ مُعرَّفًا:

كَرّرَ لفظَ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ وَوَصَفَه بـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ للدّلالةِ على أنّهم بلغوا مبلغًا مِنَ الكُفْرِ بما ليس فيه أملٌ في رجوعهم إلى جادّةِ الحقّ والإيمانِ؛ لأنَّ الكُفْرَ قد نزلَ منهم منْزِلًا ثابتًا راسخًا، حتّى لابسهُمْ وتقوّمَ مع قوميَّتِهم، وصارَ مِن أُسسِها، وانتفاءُ لفظِ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ ممّا يُخفِّفُ مِن معنى الكفرِ فيهم؛ فيَغْدُو كأنّهُ غيرُ راسخٍ فيهم، وأنَّ الأملَ معقودٌ في إيمانهم، وحالُهم يُنبئُ عن غيرِ ذلك؛ فإنَّ الكفرَ مُتقوِّمٌ مُستقِرٌّ فيهم.

نزلَ الكُفْرُ منهُم منزلًا ثابتًا راسخًا حتّى لابَسَهُم

(1) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 367.
(2) أبو حيّان، ارتشاف الضَّرَب: 4/1720.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/171.

بلاغةُ المجازِ:

قولُه: ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾ ليسَ على نيّةِ الحقيقةِ، بل مِن بابِ المجازِ؛ فإنَّ دعاءَهُم بأن يُنَجِّيَهمُ اللّه مِن سُوءِ صنيعِ القوم، ومِن أذى جوارهِم[1]، وليستْ نجاتُهم مِن ذاتِ القوم؛ فالذَّواتُ لا تتَّصِفُ بالسُّوءِ والأذى والضَّررِ، وإنّما فِعالُ القومِ وأحوالُهُم هيَ مَن تتَّصفُ بذلك.

والتّعبير بـ ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾ على حذفِ مضافٍ، أي: مِن كيدِ القوم، والتّعبيرُ عنِ التّنجيَةِ مِن ذواتِهم، يُرادُ منه المبالغةُ؛ للإيماءِ إلى سُوءِ حالِهم، وخُبْثِ أفعالِهم، ومَضَرَّةِ كَيدِهم[2].

دعاؤهم بالإنجاءِ مِن سُوءِ جِوارِ القومِ وصنيعِهم لا من ذَواتهم

صَوَّرَ سُوءَ حالِ القومِ وخُبْثَ صنيعِهم وضَررَ كيدِهِم

دلالة اللّامِ في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ على معنى العهدِ؛ لأنَّ المرادَ بـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: فرعونُ وآلُه وقومُه السّائرونَ في فَلَكِه، وتحتمِلُ اللّامُ أن تكونَ للجنسِ والاستغراقِ، لتشملَ كلَّ كافرٍ، ويدخل فيهِ فرعونُ ومَن معهُ دخولًا أوليًّا[3].

اللّامُ للعهدِ، والكافرونَ فرعونُ وآلُهُ، وتَحتمِلُ الجميعَ فرعونَ وغيرَه

توجيهُ الوصفِ بـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

الكُفْرُ يعني التّغطيَةَ والسَّترَ، فوصْفُهُم بـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: "القاصدينَ سَترَ الحقِّ بأباطيلهمُ الزّائغةِ، الكائدينَ الماكرينَ المُخادِعينَ"[4]، والتّعبيرُ بهذا الاسم دالّ على الثُّبوتِ؛ فإنّهم عريقونَ في تغطيةِ البراهينِ والأدلَّةِ[5] على وحدانيَّتهِ تعالى.

هُمُ العريقونَ في سَترِ الحقِّ بأباطيلِهِم الزّائغةِ

تراتبيَّةُ أوصاف فرعونَ ومَلَئِه:

رُتِّبَتْ أوصافُ فرعونَ ومَلَئِه في الآياتِ السّابقةِ على هذا النَّحو: ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾،

رتَّبَها مِنَ الأقلّ ضررًا وعِصيانًا إلى الأعلى، وكلُّ وصفٍ مُتضمّنٌ معنى ما قبلَه

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/159.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/544.

(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/544.

(4) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/341.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/177.

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وهو ترتيبٌ مِنَ الأقلِّ ضررًا وعصيانًا إلى الأعلى؛ فبدأَهُ بالإفساد، ثمّ الإجرام، فالإسراف، ثمَّ الظُّلم، وختمَه بجِماعِ ذلكِ كلِّه وهو الكُفْرُ؛ لأنَّ الكُفْرَ يتضمَّنُ الظُّلْمَ[1]، والظّلمُ يتضمَّنُ الإسرافَ، والإسرافُ إجرامٌ، والإجرامُ يتضمَّنُ الإفسادَ؛ فجاءت الأوصافُ على هذا التَّرتيبِ البديعِ.

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/129.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٧﴾

[يونس: 87]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مآلُ التّوكّلِ على اللهِ وتفويضُ الأمرِ إليهِ زيادةٌ في الطّمأنينةِ

لَمّا أجابَهُ قومُهُ إلى إظهارِ التّوكُّلِ عليهِ سبحانَه، وتفويض أمرِهِ إليهِ، أتبَعَه ما يزيدُهُ أمنًا وسكينةً، من توطُّنهم في أرضِ العدوِّ كنايةً عن عدم المبالاةِ، وأن يجعلوا بيوتَهُمْ متعبَّداتٍ لا يَطَّلِعُ عليها فرعونُ وملَؤُهُ مِنَ القومِ الكافرينَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَبَوَّءَا﴾: أصل (بوأ) يَدلُّ على الرُّجُوعِ إلى الشَّيءِ[2]، يُقَالُ: بَاءَ يَبُوءُ بَوءًا، إذا رَجَعَ، وَالباءَةُ والمَبَاءَةُ: المَوضِعُ الَّذي تَبُوءُ إليه الإبلُ، هذا أصلُها، ثُمَّ جُعِلَت عِبارةً عَنِ المَنْزِلِ مُطلقًا، ثمَّ كُنِّيَ بها عَنِ النِّكَاحِ؛ لأنَّ مَن تزوَّج امرأةً بَوَّأها مَنْزِلًا[3]. والتَّبوُّء: تَفَعُّلٌ مِنَ البَوْءِ، أي: الرُّجُوعِ، كَأنَّ صَاحِبَ المَسْكَنِ يُكَلِّفُ نَفْسَهُ الرُّجُوعَ إلى مَحَلِّ سَكَنِه، ولو كانَ تَبَاعَدَ عنه في شُؤونِ اكتِسابه. والمُراد بالتَّبَوُّءِ في الآية: اتِّخاذ مكانٍ للسَّكن.

2) ﴿قِبۡلَةٗ﴾ أَصلُ القِبلَةِ مِنَ المُقَابَلَةِ، وهي مُواجَهَةُ الشَّيءِ للشَّيءِ[4]. والقِبلَةُ: الجِهَةُ، يُقال: لَيسَ لِفُلانٍ قِبلَةٌ، أيْ: جِهَةٌ يَتَوَجَّهُ إلَيْها ويُقبِلُ عليها[5]. وتُطلَقُ القِبلَةُ على كُلِّ ما يُستَقبلُ مِنَ الأشْياءِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/178.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بوأ).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والمطرّزيّ، المغرب، وابن منظور، لسان العرب: (بوأ).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبل).
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/51.

ويُتَوَجَّهُ إليَهِ، يُقال: أيْنَ قِبْلَتُكَ، أيْ: الشَّيْءُ الَّذي تُريدُ التَّوجُّهَ إليَهِ[1]. وَالْقِبْلَةُ: اسْمٌ في العَرَبِيَّةِ لِجِهَةِ الكَعْبَةِ، وتلكَ الجِهَةُ هي ما بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ[2]، وجَمْعُ القِبْلَةِ: قِبْلَات. والمُراد بالقِبلة في الآية: جِهةُ الكعبة[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تأكيد أهميَّةِ الصَّلاة ووجوبِ إقامتِها في كلِّ الأديان وعلى كلّ حال

يُخبِرُ تعالى أنَّه أوحَى إلى موسَى وأخيه هارونَ أن يتَّخذا لقومِهما بيوتًا في مِصرَ، تكونُ مساكِنَ لهم، وأن يجعَلوا بُيوتَهم مساجِدَ يُصلُّونَ فيها، وأن يؤدُّوا الصَّلاةَ المفروضة في أوقاتِها، وأن يبشِّرَ موسى المؤمنينَ بالنَّصرِ والثَّوابِ منه سبحانه وتعالى[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوَصْلِ بالعطفِ:

العطفُ على ما سبقَ أو العطفُ على مجموعِ الكلامِ

قولُه تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ الآيَةَ، معطوفةٌ على قولِه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾، وتَحتمِلُ هذهِ الآيةُ أن تكونَ معطوفةً على مجموعِ الكلامِ السّابق؛ فيكونَ من بابِ عَطفِ القِصّةِ على القِصّة؛ فإنّ هذهِ القَصصَ هي الأطوارُ الّتي مرّ بها مُوسى عليه السلام[5].

دلالةُ الوحي، وإسنادُهُ إلى ضميرِ التّعظيمِ:

في الوحي معنى القولِ الدَّالِّ على العَظَمَةِ البالغةِ

دلالةُ الوحي في الآيةِ على معنى القولِ[6]، ثمّ إسناده إلى ضميرِه تعالى ليَخْلَعَ عليهِ التّعظيمَ والتّفخيمَ بما لهُ تعالى مِنَ العَظَمَةِ

(1) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 384، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قبل).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/266.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/266.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/260، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/289، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/531، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 372.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/264.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/171.

البالغةِ[1] والإجلالِ، فإنّ في ذلكَ تعظيمَ الحقّ ﷻ، وبيانَ ارتفاعِ منزلتهِ، وإدخالَ المهابةِ في نفوسِ المخالفينَ.

دلالةُ وقوعِ الوحي إلى مُوسى وهارونَ:

أمرُ الوحي مِنَ الأعمالِ الرّاجعةِ إلى تدبيرِ أمرِ الأمّةِ الّتي يشتركُ فيها الرّسولُ ومُؤازِرُه

قولهُ تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ وقوعُ الوحي إلى مُوسى وأخيهِ عليهما السلام كونهُ مِنَ الأعمالِ الّتي تعودُ إلى تدبيرِ شأنِ الأمّةِ، فيشتركُ فيها الرّسولُ ومَن يُؤازرُه، وهو هنا أخوهُ هارونُ عليه السلام[2].

بلاغةُ المجازِ العقليّ في الآيةِ:

مُوسى وهارونُ هما سببُ تَبَوُّءِ قومِهِمَا للبيوتِ

الفاعلُ في قولهِ تعالى: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا﴾ هو الّذي يسكنُ بالمباءَةِ، لكنّه أسندَهُ إلى ضميرِ مُوسى وأخيه عليهما السلام من بابِ المجازِ العقليِّ لعلاقةِ السّببيّةِ؛ فهما سببُ تبوُّءِ قومِهما البيوتَ المُتَّخَذَةَ للسّكنى، والقرينةُ أنّ جَعْلَ المباءَةِ كان لأجلِ القومِ[3].

سِرُّ إظهارِ ﴿مُوسَىٰ﴾:

خُصّ مُوسى بالذّكرِ لسَبْقِهِ بالدّعوةِ وأصالتهِ فيها، وهارونُ معاونٌ لهُ ومؤازِرٌ

وفي إظهارِ ﴿مُوسَىٰ﴾ في فعلِ الوحي وتخصيصهِ بالذّكرِ سِرٌّ، وهوَ أنّهُ كانَ سابقًا في الدّعوةِ، وهوَ الأصلُ فيها، أمّا هارونُ فهو معاونٌ لهُ ومؤازرٌ[4].

وجهُ التّعبيرِ عن هارونَ بلفظِ ﴿وَأَخِيهِ﴾:

الأخُ مؤازرٌ ومُناصرٌ لأخيهِ، وقصدُهُما واحدٌ

في قولهِ تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ لم يُصَرَّح بذِكرِ هارونَ؛ وإنّما كُنّي عنهُ بلفظِ (الأخِ)؛ لتقدُّمهِ في الذِّكرِ أوّلًا في قولهِ: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [يونس: 75][5]، وهو المناصِرُ والمُعينُ، والأصلُ في (الأخِ) من (وَخَى) إذا قصدَ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/178.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/264.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/265.
(4) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيّة خصائص السور: 4/46.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/96.

أي: إنّ الأخَ يَقْصِدُ قَصْدَ أخيهِ[1]؛ فَقَصْدُ هارونَ في الرِّسالةِ هو قَصْدُ موسى نفسِه، لا يخرجُ عنه.

دلالةُ صيغةِ التّفعُّلِ في لفظِ التّبوُّء:

صاحبُ المسكنِ يتكلّفُ العودةَ إلى مسكنِهِ بعدَ تباعدِهِ عنهُ

وردَ (التّبوُّء) في قولِه تعالى: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا﴾ على صيغةِ التّفعُّل، مِنَ البَوءِ بمعنى الرُّجوعِ، وفي ذلكَ دلالةٌ خفيّةٌ كأنّ صاحبَ المباءَةِ أو السَّكنِ يتكلّفُ العودةَ إلى مسكنِه بعدَ تباعدِه عنهُ، بما يَشْغَلُهُ مِن اكتسابِ عيشِه؛ صيدًا أو احتطابًا أو قطفًا للثّمارِ أو نحوِهُ[2].

ولَمّا كانتْ صيغةُ (تَفعَّلَ) دالَّةً على الفعلِ المُتكرِّرِ المُؤذِنِ بالتّكثيرِ[3]؛ فإنَّ المعنى مُتَحقِّقٌ هنا، وهوَ كَثْرَةُ ممارستِهمُ التّبوّءَ؛ وهو الرجوعُ إلى مساكنِهم بعدَ انقضاءِ شؤونِ اكتسابِهم المَعيشيَّةِ مِنَ الصّيدِ والاحتطابِ وغيرِها.

التّعبيرُ عنِ التّبوُّءِ بالمصدرِ المُنْسَبِكِ:

دلالةُ المصدرِ المُنْسَبِكِ تجدّديَّةٌ في الحالِ والاستقبالِ، بما يناسِبُ رجوعهم المتكرّر لمباءتهم

عبّرَ عنِ التَّبوُّءِ بالمصدرِ المنسبكِ في قولِه تعالى: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا﴾، ولم يُعبّرْ بالمصدرِ الصّريحِ (تبوئهم)؛ لدلالةِ المصدرِ المنسبكِ على التّجدُّدِ في الحالِ وفي الاستقبالِ؛ إذْ يدلُّ على الحدوثِ معَ لمحِ الزّمنِ؛ وهوَ مُنبِئٌ عن حالهم في تجدُّدِ رجوعهم إلى مساكنهم، بما يُعطيهِ معنى التّبوُّءِ، فضلًا عمّا في المصدر المنسَبِكِ مِنَ التَّعبيرِ عن حَدَثِ تبوُّءِ البيوتِ، بمعزلٍ عن كيفيّتِه.

معنى اللّامِ في قولِه: ﴿لِقَوۡمِكُمَا﴾:

تحتملُ التّعليلَ؛ أي لأجلِ قومِكُما، وتحتملُ التّوكيدَ

اللّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِقَوۡمِكُمَا﴾ تَحتمِلُ أن تكونَ للتَّعليلِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أخا).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/264.
(3) الرّضي، شرح الشّافية: 1/105.

والسّببيَّة، على معنى: لأجلِ قومِكُما[1]، وتَحتمِلُ أن تكونَ زائدةً لأجلِ التّوكيدِ، على تقديرِ: بَوِّءَا قومَكُما؛ أي: أنزلاهُم المنزلَ الملزومَ[2].

معنى الباءِ في قولِه: ﴿بِمِصۡرَ﴾:

الباء دالَّـةٌ على الظّرفيَّة

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿بِمِصۡرَ﴾ تَحتمِلُ الظّرفيةَ[3]، وهو أحدُ معانيها المطّردة في لسانِ العربِ، وهو هنا كذلكَ؛ فالمعنى أن يتّخذا بيوتًا بأرضِ مصرَ[4]، أي: في أرضِ مصرَ.

دلالةُ تحديدِ المكانِ ﴿بِمِصۡرَ﴾:

معناها الإقليمُ المعـروفُ الممتدّ مِنَ البحرِ حتّى بلادِ السّودانِ

تدلُّ كلمةُ مصرَ على البلدِ المعروفِ، لأنّها مُنعَتْ مِنَ الصَّرفِ، ولأنّهم عثروا على جثمانِ فرعونَ في حدودِها، ولكن يجوزُ أن يكونَ معناها الإقليمَ المعروفَ المُمتَدّ مِنَ البحرِ حتّى بلادِ السّودانِ[5].

إيثارُ لفظِ (البيوتِ) على (المساكنِ) و(الدُّورِ):

البيوتُ تُتَّخذ في حال الارتحال، والدِّيار والمساكن تكون للإقامة

في قولِهِ تعالى: ﴿بُيُوتٗا﴾ آثَرَ استعمالَ لفظِ البيوتِ على الدّورِ أو المساكنِ؛ لأنَّ هذهِ البيوتَ عبارةٌ عَنْ خيامٍ أو أخصاصٍ أُمروا باتّخاذِها حالَ الارتحالِ والتَّنقّلِ؛ لأنّها ليستْ ديارَهمْ ومساكنَهمُ الّتي كانوا يسكنونهَا قُربَ مدائنِ فرعونَ[6]؛ فهي أقربُ للمساكنِ العابرةِ الّتي يأوونَ إليها للمبيتِ فحسب.

وجْهُ جمعِ (البيوت) جمعَ كثرة:

جمع (البيوت) دليل كثرتها

يناسب جمعُ البيوت على صيغة الكثرة (فُعُول) الدّلالةَ على كَثْرتها، وكَثْرة ساكنيها، فضلًا عن كون المحلّ المُنتقلِ إليه يصلح للعيْش والاستقرار؛ فهي أدعى لكثرة المساكن.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/265.
(2) العُكْبريّ، التّبيان: 2/684.
(3) المُراديّ، الجنى الدّانيّ، ص: 40.
(4) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/500.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6160.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/265.

عِلَّةُ تنوينِ البيوتِ وتنكيرِها:

التّعبيرُ في قولِه: ﴿بُيُوتًا﴾ وردَ مُنوَّنًا مُنكَّرًا، وعِلَّةُ ذلكَ أنّ هذهِ البيوتَ لم تكنْ معروفةً لديهم أوَّلًا، وهيَ غيرُ البيوتِ الّتي سكنوا فيها[1].

البيوتُ المأمورُ بتبوُّئِها لم تكنْ بيوتَهم، وإنَّما كانت مجهولةً لهم

بلاغةُ المجازِ العقليّ في جملةِ ﴿تَبَوَّءَا﴾:

فعلُ التّبوُّءِ في قولِه تعالى: ﴿أَن تَبَوَّءَا﴾ مِن بابِ المجازِ العقليّ؛ فإنَّ التّبوُّءَ اتخاذُ المباءَةِ، وهو المرجعُ الّذي يؤوبُ إليهِ الإنسانُ؛ فهو التّوطّنُ، فإذا توطّنَ الإنسانُ مكانًا ما؛ عادَ إليهِ مرارًا وتكرارًا، وإنْ غابَ عنهُ لطارئٍ[2].

الإنسانُ حين يتّخذُ وطنًا لهُ فهوَ حتمًا سيُعاوِدُه مِرارًا

دلالةُ العطفِ بالواوِ:

قولُه تعالى: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾ معطوفٌ على اتّخاذِ البيوتِ مباءَةً؛ وهو ما جعل بعضًا مِنَ المفسِّرينَ يذهب إلى أنّ هذهِ البيوتَ مُتَّخَذَةٌ للعبادةِ كالمساجدِ[3]، بجامعِ العودةِ إليها دائمًا، وعلى وجهِ الاستمرارِ؛ فهذا هو شأنُ المسجدِ، يعودُ إليهِ الإنسانُ دائمًا لعبادةِ ربّه.

هذهِ البيوتُ مُتَّخَذَةٌ للعبادةِ، بجامعِ العودةِ إليها على وجهِ الدّوامِ

وإذا كانَ جَعْلُ البيوتِ قِبْلَةً على معنى جَعْلِها مُتقابلةً، بعضُها يُقابلُ بعضًا[4]، للحراسةِ وسُهولةِ المراقبةِ والأمنِ؛ فإنّ العطفَ مُتعيِّنٌ أيضًا في العِلّةِ من جَعْلِ البيوتِ قِبْلَةً.

مقابلةُ البيوت للحراسةِ والأمنِ معطوفٌ على اتّخاذِها مَبَاءَةً

توجيهُ جمعِ الفعل، وفاعلُه ضميرُ الرّفعِ (الواو):

وأسنَدَ فعلَ الجَعْلِ ﴿وَٱجۡعَلُواْ﴾ إلى حرف الواوِ الدّالّ على ضميرِ الجماعة؛ لأنّهُ أمْرٌ إلى موسى وأخيهِ عليهما السلام وإلى قومِهما؛ فكلُّ واحدٍ منهُم مُكلَّفٌ بأن يكونَ بيتُه قِبْلَةً[5].

ذلكَ الجَعْلُ مِن عَمَلِ مُوسى وأخيهِ وقومِهمَا، فكلُّ أحَدٍ منهُم مُكلَّفٌ بأن يجعلَ بيتَهُ قِبْلَةً

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/265.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6061.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/605.
(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 5/144.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/266.

التّبوُّء ممّا يفعلهُ المُكلَّفانِ بالرّسالةِ، والجَعْلُ يحتاجُ إلى جمعِ الرّأي إلى الرّأي

نُكْتَةُ التّعبيرِ عنِ التّبوُّءِ بالمُثنَّى، وعنِ الجَعْلِ بالجمعِ:

أوردَ فعلَ التّبوّءِ بالتّثنيةِ ﴿تَبَوَّءَا﴾، فيما أوردَ فِعْلَ جَعْلِ البيوتِ قِبْلَةً جمعًا ﴿وَٱجۡعَلُواْ﴾؛ وذلكَ لأنَّ التّبوُّءَ ممَّا يفعلهُ المُكَلَّفُ بالرّسالةِ لأجلِ المُرسَلِ إليهم، وهؤلاءِ أحوجُ إلى التَّبوُّءِ من مُوسى وهارونَ؛ فهما محفوظانِ بعينِ اللهِ ولا خَوفَ عليهما، أمّا التّعبيرُ عنِ الاتخاذِ بالجَمعِ، فهوَ ممّا يحتاجُ إلى التَّشاورِ وتضامِّ الآراءِ[1].

إظهارُها في مقامِ الضّميرِ للتّمكّنِ والتّقرّرِ في الذّهنِ

سرّ تكرارِ لفظِ البيوتِ:

في إيقاعِ الظّاهرِ موقعَ المُضمرِ في قولهِ تعالى: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾ بإعادةِ ذكرِ البيوتِ، ولمْ يُكَنِّ عنها بالضّميرِ بقولِه: (واجعلوها)؛ ليُمكِّنَ دلالتَها، ويُقرِّرَ مضمونَها في الذّهنِ؛ فتكونَ الإضافةُ عهديَّةً، يؤيِّدُهُ قولهُم: إنّ إعادةَ النّكرةِ معرفة، فهي عينُ الأُولى[2].

الأمرُ بالعبادةِ في بيوتِها إشارةٌ إلى شرفِ أرضِها ورفعةِ قَدْرِها

دلالةُ جَعْلِ البيوتِ قِبلةً للصّلاةِ:

في جَعْلِهم البيوتَ قِبلةً للصّلاةِ دلالةٌ؛ فإنَّ الأمرَ بالعبادةِ في تلكَ البيوتِ فيهِ إشارةٌ إلى مكانةِ أرضِها وشرفِها، وسُمُوِّ قدرِها ورفعتِها[3].

البيوتُ أصبحتْ معروفةً ومِلْكًا لهم، والإضافةُ للعهدِ

علّةُ نسبةِ البيوتِ إليهم:

نسبَ البيوتَ في قولِه: ﴿بُيُوتَكُمۡ﴾ للضّميرِ العائدِ عليهم، وعِلَّةُ ذلكَ: أنّها أصبحتْ معروفةً، وأنّها مِلْكٌ لهمْ؛ فالإضافةُ للعهدِ[4].

القِبلة بمعنَى التّوجُّهِ إلى الجهةِ الّتي يُصلّونَ إليهَا

إيثارُ لفظِ (القِبلةِ):

آثرَ التّعبيرَ بلفظِ القِبلةِ الّتي هيَ اسمٌ لجهةِ الكعبةِ؛ لأنَّ قبلةَ البلادِ المصريَّةِ كقِبلةِ المدينةِ - وهيَ الجنوبُ - متوسطةٌ بينَ المشرقِ والمغربِ؛ فيكونُ التّعبيرُ عنها حكايةً لقولِ مُوسى عليه السلام، بمعنى التّوجُّهِ إلى الجهةِ الّتي يتوجّهونَ إليها في صلاتهم؛ وهي قِبلةُ إبراهيمَ

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/545 - 546.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/545.
(3) القلقشنديّ، صبح الأعشى: 3/305.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/160.

عليه السلام؛ فيكونُ أمرُ بني إسرائيلَ ماضيًا على مِلّةِ إبراهيمَ، قبلَ النَّسخِ والتّوجُّهِ إلى القُدسِ[1].

القِبلةُ مِنَ التّقابلِ؛ أي يجعلوا بيوتَهم متقابلةً؛ لتمكينِ التّبليغِ وإقامةِ الصّلاةِ

إذا كانَ جَعْلُ البيوتِ قبلةً، يعني: متقابلةً، بعضُها يُقابلُ بعضًا[2]، فقد يكونُ الغرضُ مِن هذه الكيفيَّةِ في السّكن هو الحراسَةَ وسُهولةَ المراقبةِ والتّأمين، والتّبليغ وأداء العبادات[3].

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظِ ﴿قِبۡلَةٗ﴾:

تُصلُّونَ في المساجدِ المتَّخذَةِ قِبلةً، مُتَخَفِّينَ مِن كيدِ فرعونَ ومَلَئِهِ؛ لتأمنوا على أنفسِكُم

في تنكيرِ لَفْظةِ ﴿قِبۡلَةٗ﴾ نُكْتَةٌ؛ فإنَّ القِبلةَ بمعنى المصلّى الّذي يُصلُّونَ فيه، بمنأى عن فرعونَ وكَيدِه؛ ليَأمَنوا على أنفسِهم وأهليهم[4]، وكأنَّ التّعبيرَ القرآنيَّ نَكّرَ اللَّفظةَ بُغيَةَ إخفائِها عن عيونِ فرعونَ وقومِه، الّذينَ كانوا يترصّدونَ المؤمنينَ مِن قومِ مُوسى عليه السلام.

بلاغةُ المجازِ في لفظِ ﴿قِبۡلَةٗ﴾:

القِبلَةُ دالَّةٌ على المصلّى، أو المساجدِ مجازًا

ومعنى لفظِ القِبلَةِ هنا: المُصلّى أو المساجدُ المتوجِّهةُ نحوَ القبلة، وهيَ الكعبةُ، وعلى أيّ التّفسيرَيْنِ فهيَ من بابِ المجازِ بعلاقةِ اللّزومِ أو الكُلّيَّةِ والجزئيَّةِ؛ فتكونُ القِبلَةُ مَجازًا عنِ المُصلّى، أو عنِ المساجِدِ[5].

القِبلَةُ هيَ المُصلَّى، ولا تصحُّ إقامةُ الصّلاةِ فيه إلّا باستقبالِ القِبلَةِ

والقِبلَةُ هي الأصلُ الّذي يكونُ عليه المرءُ مِنَ الاستقبالِ، فهيَ مكانٌ للصّلاةِ عُرفًا، ولمّا لمْ تكن كذلكَ هنا، فهيَ مؤوَّلةٌ بالمُصلّى في حالِ اتّخاذِ البيوتِ للسُّكنى، فالصّلاةُ سببٌ لإطلاقِ المُصلَّى على المكانِ، ثمَّ إنَّ شرطَ صِحَّةِ الصّلاةِ هيَ القِبلَةُ[6].

دلالةُ العطفِ بالواوِ:

الأمرُ بإقامةِ الصّلاةِ إتمامُها بركوعِها وسُجودِها

قولُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾ معطوفٌ على ما سبقَهُ، والعطفُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/266.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 5/144.
(3) الطّباطبائيّ، الميزان: 11/114.
(4) الدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 4/361.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/160.
(6) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/545.

هنا ذُو دلالةٍ لطيفةٍ تكادُ تكونُ خافيةً؛ فإنَّ هذهِ الجملةَ تكادُ لغيرِ المتبصِّرِ أنْ تكونَ تكرارًا للجملةِ الّتي سبقتْهَا، وهيَ: ﴿جَعْلُ بيوتهمْ قبلةً﴾، أيْ: للصّلاةِ؛ لتَدُلَّ هذهِ الجملةُ على تمامِ صلاتِهم، بركوعِها وسجودِها[1]، على الرَّغمِ ممَّا يعتريهِم مِن خَوفٍ وَوَجَلٍ مِن فرعونَ ومَلَئِهِ؛ ولذلكَ كانَ مِن هَدْيِهِ ﷺ أنّهُ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صَلَّى[2].

معنى جملةِ الأمرِ:

اتّخاذُ البيوتِ في الرَّحيلِ مَظِنّةُ الشُّغلِ عن إقامةِ الصّلاةِ؛ فأُمِرُوا بالمحافظةِ علَى إقامتِها

معنى الأمرِ في قولِه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾ أيْ: المفروضةَ عليهم من قَبْلِ مُوسى ومِن بَعْدِه، هو لأجلِ المحافظةِ على هذا الرُّكنِ المهمِّ؛ فإنَّ اتّخاذَهُمُ البيوتَ كانَ وهُم في حالةِ الرّحيلِ والسَّفرِ، ومَن كانت هذه حالتُه فمَظِنَّتُهُ الانشغالُ عن إقامة الصّلاةِ؛ فلذلكَ نبَّهَهُم الحقُّ سبحانَه إلى المحافظةِ عليها مُدَّةَ تَرْحالِهِم[3].

توجيهُ جَمْعِ فِعْلِ الإقامةِ، وفاعلهُ ضميرُ الرَّفعِ (الواو):

أقيموهَا جماعةً بحدودِها وأركانِها، مستخفينَ ممّن يؤذيكُم؛ تمرّنًا على الدّينِ، وتثبيتًا له في القلبِ

وقولُه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾ تعبيرٌ دالٌّ على الجمعيَّة، وهو أمرٌ بأنْ يُقيموا الصَّلاةَ جماعةً[4]، فإنّ إقامتَهَا فرضٌ على الجميعِ بأركانِها وحدودِها، جميعًا مُستخفينَ ممّنْ يُؤذيكُم، جامعينَ بينَ سَبَبَي النَّصرِ: الصّبرِ والصّلاةِ؛ تدرُّبًا على الدّينِ وتثبيتًا للقلبِ.

الاتّحادُ في الاتّجاهِ مُعينٌ علَى اتّحادِ القلوبِ

وفي التّعبيرِ بفعلِ الإقامة مجموعًا حِكْمَةٌ؛ فقد أمرَهُم الحقُّ سبحانَه أنَ يتوجَّهوا في صلاتهم إلى جهةٍ واحدةٍ، وهذا التَّوجُّهُ شرطٌ في الصّلاةِ، فهذا الاتّحاد في الاتّجاهِ يَصْحَبُه اتِّحادُ القلوبِ[5]، ففي حديث أبي مسعود، عقبة بن عمروٍ رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللّه ﷺ يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا في الصَّلَاةِ، وَيَقُولُ: اسْتَوُوا، وَلَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ»[6].

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/128.
(2) رواه أحمد، المسند، الحديث رقم: (23297).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/267.
(4) الطّباطبائيّ، الميزان: 11/114.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 11385.
(6) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (432).

وجهُ تعريفِ الصّلاةِ:

والتَّعريفُ في لفظةِ ﴿ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾ للعَهدِ، والمعنى: أنّ الحقّ سبحانَه أمرهُم بأن يُقيموا الصّلاةَ المعهودةَ المعروفةَ عندَهم، الّتي أمرهُم بإقامتِها[1].

أقيمُوا الصّلاةَ الّتي أمركُم اللهُ بإقامتِهَا

سِرُّ تقديمِ جعلِ البيوتِ قِبلةً على إقامِ الصّلاةِ:

قدّمَ جملةَ جَعْلِ البيوتِ قِبْلَةً: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾، على جملةِ إقامةِ الصّلاةِ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾؛ لأنّ التّوجُّهَ إلى القِبْلَةِ من مُقدّماتِ الصّلاةِ؛ إذْ لا تُقبَلُ صلاةٌ من دونِ ذلك، فَبَدأ بتثبيتِ أوّلِ الشّروطِ؛ تحقيقًا لتمامِ ما يتبعُها وصِحَّتِه.

التّوجُّهُ إلى القِبْلةِ مِن مُقدِّماتِ الصّلاةِ والمدخلُ إليها

وجهُ الاكتفاءِ بالصّلاةِ دونَ الزّكاةِ:

وردَ التّعبيرُ في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾ غيرَ مقترنٍ بإيتاءِ الزّكاة، كما هوَ شأنُهُ في غالبِ القرآنِ؛ لأنَّ فرعونَ كانَ قدِ استعبدَهُم وسَبَى أموالَهُم؛ فباتوا فقراءَ ليسَ عندهُم ما يُزكُّونَه، إذْ ليسَ على الفقيرِ زكاةٌ[2].

استعبدَهُم فرعونُ وأخذَ أموالَهم، فباتوا فقراءَ ليسَ عليهم زكاةٌ

وجهُ إفرادِ فعلِ التّبشيرِ، وجمعِ الأفعالِ قبلَها:

في قولِه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أسْنَدَ فعلَ التّبشيرِ لواحدٍ، وهو مُوسى عليه السلام، وإنمّا خَصَّه به من بابِ التّعظيمِ والتّفخيمِ للبشارةِ والمُبشّرِ بها على السَّواءِ[3].

خُصَّ مُوسى عليه السلام بالبشارةِ؛ تعظيمًا لها وللمُبشِّرِ بها

في الآيةِ التفاتٌ مِنَ الجمعِ إلى الإفراد، وقبلَهُما التَّثنيةُ؛ فإنّهُ ثَنَّى أوّلًا؛ لأنَّ موسى وهارونَ عليهما السلام هما الرّسولانِ المُطاعانِ، في أن يتبوَّءا البيوتَ لقومهما، ثمَّ جمعَ الضّميرَ في إقامةِ الصّلاةِ لأنّها فَرْضٌ على كُلِّ أحدٍ، فاقتضى الجمعيّةَ، ثمَّ وَحّدَ فِعْلَ البشارةِ؛ لأنَّ موسى هوَ الأصلُ في الرّسالةِ؛ فكانَ حَرِيًّا بأن تكونَ صادرةً منه[4].

التّثنيةُ راجعةٌ إلى مُوسى وهارونَ، والتّبشيرُ لموسى لأنّهُ الأصلُ في الرّسالةِ

---

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/531.

(2) الحدّاد، تفسير الحدّاد: 3/406، وحقّيّ، روح البيان: 4/73.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/364، وابن الأثير، الجامع الكبير، ص: 102.

(4) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع التّفسير: 2/41، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6164.

الخطابُ في جملةِ التّبشيرِ هو للرّسولِ ﷺ على طريقةِ الالتفاتِ والاعتراضِ

يَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أن يكونَ خطابًا للرَّسولِ ﷺ على طريقةِ الالتفاتِ والاعتراضِ[1]، تنبيهًا على أنَّ ما يُصيبُ المؤمنينَ مِن عذابٍ وعَنَتٍ، فإنّ عاقبتَهُ البُشْرى لهم.

العدولُ في الخطابِ للتّنويعِ، والتّوسُّعِ

والمتتبِّعُ لطريقةِ الخِطابِ في الآيةِ يُلْفي تنوُّعًا وتَوَسُّعًا فيه؛ فثَنَّى في فِعْلِ التّبوُّءِ بقولهِ: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا﴾، ثمّ جعَلَهُ جمعًا في اتّخاذِ المساجدِ وإقامةِ الصّلاةِ بقولِه: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾، ثمّ أفردَ الخطابَ في فعلِ البِشارةِ بقولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وفي هذا الانتقالِ المُتكرِّرِ مِنَ التّنويعِ في الخطابِ والتّوسُّعِ فيهِ[2].

دلالةُ عطفِ جملةِ التّبشيرِ:

جاءتهمُ البُشْرى جزاءَ خوفِهم وترقُّبِهم والتّضرُّعِ لله

لِعَطْفِ جُملةِ التّبشيرِ على ما سبقَها دلالةٌ، فإنَّ العَطفَ مُؤذِنٌ بأنَّ ما أمَرهُم الحقُّ سبحانهُ مِنِ اتّخاذِ البيوتِ هوَ حالةٌ مُشعِرةٌ بالتّرقُّبِ والخوفِ من حصولِ الأخطارِ والأضرارِ؛ لأنّهم دَعَوا اللّه ألَّا يجعلَهُم فتنةً، فَدَفْعًا لكلّ ذلكَ جاءَتْهُم البُشرى، بحُسْنِ العاقبةِ والنَّصرِ على الأعداءِ والنَّجاةِ منهم[3].

وجهُ تعريفِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بـ (ال):

المُخاطَبونَ هُمْ بنو قومِه المعروفونَ المعهودونَ لديهِ

(أل) التّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هي للعهدِ، أي: "بشّرْ قومَكَ الّذين آمنوا بِكَ بحفظِ اللّه إيّاهم من فتنةِ فرعونَ ومَلَئِهِ الظّالمينَ لهم، وتنجيَتِهم من ظُلْمِهم، أو بَشِّرْهُم بالنَّصرِ في الدُّنيا، وبالجنّةِ في العُقبى"[4] فالمخاطَبونَ هم بنو قومِه المعروفونَ المعهودون لديه.

المُبشَّرونَ هم عامّةُ المؤمنينَ إلى يومِ القيامةِ

وإذا كانَ المرادُ مِنَ الخطابِ في جملةِ التّبشيرِ هو الرّسول ﷺ؛

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/606.

(2) ابن الأثير، الجامع الكبير، ص: 101، والسّبكيّ، عروس الأفراح: 1/293.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/267.

(4) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 12/328.

فإنّ (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تكونُ للجنسِ، أي: أن تَعُمَّ البشارةُ المؤمنينَ جميعًا.

نُكْتَةُ جمعِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

في الجمعِ تعبيرٌ عن رُسوخِهِم في الإيمانِ، وثباتِهِم عليه

في التّعبيرِ عن ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ نُكْتَةٌ، فإنّ الجمعَ أبلغُ مِن قولهِ كانَ (مؤمنًا)؛ ففيه دلالةٌ على رسوخهِم في الإيمانِ[1]، وأنّهم المتمرِّسونَ فيهِ، الثّابتونَ عليهِ، المجتمعون على تَمَثُّلِ شرائطه سلوكًا.

مناسبةُ وَصْفِهِم بالمؤمنينَ بعدَ وَصْفِ أتباعِ فرعونَ بمختلفِ النُّعوتِ:

لمدحِهِم بالإيمانِ وللإشعارِ بأنّهُ المدارُ في التّبشيرِ

وَصفُهم بـ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بعد أنْ نَعَتَ قومَ فرعونَ وأتباعَه بمختلفِ النّعوتِ، ووضعُهُم هنا موضِعَ ضميرِ القومِ، للإشارةِ إلى أنّهم ممدوحونَ بالإيمانِ، وللإشعارِ بأنَّ الإيمانَ ركنٌ يقومُ عليهِ التّبشيرُ[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البَيْتُ والمنزل والمسكن:

الانتقالُ يُناسبُ المأوى المؤقَّتَ، دونَ النَّظرِ إلى ماهيَّتِه

البيتُ: اسمُ جِنْسٍ للمكانِ المتَّخَذِ مَسكنًا لواحدٍ أو عَدَدٍ مِنَ النَّاسِ في غَرَضٍ مِنَ الأغْراضِ[3]، ولا يُشترط فيه أن يكون مبنيًّا، ولكن يُشترط أن يكون لعائلةٍ واحدة، لا يُشاركهم فيه أحدٌ؛ قد يكونُ خيمةً، أو شُقَّةً، أو دارًا، أو كهفًا، أو حتَّى غُرْفةً في دارٍ أو مأوًى أو نُزلٍ.

أمَّا المنزلُ: فاسْمٌ لما يشْتَمل على بيُوتٍ وصَحنٍ مُسقّفٍ ومَطبخٍ، يسكنُهُ الرَّجل بعيالِه[4]. والمَسْكَن: مَحَلُّ القَرارِ، وهو مَفْعَلٌ، اسْمُ مكانٍ مُشْتَقٌّ مِنَ السُّكُونِ[5]، وهو حيثُ يسكنُ الإنسانُ، مثل البَيت، ولا يُشتَرط فيه أن يكون مَن يبيتُ في المكان مرتبطًا بالآخرين، فكلُّ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/179.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/171.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/237.
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 239.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/29.

بيتٍ مَسكنٌ؛ وليس كلُّ مسكنٍ بيتًا. ولمَّا كان السَّفر والانتقال مَظِنَّة الاستقرار المؤقَّت ببيتٍ يُؤوي دونَ النَّظر إلى اكتمال مَرافِقه؛ ناسَبَ ذلك لفظُ (البيت)، لما تَقدَّم مِن دلالته على البناء دونَ شرط ماهيّته.

التَّبوُّء والاتِّخاذ:

يناسب لفظُ (التَّبوُّءِ) رجوعَهم إلى موطن سُكْناهم السَّابق

التَّبوُّء: تفعُّلٌ مِنَ البَوْءِ؛ يعني: الرُّجوعَ، وهو اتّخاذ المباءَة، وهي البُقعة الَّتي يَبُوء إليها صاحبُها؛ أي: يَرْجِع إليها بعدَ انتشاره في أعماله[1].

والاتِّخاذ: جَعْلُ شيءٍ لفائدة الجاعِل، وهو مُشتقٌّ مِنَ الأخذ؛ لأنَّ المتَّخِذَ يأخذ الشَّيء الَّذي يَصطفيه[2].

والجامع بينَ المعنَيَيْن النُّزولُ في شيءٍ ذي فائدةٍ. واختيارُ لفظِ التَّبوُّء لدلالته على الرُّجوع المناسب لعودة بني إسرائيل لمصر الّتي كانوا يسكنونها مِن قَبلُ.

(1) الطّريفيّ، التّفسير والبيان لأحكام القرآن: 3/1595.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/229.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾

[يونس: 88]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كانَ ضلالُ فرعونَ وقومِه بالزّينةِ والمالِ؛ فقد سألَ مُوسى إزالةَ ذلكَ كلِّه

ولَمّا ختمَ في الآيةِ السَّابقةِ ببشارةِ المؤمنينَ، وكانَ هلاكُ المُشانئِ مِنَ البشائرِ العظيمة، فقدْ أضلّ فرعونُ بزينتهِ ومالِه؛ وما كانَ من مُوسى في هذهِ الآيةِ إلّا أن سألَ ربّه أن يُزيلَ ذلكَ كُلَّهُ؛ راحةً من شرِّ فرعونَ ومَن تَبِعَهُ؛ فلا يؤمنوا حتّى يَؤُولَ أمرُهُم إلى العذابِ الأليمِ عَيانًا، وعندَها لا ينفعُ نفسًا إيمانُها[1].

قابَلَ إصرارَهم على الجحود بالدّعاءِ بعد أن بالغَ في إظهارِ المعجزات

ثمّ إنَّ موسى لَمَّا بالغ في إظهارِ المعجزاتِ الظَّاهرةِ القاهرة، ورأى القومَ مُصرِّين على الجُحودِ والعِنادِ والإنكار؛ أخذ يدعو عليهم، ومِن حَقِّ مَن يدعو على الغير أن يذكر أوّلًا سببَ إقدامه على تلك الجرائم، وكان جُرمُهم هو أنَّهم لأجل حُبِّهم الدُّنيا تركوا الدِّين[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿زِينَةٗ﴾: أَصْلُ (زين) يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ الشَّيْءِ وَتَحْسِينِهِ[3]، والزَّيْنُ: نقيضُ الشَّيْن. زانه الحُسْنُ يَزِينُه زَيْنًا، وازْدانَتِ الأرضُ بِعُشْبِها، وازَّيَّنَتْ وتَزَيَّنَتْ، والزِّينة: جامعٌ لكُلِّ ما يتزيّن به النَّاسُ، وَمَا يَحْسُنُ في أَنْظَارِهِمْ مِنْ طَرَائِفِ الدُّنْيَا، كَالْحُلِيِّ وَالْجَوَاهِرِ[4].

والمقصود بالزِّينة في الآية: ما يَتَزَيَّنُ بِهِ النَّاسُ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/179.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/292.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زين).

(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (زين)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/269.

(2) ﴿ٱطۡمِسۡ﴾: أصلُ الطَّمْسِ يَدُلُّ على مَحْوِ الشَّيْءِ ومَسْحِهِ، يُقَالُ: طَمَسْتُ الخَطَّ، وطَمَسْتُ الأَثَرَ. والشَّيْءُ طَامِسٌ أيضًا، وقد طَمَسَ هو بنَفْسِهِ[1]. ويأتي بمعنى ذهابِ ضوءِ الشَّيْءِ، يُقالُ: طَمَسَ النَّجمُ: ذَهَبَ ضوؤه، والقمرُ مثلُه[2]، ويكون الطُّموس بمَنْزِلَةِ المَسْخِ للشَّيْءِ، كطَمْسِ مالِ فِرعونَ بدعْوة موسى فصارتْ حِجارةً[3]، والمُراد مِن الطَّمس في الآية: المَحْوُ والإزَالَةُ.

(3) ﴿وَٱشۡدُدۡ﴾: أصلُ (شدّ) يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ في الشَّيْءِ، وَفُرُوعُهُ تَرْجِعُ إِلَيْهِ، يُقال: شَدَدْتُ العَقْدَ شَدًّا، أيْ: قَوَّيْتُهُ[4]. والشِّدَّةُ: الصَّلابَةُ، يُقال: حَجَرٌ شَدِيدٌ، أيْ: صُلْبٌ[5]، وتأتي بمعنى الإسْراعِ، فيُقال: شَدَّ في العَدوِ واشْتَدَّ شَدًّا: إذا أسْرَعَ[6]. أمَّا المُرادُ مِن ﴿وَٱشۡدُدۡ﴾ في الآية فقد ذهب ابنُ عاشور إلى "أنَّه مُشْتَقٌّ مِنَ الشَّدِّ، وَهُوَ العُسْرُ، ومنه الشِّدَّةُ لِلْمُصِيبَةِ وَالتَّحَرُّجِ، ولو أُريدَ غَيْرُ ذلك لقيلَ: واطْبَعْ، أو واخْتِمْ، أو نَحْوُهُما، فيكونُ (شَدَّ) بمعْنَى أدْخَلَ الشَّدَّ أوِ استعملَهُ مِثْلَ جَدَّ في كَلامِه، أي اسْتَعْمَلَ الجَدَّ"[7].

(4) ﴿ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾: أصْلُ الكَلِمَةِ مِنَ العَذْبِ، وهو: المَنْعُ، يُقالُ: عَذَبْتُ عَنْهُ الماءَ، أيْ: مَنَعْتُهُ عَنْهُ، وسُمِّيَ العَذابُ عَذابًا؛ لأنّه يَمْنَعُ الشَّخْصَ مِنَ الرُّجوعِ لِلْجَرِيمَةِ[8]، والعَذابُ: الضَّرْبُ بِعَذَبَةِ السَّوْطِ، أيْ: طَرَفِها[9]، ويأْتي التَّعْذِيبُ بمعنى الإيلامِ والإيجاعِ الشَّدِيدِ[10]. والمُرادُ بـ ﴿ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ في الآية: عذابُ الفقْرِ والجُوعِ، وعَذابُ النَّكَدِ في النَّفْسِ[11].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قال موسى عليه السلام مُخاطِبًا ربَّه، بعد أن فَقدَ الأملَ في إصلاحِ فرعون ومَلَئِهِ: ربَّنا، إنَّك

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طمس).
(2) الخليل، العين: (طمس).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (طمس).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شد).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (شد).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (شد).
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/270.
(8) النّوويّ، تهذيب الأسماء واللّغات: 4/10.
(9) الرّاغب، المفردات: (عذب).
(10) الخليل، العين: (عذب).
(11) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/272.

أعطيتَ فرعونَ والرُّؤوس مِن قومه مِن زُخْرُف الدُّنيا وبهارجها زينةً؛ استدراجًا منكَ لِتَفتِنَهم فيَضِلُّوا ويُضِلُّوا غيرَهم؛ عقوبةً منك لهم، ربَّنا فأَهْلِكْ أموالَهم، فلا ينتَفِعوا بها، واختِمْ على قلوبِهم حتَّى لا تنشَرِحَ للإيمانِ، فلا يُؤمِنوا حتَّى يَروا العذابَ الشَّديدَ المُوجِعَ(1).

مشروعيّةُ الدُّعاء على الظَّالم

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الآيةُ بيَن الوَصْلِ والفَصْلِ:

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ﴾ الآيةَ، استئنافٌ بيانيٌّ كأنّ سائلًا يسأل: ماذا قالَ موسى عليه السلام بعدَ ذلكَ الوحيِ؟ فأجابَ موسى عليه السلام بهذهِ الآيةِ(2).

لجأ موسى إلى الدُّعاء بعد رفضهم الاستجابةَ

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ عاطفةٌ؛ إذْ عطفَ هذه الآيةَ على ما سبقَها، وهو عطفُ بقيَّةِ القِصَّةِ ممّا يُتَّعظُ منه، ويُعتبرُ فيهِ(3).

عَطْفُ بقيَّةِ ما جرَى في القصَّةِ ممَّا فيهِ عِبرةٌ وموعظةٌ

علّةُ إظهارِ الفاعلِ ﴿مُوسَىٰ﴾:

أُظْهِرَ اسمُ ﴿مُوسَىٰ﴾ عليه السلام اهتمامًا؛ مِن حيث كونُه محورَ القِصّة، ومصدرَ بناءِ أحداثِها، وهو هنا صاحبُ الدّعاءِ لِمَا تحمّلَ من أذى، ولاقَى مِن ظُلم فرعونَ ومَلَئِه في سبيل رسالته، فمِن صورِ العنايةِ به: إظهارُ الدُّعاء على لسانه؛ ليكونَ الجزاءُ توفيَةً لتِلْكُم المعاناة.

مِن وجوه العناية بموسى إظهارُ الدُّعاء على لسانه

أدبُ الأنبياءِ في الدُّعاءِ إلى الله تعالى:

في الآيةِ دعاءٌ مِنْ مُوسى عليه السلام على فرعونَ ومَنْ شايعهُ، غيرَ أنَّ مُوسى وجريًا على عادةِ الأنبياءِ في أدبهم معَ اللهِ تعالى، مَهَّدَ لدعائهِ تمهيدًا فيهِ دلالةٌ على أنّهُ ما دعا على فرعونَ ومَلَئِهِ انتقامًا

دعاء موسى على فرعونَ لمصلحةِ الدّينِ لا للانتقامِ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/261، وابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/139، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/290، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/122.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/547.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/267.

لنفسهِ أو قومِهِ؛ وإنّما لمصلحةِ الدّينِ، فسألَهُ سلبَ النِّعْمةِ مِن فرعونَ وقومِهِ، وإحلالَ العَذابِ مَحلَّهُ؛ قطعًا لشَوْكَتِهِم، وإذْلالًا لِتَجَبُّرِهم؛ حتّى يعودوا عنْ غيِّهِم وضلالِهِم(1).

فائدةُ الدّعاءِ:

آذَوا الأنبياءَ فاستحقُّوا الجزاءَ، وفي فِعْلِهِم تحذيرٌ لغيرهم

الآيةُ مشتمِلَةٌ على دعائِهِ ﷺ، وفائدةُ هذا الدُّعاءِ: الإيذانُ باستحقاقِهِمْ هذا الدّعاءَ لَمّا أصرّوا على إيذاءِ الأنبياءِ والأولياءِ، وفيهِ أيضًا: تحذيرُ غيرِهِم مِنَ الكفّارِ والأشقياءِ عن ارتكابِ مثلِ هذهِ الأفعالِ الشّنيعةِ، وفيهِ أيضًا: إظهارُ كمالِ المَقتِ والبُغضِ(2).

عِلّةُ الاستغناءِ عن حَرْفِ النّداءِ في خِطابِ الرَّبّ سبحانَهُ:

لَمّا كانَ مِن أعظمِ أهلِ الاصطفاءِ، أسقطَ أداةَ النّداءِ تسنُّنًا بهم

في قولِه: ﴿رَبَّنَآ﴾ لفظةُ الرّبِّ مُنادى حُذِفَتْ منهُ أداةُ النّداءِ، أي: يا ربّنا. فإنّ مُوسى ﷺ لَمّا كانَ مِن أهلِ الاصطفاءِ المُعظَّمينَ، أسقطَ الأداةَ مِن بابِ التَّسنُّنِ بهِم(3). والحذفُ أمَارةُ القُرْبِ؛ فلا واسطةَ بينَه وبينَ اللّه تعالى عند الدُّعاءِ، وأنْعِم بذلك تشريفًا.

إيثارُ لفظِ الرّبوبيّةِ مُسنَدًا إلى ضميرِ التّفخيمِ:

أعظمُ إحسانِ اللهِ لأوليائِهِ أن يُهلِك عدوَّهم

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ لفظِ الرُّبوبيَّةِ: ﴿رَبَّنَآ﴾ مُسنِدًا إيّاهُ إلى ضميرِ التّفخيمِ؛ لأنَّ في ذلكَ إشارةً إلى صفةِ الإحسانِ الّتي أنعمَها الحقُّ سبحانَهُ على عبادِهِ، وأنَّ هلاكَ أعدائهم لهو إحسانٌ عظيمٌ إليهم(4).

سِرّ التَّوكيدِ بـ (إنّ)، وإسنادِه إلى كافِ الخطابِ:

كلمةُ التَّأكيدِ هنا للابتهالِ وكمالِ التّضرُّعِ

في قولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ﴾ أكّدَ النّداءَ بـ (إنَّ)، وأسندَه إلى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/267 - 268.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/549.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/179.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/179.

كافِ الخطابِ، وسِرّ هذا التّوكيدِ للابتهالِ والتّذلُّلِ بينَ يَدَي الرَّبِّ سبحانَه، وليحقّقَ كمالَ التَّضرُّعِ[1].

قابل التَّوكيدُ الإنكارَ

والتَّوكيدُ في ﴿إِنَّكَ﴾ سببُهُ لِما يكونُ للجَهلةِ والعُمْيِ مِن أنّهم يُنكرونَ أن يكونَ العطاءُ الإلهيّ للمَلكِ الأعظمِ سببًا للإهانةِ والتّحقيرِ[2].

التّوكيدُ للاهتمامِ وليس لدَفعِ تَردُّدٍ أوْ دَفْعِ إنكارٍ

قوله: ﴿إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ يَحتمِل تأكيدَ الجملة بأنْ قَصَدَ إلى أن يهتم بهذا المعنى الّذي استُعمِل فيه خبرُ الإتيان، إذ ليس المقامُ مقامَ دَفْعِ تَردُّدٍ، أو دفعِ إنكارٍ[3].

إيثار صيغة الإيتاء ومجيئه ماضيًا:

طلبٌ لزوال ما أوتي فرعون من الأموال والزينة

أوثر فعل (الإيتاء) في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ لأنّه يُستعمل في الأمور المادّية والمعنويّة، مالاً كانت أو غيره، وهو لا يوجب التمليك، ويمكن أن يشمله النّزع على خلاف الإعطاء الذي يوجب التمليك كقوله تعالى ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]. ويمكن أنْ يُستعمل الايتاء في مواضع اليسر ولذا خُصّ في دفع الصدقات؛ ليكون ذلك بسهولة من غير تطلع إلى ما يدفعه[4]، والتّعبير عنه ماضيًا يعني: وقوع إيتائه تعالى، وتحقّقه. وإيثار التّعبير به هنا؛ لأنّ موسى عليه السلام طلب من اللّه تعالى زوال هذه الأموال بإتلافها: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾، ويناسب هذا لفظ (الإيتاء) بحسب دلالته على عدم وجوب التمليك، وإمكان النزع، والزوال.

إظهار المفعول ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾:

الإظهار في مواضع الذَّمِّ تشنيع على المُظْهَر

التَّصريحُ بالمفعول ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ﴾، وهو موطنُ ذمٍّ وإظهارٍ وإنكارٍ وتشنيعٍ عليه، وتعريضٍ بخِفّة عقلِه، وسوءِ طبعِه؛ إذْ أنكر عطايا اللّه تعالى له؛ بل ادّعى انفرادَه بالألوهيّة، وعُلوَّه بالرّبوبيّة.

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/547.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/179.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/268.

(4) الزبيدي، تاج العروس: (أتى).

علّة عطفِ الملأ بالواو:

أُوتيَ مَلأُ فرعونَ أيضًا الزِّينةَ والأموالَ

وجهُ عطفِ (الملأ) في قوله: ﴿ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ﴾؛ التَّشريكُ في العطايا، فكما أُوتيَ فرعونُ إيّاها، أوتيَ ملؤُهُ مِن كُبراء قومِه وأشرافِهم ما أُوتيَ مِن زينةٍ ومالٍ؛ ولم يمنعهم مشاركتَهُ فيما أُوتيَ؛ ليُمَالِئُوه على طغيانه وجُحوده، وقد فعلوا.

نسبة الملأ إلى ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾:

الملأ تَبَعٌ لفرعونَ، يُزيِّنون له عَمَلَه

أُضيفَ (الملأ) إلى (فرعون) بعود الضَّمير (الهاء) إليه في قوله تعالى: ﴿وَمَلَأَهُۥ﴾؛ لكونهم تبعٌ له، يُمالِئُونَه على ما يَرى، ويُزيِّنون له ما دَرَى، يُشجّعونه على الطُّغيان والإنكار والفِرَى.

سِرُّ تنكير لفظ الزِّينة:

في تنكير الزِّينة استغراقُ كلّ محتملاتِها

نُكِّرَ لفظُ ﴿زِينَةً﴾ لتدُلّ على العموم، فتتّسِعَ صورُ ما أُوتيَ منها، ما اتّسعت محتملاتُ معاني الزِّينة ممّا يُتزيّن به؛ مِنَ الملابس والفُرُش والأثاث وأنواع الحُليّ والحُلل والمراكب وغيرها، وذلكم أدعى للتَّشنيع عليه؛ لإنكاره وتجبّره.

وجهُ عطفِ ﴿وَأَمۡوَٰلٗا﴾ بالواو:

الجاحد مسلوبُ التَّوفيق

اجتماعُ الأموال مع الزِّينة إظهارٌ لمديد ما أُوتيَ فرعونُ ومَلَؤُه، وبيانٌ لسُوء تصرُّفِه في واسع ما آتاه اللّٰه تعالى مِن عطايا، فالجاحدُ مسلوبُ التَّوفيق.

نُكْتَةُ جمعِ الأموال وتنوينه:

نـوّعَ لهم المالَ، وكثّرَهُ لهم

صوغُ لفظ (الأموال) في قوله تعالى: ﴿وَأَمۡوَٰلٗا﴾ على هيئة الجمع؛ يعني: آتاهم: "أنواعًا كثيرةً مِنَ المال كما يُشعِر به الجمعُ والتَّنوين"[1].

وَجهُ تقديمِ الزّينةِ على الأموالِ:

قدّمَ الزّينةَ على الأموالِ في قولهُ تعالى ﴿زِينَةً وَأَمۡوَٰلٗا﴾؛ لأنّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/296.

الزّينةَ "تُلْهِيهِم عنِ اتّباعِ المواعظِ، وتُعظِّمُ شأنَهم في أنظارِ قومِهم، والأموالُ يُسخِّرون بها الرّعيّةَ لطاعتهم"(1)، فقدّمَ ما يكونُ مُختصًّا بالنّفسِ والذّاتِ، على ما يكونُ أمرًا يتجاوزُ به النّفسَ إلى غيرِها، وهم رعيتُهم.

الزّينة مُقدَّمةٌ؛ لأنّها مختصَّةٌ بالنَّفْسِ والذّاتِ

سِرُّ التَّعبيرِ بالحياةِ الدُّنيا:

للتّعبيرِ بالحياةِ الدّنيا سِرٌّ؛ فإنَّ الحقَّ سبحانَه عندما يريدُ أن يُصوِّرَ استغراقَ الإنسانِ في هذهِ الحياةِ واهتمامَهُ بها لا بما بعدَها، واغترارَهُ بشهواتِها وأهوائِها؛ فهوَ في ضلالٍ وعمًى بظنِّه أنّها هيَ الحياةُ الّتي يجبُ أنْ تكونَ، معَ أنّهُ تعالى قد وصفَها بالدُّنيا، لا العُليا الفُضلى السّاميةَ الحقّة، ثمَّ إنّهُ تعالى وصفَها بأوصافٍ أُخرى مثل: ﴿مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: 185]، والرَّاكنُ إليها مُغترٌّ بها، هالكٌ على وجهِه، لا خَلَاقَ لهُ في الآخرةِ(2)، وذلك هو الخسرانُ المبينُ.

هذه الحياة ليست الحياةَ الفُضلَى؛ فعلى الإنسانِ أن لا يغترّ بشهواتِها

وجه تكرار لفظ ﴿رَبَّنَآ﴾، والعدول عنِ الوَصْل بالواو:

أعادَ لفظَ ﴿رَبَّنَآ﴾ في الآيةِ في إشارةٍ إلى أنّ التّضرُّعَ والتّذلُّلَ بينَ يَدَي الحقّ سبحانَه بِه حاجةٌ إلى الإلحاحِ، وأنّهُ تعالى يُحبُّ المُلحِّينَ في الدُّعاءِ، المُكثرينَ منهُ(3).

في التّكرار إلحاحٌ في التّضرُّعِ، وهيَ صفةٌ يُحبُّها اللهُ تعالى

وفي تكرارِ النّداءِ بينَ الجملتينِ المعلَّلةِ والمعلِّلةِ غرضٌ، هوَ التّوكيدُ، توكيدُ التّذلُّلِ والتّزلُّفِ والتّعرُّضِ للإجابةِ؛ إظهارًا للتّبرُّؤِ من أن يكونَ القَصْدُ هو الاعتراض(4).

تأكيد التّذلُّلِ والتّعرُّضِ للإجابةِ، وإظهار التَّبرُّؤِ من قَصْدِ الاعتراضِ

دلالة اللّام في قولِه تعالى: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾:

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ للعاقبةِ، شأنُها شأنُ اللّام في قولِه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القَصَص:

شبّهَ ترتُّبَ ما ليسَ علّةً بترَتُّبِ المعلولِ علَى العلّةِ للمبالغةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/296.
(2) عودة خليل، التّطور الدّلاليّ، ص: 349 - 350.
(3) ملا حويش، بيان المعاني: 3/68.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/269.

8]؛ فهي لامُ التَّعليلِ، لكنّها مستعارةٌ لمعنى التّرتيبِ والتّعقيبِ الموضوعِ لهُ الفاءُ، فشَبّهَ هذا التّرتّبَ بترتُّبِ المعلولِ على العِلّةِ، معَ أنّهُ ليسَ سببًا لهُ، لكن للمبالغةِ في قُوّةِ التّرتُّبِ، والمعنى: أنّهُ تعالى آتَى فرعونَ ومَلأَهُ ما آتاهُم، فَضَلُّوا وأضَلُّوا[1].

التّعليلُ استدراجًا، والحذفُ، والدّعاءُ، وحذفُ الاستفهامِ، والتّأويلُ بالهلاكِ

وفي اللّامِ خمسةُ وجوهٍ أخرى؛ فالتّعليلُ بأنّكَ فعلتَ ذلكَ معهُمْ من بابِ الاستدراجِ، والثّاني: على حذفِ حرفٍ، تقديرُ الكلامِ: لئلّا يُضِلّوا، والثّالثُ: أنَّ اللّامَ لامُ الدُّعاءِ، والرَّابعُ: على تقديرِ همزةِ استفهامٍ محذوفةٍ، أيْ: أليُضِلّوا عنْ سبيلكَ؟، والخامسُ: على تأويلِ الضّلالِ بمعنى الهلاكِ[2].

عِلَّة تكرير النِّداء:

إعادة النّداء لزيادة تأكيد التّوجُّه والتّضرُّع

إعادة النِّداء بينَ الجملة المعلّلَة والجملةِ المعلِّلَة؛ لتأكيد التّذلُّلِ والتّعرُّض للإجابة، ولإظهار التّبرُّؤِ من قصْد الاعتراض، وأُعيدَ النِّداء مَرَّةً ثالثةً لزيادةِ تأكيد التّوجُّهِ والتّضرُّع، والنِّداء في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ يقوم مقامَ وصلِ الجملة بما قبلَها، بمنزلة حرف العطف[3].

وجهُ التّعبيرِ عنِ الضَّلال بالمضارع، وجَعْلِ فاعلِه ضميرَ الجمع:

اجتمعوا على الإضلال وكرّروه

عبَّر عنِ الضَّلال بصيغة المضارع، وآثر التّعبيرَ عنِ الفاعل بضمير الجمع (الواو)، في قوله: ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ﴾؛ لِيَدُلّ على اجتماعهم على هذا الفعل، وتمالُئِهم عليه، مُكَرِّرين إيّاه، مُداومين عليه؛ وكأنّ الإضلالَ عن سبيل اللّه خَصْلَةٌ تخلّقوا بها، فظهرت في فعالهم تأثّرًا وتأثيرًا؛ فلا يستمعون لناصح، ولا يُبالون برادعٍ.

بيانُ القراءتيْن في لفظِ ﴿لِيُضِلُّواْ﴾:

ضلالهم في أنفسهم وهم قادةُ قومهم، مُضلّون لغيرهم

في قولهِ تعالى: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ قرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وابنُ عامرٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/268.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/269.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/270.

وأبو جعفرٍ ويعقوبُ بفتحِ الياءِ ﴿لِيَضِلُّواْ﴾[1]؛ فقراءةُ الضّمِّ على معنى: ليُضلّوا غيرَهُم، وقراءةُ الفتحِ: ليَضلّوا بأنفسِهم. وهما معنيانِ متّحدانِ؛ فإنّ ضلالَهم في أنفسِهم - مع كونِهم قادةَ قومِهم - فيهِ تضليلٌ لغيرِهم، وكذا إذا أضلّوا النّاسَ فإنّهم لم يفعلوا ذلك إلّا لأنّهم ضالّونَ مثلُهُم[2].

دلالـةُ قـراءةِ الضَّمّ أنّ فرعونَ ضالٌّ مُضِلٌّ

وفي قراءةِ الضَّمِّ مزيدُ مَعنًى؛ وهو أنّ المُتقدّمَ مِن وَصفِ فرعونَ أنّه ضالٌّ غيرُ مُهْتدٍ؛ فَكانَ وَصْفُهُ بعد ذَلِك بِأَنَّهُ مَعَ ذَلِك مُضِلٌّ لغيره، يزِيدُ الْكَلَامَ فَائِدَةً وَمَعْرِفَةً بِمَا لم يكن مَذْكُورًا فِيمَا تقدَّم مِن وَصْفه[3]؛ فهو ضالٌّ مُضِلٌّ.

دلالة لفظِ (السَّبيل):

من معاني لفظ (السَّبيل) الدِّين

لفظُ ﴿سَبِيلِكَۖ﴾ في الآية مُستعارٌ للدِّين الَّذي باتِّباعه تكون النَّجاةُ مِنَ العذاب، وبلوغُ دارِ الثَّواب، فالاستعارةُ - هاهنا - للإشارة إلى طريق الحقّ والإرشاد، أو طريقِ الدِّين الحقِّ.

نُكْتَةُ تعريفِ ﴿سَبِيلِكَۖ﴾ بالإضافة إلى كاف الخطاب:

سـبـيـلُ الـلـه مُشَرِّفةٌ، وتاركُها مذمومٌ

كاف الخطاب في قوله تعالى: ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ﴾ تعود إلى لفظ (الرّبّ)، ونسبتُها إليه تعالى إعلاءٌ لمكانة هذه السَّبيل، وذمٌّ عليهم أن تركوا سبيلًا حقًّا، جعلَهُ اللّه تعالى هدايةً وإرشادًا.

توجيهُ جملةِ ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ﴾ في سياق الخبر والإنشاء:

الخبَرُ مُستعمَلٌ فـي الـتَّـمـهـيـدِ لـطَـلَـبِ سَـلْـبِ النِّعمةِ

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا﴾ توطئةٌ للدُّعاءِ عليهم؛ فليس المقصودُ به حَقيقةَ الإخبارِ بضرورة أنَّ موسى يوقِنُ بأنَّ اللّه يَعلَمُ ذلك، فتعيَّن أنَّ الخبَرَ مُستعمَلٌ في التَّمهيدِ لطَلبِ سَلْبِ النِّعمةِ عَنهم في قولِه: ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ﴾، ثمَّ الانتقالِ إلى الدُّعاءِ بسَلبِ ما أُوتوه[4].

(1) ابن مهران، المبسوط في القراءات العشر، ص: 201.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/270.

(3) ابن زنجلة، حُجّة القراءات، ص: 335.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/268.

دعاءُ اللهِ بوصفِ الرُّبوبيَّة تذلّلٌ لإظهار العبوديَّة

ووجهُ جملة: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ في السِّياق الإنشائيّ بافتتاح الدُّعاء بالنِّداء لمناسبة المقام، والدُّعاءُ: النّداءُ لله سبحانَه بوَصْف الرُّبوبيَّة؛ تذلُّلًا لإظهار العبوديَّة.

دلالةُ الأمرِ في قوله: ﴿ٱطۡمِسۡ﴾:

أفعالهمُ السَّيئةُ استوجبت أسلوبًا شديدًا

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ أُريدَ به الدُّعاء بما عُلِمَ مِن ممارسة أحوالهم أنَّه لا يكون غيره، كقولكَ: لعنَ اللهُ إبليسَ[1]. وقُوّةُ الطَّلبِ تُناسبُ شنيعَ أفعالِهم، وإصرارَهم على الزَّيغ والإضلال، وكذا التَّوجيه مع الفعل: ﴿وَٱشۡدُدۡ﴾.

بلاغة الاستعارة في لفظ: ﴿ٱطۡمِسۡ﴾:

تشبيهُ فناءِ الأموال بالصُّحف المطموسة

في لفظ: ﴿ٱطۡمِسۡ﴾ استعارةٌ؛ إذ شَبَّه مسخَ الأموال بالصَّحيفة المطموسة؛ لأنّ حقيقة الطَّمسِ مَحوُ الأثرِ، مِن قولهم: طمستُ الكتابَ: إذا مَحَوتُ سُطوره، وطمسَتِ الرِّيحُ رَبْعَ الحيِّ، إذا مَحت رسومَه، فكأنَّ موسى عليه السلام، إنَّما دعا اللهَ سبحانَه بأن يمحوَ معارفَ أموالِهم، حتَّى لا يعرفوها، ولا يهتدوا إليها، وتكونَ مُنقلِبةً عن حال الانتفاع بها؛ لأنَّ الطَّمسَ تغيّرُ حالِ الشَّيء إلى الدُّثور والدُّروس[2].

دلالة حرف الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ في الآية:

مجيء العذاب مِن عُلوٍّ أشدّ وقعًا على النَّفس

أفادَ حرفُ الجرّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ معنى الاستعلاءِ؛ للدّلالة على تمكُّن الطَّمس، وإلَّا فإنَّ (طمس) يتعدَّى بنفسه[3]. وكذا تعديَةُ الفعل ﴿وَٱشۡدُدۡ﴾ بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾؛ فهو لإرادةِ تَمكُّنِ الفعلِ مِنَ المفعولِ؛ لأنّ مجيءَ العذابِ مِن عُلُوٍّ أنكى، وأشَدُّ وقعًا على النَّفس.

وجه تَعدِيَة الفعل ﴿ٱطۡمِسۡ﴾ بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾:

مِن مقاصد التَّعديَةِ تمكينُ الفعلِ مِنَ المفعول

تعديَةُ ﴿ٱطۡمِسۡ﴾ بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾؛ لإرادةِ تَمكُّنِ الفعلِ مِنَ المفعولِ، أو

(1) الزُّحيليّ، التّفسير المنير: 11/250.
(2) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيّة: 4/52.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/51.

لِتضمينِ الطَّمسِ مَعْنى الاعتلاءِ بآلةِ المحوِ والإزالةِ؛ فطَمْسُ الأموالِ: إتلافُها وإهلاكُها[1].

بلاغة الاستعارة في الحرف ﴿عَلَىٰ﴾:

التَّعبير بالاستعارة التَّبعيَّةِ في حرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ مُستعارٌ لمعنى الظَّرفيَّة؛ لإفادة تمكُّنِ الشِّدَّةِ، والمعنى: أدْخِلِ الشِّدَّةَ في قلوبهم[2].

استعمال (على) لمعنى الظَّرفيَّة حـقَّـقَ معنى الـتَّـمكُّـنِ مِـنَ الشَّيء

نُكْتَةُ التَّعرُّضِ للأموال دونَ الزِّينةِ:

لمّا قَدَّم ذِكْرَ الأموالِ، وهي أعزُّ ما ادَّخَروا، دعا بالطُّموس عليها، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾؛ أي: ربَّنا امحق أموالَهم، وأهلِكْها بالآفات الّتي تستأصل زروعَهم، والجوائحِ التّي تُهلك أنعامَهم، وتُنقصُ مكاسبَهم، فيذوقوا ذُلَّ الحاجة[3].

أعزُّ ما يتعلَّق به قلبُ الكافر هو المال، وفي زواله إذلالٌ له

دلالة العطف بالواو:

أفاد حرفُ العطفِ (الواو) في الجملة مشاركةَ المعطوفِ للمعطوف عليه في الحُكم؛ أي: المعنى، فالواو تُفيد أنّ ما بعدَها يشترك مع ما قبلَها في معنًى واحدٍ، ألَا وهو دعاءُ موسى على فرعون ومَلَئِه.

مِـن أغـراض العطفِ مشاركةُ المعطوفِ للمعطوفِ عليه في الحُكم

بلاغة الاستعارة في الفعل ﴿وَٱشۡدُدۡ﴾:

الاستعارة التَّصريحيَّةُ التَّبعيَّةُ في قوله: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ لأنَّ الشَّدَّ حقيقةٌ في رَبْط الأجرام بعضِها إلى بعض، كَشَدِّ الحبال، شَبَّه قسوةَ القلوبِ وتغليظَها وعدمَ لينِها للإيمان بشَدِّ الأجرام وربطِها، على طريقة الاستعارة التَّصريحيَّة[4].

تشبيه قسوةِ القلوبِ للإيمان بِشَدِّ الأجرام ورَبطِها

إيثار لفظ القلوب:

يُعدُّ القلبُ مركزَ الإيمانِ والكفر، والطَّاعةِ والمعصيةِ، والخيرِ

وُجِّه الدّعاء على القلب؛ لأنّه مركز الإيمان

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/270.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/270.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/347.

(4) الهرريّ، الرّوح والرّيحان: 12/378.

والشّرِ، وإيثارُه هاهنا يناسبُ دعوةَ موسى ﷺ، بأنْ يَطبعَ اللّه تعالى عليها؛ حتّى لا تلينَ ولا تنشرحَ بالإيمان.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ﴾:

الفاء السَّببيَّة تُفيد أنّ ما قبلَها سببٌ لما بعدَها

الفاء في قوله: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ﴾ سببيَّة في جواب الدُّعاء، أي: افعل بهم ذلك ليُؤمنوا، والفعلُ منصوب بـ (أن) مُضمرةً إضمارًا واجبًا بعد فاء السَّببيّة[1].

سرّ العدول في جملة الفاصلة:

قساوة قلوب الكفَّار وشراسة نفوسهم لا تُذلّلها إلَّا الآلام الجسديَّة والنَّفسانيَّة

السِّرُّ في العُدول عن إيقاع جواب الدُّعاء بصيغة إثبات الإيمان، إلى إيراده بصيغة النَّفي في جملة الفاصلة: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ مُغَيًّا بغايةٍ هي: رؤية العذاب سلوكًا لأسلوب بديع في نظم الكلام؛ لأنَّه أرادَ أن يجمع بين ترتيب الجواب على الدُّعاء، وبينَ ما استبانَ له مِن طَبْع نفوسِهم بطَبْعِ أنَّهم لا تنفع فيهمُ الحُجَجُ، وأنَّ قساوة قلوبِهم، وشراسَةَ نفوسِهم، لا تُذللها إلَّا الآلامُ الجسديَّة والنَّفسانيَّة، وكلّ ذلك علاجٌ بما هو مَظِنَّةُ إيصالِهم مِن طُرق الضَّغطِ والشِّدَّةِ، حيثُ لم تُجدِ فيهم وسائلُ الحُجَّة، فقال: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾، أي: إنَّ شأنهم ذلك[2].

علّة صَوْغِ نَفْيِ الإيمانِ عنهم، ورؤيتِهمُ العذابَ مضارعًا:

الإيمان الدَّائم مشروط برؤية العذاب

في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ عبّر النَّظمُ الكريمُ عن نَفْيِ الإيمانِ عنهم، ورؤيتِهمُ العذابَ بصيغة الفعل المضارع؛ للدَّلالة على المستقبل، فضلًا عمّا فيهما مِن تلازم؛ فالإيمانُ الدَّائم المُتجدّد باللّه، والإقرارُ بوحدانيَّته مشروطٌ برؤيةِ العذابِ المُوجع.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/271.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/271.

دلالة ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ﴾:

أفادت (حتّى) الانتهاءَ إلى الغاية

﴿حَتَّىٰ﴾ في فاصلة الآية مستعمَلَةٌ في التّعليل بطريقة المجاز المرسل؛ لأنَّ معنى (حتَّى) انتهاءُ الفعل المذكور قبلَها، وغايَةُ الفعلِ ينتهي الفاعلُ عنِ الفعل إذا بَلَغها، فهي سببٌ للانتهاء وعِلَّةٌ له.

لفظ الرُّؤية بيَن المجاز والكناية:

الرّؤيةُ مُلازِمةٌ لحُلول الشَّيء المرئيّ

الرُّؤية في جملة الفاصلة مُستعملةٌ في الإحساس، على وجه المجاز المُرسل، أو مستعملةٌ كنايةً عن حلول العذاب بهم؛ لأنَّ المشاهدةَ مُلازِمَةٌ لحلول الشَّيءِ المُشاهَد[1].

سرّ تعريف العذاب:

(أل) الجنسيَّةُ تدلُّ على شمول أفراد جنسِ الاسم المعرّف بها

التَّعريف في العذاب تعريفُ الجنس، الَّذي يشمل جميع أفراد الجنس، فما يوجد مِن عذابٍ أليم إلَّا وهو داخلٌ فيه، واستغراقُه جنسَ العذابِ مَظِنّةُ التَّخويفِ والتَّهديد.

وجهُ وصفِ العذابِ بالأليم:

العذاب يتفاوت بحسب مِقدار الجُرْم المُرتكَبِ

وَصْفُ العذابِ نفسِه بأنّه أليم، بمعنى مُؤْلِم؛ لبيان أنّ الألم بلغ الغاية؛ لأنَّ الكافرين غارقون في الماديَّة، فآثرَ اللّه وَصْفَ العذابِ بأنَّه أليم؛ لأنَّ الإيلام يكون للمادَّة، فالعذاب قدِ استولى على وُجودِهم، وأحاط بذواتهم، ونفَذَ في بواطنهم، بحيث تَحوَّلوا نفس العذاب، وصار العذابُ عينَ ذواتِهم، كانقلاب الفَحْمِ جَمْرَةَ نارٍ بنفوذ النَّار.

بلاغة الإيجاز في جواب الدّعاء:

الجمع بين جواب الدّعاء وعلّته

في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ إيجازٌ كُنهُهُ الجمعُ بينَ جوابِ الدُّعاء وبيانِ عِلَّة الدّعاء عليهم بذلك، وأصل الكلام: فيُؤمنوا فإنهِّم لا يُؤمنون إلَّا إذا رأوا العذابَ الأليمَ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/272.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطّمس والطّمر والمحو والمسح والغمر والدّرس:

الطَّمسُ: إزالةُ الآثار الماثلة، وقد يُطلق الطَّمسُ مجازًا على إبطال خصائصِ الشَّيء المألوفةِ منه. ومنه: طمس القلوب، أي: إبطال آثارِ التَّميُّزِ والمعرفةِ منها. ومنه: مَسْخُ شواهدِ العين، بإزالة سوادِها وبياضِها أو اختلاطِهما، وهو العمى أوِ العَوَر، ويُقال: طريق مطموسة، إذا لم تكن فيها آثار السَّائرين ليقفوَها السَّائرُ[1].

والطَّمْرُ: الإخفاء، وأصلُه: هَوِيُّ الشَّيءِ إلى أسْفَلَ، طَمَرْتُ الشَّيءَ: أخْفَيْتُهُ. والمطْمُورَةُ: حُفْرَةٌ تحتَ الأرضِ يُرْمَى فيها الشَّيءُ[2].

والمحو: إزالةُ الشَّيءِ الثَّابتِ. والمَسْحُ: إمرارُ اليد على الشَّيء، وإزالةُ الأثرِ عنه، وقد يُستعمل في كلِّ واحدٍ منهما[3].

والغَمْرُ: يَدُلُّ عَلَى تَغْطِيَةٍ وَسَتْرٍ فِي بَعْضِ الشِّدَّةِ. مِنْ ذلك: المَاءُ الكَثِيرُ؛ وسُمِّيَ بذلكَ لأَنَّهُ يَغْمُرُ ما تَحْتَهُ[4].

والدَّرْسُ: ذهابُ جِدّة الشَّيء الفِطريَّة وقُوّتِه، أو صلابتِه وصعوبتِه بما يعتريه، كما يَفْعَلُ الجرَبُ بالبعير، إذ يُبْلِي جِلْدَه وقوَّتَه الَّتي نشأ بها، ويُضيّعُ قِيمتَه ومنفعَتَه، ويجعلُه مصدرَ بلاءٍ مُستطيرٍ لصاحبه[5].

والمعنى الجامع لهذه المفردات: هو التَّبدُّدُ في ماهية الشَّيء، أو تحوُّلُه عن صورته؛ بفعلٍ أو أثرٍ أو حالٍ. ويُناسب خصوصَ معنى الطّمسِ القَصْد إلى اصطفائه مِن حيثُ كونُه إبطالًا لفوائدِ أموالِهم، وإزالةَ تأثيرِها، بمحو معارفِها، والاهتداءِ إليها بالمسح لها.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/79، و23/51.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طمر).
(3) الرّاغب، المفردات: (مسح).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غمر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (درس).

﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾ [يونس: 89]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إجابةُ دعاء موسى وأخيه، مع إرشادٍ للاستقامة، واتِّباع المهتدين

لَمّا سبقَ ذكرُ الدُّعاءِ الَّذي رفعَه موسى عليه السلام لربِّه بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾؛ أعقبَهُ بذكرِ إجابةِ الدُّعاءِ، فقال: ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُجِيبَت﴾: (جوب) أَصْلٌ يَدُلُّ على مُراجَعةِ الكلام، يُقالُ: كلَّمَهُ، فأجابهُ جَوابًا، وقد تَجاوبا مُجاوبةً[2]. والجوابُ يُقال في مُقابلةِ السُّؤال[3]، والاستجابةُ: هي الإجابةُ، وتحقيقُه ما قالَه الرّاغبُ: هو تحرّي الجواب، وتَهَيُّؤه له، قال تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 24][4]. والمرادُ في الآية: الاستجابةُ والقَبول، أي: إعطاءُ ما سألَ موسى عليه السلام[5].

2) ﴿دَّعۡوَتُكُمَا﴾: الدُّعاءُ: النِّداءُ، وأصلُه: إمالَةُ الشَّيءِ إليكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يكون مِنْكَ، ومنه سُمّيَتِ الرَّغْبَةُ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: دُعاءً، تقولُ: دَعَوْتُ فُلانًا، دُعاءً ودَعْوَةً، أي: نادَيْتُه[6]، والدَّعْوَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ مِنَ الدُّعاءِ[7]. ويأتي الدُّعاءُ بِمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ، يُقال:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/182.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جوب).
(3) الرّاغب، المفردات: (جوب).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (جوب).
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/149، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/272.
(6) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن الأثير، النِّهاية: (دعا - دعو).
(7) ابن الأثير، النِّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (دعا).

دَعَوْتُ اللَّه، أدعوهُ، أي: سَأَلْتُهُ[1]. ويُطلَق على الحَثِّ إلى الشَّيْءِ والتَّرْغيبِ فيه، فيُقال: دَعا قَوْمَهُ إلى اتِّباعِه، أي: حَثَّهُمْ، ورَغَّبَهُم[2]. والمقصودُ بالدُّعاء في الآية: الطَّلَبُ والسُّؤالُ.

3) ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾: (قَوَمَ) أصلٌ يدلُّ على اعتِدال الشَّيء واستوائِه، يُقال: قامَ الشَّيءُ، واستَقامَ: اعْتَدَل واستَوى، وأقمتُ الشَّيْءَ، وقوَّمتُه فَقامَ، بِمَعْنى استقام[3]. والاستقامةُ: ضِدُّ الاعوِجاج، وهي مُستعملةٌ كثيرًا في معنى الثَّبات على الحقِّ والرُّشدِ؛ لأنَّهُ شاعَ تَشبيهُ الضَّلالِ والفَسادِ بالاعوِجاج والالتِواء، وهي مُستعارةٌ لصلاحِ العملِ الباطِنيِّ: وهو الاعتِقادُ، والظَّاهريِّ: وهو الأفعالُ والأقوالُ تَشبيهًا للعَمَلِ بِخَطٍّ مُستقيم تَشبيهَ مَعقولٍ بِمَحسوسٍ[4]. والمرادُ بالاستقامة في الآية: الثَّباتُ على الدّين والاستمرار بالدَّعوة[5].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بشارةٌ بالإجابة، وتوجيه إلى اتِّباع الصّالحين، ومجانفة الجاهلين

يُخبرُ اللَّه تعالى موسى وهارونَ أنْ قد أُجِيْبَتْ دَعوتَكما على فِرعونَ ومَلَئِه، فاستَقيما، واثْبُتا على دينِكما، واستَمِرّا على دعوتِكما فرعونَ وقومَه إلى توحيدِ اللَّه وطاعته، ولا تَسلُكا طريقَ مَن لا يعلَمُ حقيقةَ وعيدي، وأنّي لا أُخلِفُ الميعادَ[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ بفعلِ القولِ الماضي في السّياق:

جوابُ المحاورة، يُفصَل لشدَّةِ الاتِّصال

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾ فُصِل عن

(1) الفيوميّ، المصباح المنير: (دعو).
(2) الأمير، التَّحبير لإيضاح معاني التَّيسير: 4/5.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/273، و30/166.
(5) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 2/495، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/149، والسعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 372.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/273، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/140، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/376.

سابقِه، ولم يُعطَفْ؛ لأنَّه "جوابٌ من اللّه لكلامِ موسى، جرى على طريقةِ حكايةِ المحاوراتِ ألّا تُعطَفَ جُمَلُها"(1). فسيقتْ على طريقة المحاورةِ، فلا يَلْزَمُ العطفُ؛ لأنَّ الكلامَ متَّصلٌ بالدُّعاء على أنَّه استئنافٌ وقعَ جوابًا عن دعاء النَّبيَّيْنِ عليهما السلام، كأنَّه قيل: فماذا قال اللّه تعالى لهما بعدَ دعائِهما؟ فقيلَ: قال: ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾.

سرُّ التَّعبيرِ عن الإجابةِ بالفعلِ الماضي مع (قَدْ):

وعدُ اللهِ تعالى محقَّقٌ واقـعٌ، لا شكَّ فيه ولا ريب

افتتح النَّظمُ الجليل قولَه عزَّ ذِكْرُه: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾ بـ (قَدْ) الدّاخلةِ على الفعلِ الماضي، مع أنَّ إجابةَ الدُّعاءِ لمّا تَحْصُلْ وقتَ القول، فكان الظّاهرُ أن يُقالَ: (ستُجابُ دعوتُكما)؛ وذلك للدَّلالةِ على تأكيدِ "الحصولِ في المستقبل، فَشُبِّه بالمضيِّ"(2). فهو الواقعِ المحقَّقِ.

التَّعبيرُ عن فعلِ الإجابةِ مبنيًّا للمفعول:

شـدَّةُ الحضور تُغني عن الذِّكر ويكون ذلك أبلغَ وأظهرَ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾ التَّعبيرَ بالفعل المبنيِّ للمفعول؛ لأنَّ ذلك "أدلُّ على القدرة، وأوقعُ في النَّفس من جهة الدَّلالةِ على الفاعلِ بالاستدلالِ"(3)، فمعرفةُ الفاعلِ لظهوره مُغْنيةٌ عن ذكره، كما يُحقِّق ذلك الإيجازَ والاقتصادَ اللَّذين هما مطلبُ البلاغة.

سِرُّ تثنيةِ الدُّعاءِ في قولِه تعالى: ﴿دَّعۡوَتُكُمَا﴾:

اجتمع الرَّسولان الأخـــوان في الدُّعاءِ، وترافقا في الـدَّعـوةِ والابتلاء

في قولِه عزَّ ذكرُه: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾ أضاف النَّظمُ الكريم لفظَ الدَّعوةِ إلى الضَّمير العائدِ على النَّبيَّيْنِ الكريمَيْنِ عليهما السلام، وقد مضى الإخبارُ عن فاعل الدَّعوةِ بأنَّه موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ﴾، وذلك؛ لأنَّ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/272.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/272.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/182.

موسى عليه السلام "كان يدعو، وهارونَ يؤمِّنُ، ويجوز أن يكونا جميعًا يدعوانِ إلّا أنَّه خصَّ موسى بالذِّكر في الآية لأصالتِه في الرِّسالة"[1]، فلمّا ذكر في الآية السّابقة أنَّ مَنْ رفع الدُّعاء كان موسى عليه السلام ؛ نبَّه بالتَّثنيةِ على أنَّ هارون عليه السلام كان معَه في الدُّعاء.

نكتة نسبةِ الدُّعاءِ إلى الرَّسولين بالتَّعريفِ بالإضافةِ:

دعـاءُ الجماعةِ أَدْعـى للإجابةِ، والاثـنـان أقـلُّ الجماعة

في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾ أُضيف لفظُ الدُّعاء إلى الضَّمير العائدِ على النَّبيَّيْن الكريمَيْن عليهما السلام للدَّلالة على أنَّ دعاءهما كان معًا، وأنَّهما توجَّها بدعائهما إلى اللّه تعالى جماعةً، كما أنَّ فيه تنصيصًا على أنَّ كلَّ ما دعوَا به قد أُجيبَ، وأنَّه في عُهدة التَّحقيق.

دلالةُ الفاءِ على التَّفريع في قوله: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾:

هــل جـــزاءُ الإحــســانِ بـالإجـابـة إلّا الإحسانُ بالاتِّباع والاستقامة ؟

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾ ذَكَرَ الأمرَ بالاستقامة بعد ذِكرِ الإجابةِ مقترنةً بالفاء التَّفريعيَّة، ففرَّع "على إجابة دعوتِهما أمرَهما بالاستقامة، فعُلِم أنَّ الاستقامةَ شكرٌ على الكرامة، فإنَّ إجابةَ اللّه دعوةَ عبدِه إحسانٌ للعبد وإكرامٌ، وتلك نعمةٌ عظيمةٌ تستحقُّ الشُّكرَ عليها، وأعظمُ الشُّكرِ طاعةُ المنعِم"[2]. ويدلُّ التَّفريعُ بالفاء على الحثِّ على سرعةِ السَّعي إلى الاستقامة باستمرارِ التعبُّدِ، والدَّوامِ عليه وعدمِ الفتورِ فيه أو التماهلِ.

دلالةُ الأمرِ بالاستقامة في قولِه: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾:

أَمْـرُ المستقيمِ بـالاسـتـقـامـة تثبيتٌ لـه على المعهودِ منه

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾ أمَرَ تعالى النَّبيَّيْن الكريمَيْن عليهما السلام بالاستقامة، مع أنَّهما مستقيمانِ على ما تقتضيه صفةُ النُّبوَّة، والمرادُ من ذلك الثَّباتُ "أي: فاثْبُتا على التَّعبُّدِ والتَّذلُّلِ والخضوعِ لربِّكما، كما أنَّ نوحًا عليه السلام ثَبُتَ على ذلك، وطال

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/607.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/273.

زمنُه جدًّا، واشتدَّ أذاه، ولم يضجُرْ"[1]، فالمرادُ منهما الدَّيمومةُ والثَّباتُ على ما كانوا عليه من الجِدِّ في التَّعبُّد والتَّضرُّع.

إيثارُ لفظِ ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾ وبيان ما في السّين من دلالة:

الاستقامةُ تتضمَّنُ الامتثالَ والمطاوعةَ لأحكام الشَّريعة الجامعة

في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾، آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالاستقامة موجِبًا عليهما ذلك بعد الإنعام عليهما بإجابة دعوتهما؛ لكونها دالَّةً على الالتزام بجميع تعاليمِ الشَّريعةِ، فالاستِقامَةُ تدلُّ على لزوم المنهجِ المستقيم[2] الذي لا عِوجَ فيه ولا حيدةَ، ولا انحراف، فيكونُ أقربَ إلى المقصود، والاستقامةُ: مشتقَّةٌ من الفعل (استقام)، مطاوعُ قوَّمتُه، فاستقام[3]، فيكونُ المرادُ مطاوعتَهما ما أُمِرا به في شريعتِهما.

سرُّ تثنيةِ فعلِ الاستقامة في قوله: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾:

الثَّباتُ على المنهج القويم، ثابتٌ على كلِّ فردٍ مستقيم

في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾ جاء فعلُ الأمر موجَّهًا لكلا النَّبيَّيْن عليهما السلام؛ لأنَّ البشرى بإجابة الدَّعوةِ وقعت عليهما كِلَيهما، فكان التَّفريعُ على ذلك بالأمر بالاستقامةِ مقتضيًا أن يكونَ بالتَّثنيَة نصًّا على وجوب الثَّباتِ على المنهج القويمِ عليهما جميعًا، دون تفريقٍ بين مُرسَلٍ بالأصالة أو التَّبعيَّةِ.

دلالةُ عطفِ جملة النَّهيِ على جملة الطَّلبِ:

الاستقامةُ تقتضي مفارقةَ الباطلِ، ومجانفةَ كلِّ فعل سافل

الجملةُ في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ معطوفةٌ على الجملة في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾، فهي جملةُ نهيٍ معطوفةٌ على جملة أمرٍ[4]: "تنبيهًا على توخِّي السَّلامةِ من العُدول عن طريقِ الحقِّ اهتمامًا بالتَّحذيرِ من الفساد"[5]، ولا يَخفى أنَّ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/183، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/101.
(2) الرّاغب، المفردات: (قوم).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/191.
(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/262.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/273.

الأمرَ بالاستقامة يتضمَّنُ الامتناعَ عن اتِّباعِ غيرِ سبيلِ الحقِّ، فبهذا كان العطفُ لتأكيد الاستقامةِ والثَّباتِ عليها، فأمر بها أوَّلًا، ونهى عن نقيضِها ثانيًا.

سرُّ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾:

طُولُ المسيرِ يقتضي ديمومةَ المجاهدةِ، بمفارقةِ الباطلِ وأهله

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن الاتِّباع بالفعل المضارعِ مَنْهيًّا عنه، للدَّلالة على أنَّ النَّهيَ دائمٌ لا ينقطعُ، فالنَّهي دائمٌ، والامتثالُ له يجبُ أن يكونَ متجدِّدًا في كلِّ زمانٍ وحينٍ.

وجهُ التَّثنيةِ والتَّوكيدِ بالنُّونِ في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾:

تأكيدُ الأمرِ بالنَّهي، دليلُ الاهتمامِ، بما لإجتنابِ المنهيّاتِ من مَقامٍ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ جاء النَّهي بصيغة التَّثنيةِ نصًّا على أنَّ كلا النَّبيَّيْنِ عليهما السلام مَنهيٌّ عن ذلك. "ولمَّا كان الصَّبرُ شديدًا؛ أكَّد قولَه: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ بالاستعجال، أو الفترةِ عن الشُّكر"[1]، فأكَّد الفعلَ بالنّون التَّوكيديَّة مبالغةً في النَّهي عن اتِّباعِ سبيلِهم، فأورد النَّهيَ بصيغةٍ تدلُّ على كمال المبالغةِ في التَّحريم.

إيثارُ لفظِ (السَّبيل) على لفظ (الطَّريق):

السَّبيلُ آثرُ لخصوصِ استعمالِه في المنهجِ، الموسومِ بالاتِّباعِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ السَّبيل دونَ الطَّريق؛ لأنَّه يُستعمل لكلِّ ما يُتوصَّل به إلى شيءٍ خيرًا كان أو شرًّا، قال: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النَّحل: 125][2]، وليس المرادُ السَّبيلَ الّذي يطرقُه النّاسُ في مسيرهم، بل المنهجَ والدّينَ، والسُّنَّةَ، والحُجَّة، وهذه يُعبَّرُ عنها بالسَّبيل دونَ الطَّريقِ.

بلاغةُ المجازِ في لفظ (السَّبيل):

متابعةُ العملِ الجليلِ، كمتابعةِ المسيرِ في السَّبيلِ

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ عبَّر عن المنهاجِ بالسَّبيل، وحقيقةُ السَّبيلِ: الطَّريقُ الذي يسلكُه النّاسُ،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/183.

(2) الرّاغب، المفردات: (سبل).

وفيه سهولةٌ ويسرٌ، ولكنَّه "هنا مستعمَلٌ للسّيرة والعملِ الغالبِ"[1]؛ لأنَّ العملَ الذي يتَّبعه المرءُ في طول حياتِه يُشْبِهُ السَّبيلَ الذي يتابعُ النّاسُ مسيرَهم عليه.

لا أضلَّ من سبيل بُنيَ على الجهلِ

نكتةُ تعريفِ (السَّبيل) بالإضافةِ:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ عرَّف النَّظمُ الجليل لفظَ السَّبيل بالإضافة إلى الموصول؛ لبيان وجهِ كونِه سبيلًا منهيًّا عن سلوكه، فمضمونُ الصِّلةِ يدلُّ على علَّةِ كونِه سبيلًا منهيًّا عنه، كما أفادتْ إضافة السَّبيل إليهم أنَّ مَنِ انحاز عن السَّبيل القويم إنَّما ينحازُ إلى سبيلٍ ومنهجٍ قائم آخرَ، إشارةً إلى أنَّ سبيل الحقِّ واحدٌ من سبلٍ كثيرةٍ، وأنَّ لتلك السُّبلِ أتباعًا، ولعلَّ سبيلَ الحقِّ على الغالب أقلُّها أتباعًا.

تعيينُ السَّبيلِ المنهيِّ عن اتِّباعه أبلغُ في البيانِ، وأرشَدُ في الاهتداء

علَّةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في سياق الآية:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ عبَّر النَّظمُ الكريم بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دونَ غيره؛ لأنَّ المرادَ قومٌ بعينِهم، تعرَّف السبيلُ بإضافته إليهم؛ لكونِهم جماعةً معروفةً، وهم معهودون معروفون.

من ضلَّ عن الهدى؛ جهلَ الحقَّ وما اهتدى

دلالةُ جملة النَّفي بـ (لا)، وأثرها في سياق المعنى:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ جاءت الجملةُ في صلة الموصولِ منفيَّةً، والمقصودُ منها تعريفُ الذين نُهيَ عن اتِّباع سبيلِهم، فهم المعروفون بأنَّهم لا يعلمون، فانتفاءُ العلمِ عنهم علامةٌ ومَيزةٌ يُعرفون بها، وهي عِلَّةُ النَّهي عن اتِّباع سبيلهم، فكيف يُتَّبع سبيلُ مَن لا يعلمُ؟

نكتةُ نفي العلمِ بالمضارع المجموع في قولِه: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ آثر النَّظمُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/273.

الكريم أن ينفيَ العلم بصيغة الفعلِ المضارعِ للدَّلالةِ على استمرار النَّفيِ، فانتفاءُ العلم عنهم لا ينقطعُ؛ إذ هو يتجدَّدُ حينًا بعد حين، وذلك لأنَّ المصدرَ الذي يَرِدون منه لا يُكسبهم العلمَ والهدايةَ، وجاء مجموعًا للدَّلالة على أنَّه منهجٌ متَّبع من كثير من النّاس، وأنَّه شُبَهٌ لا ينجو منها إلّا بتوفيق اللّه واتِّباع هديه.

للجهلِ والضَّلالِ حِزْبٌ يُنسب إلى الجهلِ، ويُسْرع إلى الضَّلالِ بلا مهل

سرُّ حذفِ المفعولِ به في قولِه: ﴿لَّا يَعۡلَمُونَ﴾:

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أطلق النَّظمُ الجليل العلمَ، ولم يقيّده، فحذفَ المفعولَ به، ولم يبيّنْ أيَّ شيءٍ لا يعلمونه، والمرادُ شمولُ كلِّ ما له صلةٌ بالهداية، فهم لا يعلمون عاداتِ اللّه سبحانَه في تعليقِ الأمورِ بالحِكمة والمصالحِ، أو لا يعلمون سبيلَ الجهلةِ في الاستعجال وعدمِ الوثوقِ بوعد اللّه تعالى[1].

مَنْ جَهِلَ دلائلَ التَّوحيدِ؛ لا يصلُح له أن يتَّبع سبيلَهُ الرَّشيد

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/172.

﴿۞وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾ [يونس: 90]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إثـرَ الـدُّعـاءِ وإجـابـتِـهِ أخبر ببيانِ كيفيَّتِهِ

إنَّ اللّه تعالى لمّا ذكر دعاءَ موسى وهارونَ عليهما السلام وأنَّه قد استجاب دعوتَهما؛ أمرَ بني إسرائيل بالخروج من مصرَ في الوقت المعلوم، ويسَّرَ لهم أسبابَه[1]، فأتْبَعَ ذلك ببيانِ إنعامِه بكيفيَّة إجابةِ الدُّعاء بأنْ أجازهم البحرَ، وأغرقَ عدوَّهم، فبعدَ الأمرِ بالاستقامة أنعم عليهما بالإجابة.

وبيانُ كيف " حملتِ العزَّةُ فرعونَ على تقحُّمِ البحرِ على إثْرِهم، فلمّا تحقَّق الهلاكُ؛ حملته ضرورةُ الحيلة على الاستعاذة، فلم ينفعْهُ ذلك لفواتِ وقتِ الاختيارِ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾: أصلُ (جوز): قَطْعُ الشَّيْءِ، أو عُبورٌ أو نفاذٌ من طَرَفٍ إلى طَرَفٍ، تقول: جُزْتُ المَوْضِعَ: سِرْتُ فيه، وأجَزْتُه: خَلَفْتُهُ وقَطَعْتُهُ، وأجَزْتُهُ: نَفَذْتُهُ[3]. والمجاوَزةُ: البُعْدُ عن المكان عَقِب المرور فيه، فإذا قُلتَ: جُزتُ به؛ فأصلُ معناهُ: أنَّكَ جُزتَهُ مُصاحبًا في الجواز به، يُقالُ: جُزتُ به الطَّريقَ؛ إذا سَهَّلتَ له ذلك، وإنْ لم تَسِرْ معه، فهو بمعنى أجزته، كما قالوا: ذهبتَ به بمعنًى: أذهبْتَه، فالمقصود من قوله: ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾: أقْطَعْنا. أي: جعلناهُم قاطعينَ البحرَ، بمعنى: قدَّرنا لهم جَوازه، ويَسَّرناه لهم[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/295.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/114.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (جوز).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80، و11/274.

2) ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ﴾: أصلُ تبِعَ: التُّلُوُّ والقفْوُ، يُقالُ: تَبِعتُ فُلانًا؛ إذا تَلوتَهُ، واتَّبَعْتَه، وأتْبَعْتُهُ؛ إذا لَحِقْتَهُ[1] كأنَّما لَحِق أو التصق به، وتَطَلَّبه مُتَّبعًا له[2]. وتَبِعتُ الرَّجُلَ؛ إذا مشيتُ مَعَه، واتَّبعْتُه؛ إذا مشيتَ خَلفَه لتلحقه[3]. ويُقال: أَتبَعْتَ القَومَ؛ إذا كانوا قد سبقوك، فلحِقتهم. قالَ: واتَّبعتَهم؛ إذا مرّوا بكَ، فمضيتَ مَعهم، وتبِعتهم تَبَعًا مثله[4]، وأتبع فلانٌ فلانًا؛ إذا تبعه يُريد بِهِ شرًّا، كما أتبع فِرْعَونُ موسَى ﷺ. وأمّا التَّتبُّع فأنْ يتتبَّع في مُهْلة شَيئًا بعد شَيْءٍ[5]. والمرادُ بـ ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ﴾ في الآية: لَحِقهُمْ؛ لطَلَب البَغي والعُدوانِ[6].

3) ﴿بَغۡيٗا﴾: البَغْيُ مَصدَرُ (بَغَى)، وهو الظُّلْمُ والاعتِداءُ، يُقال: بَغى، يَبْغي، بَغْيًا، فهو باغٍ، أي: ظالمٌ مُعتدٍ. والبغيُ الاعتداءُ على حقِّ الآخرِ بِسَلْبِ أموالِهم أو بأذاهُم، والكِبْرُ على النّاسِ مِنَ البَغي، وأصلُ البَغْيِ: الفسادُ، كقَوْلِهم: بَغَى الجُرْحُ، أي: فَسَدَ. والبُغاةُ: الَّذين يُفْسِدونَ في الأرْضِ[7]. والمقصودُ بالبغي في الآية: الظُّلمُ والتَّعدّي بالباطل[8].

4) ﴿وَعَدۡوًاۚ﴾: أصلُ (العَدْو) مِن التَّعَدّي، وهو: مُجاوَزَةُ الحَدِّ، يُقالُ: قَدْ عَدا فُلانٌ عَدْوًا وعُدوًّا، أي: ظَلَمَ ظُلْمًا جاوَزَ فيهِ القَدْرَ[9]، ومنه تَعَدّى النَّهَرَ، أيْ: تَجاوَزَهُ، وعدا عليهِ بالسَّيْفِ يعدو عَدْوًا[10]. فالعَدْوُ مَصْدَرٌ بِمَعْنى: الظُّلم والتَّجاوز، ولَيْسَ مِنَ الاعْتِداءِ الَّذي مثالُه قولُه تعالى: ﴿جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾ [الفرقان: 31]. والمقصود بـ العَدْوِ في الآية: تَجاوُزُ الحَدِّ في الظُّلْم[11].

5) ﴿أَدۡرَكَهُ﴾: أصْلُ (دَرَكَ) من الدَّرك، وهو التَّبِعةُ، يُسَكَّنُ، ويُحَرَّكُ[12]، وهو لُحوقُ الشَّيءِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (تبع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تبع).
(3) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (تبع).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (تبع).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تبع).
(6) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 199، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/127.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بغي).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/274.
(9) الأزهريّ، جمهرة اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عدو).
(10) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (عدو).
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/274.
(12) ابن منظور، لسان العرب: (درك).

بالشَّيءِ ووُصولُه إلَيْهِ[1]، والدِّراك: إتباع الشَّيء بعضَه على بعض في كلِّ شيءٍ[2]، يُقال: أدركتُ الرَّجلَ إدراكًا؛ إذا لحِقتُه، فَهوَ مُدْرَك[3]، وأدْرَكَ الغُلامُ والجاريَةُ؛ إذا بَلَغا، وتَدارَكَ القَوْمُ: لَحِقَ آخِرُهُمْ أوَّلَهُم[4]، وممّا سَبق نخلُص إلى أنَّ معنى الإدراكِ: هو اللَّحاقُ وانتهاءُ السَّير، وهذا هو المقصودُ من قوله: ﴿أَدۡرَكَهُ﴾ في الآية[5].

6) ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾: أصلُ الإسلام: الانْقيادُ؛ لأنَّهُ يَسْلَمُ مِنَ الإباءِ والامتِناعِ[6]. والإسْلامُ: الاستِسلامُ لأمرِ اللّه، والانقيادُ لطاعَتِه، وهو دينُ الأنبياء جميعًا، يُقال: سَلَّمْنا للّه رَبِّنا، أي: اسْتَسْلَمْنا له، وأسْلَمْنا، ويُقالُ: فُلانٌ مُسلِمٌ، وفيه قَولانِ: أحدهما هو المُستَسلِمُ لأمر اللّه، والثّاني هو المُخْلِصُ للّه العبادة، مِنْ قَولهم: سَلَّمَ الشَّيءَ لِفُلانٍ، أي: خَلَّصَهُ، وسَلِمَ لَهُ الشَّيءُ، أي: خَلَصَ لَهُ[7]. والمقصودُ بالمسلمين في الآية: المنقادونَ لدينِ اللّه[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ حمايةِ اللهِ لأوليائِه، وإهلاك فرعونَ الَّذي لم تنفعه وقايةٌ ولا تُقْيَةٌ

يقولُ اللّه تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ عندما خرجوا من مِصرَ مع نبيِّهم موسى عليه السلام، فتَبِعَ بني إسرائيلَ فرعونُ وجنودُه؛ استعلاءً عليهم واعتداءً، حتى إذا أحاط الغَرَقُ بفِرعونَ؛ قال عند الموتِ: أقررْتُ بأنَّه لا إلهَ إلّا اللّه الذي آمَنَ به قومُ موسى، وأنا من الموحِّدينَ للّه، المُستَسلِمينَ المُنقادينَ له بالطّاعةِ[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (درك).
(2) الخليل، العين: (درك).
(3) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (درك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (درك)، والمناويّ، التّوقيف على مهمات التّعاريف، ص: 159.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/275.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سلم).
(7) ابن عباد، المحيط في اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(8) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 372.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 12/274، والواحديّ، التفسير البسيط: 11/302، 303، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 372.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالعطفِ في السّياق:

أحداثُ القصَّةِ تتوالى لاستكمال المشاهد واتِّساقها

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ معطوفةٌ على الجملة في قولِه تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا﴾، "عطَفَ الغرضَ على التَّمهيد، أي: أمَرْناهُما باتِّخاذِ تلك البيوتِ تهيئةً للسَّفر، ومجاوزةِ البحر"[1]، فهُما خبرانِ في سياقِ قصَّةٍ واحدةٍ.

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعل (جاوز)، دونَ (جاز):

تصويرُ عبورِ بني إسرائيل، بما تضمَّنَ من معجزاتٍ باهرةٍ

في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بـ ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾، دون (وجُزْنا)، وإن كانا بمعنًى واحدٍ، فالفعلُ (جاوَزَ) بمعنى: جازَ، من باب فاعَلَ بمعنى فَعَلَ[2]، وأصل (فَعَل) إنَّما يقتضي تكليفَ الفعلِ[3]، فساقَهُ على طريق المفاعلة تعظيمًا له[4]. بزيادة الألف، وذلك مبالغة لِما كان من معجزة فَرْقِ البَحْر، بارتفاع بعضِ أراضيه لعبورِهم، وانخسافِ مائِه، وغَرَقِ فرْعونَ وقومِه فيه[5].

والمعنى: "جاوزنا، وجعلنا بني إسرائيل قاطعينَ البحرَ بحيث تركوا البحرَ في خلفِهم"[6]، فلمّا كانت مجاوزةُ أمَّةٍ كاملةٍ البحرَ ليس من يسيرِ الأعمالِ؛ كان التَّعبيرُ عنها بالفعل الأكثرِ حروفًا أدْعى لمقتضى الحالِ.

توجيهُ تعظيمِ الضَّمير للعظيم القدير في قوله: ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾:

معجزةُ الإغراق العظيم، تقتضي معجزةَ إنقاذٍ عظيم

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ عظَّم النَّظمُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/274، وينظر: البقاعيّ، نظمُ الدّرر: 9/183.

(2) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 5/442.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/247، وابن عادل، اللباب: 9/292.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/103.

(5) الجلالان، المفصّل، ص:594.

(6) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/553.

الكريم المجاوزةَ المخبَر عنها بإسناد الفعلِ إلى ضمير التَّعظيم، "أي: فعلنا بعظمتنا في إجازتهم فعلَ المناظِر للآخر المباري له"[1]، والتَّعظيمُ مناسبٌ للسّياق؛ إذ إنَّ فَرْقَ البحر والنَّفاذَ منه أمرٌ بالغُ العِظَم، فكان التَّعبيرُ عنه بضمير العظمةِ أوفقَ للبلاغة، وأدلَّ على الواقع على القدر والتَّمكين.

بلاغةُ الالتفاتِ من الغيبةِ إلى التَّكلُّم:

عظمةُ المجاوزة تقضي بتعظيمِ المتكلِّم، إبرازًا لإعجازه الأفخم

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ عبَّر بصيغة المتكلِّمِ التفاتًا من الغَيبةِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾؛ وذلك لِما "في هذه المجاوزةِ ومقدِّماتِها ولواحقها من مظاهرِ العظمة ونفوذِ الأوامر ومضاء الأحكام"[2]، وإنَّما يظهرُ ذلك بالتَّعبير بضميرِ العظمةِ؛ فاقتضى الالتفاتَ من الغَيبةِ إلى التَّكلُّم.

دلالةُ الباءِ على التَّعدية في قوله: ﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

لا يُجتازُ البحرُ بالأنفُسِ الضَّعيفة، بَلْ بقوَّةِ اللهِ اللَّطيفة

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ أدخل النَّظمُ الجليل الباءَ على بني إسرائيل، وهي هنا "للتَّعدية، أي: جعلناهم مجاوزين البحرَ بأن جعلناه يَبَسًا، وحفِظناهم حتى بلغوا الشَّطَّ"[3]، وذلك يُشعِر أنَّ المجاوزةَ لم تكن بفعلِهم أو مَحْضِ إرادتِهم، بل هناك قوَّةٌ دافعةٌ بأمر اللّه تعالى جازتْ بهم؛ فلذا لم يقلْ: (جازوا البحر).

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ في عُبورٍ ليس له مثيل:

المجاوزةُ بأمَّةٍ كاملةٍ، أبلغُ في الإعجازِ، وأغرب في الإنجاز

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن قوم موسى عليه السلام بـ (بني إسرائيل) تصريحًا بأنَّ الَّذين جازوا البحرَ كلُّ قبائل بني إسرائيل، وفي ذلك تفخيمٌ للمجاوزة وتعظيمٌ لها؛ إذ إنَّ حركةَ جماعةٍ كبيرةٍ وعبورَهم ذلك

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/183.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/183.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/172.

المرَّ الحادِثَ؛ أدلُّ على عِظَمِ المعجزةِ، وليست مجاوزةَ النَّفر القليلِ ذلك البحرَ، كمجاوزةِ أُمَّةٍ كاملةٍ، فعبَّر بـ ﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ إشارةً إلى ذلك.

نوعُ (أل) في ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾ دالَّة على العهد:

المعهودُ في الذِّهن، معروفٌ مرادٌ بعينه، وعرف بالوحي والتَّاريخ

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ عرَّف البحرَ بالألف واللّام الدّالَّةِ على العهد؛ لأنَّ المرادَ بحرٌ بعينه، والعهدُ هنا ذهنيٌّ؛ إذ من المعروفِ أنَّ بني إسرائيل عبروا البحرَ مع موسى، وإن لم يجرِ له ذكرٌ في سياق القصَّةِ هنا.

سرُّ إيثارِ (البَحْرِ) على (اليمّ) في هذا السّياق المحكم:

البحرُ يغلب في الإنعام، واليمُّ في جزاء الطُّغيان

في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالبحرِ دون اليمِّ؛ لأنَّ البحرَ أنسبُ في سياق الإنعام، والبحرُ واليمُّ بينهما فرقٌ: فالبحرُ غالبُ استعمالِه مع النِّعَم، أمّا اليمُّ؛ فمع النِّقم، كما أنَّ اليمَّ يُطلَق على جزءٍ من البحر "اليَمُّ: البَحْرُ، وقيل: لُجَّةُ البَحر"[1]، واستُعمل في القرآن غالبًا في العقابِ أو الشِّدَّة، كقوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾، وقولِه جلَّ شأنه: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾، وقولِه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾.

دلالةُ الفاءِ على المجاوزة في الفعل: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ﴾:

عدمُ الإمهالِ والمسارعة، يفيدُ تلاحق الأحداث وتداخلها

عطف النَّظمُ الجليل الإتْباعَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ على المجاوزةِ بالفاء للدَّلالةِ على أنَّ إتباعَ فرعونَ بني إسرائيل كان على الفور من مجاوزتِهم، وأنَّه لم يمهلْهم فسحةً من الزَّمان، كما لم يقفْ وقفةَ المتدبِّر إزاءَ ما رأى من عظيم الآياتِ بفَرَق البحرِ، بلْ بادرَ بمتابعتِهم تبعًا لتعنُّته وهواه، فأغفل وازعَ الاتِّعاظ.

---

(1) الفيروزاباديّ، البصائر: (يمّ).

دلالةُ التَّعبيرِ عن فعل الإتباعِ بصيغة الماضي:

الإتباع بالإسراع؛ يلمح إلى قد التَّحقُّقِ والانقضاء

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ عبَّر النَّظمُ الكريم عن إتباعِ فرعونَ موسى عليه السلام وبني إسرائيل بالفعل الماضي للدَّلالة على تحقيق خروجِه ومتابعتِه لهم، ولم يكن فعلًا يحوج إلى بيان تجدُّدِه لسرعةِ إنفاذِه.

إيثارُ الفعل (أتبع) دون (تَبِعَ):

قرينة المتابعة دليلُ الحرصِ على استئصال شأفتهم

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ آثر النَّظمُ الجليل التَّعبيرَ بالفعل (أتبعَ) دون (تَبِع)؛ للدَّلالة على اجتهاده في ذلك "أي: حَملوا نفوسَهم على تبعِهم"(1)، فكان فعلُهم ذلك متضمِّنًا اجتهادَهم وتكليفَ أنفسِهم بالمتابعة؛ إظهارًا لحرص فرعونَ على الفتْكِ بمخالفيه.

وجهُ إظهارِ الفاعل ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ في السّياق:

خروجُ الجَيشِ برمَّتـه مع فرعونَ، دليلُ شدَّةِ الغيظِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾ آثرَ إظهارَ الفاعل، مع إمكان إضماره؛ تصريحًا بكونِه ضمنَ الجيشِ الذي خرج إثْرَ بني إسرائيل، وكونِه هو الآمرُ والمنفِّذ، وهذا يدلُّ على شدَّة تعنُّته، وأنَّه كان في النِّهاية من الاغتياظِ بهم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ٥٦﴾ [الشعراء: 53 - 56].

فرعونُ أهلٌ للمذمَّة والإذلال في كلِّ حال:

من أذلَّـه الله؛ فما له من مُكرِمٍ سواه

فضلًا عن أنَّ إظهارَ الفاعل في مواطنِ الخيبة والخسران فيه مزيدُ ذمٍّ له، وتشنيعٌ عليه، وإذلالٌ له، ولذلك أَرْدَفَهُ ببيان علَّةِ الإتْباع (البغي، والعدو)، أو حالهم باغين متعدّين، وفرعونُ أهلٌ لكلِّ ذمٍّ، ومنقصةٍ، وصَغارٍ، ومَثْلَبَةٍ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/184.

ما دلالةُ عطفِ الجنودِ على فرعونَ في الآية:

في قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾، عطف الجنودَ على فرعونَ، للدَّلالة على أنَّهم مشاركون له بإتِّباعهم بني إسرائيل، وأنَّهم قاموا بذلك طاعةً واتِّباعًا لفرعون، وأفاد أنَّ خروجَ فرعونَ كان على قدر غيظِه وحنَقِه من بني إسرائيلَ، فخرج بإثْرِهم، ومعه جيشُه، وقد أضاف الجنودَ إلى ضمير فرعونَ للدَّلالة على أنَّهم مختصّون به، لا ولاءَ لهم لغيره، فلم يكونوا جنودًا للدِّفاع عن النَّاس، بل عن فرعونَ، فأوردَهم ذلك المهالكَ.

جنود فرعون هم المختصّون به، المنصرفون عن شأنِ غيرِه

بيانُ المتشابِهِ بين: ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾ و﴿بِجُنُودِهِۦ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ تشابهٌ مع قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ [طه: 78]، وذلك أنَّ الآيةَ في سورة يونسَ يسبقُها قولُه عزَّ ذكرُه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [يونس: 88]، فلمّا كان السّياقُ متعلِّقًا بالمشاركة في الحكم والفعلِ؛ ناسَبَهُ عطْفُ الجنودِ على فرعونَ، أمّا الآيةُ في سورة طه؛ فيسبقُها قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي﴾ [طه: 77]، فلمّا كان موسى عليه السلام قدْ سارَ بالعباد؛ ناسبَه أن يتْبعَه فرعونُ بالجنود.

عطْفُ الجنودِ في السّياق إظهارٌ لمشاركتِهم في الحدث

سرُّ تنكيرِ لفظَي ﴿بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾ جاء لفظا (العدْو، والبغْي) منكَّرَيْنِ للدَّلالةِ على تهويلِ الاعتداءِ والبغْي، وذلك أنَّهم لم ينقصوه شيئًا، فلمّا لم تتوفَّر أسبابُ البغْي؛ كان إظهارُه يدلُّ على عِظَمِه في الشَّناعة، فانتفاءُ المسوِّغِ يدلُّ على شدَّةِ القبح.

من الشَّناعةِ العظمى الاعتداءُ والبغيُ بلا مسوِّغٍ

البغْيُ والعدْو بين الحاليَّة، والمفعول لأجله:

يَصلح اللَّفظان المنصوبان (البغي والعدْو) في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾ أن "يكونا مفعولين منَ

أجلهما، أي: لأجلِ البَغْي والعَدْوِ، وشروطُ النَّصب متوفِّرةٌ، ويجوزُ أن يكونا مصدريْنِ في موضعِ الحال أي: باغينَ معتدينَ"[1]، فالحالُ على تقدير: فأتْبعوهم باغينَ ومعتدينَ، أي: في تلك الحالة، فهيئةُ خروجِهم هي هيئةُ الباغي المعتدي؛ تصويرًا لشدَّتهم وغلظتِهم، وأمّا المفعولُ لأجله؛ فهو إخبارٌ عن مقصدِهم، وبيانٌ لنيَّة فرعونَ، "أكانَ من الممكنِ أن تكونَ نيَّةُ الفرعونِ أن يدعوَ موسى وقومَه إلى العودة إلى مصرَ ليستقرّوا فيها؟ لا، لم تكنْ هذه نيَّةُ الفرعونِ؛ لذلك قال الحقُّ سبحانه عن هذا الإتْباعِ: ﴿بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾ [يونس: 90]، أي: إنَّه إتْباعٌ رغبةً في الانتقام والإذلالِ والعُدوانِ"[2]. وهذا يدلُّ على أنَّهم كانوا يُقِرّون في سريرة أَنفسِهم أنَّهم خرجوا للظُّلم والاعتداءِ، وألّا مسوِّغَ مشروعًا لخروجِهم، وكلا الوجهينِ مُحتَمَلانِ، وهذا من سرِّ لُغةِ الإعجازِ.

خرج فرعون وجنوده، بلا مسوِّغ شرعيٍّ، بهيئة الظّالم المعتدي

دلالةُ العطفِ بالواو في المعطوفَين: ﴿بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾:

عطفُ المتقارب في الدّلالة يسفرُ عن دلالته بالمتعاطفَين معًا

في قوله تعالى: ﴿بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾ عطف النَّظمُ العزيزُ لفظَ العدْوِ على البغْي، وهو مصدرٌ من الفعل (عدا) يدلُّ على تجاوزِ الحدَّ في الظّلم، مسوقٌ لتأكيد البغي، وإنَّما عُطِف لِما فيه من زيادةِ المعنى في الظُّلم[3]، والجمعُ بينهما يدلُّ على أنَّ سوءَ غايته لا يقعُ بوصفٍ واحدٍ من تلك الأوصاف، وإن كان الوصفُ الواحدُ منهما جديرًا بإظهارِ السّوءِ.

وجهُ إرْدافِ البَغْي بالعدْوِ في سياق الآية:

الجمع بين البغْي والعدْو، دليلُ الطُّغيان والجبروت

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾ أتْبَعَ النَّظمُ الكريم ذكرَ البغْي بذكر العدْو تأكيدًا لظلمه واعتدائه، فـ "البغْي الإفراطُ في الظُّلم، والعدْو مجاوزةُ الحدِّ"[4]. وشتّانَ بين

(1) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/263.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 10/6180.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/274.

(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/607.

المعنيَيْنِ، فالبغْي ظلمٌ، ويتحقَّقُ بالمَيْل عن الحقِّ ووضعِ الشَّيء في غير مكانِه، أمّا الاعتداءُ؛ فهو اختراقُ الحدِّ وتجاوزُه، فيدلُّ على انتهاك الحدودِ التي لا ينبغي تجاوزُها بمانع الدّينِ والقانون والأخلاق، وعليه فإنَّ الجمعَ بينهما تأكيدٌ على غَلْواء فرعونَ في طغيانِه وظلمِه واعتدائِه.

دلالةُ (حتّى) على الإيغال في العتوّ:

استفراغُ الوُسْعِ بالظُّلم والكفر، حتّى بلوغِ الغرق الأكبر

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ عبَّر بـ (حتّى) للدَّلالة على مُضيِّ فرعونَ في عتوِّه حتّى الآخِر، و(حتّى) "ابتدائيَّةٌ لوقوع إذا الفجائيةِ بعدها، وهي غايةٌ للإتّباع، أي: استمرَّ إتّباعُه إيّاهُم إلى وقت إدراكِ الغرقِ إيّاه، كلُّ ذلك لا يفتأُ يَجِدُّ في إدراكهم إلى أنْ أنْجى اللّه بني إسرائيل، فاخترقوا البحرَ، وردَّ اللّه غمرة الماءِ على فرعونَ وجنودِه، فغرقوا، وهلك فرعونُ غريقًا"[1].

إيثارُ التَّعبير بظرفِ الزَّمان (إذا) في السّياق:

أصاب فرعونَ الغرورُ عن تمثُّل كفرِه، فبحث عن حتفه بظلفه

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بظرف الزَّمان (إذا) لِما فيه من دلالةٍ على المفاجأة عند وقوعِه بعد (حتّى)، فـ "حتّى: ابتدائيَّةٌ لوقوع إذا الفجائيةِ بعدها"[2]، وذلك للدَّلالة على مُضيِّه في عُتوِّه إلى أقصى ما يمكنه، وعدم ارعِوائِه برؤية أماراتِ الغرقِ، فإذا به يُفاجأُ بالغرق.

التَّعبيرُ عن فعل الإدراكِ بالماضي ﴿أَدۡرَكَهُ﴾:

الغرقُ حكمٌ ناجزٌ محقَّقٌ، بإعجاز لا يحصره منطق

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الإدراك بالفعل الماضي تأكيدًا لتحقُّقِ الغرق، ولو عبَّر بالفعل المضارع؛ لأفاد تصويرَ ذلك الحدث، ولم يُرِدِ السّياق التَّصويرَ هنا، بل أراد بيانَ أنَّه إنَّما أعلن إيمانَه في وقت تحقُّق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/275.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/275.

الغرق وتيقُّنِه من ذلك، فالسّياقُ في بيان زيفِ إيمان فرعونَ، وليس المرادُ الوعظَ والاعتبارَ بتصوير ذلك المشهدِ لمن يسمعُ القصَّة، والاعتبارُ قد حدث بإنْجاء البَدن.

نكتةُ العدول من الإغراقِ إلى إدراكِ الغرقِ له:

تـدرُّجُ الـغـرقِ يدنو منه، وهو ماضٍ في طغيانِه غيرَ آبهٍ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ عدَل النَّظمُ الجليل من التَّعبير من الغرقِ المباشرِ، فلم يقلْ: (حتّى إذا غرق إلى قوله: "﴿أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾، والإدراكُ "اللَّحاقُ وانتهاءُ السَّير، وهو يُؤذِنُ بأنَّ الغرقَ دنا منه تدريجيًّا بهول البحر ومصارعته الموجَ، وهو يأملُ النَّجاةَ منه، وأنَّه لم يُظهِر الإيمانَ حتّى أيِسَ من النَّجاة، وأيقنَ بالموت، وذلك لتصلُّبِه في الكفر"[1]، وكذلك فلو عبَّر بالغرقِ المباشرِ؛ فإنَّه سيتناقضُ مع الإخبارِ بأنَّه قال ما قال؛ فكيف يقول الغريقُ ذلك؟ فدلَّ التَّعبيرُ على أنَّه قال ذلك عند مُشارفتِه الوشيكةِ على الغرق، فبلغ أقصى الغايةِ؛ إذ الإدراكُ هو بلوغُ أقصى الشَّيء، وأدْرَكَ الصَّبيُّ: بلغ غاية الصِّبا، وذلك حينَ البلوغِ[2].

سرُّ تخصيصِ الغرقِ بفرعونَ دون جنودِه:

قَـصَـصُ الـقـرآنِ ليست لاستقراءِ الأحداث والآثار، بـل لـلـعـبرة والازدجار

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالضَّمير المفردِ دونَ الجمعِ، فلم يقلْ: (أدركهم) فخصَّ فرعونَ بذلك للإشعارِ "بأنَّ جنودَه، لم يقولوا: آمنّا، ولذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ مع أنَّ الغرقَ أدركهم جميعًا"[3]. ولأنَّ جنودَ فرعونَ غائبون من المشهد، ولا دورَ لهم غيرُ اتِّباعِ فرعون، فكأنَّه لا وجودَ لهم، وكذلك فإنَّ المرادَ من السّياق هو بيانُ جزاءِ طغيانِ الكفر، وكان ذلك متشخِّصًا في فرعون.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/275.
(2) الرّاغب، المفردات: (درك).
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/554.

توجيهُ تعريفِ الغرقِ في السّياق المحكم:

الغرقُ مشهدٌ معروفٌ، لاستجلاب صورةِ الغريقِ المهين

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم المجيءَ بالغرق معرَّفًا بالألف واللّام إشارةً إلى أنَّه هو العذابُ الأليم الذي دعا به موسى عليه السلام، فـ ﴿ٱلۡغَرَقُ﴾ "الموتُ بالماء، كما سأل موسى في أنَّه لا يؤمنُ حتّى يرى العذابَ الأليم"[1]، كما أنَّ الغرقَ في البحر معهودٌ معروفٌ، وهو امتلاءُ الجوف بالماء بما يقطعُ النَّفس، فعبَّر بذلك لاستجلاب تلك الصّورةِ وإسقاطِها على فرعونَ للإهانةِ والتَّقبيح.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف في السّياق الحكيم:

طوى القِصَّةَ في بلاغة التَّعبير، بغاية التَّشويق والتَّأثير

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ جاء تركيبُ الجملة في غايةِ الإيجاز، وقد بيَّن العلّامةُ ابنُ عاشور أنَّ هذه الجملةَ قد أوجزتْ ما يقتضي تفصيلَه أن يأتي في خمسِ جُمل: "جملةٌ: تفيد أنَّ فرعونَ حاول اللَّحاقَ ببني إسرائيلَ إلى أقصى أحوالِ الإمكانِ والطَّمعِ في اللَّحاق. وجملةٌ: تفيد أنَّه لم يلحقْهم، وهاتان مستفادتان من (حتّى)، وهاتان مِنَّةٌ على بني إسرائيل. وجملةٌ: تفيد أنَّه غمرَه الماءُ، فغرق، وهذه مستفادة من قوله: ﴿أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ وهي عقوبةٌ له وكرامةٌ لموسى عليه السلام. وجملةٌ: تفيد أنّه لم يسعْه إلّا الإيمانُ بالله؛ لأنّه قهرَتْه أدلَّةُ الإيمان، وهذه مستفادةٌ من ربط جملةِ إيمانه بالظَّرف في قوله: ﴿إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾، وهذه مَنْقَبَةٌ للإيمان، وأنَّ الحقَّ يغلبُ الباطلَ في النِّهاية. وجملةٌ: تفيد أنَّه ما آمن حتى أيسَ من النَّجاة لتصلُّبه في الكفر، ومع ذلك غلبَهُ الله، وهذه موعظةٌ للكافرين وعزَّةٌ لله تعالى"[2].

توجيهُ الفصلِ بفعلِ القولِ: ﴿قَالَ﴾:

شِدَّةُ الاتِّصال تكفي في الرَّبط بلا عاطفٍ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ جاءت الجملةُ بلا عطفٍ لكمال الاتِّصالِ بين الجملتين: جملةِ إدراكِ الغرقِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/184.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/275 - 276.

إيّاه، وجملةِ إعلانه الإيمانَ، فالفعل (قال) هو ما تنتهي إليهِ الغايةُ في حتّى.

إيثارُ فعلِ الإيمان ماضيًا ﴿ءَامَنتُ﴾:

المبالغةُ في تحقيقِ الإيمانِ بالإخبار عنهُ ماضيًا منجزًا

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ عبَّرَ عن إيمانِه "بصيغة الماضي الدّالَّةِ على وقوع مضمونِها باعتبار وضعِها"[1]، وفي ذلك دليلٌ على مبالغتِه في السَّعي إلى تحقُّق إيمانِه.

سرُّ التَّعبير عن إيمانِ فرعونَ بالجملةِ الاسميَّة:

التَّحيُّلُ في تأكيد الإيمانِ طمعًا في تحقيقِ النَّجاة بعد الفوات

بيَّن النَّظمُ الجليل أنَّ فِرعَونَ عبَّر عن إيمانه بالجملةِ الاسميَّة دونَ المفردِ، فقال جلَّ شأنه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، ولم يقلْ: (آمنتُ باللّه)؛ بل أتى "بالجملةِ الاسمية الدّالَّةِ على الدَّوامِ والثَّبات بدلًا وبيانًا له"[2]، أي: بدلًا من الفعل (آمنتُ)، كما أنَّه كان في وضعٍ مضطربٍ بحيث غاب عنه ما لا يغيبُ بالضَّرورة، وقد يدلُّ على أنَّه لم يُلقِ بالًا لمضمون أقوالِ موسى عليه السلام حالَ إلقاء دعوتِه، ولم يكلِّفْ نفسَه بأن يعرف اسمَ الإله الذي دُعيَ إليه، "وفي لفظ فرعونَ مجهلةٌ وتعنُّت؛ لأنَّه لم يصرِّح باسم اللّه"[3].

تَوجيهُ قراءتَي فتحِ همزةِ (أنّ) وكسرِها وأثرُه في البيان:

الإيمان بالألوهيَّة، في عبارة تنمُّ عن جهلٍ بحقيقة المعبود

في قوله تعالى: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ اختلف القرّاءُ في فتح الألفِ وكسرِها في: ﴿أَنَّهُۥ﴾ فقرأ ابنُ كثير، ونافعٌ، وعاصمٌ، وأبو عمرو، وابنُ عامر: ﴿أَنَّهُۥ﴾ بفتحِ الألفِ. وقرأ حمزةُ الكسائيُّ (إنّه) بكسرِ الألفِ. فمن قرأ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ﴾ فلأنَّ هذا الفعلَ يصلُ بحرف الجرِ في نحو قوله

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/555.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/555.
(3) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/362.

ﷻ: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، فلمّا حذفَ الحرفَ؛ وصلَ الفعلُ إلى (أنّ)، فصار في موضع نصبٍ أو خفضٍ، ومن قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ﴾؛ حمَلَه على القولِ المُضْمرِ، كأنَّه قال: آمنتُ؛ فقلتُ: إنَّه لا إله إلّا الله، وإضمارُ القول في هذا النَّحوِ كثيرٌ ولإضمار القولِ مزيَّةٌ هنا، فقولُك: إنَّه لا إله إلا الله في المعنى إيمانٌ، فإذا قلتَ: آمنتُ؛ فهو تصريحٌ بأنَّه قد ذكر ذلك(1).

دلالةُ ضمير الشَّأنِ في سياق الآية:

تأكيدُ الإيمان بكونِه حقيقةً، يلجأ إليها النّاس عند الإياس

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ التَّعبيرُ بضمير الشَّأنِ أبلغُ من التَّعبيرِ بسواه، فكأنَّ الحديثَ يساقُ مساقَ القضيَّةِ الكلِّيَّة والحقائقِ الثّابتة التي لا خلافَ فيها، فهو تعبيرٌ عن تصديقِه بأنَّ الشَّأنَ قائمٌ على توحيد الإلهِ الحقِّ، ولم يقلْ: (آمنتُ بالله)؛ لأنَّ هذا إخبارٌ بقضيَّة مفردةٍ خاصَّةٍ به، أمّا التَّعبيرُ بالشَّأن؛ فهو غيرُ متعلِّقٍ به، بل حقيقةٌ عامَّةٌ مطلقةٌ ثابتةٌ، والمرادُ تأكيدُ إيمانِه بأبلغ عبارة.

نكتةُ التَّوكيد بأنَّ وجملةِ الحصر في السّياق:

لا يكون الإنسان في حالة أصدق منه في ساعة الأزمة

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ عبَّر عن إيمانه بالجملةِ الاسميَّةِ الدّالَّة على تأكيد مضمونِها، وبافتتاحِها بـ (أنَّ) وما في الحصر من دلالةٍ على تأكيد المعنى، وما في (لا) النّافيةِ للجنس من قوَّةٍ في النَّفي، وذلك للقطعِ بكون إيمانه جاء على وجهِ الصِّدق؛ لأنَّه أتى به في ساعةِ الشِّدة وحيث أدركَه الغرق، وذلك مظنَّةُ التَّكذيبِ والطَّعنِ في صدقِ دعواه، فلذا كسا ألفاظَه أنواعًا من التَّوكيد دفعًا لتلك التُّهمة.

---

(1) أبو عليّ، الحجّة: 3/205 - 206.

دلالةُ (لا) النّافية للجنس في إقرار فرعون أنَّه لا إله سواه:

ادِّعاء فرعون الألوهيَّة اضطرَّه عند التَّراجع إلى نفيها عن سوى اللهِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ جاء النَّفيُ بـ (لا) الدّالَّةِ على نفي الجنسِ لا نفي الوحدةِ تأكيدًا لنفي جنسِ الإلهيةِ عن سوى اللّه تعالى، وذلك لأنَّه قد سبق لفرعونَ أنَّه ادَّعى كونَه إلهًا، فكان الأنسبُ في إعلان إيمانه أن يتضمَّنَ نفيَ الإلهيَّةِ عن كلِّ أحد غيرِ اللّه تعالى، ليكونَ قد نفى تلك الصِّفةَ عن نفسه ساعةَ إعلان إيمانِه.

توجيهُ التَّعبيرِ بجملةِ الاستثناء في السّياق:

النَّفيُ والإثباتُ في الاستثناء، أبلغُ في بيان الإيمانِ والتَّوحيد

في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ آثر التَّعبيرَ عن التَّوحيد بصيغةِ الاستثناءِ، ولم يقل: (آمنت باللّه وحده)؛ لدلالةِ الاستثناءِ على الحصر، فيتضمَّنُ الإيمانَ بالتَّوحيد، مع الإعلان بنفي الإلهيَّةِ عن غيرِ اللّه تعالى، أمّا العبارةُ (آمنت باللّه وحده)؛ فهي تتضمَّن الإيمانَ بالتَّوحيد، ولكنَّها لا تتضمَّنُ حصرَ الإلهيَّةِ باللّه تعالى وحدَه، فقد يؤمنُ باللّه تعالى، ولكنَّه لا يَنفي أن يكونَ هناك إلهٌ آخرُ؛ فكان التَّعبيرُ بالاستثناء للدَّلالةِ على إثبات الإيمانِ ونفي الإلهيَّةِ عن سواه على سبيل التَّأكيدِ والقطع.

التَّعبيرُ بالاسم الموصولِ (الّذي) دون تصريحٍ بالإله:

صَونُ أسماءِ اللهِ تعالى من أن تَجريَ على ألسنةِ الطُّغاةِ

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ جاء التَّعبيرُ عن إعلانِ إيمانِه باللّه تعالى بالاسم الموصولِ دونَ التَّصريحِ باسم الجلالةِ، فلم يقلْ: (آمنت باللّه)؛ "للإشعار برجوعِه عن الاستعصاء وباتِّباعِه لمَن كان يستتبعُهم طمعًا في القَبولِ والانتظامِ معهم في سلك النَّجاةِ"[1]. وفي ذلك براعةٌ في العُدول عن التَّصريح باسم اللّه تعالى؛ حيثُ صينَ اسمُ اللّه تعالى أن يجريَ على لسان الطّاغيةِ[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 2/75.

توجيهُ الإطنابِ في الآية:

الإطنابُ يزيلُ الإلباسَ في إعلان الإيمان

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ إطنابٌ، وذلك أنَّه قد ذكر المحصورَ، وهو الموصول وصلتُه، وكان يمكنُ التعبيرُ بالمفرد بإظهار لفظِ الجلالة، فأطْنبَ بذكر الجملةِ؛ لأنَّه أراد إزالةَ الاحتمال بكونِه آمنَ بشيء آخرَ، فأوقع تصديقَه على ما آمنت به بنو إسرائيل، فعيَّنه تعيينًا يُزيل به كلَّ الاحتمالات[1]، كما أنَّ فيه إشعارًا باستعطافِهم.

سرُّ الاختلافِ بين جملة فرعونَ، وجملةِ السَّحرة:

اختلاف العبارة ناشئ عن اختلاف الموقف وملابسات الحال

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ عبَّرت الآيةُ عن إيمان فرعونَ بأسلوبٍ مختلفٍ عن إعلانِ السَّحرةِ إيمانَهم حيث قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: 121 - 122] فلم يقلْ فرعونُ كما قال السَّحرةُ، "بل عبَّر عنه تعالى بالموصولِ، وجعل صلتَه إيمانَ بني إسرائيل به تعالى للإشعار برجوعِه عن الاستعصاء، وباتِّباعِه لِمَن كان يستتْبِعهم طمعًا في القَبول والانتظامِ معهم في سلك النَّجاة"[2]. أمّا السَّحرةُ؛ فأعلنوا ذلك بمحضرِ موسى وهارونَ عليهما السلام وقتَ إلقائه العصا وظهورِ الحقِّ لهم، فكان التَّعبيرُ بـ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ تصريحًا ونصًّا بإعلان تركِهم فرعونَ وتحوُّلِهم إلى الإلهِ الحقِّ إلهِ موسى وهارونَ.

التَّعبيرُ عن إيمان بني إسرائيل بالماضي ﴿ءَامَنتُ﴾:

تأكيدُ إيمانِ فرعون بالإحالةِ على إيمانِ بني إسرائيل الرّاسخِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ جاء التَّعبيرُ عن إيمانِ بني إسرائيل بالفعل الماضي للدَّلالة على تحقُّق الإيمانِ ورسوخِه بهم، فأحالَ بذلك إلى تأكيدِ إيمانِه، وكونِ الإيمانِ بهذا الإلهِ سابقًا وراسخًا وليس بمُحدَثٍ وطارئ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/185.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/170 - 171.

تقديمُ شبهِ الجملةِ ﴿بِهِۦ﴾ على الفاعل:

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ قدَّم النَّظمُ الكريم شبهَ الجملةِ من الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على الفاعل ﴿بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، فلم يقلْ على مقتضى الظّاهرِ: (آمنت بنو إسرائيل به)؛ للدَّلالةِ على أنَّ بني إسرائيل لا يؤمنون إلّا به، فإيمانُهم مختصٌّ به، وفي ذلك مزيدٌ من تأكيدٍ بكونِه يؤمن بالتَّوحيد، فقد أعلن أنَّه موحِّدٌ بالإحالة إلى توحيدِهم من خلال حصرِ إيمانِهم باللّه تعالى.

المـقـصـود بالحديث أوَّلًا بالتَّقديم

دلالةُ العطفِ بالواوِ لعبارة ادِّعاء فرعون بأنَّه مِنَ المُسْلِمِيَن:

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ معطوفةٌ على الجملة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَامَنتُ﴾ تأكيدًا لمضمون الجملةِ الأولى، فلمّا أخبرَ عن إيمانِه؛ أتْبعه بكونِه من المسلمين تأكيدًا لتحقيق الإيمان بإجرائِه بأكثرَ من عبارة. "ولعدمِ علمِه بالصِّفات المختصَّةِ باللّه إلّا ما تضمَّنَتْهُ الصِّلةُ؛ إذ لم يتبصَّرْ في دعوةِ موسى تمامَ التبصُّر، ولذلك احتاجَ أن يزيدَ: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛ لأنَّه كان يسمعُ من موسى دعوتَه؛ لأنْ يكونَ مسلمًا؛ فنطَق بما كان يسمعُه"[1].

تأكيدُ الإيمانِ بإعلانِ الاستسلامِ، بعد فوات الأوان

توكيدُ جملةِ الفاصلةِ بالجملة الاسميَّة:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالجملة الاسميَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ الدّالَّة على الثُّبوت والدَّوامِ وتأكيدِ مضمونها، وكان الظّاهرُ أن يقولَ: (وأسلمت له) عطفًا على قوله: ﴿ءَامَنتُ﴾؛ ولكنَّه عدَل إلى التَّعبير بالجملة الاسميَّةِ؛ لأنَّه أبلغُ في بيان إسلامِه وثبوتِ المعنى، وترسيخِ ادِّعائه بالإيمان وكونِه من زمرة المسلمين، مع ما فيه من مراعاةِ الفواصل[2].

ادِّعـاءُ الرُّسوخِ والـثَّـبـاتِ على المعنى بالتَّعبير بالاسميَّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/276.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/555، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/171.

دلالة جمعِ لفظ ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ وتعريفِه:

الصِّفةُ ضِمْنَ جماعةٍ أقوى من صفةِ الفردِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالجمع والتَّعريفِ في: ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، "وأراد بهم إمّا بني إسرائيلَ خاصةً، وإمّا الجنسَ، وهم داخلون فيه دخولًا أوَّليًّا"(1)، والتَّعبيرُ بالانتماء ضِمْن جماعةٍ معروفة بالوصف أبلغُ في الدَّلالة على امتثال الصِّفةِ من الاتِّصاف بها في صيغة الإفرادِ بأن يقولَ: (وأنا مسلمٌ)، لما له من دلالةِ الدخولِ مع الجمع المصطفَيْنَ الأخيار.

سرُّ تكرارِ ذكرِ إيمانِ فرعونَ بثلاثِ عباراتٍ متتاليات:

طولُ الكلامِ دليلُ الحرصِ على القبولِ ساعةَ العسرةِ رغم اليأس

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ كرَّر المعنى ذاتَه بأكثرَ من عبارة، وقد كانت واحدةٌ كافيةً في بيان الإيمان، ولكنَّه "لمّا لحِقه من الدَّهَشِ ما لحِقه؛ كرَّر المعنى بثلاثِ عباراتٍ، إمّا على سبيل التَّلعثم؛ إذ ذلك مقامٌ تَحارُ فيه القلوبُ، أو حرصًا على القبولِ، ولم يقبلِ اللّه منه؛ إذ فاتَه وقتُ القبول، وهو حالةُ الاختيار وبقاءُ التَّكليف، والتَّوبةُ بعد المُعاينة لا تنفعُ"(2).

دلالةُ الإسلامِ في الآية على المعنى اللُّغويِّ دون الشَّرعي:

أعلنَ فِرعونُ الإسلامَ بقهرِ الظُّروف، لا بالاقتناع المألوف

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ دلَّ التَّعبيرُ بالإسلام هنا أنَّه من "الذين أسلموا نفوسَهم للّه، أي: جعلوها سالمةً خاصَّةً له تعالى"(3)، فدلَّ على الانقياد للأمر والحكم، "فالإسلامُ هنا بالمعنى اللُّغوي، والإسلام الشَّرعيُّ مختصٌّ بما جاء به نبيُّنا عليه السلام على ما هو المختارُ"(4).

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/102، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173.

(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/554.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(جاوزَ)، و(عبَر)، و(عدّى):

العـبـورُ تجاوز المـاءِ، والتَّعدّي مجـاوزةُ الحدِّ، والمجـاوزةُ عبورُ الموضِع

أصلُ العَبْرِ: تجاوزٌ من حالٍ إلى حالٍ، والعُبورُ يختصُّ بتجاوز الماء، إمّا بسباحةٍ، أو في سفينةٍ، أو على بعيرٍ، أو قنطرةٍ[1]. أمّا المجاوزةُ؛ فيُقال: جُزْتُ البلدَ، أي: تعدَّيتُه، فجاوز بمعنى: تجاوز[2]، جُزْتُ الطَّريقَ، وجازَ الموضعَ، وجاوَزه، وأجاز غيرَه، وجازَه: سارَ فيهِ، وسَلَكَهُ، وأجازَه: خَلَّفه، وقَطَعَهُ[3]. وأمّا العدْوُ؛ فيَدُلُّ عَلَى تَجَاوُزٍ في الشَّيْءِ وتَقَدُّمٍ لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ[4]، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ [الكهف: 28] أي: لا تتجاوز[5]. فيُلاحظُ أنَّ العبورَ يكونُ سباحةً أو بآلةٍ، وأمّا التَّعدّي؛ فهو تجاوزٌ لما لا ينبغي، وأمّا المجاوزةُ؛ فهي تعدّي المكانِ والموضعِ، وهو الأنسبُ للآية.

الإتْباع واللَّحاق:

الإتْـبـاع اقتفاء الأثـرِ، واللَّحاق الإدراك لما سبق

الإتْباع: اقتفاءُ الأثر، يقال: تَبِعه وأتْبعَه؛ فتارةً يكون بالجسم نحو: تبِعتُه في الطريق وأتْبعتُه فيها، وتارةً بالامتثال، ولَحِقْتُهُ ولَحِقْتُ به: أدركتُه[6]، فهو إدراكُ الشَّيءِ شيئًا كان يَسبقه متَّصلًا بأثنائه[7]. فالإتْباعُ يأتي بمعنى الاقتفاءِ واللَّحاقِ بشيءٍ أو شخصٍ والسيرِ خلفَه. وهو الأنسبُ للسياق؛ إذ لم يدركْ فرعونُ بني إسرائيلَ، وإنَّما اقتفى أثرَهم.

الظُّلم والجَوْر والبَغي:

الظُّـلمُ نقصانُ الحقِّ، والجَوْرُ ظلمٌ في الحكم، والبغيُ طلب ما ليس يَحقُّ

الجَوْر خلافُ الاسْتقامَة في الحكم، والظُّلمُ ضَرَرٌ لا يُسْتَحقُّ،

(1) الرّاغب، المفردات: (عبر).
(2) السّمين، العمدة: (جوز).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (جوز).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عدو).
(5) السّمين، العمدة: (عدو).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (تبع)، (لحق).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لحق).

ولا يعقِبُ عِوضًا، وأصل الظُّلم نُقْصانُ الحقِّ، والجَوْرُ: العُدولُ عَن الحقِّ، وخُولف بَين النَّقيضيْن، فَقيل: في نقيضِ الظُّلم: الإنصافُ، وهوَ إعْطاءُ الحقِّ على التَّمام، وفي نقيض الجوْرِ: العدْلُ، وهوَ العُدولُ بِالفِعْلِ إلَى الحقِّ، وأمّا البَغْيُ؛ فهو شدَّة الطَّلب لِما لَيْسَ بِحَقٍّ بالتَّغليب[1]. وفي الآية الكريمةِ عبَّر بالبغيِ؛ لأنَّه اشتدَّ في طلبهم بلا وجهِ حقٍّ لكونِه كان غالبًا عليهم.

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 231 - 232.

﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١﴾ [يونس: 91]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التأييس من القبول بعد إعلان الإيمان، في غير وقت القبول

مناسبةُ الآيةِ لِما قبلَها: أنَّه لمّا ظهرَ الذُّلُّ على فرعون باضطِّراره إلى إعلانِ الإيمانِ بالذي آمنتْ به بنو إسرائيلَ: "زادَه تعالى ذُلًّا بالإيئاسِ من الفلاحِ بقولِه على لسان الحالِ أو جبريلَ عليه السلام أو ملكِ الموتِ أو غيرِه من الجنود عليهم السلام: ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ﴾، أي: أتجيبُ إلى ما دُعيت إليه في هذا الحينِ الذي لا ينفعُ فيه الإجابةُ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: أصلُ الفَسادِ: خروجُ الشَّيءِ عن الاعتدال، قليلًا كانَ الخروجُ عنه أو كثيرًا[2]، يُقال: فَسَدَ الكَلامُ، أي: خَرَجَ عن حَدِّه، ويُقالُ: فَسَدَ الشَّيءِ فسادًا، وأفسدَه غيرُه، وضِدُّه: الصَّلاحُ[3]، والفسادُ عامٌّ في الكُفرِ والضَّلالِ وكلِّ ما هو ضارٌّ، والصَّلاحُ عامٌّ في الإيمانِ والرُّشدِ وكلِّ نافعٍ[4]. والمقصودُ بـ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ في الآيةِ: (الخارجون على الحقِّ بِالجَوْرِ والظُّلمِ والتَّمويهِ بِالسِّحْرِ)[5].

المَعنى الإجْماليُّ:

إيمانُ اليأسِ لا ينفعُ؛ لفقدِه عنصرَ الاختيارِ، ووجودِه محض الاضطرار

قال اللّٰه تعالى لِفرعونَ: آلآن تُقِرُّ للّٰه بالعبوديَّة، وتستسلِم له بالذِّلَّة، وتُخلِصُ له الألوهيَّةَ بعدَ فواتِ الأوانِ، وقد عصيتَهُ قبلَ نزولِ عذابِه، وكنتَ مِن المُفسِدينَ في الأرضِ الَّذين ظَلَموا العبادَ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/185.
(2) الرّاغب، المفردات، والزبيديّ، تاج العروس: (فسد).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (فسد).
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/100.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/278.

وأضَلّوهم، وصَدّوهم عن سبيلِ اللّه، فهلّا أقرَرت بما أقرَرتَ به الآن، وبابُ التَّوبةِ لك منفتحٌ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ في قوله تعالى: ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أدخلَ همزةَ الاستفهام على ظرف الزَّمان، والمرادُ من الاستفهام الإنكارُ أصالةً، وممّا ينشأُ عنه التَّوبيخُ والتَّأييسُ؛ لأنَّه لم يؤمنْ تصديقًا بالبلاغ الإلهيِّ، وإنَّما أظهر ذلك القولَ للنَّجاةِ[2].

الإيمانُ في غير حينِه، يستوجبُ الإنكارَ، وعدم الإقرار

نكتةُ حذفِ فعلِ القولِ في سياق مقول محذوف:

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ مقولٌ لفعل القولِ المحذوفِ تقديرُه: قال اللّه، و"حَذۡفُ الفعلِ المذكورِ وإبرازُ الخبرِ المحكيِّ في صورة الإنشاءِ من الدَّلالة على عِظَمِ السُّخط وشدَّةِ الغضب ما لا يخفى"[3]، والفعلُ المحذوفُ هو ردٌّ وجوابٌ لقول فرعونَ؛ إذ قال: ﴿ءَامَنتُ﴾، فحُذِفَ فعلُ القول؛ ليكونَ البدءُ بالاستفهامِ لإظهار شدَّةِ السُّخطِ.

مــن الإيــجــازِ البليغِ، حذْفُ ما يدلُّ عليه المقولُ في البيان المفصح

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف في السّياق:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ حذفٌ آخرُ بعد تقديرِ فعلِ القولِ المحذوفِ؛ لأنَّ الإنكارَ ليس متسلِّطًا على الظَّرف، بلۡ على إيمانِه في هذا الوقتِ، فتقديرُ المحذوفِ بين الظَّرف والاستفهام، أي: (أتؤمن الآن) "قُدِّر الفعلُ مقدَّمًا؛ لأنَّ الاستفهامَ لكونِه مقتضيًا للحدث أولى بالفعل"[4]، وحذۡفُه

تـكـرارُ الـحـذفِ أبـلـغُ في إظـهـار متانةِ التَّعبيرِ وعلوِّ البلاغةِ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/292، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/388، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 372.

(2) المطعنيّ، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/75.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/171.

(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/556.

لظهورِه من السّياق؛ لأنَّه لمّا أعلنَ أنَّه آمنَ أجابَه بإنكار الإيمان عليه، والظَّرفُ ليس هو المقصودُ بالإنكار، بل بإيقاع الإيمانِ فيه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الحاليَّةِ في السّياق:

إفناءُ الحياةِ بالاستكبار والإفسادِ، يدلُّ على زيف الإيمانِ وقتَ العسرة

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ مُفْتَتَحَةٌ بالواو الحاليَّة، فالجملةُ في موضعِ "حالٍ من فاعل الفعلِ المقدَّرِ، جِيءَ به لتشديدِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ على تأخير الإيمانِ إلى هذا الآن، ببيان أنَّه لم يكن تأخيرُه لعدم بلوغِ الدَّعوةِ إليه، ولا للتَّأملِ والتَّدبُّرِ في دلائله وآياتِه، ولا لشيءٍ آخرَ ممّا عسى يُعَدُّ عُذرًا في التَّأخير، بلْ كان ذلك على طريقةِ الردِّ والاستعصاءِ والإفساد"[1]، أي: أتؤمنُ الآنَ والحالُ أنَّك قد عصيْتَ؟

سرُّ ذكرِ المعصيةِ ﴿عَصَيۡتَ﴾ دونَ الكفر:

إعلانُ الانقيادِ بالإيمان، ينقضُه العصيانُ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ وبَّخَه بالعصيان دونَ الكُفرانِ؛ وذلك لمّا خُتِمت الآيةُ السّابقةُ بإعلان الإسلام الدّالِّ على الإذعانِ؛ ناسبَ أن يوبِّخَه "بالعصيان المقابلِ للإذعان، دونَ الكفرِ المقابلِ للتَّصديق"[2].

نكتة التَّعبير عن العصيان بالماضي المسبوقِ بقد:

مَنْ دَأَبَ على العِصيانِ؛ تحقَّقَ فيه، وصار راسخًا

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم وصفَ عصيانِه بالفعل الماضي المسبوقِ بقد للدَّلالة على كونِه كان راسخًا بالعصيان، دائبًا فيه، وأنَّ عصيانَه قد تأكَّدَ، وثبت وتحقَّق بأمارةِ (قد)، وهذا يزيدُ الإنكارَ؛ فإنَّه "كان عاصيًا للّه ومفسدًا للدِّين الذي أرسلَه اللّه إليه، ومفسدًا في الأرض بالجَوْرِ والظُّلمِ والتَّمويه بالسِّحر"[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 5/99.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/278.

إيثارُ لفظِ (قَبْلُ) دونَ (من قبل) في السّياق:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾ جاء الظَّرفُ بلا حرفِ الجرِّ (مِن) للدَّلالة على أنَّ معصيتَه كانت حاصلةً مدَّةَ عُمْرِهِ[1]، وكانت مستغرقةً "جميعَ زمانِ الدَّعوةِ الذي قَبْلَ هذا الوقتِ، ومعصيةُ المَلِكِ توجبُ الأَخْذَ والغضبَ كيف كانتْ"[2].

من شَمَلَ العصيانُ كلَّ حياتِه، لم ينفعه إيمان بعد فواته

بلاغةُ الإيجازِ في حذفِ ما يُضاف إليه ﴿قَبۡلُ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم حذفَ المضافِ إليه، فحذَف ما يُضاف إليه ﴿قَبۡلُ﴾ إيجازًا[3]، لظهور المعنى من السّياق، فالمرادُ (قبلَ الآن)، أي: قبلَ وقتِ الغرق.

ظهورُ المعنى يجيزُ الإيجاز، ويؤثره للإفصاح والإبانة عن المراد

وجهُ العطفِ بالواو في الآية:

قولُه تعالى: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ معطوفُ قولِه جلَّ شأنُه: ﴿عَصَيۡتَ﴾، فهو "داخلٌ في حيِّز الحالِ، أي: وكنتَ من الغالينَ في الإضلال والضَّلالِ عن الإيمانِ"[4]، فيكونُ التَّوبيخُ في الاستفهام عن إيقاع الإيمانِ وقتَ الغرقِ، وقد سبقَ منك الفسادُ والعصيانُ.

تعميمُ التَّوبيخ بتأخير الإيمانِ، مع تقدُّمِ الإفسادِ والعصيانِ

دلالةُ فعلِ الكونِ الماضي ﴿وَكُنتَ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ عبَّر النَّظمُ الكريم بفعل الكونِ لبيان رسوخِه ودوامِه في الإفساد، فوصفَ "سبْحانه فسادَه بالاستمرار طولَ حياتِه وحياةِ أمثالِه، فعبَّر بـ (كنتَ) التي تدلُّ على الاستمرار، ووضْعِه في صفِّ

الكونُ في وصفٍ ما، دليلُ الرُّسوخِ فيه والمُكنة

(1) الإيجيّ، جامع البيان: 2/154.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/185.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/75.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173.

المفسدين في الأرض، وقد كان أشدَّهم عتوًّا وطغيانًا"[1]، وذلك للدَّلالة على كونِه متَّصفًا بالعراقةِ في الفسادِ والإفسادِ.

نوعُ (أل) في قولِه ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ من السّياق:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ عرَّف المفسدين بالألفِ واللّامِ الدّالَّة على الجنسِ، وليس المرادُ كونَه من قوم معهودين بالفسادِ، فوَجْهُ الذَّمِّ ليس لكونِه من أولئك المعهودين، بل لكونِه اتَّصفَ بصفةِ الفسادِ التي هي جنسٌ مخالفٌ للخير والصَّلاح.

مِن أجناسِ النّاسِ جنسٌ مُفسِدون، لا نفعَ منهم يرتجى

وجهُ جمعِ لفظ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ في السّياق المبين:

عبَّرَ بصيغةِ الجمعِ عن ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ إشارةً إلى أنَّ المفسدين جمعٌ كبيرٌ، وحزبٌ مُترسِّخٌ في الإفسادِ، فقولُه: ﴿مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ "أي: العريقين في الفساد والإفسادِ"[2]، ويدلُّ على أنَّ هناك فئةً قد شُهرت به، وهذا يدلُّ على شدَّةِ فسادِه.

للإفسادِ حزبٌ عريقٌ، لا ينفكُّ سالكًا له كلَّ طريق

علَّةُ التَّعبير بـ ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ بدلَ (وكنت مفسدًا):

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ وصفَه بكونِه من المفسدين، وهذا أبلغُ من وصفه بكونِه مفسدًا[3]؛ لأنَّه يقتضي أنَّ هناك فئةً قد شُهرت بالفسادِ، وأنَّه قد بلغَ من شدَّة فسادِه أن كان جديرًا بالتحاقِه بهم.

الكونُ في فئة مشهورةٍ بوصفٍ ما، أبلغُ في الوصفِ من الإفرادِ

دلالة الأسلوبِ الخبريِّ في تحسير فرعونَ وتبكيتِه:

في قولِه تعالى: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ خبرٌ المراد منه تأييسُ فرعونَ، فهو "أسلوبٌ خبريٌّ ليس المرادُ منه فائدةَ الخبر، ولا لازمَ الفائدةِ، بل المرادُ هو تحسيرُ فرعونَ وتبكيتُه، وتعجيلُ المساءةِ إليه؛ لذلك جعلَ اللّه ختامَه شرَّ ختامٍ"[4].

اضطرارُ ادّعاءِ الإيمانِ، دليلُ التَّحسُّرِ في غير أوانٍ

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3628، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/185.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/185.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/278.

(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/76.

العنوانُ بالإفساد، يقرِّرُ سبقَ المعصيةِ وغلبةَ الفساد

بيانُ التَّقريرِ في جملة التَّذييلِ في السّياق الجليل:

ختمَ الآيةَ بقوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، تذْييلًا متضمِّنًا تقريرًا لمضمون الكلامِ قبلَه[1]، فانتفاءُ إظهارِ الإيمانَ في وقته؛ لأنَّه كان راسخًا في الكفر، وقد دأبَ على الإفساد، وأصرَّ عليه؛ فلا يَنۡفَكُّ عنه.

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/76.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾ [يونس: 92]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبلَها:

لمّا أنكر النَّظمُ الجليلُ على فرعونَ الإيمانَ وقتَ الإغراق، وقد كان حالُه طولَ حياتِه عاصيًا من زمرة المفسدين، أتْبعه بالتَّهكُّم به بإخبارِه أنَّه سينجو بدنًا بلا روحٍ.

كما استوجبَ من قبلُ الإنكارَ، استحقَّ التَّهكُّمَ والاستهزاءَ بالإخبارِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِبَدَنِكَ﴾: أصْلُ البَدَنِ هوَ شَخْصُ الشَّيءِ دونَ شَواهُ، وشَواهُ أطرافُهُ، يُقالُ: هذا بَدَنُ الإنسانِ، والجَمْعُ الأبْدانُ[1]، وبَدُنَ الرَّجلُ: صار بَدينًا؛ فهومُبدِنٌ، ورَجُلٌ بادِنٌ ومُبَدَّنٌ وامرأةٌ مُبَدَّنةٌ، أي: سَمينانِ جسيمانِ[2]، والبَدَنُ شِبْهُ دِرْعٍ إلّا أنَّه قصير قَدر ما يكون على الجَسَدِ فَقَط، قَصير الكُمَّيْنِ[3]. وبَدَنُ الإنسان: جسَدُه، وقولُه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ قالوا: بجَسَدٍ لا روحَ فيه، قال الأخفشُ: "وأمّا قول من قال: (بدرعك)؛ فليس بشيءٍ ولا له معنًى"[4].

2) ﴿خَلۡفَكَ﴾: أصلُ (خَلَفَ) مِنَ الإخْلافِ، هو مجيءُ شَيْءٍ بَعْدَ شَيْءٍ يَقومُ مَقامَهُ[5]، فالخَلَفُ: المُتَأخِّرُ، سواء كان تَأخُّرُه في الزَّمَنِ، أو في الرُّتبَةِ، يُقالُ: فُلانٌ خَلَفٌ لأبيهِ، أيْ: جاءَ بَعْدَهُ، ويقولون: هو خَلَفُ صِدْقٍ من أبيه، وخَلَفُ سَوْءٍ من أبيه، فإذا لم يذكروا صِدْقًا،

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللُّغة، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بدن).
(2) الخليل، العين: (بدن).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (بدن).
(4) الأخفش، معاني القرآن: 1/378، والمجاشعيّ، النكت في القرآن: ص: 245، وابن منظور، لسان العرب: (بدن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلف).

ولا سَوِيًّا؛ قالوا لِلْجَيِّدِ: خَلَفٌ، ولِلرَّديِّ خَلْفٌ - بإسكان اللّام - [1] وضِدُّ الخَلَفِ: السَّلَفُ، وهو: كُلُّ مَن سَبَقَكَ، والخَلَفُ أيضًا: ما اسْتَخْلَفْتَهُ مِن شَيْءٍ، وجمعُه: أَخْلافٌ[2]. والمقصود بـ قوله: ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ في الآيةِ: لَمَن بعدَك[3].

3) ﴿ءَايَةً﴾: أصلُ الآيةِ العلامةُ الثابتةُ من قولك: تأَيَّيْتُ بالمكان؛ إذا أقمتُ به، وثبتُّ فيه: ومن ثَمَّ يُقال: لأجعلنَّك آيةً، أي: علامةً، مُشتقَّة مِن التَّأيّي الَّذي هو التَّثبُّتُ والإقامةُ على الشَّيء[4]، تقولُ: خَرِبَتْ دارُ فُلانٍ، وما بَقِيَ فيها آيَةٌ، أَيْ: عَلامَةٌ، ومِنْهُ سُمّيَتِ الآيَةُ مِن القُرْآنِ بِذلك؛ لأنَّها عَلامَةٌ لانْقِطاعِ الكَلامِ الذي قَبْلَها والذي بَعْدَها، وتُطلَقُ على المَصْنوعِ المُعْجِبِ؛ لأنَّهُ يكونُ علامةً على إتقانِ صانِعِهِ أو عَظَمَةِ صاحِبِهِ[5]، وكذلك تُطلَقُ على الحُجَّةِ المثبَتَةِ؛ لأنَّها علامَةٌ على ثُبوتِ الحَقِّ، وتُطلَقُ أيضًا على العِبْرَةِ، وهي أمرٌ وقع، ومضى، لكن بقيَ ما يُتَّعَظُ به منه، ويُتَّخذ مثلًا[6]، وهو المُرادُ هنا. والجَمْعُ: آياتٌ، وآيٌ، وآيايٌ[7].

4) ﴿ءَايَتِنَا﴾: أصلُ الآيةِ العلامةُ الثّابتةُ الدّالَّةُ على أمرٍ مِنْ شَأْنِهِ أنْ يَخْفى، وهي في القرآن على وجهين: الأوَّل: العِبرةُ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: 50]، أي: عِبرةً يُعْتَبَرُ بها. الثّاني: العلامةُ، قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: 22]، أي: ومن العلاماتِ على ربوبيَّته، والوجهانِ مُتقاربانِ يصلُح استعمالُ أحدِهما في موضع الآخرِ[8]. الآياتُ جَمْعُ آيَةٍ، وآياتُ اللهِ: عَجائِبُه[9]، والمقصودُ بـ ﴿ءَايَتِنَا﴾ في الآية: العلاماتُ الدّالةُ على قُدْرَةِ اللهِ في خَلْقِهِ، وغيرِها مِن صِفاتِ العليِّ القدير.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الخطابُ هنا لفرعونَ، وهو يُعالجُ سكراتِ الموت، أو وهو ميتٌ، قال اللهُ تعالى له: فاليومَ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلف).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 199.
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (أي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أيَّ).
(6) الزبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (إيي - إي).
(7) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللُّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (أيا).
(8) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 92.
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (إيي).

نجعلُ جَسَدَك وما تقلَّدْتَه مِن دروعِ الحربِ بعدَ غَرَقِك على مكانٍ مرتَفِعٍ مِن الأرضِ، فيَتبيَّن للنّاسِ هلاكُك، ولِتكونَ - يا فرعونُ - لِمَن بَعدَك من النّاسِ عِبرةً بعد إيقانِهم بهلاكِك وقدرةِ اللّه على كلِّ ذلك، فيَنزَجِروا عن الكُفرِ باللّه ومَعصيتِه، ويَرَوا عاقِبةَ الطُّغيانِ، ويخافوا غضَبَ اللّه، وإنَّ كثيرًا مِن النّاسِ مُعرِضونَ عن تأمُّلِ آياتِنا، وعن التفكُّرِ فيها، والاعتبارِ بها، وفي نجاة فرعونَ ببدنِه، وإلقاءِ البحرِ له جثَّةً هامدة متعفِّنة على الشّاطئ، عِبرةٌ لمعتبِر؛ فهذا الإنسانُ الَّذي كان يملأُ الأرض بغيًا وعدوانًا، ويقول في النّاس: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: 38]، ويقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 24]. هذا الإنسانُ قد صار في لحظاتٍ جثَّةً هامدة، وكومًا من لحمٍ باردٍ، فأين مُلكُه؟ وأين سُلطانُه؟ وأين بطشُه وجبروتُه؟ لقد ذهب كلُّ ذلك عنه، وتعرَّى من كلِّ شيءٍ كان بين يديه[1].

سوءُ عاقبةِ فرعونَ عِبرةٌ للأحياء

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ في السّياق:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، افتتحَ بالفاء الواقعةِ في جواب شرطٍ محذوفٍ، فتكونُ رابطةً، وكذلك هي مُفْصِحَةٌ عن المحذوفِ، فهي "تُفْصح عن شرطٍ مقدَّرٍ في الكلامِ يدلُّ عليه السياقُ. والمعنى: فإن رُمْتَ بإيمانك بعد فواتِ وقتِه أن أنجّيك من الغرق، فاليومَ ننجّيك ببدنِك"[2].

نجاةُ البدنِ لا تعني نجاةَ الرّوح

دلالةُ إيثارِ الظَّرفِ ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ دون غيره:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ عبَّر باليوم دون غيرِه "للإشارةِ إلى أنَّه ينجو ببدنِه في ذلك

استغرق الإنجاءُ يومًا للبدنِ على وفقِ السُّنَنِ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/283، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/381، والسّعديّ، تيسير الكريم المنّان، ص: 372، وعبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1073.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/278، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/556.

اليوم"[1]، فـ" اليومُ: ظرفٌ للتنجية"[2]، فكان الإنجاءُ مستغرِقًا اليومَ؛ لأنَّه لم ينقذْه من فوْره لتطاول الحدثِ واحتياجِه استواءَ الماءِ، وقذْفَ الموجِ لبدنه على السّاحل، وهذا يتطلَّبُ وقتًا لا يُمكنُ أن يقعَ بوقتٍ وجيزٍ، ولا يخْفى أنَّ الله تعالى قادرٌ على إنجائه من فوره، ولكنَّه أنجاه بالبدن على وفقِ السُّنَنِ.

الإنـجـاءُ مع البـقـاء ميّتًا، دليلٌ على قدرة الله القاهرة لكلِّ جبّار

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ الإنجاء في السّياق:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ جاء الإنجاءُ بمعنى الإخراجِ، فهو لم ينجُ حقيقةً، "أي: نخرجُك ممّا وقع فيه قومُك من قَعر البحرِ، ونجعلُك طافيًا، وفي التَّعبير عنه بالتَّنجيَةِ تلويحٌ بأنَّ مرادَه بالإيمان هو النَّجاةُ كما مرَّ، وتهكُّمٌ به أو نلقيك على نجْوةٍ من الأرضِ ليراك بنو إسرائيلَ"[3]. فالنَّصُّ في إظهار خيبتِه وحسمِ أطماعِه، أي: نخرجُك، ونجعلُك ببدنك عاريًا عن الرّوح، ولكنَّه عبَّرَ عن ذلك بالتَّنْجيَة مجازًا[4]. أو يكونُ المعنى على الحقيقةِ، أي: "نُلقيك بنجْوةٍ من الأرض، وهي المكانُ المرتفعُ"[5]، ليراه مَن خلفَه من بني إسرائيل وغيرهِم ليكونَ آية.

تصويرُ الإنجاءِ بالفعل المضارع من بليغ السّياق

التَّعبيرُ عن الإنجاءِ بالمضارع ﴿نُنَجِّيكَ﴾:

في قولِه عزَّ ذكرُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الإنجاء بالفعل المضارعِ تصويرًا لمشهد الإنجاءِ، واستجلابًا للحالة والصّورةِ، كما أنَّ التَّنجيةَ لا تقعُ دفعةً واحدةً، بل تتطلَّب معالجةً وأعمالًا.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3628.
(2) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 3/424.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/174.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/172.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/103.

سرُّ تشديدِ فعلِ الإنجاءِ ﴿نُنَجِّيكَ﴾:

مبالغةٌ في التَّنجية التَّهكميَّةِ، هي أبلغُ في التَّهكُّم بما آل إليه

في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾، جاء التَّعبيرُ عن الإنجاءِ بالفعل المضعَّفِ الدّالِّ على التَّكثيرِ للمبالغةِ في التَّنجية والتَّأكيدِ عليها، ولأنَّها تحوجُ أن تكونَ كذلك لكونِ النَّجاةِ كائنةً من حدثٍ عظيمٍ، فكان لا بدَّ من تكثير التَّنجيةِ، وفي ذلك إيغالٌ في التَّهكُّم.

التَّعبيرُ عن الإنجاءِ بصيغة العظمةِ ﴿نُنَجِّيكَ﴾:

لا يُنجي من المهالك العظام إلّا ربٌّ عظيم القدرة والمقام

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغةِ التَّعظيم في التَّنْجية، أي: تنْجيةٍ عظيمةٍ[1]؛ مناسبةٍ لهولِ الموقفِ وشدَّةِ الغرقِ التي تقتضي أن يكونَ الإنجاءُ مبالغًا فيه، فكان الإنجاءُ من اللّه تعالى بالعظمةِ على حسَب مقتضى الحالِ. "وأضاف الإنجاءَ إليْه سبحانَه، وجعله واقعًا على فرعونَ باعتبار أنَّه صاحبُ البدنِ؛ ولذا قال تعالى: ﴿بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾، أيْ: دلالة على عظيمِ قدرةِ اللّه تعالى التي قهرَ بها طاغوتَ عصرِه"[2].

وجهُ مخاطبةِ فرعونَ بضمير الخطاب المفرد:

مواجهةُ المخاطَبِ بالتَّهكُّم أبلغُ في الإغاظة، وأنكى في العقاب

في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾، جاء التَّعبيرُ عن فرعونَ بضمير المخاطَبِ دونَ ذكرِه باسمه الصَّريحِ المُقْتضي للغَيبةِ، للدَّلالةِ على أنَّ مآلَ الطُّغاةِ هو الفناءُ وللاعتبار بذلك[3]. كما أنَّ خطابَ فرعونَ بالضَّمير فيه مبالغةٌ في إيقاع التَّهكُّم، فيكون الخطابُ موجَّهًا لمَن أوشك على الغرق، فيخبرُه بالخطاب بأنَّك ستنجو بِبدَنِك فحسبُ، فهو أوقعُ في الإغاظة والتَّخييب.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/185.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3628.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3628.

تعلُّقُ الإنجاءِ بالبدنِ لا بالرّوحِ معجزة خالدة

معنى الباء في شبه الجملة: ﴿بِبَدَنِكَ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أدخلَ الباءَ على البدن للدَّلالة على أنَّ الإنجاءَ مُلابسٌ للبدن ولا أكثر من ذلك، "أي: ننجّيك ملابِسًا ببدنِك فقط، لا مع روحِك كما هو مطلوبُك؛ فهو تخييبٌ له، وحسمٌ لأطماعه بالمَرَّة"[1]. وتحتملُ أنَّها للمصاحَبة، والتَّقديرُ: سنُنَجّيكَ مصاحبًا بدنَك، وذلك يتناسبُ مع رأيِ من قال: إنَّ معنى البدنِ هو الدِّرعُ[2]، "وفي التفسير: لم يُصَدِّقوا بغرقه، وكانت له دِرْعٌ تُعْرَفُ، فأُلقي بنَجْوةٍ من الأرض، وعليه دِرْعُه؛ ليعرفوه، والعربُ تُطلِقُ البدنَ على الدِّرع"[3].

كانت النَّجاةُ للبدن الخالي من الرّوح قطعًا لمسرَّته

فنُّ الاحتراسِ في اصطفاء البدن للإيهام بالإيناس:

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالبدن دونَ (الجسم)؛ لأنَّ الإخبارَ بالتَّنجية خَبرٌ سارٌّ أتْبع بما يدفعُ هذه المسرَّةَ، فقال: ﴿بِبَدَنِكَ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ ذلك بعد نزعِ روحِه، فهو بدنٌ كاملٌ لا روحَ فيه، حتّى لا يقع لَبْسٌ في معرفتِه[4]، فالبدنُ "الجسمُ بدون روحٍ، وهذا احتراسٌ من أن يُظنَّ المرادُ الإنجاءَ من الغرقِ، والمعنى: ننجّيك، وأنت جسمٌ، كما يقال: دخلتُ عليه، فإذا هو جثَّةٌ؛ لأنَّه لو لم يكنِ المقصودُ الاقتصارَ على تلك الحالةِ؛ لَمَا كان داعٍ للبليغ أن يزيدَ ذلك القيدَ؛ فإنَّ كلَّ زيادةٍ في كلام البليغِ يُقصدُ منها معنًى زائدٌ، وإلّا لكانتْ حشوًا في الكلام، والكلامُ البليغُ موزونٌ، ولغةُ العرب مبنيَّةٌ على أساس الإيجاز"[5]. ويحتملُ قولُه: ﴿بِبَدَنِكَ﴾ معنى: بصورتِك التي تُعرف بها، وكان قصيرًا

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/174.

(2) الأخفش، معاني القرآن: 1/378، والمجاشعيّ، النّكت في القرآن: ص: 245، وابن منظور، لسان العرب: (بدن).

(3) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/264 - 265.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/186.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/278 - 279.

أشقرَ أزرقَ قريبَ اللِّحية من القامة، ولم يكنْ في بني إسرائيل شبيهٌ له يعرفونَه بصورته، و﴿بِبَدَنِكَ﴾ إذا عَنَى به الجثَّةَ؛ فهو تأكيدٌ، كما تقول: قال فلانٌ بلسانه، وجاء بنفسه(1).

دلالةُ اللّامِ في لفظ: ﴿لِتَكُونَ﴾ من السّياق:

إنجاءُ بدنِ الطّاغيةِ الجبّار، غايتُه العظةُ والاعتبار

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، أدخل النَّظمُ الجليل لامَ التَّعليل على فعلِ الكونِ للدَّلالة على أنَّ المرادَ من ذلك الإنجاءِ أن يتحوَّلَ إلى وجودٍ جديدٍ وهو أنْ يكون آيةً، فَعِلَّةُ الإنجاءِ كما كانت تهكُّمًا به؛ كانت كذلك غايةً للاعتبار، فهو قد مات "ميتةً لا يستطيعون معها الدَّجلَ بأنَّه رُفِع إلى السَّماء، أو أنَّه لم يزلْ يتابع بني إسرائيل، أو نحو ذلك من التَّكاذيب؛ لأنَّهم كانوا يزعمون أنَّ فرعونَ لا يُغلب، وأنَّ الفراعنةَ حين يموتون إنَّما يُنقلون إلى دار الخلودِ، ولذلك كانوا يُموِّهون على النّاس، فيبْنون له البيوتَ في الأهرام، ويُودِعون بها لباسَه وطعامَه ورياشَه وأنفسَ الأشياء عنده، فموتُه بالغرق وهو يتَّبع أعداءه ميتةٌ لا تؤوَّلُ بشيءٍ من ذلك، فلذلك جعلَ كونَه آيةً لَمن خلفَه علَّةً لإخراجِه من غَمْرَةِ الماءِ ميّتًا كاملًا، فهم مضطرّون إلى الاعتراف بأنَّه غرِق إذا نظروا في تلك الآيةِ"(2).

التَّعبيرُ بفعل الكونِ مضارعًا في: ﴿لِتَكُونَ﴾:

تجدُّدُ كونِه آيةً في كلِّ زمان

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ عبَّر النَّظمُ الكريم بالفعل المضارعِ عن كونِه آيةً للدَّلالة على دوام هذه الآيةِ، "أي: كونًا هو في غاية الثَّبات"(3)، فكونُه آيةً لَمن خلفَه مستمرَّةٌ لا تختصُّ بالجيل الذي جاء بعدَه، بلْ هي باقيةٌ دائمةٌ.

معنى اللّامِ في عبارة: ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾:

استقرَّتِ الآيةُ عندَهم، لتبقى شاهدةً لمن يخلفون

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ تعلَّقتِ اللّامُ"بمحذوفٍ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/103.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/279.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/186.

وقعَ حالًا من آيةٍ، أي: كائنةً لمن خلفَك"[1]، فهي بِمعنى التَّمليكِ والاختصاص، أيْ: إنَّ هذه الآية في حوزتهم.

إيثارُ الموصولِ (مَنْ) في السّياق المدرج:

إنْجاءُ فرعونَ ببدنه آيةٌ، سارت بذكرِها الرُّكبانُ في كلّ عصرٍ وأوانٍ

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالموصول (مَن) الدّالِّ على العموم بمعنى "تكونُ لمَن يأتي بعدَك من الأممِ إذا سمعوا مآلَ أمرِك مِمَّن شاهدَك عِبرةً ونَكالًا من الطُّغيان"[2]، فالتَّعبيرُ بالموصول الدّالِّ على العموم يفيدُ أنَّ تلك الآيةَ كائنةٌ لعموم مَن يأتي بعدَه، لا تختصُّ بجيلٍ ولا بفئَةٍ، فهي آيةٌ سائرةٌ تجري بذكرها الأسفارُ.

إيثارُ الظَّرف (خلْف) دونَ (بعدَ)، أو (وراء):

الخلْفُ يشمل الحكّامَ والعوامَّ على حدٍّ سواء

في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالظَّرف (خَلْفَ) دونَ غيره لاحتمالِ دلالته على مَن يخلُفه في الحكم، أو مَن يتأخَّرُ عنه من عموم النّاس، فهو يدلُّ على مَن يأتي بعدَه في مقامه ومكانتِه في حكم البلادِ، ومَن يخلُفه من الفراعنة والكهنةِ والوزراءِ[3]، كما يحْتمل أنْ يُرادَ به مَن يتأخَّرُ عنه في الحياة مِن عموم النّاس[4].

بلاغةُ المجازِ في لفظ ﴿خَلْفَكَ﴾ في السّياق:

لـمّا نجا بنو إسرائيل كانوا خلفاءَ فرعونَ، وإنْ كانوا أمامَه

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ إذا كان المرادُ بمَن خلفَه بني إسرائيل، فيكون الخلفُ مجازًا في القدّام، فيُحملُ "الخلفُ على الجهة المكانيَّة أوَّلًا بكونِه موضوعًا لها، ولا صارفَ له عنها في الظّاهر؛ إذ بنو إسرائيل وإنْ كانوا قدّامَهم باعتبارٍ، لكنَّهم خلفَهم باعتبارٍ آخرَ؛ فيكونُ خلفُك في النَّظم الجليلِ مجازًا للقدّام"[5].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/174.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/174.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/279.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/186.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/558.

نكتةُ الإخبارِ عن المسند الذّاتِ بالمعنى:

تحوُّلُ الذّاتِ إلى آيةِ تصويرِ دقَّةِ الإنجاءِ بالبَدنِ الكاملِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ أخبر النَّظمُ الكريم باسم المعنى عن شخصِ فرعونَ "أي: لتكونَ ذاتُه آيةً على أنَّ اللّه غالب مَن أشركوا به، وأنَّ اللّه أعظمُ وأقهرُ من فرعونَ وآلهتِه"(1)، وفي ذلك مبالغةٌ في كونِه نال من الجزاء ما أفصحَ عن جلال اللّه تعالى وعظمتِه، فجعلَ فرعونَ ذاتَه آيةً ومَعْلَمًا يُبيّنُ للنّاس عاقبةَ الطُّغيان والاستكبارِ.

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ والظَّرفِ على ﴿ءَايَةٗۚ﴾:

سَوْقُ العِبرة للنّاس أهمُّ من العِبرة ذاتِها

في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملةِ من الجارِّ والمجرور على خبرِ كان، فلم يقلْ: (لتكونَ آيةً لَمن خلفَك)؛ لِما في التَّقديم من الاهتمام، فليس المرادُ أنْ يكونَ آيةً على وجه الإطلاق، بلْ هو مقيَّدٌ بكونه آيةً كائنةً للمذكورين، فأظهرَ أنَّ المقصودَ من تلك الآيةِ هو مَن يخلفُه، فقدَّم ذكرَهم إظهارًا لعلَّةِ الفعلِ على وجه الاهتمام.

سرُّ تنكير ﴿ءَايَةٗۚ﴾ في سياق الآية:

أنْ يجعلَ الشَّخصَ ذاتَه آيةً، دليلُ العظمةِ والإعجاز

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الآية بلفظِ التَّنكيرِ تعظيمًا للآية وتفخيمًا لشأنها؛ وذلك أنَّ فرعون ذاتَه هنا تحوَّل إلى آيةٍ، فهي آيةٌ غريبةٌ عظيمةٌ.

معنى الواو في مطلع الجملة المصدَّرة بالأداة (إنّ):

لا تنفعُ كثرةُ الآياتِ مع قسوةِ القلوبِ وإنكارِها للمعجزات

افتتح النَّظمُ العزيز قولَه جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ بالواوِ الدّالَّةِ على الحال أو الاعتراضِ(2)، فالحالُ بتقديرِ: أنجيْنا فرعونَ ليكون آيةً للنّاس، والحالُ أنَّ أكثرَهم غافلون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/279.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/279، والإيجيّ، جامع البيان: 2/154.

عن الآياتِ، أيّ: في هذه الحالةِ، فلا يعترضُ طاعنٌ بأنَّ الكفرَ قد استمرَّ بعد فرعونَ ودامَ، وأمّا الاعتراضُ؛ فهو اعتراضٌ تذييليٌّ ذيَّلَ به الموعظةَ لبيان أنَّ الموعظةَ قليلٌ مَن ينتفعُ بها.

نكتةُ التَّوكيد بإنَّ والجملةِ الاسميَّة واللّامِ:

تكذيبُ الآياتِ الكثيرةِ، مثارُ تعجُّبٍ وإنكارٍ

في قوله عزَّ ذكرهُ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ جاء الخبرُ في الآية مؤكَّدًا بكونِه جملةً اسميَّةً وبـ (إنَّ) وباللّام المزحلقةِ تقويةً لمضمونِ الجملةِ؛ "لأنَّ مثلَه ينبغي - لبعدِه عن الصّواب - ألّا يصدِّقَ أنَّ أحدًا يقع فيه"[1]، فالغفلةُ عن الآيات الكثيرةِ ممّا يُنْكِره العقلُ، وهو مثارُ التَّعجُّبِ، والمرادُ من ذلك التَّأكيدِ "دفْعُ توهُّمِ النَّقصِ عن آيات اللّه عندما يُحْرَمُ كثيرٌ من النّاس الاهتداءَ بها، فهي في ذاتِها دلائلُ هدًى، سواءٌ انتفع بها بعض النّاس أمْ لمْ ينتفعوا؛ فالتَّقصيرُ منهم"[2].

وجهُ تنكيرِ لفظ: ﴿كَثِيرًا﴾ في السّياق:

تأكيدُ التَّكثيرِ باللَّفظِ والتَّنكيرِ من فصيحِ التَّعبيرِ

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم المجيءَ بصيغة التَّنكيرِ لبيان كثرةِ الغافلين، وفي ذلك تأكيدٌ على التَّكثير؛ إذ أفاد التَّنكيرُ التَّكثيرَ، فضلًا عن التَّكثيرِ المدلولِ عليه باللَّفظ بدلالتِه المعجميَّة.

دلالةُ (مِن) في شبه الجملة ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾:

الكثرةُ كائنةٌ من جنسِ النّاس، والغفلة فيهم غالبة

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، عبَّر النَّظمُ الكريم بـ (مِن) البيانيَّة، للدَّلالةِ على جنْس الكثرةِ، فإنَّ الكثيرَ واقعٌ من النّاس، وليستْ هي للتَّبعيض؛ إذ ليس الكثيرُ من بعض النّاسِ، فهو منتقضٌ بأنَّ الكثيرَ هو أغلبُ النّاسِ لا بعضُهم.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/187.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/280.

نكتةُ جمعِ الآياتِ في: ﴿عَنۡ ءَايَٰتِنَا﴾:

رسوخُ الغفلةِ لا يزولُ بكثرة الآياتِ وتعدُّدِها

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾، جمع النَّظمُ الكريم لفظَ الآياتِ للدَّلالة على أنَّ الآياتِ المغفولَ عنها كثيرةٌ، وفي ذلك إشارةٌ إلى شدَّة غفلةِ النّاسِ وتوغُّلِهم في التَّمادي بالإعراضِ عن واضحِ الآياتِ الكثيرةِ.

وجْهُ نسبةِ الآياتِ إلى ضميرِ التَّعظيمِ ﴿ءَايَٰتِنَا﴾:

الغفلة عن الآياتِ الَّتي هي غايةُ البيانِ من طبيعة الإنسان

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾، عرَّف النَّظمُ الجليل الآياتِ بإضافتِها إلى ضمير التَّعظيم، "أي: على ما لها من العظمةِ"[1]، وفي ذلك إظهارٌ لشدَّة التَّكذيبِ، فهو وقعَ في الآياتِ التي تنتسبُ إلى اللّه تعالى، فتكونُ على غايةِ الوضوحِ والاستحقاقِ بأن يُستدلَّ بها على ما سيقَتْ له، ولا يُغفلُ عنها.

علَّةُ تأخيرِ خبرِ (إنَّ) وتقديمِ ﴿عَنۡ ءَايَٰتِنَا﴾:

الإفصاحُ عن شدَّة الغفلة بكونِها مختصَّةً بالآياتِ العظام

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ قدَّم النَّظمُ الكريم شِبه الجملةِ من الجارِّ والمجرور على خبرِ (إنَّ)، فلمْ يقلْ: (وإنَّ كثيرًا من النّاس لغافلون عن آياتِنا) على الأصلِ؛ للمبالغةِ بذمِّهم بجعلِ الغفلةِ مختصَّةً بالآياتِ المنسوبةِ إلى اللّه تعالى، وذلك غايةُ الذَّمِّ، كما أنَّ في التَّقديم تحقيقًا للتَّوافق في الفاصلةِ القرآنيَّةِ.

التَّعبيرُ عن الخبرِ باسم الفاعلِ المجموع:

رسوخُ الغفلةِ، لا يجعلها تزولُ بواضحِ الآياتِ

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ باسم الفاعلِ للدَّلالة على رسوخ الصِّفةِ فيهم وثباتِها، أي: ذلك الكثيرُ من النّاس متَّصفون بشدَّةِ الغفلةِ على وجهِ الثَّباتِ واللُّزوم.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/187.

بلاغةُ التَّذييلِ في الفاصلة آخر السّياق:

تقريرُ صدِّ النّاسِ عن الآياتِ، كصدِّ فرعونَ عن الإيمان بالبيّنات

الجملةُ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ اعتراضيَّةٌ للتَّذييلِ على التَّهكُّم بإنْجاء فرعونَ، فالنّاسُ مُعرِضون عن آيات اللّه تعالى "لا يتفكّرون فيها، ولا يعْتبرون بها، وهو اعتراضٌ تذييليٌّ جيءَ به عند الحكايةِ تقريرًا لفحوى الكلامِ المَحكيِّ"[1]، فهو يقرِّر، ويبيِّن أنَّ الآياتِ كما لم تنفعْ فرعونَ؛ فإنَّ جعْلَ فرعونَ ذاته آيةً لن ينتفعَ بها إلّا مَن شاء اللّه تعالى.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

دلالاتُ البَدَن، والجسَد، والجِسْم:

البَدَنُ جسْمٌ ضَخْمٌ، والجسْمُ يتميَّز بالحياة، والجسَدُ ما خلا من الرّوح

البَدَنُ: الجسَدُ عظيمُ الجثَّةِ، ومنه قيل: امرأة بادِنٌ وبَدينٌ: عظيمةُ البَدَنِ، وسُمّيت البُدنة بذلك لسَمنها، يُقال: بَدَنَ؛ إذا سَمُنَ[2]، والجسد: يَدُلُّ عَلَى تَجَمُّعِ الشَّيْءِ أَيْضًا واشْتدادِهِ، مِنْ ذَلِكَ جَسَدُ الإِنْسانِ[3]. والجسم: يَدُلُّ عَلَى تَجَمُّعِ الشَّيْءِ، فالجِسْمُ كُلُّ شَخْصٍ مُدْرِكٍ[4]، وهو: جَماعَةُ البَدَنِ أو الأَعضاء مِنَ النّاسِ والإِبل والدَّوابِّ وغَيْرِهِمْ مِنَ الأَنواع العَظيمَةِ الخَلْق[5]. ومجملُ ما قاله أئمَّةُ التَّفسيرِ في البَدَنِ: إنَّه الجسمُ الضَّخمُ سواءٌ أكان فيه روحٌ، أم لا، والغالبُ أنَّه بلا روح، وأمّا الجسدُ؛ فإنَّ أكثرَ المفسِّرين على أنَّه الذي لا روحَ فيه، وخلاصةُ الفروقِ بين المفردات الثَّلاث: أنَّ البَدَنَ يتميَّز بالضَّخامة، والجسدَ يتميَّز بالخلوِّ من الرّوح، والجسمَ يتميَّز بالحياة والرّوح والجمال[6]. ويرى ابنُ عرفةَ أنَّ البدنَ يُطلقُ على ما كثُرت أجزاؤه، وطعنَ في السِّنِّ، وفرعونُ كان قد بلغَ الغايةَ في

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/174.
(2) الرّاغب، المفردات: (بدن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جسد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جسم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (جسم).
(6) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 117 - 118.

السِّنِّ، وأمّا الجسدُ؛ فيصدقُ على الصَّغيرِ النّاقصِ الأجزاءِ[1]. وفي الآية عبَّر عن فرعونَ بعد النَّجاةِ بكونِه بَدَنًا؛ لأنَّه بلا روحٍ، فكان الأنسبُ في التَّعبير، فضلًا عمّا يحتملُه من دلالاتِ العُري، وصورته الَّتي كان عليها، وغيرِها وهي احتمالاتٌ، ناسبَ لفظُ البَدَنِ التَّعبيرَ عنها دونَ غيرِه.

دلالاتُ النَّجاة، والإنقاذ، والسّلامة:

النَّجاةُ تكونُ من الأذى والمكروه، والإنـقـاذ من الـورطـةِ، والـسَّـلامَـةُ من الآفاتِ

إنَّ التخلُّصَ يكون من تعقيدٍ، وإنْ لم يكنْ أذًى، وغرَقُ فرعونَ أذًى كبيرٌ، والنَّجاةُ لا تكونُ إلّا من أذًى، ومكروهٍ، ولا يُقال لَمَن لا خوفَ عليه: نجا؛ لأنَّه لا يكونُ ناجيًا إلا مِمّا يخافُ، والإنقاذ: التَّخليصُ من ورْطَةٍ، فهو يتضمَّنُ معنى السَّلامةِ، قال تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾ [آل عمران: 103]. والسَّلامَةُ: تعْني التَّعرّيَ من الآفاتِ الظاهرةِ والباطنةِ، وفرعونُ لم يَسلم منها، ولم يُنْقَذْ بلْ وقعَ فيها، ولذلك عدَلَ عن لفظِ (سَلِمَ)، و(أُنقِذَ) إلى لفظِ (النجاة) المتضمِّن البدنَ فقط، وهي نجاةٌ ممّا كان يخافُه، وهو الغرقُ لكن ببدنِه[2].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/373.
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة: ص: 210 - 211، والرّاغب، المفردات: (سلم)، و(نقذ).

﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٩٣﴾ [يونس: 93]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا بيَّنَ طغيان فرعونَ ونهايتَه، أتْبَعَهُ ببيان أمرِ بني إسرائيل

إنَّ اللهَ تعالى لمّا ضربَ مثَلَ السَّوء بفرعونَ وملئِه؛ "أتْبعه بمثَلِ الصَّلاحِ بحال الذين صدَّقوا الرَّسول، واتَّبعوه، وكيف كانت عاقبتُهم الحُسنى؛ ليُظهرَ الفرقَ بين مصيرَي فريقَيْن جاءَهم رسولٌ، فآمن به فريقٌ، وكفر به فريقٌ، ليكونَ ذلك ترغيبًا للمشركين في الإيمان، وبشارةً للمؤمنين من أهل مكَّةَ"[1]. كما أنَّ من المناسَبة جريًا على ما تقْتضيه الحكايةُ من تفصيلِ حالِ كلتا الفئتين، فلمّا "ذكر ما وقعَ عليه الختمُ في واقعةِ فرعونَ وجنودِه؛ أراد أن يذكرَ ما وقع عليه الختمُ في واقعةِ بني إسرائيل، فقال: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا﴾"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَوَّأۡنَا﴾: أَصْلُ التَّبْوِئَةِ: الرُّجوعُ إلى الشَّيْءِ، يُقالُ: باء إلى الشّيْءِ، يبوءُ، بوْءًا، أيْ: رجع[3]. والتّبوُّؤ: اتِّخاذُ مكانٍ يسْكُنُهُ، وهو تفعُّلٌ من البوْءِ، أيِ: الرُّجوعِ، كأنّ صاحِب المَسْكنِ يُكلِّفُ نفسهُ الرُّجوعَ إلى محلِّ سكنِه[4]، والمُبوّأ: مكانُ البَوْءِ، أيِ: الرُّجوعِ، والمُرادُ المَسْكنُ، والباءةُ والمباءةُ، وهي منْزِلةُ القوم، حيثُ يتبوّؤون في قُبُلِ وادٍ أو سندِ جبلٍ. والتّبْوِئةُ أيضًا: التّهْيئةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/281، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/188 - 189.
(2) النيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/611، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/104، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3629.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بوأ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بوأ)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/264.

والإعدادُ، يُقالُ: بوّأهُ منزِلًا، أي: هيّأهُ لهُ[1]. والمقصود بـ ﴿بَوَّأْنَا﴾ في الآية: أنزلنا وأسكنّا، أي: بني إسرائيل[2].

2) ﴿مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾: أصلُ (بوأ): يدلُّ على الرُّجوعِ إلى شَيءٍ، والصِّدْقُ - هُنا - بمعْنَى الخالِصِ في نَوعِه، أي: مَنزِلًا مَحمودًا مُختارًا[3].

3) ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: أصلُ (طَيَبَ) يَدُلُّ على خِلافِ الخَبيثِ[4]، وهو ما تستلذُّه الحواسُّ، وما تستلذُّه النَّفس[5]، يُقالُ: طابَ الشَّيءُ، يَطيبُ، طيبًا وطابًا، أي: لَذَّ أو زَكا[6]. والطَّيِّبُ: الأفضَلُ مِن كلِّ شَيءٍ[7]. ويأتي بمعنى الحلالِ[8]. والطَّعامُ الطَّيِّبُ في الشَّرع: ما كان مُتناولًا من حيث ما يجوز، ومِن المكان الَّذي يجوز، فإنَّه متى كان كذلك؛ كان طَيِّبًا عاجلًا وآجلًا لا يُستَوْخَم، وعلى ذلك قولُه: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [النحل: 114][9]. والمرادُ بالطَّيِّبات في الآية: الحلالُ المُستلذُّ.

4) ﴿يَقۡضِي﴾: أصْلُ (قضيَ) يدُلُّ على إحْكام أمرٍ وإتقانه وإنفاذِه لجِهَتِه، قالَ اللّه تعالَى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: 12]، أي: أَحْكَمَ خَلْقَهُنَّ[10]. والقَضاءُ: الحُكْمُ والفَصْلُ، يُقالُ: قَضَى في الأمْرِ، أيْ: حَكَمَ، وفَصَلَ فيه، والقَضاءُ: الأمرُ. قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: 23]، أي: أمر رَبُّك[11]. ويأْتي بـ معنى: الأداءِ، تقول: قَضَى دَيْنَهُ، أيْ: أدّاهُ، والقضاءُ: الإنْهاءُ والإتْمامُ، يُقالُ: قَضَيْتُ عَمَلي، أيْ: أنْهَيْتُهُ، وأتْمَمْتُهُ، وسُمّيَ القاضي قاضيًا؛ لأنَّه يَحْكُمُ في الأشْياءِ، ويُنْهي الخِلافَ فيها[12]. والانْقِضاءُ: فَناءُ الشَّيْءِ وذَهابُه، وكذلك التَّقَضّي[13]. ومِن مَعانيه أيضًا: الإيجابُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بوأ).
(2) السّعديّ، تيسير الكريم المنّان، ص: 373.
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 199، والسِّجستانيُّ، غريب القرآن، ص: 122، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/282.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طيب).
(5) الرّاغب، المفردات: (طيب).
(6) ابن سِيدَه، المحكم: (طيب).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (طيب).
(8) ابن عباد، المحيط في اللُّغة: (طيب).
(9) الرّاغب، المفردات: (طيب).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قضي).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (قضي).
(12) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قضي).
(13) ابن عباد، المحيط في اللُّغة: (قضي).

والإنْفاذُ والإتْقانُ، وجَمْعُ قضاءٍ: أَقْضيَةٌ[1]. والمرادُ بقوله: ﴿يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ﴾ في الآية: يفْصِلُ بينهم[2].

۞ المَعْنى الإجْماليّ:

تـذكـيرُ بـني إسـرائـيل على الـتَّـوالي، بما أنعمَ عليهِم من النِّعم الغوالي

يُخبِرُ اللّه تعالى عمّا أنعَمَ به على بني إسرائيلَ مِن النِّعَم قائلًا: ولقد أنزَلْنا بني إسرائيلَ مَنازِلَ صالحةً محمودةً، ورزَقْناهم الرِّزقَ الحَلالَ الطَّيِّبَ مِن خيراتِ الأرضِ المُبارَكة، فما اختلَفَ بنو إسرائيل في الإقرار بنبوَّة محمَّدٍ ﷺ وبمبعثِه، حتَّى جاءَهم ما كانوا به عالِمينَ، فبُعِثَ ﷺ بنعتِه وصفتِه، وجاءَهم القُرآنُ، فاختلَفوا حينئذٍ، فآمن بعضُهم بنبوَّته، وكفر بها بعضُهم، ولم يكنْ ينبغي لهم ذلك، إنَّ ربَّك - يا محمد ﷺ - يحكُمُ بين المُختَلِفينَ فيك مِن بني إسرائيلَ يومَ القيامةِ فيما كانوا فيه يختَلِفونَ مِن أمرِك، فيُدخِلُ المؤمنينَ بك الجنَّةَ، ويُدخِلُ المكذِّبينَ بك النّارَ[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

توجيهُ العطفِ بالواوِ في مطلع الآية الكريمة:

عطفُ الصّلاحِ على الفسادِ للـتَّرغيبِ والتَّرهيبِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾ افتتح الجملةَ بواوِ العطفِ عطفًا لها على الجملِ السّابقةِ "فإنَّ جميعَ تلك الجملِ مقصودٌ منها موعظةُ الكفّارِ من العرب بأحوالِ مَن سبقَهم من الأمم في مشابهةِ كفرِهم بكفرِهم وبما حلَّ بهم من أنواعِ العذابِ جزاءَ كفرِهم. فلمّا ضرب اللّه مثلَ السَّوءِ؛ أتبعَه بمثلِ الصَّلاحِ بحالِ الَّذين صدَّقوا الرسولَ، واتَّبعوه"[4]. وفي ذلك ردعٌ للمشركين عن المضيِّ في عتوِّهم، وتثبيتٌ للمؤمنين على إحسانِهم، ويجوزُ في الواوِ أن تكونَ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (قضي).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/285، 286، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/381، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/296.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/281.

استئنافيَّةً، والكلامُ "مستأنفٌ سِيقَ لبيانِ النِّعمِ الفائضةِ عليهم إثرَ نعمةِ الإنجاءِ على وجه الإجمالِ وإخلالِهم بشكرِها وأداءِ حقوقِها، أي: أسكنّاهم، وأنزلناهم بعدَ ما أنجيْناهم، وأهلكنا أعداءَهم"(1).

سرُّ التَّوكيدِ باللّام وقد في سياق الآية الكريمة:

تأكيدُ التَّباينِ بين النَّقيضيْن؛ والجزاءُ باعتبار الصَّلاحِ والفسادِ

جاء قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾، مؤكَّدًا باللّامِ و(قد)؛ تأكيدًا لمضمونِ الخبرِ، وللدَّلالةِ على قوَّةِ النَّقيضِ، فقومٌ أُغْرِقوا، وآخرون أُنْزِلوا مكانًا ذا رزقٍ وخيرٍ.

الإتْيانُ بالفعل (بوّأ) ماضيًا، مضافًا إلى ضمير التَّعظيم:

عَظمةُ النِّعمةِ مــن عــظــمــةِ المنعمِ

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعلِ الماضي لتأكيدِ تحقيقِ الحدث، وأسندَه إلى ضميرِ التَّعظيم إظهارًا لعظمةِ ذلك الإنعام، "أي: أسكنّا بما لنا من العظمة التي تنقطعُ الأعناقُ دون عليائِها، وتتضاءلُ ثواقبُ الأفكارِ عن إحصائِها"(2).

توجيهُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿مُبَوَّأَ﴾:

سَعةُ الدَّلالةِ بـالـثَّـنـاءِ على المـكـانِ أو على نوعِ ذلك المبُوَّأ

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾، عبَّر النَّظمُ الكريم بلفظِ المبوَّأ الذي يحتملُ أن يكونَ المرادُ به اسمَ المكانِ أو المصدرَ(3)، فإذا كان المرادُ به اسمَ المكان، فيكونُ المعنى: أنَّه أنزلَهم مسكنًا كثيرَ الخير، وإذا أُريد به المصدرُ، فيكونُ بيانًا لنوعِ ذلك الإنزالِ، فهو قد أنزلَهم إنزالًا حسنًا.

توجيهُ المتشابه في آية يونس والجاثية:

ناسبَ كلُّ لفظٍ سياقَ ما قبلَه، فدلَّ على سموِّهِ في البيان

قال تعالى هنا: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، وفي [الجاثية: 16] ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، فخُصَّت الآيةُ هنا بـ ﴿بَوَّأۡنَا﴾ وفي الجاثيةِ بـ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/174.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/189.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/282.

﴿ءَاتَيۡنَا﴾؛ لأنَّه لمّا كان إهلاكُ فرعونَ وجنودِه، وتمكينُ بني إسرائيل من أرضِهم وإسكانُهم فيها تبويئًا؛ دلَّ على صدق ما وعدَ اللّه تعالى موسى عليه السلام، وناسبَه لفظُ ﴿بَوَّأۡنَا﴾، أمّا آيةُ الجاثيةِ؛ فقد ذكر قبلَها ما آتى اللّه جميعَ الناسِ، ناسبَه ذكرُ ما آتاه بني إسرائيل.

إضافةُ لفظِ ﴿مُبَوَّأَ﴾ إلى الصّدقِ:

يُـصْـدِقُ المكانُ بإيفائِه بما يُرادُ منه

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾ أضاف المبوَّأ إلى الصِّدق، وذلك أنَّ من "عادةِ العرب أنَّها إذا مدحتِ الشَّيءَ؛ أضافَتْه إلى الصِّدق؛ لأنَّه مع ثباتِه حبيبٌ إلى كلِّ نفسٍ، ويُصَدِقُ ما يُظَنُّ به من الخير"[1]، فلمّا كان المَنزِلُ الذي أُنزِلوه يأتيهم على ما ينتظرُه السّاكنُ من الرَّغَدِ والأمانِ والخيرِ؛ أُضيف إلى الصِّدق إشارةً إلى إيفائِه بما يُنتظَرُ منه، "فالصِّدقُ هو عنوانُ الفضائلِ؛ لأنَّه يتضمَّن صدقَ القولِ وصدقَ النَّفسِ والضَّميرِ، وهو عنوانٌ لكلِّ عملٍ فاضلٍ ومكانٍ طيِّبٍ"[2].

سرُّ تنكيرِ الصِّدقِ في سياقِ الآيةِ الكريمة:

التَّـعـظـيـمُ من دلائـلِ التَّنكير، ومن بـوّأه الله؛ فقد علا قدره

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾ آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بصيغةِ التَّنكيرِ في ﴿صِدۡقٖ﴾ للدَّلالةِ على التَّعظيمِ والتَّفخيمِ، وذلك لتعظيمِ الخيرِ الَّذي في ذلك المُبَوَّأ، فالتَّنكيرُ مستعملٌ في التَّعظيمِ والتَّفخيم.

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ في ﴿بَوَّأۡنَا﴾، و﴿مُبَوَّأَ﴾:

الاهتمامُ باللَّفظِ لتأكيدِ المعنى، من بيانِ السِّياقِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ؛ حيث جيء بلفظَيْن من جَذرٍ واحدٍ في جملةٍ واحدةٍ، والمرادُ من ذلك التَّنبيهُ على مكانةِ ذلك المُبَوَّأ بتكريرِ لفظٍ من ذاتِ الجذرِ، كما أنَّ فيه تشنيفًا للمَسمَعِ، وكسرًا للمَلالِ بتكريرِ اللَّفظِ بصيغةٍ مختلفةٍ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/189.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3629.

وجهُ العطفِ بالواوِ في السّياق الكريم:

عطف النَّظمُ الجليل رِزقَ الطَّيِّبات في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ على قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ لِما بينَ السَّكنِ والرِّزقِ من تلازم؛ فلمّا "كان المَنزِلُ لا يطيبُ إلّا بالرِّزقِ، وكان التَّعبيرُ عنه بالمُبَوَّأ دالًّا على الرِّزقِ بدلالةِ الالتزامِ؛ صرَّح به، فقال: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم﴾"[1].

تعظيمُ الإنعامِ بالتَّصريحِ بالرِّزقِ المفهومِ بدلالةِ الالتزامِ

التَّعبيرُ عن فعلِ الرِّزقِ ماضيًا، معظَّمًا:

في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الرِّزق بالفعل الماضي، تأكيدًا لكونِه حَدَثًا مُنْجَزًا، ووعْدًا مُحقَّقًا، ثمَّ أسندَه إلى ضميرِ التَّعظيم، تنويهًا على عظمةِ ذلك الرِّزقِ، أي: رزقناهم "بما لنا من العظمةِ"[2]، فضلًا عن الضَّميرِ العائدِ إلى بني إسرائيل، وإنْ كان اللّٰه تعالى يرزقهم، كما يرزقُ جميعَ الخلائقِ، فأفردَهم بالذِّكرِ للنَّصِّ على أنَّ المقصودَ بذلك الرِّزقِ العظيمِ هم دونَ غيرِهم، إظهارًا لعظيمِ إنعامِه عليهم.

الإنعامُ بعظيمِ الرِّزقِ، لكونه صادرًا من الرَّزّاقِ الأعظم

دلالةُ (مِن) في شبه الجملة ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أدخلَ (مِن) الدّالَّةَ على البيانِ؛ لبيانِ جنسِ الرِّزقِ الذي أنعمَ عليهم به، وهو أظهرُ من أنْ تكونَ تبعيضيَّةً؛ إذ إنَّ ذلك المُبَوَّأ قد حوى كلَّ ما يبتغيه المرءُ من طيبِ العيشِ، وكونُها بيانيَّةً أنسبُ للسّياقِ في بيانِ الإنعامِ عليهم بالرِّزقِ العظيمِ.

وسِعَ رزقُه لهم كلَّ ما يطيبُ به العيشُ، ويهنأُ به الحال

نكتةُ تعريفِ الطَّيِّباتِ وجمعِها في السّياق:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ جاء لفظُ الطَّيباتِ بصيغةِ الجمعِ دلالةً على التَّكثير، وعرَّفها بالألفِ واللّامِ لكونها

مِن عِظَمِ رزقِه كثرةُ الطَّيباتِ المُنعِم بها على العباد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/189.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/190.

من جنسِ ما يطيبُ للإنسان، فهي تشملُ "الحسّيَّةَ حَلاءً واشتهاءً من الفواكهِ، والحبوبِ، والألبانِ، والأعسالِ، وغيرها. والمعنويَّةَ من الشَّريعةِ، والكتابِ، والمعارفِ كما تقدَّم وعْدُنا لآبائِهم بذلك"(1)، فالجَمعُ يشيرُ إلى عديد ما أنعمَ الله تعالى عليهم به من الطّيبات من جميعِ الأنواعِ، والتَّكثيرُ المدلولُ عليه بالجمع يناسبُ إسنادَ الرِّزقِ إلى ضميرِ التَّعظيم.

لمّا أنجزَ الله تعالى وعدَه المصدوق؛ أظهروا اختلافَهم المسوق

معنى الفاء في عبارة: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ﴾:

افتتح قولَه جلَّ شأنُه: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ بالفاء السَّببيَّةِ: "أي: فتسبَّبَ عن صدقنا لهم في الوعدِ أنَّهم ما ﴿ٱخۡتَلَفُواْ﴾، أي: أوقعوا الخُلفَ المُفضي إلى جعلِ كلٍّ منهم صاحبَه خلفَه ووراءَ ظهرِه، واستهان به ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ الموجِبُ لاجتماعِهم على كلمةٍ واحدةٍ لِما له من الضَّبطِ حتّى يكونَ أتباعُه على قلبٍ واحدٍ"(2).

اختلافُهم ظاهرٌ محقَّقٌ، وذكره في الوحي منقول مصدَّقٌ

دلالةُ التَّعبيرِ عن الاختلافِ بالماضي المجموع:

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن اختلافِهم بالفعل الماضي للدَّلالةِ على تحقُّقِ الاختلافِ، وأسندَه إلى ضميرِ الجماعةِ للإعلام بكونِهم، فعلوه جماعةً، فكان الخلافُ بينهم منتشرًا ظاهرًا، لم يَسْلَمْ منه أحدٌ.

كان اختلافهم فظيعًا، فتجرَّأ بعضُهم على بعض بالتَّكفير

وجهُ التَّعبيرِ عن الاختلافِ بصيغةِ الافتعال:

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ عبَّر النَّظمُ الجليل عن الاختلاف بصيغةِ الافتعالِ، و"أُريدَ به شدَّةُ التَّخالفِ، ولا يُعرف لمادةِ هذا المعنى فعلٌ مجرَّدٌ، وهي مشتقَّةٌ من الاسم الجامدِ، وهو الخَلفُ بمعنى الوراءِ، فتعيَّن أنَّ زيادةَ التّاءِ للمبالَغة، مثل: (اكتسب) مبالغةٌ في (كسب)، فيُحملُ على خلافِ تشديدٍ، وهو

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/190.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/190.

مُضادَّةُ ما جاء به الدِّينُ، وما دعا إليه الرَّسولُ ﷺ، وهو المناسبُ للسّياق؛ فإنَّ الكلامَ ثناء مُردَفٌ بغاية تؤذِن أنَّ ما بعدَ الغايةِ نهايةٌ للثناء وإثباتٌ للَّوم؛ إذْ قدْ نفى عنهم الاختلافَ إلى غايةٍ تؤذِن بحصول الاختلافِ منهم عندَ تلك الغايةِ، فالذين لم يختلفوا هم الذين بوَّأهم اللّه مُبَوَّأ صدقٍ، وقد جاؤوا بعدَهم إلى أنْ جاءَ الذين اختلفوا على الأنبياء"[1].

دلالةُ (حَتّى) في السّياق الكريم:

دوام النِّعمةِ بالاتِّباعِ، ومآلها في الاختلافِ إلى الانقطاع

في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ عبَّر بـ (حتّى) الدالَّةِ على الغايةِ بعد ذكرِ الاختلافِ المنفي، وتعقيب ذلك النَّفي المُشْعِرِ بالمدحِ والثَّناء "بالغاية يؤذِن بأنَّ ما بعد الغاية منتَهى حالةِ الشُّكرِ، أي: فَبَقَوا في ذلك المبوَّأ، وفي تلك النِّعمةِ، حتّى اختلفوا، فسُلبتْ نعمتُهم"[2].

بيانُ تعريفِ العلمِ ودلالتُه في السّياق البليغ:

لم يكن اختلافُهم إلّا بمجيء العلمِ الدّاعي للمعرفةِ والتَّبصُّر

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ عرَّف العلمَ إشارةً للوحي المنزَّلِ إليهم، "أي: ما تفرَّقوا على مذاهبَ شتّى في أمر دينِهم إلّا من بعدِ ما جاءَهم العلمُ الحاسمُ لكلِّ شبهةٍ، وهو ما بين أيديهم من الوحي الذي يَتْلونَهُ، أي: وما كان حقُّهم أن يختلفوا، وقد بيَّنَ اللّه لهم، وأزاحَ عنهم اللَّبسَ"[3]، فأسبابُ الاختلافِ منتفيةٌ، ومع ذلك اختلفوا.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ في الآية:

أنزلَ ما جاءهم من الوحي منزلةَ العلم كلِّه لكفايتِه ونبله

في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ مجازٌ مرسلٌ، والعلاقةُ المفعوليَّة؛ إذ أطلقَ المصدرَ على المفعولِ، أي: جاءهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/282.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/283.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/61.

المعلومُ، فالعلمُ هو ما بلغَهم من الوحي[1]، فأطلقَ عليه العلمَ للمبالغةِ في مكانةِ ما جاءَهم، فجعلَه العلمَ كلَّه لِما احتواه من الحقائقِ الصَّحيحةِ.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ في سياقِ العِلْم:

مجيء العلم كمجيء الشَّخصِ الَّذي لا يَخفى على العينِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُۚ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ حيث شبَّه العلمَ بشخصٍ يجيء، فحذفَ المشبَّهَ به، وأبقى قرينةَ المجيءِ، بجامع الظُّهورِ والانكشافِ والبيانِ، فالعلمُ حاضرٌ مكشوفٌ كحضورِ الشَّخصِ الذي لا يُشكُّ به، وكذلك العلمُ الذي حصل لهم، فهو استعارةٌ مكنيَّةٌ الغرض منها تأكيدُ حصولِ العلمِ الذي لا شبهةَ فيه لهم.

متشابه النّظم:

جيء بـ الحرف (حتّى)، وتفصيلُ الكفر والبغي يناسبُه التَّأكيدُ بالقصر

قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُۚ﴾ يشابهُ قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۚ﴾ [الجاثية: 17]، فلِمَ خُصَّتْ كلُّ آية بما فيها بعدَ قوله: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُواْ﴾؟ والإجابةُ عن ذلك: أنَّ الآيةَ في سورةِ يونس بدأت بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٖ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فلمّا كان مجيءُ العلمِ نهايةَ عدم اختلافِهم؛ ناسبَهُ قولُه: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُۚ﴾.
أمّا الآيةُ في سورةِ الجاثية؛ فقد بدأت بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلْأَمْرِۖ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: 16]؛ فلمّا كان ذلك تفصيلًا وتأكيدًا لِما آتاهم اللّٰه من وسائل العلم التي تمنعُهم من الاختلاف؛ ناسبَهُ تأكيدُ اختلافِهم بأسلوب القصرِ (ما وإلّا)، وذكرَ سببَ الاختلافِ بقوله: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۚ﴾.

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/61.

تهديدٌ ووعيدٌ للحاضرين بسالفِ القَصصِ

الإخبارُ بالغيبِ يقتضي التَّأكيدَ، لضمان التَّصديق

القائمُ على مصالحِ العبادِ، لا تضيعُ الحقوقُ عندَه مطلقًا

مَن سبقَ منه الإحسانُ، يُنتظرُ منه الدَّوامُ بغاية الاطمئنان

بلاغةُ التَّذييلِ بالجملة آخر الآية:

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ جاءتْ في ختامِ الآيةِ، بعد ذكرِ الإنعامِ واختلافِهم بعد مجيء العلم، فهي "تذييلٌ وتوعُّدٌ، والمقصودُ منه: أنَّ أولئك قومٌ مضوا بما عمِلوا، وأَنَّ أمرَهم إلى ربِّهم كقوله: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ﴾ [البقرة: 134]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ على الحاضرين اليوم أنْ يفكِّروا في وسائلِ الخلاصِ من الضَّلال والوقوع في المؤاخذةِ يومَ القيامةِ"[1].

نكتةُ التَّوكيدِ بإنَّ في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ افتتح الجملةَ الخبريَّةَ بحرف التَّأكيد (إنّ) تأكيدًا للخبر، وهذا التَّأكيدُ يقتضيه سياقُ الإخبارِ عن الإنعام عليهم، ثمَّ إتباعُه بكونِه سيحاسبُهم بالإنْعام عليهم بالدُّنيا قد يُفهم منه دوامُ الإنعام بِغَضِّ النَّظرِ عن أعمالِهم، فجاء تأكيدُ الإخبارِ عن حسابهم دفعًا للإنكارِ المظنون، ولكونه إخبارًا بالغيب فيقتضي تأكيدَ مضمونِه، كما أنَّ هذا التَّأكيدَ يُعَدُّ تمهيدًا لذكر الشَّكِّ الآتي في الآيةِ اللّاحقةِ.

نكتةُ إيثارِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾:

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الرُّبوبيَّةِ دون الاسمِ الجليلِ إشارةً إلى أنَّ الرَّبَّ المحسنَ القائمَ على مصالح العبادِ هو مَن يقومُ على مصالحِهم يومَ القيامةِ بإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه.

بيانُ إضافةِ لفظِ الرَّبِّ إلى كافِ الخطابِ:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ﴾ آثر النَّظمُ الكريم إضافةَ لفظِ الرَّبِّ إلى ضمير المخاطبِ العائدِ للنَّبيِّ ﷺ تثبيتًا له وتأييدًا،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/283.

أي: إنَّ ربَّك "المحسنَ إليك بإيصاءِ الأنبياء بك ووصفِك في كتبِهم وجعلِك صاحبَ لواءِ الحمْدِ في القيامة ﴿يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ﴾"[1]، ففيه تطمينٌ وحِفْظٌ من الضِّيق.

بلاغةُ الالتفات بالخطابِ باسم الرُّبوبيَّة تأنيسٌ للمخاطبِ المكرم:

أسلوب الالتفات تشويق للإخبار وتلوين للسّياقات

في الآية التفاتٌ من التَّكلُّم إلى الغَيْبة؛ والغايةُ من ذلك: التَّعبيرُ بصفة الرُّبوبيَّةِ مضافًا إلى ضمير الخطابِ العائدِ للنَّبيِّ ﷺ تأنيسًا له بأنَّ مَن يحكمُ بينهم هو ربُّك القائمُ على أمرك، ومن ضِمْنِ شأنِك أنْ ينزِّلَ بمن كذَّب رسالتَك ما يستحقُّه من سوءِ المآلِ.

فائدةُ صيغةِ المضارعِ في لفظِ ﴿يَقۡضِي﴾:

زمانُ القضاءِ ممتدٌّ متطاولٌ، لا حدود له ولا آماد

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارعِ عن قضائه ﷻ للدَّلالةِ على أنَّه قضاءٌ يدومُ زمانًا طويلًا، وأنَّه يقتضي التَّجدُّدَ والدَّوامَ.

فائدةُ الإطنابِ بقوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

التَّهويلُ بالإشارة إلى أنَّه كائنٌ في يومٍ عظيمٍ

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إطنابٌ بذكر ما لا يُجهل، فلا خلافَ أنَّ قضاءَ اللّه تعالى بين النّاس في الخلافِ كائنٌ يومَ القيامة، فالإخبارُ به من الإعْلام بما هو معلومٌ؛ فلا بدَّ في الكلامِ البليغِ من فائدةٍ تتحصَّلُ من الإخبارِ بذلك، فلمّا كان ما سبقَ تهديدًا عظيمًا، زاده هولًا وعظمةً بالإخبار عن كونِه سيكونُ في يومٍ هو أعظمُ الأيامِ[2].

معنى (في) في قوله: ﴿فِيمَا كَانُواْ﴾:

المُختلَفُ فيه مَيْدانٌ للقضاءِ، وموئل للرَّجاء

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ عبَّر بـ (في) الدّالَّة على الظَّرفيَّةِ المجازيَّةِ، فكأنَّ القضيَّةَ التي يُحكم فيها تتحوَّلُ إلى ميدانٍ للتَّحاكمِ والقضاءِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/190.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/190.

إيثارُ الموصولِ (ما) في قولِه: ﴿فِيمَا كَانُواْ﴾:

حكمُ العدالةِ لا يغيبُ عنه شيءٌ، لإحاطته بكلِّ شيء

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ باسم الموصولِ (ما) الدّالِّ على العموم، للدَّلالةِ على أنَّ القضاءَ سيتعلَّقُ بكلِّ ما وقع فيه خلافٌ بينهم، والحاكمُ العادلُ لا يخْفى عنه شيءٌ، ولا يغيبُ عن داعي العدالة أيُّ شيء مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

فائدةُ فعلِ الكينونةِ (ماضيًا، مجموعًا):

رسَخوا في الاختلافِ، وكان كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحين

في قوله تعالى: ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾، لمّا كانوا في الاختلافِ راسخين، وعليه دائمين وثابتين، حتّى كأنَّهم امتهنوه، ودأبوا عليه الزَّمانَ الطويلَ عبَّر عن ذلك بالفعلِ (كان) للدَّلالةِ على رسوخِ ذلك الفعلِ فيهم، والتَّعبيرُ عن ذلك بضميرِ الجمعِ للدَّلالةِ على أنَّهم كانوا في ذلك الفعلِ مُتَوافقين، والخلافُ بينهم واقعٌ على مستوى الجماعةِ لا الأفرادِ.

سرُّ تقديمِ شبهِ الجملةِ (فيه) على ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾:

المحكومُ فيه أهمُّ من الاختلافِ، فقُدِّم للاهتمام به

في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملةِ من الجار والمجرور ﴿فِيهِ﴾ على الجملة الواقعةِ خبرًا للفعلِ النّاقصِ، فلم يقلْ: (فيما كانوا يختلفون فيه)، لِما في ذلك من مراعاةٍ للفاصلةِ اهتمامًا بالتَّأثير الصَّوتيِّ، كما فيه إشارةٌ إلى أنَّ الاهتمامَ بما يحكمُ فيه كائنٌ على ما وقع فيه اختلافٌ، فالقضيَّةُ المختَلَفُ فيها أهمُّ من الاختلافِ ذاتِه، فقدَّم ذكرَ ضميرِها في الجارِّ والمجرورِ إشارةً إلى تلكُمُ الأهميَّة.

بلاغةُ ردِّ العجزِ على الصَّدرِ:

ردُّ آخرِ الكلامِ على أوّلِه، يزيدُ الرَّصفَ سبكًا والسّياقَ ربطًا

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [يونس: 93] من فنون

البديعِ بردِّ العجزِ على الصَّدرِ[1]؛ إذ جاء أحدُ اللَّفظين المكرَّرَيْن (اختلفوا، ويختلفون) في أوَّل العبارةِ والآخرُ في آخرِها؛ وفائدةُ ذلك الاهتمامُ باللَّفظِ المكرَّرِ، وعلى الأخصِّ مجيئه في الختام، حيث تتعلَّقُ الأسماعُ بختمِ الكلامِ، فإذا به يعودُ على أوَّله، فيزيدُ ذلكَ ربطَ الكلامِ وسبكَه.

تهْيئةُ السّامعِ بذكرِ القضاءِ والاختلاف، لجودةِ السَّبكِ المعنويِّ

فنُّ الإرصادِ أو التَّسهيمِ في سياقِ الآية:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ فنُّ الإرصاد، أو التَّسهيم[2]، لِما في الآيةِ من ألفاظٍ تفيد التَّهيئةَ والإعدادَ، فلمّا ذكر القضاءَ يومَ القيامة بينهم؛ دلَّ ذلك على التَّمهيدِ لذكرِ الاختلافِ، لا سيَّما وأنَّ في الآيةِ ردَّ العجزِ على الصَّدرِ بتكرارِ لفظَيْن من الاختلافِ، فتعاضدَ ذلك على حسنِ السّياقِ وجمالِ البناءِ وجودةِ السَّبكِ.

اختلافُهم دائمٌ لا ينقطعُ، وذلك قانون الحياة والوجود

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾ دونَ (مختلفين):

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع دونَ الاسم تعبيرًا عن اختلافِهم؛ للدَّلالةِ على استمرارِهم بالاختلاف، وكأنَّ اختلافَهم لَمّا يزلْ إلى حين الحكم والمقاضاة.

كلُّ سياقٍ ورد في عبارة (إنّ ربّك يقضي بينهم) ناسب سياقه بدقّة

توجيهُ المُتشابَه بين هذه الآية في يونس، وآيتي يونس والنَّمل:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ يوجد تشابهٌ مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [النّمل: 78]، وقوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ

---

(1) ردّ العجز على الصَّدر: ويسمّى التَّصدير: هو "أن يجعل أحد اللَّفظين المكرَّرَيْن أو المتجانسَيْن أو الملحقَيْن بهما في أوَّل الفقرة، والآخرَ في آخرها". يُنظر: بهاء الدّين السّبكي، عروس الأفراح: 2/293.

(2) الإرصاد: "ويسمّيه بعضهم: التَّسهيم، وهو أن يجعل قبلَ العجز من الفقرة أو من البيت ما يدلُّ عليه إذا عرف الرويَّ، نحو: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾". يُنظر: الإسفراييني، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 1/99.

﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [السّجدة: 25]، حيث ورد في آيتي يونس والنَّمل قوله تعالى: ﴿يَقۡضِي﴾، وفي آيةِ السَّجدةِ وَرَدَ قولُه: ﴿هُوَ يَفۡصِلُ﴾، وفي آيتي يونسَ والسَّجدةِ قولُه: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾، ولعلَّ ذلك يرجعُ إلى أنَّ آيتي يونسَ والسَّجدةِ تتحدَّثان عن بني إسرائيل واختلافِهم فيما جاءَهم من العلم، والمرادُ به رسولُ اللّه ﷺ والقرآنُ في آيةِ يونسَ، أو اختلافُهم في القرآن الكريم، فمنهم مَن يؤمنُ، ومنهم مَن لا يؤمنُ به في آيةِ السَّجدةِ، ولمّا كانت الدُّنيا دارَ اختلافٍ، والآخرةُ دارَ قضاءٍ وفصلٍ بين المختلفين، وكان القضاءُ معناه بيان أيِّ المختلفين على هدًى وأيُّهم في ضلال مبين، وكان الفصل معناه التَّفريقُ بين المختلفين تفريقًا حاسمًا لا رادَّ له بوجوب الجنَّةِ ووجوبِ النّارِ، وكان القضاءُ مقدِّمةً للفصل، وكانت سورةُ يونسَ قبلَ سورةِ السَّجدةِ ترتيبًا ونزولًا؛ ناسبَ ذلك اختصاصَ سورة يونسَ بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ﴾، واختصاصَ سورة السّجدةِ بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ﴾. ولمّا كان أكثرُ بني إسرائيل لا يؤمنون بالرَّسولِ ﷺ ولا بالقرآنِ حسدًا، وبعدَ أن كان بنو إسرائيل مفضَّلين على العالمين، ولمّا اعترضوا على مرادِ اللّه واختيارِه، ولمّا كان هذا الاعتراضُ لا قيمةَ له؛ ناسبَ ذلك إنزالُ المُنكرِ منزلةَ غيرِ المُنكرِ، فأكَّد الخبرَ بمؤكِّدٍ واحدٍ (إنّ) في آية يونسَ، ولمّا كان بنو إسرائيل لا يؤمنون بالقرآن؛ ناسبَ ذلك تأكيدَ الخبرِ بأكثرَ من مؤكِّدٍ (إنّ) وضميرِ الفصلِ الذي يفيدُ قصرَ ما بعدَه عليه في آية السَّجدةِ؛ مراعاةً لحال بني إسرائيل، وتثبيتًا من اللّه لرسولِه ﷺ، وأتْباعِه، أمّا آيةُ النَّملِ؛ فهي خاصَّةٌ بمَن آمن بالقرآن الكريم، ومَن لم يؤمنْ به من جميع الأمم، فهؤلاء يقضي بينهم اللّه بحكمه، ولمّا كان ذلك عامًّا، وليس خاصًّا باختلافهم في القرآن؛ ناسبه عدم ذكر قوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾، ولمّا كان القضاءُ بالحكم يلزمُه قوَّةٌ تنفِّذُه، وتَغلِبُ كلَّ شيءٍ، ولا يَغلِبُها شيءٌ، ويلزمُه علمٌ راسخٌ كاملٌ تامٌّ بكلِّ شيءٍ؛ ناسبه وصفُ اللّه بأنَّه العزيزُ العليمُ بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

الفروقُ المُعجَمِيَّةُ:

دلالةُ (يقضي)، و(يحكم):

القضاءُ: يَدُلُّ عَلى إحْكامِ أمْرٍ وإتْقانِه وإنْفاذِه لِجِهَتِه، قالَ اللّه تَعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ

القضاءُ الفصلُ في الأحكام، والحكمُ منعُ الظُّلمِ وإقامةُ العدلِ

سَمَٰوَاتٍ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: 12] أي: أَحْكَمَ خَلْقَهُنَّ. والقَضاءُ: الحُكْمُ، قالَ اللهُ سُبْحانَهُ في ذِكْرِ مَنْ قالَ: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ أي: اصْنَعْ واحْكُمْ، ولِذَلِكَ سُمّيَ القاضي قاضيًا؛ لِأَنَّهُ يُحْكِمُ الأَحْكامَ، ويُنْفِذُها[1]. وهو فصل الأمر قولًا كان ذلك أو فعلًا، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23] أي: أمرَ بذلك، وقال: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: 4]، فهذا قَضاءٌ بالإعلام والفصلِ في الحكم، أي: أعلمْناهم، وأوحيْنا إليهم، ومن القولِ: قضى الحاكمُ بكذا، فإنَّ حُكْمَ الحاكم يكونُ بالقول[2]. والحُكم: المَنْعُ. وأوَّلُ ذَلِكَ الحُكْمُ، وهوَ المَنْعُ مِنَ الظُّلْمِ[3]. والحُكْم بالشيء: أن تقضي بأنَّه كذا، أو ليس بكذا، سواءٌ ألزمت ذلك غيرَه، أو لم تلزمْه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: 58][4]، وأَحْكَمْتُ وحَكَّمْتُ بِمَعْنى: مَنَعْتُ ورَدَدْتُ، ومِنْ هَذا قيلَ لِلْحاكِمِ بَيْنَ النّاسِ: حاكِمٌ؛ لأنَّه يَمْنَعُ الظّالمَ مِنَ الظُّلْمِ[5]. وعبَّر في الآية بالقضاء؛ لأنَّه يفصل بينهم، ولم يردْ أنَّه يمنع الظُّلمَ بينهم يومَ القيامة؛ لأنَّهُ لا ظلمَ هناك.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حكم).
(2) الرّاغب، المفردات: (قضى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حكم).
(4) الرّاغب، المفردات: (حكم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حكم).

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤﴾ [يونس: 94]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

شقاءُ بني إسرائيل بما أوتوا، وكون الحقِّ ما أنزل على نبيِّ الختام

لمّا كان "ما مضى - من آياتِ هذه السّورةِ المبيِّنةِ أنَّ مَن أُريدت شقاوتُه لا ينفعُه مشاهدةُ الآياتِ - سببًا لنفي الشَّكِّ عنها وإثباتِ اليقينِ بمضامينِها بما سلفَ من الأدلَّةِ على تلك المضامين. وكان ﷺ - كما مضى في آخرِ التي قبلَها - أشفقَ الخَلْقِ لا سيَّما على العربِ وعلى قومِه منهم خصوصًا، وكانت الوصيَّةُ قد برزت من الجنابِ الإلهيِّ له بما يوافق طَبعَه من بذلِ الجهدِ في ملاطفتِهم، كان ذلك جديرًا بأن يحرِّكَ طبعَ البشرِ لتمنّي الإجابةِ لِما يقترحون، وكان طلبُ ذلك بعد الفطامِ عنه من أفعالِ الشَّكِّ في الجملةِ، فأُريد صرفُ النَّفسِ عنه بالكلّيَّةِ، ولو بالحضورِ في البال، فقيلَ مسبَّبًا عمّا قبلَه: ﴿فَإِن كُنتَ﴾"[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿شَكٍّ﴾: أصلُ الشَّكِّ يَدُلُّ على التَّداخُلِ، ومِنْ ذلكَ قَولُهُم: شَكَكْتُهُ بالرُّمحِ؛ وذلكَ إذا طَعَنْتَهُ، فداخَلَ السِّنانُ جِسْمَهُ، ومِنْ هذا البابِ الشَّكُّ، الَّذي هو خِلافُ اليقينِ؛ إنَّما سُمّيَ بذلك؛ لأنَّ الشّاكَّ كأنَّهُ شُكَّ له الأمرانِ في مَشَكٍّ واحدٍ، وهو لا يَتيقَّنُ واحدًا منهُما، فمن ذلكَ اشتقاقُ الشَّكِّ[2]. والشَّكُّ أيضًا: الرَّيْبُ[3]. ويأتي بمعنى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/204.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شكك).
(3) ابن سِيدَه، المخصّص: 4/346.

التباسِ الأمرِ وعدم اتِّضاحِه[1]. والشَّكُّ في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى﴾: من باب التَّهييجِ والتَّثبيتِ، وقطعِ الأطماعِ عنه ﷺ كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: 86][2].

2) ﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: أصلُ المَرْيِ من: مَرَيْتُ النّاقةَ؛ إذا مَسَحْتُ ضرعَها للحَلْب[3]، والمِرْيَةُ: التَّردُّد في الأَمْرِ، وهو أخصُّ من الشَّكِّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [الحج: 55][4]، والامتراءُ: المحاجَّةُ فيما فيه مرية، قال تعالى: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: 34]. والمِراءُ أيضًا: الجِدالُ، والمُماراةُ: المُجادَلَةُ على مَذْهبِ الشَّكِّ والرِّيبة، ويُقالُ للمُناظَرَة: مُماراةٌ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ يَسْتَخْرِجُ ما عِنْدَ صاحِبِه، ويَمْتَريه، كما يَمْتَري الحالِبُ مِن الضَّرْعِ[5]، والمقصود بـ ﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ في الآية: المتردِّدين[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمـرُ بسـؤالِ أهلِ العلمِ، لمَن وقع له شَكٌّ أو شبهةٌ

يخاطِبُ اللّه تعالى النَّبيَّ ﷺ والمرادُ سواه، يقولُ تعالى: فإنْ كنتَ - يا محمد ﷺ - في شكٍّ مِن حقيقةِ ما أخبَرْناك في القرآنِ من أنَّ بني إسرائيلَ لم يختلِفوا في أمرِك إلّا من بعدِ مَجيئِك - لأنَّهم يَجِدونَك مكتوبًا عندهم، ويَعرِفونك بصِفاتِك الواردةِ في كُتُبِهم - فاسألْ أهلَ الكِتابِ الذين يقرؤونَ التَّوراةَ والإنجيلَ من قبلِك؛ فإنَّهم يَعلَمونَ صِحَّةَ ذلك، لقد جاءك الحَقُّ اليقينُ من رَبِّك بأنَّك رسولُ اللّه، وأنَّ هؤلاءِ اليَهودَ والنَّصارى يعلمونَ صِحَّةَ ذلك، ويَجِدونَ صِفتَك في كُتُبِهم، ولكِنَّهم يُنكِرونَ ذلك مع عِلمِهم به، فلا تكونَنَّ من الشّاكّينَ في صِحَّةِ ذلك[7].

(1) الفيوميّ، المصباح المنير: (شكك).
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/124.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مري).
(4) الرّاغب، المفردات: (مرى).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (مري).
(6) السجستانيّ، غريب القرآن، ص: 434، والرّاغب، المفردات: (مرى)، وابن الهائم، التّبيان، ص: 97.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 12/285، 286، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/143، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/296.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ إضمارِ الخطابِ العامّ في الخطابِ الخاصّ:

خطابُ الأمَّةِ بقائدِها أدلُّ على الإلزامِ وأدعى للالتزام

في قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ جاء الخطابُ بالضَّمير المفردِ، والمرادُ به لكلِّ سامعٍ غيرِ النبيِّ ﷺ؛ "وكثيرًا ما يأتي الخطابُ في ظاهرِه لشخص، والمرادُ غيرُه"[1]. وإنَّ خطابَ الأمَّةِ من خلال الضَّميرِ الذي ظاهرُه أنَّه عائدٌ للنَّبيِّ ﷺ فيه حثٌّ على الامتثال؛ فإنَّ "الأمرَ بإمامِ القومِ وسيِّدِهم يستلزمُ الأمرَ لتوابعه، وهذا اللّازمُ هو المرادُ هنا؛ لقيامِ القرينةِ المانعةِ عن إرادةِ ظاهرِه منفردًا أو مع قومِه"[2]؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يشكُّ أصلًا، وقد عَدَلَ النَّظمُ عن خطاب الأمَّةِ مباشرةً؛ لأنَّ الله "ﷻ يُضمِرُ خطابَ الأمَّةِ في خطاب رسولِه ﷺ؛ لأنَّ الأتْباعَ حين يقرؤون، ويسمعون الخطابَ، وهو موجَّه بهذا الأسلوبِ إلى الرَّسول ﷺ فهُمْ لن يستنْكِفوا عن أيِّ أمرٍ يصدُرُ إليهم... وجاء الأمرُ هنا لرسول الله ﷺ؛ لتفهمَ أمَّتُه أنَّ الرَّسولَ ﷺ ما كان لِيتأبّى على أمرٍ من أوامرِ الله، بل هو ﷺ ينفِّذُ كلَّ ما يُؤمَرُ به بدقَّة؛ وذلك من باب خطابِ الأمَّة في شخصيَّةِ رسولِها ﷺ"[3]، وذلك بحسَبِ مضمونِ الكلام، فلمّا كان الشَّكُّ في الدّين من خطيرِ الأسبابِ المؤدّيةِ للكفرِ؛ جاء التَّعبيرُ عنه بهذا الأسلوبِ البليغ.

دلالة الفاءِ على السَّببيَّة، وأثرها في السّياق:

احتمالُ وقوعِ الشَّكِّ بسببِ ما يقع في روايةِ القَصَصِ

في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، عبَّرَ بالفاءِ الدّالَّةِ على السَّببيَّةِ للدّلالةِ على أنَّ الشَّكَّ المفترضَ قد يتسبَّبُ عن القَصَصِ السّابقِ؛ إذ إنَّ حكايةَ القَصَصِ سببٌ للشَّكِّ، مع قطعِ النَّظرِ عن قائلِه[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/106، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/563.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6198.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/562.

تأكيدُ الحقِّ بوجودِ الإجابةِ عن كلِّ شكٍّ

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ عبَّر النَّظمُ الكريم بالجملةِ الشَّرطيَّةِ تأكيدًا لكونِه ﷺ على الحقِّ، "فإنَّ مضمونَ الشرطيةِ إنَّما هو تعليقُ شيءٍ بشيءٍ من غيرِ تعرُّضٍ لإمكانِ شيءٍ منهما، كيف لا؟ وقد يكونُ كلاهما ممتنعًا، كقوله ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ ونظائرِهما"[1]. فأجرى افتراضَ وجودِ الشَّكِّ مجرى العقدِ المنجَزِ بتعليقِه بالسُّؤال، تحقيقًا لرفعِ الشَّكِّ، والغرضُ من ذلك تأكيدُ أنَّه على حقٍّ، فعلى سبيلِ الافتراضِ لو وقعَ شكٌّ فإنَّ الشَّكَّ يُزالُ بالسُّؤال؛ لأنَّ العلمَ بحقِّيَّةِ المُنزَلِ إليك معروفةٌ للسّابقين عليك.

افتراضُ الشَّكِّ بلا تعرُّضٍ لإمكانِه، ينفي وجوده في إبّانه

إيثارُ أداةِ الشَّرطِ (إنْ) دونَ (إذا):

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ عبَّر النَّصُّ الكريم بـ (إنْ) الشَّرطيَّةِ دون (إذا)؛ لأنَّ "(إنْ) الشَّرطيَّةَ تقتضي تعليقَ شيءٍ على شيءٍ، ولا تستلزمُ تحتُّمَ وقوعِه ولا إمكانِه، بل قد يكونُ ذلك في المستحيلِ عقلًا كقولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ ومستحيلٌ أن يكونَ له ولدٌ، فكذلك هذا مستحيلٌ أن يكونَ في شكٍّ، وفي المستحيل عادةً كقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِى ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖ﴾ أي: فافعلْ، لكن وقوعَ (إنْ) للتَّعليقِ على المستحيلِ قليلٌ، وهذه الآيةُ من ذلك"[2]؛ وذلك لأنَّ الشَّكَّ غيرُ متصوَّرٍ مِنَ النَّبيِّ ﷺ .

بيانُ توجيهِ الخطابِ بالفعلِ ﴿كُنتَ﴾ في السّياق:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، عبَّر

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/105 - 106.

النَّظمُ الجليل عن الشَّكِّ افتراضًا بالفعلِ (كان) للدَّلالةِ على نوعٍ من الشَّكِّ بعينِه، وليس الشَّكُّ الَّذي يأتي بخاطرةٍ أو فكرةٍ عابرةٍ، بل المرادُ وجودُه في الشَّكِّ وكينونتُه فيه، والمرادُ من ذلك المبالغةُ في شأن الشَّكِّ الَّذي سِيقَ الكلامُ لأجْلِه، بحيثُ أن يكونَ شكًّا في أصل الوحي والنُّبوَّةِ والدِّينِ.

الشَّكُّ المعتبرُ أن يكون عقديًّا لا عرضيًّا ولا مَرَضيًّا

معنى (في) في قولِه: ﴿فِى شَكٍّ﴾ في السِّياق الحكيم:

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ أدخلَ النَّظمُ الجليل (في) الدَّالَّةَ على الظَّرفيَّةِ على الشَّكِّ، فهي "للظَّرفيَّة المجازيَّة، كالتي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [هود: 109]"[(1)]؛ إذ إنَّ الشَّكَّ ليس وِعاءً للإنسانِ، فجعلَ الشَّكَّ الذي هو معنًى ظرفًا للإنسانِ فيه مبالغةٌ بذلك الشَّكِّ، بحيثُ إنَّه تضخَّمَ حتّى احتوى صاحبَهُ.

جَعْلُ الشَّكِّ ظرفًا مبالغةٌ في شأنِه وفي أثره وتأثيره

إيثارُ لفظِ (الشَّكِّ) دونَ (الرَّيبِ) في سياق الآية:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾، آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالشَّكِّ دونَ الرَّيبِ؛ لأنَّ المرادَ الشَّكُّ بوجود الوحي من عدمِه، وعدمُ اليقينِ بالشَّيءِ وجودًا وعدمًا يُعبَّرُ عنه بالشَّكِّ لا بالرَّيبِ؛ فالشَّكُّ هو "اختلافُ النَّقيضَيْن عند الإنسانِ وتساويهِما، وذلك قد يكونُ لوجودِ أمارَتَيْن متساويتَيْن عندَه في النَّقيضَيْن، أو لعدم الأمارةِ فيهما، والشَّكُّ رُبَّما كان في الشَّيءِ، هل هو موجودٌ أو غيرُ موجودٍ"[(2)]، أمّا الرَّيبُ؛ فهو أخصُّ من الشَّكِّ؛ فهو شكٌّ مع تهمةٍ، أو هو مجرَّدُ التَّوهُّم، فالرَّيبُ هو "أن تتوهَّم بالشَّيءِ أمرًا ما، فينكشفُ عمّا تتوهَّمُه"[(3)].

الشَّكُّ أعمُّ في الدَّلالةِ على عدمِ اليقينِ، والرَّيبُ شكٌّ مع تهمةٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/285.
(2) الفيروزاباديّ، البصائر: (شك).
(3) الرّاغب، المفردات: (شكك).

فائدةُ استحضارِ الشَّكِّ في قولِه: ﴿فِى شَكٍّ﴾:

مَن خالجَتْهُ شبهةٌ؛ ينبغي حلُّها بالرُّجوعِ إلى أهلِ العلمِ والبصيرة

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾، ذكر النَّصُّ الجليل الشَّكَّ على سبيلِ الافتراض يتضمَّنُ تنبيهَ النَّبيِّ ﷺ "إلى صدقِ ما أخبرَه، ويثبِّتُ فؤادَه، وفي النَّهي عن الشَّكِّ أمرٌ بالتَّثبُّتِ واليقينِ والاطمئنانِ إلى أنَّه الحقُّ، فقولُه تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ هو فرضٌ غيرُ واقعٍ، والغرضُ منه: أوَّلًا: تثبيتُ النَّبي ﷺ، ثانيًا: بيانُ أنَّ الكتبَ السّابقةَ ثابتٌ فيها هذا. ثالثًا: تذكيرُ النَّبيِّ ﷺ بما حدث للنَّبيِّين قبلَه. رابعًا: بيانُ أنَّ القَصَصَ الصّادقَ يربّي اليقينَ"(1). كما أنَّ في ذكرِ الشَّكِّ هنا " تنبيهًا على أنَّ مَن خالجَتْهُ شبهةٌ في الدّين ينبغي أن يسارِعَ إلى حلِّها بالرُّجوعِ إلى أهلِ العلم"(2).

وجهُ ذكرِ الشَّكِّ احتمالًا في السّياق المحكم:

ما نُسب إلى الرَّسول المعصوم افتراضًا، هو منزَّهٌ عنه بإطلاق

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، يثيرُ تساؤلًا للبحث، مفادُه: كيف قالَ لرسول اللّه ﷺ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ مع قولِه في الكفرةِ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: 110]؟ وإجابةُ ذلك: أنَّ بينَهما فرقًا عظيمًا؛ ففي قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، أثبتَ الشَّكَّ لهم على سبيل التَّأكيدِ والتَّحقيقِ، أمّا قولُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ فإنَّه بمعنى الفرضِ والتَّمثيلِ، كأنَّه قيلَ: فإنْ وقع لك شكٌّ مثلًا، وخَيَّل لك الشَّيطانُ خبالًا منه تقديرًا؛ ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾(3).

دلالةُ التَّنكيرِ وأثرها في سياقِ قولِه: ﴿فِى شَكٍّ﴾:

كلُّ درجاتِ الشَّكِّ معتبرةٌ، داعيةٌ للسُّؤالِ، صغُر أو عظُم

في قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ آثر النَّظمُ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3631 - 3632.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.
(3) الزمخشريّ، الكشاف: 2/370.

العزيز أن يعبِّرَ بصيغة التَّنكيرِ في الشَّكِّ للدَّلالةِ على التَّقليلِ، أي: إن كنتَ "في شكٍّ ما يسيرٍ على الفرْضِ والتَّقديرِ"[1]. وذلك باعتبارِ أنَّ الشَّكَّ في حقيقةِ ما عليهِ النَّفسُ في أمر الوحيِ والدّينِ معتَبرٌ فيه ما صغُرَ منه وما عظُمَ.

بلاغةُ الكنايةِ في لفظِ الشَّكِّ في قوله: ﴿فِي شَكٍّ﴾:

الــتَّـردُّدُ بين الـحـقـيـقـةِ ونـقـيـضِـهـا، يتضمَّنُ الشَّكَّ والـتَّـعـجُّـبَ والضّيقَ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ ذهبَ بعضُ أئمَّةِ التَّفسيرِ إلى أنَّ المرادَ بالشَّكِّ في الآيةِ الكريمةِ الكنايةُ، فكنّى به "عن الضّيق أي: فإن كنتَ في ضيقٍ من اختلافِهم فيما أُنزل إليك وتعنُّتِهم عليك، وقيل: كنّى بالشَّكِّ عن العجبِ، أي: فإن كنتَ في تعجُّبٍ من عنادِ فرعونَ، ومناسبةُ المجازِ: أنَّ التَّعجُّبَ فيه تردُّدٌ، كما أنَّ الشَّكَّ تردُّدٌ بين أمرَيْنِ"[2].

تِبيانُ تركيبِ ﴿مِّمَّآ﴾ في قوله: ﴿فِي شَكٍّ مِّمَّآ﴾:

الشَّكُّ في السّياقِ هو الشَّكُّ الواقعُ في أصلِ الرِّسالةِ وأوَّليّتِها

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ تركَّبَ حرف الجرِّ (مِن) مع الموصولِ (ما)، وهي دالَّةٌ على الابتداءِ، والمعنى: في شكٍّ ناشئٍ ممّا ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ من أوَّلِ الأمرِ، بأن تشكَّ فيه[3]. فيكونُ المرادُ بذلك الشَّكِّ في أوَّليَّةِ الرِّسالةِ وأصلِها.

إيثارُ الموصولِ (ما) في السّياقِ:

يحرم الشَّكُّ في بـعـض الـقـرآن بله كلّه

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾، آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ باسم الموصولِ (ما)، الدّالِّ على التَّعميم، تعميمًا لكلِّ ما أُنزل إليه فيدخلُ في حيّزِ الشَّكِّ "القرآنُ أو الشَّرعُ بجملتِه"[4]، فيدخلُ فيه ما ذُكر في السّياقِ من قَصَصِ بني إسرائيل، "أي: إن كنتَ في شكٍّ مِنَ القَصَصِ المنزَّلةِ إليك التي من جملتِها

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/205.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/106.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/122.
(4) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/363.

قصَّةُ فرعونَ وقومِه، وأخبارُ بني إسرائيل"[1]. فمَن شكَّ في شيءٍ من القرآن؛ كان كمن شكَّ في كلِّ شيءٍ فيه، فالشَّكُّ في جزءٍ كالشَّكِّ في الكلِّ.

وجهُ إضافةِ ﴿أَنزَلۡنَآ﴾ إلى ضميرِ التَّعظيمِ:

المنـزَلُ من اللهِ تعالى عظيمُ الشَّأنِ، باعتبار مصدر نزوله

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أسندَ النَّظمُ الجليل فعلَ الإنزالِ إلى ضميرِ التَّعظيمِ لاستحضارِ العظمةِ في ذلك التَّنزيلِ، أي: بما لنا من عظمةٍ[2]، وذلك تفخيمٌ لشأنِ المنزَلِ.

بيانُ تخصيصِ الإنزالِ بشِبْهِ الجملةِ: ﴿إِلَيۡكَ﴾:

مقصود الخطابِ الوحيُ الَّذي بلغَ النَّبيَّ ﷺ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ خصَّصَ بليغَ النَّظم الجليل بشِبْهِ الجملةِ ﴿إِلَيۡكَ﴾ للدَّلالةِ على الوصولِ، أي: جعلناه واصلًا إليك[3]، وذلك لِما في حرفِ الجرِّ (إلى) من الغاية، فهو ليس إنزالًا مطلقًا، بل إنزالٌ مع بيان الجهةِ التي بلغَها ذلك المُنزَلُ، وهو ما وقع فيه افتراضُ الشَّكِّ، فالشَّكُّ المرادُ هو الشَّكُّ في المُنزَلِ إليك، وليس الشَّكُّ في غيره، فهو شاكٌّ في شأنِ ما أُنزل إليه.

سرُّ التَّعبيرِ عن القرآن بـ ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾:

التَّعبيرُ عن القرآنِ بلفظِ النُّزولِ، مناسبٌ للشَّكِّ في أصل الرِّسالةِ

آثر النَّظمُ البليغ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أن يعبِّرَ عن القرآنِ بالجملةِ الفعليَّةِ ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، ولم يقلْ: (من القرآن، أو من الوحي)؛ تصريحًا بكونه منزلًا من الله تعالى، وهو الأنسبُ في سياق النَّهي عن الشَّكِّ، كما أنَّه يتضمَّنُ متعلَّقَ الشَّكِّ، وهو الشَّكُّ في شأنِ نزولِه من عدمِه؛ لأنَّ الوصول إلى نفي إنزالِه تحقيقٌ لبشريَّةِ مصدرِه.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/178.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/205.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/205.

معنى الفاء في لفظ: ﴿فَسۡـَٔلِ﴾ من السّياق:

التّوجيه بالسُّؤالِ كائنٌ بسببِ الشَّكِّ العارض في الافتراض

افتتح قولَه عزَّ ذكرُه: ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بالفاء الدّالَّةِ على السَّبب، أي: بسبب ذلك الشَّكِّ اسألْهم[1]، فما بعدها يكونُ بسبب ما قبلَها، فالسُّؤالُ كائنٌ بسبب الشَّكِّ.

دلالةُ إجابةِ الشَّرطِ بالأمرِ ﴿فَسۡـَٔلِ﴾:

الشَّكُّ يقتضي البحثَ عن الحقِّ، والسُّؤالُ يثيرُ الجواب لرفعه

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ﴾ .. ﴿فَسۡـَٔلِ﴾ وقع فعلُ الأمرِ في جوابِ الشَّرطِ، "وإنَّما تكون جملةُ: ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ جوابًا للشَّرط باعتبارِ ما تفيدُه مادَّةُ السُّؤال من كونِهم يجيبون بما يُزيل الشَّكَّ، فَبِذلك يلْتئِمُ التَّلازمُ بين الشَّرطِ والجوابِ"[2].

التَّعبيرُ عن المفعولِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

كلُّ مَن تحقَّقتْ فيه صلةُ الموصولِ، فهو جديرٌ بأن يُسأل

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾، عبَّر عن المسؤولِ بالاسم الموصول؛ لأنَّه أراد كلَّ مَن تحقَّقتْ فيه الصِّلةُ، فيكون شاملًا لَمَن آمنَ من أهل الكتابِ، ومَن لم يؤمنْ، وإن كان إرادةُ مَن لم يؤمنْ أبلغَ في بيان الحقِّ؛ لأنَّه يجيءُ من مُعاندٍ، والحقُّ ما شهدتْ به الأعداءُ، و"لأنَّ إخبارَهم بما يوافقُ ما أُنزل، المترتِّبِ على السُّؤالِ أجدى في المقصودِ"[3].

نكتةُ جعْلِ القراءةِ صلةً للموصول:

القراءةُ ملمح شرعيٌّ، أمر به النَّبيُّ مع أوَّل آية أنزلت

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾، جاءت صلةُ الموصول جملةً فعليَّةً، متضمِّنةً فعلَ القراءة، "وفي جعْلِ القراءةِ صلةَ الموصولِ إشارةٌ إلى أنَّ الجوابَ، لا يتوقَّف على أكثرِ منها"[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/205.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/285.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/178.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/178.

نكتةُ مجيءِ فعلِ القراءةِ مضارعًا ﴿يَقۡرَءُونَ﴾:

شرطُ اعتبارِ القراءةِ دوامُها، والانتفاع بها

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ عبَّر النَّظمُ الكريم عن القراءة بالفعلِ المضارعِ، أي: الذين يتابعون القراءةَ[1]، فيكونُ ذلك كالقيدِ بأنَّ الذين يُسألون يجبُ أن يكونوا من الَّذين يداومون على قراءةِ الكتابِ.

نكتةُ التَّعبيرِ عن بني إسرائيل بالفعل ﴿يَقۡرَءُونَ﴾:

الحقُّ مؤكَّدٌ معروفٌ لكلِّ مَن قرأ الكتاب، فلا يصحُّ الشَّكُّ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ عبَّر عن أهل الكتاب بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ولم يقلْ: (بني إسرائيل، أو أهلَ الكتاب) للدَّلالةِ على أنَّ "ذلك محقَّقٌ عندَهم ثابتٌ في كتبهم حسْبما ألقينا إليْك، والمرادُ إظهارُ نبوَّته ﷺ بشهادة الأحبارِ حسْبما هو المسطورُ في كتبِهم، وإنْ لمْ يكنْ إليه حاجةٌ أصلًا"[2]. وفيه تخصيصٌ للسُّؤال، فليس المرادُ سؤالَ كلِّ واحدٍ من أهل الكتابِ، ولا حصرَ السؤالِ بالأحبار، بل كلُّ قارئٍ قد قرأ الكتابَ يكونُ ممَّن يُسأل؛ لأنَّهم يعرفون الحقَّ بمجرَّدِ قراءةِ الكتابِ.

سرُّ تعريفِ (الكتابِ) في السّياق:

المقروءُ جنسُ الكتابِ المُنزَلِ، لا كتابٌ بعينِه

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾، جاء النَّظمُ الكريم بالكتاب معرَّفًا بالألفِ واللّامِ الدّالَّةِ على الجنسِ، فـ "المرادُ بالكتابِ جنسُه فيشملُ التَّوراةَ والإنجيلَ"[3].

معنى (مِنْ) في شبه الجملة: ﴿مِن قَبۡلِكَۚ﴾:

ابتداءُ القَبْليَّة لا مطلق القَبْلِ، وهُمْ أهلُ آخرِ كتابٍ قبلَك

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ أدخلَ (مِن) الجارَّةَ على الظَّرفِ (قبل) للدَّلالةِ على الابتداءِ الملاصقِ للقبليَّةِ، لا القبليَّةُ المطلقةُ، فيكونُ المرادُ الزَّمانَ الذي

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/205.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/178.

سبقَك، فابتدأتْ قراءتُهم في ذلك الزّمانِ، والمرادُ بهم أهلُ آخرِ كتابٍ قبلَ مجيئِك.

دلالةُ التَّقييدِ بالقبليَّةِ في السّياق:

انتهى اختصاصُهم بقراءةِ الكتابِ ببعثةِ نبيِّ الختام

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ قيَّدَ الذين يقرؤون الكتابَ بأنَّهم كائِنون قبلَ النَّبيِّ ﷺ إشارةً إلى أنَّ تخصيصَهم بقراءةِ الكتابِ قد انتهتْ بمجيءِ النَّبيِّ ﷺ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ هناك من يقرأ الكتابَ غيرهُم، وهو القرآنُ، كما أنَّ فيه احتراسًا من أن يكونَ المرادُ الّذين يقرؤون القرآنَ.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي لجملةِ ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ﴾:

بعدَ السُّؤالِ النّاشئِ عن الشَّكِّ، يأتي التَّأكيدُ القاطعُ

الجملةُ في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ استئنافيَّةٌ "استئنافًا بيانيًّا لجوابِ سؤالٍ ناشئٍ عن الشَّرط وجوابِه، كأنَّ السّامعَ يقولُ: فإذا سألتُهم ماذا يكونُ؟ فقيل: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾"[1].

سرُّ التَّوكيدِ بـ (اللّام)، و(قد) في السّياق:

دَفْعُ الإنكارِ بالتَّأكيدِ إثرَ إيرادِ القَصَصِ العجيب

جاءت الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ مؤكِّدةً باللّامِ و(قدْ) تقويةً للخبرِ وللجزم به[2]، كما أنَّ في تأكيدِ الجملةِ ردًّا على الإنكار؛ لأنَّ المقصودَ من الخطابِ الأمَّةُ وليس النَّبيُّ ﷺ فهو ليس بمحلِّ الحاجةِ للتَّأكيدِ والإعلامِ بأنَّه على الحقِّ، فلمّا أُريد الرَّدُّ على الإنكارِ المتسبَّبِ عن إيرادِ تلك القصصِ؛ قُرنتِ الجملةُ بحرفَي التَّأكيدِ[3]، وإنَّما وقع ذلك "لزيادةِ التَّثبيتِ والعصمةِ، هذا هو الوجهُ، وعليه النَّظمُ والتَّأليفُ؛ فإنَّه تعالى لمَّا قال لحبيبِه ﷺ تهييجًا وإلهابًا: فإن كُنت في شكٍّ أنَّ ما أنزلناه إليك حقٌّ، وأنَّك نبيٌّ مرسلٌ، فاسألْ أهلَ الكتابِ من الذين آمنوا،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/285.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/143.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/286.

فإنَّهم يشهدون بذلك، واللّه ﷻ بجلالتِه وعظمتِه أيضًا يشهدُ، ويؤكِّدُ الشَّهادةَ بالقسمِ"[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في جملةِ ﴿جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ﴾:

شـدَّةُ ظـهـورِ الحقِّ، كمجيءِ الشَّخصِ بمرأى العينِ، لا تشوبُه شبهةٌ

قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، وفيه استعار النَّظمُ الجليل المجيءَ للدَّلالة على الحصولِ والتَّحقُّقِ، فالمجيءُ مختصٌّ بالأجسام، فشبَّهَ الحقَّ بشخصٍ قد جاء، وحضر، وصار مشاهَدًا، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ به: وهو الشَّخصُ، وأبْقى قرينتَه: وهي المجيءُ، والجامعُ بينهما: الحصولُ والظُّهورُ والوضوحُ، والاستعارةُ تبعيَّةٌ؛ لكونها جاءتْ بالفعل، ومكنيَّةٌ لكونِ المشبَّهِ به محذوفًا[2]. فجعل الحقَّ كرجلٍ يأتي شاخصًا حاضرًا، والمرادُ شدَّةُ الحضورِ والتَّمكُّنِ من كونِه ظاهرًا بحيث لا تشوبُه شُبْهَةٌ.

وجهُ التَّعبيرِ بفعلِ المجيءِ ماضيًا:

تحقُّق المجيء، وثبتَ الحقِّ

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل الماضي للدَّلالةِ على تحقُّقِ المجيءِ المفضيِ إلى تثبيتِ الحقِّ "الَّذي لا محيدَ عنه، ولا ريبَ في حقِّيَّتِه"[3].

سرُّ تعديةِ الفعلِ جاء إلى ضميرِ المُخاطَبِ في ﴿جَآءَكَ﴾:

المبالغةُ بالمجيءِ بلا واسطةٍ

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾، استعمل الفعلَ (جاء) متعدّيًا بنفسِه بلا حرفِ جرٍّ؛ للمبالغةِ في وصولِ الحقِّ إليه، بحيث إنَّه باشرَه بلا واسطةٍ، كما أنَّه يدلُّ على شدَّةِ الالتصاقِ بين القادمِ والمستقبلِ له.

دلالةُ تعريفِ (الحقِّ) في السّياقِ:

الحقُّ الجامعُ لصفاتِ الثُّبوتِ والوضوحِ، الدّافعُ لكلِّ مواردِ الشَّكِّ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ عرَّف الحقَّ بالألفِ

---

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 7/566.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/563.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.

واللّام للدَّلالة على جنس الحقِّ، وذاتِه، أي: جاءك الحقُّ الثّابتُ "الواضحُ، الذي لا مَحيدَ عنه، ولا ريبَ في حقّيَّته"[1]، فجمعَ بالتَّعريف كلَّ صفاتِ الحقِّ، وهو المناسبُ في سياق التَّأكيدِ وقطعِ الشَّكِّ، ولا يناسبُ السّياقَ أن يأتيَ بالتَّنكيرِ، فلو قال: (جاءك حقٌّ)؛ لفاتَ كلُّ ذلك.

معنى (مِن) في قولِه: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾:

تشريفُ المُنزَلِ والمُنزَّلِ إليه، بإيرادِ جهةِ النُّزولِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أدخل النَّظمُ الجليل حرفَ الجرِّ (من) الدّالَّةِ على الابتداءِ تشريفًا لشأنِ المنزَّل، والمنزَّلِ إليه، فقد ابتدأ النُّزولُ من الرَّبِّ المحسنِ المُنعمِ على النّاس.

وجهُ التَّعبيرِ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ في قولِه: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾:

موردُ الحقِّ ممَّن سبقَ إحسانُه، فأنّى يكونُ في ذلك شكٌّ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الرُّبوبيَّةِ دون الاسم الجليل إيماءً إلى أنَّ موردَ الحقِّ من ربِّك المحسنِ إليك، تشريفًا وتفخيمًا لشأنه[2] وللإشعارِ بأنَّ مَن أحسنَ إليك سابقًا هو من أنزلَ إليك كتابَه مُريدًا بذلك اللُّطفَ بك والإحسانَ إليك، فأنّى يكونُ في ذلك شكٌّ؟

إضافةُ لفظِ (الربِّ) إلى ضميرِ المخاطَب:

إضافةُ الاسمِ الكريمِ إلى ضميرِ الخطابِ غايةُ التَّشريفِ والتَّكريم

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، وفيه أضاف النَّظمُ العزيز لفظَ الرَّبِّ إلى ضمير المخاطبِ العائدِ للنَّبيِّ ﷺ، تشريفًا له وترغيبًا فيه، أي: إنَّ ربَّك المحسنَ إليك هو مَنِ اصطفاكَ لذلك[3].

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾:

ثبوتُ الحقِّ يقطعُ أسبابَ الامتراءِ

افتتح النَّظمُ الكريم قولَه عزَّ ذكرُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ بالفاءِ الدّالَّةِ على السَّببيَّةِ، أي: "فإذا ثبتَ أنَّه الحقُّ، أي: الثّابتُ أعلى الثَّباتِ تسبَّبَ عنه البُعدُ من تَزَلْزُلِ مَن جاءَه"[4].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/179.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/206، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/206، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/206.

بلاغةُ التَّعريضِ في جملةِ النَّهي:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، جاء النَّهي للنَّبيِّ ﷺ عن الامتراءِ فيما أنزل اللّه عليه، بل المرادُ أن "تستمرَّ على ما أنتَ عليه من اليقينِ وانتفاءِ الشَّكِّ، ويمكنُ أن يكونَ هذا النَّهي له تعريضًا لغيره، كما في مواطنَ من الكتاب العزيز، وفي هذا التَّعريضِ من الزَّجرِ للممترين والمكذِّبين ما هو أبلغُ وأوقعُ من النَّهي لهم أنفسهم؛ لأنَّه إذا كان يُنهى عنه مَنْ لا يُتصوَّر صدورُه عنه؛ فكيف بمَن يمكنُ منه ذلك؟"[1]. فليس المرادُ الكفَّ عن الفعل؛ لأنَّه غيرُ مُتصوَّرٍ منه ﷺ، بل المرادُ الدَّوامُ على انتفاءِ ذلك، أو التَّعريضُ بغيرِه ﷺ.

النَّهيُ أمرٌ بالدَّوام على انتفاءِ إحداثِ الفعلِ، وتعريضٌ بالسّامعين

نكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ الكوْنِ مضارعًا ﴿تَكُونَنَّ﴾:

قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ دلَّ الفعلُ المضارع في النَّهيِ عن الكينونةِ من المُمترين، أنَّ النَّهيَ على وجه الدَّوام والاستمرارِ، أي: "اثبتْ ودُمْ على ما أنت فيه، من انتفاءِ المِرْيةِ والتَّكذيب"[2].

الدَّوامُ على النَّأيِ عن المُمْترين، نهيٌ من الله ربِّ العالمين

سرُّ توكيدِ الفعلِ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ بنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ:

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ جاء النَّهيُ بصيغة التَّأكيد، بإدخالِ نون التَّوكيدِ الثَّقيلةِ على المضارع؛ لأنَّ الحقَّ جديرٌ بألّا يَنْثَني عنه أحدٌ بوجه من الوجوه[3]، فتأكيدُ النَّهي؛ لأنَّ الحقَّ من الوضوحِ بمكانٍ لا ينبغي لأحدٍ أن يسلكَ سبيلَ الشُّبَهِ والشَّكِّ، وينتهي بأن يكونَ من المُمترين.

قوَّةُ الحقِّ تقضي بالنَّهي المؤكَّدِ عن العدولِ عنه

دلالة إيثار لفظِ الْمُمْترين ونوعُ (أل) فيه:

بعد ذكرِ الشَّكِّ في صدر الآيةِ على سبيل الافتراضِ جاء قولُه

الامتراءُ شكٌّ بعد يقينٍ، يُوصف به المترون

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/123 - 124.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/106.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/206.

جلَّ شأنُه: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ للنَّهي عن الامتراءِ بعد تأكيدِ الحقِّ، والامتراءُ أخصُّ من الشَّكِّ؛ لأنَّه الشَّكُّ فيما لا شُبْهَةَ للشَّكِّ فيه[1]، "الشَّكُّ بعد اليقينِ، فالنَّهيُ عن الامتراءِ هو للاستمرارِ على اليقينِ والإيمانِ، وألّا يتزلزلَ ذلك اليقينُ بفعلِ المشركين، وأن مُؤَدّى ذلك القولِ هو تأكيدُ الحقِّ وتثبيتُه لأتْباعِ محمدٍ ﷺ، ولتثبيتِ فؤادِ النَّبيِّ ﷺ وإيمانِه الرّاسخِ كالجبالِ أو أشدَّ، فكثرةُ الدّلائلِ تثبِّتُ اليقينَ"[2]. وتحتَملُ (أل) أن تكونَ عهديَّةً وجنسيَّةً، فيكونَ قد نهى أن يكونَ من جنس المُمْترين، أو من الفئةِ التي شُهِرَتْ بهذا الوصفِ.

وجهُ جمْعِ المُمترين في سياق الآية الكريمة:

التَّحلّي بوصفٍ ضمنَ جماعةٍ، شُهِرَتْ به أدلُّ على الاتِّصافِ به

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغةِ الجمعِ، ولم يَقُلْ: (ولا تكونَنَّ مُمْتريًا)؛ لأنَّ الانتماءَ إلى فئةٍ قد اشتهروا بالامتراءِ أبلغُ من أن يكونَ مُمْتَريًا على وجْهِ الإفرادِ، وذلك للدَّلالةِ على أنَّه قد بلغَ من الوصفِ أن يستأهلَ به أن يكونَ من تلك الفئةِ المُتَمالِئَةِ على الامتراءِ.

التَّعبيرُ عن الامتراءِ باسم الفاعل:

النَّهي عن الامتراء باعتباره صفةً راسخةَ الدَّوامِ والثُّبوتِ

قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، جاء التَّعبيرُ عن الامتراءِ المنهيِّ عنه باسم الفاعلِ للدَّلالةِ على أنَّ المنهيَّ أن يكونَ الامتراءُ قد تحوَّلَ إلى صفةٍ راسخةٍ في المرءِ، فليس المنهيُّ عنه طروءَ حدثِ المِراءِ مرَّةً أو مرَّتَيْن، بل أن يكونَ هذا الفعلُ صفةً راسخةً، يزاولُها على وجْه الدَّوامِ والثُّبوتِ.

حذْفُ مُتعلَّقِ الامتراءِ:

لمّا عُلِمَ المرادُ؛ أوجزَ بالإحالةِ على السّياقِ

جاء الامتراءُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/286.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3633.

مطلقًا بلا قيدٍ، فحَذفَ متعلَّقَه اتِّكاءً على ظهورِ المعنى من السّياقِ، وهو مفهومٌ من قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، والمعنى: لا تكنْ من المُمْترين "بالتّزلْزُلِ عمّا أنت عليْه من الجزمِ واليقينِ، ودُمْ على ذلك كما كنتَ من قبلُ"[1].

بيانُ التَّعريضِ في جملةِ الفاصلةِ في السّياق:

النَّهيُ عن الامتراءِ، ومآلُهُ النَّهيُ عن الكَون مع المشركين

جاءت الجملةُ في الفاصلةِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾، للتَّعريضِ بالمشركين، "بأنَّهم بحيث يُحْذَرُ الكَونُ منهم"[2]، فالمنهيُّ أن يكون من المشركين الذين امتَهنوا المِراءَ وحَذِقوه، "وهذا النَّهيُ والَّذي بعدَه يدلّان على أنَّ فرضَ وقوع الشَّكِّ، والسُّؤالَ فيما قبلَهما عنه، تعريضٌ بالشّاكّين المُمْترين والمكذّبين له ﷺ من قومه"[3].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الشَّكُّ، والرَّيب، والامتِراء:

الامتِراءُ شكٌّ بعد يقينٍ، والرَّيبُ شكٌّ مع تهمةٍ

"الامتراءُ أخصُّ من الشَّكِّ؛ لأنَّ الشَّكَّ هو التَّردُّدُ في أمرٍ دليلُه قابلٌ للظُّهور والخَفاءِ، والامتراءُ هو التَّردُّدُ في أمرٍ دليلُه ظاهرٌ قويٌّ لا يخْفى على أحدٍ، ويؤيِّدُ ذلك قولُه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾"[4]. والشَّكُّ هو الوقوفُ بين النَّقيضيْن، والامتراءُ: طلبُ التَّشكُّكِ مع ظهورِ الدَّليلِ[5]، لذا فهو كائنٌ بعد اليقين[6]، فهو مذمومٌ شرعًا. أمّا الرَّيبُ؛ فهو أخصُّ من الشَّكِّ؛ لأنَّه شكٌّ مع تهمةٍ، أو هو مجرَّدُ التَّوهُّم، فالرَّيبُ هو "أن تتوهَّمَ بالشَّيءِ أمرًا ما، فينكشفُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/286.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/392.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/351.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/207.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3633.

عمّا تتوهَّمُه"[1]. فعبَّرَ في ختام الآيةِ بالامتِراء في سياق النَّهيِ؛ لأنَّه كائنٌ بعد اليقين، فلا بدَّ أن ينبِّهَ المؤمنين، وأنْ ينهاهُم عن ذلك، وقد بدأت الآيةُ بالشَّكِّ، وانتهتْ بالامتِراء؛ فالشَّكُّ جاء على سبيلِ الافتراضِ؛ لأنَّه أمرٌ محتملُ الوقوعِ، ولا يقدَحُ في إيمان المرءِ، أمّا الامتِراءُ؛ فجاء منهيًّا عنه؛ لأنَّه لا يكونُ إلّا بعد اليقينِ، والتَّردُّدُ فيه كائنٌ مع وجودِ دليلٍ ظاهرٍ حاسمٍ، فالامتِراءُ حالةٌ منكَرةٌ منهيٌّ عنها، بخلافِ الشَّكِّ.

(1) الرّاغب، المفردات: (شكك)

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٥﴾ [يونس: 95]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تحرّي الحقّ يستدعي النّهي عن الامتراء، وعن التّكذيب الآيل للخسران

لمّا نهى النَّظْمُ الجليل عن الامتراءِ، ولم "يبقَ ممّا اقتضتْهُ القسمةُ العقليَّة إلّا العنادُ ممَّن يَمَكُنُ منه، كما فعلَ بنو إسرائيلَ بعد مجيءِ العلم، أتْبَعَهُ النَّهيَ عن مثل حالِهم بقولِه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾"[1].

المَعنى الإجْماليُّ:

الدّعوةُ إلى تجنُّبِ التّكذيبِ بالحقيقةِ

يقول الحقُّ تعالى مخاطِبًا النَّبيَّ ﷺ، والمرادُ سواه: ولا تكونَنَّ - يا محمد ﷺ - من المكذِّبينَ بآياتِ القُرآنِ وحُجَجِه في الأكوانِ - ممّا يدلُّ على وحدانيَّتِه وقدرتِه على إرسالِ الرُّسلِ لهدايةِ البشرِ - فتكونَ من الخاسرينَ أنفُسَهم بدخولِ النّارِ، المُضَيِّعينَ سعادةَ الدُّنيا والآخرةِ، فاثبُتْ على ما أنت عليه من التَّصديقِ بالقُرآنِ.

ولهذا النَّوعِ من الخطابِ فائدةٌ لا تَتَأتّى بمخاطَبةِ النّاسِ مباشرةً، فهو يُفيد شدَّةَ التَّخويفِ؛ لأنَّه إذا كان رسولُ اللّه ﷺ يُحذَّرُ من مِثْلِ هذا؛ فغيرُه من النّاسِ أولَى أن يُحذَّر، ويُتَّقى على نفسِه[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ وصلِ الآيةِ بما قبلَها في السّياق:

النّهيُ متّجهٌ إلى الامتراءِ والتّكذيبِ، تعريضًا بذلك

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ معطوفٌ على قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾، فالنّهيُ متّجهٌ لكلا الفعلَيْن الامتراءِ والتّكذيبِ، وذلك ليكونَ التَّعريضُ مشترَكًا بينَهما[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/206.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/289، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/143، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/392، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 374، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/155.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/286.

بلاغةُ التَّعريضِ في جملةِ النَّهي ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾:

تقريرٌ لصدقِ القرآنِ في خطابِه

والنَّهيُ في هذه الآيةِ والآيةِ الَّتي قبلَها ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾، يدلّان على أنَّ فرضَ وقوعِ الشَّكِّ، والسُّؤالَ فيما قبلَهما عنه، تعريضٌ بالشّاكّين المُمترين والمكذِّبين له ﷺ من قومِه[1].

سرُّ تقديمِ النَّهيِ عن الامتراءِ على النَّهيِ عن الكذبِ:

التَّكذيبُ أخطرُ شأنًا، فأخَّره للتَّدرُّجِ

قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ﴾، بدأ بالنَّهيِ عن الامتراءِ وأتْبعَه بالنَّهيِ عن الكذبِ؛ لأنَّ الامتراءَ "أمرُه أسهلُ من أمرِ المكذِّبِ، فبَدَأَ به أوَّلًا، فنَهى عنه، وأتْبعَ بذكرِ المكذِّبِ، ونهى أن يكونَ منهم"[2]، فأخَّر ذكرَ الأخطرِ شأنًا للتَّدرُّجِ من الأدْنى إلى الأعْلى.

توجيهُ تكرارِ النَّهيِ بلفظِ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾:

مع كلِّ فعلٍ قبيحٍ، يُعادُ النَّهيُ الصَّريحُ

في قولِه عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تكرَّرَ النَّهيُ بعد أن تقدَّمَ النَّهيُ عن الامتراءِ في ختامِ الآيةِ التي قبلَ هذه الآيةِ، "والمرادُ بذلك إعلامُ أنَّ الامتراءَ والتَّكذيبَ قد بلغا في القُبحِ والمحذوريَّةِ إلى حيثُ ينْبغي أنْ يُنهى عنهما مَنْ لا يُمكنُ أنْ يتَّصفَ بهما، فكيف بمَنْ يُمكنُ اتِّصافُه، وفيه قطْعٌ لأطماعِ الكَفَرَةِ"[3].

وجهُ نهيِ النَّبيِّ ﷺ عن التَّكذيبِ:

تقبيحُ التَّكذيبِ بحيثُ يَنْهى مَن لا يُتصوَّرُ التَّكذيبُ منه

قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ جاء الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ بالنَّهيِ عن التَّكذيبِ، فالتَّكذيبُ ممّا لا يصدُر عنه ﷺ؛ وهو غيرُ متصوَّرٍ عقلًا منه، ولا محقَّقٍ وجودًا، وإنَّما المُرادُ أمَّتُه وأتباعُه[4]، وهو "مِن بابِ التَّهييج

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/392.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/106، حقّي، روح البيان: 4/80.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/179.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/206.

والإلهابِ، والمرادُ به إعلامُ أنَّ التَّكذيبَ من القُبحِ والمحذوريَّةِ، بحيث ينْبغي أن يُنهى عنه مَن لا يُتصوَّرُ إمكانُ صدورِه عنه، فكيف بمَن يمكنُ اتِّصافُه به"[1]. والمرادُ من النَّهيِ التَّعريضُ بالشّاكّين المُمْترين والمكذِّبين له ﷺ من قومِه[2].

سرُّ العُدولِ من الصِّفةِ إلى الموصول:

إظهار علَّة ضلالهم، وأنَّ الكذبَ فعلٌ معهودٌ منهم

عَدَلَ من (فلا تكوننَّ من المكذِّبين)، إلى ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾؛ وذلك "لبيانِ أنَّ صلةَ الموصولِ سببٌ لانْغمارِهم في الضَّلالة؛ إذِ الآياتُ الكونيَّةُ واضحةٌ، وآياتُه القرآنيَّةُ تحدّى بها الرَّبُّ أنْ يأْتوا بمثلِها، فعجَزوا"[3]. وعبَّرَ بالموصولِ (الّذين) للدَّلالةِ على قومٍ معهودٍ منهم الكذبُ، والنَّهيُ عن الكونِ من فئةٍ مخالطةٍ حاضِرةٍ أبلغُ من النَّهيِ عن الكونِ، في صفةٍ لجنسِ (المكذِّبين) الَّتي تدلُّ على العموم.

نكتةُ التَّعبيرِ عن فعلِ الكذبِ ماضيًا مشدَّدًا ﴿كَذَّبُواْ﴾:

من كذب وتحرّى الكذبَ؛ كُتبَ في ديوانِ الكذّابين

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، جاء فعلُ التَّكذيب بصيغةِ التَّفعيلِ دلالةً على أنَّ المرادَ بهم أولئك الَّذين اعتادوا الكذبَ، وبالغوا فيه، وكرَّروه، وأكثروا منه حتّى امتهنوه، وصار لهم سجيَّةً.

سرُّ جمعِ الآياتِ في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

آياتُ الله تعالى مبثوثةٌ في الكونِ، ومنزَّلةٌ في الوحي

في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جاء النَّظمُ الجليل بلفظِ الآياتِ بصيغةِ الجمع؛ لأنَّها آياتٌ كثيرةٌ، فـ "آياتُ اللّه سبحانه كما نعرفُها متعدِّدةٌ؛ إمّا آياتٌ كونيَّة، وهي الأصلُ في المعتَقدِ الأوَّلِ بأنَّ خالقَها هو الخالقُ الأعلى سبحانَه، وتُلْفِتُ هذه الآياتُ إلى بديعِ صُنْعِه سبحانَه، ودقَّةِ تكوينِ خلقِه، وشمولِ قدرتِه، وكذلك يُقصدُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/392.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3634.

بالآياتِ؛ المعجزاتُ المُنزَلةُ على الرُّسُل ﵈ ؛ لتُظهِر صدقَ كلِّ رسولٍ في البلاغِ عن اللّه تعالى"[1].

وجهُ إضافةِ الآياتِ إلى الله سبْحانَه:

عظُمَتِ الآياتُ بنسْبَتِها لله تعالى، وعظُم كفرُهم بصدِّهم عنها

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أضاف النَّظمُ الكريم لفظَ الآياتِ إلى الاسم الجليلِ للدَّلالةِ على عظمتِها، أي: "الَّتي لا أعظمَ منها بإضافتها إلى مَن لا أعظمَ منه"[2]، فاكتسبَ المضافُ من المضافِ إليه التَّعظيمَ؛ تنويهًا بأنَّها كانت جديرةً بأنْ تؤثِّرَ فيهم فقهًا وعظةً، ولكنَّهم قد سبقَت عليهم كلمتُه، فأعْماهم، وأصمَّ أبصارَهم.

معنى الفاءِ في: ﴿فَتَكُونَ﴾ من السّياق:

يتعلَّقُ التَّكذيبُ بالخسرانِ، تعلُّقَ السَّببِ بالمسبَّبِ

افتتحَ التَّحذيرَ في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ بالفاءِ الدالَّةِ على السَّببيَّةِ لبيانِ أنَّ ما بعد الفاءِ مسبَّبٌ عمّا قبلَها، فقد ترتَّبَ الخسرانُ على تكذيبِ الآياتِ، أي: "إنَّهُ يترتَّبُ على تكذيبِ آياتِ اللّه أن تكونَ في صفوفِ الخاسرين الَّذين خسِروا الإيمانَ، وهذا أساسُ الخسْرانِ، فخسِروا الإيمانَ باليوم الآخرِ، وما فيه مِن جزاءٍ بعدَ الحِساب، وخسِروا، فزعموا أنَّ الحياةَ الدُّنيا وحدَها هي الحياةُ، وهذا هو الخسْرانُ المبينُ"[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بفعل الكونِ مضارِعًا:

من معالمِ الخسْرانِ الدَّيمومةُ فيه

آثر النَّظمُ الكريم في قولِه عزَّ ذكرُه: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ التَّعبيرَ بالفعل المضارِعِ للدَّلالةِ على دوام الكينونةِ في الخسْرانِ، وذلك إيماءٌ إلى كونِه راسخًا في الخسْرانِ[4].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6201.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/206.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3634.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/206.

دلالةُ صيغةِ اسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

ليس بعدَ نَيلِ الخسرانِ من تغييرٍ، لهذا الوصف الدّائم الخطير

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، عبَّر النَّظمُ الجليل عن الخسران باسمِ الفاعلِ للدَّلالةِ على أنَّ الجزاءَ بالخسرانِ، سيكونُ على جهةِ الثَّباتِ، والرُّسوخِ في الصِّفة؛ فَصِفَةُ الخسرانِ لن تتغيَّرَ، ولن تزولَ، وفي ذلك مبالغةٌ في الرَّدعِ عن التَّكذيبِ بآياتِ اللّه تعالى.

سرُّ جمعِ لفظ (الخاسرين) ودلالة تعريفِها:

الخاسرُ محشورٌ في زُمرةِ الخاسرين

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ عبَّر النَّظمُ الجليل عن الخسران بصيغةِ الجمعِ للدَّلالةِ على كونِه إذا سلَك في مدرَج التَّكذيبِ؛ فإنَّه لن يكونَ خاسرًا فحسبُ، بل سيكونَ من زُمرةِ الخاسرين محشورًا معهم، وهذا أبلغُ في بيانِ الخُسْرانِ ممّا لو قال: (فتكون خاسرًا)؛ إذ إنَّ الانضمامَ إلى فئةٍ مشهورةٍ بصفةٍ ما يدلُّ على المبالغةِ في تلك الصِّفةِ.

نكتةُ حذفِ متعلَّقِ (الخسران):

من خسِر اللهَ؛ فقد خسِر كلَّ شيءٍ في دنياه وأخراه

جاء التَّعبيرُ عن الخاسرين في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ بالإطلاقِ، فلم يبيِّنْ أيَّ شيءٍ خسِروا، فجعله عامًّا؛ ليدلَّ على أنَّهم خسِروا كلَّ ما يتعلَّقُ به الخسْرانُ، فهم "﴿مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أنفسًا وأعمالًا"[1].

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظ (الخاسرين) دونَ (الكافرين):

التَّرهيبُ بالخسْران، أبلغُ من التَّحذيرِ من الفعلِ ذاتِه

في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ جاء التَّعبيرُ بالخسران دونَ الكفرِ؛ لأنَّه "أظهرُ في التَّحذيرِ من التَّعبيرِ بالكافرين"[2]؛ لأنَّ الخسْرانَ يتضمَّنُ مآلَ الكفرِ، فهو أبلغُ وأوجزُ، والتَّحذيرُ من الخسْران أبلغُ من التَّحذيرِ بالكيْنونةِ من الكفرِ؛ لأنَّ بيانَ السَّببِ الدّافعِ لترك الكفرِ أبلغُ من التَّحذيرِ عن الكفرِ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/179.

بلاغةُ التَّعريضِ في جملةِ الفاصلةِ:

قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، جاء عَقِبَ النَّهي عن التَّكذيبِ للتَّعريضِ بالمُمتَرين والشّاكّين، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يُتصوَّرُ منه ذلك، "لا سيَّما بعد تعقيبِه بقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ وفي هذا التَّعريضِ من الزَّجرِ للمُمتَرين والمكذِّبين ما هو أبلغُ وأوقعُ من النَّهي لهم أنفسِهم؛ لأنَّه إذا كان يُنهى عنه مَن لا يُتصوَّر صدورُه عنه، فكيف بمَن يُمكنُ منه ذلك؟"[1].

نـهـيُ مَــن لا يُـتـصـوَّر صـدورُ التَّكذيب عنْه، زجْـرٌ لـمن يُمكنُ منه ذلك

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/123 - 124.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦﴾ [يونس: 96]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا بيَّن جزاءَ المشركين؛ أَرْدَفَهُ بالعلَّةِ المانعةِ بالأصلِ

لمّا عرَّضَ إلى المشركين بأنَّهم أهلُ شكٍّ، وأنَّ عاقبَةَ ذلك الخسرانُ المبينُ، "أعقبَ ذلك بأنَّهم من زمرَةِ الفِرَقِ الذين حقَّتْ عليهم كلمةُ اللّه ألّا يؤمنوا، فَهُمْ لا تُجدي فيهم الحُجَّةُ؛ لأنَّهم أهلُ مكابرةٍ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَقَّتۡ﴾: أصلُ (حقَّ): يدلُّ على إحكام الشَّيءِ وصِحَّتِه[2]، يُقال: حَقَّ الشَّيءُ، يحِقُّ، حَقًّا؛ إذا ثَبَتَ ولَزِمَ[3]. ويأتي الحَقُّ بمعنى الصَّحيح، وضِدُّهُ: الباطِلُ[4]. والحَقيقَةُ: الشَّيْءُ الصَّحيحُ يَقينًا[5]. وتَحَقَّقَ الأَمْرُ؛ إذا صَحَّ. والمرادُ بـ ﴿حَقَّتۡ﴾ في الآية: ثَبَتَتْ[6].

2) ﴿كَلِمَتُ﴾: أَصْلُ الكَلامِ: النُّطْقُ المَفْهومُ، يُقالُ: كَلَّمَ يُكَلِّمُ تَكْليمًا وكلامًا، أيْ: نَطَقَ نُطْقًا مَفْهومًا، وقيلَ: أَصْلُ الكلام مِنَ الكَلْمِ: وهوَ الجُرْحُ والشَّقُّ؛ لِأَنَّهُ يَشُقُّ الأَسْماعَ بِوُصولِهِ إِلَيْها[7]، وقيلَ: لِأَنَّهُ يَشُقُّ المَعاني، والكَلِمَةُ القَضيَّةُ، فكلُّ قضيَّة تُسمَّى: كلمةً، سواء كان ذلك مَقالًا أو فعالًا[8]، والمُتَكَلِّمُ: النَّاطِقُ، والكَلِمُ أيْضًا: القَوْلُ واللَّفْظُ، وقيلَ: الكَلِمُ لا يَقِلُّ عَنْ ثلاث كَلِماتٍ، والكلامُ يَشْمَلُ القَليلَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/286، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/207، والنيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/613.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حق).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة: (حق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حق).
(5) إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط: (حق).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/287.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كلم).
(8) الرّاغب، المفردات: (كلم).

والكَثيرَ، والمرادُ بقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ في الآية: قضاؤه وحكمُه الَّذي أوجبَه، وأوقعَه عليهم[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخاطِبُ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ قائلًا له: إنَّ الَّذين وجبَت عليهم كَلِمةُ رَبِّك - يا محمد ﷺ - بأنَّهم يصيرونَ إلى ما قدَّرَه اللّه لهم مِن الاستمرارِ على الكُفرِ والموتِ عليه؛ لا يُؤمِنونَ إيمانًا ينفعُهم قبل مَوتِهم؛ لرسوخِهم في الكفرِ والطُّغيانِ، وإحاطةِ خطاياهم بهم، وإعراضِهم عن آياتِ اللّه الَّتي خلقها في الأكوانِ، بما يُرشدُ إلى وحدانيَّته وكمالِ قُدرتِه[2].

مَن لم يأخذْ بأسبابِ الهدى، ولم يتبصَّر بالنّور؛ فلن يهتدي، ولن يستنير

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآيةِ:

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ مستأنفةٌ، فهي "شروعٌ في بيان سرِّ إصرارِ الكفرةِ على ما همْ عليه من الكفرِ والضَّلالِ، أي: ثبتَتْ ووجَبتْ بمقتضى المشيئةِ المَبْنيَّةِ على الحكمةِ البالغةِ"[3].

الحكمُ بالاستحقاقِ يكون على وفْقِ القدرةِ والاستعدادِ

توجيهُ الافتتاحِ بالتَّوكيدِ بـ (إنَّ):

افتتح النَّظمُ الجليل قولَه جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بـ (إنَّ) الدالَّةِ على التَّأكيدِ للدَّلالة على "التَّحقيقِ، أي: لا شكَّ أنَّ هؤلاء مِن أولئك، فقدِ اتَّضحَ أمرُهم واليأسُ من إيمانِهم"[4]، فإنَّ اللّه تعالى بعلمِه الغيبَ ساقَ الخبرَ على وجهِ التَّأكيدِ، فيؤكِّدُ "سبحانَه أنَّ الَّذين ثبتَتْ عليهم كلمةُ اللّه تعالى

عِلْمُ اللهِ الغيبَ مؤكَّدٌ قاطعٌ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1083.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/290، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/296، والشوكانيّ، فتح القدير: 2/538، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 374، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/155.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/287.

أنَّهم في سجلِّ الكافرين، لا يؤمنون، ولو جاءتْهم كلُّ آيةٍ، ولو كانتْ ممّا يطلبون، أي: لو تضافَرتِ الآياتُ معجزاتٍ كلُّها، وجاءتْ مجتمعةً لا يؤمنون، وأقربُ القولِ أنْ يقولوا: سُحِرَتْ أعْيُنُنا، فالجحودُ ملازمٌ لهم، لا يُزايلُهم أبدًا"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

ثُبوتُ انتفاءِ إيمانِهم، استحقاقٌ لإظهارِ تكذيبِهم

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ عبَّر عن المذكورين باسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ للدَّلالةِ على معهودينَ[2]، والعهدُ ذِكريٌّ؛ فقد تقدَّمَ ذكرهُم في قولِه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، فالَّذينَ حقَّتْ عليهم الكلمةُ هم الذين كذَّبوا بآياتِ اللّه تعالى، فكانوا من الخاسرين.

إيثارُ لفظِ ﴿حَقَّتۡ﴾ دون (ثَبتتْ):

استحقّوا الإبعادَ لاستكبارِهم عن بليغِ الآياتِ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، عبَّر عن ثباتِ الكلمةِ عليهم بالفعلِ (حقّ) ولم يقلِ: (الّذينَ ثبتتْ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ ثباتَ ذلك عليهم كان استحقاقًا، وليس إجبارًا وقهرًا، ولا ظلمًا وقسرًا.

التَّعبيرُ بالفعلِ ﴿حَقَّتۡ﴾ ماضيًا:

انتفاءُ إيمانِهم مقطوعٌ به، لا رجعةَ عنه

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وفيه عبَّر بالفعل الماضي الدّالِّ على تحقُّق الفعلِ، وتأكيدِ حدوثِه تعبيرًا عن وقوعِ كفرِهم، وثباتِه فيهم.

بلاغةُ الاستعلاءِ المجازيِّ في: ﴿حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾:

تمكُّنُ الاستحقاقِ منهم يُفْصِحُ عن شدَّةِ عتوِّهم

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، عبَّر بليغُ النَّظمِ الجليلِ بحرفِ الاستعلاءِ (على)، مستعملًا إيّاه "للاستعلاء المجازيِّ، وهو تمكُّنُ الفعلِ الذي تعلَّقتْ به"[3]، فثبوتُ الكلمةِ بحيث إنَّه مسلَّطٌ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3634 - 3635.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/287.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/287.

عليهم لا يزولُ، فالاستحقاقُ راسخٌ ومقطوعٌ به عليهم، وهذا يُفْصِحُ عن شدَّة عتوِّهم وتمسُّكِهم بما همْ عليه من الضَّلالِ.

سرُّ تعريفِ الكلمةِ بالإضافةِ:

إضافةُ الكلمةِ يشيرُ إلى انتفاءِ التَّبديلِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أضاف النَّظمُ المعجزُ لفظَ الكلمةِ إلى اللّه تعالى دلالةً على إنجازِ ذلك الاستحقاقِ وثباتِه؛ لأنَّ كلمةَ اللّه تعالى لا يشوبُها التَّغييرُ مصداقًا لقولِه تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [ق: 29].

إيثارُ لفظِ الرُّبوبيَّة في: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾:

عذابُ الكافرين إحـسانٌ إلـهيٌّ للمؤمنين

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أضاف النَّظمُ الكلمةَ إلى لفظِ الرُّبوبيَّةِ "المفهِم للإحسانِ؛ إعلامًا بأنَّه ما أوجبَ عليهم العذابَ إلّا إحسانًا إليه بما يُقاسي من معالجتِهم، وغيرَ ذلك من الحكمةِ"(1).

نسبةُ لفظِ الرَّبِّ إلى ضميرِ المخاطَبِ:

التَّذكيرُ بسابقِ الإحسانِ، تأكيدٌ بدوامِ الاهتمامِ

قوله عزَّ ذكرُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أضاف لفظَ الرُّبوبيَّةِ إلى الضَّميرِ العائدِ على النَّبيِّ ﷺ؛ إشارةً إلى أنَّ ذلك الجزاءَ الذي كتبَه لهم لم يكنْ إلّا إحسانًا إليك؛ لِما تُقاسي من عُتوِّهم، أي: إنَّ ذلك من الذي سبقَ إليك منه الإحسانُ(2)، فلفظُ الرُّبوبيَّةِ أنسبُ للسّياقِ المتضمّنِ إشاراتِ الإحسانِ.

دلالةُ تركيبِ: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾:

كـلامُ اللـهِ وإخـبارُه بسوءِ مـآلِـهـم، وما يصيرون إليه

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ يدلُّ التَّركيبُ: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ على استحقاقِهم النّارَ، والكلمةُ هي حكمُه وقضاؤه بأنَّهم يموتون على الكفرِ، ويُخَلَّدون في النّار كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، فالمرادُ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/207.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/207.

منها كَلِمُ اللّه بذلك، وإخبارُه عنه[1]. وفي هذا التَّركيبِ تحذيرٌ "وإعلامٌ بسوءِ حالِ هؤلاء المحتومِ عليهم، والمعنى: أنَّ اللّه أوجبَ لهم سخطَه في الأزلِ، وخلقَهم لعذابه، فلا يؤمنون، ولو جاءَهم كلُّ بيانٍ، وكلُّ وضوحٍ إلّا في الوقتِ الذي لا ينفعُهم فيه إيمانٌ، كما صنع فرعونُ وأشباهُه من الخلقِ، وذلك وقتَ المعاينةِ"[2].

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾:

كلمتُه تعالى حكمةٌ، وإرادتُه كنايةٌ عن القضاء الأزليِّ بالشَّقاوةِ

يدلُّ قولُه: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ على أنَّ "عدمَ إيمان هذا الفريقِ إلى حينِ وقوعِ اليأسِ وموتِهم على الكفرِ مكتوبٌ عند اللّه، وثبت عليهم قولُه في الأزلِ بما يجري عليهم، لكنَّها كتابةُ معلومٍ لا كتابةُ مقدَّرٍ ومرادٍ"[3]، فالعبارةُ كنايةٌ عن القضاءِ والحكمِ الأزليِّ بالشَّقاوةِ.

دلالةُ نفيِ الفعلِ المضارعِ في: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

انتفاءُ قبولِهم لتجديدِ الإيمانِ، لا إظهارِ الإيمانِ وادِّعائِه

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن انتفاء إيمانِهم بإدخالِ لا النّافيةِ على الفعل المضارعِ للدَّلالةِ على انتفاء قَبولِهم تجدُّدَ الإيمانِ[4]، فهم قد يؤمنون، ولكن ليس إيمانًا دائمًا، فهم لا يؤمنون "إيمانًا نافعًا واقعًا في أوانِه، فيندرجُ فيهم المؤمنون عند معاينةِ العذابِ مثلَ فرعونَ"[5].

ويدلُّ المضارعُ على استمرارِهم بالكفر، وأنَّ "الإيمانَ ليس من شأنِهم، وأنَّهم لا يُذعنون، وليس من طبعِهم أنْ يؤمنوا بشيءٍ، بل الجحودُ شأنُهم"[6].

---

(1) حقّي، روح البيان: 4/81، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/107.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/143.

(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/613، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/179.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/207.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/176.

(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3634 - 3635.

سرُّ حذفِ متعلَّقِ الإيمان في ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

في قولِه عزَّ ذكرُه: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ نفى متعلَّقَ الإيمان؛ ليعمَّ نفيُ إيمانِهم، واستغراقه لكلِّ متعلَّق من الإيمانِ باللّه، ورسلِه، وآياتِه المنزَّلةِ عليهم، وغيرِ ذلك، وذلكم أدْعى للذَّمِّ، وأقوى في التَّعبيرِ عن الإنكارِ والجحودِ.

نفيُ مطلقِ إيمانِهم، بأيِّ لون من ألوان الإيمان

﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾ [يونس: 97]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إنَّ اللهَ تعالى لمّا أخبرَ بسَبْقِ الكلمةِ عليهم، وأنَّهم لا يؤمنون، أتْبَعَ ذلك بتأكيدِ ثباتِ كلمته، وأنَّ كفرَهم ليس لقصور الآياتِ وقلَّتِها، بل لرسوخِهم بالكفر وتشبُّثِهم به.

لمّا نفى إيمانَهم؛ بيَّنَ أنَّ ذلك ليس لعدمِ الآياتِ، بل لانتفاءِ الاستعدادِ

المَعْنى الإجْماليّ:

يُخبر الله تعالى النَّبيَّ ﷺ قائلًا له: ولو جاءتْهم كلُّ آيةٍ من الآياتِ الكونيَّةِ المُعجزة الخارقة، والآياتِ الشَّرعيَّةِ المُنزَّلةِ كالقُرآن، فإنَّهم لا يُؤمِنون حتَّى يُعاينوا العَذابَ الأليمَ بأعيُنهم، ويذوقوه حين يَنْزِلُ بهم، فيكونُ إيمانُهم اضطرارًا لا اختيارًا منهم، فلا يترتَّبُ عليه عملٌ منهم يُطهِّرُهم، ويُزكّيهم، ويُقال لهم إذْ ذاك: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ [يونس: 51][1].

المتكبِّرون لا يؤمنون، بأيِّ آيةٍ تدلُّ على الحقِّ وتثبُّته

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصل بالعطف في السّياق:

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، فلمّا نفى على وجهِ الاستمرارِ أنَّهم لا يؤمنون عطفَ عليه نفيَ إيمانِهم مع توفُّر الآياتِ؛ بيانًا لغلوِّهم في الكفر وارتكاسِهم به.

من جاءته الآيات، ولم يؤمن، فهو منتكس مرتكس

دلالةُ (لو) في بيان المبالغة في وصف التعنُّت:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾، لمّا نفى عنهم الإيمانَ بكلِّ وجهٍ؛ أتْبع ذلك بتأكيدِ النَّفيِ بـ (لو)، فهي هنا "وصليَّةٌ

تيئيس من إيمانهم ولو جاءتهم كلُّ الآيات

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/290، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/383، رشيد رضا، تفسير المنار: 11/393.

للمبالغةِ، أي: لا يؤمنون، ولو جاءتْهم كلُّ آية، فكيف إذا لم تجِئْهم إلّا بعضُ الآيات؟"[1].

وجهُ إضافةِ المجيءِ إليْهم:

لن يُظْهِروا الإيمانَ، ولو كانت الآياتُ قاصدةً لهم

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ جعل المجيءَ واقعًا عليهم، وأوصلَ الفعلَ بضميرِهم إشارةً إلى تخصيصِ المجيءِ إليهم، وفيه بيانُ قوَّةِ الحُجَّةِ، وأنَّها قد بلغَتْهم، وأنَّهم اختصّوا بها، وهذه تومِئُ إلى أنَّ الحُجَّةَ قد قامت عليهم من حيثُ الاحتجاجُ والتَّبليغُ.

نكتةُ تأنيثِ فعلِ (كلّ) في السّياق:

ممّا يكتسبُ المضافُ من المضافِ إليه التَّأنيث

في قولِه عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ جاء الفعلُ ﴿جَآءَتۡهُمۡ﴾ بصيغة التَّأنيثِ وهو مسنَدٌ إلى ﴿كُلُّ﴾؛ لأنَّه مضافٌ إلى ﴿ءَايَةٍ﴾ المؤنَّثة، فاكتسب منها التَّأنيثَ[2].

توجيهُ عموميَّةِ (كلّ آية) في السّياق:

مَن لم تكفِه أمارةٌ ليؤمنَ، لن تكفيَهُ الآياتُ الكثيرة

في قولِه جلَّ شأنه: ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ استعمل (كلّ) وهي لفظةٌ تدلُّ على عمومِ ما تُضافُ إليه، وهي هنا مستعمَلةٌ في معنى الكثرةِ، كما جرى ذلك في كثيرٍ من المواضعِ في القرآن الكريم، كقولِه تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾، والمعنى: ولو جاءتْهم آياتٌ كثيرةٌ، حتّى لو أنَّها استغرقتْ جميعَ الآياتِ المُمْكِنِ مجيئُها[3].

بيانُ تنكيرِ الآيةِ وإفرادِها:

مهما كثُرَتِ الآياتُ وأبهرت، فإنَّ رسوخَ كفرِهم لا يزولُ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّنكيرَ في لفظِ (الآيةِ) للتَّكثيرِ، وهو منضمٌّ بذلك إلى دلالةِ التَّكثيرِ المرادةِ من (كلّ)، فيكونُ تأكيدًا للكثرةِ المفترَضَةِ المرادَةِ من السّياق، وتأكيدًا لرسوخِ الكفرِ فيهم ورسوخِهم فيه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/287.
(2) حقّي، روح البيان: 4/81.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/287.

دلالةُ (حتّى) في سياق الآية الكريمة:

من رأى العذاب؛ فقد فاتته فرصة المتاب

في قولِه عزَّ ذكرُه: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ عبَّر بـ (حتّى) دلالةً على استمرارِهم بكفرِهم وتجدُّدِ انتفاءِ إيمانِهم، ومُكْثِهم في عتوِّهم واستكبارِهم عن اتِّباعِ الآياتِ الَّتي تأتيهم تباعًا حتّى بلغوا مرحلةَ العذابِ، وَرَأوه بأعينِهم فعندها أظهروا إيمانَهم طلبًا للنَّجاة، "أي: حينَ لا ينفعُهم الإيمانُ لفواتِ شرطِه، كما لم ينفعْ فرعونَ لذلك"[1].

التَّعبيرُ عن فعلِ الرّؤيةِ مضارعًا ﴿يَرَوُاْ﴾:

الكافرون العتاة لا يؤمنون بالعذابِ حتّى يَرَوْنَه أمامَهم

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعلِ المضارعِ عن رؤيتِهمُ العذابَ إشارةً إلى تجدُّدِ الرُّؤية ودوامِها، فهم لا يؤمنون إلّا أن يكونَ النَّظرُ منهم إلى العذاب مستمرًّا ليدركوا صدقَ الوعيدِ، وهذا يومئُ إلى شدَّةِ تمسُّكِهم بالمادّيةِ التي لا يؤمنون بما هو أبعدُ منها، فإنَّهم لا يؤمنون حتّى يَشْخُصَ لهم العذابُ المعنويُّ، فيكونَ في عالمِ المادَّة، فَيَرَوْنَ أثرَه فيهم.

بلاغةُ الكنايةِ في رؤيةِ العذابِ في السّياق:

رؤيـةُ العـذابِ منـجَزةٌ بنزولِه بهـم، وحلولِه فيهم

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ عبَّر النَّظمُ البليغ عن نزولِ العذابِ بهم بالرُّؤيةِ، والعذابُ معنويٌّ فأنّى يُرى؟ فالمرادُ من الرُّؤيةِ الكنايةُ عن "حُلولِه بهم، والمعنى: أنَّهم لا يؤمنون إلّا حينَ لا ينفعُهم الإيمانُ؛ لأنَّ نزولَ العذابِ هو ابتداءُ مجازاتِهم على كفرِهم، وليس بعدَ الشُّروعِ في المجازاةِ عفوٌ"[2].

إيثارُ لفظِ العذابِ دونَ العقابِ:

العذابُ أشدُّ من العقابِ، وأعمُّ

العذابُ يتضمَّنُ دائمًا ملمحَ الشِّدَّةِ، حتى وإنْ لم يُوصَف بالشَّديد أو الأليم، ولذلك استعملَ العذابَ في الدُّنيا وفي الآخرةِ؛ فهو أعمُّ، أمَّا العقابُ؛ فقد يكونُ يسيرًا؛ لارتباطِ العقوبةِ بالذَّنبِ، فإذا عَظُمَ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/207.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/288.

الذَّنبُ؛ عظُمت العقوبةُ، وإذا صَغُر؛ كان العقابُ على قدرِه، ومن هنا استعمل العقابَ للشَّيءِ والسَّريعُ يكون في الدُّنيا.

فائدةُ وصفِ العذابِ بالأليم:

التَّصريحُ بصفةِ الأليمِ، لا ينفي كـون الرَّحـيـمِ يعذِّبُ الآثمين

في قولِه عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ يكفي بالعذابِ ألمًا أن يكونَ من اللّه تعالى، والتَّصريحُ بما هو معلومٌ في كلامِ البلغاءِ لا بدَّ أن يكونَ لغايةٍ بلاغيةٍ، فكان التَّصريحُ بصفةِ الألم هنا للمبالغةِ في بيانِ هذه الصِّفةِ، وللتأكيد للسّامعين بأنَّ العذابَ من اللّه المتِّصفِ بكونِه الرحمنَ الرحيمَ، متَّصفٌ بكونِه أليمًا، دفعًا لما قد يُتوهَّمُ من المتَّصفِ بالرَّحمةِ أن يمتنعَ عليه التَّعذيبُ الأليمُ.

بلاغةُ الفذْلكةِ في الآياتِ الأربعِ الأخيرةِ:

تقريرٌ لصدقِ القرآنِ في خطابِه بروعة أساليبه وبيانه

الآياتُ الأربعُ من قوله ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ [يونس: 94] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾ [يونس: 97]" فذلكةُ هذا السّياقِ الَّذي كان ذِكْرُ قَصَصِ الأنبياءِ شواهدَ فيه، وهي تقريرُ صدقِ القرآنِ في دعوتِه ووعدِه ووعيدِه، وكونِه لا مجالَ للامتراءِ فيه، وبيانُ الدّاعية النفسيَّة للمكذِّبين بآياتِه، وتوجيهُ الاعتبارِ إلى أهلِ مكَّةَ مقرونًا بالإنذارِ، بأسلوبِ التَّعريضِ والتلطُّفِ في العبارةِ، على حدِّ: إيّاكِ أعْني، واسمعي يا جارة"[1].

(1) رضا، تفسير المنار: 11/391.

﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ [يونس: 98]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وردت قصَّة يونس تكميلٌ لبيان سُنَّة الله في الأمم مع رُسُلِهِم

لمّا بيَّن الله تعالى من قَبْلُ أنَّ: ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾؛ أتبَعَهُ بهذه الآية؛ لأنَّها دالَّة على أنَّ قوم يونس آمنوا بعد كفرهم، وانتفعوا بذلك الإيمان، وذلك يَدُلُّ على أنَّ الكفار فريقان: منهم من حُكِمَ عليه بخاتمة الكفر، ومنهم من حُكِمَ عليه بخاتمة الإيمان، وكلُّ ما قضى الله به فهو واقع[1]، وأيضًا فهذه الآية والآيتان بعدها تفريعٌ على الآيات السّابقة، وتكميل لها في بيان سُنَّة الله في الأمم مع رُسُلِهِمْ[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿فَنَفَعَهَآ﴾: أَصْلُ النَّفْعِ: الخَيْرُ، وخِلافُه: الضَّرُّ، يقال: نَفَعَهُ، يَنْفَعُهُ، نَفْعًا، أي: قَدَّمَ له خَيْرًا[3]. والاسم: المنفعة، وعليه اقتصر الجوهريُّ[4]، والنَّفعُ: ما يُستَعانُ به في الوُصولِ للخَيْرِ[5]، أو هو: ما يَتَوَصَّل بِهِ الإِنْسانُ إِلى مَطْلُوبِهِ مِن جَلْبِ مصلحة أو دَفْعِ مَضَرَّةٍ، يُقَال: انْتَفَعَ بِالشَّيْءِ: إِذا وَصَل بِهِ إِلى مَنْفَعَةٍ ما[6]، والانْتِفاعُ: الاسْتِفادَةُ. ورجل نفّاعٌ؛ إذا كَانَ ينفع النَّاس، وَلَا يضرُّهم[7]، والنَّافِعُ:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/303 - 304.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/393.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفع).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نفع).
(5) الرّاغب، المفردات: (نفع).
(6) الفيّوميّ، المصباح المنير، وأحمد رضا، معجم متن اللّغة: (نفع).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نفع).

المُفِيدُ، وكُلُّ ما يُسْتَفادُ مِنَ الشَّيءِ فهو مَنْفَعَةٌ، والمقصود بالنَّفع في الآية: ما يستفاد منه للوصول إلى مصلحة.

2) ﴿كَشَفْنَا﴾: أَصْلُ الكَشْفِ: إزالَةُ شَيءٍ عَن شَيءٍ، وتَعْرِيَتُهُ منه، كالثَّوْبِ يُسْرى عن البَدَنِ، ويُقال: كَشَفْتُ البَدَنَ، أَكْشِفُهُ؛ إذا أَزَلْتُ الثَّوْبَ عنه[1]. والكَشْفُ: رَفْعُ الغِطاءِ والحِجابِ، يُقَال: كَشَفَ الشَّيءَ، يَكْشِفُهُ، كَشْفًا، وكَشَّفَهُ، فانْكَشَفَ، وتَكَشَّفَ؛ إذا رَفَعَ عنه غِطاءَهُ وحِجابَهُ[2]. والمقصود بالكَشْفِ في الآية: إزَالَةُ ما هو ساتِرٌ لِشَيءٍ، وهو هنا مَجازٌ في الرَّفْعِ، والمُرادُ: تَقْدِيرُ الرَّفْعِ وإبْطَالُ العَذابِ قبل وقوعهِ[3].

3) ﴿ٱلْخِزْىِ﴾: خزي الرَّجلُ يخزى خزيًا، وهو خزيان؛ إذا استحيا من قبيحٍ يفعله، والاسم الخزاية، وخزي الرَّجلُ يخزى خزيًا من الهوان، وأخزاه اللهُ يخزيه؛ إذا مقته وأبعده، والاسم الخزي[4]، وأصْلُ الخِزْيِ: ذلٌّ يُسْتَحى منه؛ ولذلكَ يُسْتَعْمل في كلٍّ منهما، أي: الذُّلُّ والاسْتِحْياء[5]، وقيل: أصلُه: الإبعاد، فقولُهُم: أَخْزاهُ اللهُ، أي: أَبْعَدَهُ وَمَقَتَهُ[6]، والخِزْيُ الفَضِيحةُ، وَقَدْ خَزِيَ يَخْزَى خِزْيًا؛ إذا افْتَضَح، وتَحيَّر فَضِيحَةً[7]، والخِزْيُ أيضًا: السّوء[8]، والهَوانُ[9]، والمقصود بالخزي في الآية: الإهانَةُ والذُّلُّ[10].

4) ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾: أَصْلُ المَتْعِ: بُلوغُ الغايَةِ مِنَ الشَّيْءِ، يقال: مَتَعَ النَّهارُ يَمْتَعُ مَتْعًا، أي: بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِهِ، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ الجَوْدَةِ[11]، وقولهم: (أَمْتَعَ اللهُ بكَ)، قال أبو بكر: معناه: أطال اللهُ عمرك، وهو مأخوذ من الماتع، والماتع عند العرب الطَّويل[12]، والمَتاع في الأصل: كلُّ شَيْء يُنتفَع به، ويُتبلَّغ به، ويتزوَّد، والفناء يأتي عليه في الدُّنيا[13]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كشف).
(2) الرّاغب، المفردات: (كشف).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/290.
(4) ابن دريد الأزديّ، جمهرة اللغة: (خزي).
(5) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (خزي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خزي).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (خزي).
(8) الخليل، العين، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (خزي).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (خزي).
(10) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/290.
(11) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).
(12) أبو بكر الأنباريُّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/319.
(13) ابن منظور، لسان العرب: (متع).

والتَّمْتيعُ: الإمْهَالُ، وأيضًا: التَّعْمِيرُ، ومنه قوْلُه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾، أي: أطَلْنا أعْمارَهُم[1]، والمقصود بالمتاع في الآية: الإهمال والانتظار.

5) ﴿حِينٍ﴾: أصْلُ الحِيْن يدلُّ على الزَّمان، فالحِينُ الزّمانُ قليلُه وكَثيرُهُ[2]، قال الرّاغبُ: الحِينُ: وقْتُ بلوغِ الشَّيءِ وحصولِه، وهو مُبهَمُ المعنى، ويَتَخَصَّصُ بالمُضافِ إلَيْه، ومَنْ قالَ: (حِيْن) تأتي على أوْجُهٍ: للأجَلِ، والسَّنَة، وللسّاعَةِ، وللزَّمان المُطْلَق؛ فإنّما فسَّرَ ذلكَ بحَسَبِ مَا وجدَ وعلقَ به[3]، وقال الفَرّاءُ: الحِينُ حِينان، حِينٌ لَا يُوقَفُ على حَدِّه، وهو الأكْثَر، وحِينٌ ذَكرَهُ اللّه تَعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: 25]، وهذا مَحْدُودٌ؛ لأنَّهُ سِتَّةُ أشْهُرٍ[4]، وأمّا المَحْمُولُ على هذا، فقولُهم للهلاكِ: حَيْنٌ، وهو مِنَ القياس؛ لأنَّهُ إذا أتى؛ فلا بُدَّ لَهُ مِنْ حِينٍ، فكأنَّهُ مُسَمًّى بِاسْمِ المَصْدَرِ[5]، والمقصود بـ (حين) في الآية: المُدَّة مِنَ الزَّمَنِ.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

نموذجُ غفرانِ الله لقوم يونس الّذين تفادوا العذاب، ومُتِّعوا إلى حين

يُخاطِبُ اللّه نبيَّه ﷺ، قائلًا له: ما آمَنَ أهلُ قريةٍ مِن القُرى الهالكةِ في وقتٍ ينفعُهم إيمانُهم فيه، إلّا قومَ النَّبيِّ يُونُسَ عليه السلام، آمَنوا كُلُّهم في وقتٍ يَنفعُهم فيه الإيمانُ، حين رأوا آيةً تدُلُّ على العذابِ قبل نُزولِه بهم، ولمّا آمَنوا؛ رَفَعْنا عنهم عذابَ الذُّلِّ الَّذي وعدَهم به نبيُّهم في الحياةِ الدُّنيا - وكان قد قرُبَ نُزولُه بهم - وتَرَكْناهم يستَمتِعونَ في الدُّنيا إلى آخِرِ أعمارِهم المكتوبة[6].

(1) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (متع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (حين).
(3) الرّاغب، المفردات: (حين).
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/45.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حين).
(6) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/133، والواحديّ، الوجيز، ص: 508، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/144، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/385، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/394.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ فصلِ ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ﴾:

تقريرُ ما سبَق مِـنِ استِحالةِ إيمانِ مَن حقَّت عليهم كلمتُه تعالى

قولُه: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ؛ لتقريرِ ما سبَق مِن استحالةِ إيمانِ مَن حقَّت عليهم كلمتُه تعالى؛ لِسوءِ اختِيارِهم مع تَمكُّنِهم مِن التَّدارُك[1]؛ والاستئناف هُنا نحويٌّ، وهو تفريع على الآيات اللَّواتي قبلهنَّ، وتكميل لهنَّ في بيان سنَّة اللّه في الأمم مع رُسلهم، وفي خَلْقِ البشر مُستعدِّين للأمور المتضادَّة من الإيمانِ والكفر، وفي تعلُّق مشيئة اللّه وحكمته بأفعاله وأفعال عباده، ووقوعها على وفقهما[2].

معنى (الفاء) بين التَّقرير والتَّفريع:

تفريع التَّغليظ على المقصودين بـالـعـذاب، وتعريض بأهل مكَّة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا﴾ لتفريع التَّغليظ على امتناع أهلِ القرى من الإيمانِ بالرُّسل، قبل أن ينزل بهم العذاب، على الإخبارِ بأنَّ الَّذين حقَّت عليهم كلمة اللّه ألّا يؤمنوا، لا يؤمنون حتّى يروا العذاب، فإنَّ أهل القرى من جملة الَّذين حقَّت عليهم الكلمةُ بألّا يؤمنوا، والغرض من ذكر أهل القرى التَّعريض بالمقصودين، وهم أهل مكَّة، فإنَّهم أهل قرية، وقد وُصِفت في القرآن بذلك، وسمِّيت أمَّ القرى في قوله تعالى: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ﴾ [الأنعام: 92]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الشّورى: 7]، فكان ذلك كالتَّخلُّص بالتَّعريض إلى المخصوصين به، وللإفضاء به إلى ذِكرِ قوم يونس، فإنَّهم أهلُ قرية[3]، فهي بهذا المعنى مسوقةٌ أيضًا لتقرير هلاكهم[4].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/176.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/393.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/288.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/179.

دلالةُ حرف التَّحضيض (لولا):

إفادةُ الاستفهام فعلَ المُسْتَفْهَمِ عنه، ومعنى التَّوبيخ والنَّفي أيضًا

(لولا) هُنا هي التَّحضيضيَّة التي صَحِبَهَا التَّوبيخ، وكثيرًا ما جاءت في القرآن للتَّحضيض، والتَّحضيض أن يُريد الإنسان فعلَ الشَّيء الَّذي يُحَضُّ عليه[1]، وهي هُنا بمعنى هلَّا الَّتي تفيد الاستفهام، ويُراد من الاستفهام بها الحثُّ والحضُّ على فعل المُسْتَفْهَم عنه بعدها، والإغراء به من جهة، ومعنى التَّوبيخ والنَّفي من جهة أخرى، فـ (لولا) كلمة التَّحضيض في الأصل، استُعملت هُنا للنَّفي؛ لأنَّ في الاستفهام ضربًا من الجَحْد كأنَّه قيل: (ما آمنت أهلُ قرية من القرى المشرفة على الهلاك، فنفعهم إيمانُهم إلَّا قومُ يونس)[2]، ولمّا كان معنى (لولا) النَّفي؛ كان التَّقدير: (لكن لم تؤمن قرية منهم إلَّا عند صَدْمِ العذاب)، كما فعل فرعون، لو آمن عند رؤية البحر على حال الفلق، أو عند توَسُّطه، وقبل انسيابه عليه؛ قُبِل، ولكنَّه ما آمن إلَّا بعد انهماره ومسِّه، وذلك حين لا ينفع لفوات شرطِهِ من الإيمان بالغيب[3].

فهي أيضًا للتَّوبيخ على ترك الإيمان، ولِما فيها من معنى النَّفي الَّذي يَقتضي أنَّه لم تُؤمن قرية من القُرى أصلًا، وخُصَّت بأنَّ المُراد من القرى الَّتي أُهلكت بالاستئصال ولم تُؤمن قبل نزول العذاب[4]. والحاصل: أنَّها تضمَّنت تحضيضًا وتوبيخًا ونفيًا، فالنَّفي راجع لمن مضى، والتَّوبيخ والتَّحضيض راجعان لمن يسمع[5].

دلالةُ دخول (لولا) على الفعل الماضي (كان):

التَّغليظ والتَّنديم على تفويت الإيمان من إرادة لازم التَّوبيخ

أصلَ معنى (لولا) التَّحضيض، وهو طلب الفعل بِحَثٍّ، فإذا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/107.
(2) البغويّ، معالم التَّنزيل: 2/434، والبروسويّ، روح البيان: 4/81.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/208.
(4) الخفاجيّ، حاشيّة الشّهاب على تفسير البيضاويّ: 5/103.
(5) الصّاويّ، حاشية الصَّاوي على الجلالين: 2/119.

دخلتْ على فعل قد فاتَ وقوعه؛ كانت مُستعملةً في التَّغليط والتَّنديم، والتَّوبيخ على تفويته، ويكون ما بعدها في هذا الاستعمال فعلَ مُضيٍّ؛ وهذه الآية أصرَحُ في ذلك لوجود (كان) الدّالَّة على المُضيِّ والانقضاء، والمقصود: التَّعريض بأنَّ مُشركي أهل مكَّة يُوشَك أن يكونوا على سَنَنِ أهل القرى، فهي هنا مستعملة في لازم التَّوبيخ، كناية عن التَّغليط[1]، ونظير هذه الآية - استعمالًا ومعنًى - قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: 116][2].

دلالةُ تنكير لفظ ﴿قَرْيَةٌ﴾:

إفادةُ العموم بقرينة السّياق والاستثناء، تجليةٌ للمعنى

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾، أي: واحدةٌ من قرى الأمم الماضية الَّتي أهلكناها[3]، والقرية هي المدينة العظيمةُ التي يجتمع فيها الناس، وإذا كان الكلام تغليطًا لأهل القرى المُعرضين عن دعوة الرُّسل، وتعريضًا بالتَّحذير مِمَّا وقعوا فيه؛ كان الكلام إثباتًا صريحًا، ووقوع ﴿قَرْيَةٌ﴾ - وهو نكرة في مساق الإثبات - أفاد العمومَ بقرينة السّياق مثل قول الحريري: "يا أهل ذا المغنى وقيتم ضُرّا"[4] أي: كُلَّ ضُرٍّ لا ضُرًّا مُعيَّنًا، وبقرينة الاستثناء، فإنَّه معيار العموم[5].

غرض التَّقييد بالوصف بالجملة الفعليَّة:

التَّحضيض على صفة الإيمان سبيلٌ للرُّسوخ والإيقان

جملة ﴿ءَامَنَتْ﴾ جملة فعليَّة صفة للقرية؛ لأنَّ الجُمَلَ بعد النَّكرات صفاتٌ، والغَرَضُ منها التَّحضيض على هذه الصِّفة الشَّريفة[6] فما أكثر القُرى التي مرَّ ذِكْرُها! ولكن أكثر هذه القرى لم تؤمن، وإنَّما

(1) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 6/107، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/288.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/288.
(3) الخطيب الشربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 2/43.
(4) هذا شطر من بيت روايته:
يا أهل ذا المغنى وقيتمْ شرًّا *** ولا لَقيتُم ما بَقيتُمْ ضُرّا.
يُنظر: الحريري، مقامات الحريري، ص: 48.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/289.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 6/179.

آمنت منها قِلَّة، فكانت الصِّفة الغالبة هي صفة عدم الإيمان، وكان وصف الإيمان عزيزًا في الأمم.

دلالةُ مجيء الفعل ماضيًا في قوله: ﴿ءَامَنَتۡ﴾:

بيان عقبى المُسارعة للإيمان، والتَّعريض بكفّار مكَّة المنكرين له

قوله تعالى ﴿ءَامَنَتۡ﴾، أي: قبل معاينة العذاب، ولم يُؤَخَّروا إلى حالةِ الغرغرة، كما أُخِّرَ فرعون[1]، فسارعوا بالنَّجاة، وأزالوا آثار ما اقترفوا[2]، وفي هذا الحديث عن القرية بالماضي، استنكار تأخُّر أهل مكَّة في الإيمان، لمعرفتها بأمانة الرَّسول، وامتلاكها اللِّسان العربيَّ المبين، وكونها أمَّ القرى، فمجيء الفعل ماضيًا يُشير إلى أنَّ إيمانها قد تأخَّر كثيرًا، وأنَّه كان المتوقَّع منها أن تكون أوَّل من يستجيبُ للنَّبي ﷺ؛ لأنَّه أحد أبنائها، تعرفه، وتعرف نسبه فيها، ونشأته بين ربوعها، وما عهدَتْ فيه من صدقٍ وأمانة، وعفَّة واستقامة، ممّا لم تعهده في شبابها أو شيبها؛ ولأنَّها تملك اللِّسان العربيَّ الَّذي التقت عليه ألسنة العرب جميعًا، والَّذي نزل القرآن به، فهي أقدر العرب جميعًا على النَّظر في المعجزة الَّتي جاءها بها هذا النَّبيُّ في كتاب كريم، تنزيل من ربِّ العالمين، فلو أنَّ هذه القرية استجابت للنَّبيِّ الكريم من يوم أن حمل إليها رسالة ربِّهِ، ودعاها إلى الإيمان به؛ لنفعها إيمانُها، ولكانت في ذلك الوقت الَّذي تسمع فيه قول اللّه هذا، على حالٍ غير حالها تلك، وعلى صفة غير صفتها هذه الَّتي هي عليها الآن من كُفْرٍ وضلال[3].

بلاغةُ المجاز المُرسل:

الأنبياءُ بُعثوا في منابت الحضارة، وحواضر العمران

القرى في قوله: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ﴾؛ أي: أهل قرية[4]، والمرادُ بالقرية أهلُها، وهم أقوام الأنبياءِ؛ فإنَّهم كُلَّهم بُعِثوا في

(1) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 5/55.

(2) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3636.

(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1084.

(4) البغويّ، معالم التَّنزيل: 2/434.

أهل الحضارة والعمران دون البادية[1]، فأُطلقتِ القرية، وأريد بها أهلوها من بابِ إطلاق المحلِّ على الحالِّ[2]، ومثله المذكور في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82]؛ أي: أهلها، مجازًا شائعًا، والقرينة هُنا أظهرُ من أنْ تُخفى[3].

تعقيبُ عطف المُسبَّب على السَّبب، وأثره في السّياق

دلالةُ الفاء في دخولها على الفعل:

في قوله تعالى: ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾؛ أي: فتسبَّبَ عن إيمانها ذلك أنَّه نفعها بأن تَقَبَّلَهُ الله تعالى منها، وكشَفَ العذابَ عنها[4]، فجملة ﴿فَنَفَعَهَآ﴾ معطوفةٌ على الصِّفة عطْفَ المسبَّب على السَّبب[5].

تحديدُ الدَّلالة البلاغيَّة في السّياق باعتبار اللَّفظ أو المعنى

بلاغةُ الاستثناء بين الاتِّصال والانقطاع:

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾، نجد (قومَ) منصوبًا على الاستثناء المنقطع، وهو قول جمهور المفسِّرين، وقول سيبويه، والكسائي، والفرّاء والأخفش من النُّحاة؛ حيث استثنى ﴿قَوْمَ يُونُسَ﴾؛ فهو بحسب اللَّفظ استثناءٌ منقطعٌ، ويجوز أن تكون الجملة في معنى النَّفي لتَضَمُّنِ حرف التَّحضيض معناه، فيكون الاستثناءُ مُتَّصِلًا؛ لأنَّ المُراد من القرى أهاليها، كأنَّه قال: (ما آمن أهلُ قريةٍ من القرى العاصية، فَنَفَعَهُم إيمانُهم إلّا قومَ يونس)[6]. قال الزَّمخشري: "ويجوز أن يكون مُتَّصِلًا، والجملة في معنى النَّفي، كأنَّه قيل: ما آمنت قريةٌ من القرى الهالكة إلّا قَوْمَ يونس"[7]، وقال ابن عطيَّة: "هو بحسب اللَّفظ استثناءٌ منقطع، وكذلك رسمه النَّحويون، وهو بحسب المعنى مُتَّصل؛ لأنَّ تقديره ما آمن أهل قرية إلّا قومَ يونس"[8].

---

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/482.
(2) السَّمين الحلبيّ، الدَّر المصون: 4/69.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/179.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/208، والخطيب الشِّربيني، تفسير الشِّربيني: 2/43.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/179.
(6) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/124، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/107.
(7) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/371.
(8) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 3/144.

وجهُ إفادةِ (إلّا) الاستدراكَ والاستثناء معًا:

من ثاب إلى الله وتاب؛ وقاه الله سوءَ العذاب

أمّا معنى ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ﴾ فهو ممّا يُسأل عنه: أين المستثنى منه؟ والجواب: أنَّ ﴿إِلَّا﴾ تفيد مع الاستثناء، الاستدراكَ بمعنى (لكن)، ولمّا كان الاستثناء، يُفيد في مضمونه معنى الاستدراك والتَّعقيب على المُستثنى منه؛ فقد حَسُنَ استعمالُ ﴿إِلَّا﴾ مكان (لكن)؛ إذ كانت قرية يونس تكاد تكون استثناءً بين القرى التي جاءها رسلُ اللّه، فكفرت، ولم يؤمن منها إلّا هذه القرية، فأداة الاستثناء هُنا تفيد استثناءً واستدراكًا معًا: لفظُها الاستثناءُ، ومعناها الاستدراك وذلك من خصوصيات النَّظم القرآنيِّ وَحْدَهُ، وعلى هذا فمعنى الآية الكريمة: (هلَّا أسرعت مكَّةُ إلى الإيمان بالنَّبيِّ المبعوث منها وفيها، فانتفعتْ بهذا الإيمان قبل غيرها؛ لأنَّها أولى به، إذ كان مطلَعُه في أفقها؟ ولكنَّ الواقع أنَّها لم تؤمن، فحُرِمت هذا الخيرَ، وأصبحت في معرض نقمة اللّه وبلائه)، هذا هو موقف هذه القرية، وذلك هو حال معظم الأقوام مع أنبيائهم، إلّا قومَ يونس، فإنَّهم آمنوا، فنجّاهم اللّه من العذاب الَّذي أوشك أن يحلَّ بهم، ومتَّعهم بما كانوا فيه، إلى أنِ انتهت آجالهم المقدورة لهم[1].

دلالة جملة ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ على الاستئناف:

تفصيلُ ما في الاستثناء من إجمال، يُبرِزُ ما في التَّركيب من جمال

جملة: ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ مستأنفةٌ لتفصيل مجمل معنى الاستثناء[2]، فكأنَّ النَّفس تتشوَّف لما سيُذكر بعد الاستثناء، إذا كان اللّه قد استثنى قوم يونس من الأمم الهالكة، فما وجه إخراجهم من جملة من أهلكه اللّه؟ فجاء الجواب بأنَّهم آمنوا أوَّل ما رأوا أمارة العذاب، ولم يؤخِّروا إلى حلوله، فجاء القرار الفوريُّ من مسيِّر الوجود،

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1084.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/289.

وصاحب الكرم والجود، ﷻ، ملخِّصًا في قوله: ﴿كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾، بعد ما أظلَّهم، وكاد يحلُّ بهم، فيكون قوله تعالى: ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾، استئنافًا لبيان نفع إيمانه[1].

دلالةُ (لمَّا) الحينيَّة:

الدَّلالةُ على التَّردُّد والتَّلكُّؤ والتَّلبُّث ديدنُ الكافرين

﴿لَمَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ هي (لمّا) الحينيَّة، وهي ظرفُ زمان، وفيها إشارة إلى أنَّ قوم يونس لم يُبادروا بالاستجابة لرسولهم، بل كان منهم تلكُّؤٌ وتَعَلُّلٌ، ولكنَّهم آمنوا آخِرَ الأمر، فتداركهم اللّه برحمته، وشملهم بعفوه، والنّاظر في ﴿لَمَّآ﴾ هذه، وما يسمعه إلى ما يقع الأذن من نغمها الممتدِّ المتماوج، وما فيه من رعشة واهتزاز، يجد أنَّها تحكي في دقَّة وروعة تلبُّثَ القوم وتلكُّؤَهُم واضطرابَ خطوِهم، قبل أن يؤمنوا، ويستقيموا على طريق الحقِّ، والنّاظر مرَّةً أخرى - في هذا الَّذي لمحتَه من الحرف ﴿لَمَّآ﴾ وما طَلَعَ به من إشاراتٍ مضيئة، كشفتْ عن حال تلك القرية - قرية يونس - وما كان من توقُّفها، وتلكُّئِها، ثُمَّ استجابتها لرسولها، والإيمان بربِّها، والانتفاع بهذا الإيمان - يجد وجهًا آخر من وجوه الإعجاز القرآني، فيما يجيء به من أنباء الغيب، وأنَّ قريشًا ستأخذ مأخذَ قومِ يونسَ، وأنَّهم إذ يقفون من النَّبي هذا الموقف العنيد العنيف، ستكون خاتمةُ أمرهم، الإيمانَ باللّه، والانتفاع بهذا الإيمان[2].

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ التَّبعيَّة في: ﴿كَشَفۡنَا﴾:

الخِزيُ غُمَّةٌ وهلاك، وكشْفُه إزالةٌ ووقايةٌ وإدراك

الكشف: إزالةُ ما هو ساتر لشيء ما، وهو في قوله: ﴿كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾ مجازٌ في الرَّفع؛ إذ عَبَّر عن العذاب المتوقَّع بالعذاب الواقع فحُذف المشبَّه به، ورُمز له بشيء من لوازمه، وهو الكشف على جهة الاستعارة المكنيَّة التَّبعيَّة، والمُراد: تقدير الرَّفع

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 4/176.

(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1084.

وإبطال العذاب قبل وقوعه، فعبَّر عنه بالكشف تنزيلًا لمُقاربة الوقوع منزلةَ الوقوع[1]؛ لأنَّ الكشفَ يكون بعد الوقوع أو إذا قَرُبَ[2]، وهو هُنا كُشِفَ عنهم بعد أن تدلّى عليهم، ولم يكن بينه وبينهم إلّا ميل، أو رأوا دلائل العذاب، ولم يروه، ولو رأوه؛ لما قُبِلَتْ توبتُهم كفرعون[3].

معنى ضمير العظمة والكبرياء (نا):

الــدَّلالــة على مُطْلَقِ القُدرة والــجــبروت وعلى الإحاطة بالملكوت

قوله تعالى: ﴿كَشَفۡنَا﴾؛ أي: رفعنا وصرفْنا بعظمتنا[4]، فأتى بنونِ العَظَمةِ وضمير الكبرياء للدَّلالة على التَّعظيم والإجلال، فلا كاشفَ للكروب إلّا هو ﷻ، ولا رافعَ لعذابه وبأسه الَّذي لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين، "فهم مستثنون من العموم السّابق، ولا بدَّ لذلك من حكمة لعالم الغيب والشَّهادة لم تصل إلينا، ولم تدركها أفهامنا"[5].

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

الاعــتــنــاء بشأن المُـقـدَّم والتَّشويق إلى المُؤَخَّرِ من بيان القرآن

الجارُّ والمجرور ﴿عَنۡهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾ متعلِّقان بـ : ﴿كَشَفۡنَا﴾، وتقديمهما دليل العناية والاهتمام بالمقدَّم، وهو من توجَّه إلى اللّه بالتَّوبة والإنابة، والتَّشويق إلى معرفة المؤخَّر، فانكشف لهم بهذه العناية صبحُ الوصال، من مطالع الجمال، بعد ذهاب دُجى الضَّلال، فعاينوه بعد التجائهم، فعكس أنوار طلوع شمس الألوهيَّة عليهم، فجازهم من سطوات القهر؛ لأنَّ رحمته سبقت غضبَه، ولولا كشفُ جمالِه لهم؛ لبقوا في حجاب النَّكرة، واحترقوا[6].

دلالةُ إضافة العذاب إلى الخزي:

جــوازُ كــون الإضافةِ بيانيَّةً لــلإيــضــاح، وحــقــيــقــيَّــةً للتَّخصيص

الخزي: الإهانة والذُّلُّ، وإضافة العذاب إلى الخزي في قوله:

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/290.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 2/434.
(3) العزُّ بن عبد السَّلام، تفسير العزِّ بن عبد السّلام: 1/278.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/208، والسَّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/132.
(5) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 374.
(6) البقليّ، عرائس البيان: 2/99.

﴿عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾، يجوز، كونَها بيانيَّةً؛ لأنَّ العذابَ كلَّهُ خزيٌّ؛ إذ هو حالة من الهلاك غيرُ معتادة، فإذا قدَّرها اللّه لقوم؛ فقد أراد إذلالهم، ويجوز أن تكون الإضافةُ حقيقيَّةً للتَّخصيصٍ، ويكون المُراد من الخزي الحالةَ المتصوَّرة من حلوله، وهي شناعةُ الحالة لمن يشاهدهم، مثل الخسف والحرق والغرق، وأشنع الخزي ما كان بأيدي أناس مثلهم، وهو عذابُ السَّيف الَّذي حلَّ بصناديد قريشٍ يوم بدر، والَّذي كاد أن يحلَّ بجميع قريش يوم فتح مكَّة، فنجّاهم اللّه منه كما نجّى قوم يونس[1].

سِرُّ اختيارِ لفظة ﴿ٱلۡخِزۡيِ﴾ دون غيرها:

بيانُ أنَّ الجزاء مِن جنسِ العملِ

اختارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلۡخِزۡيِ﴾ لهذا المقامِ، دون لفظِ (الذُّلِ) وما يُرادفُه؛ لأنَّ "الخزيَ ذلٌّ مَعَ افتضاحِ، والخزاية الاستحياء؛ لأنَّه انقماع عَنِ الشَّيء لما فيه من العَيب"[2]، وهو مقام مناسب لفعلتهم، فالكفرُ باللّه قابلَهُ الذُّلُّ مع الفضيحة؛ لأنَّ الكفر سترٌ وتغطيَةٌ، وجحد للإيمان، والخزي غُمَّةٌ وهلاك، ولا يكون كشف هذا إلّا بانكشاف أنوار الإيمان في القلب في ذاك؛ فكان الجزاءُ من جنس العمل.

دلالةُ الجارِّ والمجرور:

عذابُ الأممِ الكافرة عقابٌ في الدُّنيا، ويعقبه عذابٌ في الآخرة

قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ صفة لقوله: ﴿عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾، للإشارة إلى أنَّ العذاب الَّذي يَحِلُّ بالأمم الكافرة، هو عقاب في الدُّنيا، ومنه ما يفتضحون به في المتأخِّرين، فيتألَّمون به بعد الموت وراء التألُّم بعذاب الآخرة[3]، وأنَّ الأمم الَّتي لم تُعَذَّب في الدُّنيا، قد ادَّخر لها عذاب الآخرة[4]، ففيه إشارة ضمنيَّة إلى وجود عذاب

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/290.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 250.
(3) المهائميّ، تبصير الرَّحمن وتيسير المنّان: 1/335.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/291.

الآخرة، وأنَّ الأمم الَّتي تُعذَّب في العاجلة، ادَّخر لها ما هو أشنع في الآجلة.

دلالةُ لفظة التَّمتيع:

بيان أنَّ التَّمتيع هو الإمهال إلى حلول الآجال

قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعۡنَـٰهُمۡ﴾، أي: بمنافعها والمُراد به التَّمتيع بالحياة، لا بكشف العذابِ؛ لأنَّهم بعد موتهم ناجون من العذاب؛ إذ كانوا قد آمنوا، وأخلصوا، والتَّمتيع هو إبقاؤهم إلى حين انتهاء آجال آحادهم(1)، وسبب هذا التَّمتيع أنَّ نبيَّهم عليه السلام، خرج بدون إذنٍ من اللّه تعالى له، فلم تَتِمَّ عليهم الحجَّة، ولا حقَّت عليهم كلمة العذاب، وقد استدلُّوا بذهابه مُغاضبًا لهم على قرب وقوع العذاب، كما أنذرهم فتابوا، وآمنوا، فكشفه اللّه عنهم(2).

دلالةُ إسنادِ التَّمتيع إلى ضمير العظمة (نا):

بيان عِظَمِ التَّمتيع، الصَّادر عن المنعم العظيم

قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعۡنَـٰهُمۡ﴾؛ أي: تمتيعًا عظيمًا(3)، فجيء بنون العظمة وضمير الكبرياء لتأكيد أنَّ مصدر الإنعام بذلك هو اللّه تعالى، دون سواه؛ وهذا يدلُّ على عِظَم التَّمتيع والإنعام، فمعنى ﴿وَمَتَّعۡنَـٰهُمۡ﴾، أي: "بمتاع الدُّنيا بعد كشفِ العذاب عنهم... إلى حينٍ مقدَّرٍ لَهُمْ في علم اللّه سبحانه"(4).

دلالةُ إبهام اللفظ (حين):

بيانُ كون الحين مختلفًا باختلاف آجال آحادهم

قوله: ﴿وَمَتَّعۡنَـٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ إبهام (حين)؛ لأنَّه مختلفٌ باختلاف آجال آحادهم(5)، إلى زمن معلوم، هو عمرهم الطَّبيعيُّ الَّذي يعيشه كلٌّ منهم بحسب سنَّته تعالى في استعداد بنيته ومعيشته(6)، وهي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/291.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/482.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/208.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/176.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 11/291.
(6) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/482.

مختلفة بتقدير الله لها، كلٌّ واحد منهم في وقته المضروب له[1]؛ لأنَّ الإنسان وإن نجا من الأسباب المهلكات، فلن ينجو من الموت، بل لا بدَّ له منه، طال الزَّمن أم قصر، وقد قيل:

أيَّ يَوْمَيَّ مِنَ المَوْتِ أفِرُّ *** يَوْمَ لَا يُقْدَرُ أَوْ يَوْمَ قُدِرْ

يَوْمَ لَا يُقْدَرُ لَا أَرْهَبُهُ *** وَمِنَ المَقْدُورِ لَا يَنْجُو الحَذِرْ[2].

سِرُّ الجمع بين قصة نوح وموسى وقوم يونس في هذا الموضع:

ذكر الماء والإغراق والإنجاء في كلِّ هذه القصص

ذكر الحقُّ ﷻ في هذا المقام قصَّة نوح عليه السلام بإطناب، ثُمَّ جاء بقصة موسى وهارون عليهما السلام، ثُمَّ ذكر قصَّة يونس عليه السلام، فالسّورة تضمُّ ثلاثًا من الرّسالات، ولم تأتِ في السُّورة قصَّةُ هودٍ، وثمود، وشعيب، وكان لا بدَّ أن تكون هناك حكمة من ذلك، وهذه الحكمة فيما تجلّى لنا: أنَّ الحقَّ ﷻ يعرض موكب الرِّسالة، وموكب المعارضين لكلِّ رسول، والنَّتيجة الَّتي انتهى إليها أمر الأعداء، وكذلك النَّتيجة الَّتي انتهى إليها أمر الرَّسول ومَنْ آمن به، فنجد الذين ذكرهم الله سبحانه هُنا، قد أهلكوا إهلاكًا مُتَّحدًا بنوع واحد في الجميع، فإهلاك قوم نوح كان بالغرق، وكذلك الإهلاك لقوم فرعونَ، كان بالغرق، وكذلك كانت قصَّة سيِّدنا يونسَ لها علاقة بالبحر، فقد ابتلعه الحوت وجرى في البحر، إذًا فمَنْ ذُكِر هُنا من الرُّسل، كان له علاقة بالماء، فالماء هو السَّبب، فالثَّلاثة لهم ارتباط بالماء بوجهٍ من الوجوه، أمَّا بقيَّة الموكب الرِّساليّ؛ فلم تكن لهم علاقة بالماء، ونحن نعرف أنَّ الماء به الحياة، وبه الإهلاك؛ لأنَّ واهبَ الحياة يهب الحياة بالشَّيء، ويُهلِك بالشَّيءِ نَفْسِه، وكأنَّ الحقَّ سُبحانه يبيِّن لنا الحكمةَ: أنا أهلكتُ بالغرق هُناك، ونجَّيْتُ من الغرق هُنا، وهذا

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/208.

(2) البيتان يُنسبان للإمام عليّ بن أبي طالب، وقد ورد البيت الأوّل برواية أخرى شاهدًا في لسان العرب: 5/75، وفي المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده المرسيّ: 6/301، وورد البيتان برواية أخرى في شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: 5/132.

كلُّه ليُبَيِّن اللّه تعالى قدرتَه المطلقة على الأشياء، فهو الذي يُغرِق بالشَّيءِ، وهو الذي يُنجي منه بأمره تعالى[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الذُّلُّ) و(الخزيُ):

الذُّلُّ والذِّلَّة والمذَلَّةُ ما كانَ عن قهر وضعف وهوان، يُقال: ذَلَّ المرءُ؛ إذا ضعُف وهان، فهُو ذَليلٌ والجمع أذِلَّاءُ[2]، والخزي ذُلٌّ مع افتضاح، وَقيل: هُوَ الانقماع لقبح الفعل، والخزاية الاستحياء؛ لأَنَّهُ انقماع عن الشَّيء لما فيه من العيب، يقال: خَزِيَ يَخْزى خِزْيًا؛ إذا استحيا من سوء فعله[3]، فالخزي لا يكونُ إلّا ما يجري مَجرى العقوبة منَ الهوان والإذلال، فكلُّ ما هذه صفته يدخلُ تحتهُ، وذلك رَدْعٌ منَ اللّه تعالى[4]. فآثر الخزيَ ليناسبَ فعلتهم، فالكفر باللّه قابلَهُ الذُّلُّ مع الفضيحة؛ لأنَّ الكفر سترٌ وتغطيَةٌ، وجَحْدٌ للإيمان، والخزي غُمَّةٌ وهلاك، ولا يكون كشف هذا إلّا بانكشاف أنوار الإيمان في القلب في ذاك؛ فكان الجزاءُ من جنس العمل.

الـذُّلُّ ضَعْفٌ وهوان، والخزي ذُلٌّ مع افتضاح جارٍ مجرى العقوبة

الفرق بين ألفاظ (المتاع) و(المنفعة) و(النِّعمة):

النِّعْمَةُ هي المَنْفَعَةُ المَفْعولةُ على جهة الإحسانِ إلى الآخرين، فخرَجَ بِالمَنْفَعةِ المَضَرَّةُ، كمَنْ أحسنَ إلى جاريةٍ لِيَرْبَح فيها، أو أرَادَ استدراج غيره بمحبوبٍ إلى ألم، أو أطْعَمَ غيرَه نحو: سُكْرٍ أو سُمٍّ لِيَهْلِكَ، فليس بنعمة[5]، فالمَنْفعة تكونُ حَسَنَةً، وهي ما يُسْتَعانُ به في الوصول إلى الخير، وتكون قبيحة، أمَّا النِّعمةُ؛ فهي ما قُصِدَ به الإحْسَانُ، ولا تكون إلّا حَسَنَةً[6]. أمّا المتاع؛ فيدلُّ على منفعةٍ وامتدادِ

النِّعمةُ ما قُصِدَ به الإحْسَانُ، والمنفعة الحسنة، والمتاعُ منفعة في مدَّة

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 10/6210.
(2) الفيومي، المصباح المنير: 1/210، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 462.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 250.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/4.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 1/220، والمناويُّ، التّوقيفُ، ص: 327، والرّاغب، المُفرداتُ: (نعم).
(6) أبو هِلال العسكريُّ، الفُروقُ اللُّغويةُ، ص: 196، والزّبيدي، تاجُ العروسِ: (نفع).

مُدَّةٍ في خيرٍ وقوَّةٍ، وكمالِ حالٍ[1]، والمُتُوعُ: الامتداد والارتفاع، يقال: مَتَعَ النَّهار، ومَتَع النَّبات؛ إذا ارتفع في أوَّل النَّبات، فالمَتَاعُ: انتفاعٌ ممتدٌّ الوقت، يقال: مَتَّعَهُ اللّه بكذا، وأمْتَعَه، وتَمَتَّع به، قال تعالى: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾، ومُتْعَةُ الحَجِّ: ضمُّ العمرة إليه، نحو قوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ﴾[2]، والمتاع في الأصْل: كلُّ شَيْء يُنتفَعُ به، ويُتبلَّغ به، ويتزوَّدُ[3]، والأمتعةُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ﴾، هي ما بها البلاغُ في الأسفار[4]، ومن هنا حسُنَ اختيارُ لفظ التمتيع الذي يعني: الانتفاعَ الممتدَّ إلى حينٍ مقدَّرٍ لَهُمۡ في علم اللّه سبحانه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (متع)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (متع).
(2) الرّاغب، المفردات: (متع).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (متع).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 9/162.

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: 99]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبط بين هلاك الكفرة الأوَّلين والآخرين، وأنَّه لا هداية إلّا بمشيئة الله

لمّا كان ما مضى رُبَّما أوجب اعتقاد أنَّ إيمان مثل أولئك محال؛ جاءت هذه الآية في مقام الاحتراس منه مع البيان؛ لأنَّ حرصَ الرَّسول ﷺ على إيمانهم لا ينفع، ومبالغته في إزالة الشُّبهات وتقرير الدَّلائل، لا تُفيد إلّا بمشيئة الله تعالى لتوفيقهم وهدايتهم، ولو كان ذلك وحده كافيًا؛ لآمنوا بهذه السّورة؛ فإنَّها أزالت شبهاتهم، وبيَّنتْ ضلالاتهم، وحقَّقتْ بقصَّتَي نوح وموسى عليهما السلام ضعفَهم، ووهنَ مدافعاتهم[1]؛ فهذه الآية تذييل لما تقدَّم من مشابهة حال قريش مع النبيِّ ﷺ بحالِ قوم نوح وقوم موسى وقوم يونس[2]. وأيضًا لَوْ ﴿شَآءَ رَبُّكَ﴾؛ لأراهم علامة ليضطّروا إلى الإيمان، كما فعل بقوم يونس، ولكن لم يفعل ذلك؛ لأنَّ الدُّنيا دارُ ابتلاءٍ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَآءَ﴾: شاء زيدٌ الأمرَ يشاؤه شيئًا، من باب نال بمعنى أراده، والمشيئة اسم منه بالهمز والإدغام غير سائغ إلّا على قياس من يحمل الأصليَّ على الزّائد، لكنَّه غيرُ منقول[4]، والمَشِيئَةُ: الإرادَةُ والقَصْدُ، يقال: شاءَ الرَّجُلُ، يشاءُ، شَيْئًا ومَشيئَةً ومَشاءَةً، فهو شاء، أي: أرادَهُ وقَصَدَهُ[5]. والمَشيءُ: المُرادُ الذي يَتَعَلَّقُ به القصد، وأصلُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/209.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/292.
(3) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/134.
(4) الفيّوميُّ، المصباح المنير: 1/330.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (شيء).

المَشيئَةِ: الإيجادُ، مَأْخوذَة من الشَّيْءِ، وهو: كُلُّ موجود إمّا حسًّا أو معنًى[1]. والمقصود بالمشيئة في الآية: إرادةٌ إلى اتِّخاذ الشَّيء.

2) ﴿جَمِيعًا﴾: أصلُ (جَمَعَ) يدلُّ على تضامِّ الشَّيءِ، يُقالُ: جمعتُ الشَّيء جمعًا[2]، ويُقال للمَجموع: جمْعٌ وجميعٌ وجماعةٌ، وجميعٌ وأجْمَعُ وأجْمَعُونَ تُستعمل لتأكيد الاجتماع على الأمر، فأمّا أجمعون؛ فتُوصف به المعرفة، ولا يصحُّ نصبه على الحال، نحو قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: 30]، وأمَّا جميع؛ فإنَّه قد ينصب على الحال، فيؤكَّد به من حيث المعنى، نحو: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: 38][3]. والمقصود بـ ﴿جَمِيعًا﴾ في الآية: تأكيد لزيادَة رَفْعِ احتمال العُموم العُرْفِي دونَ الحقيقيّ[4].

3) ﴿تُكْرِهُ﴾: أصل الكلمة من الكُرْه، وهو: البغضُ، وخلافه: الرِّضا والمَحبَّة، وهو حمْلُ الآخرِ على ما يكره، تقول: أكرهتُ فلانًا إكراهًا؛ إذا حملتَه على أمر يكرهه، يقال: كرهتُ الشَّيءَ أكرهه كُرهًا، ويأْتي بمعنى: الإلْزام، يُقال: أكْرَهْتُهُ على الشيء، أي: ألزَمْتُه به، والكَراهة من الكُرْهِ أو الكَرْهِ، وهو المَشَقَّةُ والشدَّةُ، يقالُ: قُمْتُ على كُرْهٍ، أي: على مشقَّةٍ[5]، وقال الفرّاء: الكُره بالضَّمِّ: المشقَّة، يقال: قمتُ على كُره، أي: على مشقَّة، قال: ويقال: أقامني فلانٌ على كَره بالفتح، إذا أكرهك عليه؛ قال: وكان الكسائيُّ يقول: الكُره والكَره لغتان، وأكرهته على كذا: حملتُه عليه كرهًا، وكرَّهتُ إليه الشَّيءَ تكريهًا: نقيض حبَّبْتُه إليه[6]، والمكاره: الشَّدائد، والمكروه: ما يكرهه الإنسان ويشقُّ عليه[7]، ومنه سمّي ما نفَّر عنه الشَّرع والطَّبع مكروهًا؛ لأنَّ الطَّبع والشَّرع لا ينفِّران إلّا عن شدَّة ومشقَّة تلحق بالمكلَّف[8]، والمقصود بالإكراه في الآية: الإلجاءُ والقسر[9].

(1) الرّاغب، المفردات: (شيء).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جمع).
(3) الرّاغب، المفردات: (كره)، والطيبي، فتوح الغيب: 11/159.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/192.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (كره).
(6) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (كره).
(7) ابن الأثير، النِّهاية: (كره)، وابن منظور، لسان العرب: (كره).
(8) عبد الكريم النَّملة، المُهذَّب في علم أصول الفقه المقارن: 1/283.
(9) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/294.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

يُخبر اللّه تعالى نبيَّه ﷺ بقوله: ولو شاء ربُّك - يا محمد ﷺ - لألْهَمَ كلَّ من في الأرضِ الإيمانَ، فآمنوا باللّه، وبما جِئتَ به، لكنَّه لم يشَأْ ذلك؛ لمُخالفتِه مقتضَى حِكمتِه سُبحانَه، أفأنت - يا محمد ﷺ - تُلزِمُ النّاسَ، وتضطرُّهم إلى الإيمانِ، حتّى يكونوا مؤمنِينَ بما جئتَهم به؟ ليس ذلك إليك، ولا قُدرةَ لك عليه، بل اللّه تعالى هو من يَهدي، ويُضِلُّ مَن يشاءُ مِن عباده، لا بإكراهك لهم على ذلك(1).

مِــن مُـقـتـضى إرادة الله تعالى أن يُـؤمِـن مَـن اهـتـدى، ويكفر من أبى

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواو):

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عطفٌ على جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 96]، لتسلية النَّبيِّ ﷺ على ما لقيه من قومه، وهذه الجُملة كالمقدِّمة الكليَّة للجملة التي بعدها، وهي جملة: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ﴾ المفرَّعة على الجملة الأولى، وهي المقصود من التَّسلية(2)، فالمتبادر أنَّها جاءت مُعقِّبة على الفصول السَّابقة الَّتي حكت أقوال الكفَّار ومواقفهم وحجاجهم، ثُمَّ على الفصول القصصيَّة التَّذكيريَّة والتَّمثيليَّة التي أعقبتها بقصد تسليةِ النَّبيِّ ﷺ، وإدخال الطُّمأنينة على قلبه، وتخفيف حُزنه(3)، وذلك أنَّه كان حريصًا على أن يُؤمن جميعُ النَّاس، فأخبره اللّه جل ذِكْرُهُ: أنَّه لا يؤمِن إلّا من سبق له السَّعادة، ولا يَضِلُّ إلّا من سبق له مِنَ اللّه الشَّقاوة(4).

تـسـليَـةُ الـنَّـبـيِّ الأكـرم وطمأنة قلبه، جـرّاء ما لـقـيـه مـن أذى قومه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/299، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/298، والسَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 374.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/292.
(3) محمَّد عزَّة دروزة، التَّفسير الحديث: 3/497.
(4) البغوي، معالم التَّنزيل: 2/436.

دلالة (لو) غير الجازمة:

بيانُ اقتضاء حكمة الله في عدم تواطؤ النّاس على الإيمان

(لو) في قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تقتضي انتفاء جَوابها لانتفاء شرطها، فالمعنى: لكنَّه لم يشأ ذلك، فاقتضت حكمته أن خلق عقول النّاس متأثِّرةً ومنفعلة، بمؤثِّرات التَّفاوت في إدراك الحقائق، فلم يتواطؤوا على الإيمان، فما كان لنفس أن تُؤمن إلَّا إذا استكملت خِلْقَةَ عَقْلِها بما يهيئها للنَّظر الصَّحيح، وحُسْنِ الوعي لدعوة الخير ومُغالبة الهوى في الاعتراف بالحقِّ[1]، ولكن اقتضت حكمته أن يخلقَهم هكذا، يوازنون باختيارهم بين الإيمان والكفر، فيؤمن بعضٌ، ويكفر آخرون[2]، "فشاء أن يؤمن به من علم منه أنَّه لا يختار الكفر، وألّا يؤمن به من علم منه أنَّه لا يؤمن به تكميلًا لحكم القبضتين، وتحصيلًا لأهل النَّشأتين، وجعل الكلَّ مستعدًّا ليصحَّ التَّكليف عليهم"[3].

سِرُّ حذف مفعول المشيئة:

حذْفُ المفعول من بلاغة البيان؛ لكونه مضمونَ الجزاءِ

مفعولُ المشيئة في قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ﴾ محذوفٌ، بحسب المعهود في نظائره في القرآن الكريم، أي: لو شاء سبحانه إيمان مَنْ في الأرض من الثَّقلين، لآمن كُلُّهُمْ[4]؛ فلو شاء ربُّك - يا محمد ﷺ - إيمانَ أهلِ الأرض كلِّهم جميعًا؛ لآمنوا، دون أن يتخلَّف منهم أحدٌ، ولكنَّه سُبحانه لم يشأ ذلك؛ لأنَّه مُخالف للحكمةِ الَّتي عليها أساس التَّكوين والتَّشريع، والإثابة، والمعاقبة، فقد اقتضت حكمتُهُ سبحانه أن يخلقَ الكفرَ والإيمان، وأن يحذِّرَ من الكفر، ويَحُضَّ على الإيمان، ثُمَّ بعد ذلك من كفر؛ فعليه تقع عقوبة كفره، ومن آمن؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/293.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 11/158.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 4/84.
(4) السَّمرقندي، تفسير السَّمرقندي: 2/134، والآلوسي، روح المعاني: 6/181.

فله ثواب إيمانه[1]، فحذْفُ مفعولِ المشيئةِ؛ لِوُجودِ ما يَقْتَضيه مِن وقوعِها شرطًا، وكونِ مَفعولِها مضمونَ الجزاءِ، وألّا يكونَ في تَعلُّقِها به غرابةٌ[2].

دلالةُ التَّعبير بالرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة:

بيانُ تمام الرِّعاية والإحسان من الرَّبِّ سبحانه لأهل الإيمان

لفظ ﴿رَبُّكَ﴾ في قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ﴾، معناه المُحسِن إليك بإقبال من أقبلَ؛ لعلمِه الخير فيه وإدبار من أدبر لعدم قابليَّتِه للخير[3]. فذكر الرُّبوبيَّة هُنا لبيان تمام الرِّعاية والعناية والإحسان من الله لأهل الإيمان، وترْكِ الاختيار مع القدرة على الإجبار من لطف الرُّبوبيَّة، لا من قهر الألوهيَّة، وقد ذكر لفظ الرَّبِّ دائمًا مع تقرير الاختيار، ومنه قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: 118 - 119].

دلالةُ تعليق الإيمان بالمشيئةِ:

تحقيقُ دورانِ إيمان جميع المكلَّفين على قطب المشيئة الإلهيَّة

صرَّح تعالى في قوله: ﴿لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أنَّه لو شاء إيمانَ جميع أهل الأرض؛ لآمنوا كلُّهم جميعًا، وهو دليلٌ واضح على أنَّ كفْرَهم واقعٌ بمشيئته الكونيَّة القدريَّة، وبيَّن ذلك أيضًا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ﴾ [الأنعام: 107] الآية، وقوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السَّجدة: 13]، وقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾ [الأنعام: 35] إلى غير ذلك من الآيات[4]. وفي هذا الفعل تحقيقٌ لدوران إيمان جميع المكلَّفين وجودًا وعَدَمًا على قطب مشيئته ﷻ[5].

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/136.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/177.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/209.
(4) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/367.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/181.

سرُّ اصطفاء الاسم الموصول (مَنْ):

بيانُ أنَّ المُرادَ بخطاب الإيمان، هم عموم العقلاء

﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ اسم موصول لجمع العُقلاء وهو الاسم الموصول الدَّال على العموم المشترك بين الإفراد والجمع والتَّذكير والتَّأنيث، فاصطفاء هذا الاسم؛ لأنَّ المخاطَبين بخطاب الإيمان والتَّكليف، هم العُقلاء من الإنس والجنِّ، وهم الموصوفون بالإيمان أو عدمه في الخطاب الشَّرعي، وقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾، "بأن يلهمهم الإيمان، ويوزِّع قلوبهم للتَّقوى، فقدرته صالحةٌ لذلك، ولكنَّه اقتضت حكمته أن كان بعضُهم مؤمنين، وبعضهم كافرين"[1].

دلالةُ لفظ ﴿كُلُّهُمۡ﴾:

تأكيدُ التَّنصيص على العمومِ المُستفاد من الاسم الموصول

معنى ﴿كُلُّهُمۡ﴾؛ في قوله تعالى: ﴿لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾ أي: بحيث لا يَشِذُّ عنهم أحدٌ[2] وجيء بهذا التَّأكيد للتَّنصيص على العموم المُستفاد مِنْ (مَنْ) الموصولةِ، فإنَّها للعموم[3]، و"في الآيات تقريرٌ ربّانيٌّ بأنَّ اللّه تعالى لو شاء لآمن من في الأرض جميعًا، وسؤالٌ للنَّبي ﷺ، عمّا إذا كان هو مع ذلك يريد أن يرغم النّاس جميعًا على الإيمان"[4]، ولفظ ﴿كُلُّهُمۡ﴾، يستوعب البشريَّة قاطبةً، ولا أحد مهما عظم شأنه، وارتفع قدره، وعظمت قوَّته، يستطيع أن يتأبّى على مشيئةِ اللّه، قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشّعراء: 4].

دلالةُ ورود لفظي ﴿كُلُّهُمۡ﴾ و﴿جَمِيعًاۚ﴾ مُتجاوِرَيْنِ:

التَّأكيدُ بعد التَّأكيد لزيادة رفْعِ احتمال العموم

النَّصب في ﴿جَمِيعًاۚ﴾ على الحال، وهي حال مؤكِّدة[5]، جيء بها

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 374.
(2) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/65.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/209 - 210.
(4) دروزة، التفسير الحديث: 3/496.
(5) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 3/145.

بعد ﴿كُلُّهُمۡ﴾ للتَّأكيد كقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ [النَّحل: 51] فنُصِبَ على التَّأكيد بعد التَّأكيد[1]، وقيل: أتى بها مع أنَّ كلًّا منهما يُفيد الإحاطة والشُّمول للدَّلالة على أنَّ وجود الإيمان منهم بصفة الاجتماع الَّذي لا يدلُّ عليه ﴿كُلُّهُمۡ﴾[2]، ففي الإتيان بلفظ ﴿جَمِيعًاۚ﴾ بعد ﴿كُلُّهُمۡ﴾ قولان: أحدهما أنَّه زيادة تأكيد، ونصبه على الحال، وقيل: لمّا كان (كل) يقع تأكيدًا، ويَقَعُ اسمًا غير تأكيد؛ أتى معه بما لا يكون إلّا تأكيدًا، وهو ﴿جَمِيعًاۚ﴾، فجمع بينهما، ليُعلم أنَّ معناهما واحدٌ، وأنَّه للتَّأكيد[3]؛ وقد سبق أنَّ التَّأكيد بلفظ ﴿كُلُّهُمۡ﴾ للتَّنصيص على العموم المستفاد من (مَنْ) الموصولة، فإنَّها للعموم، فجيء بالتَّأكيد بلفظ (جميعًا) لزيادة رفع احتمال العموم العرفيِّ دون الحقيقيِّ، وهو من فصيح الكلام[4]، ومعنى ﴿جَمِيعًاۚ﴾، أي: "مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه، لكنَّه لا يشاؤه؛ لكونه مخالفًا للحِكمة التي عليها بُنِيَ أساسُ التَّكوين والتَّشريع، وفيه دِلالةٌ على أن مَن شاء اللّه تعالى إيمانَه يؤمن لا محالة"[5].

الموقع البيانُّي لجملة الإنشاء: ﴿أَفَأَنتَ﴾:

السّياق مُواساة للنَّبيِّ الكريم، لمصابه في قومه المناوئين

الجملة ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ مُفرِّعةٌ على الَّتي قبلها؛ لأنَّه لَمَّا تقرَّر أنَّ اللّه لم تتعلَّق مشيئتُه باتّفاق النَّاس على الإيمان باللّه؛ تفرَّع على ذلك إنكارُ ما هو كالمحاولة لِتحصيل إيمانهم جميعًا[6]، فيكون ورود قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ ...﴾، كالمقدِّمة الكليَّة، لقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، وفيه عزاءٌ للنَّبي الكريم ومُواساةٌ له عن مصابه في قومه الذين أبوا أن يستجيبوا له،

(1) عبد القاهر الجُرجانيّ، درج الدُّرر: 1/832.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 3/281.
(3) مكّي القيسيّ، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 5/3330.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/145، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/292.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/177.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/293.

وأن يتقبَّلوا الخير الذي جاءهم به، فإنَّه لا إكراه في الدِّين، وذلك لأمرين: الأمر الأوَّل: أنَّ الدّين عقيدةٌ، والعقيدة إيمانٌ بالمُعتقد فيه، والإيمان بالشَّيء لا يكون حتّى يرضاه العقل، وتميل إليه النَّفس، ويطمئنَّ له القلب، وليس في شيء من هذا مكان للإكراه، بل إنَّ الإكراه هو الآفة الَّتي تحجب القلبَ عن الإيمان، وتغتال الإيمان إذا هو وجد طريقًا إلى القلب، والأمر الثَّاني: أنَّ القلوب التي هي مستودع الإيمان، بيد الله ﷻ، إن شاء ساق إليها الإيمانَ، وهيَّأها لاستقبالِه، ونفعها به، فأزهر فيها، وأثمر، وإن شاء صرفها عن الإيمان، وختم عليها، فلم تقبله، ولم تنتفع به[1].

دلالةُ الهمزة الاستفهاميَّةِ:

الاستفهامُ من أساليب التَّأديب لـنَـفـي وقــوع الإيمان بالإكراه

الهمزةُ في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ للاستفهام، وهو هُنا إنكاريٌّ، وهو بالنِّسبة لمقام النَّبي ﷺ تأديبيٌّ[2]، أي: أفأنت يا محمَّد تُلزِمُ النَّاس، وتلجئهم إلى الإيمان، ليس ذلك عليك ولا إليك، بل إلى الله وعليه، فالإيمان لا يتمُّ بالإكراه والإلجاء والقسر، وإنَّما يتمُّ بالطَّواعية والاختيار[3]، فالإنكارُ يرادُ به التقريرُ، ويُلمح فيه أيضًا معنى النَّفي[4].

دلالةُ المحذوف على معنى الإكراه والدّافع إليه:

بيانُ شدَّة حِرْصِ النَّبيِّ على إيمان قـومـه، وحـزنـه على كفرهم

الهمزةُ الاستفهامية هُنا داخلةٌ على محذوفٍ، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتَّقدير: (أتحزن يا محمَّد ﷺ، على عدم إيمانهم، وتتأسَّف عليه، فأنت تُكرِهُ النَّاس، أي: تريد أن تجبرهم على الإيمان؟)[5] وكان رسول الله ﷺ لشدَّة حرصه ورغبتِهِ في

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1088.

(2) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 12/361.

(3) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/269، ووهبة الزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 11/272.

(4) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 2/254.

(5) الصّاويّ، حاشية الصَّاويّ على الجلالين: 2/120، والهرريّ، حدائق الرّوح: 12/361.

إيمانهم، كاد أن يُكرههم على الإيمان إشفاقًا عليهم، كقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3][1].

دلالة الفاء:

بيانُ تفرُّعِ الإنكار على ما ورد قبلُ، من ذكر عدم المشيئة

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾، للتَّفريع والمقصود تَفَرُّع الإنكار على ما ورد قبْلُ، وقيل: إنَّ الهمزة في موضعها والعطف على مقدَّر ينسحب عليه الكلام، كأنَّه قيل: (أربُّك لا يشاء ذلك، فأنت تُكرههم؟)[2]، فيجوز أن تكون الفاءُ لترتيب الإنكار على عدم مشيئته تعالى، بناء على أنَّ الهمزة متأخِّرة في الاعتبار، وإنَّما قُدِّمت لاقتضائها الصَّدارة، كما هو رأي الجمهور وأيًّا ما كان، فالمشيئة على إطلاقها؛ إذ لا فائدة بل لا وجه لاعتبار عدم مشيئة الإلجاء خاصَّة في إنكار التَّرتيب عليه أو ترتيب الإنكار عليه[3].

فائدةُ تقديم الضمير ﴿أَفَأَنتَ﴾ على المسند الفعلّي ﴿تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾:

تقويةُ حكم الإنكار بالدَّلالة على أنَّ خلاف المشيئة مُستحيل

تقديم الاسم في الاستفهام على الفعل للإعلام، بأنَّ الفعل - وهو هُنا الإكراه - ممكن لكن من غير ذلك الاسم؛ فاللَّه وحده هو القادر على تحويل الطِّباع، فإنَّ قُدرته قاهرةٌ لكلِّ شيء، ومشيئتُه نافذةٌ في كلِّ شيء، مع الدَّلالة على أنَّ وقوع خلاف المشيئة مستحيل، لا يمكن لغيره تعالى بإكراه ولا غيره، والمُراد تخفيف ما يلحق النَّبي ﷺ من التَّحسُّر للحرص على إيمانهم[4]، فتقديم الضَّمير على الفعل للدَّلالة على أنَّ خلاف المشيئة مُستحيلٌ، فلا يمكن تحصيله بالإكراه عليه فضلًا عن الحثِّ، والتَّحريض عليه[5]. ولأجل كون هذا الحرص الشَّديد، هو محلُّ التَّنزيل، ومصبُّ الإنكار، وقع تقديم الضمير

(1) الماتريديّ، تفسير الماتريديّ: 6/88.
(2) الآلوسي، روح المعانيّ: 6/181.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/177.
(4) الكشّاف: 2/372، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/210، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/108.
(5) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/124.

على المسند الفعليِّ، فالتَّقديم لتقويَةِ حكم الإنكار[1]، وليس مفيدًا للتَّخصيص؛ أي: القصر؛ لأنَّ المقامَ غير صالح لاعتبار القصر؛ إذ مجرَّدُ تنزيل النَّبيِّ ﷺ منزلة من يستطيع إكراه النَّاس على الإيمان، كافٍ في الإشارة إلى تشبيه حرصه على إيمانهم، بحرص من يستطيع إكراههم عليه[2].

دلالةُ الفعل المضارع:

بيانُ الحرص النَّبويِّ على هداية النّاس، وتكرارها وتجدُّدها

معنى ﴿تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾: تُلجئهم إلى الإيمان وتضطرُّهم إليه[3]، فلكثرة حرصه ﷺ على هداية النّاس، وتكرار دعوته لهم وتجدُّدها منه، حينًا بعد حين، عبَّر عن لازم هذا الحرص بالفعل المضارع، وهذا تعريضٌ بالثَّناء على النَّبيِّ ﷺ، ومعذرة له على عدم استجابتهم إيّاه، ومن بلغ المجهود حُقَّ له العذر[4].

بلاغةُ الاستعارة:

تصويرُ حرص الرَّسول على إيمانهم بحرص من يرنو إلى إكراههم عليه

في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾، استعارة تصريحيَّة تبعيَّة؛ وذلك بتشبيه حرصه ﷺ على إيمانهم، بحرص من يستطيع إكراههم عليه، فنُزِّل النَّبيُّ ﷺ، لحرصه على إيمان أهل مكَّة، وحثيث سعيه لذلك، بكلِّ وسيلة صالحة، منزِلةَ من يحاول إكراههم على الإيمان، حتّى ترتَّب على ذلك التَّنزيل إنكارُهُ عليه[5].

إيثار لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ ودلالة التَّعبير به:

خطابُ البلاغ النَّبويِّ مكرَّسٌ لمن أمر بدعوتهم

في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ كان المتبادر (أفأنت تُكرِه من في الأرض) جريًا على اللَّفظ الأوَّل ﴿مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، لكنّه عَدَلَ عن ذلك وجاء بلفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ والناس هُنا هم العرب، أو أهل مكَّة

---

(1) البروسويّ، روح البيان: 4/84.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/293.
(3) عبد الرّزاق الرَّسعنيّ، رموز الكنوز: 3/107.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/293.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/293.

منهم، وذلك إيماءٌ إلى أنَّهم المقصود من سَوْق القَصَص الماضية، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: 71]، فالمُراد بالنّاس: من طُبِعَ عليهم، والذين عاش النَّبيُّ ﷺ بين ظهرانيهم، أو الجميع؛ مبالغةً[1].

العِلَّة في اختيار ﴿يَكُونُواْ﴾ بدلًا من (يُصْبِحُوا):

رعايةُ معنى إلهامهم إلى الإيمان مع إرشادهم إليه

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ﴾، أي: كونًا جبليًّا[2]، بأن يلهمَهم الإيمانَ، ويوزِّع قلوبهم للتَّقوى، فقدرته صالحةٌ لذلك، ولكنَّه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين، وبعضهم كافرين[3]، فعبَّر النَّظم بلفظ ﴿يَكُونُواْ﴾ بدل (يُصْبِحُوا): مع أنَّ التَّحوُّل في الثَّانية أظهر من الأولى رعايةً لهذا المعنى.

سِرُّ التَّعبير بـ اسم الفاعل: ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ بدلًا من: (حتّى يُؤْمِنُوا):

الرُّسوخ في الإيمان، هي الحال اللّائقة، بمن عرَف الحقَّ واتَّبعه

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، أي: راسخين في الإيمان[4]، فجيء بالاسم دون الفعل للدَّلالة على الرُّسوخ في الإيمان، وأنَّه هو المعتبر والمنتظر، ممَّن دُعِيَ إلى الحقِّ، فعرَفه، فآمن به، وثبت عليه، "والمعنى: تلك هي مشيئتنا، لو أردنا إنفاذها؛ لنفَّذناها، ولكنَّنا لم نشأ ذلك، فهل أنت - يا محمد ﷺ - في وسعك أن تُكرِهَ النّاس الَّذين لم يرد اللّه هدايتهم على الإيمان؟ لا، ليس ذلك في وسعك، ولا في وسع الخلق جميعًا، بل الَّذي في وسعك هو التَّبليغ لما أمرناك بتبليغه"[5].

دلالةُ حذف مُتَعَلَّق ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾:

بيانُ أنَّ ما جاء به النَّبي المبلِّغ، هو الإيمان الَّذي أمر الله به

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، أي: لك، مُصدِّقين على ما

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/181، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/292.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/210.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 374.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/210.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 7/136.

جئتهم بهِ من عند ربِّك[1]؛ إذ ما جاء به النَّبي ﷺ، هو الإيمان الَّذي أرسل اللّٰه به رسله، وخاطب به عباده، ودلَّهم عليه، وأرشدهم إليه.

الفروقُ المُعجَمِيَّة:

الإكراه والإجبار:

الإجبارُ حملُ الإنسانِ غيرَه على الفعل مع الإيعاد على تركِهِ، والإكراه أعمُّ

الإكراه: خلاف الرِّضا والمحبَّة، ويقال في حمل الإنسان على ما يكرهه[2] قسْرًا وجبْرًا، فمعنى الإكراه لغةً يدور حول المشقَّة والشِّدَّة، وعدم الرِّضا والمحبَّة وعدم الاختيار، وحَمْل الآخرِ على ما يكرهه بالوعيد الشَّديد، والإلزام والإجبار على ما يكرههُ الإنسان طبعًا أو شرعًا[3]، والمقصود بالإكراه في الدّين إجبارُ الإنسان على اعتناق دين جبرًا عنه، بأيِّ نوع من أنواع الجبر والقهر، ويُعرَّف الإجبار لغةً بالقهر والإكراه، يقال: جَبَر الرَّجلَ على الأمر يَجْبُرُهُ جبرًا وجبورًا وأجبره: أكرهه[4]. فالإكراه في اللُّغة يساوق الإجبار، كما عرَّفه اللُّغويّون، إلَّا أنَّ بعض المحقِّقين جعله أعمَّ منه؛ إذ ذهب إلى أنَّ الإجبار هو حمْلُ الإنسان غيرَهُ على الفعل مع الإيعاد على تركه، في حين قد يصدق الإكراه بالحمل على الفعل من دون إيعادٍ على تركه، كما إذا طلب منه أبوه أو أمُّه أو زوجته فعلًا ولم يكن مجبرًا عليه، إلَّا أنَّه يريد إرضاءَهم وعدم مخالفتهم. وفي الإجبار معنى الاستعلاء أيضًا[5]. ولعمومِ الإكراه، وخلوِّه من معنى الاستعلاء اختيرَ في الآية ليناسب خطابَ النَّبيِّ ﷺ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/213.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (كره).
(3) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 50.
(4) ابن منظور، لسان العرب، والجوهريّ، الصّحاح: (جبر).
(5) التّهانويّ، كشَّاف اصطلاحات الفنون: 1/549.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٠﴾ [يونس: 100]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيـانُ تبعيَّة إيمان النُّفوس لمشيئته تعالى، بعد بيان دوران كلِّ شيء عليها

تأتي هذه الآية؛ تأكيدًا للمعنى الوارد في الآية السّابقة؛ فقد خلقَ الإنسان، ويَسَّر له أسبابَ الهداية، ومن سنن اللّه تعالى، أنَّه يسَّر الإيمان والهداية، لمن أخذ بالأسباب، وأعملَ عقلَه وفطرته، وتابع ذلك بالتَّأمل، والنَّظر، والتَّفكر[1]، ففي هذه الآية، رَدٌّ لكلِّ أمرٍ إلى اللّه تعالى، وإلى أنَّ الحول والقوَّة للّه في إيمان من يُؤمن[2]، وتعليلٌ للإنكار الذي تضمَّنه الاستفهامُ في الآية السَّابقة: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، ذلك أنَّه إذا كان الإيمان رَهْنًا بمشيئة اللّه؛ فليس يجدي بحال أبدًا هذا الحرص الشَّديد الَّذي يبدو من النَّبيِّ ﷺ، وهو يدعو أهله وقومه إلى الإيمان باللّه، وإنَّ المطلوب منه هو أن يرفع مصباح الهدى للنَّاس، وأن يكشف لهم به الطَّريق إلى اللّه، فمن كان ممَّن أراد اللّه لهم الهداية اهتدى، ومن كان ممَّن أضلَّهم اللّه؛ فلا هادي له[3]. وخلاصة ذلك كلِّه: أنَّ في هذه الآية بيانًا لتبعيَّة إيمان النُّفوس لمشيئته تعالى وجودًا وعدمًا، بعد بيان الدَّوران الكُلّي عليها كذلك[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾: الإذنُ لغةً الإطلاقُ في الفعل، ويكون الأمر إذنًا، وكذلك الإرادة، وقال الحرّاليُّ: هو رفْعُ المنع وإيتاء المُكنة كونًا وخلقًا،

(1) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 11/2124.
(2) ابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 3/145.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/1089.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/182.

وقال ابن الكمال: هو فكُّ الحجر وإطلاق التَّصرُّف لمن كان ممنوعًا شرعًا[1]. فالإِذْنُ: مَصْدَرُ أذِنَ، يَأْذنُ، وأصلُه: رَفْعُ المَنْعِ، وإطلاقُ الفِعْلِ، والإباحَةُ، يقال: أذِنْتُ لَهُ في شَيْءٍ، أي: أطْلَقْتُ له فِعْلَهُ[2]، ويُطْلَقُ الإذْنُ على الإعْلام، ومنه الأذان: وهو الإعْلامُ بدخولِ الوقتِ، وأذِنْتُ بالشَّيء: عَلِمْتُ به، والاستئذانُ: طَلَبُ الإذْنِ[3]، والإذْنُ في الآية إذْنُ تَكْوينٍ وتَقْديرٍ[4].

2) ﴿ٱلرِّجْسَ﴾: الرِّجس: القَذَرُ، والرِّجس: الحرام، وقال أبو زيد: رجستِ السَّماء: رعدَتْ[5]، والرِّجس: القذر، وقد يُعبَّر به عن الحرام، والفعل القبيح، والعذاب، واللَّعنة، والكفر، قال الفرّاء: إذا بدؤوا بالنَّجس، ولم يذكروا معه الرِّجس؛ فتحوا النّون والجيم، وإذا بدؤوا بالرِّجس ثمَّ أتبعوه النَّجِس كسروا الجيم[6]، وأصل (رَجَسَ): يدلُّ على اختلاط. والرِّجس: القذر، وقيل: الشَّيء القَذِر. ورجس الشَّيء يرجس رجاسة، وإنَّه لرجسٌ مرجُوس، وكلُّ قَذَر رِجْسٌ[7]، الرِّجْسُ: المَأْثَمُ، والكُفر، والرَّجْسُ، بالفَتْح: شِدَّةُ الصَّوْتِ. والمقصود بالرِّجْس في الآية: العَذَابُ. قال الفرّاءُ: إنَّه العِقَابُ والغَضَبُ[8] والرِّجس في الآية مقصود منه: الكُفْر[9].

3) ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾: أصل (عقل): مَا دلَّ على حُبْسَةٍ في الشَّيءِ أو ما يُقارِبُ الحُبْسَةَ. مِنْ ذلك العَقْلِ، وهو الحابِسُ عن ذَميمِ القولِ والفِعْلِ[10]، وهو ضِدُّ الحُمق والجَهل[11]، والجَمع: عُقولٌ، ويأتي العَقْلُ بمعنى: الفَهْم والتَّمييز، يقال: عَقَلَ الشَّيء يعقله عقلًا، أي: فَهِمَهُ، والعَقْلُ أيضًا: الشَّدُّ والرَّبط، تقولُ: عَقَلَ الدّابة، أي: شدَّها ورَبطَها[12]، والمُرَاد بقوله: ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾: نَفيُ العَقْلِ المُستقيم.

---

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: 34/161.
(2) المناويّ، التّوقيف على أمّهات التّعاريف، ص: 44، والزّبيديّ، تاج العروس: (أذن).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (أذن).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/294.
(5) إبراهيم بن إسحاق الحربيّ، غريب الحديث: 1/14.
(6) ابن الأثير، النّهاية: 2/200.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجس).
(8) الفرّاء، معاني القرآن: 1/480، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (رجس).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/294.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (عقل).
(11) الخليل، العين: (عقل).
(12) الرّاغب، المفردات: (عقل).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخاطِبُ اللّه تعالى النَّبيَّ ﷺ قائلًا: ما ينبغي لنفسٍ أن تؤمِنَ وتهتديَ إلّا بقضاءِ اللّه وقَدَرِه ومَشيئتِه، فلا تُجهِدَنَّ نفسَك - يا محمد ﷺ - في طلَبِ هُداها، وبلِّغها وعيدَ اللّه، ثمَّ خَلِّها؛ فإنَّ هُداها بيَدِ خالِقِها، ولا تكفي دعوتُك في حصولِ الإيمانِ حتّى يأذَنَ اللّه لِمَن دَعوتَه أن يؤمنَ، ويجعلُ اللّه غضبه وعذابه على الَّذين لا يعقلون آياتِه، وحُجَجَه، ومواعِظَه، وأوامره ونواهيه(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تعلُّق مشيئةِ اللّه وحكمته بأفعاله وأفعال عِباده، ووقوعها وِفقهما

دلالة (الواو) على العطف:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾، معطوفٌ على جملة: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾، لتقرير مضمونها؛ لأنَّ مضمونها إنكار أن يقدر النَّبيُّ ﷺ على إلجاء النّاس إلى الإيمان؛ لأنَّ اللّه هو الَّذي يقدر على ذلك، ويجوز أن تكون الواو للحال من ضمير المُخاطب، أي: كيف يمكنك أن تُكرِه النّاس على الإيمان، والحال أنَّه لا تستطيع نفسٌ أن تؤمن إلّا بإذن اللّه لها بالإيمان(2)؟ فهو تعليل للإنكار الَّذي تضمَّنه الاستفهام في الآية السّابقة(3). وفيها بيان لتبعيَّة إيمان النُّفوس الَّتي علم اللّه تعالى إيمانها لمشيئته تعالى - وجودًا وعَدَمًا - بعد بيان الدَّوران الكُلّي عليها كذلك(4).

التَّقريرُ والتَّعليل ببيان تبعيَّة الإيمانِ لمشيئة الرَّحمن

دلالةُ القصر بالنَّفي والاستثناء:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾، أي: ما ينبغي أن تؤمن نفسٌ إلّا بقضائه وقدره ومشيئته وإرادته(5)، أي: حال

ورود الصِّفة حال كونها ملابسةً بإذنه تعالى وتوفيقه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/299، 300، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/386، وابن القيِّم، شفاء العليل، ص: 60، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 374.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/294.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1089.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/182، والصَّاوي، حاشيّة الصَّاوي على الجلالين: 2/120.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/385.

كونها ملابسة بإذنه تعالى وتسهيله وتوفيقه، فلا تجهد نفسك في هداها، فإنَّه إلى اللّه[1]. وخُصِّصت النَّفس بالصِّفة المذكورة من باب قصر الموصوفِ على الصِّفة؛ لأنَّ الاستثناء مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، فلا بدَّ من كون الإيمان ممّا يؤول إليه حالها، فإنَّ النُّفوس الَّتي علم اللّه تعالى أنَّها لا تُؤمن، ليس لها حالٌ تؤمن فيها، حتّى تُستثنى تلك الحال من غيرها[2]، فالمنفيُّ هو استطاعة الخروج عن هذا النِّظام العامِّ، لا الاستطاعة الخاصَّة الموافقة له[3].

دلالةُ الكون المنفيِّ:

تقييدُ إيمان النُّفوس بالسُّنن والأقدار

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ﴾ أي: وما ينبغي، ولا يتأتّى[4] لنفس ولا من شأنها، فيما أشير اليه من استقلالها في أفعالها، ولا ممّا أعطاها اللّه من الاختيار فيما هداها من النَّجدين، وما ألهمها من فجورها وتقواها الفطريَّيْن، أن تؤمن إلّا بإرادة اللّه ومُقتضى سنَّته، في استطاعة التَّرجيح بين المتعارضين، فهي مختارة في دائرة الأسباب والمسبَّبات، ولكنَّها غير مستقلَّة في اختيارها أتمَّ الاستقلال، بل مقيَّدة بنظام السُّنن والأقدار[5]، ففي هذا النَّفي تأكيدٌ لما اشتملت عليه الآية السّابقة من قدرة نافذة للّه تعالى[6] في قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾.

العلَّة من التَّعبير بـ المضارع في قوله: ﴿تُؤۡمِنَ﴾:

نفي تجدُّد الإيمانِ إلّا بمشيئة الله تسليَةٌ للدُّعاة وتأديبٌ لهم

قوله تعالى: ﴿أَن تُؤۡمِنَ﴾ أي: يقع منها إيمان في وقتٍ ما[7]، تجدُّدًا لهذا الإيمان أو استمرارًا عليه، وفي هذا تسليَةٌ لأهل التَّذكير حين

(1) البروسويّ، روح البيان: 4/84.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/182.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/484.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/210.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/484.
(6) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/136.
(7) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/210.

يرون النَّاس لم ينفع فيهم تذكيرهم، وفيها تأديبٌ لمن حرص على هداية النَّاس كلِّهم، أو يتمنّى أن يكونوا كلُّهم مؤمنين، فإنَّ هذا خلاف حكمته تعالى[1].

بلاغةُ المجاز في لفظ الإذن:

لا يقع شيءٌ في الكون إلا بمشيئة الله تعالى

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ مجازٌ مرسلٌ بإطلاق الإذن على المشيئة، أي: إلّا بمشيئة اللّه تعالى؛ لأنَّ الغالب أنَّ الإذن في الشيء لا يقع إلّا بمشيئة الآذِن، واختياره الملازمة مصحِّحة للمجاز[2].

إيثار لفظ (الإذن) في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾:

الإذنُ إذنُ تكوينٍ وتقدير، لتَهييءِ النَّفس لما خُلقت له

الأصل في الإذن بالشَّيء الإعلامُ بإجازته والرُّخصة فيه ورفْعُ الحَجْرِ عنه[3]، ومعنى (الإذن) في هذه الآية الإرادة والتَّقدير لذلك، فهو العلم والتَّمكين[4]؛ وهو إذن تكوين وتقدير، لتَهييءِ النَّفس لما خُلقت له، فهو خَلْقُ النَّفسِ مستعدَّةً لقبول الحقِّ مميِّزةً بين الحقِّ والباطل، والصَّلاح والفساد، متوصِّلة بالنَّظر الصَّحيح إلى معرفة ما ينبغي أن يتَّبع وما لا ينبغي، مُتمكِّنة بصحَّة الإرادة من زجر داعية الهوى والأعراض العاجلة، ومن اتِّباع داعية الحقِّ والعاقبة الدّائمة، حتّى إذا وجِّه إليها الإرشاد؛ حصل فيها الهدى[5].

السِّرُّ في إيثار اسم الجلالة في: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾:

مُراعاةُ المقام وتربيَةُ المهابة من مقاصد السّياق

ولكون المقام مقامَ توحيدٍ وإيمان عبَّر النَّظم الكريم بالألوهيَّة المقتضية للعبادة والتَّوحيد تربيةً للمهابة في النُّفوس وإشعارًا بعلَّة الحكم، والمعنى: "وما كانَ لِنَفْسٍ أنْ تُؤْمِنَ إلَّا بإذن اللّه

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/187.
(2) عفيف، الشامل في بلاغة القرآن: 2/31.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/182.
(4) ابن عطيّة الأندلسي، المحرّر الوجيز: 3/145.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/294.

بمشيئته وألطافه وتوفيقه، فلا تجهدْ نفسك في هداها، فإنَّه إلى اللّٰه تعالى"[1].

دلالةُ العطف:

الـدَّلالـة على المذكور، دلالة الـضِّـدِّ على الضِّدِّ، والنَّقيض على النَّقيض

قوله: ﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ﴾ معطوفٌ على محذوف، تقديره: فيريد اللّٰه الإيمان للبعض، ويجعل الرِّجس على الذين لا يَعۡقِلُونَ[2]، وهذا العطفُ على المحذوف يدلُّ عليه المذكور دلالة الضِّدِّ على الضِّدِّ، أو النَّقيض على النَّقيض، فالقرينة مُقابلته بالإيمان كالمقابلة الَّتي في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾.. إلى قوله: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ [التّوبة: 124، 125][3]. فإذ كان كلُّ شيء بإذنه وتيسيره ومشيئته التي تجري بقدره وسنَّته، فهو يجعل الإذنَ وتيسير الإيمانِ للَّذين يعقلون آياته في كتابه وفي خلقه، ويوازنون بين الأمور، فيختارون خير الأعمالِ على شَرِّها، ويُرَجِّحون نفعها على ضرِّها بإذنه وتيسيره، ويجعل الخذلان والخزي المرجِّح للكفر والفجور على الَّذين لا يعقلون ولا يتدبَّرون، فهم لِأَفَنِ رأيهم، واتِّباع أهوائهم، يختارون الكفر على الإيمان والفجور على التَّقوى[4].

إيثار لفظ الرِّجس ودلالته:

الـكـفْـرُ خُـبـثٌ نفسانيٌّ، يُوجِب لصاحبه العذاب

الرِّجس: حقيقته الخبث والفساد، ويُطلقُ على الشَّيء القبيح المُستقذَر، وأُطلق هُنا على الكفر؛ لأنَّه خُبثٌ نفسانيٌّ، فالمعنى: ويجعل الكفر وما يترتَّب عليه من عذاب على القوم الَّذين لم يستعملوا عقولهم، فيما يهدى إلى الحقِّ والخير، بل استعملوها فيما يوصل إلى الأباطيلِ والشُّرور[5]، فعبَّر عن الكفر بالرِّجس؛ لكونه علمًا

(1) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 2/500.
(2) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 12/362، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/136.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/294.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/484.
(5) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/136.

في الفساد والاستقذار، وقيل: المراد به العذاب، وعبَّر عنه بذلك لاشتراكهما في الاستكراه والتَّنفير، وإرادة الكفر منه باعتبار أنَّه نُقِلَ أوَّلًا عن المُستقذر إلى العذاب للاشتراك، فيما ذُكِرَ، ثُم أطلق على الكفر؛ لأنَّه سببه، فيكون مجازًا في المرتبة الثّانية، واختار المحقِّقون من أهل التَّفسير المعنى الأوَّل، تحاشيًا ممّا في إطلاق المُستقذَر على عذاب الله تعالى[1].

دلالةُ الفعل المضارع ﴿وَيَجۡعَلُ﴾:

الرِّجس يوصف به من غَمَسَ نفسَهُ في حمْأة الكفر

قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُ﴾، أي: ويُوقِعُ الكُفْرَ على الَّذينَ لا يَعْقِلُونَ[2]، والمضارع المذكور هنا للاستمرار[3]، فالكافر مرجوسٌ منكوس مادام مستمرًّا في كفره، فالرِّجس ملازم له لاينفكُّ عنه، وكونه تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ﴾، أي: الخذلان والخزي المرجِّح للكفر والفجور[4]، ووجوده مستمرًّا نكسةٌ على صاحبه وسوء مصير.

دلالةُ اختلاف القراءة القرآنيَّة في لفظ ﴿وَيَجۡعَلُ﴾:

ضميرُ العظمة تعظيم لشأن الجعل، وبعثٌ للمهابة في النُّفوس

قرأ الجمهور ويجعل الرِّجس بياء الغيبة، والضَّمير عائد إلى اسم الجلالة الَّذي قبله، وقرأه أبو بكر عن عاصم: ﴿وَنَجۡعَلُ﴾ بنون العظمة[5]، وفيه بيانٌ لعظيم هذا الجعل، وبعثٌ للمهابة في نفوس السّامعين، وذلك أدعى إلى تلقّي الوعيد بعناية وخشية.

دلالةُ حرف الجرِّ ﴿عَلَى﴾:

إفادةُ الاستعلاء المجازيِّ المستعمل في التَّمكُّن

﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، للاستعلاء المجازيِّ المستعمل في التَّمَكُّنِ[6]، وهُوَ تمكُّن الكفر منهم، حتَّى كأنَّه يَقَعُ فوقهم، والرِّجس هو الكفر، وهو رجس مستقذرٌ،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/177، والآلوسي، روح المعاني: 6/182.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/295.
(3) أَطَّفَيِّش، تيسير التَّفسير: 6/318.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/395.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/295.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/295.

ولكنَّهم لم ينظروا منه ذلك الوجه المستقبح، فكان جعْلُه عليهم وبالًا وضلالًا، وعليه فلا غرابة أن يستعمل هنا حرف الاستعلاء المجازيِّ ﴿عَلَى﴾.

بلاغة النَّفي بـ (لا):

الكفرُ يحول دون هداية العقل إلى إدراك الحقائق الإيمانيَّة

المراد بالنَّفي في قوله تعالى: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ نفي العقل المستقيم، أي: الَّذين لا تهتدي عقولهم إلى إدراك الحَقِّ، ولا يستعملون عقولهم بالنَّظر في الأدلَّة[1]. وفي ذلك إشارة " إلى أنَّ الكفر هو وليد الجهل والحمق، وعدم استعمال العقل وتوجيهه إلى تعقُّل الآيات المبثوثة في هذا الكون الَّذي تتجلّى في آفاقه آياتُ الخالق المبدع، وقدرة الحكيم العليم، الخالق المصوِّر"[2].

بديعُ المقابلة بين حال أهل الإيمان، وحال من لا يعقل:

تصويرُ حُسْنِ أحوال المؤمنين، وتبشيع أحوال الكافرين

يومِئ المعنى الأوَّل من الإذن في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ قوله في مقابله: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فقابل هذه الحالة بحالة الَّذين لا يعقلون، فَعُلِمَ أنَّ حالة الإيمان حالةُ من يعقلون[3]. كما أنَّ وضع الرِّجس في مُقابل الإيمان، إشارة إلى أنَّ الإيمان طُهْرٌ وتزكيَةٌ وتطييب للمؤمن، على خلاف الكفر، فإنَّه قذر ونجس ورجس يلبس صاحبه ويشتمل عليه كما يلبس الجِلْدُ الجسدَ ويحتويه[4]. فَشكَّلت هذه المُقابلة البديعة بين كلِّ هذه المعاني صورةً إعجازيَّة بديعة، لمن أعمل الفكر في تدبُّرها، وحرَّر القول في التَّذكير بها وتَذَكُّرِها.

دلالةُ وَضْعِ الّذين ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ بدل الَّذين (لا يُؤْمِنُونَ):

الكُفرُ وليد الجهل والحُمْق، وعدمِ استعمال العقلِ

في وضع الَّذين ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ بدل الَّذين (لَا يُؤْمِنُونَ) - بحسب

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 11/295.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1090.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 11/295.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1089.

ما يَقْضي به السّياق - إشارة إلى أنَّ الكُفر هو وليدُ الجهل والحمق، وعدمِ استعمال العقلِ، وتوجيهه إلى تعقُّل الآيات المبثوثةِ في هذا الكون، الَّذي تتجلّى في آفاقه آيات الخالق المبدع، وقدرة الحكيم العليم الخالق(1).

عِلَّةُ حذف المفعول بِهِ للفعل ﴿يَعۡقِلُونَ﴾:

التَّنويهُ بإعمال الفكر في تحصيل المعنى، وتنويع دلالاته

حُذِفَ مفعول ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾، والتَّقدير: لا يعقلون حُجَجَ اللّه تعالى وأدلَّته، فهو العادل الحكيم في هداية من هدى، وإضلال من أضلَّ(2)، أو لا يعقلون أحكامه لما على قلوبهم من الطَّبع(3)، فهم لا يتدبَّرون في آيات اللّه تعالى، لكي ينتفعوا بها، وهم يدَّعون أنَّهم أعقل النّاس، ويتساقطون في مساوئ الأخلاق، وهم يدَّعون أنَّهم أبعد النَّاس عنها(4).

تنزيلُ الفعلِ المتعدّي منزلة اللازم:

انتفاءُ عقلهم مناطُ الذَّمِّ ولذلك كان مرادًا

في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ تنزيلٌ للفعل المتعدّي منزلة اللازم، وذلك لصرف العناية والاهتمام إلى الفعل، وأنَّه هو المراد في ذاته لا وصوله إلى المفعول(5). لكونه مظنَّة الذمِّ والمؤاخذة.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرِّجْزُ والرِّجْسُ:

الرِّجْزُ يختصُّ بالعذاب، والرِّجْسُ بالتَّعبير عن القَذَرِ حسّيًّا أو معنويًّا

(الرِّجْزُ)، و(الرِّجْسُ) متقارِبانِ لفْظًا ومَعْنًى، فإنَّ الرِّجْزَ يدلُّ على اضطرابٍ، والرِّجْسَ يدلُّ على اختلاطٍ، إلَّا أنَّ الرِّجْزَ في القرآن الكريم اختصَّ بالعذاب، بخلافِ الرِّجْسِ فإنَّه يغلِبُ في التَّعبير عن القَذَرِ حسِّيًّا كان أو معنويًّا؛ لِمَا في القذَرِ من اللَّطْخِ والخلْطِ.

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1089.
(2) الإيجي، جامع البيان: 2/157.
(3) الشهاب الخفاجي، حاشية الشِّهاب على البيضاوي: 5/106.
(4) الخطيب الشِّربيني، تفسير الشِّربيني: 2/44.
(5) عفيف، الشامل في بلاغة القرآن: 2/31.

والرِّجْسُ وإن استُعمِلَ في القرآن الكريم مرادًا به العذابُ، كما في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ﴾ [الأعراف: 71]، إلّا أنَّهُ قد جُعِلَ ما أفضى إلى العذابِ رجسًا؛ استقذارًا لَهُ، فَلَمْ يخرُجْ عَنْ أصلِ دِلالَتِهِ، أمّا الرِّجْزُ؛ فلا يَخْرُجُ عَن معْنَى العذابِ، وذلك لِما يُتَصوَّرُ فيه من اضطرابٍ وحركةٍ وجلبةٍ؛ إذِ العذابُ النّازِلُ لا بُدَّ فيه للمنزولِ بهم مِن أن يَضْطَرِبُوا لأجْلِهِ. وثَمَّ ملمحٌ دلاليٌّ بين الرِّجْزِ والرِّجْسِ، يُومئُ إليهِ الحرفَانِ اللَّذانِ وقعَ فيهما الاختلافُ بين الكلمتَيْن وهما الزّايُ والسِّينُ؛ فإن الرِّجْزَ اختصَّ بالعذابِ؛ لِمَا في الزَّاي مِنَ الجهْرِ، والجَهْرُ من صفاتِ القُوَّةِ في الحروفِ، فهو بهذا الاعتبار أقوى مِنَ السِّين الَّتي من صفاتِها الهمسُ - وهو أي: الهمسُ - مِن صفاتِ الضَّعْفِ، فاختصَّ الرِّجْسُ بما ليس في معناه مِنَ الشِّدَّة الَّتي في الرِّجْزِ[1]. ولأنَّ الكفر: قذرٌ، ونجسٌ، وانحطاط في العمل إلى درك الجهل والضلالة والكبر والجحود ناسبَه العقاب الأشدُّ المعبَّر عنه بلفظ الرِّجز.

(1) الدّوري، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ: 336 - 358.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس: 101]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين كون الإيمان حاصلًا بالمشيئة، والنَّظر في بدائع الخلق في الكون

لمّا بيَّن ﷻ أنَّ الإيمان لا يحصل إلّا بمشيئة اللّٰه تعالى؛ أمر هنا بالنَّظر والاستدلال بالدَّلائل السَّماوية والأرضيَّة، حتّى لا يُتَوَهَّمَ أنَّ الحقَّ هو الجبر المحض، فقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾[1]، وذلك رجاء الالتفات إلى أنَّه تعالى "يدبِّر أمرها، ويقوم على وجودها، ويسيِّرها بإرادته، لا تتحرَّك حركة عن حركة إلّا بإذنه سبحانه بديع السَّموات والأرض"[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تُغۡنِي﴾: أَصْلُ الغنى يَدُلُّ على الكِفاية والسَّعة، وكَثْرَةِ المال، يُقال: غَنِيَ الرَّجُلُ، يَغْنَى، فهو غَنِيٌّ؛ إذا كان مُوسعًا كَثِيرَ المالِ، وضِدُّه: الفَقْرُ[3]، وحقيقَتُه: عَدَمُ الحاجَةِ للآخرين، سَواءً كان ذلك في المالِ، أو في القُوَّةِ، أو العِلْمِ، أو غَيْرِ ذلك. والغَناءُ: الاستِغْناءُ والكِفايةُ، ورجلٌ مُغْنٍ، أي: مجزئ، وقد غَنِيَ عنه، فهو غانٍ[4]، والمراد بالغنى في الآية: عدم الجدوى.

2) ﴿ٱلۡأٓيَٰتُ﴾: أصلُ الآية العلامة الثّابتة الدّالَّةُ على أَمْرٍ من شَأْنِه أنْ يَخْفَى، وهي في القرآن على وجهين: الأوَّل: العِبرة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ [المؤمنون: 50]، أي: عِبرة يعتبر بها. الثّاني: العلامة، قال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرّوم: 22]، أي: ومن العلامات على ربوبيَّتِه. والوجهان مُتقاربان يصلح

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/306، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/363.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3639.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غني).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (غني).

استعمال أحدهما في موضع الآخر[1]، فالآيَاتُ جَمْعُ آيَةٍ، وآياتُ اللّه: دلائله وعَجائِبُه[2]، وهي ما أشار إليه سبحانه قَبْل ذلك بقوله: ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾[3].

3) ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾: من نذر، والإنذار: الإبلاغ، والاسم النّذر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: 16]، أي: إنذاري، والنَّذير المنذِر، والإنذار أيضًا. و(النَّذر) واحد (النُّذور)، وقد نذر للّه كذا من باب ضرب ونصر[4]، وأصْلُ (نذر): يَدُلُّ على تَخْوِيفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه الإِنْذارُ: الإبلاغُ، ولا يَكادُ يَكونُ إلَّا في التَّخويفِ[5]، والنُّذُرُ: جَمَاعةُ النَّذيرِ (الرُّسُل)، وهو الاسم من الإِنْذار. والتَّناذُرُ: إِنْذارُ بَعْضِهم بَعْضًا[6]. ومِنْهُ النَّذْرُ، وَهُوَ أنَّهُ يَخَافُ؛ إذا أَخْلَفَ. والنَّذْرُ أَيْضًا: ما يَجِبُ، كَأَنَّهُ نُذِرَ، أيْ: أُوجِبُ[7]، والمراد بالنُّذُر في الآية: مَن يُخبِر غيرَه بأمرٍ مخُوفٍ حتَّى يحذَره[8].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

وجُـوبُ النَّظر في دلائل القدرة للاهتداء بها إلى معرفة الخالِق

يقول الحقُّ ﷻ: قُلْ - يا محمد ﷺ - للمُشركينَ الَّذين يسألونَك الآياتِ: انظُروا ماذا في السَّمواتِ مِن الشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجومِ والسَّحابِ، وفي الأرضِ مِن الجبالِ والبِحارِ، والأنهارِ والأشجارِ، والثِّمارِ والدَّوابِّ وغيرِ ذلك من المخلوقاتِ الصَّغيرةِ والكبيرةِ، فتفَكَّروا فيها واعتَبِروا؛ فإنَّها دالَّةٌ على وحدانيَّةِ اللّه في ربوبيَّته وألوهيَّتِه، وعلى كمالِ قُدرته وعظيمِ صِفاتِه، فتُغنيكم عن طلب

(1) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 92.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (إيي).
(3) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 92.
(4) الرّازي، مختار الصّحاح، ص: 308.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نذر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(8) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/137.

الآياتِ، والآياتُ والعِبَرُ والرُّسُلُ المُنذِرةُ، لا تنفَعُ قومًا لا يُؤمنون بشيءٍ من ذلك؛ لإعراضِهم وعنادِهم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الجملة الاستئنافيّةِ: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾ في السّياق:

النَّظرُ العقليُّ في الكون دعوة إلى الإقناع دون إكراه

لَمَّا تقرَّر ما مضى من النَّهي عن الإصغاء إليهم في طلب الآيات، وختم بتعليق الأمر بمجرد المشيئة، كان كأنَّه قيل: فماذا يُقال لهم إذا طلبوا؟ فقال: ﴿قُلِ﴾ أي: يا أشرف الخلق لهم غير مهتمٍّ بأمرهم، ومنبِّهًا لهم على إبطال مذهب الجبر المتعلِّق أصحابه بنحو هذه الآية؛ لأنَّ المشيئة مغيَّبة، والعبد مأمورٌ ببذل الجهد في الطّاعة بما له من القدرة والاختيار[2]. فهذه الجملة استئناف ناشِئ عن قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾، فقسَّم النّاس إلى قسمين: مؤمنين وكافرين، أي: فادعهم إلى النَّظر في دلائل الوحدانيَّة والإرشاد إلى تحصيل أسباب الإيمان، ودفْعِ غشاوات الكفر، وذلك بالإرشاد إلى النَّظر والاستدلال، بما هو حول الإنسان من أحوال الموجوداتِ، وتصاريفها الدّالَّة على الوحدانيَّة، مثل أجرام الكواكب، وتقادير مسيرها، وأحوالِ النّور والظُّلمة، والرّياح والسَّحاب والمطر، وكذلك البحارُ والجبال[3].

دلالةُ الفعل ﴿قُلِ﴾:

الـدَّعـوةُ إلى الاهتمام بالنَّظر في صنع الله في كونه

افتُتحتِ الآية: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ بـ (قل) للاهتمام بمضمونها[4]، والمعنى: قلْ لهم يا أكمل الرُّسل على

---

(1) ابن جرير جامع البيان: 12/300، 301، والواحديّ، التّفسير البسيط: 11/327، 328، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/145، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/299، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/396، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 375.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/211.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/295.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/295.

مقتضى رتبة النُّبوَّة، تهييجًا لهم وتحريكًا على ما في استعداداتهم وقابلياتهم[1]، وفيه إيذانٌ بأهمِّيَّة المقول، وتفخيمٌ لشأنه؛ لما فيه من البراهين الساطعة، والأدلّة القاطعة على فطريَّة الإيمان باللّه الخالق المصوِّر المُبْدِئ المُعيد القائم على كلِّ نفس بما كسبت[2].

دلالة الفعل ﴿ٱنظُرُواْ﴾:

الدّلالةُ على إعمال النَّظرين القلبيِّ والبصريِّ في الآيات الكونيَّة

في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُواْ﴾ أمرٌ للكفّار بالاعتبار، والنَّظر في المصنوعات الدّالَّة على الصّانع من آيات السَّموات وأفلاكها وكواكبها، وسحابها، ونحو ذلك، والأرض ونباتها ومعادنها وغير ذلك، المعنى: انظروا في ذلك، فهو ينهيكم إلى المعرفة باللّه وبوحدانيَّته[3]. والمقصود: انظروا ما يدلُّكم على جواب هذا الاستفهام، فكلُّ شيء له حالة، فهو مراد بالنَّظر العقليِّ بتركيبه في صورة مفعولين، نحو: انظروا الشَّمس طالعة، وانظروا السَّحاب ممطرًا، وهكذا، وكلُّ شيء هو في ذاته آية، فهو مراد بالنَّظر البصريِّ، نحو: انظروا إنبات الأرض بعد جدبها؛ فهو آية على وقوع البعث[4]. فالنَّظر: هُنا مستعملٌ فيما يصلح للنَّظر القلبيِّ والنَّظر البصريِّ، ولذلك عدل عن إعماله عمل أحد الفعلين، لكيلا يتمحَّضَ له، فجيء بعده بالاستفهام المعلَّق لِكِلا الفعلين، بحيث أصبح حمْلُ النَّظر على كليهما على حدِّ السَّواءِ، فصار صالحًا للمعنيَين الحقيقيِّ والمجازيِّ، وذلك من مقاصد القرآن[5]. أي: انظروا بأبصاركم وبصائركم؛ لتخرجوا بالانتفاع بالعقل عن عدادِ البهائم[6]، وتتحرَّروا من ظلمات الوهم، إلى معارج الفهم، ومن غشاوات الضّلالة إلى أنوارِ الاهتداء ومعالم الدِّلالة.

---

(1) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة: 1/344.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/80.
(3) الثَّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/269.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/296.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/2956.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/211.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿ٱنظُرُواْ﴾:

التفكُّرُ يُظْهِرُ الحقَّ

في فعل ﴿ٱنظُرُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ استعارة تبعيَّةٌ؛ إذ استُعير النظر للتفكُّر المُفضي إلى الإيمان الصادق، بجامع الوضوح في كلٍّ؛ أي: تفكّروا تفكُّرًا يُجلي لكم الحقَّ، كما يُجلي النَّظر صور المرئيات[1].

فائدةُ الأمرِ بالنَّظر بعد تأكيد المشيئة في الآيات السَّابقة:

الأمــرُ بالنَّظر والتَّفكير وإنذار المهملين لهما

جاء الأمرُ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ بالنَّظر بعد تأكيد المشيئة، حتَّى لا يُزْهَدَ في النَّظر اتِّكالًا على المشيئة، أي: انظروا في عجائب صنعه لتدُلَّكم على وحدته وكمال قُدرته[2]، وهو أمر منه تعالى لعباده بالتُّفكُّر بخلق الملكوت، وما فيها من الآيات الباهرة ذات النِّظامِ البديع، كالكواكب النيِّرة، والمجرّات العجيبةِ، والبحار الواسعة، وقد قيل:

فيا عَجَبًا كَيفَ يُعْصَى الإلَـ *** ـهُ أَمْ كَيفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ
وَفي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ *** تَدُلُّ عَلَى أنَّهُ واحِدُ
وَللّه في كُلِّ تَحريكَةٍ *** وَتَسْكينَةٍ أَبَدًا شاهِدُ[3]

سِرُّ حذف جواب الأمر بعد قوله: ﴿ٱنظُرُواْ﴾:

وقوعُ الأمرِ عَقِبَ ذكــر أسبــاب الإيمـان الدّالَّة عليه

طُوي في الكلام جواب الأمر، لوقوع الأمر عقبَ أسباب الإيمان، وتقديره: (انظروا؛ تروا آيات موصلة إلى الإيمان)[4]، وفي ذلك الحذف بلاغةٌ ساميَةٌ، فهو يقول لرسوله ﷺ، كي يخاطب أهلَ مكَّة من العتاة الطُّغاة، فيقول لهم: "تفكَّروا، أيَّ شيء بديع في السَّموات والأرض من عجائب صنع اللّه الدّالة على وحدته وكمال قدرته"[5].

---

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/80.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/125.
(3) الأبيات نسبها بعضهم إلى الشّاعر لبيد بن ربيعة، والصّحيح أنّها لأبي العتاهية، يُنظر: ديوانه، ص: 104.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/296.
(5) الجاويّ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/497.

موضعُ الاستفهام ودلالته بعد الأمر:

الدَّلالةُ على الاستفهام والتَّنبيه على عجائب الملكوت

في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، ﴿مَاذَا﴾: استفهامٌ وتنبيه على عجائب السَّموات، وارتباط نجومها وأبراجها برباط مُحكم، لا يمكن أن يسير نجمٌ في غير مساره[1]، فانظروا ما فيها من الآيات والعِبَرِ، وعجائب الصُّنع، ليدلَّكم على وحدانيَّة الله تعالى، وكمال قدرته[2].

دلالةُ التَّركيب بين حرف الاستفهام والموصول:

التَّعميمُ لتوجيه كلِّ نفس إلى الأيسر، استدلالًا عليه لديها

تعني ﴿مَاذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾: ما الَّذي، و(ما) استفهام، و(ذا) أصله اسم إشارة، وهو إذا وقع بعد (ما) قام مقام الاسم الموصول، و﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ قائم مقام صلة الموصول، وأصل وضع التَّركيب: ما هذا في السَّموات والأرض، أي: ما المشار إليه حال كونه في السَّموات والأرض، فكثر استعماله، حتَّى صار في معنى: ما الَّذي[3]، فعمَّ ما في السَّموات والأرض، لتتوجه كلُّ نفس إلى ما هو أقرب إليها، وأيسر استدلالًا عليه لديها[4].

أثرُ القطع والوصل في ﴿مَاذَا﴾ على معنى الآية:

شمولُ دلالة الموصول (ذا) على وحدانيَّة الله، مع القطع والوصل

﴿مَاذَا﴾ يحتمل أن تكون (ما) استفهامية مبتدأ، و(ذا) اسم موصول خبر، وتكون الجملة في محلِّ نصب لتعليق العامل، وهو ﴿ٱنظُرُواْ﴾، ويحتمل أن تكون ﴿مَاذَا﴾ بتمامها استفهامًا في محلِّ رفع مبتدأ، وفي السَّموات خبرُه، وعلى الأوَّل يكون الجارُّ والمجرور متعلِّقين بمحذوف، هو الصِّلة للموصول، أي: ما الَّذي استقرَّ في السَّموات والأرض[5].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3639.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 3/188.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/296.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/296.
(5) الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 4/303.

فلفظ (ذا) لما قام مقام اسم الموصول، صار من صيغ العموم، فشمل جميع الأجرام وأعراضها الدَّالة على وحدانيَّة اللّه وحكمته، وأخصُّ ذلك التَّأمُّل في خُلق النَّبيِّ ﷺ ونشأة دعوته، والنَّظرِ فيما جاء به، فكلُّ ذلك دلائل على كماله وصدقه[1]. فلفظ (ماذا) جُعل بالتَّركيب اسمًا واحدًا مغلِّبًا فيه الاستفهام على اسم الإشارة، ويجوز أن يكون اسمين بمعنى (ما الَّذي)، على أن تكون (ما) استفهاميَّة مرفوعة على الابتداء، والظَّرف صلةُ الَّذي، والجملة خبر للمبتدأ، وعلى التَّقديرين فالمبتدأ والخبر في محلِّ النَّصب بإسقاط الخافض، وفعل النَّظر معلَّقٌ بالاستفهام[2].

بلاغةُ جَمْعِ السّمواتِ، وإفرادِ الأرْضِ وعطفها عليها:

بيان كون السَّموات أجناسًا مختلفةً، والأرضِ جنسًا واحدًا

قوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، جُمعتِ السَّموات؛ لأنَّها أجناسٌ مُختلفة، كلُّ سماء من جنس غير الأخرى، وَوَحَّد الأرض؛ لأنَّها كلَّها تُراب[3]، ولأنَّ الأرض عالمٌ واحد[4]، والسَّموات كلٌّ، والأرض جزء من السَّماء الدُّنيا، وكلاهما جزء من المجرَّة الَّتي ينتميان إليها، وفي عظمة السَّموات على اختلاف طبقاتها دليلٌ على عظمة خالقها، وكونه خلق السَّموات الفسيحة مع اتِّساعها وفخامتها، لا يعجزه أنْ يخلق الأرض، وهي جِرم صغير؛ إذا ما قورن بالسَّموات الفخام.

بلاغة إيجازِ القصر:

عجائبُ ملكوت الله تفخيمٌ إثرَ تفخيم

جملة ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تفخيمٌ إثرَ تفخيم لعجائب ملكوتِ اللّه تعالى، وهو من الكلام القليل المتضمِّن كلامًا كثيرًا ليندرج ضمن إيجاز القصر في كلا طرفيه: فالذي في السَّموات

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/296.
(2) البروسوي، روح البيان: 4/85.
(3) النَّيسابوريُّ، التَّفسير البسيط: 3/453، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 1/195.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/77.

رفعها بغير عمدٍ، وما فيها من أجرامٍ، والذي في الأرض ما فيها من شواخصَ، وغير ذلك كثيرٌ"[1].

سرُّ تقديم السَّموات على الأرض:

مكانةُ السَّمواتِ وعظمتُها، وكونُها مصدرَ تنزُّل القرآن الكريم

قُدِّمَ ذِكْرُ السَّمواتِ على الأرضِ، جريًا على عادةِ القرآنِ الكريم؛ فإنَّ القرآنَ قدَّمَ ذكرَ السَّمواتِ على الأرضِ بما يزيدُ عن مئةِ آيةٍ، ولم يتأخَّرْ ذكرُها إلّا في آيتينِ لموجبٍ دلاليٍّ، وقُدِّمت أيضًا من باب تقديم الأعظمِ والأعلى، فالشَّأنُ أنْ يتقدَّمَ ذكرُ الأعظمِ والأعلى مكانًا على غيرِه، إلّا إنْ كانَ هناكَ ما يوجبُ خلافَه، والتَّقديمُ للأهمِّيَّةِ والقداسةِ، فالسَّماء فيها العرشُ والكرسيُّ، والأرواحُ تصعدُ إليها، وفيها الجنَّةُ والملأ الأعلى، وسوى ذلكَ من الغيبيّاتِ.

الموقع البيانيُّ لجملة ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ﴾:

الدَّلالةُ على التَّوكيد والتَّقوية ملمحٌ بلاغيٌّ مؤثِّر في السّياق

جملة: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾، إمّا حاليَّةٌ من الواو في قوله: ﴿ٱنظُرُواْ﴾ كأنَّه قيل: (انظروا والحال أنَّ النَّظر لا ينفعكم)، وإمّا معترضة و(ما) نافية، أو استفهاميَّة في محلِّ نصبٍ، على أنَّها مفعول مطلق لتغني، أي: أيَّ غناءٍ تُغني، وهي على كلا الاحتمالين توكيدٌ، لما قرَّرته الآيات السَّابقة، من أنَّه لا تؤمن نفس إلَّا بإذن اللّه، فهذا النَّظر لن يصل بصاحبه إلى الإيمان، ولن يفتحَ قلبه له، إلَّا إذا كان هذا النّاظر ممَّن أراد اللّه لهم أن يكونوا مؤمنين[2].

فائدةُ استعمال (ما):

إفادةُ النَّفي والاستفهام توبيخ المشركين، من عهد النَّبيّ الأمين

(ما) في ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ﴾ إمّا نافية، أو استفهاميَّة[3]، فعلى الاحتمال الأوَّل يكون المعنى: الآيات والنُّذر، وهم الأنبياء، لا تغني إلّا بمشيئته؛ وعلى الاحتمال الثّاني تكون (ما) استفهامًا إنكاريًا على جهة التَّقرير الَّذي في ضمنه نفيُ وقوع الغنى، فيكون المعنى: وأيَّ

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/80.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1090.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/212.

شيء تجدي الآيات السّماوية والأرضيَّة، والنُّذر بحججها وبراهينها، أمام قوم جاحدين معاندين، قد استحبّوا العمى على الهدى؟ وفي الآية على هذا: توبيخ لحاضري النَّبيّ ﷺ[1].

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿تُغۡنِي﴾:

من يُعرض عن أسباب الهدايةِ؛ يعشْ في بؤس

كلمة ﴿تُغۡنِي﴾ في جملة ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ﴾ وردت على سبيل الاستعارة التبعيَّة، استُعير الغنى فيها للإفادة، يعني: لا تفيد، والجامع حُصول النّفع في كلٍّ منهما، وسدُّ الحاجة، والذين لا يؤمنون فقراء محتاجون لأسباب الهداية، ومع وجود تلك الأسباب ظلُّوا فقراء؛ لأنَّهم لم يتنفعوا منها؛ لإعراضهم عنها[2].

بلاغةُ المجاز العقلي:

الآيـاتُ والـنُّذر أسبابٌ للهداية

في إسناد ﴿تُغۡنِي﴾ إلى الآيات مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ الآيات والنذر أسباب ذلك الغنى المنتفي في حقِّهم؛ لعدم الأخذ بها، والعناية بمضمونها بوصفها سبلَ هداية، وطرق فلاح[3].

بلاغةُ تذييل في الآية:

الجملةُ المتمِّمة، تـجـري مجرى الأمثال، وتقوّي مـا سبـق من مقال

جملة ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ﴾، ذُيِّلَتْ بها جملة: ﴿ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فيجوز أن تكون متمِّمة لمقول القول ممّا أمر النَّبيُّ ﷺ أن يقوله لهم، ويجوز أن تكون استئنافَ كلام من اللّه تعالى، والمعنى: أبلِغهم ما أمرت بتبليغه إليهم، وليست تغني الآيات عن قوم، لا يؤمنون، أي: الَّذين جعل اللّه نفوسهم لا تؤمن[4]، ويكون بهذا تذييلًا جاريًا مجرى المثل.

معنى (الآيات) وسرُّ التَّعبير بها:

الآيــاتُ دلائل قـويَّةٌ، وبراهين واضحة جليَّةٌ

قوله: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ﴾ أي: الأدلة، فهي وإنْ كانت ظاهرة،

---

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/145، والثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/269، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/137.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/80.

(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/80.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/296.

فما تُغني إذا كانت البصائر مسدودة، كما أنَّ الشُّموس وإنْ كانت طالعة، فما تُغني إذا كانت الأبصار عن الإدراك بالعمى مردودة، كما قيل:

وَمَا انْتِفَاعُ أخِي الدُّنْيَا بِمُقْلَتِهِ *** إذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الأَنْوَارُ وَالظُّلَمُ(1)

والدَّلائل المقصودة هُنا إمَّا أن تكون من عالم السَّموات، أو من عالم الأرض، أمّا الدَّلائل السَّماوية، فهي حركات الأفلاك، ومقاديرها وأوضاعها، وما فيها من الشَّمس والقمر والكواكب، وما يختصُّ به كلُّ واحد منها من المنافع والفوائد، وأمَّا الدلائل الأرضيَّة؛ فهي النَّظر في أحوال العناصر العلويَّة، وفي أحوال المعادن وأحوال النَّبات، وأحوال الإنسان بخاصَّة، ثُمَّ ينقسم كلُّ واحد من هذه الأجناس إلى أنواع لا نهاية لها، ولو أنَّ الإنسان أخذ يتفكَّر في كيفيَّة حكمة الله سبحانه في تخليق جناح بعوضة؛ لانقطع عقله قبل أن يصل إلى أقلِّ مرتبة من مراتب تلك الحكم والفوائد، ولا شكَّ أنَّ الله سبحانه أكثر من ذكر هذه الدَّلائل في القرآن المجيد، فلهذا السَّبب ذكر قوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، ولم يذكر التَّفصيل، فكأنَّه تعالى نبَّه على القاعدة الكليَّة، حتَّى إنَّ العاقل يتنبَّه لأقسامها، وحينئذٍ يشرع في تفصيل حكمة كلِّ واحد منها، بقدر القوَّة العقليَّة والبشريَّة(2)، فحسُنَ وقعُ التَّعبير عنها بالآيات هُنا، وكان التَّعبيرُ بالآيات كالإظهار في مقام الإضمار(3).

دلالة عطف (النُّذُر) على (الآيات):

قوله: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾، زيدت (النُّذُرُ)، فعُطِفت على الآيات لزيادة التَّعميم في هذه الجملة، حتَّى تكون أوسع دلالةً

من لا تنفع فيه الدلائل ولا المخوِّفات منكِرٌ جاحدٌ

(1) عبد الكريم القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/117. والبيت للمتنبّي في ديوانه، ص: 323، وهو فيه بلفظ (ناظره) لا (مقلته).

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/306.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/296.

من الَّتي قبلها، ولتكونَ كالتَّذييل لها، وذلك أنَّ القرآن جاء للنّاس بالاستدلال وبالتَّخويف، ثُمَّ سُجِّل على هذا الفريق، بأنَّه لا تنجع فيه الآيات والأدلَّة، ولا النُّذر والمخوِّفات[1].

اشتركوا في الأحوال خيرِها وشرِّها

وعطف (النذر) على (الآيات) هو من عطف الخاصِّ على العام؛ لأنَّ الآياتِ تكون في الخيرِ والشرِّ، والنُّذر لا تكون إلا في الشَّرِّ، والجمع بينهما إعلامٌ بأنَّ حالهم في المطمع، والمفزع سواء[2].

دلالةُ استعمالِ لفظ (النُّذر) بدَلَ (الرُّسُلِ):

بيانُ عمومِ لفظة النُّذر وشمولها للرُّسل وغيرهم

النُّذُرُ جمع نذير، على أنَّه فعيل بمعنى: مُنْذِر، أو على أنَّه مصدر، أي: لا تنفع الآيات الأنفُسيَّة والآفاقية الدّالَّة على الوحدانيَّة، والرُّسل المنذرون أو الإنذارات شيئًا[3]؛ فالنُّذُرُ يشمل الرُّسل والعلماء وغيرهم، كالشَّيب وموت الأقران[4].

فائدة تقديم ﴿ٱلْأَيَٰتُ﴾ على ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾:

بيانُ عدمِ انتفاعهم بالآيات الكونيَّة، ولا بالآيات المتلوَّة الرَّبانيَّة

قوله: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾، أي: إنَّ الآيات الكونيَّة على ظهور دلالتها، والرُّسل على بلاغة حُجَّتها، لا تُجدي نفعًا لقوم لا يُتَوقَّع إيمانهم؛ لأنَّهم لم يُوَجِّهوا أنظارهم إلى الاعتبار بالآيات والاستدلال بها، على ما تدلُّ عليه من وحدانيَّة اللّٰه وقدرته، والاعتبار بسننه في خلقه، والاستفادة منها فيما يُزكّي النَّفس، ويرفعها[5]، فلا تنفعهم الآياتُ الدّالَّة على وحدة الذّات المتجلّية، في عموم الكوائن والجهات، ولا تكفيهم أيضًا النُّذُرُ المبيِّنون المنبَّهون على مدلولاتها[6] بالآيات المتلوَّة، فلم تغنِ الآياتُ المتلوَّة عنهم، كما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/296.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/80.
(3) البروسويّ، روح البيان: 4/85.
(4) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 5/59، وعلي المهائميّ، تبصير الرَّحمن وتيسير المنّان: 1/336.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/159.
(6) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة: 1/344.

لم تغنِ آياتُ السَّموات والأرض[1]. وفي هذا التَّقديم للآيات على النُّذر بيانٌ لعدم انتفاعهم بالآيات الكونيَّة الجليَّة على وجه العموم، وبالنُّذر الَّذين جاؤوهم بالآيات المتلوَّة المُنَبِّهة على مدلولاتها على جهة الخصوص، فهو تخصيص بعد تعميم.

وإنَّ الأصل في الدَّعوة، والتبليغ، والتوعية - أيًّا كان مصدرها - التَّبصرةُ قبل الوعيد، والدعوةُ إلى التفكُّر والتَّدبُّر قبل التخويف والتحذير.

دلالةُ تنكيرِ لفظ ﴿قَوۡمٍ﴾:

الإشـــارةُ إلى تحقيرِ شأنِهم، وتسفيه عقولهم

القومُ في قوله تعالى: ﴿عَن قَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ الجماعة من الرِّجال، ويطلق على قبيلة الرَّجل، ويطلق على الأمَّةِ، وقد جيءَ بهذا اللَّفظ منكَّرًا في مقام نفي الإيمان عنهم، تحقيرًا لشأنِهم وتسفيهًا لعقولهم الَّتي حجبتهم عن رؤيةِ الآيات الواضحات، والحُججِ البالغات.

نكتةُ إجراء الوصفِ بالجملة الفعليَّةِ المنفيَّةِ على لفظ ﴿قَوۡمٍ﴾:

الـوصـفُ اسـتـدلالٌ عـلى السَّجيَّة الـرَّاسـخـة في الموصوفين

لفظ ﴿ قَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ يُفيد أنَّ انتفاء الإيمان عنهم وصف عُرِفوا به، وأنَّه مُستقرٌّ من نفوسهم؛ لأنَّ اجتلاب لفظ ﴿قَوۡمٍ﴾ هُنا مع صِحَّةِ حُلول غيره محلَّه يُشير إلى أنَّ الوصف المذكور بعده من مقوِّمات قوميَّتهم؛ لأنَّه صار من خصائصهم، بخلاف ما لو قيل: (عمَّن لا يؤمنون)، فإنَّ للقبائل والأمم خصائصَ تميِّزها، وتشتهر بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾ [التَّوبة: 56]، وقد تكرَّر هذا في مواضع كثيرة من القرآن ومن كلام العرب، أي: قومٌ هذه سجِيَّتُهم، وهو هُنا أبدعُ؛ لأنَّه عَدَلَ به عن الإضمار، وهذا من بدائع الإعجاز هُنا[2].

---

(1) أطفيّش، تيسير التَّفسير: 6/319.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/297.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الإبصار والرُّؤية والنَّظر:

الإبصارُ يتميَّز بالوضوح، والرُّؤية تتميَّز بالعلم، والنَّظر يميِّزه التَّأمُّل

النَّظر عبارة عن تقليب العين نحو المرئيِّ التماسًا لرؤيته، وأصل مادَّة (نَظَرَ) في اللُّغة: تأمُّل الشَّيءِ ومُعاينته، فهو طلب ظهورِ الشَّيء، ويكون النّاظر الطَّالب لظهور الشَّيء بإدراكه من جهة حاسَّة بصرهِ أو غيرها من حواسِّه، والنَّظر بالقلب من جهة التَّفَكُّر، والنَّظر أيضًا هو الفكر والتَّأمُّل لأحوال الأشياء[1]، والرُّؤية: هي إدراك المرئيِّ، ولذلك قد ينظر، ولا يراه، ولمّا كانت الرُّؤية من توابع النَّظر ولوازمه غالبًا؛ أُجْرِيَ لفظُ النَّظر على الرُّؤية على سبيل إطلاق اسم السَّبب على المسبَّب[2]، كما ورد في حكاية عن طلب موسى ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: 143]؛ فكان الرَّدُّ: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: 143]، وأيضًا فإنَّه قد يطلُب جماعة الهلال، فيراه جماعة منهم، ولا يستطيع الآخرون رؤيتَه مع أنَّهم جميعًا ناظرون[3]؛ فالفرق بينهما: أنَّ الرُّؤية هي: إدراك المرئيِّ، والنَّظر: الإقبال بالبصر نحو المرئيِّ. أمّا البصر هو إدراك العين، ويُطلق على القوَّة الباصرة الَّتي من شأنِها إدراك أشباح الصُّور[4]، وأصل مادَّةِ (بصر) في اللُّغة وضوح الشَّيء، والعين هي أداة الإبصار، قال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ﴾ [الأعراف: 195]، وقد يُطلق البصر ليدلَّ على العلم القويِّ المُضاهي لإدراك الرُّؤية، فيُقال: بصر بالشَّيء: عَلِمَهُ عن عيان، فهو بصير به[5]، قال تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥﴾ [القلم: 5]، وحينها يكون الفرق بين النَّظر والبصر، كالفرق بين النَّظر والرُّؤية، قال تعالى:

---

(1) أبو هلال العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 543.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 29/457.
(3) أبو هلال العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 543.
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 247، والتَّهانويُّ، كشاف اصطلاحات الفنون: 1/938.
(5) نشوان الحميري، شمس العلوم: 1/544.

﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾ [الأعراف: 198]. وخُلاصة القول في الفرق بينهم أنّ الإبصار يتميَّز بالوضوح، والرُّؤية تتميَّز بالعلم، والنَّظر يُميِّزه التَّأمُّل، ولذلك اختير في الآية مرادًا به استعمالُه فيما يصلح للنَّظر القلبيِّ والنَّظر البصريِّ؛ لكون الحديث يدور حول التَّحرُّر من ظلمات الوهم، ومن غشاوات الضَّلالة، إلى أنوار الاهتداء؛ وهذا صنيعٌ قوامه التأمُّل والتفكُّر.

﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢﴾ [يونس: 102]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تهديدُهم بالعذاب المنزَل على الأمم السّابقة، بعد إقامة الحُجَّة عليهم

لَمَّا كان ما في السَّموات والأرضِ مِن الآياتِ، في غايةِ الدَّلالةِ؛ نبَّه سبحانَه على أنَّ التَّوقُّفَ عن الإيمانِ بعدَ التَّنبيهِ على كيفيَّةِ الاستدلالِ معاندةٌ، فقال: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾، فكان ذلك سببًا لتهديدِهم بقولِه: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾[1]. فإذا أهمل الكفَّار والمشركون المكذِّبون المُعاندون النَّظر في آياتِ اللّه وأسراره، حتَّى ولو كانوا بُسطاء أو أُمِّيِّين، فهل ينتظرون أو يتوقَّعون إلّا نزول العذاب المماثل، لوقائع الأمم الماضية المكذِّبة لرسلهم[2]؟

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنتَظِرُونَ﴾: الإنظار: التَّأخيرُ والإمهال. يقال: أَنْظرتُه أُنْظِرُه. ونظر الشَّيء: باعَهُ بنظرة. وأنظر الرَّجل: باع منه الشَّيء بنظرة، واستنظره: طلب منه النَّظرة، واستمهله[3]، وأصلُ الإِنْظَارِ: تَأمُّل الشَّيْءِ ومعاينتُه، ثُمَّ يُستعارُ، ويُتَّسَعُ فيه، فيقال: نظرْتُ إلى الشيء أنظرُ إليه؛ إذا عاينتَه. ويقولونَ: نظرْتُهُ، أي: انتظرْتُهُ. وسُمّي الإمهالُ إنْظارًا؛ لأنَّهُ ينظر إلى الوَقْتِ الَّذي يَأْتِي فِيه[4]، وضدُّهُ: التَّعْجيلُ، ويأتي الإنظار بمعنى: التَّأخيرِ والتَّأجيلِ[5]، والاسْتِنْظارُ:

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/212.
(2) وهبة الزّحيليّ، التَّفسير الوسيط: 2/1013.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (نظر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).
(5) ابن عاشور، التحّرير والتنّوير: 14/19.

طَلبُ الإنْظَارِ، واستَنْظَرَ المُشْتَرِي فُلانًا: سَأَلَهُ الإنْظَارَ، والتَّنَظُّرُ: تَوَقُّعُ الشَّيء[1] والمقصود بالإنظار في الآية: الانتظار[2].

2) ﴿أَيَّامِ﴾: أصلُ اليَوْمِ: الوَاحِدُ مِنَ الأيّام، ثُمَّ يستعيرونَهُ في الأمر العظيم، ويَقولُونَ: نِعْمَ فُلَانٌ في اليوم؛ إذا نزل[3]، واليَوْمُ أيضًا: مِقْدارٌ مِن الزَّمانِ، أوَّلُه طُلوعُ الشَّمْسِ إلى غُروبِها[4]، أو مِن طُلوعِ الفجر الصّادق إلى غُروبِ الشَّمْسِ[5]، وأُطلِقتِ الأيّامُ على ما يَقَعُ فيها مِنَ الأحداثِ العَظيمَةِ، ومن معاني اليوم: الوقْتُ، والزَّمَنُ، والحِينُ، سواء كان نَهارًا أو ليلًا، تقولُ: خَبَّأْتُ المالَ لِهذا اليَوْمِ، أي: لهذا الوَقْتِ، والجَمعُ: أيّامٌ. والمقصود بالأيّامِ في الآية: الوقائع والأحداث العظيمة.

3) ﴿خَلَوْا﴾: أصلُ الخُلُوِّ: الفَراغُ، يُقال: خَلا المكانُ، يخلو، خلوًّا وخلاءً؛ إذا لم يَكُن فيه أحَدٌ، ولا شيء فيه، ويقال: مَكانٌ خالٍ، أي: فارِغٌ[6] وخلا مكانُهُ: مات، ومضى، والقُرونُ الخاليةُ: الماضِيَةُ[7]، ويأتي الخلوُّ بمعنى الانفرادِ، تقول: خلا الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ، أي: انفرد بها[8]، والمقصود بالخلوّ في الآية: ما مضى من الزَّمان.

المَعْنى الإجْماليُّ:

وعيد الكفّار وتهديدهم بإنزال العذاب بهم؛ إذا لم يؤمنوا

يقول اللّه تعالى لنبيِّه ﷺ محذِّرًا مُشركي قومه: هل ينتَظِرُ هؤلاء المُشرِكونَ المكَذِّبونَ لك - يا محمد ﷺ - من النِّقمة والعذاب، إلّا مثلَ وقائِعِ اللّه تعالى في الأُممِ الماضيةِ مِن قَبلهم، المكَذِّبةِ لِرُسُلِهم؟ وقُل

(1) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نظر).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (نظر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/298.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يوم).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (يوم).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (يوم).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (خلو).
(7) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (خلى - خلو).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والفيّومي، المصباح المنير: (خلو).

لهم منذِرًا مهدِّدًا: انتظروا عقاب اللّه ونزول سخطه بكم، إنّي مِن المنتظرين هلاككم بالعُقوبة التي تحلُّ بكم، وإنّي على بيِّنة بما وعد اللّه به، وصدق وعده للمُرسلين، وإنَّ الَّذين يصرُّون على الجُحود والعِناد، سيكونون مِن الهالكين(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (الفاء) وموقعها:

من الإفصاح دلالةُ الحرف على التَّرتيب، وتجليَةُ معاني التَّركيب

الفاء في كلمة ﴿فَهَلْ﴾، لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: إنَّه يترتَّب على استمرارها في غوايتهم وضلالهم أنَّهم لا ينتظرون إلّا قارعةً مثل الَّذين مضوا قبلهم(2). ففي الفاء تفريع على جملة ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾، باعتبار ما اشتملت عليه من ذكر النُّذر، وهي خطاب من اللّه تعالى لرسوله ﷺ، أي: يتفرَّع على انتفاء انتفاعهم بالآيات والنُّذر وعلى إصرارهم أنْ يسأل عنهم: ماذا ينتظرون، ويجاب بأنَّهم ما ينتظرون إلّا مثل ما حلَّ بمن قبلهم ممَّن سيقت قصصهم في الآيات الماضية(3).

غرض الاستفهام الإنكاريّ:

السّياق مفاده التَّقرير، والتَّوَعُّد، والحَضُّ على الإيمان

قولُه: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾، استفهام إنكاريٌّ لإنكار الوقوع بمعنى النَّفي، أي: فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك - يا محمد ﷺ - إلَّا أن يقع لهم مثلُ ما وقع للَّذين مضوا من قبلهم ممَّن عاندوا في الحقِّ، وحاربوه، وفتنوا أهله(4)، وفي هذا الاستفهام أيضًا تقريرٌ وتَوَعُّدٌ، وحَضٌّ على الإيمان، فإذا لجّوا في الكفر حلَّ بهم العذاب، وإذا آمنوا نجوا، هذه سُنّة اللّه في الأمم الخالية(5).

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/301، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/386، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/299، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/160.

(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3640.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/297.

(4) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3640، والهرري، حدائق الرُّوح والرَّيحان: 12/364.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/110، والثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/269.

سِرُّ انتخاب الاستفهام بالحرف (هل):

في قولِه: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، وقَع الاستفهامُ بـ (هَلۡ) لإفادَتِها تَحقيقَ السُّؤالِ، وهو باعتبارِ تحقيقِ المسؤولِ عنه، وأنَّه جديرٌ بالجوابِ بالتَّحقيقِ[1]، إمّا أن يراد: فهل يقصدون في الانتظار بكم إلّا مثل ما حلَّ بالأمم السّالفة؟ أو يراد: فهل حالهم في الانتظار لما يحلُّ بهم إلّا حال الأمم السّالفة؟ فهذا انتظار عن غير قصد[2].

إفـادةُ تحقيق السُّؤال، باعتبار تحقيق المسؤول عنه

دلالةُ الاستعارة التَّهكُّميَّةِ الإنكاريَّةِ في: ﴿يَنتَظِرُونَ﴾:

والاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ﴾ مجازٌ تهكُّميٌّ إنكاريٌّ، والمعنى: إذا كان الأمر كما قصصنا عليك من إثابتنا للمؤمنين، وجَعْلِ الرِّجس على الَّذين لا يعقلون، فهل ينتظر هؤلاء المكذِّبون لدعوتك، إلّا العذاب الَّذي نَزَلَ بالمكذِّبين لدعوة الرُّسُلِ من قبلك؟ فالاستفهام للتَّهكُّم والتَّقريع[3]. ونُزِّلوا فيه منزلةَ من ينتظرون شيئًا يأتيهم ليُؤمنوا، وليس ثمَّة شيء يَصلُحُ لأَنْ ينتظروه إلا أَنْ ينتظروا حُلول مثل أيام الذين خَلَوا من قبلهم التي هلكوا فيها[4] بطريق الاستعارة التَّهكُّميَّة، فشبَّه حال تمهُّلهم إلى الوقت الذي سَيَحُلُّ عليهم فيه العذاب بمجرم ينتظر مصيره، والحكم عليه بالعقوبة التي يستحقُّها[5]؛ وإن كانوا ليسوا بمنتظرين ذلك؛ إذ هم جاحدون وقوعه.

تصويرُ المكذِّبين فـــي صـــورة المجرمين الَّذين ينتظرون عقوبة جُرمهم

دلالةُ الاستثناء المفرَّغ:

ضُمِّنَ الاستفهام السَّابق معنى النَّفي بقرينة الاستثناء المُفَرَّغ في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾؛ والتَّقدير: فهل

النَّفي المُضَمَّن في الاستفهام، يجعل الاستثناء مفرَّغًا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/297 - 298.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/351.
(3) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/137.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/298.
(5) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 11/2126.

ينتظرون شيئًا؟ ما ينتظرون إلَّا مثل أيّام الَّذين خلوا من قبلهم[1]، قال أبو زهرة: "والاستفهام إنكاريٌّ، لإنكار الوقوع بمعنى النَّفي، أي: لا ينتظرون إلّا أن يقع مثل ما وقع للَّذين مضوا من قبلهم، ممَّن عاندوا في الحقِّ، وحاربوه، وفتنوا أهله"[2].

شبَّه حالهم مع حال سابقيهم بمآلهم إلى الهلاك

وفي جملة الاستثناء تشبيهٌ؛ إذ شبَّه انتظارهم بأيام من مضوا قبلهم، ووجه الشبه (الهلاك)، والتقدير: إلّا أيّامًا مثل أيام الذين خلوا في الهلاك[3].

معنى المفعول المحذوف:

بيان عِلْمِهم بالأحداث التي أصابت من قبلَهم، إنْ كانوا يعتبرون

متعلَّق قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ﴾ محذوف تقديره: (أيّامًا ووقائع)[4]، مثل أيّام الَّذين خلوا من قبلهم، فهي أيامٌ حدثت فيها أحداث يعلمونها، فهل هم ينتظرون أيامًا مثل هذه؟ بالطَّبع ما كان يصحُّ لهم أن يستمرئوا الكفر، حتَّى لا تَتَكَرَّر معهم مآسٍ كالَّتي حَدَثت لمن سَبَقَهم إلى الكفر[5].

دلالةُ الظَّرف ﴿أَيَّامِ﴾ بين الحقيقةِ والمجاز:

بيانُ الأحداث الَّتي كانت في الغابر، بهلاك كلِّ مناوئ كافر

جاء استعمال الأيّام في قوله: ﴿إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ في الوقائع كقولهم: (أيّام العرب)، وهو مجازٌ مشهورٌ من التَّعبير بالزَّمان، عمَّا وقع فيه، كما يُقال: المغرب للصَّلاة الواقعة فيه، والمُراد بالموصول المشركون من الأمم الماضية[6]، والعرب تُكَنّي بالأيّام عن الشُّرور والحروب، وقد يُقصد بها أيّامُ السُّرور والأفراح؛ إذا قام دليل بذلك[7]، والعرب تسمّي العذاب: أيّامًا والنِّعم أيّامًا؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/298.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3640.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/82.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/213.
(5) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 10/6241.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 6/183.
(7) الرَّسعني، رموز الكنوز: 3/108.

كقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ [إبراهيم: 5]، وكلُّ ما مضى على المرء من خير وشرٍّ، فهو أيّام(1)، وهو مجاز مرسل تسمية للحال باسم المحلِّ الَّذي هو الزَّمان(2). بعلاقة الظَّرفيَّة، وقد يكون اليوم على حقيقته، أي: إلَّا يومًا يُعاينون فيه من عذاب الله، مثل أيّام أسلافهم الَّذين كانوا على مثل ما هم عليه من الشِّرك والتَّكذيب(3)، والمُراد أنَّ الأنبياء المتقدّمين عليهم السلام، كانوا يَتوعَّدون كُفَّار زمانهم، بمجيء أيّام مُشتملة على أنواع العذاب، وهم كانوا يكذِّبون بها، ويستعجلونها على سبيل السُّخريَّة(4).

دلالة الاسم الموصول:

بيان أنَّ الكفار الجدد، سَيَخْلُوْنَ كسابقيهم

المراد بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾: المشركون من الأمم الماضية مِنْ قبلهم، متعلّقٌ بـ ﴿خَلَوۡاْ﴾، جيء به للتَّأكيد والإيماء بأنَّهم سَيَخْلُوْنَ كما خَلَوا(5)، ومفاد القول: "قل لهم - أيُّها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم -: إذا كنتم تنتظرون غير ذلك، فانتظروا إنّي منتظر معكم، وستصيبكم الهزيمةُ القريبة، والعذاب يوم القيامة"(6).

سرُّ إيثار الفعل ﴿خَلَوۡاْ﴾:

لـمّا أساؤوا؛ انمحى أثرهم

أُوْثِر الفعل ﴿خَلَوۡاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ على غيره من مثل قولهم: (مَضَوْا)؛ لِمَا في الفعل (خلا) من معنى الفراغ، والزوال، وانمحاء الأثر(7).

سِرُّ المجيء بالجارِّ مع الظَّرف في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

الإشارة إلى أنَّ مِنَ الأُمَمِ السّابقة، مُهْلَكًا وناجيًا

ولـمّا كان أهلُ الأيّام المهولة، بعض من كان قبلُ؛ أتى بالجارِّ،

(1) البغويّ، تفسير البغويّ: 2/437.
(2) أَطَّفَيِّش، تيسير التَّفسير: 6/320.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 11/160.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/307، ونظام الأعرج، غرائب القرآن: 3/614.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/183.
(6) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، 304.
(7) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/82.

فقال: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي: من مكذِّبي الأمم، وهم القبط وقوم نوح ومن طُوِيَ بينهما من الأمم، ثُمَّ نُنَجِّي الرُّسُلَ ومن آمن بهم، حقًّا علينا ذلك للعدل بين العباد[1].

دلالة فصل جملة: ﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ على ما سبق:

تجديدُ التَّهديد لَفْتٌ للانتباه مفيد

لمّا تقدَّمت الإشارة إلى أنَّ الكلمة حقَّت على الكافرين بعدم الإيمان والرِّجس الَّذي هو العقاب؛ زاد في تهديدهم بالاعتراض بما سببه عن فعلهم، فعل من ينتظر العذاب بقوله: ﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾، أي: بجميع جهدكم ما ترونه واقعًا بكم، بسبب ما تقرَّر عندكم ممّا كان يقع بالماضين في أيّام الله[2]، وجملة: ﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾، مفرِّعة على جملة: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ﴾، وفصل بين المفرَّع والمفرَّع عليه بـ ﴿قُلۡ﴾ لزيادة الاهتمام[3].

دلالة الأمر في ﴿قُلۡ﴾:

التَّهديد والوعيد لمخالفي دعوة الرُّسل والأنبياء

﴿قُلۡ﴾ في قولِه: ﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾، أمرٌ مُرادٌ منه التَّهديدُ، أي: قل يا محمَّد لهؤلاء الجاحدين للحقِّ الَّذي جئت به: إذًا فانتظروا العذاب الَّذي نزل بالسّابقين من أمثالكم، إنّي معكم من المُنتظرين لوعد ربّي لي، فهو أمرٌ من الله تعالى لنبيِّه ﷺ، بأن يستمرَّ في تهديدهم ووعيدهم[4]. ووجوب مواجهتهم للتّحسير والتّبكيتِ، فالأمرُ لِتَفظيع شأن المَقول بحسب دلالة المقال[5].

موقع الفاء التَّفريعيَّة ودلالتها:

الإيجازُ بعطف التَّلقين، بالانتقال في الخطاب من جهة إلى أخرى

جيء بالفاء في قوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾؛ لينتقل من مخاطبة الله ورسوله ﷺ، إلى مُخاطبة الرَّسول قومَهُ،

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/213.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/213.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/298.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/110، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/137.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/82.

وبذلك يصير التَّفريع بين كلامين مختلفي القائل شبيهًا بعطف التَّلقين الَّذي في قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾ [البقرة: 124]، على أنَّ الاختلاف بين كلام الله وكلام الرَّسول ﷺ، في مقام الوحي والتَّبليغ، اختلاف ضعيف؛ لأنَّ مآلهما إلى كلام واحد، وهذا موقع غريب لفاء التَّفريع، وبهذا النَّسج حصل إيجاز بديع؛ لأنَّه بالتَّفريع اعتبر ناشئًا عن كلام الله تعالى، فكأنَّ الله بَلَّغه النَّبيَّ ﷺ، ثُمَّ أمر النَّبيَّ بأنْ يُبَلِّغَهُ قومه، فليس له فيه إلّا التَّبليغ، وهو يَتَضَمَّن وعد الله نبيه، بأنَّه يرى ما ينتظرهم من العذاب، فهو وعيدٌ، وهو يَتَضَمَّن النَّصر عليهم، وسيصرِّح بذلك في قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾[1].

دلالةُ حذف متعلَّقِ (انتظروا):

بالغ في تبكيتهم وتهويل مآلهم تهديدًا ووعيدًا

في الأمر (انتظروا) في قوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ دلالةٌ على المبالغة في تبكيتهم، والتَّهكُّم عليهم، وإهانتهم، وحذف مفعوله للتهويل، والتفظيع؛ إذ يُومِئُ الحذفُ إلى أنَّه لغرابته لا يكاد يُصوَّر عن طريق اللغة، وإنَّما بالمعاينة، والمشاهدة يوم يحلُّ بهم[2].

دلالةُ الاستئناف المؤكَّد في ﴿إِنِّي مَعَكُم﴾:

زيادةُ التَّحذير والتَّخويف، والإشارة إلى ترقُّبه النَّصرَ عليهم

جملةُ: ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن جملةِ: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾؛ لأنَّها تُثيرُ سُؤالَ سائلٍ يَقولُ: ها نحن أولاءِ نَنتظِرُ، وأنت ماذا تَفعَلُ؟ وهذا مُستعمَلٌ كنايةً عن تَرقُّبِه النَّصرَ؛ إذ لا يُظَنُّ به أنَّه يَنتظِرُ سوءًا؛ فتَعيَّنَ أنَّه يَنتظِرُ من ذلك ضِدَّ ما يَحصُلُ لهم[3]، فزاد التَّحذير بهذا الاستئنافِ المؤكَّد لما لهم من التَّكذيب: ﴿إِنِّي﴾[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/298.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/82.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/298 - 299.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/213.

فائدةُ تقديمِ شبه الجملة:

تأكيدُ تَرقُّبِ النَّصر يقينًا على المكذِّبين

(مَعَ) في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾: حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ، والمعيَّةُ هُنا في أصلِ الانتظارِ، لا في الحاصلِ بالانتظارِ[1]، وتأكيد انتظاره، ليقين انتصاره، وهو يقول لهم: "فستعلمون من تكون له العاقبة الحسنة، والنَّجاة في الدُّنيا والآخرة، وليست إلّا للرُّسل وأتباعهم"[2].

نكتةُ رَدِّ العجز على الصَّدرِ:

بيان أنَّ مُتعَلَّق الانتظار واحد بالذَّات

قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ مردود على قوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾، فقوله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾، أي: من المنتظرين هلاككم، أو فانتظروا هلاكي، إنّي معكم من المنتظرين هلاككم، أو من المنتظرين موعد ربِّي[3]، فأعلمهم بالنَّصفة بقوله: ﴿مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾[4]. فمُتَعَلَّق الانتظار واحد بالذّات وهو الظّاهر، فيكون تهديدًا لهم، على معنى: انتظروا ما يجب أن تنتظروه من وقائع اللّه بكم[5]. وجُوِّزَ أن يكون مختلفًا بالذَّات متَّحدًا بالجنس، أي: فانتظروا إهلاكي إنّي معكم من المنتظرين هلاككم[6]، فهو تحقيق لما يُنتظر من وعيد بصيغة التلويح بالتَّهديد.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المِثْلُ والنَّظِيْرُ:

المثل المُكافئ في الذّات، والنَّظير المقابل في الفعل

(المثل) مَا تكافأ مع مثله في الذّات؛ فيقال لما يُشَارِكهُ في الجوهر، والنَّظير ما قَابل نَظيره فِي جنس أفعاله، وَهُوَ مُتَمَكِّن مِنْهَا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/298 - 299.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنان: 11/298 - 299.
(3) وهبة الزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 11/277.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/213.
(5) الرَّسعنيّ، رموز الكنوز: 3/108.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 6/183.

كالنَّحْوِيِّ نظير النَّحْوِيِّ، وإن لم يكن له مثل كَلَامه في النَّحْو، أو كُتُبِهِ فيه، ولا يقال: النَّحْوِيّ مثل النَّحْوِيّ، لأَنَّ التَّماثُل يكون حقيقة في أخصِّ الأوصاف، وهو الذّات[1]. وأعمُّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة: المثل. ولدلالته هذه اختيرَ لفظ (مثل) في سياق الآيةِ ليدلَّ على الشبه في عموم حالات أيام من سلف من المعاندين والكافرين.

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 155، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 906.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يونس: 103]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ختمُ الآيات السّابقة ببيان سُنَّة الله في إنجاء أوليائه

لمّا تقدَّم قوله: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾، وكان ذلك مُشْعِرًا بما حلَّ بالأمم الماضية المكذِّبة، ومُصَرِّحًا بهلاكهم في غير ما آيةٍ، أخبر تعالى عن حكاية حالهم الماضية، فقال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾، والمعنى: إنَّ الذين خلوا أهلكناهم لمّا كذَّبوا الرُّسل، ثُمَّ نَجَّينا الرُّسُلَ والمؤمنين[1].

وكذلك لَمّا أُمِرَ الرَّسولُ في الآيةِ السّابقةِ، أن يوافق الكُفّار في انتظارِ العذاب؛ ذكر التَّفصيلَ، فقال: العذابُ لا ينزِلُ إلّا على الكُفّارِ، وأمّا الرَّسولُ وأتباعُه؛ فهم أهلُ النَّجاةِ[2]. فختم سبحانه هذه الآيات الكريمة، ببيان سُنَّةٍ من سُننِهِ الّتي لا تتخلَّف، ولا تتبدَّل، فقال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُنَجِّي﴾: أصْلُ الإنجاءِ: الخَلاصُ مِنَ الشَّيْءِ، نَجا يَنْجو نَجْوًا ونَجاءً، مَمْدُودٌ، ونَجاةً، مَقْصُورٌ، وأَنْجَيْتُ غيري، ونَجَّيْتُه، واستَنْجى مِنْهُ حَاجَتَهُ: تخلَّصها، وانْتَجَى مَتاعَه: تَخلَّصه وسَلبَه، ومعنى نَجَوْتُ الشَّيءَ: خَلَّصتُه وأَلْقَيْتُه. والنَّجاةُ: الخلاصُ مِنْ ضُرٍّ واقِعٍ[4]، والنَّجْوَةُ والنَّجاةُ: ما ارتفَع مِنَ الأرض، فَلَمْ يَعْلُه السَّيلُ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/110.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/307.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/138.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/130.

فَظَنَنْتُهُ نَجاءَك، والجَمْعُ نجاءٌ[1]، والمقصود بالإنجاء في الآية: وهو جَعْلُ الآخرين ناجين.

2) ﴿حَقًّا﴾: الحقُّ في الأصل: الثُّبوت، والشَّيء الثّابت، يقال: حُقَّ الأمرُ يحقُّ حقًّا، فهو حقٌّ، أي: ثبت واستقرَّ، وضِدُّه: الباطِلُ[2]، ويأتي الحَقُّ بمعنى المَوجود، وضِدُّه: المَعدومُ. ويُطلَق على الواجِبِ واللّازِم، فيقال: يَحِقُّ عليك أن تَفعَلَ كذا، أي: يَجِبُ، ويُسْتَعْمَلُ بمعنى المُؤَكَّدِ المُتيَقَّنِ، والحَقِيقَةُ: اليَقينُ، وضِدُّها: الشَّكُّ[3]، والمقصود بالحقِّ في الآية: واجب بطريق الوعد على سبيل التَّفضُّل[4].

المَعْنى الإجْماليِّ:

لا نجاةَ في الدُّنيا والآخرة، إلّا للرُّسل المكرمين، وأتباعهم المؤمنين

يُخبر الله تعالى نبيَّه الكريم ﷺ: أنَّ سُنَّتنا في رُسُلنا مع أقوامهم الَّذين يبلِّغونهم الدَّعوة، ويقيمون عليهم الحُجَّة، وينذرونهم سوء عاقبةِ التَّكذيب - فيؤمن بعضٌ، ويصرُّ آخرون على الكفر - أنْ نُهلك المكذّبين، ونُنجّي رسُلَنا والمُؤمنينَ بهم مِن عَذابِنا الواقِعِ على قومِهم، كما أنجَينا الرُّسُلَ السّابقينَ والمؤمنينَ بهم حين نزولِ العَذابِ، حقًّا ووعدًا أوجَبْناه علينا لا نُخلِفُه[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطف وأثره على المعطوف عليه:

تعجيلُ البشارة للرَّسول ﷺ والمؤمنين

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ عُطِفَ على جملة: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾؛ لأنَّ مثل تلك الأيّام أيّام عذاب، ولمّا كانوا مُهدَّدين بعذاب يِحُلُّ بموضع فيه الرَّسول ﷺ والمؤمنون، عَجَّلَ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نجو).
(2) السَّمين الحلبّي، عمدة الحّفاظ: (حقق).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حقق).
(4) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حقق).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/303، والواحديّ، التَّفسير الوسيط: 11/332، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/387، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/299، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/160.

اللّه البشارة للرَّسول ﷺ والمؤمنين بأنَّه ينجيهم من ذلك العذابِ بقدرته، كما أنجى الرُّسل مِن قبلِه[1]. فهو تبشير للمؤمنين، وتطمينٌ لهم من أن يصيبَهم شيء من هذا المكروه الَّذي سيحِلُّ بالكافرين، فالمؤمنون بمنجاة من هذا المكروه؛ لأنَّهم مع رسلِ اللّه، واللّه ﷻ لن يتخلّى عن رسله، ولن يريهم منه إلّا ما يسرُّهم من الأمن والعافية، والدَّرجات العُليا عنده[2].

دلالةُ العطف على محذوفٍ:

التَّهديدُ والمبالغة في تشديد الوعيد على المكذِّبين

ويجوز أنْ يكون قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا﴾ معطوفًا على كلام محذوف، يَدُلُّ عليه قوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾، كأنَّه قيل: نهلك الأمم، ثُمَّ ننجِّي رسلنا، على حكاية الأحوال الماضية[3]، وجيء به مسارعةً إلى التَّهديد ومبالغة في تشديد الوعيد[4]. وهذا التَّعبير على هذا التَّقدير من أعجب إيجاز القرآن المُعجِزِ الذي انفرد به في العطف على محذوفٍ، وهو ذكر شيء يدلُّ دلالة واضحة على أمرٍ عامٍّ: كسُنَّة اجتماعية تُستَنْبَط من قصَّة أو قصص واقعة، ثُمَّ يأتي بجملة معطوفة لا يصحُّ عطفها على ما قبلها من الجُملِ، فيتبادر إلى الذِّهن وجوبُ عطفِها على ذلك الأمر العامِّ، بحرف العطف المُناسب للمقام، بحيث يُستغنى به عن ذكره، وتقديره هُنا: تلك سنَّتنا في رسلنا مع قومهم: يبلِّغونهم الدَّعوة، ويقيمون عليهم الحُجَّة، وينذرونهم سوء عاقبة الكفر والتَّكذيب، فيؤمن بعض، ويُصِرُّ الآخرون، فنهلك المكذِّبين، ثُمَّ ننجّي رسلنا والَّذين آمنوا بهم، كذلك حَقًّا علينا ننجّي المؤمنين[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/299.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1091.
(3) الزَّمخشري، الكشاف: 2/373، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/110، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/178.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/183.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/397.

سِرُّ اصطفاء العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

إفـادةُ التَّراخي والبعد الزَّمنيِّ والمعنويِّ، عاقبةُ الابتلاء الوخيمة

في الإنجاء الوارد في: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ قولان: أحدهما: ننجّيهم من العذاب إذا نزل بالمكذِّبين، والثّاني: ننجّيهم في الآخرة من النّار[1]، فتكون ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي والبعد الزَّمني والمعنويِّ؛ لأنَّ ما ينزل بالكافرين، يكون بعد إمهالٍ يتمادون فيه، ثُمَّ يكون الهلاك، ثُمَّ تكون النَّجاة، والبعد الفارق بين أن ينزلَ البلاءُ وبين النَّجاة من عذابٍ يعمُّ، ولا يَخُصُّ[2]، فقد أفادت الآية السّابقة: أنَّ المُكذِّبين ينتظرون عذابًا، مثل عذاب قوم نوح، ومن بعدهم، وأفادت هذه الآية: أنَّه بعد عذاب المكذِّبين، ينجّي اللّه المرسلين، وينجّي معهم من آمن بهم، وتلك سنَّة اللّه، ولن تجدَ لسنَّة اللّه تبديلًا[3]؛ فأشار بأداة التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ إلى طول زمان الابتلاء، وعظيم رُتبة النَّتيجة[4].

عِلَّةُ حذف (الإهلاك) مُقابل الإنجاء:

دلالـة السّياق على انتظار وعد الله ووعيده

حذف (الإهلاك) دلَّت عليه الإشارة، فالسّياق يشير إلى أنَّهم ينتظرون أن يهلكوا، مثل الَّذين خلوا من قبلهم، في قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فحذف مقابل الإنجاء؛ لأنَّ المقام بعد قوله: ﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾؛ فلمّا أمر الرَّسول في الآية الأولى، أن يوافق الكفَّار في انتظار العذاب ذكر التَّفصيل، فقال: العذاب لا ينزل إلّا على الكفّار، وأمّا الرَّسول وأتباعه، فهم أهل النَّجاة[5].

دلالةُ مجيء ضمير العظمة في قوله: ﴿نُنَجِّي﴾:

بـيـانُ عـظـمـة الإنجاء، لكونهِ من الله العظيم

قولُه تعالى: ﴿نُنَجِّي﴾ أي: تَنجية عظيمة، وننجّيهم إنجاءً

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/353.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3641.
(3) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 11/2127.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/213.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/307، والبقاعي، نظم الدُّرر: 9/213.

عَظيمًا[1]، "أي: أهلكنا الأمم، ثمَّ نجَّينا رسلَنا المرسلةَ إليهم، والَّذين آمَنوا؛ لأنَّ العذابَ لا ينزل إلّا على الكفّار"[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع عن حكاية الحال الماضية:

استحضارُ صورةِ ماضي إهلاكِ الظّالمين مفيدٌ للمخاطَبين

عبَّرَ النَّظْمُ الكريم بالمضارع ﴿نُنَجِّي﴾ على حكايةِ الحالِ الماضية؛ إذ الظّاهر أن يُقال: (ثُمَّ نَجَّيْنَا)، لكن عبَّر بالمضارع لحكاية الحالِ الماضية، إظهارًا للقدرة الكاملة باستحضار الصُّورة البديعة الباهرة[3]، لتكون من العذاب، كأنَّها مشاهدة[4]، وفيه تهويلٌ لأمرِها باستحضارِ صورتها[5].

توجيهُ القراءاتِ في قوله تعالى: ﴿نُنَجِّي﴾:

في تضعيف الفعل، معنى تأكيد النَّجاة والسَّلامة

قرأ يعقوب (نُنْجي) بالتَّخفيف وقرأ الباقون بالتَّشديد ﴿نُنَجِّي﴾[6]، وفي التَّضعيف معنى تأكيد النَّجاة والسَّلامة[7].

سِرُّ تأخير حكاية التَّنجية عن حكاية الإهلاك:

مُراعاةُ مُناسبة اتِّصال الجملة بما بعدها من كلام

تأخير حكاية التَّنجية عن حكاية الإهلاك، على عكس ما جاء في غير موضع، ليتَّصل به قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: ننجّيهم إنجاء كذلك الإنجاء الّذي كان لمن قبلهم[8].

دلالةُ إضافة ضمير العظمة (نا) إلى الرُّسل:

تشريفُ مكانة الرُّسل، وتعظيم منزلتهم

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾، أي: الَّذين عظمتهم من عظمتنا[9]، فأضاف ربُّنا سُبحانه الرُّسل إليه، تشريفًا لمكانتهم، ولبيان أنَّهم ينطقون عن اللّه تعالى، ولا يأتون ببهتان يفترونه[10]،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/213.
(2) الجاويّ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/497.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/574.
(4) أطفيش، تيسير التَّفسير: 6/320.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/373، وأبو حيّان: 6/110، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/178.
(6) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/287.
(7) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3641.
(8) الآلوسي، روح المعاني: 6/183.
(9) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/214.
(10) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3641.

وقد قال له: "أي: كذلك الإنجاء، ننجّي المؤمنين معك أيُّها الرَّسول، ونهلك المصرّين على تكذيبك، وعدًا حقًّا علينا، لا نخلفه ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء: 77]، وقد صدق وعده، كما قال.

سِرُّ عطفِ الاسم الموصول على الرُّسل في الآية:

الملازمون للرُّسل معهم في الجزاء مقابل الوفاء

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾، أي: بالرُّسل، وهم معهم في زمانهم، ولو كانوا في أدنى درجات الإيمان، تشريفًا للرُّسل، فإنَّهم بصدد الرُّسوخ بملازمتهم[1].

بلاغةُ التَّشبيه التَّمثيلِّي:

تشبيهُ إنجاء الخَلَفِ الأمين، بإنجاء سَلَفِهِمْ المكين

قولهُ: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: مثل ذلك الإنجاء[2]، والكاف في محلِّ نصب بمعنى (مثل) لسدِّها مَسَدَّ المفعول المطلق، والمعنى ننجي المؤمنين، إنجاءً مثلَ إنجاء الرُّسل عليهم السلام، ومَنْ آمن معهم، فالكاف للتَّشبيه، ولفظ ذلك إشارة إلى التَّنجية، المدلول عليها بقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾[3]، تشريفًا للرّاسخين وترغيبًا في مثل حالهم[4]. والتَّمثيل ممّا يكشف المعاني، ويوضِّحها[5]، ومعنى التَّشبيه في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أنَّ بعضه كبعض، فقد شبَّه نجاة من بقي من المؤمنين بنجاة من مضى، ووجه الشَّبه استحقاق كلٍّ منهم النَّجاة، وأصل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أنْ يَدُلَّ على تشبيه شيءٍ بشيء، والمشبَّه به ظاهرٌ مشار إليه، أو كالظّاهر ادِّعاء.

بلاغةُ الاعتراض في قوله: ﴿حَقًّا عَلَيۡنَا﴾:

تأكيدُ وعد اللّه تعالى للمؤمنين وأنّه لن يُخْلَف

قوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَيۡنَا﴾، جملة مُعترضة بين الفعل ومعموله،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/214.
(2) البروسويّ، روح البيان: 4/85.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/574.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/214، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/110.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/134.

ونصبه بفعله المقدَّر، أي: حقَّ ذلك علينا حقًّا؛ لأنَّ المصدر بدلٌ من الفعل، وجعله اللّه حقًّا عليه تحقيقًا للتَّفضل به والكرامة، حتّى صار كالحَقِّ عليه(1). فهي معترضةٌ لتأكيد وعدِ اللّه تعالى للمؤمنين، وأنَّه لن يختلف، فسمّاه سبحانه حقًّا عليه، وهو الَّذي لا واجب عليه، ولا يُسأل عمّا يفعل(2).

دلالةُ نون العظمة والضَّمير في ﴿عَلَيۡنَا﴾:

تعظيمُ الحقِّ الواجب من الجناب الأعظم

قوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَيۡنَا﴾، "اعتراض بين العامل والمعمول، أي: حقَّ ذلك حقًّا، وقيل: بدلٌ من المحذوف الَّذي ناب عنه، كذلك، أي: إنجاءٌ مثل ذلك حقًّا"(3)، ومعناه بما أوجبناه على جنابنا الأعظم(4)، فجيء بضمير العظمة والكبرياء لتعظيم هذا الحقِّ الَّذي أوجبه اللّه على نفسه فضلًا وكرمًا، وبسبب الوَعْدِ والحُكم، أوجبه اللّه على نفسه، فضلًا وكرمًا، فقال: ﴿حَقًّا عَلَيۡنَا﴾؛ إشارة إلى أنَّ هذا الوعدَ الَّذي وعَدَهُ اللّه رُسلَه والمؤمنين، هو وعدٌ حقٌّ لا شَكَّ فيه، كما يقول ﷻ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(5).

دلالة التَّأكيد بجملة:

تبشيرٌ للنَّبيِّ ﷺ بأنَّ العاقبة للمُتَّقين

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، هو تأكيدٌ بعد تأكيد؛ وفي ذلك تبشيرٌ للنَّبيِّ ﷺ بأنَّ العاقبة للمتَّقين، وأنَّ الظّالمين مهما أرعدوا، وأبرقوا؛ فأمرهم إلى زوال، وأنَّه ﷺ ناجٍ من كيدهم وتدبيرهم، وغالبٌ هو ومن معه في هذا الميدان الدُّنيويِّ بين الخير والشَّرِّ والإيمان والكُفرِ(6).

(1) البروسويّ، روح البيان: 4/85، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/299.
(2) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3641.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4178.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/214.
(5) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1091، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/307.
(6) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3641.

بلاغةُ الاحتباك في عدم ذكرِ الرُّسل:

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، لم يذكر إنجاء الرُّسل إيذانًا بعدم الحاجة إليه؛ لأنَّهم أوَّل المؤمنين، والأقرب مكانةً من ربِّ العالمين، فهم في حماية اللّه دومًا[1]، فعدمُ ذكرِ الرُّسل هُنا من الاحتباك؛ إذ حُذِف من الأواخر ما جاء نظيره في الأوائل.

الـرُّسـلُ أوَّلُ المـؤمـنـين، والأقـرب مكانةً من ربِّ العالمين

نكتةُ تنوّع القراءات في فعل الإنجاء في الآية:

قرأ الجمهور ﴿نُنَجِّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بفتح النُّون الثّانية وتشديد الجيم، وقرأ الكسائيُّ، وحفص عن عاصم ويعقوب ﴿نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2] بسكون النّون الثّانية، وتخفيفِ الجيم من الإنجاء، فالمخالفة بينه وبين نظيره الَّذي قَبۡلَهُ تَفَنُّنٌ، والمعنى واحد[3].

التَّنبيه على أنَّ مدارَ الإنجاء هو الإيمان

دلالةُ حذفِ الياء من الرَّسم العثمانِّي لغير جازم في ﴿نُنجِ﴾:

في جزم الفعل ﴿نُنجِ﴾ ما يكشف عن مزيد من فضلِ اللّه وكرمه وإحسانه، إلى عباده المؤمنين، ففي مجيء الفعل ﴿نُنجِ﴾ مجزومًا، ولا جازم له، يفتح الطَّريق إلى تقدير فعل أمْرٍ، ليقع هذا الفعل تحت سلطان الأمر من اللّه ﷻ، وهو أمرٌ مِنَ اللّه سبحانه إلى اللّه سبحانه، والتَّقدير: كذلك حقًّا علينا إنجاءُ المؤمنين فلننجِّهمۡ إذًا، فسبحانه من ربٍّ كريم، يفيض على المؤمنين من عباده ما لا يفيض الأبُ البَرُّ الرَّحيم على صغاره من عطفه وحنانه[4].

الـكـشـف عـن مزيد فضل اللّه وإحـسـانـه إلى عباده المؤمنين

فائدة المغايرة بين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ و﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

تغايرَ اللَّفظان في وصف أهل الإيمان، وذلك مبنيٌّ على سؤال مَن لعلَّه يقول: هل حقوق النَّجاة مُخۡتَصَّةٌ بالرُّسل ومن معهم؟ فقيل: لا، بل ﴿نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في كلِّ زمن، وإنۡ لم يكن بين ظهرانيهم رسولٌ؛

بيانُ أنَّ العِلَّةَ في الإنـجـاء هـو الاتِّـصـاف بالإيمان

(1) البروسويّ، روح البيان: 4/85.

(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/287.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/299.

(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1091.

لأنَّ العِلَّةَ الاتِّصافُ بالإيمان الثّابت[1]، فالمراد بالمؤمنين، إمّا الجنسُ المتناول للرُّسل ﷺ والأتباع، أو من بعدهم من أهل الإيمان، وأيًّا ما كان ففيه تنبيهٌ على أنَّ مدار الإنجاء، هو الإيمان[2].

فائدةُ التَّعبير بالاسم في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دون الفعل:

بيان نجاة العريقِين في الإيمان، في كلِّ عصر وأوان

قوله تعالى: ﴿نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: العريقِين في الإيمان، ولو كانوا بعد موت الرُّسل، تنجيَةً عظيمة، وتنجيهم إنجاءً عظيمًا[3]. و"عادةُ الله سلفت، بإنجاء رسله ومتَّبعيهم عند نزول العذاب بالكَفَرَةِ، ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾"[4].

بلاغةُ التَّذييل:

التَّنبيه على سنَّةِ اللّه في إنجاء المؤمنين في كُلِّ زمانٍ ومكان

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تذييلٌ لما قبلَه مقرِّرٌ لمضمونِه[5]، ومعنى ﴿نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، من كلِّ شِدَّةٍ وعذابٍ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ مدار النَّجاة، هو الإيمان، وهذه سنَّة اللّه تعالى في جميع الأمم، فإنَّ اللّه تعالى كما أنجى الرُّسل المتقدِّمين ومن آمن بهم، وأنجز ما وعد لهم، كذلك أنجى رسول اللّه صلَّى اللّه تعالى عليه وسلَّم، ومن معه من أصحابه، وحقَّق لهم ما وعد لهم، وسينجي إلى قيام السَّاعة جميع المؤمنين من أيدي الكفرة وشرورهم؛ ما دام الشَّرع باقيًا، والعمل به قائمًا[6].

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(نَجَّى) و(أنْجَى):

الإنجاءُ هو الخلاص قبل الوقوعِ في المَهلَكَة، والتَّنجية بعد الوقوع فيها

نصَّ جماعةٌ مِن أهل العلم على أنَّ التَّنجيةَ والإنجاءَ واحدٌ، وأنَّهُ:

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/214.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/183.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/214.
(4) الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 3/269.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/178.
(6) البروسويّ، روح البيان: 4/85.

الإنقاذُ مِنَ المكروه[1]، وفرَّق آخرونَ بينَهما بأنَّهما يشتركان في التَّخليصِ من المَهْلكة، ثُمّ يختصُّ الإنجاء بأنَّه الخلاص قبل الوقوعِ في المَهْلكة، وتختصُّ التَّنجيةُ بأنَّها الخلاص بعد الوقوع فيها[2]. ويدلُّ على المعنى المذكور للإنجاء قول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾ [الأنبياء: 9]؛ فإنَّ الكلام ههنا عَنِ الأنبياء؛ لأنَّه قال قبلها: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: 7]، وقد أنجاهمُ اللّه تعالى مِنَ العذاب قبل وقوعِهِ على أممهم، ويدلُّ على المعنى المذكور للتَّنجيةِ قولُ اللّه سبحانه: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ فإنَّ تنجيةَ اللّه تعالى لبني إسرائيلَ كان بعد وقوع العذابِ عليهم[3]. ويُشكِلُ على هذا الفرقِ ذِكْرُ اللّه سبحانه إنجاءَ بني إسرائيل بصيغة (أنْجَى) بعد وقوع العذابِ عليهم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: 141]. إلَّا أنَّهم يُجيبون عَن هذا بأنَّ الصِّيغتَين قد تختلفان، إمّا بحسب اللُّغة، وإمّا مجازًا، وثَمَّ تفريقٌ آخَرُ بين الفعلين في السّياق القرآنيِّ، وذلك أنَّ الغالبَ استعمالُ (نجّى)، لِما فيه تلبُّثٌ وتمهُّلٌ في التَّنجية، بخلاف (أنجى)، فهو للإسراع فيها، فالإنجاء - على هذا - أسرع مِنَ التَّنجية في التَّخلُّص من المَهْلكة، كما في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٤٩ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾ [البقرة: 49 - 50]، فاستُعمِلَ ههنا كِلا الفعلين؛ فـ (نَجَّى) لِمَا كان فيه التَّخليصُ بعد شدَّةٍ وعذابٍ طالَ أمدُهُما، وهو تذبيحُ الأبناء واستحياءُ النِّساء، بخلاف (أنجى)، فهو مستعمَلٌ في التَّخليص من هَوْلِ البحر بفَرْقِه، وتلك الشِّدَّةُ لم تَطُلْ عليهم.

وقد يُستعمل في الحادثة الواحدة الفعلانِ - (أنجى) و(نجَّى) - في موضعين مختلفين، وذلك بحسب ما يقتضيه السّياقُ؛ فقد يتطلَّبُ المقامُ ذكر الإسراعِ في النّجاة، فيُستعمل الفعل (أنْجَى)، وقد لا يتطلَّب ذلك، فيُستعمل الفعلُ (نَجَّى)، وذلك لأنَّ طولَ الزَّمن وقِصَرَهُ أمران نسبيّانِ، فقد يستطيل أحدٌ أمرًا، وقد يستقصِرُهُ، بحسب المقام[4].

(1) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 1/134، والسَّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/76، والشّنقيطي، أضواء البيان: 2/285.

(2) أبو هلال العسكريّ، معجم الفروق اللّغويَّة، ص: 77.

(3) أبو هلال العسكريّ، معجم الفروق اللّغويَّة، ص: 77.

(4) فاضل السّامرائيّ، بلاغة الكلمة في التَّعبير القرآنيّ، ص: 66 - 71.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٤﴾ [يونس: 104]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين بيان مآل الكفر والإيمان، ودعوة الرَّسول إلى هدى الله الحقِّ

بعد أن بيَّن تعالى طريق الهدى، وطريق الضَّلال، وأنذر وحذَّر، وواعد وأوعد في الآيات السَّابقة بما لا مزيد عليه أمر رسوله هُنا، أن يواجه المشركين من أهل مكَّة وغيرهم بالتَّقرير التَّالي، فقال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾[1]، لمّا ذَكَرَ اللّه تعالى الدَّلائل على أقصى الغايات، وأبلغ النِّهايات، أمر رسوله بإظهار دينه، وبإظهار المُباينة عن المشركين؛ لكي تزول الشُّكوك والشُّبهات في أمره، وتخرج عبادة اللّه من طريقة السِّر إلى الإظهار[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَكٍّ﴾: أصلُ الشَّكِّ يَدُلُّ على التَّداخل، ومن ذلك قولُهم: شَكَكتُهُ بالرُّمحِ، وذلك إذا طَعَنتَه، فداخَلَ السِّنانُ جِسمَهُ، ومِنْ هذا الباب الشَّكُّ الَّذي هو خِلافُ اليقين؛ إنَّما سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ الشّاكَّ كأنَّهُ شُكَّ له الأمرانِ في مَشَكٍّ واحِدٍ، وهو لا يَتيقَّنُ واحِدًا منهُما، فمن ذلك اشتقاقُ الشَّكِّ[3] والشَّكُّ أيضًا: الرَّيْبُ، تقولُ: رابَني الشَّيءُ، وأرابَني، أي: شَكَّكَني[4]، ويُطلَقُ بمعنى الالتِباس، يُقال: شَكَّ في الأمر: إذا التَبَسَ عليه، ولم يَتَّضِح له[5]، والمقصود بالشَّكِّ في الآية: الالتباس[6].

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/514.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/308.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شكك).
(4) ابن سيده، المخصّص: 4/346.
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (شكك).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/300.

2) ﴿يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾: أصلُ (وفى) كلمةٌ تدُلُّ على إكمالٍ وإتمام، منه الوَفاءُ: إتْمَامُ العهد وإكمالُ الشَّرْطِ، ووَفى: أوْفَى، فهو وَفِيٌّ، ويقولون: أوفَيتُكَ الشَّيءَ، إذا قَضَيْتَهُ إيّاهُ وافيًا. وتَوَفَّيتُ الشَّيءَ، واسْتَوْفَيْتُهُ؛ إذا أخَذْتَهُ كُلَّهُ حتَّى لم تَترُكْ منه شيئًا[1]، والوفاة: المنيَّة، وتُوفِّي فلان. وتوفّاه اللّه؛ إذا قَبض نَفْسه[2]. وتَوَفِّي الميتِ: اسْتِيفاءُ مُدَّته الَّتي وُفِيتْ له، وعَدَدِ أيامِه وشُهوره وأعْوامه في الدُّنيا. وتَوَفَّيْتُ المالَ مِنْهُ، واسْتَوْفَيتُه؛ إذَا أخذته كُلَّهُ[3] والمقصود بالتَّوَفِّي في الآية: الإماتَةُ، سُمِّيَتْ توفِّيًا؛ لأنَّها تُنهي حياةَ المَرء أو تستوفيها.

۞ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

دِيـنُ الـلـه حقٌّ لا مـريـةَ فيه، وما سواه باطل لا يرتضيه إلّا سفيهٌ

يقولُ اللّه تعالى: قُل - يا محمد ﷺ - لهؤلاء النّاسِ: إن كنتم لا تعرفون ديني، فأنا أبيّنه لكم على سبيل التَّفصيل، وإن كنتم في شكٍّ من صحَّةِ ما جئتكم به من الدّين الحنيف الَّذي أوحاه اللّه إليَّ، فاعلموا وصفَهُ، وأنَّه لا مجال للشَّكِّ فيه، وهو أنِّي لا أعبدُ الَّذين تَعبُدونَ مِن دونِ اللّه، من الأصنام والأوثان وغيرها من المخلوقاتِ الَّتي لا تستحِقُّ العبادَةَ، ولكن أعبدُ اللّه الَّذي يُميتُكم، ويقبض أرواحَكم، ثمَّ يبعثُكم، وإليه مَرجِعُكم؛ لِيُجازيَكم بأعمالكم، فهو وَحْدَه المُستحِقُّ للعِبادةِ، وأمرني اللّه أن أكونَ من جملة المؤمنين المصدِّقينَ بما أوحى إليَّ، الموعودينَ بالنَّجاة من العذاب، والنَّصرِ على أعدائهم وأعدائه[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وفى).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وفى).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/304، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/387، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/542، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/281.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ تكرار لفظ ﴿قُلْ﴾ وتصدير الجملة بها:

بيان اتِّصال هذا الأمر بسابقه، تحقيقًا للتَّوحيد بعد بيان أدلَّته

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، هذه الجملة مُتَّصلة المعنى بجملة: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾؛ إذ المقصود من النَّظر المأمور به هنالك النَّظر للاستدلال على إثبات الوحدانيَّة، فإنَّ جحودهم إيّاها هو الَّذي أقدمهم على تكذيب الرَّسول ﷺ، في قوله: إنَّ الله بعثه بإثباتها، وأبطل الإشراك، فلمّا أمرهم بالنَّظر المؤدّي إلى إثبات انفراده تعالى بالإلهيَّة؛ أعقبه بأن يُخبرَهم بأنَّهم إن استمرّوا على الشَّكِّ فيما جاء به الرَّسول ﷺ، فإنَّ الرَّسول ﷺ ثابت على ما جاء به، وأنَّ دلائل صِحَّة دينه بيِّنةٌ للنّاظرين[1].

دلالةُ النِّداء للبعيد (يا) في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

الإشارةُ إلى بُعْدِ نفوسهم عن الحقِّ، ومجافاتهم له

أمر سبحانه رسوله ﷺ، بأن يظهرَ التَّباين بين طريقته وطريقة المشركين مخاطِبًا للكُفَّار من النَّاس، أو لأهل مكَّة[2] الَّذين هُم في حيِّز الاضطراب، فلم ترقَ هِمَمُهُم إلى رتبة الثَّبات[3]. فصدَّر النَّظم الكريمُ النِّداءَ بحرف النِّداء (يا) الدّال على نداء البعيد، لبيان بُعْدِ نفوسهم، ومجافاتهم للحقِّ، ونأيهم عن الرَّسول الأكرم ﷺ.

إيثارُ الخطاب باسم الجنس (النَّاس):

تعميمُ الخطاب للتَّبليغ، وإظهار العناية بما بلغهم

المخاطَبون بـ (الـ) أهل مكَّة، و(الـ) للعهد، وهم المعهودون؛ لأنّ الشَّمس النَّبويَّة طلعت من بينهم، ويجوز أن يكون (الـ) للجنس، فيكون المراد المكلَّفين من أهل مكَّة وغيرهم، أي: قريش وغيرهم، الحاضرين والغائبين، من وجد، ومن سيوجد؛ والأوَّل أولى؛ لأنَّ أصل الخطاب أن يكون للموجود الحاضر، وغيرهم مستفادٌ من

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/300.

(2) القنوجي، فتح البيان: 3/283.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/215.

النَّصِّ الآخر العامِّ[1]. وأوثر الخطاب باسم الجنس (النَّاس) مع تصديره بحرف التَّنبيه، تعميمًا للخطاب، وإظهارًا لكمال العناية بشأن المُبَلَّغ إليهم[2].

دلالة (في) على الظَّرفيَّة المجازيَّة:

تشبيهُ تمكُّن إحاطة الصِّفة بتمكُّن الظَّرف من المظروف

(في) من قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ﴾ للظَّرفيَّة المجازيَّة المستعملة في التَّمكُّن تشبيهًا لتمَكُّن الصِّفة بتمكُّن الظَّرف من المظروف من جهة الإحاطة، وهي من بليغ البيان[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بأسلوب الشَّرط:

تنزيلُ المحقَّقِ منزلة المشكوك فيه، تنزيهًا للدِّين من الشُّكوك فيه

إنَّما قال: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾، وشرطه يدلُّ على الشَّكِّ في شَكِّهم، وهو ﷺ لا يُشَكُّ فيه؛ لأنَّه نزَّل دينه منزلة ما لا ينبغي أن يشكُّوا فيه لشِدَّة ظهوره، وتألُّق نوره[4]، فإنَّ وضوحَ صحَّته، وبرهان أحقِّيَّته أوضحُ من الشَّمس في رائعة النَّهار[5]. فعبَّر عن شكِّهم (بإنْ) المفيدة؛ لعدم اليقين، مع أنَّهم قد شكُّوا فِعْلًا في صحَّة هذا الدِّين، بدليل عدم إيمانهم به، تنزيلًا للمُحَقَّق منزلةَ المشكوك فيه، وتنزيهًا لساحة هذا الدّين عن أن يتحقَّق الشَّكُّ فيه من أي أحد، وتوبيخًا لهم على وضعهم الأمور في غير مواضعها[6].

دلالةُ الشَّكِّ ووجهُ وقوعه منهم:

الإشـــارةُ إلى اختلاف درجات التَّـكذيب والاضطراب

إن قيل: كيف قال: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ﴾، وهم كانوا يعتقدون بطلان هذا الدِّين؟[7] وعن هذا ثلاثة أجوبة: أحدها: أن يكون التَّقدير: من كان شاكًّا في أمري، وهو مصمِّمٌ على أمره فهذا حكمه. والثَّاني: أن يكون

(1) أطفيش، تيسير التَّفسير: 6/321.
(2) القاسمي، محاسن التَّأويل: 6/67، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/139.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/300.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/488.
(5) القاسمي، محاسن التَّأويل: 6/67.
(6) طنطاويّ، تفسير الوسيط: 7/139.
(7) البغويّ، معالم التَّنزيل: 2/437.

المعنى: أنَّهم في حكم الشّاكِّ لاضطراب أنفسهم عند ورود الآيات.
والثّالث: أن يكون فيهم الشّاكُّ وغير الشّاكِّ، فجرى على التَّغليب[1].
فقوله: ﴿فِي شَكٍّ﴾ مع أنَّهم في جزم ببطلان الدِّين للإشارة إلى أنَّهم عارفون الحقَّ، وجحدوه، كما يخاطب الجازم خطابًا بصورة الشَّكِّ تثبيتًا؛ أو كأنَّهم عرفوه لظهور دلائله، وإنَّ أقصى ما يبقى للعاقل إذا قصَّر أن يشكَّ، وأمّا الجزمُ؛ فعناد محضٌ، ولا سبيل إليه البتَّة[2].
فالشَّكُّ إنَّما يكون عند عدم تصوُّر حقيقة هذا الدِّين بالكُنْهِ، وعدم الاستدلال عليه، فالشَّكُّ في صدقهِ يستلزم الشَّكَّ في ماهيَّته؛ لأنَّهم لو أدركوا كُنهه؛ لما شَكُّوا في حقّيَّته[3].

دلالةُ (من) في قوله: ﴿مِّن دِينِي﴾:

الــدَّلالــة على الابــتــداء المــجــازيِّ؛ لأنَّ فعلَهم بدأ من الدِّين

التَّعبير بـ (من) وهو ابتداء يؤول إلى معنى السَّببيَّة، إلى شكٍّ سببه الدِّين، أي: في كونه حقًّا من اللّه، و﴿مِّن﴾ إشارة إلى أنَّ فعلهم ذلك ابتدأ من الدِّين، ولو عبَّر بـ (في)؛ لأفهم أنَّهم دخلوا فيه؛ لأنَّهم في الشَّك والشَّك في الدِّين، والظَّرف لظرف الشَّيء ظرف لذلك الشَّيء[4]. فلفظ (من) في قوله: ﴿مِّن دِينِي﴾ للابتداء المجازيِّ، أيُّ شكٍّ آتٍ من ديني، وهو ابتداء يؤول إلى معنى السَّببيَّة، أي: إن كنتم شاكّين شكًّا سببه ديني، أي: يتعلَّق بحقِّيَّته، لأنَّ الشَّكَّ يُحمل في كلِّ مقام على ما يناسبه، كقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: 94]، وقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: 23][5].

دلالةُ التَّعبير بـ لفظ ﴿دِينِي﴾ بدلًا من (إيماني):

الــخــصــومــةُ بــين الأنــبــيــاء وأقــوامــهــم لأسباب دينيَّةٍ، لا لغاية ذاتيَّةٍ

ظاهر هذه الآية يدلُّ على أنَّ هؤلاء الكفّار، ما كانوا يعرفون دينَ

(1) ابن فضال المجاشعي، النُّكت في القرآن الكريم، ص: 246.
(2) أطفيّش، تيسير التّفسير: 6/321.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/300.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/216.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/300.

رسول الله ﷺ، وفي الخبر أنَّهم كانوا يقولون فيه: قد صبأ، وهو صابئٌ، فأمر الله تعالى أن يبيِّنَ لهم أنَّه على دين إبراهيم حنيفًا مسلمًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا﴾ [النّحل: 120]، ولقوله: ﴿وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ﴾ [الأنعام: 79]، ولقوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢﴾ [الكافرون: 2]، والمعنى: أنَّكم إن كنتم لا تعرفون ديني، فأنا أبيِّنه لكم على سبيل التَّفصيل، ثمَّ ذكر فيه أمورًا[1]. فعلَّق الظَّرف بذات الدِّين، والمراد الشَّكُّ في حالة من أحواله، وهي الحالة المتلبِّسة بهم، أعني حالةَ حقِّيَّته، فالشَّك في الدِّين، هو الشَّكُّ في كونه حقًّا، وكونه من عند الله؛ كما تقرَّر ذِكْرُه آنفًا[2].

نكتةُ الإيجازِ بالحذف للجُمل المقدَّرة في الكلام:

دلالـةُ الظّاهر والسّـياق على المحذوفات من البيان القرآنيّ

هذه الآية يتَّسق معناها بمحذوفات يدلُّ عليها هذا الظّاهر الوجيز، والمعنى: إن كنتم في شكٍّ من ديني، فأنتم لا تعبدون الله، فأنا مُستيقنٌ في دينكم ومعبودكم أنَّهما باطلان، ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فاقتضت فصاحةُ الكلام وإيجازه اختصارَ هذا كلِّه[3].

سِرُّ تقديم النَّفي عن الإثبات:

الإيذانُ بمخالفتهم، وتقديم التَّخلية على التَّحلية

قدَّم النَّظم الكريم النَّهي في ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على قوله: ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ﴾؛ لأنَّ إزالةَ النُّقوش الفاسدة عن اللَّوح، لا بدَّ وأن تكون مقدَّمة على إثبات النُّقوش الصَّحيحة في ذلك اللَّوح، وإنَّما وجب هذا النَّفيُ؛ لأنَّ العبادةَ غاية التَّعظيم، وهي لا تليق إلَّا بمن حصلت له غايةُ الجلال والإكرام، وأمّا الأوثان؛ فإنَّها أحجار والإنسان أشرف حالًا منها، وكيف يليق بالأشرف أن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/308.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/300.
(3) ابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 3/146، والسَّمرقندي، تفسير السَّمرقندي: 2/135.

يشتغل بعبادة الأخسِّ[1]، ولكن تليق العبادة لمن بيده النَّفع والضُّرُّ، وهو قادر على الإماتة والإحياء[2]. فقدَّم سبحانه ترْكَ عبادةِ الآخرِ على عبادته ﷻ، إيذانًا بمخالفتهم من أوَّل الأمر، ولتقديم التَّخلية على التَّحلية[3].

فائدةُ وقوع جملة: ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ﴾ موقعَ جواب الشَّرط:

جوهرُ الدِّين تخصيص العبادة الخالصة لله، دون معبود سواه

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، واقعةٌ موقع جواب الشَّرط ودالَّة عليه في المعنى، فالتَّقدير الجواب: فأنا على يقين من فساد دينكم، فلا أتَّبعه، فلا أعبد الَّذين تعبدونهم ولكن أعبد اللّه[4]، وجواب الشَّرط هُنا جاء على غير ما يقتضيه السّياق، فالشَّرط وهو قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾، مطلوبُه أن يكون الجوابُ على هذا النَّحو، فلا تدخلوا في هذا الدِّين، أو: فأنتم وشأنكم، ولكنَّ الجواب الَّذي جاء به القرآن الكريم، هو الجواب الَّذي لا يجيء إلّا من الحكيم العليم ربِّ العالمين، فكان هكذا: ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وفي هذا الجواب تنكشف أمور: فأوّلًا: أنَّ النَّبيَّ صلوات اللّه وسلامه عليه مُتَمسِّكٌ بهذا الدِّين الَّذي يَشُكُّ فيه هؤلاء الشّاكُّون، وأنَّ شكوكهم لا تثير في نفسه أيَّ ريب في هذا الحقِّ الَّذي بين يديه، وفي هذا ما ينبئُ عن ثقة النَّبيِّ، ويقينه، بهذا الدّين الَّذي يُؤمن به، ويدعو إليه، وثانيًا: أنَّ النَّبيَّ صلوات اللّه وسلامه عليه، لن يتحوَّل عن هذا الدّين، إلى الدِّين الَّذي عليه هؤلاء المشركون، ولن يعبد تلك الآلهة الَّتي يعبدونها من دون اللّه، وثالثًا: أنَّ هذه الآلهة الَّتي يعبدونها هي الضَّلال، ولا يعبدها إلّا الضّالّون، ولا يمسك بها إلّا المبطلون، وأنَّ آلهتهم تلك لا تملك

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/308.
(2) الخازن، تفسير الخازن: 2/467.
(3) طنطاوي، تفسير الوسيط: 7/139.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/301.

لهم ضرًّا، وأنَّهم لو تركوها، ونفضوا أيديهم منها، فلن تضرَّهم شيئًا، ورابعًا: أنَّه صلوات اللّه وسلامه عليه متَّبع لما أمر به، وهو أن يكون من المؤمنين، فهو من المؤمنين؛ لأنَّه مؤمنٌ بهذا(1). فجعل هذه الجملة باعتبار مضمونها جوابًا بتأويل الأخبار، وإلّا فلا تَرَتُّب لها على الشَّرط بحسب الظّاهر، فالمعنى: إن كنتم في شَكٍّ من ذلك، فأخبركم أنَّه تخصيص العبادة به تعالى، ورفض عبادة ما سواه من الأصنام وغيرها، ممّا تعبدونه جهلًا، وقد كثرَ جعْلُ الأخبارِ بمفهوم الجملة جزاءً نحو: إن أكرمتني اليوم؛ فقد أكرمتك أمسِ، وعلى هذا الطِّراز قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النَّحل: 53]، فإنَّ استقرار النِّعمة ليس سببًا لحصولها من اللّه تعالى، بل الأمر بالعكس، وإنَّما سببٌ للإخبار بحصولها منه تعالى(2).

لفتةُ التَّعبير بالموصول الدّال على العاقل:

مجاراةُ السّياق لما يعتقدونه في الأصنام من العقل والتَّدبير

﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هم الأصنام؛ وعوملت الأصنام معاملة العُقلاء، فأُطلِقَ عليها اسم الموصول الَّذي لجماعة العقلاء، مجاراةً لما يعتقدونه فيها من العقل والتَّدبير؛ إذ يعدُّونها من العقلاء، ويعبدها كبراؤهم من المشركين والضّالّين، ونظير هذا في القرآن كثير(3).

دلالةُ الجملة المُتضمِّنة (لكنْ) الاستدراكيَّة:

عبادةُ اللّه له هو، وتمنع عبادةَ كلِّ معبودٍ إلّا هو

معنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾، أي: بل أعبدُ اللّه الَّذي يقبض الخلقَ، فيُميتُهم؛ إذا شاء، وينفعُهم، ويضرُّهم؛ إذا أراد، ومثل هذا هو الحقيق بأن يُعبَد، وأن يُخاف، وأن يُتَّقى، دون من لا يقدر على شيءٍ من ذلك، وفي ذلك تعريضٌ

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1092.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/184.
(3) التَّحرير والتَّنوير: 11/301، ومحمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3641.

لطيف وإيماء إلى أنَّ مثل هذا الدّين لا يُشكّ فيه، وإنَّما ينبغي أن تشكّوا فيما أنتم عليه من عبادة الأصنام الَّتي لا تعقل، ولا تضرُّ، ولا تنفع، إذ عبادة الخالق لا يستنكرها ذوو الفطرةِ السَّليمة، أمّا عبادة الأصنام، فيستنكرها كلُّ ذي لُبٍّ وعقل سليم[1]، فالاستدراك؛ لنفي أنَّ أوثانهم تُحيي، أو تميت، وهو يتضمَّن إثباتَ عبادة اللّه وحده لا شريك له[2].

دلالةُ الإطناب بالجمع بين النَّفي والإثبات:

بيانُ أنَّ طرفَ النَّفي هو الأهمُّ، لاقتضاء المقام ذِكْرَهُ

والجمع بين نفي أن يَعبد الأصنام، وبين إثباتِ أنَّه يعبد اللّه يقوم مقامَ صيغة القصرِ لو قال: (فلا أعبد إلّا اللّه)، ووجه العدول عن صيغة القصر: أنَّ شأنها أن يُطوى فيها الطَّرف المنفي للاستغناء عنه بالطَّرف المثبت؛ لأنَّه المقصود، وذلك حين يكون الغرض الأصليُّ هو طرف الإثبات، فأمَّا إذا كان طرفُ النَّفي هو الأهمُّ كما هنا، وهو إبطال عبادة الأصنام أوَّلًا عدل على صيغة القصرِ إلى ذكر صيغتَي نفيٍ وإثبات، فهو إطنابٌ اقتضاه المقام[3].

سِرُّ إسناد الفعل إلى الله في قوله: ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ﴾:

بيانُ أنَّ الله هو المستحقُّ وحده للعبادة دون سواه

قوله: ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ﴾ أي: الجامع لأوصاف الكمال، عبادةً مُستمرَّةً[4]، فهو المستحقُّ للعبادة، وحده لاشريك له، وقوله: ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ﴾، ذلك أنَّ خلاصة دينه الَّذي يعبد اللّه به، قائمٌ على "إخلاص العبادة لمن بيده الإيجادُ والإعدام، دون ما هو بمعزل منهما من الأصنام..".

دلالةُ التَّعبير باسم الجلالة (الله) بدلًا من لفظ (الرُّبوبيَّة):

الاسم الأعظم (الله) مناسبٌ لمقام العبوديَّة

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ﴾، عبَّر في مقام العبوديَّة

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/121، والمراغيّ، تفسير المراغي: 11/161.

(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3641.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/302.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/216.

بالاسم الجليل (اللّه)؛ لأنَّ معنى اللّه (المألوه) أي: المعبود محبَّةً وتعظيمًا، فناسب ذِكْرُ الاسم الأحسن في هذا مقام ذِكرَ العبادة ومُحاججة المُشركين.

اختيارُ صفة التَّوفِّي هُنا في نعت اسم الجلالة:

ذكر (التَّوفِّي) للتَّذكير بالموت، وبيان عجز أصنامهم الباطلة

جاء النَّظم الكريم بالدَّليل الَّذي لا مراء فيه، الدَّليل القويِّ، وهو أنَّ الحقَّ ﷻ هو وحده المُستَحِقُّ للعبادة؛ لأنَّه الَّذي يتوفّاكم، ولا يُوجد من يقدر، أو يتأبّى على قَدَرِ اللّه سبحانه حين يُميته[1]. فإن قيل: ما الحكمةُ في ذكر المعبود الحقِّ في هذا المقام بهذه الصِّفة وهي قوله: ﴿ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾؟ والجواب من وجوه: الأوَّل: يحتمل أن يكون المُراد أنِّي أعبد اللّه الَّذي خلقكم أوَّلًا، ثُمَّ يتوفّاكم ثانيًا، ثُمَّ يعيدكم ثالثًا، وهذه المراتب الثَّلاث قد قرَّرها القرآن مِرارًا وأطوارًا، فَهَهنا اكتفى بذكر التَّوفِّي منها؛ لكونه مُنَبِّهًا على البواقي. الثّاني: أنَّ الموت أشَدُّ الأشياء مهابةً، فخَصَّ هذا الوصف بالذِّكر في هذا المقام، ليكون أقوى في الزَّجر والرَّدع. الثَّالث: أنَّهم لما استعجلوا نزول العذاب، قال تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ۝١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ [يونس: 102، 103] فهذه الآية تَدُلُّ على أنَّه تعالى يُهلك أولئك الكفّار، ويُبقي المؤمنين، ويُقَوِّي دولتهم، فلمّا كان قريب العهد بذكر هذا الكلام؛ لا جَرم قال هَاهنا: ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾ وهو إشارة إلى ما قرَّره، وبَيَّنه في تلك الآية، كأنَّه يقول: (أعبد ذلك الذي وعدني بإهلاكِهم وبإبقائي)[2].

وفي اختيار صفة التَّوفّي في نعت اسم الجلالة هُنا أيضًا لما فيها من الدَّلالة على كمال التَّصرف في المخلوق، فإنَّ المشركين لم يبلغ

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 10/6245.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/308، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/111.

بهم الإشراك إلى ادِّعاء أنَّ الأصنام تحيي وتميت[1]. فذكر التَّوفِّي للتَّذكير بالموت، وقرع النُّفوس به، والمصير إلى الله بعده، والفقد للأصنام التي كانوا يعتقدونها ضارَّة ونافعة[2].

سرُّ ذكر لفظ ﴿يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾ دون لفظ (يُحييكم):

استعمال وصف التَّوفِّي لدلالته على الخلق والإعادة والمهابة

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾، تخصيص هذا الوصف؛ لأنَّه يَدُلُّ على الخلق أوَّلًا وعلى الإعادة ثانيًا، أو لأنَّ الموت أشَدُّ الأحوال مَهَابَةً في القلوب، فكان أقوى في الزَّجر والرَّدع والتَّهديد[3]، ففي ذِكرِ هذا الوصف الوسط الدّال على التَّوفِّي؛ دلالة على البدء وهو الخلق، وعلى الإعادة، فكأنَّه أشار إلى أنه يعبد الله الَّذي خلقَكم ويتوفّاكم، ويعيدكم[4].

سِرُّ بناء الفعل للمفعول:

لم يُذكَرِ الفاعل للعلم به؛ لأنَّه حاضِرٌ في النَّفس دائمًا

قوله تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ﴾، أي: بأمر جازم ماضٍ ممَّن لا أمر لأحد معه[5]، جاء ذِكْرُ الأمر، ولم يَذْكُرِ الآمِرَ ﷻ الَّذي يعرفون أنَّه الخالق وحده؛ لأنَّه حاضر في النَّفس دائمًا؛ لأنَّ الأمر من الله يكون معه أمرُ العقل والإدراك المستقيم، والبرهان الصّادق الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالأمر إذا جاء من الله الخالقِ الواحد الأحد، جاء من العقل المدرك، وجاء من الآيات البيِّنات[6]، وفيه تأكيدٌ لإخلاص عبادته ﷺ للّه وحده[7].

الانتقال من ذكرِ العبادة إلى ذكرِ الإيمان:

لا يستقرُّ الإيمان في الباطن، إلّا بعمل صالح في الظّاهر

قوله تعالى: ﴿أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بعد قوله: ﴿أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/301.
(2) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 3/146.
(3) نظام الأعرج، غرائب القرآن: 3/615.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/111.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/217.
(6) محمد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3641.
(7) طنطاوي، لتفسير الوسيط: 7/139.

﴿يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾ انتقالٌ من العبادة التي هي جِنْسٌ من أعمال الجوارح إلى الإيمان والمعرفة، وفيه دلالةٌ على أنَّه ما لم يَصِرِ الظَّاهر مُزَيَّنًا بالأعمال الصَّالحة، لا يستقرُّ في القلب نور الإيمان والمعرفة، فإنَّ الله تعالى جعل أحكام الشَّريعة أساس المعرفة، فإذا زال الأساس؛ زال ما بُنِي عليه وأيضًا العمل لِبَاسُ المعرفة، فإذا انسلخت المعرفة عن هذا اللِّباس؛ صارت كسراج على وجه الرّيح[1]، فانتقل من عمل الجوارح إلى نور المعرفة، وطابق الباطنُ الظّاهرَ[2].

تخصيص ذِكْرِ الإيمان:

الإيمان الرّاسخ، ينسخ الشُّكوك، ويزيل الشُّبهات

لمّا كان السّياق لما يحتمل الشَّك من الأمر الباطن؛ عبَّر بالإيمان الَّذي هو للقلب، فقال: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: الرَّاسخين في هذا الوصف[3]. "وهو تصريحٌ بأنَّ ما هُو عليه من دين التَّوحيدِ، ليس بطريق العقلِ الصِّرْفِ، بل بالإمداد السَّماويِّ والتَّوفيق الإلهيِّ "[4].

سِرُّ جعل النَّبي ﷺ من المؤمنين:

تشريف النَّبيِّ الأكرم لجمع أهل الإيمان تحت رايته المعصومة

النَّبيُّ ﷺ سيِّد المؤمنين وحبيب ربِّ العالمين، وفي جعله من جُملة المؤمنين تشريفٌ لهذا الجمع وتنويه به[5]، وهو يؤكِّد أنَّه من المؤمنين، وهم "الَّذين وعدهم الله بالنَّجاة من عذابه، وينصرهم على أعدائهم وأعدائه، واستخلافهم في أرضه"[6].

سِرُّ العدول عن (أنْ أكُونَ مُؤْمِنًا):

الكناية عن الرُّسوخ في الإيمان من بليغ البيان

قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أبلغ من أن يُقال: (أنْ أكُونَ مُؤْمِنًا)، فإنَّ إخبار المتكلِّم عن نفسه بأنَّه من المؤمنين، يُفيد

(1) البروسويّ، روح البيان: 4/86.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/111.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/217.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/179.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/302.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/302.

أنَّه واحد من الفئة التي تُعرف عند النّاس بفئة المؤمنين، أي: أكون من زُمرة الرَّاسخين في الإيمان البالغين درجةَ عينِ اليقين من معرفة اللّه تعالى؛ فيُفيد أنَّه مؤمنٌ إفادة بطريقة تشبه طريقة الاستدلال، فهو من قبيل الكناية التي هي إثباتُ الشَّيء بإثبات مَلزومه، وهي أبلغُ من التَّصريح[1]، فإنَّ قول القائل: فلانٌ من العلماء، أبلغ من قوله: فلانٌ عالم؛ لأنَّه يشهد له بكونه معدودًا في زمرتهم، ومعروفةً مُساهمتُه لهم في العلم[2].

بلاغةُ المتشابه اللَّفظيِّ بين آية يونس (104) وآية النَّمل (92):

حملُ قوله (من المؤمنين) و(من المسلمين)، على ما يلائمها معنى

في قولِه تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مناسَبةٌ حسَنةٌ؛ إذ قال اللّه تعالى هُنا: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وقال في سورةِ النَّملِ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النَّمل: 91]، فاختُصَّ هذا المكانُ بـ (المؤمنين)، واختُصَّ آخِرُ سورةِ النَّملِ بـ (المسلمين)؛ ووجهُ ذلك: أنَّ قبل هذه الآيةِ في سورةِ يونسَ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: 103]، فقال بعدَه: (وأُمِرتُ أن أكونَ مِنهم) وأمّا في سورةِ النَّملِ؛ فإنَّ قبلَ هذه الآيةِ منها: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [النَّمل: 81]، فكأنَّه قال: وأُمِرتُ أن أكونَ ممَّن إذا سَمِع بآياتِه؛ آمَن بها، وكان مِن المسلِمين الَّذين مُدِحوا بأنَّ النَّبيَّ يُسمِعُهم؛ إذْ يَنتفِعون بما يَسمَعونه منه، فلمَّا تقاربَتِ اللَّفظتان، وكانَتا تُستعمَلان لمعنًى واحدٍ؛ حُمِلَت كلُّ واحدةٍ مِنهما على اللَّفظِ الَّذي تَقدَّمها ولاءَمها[3]. وأيضًا لأنَّ آيةَ سورةِ يونسَ قد ورَد قبلَها قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ

(1) ولهذا الأسلوب نظائر كثيرة في القرآن الكريم. ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/316.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 3/331.
(3) الإسكافيّ، دُرَّة التَّنزيل: 2/748 - 749، والكرمانيّ، أسرار التَّكرار، ص: 142 - 143، والأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 255.

تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٩٩ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾، وبعدَ هذا: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾، وبعدَ هذا: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وبعدَ هذا، الآيةُ المذكورةُ من قولِه: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وتناسُبُ هذا كلِّه ظاهرٌ، ثمَّ إنَّ ما تقدَّم قبلَ آيةِ يونُسَ مِن تَكْرارِ اسمِ الإيمان لم يَكُنْ لِيُلائِمَه إطلاقُ اسمِ الإسلام؛ لأنَّ رُتبةَ الإيمانِ فوق رُتبةِ الإسلام، ومَقامَه أعلى، وهذا على إطلاقِ كلِّ واحدٍ مِن الاسمَينِ على مُسمَّاه لغةً، وعلى رَعْيِ التَّفصيل، فكأنْ يكونَ عَكْسَ التَّرقِّي إلى الأعلى أبَدًا، فلا يمكن في آية يونُسَ إلّا ما ورَدَت عليه، أمّا آيةُ النَّملِ؛ فإنَّ قبلَها قولَه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾ [النَّمل: 91]، وقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾، يَقتَضي تسليمَ كلِّ شيءٍ له، والتَّبرّيَ مِن توهُّم شَريكٍ أو نظيرٍ؛ فناسَبَ هذا قولَه: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النَّمل: 91]، وجاء كلٌّ على ما يَجِبُ[1].

الفروقُ المُعجَمِيَّة:

الظَّنُّ والشَّكُّ:

الشَّكُّ استواء طرفي المشكوك فيه، والظَّنُّ رُجحان أحدهما وتقويته

(الظَّنُّ): هو الاعتقاد الرّاجح مع احتمال النَّقيض، ويستعمل في اليقين والشَّكِّ، وقيل: الظَّنُّ: أحد طرفي الشَّكِّ بصفة الرُّجحان[2]، فيكون الظَّنُّ يَقينًا، ويكون شكًّا، وهو من الأضداد، كالرَّجاء يكون أمنًا وخوفًا[3]. أمّا (الشَّكُّ): فهو اجتماع شَيْئَيْنِ في الضَّمير، فهو اسْتِواء طرفَي التَّجويز، وأصل الشَّكِّ في العَرَبيَّة، من قولك: شَككتُ الشَّيْءَ؛ إذا جمعته بِشَيْء تدخله فيه، بخلاف الظَّنِّ، فإنَّه رُجحَان أحد طرفَي التَّجويز، والشّاك يجوز كَون مَا شكَّ فيهِ على إحْدى

(1) الغرناطيّ، ملاك التَّأويل: 1/250 - 251.

(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: 2/386، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 144.

(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 593.

الصَّفتين، لأنَّهُ لَا دَليل هُناكَ ولا أمارَة، فالظَّنُّ فيه قُوَّة المعنى في النَّفس، وليس كَذَلِك الشَّكُّ الَّذي هُوَ وقُوف بين النَّقيضين من غير تقويَةِ أحدهما على الآخر[1]. وهذا التردُّد المجانب للرُّجحان هو المعنى المراد من الشَّكِّ في الدين في الآية الكريمة المعبِّر عن تخبُّط الكافرين وشدَّة ضلالهم.

الوَفَاةُ والموتُ:

الوفاة أعمُّ من المـــوت، فكلُّ مُتوفًّى مَيِّتٌ، وليس كُلُّ مَيِّتٍ متوفًّى

(الموتُ) عبارةٌ عن زوال القوَّة الحيوانيَّة وإبانة الرُّوح عن الجسَد[2]، أمّا (الوفاة)؛ فهي أعمُّ مِنَ الموتِ، فهناك الوفاة الصُّغرى، وهي النَّوم، فإن نام الإنسانُ؛ خرجت روحُه من جَسَده إلى أجلٍ مُسمًّى، فإن كُتب لها العودةُ؛ عادت، وإلّا فارقت جسدَها، ورحلت عنه إلى الأبَدِ؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزّمر: 42]، وكلُّ مُتَوَفًّى مَيِّتٌ، وليس كُلُّ مَيِّتٍ متوفًّى، ولكون لفظ التوفّي يدلُّ على الخلق أوَّلًا، وعلى الإعادة ثانيًا، كان ذلك حالًا موصوفًا بالمهابَة في القلوب، فكان أقوى في الزَّجر والرَّدع والتَّهديد.

---

(1) أبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة: 98 - 99.
(2) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحفَّاظ: 4/123.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾
وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ
إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: 105 - 106]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

ناسبَ أمرُ الله نبيَّهُ بالإيمان، أمره هنا بالاستقامة وعدم الميلان

﴿وَلَا تَدْعُ﴾ عطْفٌ تفسيريٌّ على قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1]، وإقامة الوجه تكون بالاستقامة في الدّين، بأداء الفرائض اللّازمة، والانتهاء عن القبائح الآثمةِ، منتهجًا نهجًا حَنيفًا، مائلًا عن الشِّرك وتوابعِه إلى الدِّين الحقِّ وضوابطه، بعيدًا عن الظُّلم بالإشراك، ودعوة من لا يضرُّ، ولا ينفع؛ لأنَّ الشِّرك ظلمٌ عظيم[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿حَنِيفًا﴾: أصلُ (حنف): الميْلُ، يُقالُ: تَحَنَّفَ فُلانٌ إلى الشَّيْءِ، تَحَنُّفًا: إذا مالَ إليه، وحقيقته: الاعوجاجُ والمَيلُ في الرِّجْلِ إلى داخِلٍ، مِن قولِهم: رَجُلٌ أَحْنَفُ[3]، ومنه سُمِّي المُوحِّدُ: حَنيفًا؛ لأنَّه مائلٌ إلى الدِّين المُستَقيم وثابتٌ عليه[4]، ومَن أقْبَلَ على شَيْءٍ؛ مالَ عن غيرِهِ[5]، والأصل هذا، ثمَّ يُتَّسَعُ في تفسيره، فيقال: الحنيفُ النّاسِكُ، ويقال: هو المَخْتونُ، ويقال: هو المُسْتَقيمُ الطَّريقَةِ، ويقال: هو يَتَحَنَّفُ، أي: يَتَحَرّى أَقْوَمَ الطَّريقِ[6] والمقصود بالحنيف في الآية: المائل عن كلِّ دينٍ مِنَ الأديان إلى دِين الإسلام المُجانِب لِلباطِلِ[7].

(1) المظهريّ، التّفسير المظهري: 5/61.
(2) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 1/280.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف).
(4) الزّجاج، معاني القرآن: 4/184.
(5) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/316، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/140.

2) ﴿وَلَا تَدۡعُ﴾: الدُّعاءُ: النِّداءُ، وأصلُه: إمالَةُ الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، ومنه سُمِّيَتِ الرَّغْبَةُ إلى الله ﷻ دُعاءً، تقول: دَعَوْتُ فلانًا، دُعاءً ودعوةً، أَي: نادَيْتُهُ[1]. والدَّعوة: المَرَّةُ الواحدةُ مِن الدُّعاء[2]. ويأتي الدُّعاءُ بمعنى: الطَّلَبِ والسُّؤالِ، يقال: دَعَوْتُ اللّه، أَدْعُوهُ، أي: سَأَلْتُهُ[3]، والدُّعاءُ أيضًا: العِبادةُ والضَّراعة[4]، ويُطلَق على الحَثِّ إلى الشيء والترغيب فيه، فيقال: دعا قومه إلى اتِّباعِهِ، أي: حَثَّهُمْ ورَغَّبَهُم[5]، والمقصودُ بالدُّعاء في الآية: العبادة والضَّراعة.

3) ﴿لَا يَنفَعُكَ﴾: أَصلُ النَّفْعِ: الخيرُ، وخلافُه: الضَّرُّ، يقال: نفعه، يَنْفَعُهُ، نَفْعًا، أي: قَدَّمَ له خيرًا[6]. والنَّفع: ما يُستَعانُ به في الوصول للخير[7]، أو هو: ما يتوصَّل به الإنسانُ إلى مطلوبه من جَلْبِ مصلحة أو دَفْعِ مَضَرَّةٍ، يقال: انتفع بالشيء: إذا وَصَل به إلى مَنْفَعَة ما[8]، والانْتِفاعُ: الاستفادة، ورجل نفَّاعٌ: إذا كانَ ينفع النّاس، ولا يضرُّهم[9]، والنافع: المُفِيدُ، وكلُّ ما يستفاد من الشَّيء، فهو منفعة، والمقصود بالنَّفع في الآية: ما يتوصَّل به الإنسان إلى مطلوبه.

4) ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾: أصلُ الضَّرَرِ: النُّقْصَانُ يدخل في الشَّيء، يقال: دخل عليه ضَرَرٌ في ماله[10]، وضِدُّهُ: النَّفْعُ والسَّعَةُ. والضَّرَرُ: المكروه والأذى، وضَرَّ فُلانًا ضُرًّا وضَرَرًا؛ إذا ألحَقَ به مكروهًا أو أذًى[11]. وكلُّ ما كان من سوء حالٍ وفقْرٍ، في بدنٍ، فهو ضُرٌّ، وما كان ضدًّا للنَّفع، فهو ضَرٌّ[12] والضُّرُّ المقصود في الآية هو: الحالُ الَّذي يُؤلِمُ الإنسان والمنافر له[13].

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النِّهاية: (دعا - دعو).
(2) ابن الأثير، النِّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (دعا).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (دعو).
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3644.
(5) الأمير، التَّحبير لإيضاح معاني التَّيسير: 4/5.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفع).
(7) الرّاغب، المفردات: (نفع).
(8) الفيّوميّ، المصباح المنير، وأحمد رضا، معجم متن اللّغة: (نفع).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نفع).
(10) الخليل، العين، والفيروزاباديّ: (ضرر)، وابن سيده، المخصّص: 4/103.
(11) المعجم الوسيط: 1/537.
(12) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضرر).
(13) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/163.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

وجُوب التَّوجه في العبادة إلى الله وحدَه دون التفات إلى سواه

أمَرَ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ، بالاستقامة في الدِّين والثَّبات عليه، وعدم التَّزلزل عنه بحالٍ من الأحوال، فقال: أقِم - أيُّها الرَّسولُ - نَفسَك على دين الإسلام مُستقيمًا عليه، غيرَ مائلٍ عنه، ولا تكونَنَّ ممَّن يُشرِكُ في عبادة ربِّه الآلهةَ والأنداد، فتكونَ مِن الهالكينَ، ولا تعبُدْ مِن دونِ اللّه شيئًا من الأوثان والأصنام وغيرها؛ لأنَّها لا تنفَعُ، ولا تضُرُّ، فإن فعَلْتَ ذلك، وعبَدْتَها مِن دونِ اللّه؛ فإنَّك إذًا من الظّالِمينَ لأنفُسِهم بالشِّركِ، الواضعينَ العبادةَ في غير موضعها[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (الواو) العاطفة وأثرها:

يستعملُ الحرف الرّابط لتكرير الفعل تأكيدًا وتأنُّقًا في الكلام

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ عاطفةٌ، و(أنْ) وما في حيِّزها عطْفٌ على ما قبلها، كأنَّه قيل: وقيل لي: وأقم، ولكن يُشكل إعراب المصدر؛ لأنَّ عطفَه على أن أكون فيه إشكالٌ لامتناع عطف الإنشاء على الخبر، ولكنَّ سيبويهِ سوَّغ أن توصل أن بالأمر والنَّهي، وشبَّه ذلك بقولهم: (أنت الَّذي تفعل) على الخطاب؛ لأنَّ الغرض وصْلُها بما تكون معه بمعنى المصدر، والأمر والنَّهي دالّان على المصدر، دلالة غيرِهما من الأفعال[2]. والتَّحقيق أنَّ أسلوب نظم الآية، على هذا الوجه، لم يقع إلّا لمقتضى بلاغيٍّ، فلا بدَّ من أنْ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/304، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/147، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/388، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/140.

(2) وقد لَخَصَّ البيضاويُّ ما أفاض فيه سيبويه، فقال: "﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ عطْفٌ على أَنْ أَكُونَ غير أَنْ صلة أَنْ محكية بصيغة الأمر، ولا فرق بينهما في الغرض، لأنَّ المقصودَ وصلها بما يتضمَّن معنى المصدر، لتدلَّ معه عليه، وصيغ الأفعال كلّها كذلك سواء الخبر منها والطَّلب، والمعنى وأمرت بالاستقامة في الدّين بأداء الفرائض، والانتهاء عن القبائح، أو في الصَّلاة باستقبال القبلة" ينظر: البيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/125.

وهو تلخيصٌ لما قاله الزَّمخشريُّ أيضًا، وجرى عليه أبو السُّعود. ينظر: الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/374، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/179، أمَّا غيرُهما، فاختار أَنَّ (أَنْ) المصدريَّة وما في حيِّزها في محلِّ رفعٍ بفعل مقدَّرٍ، أي: وقيل لي. ينظر: الدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/306.

يكون لصيغة: ﴿أَقِمۡ وَجۡهَكَ﴾ خصوصيَّة في هذا المقام، وذلك بجعل الواو مُتَوَسَّعًا في استعمالها، بأن استعملت نائبة منابَ الفعل الَّذي عُطفت عليه، أي فعل ﴿وَأُمِرۡتُ﴾، دون قصد تشريكها لمعطوفها مع المعطوفِ عليه، بل استعملت لمجرَّدِ تكريره، والتَّقدير: (أمرْت أنْ أقمْ وجْهَكَ)، فتكون (أن) تفسيرًا لما في الواو من تقدير لفظ فعل (أُمرت)، لقصد حكاية اللَّفظ الَّذي أمره اللّه به بلفظه، وليتأتّى عطف ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وهذا من عطف الجملِ لا من عطف المُفردات، وهو هُنا أوعب[1]، والخطاب فيه أوكدُ وألذُّ[2].

بلاغةُ الالتفات بين هذه الآيات:

تصويرُ الخطاب في مشهد حاضر تحفيزٌ لتلبية الأمر الرَّباني المباشر

هُنا يتحوَّل السّياق من الحكاية والتَّكلُّم في ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، إلى الأمر المباشر بالخطاب ﴿وَأَنۡ أَقِمۡ﴾، كأنَّ الرَّسول ﷺ يتلقّاه في مشهدٍ حاضر للجميع، وهذا أقوى وأعمقُ تأثيرًا، والأمر هُنا مُستعملٌ في طلب الدَّوام[3].

دلالةُ (أنْ) المصدريَّة وما بعدها:

جعلُ القيام لله أمرًا لازمًا، أبلغُ في الدَّلالة على الامتثال والولاء

(أنْ) حرف مصدريٌّ؛ يفيد التَّعليل والتَّوكيد، والجملة على تقدير: أنَّ الخبر قبلها، وهو قوله تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، هو في معنى الأمر، أي: تلقيت هذا الأمر، بأن قيل لي: كن من المؤمنين، ﴿وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، فجعل قول اللّه ﷻ له صلوات اللّه وسلامه عليه، أمرًا لازمًا لا انفكاك له منه، وهذا أبلغ في الدَّلالة على الامتثال، والطّاعة والولاء لربِّ الأرض والسَّماء[4].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/303.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/217.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/88.

(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1094.

بلاغةُ المجازِ المرسل في: ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ﴾:

الـوجـهُ دليـل على الذّات كلّها بقرينة الجزئيَّةِ

قوله تعالى: ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ﴾، أي: انصبْهُ ووجِّهْهُ إلى الدِّين الَّذي هو الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تَتَوَجَّه بقلبك وقصدك وبدنك، إلى إقامة شرائع الدِّين الظّاهرة كالصَّلاة، والزَّكاة، والصَّوم، والحجِّ ونحوها؛ وشرائعه الباطنة كالمحبَّة والخوف والرَّجاء والإنابة[1]، وأصل الإقامة: جَعل الشَّيء قائِمًا، وهي هُنا مُستعارة لإفراد الوجه بالتَّوجُّه إلى شيء مُعَيَّنٍ والثَّبات عليه، وعدم التَّحوُّل عنه لا يترك وجهه ينثني إلى شيء آخر[2]، وهو تمثيلٌ لإقباله على الدِّين واستقامته عليه وثباته، واهتمامه بأسبابه، فإنَّ من اهتمَّ بالشَّيء؛ عقد عليه طَرْفَهُ، وسدَّد إليه نظره، وقوَّم له وجهه، مقبلًا به عليه[3]، فإقامةُ الوجه بمعنى الذّات مجازٌ مرسل؛ لأنَّ سمة الاتِّجاه تكون بالوجه، والوجه دليل على الذّات كلِّها بقرينة الجزئيَّة، أي: أقم ذاتك للدِّين، وتوجَّه بكلِّ ذاتك للدِّين الَّذي أنزله اللّه ﷻ، وذلك أنَّ الوجه إذ يستقيم على طريق، فإنَّه لا يلتفت إلى طرق أخرى، فإقامةُ الوجه على الدِّين: توجيهُ الوجهِ إليه كلِّهِ، دون أن يخطف خطفةَ بصرٍ إلى غيره[4].

بلاغةُ الكناية في: ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾:

لا معنـــى للعبوديَّة، إلّا بـالإقـبـال على الله بالكليَّة

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، حيث إنّ إقامة الوجه للدّين كنايةٌ عن توجيه النَّفس بالكلِّيَّة إلى عبادته تعالى، وهي عبادةٌ مطلوبة ومستحقَّةٌ، وذلك بتمحيض العبوديَّة له، والإعراض عمّا سواه، "فإنَّ من أراد أن ينظر إلى شيء نظر استقصاء، يقيم وجهه في مقابلته، بحيث لا يلتفت يمينًا ولا شمالًا،

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 641.
(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 11/83، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/303.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/479.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1094.

إذ لو التفت؛ بطلت المقابلة، فلذا كنِّي به عن صرف العمل بالكليَّة إلى الدّين، فالمراد بالوجه الذّات. أي: اصرف ذاتك، وكلّيّتك للدّين"[1]، وقد أكسبت الكنايةُ السّياقَ جمالًا، وأضفت عليه مسحةً من التَّصوير البديع الَّذي يكمِّل الصّورة السّالفة، في ملمحيَّة المجاز، وذلك أبلغ في الدَّلالة من قوله: (التزم الدّين) وما يشبهها.

فائدة إيثار قوله: ﴿حَنِيفًا﴾:

الميلُ عن الشِّرك والباطل إقبالٌ على التَّوحيد والحقِّ

قوله: ﴿حَنِيفًا﴾: صيغة مُبالغة في الاتِّصاف بالحَنَفِ وهو الميل[2]، أي: مائلًا عن الأديان الباطلة مَيْلًا لا رجوع فيه[3]، مُقبلًا على التَّوحيد والإخلاص، وقد غلب استعمال هذا الوصف في الميل عن الباطل، أي: العدول عنه بالتَّوجُّه إلى الحقِّ، أي: عادلًا ومنقطعًا عن الشِّرك[4]. وجيء بهذا اللَّفظ ﴿حَنِيفًا﴾؛ لأنَّ الدِّين لا يجيءُ برسول جديد ومعجزة جديدة؛ إلّا إذا كان الفساد قد عمّ؛ فيأتي الدّين؛ ليدعو النّاس إلى الميل عن هذا الفساد، وفي هذا اعتدال لسلوك الأفراد والمجتمع[5].

دلالةُ دخول اللّام على الدِّين:

الدَّلالةُ على العِلَّة والاختصاص مفيدةٌ في البيان عن المراد

قولُه تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ اللّامُ في ﴿لِلدِّينِ﴾ للعلَّةِ، أي: لأجلِ الدِّينِ، فيصير المعنى: مَحِّضْ وجهَكَ للدّين، لا تجعل لغير الدّين شريكًا في توجُّهك، وفيه توجيهُ نفسه بأسرها، لأجل ما أمره اللّه به من التَّبليغ وإرشاد الأمَّة وإصلاحها، وقريب منه قوله: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 20][6].

(1) جمال الدّين القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/67.
(2) وقيل: إنّ ﴿حَنِيفًا﴾ معناه، أي: مستقيمًا، والحنف الميل في كلام العرب، وأصله في الأشخاص وهو في المعاني مُستعار، فالُمعْوَجُّ في الأجرام أحنف على الحقيقة، أي: مائل، والمستقيم فيها أحنف على تَجَوُّز كأنَّه مال عن كل جهة إلى القوام. ينظر: ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 2/314.
(3) الآلوسي، روح البيان: 3/128.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/89.
(5) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 10/6250.
(6) أبو حيّان: 6/112، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/303.

دلالةُ تخصيص الوجه دون سائر الأعضاء بالأمر:

الوجه أشرف الأعضاء وبه تقع المواجهة والتَّميُّز

خصَّ الوجه بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾؛ لأنَّه أشرف الأعضاء، والمعنى: أنَّ اللّه سبحانه أمره بالاستقامة في الدِّين، والثَّبات عليه، وعدم التَّزلزل عنه بحال من الأحوال[1].

دلالة النَّهي في الآية:

إفادةُ النَّهي المؤكِّدِ لمعنى الأمرِ السّابق، تعريضًا وتهديدًا للمُشركين

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: ولا تكونن ممَّن يُشرِك في عبادة ربِّه غيرَه فيهلك، وهو نهيٌ مؤكِّدٌ لمعنى الأمرِ الَّذي قَبْلَه (أقِمْ)[2]، وفيه تعريض بالمُشركين، وتهديدٌ لهم، إذ كانوا على أمر محظور منهيٍّ عنه، يتعرَّض مُقترِفه للنِّقمة والبلاء[3]. وقيل: إنَّ النَّهي عن عبادة الأوثان، قد تقدَّم في الآية المتقدِّمة، فوجب حمل هذا النَّهي على معنى زائد، وهو أنَّ من عرف اللّه ﷻ، وعرف جميع أسمائه وصفاته، وأنَّه المستحقُّ للعبادة لا غيره، فلا ينبغي له أن يلتفت إلى غيره بالكليَّة، وهذا هو الَّذي يسمّيه أصحاب القلوب بالشِّرك[4].

نكتةُ اتِّصال المضارع بنون التَّوكيد الثَّقيلة:

المُبالَغةُ في النَّهي عن الشِّرك؛ اعتِناء بالتَّبرُّؤ منه

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فيه تأكيدُ الفعلِ المنهيِّ عنه بنونِ التَّوكيدِ؛ للمُبالَغةِ في النَّهي عنه اعتِناءً بالتَّبرُّؤِ مِن الشِّركِ[5]، وقد كان تأكيد النَّهي عن الشِّرك بنون التَّوكيد الثَّقيلة، والثِّقل والمبالغة جاءت هنا؛ لأنَّ الشِّرك يدخل إلى النَّفس من مسارب شيطانيَّة كثيرة، يحسبها النّاس صغائرَ، وهي كبائر، فالمراءاةُ في العبادات شركٌ، وأعمال أخرى كثيرة، وقد قال ﷺ: «مَنْ صَلَّى يُرائي؛ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ صَامَ يُرائي؛ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/140.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/304.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 6/1094.
(4) الخازن، تفسير الخازن: 2/468.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/304.

تَصدَّق يُرائي؛ فَقَدْ أَشْرَكَ»(1)، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ٦﴾ [الماعون: 4- 6](2).

الإسناد بشبه الجملة لا بالمشتقّ:

المُبالغة في التَّبرُّؤ من الطّائفة المشركة

مجيء قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أبلغُ في الاتِّصاف كأن يقول: (ولا تكن مُشركًا)، لما فيه من التَّبرُّؤ من الطّائفة ذات نحلة الإشراك(3). والمعنى: لا تكن من "أصحاب الدّيانات الوثنيَّة الباطلة الَّذين يجعلون بينهم وبين اللّه تعالى حجابًا من الوسطاء والأولياء والشُّفعاء، يوجِّهون قلوبهم إليهم، عند الشِّدَّة تصيبهم، والحاجة الَّتي تستعصي على كسبهم"(4).

دلالةُ العطف بالواو:

تأكيدٌ وتفصيلٌ للنَّهيِ السَّابق، لإظهارِ كمالِ العنايةِ بالأمرِ

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ تأكيدٌ للنَّهيِ المذكورِ: وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وتفصيلٌ لما أُجملَ فيه؛ إظهارًا لكمالِ العنايةِ بالأمرِ، وكشفًا عن وجهِ بُطلانِ ما عليه المشركون(5). ويحتمل أن يكون استئنافَ نهيٍ، ويحتمل أن يكون معطوفًا على (أقم)، فيكون في حيِّز (أن) على قسميها من كونها مصدرية، وكونها حرفَ تفسير، وإذا كان دعاء الأصنام مَنهيًّا عنه؛ فأحرى أن يُنهى عن عبادتها(6)، وهو تعريضٌ أيضًا بالمشركين، وتهديدٌ لهم، وأنَّهم يعبدون من دون اللّه ما لاينفعهم، ولا يضرُّهم، وأنَّهم بهذا قد ظلموا أنفسهم، وباعوها في سوق الضَّلال، بهذا النَّقد الزّائف الذي لا قيمة له إذا عرض في سوق الحقِّ(7).

(1) الحديث مرويّ عن شدّاد بن أوس، ذكره الإمام أحمد في المسند: 28/364.
(2) انظر: أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3644.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/304.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/399.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/179 - 180.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/112.
(7) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 6/1095.

نكتةُ النَّهي بلفظ (لا):

شناعةُ المنهيِّ عنه، وتهويل خطره

معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: ولا تدعُ - أيُّها الرَّسولُ - غيره تعالى، دعاء عبادة لا على سبيل الاستقلال، ولا على سبيل الاشتراك بوساطة الشُّفعاء، ما لا ينفعك في الدُّنيا ولا في الآخرة، ولا يضرُّك إن تركت دعاءه[1]، وفي خطاب النَّبي صلوات الله وسلامه عليه بهذا النَّهي، تغليظ لشناعة المنهيِّ عنه، وتهويل للخطر الَّذي يتهدَّد النّاس منه، وأنَّ على كلِّ إنسان أن يوقظ وجوده كُلَّه، حتَّى لا يقع في هذا المحذور، أو يدنو منه، وكفى أن يكون المنهي عنه هو الشِّرك بالله، وكفى أن ينبِّه النبيُّ الكريم إلى هذا الخطر، وهو أعلم النَّاس بالله[2].

عدمُ تأكيد الفعل ﴿تَدۡعُ﴾ بالنُّون:

وجود ما يُومئُ إلى التَّعليل بما فيه غُنية عن التَّوكيد

ولم يُؤَكَّد الفعل ﴿تَدۡعُ﴾ في قوله ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بنون التَّوكيد كسابقه في النَّهي: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾، لئلّا يمنعَ وجودها من حذف حرف العلَّة، بأنَّ حذفه تخفيف وفصاحة، ولأنَّ النَّهي لَمَّا اقترن بما يُومئ إلى التَّعليل، كان فيه غنية عن تأكيده؛ لأنَّ الموصول في قوله: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾، يُومئ إلى وجه النَّهي عن الدُّعاء، إذ دعاء أمثالها لا يقصده العاقل[3].

بديعُ الطِّباق بين النفع والضرِّ:

تركُهم ما ينفع ويَضُرُّ، إلى ما لا نفع فيه ولا ضرر

جعل الخطاب بالنَّفع والضَّرر في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ لمن يدعوها إشارة، إلى أنَّهم تركوا ما ينفع، ويَضُرُّ إلى ما لا ينفع، ولا يَضُرُّ، وذِكرُ هذه الحقيقة فيه تعليل للنَّهي عن عبادتها؛ لأنَّه إنَّما يُعبد الجديرُ بالعبادة، ويُوفي الشُّكر لمن ينفع، ويخشى عذابه، أمَّا الأوثان؛ فلا نفع فيها يُرتجى؛ ولا ضرر منها يتَّقى[4].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/163.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1095.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/304.
(4) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3644.

بيانُ كونِ النَّفعِ أحبَّ للنَّفس مع مُراعاة ما سَبَق ذكره

سِرُّ تقديم النَّفع على الضُّرِّ هُنا، والعكس في أوَّل السّورة:

قدَّم النَّفع على الضُّرّ في هذه الآية؛ لأنَّ سياقَ الآيات في الإيمان، والإيمان نفع للعبد؛ لأنَّه يوصله إلى الجنَّة ورضوان اللّه، فقدَّم النَّفع؛ لأنَّه أحبُّ إلى النَّفس، وليس في السّياق ما يُوجِبُ تأخيره[1].

الحَثُّ على دعاء الله تعالى وحده دون ما سواه

فائدة الاعتراض بإدماج جملة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بين الفعل ومفعوله:

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هُنا اعتراضٌ بين فعل (تدع) ومفعوله، وهو إدماجٌ للحثِّ على دعائه اللّه[2]، و"مَنْ يدعو من دون اللّه ﷻ، هو دعاء لمن لا ينفع، ولا يضرُّ، ومَنْ يفعل ذلك يكون من الظّالمين؛ لأنَّ الظُّلم هو إعطاء حقٍّ لغير ذي حقٍّ، سواء أكان في القمَّة، أو في غير القمَّة"[3].

بيانُ سفول رتبة كلِّ المعبودات الباطلة من غير الله

معنى (مِنْ) في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

لمّا كان الدُّعاء الحاصل من المشركين لمعبوداتهم هو عين الشِّرك المنهيِّ عنه فيما سبق؛ نهى عن ذلك، فقال مُشيرًا إلى سفول رُتْبَة المعبودات الباطلة بإثبات الجارِّ: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[4].

بيان التَّقصيرِ عن الغاية في النَّفع والضُّرِّ، من كلِّ أحدٍ سوى الله

معنى لفظ (دون) وإضافتها إلى لفظ الجلالة:

(دون): نقيض فوق، وهو ظرف يَدُلُّ على التَّقصير عن الغاية[5]، وصفوا به ما ليس برفيع[6]، فقالوا: رجلٌ دونٌ وثوبٌ دُونٌ، وهذا دُونك في التَّحقير، ويقالُ: دُونَك زَيْدٌ في المَنْزِلَةِ والقُرْبِ[7]، ولما كان ليس لأحد أنْ يجوز كلَّ ما دون رتبته سبحانه؛ أثبت الجار فقال: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: الملك الذي له الأمر كلُّه[8].

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 8/187، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/207.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/304.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6252.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/195.
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (دون).
(6) ابن سيده، المخصّص: 4/234.
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (دون).
(8) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/35.

تفريعُ مقام التَّعليل للنَّهيَين لربط الجملة بما قبلها

دلالةُ (فاء) العطف:

قولُه تعالى: ﴿فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تفريعٌ على النَّهيَين: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ﴾؛ للإشارة إلى أنَّه لا معذرة لمن يأتي ما نُهيَ عنه بعد أن أُكِّد نهيُه، وبُيِّنت عِلَّته، فمن فعله؛ فقد ظلم نفسه، واعتدى على حقِّ ربه[1]، فـ (الفاء) في مقام التَّعليل للنَّهي، أي: إنَّ عبادةَ ما لا ينفع، ولا يضرُّ ظلم[2].

شأنُ النَّبيِّ الأكرم أرفعُ من أن يُنسبَ إليه عبادةُ غيرِ اللَّه

سِرُّ الإيجاز بالتَّعبير عن الدُّعاء بالفعل:

قوله تعالى: ﴿فَإِن فَعَلۡتَ﴾ كنّى بالفعل عن الدُّعاء إيجازًا، أي: فإن دعوتَ ما لا ينفعك ولا يضرُّك[3]، وكُنِّيَ عن ذلك على ما قيل؛ تنويهًا لشأنه عليه السلام، وتنبيهًا على رفعة مكانه ﷺ، من أنْ يُنسب إليه عبادة غير اللّه تعالى، ولو في ضمن الجملة الشَّرطيَّة[4]؛ فكنَّى عنه بالفعل للاختصار[5].

بيان ارتباط الفعل (فعل) بوصف الظُّلمِ دومًا

دلالةُ أسلوب الشَّرط:

جاءت الجملة بصيغة الشَّرط والجزاء في قوله: ﴿فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ﴾؛ ليُبيِّن ارتباط الفعل بوصف الظُّلم، أي: إنَّ هذا الفعل مُترتِّب عليه وصف الظُّلم لا محالة، وقد ذكر ذلك بالشَّرط الدّال على الارتباط أوَّلًا، والإيماء إلى الارتباط، بقوله: (إذًا)، أي: إنَّه إذا كان الأمر كذلك؛ فإنَّك من الظّالمين[6]، فجواب الشَّرط (فإنَّك) وخبرها، وتوسَّطت (إذًا) بين اسم إنّ والخبر، ورتبتها بعد الخبر، لكن روعي في ذلك الفاصلة[7].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/304.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3644.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/112.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/186.
(5) نظام الأعرج، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/615.
(6) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3644.
(7) أبو حيّان ، البحر المحيط: 6/112.

بيانُ عِظَمِ فظاعةِ هذا الفعل المخالف للعقيدة الصّحيحة

دلالةُ الافتراض في الآية:

المقصودُ من الفرض الوارد في قوله تعالى: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تنبيهُ النّاس على فظاعة عظم هذا الفعل، حتّى لو فعله أشرف المخلوقين؛ لكان من الظّالمين على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمر: 65][1].

المبالغةُ في التَّحذير، مهمَّة في استبشاع الشِّرك

دلالةُ التَّوكيد في قوله: ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

أكَّد كونه من الظّالمين على ذلك التَّقدير بالأداة (إنَّ)، لزيادة التَّحذير[2]، ومعنى قوله: ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، "أي: لو اشتغلْت بطلب المنفعة والمضرَّةِ من غير اللّه، فأنت من الواضعين للشَّيء في غير موضعِه"[3].

الجوابُ على السُّؤال بحرفِ يدلُّ على جملة من السّياق

دلالةُ الإيجاز بحرفِ الجواب ﴿إِذًا﴾:

وأُتي بلفظ (إذًا) للإشارة إلى سؤال مقدَّرٍ، كأنَّ سائلًا سأل: فإن فعلت؛ فماذا يكون؟[4] وليست إذًا هذه الكلمة المعهودة، وإنَّما هي (إذا) الشَّرطيَّة، حذفت جملتها الَّتي يُضاف إليها، وعُوِّضَ عنها التَّنوين كما في يومئذٍ[5].

إفادةُ كون التَّعبير بحرف (مِنْ)، آثر وأبلغ في الوصف

دلالةُ استعمال حرف الجَرِّ (مِنْ):

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: العريقِين في وضع الدَّعوة في غير محلِّها[6]؛ لأنَّه لا ظلمَ أكبر من الشِّرك باللّه تعالى، ومن الظُّلم وضعُ العبادة في غير موضعها[7]، ومعنى (مِنْ) أي: معدودًا في

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/304.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/304 - 305.

(3) الجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/497.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/304 - 305.

(5) الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم: 6/186.

(6) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 9/218.

(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/309، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/282. 282.

عِدادهم[1]، وهو أبلغ في الاتِّصاف، من نحو: (فإنَّك ظالم)، فـ(مِنْ) تأكِيدٌ مثل ما تقدَّم في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يُونُس: 105] ونظائره[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الفعلُ والعملُ والصُّنع:

الصُّنْعُ أَخَصُّ المعاني الثّلاثَةِ وأَرْسَخُها، والفعل أَعَمُّها، والعَمَلُ أَوْسَطُها

(الفِعْلُ) لفظ عامٌّ يدلُّ على إحْدَاثِ شيءٍ من عَمَلٍ وغيره[3]، فهو مُطْلَقُ التَّأثير من جهة مُؤَثِّر[4] سواء كان عن سبب أو لا، ويُقال لِمَا كان بإجادة وبدونها، ولِمَا كان بِعِلْمٍ أو غير عِلْمٍ، وقَصْدٍ أو غير قَصْدٍ[5]، وأمَّا العمل؛ فهو عبارة عن إيجاد الأثر في الشَّيءِ مع امتداد زمان، ولا يُقالُ إلَّا لما كان بقصد وعِلْمٍ دون ما لم يكن عن قصد وعلم، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25] فعبَّر عن ذلك بالعمل؛ لأنَّه لا يكون إلّا بِقَصْدٍ وامتداد زمان، وأمَّا الصُّنْعُ؛ فهو: تَرْتِيبُ العمل وإحْكامُهُ على ما تَقَدَّمَ عِلْمٌ به، وبما يُوصِلُ إلى المُراد منه، ولذا قيل للعِلم المتعلِّق بكيفيَّة العمل: صناعةٌ[6]، ويَدُلُّ على رسوخ العمل وإجادَتِه، فيقال للنَّجار: صانِعٌ؛ لأَنَّ النَّجار قد سبق عِلْمُهُ بما يريدُ عملَهُ، وعَلِمَ بالأسبابِ الَّتي تُوصِلُ للمراد من ذلك والصُّنْعُ؛ فالصُّنْعُ أخصُّ المَعاني الثَّلاثَةِ، والفعل أعَمُّهَا، والعَمَلُ أَوْسَطُها، فكلُّ صُنْعٍ عَمَلٌ، وليس كُلُّ عَمَلٍ صُنْعًا، وكلُّ عملٍ فِعْلٌ، وليس كُلُّ فِعْلٍ عَمَلًا[7].

ولعموم الفعل ودلالته على ما كان بإجادة وبدونها، ولِما كان بِعِلْمٍ أو غير عِلْمٍ، وقَصْدٍ أو غير قَصْدٍ، ناسب اصطفاءه مع النَّهي عن عبادة غير اللّٰه تعالى ممّا لا ينفع، ولا يضرُّ لِعِظَم الذَّنب وكُبْرِهِ.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم: 6/186.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/305.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فعل).
(4) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(5) زين الدّين المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 262.
(6) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 134، والتّهانويّ، كشّاف اصطلاحات الفنون: 1097/2.
(7) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 134.

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ [يونس: 107]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ظالِمٌ لِنفْسه مَنْ يعتمدُ على غير الله في رجاءِ نَفْعٍ أو دفْعِ ضُرٍّ

لمّا قضى اللّه ﷻ نفْيَ إمكانِ النَّفْعِ والضُّرِّ عن كلِّ ما سِواه سبحانه، وقضى بعدم الإمكانِ هذا بطريق النهي في قوله: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾ [يونس: 106]؛ قضى هنا في هذه الآية ثبوتَ القدرةِ على الضُّرِّ مسًّا وكشْفًا، وعلى الخير تحقيقًا وتثبيتًا له وحده سبحانه، لا يُنازِعه أحدٌ في ذلك، فكأنَّه قال: لا تدعُ من دون اللّه ما لا ينفعك، ولا يضرُّك؛ لئلّا تكون ظالمًا، والزَمْ طريق العدلِ برجاءِ اللّه وحدَه في جلب الخير ودفْعِ الضُّرِّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَاشِفَ﴾: مِنَ الكشْف، وأصله: إزالةُ الغطاءِ ونحوه عمّا يُواريه، ويُغطّيه، ويُستعار بذلك في المعاني، كما في كَشْفِ الضُّرِّ، بمعنى: إزالةِ آثاره التي أخرجَتِ البدنَ، أو الحالَ عن حدِّ الاعتدال، فتعودُ بإزالته السَّلامةُ والصِّحَّة[1].

2) ﴿رَآدَّ﴾: مِنَ الردِّ، وهو: صرفُ الشيء عن وجهه، ونقْله من حالةٍ إلى حالة، أو إبداله بغيره، ومنه: ردَّ عليه الشيء: إذا لم يقْبَله، أو خطَّأه، فهو تحوُّلٌ مع حِدَّة، والردُّ حاصل في الذات أو في الحال، فمِن الردِّ بالذّات قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام:

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كشف).

28]، ومن الردِّ إلى حالةٍ كان عليها قولُه هنا: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ أي: لا دافع ولا مانع له(1).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

وإن يُصِبكَ اللّه - أيُّها الرسول - بشدَّةٍ أو بلاءٍ أو سوءٍ في الحال أو في المالِ أو في البدن؛ فلا مُزيلَ لذلك ولا رافِعَ له إلّا هو ﷻ، فلا تتوسَّلْ لأحدٍ سِواه، وإنْ يُرِدْك برخاءٍ أو نعمةٍ أو عافيةٍ؛ فلا يقدِرُ أحدٌ أبدًا أنْ يمنع عنك ما أراده بك سبحانه، ذلك أنَّ اللّه يُصيب بالسَّراء والضرّاء مَن يَشاء مِن عبادِه، وهو الغفور للذُّنوب، الكاشف للكروب، فيستُر عباده، ولا يقْصِمُهم بالبلاء، الرحيم بالطائعين فيعوِّضُهم بالخير والرخاء، ويُزيل شدائدهم(2).

اللهُ هو النافع الضارُّ الذي ينفع ويضرُّ، والنفع يشاؤه لعباده، والضرر يكتبه عليهم

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنَّ الخلقَ لو اجتمعوا على أن ينفعُوا أحدًا بشيء؛ لم ينفعوهُ إلّا بما كتبه اللّه، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوا أحدًا؛ لم يقدروا على شيءٍ من ضَرره؛ إذا لم يردْه اللّه، فإذا عرفَ العبدُ بالدليل القاطع أنَّ اللّه هو المُنفرد بالنِّعم، وكشفِ النِّقَم، وإعطاءِ الحسنات، وكشفِ السيئات والكُربات، وأنَّ أحدًا من الخلقِ ليس بيده من هذا شيءٌ إلّا ما أجراه اللّه على يده؛ جزمَ بأنَّ اللّه هو الحقُّ، وأنَّ ما يدعون من دونه هو الباطل(3).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة العطف في: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ﴾:

جملة ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ﴾ [يونس: 106] في الآية السابقة،

لا نَفْعَ ولا ضُرَّ إلّا بأمرِ اللهِ وحدَه

(1) الجوهري، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (ردّ)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 476، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ردد).
(2) مجمّع الملك فهد، التفسير الميسّر، ص: 221.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 221.

وفائدة العطف: تقريرُ مضمونِ الصِّلةِ في قوله: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: 106] ومضمون الصِّلة: هو النفْع المنفيُّ والضُّرُّ المنفيُّ عن ذات الموصول المُعبَّر عنه بـ ﴿مَا﴾[1].

معنى ﴿وَإِن﴾، وسرُّ الاشتراط بها:

جعلَ اللهُ في تقديرِ الضُّرِّ خيرًا وحِكْمةً ولُطْفًا

﴿وَإِن﴾ الشرطيَّة دخلتْ - هنا - على فعل المسِّ بالضُّرِّ، والإرادة بالخير في قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ ﴿وَإِن يُرِدْكَ﴾؛ لِتعاقُبِ الشرِّ والخير على الإنسانِ، فلا هو في خيرٍ أبدًا، ولا هو في شرٍّ أبدًا، فلاعتبارِ كون الفعلينِ عارضَيْن لم يُحقِّقْ وقوعهما بـ (إذا)، وأيضًا لعدم تحقُّق الضرِّ والخير في ذاتِهما بالنسبة إلى العَبْدِ، فيتفاوتُ تحقُّقهما في حقِّ العبد، فما يكون ضُرًّا في حقِّ عبدٍ لا يكون ضُرًّا - هو ذاتُه - في حقٍّ آخرَ، والخير كذلك، وأيضًا للدَّلالة على أنَّ إصابة الضرِّ وإصابة الخير ليستا مُرادتين في مقصود الإرادةِ لذاتِهما، بل لكونِهما ممّا يُمْتَحنُ بهما، فالمتحقِّق في القصد هو الامتحان، وليس الضُّرَّ والخير في ذاتهما، فلمّا كان بناءُ الفعلِ جاريًا على غير متحقِّقٍ في القصد لذاتِه؛ شَرَطَه بـ ﴿وَإِن﴾ دون (إذا)[2].

نكتةُ التَّعبير بالمسِّ مادَّةً وصيغةً:

الضُّرُّ مُخفَّفٌ بالألطاف، وليس الغرضُ منه الإتلافَ

التعبير بالمَسِّ في جانب الضُّرِّ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ تَكتَنِفُه جهتان: جهةٌ معنويَّة وجهةٌ لفظيَّة، أمّا المعنويَّة: فللالتفات إلى ثلاث دلالات:

الأولى: معنى اللُّطف، فالإصابةُ بالضُّرِّ مَشوبةٌ باللُّطفِ والمَرحمة، ولذا فهي ليستْ إصابةً محضةً به أو خالصةً فيه.

الثانية: معنى الظّاهر، فالإصابةُ بالضُّرِّ هي مَسٌّ ظاهريٌّ، كما

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/186.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/180.

تَمَسُّ اليَدُ الأجسامَ والأجرام، فليستْ إصابةً تَجوزُ إلى بواطنِ الأشياء بالتَّلَفِ والإهلاك.

الثالثة: معنى التخفيف، فالأضرار مُخَفَّفَةٌ بالألطاف، ولو نالتِ العبدَ من غير تخفيفٍ؛ لأهلكتْهُ، ولو كانتْ كذلك؛ لم يكن مجالٌ لِكشْفِها، فلمّا قال الله تعالى: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ عَلِمْنا أنَّها أضرارٌ صالحةٌ للاستدراك، ولا تكون كذلك إلّا بِخفَّتِها وعدم استحكامِها.

والذي أعانَ على هذه التوجيهات الثلاثة: أنَّ المَسَّ يُقال في تأثُّر الحاسَّةِ بالمؤِّثر، وتأثُّر الحاسَّةِ هو أوَّل عَلامَاتِ التأثُّر، وأسرعه حصولًا فيها، فإنْ زال المؤِّثر؛ كان أسرعه زوالًا عنها، فلسرعةِ الحصول وسرعة الزَّوال؛ كان المسُّ خفيفًا لطيفًا ظاهرًا، وهذا لا يتعارض مع قوَّة انفعال الحاسَّة بالشيء الماسِّ ونفاذه فيها.

وأمّا من جهة البناء اللفظي؛ فهو يُعزِّزُ دلالةَ التخفيف المعنويَّة آنِفةَ الذِّكْرِ، فالفِعل ﴿يَمْسَسْكَ﴾ جاء بفَكِّ التضعيفِ في السِّين، فهو مخَفَّفٌ لفظًا ومعنًى، فلم يقل: (يَمَسَّك)، وجاء بصيغة المضارعة للدَّلالةِ على معنى العادةِ والسُّنَّةِ المكرورة، فمن عادةِ الدنيا أنَّ أحوال الكَدَرِ فيها متكرِّرةٌ، كما أنَّ أحوال الصَّفَاءِ فيها كذلك، فهذه تَتَوالى مع تلك، ودوامُ حالٍ منها من المُحال[1].

بلاغةُ المجاز المرسل في: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾:

العبدُ ضعيفٌ مع الابتلاءِ ولو كانت إصابةً ضئيلة

في التعبير عن الإصابة بالمسِّ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ مجازٌ مرسلٌ علاقته الملزوميَّة، حيث أطلق الملزوم: وهو المسُّ، وأراد لازِمَه: وهو الإصابة؛ لتقرير هيئة الإصابة، وأنَّها ليستْ كأيِّ إصابة، بل هي إصابةُ المسِّ[2].

(1) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مسس)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مس).
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/581، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/306.

نكتةُ تقديم المفعول به:

النَّجاةُ من الضُّرِّ بعد مُعاينتِه بريدُ الامتنانِ بالنِّعَمِ بعد إيلافِها

قُدِّم ضمير الخطاب على اسم الجلالة، في قوله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ﴾؛ لِكونه ضميرَ نصبٍ متَّصلًا مفعولًا به، وإذا كان كذلك؛ فلا بدَّ أنْ يتَّصل بالعامل، وهو الفعل، وإذا اتَّصل بالعامل، وهو مفعول؛ فلا بدَّ أنْ يتقدَّم على الفاعل، ونُكتةُ مجيئه كذلك، دون أنْ يُقال: (وإن يَمسَّ اللهُ الناسَ.. أو يمسَّ اللهُ إيّاك) على الانفصال؛ لتوفُّر العنايةِ على المُصاب، وهو الإنسان، لِكونه مَحلَّ الضُّرِّ النازل به، ولكونِ المَسِّ لصيقًا به في الواقع، والمعنى ألصَقَه به في اللفظِ والتركيب، فكأنَّما النَّظم الجليل يريد للسّامع أنْ يتصوَّرَ هيئةَ الإنسان، وحالُ الضرِّ تغشاه، وهي لصيقةٌ به؛ ليتصوَّرَ بعد ذلك هيئتَه؛ إذا انفكَّتْ عن الضرِّ، وانفصلتْ بالكشْفِ والمُعافاةِ الإلهيَّة.

غرضُ توجيه الخطاب للنبيِّ ﷺ:

رسول اللهِ ﷺ هو مِثالُنا في تأثُّرِنا بالسَّرّاءِ والضرّاء

وجِّهَ الخطابُ للنبيِّ ﷺ في قوله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ﴾، ﴿وَإِن يُرِدۡكَ﴾، لغرضين:

الأوَّل: تسليةً للنبيِّ ﷺ وتبشيرًا له؛ لِكونه أولى الناس بنفي الضُّرِّ عنه وتحقيق الخير له.

الثاني: لتبشير النّاس وتسليتِهم؛ إذا أصابهم الضُّرُّ، أو رغِبوا في الخير أنْ يسألوا اللّه من غير واسطة فيما أمَّلوه من ذلك، ووجْه البُشرى: أنَّ النبيَّ ﷺ قد خوطِبَ قبلهم بذلك، وأُجْرِيَ عليه الضُّرُّ والخير قبلهم، فإذا كانوا على مِثالِه في الإصابةِ بالضرِّ والخير، فلا يحزنوا؛ لأنَّهم على مِثالِه كذلك في كشْفِ الضرِّ عنهم ونزول الخير بهم، فيحصلُ لهم بذلك التعليم في سؤال اللّه من غير واسطة، وأنَّه لا مُغيِّرَ لأحوالهم إلّا هو، والتسليةُ بمقام النَّبيِّ ﷺ الذي أُجْرِيَ عليه ذلك قبلهم، والبُشرى بأن يحصل لهم من العاقبة نظير ما حصل لنبيِّهم، والمعنى الجامع في ذلك كلِّه: خطابُ النبيِّ ﷺ بالمقامِ الذي

تفتقِر الناسُ إلى احتذاء أنموذجٍ فيه، لعدم جاهزيَّتِهم له من غير مُعِينٍ وقُدوة[1].

فائدة التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة:

اللهُ يُعوِّضُ بعد الضُّر بالخير، ويَجزي بعد الخير بالفضْل

التعبير بالجملة الشرطية في قوله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ أفاد التعليق والترتُّب واللزوم بين جملة الشرط وجملة الجواب، فكشْفُ الضرِّ مُعلَّقٌ على المسِّ به، وكشْفُه نتيجةٌ مترتِّبةٌ عن الإصابة به، ويَلزمُ مِنْ تقديره ووقوعه أنْ يُكشَفَ وينجلي، والنُّكتةُ الدقيقة في أسلوب الشرط هنا: أنْ يتنزَّل الخبرُ منزلةَ الوعد والجزاء، فكأنَّه في معنى: يَعِدُكُمُ اللّه - إنْ أصابكم الضرُّ - ألَّا يكشفه عنكم إلّا هو، وأيضًا لِتعذُّر مجيء النَّظم على أسلوب الخبر المحض من غير أن يَقتضي معنى الشرط، فلو قال بالخبر الصريح: (يَمَسَسُك اللّه بالضرِّ؛ فلا يكشفه عنك إلّا هو)، لكان أضعفَ من وجهين:

الأوَّل: أنَّ هذا الخبر في معنى الشرط لعطف الجملتين بالفاء التي تقتضي ترتيب مدخولها على المعطوف عليه، فالقول: (يَمَسَسُك اللّه بالضرِّ؛ فلا يكشفه عنك إلّا هو) هو في قوَّة شرطِ المعطوف عليه بالمعطوف لوصلِهما بالفاء، فيكون الخبر في قوَّة الشرط، فكان التعبير بالشرط الصريح أبلغَ وأتمَّ.

الثاني: أنَّه لو قال: (يَمسُّك اللّه بالضرِّ) بالخبر الصريح من غير أداة الشرط؛ لاقتضى تقريرَ وقوعِ المَسِّ بالضرِّ وتحقيقه، فكأنَّ وقوعه ثابتٌ متقرِّر، وهذا خلاف المعنى الذي قرَّره الشرط بـ ﴿وَإِن﴾ في قوله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ﴾ بأنَّه مُحتَمَل الوقوع، فقد يحصل، أو لا يحصُل، فكان التعبير بأسلوب الشرط أبلغَ لإدخالِ أداة الاحتمال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/306.

(إنْ)، ويتفرَّع عن هذا نُكتَةٌ عزيزة، وهي أنَّه لو قال بالخبر الصريح: (يَمسّك اللّه بالضرِّ)؛ لكان فيه إيحاشٌ وتقنيطٌ للمخاطَبِ وللسامع؛ إذْ يتقرَّر عندهما أنَّ اللّه يُصيبُ بالضرِّ، فيحصل التشاؤمُ من الخبَرِ، فلمّا قال: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ﴾ بالشرط؛ أبْعَدَ المُخاطَبَ والسّامع عن الإيحاشِ والانقباض.

معنى الباء في ﴿بِضُرّٖ﴾:

الباء في قوله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ للتعدية، وهي قائمة مقام همزة التعدية، كأنَّه قال: (وإنْ أمَسَّك اللّه ضُرًّا)، أي: يجعلك ماسًّا له، وفعلُ (يَمْسَس) يتعدّى بذاته، ويتعدّى بحرف الجرِّ، أو تكون الباء للاستعانة وهي المُسمّاة بباء الآلة، كأنَّه جعل الضُّرَّ آلةً لإيصالِ المَسِّ، ومعنى التعديةِ حقيقة، ومعناها على الآلةِ مجاز[1].

جعل اللهُ الضرَّ لتأديبِ خَلْقِه، ولولاه لَبَغوا

بلاغةُ الاستعارة في التَّعبير بالمسّ:

في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ استعارَةُ المَسِّ لإصابةِ الشيءِ بالشيء، فشَبَّه إصابةَ الضرِّ الإنسانَ بِمَسِّ اليدِ للشيءِ تَحَسُّسًا له، بجامع الإيصالِ في كلٍّ، على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التبعيَّة، فكأنَّه قيل: أصابك بالضرِّ، كما تقول: أصابك بالسكّين، على معنى ذِكْر آلةِ الفعلِ في كلٍّ.

تشبيهُ إصابةِ الضرِّ الإنسانَ بِمَسِّ اليَدِ للشيءِ على سبيل التَّحسس

نكتةُ تنكير ﴿بِضُرّٖ﴾:

تنكير كلمة ﴿بِضُرّٖ﴾ في قوله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾؛ للتنويع بين القِلَّةِ والكثرة، أي: بضرٍّ عَظِيم أو هيِّن، فتنكيرُ لفظِ الضُّرِّ هنا يفيد استغراقَ أنواعه؛ لأنَّه نكرةٌ في سياق الشرط، فتعمُّ[2].

للهِ حكمتُه في تقديرِ نوعِ الضُّرِّ فلا يُسألُ عمّا يفعل

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَلَا﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ واقعة في جواب فعل الشرط،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/455، والسّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 4/563، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/582، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/163.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/306.

وهي رابطةٌ لِجوابِ الشرط بفعله، وتفيد ترتيبَ الجوابِ على شرطِه، وهو جملة: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ﴾، ومعنى الربْطِ المذكور: إقْرانُ مدخولِ الفاء وإلحاقُه بحيّز الشرط، ولو جُرِّدَتِ الجملة الاسميَّة عن الفاء، فقيل: (لا كاشِفَ لَهُ إلّا هوَ)؛ لَكانتْ جملةً منفصلةً عن حيِّز الشرطيَّة، ولَما أفادتِ الجوابيَّة عن الشرطِ قبلها، فلمّا اقترنتْ بالفاء؛ أفاد أنَّها جملةُ جوابٍ مُترتِّبةٌ ومتعلِّقةٌ ولازِمةٌ عن الجملةِ قبلها، وهي جملة الشرط: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾[1].

قـدّرَ مع الضُّرِّ كَشْفُه ولُطفُه ولكنَّ الإنسانَ يَعجَل

معنى ﴿فَلَا﴾:

﴿فَلَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ لِنفيِ الجنس، أي: نفيُ الخَبَرِ عن الجنسِ المذكور بعدها على جهةِ الاستغراق، والاستغراقُ هنا حقيقيٌّ لا ادِّعائيٌّ، ونصّيٌّ لا احتماليٌّ، فالنفيُ هنا نفيٌ مُستغرِقٌ جَميعَ أفرادِ الكاشفين على جهةِ الحصر، ومعنى النفي: لا قادرَ على كشْفِ الضرِّ بوجهٍ من الوجوه أصلًا إلّا الذي قَدَرَ على الإصابةِ به، ونفيُ الجنسِ في الآية يقطع أطماعَ الناسِ في النّاس عند حصول الضرِّ، ويُجرِّد المُبْتَلى به من الاتِّكال على المخلوقينَ في دفْعِه عنه بأيِّ وجْهٍ من وجوه التعلُّق، فنفيُ الجنسِ المُستغرِق أفْرادَ الكاشفين مؤذِنٌ بنفيِ التعلُّق بهم من كلِّ وجْه ولَوْن[2].

لا يَكشِفُ الكروبَ إلّا الذي قدَّرها وأجراها

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿كَاشِفَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

﴿كَاشِفَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ لفظٌ جاء على بِناءِ اسم الفاعل، ولم يَرِد بصيغة الفعل، فلم يقل: (فلا يكْشِفُهُ إلّا هو) لثلاثةِ أغراض:

إذا هُرِعَ المُبْتَلى إلَى حِمَى القدير الرحيم أغاثَه وحَماه

الأوَّل: لاستحضار ذاتِ الفاعِل - وهو اللّٰه الجليل - للدَّلالة على أنَّ كَشْفَه لِلضُّرِّ أثرٌ من آثار قُدرتِه القائمةِ بذاتِه ﷻ، وهذا ينفي عنه

(1) صافي، الجدول: 11/208.

(2) صافي، الجدول: 11/208، ودرويش، إعراب القرآن: 4/305.

الطُّروء والانقطاع، فقدرتُه على كشْفِ الضرِّ ليس طارئًا أو عارضًا، وليس يَنقطِع بعد حدوثه، بل هو أمرٌ ثابتٌ في كلِّ ضُرٍّ، ومستمرٌّ في كلِّ حال، وفائدة ذلك: تثبيتُ مَنْ أصيبَ بالضُّرِّ بإخباره أنَّه سيلجأ في كشْفِه إلى ركنٍ شديدٍ دائمٍ لا يتحوَّلُ عن الكشْفِ لِعارض، ولا تتفاوتُ قدرتُه عليه بحالٍ.

الثاني: لإفادةِ استمرارِ فِعلِه بعد ثبوتِ الاتِّصافِ به، فكشْفُه سبحانه للضُّرِّ يحدثُ في كلِّ وقتٍ، فقد حدثَ في الماضي، وهو يحدثُ في الحاضر، وسيحدث في المستقبل، وسيستمرُّ حدوثُه وتجدُّده.

الثالث: لاستحضار معنى الحدَثِ، وهو (الكَشْف)، فكأنَّه حين يقول: ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ يجعلُ صاحبَ الضُّرِّ يستحضرُ الكشْفَ الذي سَيندفِعُ به الضرُّ، فهو في مقامِ من يَرى الدَّواءَ إلى جانِبِ الدّاء، فلا يجزع، فدلَّ اسم الفاعل ﴿كَاشِفَ﴾ على ذاتِ الفاعِل، وزَمَنِ فِعلِه، ومادَّة الفِعل التي هي معنى المصدرِ والحدثِ المجرَّد للوصفِ المذكور، وهو (الكشْف)[1].

مَـتـى تـحـقَّـق المُبْتَلى بالإيمان؛ أرضــاه الـلـه، وجَبَرَ خاطِرَه

علَّةُ مجيءِ جملة جواب الشَّرط جملةً اسميَّة:

السرُّ في مجيء جملة جواب الشرط جملةً اسميَّة - وهو قوله تعالى: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ - لإفادةِ حصولِ الكشْفِ من اللّه على جهة الثبوتِ والدَّوام، وهو أبلغُ من لو جاءت الجملةُ فعليَّةً، كأن يُقال: (فلا يَكْشِفُه)؛ لكونها ستقتصرُ على تقرير الهيئةِ الزمنيَّة للفِعل، دون إفادةِ ثبوتِ ذلك وديمومتِه في وضعِ الزَّمَن.

يَكْشِفُ اللهُ الضُّرَّ عن عبدِه، وكأنَّه يُـحـيـي الأرضَ بعد موتها

معنى اللّام في ﴿لَهُۥٓ﴾:

اللام في قوله: ﴿لَهُۥٓ﴾ لام الجرِّ، والمجرور بها هاء الضمير العائدة على الضرِّ، وهي ومجرورها متعلِّقة بمحذوف خبر (لا)

(1) فاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص: 41.

النافية للجنس، وتقدير المتعلَّق: موجود؛ أي: لا كاشفَ له موجود، أو لا كاشفَ له عنك، وعدَّى اسمَ الفاعل باللام، ولم يقل: (فلا كاشِفَهُ)؛ لإفادة معنى التبيينِ والعهدِ باللام، للدلالة على الضُّرِّ بذاتِه ومادَّته، وهو ليس تبيينًا بعد إبهام، بل هو تبيينٌ لزيادة التنصيص والمبالغة في تعيين مرجِع الضمير؛ ليفيد تخصيص الكشفِ المذكور بمفعوله، وهو الضمير العائد على الضرِّ بتحقيقِ نِسبَتِهِ إلى الفعل، فكأنَّ اللام في معنى إظهار المفعول، مع الوجازةِ والإضمار، فكأنَّه قال: (فلا كاشِفَ لذلك الضرِّ إلّا هو)[1].

بلاغةُ أسلوب القصر في: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾:

أسلوبُ القصر المُستفاد من تركيب النفي والاستثناء في قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ أفاد دلالتين:

الحمد للهِ أنَّهُ لا يَقدِرُ على كشْفِ الضرِّ وجلْبِ النَّفْعِ إلّا هو

الأولى: نفيُ القدرةِ على رفْع الضُّرِّ عن كلِّ ما سوى اللّه ﷻ على جهة الاستغراق، ويدخل في هذا الاستغراق دخولًا أوّليًّا معبوداتُهم التي أشركوها مع اللّه وعبدوها من دونه.

الثانية: إثباتُ القدرةِ على رفع الضُّرِّ للّه وحده بلا شريكٍ ولا نظيرٍ يكافِئُه، أو يشترك معه في تلك القدرة، وفائدةُ مجيء التركيب على طريقة القَصْرِ بصيغة النفي والاستثناء؛ للتعريضِ بأصنامهم ومعبوداتهم بتحقيق عجزهم؛ لأنَّهم إذا عجَزوا عن دفْع الضرِّ - وهو أدنى وجوه المنافع - فعجزُهم عن تحصيل النفْع المحضِ أثبتُ وأجدر، فإذا انتفى النَّفْعُ بوجْهه السلبيِّ الذي هو درء المفاسد؛ فهو مُنْتَفٍ بالكليَّة بوجْهه الإيجابيِّ الذي هو جلْب المصالح، ولا يخفى ما في ذلك من تفخيم قدرةِ اللّه وإعظامِها التي لا تتناهى في سَلْبِ المضارِّ، وإيجابِ المنافع على جهة التفرُّد والاستقلال[2].

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 96.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/180.

تقديرُ الضُّرِّ هيِّنٌ على اللهِ الجليل وكشفُه عليهِ أهون

براعةُ الإيجاز في الآية بالتَّعبير بالضمائر:

الضمائر الواردةُ في الآية على ثلاثة أقسامٍ:

الأوّل: ضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ﴾ ... ﴿وَإِن يُرِدۡكَ﴾.

والثاني: ضمير يعود على الضُّرِّ في قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾، وعلى الخير في قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾.

والثالث: ضمير الجلالةِ في قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ ... ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾، وفي قوله: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾، وفي قوله: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾.

فضميرُ الخِطابِ إيذانٌ بالقُربِ من المُخاطَب، وبتشريفه بحديث الإلهِ معه، وإكرامِه بجعلِه في مقامِ من تُوجَّه إليهم النَّصيحة والإرشاد من ربِّ العالمين، وضمير الغَيْبَةِ الذي يعود على الضُّرِّ لِطَيِّ ذِكْرِه وكراهةِ إعادته بلفظِه؛ ليكونَ خفيفًا في أذُنِ السّامِع، كما كان المَسُّ به خفيفًا في القلبِ والبَدَن، وضميرُ العظَمَةِ في قولِه: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾، ولم يقل: (إلّا الله)؛ إذْ كَشْفُهُ على الله هَيِّن، فلا حاجةَ أنْ يُعيدَ معه التصريح باسم الذّات، بل أعاده بالضمير إيجازًا واكتفاءً بالظاهر السّابق؛ للإشارة إلى هوانِ كشْفِه عليه، فاكتفى بإظهار اسم الذّات في جانبِ المَسّ: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ القُدرة على الإصابة أعظمُ من القدرة على الكشْف، فالقدرة على إيقاع الشيء أدلُّ على القدرةِ على إزالتِه، فصرَّح باسم الكمال في أقوى الطَّرفين وأصعبِ الجانبين.

البلاءُ شُغلٌ لِلنَّفسِ عن مُلاحظةِ شأنِ سواه

نكتةُ الإضمار بعد الإظهار في: ﴿هُوَۖ﴾:

الإتيان بضمير الجلالة ﴿هُوَۖ﴾ بعد إظهار مَرجعِه ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ لِدَواعٍ في النَّظْمِ تقتضيه:

الأوّل: مُراعاة الأصل، وهو الاكتفاء بالاسم الظّاهر في أوّل الكلام، فإذا أعيدَ؛ ذُكِرَ بضميره المناسب؛ دفعًا للتكرار المُستثقَل مع عدم وجودِ مُسوِّغٍ للتصريح.

الثاني: وضوح الضمير في الدلالةِ على مَرجِعِه المُحَقَّق مع عدم وجود احتمالٍ قد يتأتّى معه الإيهام واللَّبْس في تعيينِ مَدلولِ الضمير.

الثالث: اتحادُ التركيب اقتضى عدم الإظهار، فالجملةُ الشرطيَّة مِن الشرط وجوابِه هي جملةٌ واحدةٌ، فلا يظهر فيها اللفظُ نفسُه مرتين؛ لِعدم وجود الفاصِل، ولِقُربِ الضميرِ من مَرجِعِه، وإنْ عُدَّتْ جملةُ جواب الشرط: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ جملةً منفصلةً عن جملة الشرط: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ فهما جُمَلَتانِ لا جملة واحدة، فهي على هذا الاعتبار أيضًا داخِلةٌ في حكم الجملةِ الأولى، فكانتَا في حكمِ الجملةِ الواحدة.

الرابع: الجَرْسُ الصوتيُّ للضمير في التركيب أوقعُ في السَّمْع من إظهار اللفظ، فلو قيل: (وإنْ يَمْسَسْك اللّه) مع القول: (فلا كاشفَ له إلا اللّه)، لم يكن مُستحسَنًا في خِفَّةِ الصوتِ وسلاسته.

الخامس: مِنْ دواعي إضمار الاسم الجليل في قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ عدم تعلُّقِ الغرضِ بمقام يُجَلِّيهِ الإظهار، أو يزيده وضوحًا وتحقيقًا، فروعِيَ الأصلُ، فأضْمَرَ؛ إذِ الغرضُ يتعلَّقُ بالضُّرِّ والمَسِّ به، والضُّرِّ والكشْفِ له، وعنايةُ السّامعِ متوفِّرةٌ على ذلك، فلا يَشغلهُ أكثرُ من الإخبارِ بفاعِلِ المسّ وفاعِلِ الكشْف، وهو اللّه الجليل، من غير مُبالغةٍ بتحقيقِ ذلك، أو تأكيده بأسلوبٍ كالإظهار في موضعِ الإضمار، لانْصِبابِ هِمَّتِه على النّازِلِ به لا الفاعلِ له[1].

معنى الواو في: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ﴾:

في كلِّ حالٍ من الضُّرِّ أو الخير امتحانٌ وجزاء

الواو في قوله: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ﴾ عاطِفةٌ مدخولَها على جملة: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ﴾، وسبب الوصل بالواو بين الجملتين: تمامُ المُناسبةِ بينهما لتقريرِ ما بينهما من تَقابُلٍ واشتراكٍ في الحكْمِ المعنويِّ، والحكمِ اللَّفظيِّ بمجيءِ كُلٍّ على صيغةِ الشرط[2].

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/501، ومحمد أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 241.
(2) صافي، الجدول: 11/208.

سَبَقَتْ إرادةُ الخيرِ المَسَّ بالضُّرِّ

نكتةُ العدول عن المسِّ:

في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ﴾ لم يُقَل في السياق الكريم: (وإنْ يَمۡسَسۡكَ بخيرٍ)، كما قال: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ فعبَّر بالمسِّ في جانب الضرِّ، وبالإرادة في جانبِ الخير؛ لتقرير أنَّ الخيرَ أصلٌ في الإرادةِ دون الضرِّ، وإنْ كان المسُّ بالضرِّ حاصلًا بالإرادة كذلك، إلا أنَّ عدمَ إجراءِ الإرادة عليه دون الخير مؤذِنٌ بأنَّ الخيرَ أمْكَنُ في الإرادةِ مِنَ الضُّرِّ، ووجْه ذلك: أنَّ إرادة الشيء تفيد تحقيقَه في القصد والعزم عليه في الفعل، وأنَّ المَسَّ لفظٌ يفيد التخفُّفَ من تحقيق القصد والخِفَّةَ في العزم، فثَبتَ أنَّ لفظ الإرادة أقوى وأبلغ، وأنَّ لفظ المسِّ أضعف وأخفُّ، فيأخذ حكمَهما ما جُعِلَ في حيِّزِهما وهو (الضرُّ) في المسِّ، و(الخير) في الإرادة[1].

كلُّ عظيمٍ في قدرةِ اللهِ هيِّنٌ

بلاغةُ المتشابه اللَّفظيِّ مع آية الأنعام:

اختصَّ اللّه موضعَ سورةِ الأنعام بالتعبير بالمَسِّ في جانبَي الضرِّ والخير، فقال: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾ [الأنعام: 17]؛ لِمُناسبةِ ختام الآية بالقدرة، ثم التعقيب عليها بثبوتِ القهْر في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 18]، ووجْه المناسبة في ذلك: أنَّ تقريرَ القُدرة والقهرِ للّه ﷻ اقتضى إيقاعَه للضرِّ والخير على جهةِ التمكُّنِ منهما والاقتدار عليهما، فيَقَعانِ منه سبحانه، كما تقع أدنى الأفعال - كالمَسِّ - في سهولتِها ويُسْرِها، فهما إلى جانبِ القدرة العظيمة والقوَّةِ القاهرة مَسٌّ خفيف، وأمّا في سورة يونس؛ فالمناسبةُ هنا تقتضي إسنادَ المسِّ إلى الضُّرِّ، وإسنادَ الإرادة إلى الخير؛ لأنَّ الآيةَ مسبوقةٌ بإبطال الغُرور في كلِّ ما سوى اللّه في التعلُّق به، لدفْع الضرر أو تحصيل النَّفع؛ وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/582.

﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾ [يونس: 106]، فلمّا أبطَلَ قدرةَ الأنداد، ورهَّبَ من التَّعلُّق بها في النفع والضرِّ؛ ناسَبَ التعقيبَ بما يقتضي قوَّة التعلُّق بفضلِه في إرادة الخير وكشْفِه في إرادة الشرِّ، فقوّى جانبَ الخير بإسناد الإرادة إليه، وقوّى جانبَ الكشْفِ للضرِّ بإخبارِ أنَّه مسٌّ، فإزالتُه أهونُ على اللّه، ليَقوى بذلك التعلُّقُ باللّه، ويَزولَ من القلوبِ التعلُّقُ بسواه[1].

بلاغةُ المقابلة والطِّباق في ﴿يَمۡسَسۡكَ﴾ و﴿يُرِدۡكَ﴾، و﴿بِضُرّٖ﴾ و﴿بِخَيۡرٖ﴾، و﴿كَاشِفَ﴾ و﴿رَآدَّ﴾:

الضرُّ أخصُّ من الخير، والخير أعمُّ من النفع، والإرادة صفةُ ذات، والمسُّ صفة فِعل

في قوله: ﴿يَمۡسَسۡكَ﴾ مطابقةٌ معنويَّة مع قوله: ﴿يُرِدۡكَ﴾، ولفظ (الضُّرِّ) يُطابِقُ لفظَ (الخير)، وتركيب: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ يُقابل تركيب: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾؛ لأنَّ الكشفَ رفْعٌ، والردَّ دفْعٌ، والطِّباق والمقابلةُ في الآية واقعانِ على جهة اللفظ لا جهة المعنى[2]؛ "لأن مقابل الضُّرِّ النفع، ومقابل الخير الشَّرُّ، فجاءت لفظة الضُّرِّ ألطفَ وأخصَّ من لفظة الشر، وجاءت لفظة الخير أتمَّ من لفظة النفع، ولفظةُ المسِّ أوجزُ من لفظ الإرادة، وأنصُّ على الإصابة، وأنسبُ لقوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾، ولفظ الإرادة أدلُّ على الحصول في وقت الخطاب وفي غيره، وأنسبُ للفظ الخير، وإن كان المسُّ والإرادة معناهما الإصابة، وجاء جواب ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ﴾ بنفي عام وإيجاب، وجاء جواب ﴿وَإِن يُرِدۡكَ﴾ بنفي عام"[3].

معنى الباء في ﴿بِخَيۡرٖ﴾:

خيرُ اللهِ أقربُ ما يكون، ولكنَّ العبدَ لا يستبصِر

الباء في قوله: ﴿بِخَيۡرٖ﴾ للتعدية، وهي بمعنى الإلصاق، ولذا قال: ﴿يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ﴾، ولم يقل: (يُرِد بك خيرًا)؛ للدَّلالة على شدَّة تعلُّقِ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/494، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/457، والآلوسي، روح المعاني: 4/108.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/163.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/113.

الخير به وعدم انفكاكه عنه، أي: لصيقًا بالخير، أو هي للتَّبيين، لإزالةِ الإبهام في فعل الإرادة بتعيينِ مُتعلَّقِها من المُرادات، وتركيبُ جملة: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يدلُّ على زيادة العناية بالإنسان، وأنَّه مقصودٌ بالإرادةِ لِتَسلُّطِها على ذاتِه من غير فاصلٍ بحرف الجرِّ، فلم يقل: (وإنْ يُرِد بك)، ودخول الحرف على الخير دالٌّ على أنَّ الخيرَ مُرادٌ ومخلوقٌ لأجْلِه[1].

نكتةُ تنكير الخير:

إذا أراد اللهُ الخيرَ؛ أراد ما يليقُ بعظمتِهِ من الجبْرِ والعِوَض الجزيل

لفظ ﴿بِخَيْرٍ﴾ في قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ نكرةٌ في سياق الشرط، فتفيد العموم، أي: خيرٌ تامٌّ في عمومِه واستغراقه لأفراده، فيشمل الخيراتِ الظّاهريَّةَ والباطنيَّة والمادّيَّة والرُّوحيَّة، وكلَّ ما يَصلُحُ للإنسان منه، وما يَصلُحُ الإنسانُ به[2]، أي: "بِكُلِّ ما أراد مِنَ الخَيْرِ"[3].

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَلَا﴾:

كلُّ أفعالِ اللهِ مع العبادِ خيرٌ لو كانوا يعلمون

الفاء في قوله: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾، كالفاء في قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ رابطةٌ لجواب الشَّرط، وهي مِثْلُها في المعنى والبيان[4].

نُكْتَةُ التَّعبير بـ ﴿رَآدَّ﴾ مادَّةً وصيغةً:

اللهُ يحكمُ لا مُعقِّبَ لِحُكْمِه

التعبير باسم الفاعل دون الفعل في قوله: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾؛ لِنفيِ الذّات المُريدة، "وهذا يفيد أنَّه لا يوجد من يستطيع ردَّه، فليس الكلام لمجرَّد الردِّ، بل هو نفيٌ لوجودِ من يستطيع الردَّ، ويقدر عليه"[5]، وفي التعبير باسم الفاعلِ المنفيِّ تسجيلٌ بِهوانِ كلِّ ساعٍ في ردِّ ما قدَّر اللّه؛ "مبالغةً في سلبِ المقدرة عمَّن يريد معارضة مرادِه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/310، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3646.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/147.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/388.
(4) صافي، الجدول: 11/208.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3645.

تعالى كائنًا من كان، بحيث لا يستطيع التعرُّض للّه في خيرِه، ولو كان بمجرَّد إرادتِه قبل حصول فِعلِه"[1].

بلاغةُ الكناية في: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ﴾:

الإرادة في قوله: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ﴾ كِنايةٌ عن الإصابة؛ إذْ هي لازِمةٌ عنها والمقصودةُ منها، وقرينةُ الكناية قوله بعده: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾، وقوله قبله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ﴾؛ لأنَّ المسَّ مجازٌ في الإصابة[2].

لا يُصيبُ اللهُ إلّا بإرادتِه، وإذا أرادَ؛ أصاب

براعةُ الاحتباك في التركيب:

في قوله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ احتباكٌ، وَهُوَ حاصِلٌ من جهتين:

معيّة الله تعالى ملازِمة للعبد، وتوجيه الخير يستوجب الشّكر لاستدامته، والضّرّ سحابة ابتلاء وتنجلي

الأولى: في المسِّ بالضرِّ مع الإرادة بالخير في قوله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ﴾ مع قوله: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ﴾، فذَكَر المسَّ الذي هو الإصابة في جانب الضرِّ، واختصَّ الخير بالإرادة دون الإصابة، مع أنَّه لا يُصيبُ إلّا بإرادة، وإذا أراد؛ أصاب، فكلا المعنيين (الإرادة والإصابة) حَاصِلٌ في كلٍّ من الضرِّ والخير، فدلَّ بما ذَكَرَ في جانب الضرِّ على ما تُرِك في جانبِ الخير، أي: الإصابة المذكورة في الضُّرِّ دلَّتْ على الإصابة المتروكة في الخير، والإرادة المذكورة في الخير دلَّتْ على الإرادة المتروكة في الضرِّ على جهةِ الاحتباك للاختصار والإيجاز، ولِدفْع التشاؤم من الضرِّ بإسناد المَسِّ إليه، وتقويةِ التفاؤلِ بخيرِ اللّه بإسنادِ الإرادة إليه، ولذا عدَلَ عن ذكْر الاثنين معًا (المسّ والإرادة) في جانبي الضرِّ والخير.

الثانية: الاحتباك في (الضُّرّ)، و(الخير)؛ إذْ جُعِلَ (الخيرُ) في موضع المُقابَلةِ المعنويَّة مع (الضُّرِّ)، مع أنَّ الذي يُقابل (الضُّرَّ) هو النَّفع، والذي يُقابِل (الخير) هو الشرُّ، فدلَّ بذلك على المقابلةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/306.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 2/581، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/306.

اللفظيَّة المحذوفة مع الجانبين، فكأنَّه قال: (وإنْ يَمْسَسْك اللّه بِضرٍّ وشَرٍّ، وإنْ يُرِدك بنفْعٍ وخيْر)[1].

نكتةُ العدول عَنْ أسلوب القَصْر إلى أسلوب النَّفي:

الإرادةُ الكونيةُ من اللهِ يلزمُ منها وقوعُ ما أراده الله، وهي شاملةٌ كُلَّ ما قضاه

لم يقل في السياق الكريم: (وإن يُرِدْك بخيرٍ؛ فلا رادَّ لفضلِه إلّا هو)، كما استثنى في جانب الضُّر من قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾؛ لأنَّ ما أراده اللّه ﷻ لا يصحُّ الاستثناء منه؛ لأنَّه إذا أراده؛ فقد حكمَ به، وإذا حكمَ به؛ فلا معقِّب لحكمِه؛ إذْ " صحَّةُ الاستثناءِ تكون بإرادةِ ضدِّه في ذلك الوقت، وهو محال، وهذا بخلافِ مسِّ الضُّرِّ، فإنَّ إرادةَ كشفِه لا تستلزم المُحالَ، وهو تعلُّق الإرادتين بالضِّدَّين في وقتٍ واحد"[2]، "فما أراده لا يردُّه رادٌّ لا هو ولا غيره؛ لأنَّ إرادته قديمة لا تتغيَّر"[3]، فلذلك لم يجِئَ التركيبُ بالاستثناء منه؛ لكون الإرادة الكونيةِ من اللّه هي التي يلزمُ منها وقوعُ ما أراده اللّه، فما تعلَّقت به إرادتُه سبحانه لا بدَّ وأن يقع، وأمّا تركيب قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾؛ فقد اقتضى معناه وقوع الاستثناء منه؛ لأنَّه مُتَّجِهٌ إلى إبْطَالِ ما اعتادتْ عليه الطبائع في التماس دفع الضرر بوسائط المخلوقين، فاستحضار الوسائط في النَّظم اقتضى الاستثناءَ، وحسَّنَ موقِعَه.

سرُّ الإضافةِ في: ﴿لِفَضۡلِهِۦۚ﴾:

فضلُ اللهِ عظيمٌ واسِعٌ لا يَضيقُ عن سائِل

إضافة الفضل إلى ضمير الجلالة في قوله: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ تعريفٌ للفضلِ وإعظامٌ له، إذِ المضافُ يأخذُ من معنى ما أضيفَ إليه ووصفِه، وضمير الجلالة عائد إلى ذاتِ الجليل العظيم ﷻ، فكذلك فضلُه لا يكون إلّا كذلك، وإضافة الفضل إلى ضَمِيرِ الجلالة

(1) الشهاب، عِنايةُ القاضي وكِفايةُ الراضي على تفسير البَيضَاوي: 5/65، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/582، والآلوسي، روح المعاني: 6/187.
(2) الشهاب، عِنايةُ القاضي وكِفَايةُ الراضي: 5/65، والآلوسي، روح المعاني: 6/187.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/113.

مؤكِّدٌ لمضمون النفي في قوله: ﴿فَلَا رَآدَّ﴾؛ لأنَّ الفضلَ المنسوبَ للّه هو شيءٌ منيعٌ عظيمٌ في نفسِه، ولذا فهو عَصِيٌّ على مَنْ يُحاولُ ردَّه.

بلاغةُ الإظهار بالتصريح بلفظ الفضل في مقام الإضمار:

لو اطَّرد النَّظْم في سياقه؛ لقيل: (وإنْ يُردك بخيرٍ؛ فلا رادَّ له) بعوْد الضمير على الخير، ولكنَّه عدل عن الإضمار، وأظْهرَ بالتصريح بلفظ الفضل، فقال: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾، وفي هذا الإظهار ثلاثُ نِكات:

اللهُ يَجودُ بالخير تفضُّلًا على عبيده لا عن استحقاقٍ لهم به

الأولى: تقرير وصفٍ للخير المذكور، حيث سمّاه فضلًا، وعبَّر عنه بذلك، وفي هذا التعبير مَدْحٌ للخير المذكور وتزكيةٌ له، فهو خيرٌ عالٍ في رُتْبَته؛ لأنَّه ممدوحٌ بالأفضليَّة.

الثانية: تقرير أنَّ الخير المذكور في قوله: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ﴾ ليس عن استحقاق، بل عن محضِ فضْل من اللّه الوهّاب.

الثالثة: الإظهارُ لأجل التمكُّن من إضافة اللفظ إلى ضمير الجلالة؛ لأنَّه لو أضمر؛ لقال: (فلا رادَّ له)، فلم يُضَفْ للّه، فكان لا بدَّ من مجيء المُظْهَر لإسناده إلى ضمير الجلالة؛ لتقرير أنَّ هذا الخير ليس ممّا يَتوهَّمُه الإنسان خيرًا، وهو ليس كذلك في نفْسه، بل هو خيرٌ مقطوعٌ بخيريَّته؛ لأنَّه مُضافٌ بأمدحِ أوصافه إلى اللّه الجليل(1).

نكتةُ الفصل في: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾:

كلٌّ من النَّفْع أو الضَّرر مكتوبٌ قد شاءَه الله

جملة: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ استئنافٌ بياني لِمَا قبله، كأنَّه قيل: فأيُّ العبادِ يَحصلُ له الضرُّ، أو يُرادُ به الخير؟ فأجيب: (يُصيبُ به ما يشاء من عباده) أي: بكلِّ واحدٍ من الضرِّ والخير يُصيبُ به من يشاء من عباده، ولمّا امْتَنَعَ اقْتِرَانُ الاستئناف البياني مُمتنَعًا اقترانُه بالواو؛ فُصِلَتْ تلك الجملة ممّا قبلها(2).

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/180، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3646.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/306، وصافي، الجدول: 11/208.

غرضُ التَّعبير بالإصابة مادَّةً وصيغةً:

عبَّر بالإصابة في قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾، ولم يقل: (يَمسّ به)، أو (يُريد به)؛ ليدلَّ على أنَّ غاية المَسِّ والإرادة المذكورتَين في الضرِّ والخير هو إصابة العبد بهما على جهة الحقيقةِ والوقوع، وفيه إيذانٌ بلازِمه، وهو أنَّ الإنسان لا ينفكُّ أبدًا عن الإصابة بالضرِّ أو بالخير، ولذا عبَّر بصيغة المضارع ﴿يُصِيبُ﴾؛ ليدلَّ على استمرار امتحانه بالضرِّ والخير، وأنَّهما حالان لا بدَّ أنْ يُصابَ بهما، ويتناوبا عليه حتى يَقْضي[1].

لا مَهْرَبَ للإنسانِ من قَدَرِ الله، هو بقدَرِ الله وُلِدَ ويَحيا ويموت

معنى الباء في ﴿بِهِۦ﴾ وعود الضَّمير:

الباء في قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ للتعدية، ويصحُّ أن تكون للاستعانة؛ لدخولها على ما في معنى الآلة، فكأنَّ مجرورها هو آلةُ الإصابةِ وأداتُها، ومرجِع الضمير يعود على مضمونِ معنى كلٍّ من الضرِّ والخير، وهو: المُقدَّر، والمعنى: يُصيبُ بالمُقَدَّر من الضرِّ والخير من يشاء، فهو عائد عليهما بتوزيع الضمير على كلِّ واحدٍ منهما، أي: يُصيب بواحدِ الضرِّ وواحدِ الخير من يشاء، ولا يُقال: إنَّه عائدٌ على أقرب مذكور، وهو الخير في قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾؛ لأنَّ الخبَرَ واردٌ في الضرِّ والخير معًا، والله يُصيبُ العباد بكليهما، فوجَبَ عوْدُ الضمير على مضمونِ معناهما معًا لا على لفظيهما؛ لأنَّ الضمير مفرد، ولا يُقال: إنَّه يعود على الخير، والإخبار عنه كالإخبار عن مُقابِله، إذِ الخير يدلُّ على نظيره من الضرِّ، فإنَّه وإنْ صحَّ ذلك في أصله، لم يصحَّ في رجحانِه؛ لأنَّه سيُحتاجُ معه إلى تقديرِ نظيره المحذوف في الذِّهن، وما يتأتّى من غير تقدير أولى وأحسن من إجرائه على التقدير[2].

يَتَسَلّى المؤمِنُ بأنَّ كلَّ حالٍ تُصيبُه هي من الله فلا يجزع

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صوب).

(2) الواحدي، البسيط: 11/335.

العبدُ هو محلُّ عنايةِ اللهِ فيما يقدِّره له

نكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

قدَّمَ الجار والجرور ﴿بِهِۦ﴾ في قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، ولم يقل: (يُصيبُ من يشاءُ به)، تقديمًا للحالِّ على المَحلِّ، فالمُقدَّر النازل من الضرِّ أو الخير هو الذي يَحِلُّ بعد تعلُّق المشيئةِ بإيصاله لمحلِّه الذي هو العبد، فالمُقدَّر النازل هو المقصود بالإيصال أولًا قبل العبد، فالمشيئة تتعلَّق به أولًا، ولكونه أيضًا هو المُبتَغَى خيرًا والمحذور ضُرًّا، ولذا تقدَّم لفظُه من الجار والمجرور ﴿بِهِۦ﴾؛ لتخصيصِه وكمال العناية به، وتوفُّر المقاصدِ عليه(1).

يُجري اللهُ أقداره على أساسِ حكمتِه وعِلمه وإرادته

فائدةُ مَجيءِ ﴿مَن﴾:

جاء التعبير بـ ﴿مَن﴾ في النَّظم الكريم في قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾؛ للدلالة على الإبهام والعموم الذي يدلُّ على الإنسانِ عمومًا دون تحديدٍ لجنسِه، أو تعيينٍ لشَخْصِه، أو تنصيصٍ عليه، ذلك أنَّ ﴿مَن﴾ موصولٌ مشتركٌ غير خاصٍّ، يُستعمل في الأفراد والجموع والذُّكور والإناثِ، ولذا فالإتيانُ به يفيدُ تعميمَ حيِّز الإصابةِ المذكورة، وأنَّ الضرَّ والخير مُقَدَّرانِ في كلِّ الناس، والغرض من ذلك: إفادة أنَّه لا فئةَ في الناس أولى من فئة أخرى في الإصابة بهما، فهما من سُنَنِ الأقدار التي يُجريها اللّه في خلقِه لا لِمفاضَلَةٍ بين فئةٍ وأختها، بأنْ يكون الضرُّ مثلًا للعاصي والكافر، والخير للمؤمن والطّائع، لا على أساس ذلك، بل على أساس حِكْمَتِه العامَّة التي تستغرقُ عمومَ عبادِه(2).

مشيئةُ اللهِ جاريةٌ على معنى العدل والفضل لا تخرج عنهما

سرُّ مجيءِ صلة الموصول: ﴿يَشَآءُ﴾ بمادَّتها وصيغتها:

جاءتْ صِلةُ الموصولِ بفعل المشيئةِ في قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾؛ ليؤكِّد ما في الموصول ﴿مَن﴾ مِن معنى العموم، ووجه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/180.

(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/129.

ذلك: التنبيهُ على كوْنِ الإصابة المذكورة حاصلةً بمشيئتِه، فهي سببُ الإصابة، وهي من صفاتِ اللّه الفعلية، فاللّه خالقُ كلِّ شيء، وربُّه، ومليكُه؛ ولا يكون خالقًا إلّا بقدرته ومشيئته، وليس في الوجود موجِبٌ، ومقتضٍ إلا مَشيئَةُ اللّه وحده؛ ولذا تقع في عموم الخلْق دون مُفاضَلةٍ أو تعيين[1]، وأفاد التَّعبير عنها بالمضارع أنَّها من صفات الأفعال، وترتبط بتجدُّدها وحدوثها.

لا يخرجُ العبادُ عن مشيئةِ ربِّهم

معنى ﴿مِنۡ﴾:

﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ بيانيَّة، وهي تُجلّي الإبهام الذي اشتمل عليه الاسم الموصول ﴿مَن﴾، فإذا حَارَ السامعُ بأيِّ شيءٍ تعلَّقتْ مشيئةُ الإصابةِ المذكورة؟ فيُبيَّنُ هذا بقوله: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾، وهذا الأسلوب من التركيب: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ أزالَ الإبهامَ في الموصول، لكنَّه أكَّد عمومَه، ولم يرفَعْهُ؛ لأنَّ (العباد) لفظٌ عام.

وما تشاؤون إلا أنْ يشاء اللهُ ربُّ العالمين

نكتةُ إضافة العباد إلى ضمير العظمة:

إضافة العباد إلى ضميرِ العظَمَةِ في قوله: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ في معنى التعليلِ؛ لتقديرِ الإصابة المذكورة، أي: لِأنَّهم عبادٌ مُضافون إليه مَنسوبون إلَيهِ، فهم خالِصون له، مُختَصّون به، فيفعل بهم ما يشاءُ، ولا يُسألُ عمّا يفعل؛ لاختصاصه - جلَّ في علاه - بالحجَّة البالغة والحِكمةِ التامَّة، فالإضافةُ إلَى ضَمِيرِ الجلالة للتَّخصيص[2].

أفلَحَ مَنْ عاشَ في كَنَفِ رحمةِ اللهِ ومغفرتِه

موقِعُ جملةِ التّذييل:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، وهو تذييلٌ مُبَيِّنٌ لكون الإصابةِ بالضرِّ والخير صادرةً عنْ مغفرةٍ ورحمة، فلولا غفرانُه ورحمتُه؛ لأهلَكَهم بالضرِّ، ولم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/180.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/117.

يكشِفُه عنهم، ففَضحهم وما سَتَرهم، وعذَّبَهم به، فلم يرحمْهم بإزالتِه عنهم، ولولا غفرانُ اللّه ورحمته لما كانوا أهلًا لإنزالِ الخير عليهم[1]، ولا مانع من أن تكون الواو للحال على معنى: يفعلُ ما يفعلُ، والحالُ أنَّه الغفور الرَّحيم.

نكتةُ القَصْر بتعريف طرفَيِ الإسناد:

كمالُ اللهِ في صِفاتِه أحوجَ العبادَ إلى عبوديَّتِه

جاء قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بتعريف الطرفين (المسند إليه والمسند)؛ لإفادة اختصاصِ المسنَد إليه بحكْمِ المسْنَد على جهة الكمال في الوصف، فهو سبحانه الغفور تامُّ المغفرة، والرحيم كامل الرحمة[2].

فائدة التَّذييل بهذيْن الاسميْن الجليليْن: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

اللهُ غفورٌ يكشِفُ الضرَّ، ورحيمٌ يُعوِّضُ بالخير

نُكتةُ التذييلِ بهذين الاسمين الشريفين: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ - دون غيرِهما من أسماء اللّه الحُسنى - مُراعاةٌ لِمُناسبةِ المقام، فإنَّ الضُّرَّ إذا استبدَّ بالعبد؛ فضَحه، فإذا تولّاه ربُّه بكشْفِ الضرِّ؛ فقد ستَرَه من عَوَزِ الضرِّ وفاقتِه، والسَّتر يُناسبُ اسم الغفور، الذي ينبئُ عن نوعِ مبالغةٍ لا ينبئ عنها اسم (الغفار)؛ فوزنُ (فَعُول) ينبئُ عن جودةِ الفعل، وكماله، وشموله، فهو بمعنى تامِّ المغفرة، فإذا أصاب اللّه عبدَه بالخير بعد انكشاف الضرِّ؛ فقد عوَّضَه بعد الضرِّ خيرًا، وهذا من تمام الرحمة بعد المغفرة والسَّتر، فناسبَ إتباعَ اسم اللّه الرحيم، الدالِّ على الرحمةِ الواسعة للمؤمنين، ويظهرُ من هذا أيضًا سببُ تقديم ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾.

الفُروقُ المُعجَمِيَّة:

الإرادة والمشيئة:

الإرادة احتمالية، والمشيئة قطعيَّة

المشيئة في الأصل: إيجادُ الشيءِ وإصابتُه، فهي تقتضي وجودَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/219، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/307، وصافي، الجدول: 11/209، ودرويش، إعراب القرآن: 4/307.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/219.

الشيء، فإذا شاء الله أمرًا؛ أوجَدَه لا مَحالة، والإرادة في الأصل: قوَّة النُّزوع والقصْد، المركَّبةُ في النَّفْسِ نحوَ الشيءِ مع الحُكم فيه بأنَّه ينبغي أن يُفعَل، أو لا يُفعَل، وإذا استُعمِلتْ في حقِّ اللّه؛ فالمرادُ بها حُكْمُه تعالى في الأمور أنَّها كذا، وليستْ بكذا، ولا يُرادُ بها النُّزوع؛ إذْ هو سبحانه متنزِّهٌ عن ذلك. فالإرادة أعمُّ من المشيئة من حيث التحقُّق والنَّفاذ، فالإرادة قد يراد بها التحقُّق، فيجب أن تقع، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ [الرعد: 11]، وقد يراد بها الحكم والأمر مع احتمال عدم وقوعها، كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185] أي: يأمر باليسر، ولا يأمر بالعسر، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾ [النساء: 28]، أي: حكَمَ بالتخفيف، لكن لا يلزم إنفاذها، وأمّا المشيئةُ؛ فهي أخصُّ، وهي جارية في الواقع النَّافِذ الحاصلِ وجوبًا، ولذا عُلِّقَتْ عليها مشيئاتُ الخلق، قال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: 30]، ولذا عبَّر هنا بقوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ بالمشيئةِ دون الإرادة؛ لأنَّ الإرادة احتمالية، والمشيئة قطعيَّة، ولو قال هنا: (يُصيبُ به مَنْ يُريد)؛ لكان غير مناسبٍ لقوله: ﴿يُصِيبُ﴾، لأنَّ الإصابة هي وقوع الشيء المقدور، فعلَّقه على ما يفيد الوقوع قطعًا، وهو فِعل المشيئة، ومن الفرق بينهما: أنَّ إرادةَ الإنسانِ قد تحصُل من غيرِ أن تتقدَّمها إرادةُ اللّه، فإنَّ الإنسان قد يريد ألّا يموتَ، ويأبى اللّه ذلك، وأمّا مشيئةُ الإنسان؛ فلا تكون إلّا بعد مشيئتِه تعالى[1].

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شيأ، رود)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (شيأ، ريد).

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ١٠٨﴾ [يونس: 108]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لا ينفع اللهَ طائعٌ، ولا يَضُرُّه عاصٍ

لمّا أوحَى الله في السّورةِ ما أوحَى من البلاغِ والموعظةِ والتكاليف والقصص؛ ختمَ ذلك بخلاصةِ البيان، وفصلِ الخِطاب، وهو أنَّ فائدةَ طاعةِ الحقِّ الذي جاءهم ليستْ راجعةً إلّا إليهم، وضررَ الإعراضِ ليس عائدًا إلّا عليهم(1).

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿بِوَكِيلٍ﴾: الوكيلُ مِن وَكَلَ: وهو أصلٌ يدلُّ على الاعتمادِ على غيرِك في أمْرِك، ومن ذلك: الوكيلُ الفاعِل الذي يَتوكَّل، والوكيل المفعول المتوكَّل عليه، وليس شرطًا أن يكون التوكُّل عن ضعفٍ وعجزٍ في المتوكِّل؛ لأنَّه مُطلَقُ إنابةِ غيرِك عنك ليقومَ مقامَك، والمراد هنا: وما أنا بموكَّلٍ بكم حتى أجْبِركم على الإيمان(2).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أوامرُ الله تعالى هاديةٌ إلى سواء السَّبيل، وداعيةٌ إلى الخير مبيِّنةٌ طريقَيِ الهداية والغَواية

يأمُرُ الله نبيَّه ﷺ أنْ يقول للنّاسِ جميعًا: قد جاءكم الحقُّ من ربِّكم: الرَّسولُ، والقرآنُ، فمن اهتدى بالحقِّ اتِّباعًا وطاعةً؛ فنفْعُ عملِه له، ومن أعرضَ عن الحقِّ، وأصرَّ على الضلال؛ فضَرَرُ ضلالِه على نفْسِه، وما أنا موكَّلٌ بكم حتى تكونوا مؤمنين، فما عليَّ إلّا بلاغُ ما أُرسِلْتُ به(3).

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/219.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (وكل).

(3) مجمّع الملك فهد، التفسير الميسّر، ص: 221.

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى أنَّ الله تعالى أنزل إلى الناسِ هذا القرآنَ فيه الخبرُ الصادقُ المؤيَّدُ بالبراهين، الذي لا شكَّ فيه بوجهٍ من الوجوه، وفيه تبيانٌ لكل شيء، وفيه من أنواع الأحكامِ والمطالبِ الإلهية والأخلاقِ المَرْضية، ما فيه أعظمُ تربيةٍ لكم، وإحسانٍ منه إليكم، فقد تبيَّن الرشدُ من الغيِّ، ولم يبقَ لأحد شبهةٌ، وتقرِّرُ الآية الكريمةُ أنَّ المرءَ يسعدُ، ويشقى بكسبه، لا بكسبِ غيره[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ الفصلِ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا﴾:

تُشْفَعُ الرسالات التفصيليَّة بالبيانات المُلَخِّصَة لغرضِها

قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ يُقرِّرُ مضمونَ ما مضى في السّورةِ كلِّها من استدلالاتٍ ومُجادلاتٍ وقَصَصٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، فأتَمَّ مضامينَ السورة، ثم ابتدأ بتقريرِ أنَّ ما سبق حقٌّ وهدًى واجبُ الاتِّباع، فالجملة تعقيبٌ مَسوقٌ مَساقَ التقاريرِ المُستقلَّة التي تَتْبَعُ الأخبار، وهي جاريةٌ مجرى الخُلاصة التي تُفْرَدُ بعد التفصيل، ولذلك فُصِلَتْ لكونها في معنى البيانِ الذي تُشْفَعُ به البلاغاتُ والرِّسالات[2].

فائدة التَّعبير بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾ ودلالته:

رسولُ اللهِ بلَّغَ الكتابَ، كما نزَل، لم يتصرَّف في حرفٍ فيه

صُدِّرَتِ الآيةُ بفعل الأمرِ ﴿قُلۡ﴾؛ لتنزيل الجُملةِ مَنْزلةَ البلاغ الذي يُوَصَّلُ، كما صَدَر مِنْ جِهَتِه؛ لزيادةِ العنايةِ بمضمونه، ولإعطائِهِ وَسْمَ العِباراتِ الخاصَّة التي تدلُّ بمنطوقها على أنَّ مُبلِّغَها تَلقّاها من جهةٍ أعلى، وليستْ مَقولةً مِنْ عِنْديّاتِ نفْسِه[3].

سِرُّ مجيء التركيب على أسلوب الإنشاء الطلبي:

لم يقل في السياق الكريم: (قُل للنّاس قد جاءكم الحقُّ من

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 221، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/517.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/308، وصافي، الجدول: 11/210.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/308.

في نداءاتِ اللهِ على النّاس إيذانٌ بمقامِ النّاسِ عنده

ربِّكم)، بل جاء بأسلوبِ النِّداء لِتضمينِ الخبر الذي سيُتْلى عليهم معنى الإنشاءِ؛ لأنَّ النِّداء إنشاءٌ طلبيٌّ بما استوجبه من معنى طلَبِ الإقبال، فإذا كان الطلبُ المذكور لأجْل الإخبار بما له تعلُّقٌ بالأحكام التكليفيَّة، كان النداءُ حينئذٍ إنشاءً طلبيًّا اقترن بما يستلزِم تكليفًا، والتكليفُ إمّا أمرٌ أو نهي، وذلك إنشاء، فكانتِ الجملة الخبرية: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ الواقِعةُ جوابًا للنداء مُتضمِّنَةً معنى الإنشاء، أي: اتَّبِعوا الحقَّ من ربكم، واهتَدُوا، ولا تَضِلّوا.

معنى ﴿قَدۡ﴾ ودلالة دخولها على الفعل الماضي:

الحقُّ ثابتٌ في نفْسِه لا يُوهِنُه زَيْغُ مُرتابٍ ولا كَيْدُ كَفور

اقترنتْ جملة جوابِ النداء بحرف التحقيق ﴿قَدۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾، لإفادة أمرين:

الأوَّل: تحقيقُ الحقِّ في ذاته، وأنَّه حَقُّ اليقينِ لا ريبَ فيه.

الثاني: تحقيقُ مَجيءِ الحقِّ إليهم، وإبلاغِه لهم، وعِرفانِهم به، وعدم خفائِه عليهم، وفي هذا تسجيلٌ عليهم بالحُجَّةِ، وقطْعٌ لأعذارهم في الرَّفْضِ وعدمِ الإيمان(1).

دلالةُ (ال) في ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

الحقُّ لا يكون إلّا كامِلًا

(الـ) في لفظ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ من قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ لِبيان الحقيقةِ والماهية، وهي لاستغراقِ صفاتِ الجنس وخصائصِه، ولذا فهي تفيد الدلالة على الكمال، أي: قد جاءكم من اللّه الحقُّ الكامل الذي لا نقصَ يشوبه، ولا شُبْهةَ تعتريه(2).

بلاغة المجاز في إسناد المجيء إلى الحقِّ:

سُمّي الرسولُ والقرآنُ بالحقِّ؛ لأنَّهما واسِطَتا إظهارِه

في إسناد المجيء إلى الحقِّ في قوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ أكثر من توجيه بيانيٍّ، فيمكن أن تُحمل على الاستعارةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/308، وصافي، الجدول: 11/210.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/220.

التَّصريحيَّة، حيثُ شبَّه مجيء الرسول ﷺ إليهم بمجيء الحقِّ ذاتِه، بجامع المطابقةِ للواقع في كلٍّ وصدقِ الرسول ﷺ في نفسِه، ويمكن أن يكون في إسناد المجيء إلَى الحَقِّ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ فاعل المجيء هو الرسول، وليس الحقَّ ذاتَهُ، ويصحُّ إجراؤهُ مجازًا مرسلًا علاقته المُسبَّبيَّة، حيث عبَّر بالمُسبَّبِ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾، وأراد السَّبَبَ، وهو الرسول ﷺ؛ لأنَّه سبَبُ الحقِّ وواسطتُهُ[1].

دلالة ﴿مِن﴾:

لا يُعرَفُ الحقُّ إلّا بالله، ولا يكونُ إلا منه

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ حرفُ ابتداءٍ، وهو ومدخولُه نَصٌّ في تعيينِ المصدرِ والجِهةِ التي ابْتُدِئَ منها مجيء الحقِّ، وابتداء الغاية هنا مجازيٌّ، وفي معنى هذا الحرفِ نُكتةٌ جليلة: وهي الإشارة إلى أنَّ الحقَّ لا يكون إلّا من اللّه الجليل[2].

فائدةُ التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة، وغرض إضافته:

كلُّ ما أضيفَ إليه وصفُ الرُّبوبيَّة أُريدَ به الإحسان

عبَّر بلفظ الرُّبوبيَّة وأضافه إلَى ضَمِيرِ النّاس في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ لغرضين:

الأول: أنَّه لو عبَّر بغير وصف الربوبيةِ؛ لكان في غير موقع الإضافة، كما لو قيل: قد جاءكم الحقُّ من اللّه أو من العزيز أو الرحمن أو غيرها من أسماء اللّه تعالى لم يُضَف، فلمّا كانت الإضافة إلى ضَمِيرِ المخاطبين مقصودةً؛ جاء بلفظٍ عريقٍ في الإضافة.

الثاني: أنَّ اصطفاء التعبير بالربوبية دونَ غيره لِكونِ مجيءِ الحقِّ إليهم ممّا يُصلِحُهم، وينفعهم، ويُقِيمُ أحوالهم وشؤونهم على السياسةِ السليمة والتدابير المستقيمة، والسّيادةُ، وَالقِوَامَةُ،

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/583.

(2) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/276، وابن عادل، اللباب: 10/424.

والإصلاحُ من شؤون الربوبيَّة الكاملة، فعبَّر بِأَنْسَبِ ما يوافِقُ المعنى، ويُلائِمُ السّياقَ الجليل[1].

النّاسُ إمّا بائعٌ نفسَه للهُدى أو للهوى

موقع جملة ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾:

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ معطوفةٌ على جملة جواب النداء: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ﴾، وهي مُسَبَّبَةٌ عنها مُفرَّعَةٌ عليها، أي: إذا جاءكم الحقُّ؛ فتسبَّبَ عن ذلك هدايةُ الطائع وضلال العاصي فكذا، فالوصل بالفاء إشارة إلى ترتُّبها على ما قبلها، وهي في معنى التفصيل، أي: النّاس بعد مجيء الحقِّ فَريقان: مهتدٍ أو ضالٌّ، أو هي الفصيحة، فمدخولها معطوفٌ على شرطٍ مُقدَّرٍ هو جوابُه، أي: إذا كان ذلك كذلك؛ فمن اهتدى؛ فإنَّما يهتدي لنفسه[2].

كلٌّ مرهونٌ بما كَسَب

دلالة ﴿فَمَنِ﴾:

﴿فَمَنِ﴾ في قوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ شرطيَّة أو موصوليَّة، فباعتبارها شرطيَّة، فالفاء في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي﴾ واقعة في جواب الشرطِ، وهي الرَّابطةُ للجزاءِ بالشرط، وباعتبارها اسم موصول، فالفاء لِعطْفِ مدخولها ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي﴾ على صِلةِ الموصول ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾، أو أنَّ الفاء تعقيبيَّة لإلحاقِ مدخولها ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي﴾ بجملةِ الجزاء، لِشبَهِها بها، لكون الموصولِ مُضمَّنًا معنى الشرط، وباعتبارها عاطفة تكون جملة ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي﴾ متَّصلة مع ما قبلها لتمامِ المناسبةِ واتِّصال المعنى[3].

يَـزدادُ الإنسانُ مِـنْ جـنْـسِ ما تلبَّسَ به

معنى الفاء في: ﴿فَإِنَّمَا﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ تُشيرُ إلى كونِ الشرطِ، وهو قوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ سببًا للجزاء المذكور، فالفاء سببيَّة[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/308.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/583، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/308، ودرويش، إعراب القرآن: 4/308.

(3) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/276، ودرويش، إعراب القرآن: 4/308، والخطيب، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 6/261.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/583.

بلاغة القصر في: ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾:

(إنّما) لفظٌ يفيد المبالغة والتأكيد، وينضمُّ إليه - هنا - إفادة معنى القصْر، أي: لا يَنْفَع المهتدي إلّا نفسَه، ولا يَقعُ ضررُ الضالِّ إلّا على نفسِه، وغرضُ مجيء التركيبِ على طريقةِ القَصر قطعُ توهُّم الكافرين أنَّهم بإيمانِهم يَمُنّونَ على الرسولِ والمؤمنين، أو أنَّهم بِكفْرِهم يَضُرّون الرَّسولَ أو أتباعَه بإضعافِهم أو إغاظَتِهم[1]، وهو من قصر الصِّفة على الموصوف.

لا يَقعُ ضررُ الضالِّ إلّا على نفْسِه

فائدة التَّعبير بالمضارع في: ﴿يَهۡتَدِي﴾:

لم يطَّرِد السِّياقُ مع صيغة الماضي في فعل الشرط، فلم يقل: (فمن اهتدى فقد اهتدى لنفسِه)، بل جاءَ التعبيرُ بصيغة المضارع في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾؛ للمُغايرةِ بين معنى الهدايتين، فالهداية الأولى هدايةُ الدُّخولِ في الإسلام بالإقرارِ والاعتراف، والهداية الثانية هدايةُ الاستمرار على ذلك وتَجديدِ استحداثِ العمَلِ والتَّقوى المُصَدِّقَةِ للاهتداء، فقوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ هو أصل الهُدى المُحقَّق، ولذا عبَّر عنه بالماضي لتحقُّقه ووقوعه، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي﴾ هو زيادةُ الهُدى ولذا عبَّر عنه بالمضارع؛ لأنَّ الاستزادة متجدِّدة، كنحوِ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد ﷺ: 17].

الإيمانُ كشجرةٍ أصلها ثابتٌ إنْ لمْ تُسْقَ لم يكن لها ثَمَرٌ

معنى اللّام في: ﴿لِنَفۡسِهِۦۖ﴾:

أفاد حرفُ الاختصاص اللام في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ معنى المِلْك والاستحقاق، كأنَّه قال: الهُدى له، كما يُقال: الغلامُ له والعبدُ له، أو اللام للتعليل، أي: يهتدي لأجلِ نفسِه أي: لِنَفْعِها، أو للعاقبة والصيرورة باعتبار أنَّ نَفْعَ النَّفسِ بالهدى أو إضرارها بالضلال قد لا يكون غرضًا للفاعل وهو المُهتدي أو الضالُّ، فيكون النَّفع أو الإضرار مُترتِّبًا عن فعل الفاعل لا مُعلَّلًا به[2].

يَحصدُ العبدُ عاقبةَ ما يفعله، قَصَدَهُ أم لم يقصِده

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/500، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/309.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 10/6261، والخضري، من أسرار حروف الجر، ص: 217، 259.

موقعُ جملة: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾، وغرضُ الوصل بالواو: استِتْمامُ التفصيلِ في أحوال النّاس بعد مجيء الحقِّ إليهم، فذكَر حالَ المهتدين وما يُقابِلهم من صِنْفِ الضّالّين[1].

ما أقربَ الشّيءَ مِنْ ضِدِّه في اللفظ! وما أبعدَه عنه في المعنى!

معنى (على):

(على) في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ للاستعلاء المجازي، وفي التعبير بـ (على) في جانب الضلال تصويرُ معنى الخصومة بين الضالِّ ونفْسِه، كأنَّه بضلالِه قد استعلى على نفْسِه بالخصومةِ فأوْبَقَها، وأرداها بضلاله، فكان بذلك عليها، وهي تحتَه مهزومةٌ مقهورة[2].

الضّالُّ ساعٍ في إهلاكِ نفْسِه بِسوءِ عمَلِه

بلاغةُ الطباق والمقابلة:

بين قوله: ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾ و﴿ضَلَّ﴾، وقوله: ﴿يَهۡتَدِي﴾ مع ﴿يَضِلُّ﴾، وقوله: ﴿لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ مع ﴿عَلَيۡهَاۖ﴾ طِباقٌ سِيقَ لِلمُفاصَلةِ والمُفاضَلة بين الحال وضدِّه، لِتَتَمايَزَ الأحوالُ وعواقِبُها بين الفريقين، فبالأضدادِ تتمايزُ الأشياءُ، ونكتةُ سَوْقِ الكلامِ على أسلوب الطّباق: استيفاء البيان وإقامةُ الحجَّة التي تقطع الأعذار بأخصر عبارةٍ، وأتمِّ توصيف، وبين مجموع التركيب في قوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ مع تركيب ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ مُقابلةٌ بديعة تَصوغُ التركيبين مَصاغَ الأمثال السّائرة والقوانين المُطَّردةِ المُحكَمَة[3].

تَتَمايَزُ الأشياءُ بأضدادِها

معنى الواو في: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾:

جملة: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ معطوفةٌ على جملة جواب النِّداء: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾، والعطفُ لإتمام التفريع الحاصل في جملتَي التفصيل: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ و﴿مَّن ضَلَّ﴾؛ "لأنَّه إذا كان اهتداءُ

الرسولُ ناصِحٌ ومُبَلِّغٌ لا ضامِن ولا وكيل

(1) صافي، الجدول: 11/210.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 10/6261.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/147.

المهتدي لنفسِه، وضلالُ الضالِّ على نفسِه؛ تحقَّقَ أنَّ النبيَّ ﷺ غيرُ مأمورٍ من اللّه بأكثرَ من التبليغ، وأنَّه لا نفعَ لنفسِه في اهتدائِهم، ولا يَضرُّه ضلالهم"[1]، ويصحُّ توجيهُ الواوِ إلى معنى الاستئناف، باعتبار أنَّ جملة: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ تأسيسٌ لبيانِ وظيفةِ الرسولِ فيهم، وأنَّها مُحدَّدَةٌ في النُّصحِ والتبليغ، فليس وكيلًا عنهم أو ضامنًا لهم[2]، كما أنَّه لا مانع من صرفها على الحال، والمعنى: والحالُ في ذلك كلِّه أنّي لست عليكم بوكيل.

فائدة التَّعبير بالجملة الاسميَّة الَّتي تقدَّم النَّفي فيها:

كلُّ مسؤولٌ عن نفسِه، فلا تُغْني نفسٌ عن نفْسٍ شيئًا

أفاد التعبيرُ بالجملة الاسميَّة المنفيَّة في قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ دوامَ الحكْم المنفيِّ المذكور، وهو نفيُ وكالته ﷺ عنهم في أمر الاهتداء أو الضَّلال، فهم مالِكون لأمْرِهم مُختارون لِما يَتحمَّلون عاقِبتَه وحدهم[3]، وفي تقديم النَّفي على المسند إليه والمسند الفعليِّ ما يُعطي معنى التَّخصيص، أي: لستُ أنا وكيلًا عليكم، لكنَّ غيري قد يتولّاكم بذلك.

نكتةُ تقديم شبه الجملة: ﴿عَلَيۡكُم﴾:

تقديمُ ما حقُّه التـأخيرُ يكون لتخصيصِه أو قصْرِه

تقديمُ قوله: ﴿عَلَيۡكُم﴾ على قوله: ﴿بِوَكِيلٖ﴾، ولم يقل: (وما أنا بوكيلٍ عليكم) لِغرضين:

الأوَّل: تقديمُ ما دارَ حوله المقصود على ماهو تَبَعٌ له، فلمّا كان الحكْمُ مَسوقًا أصالةً لنفيِ تصرُّفِه ﷺ في شأنِ اهتدائهم أو عدَمِه؛ قدَّم ضميرَ الناس؛ لأنَّ عائِدَ الحكْم مُتعلِّقٌ بهم.

الثاني: تقديمُ ما هو أثْقَلُ في الفاصلة؛ لِيُخْتَم بما هو أخفُّ وأليَقُ بموقِع الحرفِ والصَّوت، فلو قال: (وما أنا بوكيلٍ عليكم)؛ لكانَ التعبيرُ قَلِقًا في الفاصلة، غيرَ قارٍّ فيها ولا مَكين[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/309.
(2) صافي، الجدول: 11/210.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/309.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/220.

معنى الباء في: ﴿بِوَكِيلٍ﴾:

لا اختصاص لأحدٍ بوكالة الرسول عنه

الباء في قوله: ﴿بِوَكِيلٍ﴾ للتأكيد، وهي تفيد استغراق النَّفي لِما في حيِّزِه مِنْ حُكْم، أي: وما أنا عليكم بوكيلٍ أدنَى وِكالةٍ[1].

دلالة التَّعبير بـ ﴿بِوَكِيلٍ﴾ مادّة وبناءً:

الوكيلُ في محلِّ مَن ينوب عنه في التَّصرُّف والضَّمان

اختيرَ التعبيرُ بلفظ: ﴿بِوَكِيلٍ﴾؛ للدلالة على معنى النيابة في الموكولِ إليه، ومعنى الاعتماديَّة في الموكولِ عنه، وجاءت على صيغة (فَعِيل) لإفادة المبالغة في معنى الوصف، و(فَعِيل) - هنا - يصحُّ إجراؤها على معنى (فاعِل)، أي: قائمٌ بالوكالة، أو على معنى (مفعول)، أي: موكولٌ إليه الأمر، ومجيئها على (فعيل) دون (فاعل) أو (مفعول)؛ للدَّلالة على ثبوتِ الصِّفةِ لصاحبها فكأنَّها سَجيَّةٌ له، وعلى اتصافِه بها بالفعلِ حالًا واستقبالًا، أي: الوصفُ قائمٌ بصاحبه، لا أنَّه سيتَّصِفُ به مستقبلًا مع إمكان عدم اتِّصافه به في الحال، وفي مجيء اللفظ على هذا الوزن إيماءٌ إلى أنَّ وصف الوكالة عليهم منفيٌّ عن الرسول ﷺ من جميع الوجوه، فلا هو وكيلٌ عنهم لا في الحال ولا في الاستقبال ولا على جهةِ الدوام ولا على جهة الاستمرار[2].

بلاغة الختم بـ ﴿بِوَكِيلٍ﴾:

التناسبُ مع معنى الآية وسياقها، والانسجامُ مع فواصل الآيات السابقة واللاحقة

خُتمت الآيةُ بكلمة ﴿بِوَكِيلٍ﴾؛ لأنَّها تُنَاسِبُ معنى الآية وسياقها، وتنسجم مع فواصل الآيات السابقة واللاحقة في سورة يونس عليه السلام.

فمن حيث المعنى: فكلمةُ ﴿بِوَكِيلٍ﴾ تعني الحافظَ والقائم بالأمر[3]، وهي صفةٌ من صفات الله تعالى، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢﴾ [النساء: 132]، ﴿وَقَالُواْ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3647.

(2) فاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص: 55.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (وكل).

﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: 173] وتدلُّ على علمه وقدرته وحكمته ورحمته. فاللّه هو الوكيلُ على كل شيء، وهو الذي يدبِّر أمورَ الخلقِ، ويقضي فيها بما يشاء، واللّه هو الوكيلُ على رسوله، الذي ينصره، ويعزِّزه ويحميه من الأعداء، واللّه هو الوكيلُ على المؤمنين، الذي يرزقُهم، ويغفرُ لهم، ويهديهم، ويصبِّرُهم، واللّه هو الوكيلُ على الكافرين الذي يضلُّهم، ويخزيهم، ويمهلهم، ويعاقبهم، فبذكر هذه الصفة في نهاية الآية، يتَّضحُ أنَّ اللّه هو المتولِّي لجميع الأمور، وأنَّه لا يحتاجُ إلى شريكٍ أو وسيط أو معين، وأنَّ الرسولَ ليس مسؤولًا عن هداية النَّاسِ أو ضَلالَتِهِم، بل هو بشيرٌ ونذير، وأنَّ اللّه هو الذي يهدي من يشاء، ويضلُّ من يشاء، وأنه هو الحسيبُ والمنتقم والشفيع والمولى.

ومن حيث السياقُ: فكلمةُ ﴿بِوَكِيلٍ﴾ تناسبُ موضوعَ السورة، وهو الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالرسول واليوم الآخر، والردُّ على الشرك والكفر، وبيان القصص والأحكام، ففي كلِّ هذه الموضوعات تتجلّى صفة اللّه تعالى بكونه وكيلًا لجميع الأمور، والمتولي لجميع الشؤون، والمدبِّر لجميع الأحوال.

ومن حيث الانسجامُ الصَّوتي: فكلمةُ ﴿بِوَكِيلٍ﴾ تنسجمُ مع فواصل الآيات السابقة واللاحقة في هذه السُّورة الكريمة التي ينتهي معظمُ فواصلها بحرفَي الميم والنون.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الوكيل والكفيل:

الوكيلُ هو الذي يَتولّى مُباشَرةَ أمْرٍ لغيرِه نيابةً عنه فيه، والكفيل: هو الذي يتحمَّل أمْرَ المكفولِ، ويَضْمَنُ القيامَ به.

الوكالةُ تبرُّعٌ، والكفالةُ إلزامٌ

والفرق بينهما: أنَّ الوكيلَ يقوم بالنيابةِ عن الموكِّل على جهةِ

التبرُّع لا الإلزام، أي: ليس مُلزمًا بإتمام الأمرِ إذا عجز عنه الموكِّل، وأمّا الكفيل؛ فهو ضامِنٌ للقيام بالشيء عن المكفول، ويلزمُه الإتمامُ عند عجز المكفول، أو يَلزمُه الاستمرار في كفالتِهِ حتّى يتحقَّقَ الغرض، ولذلك قالوا: الوكيل مؤتمَن، والكفيل ضامِن، والوكيل متبرِّع والكفيلُ مُلتَزِم، وعليه: فالوكيلُ أعمُّ، والكفيلُ أخصُّ، فليس كلُّ وكيلٍ كفيلًا، وكلُّ كفيلٍ وكيلٌ[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (كفل، وكل).

﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾ [يونس: 109]

لا يَضُرُّ العبدَ من ضلَّ؛ إنْ هو اهتدى

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا وعظَهُمُ اللّه في أنفسِهم بالاهتداء بالحقِّ الذي جاءهم وعدم الضلال عنه؛ خاطَبَ رسولَه ﷺ بما يجبُ عليه في خاصَّةِ نفْسِه، فأمره باتِّباع الحقِّ الذي أوحي إليه، اهتدى النّاس أم ضلُّوا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَحۡكُمَ﴾: مِنَ الحُكْم، وأصله: المنعُ للإصلاحِ ونفي الظُّلم، ومنه الحِكمة؛ لأنَّها تمنع من الجهلِ والسَّفَه، والمراد هنا: يَفصِلُ بينك ومَنِ اهتدى معك وبين مَنْ أعرضَ وضلَّ، بِغلَبَتِك عليهم وتأييده لك على من يُعاديك[2].

المَعنى الإجماليُّ:

القيامُ بالتكليفات الشرعية كلِّها، والصبرُ على مشاقِّها وصِعابها

اتَّبِع - أيُّها الرسول الكريم - ما يأتيك من الوحيِ بالامتثال والتَّبليغ، ولا تنشغل بمن ضلَّ، وحاد، ولكنِ اصبِرْ على طاعة اللّه تعالى، وعن معصيته، وعلى أذى المُكذِّبين لك، وعلى أذى مَن آذاك في تبليغ رسالة ربِّك، حتّى يأذَنَ اللّه لك بالظُّهور عليهم، ويحكمَ بدينونَتِهم لك، واعلم أنَّ اللّه هو خير الحاكمين، فأيقِنْ، ولا تستعجِل، واسْكُنْ، ولا تجزع؛ فإن حُكمَه تعالى مشتملٌ على العدلِ التامِّ[3].

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى اتِّباع الوحيِ الإلهيِّ الذي تضمَّنه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/220.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حكم).
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/126، والسيوطي، تفسير الجلالين: ص: 283، ومجمّع الملك فهد، التفسير الميسّر، ص: 221.

القرآنُ العزيز والسنة الصحيحة، وإلى فضيلة الصبرِ وانتظارِ الفَرَج من اللّه تعالى، وأنَّ عاقبتَه حميدة، وأنَّه لا يأتي إلّا بالخير؛ فقد امتثلَ رسولُ اللّه ﷺ أمرَ ربِّه، وثبَت على الصراطِ المستقيم، حتى أظهرَ اللّه دينَه على سائر الأديان، ونصرَه على أعدائه بالسَّيف والسِّنان، بعد ما نصره عليهم، بالحجَّة والبرهان، فلله الحمدُ، والثناءُ الحسن[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع جملة ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

الأنبياءُ مُحاسَبون يومَ يَسألُ اللهُ الصّادقين عن صِدقِهم

جملة: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ﴾ إمّا معطوفةٌ على قوله: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ﴾، فتكون داخِلةً في حيِّز مَقولِ القولِ الذي أُمِر ببلاغِه، والأحسن أنْ تكون مستأنَفةً ممّا قبلها لاستبعاد عطفِ الإنشاء: ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ على الخبر: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾، فهذه الجملةُ، وإنِ افتُتِحتْ بالإنشاء اللفظيِّ، وهو فعل الأمر ﴿قُلۡ﴾ وجملة النِّداء، إلّا أنَّ معناها خبريٌّ لا إنشائي؛ إذِ المقصود من فعل القول وأسلوب النداء التوسُّلُ إلى الخبر، وهو قوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾، فيكون قوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ مؤسِّسًا لمعنًى جديد، وهو تكليفُ النبيِّ ﷺ باتِّباع الوحي في جميع الأحوال سواء اهتَدَوا أم ضَلُّوا، وبعد مُفاصَلَتِه عنهم بصرْفِه عن أنْ يكون وكيلًا عنهم بحال، فكأنَّه يقول له: لستَ وكيلًا عليهم، فكُنْ وكيلًا عن نفسِك باتِّباعِك وعمَلِك، ولا تكترثْ بما عَمِلُوا من الهدى أو الضلال، فالكلامُ تأسيسٌ لحالٍ ثالثةٍ هي حال النبيِّ ﷺ بعد افتراق الناسِ لفريقين بعد بلاغِه لهم[2].

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 221، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/518.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/220، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/310، ودرويش، إعراب القرآن: 4/308.

دلالة الأمر في ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

لا رُتْبَةَ للعبادِ عند الله إلّا بالطّاعةِ والتقوى

الأمر في قوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ دلَّ على أنَّ النبيَّ ﷺ مُكلَّفٌ بنفسِ ما يُكلِّفُ النّاسَ به، من اتِّباع الحقِّ والهدى، فصيغة الأمر أفادتِ التنصيصَ على ذلك، لاستفادته بالنَّصِّ المنطوق، لا بمجرَّدِ المُقتضى المفهوم، فالأمر فيها على ظاهره في إفادة الوجوب، ويمكن حمله على المجاز بإفادته معنى الزِّيادة أو الثَّبات؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ متَّبعٌ لربِّه مطيعٌ له في كلِّ ما أمره به.

نكتةُ الاستعارة في ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

الطاعةُ والاتِّباعُ فيهما امتثالٌ واحتذاء

شبَّه الطّاعة بالاتِّباع على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة بنقل اللفظ من معنى إلى معنى آخر لوجود شبه بينهما؛ لأنَّ كلًّا منهما فيه امتثال واحتذاء.

معنى ﴿مَا﴾:

كلّما تجدَّد شيءٌ من الوحي؛ أحدَثَ المؤمنون له شيئًا من الاتِّباع

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ﴾ موصولة، أي: اتَّبِع الذي يُوحَى، والتعبير بالموصول المُشترك ﴿مَا﴾؛ للدَّلالةِ على جميع ما يُؤخَذُ بالوحي، ويدخلُ فيه القرآنُ دخولًا أوَّليًّا، ثمَّ يَندرجُ تحتَه سائرُ ما يُوحى ممّا ليس قُرآنًا، ويَبْعُدُ - هنا - إجراءُ ﴿مَا﴾ على معنى المصدريَّة، لِعُسْرِ تقديرِ المصدرِ المؤوَّل مع الجار والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾[1].

فائدةُ بناء الفعل ﴿يُوحَىٰٓ﴾ لما لم يُسمَّ فاعله:

الوحيُ من خصائص الألوهيَّة فلا يدَّعيه أحدٌ سوى الله

جاء فِعلُ ﴿يُوحَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ﴾ على بناء ما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لتقصيرِ الكلام على السّامِع، وتوفيرِ عنايتِه للغرضِ المقصودِ وحده، وهو توجيهه لمادَّة الوحي محلِّ الاتِّباع المأمور به، وليس الغرضُ الإنباءَ عن الفاعلِ، لوضوحِه وعدم التباسِه، فلا يتعلَّق الغرض بالكشفِ عنه.

(1) صافي، الجدول: 11/210.

معنى الواو في: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ عاطفةٌ مدخولَها على جملة: ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾؛ إيذانًا بأنَّ اتِّباع الوحي يستلزِم إدامَتَه والاستمرار عليه بالصَّبر[1].

لا يكونُ اتِّباعٌ بغير صَبْرٍ، ولا صبْرٌ بغير اتِّباع

دلالة الأمر في ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾:

التعقيبُ بفعل الأمر ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ بعد الأمر بالاتِّباع في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ﴾ للإشارة إلى أمرين:

لا يَتحقَّق بالصبر إلّا أولو العزم من البشرِ

الأوَّل: أنَّ الاتِّباع المذكور لا يتمُّ إلّا بالصبر عليه، وإلّا انقطعَ بالملالِ وخِفَّةِ العزم، فَلَا بدَّ من إدامتِه بعزيمةِ الصبر.

الثاني: الأمر بالصَّبر بعد الاتِّباع إيماءٌ إلى أنَّه قد يحصل مكروه وأذيَّةٌ له من المُخالفين والخصوم بسببِ اتِّباعه، فإنْ كان: فليستَوْثِقَ بالصَّبر، ففي الأمْرِ بالصَّبرِ نهيٌ عن ضِدِّه من الجزَعِ وانْفِساخِ العزم وضعفِ الحيلة[2]، فالأمر على ظاهره في إفادة الوجوب، وقد يُحمل على المجاز بإرادة معنى الزّيادة في الصَّبر أو الثَّبات عليه.

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾:

﴿حَتَّىٰ﴾ حرف غايةٍ أو تعليل، ويُراد بها - هنا - في قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ الغاية، فما بعدها جُعِلَ غايةً لما قبلها، فغَيّا الصبرَ بحكم اللّه، وفي النَّصِّ على تلك الغاية إيذانٌ بالنَّصر بعد الصَّبر، وبالجَبْرِ والعِوَض بعد العناء والتَّعب[3].

غايةُ الصَّبرِ أنْ يحكم اللهُ بالفرَجِ

نكتةُ التَّعبير بالمضارع في ﴿يَحۡكُمَ﴾:

مجيء الفعل ﴿يَحۡكُمَ﴾ بصيغة المضارع؛ للدَّلالة على استقباله واستمرارِه، وهو مؤذِنٌ بِطولِ الاستمتاعِ به في الدُّنيا؛ فإنَّ حُكْمَ

لا يتعلَّق المؤمن إلّا بحكمِ ربِّه

---

(1) صافي، الجدول: 11/211.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/311.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/197، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/143.

اللّه يتضمَّنُ التأييد والإكرام للمؤمنين، وهذا من النَّعيم العاجل والمُتعةِ الحاضرة.

سرُّ العدول من لفظ الرُّبوبيّة إلى لفظ الألوهيَّة:

أحكامُ اللهِ كاملةٌ لا شططَ فيها ولا جَوْر

أسند الحكم إلى اسم الذّات ﴿ٱللَّهُۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه حُكْمٌ كاملٌ مِنَ الذّاتِ الكاملةِ العليَّة في صفاتِها من العِلمِ والقدرةِ والحِكمةِ والقهْر، وهي موجِباتُ الحُكْم الكامل والقضاء العادل، فأتى بالاسم الجليل دون غيره؛ لتضمُّنه جميع الصِّفات التي تستوجِبُ الحُكْم، ولو عبَّر بغير اسم الذّات؛ لأطْنَبَ السّياقُ في تعديدِ أكثرَ من صفةٍ من صفات اللّه لاقتضائِها جميعًا حُكْمَ الحكيم، ولم يُعبِّر باسم الرُّبوبيَّة، فلم يَقُل: (حتى يحكمَ ربُّك)؛ لِما في الرُّبوبيَّة من معاني الإحسان والرِّفق، خلافًا لِمقام الحُكْم الذي هو مقامُ شِدَّةٍ وقوَّةٍ بتأييدِ المُحِقِّ وغلبةِ المُبطِل، ولِكون الحكم مَبنيًّا على الاستحقاق والعدل، دون المُحاباةِ والتفضيل المحض، وإلّا كان فيه شُبْهةُ إجحافٍ بالخَصْمِ المُخالِف.

نُكتةُ حذف مُتعلَّق الحُكْم:

الصَّبرُ لله مُتَعبَّدٌ به في كلِّ حال

لم يقل في السّياق الكريم: (واصبِر على كذا حتّى يحكم اللّه في كذا)، فلم يُعلِّق (الصَّبر) و(الحُكْمَ) على زمانٍ أو مكانٍ، ولم يُحدِّدهما بمجالٍ، لغرضين مُهمَّين:

الأوَّل: لِلإيذانِ بأنَّ الصَّبرَ تكليفٌ مُصاحِبٌ لِلۡأَحۡوَالِ كَافَّةً، مقرونٌ بجميع أسبابه ومُقتضياته العامَّة والخاصَّة والحقيرة والعظيمة، فهو تكليفٌ لا تتِمُّ سائرُ الأحوال والأعمال إلّا به، ولذا لم يحدِّدْه بمجال، أو يُعلِّقه بظرفٍ أو حال.

الثاني: لم يقل: (حتّى يحكمَ اللّه في كذا)؛ لِثقةِ المؤمنين بكون اللّه حاكمًا، فيكفيهم أنَّ اللّه هو من يحكم، فلا يحتاجون إلى تَحۡديدِ مجالِ الحكم أو موقعه، فحيثما كان حكمُ اللّه كان الخيرُ والإصلاح،

وأيضًا: لوضوح مُتعلَّقِ الحكم حذَفَهُ إيجازًا، فإنَّ مُتعلَّق الحكم إمّا بَيْنيٌّ بين طرفين، أو فرديٌّ أحاديٌّ، فتقديره على الأوَّل: حتى يحكم اللّه بينك وبينهم، وتقديره على الثاني: حتى يحكمَ اللّه في أمرك، وكلا التقديرين بمعنًى؛ لأنَّ معنى الأخير: حتى يحكم اللّه في أمرك بمجازاتك على عملِك، وفي أمرك مع المخالفين.

موقعُ جملة: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾:

ما دامَ اللّهُ هو خير الحاكمين، فلا يستوحِشُ المؤمنُ في حالٍ أبدًا

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ تذييلٌ قُصِدَ به الثناءُ على اللّه، فهو من تَتِمَّةِ الغايةِ المذكورة في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ﴾، وواوُ الوصلِ استئنافيَّة لاعتبار الابتداء في: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ فالجملة من مبتدأ وخبر، فروعي مع الاستقلال معنى الاستئناف، أو أنَّ الواو حاليَّة، لاعتبار جملة: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ حال من اسم الجلالة في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ﴾، وعلى الاعتبارين، فجملة: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ مُقرِّرة ومؤكِّدة لمضمون الجملة قبلها، وهو قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ﴾؛ لدلالة اسم الذّات على معنى ﴿خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾، فكأنَّه قيل: واصبِر حتى يحكمَ خيرُ الحاكمين(1).

بلاغةُ القصر بتعريف طرفي الإسناد:

مـآل الأمـور كلِّها إلى حكمِ خير الحاكمين والحاسبين

قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ تعرَّفَ فيه طرَفا الإسناد المبتدأ والخبر، فأفاد قصرَ حكم المُسنَدِ على المُسنَد إليه، فلا يَتّصِفُ بخير الحاكمين إلّا هو سبحانه، فهو من قَصْر الصِّفة على الموصوف، وهو قصرٌ حقيقيٌّ يُؤذِنُ بالتحريضِ على إتمام ما عُلِّقَ به من تكليفٍ بالصبرِ على الاتِّباع، وعدم الجزع من تَحَرُّشِ المُخالفين؛ لأنَّ مآلَه إلى حكمِ خير الحاكمين وخير الحاسبين، فالقصر مُضَمَّنٌ معنى البُشرى والجزاء.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/310، وصافي، الجدول: 11/211، والخطيب، التّفصيل في إعراب آيات التنزيل: 6/262.

وجهُ الكناية في: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾، و﴿خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾:

حياةُ الإنسانِ أوّلها صبرٌ، وآخرها حُكمُ خيرِ الحاكمين

قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ كنايةٌ عن تعرُّضه لأسباب الصَّبر من المُضايقةِ والعناءِ والأذى، وقوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ كنايةٌ عن مُكافأتهِ على ذلك ومعاقبةِ الظّالمين له بالخصومةِ والتكذيب والأذى، وقرينةُ الكناية: تعليقُ الصَّبر بغايةِ حكم الله، والأمْرِ به بعد الأمر باتِّباع الوحي، فتحييزُ الصبر بين الاتّباع والحكم مؤذِنٌ بأنّه صبرٌ خاصٌّ دالٌّ على لازم معناه المذكور[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة التَّفضيل:

جعلُ المفضول بإزاءِ الأفضلِ يُبرِزُ كمالَ الأفضل

مجيء التركيب على صيغة التفضيل في قوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؛ لإثبات الخيريَّة المُطلَقَة في حكمِه ﷻ على حكْم من سواه، وإنْ وُجِدَ في حكمِ من سواه خيرٌ وعدل، إلا أنَّ حكْمَه لا يحتمِل الخطأ والسَّهو أو نقصَ العِلم، وحُكْمَ من سواه تعتريه احتمالاتُ النَّقص، ولذا كان هو سبحانه خيرَ الحاكمين؛ لاستحالة الخطأ أو الخفاء في شأنِ حُكْمِه[2].

معنى (ال) في ﴿ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾:

الصِّفات على قَدْرِ الذَّوات

(الـ) التعريف في قوله: ﴿ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ هي (الـ) الموصولة الدّاخلة على أسماء الفاعلين، ولها دلالةٌ على إفادة الكمال، وهو استغراق خصائص أفراد الجنس، أي: هو خيرُ الحاكمين ذَوي الأهليَّة الذين استوفَوا صِفاتِ استئهالِ الحُكْم، واستكملوا خصائصه وحقائقَه، ودلالتها على الموصوليَّة حقيقة، ودلالتها على الكمال مجازٌ، ولا تَعارض بين الدلالتين؛ لأنَّ معنى الموصوليَّة مطَّردٌ في (الـ) ثابتٌ بنفْسه من غير قرينة، والذي أعان على دلالة الكمال ليس (الـ) وحدها، بل قرائنُ السياق، وهي في هذا التركيب: مجيء الكلام

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/310.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/126، والآلوسي، روح المعاني: 6/188، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/310.

بصيغة التفضيل التي تؤذِنُ بثبوتِ أفضليَّةٍ مرجوحةٍ للمفضول، ولِكوْنِ التفضيلِ في جانبِ اللّه سبحانه؛ تأكَّدَ معنى الكمالِ في ﴿ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؛ إذ لا يُفاضَلُ بَيْنَ اللّه تَعَالَى وَالحاكمين الجائرين أو النّاقصين، وكذا تعريف اللفظ بـ (الـ) الجنسيَّة الدّالة على استغراق صفاتِ الأفراد وعدَدِهم[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

يحكم ويقضي:

الحكم غير إلزاميٍّ، والقضاء إلزاميٌّ

الحُكْمُ هو: ضَبْطٌ يَمْنع التَّسَيُّب، ويمكِّن من جَعْل الشيء - أو جريانه - على ما يَنبغي ويُراد، والقضاء: هو إجراءُ الحكْم وإنفاذُه، ويُطلَق كلٌّ منهما على الآخر، فالقضاءُ يُستعمَل بمعنى الحكم؛ لأنَّ "القاضيَ يَضْبط أمرَ كلٍّ من الفريقين، ويفصل، مانِعًا أن يَدخل أيٌّ منهما على الآخر في حقِّه"، ويستعمل الحكم بمعنى القضاء؛ لِأنَّ القاضيَ "يُحكِمُ الأحكامَ، ويُنْفِذها"، فكلُّ قضاءٍ حُكم، وليس كلُّ حُكْمٍ قضاءً؛ لأنَّ القضاء هو نهايةُ الشيء وإتمامه والفراغ منه، ولذا فالقضاء ليس مجرَّد إصدارِ الحكم فقط، بل إجراؤه وإنفاذُه، وأمّا الحكمُ؛ فهو القضاء بالشيء أن يكون كذا، أو ليس كذا، سواء ألْزَمتَ ذلك غيرَك، أو لم تُلْزِمه، فالحكمُ أعمُّ، والقضاءُ أخصُّ[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/310.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حكم، قضى).

سُورَةُ هُودٍ

سُورَةُ هُودٍ

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

الأصح أنَّ سورة هود كلّها مكيّة

سورةُ هودٍ مكيَّةٌ كلُّها عند الجمهور، بل ورد نقلُ الإجماعِ على مكيَّتِها، ونقْلُ الإجماعِ وإنْ كان فيه نظَرٌ، إلّا أنَّه يُرجِّح كونَ جميعها مكّيَّة، وقيل: هي مكيَّة إلّا ثلاثَ آياتٍ منها، وهي: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ [هود: 12]، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: 17]، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود: 114][1]، "والأصحُّ أنَّها كلَّها مكيَّةٌ، وأنَّ ما روي من أسباب النزول في بعضِ آيِها تَوَهُّمٌ "[2].

والمؤكَّد هنا أنَّها السُّورة الحادية عشرة في ترتيب المصحف الشريف، تقع بين سورتَي يونس ويوسف، حسب التَّرتيب التَّوقيفيِّ لسُوَر القرآن الكريم، وهو التَّرتيب الَّذي تعاضدت عليه آراء جهابذة العلماء والمحقِّقين من قدماء ومعاصرين، وذكر بعض المفسِّرين أنَّ ترتيبها النُّزوليَّ الثانية والخمسون، بعد سورةِ يونس، ونزلَ بعدها سورة يوسف[3].

وآياتُها مِائَةٌ وإحدى وعشرون آيةً في المدنيِّ الأخير والمكيِّ والبصريِّ، واثنتانِ وعشرون آيةً بعد المائةِ في المدنيِّ الأول والشاميِّ، وثلاث وعشرون آيةً بعد المائة في الكوفيِّ.

واختِلافُ العدِّ في سبْعِ آيات، هي: ﴿أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤﴾ [هود: 54] عدَّها الكوفيُّ، ولم يعدَّها الباقون. ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤﴾

(1) ابن الضّريس، فضائل القرآن، ص: 34، والنحاس، الناسخ والمنسوخ: 2/472، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 1/246، والبقاعي، مصاعد النظر: 2/170، وعبد الرزاق حسين، المكي والمدني: 2/680.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/312.
(3) السيوطي، تَناسُق الدرر في تَناسُب السور، ص: 95، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/312، ودروزة، التفسير الحديث: 1/15.

[هود: 74] لم يعدَّها البصريُّ، وعدَّها الباقون، ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: 82] عدَّها المدنيُّ الأخير والمكيُّ، ولم يعدَّها الباقون. ﴿مَّنضُودٍ ٨٢﴾ [هود: 82] لم يعدَّها المدنيُّ الأخير والمكيُّ، وعدَّها الباقون. ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود: 86] عدَّها المدنيّان والمكيُّ، ولم يعدَّها الباقون. ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ١١٨﴾ [هود: 118] لم يعدَّها المدنيّان والمكيُّ، وعدَّها الباقون. ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ١٢١﴾ [هود: 121] لم يعدَّها المدنيُّ الأخير والمكيُّ، وعدَّها الباقون(1).

دلالةُ التَّوقيت الزَّمني لنزول السّورة:

المُدَّةُ التي نزلت فيها هذه السّورة هي الظُّروفُ نَفْسُهَا الَّتي نزلت فيها سورتا يونس ويوسف، فترتيبها المصحفيُّ بين هاتيْن السّورتَيْن هو التَّرتيبُ النُّزوليُّ لها ذَاتُهُ، وهي فترة حافلةٌ بأحداث جِسام عاشها المسلمون الأوائل في مكَّة المكرَّمة، حيث نزلت بعد فترة طويلة من حياة المسلمين بها، وبعد كَبَدٍ وَمعاناةٍ واضطهادٍ، فنزلت عقب حادثة الإسراء والمعراج، وبعد أن تقلَّبت عليهم فيها أحوالٌ من التَّكذيب والتَّشكيك، ونزلت بعد وفاة عمِّ النبي ﷺ أبي طالب وزوجِه خديجة، حيث سُمّي هذا العام بعام الحزن؛ بسبب توقُّف دعوة النَّبيِّ ﷺ فيه، وبسبب ما لقيه من أذًى في داخل مكَّة وفي خارجها من أهل الطّائف، حيث ردُّوه خائبًا بعد أن أدموه، وغرَّروا به صبيانهم وسفهاءهم، فوجد النَّبيُّ ﷺ في نفسه ما وجد من مَشَقَّةٍ وعناءٍ، حيث فقد في أثناء ذلك كلِّه السَّند العاطفيَّ والعقليَّ بفقْدِ زوجه السيِّدة خديجة، وفقَدَ فيها السَّند الاجتماعيَّ والسّياسيَّ بوفاة عمِّه أبي طالب، فجاءت السّورة تحمل في طيّاتها ما تثبِّت به فؤاده، وترفع من معنويّاته، فجاءت لتعالج مواقف المشركين من قضايا العقيدة الرئيسة كالنُّبوَّة والوحي: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾، وموضوع البعث: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٧﴾ [هود: 7]، وحقيقة الحياة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٦﴾ [هود: 15 - 16]، وخلال ذلك كلِّه عرضت بعض جوانب رحلة الأنبياء مع أقوامهم، وبيَّنت طبيعة هذا الإنسان:

(1) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 165.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ۝٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١١﴾ [هود: 9 - 11]، وخُتمتِ السّورة بالتَّسرية عن النَّبيِّ ﷺ، وبتوصيته بالثَّبات على دعوته: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٢٠ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ۝١٢١ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٢٢ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝١٢٣﴾ [هود: 120 - 123]، إذًا نزلت السّورة في جوٍّ مشحونٍ يمثِّل ذروة الصّراع بين الحقِّ والباطل في مرحلة ساخنة من مراحل الدَّعوة في مكَّة.

أسماء السّورة الكريمة:

سورةُ (هود) عليه السلام لم تُسَمَّ باسمٍ غيره

ليس لهذه السّورة إلّا اسمٌ واحد، هو (هُود)، وسمّيت به في جميع المصاحف، وكُتُب التَّفسير والسُّنَّة، وهو اسمها الثابتُ رِوايةً وشُهرةً، فعن ابن عباسٍ قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قَدْ شِبْتَ، قالَ: «شَيَّبَتْنِي "هُود" "والواقِعَةُ" "والمُرْسَلاتُ" "وعَمَّ يَتَساءَلُونَ" "وإذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ"»[1].

وسبب تسميتها بهذا الاسم أنَّه كان بسبب تَكْرار اسم (هود) عليه السلام فيها خمس مرّاتٍ من أصل سبع مرّاتٍ وردت في القرآن، وهي قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ [هود: 50]، ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ [هود: 53]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا﴾ [هود: 58]، ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ۝٦٠﴾ [هود: 60]، ﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ﴾ [هود: 89]، ولم يَحصلْ هذا

(1) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب التفسير، باب: (ومن سورة الواقعة)، الحديث رقم: (3308)، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة (هود)، الحديث رقم: (3314)، وتفسير سورة (الواقعة)، الحديث رقم: (3777)، وغيرهما.
قال الترمذي: "حسن غريب"، وقال الحاكم: "صحيح على شرط البخاري"، ووافقه الذهبي. ويُنظر: الألباني، السلسلة الصحيحة الحديث رقم: (955).

العدد لنبيٍّ آخر من الأنبياء المذكورين في السّورة، ولأنَّ ما حُكِيَ عنه عليه السلام في هذه السّورة أطول ممّا حُكِيَ عنه في غيرها من السّور[1].

والحقُّ أنَّه لا بدَّ من أسباب أخرى أكثر عمقًا وإقناعًا، فمرّات ذكر اسم النَّبيِّ ليست مرتبطة بتسمية السّورة باسمه، فسورة البقرة ذُكر فيها النبيُّ الكريمُ إبراهيم عليه السلام خمس عشرة مرَّةً، ولم تُسمَّ باسمه، وذُكر فيها موسى عليه السلام إحدى عشرة مرَّةً، ولم تُسمَّ باسمه أيضًا. وأمّا أنَّ السّبب في أنَّ سورة هود أطالت في تفصيل قصَّته، فليس سببًا مقنعًا؛ لأنَّ قصَّة نوح عليه السلام في سورة هود كانت الأطول ذكرًا في القرآن الكريم ومع ذلك فلم تُسمَّ السّورة باسمه، إذًا لا بدَّ من البحث عن سببٍ آخر يرتبط بمحور السّورة وشخصيَّتها المميّزة لها، وإذا كانت سورة هودٍ قد أخذت على عاتقها بيانَ أثر الإصلاح القائم على منهجٍ سليم في تحقيق النُّهوض الحضاريِّ، من حيثُ تحقيقُ الشُّهود أو الاضمحلال الحضاري، فإنَّ قوم عاد هم الأنموذج الأمثل في ذلك؛ فقد كانوا أصحاب مدنيَّة قويَّة شهد لها القرآن في أكثر من موضع: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: 15]، وقال عنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: 6 - 8].

فلم يشهد القرآن لغيرهم بهذا الامتداد في القوة والتمكين في العُمْران، لكنَّ عناصر ديمومة حضارتهم كانت قاصرةً، فلم يتحقَّق فيها ركن العقيدة الصحيحة، بل كانت مبادؤهم فاسدةً، وأفعالهم قبيحة، صوَّرها القرآن في أكثر من موضع، واصفًا إيّاهم بالاستكبار والتَّكذيب وغيرها من الصِّفات، وقال عنهم في هذه السّورة: ﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ [هود: 59].

فقوم عاد هم رمزٌ بارزٌ في الاستبداد السّياسيِّ والطُّغيان المادّيِّ، وإنَّ الحديث عن فسادهم هذا هو الأقرب إلَى سُورَةٍ كان من أهمِّ موضوعاتها بيانُ أثر الإصلاح في النُّهوض أو الاضمحلال الحضاريِّ؛ لأنَّ حضارتهم القويَّة قد زالت بسبب فسادهم وعدم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/311.

استجابتهم لداعي الإصلاح بينهم، فضلًا عن التَّشَابُهِ في جَوَانِبَ كَثِيرَةٍ بَيْنَ قصَّة هود ﵇ مع عادٍ، وَقصَّة نبيِّنا محمَّد ﷺ مع قومه في جوانب كثيرة، فقد قالت عادٌ لنبيِّهم في هذه السّورة: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣﴾ [هود: 53]، وفي السّورة السّابقة قالت قريش لنبيّنا: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾ [يونس: 20]، وفي هذه السّورة قال هود ﵇ لقومه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [هود: 54 - 56]، وفي سورة الأعراف قال نبيُّنا ﷺ لقومه: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف: 195 - 196]

الموضوعاتُ الرئيسة للسُّورة:

مَــدارُ الـسّــورةِ عَلَى تقريرِ أصولِ العقيدة وأركان الإيمان

أوَّلًا: تقرير أصل العقيدة وهو عبادة الله وحده لاشريك له: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾.

ثانيًا: الإيذانُ بأنَّ مصدرَ الاعتقاد الصحيح هو الوحي، ويتمثَّلُ ذلك في الواسطة البشريَّة وهو الرسول ﷺ: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾، والواسطةِ الكتابيَّة، وهو القرآن: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

ثالثًا: تقرير العمل الصالح أصلًا من أصول الإيمان: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾.

رابعًا: بيان أصناف النّاس في تَأَثُّرِهِمْ بِبلاغ الرّسولِ ﷺ، وخطابِ الكتاب، وأنَّهم بين مُستجيبٍ ومُعرِض.

خامسًا: تقرير عقيدة البعثِ واليوم الآخِر وما يقترِنُ بها من

مبدأ الثواب والعقاب: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

سادسًا: تقرير عقيدة القضاء والقَدَر وما يتَّصل بها من كتابة الأرزاق والآجال والأحوال والمآلات: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود: 6].

سابعًا: الاستدلال على عقيدة البعثِ الآخِر بالقُدرةِ على الخلْقِ الأوَّل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [هود: 7].

ثامنًا: بيان تباين طبائع النّاس واختلاف استعداداتِهم تجاه تلك الأصول والعقائد الحقَّة: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [هود: 7]، ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ﴾ [هود: 8]، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾ [هود: 9]، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ [هود: 10]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود: 11].

تاسعًا: الاستدلالُ على صحَّة القرآنِ ومصدرِه الإلهيِّ بإقرار التَّحدِّي معه ومحاولة الإتيان بمثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: 13].

عاشرًا: عرضُ تفصيلٍ من مشاهد الثواب والعقاب لمن يريد الحياة الدنيا وزينتها، ومن يريد الآخرةَ ورضوانها: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ﴾ [هود: 15 - 16] إلى أن قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٣﴾ [هود: 23].

حادي عشر: تأكيد المقارنة بين أصناف النّاس وتباينهم: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ﴾ [هود: 24].

ثاني عشر: ذِكْر الأمثلةِ الحيَّة من سِيَرِ الرُّسُل في إبلاغ العقيدة للناس، وأحوال النّاس معهم، وتباينهم في المآل والجزاءِ، كما تباينوا في التصديق والتكذيب.

ثالث عشر: حشْدُ مشاهدَ من أحوال اليوم الآخر وانتهاء النّاس فيه إلى شقيٍّ وسعيد وثوابِ كُلٍّ وعقابِهم.

رابع عشر: خطابُ الرسولِ ﷺ وأمَّتِه بالاستقامة والانتظام في سلك السُّعداء وعدم الركون إلَى الأشْقِيَاءِ الظالمين، والاستعانة على ذلك بالأعمال الصالحات بأداء الصلوات واكتساب الحسنات.

خامس عشر: تقريرُ سنَّةِ اللّه الثابتة في اختلاف النّاس في الإيمان والكفر، بما يترتَّبُ عليه استحقاقُهم لتبايُنِ المصير بينهم، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨﴾ [هود: 118]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١١٩﴾ [هود: 119].

سادس عشر: ختامُ السّورةِ كان مُلخِّصًا عجيبَ الإشارة إلى كلِّ ما ورد فيها من مقاصد وأصول، فأشار إلى انْقِسام الناس واختلافهم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨﴾ [هود: 118]، وأشار إلى عقيدة القدر: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ [هود: 119]، وأشار إلى جميع ما ورد فيها من قصص بما يقرر النبوّات: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120]، وأشار إلى الغيبيات وجزاء اليوم الآخر ووعيده: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١١٩﴾ [هود: 119]، وأشار إلى عقيدة الوحي وصدق الكتاب: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: 120]، وأشار إلى وظيفته في البلاغ بالبشارة والنِّذارة، فقال في البشارة: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٠﴾ [هود: 120]، وفي النِّذارة: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ۝١٢١ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٢٢﴾ [هود: 121 - 122]، وكما بدأ السّورةَ بإخلاص العبوديَّة له وكونِ رجوعنا إليه، وكونه يعلم ما يسرّون، وما يعلنون، ختمها كذلك بالتكليف بعبوديَّته، لِكونِ مَرجِعِ الأمر كلِّه له ولكونه يعلم أعمالَنا، ولا يَغفُل عنّا: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣﴾ [هود: 123].

بيان محورها العام والموضوعات التي تأتلف فيه وتَلْتَفُّ بِهِ:

المحور العامُّ الَّذي يجمع موضوعات هذه السُّورة هو تناولها أثَرَ الإصلاح المنهجيِّ السَّليم

في نهوض الحضارات أو اضمحلالها، من خلال عَرضِها نَماذِجَ من الأنبياء المصلحين الَّذين كان لهم دورٌ بارزٌ في إصلاح فساد أقوامهم، وقد جاء ذلك صريحًا على لسان شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: 88]، مبيِّنةً وسائلهم في الإصلاح الَّذي انتهجوه، ومجالات الفساد العقديِّ والسياسيِّ والاقتصاديِّ والأخلاقيِّ الَّذي واجهوه، مبرزة آثار هذا الإصلاح مع أقوامهم عند عدم استجابتهم له سواء أكان دنيويًّا أم أخرويًّا، مبيِّنةً في أثناء ذلك كلِّه بعضَ سنن الله الاجتماعيَّةِ وقوانينه الثّابتة في شأن الرَّبط بين الإصلاح والنُّهوض أو الاضمحلال الحضاريِّ.

إنَّ السّورةَ تَطَرَّقَتْ إلَى شعار الإصلاح الَّذي انتهجه الأنبياء المصلحون، القائم على التَّخلية ثمَّ التَّحلية، وهو الاستغفار وطلب التوبة، ثمَّ توحيد الله والاستقامة على شريعته: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: 2 - 3]، وهو الشعار الذي ردّده الأنبياء عليهم السلام في محاوراتهم لأقوامهم على ما بيّنته السورة في الآيات: [هود: 25 - 26، 50، 61، 84].

وقد اختُصِرَ هذا الشِّعار بدعوة نبيِّنا محمّد ﷺ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود: 112]

وقد تنوَّعت وسائل هؤلاء الأنبياء المصلحين في دعوتهم لأقوامهم الَّذينَ تَكْتَنِفُهُمْ أحوالٌ شَتَّى، لكنَّها اشتركت في الإنذار والتَّبشير والتَّذكير والحوار، فهي سورة الحواراتِ المطوَّلة للأنبياء مع أقوامهم، ولا أدلَّ على ذلك من شهادة قوم نوح لنبيِّهم: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32].

وقد بيَّنت السّورةُ الآثار الدُّنيويَّة الإيجابيَّة للاستجابة إلى دعوات الإصلاح على لسان هود عليه السلام الَّذي تسمَّت السّورة باسمه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: 52].

وبيَّنت الآثار السَّلبيَّة لعدم الاستجابة على لسانه أيضًا: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود: 57].

وكشفت السّورةُ الكريمة جوانب هذا الاستبدال بِالأَقْوَام المفسدة الَّذين تناولتهم السّورة قَوْمًا آخَرِينَ، فقوم نوح قد أصابهم الغرق، وقوم هود أتبعوا اللّعنة في هذه الدّنيا، وقوم صالح وقومُ شعيب أخذتهم الصيحة فأُبيدوا عن بكرتهم، وكذا أقوام لوط وملأ فرعون وبقيَّة القرى.

وبيَّنت السّورةُ قواعدَ الإصلاح وسننَهُ الرَّبّانيَّة الَّتي لا تقبل التَّغيير والتَّبديل وَقَدْ ربطت بقوَّة بين هذا الإصلاح وبين الشُّهود أو الاضمحلال الحضاريّ في أكثر من آية، فقال في السُّنَّة الرَّبّانيَّة الأولى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: 7]، فسنَّة البلاء هي مناط الأمر وذروة سنامه، وبيَّنت سنن الله في إهلاك الظّالمين، حيث إنَّ لفظة الظُّلم قد وردت في هذه السّورة نحو أربع عشرة مرَّة، فقد قال تعالى عن الأقوام الغابرة: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود: 101]، وكذا في الآيات [113، 116، 117].

وبيَّنت السّورة حال الفريقَيْن: المصلحين والمفسدين، وعاقبة أمرهم في الآخرة: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود: 24]، وقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود: 105]، واستكملت السورة بيان أحوال كل فريق.

بيانُ المناسبةِ بين السورة وسابقتها ولاحقتها:

سورة (هود) بين سورة (يونس) وسورة (يوسف) في النّزول وفي ترتيب المصحف

سورةُ هود مُكمِّلةٌ لسورة يونس، وباسِطةٌ لِما أُجمِلَ فيها، ووجه اتِّصالهما وتناسبِهما: اتحادُ السّورتين في تقرير أصولِ الدّين، والاستدلال عليها، ودفعِ شُبَهِ المُعارضين وتحدّيهم وإقامةِ الحجَّة عليهم، وذكر اليوم الآخر، وتصنيف النّاس بتباين أحوالهم في الدنيا بين مُخالفٍ وطائع، وتباين جزاءاتِهم في الآخرة، فاتَّفقتْ مع سورة يونس في الجوانب الآتية:

أولًا: توارد السّورتين على إثباتِ تنزيل القرآن وتحدّي المعارضين به.

ثانيًا: أكْمَلَتْ سورةُ هود جانبَ القصص الذي أوجِزَ في سورة يونس.

ثالثًا: توافقهما في المطلع، فمطلعُ سورة يونس يتحدَّث عن الكتابِ الحكيم: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [يونس: 1]، والرسول البشير النَّذير: ﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [يونس: 2]، وكذلك المطلع في سورة هود: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾.

رابعًا: توافقهما في الخاتمة، فخاتمة يونس في الأمر باتِّباع الوحي والصَّبر حتى يحكم الله بين الرسول والكافرين: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾، وخاتمة سورة هود عن تثبيتِ الوحي لمن اتَّبعه: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾، والأمر بانتظار حكم الله مع الاستقامة على هذا الاتِّباع بعبادته والتَّوكُّل عليه: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٢٢﴾ [هود: 122]، ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: 123].

خامسًا: توافقُ ختام سورة يونس مع مطلع سورة هود، فإنَّ قوله في ختام يونس: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ [يونس 109]، هو نظيرُ قوله في مطلع هود: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1].

سادسًا: نزلت سورة هود بعد سورة يونس، ونزلت سورة يونس بعد الإسراء وقُبَيْل الهجرة، فيكون نزول سورة هود في ذلك التاريخ أيضًا، وهو من تمام المناسبة في ترتيب النزول وترتيب المصحف[1].

وأمّا عن علاقتها بسورة يوسف؛ فلأنّ سورة يوسف متمِّمة لما في سورة هود من قصص الرسل، والاستدلال بذلك على كون القرآن وحيًا من عند الله دالًّا على رسالة محمد ﷺ خاتم النّبيين، والفرق بين القصص في سورة يوسف وفيما قبلها: أنَّ السابق كان قصص الرسل مع أقوامهم في تبليغ الدَّعوة والمحاجَّة فيها وعاقبة من آمن منهم، ومن كذَّبوهم لإنذار مشركي مكَّة ومن تبعهم من العرب[2].

(1) السيوطي، تَناسُق الدّرر في تَناسُب السوَر، ص: 95، ورشيد رضا، تفسير المنار: 3/12، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/148، وجعفر شرف الدين، الموسوعة القرآنية: 4/65.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 11/112.

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود: 1]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

القرآنُ الكريم مُستودَعٌ لِحكمِ اللهِ وأحكامِه

لمّا ذكر اللّه ﷻ - في آخر السورة التي قبلها - انتظارَ حُكْمِ خير الحاكمين، وكان القرآنُ الكريم مُستودَعًا لِحُكم اللّه وأحكامِه، ذكرَ اللّه ﷻ ما يدلُّ على ذلك الحُكمِ المُحكَم فقال: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، أي: في الآياتِ المُحكمَةِ المُفصَّلة تَجِدُ حُكْمَ اللّه الذي آذَنك به.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾: مِنْ (حكم)، وهو أصلٌ يدلُّ على المنْع، ومنه الحُكْم، وهو المَنْع لأجل الإصلاح، ومنه الحِكمة، وهي الإصابةُ للحقِّ، فهي تمنع من الجهل والباطل، ومنه الإحكام، أي: إتقانُ الشيء، فهو مانِعٌ من الخَلَلِ في أجزائهِ وجودةِ ظاهرِه، والمعنى هنا في: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ إفادةُ أنَّها حكيمةٌ في معناها، مُحكمَةٌ في مبناها، أي: مُتقَنة، وهي تفيدُ الحُكمَ، فمنها يُتعرَّفُ على أحكام اللّه وأقضِيَتِه[1].

2) ﴿فُصِّلَتۡ﴾: أصلُ التفصيلِ: من الفصْل، وهو: قطعُ الشيء وإبانَتُه وتفريقُهُ عمّا سواه؛ ليتميَّزَ، ويستقلَّ، ويَبِينَ من غيره، ومعنى تفصيلِ الكتابِ: جَعْلُ حقائقِه ومسائلِه المرادِ بيانُها مفصولًا بعضُها مِنْ بعضٍ بحيث لا تَشْتَبِه[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (حكم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فصل)، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/393.

المَعنى الإجْماليُّ:

كِتابُ اللهِ مُحكَمٌ في نفْسِه حاكِمٌ على ما سِواهُ، وله شرفٌ حقيقيٌّ في إعجازه

هذه الحروف حروفٌ هجائية لا معنى لها في نفسها؛ إذا جاءت مفردةً، ولها معنًى ومغزًى، إذا جاءت مركبةً مثل مطلع السورة: ﴿الٓر﴾؛ فهي من الحروف المقطَّعة في أوائل السور، وفيها إشارةٌ إلى إعجاز القرآن؛ فقد وقعَ به تحدّي المشركين، فعجَزوا عن معارضتهِ، وهو مركَّب من هذه الحروفِ التي تتكوَّنُ منها لغة العرب، فدَلَّ عجز العرب عن الإتيانِ بمثلهِ - مع أنَّهم أفصحُ الناس - على أنَّ القرآن وحيٌ من الله، هذا الكتابُ الذي أنزله الله على رسول الله ﷺ قد أُحكِمَتْ آياتُه من الخلَلِ والباطل، ثم بُيِّنَتْ بالأمرِ والنَّهي وبيانِ الحلالِ والحرامِ مِنْ عندِ حكيمٍ في تدبيرِه وتشريعِه، خبيرٍ بأحوالِ عبادِه، وبما يُصلِحُهُم[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ استقراءَ القرآن العظيم يرجِّحُ أنَّ السّورَ التي افتُتِحت بالحروف المقطَّعة يُذكرُ فيها غالبًا عقب الحروف المقطعة الانتصارُ للقرآن وبيانُ إعجازِه، وأنَّه الحقُّ الذي لا شكَّ فيه، وذكرُ ذلك بعدها دائمًا دليلٌ استقرائيٌّ على أنَّ الحروف المقطعة قُصدَ بها إظهارُ إعجاز القرآن، وأنَّه حقٌّ، وترشدُ الآيةُ إلى أنَّ هذا القرآنَ كتابُ الله الخالد في الوجود الإنسانيِّ، كان مع حلاوة نَغَمه وتواصله وعبارته وتساوقِ معانيه مبيِّنًا مفصِّلًا لأبواب الحلال والحرام والعقائد والمواعظ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

الحروف المُقطَّعةُ من الكتابِ الذي أحكِمتْ آياتُه

الموقع النَّحويُّ لقوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾:

قوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾ إمّا خبر لقوله: ﴿الٓر﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف،

(1) مجمّع الملك فهد، التفسير الميسّر، ص: 2/221، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن، ص: 221.

(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 3/8، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3660.

أي: ذلك كتابٌ، أو ﴿كِتَٰبٌ﴾ مبتدأ، وما بعده خبرٌ أو صفة، وساغَ الابتداء بالنَّكِرة لكونها نكرةً موصوفةً بما بعده، أو لكونها سيقتْ ممدوحةً؛ إذْ تنكيرُها لتعظيمها، أو قُصِدَ بها النَّوع لا الفرد، فزالَ إبهامُها، فصَلُحَتْ للإخبار عنها بقوله: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾[1].

نكتة تنكير ﴿كِتَٰبٌ﴾:

القـــرآنُ هو الكتابُ الكامل في إحكـامه وتفصيله

تنكيرُ الكتاب في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ لإفادةِ الكمالِ النوعيِّ، أي: هو نوعٌ من أنواع الكُتُبِ الكاملة المُنَزَّلَةِ سَلَفًا، فليس بِدْعًا منها، فالتنكيرُ لدفْع استبعادِ تنزُّله، وثبوتِ إمكانه، أو التنكير للتعظيم، أي: كتابٌ عظيمُ الشأنِ في وَصْفِه، أو التنكير للتعجيب، أي: كتابٌ يُعجَبُ منه في لُغَتِه ووجوه إعجازه، وكوْنِه نازلًا على أُمّيٍّ لم يَتْلُ كتابًا قبلَه، ولم يَخُطَّ بالقلم شيئًا، وعلى إرادة النوعيَّة لم يُنْظَر إلى شخصِ القرآنِ وعينِهِ بل نوعِهِ، وعلى إرادة التعظيم والتعجيب فالمراد التشخيص[2].

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾:

إذا كان الكتابُ من لدن حكيمٍ خـبـير؛ فهو الكتابُ المعصوم

جملة: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ صفةٌ للكتاب، أي: كتابٌ موصوفٌ بالإحكام، وشبه الجملة خبر في قوله: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، أو ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ خبر، والجار والمجرور متعلِّقٌ به أو بالمعطوف عليه، وهي قوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾[3].

نكتة التَّعبير بـ ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ مادَّة وصيغة:

الكتاب الموصوف بـالإحـكـام والحِكمة حريٌّ بـأنْ يُـحَـكَّـمَ ويُقَدَّم

التَّعبيرُ بلفظ ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ تَضمَّنَ ثلاثَ دلالات:

الأولى: أنَّها جُعِلَتْ حكيمةً، فهي من (حَكُمَ الشَّيءُ)، أي: اتَّصف

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/190، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/10، وصافي، الجدول: 11/213، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 6/265.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/10، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 1/40.

(3) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/278، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/314، وصافي، الجدول: 11/213.

بالحكمة، وتكون الهمزة للتعدية والنقل، وكونها حكيمةً، مؤذِنٌ بتنزيهِها من العبَثِ واللغو.

الثانية: أنَّها حُكِمَتْ من الباطلِ والكذب، أي: مُنِعَتْ منهما، من (حُكِمَ بالقَيْد)؛ إذا مُنِعَ به، وتكون الهمزة للنقل والتعدية في ﴿أُحْكِمَتْ﴾، وهذا المعنى دالٌّ على أنَّها خالِصةٌ للحقِّ خاليةٌ مِمّا يُخالِفُه.

الثالثة: أنَّها من أحكَمَ الشيءَ؛ إذا أتقنَه، فالهمزةُ فيه ليستْ للتَّعدية، ومدلول ذلك: أنَّ الكتابَ مُتقَنٌ في نَظْمِه وسَبْكِه، لإحكامِهِ في جمالِ مَبْناه وجلالِ معناه.

وجاءت الكلمةُ بصيغة الماضي لإفادة التَّحقُّق، فهو إحكامٌ تامٌّ قد فُرِغَ منه، وحُكِمَ به[1].

دلالاتُ ﴿ثُمَّ﴾ ومعانيها:

تفصيلُ الكتابِ مُقتَرِنٌ بإحكامِه

أوَّلًا: ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، للتراخي والترتيب الذِّكريِّ في اللفظِ لا في المعنى، وفي التركيب لا في الواقع، كمن يَسْرُدُ أخبارًا، فيقول: فلانٌ كريمُ الأصل، ثمَّ كريم الفِعل، فكأنَّه قيل: هي مُحكمةٌ أحْسَنَ الإحكام، ثمَّ مُفصَّلةٌ أحسَنَ التَّفصيلِ، وهذا مَبنيٌّ على اعتبار أنَّ الإحكام مُصاحِبٌ للتفصيل، فهي حالَ تفصيلِها مُحكَمَةٌ، وحال إحكامِها مُفَصَّلة؛ إذِ التَّفصيلُ بمعنى اشتمالها على الأحكام الفاصِلة بين الحلال والحرام والبيِّنات التفصيليَّة، وهذا مُلازِمٌ للإحكام من أوَّل الأمر لا ينفكُّ عنه[2].

ثانيًا: على استحضار أنَّ تفصيلَ الآياتِ لا يتِمُّ إلّا بإحكامِها، فيكون معنى ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرُّتبي، فهو من باب الترقّي والتدرُّج

(1) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/278.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/377، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/313، والرّضي، شرح الكافية: 4/390.

في رُتَبِ المعاني؛ لأنَّ الإحكام أهمُّ رُتْبَةً، ثمَّ يَلِيهِ التفصيلُ، إذْ هو كالأساسِ له[1]، والتراخي هو التراخي المعنويُّ، ذلك لأنَّ الناسَ أَلِفوا أنَّ الكلامَ المحكمَ في نغمه وألفاظه وكلماته وأسلوبه لا يكون مفصَّلًا في معانيه، أي: لا يكون مبيَّنًا واضحًا؛ لأنَّ النَّغَمَ يَشغلُ القارئين عن المعاني، ولكنْ هذا القرآنُ كتابُ الله الخالد في الوجود الإنسانيِّ، كان مع حلاوةِ نَغَمِه وتواصله وعبارته وتساوقِ معانيه مبيِّنًا مفصِّلًا لأبواب الحلال والحرام والعقائد والمواعظ، والترتيبُ ليس للترتيب الزمني، إنَّما هو للترتيب الفِكري والترابطِ النفسي، فكلمةُ ﴿ثُمَّ﴾ هنا للترتيب والتراخي[2].

ثالثًا: على معنى أنَّ التَّفصيل بمعنى التنجيم وهو نزوله مُفَرَّقًا، فإحكامُه واقِعٌ أوَّلًا، وتفصيلُه لاحِقٌ له زَمَنًا، فتكون ﴿ثُمَّ﴾ على بابِها من إفادة الترتيب والتَّراخي الزَّمنيِّ[3].

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿فُصِّلَتْ﴾ مادَّة وصيغة:

لا يُفْقَهُ المُحكَم إلا بتفصيله

التعبير بالتفصيل في قوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ دلَّ على اتِّصافِ الآياتِ بالمُبايَنَةِ والمُمايَزَةِ والمُفاصلَةِ في ثلاثةِ أشياء:

الأوَّل: المعاني، فمعانيها مُتباينةٌ بين حلالٍ وحرام، وزجْرٍ ووعظٍ، وحِكَمٍ وأحكام.

الثاني: المباني، فتراكيبها فواصلُ ورؤوسُ آي، وهي مقاطِعُ وسُوَر، وتقاسيمُ وتفاريق.

الثالث: هيئةُ الحصول، فالآياتُ حاصِلةٌ بالتنزيل المُفرَّق، فأجزاؤها منفصِلةٌ عن بعضِها في نزولها، فهي متباينةٌ في حصولِها، مُتَقَطِّعَةٌ في نُزولِها، مُنْفَصِلَةٌ في وُصولِها.

(1) سيبويه، الكتاب: 1/34، وابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/61، والآلوسي، روح المعاني: 6/191.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3660.
(3) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/279، والآلوسي، روح المعاني: 6/191.

وجاء التعبير بصيغةِ البناءِ الماضي لِما لم يُسَمَّ فاعِلُه؛ لتفخيم أمْرِ تفصيلها، بإفراغِ ذِهْنِ السّامع من ملاحظةِ الفاعل، ليتفرَّغَ لِمُلاحظةِ الفِعلِ والعكوفِ على معناه، والاطِّرادِ بِمجامعِ هِمَّتِه مع حقائقِ الفِعلِ وهيئَتِه[1].

جماليةُ الاستعارة في: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾:

أعزُّ ما تَتَّصِفُ به الكُتُب أنْ تكون مُحكمَةً مُفصَّلة

في التعبير بالإحكام ثم التفصيل في قوله: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ استعارةٌ تمثيليَّة، حيثُ شبَّه آياتِ القرآنِ في نَظْمِها المُحكَم في معناها ومبناها، بالبناء المَرصوص المُتْقَن في أساسِه وتَشْييدِه؛ إذ جاءت آياتُ القرآن الكريم في أسلوب محكم وفصيح، يتَّسِمُ بالبلاغة والفصاحة، كما أنَّها جاءت مرتَّبةً ومنظمة، يسهل على القارئ فهمُها، وشبَّه القرآنَ في فُصولِه وفواصِلِه وتفصيلِ مضامينه، بالعِقْدِ الثَّمين، واللؤْلُؤِ المنظوم في تفصيلِ فُصوصِه، وتَجْزِئةِ خَرَزاته، وتقسيم هيئاته[2]؛ ولذلك فإنَّ الاستعارة التمثيلية في هذه الآية تُبرز جمالَ القرآن الكريم وبلاغته، وتُبيِّن مدى عنايةِ الله تعالى في ترتيبِ آياته وتنسيقِها.

معنى ﴿مِن﴾:

وثوقِيَّةُ المصدر برهانٌ على وثوقِيَّةِ الصّادرِ عنه

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ على معنى الابتداء، أي: كتابٌ موصوفٌ بصِفتين: أنَّه أحكمتْ آياتُه، وفصِّلت، وأنَّه صادرٌ وواصِلٌ ومُبتَدأٌ من عند الحكيم الخبير، فـ﴿مِن﴾ مع مجرورها صفةٌ ثانيةٌ للكتاب[3].

علَّةُ ختم الآية بهذَيْن الوصفَيْن الجليلَيْن:

الإحكامُ أثَرُ اسمِ الحكيم والتفصيل أثَرُ اسمِ الخبير

ختْمُ الآيةِ باسمَي الحكيم والخبير هو ختْمٌ لوحِظَ فيه مَطْلَعُ الآية، فكأنَّه قال: أُحكِمَتْ آياتُه من لدن حكيم، وفُصِّلَتْ آياتُه من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/225.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/191.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/191.

لدن خبير عالمٍ بالتفاصيلِ والكيفيَّات، فَفِعْلُ: ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ أثَرُ صِفَةِ (الحكيم)، وفِعلُ: ﴿فُصِّلَتۡ﴾ أثَرُ صِفةِ (الخبير)، وقد انبنَى هذا التقديرُ على أسلوبين الأوَّل: اللَّفُّ والنَّشْر على الترتيب، والثاني: مُراعاةُ النَّظيرِ بالمُزاوَجَةِ بين طَرَفَي الكلامِ في المُناسبةِ المعنويَّة(1).

نكتةُ تنكيرِ هذَيْن الاسمَيْن الجليلَيْن:

صِفاتُ اللهِ واسِعةٌ لا تَقْصُرُ عن شيء

جاء النَّظْمُ الكريمُ بتنكيرِ الاسمين الجليلينِ في قوله: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾؛ لإطلاق الصِّفتَيْنِ المذكورتين تعظيمًا لذاتِ المتَّصِف بهما، وتفخيمًا لِسَعةِ الوَصفينِ في مُتعلَّقاتِهما، فكأنَّه قال: حكيم أيِّ حكمةٍ! وخبيرٍ أيِّ خِبْرةٍ! ليفيدَ بالتَّنكير قدْرًا مُبْهَمًا في الصِّفتينِ لا يُقادَرُ قَدرُه، ولا يُبْلَغُ كُنْهُه(2).

سرُّ صيغ المبالغة في الاسمَيْن الجليلَيْن:

صِفاتُ اللهِ كامِلةٌ دائمةٌ لا تنقطع آثارها

في قوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ جاء الوصفانِ الجليلانِ ﴿حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ على وزن (فَعيل)، وهما مَصوغان من اللازم الثلاثي (حَكُمَ وخَبُرَ) على وزن (فَعُلَ) الدّالِّ على الصفات الثّابتة اللازمة كالطبائع والغرائز والسَّجايا، فصيغة (فعيل) - هنا - صِفةٌ مُشبَّهة؛ إذْ هي مُنْقاسَةٌ من (فعُل) اللازم، ونكتةُ التعبير بها: الدَّلالة على ديمومة الصِّفةِ وثبوتها، فمعنى حكيم: دائمُ الحكمة، الموصوفُ بكمال الحكمة، وبكمال الحُكم بين المخلوقات، وخبير: دائمُ الخِبرة، الذي أحاط علمُه ببواطن الأشياء، وخفاياها كما أحاطَ بظَواهرها، ثمَّ يجوزُ أنْ تُحمَلَ الصيغة هنا على المبالغة بطريق اللُّزوم؛ إذْ ديمومةُ الصِّفة يلزم عنها كثرتُها؛ لأنَّ الصِّفَةَ لا تدومُ مع قِلَّة، فيدلُّ الوصفان المذكوران على الديمومة والكثرةِ معًا(3).

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/192، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/315.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/183.

(3) برهان الدين ابن القيم، إرشاد السّالك: 1/680، والمرادي، توضيح المقاصد: 2/22، وشوقي ضيف، تيسيرات لغويَّة، ص: 96، وفاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص: 84.

فائدةُ تقديم صفة الحكمة:

تزدانُ الصِّفاتُ بالحِكمةِ والحُكْم

أوَّلًا: قدَّمَ ﴿حَكِيمٍ﴾ على ﴿خَبِيرٍ﴾ في قوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾؛ لترتيبِ اللَّف والنشرِ في الآية، فقوله: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ مُتقدِّمٌ، وقد وافقَ معنى ﴿حَكِيمٍ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ متأخِّرٌ، وقد وافقَ معنى ﴿خَبِيرٍ﴾، فوافق ترتيبُ الاسمين ترتيبَ ما ناسَبَهما في المعنى في مطلع الآية، فلِمُقتضى الحكمة أحكمَ الآيات، ولمقتضى الخبرة فصَّلها.

ثانيًا: لجَريانِ الخِبْرةِ بعد الحِكمة، فالحكمة من لوازم الإرادة والقدرة؛ إذ هي كمال الحكمة وكمالُ الحُكْم، فهو مُبدِع الأشياء ومتقِنُها بمراعاة مقاديرها ووضعها في مواضعها، وصفة الخبيرِ من لَوَازِم العِلم، وتعلُّقها بدقائق الجزئيات وخفايا المعلومات، فكأنَّه يريد، ويحكُم ويُبدِعُ ويُتقِن، وما أَتْقَنَه وأحكَمَه إجمالًا وظاهرًا، فقد عَلِمَ به تفصيلًا وباطنًا، وخَبَرَ خفاياه وجزئيّاتِه(1).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(فُصِّلَتْ) و(بُيِّنَتْ):

التفصيل هو غايةُ التبيين، فلا يمكِن التفصيل من غيرِ بيان، ولا يلزم العكس

التفصيل: هو التَّمييز بين شيئين، بحيث تُقيم فاصلًا بينهما، فلا يتداخلان، أو يتمازجان، والبيان: هو كشْفُ الشيءِ وتجلِيَتُه وإيضاحه باستقلال من غير اشتراط وقوعه مُوَازَنًا بغيره أو استصحاب غيره معه، ولذلك فالتفصيلُ بيانٌ زوجيٌّ أو جَمْعيٌّ لمتعدِّد، والتَّبيين بيانٌ فرديٌّ لا يلزم فيه استحضار معنى الثنائيَّة أو التَّعدُّديَّة، والتَّفصيل هو الانتقال بين الفصول والمُقابَلات. والتَّبيين هو مطلق الإيضاح، وعليه: فالتفصيل أعمُّ من البيان، فهو بيانٌ مَزيدٌ بتحريرِ المُبَيَّنات بعضِها عن بعض وإقالتِها، بحيث

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/183.

لا يُحتَمَل معها تداخل أو التباس، ولا يقع عليها إيراد أو إشكال، ولا تفتقر إلى اسْتِيفاءٍ واستتمام، والتفصيل هو غاية التبيين، فلا يمكن التفصيل من غير بيان، ولكن يمكن التبيين من غير تفصيل(1).

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 59، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بين، فصل)، والزمخشري، أساس البلاغة: (فصل)، وابن الجوزي، نزهة الأعين، ص: 212، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 230.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢﴾ [هود: 2]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

البِشارةُ والنِّذارةُ تَقْتَضِيان سَبْقَ التكليفِ والتشريع

لمّا أخبَر اللّه سبحانه في الآية السابقةِ أنَّ الكتابَ مُحكَمٌ ومفصَّلٌ في آياتِه؛ بيَّنَ هنا وجهًا من وجوه إحكامه وتفصيله، فذكَر أصولَ الأحكامِ التي هي غايةُ إحكامِ الآيات، وأوردَها مُقسَّمَةً مُفَصَّلةً، فذكرَ الإلهيات، ثمَّ النبوّات، ثمَّ التكاليف، على هذا الإحكام، وذلك التفصيلُ والتَّقسيم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَذِيرٞ﴾: النَّذير، مِنْ (نذر)، وهو أصلٌ يدلُّ على تخويفٍ، ولا يكاد يكون إلا في التَّخويف، ومنه الإنذار: الإبلاغُ بما يُحذَر في مدَّةٍ تتَّسع للاحتراز منه؛ فإنْ لم يكنْ في مدَّةٍ تَسَع التوقّي منه، فهو مجرَّد إخبارٍ وإبلاغٍ بوقوع المكروه، وليس إنذارًا منه[1]. ومعنى الآية: مُخَوِّفٌ لكم من عذاب اللّه إن كفرتم به، وعصيتموه.

2) ﴿وَبَشِيرٞ﴾: البشير هو فاعلُ (التبشيرِ) وهو الإخبار بما يؤثِّر في البَشَرةِ (ظاهرِ الجلدِ) تغيُّرًا، وغلبَ استعمالُه في الإخبار بما يَسُرُّ ويُفرِح، فهو ضِدُّ النَّذير؛ لأنَّه يُخبر بالمكروه، والمراد هنا: أنَّه يُخبرهم بالوعد السّارِّ على العمل الصّالح[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قَصْرُ العبادة على الله وحده، والإقرارُ بمبدأِ الثّوابِ والعقاب

يخبِرُ اللّه تعالى أنَّ مضمونَ هذا الكتاب الذي انبنى عليه إحكامُه وتفصيله، هو إقرار العبادة للّه وحده لا شريك له، والنَّهي عن الشِّرك والكُفْر، ذلكَ أنَّني مُحذِّرٌ لكم - أيُّها النّاس - من عقابِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (بشر).

اللّه إنْ عصيتموه، أو كفرتم به، فاحترِزوا، وقُوا أنفسَكم منه، ومُبشِّرٌ لكم بالثواب وحُسْنِ العاقبة إنْ أطعتُم، وشكرتُم، فاختاروا لأنفسكم الخير.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ بيانَ العلةِ في إنزال الكتاب وأحكام آيِهِ وتفصيلِها هي أن يُعبَد اللّه تعالى وحده، وترشدُ إلى وجوبِ التخلّي عن الشِّرك أوَّلًا، ثم العبادة الخالصة للّه ثانيًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾:

أحكَمُ ما جاء به الكتاب التكليفُ بعبادة اللّه وحده

جملة: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ فُصلت عن سابقتها، ولم تُعطف عليها لأكثر من تعليل: فالفصل إمّا لكمال الاتِّصال؛ لأنَّها جملة تفسيريَّةٌ لقوله: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾، فهي ترفع الإبهامَ في الإحكام والتفصيل المذكورين، والتقدير: أُحكِمتْ، أو فُصِّلتْ إحكامًا وتفصيلًا مقولًا فيه: ألّا تعبدوا إلّا اللّه، فالجملةُ تفسيريَّةٌ مسبوقةٌ بما له معنى القولِ دون نصِّه وحروفه، وعليه: فـ(أنْ) تفسيريَّة، و(لا) ناهية، وهو الوجْهُ؛ "لأنَّ قوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾، فيجب أن يكون معناه، أي: لا تعبدوا؛ ليكون الأمر معطوفًا على النَّهي، فإنَّ كونه بمعنى (لئلا تعبدوا) يمنع عطف الأمر عليه"[2]. أو جملة: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ مفصولة عن سابقتها للاستئناف البيانيِّ، فهي جملة تعليليَّة لما قبلها، لبيانِ الغايةِ من الإحكام والتفصيل، فكأنَّه قيل: أُحكمتْ آياته، وفُصِّلتْ لِئلّا تعبدوا إلّا اللّه، أو بألّا تعبدوا إلّا اللّه، فـ(أنْ) مصدريَّة، و(لا) نافية، وهذا الوجْه على إضمار لام التعليل أو باء السَّببيَّة، أو جملة: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ كلامٌ مستأنفٌ منقطعٌ عمّا قبله على لسان الرسول ﷺ على سبيل

(1) الجزائري، أيسر التفاسير: 2/521.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/314.

الإغراء، بحذف فعلٍ مقدَّر، فكأنَّ الرسول ﷺ يقول لهم: الزموا عبادةَ اللّه إنَّني لكم منه نذيرٌ وبشير، فجملةُ ألّا تعبدوا في حيّز المفعول لفعل الإغراء المقدَّر، فلكونِ الجملة تفسيريَّةً أو تعليليَّةً أو منقطعة عمّا قبله فُصِلَتْ، ولم توصَل بالواو(1).

بلاغةُ القصْرِ في: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾:

النَّهيُ هو طلبُ نفْيِ الفِعلِ بتركِه

في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ هو قَصرٌ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ، طريقه النَّهيُ والاستثناء؛ إذِ النهيُ مع الاستثناء، كالنَّفي - تمامًا - مع الاستثناء في إفادةِ القَصْر؛ لأنَّ النَّهي هو طلبُ نفيِ الشيء بعدم ارتكابه، فالنَّهيُ مُشتملٌ على معنى النفي وزيادة، وقد قصرَ - هنا - العبادةَ على اللّه - وحده - قصرَ صفةٍ على موصوف.

دلالةُ جِهةِ الخطابِ في: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾:

عمومُ الخطابِ يشملُ المؤمنَ بتجديدِ العهْدِ معه، والكافرَ بإنشاءِ تكليفِه

الخطاب في قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ لعموم النّاس، ويدخلُ فيهم مَنْ ليس مؤمنًا دخولًا أوَّليًا؛ إذْ هذا الخطابُ بالنسبة إلى غَيْرِ المؤمنِ تأسيس، وبالنِّسبة إلى المُؤْمِنِ تثبيت(2).

موقع جملة: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾:

يَصِحُّ إجراءُ الجملةِ في قوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ على الاحتمالاتِ الآتية:

وجودُ الثوابِ والعقابِ لازمٌ عن سبْقِهما بالتَّكليف

- الجملة استئنافٌ بيانيٌّ، فكأنَّه لمّا خوطبوا بجملة النهي والاستثناء، سأل سائِلٌ: فما برهانُ هذا التكليف وما الدّاعي إلى قبوله؟ فأجيب: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾، فهي جملة تعليليَّة لما سبقها.

- الجملة اعتراضيَّةٌ خبريَّة بين جملتين إنشائيتين، وهو قوله:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/378، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/120، والسّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/280، والآلوسي، روح المعاني: 6/193، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/315.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/316.

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾، وقوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾، وغرضُ الاعتراض بها: إتْباع التكليف بما يُسوِّغه، ومباغتةُ المخاطَبِ به قبل استتمامِ الخطابِ التكليفيِّ معه؛ ليكون أعونَ وأنهضَ للمخاطَبِ على استدامةِ الوعي بما يُلقى إليه حتى استتمامه، فكأنَّه قال: لا تعبدوا إلّا الله، ثمَّ أراد استدامةَ انتباههم، فلم يُتْبِعه بأمرٍ آخر مباشرةً، توقُّعًا لاستثقالهم ونفورهم عن التكليف، فأخبرهم بما يَحملهم على استمرارهم في القبولِ منه، بأنّه بشيرٌ ونذيرٌ لهم، أي: أنصِتوا، ولا تستكبروا، ثمَّ قال: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾[1].

بلاغةُ تعاقُبِ الجُمَلِ الثَّلاث على هذا الترتيب:

الوصفُ بالبشير والنذير يقتضي الإرسال بالتكليف

الجُملةُ الأولى وهي قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾، ثم الجملة الثانية في قوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾، والثالثة في قوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾، حيث جاءت هذه الجمل على هذا الترتيب دون تأخيرِ ما قُدِّم، أو تقديم ما أُخِّر، لتقريرِ الأهمِّ فالمُهمِّ في بابِ أصولِ التكاليف، فقوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ تكليفٌ بأصل الأصول، وهو حقُّ الإله العظيم ﷻ في عبادتِه وحده لا شريك له، فبدأ ببابِ الإلهيّات، وقوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ إيماءٌ إلى حقِّ الرسول ﷺ في الاتِّباع وطاعته في بلاغه التَّكاليفَ، فثنّى ببابِ النبوّات، وقوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ تكليفٌ بالاستغفار والتَّوبة، وهو كنايةٌ عن التشريع الذي هو برهانُ الاعتقادِ في الألوهيَّة والنبوَّة، فثَلَّثَ ببابِ الأعمالِ الصّالحات بعد الإيمان بالله والرسول.

سرُّ مجيء الخبر في معنى الإنشاء:

لا بدَّ من الإيمان بالرسول أنّه مُبَلِّغ عن الله

قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ خبرٌ مقحَمٌ بين جملتي إنشاءٍ، وهما قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾، وقوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾، ممّا يُعينُ على تضمين الجملة الخبريَّة، وهي قوله: ﴿إِنَّنِي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/316، وصافي، الجدول: 11/215.

﴿لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ معنى الإنشاء والأمر، فكأنَّه قيل: اعبدوا اللّه وحده، وآمِنوا بي بشيرًا ونذيرًا، واستغفروا، وتوبوا.

نُكتةُ مجيء: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ بلفظِ الخبر:

مجيءُ القرآن بكلامِ الرسولِ عن نفسِه تزكيةٌ لشخصِه الشريف

جاء البيان الإلهي في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ بلفظ الخبر، دون الإنشاء، رغم أنَّه مُقحَمٌ بين جملتي إنشاءٍ، فلم يقل في السّياق الكريم: (آمِنوا بي بشيرًا ونذيرًا)؛ لِقصدِ استحضار ذاتِ المُخاطِب عند المُخاطَب، بالدَّلالةِ والنصِّ والتَّعيينِ لشخص المُبَلِّغ للخطاب في قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾، وهو الرسول ﷺ، ولتَعيُّن هذا القصد جاء الخبر بضمير المتكلِّم دون الغائب، فلم يقل: (ألّا تعبدوا إلّا اللّه إنَّه لكم منه نذيرٌ وبشير)، بل قال: ﴿إِنَّنِي﴾؛ إمعانًا في استحضار ذاته الشريفة ﷺ، وهو ينطِقُ بالخطابِ والبَلاغ، وغرضُ هذا الاستحضار المذكور: إدخالُ السّامعِ البلاغَ في حال المُعايَنَة واليقين لِواسطةِ التبليغ، بما يَحمله على حقِّ اليقين وعينِ اليقين في ما يُبَلَّغُ به من مفرداتِ الإيمانِ وتكاليفه.

غرضُ تقديم الصِّفة على موصوفها المُنكَّرِ لفظًا:

نَفيُ أنْ يكون الرسول وكيلًا وإثباتُ كونِه بشيرًا ونذيرًا

لم يقل في السّياق الكريم: (إنَّني نذيرٌ وبشيرٌ لكم)، فقدَّم الجارَّ والمجرور، لإيقاعه موقِعَ الحال لا الصِّفة، لثلاثة أغراضٍ:

الأوَّل: لتقديم ضميرهم: ﴿لَكُم﴾ عنايةً بهم؛ لأنَّ إرسال الرسول ﷺ كان لأجلِهم؛ رحمةً بهم، فهم المقصودون في المعنى، فقصَدَهم أوَّلًا في اللفظ.

الثاني: لِلْبِدارِ بتعيينِ جهةِ الإرسال؛ إذْ هي حَرِيَّةٌ بالتقديم، وقد نصَّ عليها بـ (مِنْ) الابتدائيَّة، أي: إنَّني لكم مِنْ جهة اللّه نذيرٌ وبشير.

الثالث: إفادةُ معنى الاختصاص بتقديم ما حقُّه التأخيرُ، فتقديم

الجار والمجرور في قوله: ﴿لَكُم﴾ أفاد معنى الاختصاص، أي: إنَّني لكم أنتم خاصَّة[1].

دلالةُ تنكير لفظي: ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾:

قيامُ الرسول بالنِّذارة والبشارة من اللهِ على أتمِّ الوجوه والأحوال

التنكير في قوله: ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾؛ لتفخيم الموصوف، وتعميم الصِّفة، أي: بشيرٌ بكلِّ خير، ونذيرٌ من كلِّ شرٍّ، أي: إنَّ النذير والبشير هما من أعظم الألقاب التي أكرم اللّه بها رسوله ﷺ، فهو ينذرُ الناس من عذاب اللّه ويبشِّرهم برحمته وجنَّته، وهذا هو شأن الرسالة والرسل. وفيه إظهارُ عظمة الرسالة التي جاء بها النبي ﷺ، حيث إنَّه جاء برسالة عظيمة، وهي رسالة التوحيد، متضمِّنة النِّذارة والبشارة، وهي رسالةٌ تشمل جميع الناس، سواء أ كانوا صالحين أم غير ذَلِكَ، وتأكيدُ أنَّ النبي ﷺ جاء برسالة حقيقية، وأنَّها ليست مجرَّدَ رسالة من صنعه أو من صنع غيره، وإنَّما هي رسالةٌ من اللّه تعالى.

نُكتةُ تقديم الوصفِ بالإنذار على البِشارة:

مَنْ خافَ من اللهِ سَلِم وغَنِم

قدَّم الوصف بالنَّذير على البَشير في قوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾؛ لأنَّ الإنذار يقتضي تركَ ما يُسِيء، والبشارة تقتضي فِعل ما يَحسُن، والتخلية مُقدَّمَةٌ على التَّحلِيَة، ولأنَّ التخويفَ ممّا يَضرُّ أعونُ وأنهضُ على استجلابِ ما ينفَع، ولأنَّ الوقاية من النَّذير نافعةٌ من غير البشير، بخلاف البشارة لا تنفع إلّا باجتناب محلِّ الإنذار، ولأنَّ الخطابَ في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ موجَّهٌ أصالةً للمشركين، فناسَبَ تحذيرهم بالإنذار قبل البشرى، ولِمراعاة النَّظير في السّياق، فختمَ الآيةَ بما يُناسِبُ مَطلَعَها، وهو قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾، فالنَّهيُ في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ يوافِق النِّذارة، وجملة الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ يوافِقُ البِشارة، وهو من بديع التقابل

(1) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/281، والبقاعي، نظم الدرر: 9/226، والآلوسي، روح المعاني: 6/193.

بين المطلع والخاتمة، مع ما في كلٍّ من تركيب المطلع، وتركيب الختْم من المقابلة بين المعنى وضِدِّه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنذار والتّخويف والتّرهيب والتّهديد:

يَقترنُ الإنذارُ بِمُدَّةٍ تَسْمَح للمُخاطَبِ أنْ يَحترِزَ مِمّا خُوِّفَ مِنْه

الإنذار: هو الإعلامُ بما يُخافُ؛ ليقع الحذَرُ والسلامةُ منه، ويكون غالبًا من المكارِه وسوء الأحوال، ويقترنُ بمدَّةٍ تتَّسع للتحرُّز والتوقِّي من المَخوفِ منه.

التَّخويف: هو قصدُ إخافةِ المُخاطَب، بإعلامِه بموضع الخوف، ولا يُشترطُ فيه إمهال المُخَوَّف ليحترزَ أو يتوقّى من المَخوفِ منه.

التَّرهيب: هو المُبالغةُ في التَّخويف حتّى يضطربَ لذلك الرَّهاب، وهو عظْمُ الصَّدرِ المشرِفُ على البطن، فالترهيب فيه زعزعةٌ وإقلاقٌ وقلقلةُ المُخاطَب بالاضطراب والتخويف من عدم الاستجابة، فالترهيبُ يُقصَدُ به مآلُ عدم القبول والعصيان، بخلاف الإنذار فإنَّه يتعلَّق بالمُخوَّف، وموضع المخافة، وهو المَخُوفُ منه، ويتعلَّق بالعاقبة، وشرطٌ فيه مدَّةُ الإمهال للتحرُّز، والترهيب لا يلزم فيه إمهالٌ للتحرُّز، ويتعلَّق بنتيجة عدم الطّاعة، فلا يلزم منه بيان حال المَخوفِ منه.

التَّهديد: مِنَ (الهَدِّ) وهو هدْمٌ له وقْع، وسقوط شيءٍ ثقيلٍ له هَدَّة، وهي صوتُ وقْعِه، وهو ينهار، والتهديد: هو الزَّعزعةُ بالوعيد، فيرتعِبُ الخصمُ حتى يتسيَّب، وينهار، والفرق بين التهديد والإنذار: أنَّ الإنذار يكون عن نصيحةٍ وإشفاق بالمُخاطَب، والتهديد يكون عن غَيظٍ وغضب وعدمِ اكتراثٍ بمصلحةِ المُخاطَب، وقد يكون عن خصومةٍ وكراهية[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/120، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/183، ورشيد رضا، تفسير المنار: 7/12، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/316.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر، رهب)، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رهب، نذر، هدد).

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ٣﴾ [هود: 3]

العملُ الصّالِحُ حِرزُ الإيمان

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا أمرَ في الآيةِ السّابقة بإخلاص العبادة للّه وحده لا شريك له، وأسَّس بشارة النبيِّ ونِذَارته على هذا الأصل، أعقبَ ذلك الأصلَ بما يُثَبِّتُه، ويَصونُه، ويُديمُه من العمل والطّاعة، وهو الأمر بالاستغفار والتوبة، وأَتْبَعَهُ بتفصيل موضع البشارة والنِّذارة من الثواب والعقاب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُمَتِّعۡكُم﴾: مِنْ (متع) وهو أصلٌ يدلُّ على طولِ المُدَّةِ في الخيرِ والمنفعة، ومنه المَتَاع: وهو انتفاعٌ مُمْتَدُّ الوقت، ومنه المُتْعَة: وهي لذَّةُ النِّعمةِ حال الاستمتاع بها، ومعنى: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾: يُعمِّرُكم في طَيِّبِ العيْش والمتاعِ السَّهلِ الذي لا شَقْوَةَ فيه[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

وسائلُ تمتيعِ اللهِ عبادَه متاعًا حسنًا بالنِّعمِ والأرزاقِ والخيرات

أقبِلوا على ربِّكم، واسألوه أنْ يغفِر لكم ذنوبَكم، ثمَّ ارجِعوا إليه نادِمين تائبين، فإنْ فعلتُم؛ فإنَّه يُمتِّعكم في دنياكم متاعًا حسنًا بالحياةِ الطَّيِّبة والعيشِ السَّهل الهيِّن، إلى أن يَحين أجلُكم، ويُعطى كلُّ ذي فضلٍ من علم وعملٍ جزاءَ فضله كاملًا لا نقصَ فيه، جزاءً يليقُ بسَعةِ فضلِ اللّه، وإنْ تُعرِضوا عمّا أدعوكم إليه؛ فإنّي أخشى عليكم عذاب يومٍ شديدِ الأهوال، وهو يوم القيامة[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (متع).

(2) مجمّع الملك فهد، التفسير الميسّر، ص: 221.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ من زادَ في الإحسان، زادَ اللّه له في الثوابِ بقدْرِ ما زادَ من الحسناتِ والأعمالِ الصالحة، كما قال سبحانه: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ٢٦﴾ [الشورى: 26].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطف الآية على سابقتها:

برهانُ العبوديَّةِ رجاءُ المغفرة وحسْنُ التوبة

جملة: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ معطوفةٌ على قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ وحسُنَ الوصل بالواو لاتِّحادها مع ما قبلها في معنى الإنشاء، فجملة: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ نهيٌ عن مرهوب، وجملة: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ أمْرٌ بمرغوب، و(أنْ) في الجملتين تفسيريَّة؛ إذِ الجملتانِ بيانٌ لِما في قوله: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ من إجمال[1].

معنى ﴿وَأَنِ﴾ ونكتةُ إعادتِها:

لا اشتباهَ ولا إبهامَ في أصول التكاليف والأحكام

﴿وَأَنِ﴾ في قوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ إمّا تفسيريَّة، وقد سبق بيانُ أنَّه الراجح، لعدم الإضمار ولعطفِ الإنشاء على الإنشاء، ونكتةُ إعادتها في: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ مع عدم الاكتفاء بها أوَّل مرَّة في قوله: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾؛ لوجود الفاصل بينها وبين معطوفها، وهو قوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾، فلو جاء النَّظمُ: (ألا تعبدوا إلا اللّه إنَّني لكم منه نذيرٌ وبشير، واستغفروا)؛ لأوْهَمَ عدمَ دخول جملة الأمر بالاستغفار في حيِّز تفسيرِ الجملة المتضمِّنة معنى القولِ: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾، فأعاد (أنْ) لإلحاقها بتفسير الإجمال السابق عليها، فهي قسيمةُ الجملةِ الأولى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ في التفسير، ولو حذفَ (أنْ)؛ لأوهمَ انقطاعها عن هذا التقسيمِ التفسيريِّ[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/317.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/312.

دلالةُ الأمر في: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾:

ليس القصدُ قولَ الاستغفار، بل الدُّخولَ في حالِ الاستغفار

فعل الأمر في قوله: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ يفيد وجوب الدُّخولِ في حال الاستغفار بعد التبرُّؤِ من الشِّرك وإفراد اللّه وحده بالعبادة، وفائدةُ الأمْرِ به: طلبُ العفوِ عمّا مضى من حالِ الشِّرك والإبعاد بالمعاصي، وسؤال السَّترِ بالوقايةِ من عدم القبول، أو الوقاية من عاقبة السّوء في الحال والاستقبال.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ الربوبيَّة وإضافته إلى ضمير المخاطَب:

مغفرةُ اللهِ مضمونةٌ بتحقيقِ الاستغفار

أوَّلًا: إسناد الاستغفار إلى لفظِ الرُّبوبيَّة؛ لِما بينهما من حُسْنِ المُناسبة، فإنَّ الاستغفار استعطافٌ من العبدِ للّه الكريم أنْ يتفضَّل عليه بعطايا الغفران من السَّتر والوقاية وحسن العاقبة، ولا يَتِمُّ ذلك للعبدِ إلّا بِمَدَدِ الرُّبوبيَّة ومقتضاها من الإحسانِ والإنعام، فكأنَّ في إسنادِ الأمرِ إلى وصفِ الربوبيَّة وَعْدًا بالمغفرةِ وإيذَانًا بها.

ثانيًا: في إضافةِ لفظ الربوبيَّةِ إلى ضمير الخطاب إيذانٌ بقربِ اللّه من المُستغفرين وتودُّدِه إليهم بإسراع إجابتهم وإيناسِ خواطرهم بالمغفرة والقبول.

معنى ﴿ثُمَّ﴾:

لا ينفكُّ المؤمن عن حال الاستغفار والتوبة

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ على بابِها من التَّراخي الزَّمني؛ لأنَّ مَرتبةَ العملِ بالتَّوبة متأخِّرةٌ عن مرتبةِ القولِ بالاستغفار، فكَمْ مِنْ مُسْتغفِرٍ وهو مُصِرٌّ على الذنب، وهذا محمولٌ على اعتبار التبايُنِ بين التَّوبةِ والاستغفارِ في الحقيقةِ المعنويَّة فينفصلان في الحدوث.

وأمّا بالنَّظرِ إلى اعتبار اتِّحادهما في الشَّرطيَّة والتَّمام، إذ لا يصحُّ الاستغفار إلّا بالتوبة، ولا تتمُّ التوبة إلا بالاستغفار، فـ﴿ثُمَّ﴾ محمولةٌ على التراخي الرُّتبيِّ لا الزَّمنيِّ، فهي تفيد - حينئذٍ -

الترتيبَ والتَّراخي؛ "للدَّلالة على البُعد بين المقامين: مقامِ الاستغفار عن الشِّرك، ومقامِ التوبة، فالتوبة ذاتها عبادة، ولا تراخي في الزمن، بل الزَّمن واحد، ولكنَّ البُعد في الرُّتبة"[1]، ووجه الرُّتبيَّة بين الاستغفار والتوبة: أنَّ مُسمّى التوبة بتصحيحِ حال الشِّرك بالعبوديَّة الخالصةِ للّه، أهمُّ وأعلى رتْبةً من مجرَّد سؤال المغفرة على ما كان، فالتركيبُ من باب الترقّي من الأدنى إلى الأعْلى[2].

دلالةُ الأمر بقوله: ﴿تُوبُوٓاْ﴾:

التوبةُ أجْمَعُ من الاستغفار

الأمر بالتوبةِ في قوله: ﴿تُوبُوٓاْ﴾ الأصل فيه الوجوب، ويفيد معنى اتِّصافِ العبدِ بالبُعدِ عن اللّه قبل توبتِه، وبالعودةِ إلى خلْقِه الأوَّل بُعدها من الفطرة المستقيمة والطَّبْع السليمِ الصّالِح للعبوديَّة الخالصة وَالكَارِهِ لِلْفُسُوقِ والعصيان[3].

نكتةُ تقديم الأمر بالاستغفار على الأمر بالتوبة:

الاستغفار ندمٌ على الماضي، والتوبةُ تصحيحٌ للحاضر

تقديمُ الاستغفار على التَّوبةِ في قوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ لِتقدُّم مُتعلَّق الاستغفار على متعلَّقِ التَّوبةِ في الزَّمَن، فالاستغفار يتعلَّق بسؤال المغفرة ممّا مضى، وانقضى، وفات من العمَل أنْ يُغْفَر، ويُستَر، والتوبةُ فيها ملابسةٌ لعملٍ صالحٍ حاضر، ونيَّةٌ تتعلَّق بالمستقبل في الإقلاع عن الذَّنب وعدم العوْدة، وندمٌ يتعلَّق بما فات، ومضى من السّوء، وجُزْؤها الذي يتعلَّق بالماضي يقومُ به حال الاستغفار، فثبتَ أنَّ الاستغفار أخلصُ بالماضي، والتوبةُ أخْلَصُ للحال والاستقبال، والماضي أسبق، فوقَع الاستغفار سابقًا في النَّظمِ على التوبة[4].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3662.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/312، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/149، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/378، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/120، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/7، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/317.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3662.

(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/3، والماوردي، النكت والعيون: 2/456، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/315.

المتاع الحسن جزاءُ الاستغفار والتوبة

الموقع النَّحويُّ لـ: ﴿يُمَتِّعۡكُم﴾:

الفعل المضارع في قوله: ﴿يُمَتِّعۡكُم﴾ مجزومٌ لوقوعه جوابًا للأمر في قوله: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾، مع عدم اقترانه بالفاء، وجملةُ جوابِ الأمر لا محلَّ لها من الإعراب؛ لأنَّها على تقدير شرط: (إنْ تستغفروا، وتتوبوا؛ يُمتِّعْكم)[1].

ليس كلُّ متاعٍ يُطلَبُ، فلا يُرجى إلّا المتاعُ الحسَن

غرضُ التَّوكيد بالمفعول المطلق ﴿مَّتَٰعًا﴾:

أكَّد الفعلَ بالمفعول المطلق في قوله: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾؛ لِقصْدِ إجراء الوصفِ عليه بقوله: ﴿حَسَنًا﴾، فلولا الإطنابُ بمجيء اسم المصدر ﴿مَّتَٰعًا﴾؛ لَمَا تأتّى مجيءُ الوصف بالحُسن، فكان المفعولُ المطلقُ وُصْلَةً يُتَوَسَّلُ بها الوصف المذكور[2].

القناعةُ والرِّضا متاعٌ حسَن، فليس كلُّ المتاعِ مادَّةً وأعيانًا

دلالةُ التعبير باسم المصدر دون لفظِ المصدر:

لم يقل في السياق الكريم: (يُمَتِّعكم تَمْتيعًا) بالمصدر، بل عبَّر باسم المصدر: ﴿مَّتَٰعًا﴾؛ لأنَّ اسمَ المصدر يدلُّ على الاسم المفهوم من الحدث، والمصدر يدلُّ على الحدث، فالمتاع هو اسم الشيء الحاصل من حدَثِ التَّمتيع وهو مادَّةُ الشيء المُتَمَتَّع به، فاسم المصدر يدلُّ بموجبِه على اسم الشَّيء وعلى الذاتِ التي تعلَّق بها، ولذا جاز أن يكون لفظ ﴿مَّتَٰعًا﴾ مفعولًا به، باعتبار دلالتِه كاسم مصدرٍ على "اسم ما يُنتفع به من منافع الدنيا من الأموال والبنين وغير ذلك"[3]، لا على اعتبار أنَّه في موقع المصدر[4].

متاعُ الدُّنيا سريعُ الزوالِ سريعُ الفواتِ سريعُ التحوُّل

وجهُ إطلاق لفظ (المتاع) على منافع الدنيا:

عبَّر عن منافع الدنيا بالمتاع، تسميةً للشيء بما يؤول إليه، ويُبتغَى منه على سبيل المجاز المرسل لاعتبار ما يكون، وهي علاقةُ الأيلولة؛

(1) صافي، الجدول: 11/217.
(2) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/283.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/194.
(4) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/164.

إذِ المنفعةُ تؤولُ إلى المُتْعَةِ، فالمنافع تُحصَّل للاستمتاعِ بها غالبًا، وتُحصَّل لغرضِ استدامتها مُدَّةً طويلة لِضمانِ الاستقرارِ في خَيْرِها؛ إذِ الالتذاذُ والتَّمتُّع لا يتمُّ إلّا ببقاء المنفعةِ زمنًا، فسَمّى المنافع باسم مقاصِدِ أصحابها منها، وفي تسميةِ المنافع بالمتاع دلالةٌ على سرعةِ انقضائها في الوقت، وسرعةِ زوالها في الإحساس والشُّعور؛ لأنَّها مادامتْ متاعًا، فهي مؤقَّتة، والمؤقَّتُ محدودٌ وإنْ طال، وما دامتْ تُبْتَغى لِلَّذَّة، فاللَّذَّةُ تَزولُ بالاعتياد، وتتْلفُ بعوارضِ الكدَر، فثبتَ أنَّ المتاعَ سريعُ الفواتِ، غيرُ ثابتٍ، ولا مضمون، وما كان كذلك، فجديرٌ بالعاقل ألّا يركنَ إليه، وألّا يَغفُل به عن اللّه الجليل الذي جادَ به(1).

فائدةُ وصف المتاع بـ ﴿حَسَنًا﴾:

لا يُمدَحُ متاعُ الدُّنيا إلا إذا كان حسنًا طيِّبًا

وصفُ المتاع بقوله: ﴿حَسَنًا﴾؛ للنَّصِ على حقيقةِ الجزاء، فإنَّ الجزاءَ والمكافأة على الاستغفار والتوبة ليستْ في مجرَّد حصول المتاع؛ إذْ عرفتَ أنَّ المتاعَ غير ممدوحٍ في ذاتِه، لِما فيه من معاني السَّلب والانقطاع، بل الجزاءُ في حُسْنِ المتاعِ لكونه متَّصِفًا بذلك، فالوصفُ لتقييد نوعِ المتاعِ المذكور، بأنَّه متاعٌ خاصٌّ للمستغفرين التائبين، وهو تمتيعٌ حسَنٌ يليق بقُربِ مقامهم من اللّه(2).

براعةُ اصطفاء لفظِ ﴿حَسَنًا﴾ لوصفِ المتاع به:

أهل الاستغفار والتوبة هم أهل الإحسان المَجْزيُّون به

إنَّما وصَفَ المتاع بـ ﴿حَسَنًا﴾ دون غيره من الأوصاف؛ للإشارةِ إلى أنَّه جزاءٌ يُقابِلُ جِنْسَه من العمل، فهو يؤذِنُ بأنَّ الاستغفار والتوبة المأمور بهما في قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ من مقاماتِ الإحسانِ في العمل، ولا يَتحقَّقُ بهما إلّا المحسِنون، ولذا جازاهم عليه بالإحسان، مُطَابِقٌ مع عادة القرآن في مُجازاة الإحسان بالإحسان،

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/316، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (متع).

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/95، وابن جُزَيّ، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/365، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/317.

كما صرَّح به في قوله: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [القصص: 77]، وقوله: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرّحمن: 60].

دلالةُ التنكير في: ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾:

المتاع الحسَن لا يلزمُ منه أن يكون كثيرًا

التنكير في قوله: ﴿مَّتَٰعًا﴾ لإفادة الإطلاق والشّيوع المُبْهَم، أي: متاعًا أيَّ متاعٍ، فلا يُعرَف له نوعٌ ولا مقدار، فلمّا وصِفَ بالنَّكِرة ﴿حَسَنًا﴾؛ أفاد تنكيرُها تعيينَ النَّوع، أي: نوعٌ محدَّدٌ في المتاع هو النَّوع الحسَن(1). فالتنكيرُ هنا للتبيين والتوضيحِ، أي: إنَّ اللّه تعالى يمتِّعُ عبادَه المستغفرين والتائبين بمتاعٍ حسن، لا يختلطُ بشرٍّ، ولا يلحَق به ضُرٌّ، ولا يتغيَّر بحالٍ، بل يبقى على حُسنه وجماله وكماله، وفيه إظهارُ عظمةِ النِّعَم التي يُنعِم اللّه تعالى بها على عباده المَوْصُوفِينَ بالاستغفار والتوبة، حيث إنَّها ليست مجرَّدَ نعمٍ مطلقة، بل هي نِعَمٌ حسنةٌ طيبة ومباركة، تعود على العباد بالخير والنفع.

دلالة ﴿إِلَىٰٓ﴾:

يستوي النّاسُ في انتزاع المتاعِ عنهم ببلوغ الأجَل

﴿إِلَىٰٓ﴾ ومدخولها في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ متعلِّقٌ بقوله: ﴿يُمَتِّعۡكُم﴾، وهو غايةٌ للتمتيع المذكور، بدلالة حرف الانتهاء ﴿إِلَىٰٓ﴾ الذي هو نَصٌّ على تحديد نهايةِ الفعلِ، فكأنَّه قيل: يمتِّعكم متاعًا ذا نهاية، أو مُنتهيًا، فالجار والمجرور في معنى الوصف بالانتهاء الذي يُشير إلى أنَّ المقصود بالمتاع متاعُ الدُّنيا؛ إذْ هو المتاع الذي سينتهي(2).

نكتة تنكير الأجل:

إبهامُ الأجَل اعتباريٌّ نِسْبيٌّ، فباعتبار صاحبه مجهول، وبالنِّسبة لجاعِلِه معلوم

تنكيرُ لفظ الأجل في قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ على بابه من إفادة معنى الإبهام، أي: أجلٍ منكورٍ غير معلوم، ووصْفُه بـ ﴿مُّسَمّٗى﴾ لم يرفع إبهامَه عند السامع، بل أفاد أنَّه غير مُبهَمٍ في نفسه، فإبهامُه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/317.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/317.

حاصِلٌ من جهة السامع، مَعْلُومٌ وظاهرٌ في جهتِه العليا عند اللّه، وهو يفيد أنَّ إبهامَه مقصودٌ مُرادٌ لِحِكْمَة؛ إذْ هو من صَفحاتِ الغَيْب.

فائدةُ مجيء اسم المفعول ﴿مُّسَمّٗى﴾:

لا حيلةَ للعبدِ في رزقِه وأجَلِه فكلاهما قَدَرٌ مُسمًّى

مجيء وصف الأجَل بصيغة اسم المفعول ﴿مُّسَمّٗى﴾ في قوله تعالى: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ دلَّ على ثلاثةِ معانٍ: الدَّلالة على ذات المفعول، وهو الأجلُ نفسُه بمقدارِه وكيفيَّته، والدَّلالة على الحدَثِ الثّابت، فتسميَةُ الأجل ثابتةٌ دائمة؛ لأنَّها حُكمٌ مَقْضيٌّ، والدلالة على الحدوث، وهي الفعليَّة، فهو حادِثٌ في الزَّمنِ الماضي، وباعتبار ميلاد كلِّ إنسان، فأجَلُه يبدأُ في الحدوثِ معه[1].

معنى الواو في: ﴿وَيُؤۡتِ﴾:

اللهُ يُجازي أولياءَه في الدُّنيا قبل الآخرة

جملة: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، فهي داخلةٌ في حيِّز جوابِ الأمر في قوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، وفائدةُ العطف بها تقسيمُ الجوابِ إلى جزأين مُتقابلين: جزءٌ يتعلَّق بالدنيا، وهو المتاع الحسَن المنتهي بالأجَل، وجزءٌ يتعلَّق بالآخرة، وهو إيتاءُ كلِّ ذي فضْلٍ فضْلَه[2].

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿وَيُؤۡتِ﴾ مادّة وصيغة:

الإيتاءُ أبلغ من الإعطاء وأدلُّ منه على السَّعةِ والهناءة

﴿وَيُؤۡتِ﴾ من الإيتاء بمعنى الإعطاء، وفي التَّعبير به دلالةٌ على علوِّ المؤتي وسَعةِ إفضاله وبَسْطَةِ يدِه؛ لأنَّ الإيتاء إنَّما يُسنَدُ إلى العطاء العظيم، ولذا أُسنِدَ هنا إلى (الفضْل) وهو الشيء الوافِر الفائضُ الكثير، وفي التعبير بالإيتاء - أيضًا - دلالةٌ على أنَّهم يَنالونَ ما يَنالون من غير عناء بل في تمام هناء؛ إذِ الإيتاء يدلُّ على أنَّ الجزاء يأتي إليهم، ويَحضُر من غيرِ مُعاناةٍ في التَّطلعِ إليه أو السَّعيِ له، بل يأتيهم في يُسْرٍ ورَغادة[3].

(1) فاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص: 52.

(2) صافي، الجدول: 11/217.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/96.

غرضُ حذف فاعل ﴿وَيُؤۡتِ﴾:

لم يقل في السّياق الكريم: (ويؤتِ اللّه كلَّ ذي فضلٍ فضلَه)، فطوى ذِكْرَ الفاعِلِ إيجازًا، لثلاثةِ وجوه:

لا تَصَرُّفَ بالمنْع والمنْح يوم الدّين إلّا لِلّه

الأوَّل: أنَّه في مقام لا إيتاء فيه إلّا له سبحانه، فهو مالك يومِ الدّين، لا أحدَ يُنسَبُ إليه مُلْكٌ ولا عطاءٌ ولا شيء إلّا له سبحانه، ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار: 19]، فلمّا كان قوله: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ مقصودًا به جزاءُ الآخرة؛ لم يُحتَج إلى الإطنابِ بالتَّصريح بالفاعل؛ إذْ لا يَخفى أنْ لا فاعِلَ فيه إلّا اللّه.

الثاني: ظهورُ الفاعلِ في السّياق في قوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم﴾، فاكتَفى بذِكْرِه السابق عن إعادةِ التصريح به.

الثالث: أنَّ جملة: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ داخلةٌ في حيِّزِ جوابِ الأمر بالعطف على جملة الجواب ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾؛ فهي في حكمِها إعرابًا ومعنًى، والفاعِلُ مُضمَرٌ فيها في ﴿يُمَتِّعۡكُم﴾، فيُضمَرُ كذلك في الجملةِ التي في حكمِها؛ لِتحصُل الموافقةُ من جميع الوجوه.

مدلولُ الفَضْلَيْن في: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾:

أهلُ المعروف في الدُّنيا هم أهل المعروف في الآخرة

معنى قوله تعالى: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾، يؤتي اللّه كلَّ صاحبِ فضلٍ من العملِ فَضْلَهُ من الجزاء، فالفضل الأوَّل للإنسان، والفضل الثاني لِربِّ العالمين[1].

دلالةُ تسميةِ الأعمالِ بالفضل:

مدحُ العملِ مدحٌ لصاحبِه

قوله: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ﴾، أي: صاحبِ عمَل، فسَمّى العمَل فضْلًا، وفيه أربع نِكات:

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/96.

الأولى: ليَدُلَّ على أنَّه عملٌ صالحٌ من معالي الأخلاق والخصال.

الثانية: لإفادةِ أنَّه كان في وسْعِهم بلوغ هذا الفضل، ولذا كان فضلًا، أي: فائضًا يقدرون على بَذْلِه من غير عناء، وهو يفيد أنَّ اللّه لم يُكلِّف نفسًا إلّا بما في وسْعِها.

الثالثة: للدلالة على أنَّ تلك الأعمال هي أجدرُ ما يؤتَى ويُفعَل؛ لأنَّها فاضلةٌ في نفسِها فهي حقيقةٌ بالالتزام وإنْ لم يكنْ جزاءٌ عليها(1).

الرابعة: أنَّ اللّه سَمَّى أعمالَهُم (فضْلًا) تزكيةً لأعمالهم ومدحًا لها؛ إذْ مدحُ العملِ مدحٌ لصاحبِه، فلمّا كان المُقامُ مقامَ جزاء، كان كأنَّه جازاهم مرَّتين مرَّةً بمدحهم بإعظام أعمالِهم وتسميتِها فضْلًا، ومرَّةً بإعطائهم مُقابلَها من الفضلِ والثَّواب، ووجْه تسميتِها فضلًا باعتبارين: باعتبار جبْرِ خواطرهم بتَثْمينِ أعمالِهم وتنزيلها منزلةَ الكثير، وإنْ كانت قليلةً ضعيفةً في ذاتِها، وباعتبارِ أنَّه سبحانَه ربّاها، وضاعَفَها لهم بفضله - واللّه يُضاعِفُ لمن يشاء - فلمّا ضاعَفَها؛ كَثُرتْ، فصارتْ فضلًا عظيمًا، فَوُصِفَتْ كذلك بحسَبِ قَدْرِه سبحانه من الكرم والفضل، لا بِقَدْرِهم من الوُسْعِ المحدود.

نكتة تنكير ﴿فَضۡلٖ﴾:

التنكير في لفظِ ﴿فَضۡلٖ﴾ في قوله: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾؛ لإرادة الجنس، أي: كلُّ ما يُقالُ له فضْل، وكلُّ ما يُوصَفُ بأنَّه من الأعمال الفاضلة يُجازَى العبدُ عليه بالفضل، قليلًا كان أو كثيرًا، عظيمًا أو حقيرًا، لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾ [الأنبياء: 47](2).

الفضلُ من العبدِ ناقِصٌ قليل، وفضلُ الله كامِلٌ عظيم

معنى عود الضمير في ﴿فَضۡلَهُۥۖ﴾:

الضميرُ في كلمة ﴿فَضۡلَهُۥۖ﴾ مِنْ قوله تعالى: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/229، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/318.

(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/40.

فضلُ العبدِ فائضٌ عن حاجة، وفضلُ الله فائضٌ عن وُسْعٍ وغِنًى

﴿فَضْلَهُۥ﴾ يُحتَمَل أنْ يعود على ﴿ذِي﴾، أي: عامِل الفضل، والتقدير: يؤتِ كلَّ صاحبِ فضلٍ استحقاقَه هو - أي: العامل - من الفضل والجزاء.

أو يعود على الله ﷻ، أي: يؤتِ الله فضلَه العظيم من الجزاء لكلِّ ذي فضلٍ من العامِلين، وهذا الوجه أولى؛ لاشتماله على نُكتةٍ معنويَّة، وهي تعظيمُ الفضل (الجزاء) وتكثيرُه بإضافته إلى ضمير العظَمَةِ الذي يدلُّ على الكمال، أي: الفضل الكامل، وهذا المعنى لا يَظهر بإضافته إلى ضمير الإنسان[1].

معنى الواو في: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾:

من لم يستغفِر، ويَتُبْ؛ فقد تولّى

جملة: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ معطوفة على جملة الخطاب بالأمر في قوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ﴾ تَتْميمًا للمقابلة بين أعمال البِشارة والنِّذارة، فجملة: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ﴾ تقتضي التبشير، وجملة: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ تقتضي النَّذير، والجمَل الثلاث: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾، ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ﴾، ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ جميعها داخلة في حيّز التفسير لجملة: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾، وهَذِهِ الجُمَل تأكيدٌ لمضمونِ الوصفِ النبويِّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾؛ إذ هي بيانٌ لمضمون الوصفين المذكورين[2].

فائدة الاشتراط بـ ﴿وَإِن﴾:

لم يَجزِم اللهُ بإعراض العاصين لئلّا يجزِمَ أحدٌ بمصير أحد

جاء قوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ مُصدَّرًا بـ ﴿وَإِن﴾ الشرطيَّة التي تفيد الاحتمالَ وعدم القطع فيما دخلتْ عليه، إذْ إعراضهم وتولّيهم عن التكليف مظنونٌ غير مُحقَّق، إذِ العادةُ جاريةٌ بوقوع الطاعةِ والمعصية كليهما، فلا يمكن الجزمُ بإحْدَاهُمَا على الأخرى، فلمّا كان ذلك كذلك؛ عبَّر بما يفيد الشكَّ، أو يكون التَّعبير بـ (إن) خروجًا عن مقتضى الظّاهر دون مقتضى الحال، بإنزال الأمر المحقَّق منزلة الأمر المشوك فيه لعدم الرَّغبة في وقوعه.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/149، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/4.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/318، ودرويش، إعراب القرآن: 4/311.

فائدة مجيءِ الجملة الشَّرطيَّة:

صوغُ الإخبار عن حال تولّيهم وإعراضهم بطريق الشرط، لِقصدِ تعيينِ الوعيدِ الجزائيِّ وترتيبه على التولّي وتسبيبه عنه، فللنصِّ على السببيَّة والتعليل صاغه بالشرط؛ لكونِ أسلوبِ الشرطيَّة أخصرَ طريق وأحكمَه في الإنباء عن ذلك، ولو أخبر عن ذلك القصد من غير هذا الطريق؛ لكان فيه إطنابٌ وعدم إحكام، فكأنَّ قوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ قام مقام من يقول: (تولّيكم سببٌ في عذابكم)، أو (عذابكم حاصلٌ لأجلِ تولّيكم)، فالشرط قائم مقام جملتين، الأولى على تقدير السببية والثانية على تقدير العِلِّيَّة، فكان أتمَّ وأوجز.

مَـــنْ يَـعـمَـلْ سُوءًا؛ يُجْزَ به

نكتةُ التَّعبير بالمضارع في ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ و﴿أَخَافُ﴾:

التعبير بالمضارع في قوله: ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾، وأصله (تَتَوَلَّوا)، فحذَف إحدى التَّاءَيْن تخفيفًا، ويؤيِّد أنَّه مضارعٌ للخطاب نَسَقُ الكلام ونظمُه في خطاب مَنْ تقدم في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ ﴿إِنَّنِي لَكُم﴾ ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾، ويؤيِّد المضارعةَ والخطاب كذلك نظمُ الكلام بعده في قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ بالمضارع في ﴿أَخَافُ﴾، والخطاب في ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، فيكون الكلام جاريًا على نسقٍ واحد، وهو الخطاب، وهذا أولى من اعتبار ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ فعلًا ماضيًا، للاضطرار إلَى تَقْدِيرِ العدول والالتفات معه؛ لأنَّه قال بعدها: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ والالتفاتُ غير وجيهٍ مُتمكِّنٍ هنا؛ لأنَّه خاطبهم في العبادة والاستغفار والتوبة، أي: خاطبهم بحال الطاعة وعاقبتها، فمن تمام الكلام أن يُخاطبهم بحال المعصية كذلك ومآلِها، فوجْهُ الالتفات مفضول، ووجْه الخطابِ أفضلُ وأحسن لموجباتِه الصريحة هنا[1].

أرادَ اللهُ رحمةَ المُعرضين فأقبَلَ عليهم بخطابِه

(1) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/283.

معنى الفاء في ﴿فَإِنِّيٓ﴾:

يُقبِلُ اللهُ على المعرضين بخطابه، ويُقبِلُ الرسولُ عليهم بخوفِه

الفاء في قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ رابطة لجواب الشرط، وهي تفيدُ ترتيب الجواب عن الشرط، وتعليل الشرط بالجواب، أي: عذابكم لأجلِ تولّيكم[1].

مدلولُ الفاعل في: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾:

لا يُسنَدُ إلى الله ما لا يليقُ إلّا بالمخلوق

فاعل الخوف في قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ للرسول ﷺ، وليس للّه سبحانه؛ لتنزيه اللّه عن إسناد الخوف إليه، إذِ اللّه لا يخاف[2] ﷻ.

بلاغة الالتفات في: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾:

اللهُ لطيفٌ بعباده فيؤنِسهم ولا يُوحِشُهم

لم يقل في السياق الكريم: (وإن تولّوا يُعذِّبكم)، كما قال: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم﴾ فعدَل عن ذاتِ اللّه إلى شخصِ الرسولِ ﷺ، والْتَفَتَ من الغيبة إلى المُتَكَلِّم، وفي ذلك نُكتةٌ بديعة هي أنَّ اللّه ﷻ لم يُسنِد تعذيبهم إلى نفسِه، كما أسند تمتيعهم إلى نفسِه؛ إجلالًا مِنَ المَلِكِ لنفسِه أنْ يُخاطبهم بالوعيد بعد خطابهم بالفضل، فأوْكَلَ الرسول ﷺ لإبلاغهم بالوعيد وانفرد هو سبحانه بالوعد، وذلك - وللّه المَثَل الأعلى - كحاكِمٍ أو سُلطانٍ ألزمَ رعيَّتَه بتكليفٍ، وأخبرهم به بنفسِه، ثمَّ وعدهم بجزيل المكافأة والإفضال عليه، فلئلا يُكدِّر المقام عليهم، أو يُوحِشهم لَمْ يَصِل وعدًا بوعيد، بل ترك إخبارهم بالوعيدل لِمَنْ ينوبُ عنه في البلاغ؛ إجلالًا لمقام مُلْكِه أن يتكدَّر بما يؤلم ويُوحِش، ويُعينُ على هذا التوجيه في هذا السياق: أنَّ اللّه عبَّر عن جزاء الطاعة بثوابين في قوله: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ و﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ وأمّا في حال الإعراض؛ فعبَّر بوعيد واحد وعلى لسان رسوله: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾،

---

(1) محمود صافي، الجدول: 11/216.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3663.

فهو يبسُط في مقام الوعد، ويقبِضُ، ويوجِز في مقام الوعيد، فكان من تمام القبضِ وعدم البسطِ في الوعيد ألّا يُسنِدَه إلى ذاته، بل يُنيبُ في الإبلاغ به الواسِطَةَ عنه.

دلالة التعبير بالفعل ﴿أَخَافُ﴾:

الرسول ﷺ أَمَنَةٌ لأمَّتِه من المخاوِف

لم يقل في السياق الكريم: (وإن تولّوا فإنّي أعدكم بعذاب) بل عبَّر بالخوف: ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾؛ للإشارة إلى رحمة الرسول ﷺ في بلاغه؛ إذِ التعبير بالخوف قبل العذاب مُضَمَّنٌ معنى الشَّفقةِ على مَنْ تولّى وأعرض، فكأنَّه حزينٌ وهو يُبلِّغه ويُوعِدُه.

نكتةُ التَّعبير بـ (إنَّ) والجملة الاسميَّة:

ليس أنصحَ ولا أخوفَ على الناس أحدٌ من رسول الله ﷺ

التَّعبير بـ (إنَّ) والجملة الاسميَّة في قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ لتأكيد الخوف المذكور في نفسِ المُبَلِّغ، فكأنَّه يقول: أخاف عليكم خوفًا مُتمكِّنًا منّي، فهو تحذيرٌ خالص مِمَّنْ يَصدُقُهم النَّصيحة، وليس تحذيرًا مُلقًى على عواهِنِه، كمن يقول لغيره دُونَ قصد: أنا خائفٌ عليك إنْ فعلتَ كذا، وهو لا يقصد خوفًا، ولا يقصد من تعبيره حِرصًا، وأيضًا في الافتتاح بذلك قصدٌ لتأكيدِ المَخُوفِ منه، وهو وقوع العذاب بهم حالَ مُخالفتِهم[1].

معنى (على):

النـبيُّ أولى بالعالَمين من أنفسِهم

(على) في قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أفادت الاستعلاءَ المجازيَّ، فكأنَّه بخوفِه مِنْ أنْ يَقع العذابُ بهم، قد اسْتَضَمَّهُم إليه، وأحاطهم من الخوف، فكان في هيئةِ المُستحوذِ والمُستَعلِي عليهم، لا مِنْ كِبْرٍ أو خصومة، بل من خوفٍ وإشفاق، أو (على) في معنى التعليل، كأنَّه قال: (إنّي أخاف لأجْلِكم أو لِأجل رحمتي بكم).

نكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾، ولم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/319.

النّاصِحُ الثِّقة أقربُ النّاس للمنصوح وأحرصهم عليه

يقل: (إنّي أخاف عذاب يوم كبيرٍ عليكم)؛ لإفادة الاختصاص والقُرب، أي: أخاف عليكم أنتم خاصَّة، وكذلك للغرض اللفظي في مراعاة الفاصلة، فإنَّ الجرسَ الصوتيَّ لتركيب الآيةِ مع تقديم الجار والمجرور أوقعُ وأتمُّ وأحسن من إجراء النَّظم على غير ذلك.

غرضُ إضافة العذاب إلى ﴿يَوۡمٍ﴾:

يُـقَـدَّر الـشيء بمقدارِ ما أضيفَ إليه

إضافة العذاب إلى ﴿يَوۡمٍ﴾ في قوله: ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ كَبِيرٍ﴾؛ لتخصيص العذاب بالظرف، فهو عذابٌ مخصوصٌ بإضافتِه إلى يَوْمٍ مخصوص، وليس كأيِّ عذابٍ في أيِّ وقت، ففي الإضافة تفظيعٌ للعذابِ وتهويل له؛ إذ هو مضافٌ إلى يومٍ موصوفٍ بأنَّه كبير[1].

نكتة تنكير ﴿يَوۡمٍ﴾:

من رحمة الله أنْ فصَّل في الثواب وأجمَلَ في العقاب

تنكير كلمة ﴿يَوۡمٍ﴾ في قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ للتهويل؛ "لِتذهبَ نفوسُهم للاحتمالِ الممكِن أنْ يكون يومًا في الدنيا أو في الآخرة؛ لأنَّهم كانوا يُنكِرون الحشر، فتخويفهم بعذابِ الدُّنيا أوقعُ في نفوسهم، وبذلك يكون تنكير ﴿يَوۡمٍ﴾ صالحًا لإيقاعه مقابلًا للجزاءين في قوله: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾، فيقدِّر السامع: إنْ تولَّيتم فإنّي أخاف عليكم عذابين، كما رجوتُ لكم إن استغفرتم ثوابين"[2].

المجاز العقلُّي في وصف اليوم بالكِبَر:

يُوصَفُ الظَّرفُ بوصفِ ما يُلابِسُه ويقع فيه

إسنادُ الكِبَرِ إلى اليوم مجازٌ عقليٌّ؛ إذِ الكِبَرُ في الحقيقةِ لِما يَقعُ فيه من الهَوْلِ والعذاب، فوصِفَ اليومُ بوصفِ ما يكون فيه؛ إذِ الظروفُ موصوفةٌ بمظروفاتِها، ويصحُّ أنْ يكون إسناد الوصف إلى الظرف حقيقيًّا لا مجاز فيه، باعتبار أنَّ اليوم كبيرٌ في نفسِه لأنَّه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/319.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/319.

ليس كسائر الظُّروف والأوقات، بل هو مُعَدٌّ ومجعولٌ لتلك الشدائد والأهوال، فليس له نظيرٌ يُقاسُ عليه. ويصحُّ أنْ يكون وصفُ ﴿كَبِيرٍ﴾ للعذابِ، ويكون لفظُ ﴿كَبِيرٍ﴾ مخفوضًا لِمُجاورةِ المخفوض، وهو لفظ ﴿يَوْمٍ﴾، وعلى ذلك لا مجاز في الإسناد(1).

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإعطاء والإيتاء:

يُسنَدُ العطاءُ إلى الكثير والقليل، أمّا الإيتاءُ؛ فيُسنَدُ إلى الكثيرِ والعظيم

العطاء: هو مُناوَلَةُ الشيءِ للآخرين، فهو أصلٌ في الأَخْذِ والتناول. والإيتاء: هو إحضارُ الشيءِ وإيصالُه لِلْمُعطى، وجعلُه يأتي إليه، فهو أصلٌ في المجيءِ والحضور، واستعمالُ الإيتاء في الإعطاءِ لكونِ العطاءِ يقتضي مُنَاوَلَةَ الشيءِ بعد إحضارِه، فالإيتاءُ أوَّلًا ثمَّ العطاءُ، ويختلف الإيتاء عن الإعطاء من ثلاثةِ وجوه:

الأوَّل: أنَّ الإيتاءَ يكون عن طِيبِ نفْسٍ لا عن إكراه، والعطاء قد يَحتَمِلُ معنى الإكراه، كما قال في الجزية: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: 29]، فجعل الإعطاء فيما كان عن غلبةٍ وقهْر.

الثّاني: أنَّ الإيتاء يكون في الشيء عَزيزِ القِيمة، كَثِيرِ المنفعة، عَظِيمِ القَدر، والعطاء قد يكون في البخْسِ والقليل، كما يكون في العظيم الكثير، فقد أسند العطاء إلى القليل في قوله: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ٣٤﴾ [النجم: 34]، ولذا كان الإعطاءُ فيما يُنتقَل عنه إلى ما هو أعلى منه؛ ولذا قال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]، لانتقاله من الكوثر إلى ما هو أعلى منه، وهو الجنَّة ومزايا النَّعيم الأحسن، وأمّا الإيتاءُ؛ فلم يُسنَد إلّا إلى العَظِيم والكثير ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [ص: 20]، ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩﴾ [طه: 99]، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ٥٤﴾ [النساء: 54].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/121، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/184، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/319.

الثالث: الإيتاء لا يتوقَّف على قبولِ الآخِذِ وموافقتِه، فهو حقيقٌ بالإيتاء من غير اعتبار موقِفه، ولذا كان فعلُ الإيتاء أقوى من الإعطاء، ولذا ففِعل الإيتاء لا مُطاوع له من لفظِه، كما في الإعطاء، يقال: آتاني، فأخذته، وفي الإعطاء يقال: أعطاني، فعَطَوْت؛ وما له مطاوعٌ أضعفُ في إثباتِ مفعولِه ممّا لا مُطاوِع له، ولذا لم يَقُل في الزَّكاة: (ويُعطون الزّكاة)؛ لئلّا يُحْتَمَلَ توقُّفه على القبول، كما قال: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ [التوبة: 29]، فإنَّ عطاءهم الجزية متوقِّف على قبولِ المسلمين منهم ذلك[1].

(1) الجوهري، الصحاح: (عطا)، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أتى، عطو)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 86، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤﴾ [هود: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبلَها:

الإيمانُ بالمصير إلى الله يُهوِّنُ الصَّعب

لمّا ذكر اللّه ثوابَ الطائعين الذي يُبشَّرون به، وذكر عذابَ العاصين الذي يُنْذَرونَ به؛ فقد حدَّد هنا محلَّ حصول ذلك، فعيَّن ذلك بأنَّه يوم الرُّجُوعِ إِلَيْهِ سبحانه وَمَكَانُهُ.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾: المَرجِع من (رجع) وهو أصلٌ يدلُّ على العَوْدِ إلى ما كان منه البَدء، سواءٌ كانت العودة بالقول أم بالفعل أم للمكان أم للحال، معنويَّةً أم حسِّيَّة، و(المرجِع) مصدرٌ مِيمِيٌّ على غير القياس بمعنى الرُّجوع، ويصحُّ إجراؤه - في غير هذا الموضع - اسمَ مكانٍ أو اسم زمانٍ (مَفعِل) على غير القياس، بمعنى وقتِ الرُّجوع ومكانه، لكنَّه - هنا - في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ مصدرٌ ميميٌّ[1]، أي: إلى اللّه رجوعكم[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التحذيرُ من الإعراضِ عن دينِ الله؛ إذ الجهلُ بصفاتِ الله سبَبُ الفسوقِ والعِصيان

إلى اللّه القديرِ رجوعُكم بعد موتِكم جميعًا، فاصبروا على طاعتِه، وانتظِروا ثوابَه، واجتنِبوا معصيتَه، واحذروا عِقابَه، وهو سبحانه بِقدرتِه على كلِّ شيءٍ قادرٌ على بعْثِكم وإعادتِكم وحسابِكم. وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى إحياءِ اللّه الموتى؛ فإنَّه تعالى قديرٌ

(1) أجراه البِقاعيّ في هذا الموضع على معنى المصدر الميميّ مع إرادةِ معنى اسم الزّمان والمكان، فقال: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ أي: إلى اللهِ رُجوعُكم ووَقْتُهُ ومَكانُهُ لِأجْلِ الحِسابِ. يُنظر: البقاعي، نظم الدرر: 9/234.

وقد ردَّ ذلك ابنُ منظورٍ، فقال: "ولا يَجوزُ أَن يَكُونَ هاهُنا ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ اسمَ الْمَكَانِ، لِأَنَّه قَدْ تعدّى بـ(إلى)، وانْتَصَبَتْ عَنْهُ الحالُ، واسْمُ المكانِ لَا يتعدَّى بحرفٍ، ولا تَنْتَصِبُ عنه الحالُ، يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (رجع).

(2) الرّاغب، المفردات: (رجع).

على كلِّ شيء، وهي كالدَّليل على حصولِ ذلك؛ إذ من جملةِ الأشياء إحياءُ الموتى، وقد أخبر به وهو أصدقُ القائلين، فيجبُ وقوعُه عقلًا ونقلًا[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة فصل الآية عن الآية السّابقة:

جمعُ مَن أطاع ومَن أعرَض صائرون إلى الله مُنقلِبون

جملة: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ في معنى التعليل لجملة: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾، ولذلك فُصِلَت، كأنَّه قيل: أخاف عليكم العذاب ذلك اليوم؛ لأنَّكم صائرون إلى اللّه فيه، فتخريج الجملة على الاستئناف البيانيِّ، كأنَّه حين قال: ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾؛ قيل: وأيُّ يومٍ هذا؟ فأجيب: هو يوم مرجعكم إلى اللّه، وجملة الاستئناف البياني تُفصَل، ولا توصَل بالواو، أو الجملة مُستأنفة تأكيدًا لمضمون ما قبلها من الوعيد، فكأنَّه لمّا توعَّدهم بقوله: ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾؛ أيَّدَ هذا الوعيد بالكشْفِ عن طريقِه، فعذاب اليوم الكبير آتٍ إليهم من طريق مرجعهم إلى اللّه، كأنَّه قال: إلى عذابِ اللّه رجوعكم، ووجْه توكيدِها للوعيدِ قبلها أنَّها على تقديرِ: كأنَّه قال: فإنّي أخاف عليكم يومًا تُرجعون فيه إلى اللّه[2].

فائدة تقديم شبه الجملة ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾:

لمّا كان المَرجِع إلَى اللهِ وحده كانتِ الطّاعةُ له وحده

تقديم الجار والمجرور على العامل في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾؛ لإفادة الاختصاص والحصر، فمرجعهم ليس إلّا إلى اللّه، ولا يختصُّ به أحد سواه، ولا ينقضُ إفادة الحصر أنَّهم لا يعترفون بالبعثِ؛ إذْ قصْدُهُم لا يؤثِّر في حقيقة الأمر، فالحصر واقعٌ طوعًا منهم أو كَرهًا، بل إفادة الحصر هي لدفع اعتقادِهم وإبطالِهِ بأنَّه لا مَرجِع لهم لا في الدنيا ولا في الآخرة[3].

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 221.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/234، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/319.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/317.

سرُّ مجيء المسند إليه ﴿مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ مصدرًا ميميًّا:

صيغة (مَرجِع) على وزن (مَفْعِل)، وهي صيغةُ المصدر الميميِّ على غير القياس، فتدلُّ على الحدثِ المجرَّد مع دلالتها على الذاتِ، فإنَّ المَرجِع يحمِل معه الدَّلالة على الذّاتِ الرّاجِعَة، والدَّلالة على تمام الحدثِ وغايتِه، فالمرجِعُ يدلُّ على تمام الرجوع ونهايتِه، وهذه نكتة إيثار التعبير بالمصدر الميمي دون غيرِه من المصادر كالرجوعِ والرَّجعة والإرجاع التي تدلُّ على الحدث مجرَّدًا من غير اقتران معنًى إضافيٍّ به[1].

يرجع النّاس إلى اللهِ بذواتِهم حامِلينَ ما اجترحوا، وما اقترفوا

فائدة الخبر ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾:

أفاد الإخبار بمرجعهم إلى اللّه دلالاتٍ عِدَّةً:

الأولى: تقرير محلِّ الوعيد، فهم سَيُعاقَبون في اليوم الذي يُرجَعون إلى اللّه.

المصيرُ إلى الله مُقتَضى عدلِ اللهِ في خلْقِه

الثانية: تقريرُ البعثِ الذي لا يؤمِنُ به الكافرون، وفي تقريره إغاظةٌ لهم وتبكيت؛ لأنَّه يُجابِهُهُم بما يَستريحون بإنكاره، وينزعجون باستحضاره.

الثالثة: التعريضُ بهم؛ إذْ في التعبير بالمرجِع كنايةٌ عن لازمِه من إرادةِ الرَّدع وَتَحْقِيرِ الانفلاتِ والطغيان، فكأنَّه يقول لهم: لعصيانكم نهاية، ولِفجوركم رادِعٌ وصادٌّ.

الرّابعة: إرادة تعميم المرجِع بإضافتِه إليهم، فكلُّ مَرجِعٍ لهم في شيءٍ إنَّما هو باللّه ومنه وإليه، فالمرجِع كنايةٌ عن العواقِب الحاصلة لهم في الدنيا وفي الآخرة، فلا يقتصِر على المصير الأخرويِّ فقط[2].

وجهُ عدمِ ورود لفظ (جميعًا) في الآية:

لم يَرِد لفظ (جميعًا) في قولِه تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو، ص: 31.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/319.

الخطابُ لجميع الناس واللهُ هو ربُّ الجميع

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ لأنَّها تخاطبُ جميعَ الناس، سواء سواء أكانوا مسلمين أم غير ذَلِكَ، صالحين أم طَالِحِينَ؛ وذلك لأنَّ اللّه تعالى هو ربُّ الجميع، وهو الذي خلقهم، ورزقهم، وهداهم، وهو الذي سيحاسبهم على أعمالهم يومَ القيامة، وتتحدَّثُ الآية الكريمة عن مَصِيرِ النَّاسِ كُلِّهِمْ، وهو الرجوعُ إلى اللّه تعالى للحساب والجزاء، واللّه تعالى هو القاضي العدل، وهو الذي سيحاسب كلَّ إنسان على أعماله، مهما كانت هذه الأعمال؛ فالآيةُ الكريمة لا تحتاجُ إلى إضافة لفظ (جميعًا)؛ لأنَّ المخاطَبين بها هم جميع الناس، لَكِنْ عندما تناولتِ الآياتُ التي ورد فيها الرجوع إلى اللّه مع لفظ (جميعًا)، فإنَّها تحدَّثت عن طوائفَ منهم، كما في الحديث عن جَعْلِهِ سبحانه لكلِّ أمَّة شريعةً؛ ليختبر اللّه الجميع، فيظهر المطيعُ من العاصي، فطلبَ إليهم المسارعةَ إلى فعل الخيرات وترك المنكرات، فقال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: 48]. وعندما ذَكَر المؤمنين إذا أَلْزَمُوا أنفُسَهم بالعمل بطاعة اللّه واجتناب معصيته، وداوموا على ذلك، وإن لم يَسْتجبِ الناسُ لهم، فإذا فعلوا ذلك؛ فلا يضرُّهم ضلالُ مَن ضلَّ؛ إذا لزموا طريق الاستقامة، وأمروا بالمعروف، ونهَوا عن المنكر، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المائدة: 105].

قــــدرةُ الـلـهِ مُتَجَلّيَةٌ في كلِّ شيءٍ لا يُنكرُها إلّا المجرمون

معنى الواو في: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

جملة: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ معطوفةٌ على قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ تقريرًا وتأكيدًا لتَحقُّقِ المَرجع وعدم الرَّيْبِ فيه بحالٍ من الأحوال، كما أنَّ التذييل بجملةِ القُدرة مَسوقٌ مَساقَ التعليل العام

والبرهان المُطلَق على جميع ما سبقه من مضامين الوعد والوعيد من التمتيع الحَسَن، والمُجازاة بالفضل لذوي الفضل، والتخويف بالعذاب الكبير لأهل الإعراض، فالتذييل لتقرير أنَّ اللّه قادرٌ على تلك المذكوراتِ جميعًا لا يُعجزه شيء منها؛ ليَقطع أعذار المُرتابين، ويعصِم الصادقين من الرِّيبَةِ وعدم اليقين، ويصِحُّ إجراء الجملةِ على الاستئناف تقريرًا لِعموم القُدرة[1]، ومن الممكن أن تكون الواو حاليَّةً على معنى: والحال أنَّ اللّه على كلِّ شيء قدير.

بلاغة العموم الذي أريد به الخصوص:

قدرةُ اللّه تستغرقُ الكلّيّات والجزئيات

التذييل بجملة: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ من باب العموم الذي أريد به الخصوصُ، على سبيل المجاز المرسلِ لِعلاقةِ العموم، فمعنى الكُلّيَّة والشمول في التركيب محمولٌ على إرادة الأشياء المخصوصةِ بالذِّكر في النَّظم، وهي قوله: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾، وقوله: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾، ونُكتةُ مجيء التركيب على العام مع إرادة الخاص؛ لأنَّ القُدرةَ على كلِّ شيءٍ يستلزِمُ القُدرةَ على تلك الأشياء المخصوصة، فدلَّ بمعنى العَامِّ على الخاصِّ[2].

نكتة تذييل الآية بصفة القدرة:

ما من عظيم أو كبيرٍ إلّا تحت قدرةِ اللّه مغلوب

ذُيِّلتِ الآيةُ بصفةِ القدرةِ في قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ لتقريرِ كِبَرِ اليوم المدلولِ عليه بقوله: ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾، فإنَّ وصفَ الكِبَرِ بما تضمَّنه من معاني العِظَم والثِّقَلِ فيما يُلابسه من أهوالٍ وشدائدَ وحوادثَ يُناسِبُه، ويُلائِمُه وصفُ القُدرةِ التي تُغالِبُ، وتُحَادُّ هذه الأوصاف[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/195، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/320، وصافي، الجدول: 11/217.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/150، وابن التمجيد، حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 10/5.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/128.

نكتة تنكير المسند ﴿قَدِيرٌ﴾:

العِلم بصفاتِ اللهِ سببُ الخشيةِ والإيمان

تنكير لفظ ﴿قَدِيرٌ﴾ لإفادة العموم في اتِّساع القُدرةِ وإحاطتها بجميع المتعلَّقات، ووقوع كلِّ الجزئياتِ تحتها من غير فواتِ شيءٍ منها، وهو مؤذِنٌ بتعظيم الصِّفة وكمالها وإجلالِ الموصوفِ وكمالِه.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المرجِع والمصير:

المرجِع متضمِّنٌ معنى الاسترداد، والمصير مُتضمِّنٌ معنى التَّحوُّل

المرجِع: مِنَ الرُّجوع، وهو العَوْدُ من لاحقٍ إلى سابق، فهو انتقالُ الشيءِ إلى الحالِ التي كان عليها، فهو عوْدٌ إلى نفْسِ الحالِ الأولى، سواء كان ذلك في القول أم الفعل أمْ في المكان ونحو ذلك، ففيه معنى استردادِ السّابق، وأمّا المَصير، فهو من الصَّيرورة بمعنى الانتقال والتحوُّل من حالٍ إلى أخرى، سواء كانت هذه الأخرى موجودةً من قبل أم غير موجودة، ولذا كان المصيرُ في معنى العاقِبة والجزاء؛ إذِ العاقِبةُ حالٌ جديدة لم يكن عليها الإنسان من قبل، ولكنَّه تحوُّلٌ من حالِه الحاضرةِ إليها، بخلاف المرجِع، فهو عوْدٌ إلى حالٍ كان منها البدء[1].

(1) ابن فارس، والرّاغب، المفردات: (رجع، صير)، وابن منظور، لسان العرب: (رجع)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رجع، صير).

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾ [هود: 5]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعْثُ النّاسِ للحساب جارٍ بُمقْتضى قُدرة اللهِ وعِلْمِه

لمّا ذكَرَ في الآيةِ السابقة أنَّ مَرجِعَ النّاس جميعًا إليه: الذين تابوا، والذين تولَّوا، أخبر هنا عن حالٍ من أحوال تولّي المُعرِضين التي سيُحاسَبون عليها يوم يُرجَعون إليه، بما يقتضي اطِّلاعه عليهم وعِلمَه بشؤونهم؛ ليُخبِر بذلك: أنَّ رجوعهم إليه للحساب هو جارٍ بمقتضى قُدرته وعِلْمِه.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَثۡنُونَ﴾: مِنَ الثَّني، وهو رَدُّ بَعضِ الشيء على بعضِه الآخَر، وطَيُّ أحدِ جزئيه على جُزئِه الثاني، فأصل (ثَنَيَ) تكرير الشيء مرَّتينِ اثنتينِ، أو جعلَه شيئين متواليَيْنِ أو مُتبايِنَينِ، والمراد هنا: طَوَوا صدورهم على الكفر والغِلِّ والإعراض حتى جعلوها كجُزْأينِ اثنين، جزْءٍ خفيٍّ على السّوء، وَجزْءٍ ظاهرٍ خِلافُه[1].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

الكُفرُ يَحجُبُ البصيرةَ عن العقل

ألا إنَّ هؤلاء المشركين يُضمِرون في صدورِهم الكفرَ؛ ظنًّا منهم أنَّه يَخفى على الله ما تُضمِره نفوسُهم، ألا يعلمون حين يغطُّون أجسادهم بثيابهم أنَّ الله لا يَخفى عليه سِرُّهم وعلانيتهم؟ إنَّه عليم بِمَكْنوناتِ صدورِهم من النِّيّات والضمائر والسرائر[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ثني).
(2) مجمّع الملك فهد، التفسير الميسّر، ص: 221.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى جهل المشركين، وشدَّةِ ضلالهم، وإلى أنَّ العداوةَ والبغضاء التي يَطوون قلوبَهم عليها تدفعُهم إلى عملِ ما لا يجوزُ، ويَفْتِنون المؤمنين عن دينهم، وأنَّ ازورارَهم عمّا لا يحبون من الحقِّ، وانصرافَ صدورهم عنه، وهم يريدون أن يَسْتَخْفُوا عن النبي ﷺ، وينسَون أنَّ اللّه بكلِّ شيء عليم(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

كــلُّ إعــراضٍ عــن الــلّــه من ضعف العقل أو استحسان الهوى

جملة: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ مما قبلها، ولذلك فُصِلَت، كأنَّه لمّا تقدَّم تبشيرُهم بالفضلِ الكثير إنْ أقبَلوا، وإنذارُهم بالعذابِ الكبير إنْ تولّوا، فقيل: ماذا كان حالُهم؟ أعْرَضوا أم أقبلوا؟ فأجيب: لا، بل تَوَلَّوا ظاهرًا كما تولَّوا باطنًا(2).

نكتة العدول من الخطاب للنبيِّ ﷺ إلى الحديث عنهم بضمائر الغيْبة:

مَنْ يُعرِض عن اللهِ يُعرِض اللهُ عنه

العدول من خطاب النبيِّ ﷺ لهم في قوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ وخطابهم بقوله: ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾، وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ إلى الحديثِ عن أشخاصهم بطريق الغَيْبة: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾؛ للإشارة إلى كمالِ عِلمِ اللّه بهم واطِّلاعه على ظواهرهم، بعد تقرير كمال قدرته عليهم في قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ للتَّنبيه على تلازم كمالِ قدرتِه مع كمال عِلْمِه، وأنَّ مَرجِعهم إليه في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ حاصِلٌ بأثرِ تلك الصِّفتين: القدرة والعِلم، فلم يقل: (ألا إنّكم تَثْنون صدوركم)، ونُكتَةُ الالتفات من الخطاب للغيبة؛ لإبعادِهم والإعراضِ عنهم؛ إذِ التركيبُ في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ جارٍ في معنى الإخبار عن صُدودِهم وإعراضِهم، فلمّا أعرَضوا في الظّاهر؛

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 221، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3664.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/235، والآلوسي، روح المعاني: 6/195.

أعرضَ عنهم في ظاهِرِ النَّظْم كذلك بتركِ خِطابِهم، والحكايةِ عنهم بطريق الغَيبة؛ لتقرير الإعراضِ وعدمِ المواجَهة(1).

براعةُ الاستهلال بالمؤكِّدات في صدر الآية:

تحقيقُ أوصاف الكافرين لئلّا يلتبس حالهم على أحد

افتُتِحت الآيةُ الكريمةُ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ بـ﴿أَلَآ﴾ الاستفتاحيَّة و(إنّ) التحقيقيَّة المؤكِّدة لجملة الإسنادِ الاسميَّة، لثلاثة وجوه:

الأوَّل: الاستفتاحُ بها على القلوب، لِتَعي وتنْتَبِه لمضمون الخبرِ، تنبيهًا على غرابتِه وعَجَبه، ولذا استحقَّ الاِلْتِفَاتَ إِلَيْهِ والتمهيدَ لَهُ.

الثاني: الإشارة إلى تَحقُّقِ ما بعد ﴿أَلَآ﴾، ولذا تُساقُ (إنّ) بعدها تقريرًا لهذا التَّحقُّق، ومُبالغةً في وقوعِه وحصولِه.

الثالث: العناية بتعليم الناسِ أنَّ اللهِ ذو عِلمٍ وإحاطةٍ تامَّةٍ بخلْقِه؛ إذْ أنْبأ عن دقيقِ أحوالِهم بطريقِ التأكيدِ والتحقيق، ونَدْبِ السّامعين للإصغاء والإقبالِ والتفرُّغ لما سيُلقى ويُحكى(2).

نكتةُ التَّعبير بـ﴿يَثۡنُونَ﴾ من حيث مادَّتُها وصيغتها:

قلوبُ الكافرين فاسدة، تَلفِظُ الصحيح وتَستَمْلِح القبيح

قوله: ﴿يَثۡنُونَ﴾ من ثنى الشيءَ؛ إذا لَواهُ، وطَواه، فردَّ أوَّلَه على آخِرِه، وفي إسناد الثَّنْي إلى الصدور ثلاث دلالات:

الأولى: أنَّهم خارجون عن حدِّ الاعتدال والسَّويَّة في التَّفاعُلِ مع الحقِّ، فصدورُهم مَثْنِيَّةٌ عليه بالشَّكِّ والإعراض والغلِّ والكراهية.

الثانية: أنَّ قلوبهم مائِلَةٌ غيرُ قابِلة، فكأنَّ الحقَّ لا يَنْفُذُ إليها، وإذا نفذَ؛ تدحرج منها، فلا تَصلُح له، ولا يَثْبُتُ فيها.

الثالثة: أنَّ صدورهم تحتفِظُ بالوسخ والدَّرَن، كما يحتفظُ الشيءُ المَثْنيُّ بكثْرةِ الدَّخَلِ والقَذَر، فحاصِل التعبير بِثَنْي الصُّدور: الدَّلالة على أنَّ صدورهم لافِظَةٌ للصَّحيح، مُمْسِكَةٌ للقبيح(3).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/320.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/320.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/196.

الكافِرُ جاهلٌ بربِّه لا يَقْدُرُه حقَّ قدرِه

بلاغةُ الحقيقةِ والاستعارة في ثني الصُّدور:

المراد من قوله: ﴿يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ الهيئة الجسمانيَّة؛ إذْ كان الواحد من المشركين يلقى النبيَّ ﷺ، فيُطأطِئُ رأسَه، ويَحني ظهرَه، فيَثْني صدره؛ كراهيةً للقاءِ النبيِّ ﷺ وابتعادًا منه ورغبةً عنه، وعلى هذا المعنى فالكلام جارٍ على الحقيقة، ويصحُّ إجراء الكلام على المجاز بتوجيه معنى الجملة إلى الهيئة النفسيَّة المُشَبَّهةِ بهيئةٍ جسديَّة، على سبيل الاستعارة التمثيليَّة بتشبيه حالِهم في إضمار العداوة للنبيِّ ﷺ في نفوسِهم وتمويه ذلك عليه وعلى المؤمنين بحال من يَثني صدرَهُ لِيُخْفيه ومن يَسْتَغْشي ثوبَه على ما يريد أن يَسْتُره به، أو هو مجازٌ على سبيل الكنايةِ عن الإعراضِ عن الحقِّ؛ لأنَّ ثَنْيَ الصدر معناه تَرْكُ الإقبال على الشيء؛ لأنَّ مَنْ أقبلَ على شيءٍ؛ واجههُ بصدرِه، ومنْ أعرضَ؛ ثَنَى صدرَه، وأعطاه ظهْرَه، أو الكنايةُ جاريةٌ في معنى الخفاء؛ لأنَّ ثَنْيَ الصُّدور يلزم عنه انطواؤها على خفيٍّ، فيكون عبارةً عن إضمار الكفر وتمكُّنه من بواطنهم[1].

الكافرون لا تتجاوز عقولُهم ما ظهر لهم

معنى اللّام في: ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ﴾:

اللام في قوله: ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ﴾ للتعليل، أي: الاستخفاءُ عِلَّةٌ لِثَنْي صدورِهم، والفعل (يستخفوا) مضارع منصوب بأنِ المضمرة، فالتقدير: (أنْ يستخفوا)، والجملة في تقدير مصدرٍ مؤوَّلٍ بمعنى (الاستخفاء)، أي: يفعلون ثَنْيَ الصدور لعلَّةِ الاستخفاء، وعليه: فلامُ التعليل متعلِّقة بـ ﴿يَثۡنُونَ﴾، ويجوز تعلُّق اللام بفعلٍ مُضمَرٍ على الإرادة، على أنَّه حال، أو معطوف على ما قبله، أي: ويريدون لِيستخفوا[2].

نكتةُ زيادة السّين والتاء في ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ﴾:

السين والتاء في قوله: ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ﴾ للتأكيد، والفعل من

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/150، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/16، والآلوسي، روح المعاني: 6/196.

(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/379، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/123، والآلوسي، روح المعاني: 6/196.

استخفاء الكافرين من الله أو من رسوله دليلُ حماقتِهم

الاستخفاء، وأصل الكلام: (لِيَخْتَفُوا)، فالفعل من الاختفاء، ونظيره في التوكيد والمبالغة في إرادة الفعل: استجابَ، بمعنى أجابَ[1].

معنى (من):

يتنكَّر الكافرُ من رسول الله وهو أرحمُ الناس به

(مِنْ) في قوله: ﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ﴾: في معنى التعليل، أي: الرسول ﷺ هو علَّة استخفائهم، أي: يستخفون لأجل كراهيتهم لك وبغضهم للحقِّ، وآثَر التعبير بـ (مِنْ) دون حرف العِلَّة للدلالة على مَنشأِ استخفائِهم الذي حملهم عليه، ويصحُّ أنْ تكون (مِنْ) بمعنى المُجاوزة؛ لأنَّ قوله: ﴿لِيَسْتَخْفُواْ﴾ يحمِلُ معنى الانصراف والإعراض، أي: يستخفون عنك انصرافًا وإعراضًا، وإنَّما عبَّر بـ ﴿مِنْهُۚ﴾ دون (عنْه) لإفادة القُرب، فـ(مِنْ) تدخل على ما قرُبَ من الأسماء، و(عن) تكون لِما بَعُد منها، فهم يستخفون منه رغم أنَّه قريبٌ منهم وقريبون منه، وهو نعيٌ على عقولهم بأنَّ استخفاءَهم غيرُ خافٍ على اللّٰه ورسوله، وغير مفيدٍ لهم؛ إذِ القُربُ ممَّن يستخفون منه يجعل فِعلَهم هَدَرًا وعبَثًا، ويصحُّ أنْ تكون على بابها من إفادة معنى ابتداء الغاية، أي: الرسول ﷺ هو مَبْدأ استخفائهم، ثمَّ يشتدُّ الأمر، فيستخفون من اللّٰه خالقِهم، فالغرض بيان أنَّ استخفاءهم هو أيسرُ أحوالهم التي يُبادِئون بها الرسول، وما وراء الاستخفاء أشدُّ وأعظم، فابتداء الغاية يفيدُ تعيين الجهةِ التي يُباشرون الفعلَ معها[2].

عوْدُ الضمير في ﴿مِنْهُۚ﴾:

يَسْتَخْفُون من الرسول ﷺ فيُطلِعُه اللهُ عليهم

الضمير في ﴿مِنْهُۚ﴾ في قولِه: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ﴾ يعود على الرسول ﷺ، وذلك من وجهين: الأوَّل: على اعتبار تعلُّق اللام في ﴿لِيَسْتَخْفُواْ﴾ بـ ﴿يَثْنُونَ﴾. الثاني: بإجراء ثني صدورهم على الهيئة الجِسميَّة الحقيقيَّة، وتولية ظهورهم للنَّبيِّ ﷺ لئلّا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323.

(2) المرادي، الجنى الداني، ص: 321، والخضري، من أسرار حروف الجرّ، ص: 333.

يَرَوْهُ، لِشدَّة كَرَاهِيَتِهِمْ له، ويحتمل عود الضمير على اللّه ﷻ من وجهين: الأوَّل: على إضمار فعل الإرادة، أي: (ويريدون الاستخفاء من اللّه).

الثاني: بإجراء ثني الصُّدور على الهيئة النفسيَّة المجازيَّة، عبارةً عمّا تنطوي عليه صدورهم من البُغض والغلِّ وإعراض الباطن، فعلى هذا يعود الضمير على اللّه، أي: يريدون أن يستخْفوا من اللّه؛ فلا يطَّلع رسولُه ولا المؤمنون على ما في قلوبهم، فيقع استخفاؤهم في قصْدِهم من النّاس لا من اللّه، وقد حكى القرآن هذه الحال في قوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: 108][1].

نكتةُ الفصل في: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾:

يتحقّق الكافرون بثيابهم والله مــن ورائــهــم محيط

جملة: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ من تمام قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾، فهي قسيمةٌ لها ونظيرةٌ لها في تقرير معنًى بإزائها، ولكمال الاتصال بينهما وإجراء الثانية مجرى التأكيد لما قبلها فُصِلَتْ[2].

فائدةُ إعادة ﴿أَلَا﴾:

المؤمنُ وإنْ كان عَـريـض الـقَـفَا أعـقـل مـن كـلِّ كافرٍ جَفَا

أعيدتْ ﴿أَلَا﴾ في قوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾، بعد ذِكْرِها في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾؛ لزيادةِ تحقيق الخبر، ولِقصدِ حكايةِ كلِّ حالٍ من ثَنْيِ الصدور، واستغشاء الثياب باستقلالٍ في العنايةِ والتنبيه إلَى نظيرَتِها، فالغرض تَكرار العناية، والتنبيه على محلِّ الجملتين، فمحلُّ الجملة الأولى: التنبيه على انصرافهم ليستخفوا، ومحلُّ الجملة الثانية: التنبيه على وقت استخفائهم، وهو حين يَسْتَغْشون ثيابهم[3].

(1) ابن جُزَيّ، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/365، والخطيب، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 6/273.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/318، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323.

أضـــغـــانُ الـــكـــافـــريـــن مـــفـــضـــوحـــةٌ ولـو جَـهَـدُوا في كتمانِها

دلالة ﴿حِينَ﴾:

﴿حِينَ﴾ في قولِه: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ ظرف زمان متعلِّق بـ ﴿لِيَسْتَخْفُوا﴾ أي: يستخفون حين كذا، أو متعلِّق بـ ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾، والفرقُ بين المُتعلَّقَين يظهر في الوقفِ والوصل، فعلى التعلُّق الأوَّل: يجوز الوقفُ على ﴿ثِيَابَهُمْ﴾، وجملةُ: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ استئنافٌ، وعلى التعلُّق الثاني: فالوقف على ﴿ثِيَابَهُمْ﴾ قبيحٌ، للفصلِ بين الظَّرف وعامِلِه[1].

سرُّ التَّعبير بـ ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾:

الفِعلُ ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾ في قوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾، أي: يَغْشُون، فالسين للمبالغة والتأكيد، ويجوز أن تكون للطلب والاستقبال، أي: يلتمِسون ثيابهم غطاءً لهم، ولفظ الاستغشاء دالٌّ على إحكام الغطاء، فليس غرضُهم مجرَّدَ التغطية والسَّتر، بل الغرضُ السَّتْر الكامل الذي يحجُبُهُم عن رؤيةِ الرسول وسماعِه[2].

الله يعلمُ السِّرَّ وأخفى، فكيف بالظاهِر

نكتةُ التَّعبير بالمضارع في ﴿يَعْلَمُ﴾:

أفاد التعبير بالمضارع في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ﴾ أنَّ أفعالهم في موضع الترصُّد المستمرِّ، فكلَّما أعلنوا قولًا أو فعلًا أو أسرُّوا قولًا أو فعلًا فاللّه يعلمُه، فكلُّ فعلٍ منهم يُقابِله عِلمٌ من اللّه بهذا الفعل خاصة، فالأفعال معلومةٌ بتفصيلها وجزئياتها وآحادها، فالتعبير بالمضارع ﴿يَعْلَمُ﴾ إشارةٌ إلى تمام علم اللّه بالجزئيات، كما يعلم الكليّات.

الـلـه يـعـلـمُ الأشـــيـــاء بـحـقـائـقـهـا ودقائِقِها

معنى ﴿مَا﴾:

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ﴾ موصولة، أي: الذي يسرّونه ويُعلِنونه، وهي هنا مستعملة في صفات العقلاء، وتفيد

(1) ابن جُزَيّ، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/366.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غشو - غشى).

الإبهام والعموم، فتقع على كلِّ شيء يَدخله السِّرُّ والعلانية منهم، ويصحُّ أن تكون ﴿مَا﴾ مصدريَّة تؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدر، أي: يعلم سِرَّهم وعلانيتهم، ودلالتها على اعتبار المصدريَّة: الجمع بين معنى المصدر ومعنى الفِعل في مَوْرِدٍ واحد[1].

نكتة التَّعبير بالمضارع في ﴿يُسِرُّونَ﴾ و﴿يُعْلِنُونَۚ﴾:

أفاد التَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿يُسِرُّونَ﴾ و﴿يُعْلِنُونَۚ﴾ مُزاولتَهم المستمرَّة لحالَي الإسرار والإعلان، فهم لا ينفكّون عن هاتين الحالَين، وما الإنسانُ إلّا كذلك.

ما من سِرٍّ أَوْ عَلَنٍ إِلَّا وَيَعْلَمُهُ اللهُ

موقع جملة: ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾:

جملة: ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ممّا قبلها، كأنَّه لما قال: إنَّهم يثنون صدورهم، ويستغشون ثيابهم ليستخفوا، سأل سائلٌ: كانَ حالُهُم مع اللّه الاستخفاء، فكيف حالُ اللّه معهم؟ فقيل: يعلم ما يسرّون، وما يعلنون، فالجملة في معنى المقابلة مع ما سبقها؛ لبيانِ الفرقِ بين حالهم مع اللّه الذي هو الاستخفاء منه، وحال اللّه معهم الذي هو تمام الاطلاع عليهم وكمال الإحاطة بهم، ويصحُّ إجراؤها استئنافيَّةً لتقرير أنَّه لا فائدة لهم مِنِ استخفائهم[2].

الكافرُ لا حياءَ عنده؛ إذْ لا حياءَ له مع ربِّه ولا عقْل

غرضُ تقديم العلم بالإسرار على الإعلان:

قدَّم العِلم بالإسرار على الإعلان، لإفادةِ تمكُّنِ عِلمِه ﷻ من جميع المعلومات، فكأنَّه يُشيرُ إلى سَبْقِ تعلُّقِ عِلمِه بالخفيِّ قبل الظاهر، ففي التقديم إشارةٌ إلى كمالِ الصِّفة في الكشْفِ والإدراك والدِّراية[3].

القدرةُ على الأعلى تقتضي القدرةَ على الأدنى

(1) سيبويه، الكتاب: 2/309، والسّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/289، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 1/131.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/318، وصافي، الجدول: 11/219.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/186.

نكتةُ ذِكْر المفضول وعدم الاكتفاء بالفاضل:

في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ﴾ ذكَرَ حال الإعلان، مع أنَّه مدلولٌ عليه بحال السرِّ، إذ من يعلمُ السرَّ أولى به أن يعلم العلانية؛ لدلالة تحقُّق الفاضل على تحقُّق المفضول، والنكتة في زيادة العلانية لِدفعِ توهُّم علمِهِ بالخفيّات دون الظواهر، فقطَع الوهمَ في ذلك على أهل الزَّيغ ذَوي العقول الضئيلة(1).

علمُ الله شامِلٌ كامِلٌ وتفصيليٌّ جزئيٌّ

بلاغة المقابلة في الآية:

قوله: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾، وقوله: ﴿يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يُقابِل قوله: ﴿وَمَا يُعْلِنُونَۚ﴾؛ إذْ هيئة ثَنْيِ الصدور وهيئة استغشاء الثياب حالةٌ ظاهرة بمنطوقها، فقابَلتِ العلانية، والدُّخول في حال الاستخفاء بعد ثَنْيِ الصدور، واستغشاء الثياب حالٌ باطنة خافية، فقابلتْ قوله: ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾، فكلُّ نظيرٍ مَسبوقٌ بنظيرِه الموافِق له في السياق، فالنَّظم مُطَّرِدٌ على مراعاة المناسبة وتوليدِ الألفاظ بعضها من بعض بحسب تواردِ المعاني وجريانها في النَّصِّ.

العبـــاد مشمولون بعلم الله في كلِّ حالٍ مـن الـسـرِّ أو العلانية

نكتةُ الفصل في: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

جملة ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليليَّةٌ لما قبلها، ولذلك فُصِلتْ، أي: يعلم ما يسرّون وما يعلنون؛ لأجلِ أنَّه شديد العلم بأخفى الأشياء وأبطنِها، وهو علمه بخفايا الصدور، فعِلمُه بالسرِّ العام أولى وعِلمه بالجهرِ والعلانيةِ أيْسَرُ وأتَمُّ(2).

الـلـه عـلـيـمٌ بنزَغاتِ الصُّدور التي هي أخفى من السِّرِّ

علَّةُ ختمِ الآية بصفة العلم:

ختْمُ الآيةِ بصفة العلم لِمُلاحظةِ المعلوماتِ في المطلَع، وهي الأحوال المُنْكَشِفَةُ بتلك الصِّفة، فلا يُجَلّيها إلّا العِلمُ، وهي ثني الصدور واستغشاء الثياب وحال الإسرار والإعلان، فناسبَ ختْمَها

فـوق كـلِّ ذي عِـلـمٍ عليم ولا منتهًى لعِلم الله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323.

بما لا تتكشفُ إلّا به، وفي ختم الفاصلة بصفة العِلم ﴿عَلِيمٌ﴾ نكتةٌ جليلةٌ أخرى، وهو أنَّه سبحانه لمّا عبَّر عن العِلم كَصِفةِ فِعلٍ بصيغة المضارع في ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾؛ استوفى تحقيق ذلك بالإنباء عن العِلم كصفةِ ذاتٍ ثابتة بوصف المبالغة ﴿عَلِيمٌ﴾، فاللّه ذو العلم المطلق والكامل، الذي لم يُسبق بجهل، ولا يَلحقه نسيانٌ، فهو العالم الواسعُ المحيطُ بكل شيء جملةً، وتفصيلًا، سواء ما يتعلَّق بأفعاله، أو أفعال خلقه، وهو العالم بالسرائر، والخفيات التي لا يدركها عِلمُ الخلق.

لطيفةُ تنكير ﴿عَلِيمٌ﴾:

عِلمُ الله دائمٌ كامِلٌ لا حدَّ له ولا مَدَّ

تنكير صفةِ الجلالِ ﴿عَلِيمٌ﴾ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ لإفادة التعظيمِ والكمال في الموصوف، وفي الوصفِ بنسبتِه إلى ذات الجليل، فهو عليمٌ عظيمٌ في ذاته، وكامِلٌ في عِلمِه، ولإفادة العموم والشمول، أي: عليمٌ بكلِّ شيءٍ لا يَعزُبُ عن عِلمِه مثقالُ ذرَّةٍ.

نكتةُ المبالغة في صيغة (فَعِيل) لصفة العلم:

صِـفـاتُ الـلـه وَاسِـعَـةُ الاشْـتِمـال، ولا يُحاذيها مِثالٌ في جَمِيعِ الأَحْوَالِ

مجيء صفة الذّات الجليلة ﴿عَلِيمٌ﴾ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ على وزن (فعيل) الذي يَصلُح على مِثالِ الصِّفة المشبَّهة ومثالِ المبالغة لإفادة معنى الديمومة، أي: دائمُ العلم لا يتغيَّر، ولا يَغيب، وكامِلُ العِلم لا يَنۡقُص، فصيغة (فعيل) أفادت استقصاءَ التعبير عن إحاطةِ العلم وسَعتِه بكلِّ ما تحملُه كلمةُ الإحاطةِ والسَّعةِ من معنًى ومدلول[1].

غرضُ التعبير بالجملة الاسمية:

اللـه يعلـم بما يكونُ قبل كوْنِه

عبَّر بالجملة الاسميَّةِ المؤكَّدة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ولم يقل: (إنَّه يعلم)؛ للدلالة على دوام الاستمرار، فهو

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/324.

سبحانه لم يَزَل عالِمًا بذلك، وللدَّلالة على أنَّه سبحانه يعلمُ بالأشياء قبل وجودِها الخارجيِّ؛ إذِ الأشياءُ قبل ظهورها كانت مُضمَرةً في الصُّدور، وهو عليمٌ بذات الصدور[1].

لطافةُ الإيجاز بالحذف في: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

الـصُّـدور أوعيـةٌ للقلوبِ وأحوالِها

قوله: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: عليمٌ بالأشياءِ أو بالأسرارِ ذاتِ الصُّدور، فالكلام على حذف موصوف، أي: المُضمَرات والأسرار صَاحبةُ الصُّدور، أي: تلابِسُها، وتُساكِنُها مُلابسة الصّاحبِ لِصاحبِه ومساكنتَهُ[2].

بلاغة المجاز في: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

اللـهُ سبحانه أقربُ إلى العبدِ ممّا في صدرِه من الخواطرِ والأفكارِ

قوله: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كنايةٌ عن القلوب التي في الصُّدور، أو كناية عن الأسرار المُستكِنَّةِ في الصدور، والأسرارُ لمّا كانت مُضمرةً في الصدورِ؛ قيل لها: ذاتُ الصدورِ، فشَبَّه ما في الصدورِ من القلوبِ وأحوالِها، أو الأسرار بالصاحِبِ في المُلابسةِ التامَّةِ لِصاحبِه، فذَكَرَ لفظَ المُشَبَّهِ به، وهو (ذات) بمعنى الصّاحب، وأريدَ المُشبَّه: وهو (الأسرار) على سبيل الاستعارة التصريحية، أو التمثيليَّة بملاحظةِ تشبيه هيئةٍ بهيئة وحالٍ بحالٍ في الملابسةِ والملازَمَة، وليس المراد بـ (ذات) هنا حقيقة الشيء أو نفس الشيء، كما يَصلُحُ في (ذات بينِكم)؛ لأنَّ ذات على هذا المعنى تكون مُقْحمةً لتحقيق الحقيقة مُبالغةً وتأكيدًا، ولا هي من بابِ إضافة المسمّى إلى اسمِه، وليس هذا بمستقيم هنا؛ إذْ يكون معناه: عَليمٌ بنفْسِ الصُّدور، ولا يُفيدُ هذا شيئًا؛ لأنَّ مواقعَ الصدور ونفْسَ الصُّدور معلومةٌ، وإنَّما إعجازُ صِفةِ العِلم في الإحاطةِ بما يَسْري فيها من الخواطرِ، وما يَجول فيها من الأحوال[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/198.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323.

(3) الشهاب، عِنايةُ القاضي وكِفايةُ الرّاضي على تفسير البَيضاوي: 5/71، والآلوسي، روح المعاني: 6/198.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإعلان والجهر:

الجهر يكون بصوتٍ، والإعلان بصوتٍ وبغير صوت، فهو أعمُّ

الإعلان: هو مُطلَقُ إظهار الشيء سواء بإبرازه وكشْفِه، أو بالإشارةِ إليه لِيُلْمَح، أو بالدلالةِ عليه بالصَّوتِ والحاسَّة، ويَغْلِبُ استعمالُه في المعاني دون الأعيان، فالمعنى: إذا ظهر للنَّفسِ، واسْتَظْهَرَتْهُ؛ فقد أُعلِنَ.

وأمّا الجهر؛ فهو إظهارُ الشَّيء بِإفراطِ حاسَّة السَّمع أو البصر، ومعنى إفراط الحاسَّة: انفعالها بإفراطٍ للمحسوس، صوتًا كان أو صورة، وأكثرُ ما يستعمل في الصَّوت، وقد ورد كلاهما في القرآن، فأمّا الجهرُ للسَّمع؛ ففي قوله: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ [الحجرات: 2]، وأمّا الجهر للبصر؛ ففي قوله: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [النساء: 153]، أي: عِيانًا رؤيةً مُفرطَةً بالبصر(1).

الإسرار والإخفاء:

الإخفاء في الأعيان والمعاني، ويَغْلِبُ الإسرارُ في المعاني

الإسرار: هو إنزال الشيء منزلةَ السِّرِّ، والسِّرُّ: هو إخفاء الشيءِ في النَّفس، ويُقال: في هذا الكلام سِرٌّ؛ تشبيهًا له بما يُستودَعُ في النَّفْس، ولذا غلبَ استعمالُه في المعاني دون الأعيان، فلا يُقال: أسررتُ تحتَ الثيابِ قطعةَ خُبْزٍ، بل يقول: أخفيتُ، والإخفاء: هو سَتْرُ الشيء عن الحواسِّ، فلا يُرى، ولا يُسمَع، وكما يستعمل في الأعيان يستعمل في المعاني، ولذا أسند إلى الصدور ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: 19]، واستُعمِل في عموم كلِّ مَخْفِيٍّ: ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ [الممتحنة: 1]، فالإخفاء أعمُّ من الإسرار(2).

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جهر، علن).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 447، 533، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (خفى، سرر).

الجُزْءُ الثَّانِي عَشَرَ

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ [هود: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا سبقَها:

الرّبطُ بينَ علم اللهِ بما يسرُّ المشركونَ وما يُعلنونَ، وبينَ علمِهِ بكلِّ دابّةٍ ورزقِها

لَمّا أخبرَ اللّه تعالى في الآيَةِ السّابقة أنَّهُ ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ [هود: 5] أردَفَهُ بالدّليلِ على كَونِهِ تعالى عالِمًا بجَميعِ المَعلوماتِ مع تأكيدِه بما فيهِ غايَةُ الامتِنانِ، ونِهايَةُ الإحسانِ، فلمّا كانَ اللّه تعالى رازقَ الدّوابِّ الّتي لا حيلةَ لها في الاكتساب دلَّ على أنَّه تعالى عالمٌ بجميعِ أحوالِها، فلولا أنّهُ عالِمٌ بجمِيعِ المَعلُوماتِ لَما حَصَلَتْ هذهِ المُهِمّاتُ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَآبَّةٖ﴾: الدَّبُّ والدَّبيبُ: هو المشيُ الخفيفُ، أو هو الانتقالُ الخَفيفُ البَطِيءُ، والدّابَّةُ: اسمٌ عامٌّ يَشمَلُ كُلَّ حيوانٍ ذي روحٍ ذكرًا كانَ أو أنثى مميّزٍ وغيره، وَغَلَبَةُ لَفظِ الدّابَّةِ على ما يُركَبُ مِنَ الخَيلِ والبِغالِ والحَميرِ عُرفًا لا لُغَةً(2)، والمرادُ بالدّابّةِ هنا كُلُّ حَيَوانٍ يَدِبُّ على وَجهِ الأرضِ(3).

2) ﴿مُسۡتَقَرَّهَا﴾: يدورُ معنى (قرّ) على الثّباتِ والتَّمكُّنِ؛ أي: ثَبات ما شأنُهُ التَّسيُّبُ وامتساكُهُ في قاعٍ عميقٍ مُستديرٍ: كقُرَّةِ القِدْرِ، وكالماءِ في مُستقرِّه، ويُقالُ: أقرَّهُ في مكانِه فاستَقَرَّ؛ أي: صارَ في وضعٍ ثابتٍ مُتمكِّنٍ في المكانِ، وكلُّ (مُستقَرٍّ) بفتحِ القافِ يصحُّ أن يكونَ مصدرًا أو مكانَ استقرارٍ(4)، ومعنى ﴿مُسۡتَقَرَّهَا﴾

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/318، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/236 - 237.

(2) الرّاغب، المفردات: (دب)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دبب - دبدب).

(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/161.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قر)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قرر).

في الآيةِ: المأوى الّذي تأوي إليه ليلًا وسكنها نهارًا، وقِيل: الوَلَدُ في صلبِ الأبِ(1).

3) ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾: يدورُ معنى الكلمةِ على بقاءِ الشّيءِ ساكنًا قارًّا في مَقرٍّ أو مَقام بلا حركةٍ ولا استعمالٍ، وأصلُ ودَعَ يدلُّ على تَركٍ وتخليةٍ، وودَّعَ الثّوبَ وأودعَهُ: صانَهُ في صِوانِه، لا يَصِلُ إليه غُبارٌ ولا رِيحٌ، والإيداعُ: الوَضعُ والدَّخرُ، واستَودعَهُ مالًا وأودعَهُ دفعَهُ إليه ليكونَ عندَهُ وَديعةً، ومعنى ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾: المَوضِعُ الّذي يُودعُها إمّا بموتِها فيه، أو دفنِها، وقِيلَ: مُستَودَعُها في رَحِمِ الأمِّ قَبلَ بُرُوزِها إلى الأرضِ(2).

۞ المَعنى الإجماليُّ:

اللهُ خالقُ أرزاقِ كلِّ ما يَدبُّ في الكونِ، وهو مُحيطٌ بعوالِمِ استقرارِها واستيداعِها

وما مِن دابَّةٍ في أيِّ جزءٍ مِن أجزاءِ الأرضِ، إلّا تكفَّلَ اللّه برزقِها ومعاشِها؛ لِيصلَ إليها تفضُّلًا ورحمةً، وكما تكفَّلَ برزقِها أينما كانَ يَعلمُ مكانَ استقرارِها ومَوطنِها الّذي وُلِدَت ونشأت فيه، ومأواها الّذي تأوي إليه ليلًا أو نهارًا، ويَعلمُ مُستودعَها الّذي تَرحلُ إليه لِطلبِ الرّزقِ وغيرِهِ، والمَوضِعَ الّذي يودعُها بموتِها فيه، كُلُّ واحدٍ مِنَ الدّوابِّ وأحوالِها في كِتابٍ مُبينٍ عندَ اللّه قبلَ أن يخلقَها ويُوجدَها(3).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ في مَطلَعِ الآيةِ الكريمةِ:

اقترانُ الدّليلِ بالحُكمِ أدعى إلى الاقتناعِ والانقيادِ

جاءَتِ الآيةُ على طريقِ الوَصلِ، والجهةُ الجامعةُ بينَهُما أنّها بمثابةِ الدّليلِ على أنَّ اللّه تعالى يَعلمُ ما يُسِرّونَ وما يُعلِنونَ، وتقديرُ الكلامِ: فمَن كانَ قد عَلِمَ ذلك منهُم قبلَ أن يُوجدَهم،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ودع).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/243.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/240، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128، مَجمَع البحوث، التّفسير الوسيط: 4/163.

لا يَخفى عليهِ ما تنطوي عليه نفوسُهم إذا ثَنَوا به صدورَهُم، واستغشَوا عليه ثيابَهُم[1].

بلاغةُ التّعبيرِ بأسلوبِ النّفيِ الدّالِّ على الاستغراقِ والعُمومِ:

تعميمُ رزقِ اللهِ كلَّ دابّةٍ آيةٌ على إحاطةِ علمِهِ بكلِّ أحوالِها

لمّا جاءتِ الآيةُ في مَقامِ الاستدلالِ على إحاطةِ علمِ اللّه تعالى بجميعِ الكائناتِ وأحوالِها وأعمالِها، ظاهِرِها وَخفيِّها، نُظِمَ الكَلامُ على هذا الأسلوبِ تَفَنُّنًا لإفادَةِ التَّنصيصِ على العُمومِ بالنَّفيِ المُؤَكَّدِ بـ ﴿مِن﴾، ولإدماجِ تَعميمِ رِزقِ اللّه كُلَّ دابَّةٍ في الأرضِ في أثناءِ إفادَةِ عُمومِ عِلمِهِ بأحوالِ كُلِّ دابَّةٍ، فلأجلِ ذَلِكَ أُخِّرَ الفِعلُ المَعطوفُ ﴿وَيَعۡلَمُ﴾؛ لأنَّ في التَّذكيرِ بأنَّ اللّه رازِقُ الدَّوابِّ الَّتي لا حِيلَةَ لها في الاكتِسابِ استِدلالًا على أنَّه عَليمٌ بأحوالِها، فإنَّ كَونَهُ رازِقًا لِلدَّوابِّ قَضيَّةٌ مِنَ الأُصولِ المَوضوعَةِ المَقبولَةِ عندَ عُمومِ البَشَرِ، فَمِنْ أجلِ ذَلِكَ جُعِلَ رِزقُ اللّه إيّاها دَليلًا على عِلمِهِ بما تَحتاجُهُ[2]. وحرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ يفيدُ النّصَّ على استغراقِ النّفيِ؛ لدفعِ أيِّ تأويلٍ قد يَرِدُ مِنَ المُخاطَبينَ، كي لا يَتوهَّموا أنّهُ على معنى الكثرةِ لا الإحاطة، لِمَا يقتضيهِ إثباتُ الأمورِ العقديَةِ مثل: إثبات وصفِ إحاطةِ علم اللّه تعالى بالخلقِ مِن دفعِ تَوهُّمِ المبالغةِ في الوصفِ؛ والمعنى: كلُّ ما يُطلَقُ عليه دابَّةٌ، صَغُرَت أو كَبُرَت.

الغرضُ مِن أسلوبِ القصرِ بالنّفي بـ ﴿وَمَا﴾ و﴿إِلَّا﴾:

تمكينُ معنى إحاطةِ اللهِ بالأرزاقِ ضمانٌ لِلمُؤمنينَ، وتحذيرٌ لِلمُشركينَ

سَلَكَ في الحصرِ مَسلكَ النّفي والاستثناءِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾؛ لأنَّ المشركينَ لمّا كانوا يَعتقدون أنَّهُم في مُكنَةٍ مِن إخفاءِ بَعضِ أحوالِهِم عَنِ اللّه تعالى ومُنكِرينَ عِلمَ اللّه بهِم، وكانوا مُصرِّينَ على هذا بما يَظهرُ مِن أعمالِهِم

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/243، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/99.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/5.

وتصرُّفاتِهم[1]، جاءَ بأسلوبِ الحصرِ بطريقِ النّفي والاستثناءِ؛ لِلرَّدِّ على اعتقادِهِمُ الخاطئِ وجهلِهم باللّه تعالى لإثباتِ إحاطةِ علمِ اللّه تعالى بطريقِ الدّليلِ وإثباتِ الحجّةِ عليهم، وهذا الأسلوبُ في قوّةِ جملتين نفيًا وإثباتًا.

سببُ إيثارِ النّفي لِلذّواتِ دونَ الأحوالِ:

نفيُ الذّواتِ الشّاملُ لنفي الأحوالِ، أبلغُ مِن نفي الأحوالِ

لمّا كانَ النّفيُ لعمومِ الذّواتِ شامِلًا لنفي عُمومِ الأحوالِ؛ لأنّه تابعٌ لها، جاءَ الاستثناءُ من عُمومِ الأحوالِ التّابعِ لِعُمومِ الذّواتِ والمَدلُولِ عليه بِذِكرِ رِزقِها الَّذي هو من أحوالِها[2]، ونكتةُ مجيءِ النّفي لِعمومِ الذّواتِ دونَ عُمومِ الأحوالِ؛ أي: لم يكنِ النّظمُ: وما من رزقٍ لأيِّ دابّةٍ إلّا على اللّه، أو ما في معناهُ، مع أنَّ المُرادَ إثباتُ أنَّ رزقَ جميعِ الدَّوابِّ على اللّه تعالى؛ لأنَّ نفيَ الذَّواتِ الدَّالَّ على نفي الأحوالِ أبلغُ في استغراقِ النّفي مِن نفي الأحوالِ فقط، كما أنَّ في التّعبيرِ بهذا الإسنادِ تقويةً لِلحُكمِ؛ للإخبارِ عنِ المسندِ إليه ﴿دَآبَّةٍ﴾ بالجملةِ الاسميّةِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾، كما أنَّهُ توسَّلَ بهذا الأسلوبِ لإدماجِ تعميمِ علمِ اللّه بجميعِ الدّوابِّ، وأحوالِها، بعلمِه سبحانَه بمستقرِّها ومُستودعِها، ليكونَ الإدماجُ من تمامِ الدّليلِ ومَقصِدِه.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بـ ﴿دَآبَّةٍ﴾، وغايةُ تنكيرِه:

الرّزقُ يحتاجُ إلى السّعيِ الحثيثِ، لا القبوعِ المتواكلِ في البيوتِ

لمّا كانَ لفظُ الدّابَّةِ مِنَ الدّبيبِ الّذي هو بمعنى السّيرِ البطيءِ الحثيثِ، ودلَّ الكلامُ في الرّزقِ على أنّه يحتاجُ إلى السَّعيِ إليه، ويدخلُ العقلاءُ في اللّفظِ دخولًا أوّليًّا؛ لأنَّ السّياقَ فيهم، ولأنّ الدَّوابَّ تشبهُ ذوي العقولِ من جهةِ أنَّها طالبةٌ لِأرزاقِها عندَ الحاجةِ[3]. وإيرادُها مُنَكَّرةً لِلدّلالةِ على عُمومِ كلِّ ما يَتحرَّكُ مِنَ المخلوقاتِ، فالوصفُ العامُّ الشّامِلُ يناسبُهُ التّنكيرُ.

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 294.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/5.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/217.

دلالةُ التّعبيرِ بحرفِ الجرِّ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الدّابّةُ تشمَلُ ما على الأرضِ وما في باطنِها، وما في جوِّها وفي بحرِها

لم يقُلْ: (على الأرضِ) مع أنّه أنسَبُ بتفسيرِ الدّابَّةِ لغةً؛ لأنّها ما يَدِبُّ على الأرضِ، والسّببُ أنَّهُ لمّا كانَ حرفُ ﴿فِي﴾ يفيدُ معنى الظّرفيَّةِ كانَ أعمَّ من (على)؛ لأنّه يتناوَلُ مِنَ الدَّوابِّ ما على ظَهرِ الأرضِ، وما في بَطنِها كما هو مُشاهَدٌ[1]، وللإشعارِ بأنَّ الرّزقَ يكونُ في الأرضِ على ما هو في الظّاهرِ، ولِيَعُمَّ لفظُ الدّابَّةِ ما يَمشي على وجهِها وما في أطباقِها، ويَدخُلُ في الدّابّةِ الطّائرُ والعائمُ ونحوُهما، فإنّها في الأرضِ، ويَدخُلُ كذلكَ ما ماتَ مِنَ الحيوانِ قبلَ أن يَتَغَذَّى؛ فقد اغتَذى في بطنِ أمِّه بوَجهٍ مَا[2].

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بشبهِ الجملةِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

أنسبُ الخطابِ، ما كانَ أقربَ لحسِّ المُخاطَبين

خُصِّصَ الكلامُ بقولِه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّه الأقربُ لحسِّ المُخاطَبينَ، ولِتأكيدِ معنَى ﴿دَآبَّةٍ﴾ في التّنصيصِ على أنَّ العُمومَ مُستَعمَلٌ في حَقيقتِهِ؛ أي: كلُّ ما يَدِبُّ على الأرضِ.

الغرضُ مِنَ تقديمِ شبهِ الجملةِ:

الرّزقُ لا يُطلَبُ إلّا مِنَ اللهِ، وحقيقةُ الشُّكرِ يكونُ لِلرّازِقِ المُنعِمِ

لمّا تقدَّمَ المُسندُ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على المُسندِ إليه ﴿رِزۡقُهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ أفادَ القصرَ؛ لإثباتِ أنَّ اللهَ تكفَّلَ برزقِها، ولم يُهملْهُ، ويتضمَّنُ لزومًا النّفيَ عن غيرِه سبحانَه؛ أي: على اللهِ رزقُها لا على غيرِه؛ لأنّ القصرَ في قوّةِ جملتينِ إثباتٌ لِتفرُّدِ الذّاتِ العليّةِ، ونفيٌ عن غيرِها، ففيهِ مُبالغةٌ وإيجازٌ واختصارٌ وتَمكينٌ لِلمَعنى.

سرُّ التّعبيرِ بالمُسندِ إليه مُضافًا ﴿رِزۡقُهَا﴾:

رزقُ اللهِ مَقسومٌ لِلبرِّ والفاجِرِ، والمؤمنِ والكافرِ

لمّا أخبرَ عنِ الدّابّةِ بأنَّهُ على اللهِ رزقُها في قوله تعالى: ﴿وَمَا

(1) الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 258.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/151، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/237، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/6.

﴿مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ دلَّ على أمرين؛ أحدُهما: دلالتُه على لزومِ احتياجِ كلِّ حيوانٍ إلى رزقِهِ سبحانَه، فبه يكونُ قِوامُهُ وغذاؤُهُ ومَعاشُهُ، والثّاني: أنّه لمّا وعدَكُم بالرّزقِ وضَمِنَهُ لكُم، فلا تُرهِقوا أنفسَكُم بالرّزقِ، واشتغلوا بعبادتِه، ولا تَفتُرُوا عنها، فهو عَالمٌ بكلِّ نفسٍ، فلا تَخشَوا مِن أنَّه يَنسى أحدًا، كما أفادَ أنَّ الرِّزقَ مَقسومٌ لكلِّ أحَدٍ مِن بَرٍّ وفاجرٍ، ومُؤمنٍ وكافرٍ(1).

الغرضُ مِنَ الاستعارةِ في حرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾:

مباشرةُ الأسبابِ لا تمنعُ مِنَ التّوكُّلِ على اللهِ تعالى ربِّ الأسبابِ

يحتملُ لفظُ ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ أن يكونَ على المجازِ؛ لِيكونَ استعارةً تبعيّةً، وبيانُهُ أنّه شبَّهَ ما وَعَدَ بهِ مِنَ الرّزقِ لكلِّ الدّوابِّ بما يجبُ عليه إيذانًا بأنَّ وعدَهُ لا يتخلَّفُ؛ أي: لمّا كانَ المقامُ مَقامَ تفضُّلٍ دلَّ على أنَّه تعالى لمّا ضَمِنَ أن يَتفضَّلَ بالرّزقِ عليهم صارَ بمنزلةِ الوعدِ أن يرزقَهُم، فصارَ حقًّا عليه سبحانه وتعالى بحسبِ الوعدِ فضلًا وإحسانًا؛ أي: لمّا كانَ اللهُ لا يُلزِمُهُ أحَدٌ شَيئًا، فما أفادَ مَعنَى اللُّزُومِ في القرآنِ، فإنَّما هو التِزامُهُ بنَفسِهِ بمُقتضَى صِفاتِهِ المُقتَضِيَةِ ذَلِكَ لَهُ، كما أشارَ إليهِ قَولُهُ تعالى: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ﴾ [الأنبياء: 104] وقَولُهُ: ﴿حَقًّا عَلَيۡنَا﴾ [يونس: 103].

ونكتةُ التّعبيرِ بلفظِ الوجوبِ تحقيقُ وصولِ رزقِهِم إليهم بهدايتِهم إلى طلبِهِ وتحصيلِهِ، ويترتَّبُ على هذه الفائدةِ الحملُ على التَّوكُّلِ على اللّه في الرِّزقِ، والثّقةِ بهِ تعالى في وصولِه، والإعراضِ عن إهلاكِ النّفسِ في طلبِه، فإنَّه إذا عرفَ العبادُ بأنَّ الرّزقَ كالواجبِ على اللّه، وأنَّه صارَ حقًّا عليه يزدادُ توكُّلُه واغتناؤُهُ بوصلِ ما قَسَمَ لهُ مِنَ الرِّزقِ فلا يشقَّ على نفسِهِ، بل يُجملُ في الطّلبِ، ولا يمنعُ مِنَ التَّوكُّلِ مباشرةُ الأسبابِ، مع العلمِ بأنّه سبحانَهُ المُسبِّبُ لها، وأجازَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/237.

بعضُ المفسِّرينَ أن تكونَ ﴿عَلَى﴾ بمعنى (مِن)؛ والتّقديرُ: وما مِن دابّةٍ في الأرضِ إلّا مِنَ اللّه رزقُها[1].

الغرضُ مِنَ الاستعارةِ في ﴿رِزۡقُهَا﴾:

الرِّزقُ كلُّ ما يحصُلُ به سدُّ ضروراتِ الإنسانِ، وحاجاتِه في الحَياةِ

لمّا كانَ الرِّزقُ قد اشتُهرَ استعمالُهُ في كلامِ العربِ ومَوارِدِ القرآنِ الكريمِ في ما يَحصُلُ بِهِ سَدُّ ضروراتِ الإنسانِ وحاجاتِهِ في الحَياةِ مِنَ الأطعِمَةِ والأنعامِ والحَيَوانِ والشَّجَرِ المُثمِرِ كانَ إطلاقُهُ على ما يَتناوَلُهُ الحَيَوانُ مِنَ المَرعَى والماءِ على طريقِ المَجازِ[2]؛ ليكونَ استعارةً تصريحيّةً بتشبيهِ كُلِّ ما يَدِبُّ على الأرضِ بالإنسانِ بجامعِ الحياةِ والمشي في الأرضِ.

سرُّ الإضافةِ في: ﴿رِزۡقُهَا﴾:

كلُّ رزقٍ يُعطاهُ المخلوقُ، هو مِنَ اللهِ تعالى المعطي بلا حدودٍ

لمّا كانَتِ الإضافةُ هنا على معنى اللّامِ دلَّ على أنّ المرادَ رزقٌ لها، وفائدتُه الإشعارُ بأنَّ المرادَ رزقُها الّذي صارَ مُختصًّا بها؛ أي: قد جاءَها؛ والمعنى: كلُّ حيوانٍ جاءَهُ رزقٌ أو كانَ مَرزُوقًا، فإنّما هو مِنَ اللّه تعالى لا مِن غيرِه، فتدلُّ الإضافةُ على أنَّ رزقَ الدّابَّةِ المَسوقَ إليها إنّما هو مِنَ اللّه فقط[3].

دلالةُ الواو على العطفِ في: ﴿وَيَعۡلَمُ﴾:

رزقُ كلِّ الدّوابِّ على اللهِ وحدَهُ، وهو العالِمُ بما يُصلحُ أحوالَهُم

تحتملُ الواو أن تكونَ عاطفةً لِتفيدَ عطفَ جملةِ: ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ على جملةِ ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾؛ لِتكونَ داخلةً في حيّزِ ﴿إِلَّا﴾؛ والمعنى: وما مِن دابّةٍ في الأرضِ إلّا يعلَمُ مُستقرَّها ومُستودعَها؛ ليفيدَ العطفُ الحصرَ في الأمرين؛ أي: في أن يكونَ رزقُ الدّوابِّ على اللّه وحدَهُ، وأنَّهُ تعالى هو وحدَهُ العالِمُ بهم وبأحوالِهم،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/240، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/99، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/186، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/20، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/6.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/235.

(3) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/123، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/19.

ولِتفيدَ الواو ترتُّبَ الاستدلالِ؛ بمعنى: أنَّ تكفُّلَ اللّه تعالى برزقِ جميع أقسام الحيوانِ وأصنافِه يقتضي أن يكونَ عالمًا بها وبأحوالِها، كما يفيدُ العطفُ أنّه ما مِن دابَّةٍ في الأرضِ إلّا يرزقُها اللّه تعالى، حيثُ كانَت مِن أماكنِها يسوقُهُ إليها، كما تحتملُ الواوُ أن تكونَ استئنافيّةً، فتكون جملةُ ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ استئنافًا بيانيًّا[1]؛ لِتكونَ في جوابِ سؤالٍ تقديرُهُ: إنْ كانَ رزقُ كلِّ دابَّةٍ على اللّه تعالى، فهل يعلمُ جميعَ أحوالِها؟ فقالَ: ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾.

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ (مفعَل) في لفظي: ﴿مُسۡتَقَرَّهَا﴾ وَ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾:

تتنوَّعُ أماكنُ استقرارِ الدّوابِّ بعلمِ اللهِ تعالى وحكمتِهِ

الظّاهرُ أنَّ المرادَ بالمُستَقرِّ والمُستودَعِ اسمُ المكانِ؛ أي: مَوضِع استقرارِها وإيداعِها، وعَبَّرَ باسمِ الجنسِ الشّاملِ لجميعِ أماكنِ استقرارِها وإيداعِها، واختُلِفَ في المُرادِ مِنَ اللّفظين، فيحتملُ أن يكونَ المعنى: ويَعلمُ أماكنَها في الحياةِ والمماتِ، ووجهُ هذا المعنى: أنَّ اللّه جلَّ ثناؤه لمّا أخبرَ أنَّ ما رُزِقَتِ الدّوابُّ مِن رزقٍ فَمِنهُ، كانَ الأولى أنْ يتبعَ ذلك أنْ يَعلمَ مَثواها ومُستقرَّها، أو يكونَ المعنى: ويَعلمُ مُستقرَّها في الأصلابِ ومُستودعَها في الأرحامِ، وإنّما خُصَّ كُلٌّ مِنَ الاسمَينِ بما خُصَّ بِهِ مِنَ المَحَلَّينِ؛ لأنّ النُّطفةَ بالنّسبةِ إلى الأصلابِ في حَيِّزِها الطّبيعيِّ ومَنشَئِها الخِلْقيِّ، وأمّا بالنّسبةِ إلى الأرحامِ، وما يَجري مَجرَاها، فهي مُودَعَةٌ فيها إلى وقتٍ مُعيَّنٍ باعتبارِ حالتِها الأخيرةِ لرعايةِ المناسبةِ بينَها وبينَ عُنوانِ كونِها دابَّةً في الأرضِ، كما يحتملُ أن يكونَ المعنى: ويَعلَمُ مَساكنَها في الأرضِ ومكانَ استقرارِها فيها، ويَعلَمُ مُودَعَها مِنَ الموادِّ؛ أي: التُّرابِ والأغذيةِ، ويحتملُ أن يكونَ ﴿مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ مَصدرين؛ أي: يَعلمُ كلَّ حركةِ استقرارٍ أو حدثِ إيداعٍ فيها[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/187، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/205.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/243، والبغويّ، معالم التّنزيل: 1/149، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/153، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم، القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/21.

عِلمُ اللهِ مُحيطٌ بـكـلِّ حـركـةٍ لِـلـدّوابِّ، وكلِّ سكونٍ لها

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالكنايةِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾، نجدُ أنَّهُ لمّا كانَ السّياقُ في بيانِ إحاطةِ علمِ اللّه بالمُشركينَ الجاهلينَ بعلمِهِ سبحانه بما يثنونَ به صدورَهم؛ لِيستخفوا به، وبَيَّنَ تعالى أنَّه يَعلَمُ ما يُسرّونَ وما يُعلنونَ، وأنَّه عليمٌ بذاتِ الصّدورِ، أفادَ قولُهُ: ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ على طريقِ اللّزومِ، الإخبارَ عنِ العلمِ بها في كلِّ حالٍ؛ أي: في حالِ سكونِها، وفي حالِ حركتِها؛ لأنَّها لا تخلو إمّا أن تكونَ ساكنةً أو مُتحرِّكةً؛ أي: يَعلَمُ عنها كُلَّ حالِها[1].

تعظيمُ شأنِ علمِ اللهِ تعالى ذي الجلالِ، وإحاطتِهِ بالأشياءِ في كلِّ الأحوالِ

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿كُلٌّ﴾:

لمّا جاءَ لفظُ ﴿كُلٌّ﴾ مِن ألفاظِ العمومِ، وجاءَ نكرةً مُنوَّنًا تنوينَ عوضٍ، وكان اللَّفظُ مُلازِمًا للإضافةِ دلَّ على أنَّ المضافَ إليه محذوفٌ؛ لإفادةِ عمومِ ما تقدَّمَ، وللإيجازِ، والمعنى: كلُّ واحدٍ مِنَ الدّوابِّ ورزقُها ومُستَقَرُّها ومُستودَعُها في كتابٍ مُبينٍ، فيشمَلُ الدّوابَّ وحالاتِها جميعًا، أو لإفادةِ العُمومِ المُطلَقِ؛ والمعنى: كلُّ ما ذُكِرَ وغيرُهُ ممّا يَعلمُهُ اللّه مُثبَتٌ في كتابٍ مُبينٍ[2].

تفخيمُ الكتابِ وتعظيمُهُ، لِما يحملُ مِن رمزيّةٍ واختصاصٍ بقدرِ اللهِ دونَ سواهُ

الغرضُ من تنكيرِ: ﴿كِتَٰبٖ﴾:

أفاد تنكيرُ اللَّفظِ تعظيمَهُ وتفخيمَهُ؛ لدلالةِ السِّياقِ عليه، لضمِّ الكتابِ المذكورِ العلمَ بكلِّ الدّوابِّ وبرزقِها وبأماكنِها في الحياةِ والمماتِ.

كلُّ ما في الكتابِ الّذي عندَ اللهِ مُثبَتٌ، لا تغييرَ لهُ إلّا بأمرِ اللهِ

بلاغةُ التّعبيرِ بالمجازِ في: ﴿كِتَٰبٖ﴾:

يحتملُ الكِتابُ هُنا أن يكونَ مَصدَرًا كقولِهِ: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [النّساء: 24]، فيكون استعارةً تصريحيّةً للتَّعبيرِ بهِ عن مَعنى

---

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/99.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/205، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/6.

تَقدِيرِ العِلمِ وتَحقيقِهِ؛ أي: لِتشبيهِ ما لا يقبلُ التّغييرَ والتّبديلَ بالكتابةِ الّتي يقصدُ منها أنْ لا يُزادَ في الأمرِ ولا يُنقَصَ وَلا يُبطَلَ، والمعنى: كلُّ ذلِكَ لا يَقبَلُ زِيادةً ولا نُقصانًا ولا تَخلُّفًا،

كما يحتملُ اللّفظُ أن يكونَ مَجازًا باستعمالِهِ بمعنى اسمِ المفعولِ بتقديرِ: مَكتوبٍ مُبينٍ؛ أي: كلُّ ذلك مُثبَتٌ مَكتوبٌ مَحفوظٌ، فيفيدُ أنّه لا يَقبلُ تغييرًا ولا تبديلًا، فمآلُ المعنى واحدٌ على الوجهين[1].

سرُّ التّعبيرِ بالمجازِ العقليِّ في: ﴿مُّبِينٖ﴾:

الكتابُ يبيّنُ أنّ كلَّ شيءٍ مُثبَتٌ مَكتوبٌ، قبلَ أن يخلقَ الدّوابَّ

وَصَفَ الكتابَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ لإفادةِ أنَّه بنفسِهِ مُبينٌ؛ وفيه مجازٌ عقليٌّ في الإسنادِ للدّلالةِ على معنى المبالغةِ في بيانِهِ ووضوحِهِ، لِاستلزامِ العلمِ الإبانةَ. والصّفةُ هنا ليسَت صفةَ تقييدٍ، بل هي للإيضاحِ والبيانِ؛ لأنَّ الكتابَ الّذي عندَ اللّه، وهو اللَّوحُ المحفوظُ هنا لا يكونُ إلّا مُبينًا، فهو كتابٌ يُبيِّنُ لِمَن قرأَهُ أنّ ذلكَ مُثبَتٌ مَكتوبٌ قبلَ أن يخلقَ الدّوابَّ ويوجدَها، وهو بيِّن لِمَن يَنظُرُ فيهِ مِنَ المَلائكةِ عليهم السلام، ويحتملُ أن يكونَ لفظُ ﴿مُّبِينٖ﴾، الّذي هو مِن (أبانَ) بِمَعنَى أظهَرَ، تَخييلًا لاستعارَةِ الكِتابِ لِلتّقديرِ، كما تقدَّمَ في أحدِ وجهي دلالةِ الكتابِ[2].

بلاغةُ التّعبيرِ بـ: ﴿كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ بيَن الكنايةِ والتّتميم:

اللـــهُ تـعـالى عـالِـمٌ بـأحـوالِ الـحـيـوانـاتِ كُلِّها، فلا تخفى عليهِ خافيةٌ

لَمّا أفادَ الكلامُ أنَّ أقسامَ الحَيَواناتِ وأنواعَها الكَثيرَةَ - وهِيَ الأجناسُ الّتي تَكونُ في البَرِّ والبَحرِ والجوّ- كلَّها في كتابٍ مُبينٍ عندَ اللّه، دلَّ لازمُهُ على أنَّه تعالى عالمٌ بها وبأحوالِها لبيانِ عمومِ علمِهِ سبحانَهُ، وأنَّه تعالى عالمٌ بالأشياءِ كلِّها، وتحتملُ أن تكونَ كالتّتميمِ لِمعنى وُجوبِ تَكَفُّلِهِ سبحانه برزقِ الدّوابِّ جميعِها، والعلمِ بها،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/243، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/6.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/243، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/187، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/6.

وبأحوالِها، فهو ثابتٌ مَرقومٌ، فيكون كَمَن أقرَّ بشيءٍ في ذمَّتِهِ، ثمّ كَتَبَ عليه صَكًّا[1].

بلاغةُ التّذييلِ في آخرِ الآيةِ الكريمةِ:

بيانُ عظمةِ الخالقِ، ببيانِ عظيمِ علمِهِ الشامل

تذييلُ الآيةِ بهذه الجملةِ؛ للإيذانِ بأنَّه تعالى لا يبتدئُ العلمَ بأحوالِ الدّوابِّ ابتداءً، بل علمُهُ بها أزليٌّ قديمٌ، فهو ثابتٌ مَكتوبٌ، وواضحٌ لديهِ أمرُها قبلَ خلقِها ورزقِها وإيوائِها في مُستقرِّها ومُستودعِها، وأنَّه دبَّرَ أمرَها أزلًا على النَّحوِ الفائقِ العجيبِ الّذي أرادَهُ لها، وأبرزَها عليه وفقَ تدبيرِهِ الأزليِّ القديمِ، فتباركَ اللّه أحسنُ الخالقِينَ، وفي جملةِ التّذييلِ بيانُ عظمةِ الحقِّ سبحانه في أنَّ كلَّ ما ذُكِرَ مكتوبٌ مُثبَتٌ مُبينٌ؛ فإنَّه ليسَ كلُّ ما يَعلمُهُ العبدُ يَقدِرُ على كتابتِهِ، ولا كُلُّ ما يَكتبُهُ يكونُ مُبيَّنًا، بحيثُ إنَّه كلَّما أرادَ الكشفَ منهُ وَجَدَ ما يُريدُهُ، وإذا وجدَهُ كانَ مُفهمًا لهُ[2].

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/18، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/205.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 4/164، والثّعلبيّ، الكشف والبيان: 14/321، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/162، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/238.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ [هود: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اقترانُ كمالِ علمِ اللهِ وسعتِهِ بكمالِ قدرتِهِ في خلقِ الكونِ، وتسييرِ العبادِ

لَمّا أثبَتَ اللّه تعالى في الآيةِ السّابقةِ بالدَّليلِ المُتَقَدِّمِ كَونَهُ عَالمًا بالأشياءِ كلِّها، أثبَتَ بهذا الدَّليلِ كَونَهُ تعالى قادِرًا على كُلِّ المَقدورات، وفي الحَقيقَةِ فكُلُّ واحِدٍ من هَذينِ الدَّليلَينِ يدُلُّ على كمالِ عِلمِ اللّه وعلى كمالِ قُدرَتِهِ[1]. وأيضًا: لمّا كانَ خلقُ ما منهُ الرِّزقُ، وهو خلقُ السّماواتِ والأرضِ وما بينَهما، أعظمَ مِن خلقِ الرِّزقِ وتوزيعِهِ في شمولِ العلمِ والقُدرةِ معًا، تلاهُ بهذِهِ الآيةِ.

وأيضًا لمّا أخبرَ اللّه تعالى عن إحاطةِ علمِهِ وشمولِ قدرتِهِ برزقِ كُلِّ الدّوابِّ في الآيةِ السّابقةِ عَطَفَ عليها هذه الآيةَ، فإنَّ خَلقَ السَّماواتِ والأرضِ مِن أكبرِ مَظاهِرِ عِلمِ اللّه، وتَعَلُّقاتِ قُدرَتِه، وَإتقانِ الصُّنعِ، فالمَقصودُ من هذا الخَبَرِ لازِمُهُ، وهو الاعتِبارُ بِسِعَةِ عِلمِهِ وقُدرَتِهِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾: يُقالُ: بَلِيَ الثّوبُ بِلًى وبَلاءً؛ أي: خَلَقَ، وبَلاه يَبلوهُ بَلوًا، إذا جَرَّبَه واختبرَهُ، وبَلوتُه: اختبرتُهُ، كأنّي أخلقتُهُ مِن كثرة اختباري لهُ، وسُمِّيَ الغَمُّ بَلاءً مِن حيثُ إنّه يُبلي الجسمَ، ويُقالُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/319.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/7.

أبلى ذَلِك اليومَ بلاءً حَسَنًا إذا اجتهدَ في كرم أو حربٍ، كأنَّهُ جرّبَ وامتحنَ فأظهرَ الحسنَ، وبُلِيَ فلانٌ وابتُلِيَ إذا امتُحنَ، والبَلاءُ يكونُ في الخَيرِ والشَّرِّ، والابتِلاءُ اختِبارُ شَيءٍ لِتَحصِيل عِلمٍ بأحوالِه، ومعنى ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾: لِيختبرَكُم[1].

2) ﴿مَّبۡعُوثُونَ﴾: يدورُ المعنى المحوريُّ للّفظِ (بعث) على إثارةِ الحيِّ من مكانٍ يلزمُهُ بقوّةٍ فيندفع ناهضًا أو مُبتعدًا، أو على إثارةِ الشّيءِ مُطلَقًا، وقد يكونُ معه توجيهٌ إلى مكانٍ أو يكونُ من غيرِ توجيهٍ، ويَختلفُ البعثُ بحسبِ اختلافِ ما عُلِّقَ به، فبَعَثُ البعيرَ: أثرتُهُ وسيّرتُهُ، وبَعثُ الرّسلِ إنهاضُهُم وتوجيهُهم، والبعثُ يومَ القيامةِ بمعنى إحياءِ الموتى وتوجيهِهم إلى الحشرِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

وهو الّذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيّام، وكانَ عَرشُهُ على الماءِ قبلَ أنْ يخلُقَ السَّماواتِ والأرضَ؛ لِيختبرَكم، فينظُرَ أيُّكم أحسَنُ له طاعةً وعملًا، ولَئِن قلتَ - أيّها الرّسولُ - للمُشركينَ: إنَّ اللّه سَيبعَثُكُم يومَ القيامةِ أحياءً بعدَ مَوتِكم، لَيَقولنَّ تكذيبًا وعنادًا ما هذا الّذي تقولُه إلّا سِحرٌ واضحٌ، يَظهَرُ لِمَن يَستمِعُهُ أنَّهُ سِحرٌ، فأثبتَ اللّه تعالى في هذهِ الآيةِ أنَّهُ خالقُ العالَمِ قادرٌ نافذُ الحُكمِ بالأمرِ والنّهي، وأثبتَ الإحياءَ بعدَ الموتِ، والبعثَ، والحشرَ، حتَّى يحصُلَ الثّوابُ والعقابُ يومَ القيامةِ[3].

من حِكمةِ خَلقِ السّماواتِ والأرضِ ابتلاءُ أعمالِ الإنسانِ في الإيمانِ والكُفرانِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ التّعبيرِ بالضّميرِ ﴿وَهُوَ﴾:

لمّا ذَكرَ الاسمَ الجليلَ في قولِه تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾، وعادَ الضّميرُ إليه في قولِه: ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾، أعادَ ذكرَ

تقريرُ عظمةِ اللهِ في علمِه وقدرتِه من مَعاقِدِ الإيمانِ بجلالِه وكمالِه

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بلو)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلوي)، والرّاغب، المفردات: (بلى)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 474.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بعث).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/251،

الضّميرِ هنا فقالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ فالكلامُ على مُقتضَى الظّاهرِ؛ لِيشيرَ الضّميرُ إلى الأوصافِ الّتي ذُكِرَت بسببِ عودِهِ على الاسمِ الظّاهرِ الجليلِ المُقرَّرِ في ذهنِ السّامعِ؛ بمعنى: أنَّ الّذي تكفَّلَ برزقِ الدَّوابِّ كلِّها، والّذي يَعلمُ مُستقرَّها ومُستودعَها هو نفسُهُ الّذي خَلَقَ السّماواتِ والأرضَ، وكانَ عرشُهُ على الماءِ؛ فيكون مجيءُ الضّميرِ على معنى استجماعِ الأوصافِ السّابقةِ واللّاحقةِ؛ لزيادةِ المَهابةِ، ولِيُفيدَ بالدّليلِ على أنَّهُ تعالى عليمٌ بالأشياءِ كلِّها، وقديرٌ على كُلِّ المَقدوراتِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي في الفعلِ ﴿خَلَقَ﴾:

خلقُ السّماواتِ والأرضِ أمرٌ ثابتٌ مُتعيَّنٌ مُتَعَيِّنٌ، فما يُبنَى عليه ثابتٌ كذلك

لم يأتِ مَعَ السّماواتِ والأرضِ من مادَّةِ الخاءِ واللّامِ والقافِ إلّا الفعلُ الماضي (خلقَ)؛ لدلالةِ الفعلِ على الواقعِ الثّابتِ المُتعيِّنِ من شأنِ السّماواتِ والأرضِ، بمعنى: أنّهُ مَقطوعٌ بوقوعِهِ بدليلِ المُشاهدةِ فيكونُ المبنيُّ عليه قطعيًا ثابتًا كذلك[1].

سرُّ جمعِ لفظِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وإفرادِ لفظِ ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾:

السّماواتُ مختلفةُ الطّبائعِ والآثارِ، مَعَ الأرضِ ذاتِ البحارِ والأنهارِ

جمعُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ دونَ ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ لِلإيذانِ بأنّها أجرامٌ مُختلفةُ الطّبائعِ ومُتفاوتةُ الآثارِ والأحكامِ، فهي مُختلِفةٌ بالأصلِ والذّاتِ دونَ الأرضِ، كما أنَّ الجمعَ في سياقِ المدحِ يفيدُ زيادةً في التّعظيمِ[2].

الغرضُ من تقديمِ لفظِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على لفظِ ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾:

آثارُ قدرةِ اللهِ في السّماواتِ أظهرُ مِنَ الأرضِ وأعجبُ

في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ قدَّمَ السّماواتِ على الأرضِ؛ لِشرفِها وعلوِّ مكانِها، ولِتقدُّمِ وجودِها، كما أنَّ آثارَ قدرةِ اللّه تعالى فيها أظهرُ وأعجبُ[3].

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/85.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/187.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/23.

نكتةُ تحديدِ المُدّةِ بستّةِ أيّامٍ في خلقِ السّماواتِ والأرضِ:

تعدّدُ حِكَمِ خلقِ السّماواتِ في ستّةِ أيّامٍ

لّما كانَ اللّه تعالى قادرًا على أنْ يَخلُقَ السّماواتِ والأرضَ وما بينَهما في أقلَّ ممّا ذَكَرَ، بل في أقلَّ مِن لمحِ البصرِ، كانَ ذكرُ العددِ لحِكَمٍ منها: الإشعارُ بأنّه تعالى قادرٌ مُختارٌ في أفعالِه، وفيه كنايةٌ عن قِصرِ الزَّمنِ الّذي كمُلَ فيه هذا الإبداعُ العظيمُ، وحثٌّ للعبادِ على التَّأنِّي في الأمورِ، وأنَّ الشَّيءَ إذا عُمِلَ بالتّدريجِ كانَ أتقنَ[1].

دلالةُ العطفِ بالواوِ في: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾:

ذِكرُ الماءِ في بدايةِ الخلقِ بيانٌ بتعلّقِ حياةِ النّاسِ بهِ

قولُه: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾، إذ إنَّه لّما كانَ الفعلُ ﴿وَكَانَ﴾ للماضي دلَّ على أنّه ما كانَ تحتَ العرشِ خَلقٌ - قبلَ خلقِ السّماواتِ والأرضِ - إلّا الماءُ، وفيه دليلٌ على أنّ العرشَ والماءَ كانَا مَخلوقَين قبلَ السّماواتِ والأرضِ. ودلالةُ العطفِ هنا بيانُ عظيمِ قدرتِه سبحانه عطفًا على بيانِ عظيمِ خلقِه، فالعرشُ مع كونِه أعظَمَ مِنَ السّماواتِ والأرضِ كانَ على الماءِ، فلولا أنَّهُ تعالى قادرٌ على إمساكِ الثَّقيلِ بغيرِ عَمَدٍ لَما صَحَّ ذَلِكَ، كما أنَّه تعالى أمسَكَ الماءَ لا على قَرارٍ، فاللّه مُمسِكٌ كلَّ ذلك بقدرتِه، وكلّما ازدادَتِ الأجرامُ كانَت أحوجَ إليه وإلى إمساكِه، كما أنَّ في ذِكرِ الماءِ بيانًا بتعلُّقِ حياةِ النّاسِ به[2].

سرُّ الإضافةِ في: ﴿عَرۡشُهُۥ﴾:

تعظيمُ شأنِ العرشِ بالتّصريحِ بإضافتِه للهِ تعالى

لّما كانتِ الإضافةُ هنا على معنى اللّامِ بمعنى مُلكِ اللّه تعالى للعرشِ وتخصيصِه بِهِ سبحانه دلَّ على تعظيمِ العرشِ؛ لِما في التّصريحِ بإضافتِه للّه مِن معنى التّفخيمِ والتّشريفِ؛ لِيدُلَّ على عظمةِ اللّه تعالى وكبريائِه وعظيمِ قُدرتِه.

دلالةُ اللّامِ في: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾:

أفادَتِ اللّامُ معنى التّعليلِ المجازيِّ، ولمّا كانَ ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ مُتعلِّقًا

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/187.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/330، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/319.

بالفعلِ ﴿خَلَقَ﴾ الّذي هو مِن صلةِ الموصولِ، دلَّ على أنَّ الصِّلةَ؛ أي: قولُهُ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ سببٌ للاختبارِ، فأفادَ أنَّ خلقَهُما لِحكمةٍ بالِغةٍ، ودلَّ كذلك على أنَّ في الكلامِ إيجازًا بالحذفِ على المعنى؛ أي: خلَقَ السّماواتِ والأرضَ، وما فيهما مِنَ المَخلوقاتِ الّتي مِن جُملتِها أنتُم، ورَتَّبَ فيهما جميعَ ما تَحتاجونَ إليهِ لِيبلوَكُم، أيُّكم أحسَنُ عَملًا، فأفادَتِ اللّامُ أنَّ اللّه تعالى لم يخلقِ السّماواتِ والأرضَ، وما فيهما لأنفسِها؛ إنَّما خلقَها لِلمُمتحَنِ فيهما، ففي الكلامِ تكريمٌ للإنسانِ وتشريفٌ له(1).

تكريمُ الإنسانِ وتشريفُهُ، بأنْ خلقَ اللهُ لأجلِهِ السّماواتِ والأرضَ

الغرضُ مِنَ الاستعارةِ التّمثيليّةِ في: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾:

النّاسُ في ابتلاءٍ بينَ الطّاعةِ والثّوابِ، أو المعصيةِ والعقابِ

لمّا كانَ اللّه تعالى عالمًا بما يُسِرُّ النّاسُ وما يُعلِنونَ، وهو علّامُ الغيوبِ، وكانَ الاختبارُ دالًّا على عدمِ علمِ المُخْبَرِ بالمخبرِ عنهُ دلَّ على امتناعِ حقيقةِ الابتلاءِ، فإنَّه إنّما يفعلُ الابتلاءَ مَن يجهلُ حالَ مَن ابتلاهُ واختبرَهُ، فيختبرُهُ لِيطَّلِعَ على ما لم يعلمْهُ مِن حالِه، ولمّا كانَ اللّه عالِمًا بكلِّ شيءٍ لا تخفى عليه خافيةٌ، فلا يحتاجُ في علمِهِ بالأشياءِ إلى اختبارٍ وابتلاءٍ، جاءَ لفظُ الابتلاءِ على طريقِ الاستعارةِ التّمثيليّةِ، إذ شبَّهَ اللّه تعالى حالَهُ مَعَ العبادِ في تكاليفِهِ، وفي خلقِ المنافعِ لهُم مع تمكينِهِم مِنَ الطّاعةِ والمعصيةِ بحالِ المُختبِرِ مع المُختبَرِ، هل يَعملُونَ الصّالحاتِ، ويَشكرونَ فيُثابونَ أو يَعصونَ فيُعاقَبُونَ؟! والمعنى: لِيُعامِلَكُم مُعامَلَةَ المُبتَلي لأحوالِكم كيفَ تعملُونَ؟!(2).

سِرُّ مجيءِ الفعلِ ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ مُعلَّقًا باسمِ الاستفهامِ:

مآلُ اختبارِ النّاسِ في الدّنيا ظهورُ حالِهم وظهورُ علمِ اللهِ بهم

لمّا كانَ تعليقُ الفعلِ عنِ التّعديةِ باسمِ الاستفهامِ لا يكونُ إلّا مع أفعالِ القلوبِ دلَّ على أنَّ الفعلَ ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ مُضمَّنًا معنى العلمِ؛ لما

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/101، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/152، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/187.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/25، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/24.

في الاختبارِ مِن مَعنى العلم؛ لأنَّه طريقٌ إليه فهو مُلابِسٌ له، كما تقولُ: انظرْ أيُّهم أحسنُ وَجهًا؛ لأنّ النَّظرَ مِن طريقِ العلم، والمعنى: لِيختبرَكُم ويُظهِرَ علمَهُ في أعمالِكُم، ويحتملُ أن يكونَ الفعلُ ﴿يَبْلُوكُمْ﴾ قد سُلِكَ به طريقُ الاستعارةِ التَّبعيّةِ، بتشبيهِ الابتلاءِ بالعلمِ باعتبارِ أنَّ مآلَ الاختبارِ ظهورُ حالِ المُختبَرِ والعلمُ به[1].

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ باسمِ الاستفهامِ ﴿أَيُّكُمْ﴾:

الاختبارُ في الدّنيا لتمييزِ النّاس على مبدأ الثّوابِ أو العقابِ

لمّا كانَ اسمُ الاستفهامِ (أيُّ) لعُمومِ السّؤالِ عمّا يميّزُ أحدَ المُتشاركَينِ في أمرٍ يَعمُّهما، دلَّ على أنَّ الاختبارَ لتمييزِ كلِّ إنسانٍ عن الآخرِ في العملِ الّذي يَعُمُّ النّاسَ جميعًا، ولمّا تَعلَّقَ ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ باسمِ الاستفهامِ دلَّ على أنَّ المعنى: أهَذا أحسَنُ عملًا أم هَذا، وفيه إيجازٌ؛ لإغنائِه عنِ التَّعدادِ، بأن يقولَ: أهذا أم هذا أم هذا أم هذا، وهكذا، ولم يقُلْ: (لِيبلوَكُم أيُّ أعمالِكُم أحسنُ) مع أنَّ الجزاءَ على الأعمالِ؛ لأنَّ الابتلاءَ لِلذّواتِ على ما يَرتكبونَهُ مِنَ الأعمالِ، كما أنَّ أثرَ الثّوابِ والعقابِ يكونُ لِلذَّواتِ، فأفادَ اسمُ الاستفهامِ المضافِ إلى الذّواتِ في قولِه: ﴿أَيُّكُمْ﴾ أنَّ الاختبارَ للإنسانِ على أعمالِه، والجزاء له بالثّوابِ أو العقابِ.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿أَحْسَنُ﴾:

لم يقُلْ: (أكثرُ عملًا)؛ لِلإيذانِ بأنَّ العِبرةَ بِحُسنِ العملِ لا بأكثرِه.

سرُّ التّعبيرِ بصيغةِ التّفضيلِ ﴿أَحْسَنُ﴾:

الحثُّ على محاسنِ الأعمالِ، والتّرقّي دائمًا في مَراتِبِ الكمالِ

لمّا كانَت أعمالُ المؤمنينَ هي الّتي تتفاوتُ إلى حَسَنٍ وأحسَنَ، وكانَ الابتلاءُ شاملًا جميعَ المُكلَّفينَ مِنَ المؤمنينَ والكافرينَ باعتبارِ أعمالِهِمُ المُنقسمةِ إلى حَسَنٍ وقبيحٍ، ولمّا كانَ المتّقونَ هُم أحسن عملًا، وهُمُ الّذينَ استبَقوا إلى تَحصيلِ ما هو مَقصودُ اللّه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/187.

مِن عبادِهِ؛ خَصَّهُمُ اللّه بالذِّكرِ، واطَّرَحَ ذِكرَ مَن وراءَهُم تَشريفًا لَهُم، وتنبيهًا على مكانِهِم منهُ، وعلى انحطاطِ مَنزِلةِ المُسيئينَ، وليكونَ ذلك تيقُّظًا لِلسّامِعينَ، وتَرغيبًا في حيازةِ فَضلِهِم، وأيضًا لِتحريضِ المُؤمنينَ على أحاسِنِ المَحاسنِ، والتّحضيضِ على التَّرقّي دائمًا في مَراتِبِ العلمِ والعملِ، أو يُقالُ: لمّا ذَكَرَ اللّه تعالى أنَّه خلقَ السّماواتِ والأرضَ على النَّمطِ الرّائعِ، وأنَّه تعالى أبدعَ تلكَ البدائعَ في خلقِهِ مِن أجلِ ظُهورِ كمالِ إحسانِ المُحسِنينَ، اقتضى أن يكونَ العملُ بموجبِهِ بحيثُ لا يَحيدُ أحدٌ عن سَنَنِهِ المُستَبِينِ، بل يَهتدي كلُّ فَردٍ إلى ما يُرشِدُ إليهِ مِن مُطلَقِ الإيمانِ والطّاعةِ، وإنّما التّفاوتُ بينَهُم في مَراتبِهِما بحسبِ القُوّةِ والضَّعفِ، وأمّا الإعراضُ عَن ذلكَ والوقوعُ في مَهاوي الضَّلالِ فَبِمَعزِلٍ مِنَ الوقوعِ، فَضلاً عن أن يَنتظِمَ في سِلكِ الغايةِ لذلك الصُّنعِ البَديعِ، وإنَّما هُوَ عملٌ يَصدُرُ عن عاملِهِ بسوءِ اختيارِهِ مِن غيرِ مُصحِّحٍ لهُ أو مُسوِّغٍ. ويحتملُ أن تكونَ صيغةُ التّفضيلِ ليسَت على بابِها؛ أي: بمعنى (حسن)؛ لِيشمَلَ الخطابُ جميعَ المُكلَّفينَ، ونكتةُ مجيءِ اللّفظِ بصيغةِ التّفضيلِ الحثُّ على عملِ الأحسنِ والمبادرةِ إليهِ في جميعِ الأعمالِ الحسنةِ[1].

التّرغيبُ في التَّرقّي إلى مَدارِجِ الطّاعاتِ، والزّجرُ عن مُباشرةِ نقائضِها

نكتةُ التّنكيرِ في: ﴿عَمَلاً﴾:

حُسنُ العملِ يشمَلُ عملَ القلبِ والجوارحِ معًا

لمّا كانَ اللّفظُ نكرةً في سياقِ الاستفهامِ دلَّ على عُمومِ العملِ؛ لِيشمَلَ عملَ القلبِ، وعملَ الجوارحِ، فالمرادُ مِنَ العملِ المفهومُ المُشتركُ بينَ عملِ القلبِ وعملِ الجارحةِ[2].

سرُّ التّعبيرِ بالتّمييزِ في: ﴿أَحۡسَنُ عَمَلاً﴾:

براعةُ التَّمييزِ في الخطابِ في جمعِهِ بينَ الإيجازِ والإطنابِ

أفادَ التّمييزُ هنا الإيجازَ في اللّفظِ؛ لأنَّ التّمييزَ هنا على معنى: أيُّكُم عملُهُ أحسنُ مِن عملِ غيرِهِ؟، كما أفادَ الإطنابَ مِن وجهٍ آخرَ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/126، والنّيسابوريّ، غرائب التّفسير: 4/8، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/188.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128.

هو الإجمالُ بعدَ التّفصيلِ، فإنَّه لمّا قالَ: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ﴾ أجملَ في السّؤالِ عن وجهِ الأحسنيَّةِ، فلمّا ذَكَرَ التّمييزَ فصَّلَ الإجمالَ وبيَّنَهُ، ولا يَخفى حسنُ مَوقعِهِ؛ إذ بَرَزَ الكلامُ في مَعرِضِ الاعتدالِ نظرًا إلى إيجازِهِ في اللّفظِ مِن جهةٍ، وإلى إطنابِهِ لِلإجمالِ والتّفصيلِ مِن جهةٍ أُخرى[1].

دلالةُ الواو في: ﴿وَلَئِن﴾:

خلقُ السّماواتِ والأرضِ دليلٌ على حصولِ الحشرِ يومَ القيامةِ

تحتملُ الواو أن تكونَ عاطفةً، وبيانُ مُناسبةِ العطفِ مِن وجهين: أحدُهما: أنَّهُ لمّا كانَ الابتلاءُ يتضمَّنُ حديثَ البعثِ أتبَع ذلك بذكرِهِ، والثّاني: أنَّهُ لمّا بَيَّنَ أنَّهُ خَلَقَ هذا العالَمَ لأجلِ ابتلاءِ المُكلَّفينَ وامتِحانِهم، كانَ هذا مُوجبًا القَطعَ بِحُصُولِ الحَشرِ والنَّشرِ: لأنَّ الابتلاءَ والامتحانَ يُوجِبُ تَخصيصَ المُحسنِ بالرَّحمَةِ والثَّوابِ، وتَخصيصَ المُسيءِ بالعِقابِ، وذلِكَ لا يَتِمُّ إلّا مَعَ الاعترافِ بالبعثِ بعدَ الموتِ وبالقيامَةِ[2]، أو يُقالُ: لمّا أخبرَ اللّه تعالى أنَّهُ خَلَقَ السّماواتِ والأرضَ كانَ مِن حِكمةِ خَلقِ الأرضِ صدورُ الأعمالِ الفاضلةِ مِن أشرَفِ المخلوقاتِ فيها، ثمَّ إنَّ ذلك يقتضي الجزاءَ على الأعمالِ؛ إكمالًا لمُقتضَى الحِكمةِ؛ ولذلك أُعقِبَت بقولِهِ: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾[3]. وتحتملُ الواو أن تكونَ حاليّةً؛ للإيذانِ بإقامةِ الحُجّةِ عليهم، وذلك ببيانِ حالةِ التّناقضِ الّتي هُم عليها، والتّعجيبِ مِن إنكارِهم وقولِهم الّذي قالُوهُ، والمعنى: إنّ اللّه ﷻ هذه صفاتُهُ، وهذه أفعالُهُ، والحالُ أنَّهُم يُنكِرُونَ ما هو دُونَ ذَلِكَ، وهو إعادَةُ خَلقِ النّاسِ، ويَجهَلونَ أنَّهُ لَولا الجَزاءُ لَكانَ هذا الخَلقُ عَبَثًا؛ أي: إنَّ هؤلاء بكفرِهِم في حَيِّزٍ، إنْ قلتَ لَهُم: إنّهُم مَبعوثونَ كَذَّبُوا،

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 284.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 7/13، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/187، والقنّوجيّ، فتح البيان: 6/145.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/6.

وقالُوا: هذا سِحرٌ، ففي الكلامِ توبيخٌ لَهُم، وتعجيبٌ مِن قولِهم؛ لِتناقضِهم؛ إذ مَن كانَت هذه صفاتُهُ فهو قادرٌ على أن يبعثَكُم بعدَ موتِكُم، والحالُ أنَّكُم تُنكِرونَ البعثَ مِنَ القبورِ، وهو أيسرُ مِن خلقِ السّماواتِ والأرضِ بكثيرٍ؛ إذِ البداءةُ أعسَرُ مِنَ الإعادةِ، وخلقُ السّماواتِ والأرضِ أكبَرُ مِن خلقِ النّاسِ[1].

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بأسلوبِ الشّرطِ:

تجدُّدُ تكذيبِ الكافرينَ بالبعثِ عادةٌ مُستمرَّةٌ عندَهُم

لمّا كانَ الشّرطُ والجزاءُ على معنى تعليقِ تحقُّقِ الجزاءِ كلَّما تحقَّقَ الشّرطُ عُبِّرَ بِهِ هنا؛ لإفادَةِ تَجَدُّدِ تكذيبِهم عِندَ كُلِّ إخبارٍ بالبَعثِ[2].

الغرضُ مِن تتابعِ التّأكيدِ في الجملةِ الشّرطيّةِ:

التّعجيبُ مِن حالِ المُكذِّبينَ بإعادةِ الخَلقِ، وهُم يُشاهدونَ آثارَ بدءِ الخَلقِ

لمّا أُكِّدتِ الجملةُ الشّرطيَّةُ باللّامِ المُوَطِّئَةِ للقَسمِ في قولِهِ: ﴿وَلَئِن قُلْتَ﴾؛ لأنَّه بتقديرِ: واللهِ إنْ قلتَ إنَّكُم مَبعوثونَ من بعدِ الموتِ، وأُكِّدَت كذلك بنُونِ التَّوكيدِ في قولِه: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾، أفادَ تتابعُ التّأكيدِ تَنزيلَ السّامِعِ مَنزِلَةَ المُتَرَدِّدِ في صُدورِ هذا القولِ منهُم لِغَرابةِ صُدورِهِ مِنَ العاقِلِ، فيَكُونُ التَّأكيدُ القَوِيُّ مُستَعمَلًا في لازمِ مَعناهُ، وهُوَ التَّعجيبُ من حالِ الَّذينَ كَفروا أن يُحيلوا إعادَةَ الخَلقِ، وقد شاهَدوا آثارَ بَدءِ الخَلقِ، وهو أعظَمُ وأبدَعُ[3].

بلاغةُ مجيءِ الشّرطِ على خلافِ مُقتضى الظّاهرِ:

تنزيلُ الكافرِ مَنزِلَةَ الجاهلِ؛ لعدمِ جَريهِ على مُوجِبِ العلمِ

عُبِّرَ بأداةِ الشّرطِ (إنْ) الّتي تفيدُ في الأصلِ الخلوَّ عنِ الجزمِ بوقوعِ الشّرطِ، ولمّا كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُذكِّرُهُم دائمًا بالبعثِ بعدَ الموتِ، وبيومِ القيامةِ، دلَّ على مجيءِ الشّرطِ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ، ونكتةُ التّعبيرِ بـ (إنْ) دونَ (إذا) تنزيلُ الكافرِ مَنزِلَةَ الجاهلِ لِعدمِ جريهِ على مُوجِبِ العلمِ، فإنَّهُم لمّا لَم يَنتفعوا بتذكيرِهِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/153، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/240، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/8.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/9.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/9.

بالبعثِ بعدَ الموتِ، ولم يؤْمنوا بهِ، ولم يَعملوا بما يقولُ، كان قولُهُ ﷺ لَهُم بمثابةِ العدمِ، فتذكيرُهُ وعدمُ تذكيرِهِ لَهُم سواءٌ.

دلالةُ التّعبيرِ بضميرِ الخطابِ في قولِهِ ﴿إِنَّكُم﴾:

مَدحُ مَن آمنَ باللهِ ورسولِهِ، بمُجرَّدِ سماعِ الخطابِ

يُحتملُ أن يكونَ الخطابُ مُوجَّهًا في ﴿إِنَّكُم﴾ إلى جميعِ المُكلَّفينَ، بدلالةِ أنَّ الابتلاءَ لِجميعِ المُكلَّفينَ، فيكون الجوابُ المذكورُ بالموصولِ وصلتِهِ في قولِهِ: ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ لِلتّخصيصِ؛ أي: لَيَقولنَّ الّذين كفروا مِنهُم، وسببُ التّخصيصِ التّصريحُ بتوبيخِهِم، وبيانُ أنَّ الصِّنفَ المقابلَ وهُمُ المؤمنونَ قد نجحوا في اختبارِهِم. ويحتملُ أن يكونَ الخطابُ مُوجَّهًا إلى الكافرينَ فقط؛ لِيكونَ واردًا على طريقةِ الذَّمِّ، ولِلإشعارِ بأنَّ المؤمنينَ قد آمنوا بمُجرَّدِ سماعِهِم الخطابَ، ولم يحتاجوا إلى تأكيدِ الأمرِ وتقريرِهِ[1].

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالموصولِ وصلتِهِ:

المنسوبُ إلى الكفرِ مَذمومٌ، ومصيرُهُ مَعلومٌ

لمّا قالَ تعالى: ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أفادَ أنّ الّذين قالوا هذا القولَ مَعروفونَ بكفرِهِم، وأنَّ جملةَ الصِّلةِ مَعلومةُ الانتسابِ إليهِم، كما أفادَ التّعبيرُ أنَّ كفرَهُم هو السّببُ في إنكارِ البعثِ، وأفادَت جملةُ الصّلةِ كذلك ذمَّهُم وإهانتَهُم بنسبتِهِم إلى الكفرِ، لذا عَبَّرَ بالاسمِ الموصولِ لِيستدعيَ جملةَ الصّلةِ الدّاعيةِ إلى القولِ القبيحِ.

الغرضُ من حذفِ مُتعَلّقِ الفعلِ ﴿كَفَرُوٓاْ﴾:

أقبحُ الكفرِ ما كانَ سَجيَّةً، واستحكمَ لِيجرَّ صاحبَهُ إلى التّكذيبِ عمدًا

يحتملُ أن يكونَ حذفُ مُتعلّقِ الفعلِ ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ لإفادةِ العُمومِ؛ أي: إنّهُم كَفروا باللّه وبرسولِهِ وبجميعِ ما آمنَ بهِ المؤمنونَ؛ لِيدلَّ على عُمومِ كُفرِهِم، ويحتملُ أن يكونَ حذفُ المتعلّقِ لإفادةِ أنَّ الكُفرَ صارَ سجيَّةً لَهُم، فكلَّما تُلِيَ عليهم القرآنُ عَمِدوا إلى تكذيبِهِ؛ تماديًا منهُم وعنادًا.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/188.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بمَقولِ القولِ جملةً اسميّةً في السّياقِ:

البعثُ بعدَ الموتِ أمرٌ ثابتٌ، لا ريبَ فيهِ

قولُهُ: ﴿إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ﴾، فيه أفادَ مجيءُ الجملةِ الاسميّةِ ثبوتَ مَضمونِ الجملةِ؛ للإيذانِ بأنَّ البعثَ بعدَ الموتِ أمرٌ ثابتٌ مُقرَّرٌ، والإيمانُ بالبعثِ هو رأسُ الإيمانِ بالغيبِ ومركزُهُ، لذا احتيجَ الإيرادُ بجملةٍ تدُلُّ على الثّبوتِ والدّوامِ المُؤكَّدِ.

دلالةُ التّأكيدِ في: ﴿إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ﴾:

المُنكِرُ للبعثِ يحتاجُ إلى الأدلَّةِ الكثيرةِ، والمُتردِّدُ فيه يحتاجُ إلى أدلَّةٍ أقلّ

جاءَتِ الجملةُ الاسميّةُ الدّالَّةُ على الثّبوتِ مُؤكَّدةً بـ (إنَّ)؛ للإيذانِ بأنَّهم كانوا مُنكِرينَ للبعثِ، فاقتضى الخبرُ الإنكاريُّ التّأكيدَ بـ (إنَّ) والجملةِ الاسميَّةِ؛ ليردَّهُم عن إنكارِهِمُ البعثَ بعدَ الموتِ إلى الاعتقادِ بهِ، فمَن قويَ إنكارُهُ يحتاجُ إلى زيادةِ تأكيدٍ وتقريرٍ.

ويحتملُ أن يكونَ الخبرُ طلبيًّا؛ بأن تكونَ (إنَّ) هي المؤكِّدةَ دونَ الجملةِ الاسميّةِ، فيكون قد أقامَهم مَقامَ المتردّدِ المُتحيِّرِ في أمرِهِ لِقُربِ الأدلَّةِ على البعثِ من بعدِ الموتِ وظهورِها، ومَن تردَّدٍ يحتاجُ إلى تأكيدٍ أقلَّ مِنَ الأوّلِ[1].

سرُّ التّقييدِ بشبهِ الجملةِ:

من براعةِ القرآنِ الإخبارُ عَن أطوارِ الحياةِ في أوجزِ العباراتِ

لمّا كانَ البعثُ المدلولُ عليهِ بقولِهِ: ﴿مَّبۡعُوثُونَ﴾ بمعنى إحياءِ الموتى وتسييرهم إلى يومِ القيامةِ، أفادَ التّصريحُ بقولِهِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ﴾ بيانَ غايةِ ابتداءِ البعثِ، وتذكيرَهُم بابتداءِ الغايةِ الزّمانيّةِ لِلمَوتِ[2].. كما أفادَ الإخبارَ عن أطوارِ الحياةِ كلِّها في أوجزِ لفظٍ وأخصرِهِ، إذ ذَكَرَ خلقَ السّماواتِ والأرضِ، وما بينَهُما، وخَلقَ العرشِ، وخَلقَ النّاسِ بما يدُلُّ عليهِ لفظُ ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾، ثمَّ ذَكَرَ الموتَ والبعثَ، وأشعرَ كلُّ هذا بذكرِ الحسابِ والثّوابِ والعقابِ بما تقضيه الحكمةُ مِنَ الاختبارِ والامتحانِ.

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 170 - 171، والتّفتازانيّ، المطوّل، ص: 184 - 185.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/420.

دلالةُ (اللّام) في: ﴿ٱلۡمَوۡتِ﴾:

تخويفُ الكافرينَ وتحذيرُهُم من أبلغِ عاداتِ القرآنِ في الخطابِ

لمّا كانَ البعثُ لايكونُ إلّا للنّاسِ جميعًا، دلَّ على أنَّ (اللّام) عوضٌ عنِ المضافِ إليه، بمعنى مِن بعدِ موتِ النّاسِ، ففيه تخويفٌ وتحذيرٌ للكافرينَ لِعظمِ المَوقِف.

سرُّ العدولِ في قولِهِ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾:

من عادةِ الكافرينَ التّكذيبُ سواء أكانَ إجابةً عن دعوةٍ إلى الإيمانِ أم لا

عَبَّرَ بـ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾؛ والمعنى: لَيُجيبنَّكَ الّذين كفروا[1]، وفائدةُ العدولِ إلى القولِ الإشعارُ بأنَّ من عادتِهم أن يقولوا هذا القولَ، سواء أكان إجابةً عن قولٍ وُجِّهَ إليهم، ودُعُوا إلى الاعتقادِ بهِ أم لا.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾:

المقولاتُ الباطِلَةُ تُخلِّدُ التّشنيعَ على قائِليها على الدّوامِ

عُبِّرَ بالفعلِ المضارعِ المؤَكّدِ لإفادةِ تقريرِ استمرارِ قولِهم هذا وتجدُّدِهِ؛ إشعارًا بأنَّهم كانوا يَقولونَهُ عن اعتقادٍ ثابتٍ.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَآ﴾:

دلائلُ الحقِّ قريبةٌ مِن جميعِ النّاسِ، ولا عذرَ لِمَن يُكذِّبُ ويُنكِرُ

عُبِّرَ باسمِ الإشارةِ (الّذي) لِلقريبِ؛ لِلإشعارِ بأنَّ الحقَّ؛ أي: قول الرَّسولِ أو القرآنِ أو الرّسول نفسه - على الاختلافِ في عودِ اسمِ الإشارةِ - قريبٌ منهم، فهو واضحٌ، ومع هذا يُنكِرونَ ويُكذّبونَ، ففيه معنى التّعجيبِ مِن قولِهم.

دلالةُ الجمعِ بيَن الكُفرِ والإنكارِ والتّكذيبِ:

من أقبحِ أوصافِ الكفرِ الإيغالُ في أبشعِ مُمارساتِ الضّلالِ

في هذه الجملةِ جمعوا بينَ الكفرِ والإنكارِ والتّكذيب، فأثبتَ لَهُمُ الكفرَ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، ونَسَبَ إليهم الإنكارَ والتّكذيبَ في قولِه: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، ففيه زيادةٌ في التّوبيخِ والتّقبيحِ.

تنوُّعُ القراءاتِ القرآنيّةِ:

مَن وَصَفَ الهدى المبين بأنَّه سِحرٌ، فهو كافرٌ

في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، قرأ حَمزَةُ والكِسائِيُّ وخَلَفٌ (ساحِرٌ) بصيغةِ الفاعلِ، وقرأ الباقونَ ﴿سِحۡرٞ﴾[2]، ويختلفُ

(1) رضا، تفسير المنار: 12/17.

(2) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 249، وابن الجزريّ، النّشر: 2/256.

المعنى باختلافِ المدلولِ عليهِ مِن اسمِ الإشارةِ: فإذا كانَ لفظُ ﴿هَٰذَآ﴾ إشارةً إلى القولِ المذكورِ؛ فالمعنى: قولُكَ إنَّنا مَبعوثونَ مِن بعدِ الموتِ كالسِّحرِ المُبينِ في الخديعةِ أو البطلانِ؛ أي: كما أنَّ السِّحرَ خديعةٌ وباطلٌ فقولُكَ كذلكَ، أو المعنى: أنَّهُ كَلامٌ مِن قَبيلِ الأقوالِ الَّتي يَقولُها السَّحَرَةُ لِخَصائِصَ تُؤَثِّرُ في النُّفوسِ. وإذا كانَ (هذا) إشارةً إلى البعثِ المُستفادِ مِن قولِهِ تعالى: ﴿مَّبۡعُوثُونَ﴾، فالمعنى: إنِ البعثُ إلّا كالسِّحرِ في بطلانِهِ، ويحتملُ أن يكونَ إشارةً إلى القرآنِ؛ لأنَّهم عندَ سماعِهم ذلك تخلَّصُوا إلى القرآنِ؛ لإنبائِهِ عنِ البعثِ في كلِّ مَوضِعٍ، فعمَدُوا إلى تكذيبِهِ وتَسميتِهِ سِحرًا تماديًا مِنهُم في العِنادِ، وتفاديًا عن سَنَنِ الرَّشادِ، كأنَّه قِيلَ: لو تلوتَ عليهِم مِنَ القرآنِ ما فيهِ إثباتُ البعثِ لَقالوا: هذا المتلوُّ سِحرٌ. وعلى هذه الوجوهِ الثّلاثةِ يكونُ الكلامُ مِنَ التّشبيهِ البليغِ بحذفِ أداةِ التّشبيهِ ووجهِ الشّبهِ،

ويحتملُ أن يكونَ (هذا) إشارةً إلى الرّسولِ ﷺ، فيكونُ على سبيلِ المبالغةِ، بالإخبارِ عنِ الرّسولِ بالمصدرِ ﴿سِحۡرٌ﴾، كقولِهم: (رجلٌ عدلٌ)، ومَن قرأ: (ساحِرٌ) فالإشارَةُ بِقَولِهِ هذا إلى الرَّسولِ ﷺ المَفهُومِ مِن ضَمِيرِ ﴿قُلۡتَ﴾؛ أي: إنَّه يَقُولُ كَلامًا يَسحَرُنا بذلكَ؛ أي: ما هو إلّا ساحِرٌ، والسّاحِرُ كاذِبٌ مُبطِلٌ، فيكون كلامُهُ باطلًا، وعلى هذه القراءةِ لا يُحمَلُ الكلامُ على التّشبيهِ البليغِ[1].

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالكنايةِ:

إنـكـارُ صـدقِ الـقـرآنِ أو الرّسولِ إنكارٌ لِلبعثِ، وإنكارُ البعثِ إنكارٌ لِلقرآنِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّبِينٌ﴾ المرادُ من هذه

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/188، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ، ص: 1027، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/214، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/9.

الجملةِ إنكارُ البعثِ بطريقِ الكنايةِ الإيمائيَّةِ، وبيانُهُ: أنّه إنْ كانَ المدلولُ عليه مِن اسم الإشارةِ هو القول؛ فالمعنى: إنْ هذا القولُ إلّا سِحرٌ مبينٌ، بمعنى إنكارِ البعثِ؛ لأنَّ الجملةَ جاءَت على سبيلِ الرّدِّ على الدّعوةِ إلى الإيمانِ بالبعثِ بعدَ الموتِ، وفي هذا المعنى إشعارٌ بأنَّهم اعتادوا نسبةَ كلِّ شيءٍ إلى السِّحرِ، حتَّى الأشياءِ الّتي لا تحتملُ السِّحرَ، وهو الإخبارُ؛ لأنَّ السِّحرَ إنَّما يكونُ في تقليبِ الأشياءِ ظاهرًا، وأمّا فيما يُخبَرُ عن شيءٍ يكونُ فلا، ففيه تعجيبٌ مِن قولِهم، وتوبيخٌ لهم، إذ وَصفوا بالسِّحرِ ما لا يقعُ فيهِ أصلًا، وإنْ كانَ المدلولُ عليه هو القرآنَ أو الرّسولَ فقد أجابوا بما هو أعمُّ، فإنَّ إنكارَ صدقِ القرآنِ أو الرَّسولِ إنكارٌ للبعثِ، كما أنَّ إنكارَ البعثِ إنكارٌ لِلقرآنِ، فيدخل في إنكارِ صدقِ القرآنِ أو الرّسولِ إنكارُ وقوعِ البعثِ دخولًا أوّليًّا بالوجهِ البرهانيِّ؛ لمناسبةِ السّياقِ، وفيه بيانُ غلوِّهم في الكفرِ والتَّكذيبِ[1].

سرُّ اصطفاءِ النّفي والاستثناءِ طريقًا لِلقَصرِ:

تخصيصُ القَصرِ بهم تعبيرٌ عن شدّةِ الإنكارِ

أفادَ القصرُ بـ ﴿إِنۡ﴾ النّافية و﴿إِلَّا﴾ تأكيدَ القصرِ وتقريرَهُ؛ لأنَّ النّفيَ بـ (إنْ) أقوى مِنَ النّفي بـ (ما)؛ لِلإيذانِ بشدّةِ تكذيبِهم وإنكارِهم، وهو الطّريقُ الملائمُ للتّعبيرِ عنِ الإنكارِ.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بأسلوبِ القصرِ في السّياقِ:

تهمةُ الكافرينَ محاولةٌ لِردِّ المؤمنينَ عن اعتقادِهم بالبعثِ

عَبَّرَ عن تكذيبِ الكافرين بأسلوبِ القصرِ؛ ليكونَ مِن قصرِ الموصوفِ على الصّفةِ، بمعنى تخصيصِ الموصوفِ المُشارِ إليهِ بـ ﴿هَٰذَآ﴾ بوصفِ السِّحرِ، وكأنَّه ليسَ له وصفٌ سواهُ على سبيلِ المبالغةِ في التّكذيبِ، وجاءَ القصرُ بأسلوبِ (إنْ) و(إلّا)؛ لِلإيذانِ بأنَّ الكافرينَ المُكذِّبينَ كانُوا يَعتقدونَ أنَّ المؤمنينَ مُخطئونَ في

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/101، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/23، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/75.

اعتقادِهِم بالبعثِ بعدَ الموتِ، وأنَّهُم يجبُ أن يتخلَّوا عن إصرارِهم على الإيمانِ، ففي هذا الأسلوبِ مَدحٌ لِلمؤمنينَ بأنَّ الكافرينَ ما قالوا هذا القولَ إلّا لمّا رأوا المؤمنينَ مُعتقِدينَ بالبعثِ ثابتينَ على اعتقادِهِم[1].

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 294.

﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨﴾ [هود: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مَــقـــالاتُ الكافرينَ مَظِنَّةٌ لِمعاجلتِهِم بالعذابِ، والله تعالى يُعامِلُهُم بالإمهالِ لا بالإعجالِ

لّما حَكَى اللّه تعالى عَنِ الكُفّارِ أنَّهُم يُكَذِّبونَ الرَّسولَ ﷺ بِقَولِهِم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ عطفَ عليه نَوعًا آخَرَ مِن أباطيلِهِم، وهو أنَّهُ مَتى تأخَّرَ عَنهُمُ العَذابُ الَّذي تَوَعَّدَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ بِهِ أخَذُوا في الاستِهزاءِ، وأنكروا إنذارَ رسولِ اللّه ﷺ لَهُم بعذابِ الدّنيا والآخرةِ، وكانوا يَقولونَ: ما السَّبَبُ الَّذي حَبَسَهُ عَنّا؟ فأجابَ اللّهُ تعالى: بأنَّهُ إذا جاءَ الوَقتُ الَّذي عَيَّنَهُ اللّه لِنُزولِ ذَلِكَ العذابِ الّذي كانوا يَستهزِئونَ بِهِ لَم يَنصَرِفْ عَنهُم، وأحاطَ بهم ذلك العذابُ[1]، وأيضًا لّما كانَ ما تَقَدَّمَ عنهُم مِنَ الأفعالِ القبيحةِ، ومَضى مِنَ الأقوالِ المُنكَرةِ مَظِنَّةً لِمُعاجلتِهم بالعذابِ، وكانَ الواقعُ أنّه تعالى يُعامِلُهم بالإمهالِ فَضلًا منه وكَرَمًا، حَكَى مَقالَتَهُم في مُقابلةِ رحمتِهِ لَهُم، فجاءَت هذهِ الآيةُ[2]، وأيضًا في هذه الآيةِ، والّتي قبلَها وَصفُ فَنٍّ من أفانينِ عِنادِ المُشرِكينَ، وتَهَكُّمِهم بالدَّعوةِ الإسلاميَّة، فإذا خَبَّرَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ بالبَعثِ، وأنَّ شِركَهُم سَبَبٌ لِتَعذيبِهِم جَعَلوا كَلامَهُ سِحرًا، وإذا أنذَرَهُم بِعُقوبَةِ العَذابِ على الإشراكِ استَعجَلوهُ، فإذا تَأخَّرَ عَنهُم إلى أجَلٍ اقتَضَتهُ الحِكمَةُ الرَّبّانِيَّةُ استَفهَموا عَن سَبَبِ حَبسِهِ عَنهُمُ استِفهامَ تَهَكُّمٍ، ظَنًّا أنَّ تَأخُّرَهُ عَجزٌ[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/321.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/241.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/166.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٍ﴾: تُطلَقُ الأمّةُ على الأصلِ، والمَرْجِعِ، والجَماعَةِ، والدِّينِ، وكلُّ جيلٍ مِنَ النّاسِ أمّةٌ على حدةٍ، والأمَّةُ الحين أو مُدّةٌ مِنَ الزّمنِ مُتتابعةٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45]، وذهبَ بعضُ اللّغويّينَ إلى أنَّ المرادَ بالأمّةِ انقضاءُ جيلٍ مِنَ النّاسِ، ومجيءُ جيلٍ آخرَ، كأنَّهُم راعَوا أنّها الأمَدُ الَّذي يَظهَرُ فيهِ جيلٌ، فَأُطلِقَت على مُطلَقِ المُدَّةِ، فيكونُ اللّفظُ على أصلِهِ مِن معنى الاجتماعِ، فأصلُ الأمِّ لكلِّ شيءٍ هو المَجمَعُ والمَضَمُّ، ومنه الأُمُّ: الوالدةُ؛ لأنَّ أولادَها يرتبطون بها، وهي أصلُهُم ومَجمَعُهُم، و﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعۡدُودَةٍ﴾ في الآية بمعنى إلى انقضاءِ أمَّةٍ مِنَ النّاسِ، أو بمعنى إلى مُدّةٍ ووقتٍ مَعلوم[1].

2) ﴿يَحۡبِسُهُۥٓ﴾: يدورُ معنى الحبسِ على مَنعِ الشَّيءِ مِنَ الانبعاثِ بحيثُ لا ينفذُ ولا يتسيَّبُ، فهو بمعنى إلزامِ الشَّيءِ مَكانًا لا يَتَجاوَزُهُ، ومنه: حَبسُ اللِّصِ، ومِن معنى الإمساكِ عنِ الانطلاقِ قولُهُ تعالى: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وحَبسُ الشَّيءِ: منعُهُ أو تأخيرُهُ لمدَّةٍ مَعلومةٍ، ومعنى ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾ ما يَمنَعُهُ مِن وقوعِ العذابِ أو ما يؤخِّرُهُ[2].

3) ﴿مَصۡرُوفًا﴾: يدورُ معنى الصَّرفِ على تقلُّبِ الشّيءِ، وتحوّلِهِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالِهِ بغيرِهِ، والصَّرفُ أن تَصرِفَ إنسانًا عَن وجهٍ يُريدُهُ إلى مَصرِفٍ غيرِ ذَلِكَ، ويُقالُ: صَرَفتُ الرّجلَ عنّي فانصَرَفَ؛ أي: رددتُهُ مِن حالةٍ إلى حالةٍ أخرى، ومنهُ تصريفُ الرّياحِ: تحوُّلُها مِن جِهَةٍ إلَى جِهَةٍ؛ أي: جَنوبًا وشمالًا مثلًا، وكذلكَ تصريفُ السُّيُولِ والأمورِ، وتصريفُ الآياتِ الإتيانُ بها مِن جهاتِ التّرغيبِ والتّرهيبِ والإعذارِ والإنذارِ وغيرِها. والحرفُ الّذي تُعدَّى به (إلى، عن) يُوَجِّهُ معنى لفظِ الصَّرفِ، و﴿لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾؛ بمعنى: ليسَ العذابُ مَدفوعًا عنهُم، أو ليسَ مُتحوِّلًا عنهُم[3].

4) ﴿وَحَاقَ﴾: يدورُ معنى الحَوقِ أو الحيقِ - على الخلافِ في أصلِ الكلمةِ - على

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمم)، والرّاغب:، المفردات: (أمّ)، وابن جرير، جامع البيان: 15/252، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/321، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/126.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حبس)، وابن جرير، جامع البيان: 15/254، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/129.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صرف)، وابن جرير، جامع البيان: 15/254، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/129.

الإحاطةِ بالشّيءِ بحيثُ يأتي عليه كلِّه، ومنه: الحوق المِكْنسَةُ، وحُقتُ البَيت حَوْقًا: كنستُهُ، والحَيقُ ما يحيطُ بالإنسانِ مِن مَكرٍ أو سُوءٍ يعملُهُ فَينزلُ ذَلِك بِهِ، ويُقالُ: حاقَ بهِ العذابُ؛ أي: أحاطَ به، بحيثُ يحلُّ به ويصيبُهُ، مُؤثِّرًا فيه، ومنه حاقَ السّيفُ: أثَّرَ وقطعَ بحيثُ يكونُ قطعُهُ غائرًا، واللّفظُ يُستعمَلُ في المكروهِ مِنَ الأمورِ، ومعنى ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ نَزَلَ بهمُ العذابُ، وأصابَهُم مُحيطًا بهم[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

عـذابُ الله إذا أتـى لا يصرفُه صـارفٌ، إذ لا رادَّ لِحكمِهِ، ولا مُعقِّبَ لكلماتِهِ

ولَئِنْ أخَّرنا عن هؤلاءِ المشركين العذابَ إلى أجلٍ معلوم فاستبطؤوه، لَيقولُنَّ استهزاءً وتكذيبًا: أيُّ شيءٍ يمنعُ هذا العذابَ مِنَ الوقوعِ إنْ كان حقًّا؟ ألَا يومَ يأتيهم ذلك العذابُ لا يستطيعُ أنْ يصرفَهُ عنهُم صارفٌ، ولا يدفعَهُ دافعٌ، وأحاطَ بهم مِن كلِّ جانبٍ عذابُ ما كانوا يَستهزئونَ بهِ قبلَ وقوعِه بهم.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

جـمـعُ أفـانـين الكفرِ وصنوفِ الـعـنـادِ بـيـانٌ لسببِ تعذيبِ الـكـفـرةِ مِـنَ العبادِ

دلالةُ الواوِ العاطفةِ في: ﴿وَلَئِنْ﴾:

الواو عطفٌ على ما سبقَ، ودلالةُ العطفِ أنّ جمعَ أفانين عنادِ الكافرينَ، وتهكمهم بالدّعوةِ الإسلاميّةِ بعضِها إلى بعضٍ، تقبيحٌ لَهُم، وتَشنيعٌ عليهم، وبيانٌ لِسببِ كفرِهِم.

استـهـزاؤُهُـم بـتـمـتـيـعِـهـم بتأخيرِ العذابِ مُحقَّقُ الوقوعِ لا مَنأى عنهُ

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بأسلوبِ القسمِ:

أسلوبُ القسمِ مُشعِرٌ بتحقُّقِ وقعِ المُقسمِ عليه، فقولُهُم المُستهزئَ السّاخِرُ واقعٌ لا مَحالةَ، وهو تأكيدٌ لحصولِ سببِ عذابِهِم.

فائدةُ تتابعِ التّأكيدِ في الجملةِ الشّرطيّةِ:

تتابعَ التّأكيدُ في جملةِ الشّرطِ وجزائِها كما في الآيةِ السّابقةِ،

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حيق)، والرّاغب، المفردات: (حاق)، والزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/231، وابن الهائم، التّبيان، ص: 155.

التّعجيبُ مِن حالِ الكافرين في الإنكارِ، وغرابةُ استعجالِهِمُ العذابَ

فجاءَتِ اللّامُ المُوَطِّئَةُ لِلقَسَم في قولِه: ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا﴾؛ لأنّه بتقدير: واللّه إنْ أخّرنا عنهُمُ العذابَ، وأُكِّدَتِ الجملةُ كذلك باللّامِ الواقعةِ في جوابِ الشّرطِ وبنُونِ التَّوكيدِ في قولِه: ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾؛ فأفادَ تتابعُ التّأكيدِ تنزيلَ الكافرينَ المُنكِرينَ لِلبعثِ مَنزِلَةَ المُتَرَدِّدِ في صُدُورِ السّؤالِ مِنهُم لِغرابَةِ صُدُورِهِ مِنَ العاقِلِ، فيكونُ التّأكيدُ القويُّ مُستعمَلًا في لازِمِ مَعناهُ كذلك، وهو زيادةُ التَّعجيبِ مِن سؤالِهِم، وتعنُّتِهِم في الإنكارِ واستعجالِهُمُ العذابَ.

فائدةُ التّعبيرِ بالمُسندِ إليه ضميرِ العظمةِ المتّصلِ بالفعلِ:

تأخيرُ العذابِ أو تعجيلُهُ بما للهِ مِنَ العظمةِ الّتي لا يفوتُها شيءٌ

قولُهُ ﴿أَخَّرۡنَا﴾، لمّا كانَ الضّميرُ (نا) هنا لإفادةِ تعظيمِ المُتكلِّمِ، وهو اللّه تعالى، دلَّ على أنَّ المعنى لَئِن أخّرنا عنهُمُ العذابَ بما لنا مِنَ العظمةِ الّتي لا يَفوتُها شيءٌ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي في ﴿أَخَّرۡنَا﴾:

تأخيرُ العذابِ على الكافرينَ يكونُ وَبالًا عليهِم غالبًا

لمّا كانَ لفظُ ﴿أَخَّرۡنَا﴾ هنا بمعنى تأجيلِ ميعادِ العذابِ بعدَ وقتِهِ أفادَ أنَّهُم كانوا قد استحقُّوا العذابَ؛ بكفرِهِم وتكذيبِهِم رسولَ اللّه ﷺ، وإنكارِهِم للبعثِ مِن بعدِ الموتِ، فكانَ تأخيرُ العذابِ وبالًا عليهِم؛ لأنَّهم ازدادوا كُفرًا؛ إذِ استعجلوهُ، وقالوا: ما يحبسُهُ؟ استهزاءً وسخريةً، ففيه معنى التّعجيبِ مِن حالِهِم، إذ كانَ ينبغي لِلعاقِلِ أن يتفكَّرَ في أمرِهِ، ويَنتفعَ مِن تأخيرِ العذابِ، فيتوبَ إلى اللّه، ويحمدَهُ على تأخيرِ العذابِ، ولكنَّهُمُ ازدادوا كفرًا وتكذيبًا، فقالوا: ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓۚ﴾، والتّعبيرُ بالماضي يفيدُ تحقُّقَ وقوعِ العذابِ.

دلالةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿عَنۡهُمُ﴾:

تذكيرُ الكافرينَ بمنَّةِ الإمهالِ؛ لعلَّهُم يرعوونَ عن غيِّهِم

تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَنۡهُمُ﴾ على المفعولِ به ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ للاهتمامِ بهِم، وكأنَّ تأخيرَ العذابِ خصوصيّةٌ لهم؛ لِتذكيرِهِم بمنَّةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/241.

الإمهالِ لعلَّهُم يَتوبونَ ويَتذكرونَ، ولِمُناسبةِ ما سبقَهُ في السّياقِ نفسِهِ مِن تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣﴾ [هود: 3]

دلالةُ (اللّام) في لفظ ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾:

العذابُ يَتناولُ كلَّ ألوانِهِ، وفي إبّانِهِ المَقدورِ وأوانِهِ

(أل) هنا للعهدِ، والمعهودُ ما ذُكِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣﴾ [هود: 3]، فيكونُ المرادُ عذابَ الآخرةِ، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ العذابَ الّذي يكونُ بالقتالِ في الدّنيا مثلَ يوم بدرٍ، والأولى أن تكونَ (اللّام) لِلجنسِ فيتناولُ اللّفظُ العذابَ الشّاملَ لِلكفرةِ دونَ ما يُخَصُّ ببعضٍ منهُم، سواء أكانَ في الدّنيا أم في الآخرةِ[1].

سرُّ التّعبيرِ بـ: ﴿أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾:

العذابُ لا يأتي إلّا بعدَ اجتماعِ صروفِ الإنذارِ والإعذارِ

جَعَلَ النّظْمُ الكريمُ انتهاءَ تأخيرِ العذابِ إلى ﴿أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾، ولم يقُلْ مثلًا: ولَئِن أخّرنا عنهُمُ العذابَ إلى وقتٍ معلوم؛ لأنَّ الأمّةَ المعدودةَ دالَّةٌ على معنى انقضاءِ جيلٍ؛ لإفادةِ أنَّ تأخيرَ العذابِ عنهُم يكونُ إلى حين اجتماعِ الوقتِ المُحدَّدِ لنزولِ العذابِ بهِم؛ لِلإشعارِ بأنَّه لايأتيهُمُ إلّا بعدَ اجتماعِ صروفِ الإنذارِ والإعذارِ لَهُم، لِيناسبَ مَعنى التَّدرُّجِ في الأمرِ والحكمةِ فيهِ، كما هو حالُ التَّدرُّجِ والحكمة في خلقِ السّماواتِ والأرضِ وما فيهما ممّا ذُكِرَ في الآياتِ السّابقةِ.

نكتةُ الوصفِ في: ﴿مَّعۡدُودَةٖ﴾:

كلُّ ما كانَ مَعدودًا فهو قليلٌ، في اعتبارِ ما يُقدَّمُ مِن دليلٍ

لمّا كانَ لفظُ ﴿أُمَّةٖ﴾ دالًّا على وقتٍ ليسَ بالقليلِ؛ لأنَّه يكونُ بانقضاءِ جيلٍ مِنَ النّاسِ، دلَّ على أنَّ كثرةَ الوقتِ هي بالنّسبةِ إليهم، فلمّا تقيَّدَ بالصّفةِ ﴿مَّعۡدُودَةٖ﴾ آذنَ بأنَّها محصورةُ الأيّامِ؛ أي: قصيرةٌ مَعلومةٌ عندَنا؛ أي: عندَ اللهِ تعالى، فتومِئُ الصّفةُ أنَّ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/129، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/189، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/130، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/28، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/215.

المدّةَ لَيسَت مَدِيدَةً كما يَتوهَّمونَ مِن تتابعِ السِّنين عندَهُم؛ لأنَّهُ شاعَ في كلامِ العَرَبِ إطلاقُ العَدِّ والحِسابِ ونَحوِهِما على التَّقليلِ؛ لأنَّ الشَّيءَ القَليلَ يُمكِنُ ضَبطُهُ بالعَدَدِ، ولذَلِكَ يقولونَ في عَكسِهِ: بغَيرِ حسابٍ[1]، فالعذابُ قريبٌ منهُم ليسَ ببعيدٍ، وفي الكلامِ معنى التّهديدِ والتّخويفِ.

الغرضُ مِنَ اللّامِ في: ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾:

هذه اللّامُ تفيدُ التّأكيدَ، كما أنَّها تفيدُ التّنبيهَ على القسمِ المحذوفِ في قولِهِ: ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا﴾.

جحدُهُم نعمةَ التّمتيعِ أمرٌ مُتيقّنٌ لتأصُّلِ الجحودِ في طبعِهِمُ الذّميمِ

مناسبةُ تكريرِ الفعلِ: ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾:

كَرَّرَ الفعلَ ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾؛ للإيذانِ بمُغالاتِهِم في كفرِهِم، وأنَّ قولَ الكفرِ يَتجدَّدُ منهُم في كلِّ مُناسبةٍ، فَهُم مُستمرُّونَ عليهِ.

الكافرونَ يتجدَّدُ كفرُهُم، كما أنَّ المؤمنينَ يَتجدَّدُ إيمانُهُم

مناسبةُ التّعبيرِ بالضّميرِ في: ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾:

جاءَ فاعلُ ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ ضميرًا، ولم يأتِ بالاسمِ الظّاهرِ؛ أي: لم يقُل: (لَيقولَنَّ الّذين كفروا)؛ لِيشيرَ الضّميرُ إلى الاسمِ الظّاهرِ العائدِ إليه المُقرَّرِ في أذهانِ السّامعينَ في قولِهِ: ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ مع وصفِ التّكذيبِ وإنكارِ البعثِ في قولِهِم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾؛ بمعنى: أنَّ الّذين قالوا: ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ﴾ هُم نفسُهُمُ الّذين كفروا ووصفوا القولَ بالبعثِ أو الرّسولَ بالسِّحرِ كما تَقدَّمَ؛ إشعارًا بتكثُّرِ طغيانِهِم، وأنّهم ازدادوا كُفرًا إلى كُفرِهِمُ السّابقِ، فيكونُ مجيءُ الضّميرِ على معنى استجماعِ معنى الذّاتِ العائدِ إليها مع الأوصافِ السّابقةِ واللّاحقةِ.

تنوُّعُ طغيانِ الكافرينَ، بتنوُّعِ تكذيبِهِمُ الضّالِّ، وعنادِهِمُ المهينِ

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالاستفهامِ المجازيِّ في السّياقِ الإعجازيِّ:

لمّا كانَ هؤلاءِ القومِ الكافرونَ مُكذِّبينَ لرسولِ اللّه ﷺ ومُنكِرينَ

الاستفهامُ لِلإنكارِ لا لِلاستفسارِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/241، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/189، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/10.

لِلبعثِ مِن بعدِ الموتِ كانَ استفهامُهُم على سبيلِ المجازِ، فلم يَقصدوا السُّؤالَ عن سببِ المنعِ مِن مجيءِ العذابِ، بل قالُوهُ على سبيلِ التّكذيبِ وإنكارِ وقوعِ العذابِ عليهم أصلًا؛ لأنّهُم أرادوا مِنَ الاستفهامِ الاستعجالَ بالعذابِ، والتّقديرُ: أيُّ شيءٍ يمنعُ العذابَ مِنَ المجيءِ؟، وإنَّما كانوا يقولونَهُ استعجالًا لِلعذابِ على سبيلِ الاستهزاءِ، لقولِهِ تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، ومرادُهُم إنكارُ المجيءِ والحَبسِ رأسًا لا الاعتِرافُ بهِ، والاستِفسارُ عَن حابِسِه[1].

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾:

استعمالُ (ما) لِما يَعُمُّ العالِمَ وغيرَهُ

وردتْ ﴿مَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾ دونَ (مَن)؛ لأنّها قد تُستعمَلُ لِلعاقِلِ (العالم) وغيرِ العاقِلِ (غير العالم)؛ لِلإشعارِ بشدّةِ تكذيبِهِم واستهزائِهِم، لِيشمَلَ التّعبيرُ بـ ﴿مَا﴾ أيَّ مانعٍ يمنعُ العذابَ مِنَ الوقوعِ؛ والمعنى: أيُّ شيءٍ من الأشياءِ يَحبِسُ العذابَ[2]؟.

دلالةُ الفصلِ لجملةِ ﴿أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ﴾:

مُخالَفةُ الكافرينَ لِلمَعقولِ في السّؤالِ عن تأخيرِ العذابِ، دليلٌ على خطئِهِم

هذِهِ الجُملَةُ واقِعَةٌ مَوقِعَ الجَوابِ عَن سؤالِهِم، فلذَلِكَ جاءَت بطريقِ الفصلِ مِن دونِ واوِ العطفِ، كَما تُفصَلُ المُحاوَرَةُ، وهذا تَهديدٌ وتَخويفٌ بأنَّهُ لا يُصرَفُ عَنهُم، ولَكِنَّهُ يُؤَخَّرُ، ولمّا كانَ السّؤالُ عن سببِ المنعِ؛ أي: أيُّ شيءٍ يمنعُهُ؟ كانَ مُقتضَى الجوابِ أن يكونَ مُوافِقًا لِلسّؤالِ، لكنَّه أعرضَ عن جوابِهِم، وأخبرَ عنِ العذابِ أنّه ليسَ مَصروفًا عنهُم، وأنَّهُم عاجِزونَ عن دفعِهِ عندَ وقوعِه؛ إشعارًا بأنَّ العاقِلَ لا ينبغي أن يسألَ عن مثلِ ذلكَ إلّا بعدَ قُدرتِهِ على الدّفعِ، فهو بمثابةِ إقامةِ الدّليلِ على خَطئِهِم، وإعلامًا بأنَّهُم عَكسوا في

---

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/64، والواحديّ، التّفسير البسيط: 11/357، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/48، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/189.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/574.

السّؤالِ، فخالَفوا المطلوبَ لِقلَّة عقولِهِم، كما أنَّ فيه تحقيقًا لوقوعِ العذابِ؛ لأنَّ ما استهزؤوا به، لاحقٌ بهِم لا مَحالةَ[1].

فائدةُ التّعبيرِ بأداةِ التّنبيهِ ﴿أَلَا﴾:

تحذيرُ الكافرينَ مِن غفلتِهِم عندَ وقوعِ العذابِ تنبيهٌ لَهُم مِن سوءِ المآبِ

افْتُتِحَ الكَلامُ الواقعُ مَوقعَ الجوابِ بحَرفِ التَّنبيهِ؛ لِلإيذانِ بتنبيهِ المؤمنينَ، وتذكيرِهِم بيومِ وقوعِ العذابِ على الكافرينَ لِيطمَئنُّوا إلى إيمانِهِم، ولِلتَّنبيهِ الزّاجرِ لِلكافرينَ لِغفلتِهِم عنِ الوعيدِ بوقوعِ العذابِ، ولِلإشعارِ بأنَّهُم سيكونونَ غافِلينَ كذلكَ حينَ وقوعِ العذابِ، ولِلاهتمامِ بالخَبرِ لِتحقيقِهِ وتقريرِ مَضمونِهِ، ولإدخالِ الرَّوعِ في ضمائِرِهِم، كما تتضمَّنُ الأداةُ معنى التّحذيرِ مِن نزولِ العذابِ بهِم؛ لمناسبةِ السّياقِ[2].

الغرضُ مِن تقديمِ الظّرفِ ﴿يَوۡمَ﴾:

إتيانُ العذابِ مُخصَّصٌ بيومٍ معلومٍ، ووقتٍ مُحدَّدٍ مَوسومٍ

لمّا كانَ أصلُ الكلامِ (ألا ليسَ مَصروفًا عنهُم يومَ يأتيهم)، دلَّ على أنَّ ظرفَ الزّمانِ قُدِّمَ عن أصلِ مَوضعِهِ، وذلكَ لِلإيماءِ بأنَّ إتيانَ العَذابِ لا شَكَّ فيهِ، فهوَ مُخصَّصٌ بيومٍ مَعلومٍ، حتَّى إنَّهُ يُوَقَّتُ بوَقتٍ[3].

فائدةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿يَوۡمَ﴾:

إبهامُ وقتِ نزولِ العذابِ على الكافرينَ؛ لِلتَّهويلِ والتَّخويفِ

عُبِّرَ بلفظِ ﴿يَوۡمَ﴾؛ لِيفيدَ الدّلالةَ على مُدّةٍ مِنَ الزّمانِ قلَّت أو كَثُرَت، ففيهِ إبهامٌ في تحديدِ وقتِ نزولِ العذابِ فيهِم؛ لِتخويفِهِم وتهويلِ العذابِ عليهِم.

دلالةُ النّفيِ بـ ﴿لَيۡسَ﴾:

دلالةُ (ليس) على نفيِ الحالِ والاستقبالِ، بقرينةِ السّياقِ في المَقالِ

أفادَ النّفيُ بـ ﴿لَيۡسَ﴾ هنا نفيَ الحالِ كما هو الأصلُ في دلالةِ (ليس)، ونفيَ الاستقبالِ ممّا يدلُّ عليه السّياقُ؛ أي: ليسَ العذابُ مَصروفًا عنهُم لا في الحالِ، ولا في المُستقبلِ إلى أن يَنزِلَ بهِم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/241، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/11.
(2) الرّضيّ، شرح كافية ابن الحاجب: 4/58، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/11.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/11.

نكتةُ التّعبير بلفظِ الخبرِ ﴿مَصۡرُوفًا﴾:

لم يقُلْ: (ليسَ مَحبوسًا عنهُم) كما جاءَ في السّؤالِ؛ لنكتةٍ هي أنَّ العذابَ إذا نَزَلَ بهِم يكونُ قاصدَهُم فلا يتحوَّلُ مَسلكُهُ، ولا يتغيَّرُ طريقُهُ إليهِم، فلا يرفعُهُ رافعٌ أبداً إنْ أُريدَ بِهِ عذابُ الآخرةِ، ولا يدفعُهُ دافعٌ، بل هو واقعٌ بهِم إنْ أُريدَ به عذابُ الدّنيا.

العذابُ إذا نَزَلَ بقومٍ لا يتحوَّلُ مَسلكُهُ، ولا يتغيَّرُ مهيعُهُ

مناسبةُ مجيءِ اللّفظِ بصيغةِ الاسمِ المبنيِّ للمفعولِ:

لمّا قالَ: ﴿لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾ دلَّ على تهويلِ الفعلِ والمفعولِ بِهِ؛ أي: تعظيمُ وقوعِ العذابِ، وهو حَدَثُ الوقوعِ، وتفخيمُ شأنِ العذابِ نفسِهِ.

تعظيمُ حدثِ العذابِ المصبوبِ، وتعظيمُ شأنِهِ على الكافرِ المكروبِ

مناسبةُ ورودِ لفظِ ﴿مَصۡرُوفًا﴾ مَنفيًّا بـ ﴿لَيۡسَ﴾:

لم يقُل: ألَا يومَ يأتيهِمْ هو مَصروفٌ إليهِم بطريقِ الإثباتِ؛ لإفادةِ نفيِ صرفِهِ عن أيِّ جهةٍ سوى الجهةِ الّتي هُم فيها، وأنْ لا أحدَ يستطيعُ أن يُحوِّلَ صرفَ العذابِ عنهُم، لا بكثرةِ أعوانٍ، ولا بحيلةِ مُحتالٍ، ولا بقوَّةٍ مِن قِبَلِهم، ولا مِن قِبَلِ آلهتِهِم، فيفيدُ النّفيُ بـ ﴿لَيۡسَ﴾ مع تعلُّقِ اسمِ المفعولِ بحرفِ المجاوزةِ (عن) معنى الحصرِ، وقَصْرَ العذابِ عليهِم.

لا يُصرفُ العذابُ، بوفرةِ أعوانٍ، ولا بكثرةِ غلابٍ

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾:

تحتملُ الواوُ أن تكونَ عاطفةً، وأن تكونَ حاليَّةً[1]، فإذا كانَت عاطفةً أفادَت عطفَ جملةِ ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ على ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾، فيكونُ الفعلُ ﴿لَيۡسَ﴾ على معنى نفيِ الحالِ والاستقبالِ، وهو الظّاهرُ، ويكونُ حرفُ التّنبيهِ داخلًا على الجملتينِ كلٍّ على حدةٍ؛ إيذانًا بتحقيقِ مَضمونِ الجملتينِ، وللتّنبيهِ على غفلةِ الكافرينَ عنِ الوعيدِ في الجملةِ الأُولى، وعن وقتِ وقوعِ العذابِ ونزولِه بهِم في الجملةِ الثّانيةِ.

تنوُّعُ معنى الواوِ يفيدُ تنوُّعَ المعنى في الآيةِ الكريمةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/11.

وتحتملُ الواو أن تكونَ حاليَّةً؛ بمعنى: أنّ العذابَ ليسَ مَصروفًا عنهُم في وقتِ وقوعِ العذابِ وحلولِهِ فيهم، فإذا نَزَلَ فيهِم لا ينتقلُ عنهُم، فلا يُدفَعُ ولا يُتحوَّلُ، فيكونُ الفعلُ ﴿لَيۡسَ﴾ على معنى النّفي في المُستقبلِ.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالكنايةِ:

المرادُ مِن حوقِ العذابِ إحاطتُهُ بالكافرينَ، وإصابتُهُم حتَّى يغورَ فيهم

لمّا كانَ لفظُ ﴿وَحَاقَ﴾ بمعنى الإحاطةِ بالشّيءِ واستدارتِهِ بهِ، ولمّا كان اللّفظُ لايأتي إلّا في المكروهِ، كانَ المرادُ من حوقِ العذابِ بهم الكنايةَ عن إصابتِهم بهِ، ونزولِهِ بهم جميعًا، بحيثُ يكونُ غائرًا فيهم؛ أي: إنَّهُ حالٌّ بِهِم حُلولًا لا مَخْلَصَ مِنهُ بِحالٍ لإحاطتِهِ بهِم جميعًا[1].

دلالةُ الباءِ في: ﴿بِهِۦ﴾:

الاستهزاءُ أعظمُ جُرمٍ، يستتبعُ أشملَ العذابِ وأشدَّهُ

الباءُ سببيّةٌ، بمعنى: حاقَ بهِم ما كانوا بسببِهِ يَستهزئونَ، وذِكرُ الأسبابِ مُقنِعٌ في الأحكامِ، فالإحاطةُ بهِم ودمارُهُم نتيجةُ استهزائِهِم، والاستهزاءُ بذاك مِن أعظمِ الجُرمِ الصّادرِ مِن أهلِ الكُفرِ.

دلالةُ الضّميرِ في: ﴿بِهِۦ﴾:

معادُ الضّميرِ المستفادِ تأكيدٌ على المرادِ

يعودُ الضّميرُ إلى الاسمِ الموصولِ ﴿مَّا﴾؛ أي: العذابُ الّذي كانوا يَستَعجلونَ به استهزاءً[2].

سببُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿بِهِۦ﴾:

تَسارُعُ الكافرينَ إلى الاستهزاءِ بوعيدِ القرآنِ دليلٌ على سفاهةِ النّكرانِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِهِۦ﴾ على الفعلِ ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ إشارةً إلى شِدَّةِ إقبالِهم على الهُزءِ بهِ، حتّى كأنَّهُم لا يَهزَؤونَ بغيرِهِ[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالموصولِ وصلتِهِ:

في التّعبيرِ عنِ العذابِ بالاسمِ الموصولِ ﴿مَّا﴾ تهويلٌ لهُ، وأفادَت جملةُ الصّلةِ ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ الإيذانَ بأنَّ سببَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/11.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/189.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/241.

الإنـــكـــارُ والاسـتـهـزاءُ يـجـلـبـان أشـدَّ العذابِ، وأسوأَ البلاءِ

نزولِ العذابِ بهِم وإحاطتِهِ بهِم هو استهزاؤُهُم بقولِ الرّسولِ ﷺ وإنكارُهُم لهُ(1).

نُكتةُ مَجيءِ الكلامِ على خلافِ مُقتضَى الظّاهِرِ:

أخبارُ اللهِ تعالى في تـحـقُّـقِـهـا، بِمَنزِلَةِ الموجودةِ الكائنةِ يقينًا

قولُهُ: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ نجدُ مُقتضَى الظّاهِرِ المناسبِ لِما في سياقِ الآيةِ، في كونِ العذابِ سيأتيهم في المُستقبلِ أن يقولَ: (ويحيقُ بهم)، لكنّه جاءَ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ، فعُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ لِيكونَ وارِدًا على عادةِ اللّه تعالى في أخبارِهِ؛ لأنّها في تحقُّقِها، وتيقُّنِها بمنزِلةِ الكائنةِ المَوجودةِ؛ لِيكونَ مُبالغةً في تأكيدِ الوقوعِ وتقريرِهِ، وفي ذلكَ مِنَ الفَخامةِ والدّلالةِ على عُلُوِّ شأنِ المُخبِرِ وتَقريرِ وُقوعِ المُخبَرِ بِهِ ما لا يَخفى، ففي التّعبيرِ بلفظِ الماضي ﴿وَحَاقَ﴾ استعارةٌ تبعيّةٌ؛ لاستعارةِ زمنِ المضيِّ لِلمُستقبلِ، وفيه مُبالغةٌ في التَّهديدِ، لإبرازِ ما سَيقعُ في مَعرِضِ الواقعِ مِن قبيلِ عطفِ المَعلولِ؛ والمعنى: هو آتيهِم عن قريبٍ فَلْيَعتَدُّوا لِذلكَ(2).

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالكنايةِ بلفظِ الاستهزاءِ:

استـعـجـالُ الـكـافـريـنَ بـالـعـذابِ على معنى الاستهزاءِ مِن سوءِ التّقديرِ لِلعواقبِ

لَمّا أرادوا بقولِهِم: ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓۚ﴾ استعجالَ العذابِ؛ لِكونِهِم مُكذِّبينَ لرسولِ اللّهِ ومُنكِرينَ وقوعَ العذابَ، كما تَقَدَّمَ، كانَ الظّاهرُ أن يقولَ: (وحاقَ بهِم ما كانوا بهِ يَستعجلونَ)، فجاءَ الكلامُ على خلافِ مُقتضَى الظّاهِرِ، لَمّا وَضَعَ ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ مَوضِعَ (يَستعجلونَ)؛ لِلإيذانِ بأنَّ استعجالَهُم كانَ استهزاءً، فكانَ المرادُ مِنَ الاستعجالِ في السّؤالِ الاستهزاءَ؛ أي: كانَ كنايةً عنِ الاستهزاءِ بوقوعِ العذابِ وبالقرآنِ وبالرّسولِ المُقتضي لِلتّكذيبِ(3).

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/215، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/24.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/321، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/129، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/241، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/189، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/30.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381.

نكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ لِلإشعارِ بتجدُّدِ استهزائِهِم بالعذابِ، واستمرارِهِم عليه.

دلالةُ الهمزةِ والسّينِ والتّاءِ في: ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

أفادتِ الهمزةُ والسّينُ والتّاءُ التّنبيهَ على أنَّهُم كانوا يُوجِدونَ الهُزءَ بالعذابِ وبالوعيدِ عليه إيجادًا عظيمًا، حتّى كأنَّهُم يَطلبونَ ذلكَ، ويَجتهدونَ فيهِ[1].

الاستهزاءُ المُتجدِّدُ أقبحُ أعمالِهِم، وأجدرُها بالتّنديدِ

اجتهادُ الكافرينَ في طلبِ الاستهزاءِ بالقرآنِ المبينِ، وبالرّسولِ الأمينِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/242.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩﴾ [هود: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الاستدلالُ على سوءِ طبائعِ الكافرينَ، واستحقاقِهِمُ العذابَ المهينَ، بيأسِهِمُ الماثِلِ، وكفرِهِمُ الحاصلِ

لمّا أخبرَ اللّه تعالى أنَّ الابتلاءَ لِكلِّ المُكلَّفينَ، وبيَّنَ ما يقعُ مع الكافرينَ، بيَّنَ في هذهِ الآياتِ الثّلاثِ حالَ الإنسانِ في اختبارِ اللّه لهُ؛ لِينتقلَ مِنَ الخصوصِ إلى العُمومِ، ولِيكونَ كالدّليلِ على سُوءِ طبائعِ الكافرينَ بما جُبِلوا عليهِ مِن كفرِهِم بنعماءِ اللّه، وعلى استحقاقِهِمُ العذابَ، إذِ استَعجلوهُ استهزاءً منهُم بعدَ أنْ أخّرَهُ اللّه تعالى[1].

كما أنّ هذه الآيةَ عَطفٌ على جملةِ ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾؛ فإنَّه لَمّا ذَكرَ تعالى عنِ المُشرِكينَ أنَّ مَا هُم فيه مَتاعٌ إلى أجَلٍ مَعلومٍ عندَهُ، وأنَّهُم بَطِروا نعمةَ التَّمتيعِ، فَسَخِروا بتأخيرِ العذابِ؛ بَيَّنَت هذه الآيةُ أنَّ أهلَ الضَّلالةِ راسِخونَ في ذلكَ؛ لأنَّهُم لا يفكِّرونَ في غيرِ اللّذّاتِ الدُّنيويَّة، فَتجري انفعالاتُهُم على حَسبِ ذلك دونَ رجاءٍ لِتغَيُّرِ الحالِ، ولا يَتفكَّرونَ في أسبابِ النَّعيمِ والبُؤسِ، وتصَرُّفاتِ خالقِ النّاسِ، ومُقَدِّرِ أحوالِهِم، ولا يتَّعِظونَ بتقلُّباتِ أحوالِ الأمَمِ، فَشَأْنُ أهلِ الضَّلالةِ أنَّهُم إنْ حَلَّت بهِمُ الضَّراءُ بعدَ النِّعمةِ مَلَكَهُمُ اليأسُ مِنَ الخيرِ، ونَسُوا النِّعمةَ فَجَحَدوها وكَفَروا مُنعِمَها، فإنَّ تأخيرَ العذابِ رَحمةٌ، وإتيانَ العذابِ نَزعٌ لتلك الرَّحمةِ[2].

كما أنّ إذاقةَ النَّعماءِ ومِساسَ الضّرّاءِ فصلٌ من بابِ الابتلاءِ واقعٌ مَوقِعَ التّفصيلِ مِنَ الإجمالِ الواقعِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/321، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/127، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/24.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/12.

﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾؛ والمعنى: أنَّ كلاًّ مِن إذاقةِ النَّعماءِ ونزعِها مع كونِهِ ابتلاءً لِلإنسانِ أيشكُرُ أم يكفُرُ لا يَهتدي إلى حسنِ الصّوابِ، بل يحيدُ في كلتا الحالتين عنه إلى مَهاوي الضّلالِ، فلا يَظهرُ منهُ حسنُ عملٍ إلّا مِنَ الصّابرينَ الصّالحينَ، أو مِن حيثُ إنّ إنكارَهُم بالبعثِ واستهزاءَهُم بالعذابِ بسببِ بَطرِهم وفخرِهم، كأنّهُ قِيلَ: إنّما فعلُوا ما فعلُوا لأنّ طبيعةَ الإنسانِ مَجبولةٌ على ذلك، وهذه المناسبةُ تشمَلُ الآياتِ الثّلاثَ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَذَقۡنَا﴾: الذَّواقُ والمَذاقُ مَصدران للفعلين ذاقَ يذوقُ، ويكونانِ طَعْمًا، ويدورُ أصلُ الكلمةِ على اختبارِ الشَّيءِ مِن جِهَةِ تَطعُّمِ بالفمِ، وأصلُهُ فيما يَقِلُّ تناوُلُهُ دونَ ما يَكثُرُ، فإنّ ما يَكثُرُ منهُ يُقالُ لهُ الأكلُ، ويُقالُ: ذُقتُ المأكولَ فوجدتُهُ طيِّبًا، ومِنَ المجازِ ذُقتُ ما عندَ فلانٍ؛ أي: اختبَرتُهُ، وكُلُّ ما نَزَلَ بإنسانٍ مِن مَكروهٍ فقد ذاقَهُ، وأمرٌ مُستَذاقٌ؛ أي: مُجَرَّبٌ مَعلُومٌ، ويُستَعملُ الذّوقُ مجازًا فِيما يُكرَه، ويُحمَدُ، كما أنَّ الطّعمَ قد يكونُ حلوًا، وقد يكونُ مرًّا، ومعظمُ ما جاءَ في القرآنِ مِنَ التّركيبِ (ذوق) مجازيٌّ، ويتأتّى مِنَ الإحساسِ بالطّعمِ معرفةُ الأمرِ اختبارًا وتجربةً[2].

2) ﴿نَزَعۡنَٰهَا﴾: أصلُ النَّزعِ الجَذبُ والقَلعُ بقوّةٍ، ويدورُ معنى النّزعِ على اقتلاعِ شيءٍ خارجٍ عن مَقرِّهِ بجَذبٍ قويٍّ ممّا يلتحمُ به، أو يكونُ مُلتصقًا به، ومنهُ قولُهُم: نزَعَ بيَدِهِ: إذا استَقى بدَلوٍ عُلِّقَ فيها الرِّشاءُ، ونزَعَ القوسَ إذا جذَبها، ونَزَعَ الشّيءَ؛ أي: قلعَهُ مِن مَقرِّهِ وجَذبَهُ، ونزعَ الشّيءَ مِن فلانٍ سلبَهُ بعدَ أن كانَ مُتمسِّكًا فيه، ومنه: نزعُ الملائكةِ الأرواحَ مِنَ الأبدانِ، والتَّنازُعُ والمُنازَعَةُ: المُجاذَبَة، بأن يريدَ كلُّ واحدٍ أن يقتلعَ أمرًا مِن يدِ صاحبِهِ[3].

3) ﴿لَيَـُٔوسٞ﴾: اليَأسُ: قَطعُ الرَّجاءِ وانتفاءُ الطّمعِ، ويُقالُ: هو القُنوطُ، و(يَؤُوسٌ) على وزن (فَعولٌ) صيغةُ مبالغةٍ مِن (يئس) إذا كانَ كثيرَ اليأسِ[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذوق).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نزع).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (يأس).

4) ﴿كَفُورٌ﴾: يدورُ معنى الكفرِ على تغطيةٍ تامّةٍ كثيفةٍ لا يظهرُ معها شيءٌ مِنَ المُغطَّى، وكَفَرَ النِّعمَةَ وبالنِّعمَةِ أيضًا جَحَدَها؛ أي: أنكرَها وغطَّاها بجحودِهِ، أو تغطَّى عنها كأنَّها غيرُ مَوجودةٍ، فاللّفظُ مُستَعارٌ من كَفَرَ الشَّيءَ إذا غَطّاهُ، وهو أصلُ البابِ. والفرقُ بينَ الكُفرِ باللّه والكُفرِ بالنّعمةِ هو أنَّ الكُفرَ الّذي هو ضدُّ الإيمانِ يتعدَّى بالباءِ، فيُقالُ: كَفَرَ باللّه تعالى. والكفرُ الّذي هو ضِدُّ الشُّكرِ يتعدَّى بنفسِهِ، فيُقالُ كفرَ النّعمةَ وكفرَ المُنعِمَ، و﴿كَفُورٌ﴾ صيغةُ مبالغةٍ بمعنى المبالغِ في كفرانِ نعمةِ اللّه وعدمِ شكرِها[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تقبيحُ تمرُّدِ الإنسانِ وطغيانِهِ، عندَ سَلبِ النّعمةِ منهُ بيأسِهِ وكفرانِهِ

ولَئِن أعطينا الإنسانَ منّا نعمةً مِن صحَّةٍ وأمنٍ وسعةٍ في العيشِ، ثم سَلبْناها منهُ، إنَّهُ لَشديدُ اليأسِ من رحمةِ اللّه، ومن أن تعودَ إليه مثلُ تلك النّعمةِ المسلوبةِ، جَحودٌ بالنِّعمِ الّتي أنعمَ اللّه بها عليهِ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا﴾:

بطرُ النّعمةِ عادةٌ مُتأصِّلةٌ في أهلِ الضّلالِ والمفاسِدِ الحاصِلةِ

الواو عطفٌ على جملةِ ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا﴾، فإنّه لمّا ذَكَرَ أنّ ما هُم فيهِ متاعٌ إلى أجلٍ مَعلومٍ عندَ اللّه، وأنّهُم بطروا نعمةَ التّمتيعِ، فَسخروا بتأخيرِ العذابِ، بيّنَتِ الآيةُ الكريمةُ رسوخَ أهلِ الضّلالِ في ذلكَ، وكأنّهُ مِن بابِ عطفِ العامِّ على الخاصِّ تأكيدًا على ما عليهِ الحال خاصًّا وعامًّا، وفي ذلك تأكيدُ ما عليه عادة أهلِ الضّلالةِ مِن بطرِ النّعمةِ، فالجملةُ في قوّةِ التّذييلِ لِمَا مَضى.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بأسلوبِ القسمِ ﴿وَلَئِنْ﴾:

اللّامُ مُوطِئَةٌ لِلقسمِ، والغرضُ مِنَ التّعبيرِ بأسلوبِ القسمِ تأكيدُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كفر)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 763.
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 222.

حصولِ جوابِهِ ووقوعِهِ على وجهِ اليقين، وهو آيةٌ على غضبِ اللّه على هذا الإنسانِ الجاحدِ نعمتَهُ، فهو إعلانُ مُغاضبةٍ، وتأكيدٌ على حصولِ الجوابِ المُوقِعِ لِلعذابِ.

القَسمُ مُغاضبةٌ مِـنَ الـلّـهِ لِجاحدي نعمِهِ، والمحاربين دينَهُ في كلِّ اتّجاهِ

دلالةُ تتابعِ التّأكيدِ:

تتابَعَ التّأكيدُ في جملةِ الشّرطِ والجزاءِ في الآيةِ، فورد تأكيدُ الجملةِ باللّامِ الموطِّئةِ للقَسَمِ على معنى (واللّه إنْ) في ﴿وَلَئِنۡ﴾، وبـ ﴿وَلَئِنۡ﴾ واللّامِ في جُملةِ جوابِ القَسَمِ المغني عن جوابِ الشّرطِ في قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ﴾؛ لِقصدِ تحقيقِ مَضمونِ جملةِ الشّرطِ والجزاءِ، وأنَّ الأمرَ حقيقةٌ ثابتةٌ، لا مُبالَغةَ فيها، ولا تَغليبَ، فإنَّ كلَّ أحدٍ يُنكِرُ أن يكونَ طبعُهُ كذلكَ، فالكلامُ على طريقةِ الخبرِ الإنكاريِّ[1].

يـأسُ الـكـافـرِ وكـفـرانُـهُ عـنـدَ سلبِ النّعمةِ، حقيقةٌ ثابتةٌ بلا منّةٍ

بلاغةُ مجيءِ الجملةِ الشّرطيّةِ مُصدّرَةً بـ ﴿وَلَئِنۡ﴾:

أفادَ التّعبيرُ بـ ﴿وَلَئِنۡ﴾ الشّرطيّةِ أنَّ يأسَ الإنسانِ وكفرَهُ النّعمةَ يجبُ أن لا يكونَ إلّا على مُجرَّدِ الفرضِ والتقدير، كما تفرضُ المحالاتُ؛ لاشتمالِ المَقامِ على ما يزيلُهُ، ويقلعُهُ مِن أصلِه، وهو أنَّه وَقَعَ للاختبارِ، ولِيُظهرَ لكُم أيُّكُم أحسنُ عملًا، ففيهِ توبيخٌ لِمَن ييأسُ ويكفرُ نعمةَ اللّه وتبكيتٌ له؛ لعدمِ صبرِهِ على سلبِ النّعمةِ وانتفاءِ ثقتِهِ باللّه تعالى[2].

سلبُ الـنّـعـمـةِ لـلاخـتـبـارِ، والـنّـظـرُ فيما يـتـرتّـبُ عـن طغيانِ الكُفّارِ

كما أفادَ التّعبيرُ بكلمةِ الشكِّ ﴿وَلَئِنۡ﴾ أنَّ إذاقةَ الإنسانِ الرّحمةَ، ثمّ نزعَها منهُ؛ أي: من حيثُ وقوعُها في نفسِ الأمرِ، تحتملُ أن تقعَ في المُستقبلِ، وأنْ لا تقعَ، فيحتملُ بقاءَ الرّحمةِ ويحتملُ نزعَها[3].

سرُّ تقييدِ الإذاقةِ بالرّحمةِ:

لمّا كانتِ الرّحمةُ النّعمةَ مُطلَقًا، فتعُمُّ جميعَ ما يُنتفَعُ بهِ من

الـرّحـمـةُ لا تكونُ إلّا نعمةً مَـرغـوبـةً، والـتّـمـسّـكُ بها سنّةٌ مَطلوبةٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/3، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/13.
(2) التّفتازانيّ، المطوّل، ص: 321.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/31.

مَطعومٍ وغيرِهِ؛ أي: مِن مَلبوسٍ وصحّةٍ وأمنٍ وجاهٍ وغيرِ ذلك، وكانَ الذّوقُ بمعنى اختبارِ طعمِ المَطعومِ باللّسانِ مُلائمًا كانَ أو غيرَ مُلائمٍ، كانَ تقييدُ الإذاقةِ بالرّحمةِ على المعنى الأخصِّ للإذاقة؛ أي: ما يُلائمُ ويُستَلَذُّ منه، والمعنى الأعمِّ للرّحمةِ، والمعنى: لَئِن أعطيناهُ نعمةً بحيثُ يجدُ لذَّتَها(1).

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿أَذَقۡنَا﴾:

الدُّنيا قَليلَةٌ، والحاصِلُ مِنها قَليلٌ، والإذاقَةُ مِنَ القليل قَليلٌ

عُبِّرَ بلَفظِ ﴿أَذَقۡنَا﴾ لِيفيدَ أنَّهُم قد أدركُوا ما يحبّونَهُ وما يَشتهونَهُ ويريدونَهُ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يَذوقُ إلّا ما يَشتَهيه، ولهذا لم يقُلْ هنا: (وإذا أنعمْنا)، فإنَّه يجوزُ أن تكونَ نعمَةً لا تُشتَهى، أو لم تُطلَبْ(2)، ولمّا كانَ لفظُ الإذاقةِ يُطلَقُ على أقلّ ما يُوجَدُ بِهِ الطَّعمُ، دلَّ على أنَّ الإنسانَ بوجدانِ أقلِّ القَليلِ مِنَ الخيراتِ العاجِلَةِ يَقَعُ في التَّمَرُّدِ والطُّغيانِ، وبإدراكِ أقَلِّ القَليلِ مِنَ المِحنَةِ والبَلِيَّةِ يقعُ في اليَأسِ والقُنوطِ والكُفرانِ.

وفائدةُ التّعبيرِ بهذا: الإيذانُ بأنَّ الدُّنيا في نَفسِها قَليلَةٌ، والحاصِلَ منها للإنسانِ الواحِدِ قَليلٌ، والإذاقَةَ من ذَلِكَ المِقدارِ خيرٌ قَليلٌ، ثُمَّ إنَّهُ في سُرعَةِ الزَّوالِ يُشبِهُ أحلامَ النّائِمينَ وخَيالاتِ المُوَسوَسِينَ، فهذهِ الإذاقةُ مِن قَليلٍ، ومع ذَلِكَ فإنَّ الإنسانَ لا طاقَةَ لَهُ بتَحَمُّلِها، ولا صَبرَ لَهُ على الإتيانِ بالطَّريقِ الحَسَنِ مَعَها(3).

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿أَذَقۡنَا﴾:

إفـادةُ لفظِ الإذاقـةِ إعطاءَ النّـعمـةِ، ووِجْدانُ لذّتِها

جاءَ لفظُ ﴿أَذَقۡنَا﴾ على الاستعارةِ التّصريحيَّةِ التّبعيَّةِ، بتشبيهِ الإعطاءِ المُشتَمِلِ على إدراكِ أثرِ النّعمةِ مِنَ الطّعامِ والمَلبَسِ والصّحّةِ وغيرِها مِن سائرِ المحسوساتِ، بحيث يجدُ لذَّتها بذوقِ

(1) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/76.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 197، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/12.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/322.

ما يُؤكَلُ ممّا يُشتهَى ويُرغَبُ فيه، ووجهُ الشّبهِ تحصيلُ الشّيءِ والانتفاعُ بهِ على وجهِ حصولِ تمامِ المقصودِ منهُ، فإنَّ وجدانَ اللّذَّةِ كما يترتَّبُ على الإذاقةِ يترتَّبُ على الإعطاءِ المذكورِ، فأفادَ التّعبيرُ بلفظِ الإذاقةِ إعطاءَ النّعمةِ من صحّةٍ وأمنٍ وجِدَةٍ وغيرِها، وإيصالَها إليهِ، فينتفعُ من كلِّ نوعٍ من أنواعِ النّعمِ تمامَ الانتفاعِ، بحيثُ يجدُ فائدتَهُ ولذّتَهُ منهُ[1].

دلالةُ (اللّامِ) في لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

تنوُّعُ دلالةِ (أل) فيه توسيعٌ للمَعنى

الظّاهرُ أنَّ (أل) هنا لِلجنسِ، والمرادُ هو جنسُ الإنسانِ، فيدخلُ فيه المُؤمِنُ والكافرُ، وهو قولُ جمهورِ المُفسِّرينَ، ودليلُهُم أنَّهُ تعالى استثنى منهُ قولَهُ فيما يأتي: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والاستثناءُ يُخرِجُ مِنَ الكَلامِ ما لَولاهُ لَدَخَلَ؛ والمعنى: أنَّ هذا الخَلقَ في سجيَّةِ النّاسِ وطبعِهم، ثمّ استثنى منهُمُ الّذين صبروا وعملوا الصّالحاتِ. وذهبَ آخرونَ إلى أنَّ (أل) هنا عهديّةٌ، والمرادُ الكافرُ؛ لأنَّ الصِّفاتِ المَذكورَةَ للإنسانِ في هذهِ الآيَةِ لا تَليقُ إلّا بالكافرِ؛ لأنَّهُ وَصَفَهُ بِكَونِهِ يؤوسًا كَفورًا، ووَصَفَهُ أيضًا بأنَّهُ عِندَ وِجدانِ الرّاحَةِ يقولُ: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ﴾، وسيأتي فائدةُ الفرقِ بينَ الوجهينِ عندَ قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[2].

سِرُّ القيدِ بشبهِ الجملةِ في: ﴿مِنَّا﴾:

رحمةُ اللهِ للعبادِ مَحضُ فضلٍ وإنعامٍ لا مناطَ استحقاقٍ للأنامِ

لِبيانِ أنَّ الرّحمةَ ابتدأت منه ﷻ بمحضِ الفضلِ والإنعامِ لا باستحقاقِ الأنامِ، وللإشعارِ بأنَّها عَواريُّ مِن اللهِ يمنَحُها مَن شاءَ مِن عِبادِهِ، فتقديمُ الصِّلةِ ﴿مِنَّا﴾ دليلٌ على العاريَةِ[3].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/153.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/41، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/322.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/242، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/76، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/30.

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿مِنَّا﴾ على المفعولِ بِهِ الثّاني ﴿رَحۡمَةٗ﴾:

التّقديمُ يفيدُ العنايةَ والاهتمامَ بمَن تكونُ منهُ الرّحمةُ سبحانه فالعِبرَةُ ليسَت بالرّحمةِ، ولكنّ العِبرَةَ بمَن تكونُ منهُ الرّحمةُ، إذِ العطايا على قَدرِ مُعطِيها.

العِبرَةُ بمَن تكونُ منهُ الرّحمةُ، فيكونُ منهُ انهمالُ النّعمةِ

الغرضُ مِنَ التّنكيرِ في لفظِ ﴿رَحۡمَةٗ﴾:

لمّا كانَ لفظُ ﴿رَحۡمَةٗ﴾ نكرةً في سياقِ الشّرطِ دلَّ على عُمومِ الرّحمةِ على البدلِ أو على اجتماعِ بعضِها؛ لِيشمَلَ أنواعَها، وقليلَها وكثيرَها، وصغيرَها وكبيرَها، فأفادَ تنكيرُها قصدَ النّوعِ للنّظرِ إلى لفظِ الإذاقةِ[1]؛ لأنَّ تنوُّعَ أفرادِ الرّحمةِ يحصُلُ منها تمامُ الإذاقةِ.

تنوُّعُ أفرادِ الرَّحمةِ يحصُلُ منه تمامُ الإذاقةِ

فائدةُ التّعبيرِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

أفادَ التّعبيرُ بالحرفِ ﴿ثُمَّ﴾ أنَّ نزعَ الرّحمةِ قد تراخى عن ذوقِها، وأنّها قد بقيَت عندَهُ مُدّةً مِنَ الزّمنِ؛ لِيظهرَ أمرُ الابتلاءِ والامتحانِ في الصّبرِ على فُقدانِها، والشّكرِ على إذاقتِها.

التّراخي في نزعِ الرّحمةِ بابٌ مِنَ الامتحانِ والابتلاءِ

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي في: ﴿نَزَعۡنَٰهَا﴾:

عَبَّرَ بالماضي لِلدّلالةِ على تحقُّقِ نزعِ النّعمةِ عندَ عدمِ القيامِ بحقِّها، مع شدّةِ استمساكِ المُنعَمِ عليهِ بالنّعمةِ وتَعلُّقِهِ بها.

نزعُ النّعمةِ لايدفعُهُ استمساكُ المُنعَمِ عليهِ بها

سببُ نسبةِ الفعلِ إلى (نا) المتكلِّمِ في: ﴿نَزَعۡنَٰهَا﴾:

أشعرَ التّعبيرُ بـ ﴿نَزَعۡنَٰهَا﴾ أنَّ نزعَها بأمرِ اللهِ، وفيه توبيخُ اليؤوسِ الكفورِ؛ لأنَّه لم يثِقْ باللهِ، ولم يَصبِرْ على هذا الاختبارِ مع أنَّ اللهَ تعالى نسبَ النّزعَ إليه، ومعنى الكلامِ: ثمّ نزعْناها منهُ بما يَحدُثُ مِنَ الأسبابِ بمُقتَضَى سُنَّتِنا في الخَلقِ من مَرَضٍ وعُسرٍ وفِتَنٍ ومَوتٍ وغيرِها[2]، ولمّا لم يكنْ مُقابلُ النّزعِ أيَّ مَسٍّ للإنسانِ بضُرٍّ، بل

نزعُ النِّعمةِ بأمرِ اللهِ بما يحدثُ مِنَ الأسبابِ بمُقتَضَى سنَّةِ اللهِ بلا ارتيابٍ

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 239.

(2) رضا، تفسير المنار: 12/24.

اكتفى بنزعِ الرّحمةِ كانَ وقوعُ جزاءِ الشّرطِ بأنَّه يَؤوسٌ كفورٌ تَعجيبًا لحالِه، ولِقلَّةِ صبرِه، وكثرةِ جزعِه.

دلالةُ (مِنْ):

تحتملُ (مِنْ) في قولِه تعالى: ﴿مِنۡهُ﴾ أن تكونَ تعليليَّةً؛ لِلتَّنبيهِ على أنَّ سببَ نزعِ الرّحمةِ مِنَ الإنسانِ شؤمُ مَعاصيه، وعدمُ الإقامةِ على شكرِها، فالأمرُ عائِدٌ إلى سوءِ طبعِه، فنيلُ الإنسانِ الرّحمةَ بفضلِ اللّه ونزعُها منه بقبحِ أفعالِه وسوئِها، ويدلُّ عليه آياتٌ مِنَ القرآنِ الكريم، منها: قولُه تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النّساء: 79]. كما تحتملُ أن تكونَ ابتدائيَّةً؛ أي: صلةً للفعل ﴿نَزَعۡنَٰهَا﴾؛ بمعنى: أنَّ ابتداءَ نزعِ الرّحمةِ كانَ مِنَ الإنسانِ الّذي أذقناهُ تلك الرّحمة[1].

يـنالُ الإنسانُ الرّحمةَ بفضلِ اللهِ، وتُنزَعُ منهُ بقبحِ الأفعالِ والسّفاهِ

دلالةُ التّأكيدِ بـ ﴿وَلَئِنۡ﴾:

لَمّا جاءَ حرفُ التّأكيدِ ﴿وَلَئِنۡ﴾ في صدرِ جملةِ الجزاءِ كانَ بمثابةِ التَّنبيهِ إلى أنَّ النّزعَ بسَببِ كُفرانِهم بما كانوا يتَقلَّبونَ فيه مِن نِعَمِ اللّه ﷻ[2].

نَزعُ الرّحمةِ سَببُهُ كُفرانُ نِعَمِ اللهِ مِنَ المالِ والولدِ والجاهِ

بديعُ الاستعمالِ وبيانُهُ في: ﴿إِنَّهُۥ﴾:

لَمّا كانَ الظّاهرُ أنَّهُ قد قَصَدَ مِن ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ الجنسَ بمعنى عمومِ النّاسِ؛ لِيشمَلَ المؤمنَ والكافرَ والصّابرَ وغيرَهُ، وكانَ اليَؤوسُ الكَفُورُ نوعًا مِنَ الإنسانِ دلَّ على أنَّهُ قد وَقَعَ استخدامٌ في عَوْدِ الضّميرِ[3]، إذ عادَ الضّميرُ على نوعٍ منهُ، وهو الّذي لا يصبرُ ولا يَشكرُ، وفائدةُ استخدامِ لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ الّذي استُعملَ في مَعنيين: أحدهما بما يدُلُّ عليه ظاهرُ اللّفظِ، والثّاني بما دلَّ عليه الضّميرُ العائدُ إليه؛

التّوبيخُ والتّبكيتُ لليؤوسِ الكفورِ، مِنَ النّوعِ المذكورِ

---

(1) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/76، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/30.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190.

(3) التّفتازانيّ، المطوّل، ص: 653، والسّبكيّ، عروس الأفراح: 2/246، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 140.

الإشعارُ بأنَّ ما يَقَعُ للَّفظِ الأوّلِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، وهو إذاقةُ الرّحمةِ، ثمّ نزعُها منه هُو من فعلِ اللّه تعالى، وإنّما التّوبيخُ والتّبكيتُ لِليؤوسِ الكفورِ، ويَدخلُ فيه الكافرُ باللّه إن كانَ يَؤوسًا كفورًا لِنعمةِ اللّه دخولًا أوّليًّا.

سرُّ مجيءِ ﴿لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ جوابًا مُغنيًا عن جوابِ الشّرطِ:

الكافِرُ لا يعزو حصولَ النّعمةِ إلى اللهِ تعالى، بل يَعتَقِدُ أنّها أمرٌ اتّفاقيٌّ

لمّا كانَ قولُهُ: ﴿لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ جوابًا لِلقسم، وهو سادٌّ مَسدَّ جوابِ الشّرطِ[1]، فيكونُ جوابُ القسم هو جزاءَ الشّرطِ في المعنى، فكانَ قولُهُ: ﴿لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾؛ بمعنى أنَّ إذاقتَهُ الرّحمةَ، ثمَّ نزعَها منه سببٌ لأنْ يكونَ يؤوسًا كفورًا، فَسَبَبُ وقوعِ شدّةِ اليأسِ جزاءً للشّرطِ، هو أنَّ الكافِرَ لا يعزو حصولَ النّعمةِ إلى اللّه تعالى، بل يَعتَقِدُ أنَّ السَّبَبَ في حُصولِ تلكَ النِّعمَةِ سَبَبٌ اتّفاقِيٌّ، ولمّا كانَ الأمرُ كذلك، فإنَّهُ يَستَبعِدُ حُدُوثَ ذَلِكَ الاتّفاقِ مرَّةً أُخرى، فلا جَرَمَ يَستَبعِدُ عَودَ تلكَ النِّعمَةِ فَيَقَعُ في اليَأسِ، فكانَت إذاقةُ الرّحمةِ، ثمّ نزعُها منه، سببًا في أن يكونَ يؤوسًا، وأمّا المُسلِمُ الّذي يَعتَقِدُ أنَّ تلكَ النِّعمَةَ إنّما حَصَلَت مِنَ اللّه تعالى وفضلِه وإحسانِه وَطَوْلِه فإنَّهُ لا يَحصُلُ لَهُ اليَأسُ، بَل يَقولُ لَعَلَّهُ تعالى يَرُدُّها إليَّ بَعدَ ذلكَ أكمَلَ وأحسَنَ وأفضَلَ ممّا كانَت. كما أنَّ سببَ وقوعِ وصفِ ﴿كَفُورٞ﴾ جزاءً للشّرطِ؛ هو أنَّهُ لَمّا اعتَقَدَ أنَّ حُصولَها إنّما كانَ على سَبيلِ الاتّفاقِ أو بسَبَبِ أنَّ الإنسانَ حَصَّلَها بِسَبَبِ جِدِّهِ وَجُهدِه، فَحينَئِذٍ لا يَشتَغِلُ بِشكرِ اللّه تعالى على تِلكَ النِّعمَةِ، فالحاصِلُ أنَّ الكافِرَ يكونُ عندَ زوالِ تلكَ النّعمةِ يؤوسًا، وعِندَ حُصولِها يَكونُ كَفورًا[2].

براعةُ التّعبيرِ بالوصفَين ﴿لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾:

الكافِرُ يجمعُ بينَ اليأسِ مما نُزِعَ منهُ، والكفرِ بما بَقِيَ لهُ

لمّا كانَ معنى الوصفين أنّه شديدُ القُنوطِ من رَوحِ اللّه، قَطوعٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/323.

رجاءَهُ مِن عَودِ أمثالِ تلك النّعمةِ المسلوبةِ من غيرِ صبرٍ، ولا تسليم لِقضائِهِ، ولا استرجاعٍ، وأنّه كَفُورٌ عظيمُ الكفرانِ لِما سَلَفَ لهُ مِنَ التَّقلُّبِ في نعمةِ اللّه، نَسّاءٌ له؛ كانَ الجمعُ بينَ الوصفينِ؛ لِلإشعارِ بأنَّه يجمعُ بينَ كثرةِ اليأسِ بعودةِ ما نُزِعَ منهُ، وشدّةِ الكفرِ بما بَقيَ لهُ، كما أنَّ إيرادَ اللّفظينِ بصيغةِ المبالغةِ إيذانٌ بأنَّ الوصفَين صارا لازمَين له مع شدّتِهما وكثرتِهما، فيفيدُ أنَّه ﴿لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ عاجِلًا وآجِلًا، لِحرمانِهِ مِن فضيلتي الصّبرِ والشّكرِ، ففي الجمعِ بينَ الوَصفينِ توبيخٌ شديدٌ[1].

مناسبةُ تقديمِ ﴿لَيَـُٔوسٞ﴾ على ﴿كَفُورٞ﴾:

اليأسُ أشدُّ قُبحًا مِن كفرِ النّعمةِ

فيه إشارةٌ إلى أنّ اليأسَ أشدُّ قُبحًا مِنَ الكفرانِ، لقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: 87]، وأنّه صارَ كفورًا؛ لأنَّه كانَ يرى نزعَ الرّحمةِ منه جَورًا وظلمًا، فبكثرةِ يأسِهِ من نزعِ الرّحمةِ صارَ كفورًا.. وفي التّقديمِ إشعارٌ بأنَّ النّزعَ إنّما كانَ بسببِ كُفرانِهِم بما كانوا يَتقلَّبونَ فيهِ مِن نعمِ اللّهِ ﷻ، وتأخيرُهُ عن وصفِ يأسِهِم - مَعَ تَقَدُّمِهِ عليهِ - لرعايةِ الفواصلِ، على أنّ اليأسَ مِن فضلِ اللّه سبحانَهُ، وقَطْعَ الرَّجاءِ عن إضافةِ أمثالِهِ في العاجلِ، وإيصالَ أجرِهِ في الآجلِ مِن بابِ الكُفرانِ لِلنّعمةِ السَّالفةِ أيضًا[2].

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الرَّحمةُ والنِّعمةُ:

الرَّحمَةُ إحسانٌ وتفضُّلٌ، وهي نقيضُ العذابِ، والنّعمةُ نقيضُ الحرمانِ

الرَّحمَةُ هي الإحسانُ على المُحتاجِ إليهِ على وجهِ التَّفضُّلِ، بمعنى ظهورِ الفضلِ، ولا تكونُ إلّا خيرًا، وأمّا النِّعمةُ فقد لا تكونُ لِمَن يحتاجُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/8.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/103، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190.

إليها، وقد تكونُ خيرًا، وقد تكونُ استدراجًا، كما أنّ النّعمةَ قد تكونُ ظاهرةً، وقد تكونُ خفيَّةً.

والرّحمةُ نقيضُ العذابِ، والنّعمةُ نقيضُ الحرمانِ، فالرّحمةُ لَيسَت كالنِّعمَةِ؛ لأنَّك إذا أنعَمتَ بِمالٍ على إنسانٍ، وتعطيه إيّاهُ، فقد أنعَمتَ، وَلا تَقولُ: إنَّك رَحمتَهُ[1].

اليأسُ والقنوطُ:

اليأسُ اعتِقادُ عدمِ حُصُولِ الميُؤوسِ منه، والقنوطُ قطعُ الأملِ مِنَ الأمرِ بالكلّيّةِ

القنُوطُ أشدُّ مُبالغَةً مِنَ اليَأسِ، ولمّا كانَ اليَأسُ فِعلًا قَلبيًّا، وهو اعتِقادُ عدمِ حُصُولِ الميُؤوسِ منه، وكانَ انفِعالًا بَدَنيًّا مِن أثَرِ اليَأسِ، بحيثُ تظهرُ آثارُ الانكسارِ والتّضاؤلِ في الأحوالِ الظّاهرةِ، كانَ القُنوطُ تابعًا لِليأسِ[2].

الكفرُ والجَحْدُ:

كفرُ النِّعمةِ سَترُها وإخفاؤُها، والجحودُ إنكارُ وجودِها بتاتًا

كفرُ النِّعمةِ: سترُها أو إخفاؤُها بتركِ أداءِ شكرِها والقيامِ بحقِّها، والجَحْدُ: هو نفيُ ما في القلبِ إثباتُهُ[3]، فجحودُ النِّعمةِ بمعنى أن يكونَ عالمًا بِمَن أوْلاها وأسْداها، ولا يُقِرُّ بلسانه بذلك، فعَبَّرَ بِكفورٍ؛ لأنَّهُم يَستُرونَها ويُخفونَها.

النّزعُ والسّلبُ:

النّزعُ قلعُ الشّيءِ مِن محلِّه، والسّلبُ نَزعُ الشّيءِ مِنَ الغيرِ على القَهرِ

النّزعُ: نَزَعَ الشّيءَ: جَذَبَهُ مِن مَقرِّهِ كَنَزعِ القوسِ عن كبدِهِ، ويُستعمَلُ ذلك في الأعراضِ، ومنه: نَزعُ العَداوةِ والمَحبَّةِ مِنَ القلبِ، قالَ تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ [الأعراف: 43]، ومنه قولُهُ: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ [القمر: 20]، قيلَ: تَقلعُ النّاسَ من مَقرِّهم لِشدَّةِ هُبوبِها[4].

والسّلبُ: نَزعُ الشّيءِ مِنَ الغيرِ على القَهرِ قالَ تعالى: ﴿وَإِن

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 195.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 245، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/572، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/11.

(3) الرّاغب، المفردات: (جحد)، (كفر).

(4) الرّاغب، المفردات: (نزع).

﴿يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ [الحجّ: 73]، والسَّلِيبُ: الرَّجلُ المَسلوبُ(1). وقد أوردَ لفظَ النّزعِ دونَ السّلبِ، فلم يقُل: (ثمَّ سلبناها منه)؛ لأنَّ السّلبَ هو أخذُ الشَّيءِ بِخِفَّةٍ واختِطافٍ على جهةِ القهرِ، ومنه: الرَّجلُ المَسلوبُ، والسَّلبُ يكونُ فيما ظَهَرَ، ولهذا قِيلَ: كُلُّ شيءٍ على الإنسانِ مِنَ اللّباسِ فهو سَلَبٌ، ويُقالُ لِلحَاءِ الشّجرِ المنزوعِ منهُ سَلَبٌ، ومنه: سَلَبَ القَصَبَةَ والشَّجَرَة: قَشَّرَها، ولهذا عُبِّرَ بالسَّلبِ مع الذُّبابِ، فقالَ اللّه تعالى: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ [الحجّ: 73]؛ لخفَّةِ الذُّبابِ في السَّلبِ، ولأنَّه يَختطِفُ الشّيءَ اختِطافًا.

وأمّا لفظُ النّزعِ فإنّه لا يكونُ إلّا فيما قَوِيَ ثباتُهُ، فيكونُ معه القلعُ والجذبُ بقوّةٍ، وهو المُطابقُ للإذاقةِ ليكونَ أقضى لحقِّ البلاغةِ، فكانَ إيرادُ لفظ النّزعِ؛ للإشعارِ بشدّةِ تعلُّقِه بالرّحمةِ وشدَّةِ حِرصِه عليها، فكأنَّ الرّحمةَ تُقلَعُ منه قلعًا حينَ تُؤخَذُ منهُ؛ لِشدَّةِ تمسُّكِهِ بها مع أنَّه لم يَحْصُلْ منها إلّا الذّوقُ الّذي هو أقلُّ ما يُوجدُ بِهِ الطَّعمُ(2).

(1) الرّاغب، المفردات: (سلب).

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/30.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١١﴾ [هود: 10 - 11]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهما:

تنوُّعُ حالِ الكافرينَ عندَ حصولِ النّعمةِ وزوالِها، ولا يفوزُ إلّا الصّابرونَ الصّالحونَ

لمّا كانَت أحوالُ الدّنيا غيرَ باقيَةٍ، بَل هيَ أبَدًا في التَّغَيُّرِ والزَّوالِ والتَّحَوُّلِ، وفيها يكونُ الاختبارُ والامتحانُ، ذكرَ اللّه تعالى حالَةَ الإنسانِ إذْ تأتيهِ النِّعمَةُ ولَم يَسبِقْها الضُّرُّ فيكونُ يؤوسًا كفورًا، ثمَّ عَطَفَ عليه ذِكرَ حالِهِ إذا جاءَتهُ النِّعمَةُ بَعدَ الضُّرِّ فيكونَ فَرِحًا فَخورًا، وكلا الفريقين مَذمومٌ، ثمّ استَثنى منهُم الّذين ردَّتهُمُ الشّرائعُ والإيمانُ إلى الصّبرِ والعملِ الصّالحِ[1].

وأيضًا لمّا بَيَّنَ اللّه تعالى أنَّ الكافِرَ عِندَ البلاءِ لا يكونُ مِنَ الصّابرينَ، وعِندَ الفوزِ بالنَّعماءِ لا يكونُ مِنَ الشّاكِرينَ، ثُمَّ لَمّا قَرَّرَ ذلكَ قالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لِلإيذانِ بأنّهُم عِندَ البَلاءِ مِنَ الصّابِرينَ، وعِندَ الرّاحَةِ والخَيرِ مِنَ الشّاكِرينَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَعۡمَآءَ﴾: النِّعمةُ الحالةُ الحسنةُ ونضارةُ العيشِ مِن مالٍ وولدٍ وجاهٍ وعلمٍ وصحّةٍ وخيرٍ وفضيلةٍ خاصّة، وتُقالُ للقليلِ والكثيرِ، ويُقالُ امرأةٌ ناعمةٌ ومُنَعَّمَةٌ حَسَنَةُ العيشِ والغِذاءِ مُترفَةٌ، والتَّنَعُّمُ: التَّرَفُّه، والنَّعماءُ إنعامٌ يَظهَرُ أثرُهُ على صاحبِهِ؛ لأنَّها أُخرِجَت

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/127.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/323.

مَخرَجَ الأحوالِ الظّاهرةِ نحو: حَمراءَ وسَوداءَ، وهذا هو الفرقُ بينَ النِّعمةِ والنَّعماءِ، ويأتي لفظُ النَّعماءِ بإزاءِ الضَّرّاءِ[1].

2) ﴿ضَرَّآءَ﴾: الضّرُّ ضِدُّ النَّفعِ، وهو سُوءُ الحالِ، وكلُّ ما كانَ مِن سُوءِ حالٍ وفقرٍ في بدنٍ فهو ضُرٌّ، وَما كانَ ضِدًّا للنّفعِ فهو ضَرٌّ، والضَّرّاءُ: مَضرَّةٌ يَظهَرُ أثرُها على مَن أُصيبَ بها، ويكثرُ استعمالُ الضَّرّاءِ فيما يخصُّ البَدَنَ، فكلمةُ ضَرّاءَ بإزاءِ نَعماءَ في أنَّها أُخرِجَت مَخرَجَ الأحوالِ الظّاهرةِ نحو: حمراءَ، كما تَقدَّمَ[2].

3) ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتُ﴾: السُّوءُ هو كلُّ ما يغُمُّ الإنسانَ، ويكرهُهُ مِنَ الأمورِ الدّنيويّةِ والأُخرويّةِ، ومِنَ الأحوالِ النّفسيّةِ، والبدنيّةِ، والخارجةِ، مِن فَواتِ مالٍ، وجاهٍ، وفَقدِ حميمٍ، ومصيبةٍ، ومنه يُقالُ: ساءَني كذا، وأسَأتَ إلى فلانٍ، وتُطلَقُ السّيّئةُ باعتبارِ الشّرعِ، فتكون بمعنى الخطيئةِ، وباعتبارِ الطّبعِ؛ أي: ممّا يغُمُّ الإنسانَ مِن ضُرٍّ وفَقرٍ ونحوِهما، وهو المرادُ بالسّيّئاتِ هنا[3].

4) ﴿فَخُورٌ﴾: يدورُ معنى الفخرِ على المُباهاةِ أمامَ النّاسِ في الأشياءِ الخارجةِ عنِ الإنسانِ كالمالِ والجاهِ بعدّها على جهةِ تعظيمِها، ويُعبَّرُ عن كلِّ نفيسٍ بالفاخرِ، فيُقالُ: ثوبٌ فاخرٌ، وناقةٌ فَخورٌ: عظيمةُ الضّرعِ، كثيرةُ الدَّرِّ، وأصلُ الفخرِ عِظَمُ الشّيءِ، ومنه: نَخلَةٌ فَخورٌ: عَظيمَةُ الجِذعِ غَليظَةُ السَّعَفِ، والتَّفَخُّرُ: التَّعَظُّمُ، والتّفاخرُ: التّعاظمُ، والفخرُ - بالفتحِ والضّمِّ والتّحريكِ -: التّمدُّحُ بالخصالِ، وعَدُّها لِتعظيمِ القدْرِ وتكثيرِ المآثرِ. والفخرُ يجُرُّ إلى العُجْبِ والتّطاولِ، وهو مَذمومٌ. ومعنى ﴿فَخُورٌ﴾ في الآيةِ: المتَطاولُ على النّاسِ، المتباهي عليهم، بِتعديدِ مآثرِهِ[4].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

ولَئِنْ منَحنا هذا الإنسانَ النِّعَمَ، وظهرَت عليه آثارُها مِنَ الرّزقِ والصّحّةِ ورخاءِ العيشِ وغيرِها بعدَ ضيقٍ مِنَ العيشِ كانَ فيهِ، لَيقولَنَّ عندَ ذلكَ: ذهبَ الضّيقُ والعُسرةُ عنّي،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نعم)، والواحدي: التّفسير البسيط: 11/360، وابن عادل، اللّباب: 10/444.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ضر)، والواحدي، التّفسير البسيط: 11/360، وابن عادل، اللّباب: 10/444.
(3) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوأ)، والواحدي، التّفسير الوسيط: 2/566.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فخر)، والسّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 2/416.

الإنـــسـانُ قد يـتـحـوَّلُ مِـن الـنِّـعـمـةِ إلى المِحنةِ فيصبرُ، وإمّـا بالعَكسِ فيُشكَرُ ويُؤجَرُ

وزالَتِ الشّدائدُ والمَكارهُ إنَّ الإنسانَ لبَطِرٌ بالنِّعَمِ، مُبالِغٌ في الفخرِ بها والتّعالي بينَ النّاسِ، فلا يقابلُ النّعمَ بشكرِ اللّه عليها، لكنِ الَّذينَ صَبَرُوا على ما أصابَهُم مِنَ الضّرّاءِ إيمانًا باللّه واحتِسابًا لِلأجرِ عندَهُ، وعَمِلوا الصّالِحاتِ شكرًا للّه على نعمِهِ، هؤلاء لهم مَغفرةٌ لِذنوبِهم، وثوابٌ جزيلٌ على أعمالِهمُ الصّالحةِ الّتي عَملوها في دارِ الدّنيا[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

المـقـابـلـةُ بـينَ حـالاتِ الإنسانِ كـاشـفـةٌ عـن تقلُّبِهِ

دلالةُ الواو على العطفِ في: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ﴾:

جاءَتِ الواو عاطفةً ما بعدَها على ما قبلَها عطفَ تتميمٍ للّتي قبلَها؛ لأنّها حَكَت حالةً ضدَّ الحالةِ الّتي قبلَها.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بأسلوبِ القسمِ المُقترِنِ بالشّرطِ:

تأكيدُ ما سيقعُ، ومـا سيـكـونُ، آيـةٌ عـلى كونِهِ العليمَ بأحوالِ خلقِهِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ﴾، جاءَ فيه التّعبيرُ بأسلوبِ القسمِ المُقترِنِ بالشّرطِ، تأكيدًا على وقوعِ مضمونِ جملةِ الشّرطِ وجوابِ القسمِ؛ لأنّ الخالقَ بخلقِهِ عليمٌ بما تكونُ عليه تقلُّباتُ أحوالِهِم.

دلالةُ تتابعِ التّأكيدِ:

ســـوءُ طـبـعِ الإنسانِ حقيقةٌ ثابتةٌ، لا تغييرَ لها على المدى

تتابعَ التّأكيدُ في جملةِ الشّرطِ والجزاءِ في الآيةِ، فوردَ تأكيدُ الجملةِ باللّامِ الموطِّئةِ للقَسَمِ على معنى (واللّه إنْ) في: ﴿وَلَئِنۡ﴾، وباللّامِ الواقعةِ في جوابِ القسمِ في: ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ﴾؛ لقصْدِ تحقيقِ مَضمونِ الجملةِ؛ للإيذانِ بأنَّ هذا الأمرَ حقيقةٌ ثابتةٌ، لا مُبالَغةَ فيها، ولا تَغليبَ، كما كانَ ذِكرُ القسمِ الأوّلِ في الآيةِ السّابقةِ على وَفْقِهِ ونهجِهِ، فيكونُ بمثابةِ الرّدِّ على كُلِّ مَن يُنكِرُ أن يكونَ طبعُهُ كذلك، فيكون الكلامُ على طريقةِ الخبرِ الإنكاريِّ أيضًا[2].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/256، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/441، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 222.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/3، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/13.

نكتةُ المخالفةِ في التّعبيرِ بيَن هذه الآيةِ والّتي قبلَها:

لمّا ذكَرَ اللّه تعالى في الآيةِ السّابقةِ تحوّلَ النِّعمةِ إلى الشّدَّةِ، فقالَ: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا﴾، وكانَت هذه الآيةُ في بيانِ العكسِ: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ﴾ كانَ الظّاهرُ أنْ يذكُرَ تحوُّلَ الشِّدَّةِ إلى النِّعمةِ، فيُقدِّمَ مسَّ الضُّرِّ على ذوقِ النَّعماءِ، ولكن خُولِفَ في التّعبيرِ بينَهما، ولم يكونا على نسيجٍ واحد، حيثُ بُدِئَ في الأوَّلِ بإعطاءِ النِّعمةِ وإيصالِ الرَّحمةِ، ولم يبدأْ في الثّاني بإيصالِ الضُّرِّ على نمطِهِ؛ تنبيهًا على سَبقِ الرَّحمةِ على الغضَبِ، واعتناءً بشأنِها، ولِلتَّنبيه على أنَّ الإنسانَ بطبعِهِ يحبُّ اللّذَّةَ والتَّنعُّمَ، ولموافقةِ النّظمِ في الآيتين في البدءِ بالإذاقةِ[1].

الإنسانُ يحبُّ اللّذَّةَ والتَّنعُّمَ بطبعِهِ

بلاغةُ مجيءِ الشّرطِ مُصدَّرًا بالأداة ﴿وَلَئِنۡ﴾:

أفادَ التَّعبيرُ بـ ﴿وَلَئِنۡ﴾ الشّرطيّةِ الّتي لِلشّكِّ أنَّ فرحَ الإنسانِ وتعاليَه بينَ النّاسِ ممّا ينبغي أن لا يقعَ إلّا على مُجرَّدِ الفَرْضِ والتّقديرُ كما تفرضُ المحالات؛ لاشتمالِ المَقامِ على ما يزيلُهُ من أصلِهِ، وهو أنَّ إذاقةَ النّعماءِ بعدَ ضرّاءَ مَسّتهُ، إنّما هُو للاختبارِ والامتحانِ؛ لِيظهرَ لكُم أيُّكم أحسنُ عملًا، ففي مجيءِ الشّرطِ مُصدَّرًا بـ ﴿وَلَئِنۡ﴾ توبيخٌ لِمَن يَعتقدُ أنَّ النِّعمَ الّتي هو فيها مِن سَعيِه وجَدِّهِ وجُهدِهِ، ولا يَعتقدُ أنّها من إنعامِ اللّه عليهِ، فلا يَشتغلُ بِشُكرِها[2]. كما أفادَ التّعبيرُ بكلمةِ الشَّكِّ ﴿وَلَئِنۡ﴾ أنَّ إذاقةَ النَّعماءِ بعدَ الضَّرّاءِ؛ أي: مِن حيثُ وقوعُها في نفسِ الأمرِ تحتملُ أن تقعَ في المُستقبلِ، وأن لا تقعَ[3].

توبيخُ مَن يَعتقدُ أنَّ النِّعَمَ مِن سعيِهِ، لا مِن إنعامِ اللهِ عليه، فلا يَشتغلُ بِشكرِها

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/216.
(2) التّفتازانيّ، المطوّل، ص: 321.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/31.

دلالةُ التّعبير بالاستعارةِ بـ ﴿أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ﴾:

إفـــادةُ لـفـظِ الإذاقــةِ معنى إعطاءِ النّعمةِ وإيصالِها ثمَّ وجدانِ فائدتِها

جاءَ لفظُ ﴿أَذَقۡنَٰهُ﴾ على الاستعارةِ التّصريحيَّةِ التّبعيَّة، بتشبيهِ الإعطاءِ المُشتَمِلِ على إدراكِ أثرِ النّعمةِ منَ الطّعامِ والمَلبَسِ والصّحّةِ وغيرِها من سائرِ المَحسوساتِ، بحيثُ يجدُ لذَّتَها بذوقِ ما يُؤكَلُ ممّا يُشتَهى ويُرغَبُ فيه، ووجهُ الشّبهِ تحصيلُ الشّيءِ والانتفاعُ بهِ على وجهِ حصولِ تمامِ المقصودِ منه، فإنَّ وجدانَ اللّذَّةِ كما يَترتَّبُ على الإذاقةِ يَترتَّبُ على الإعطاءِ المذكورِ، فأفادَ التّعبيرُ بلفظِ الإذاقةِ إعطاءَ النّعمةِ من صحّةٍ وأمنٍ وجِدَةٍ وغيرِها، وإيصالَها إليه، فينتفعُ من كلِّ نوعٍ من أنواعِ النّعمِ تمامَ الانتفاعِ، بحيثُ يَجِدُ فائدتَهُ ولذَّتَهُ منهُ[1].

فائدةُ مجيءِ الضّميرِ في: ﴿أَذَقۡنَٰهُ﴾:

اليؤوسُ الكفورُ فَرِحٌ فَخورٌ، عندَ إذاقتِهِ النّعماءَ بعدَ ضرّاءَ مَسَّتهُ

جاءَ الكلامُ على مُقتضَى الظّاهرِ فذُكِرَ الضّميرُ العائدُ على الإنسانِ لِقربِ ذكرِه، ولم يأتِ بالاسمِ الظّاهرِ؛ أي: لم يقُل: (ولَئِن أذقْنا الإنسانَ نعماءَ)، وفائدتُهُ: تثبيتُ المعنى الّذي تقرَّرَ في ذهنِ السّامعِ، فالكلامُ على الإنسانِ نفسِهِ في بيانِ الحالةِ الثّانيةِ الّتي تصيبُهُ، ولمّا عادَ الضّميرُ على الإنسانِ الّذي ذُكِرَت أوصافُهُ في الآيةِ السّابقةِ دلَّ على أنَّ ذلك الإنسانَ الّذي هو يؤوسٌ كفورٌ عندما تُنتَزَعُ منهَ الرّحمةُ بعدَ أن نُذيقَهُ إيّاها، هو نفسُهُ فَرِحٌ فَخورٌ عندما نُذيقُهُ النّعماءَ بعدَ ضرّاءَ مَسَّتهُ؛ للتّعجيبِ منهُ في الحالتين، وتوبيخِهِ على عدمِ صبرِه؛ لاتّصافِهِ بكثرةِ اليأسِ، وكُفرِ النّعمةِ، وعلى عدمِ شُكرِهِ بالبطرِ والتّباهي بينَ النّاسِ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿نَعۡمَآءَ﴾ و﴿ضَرَّآءَ﴾:

ظهورُ النّعمةِ عـلى الإنسانِ بعدَ ضُرٍّ مَسَّهُ، أوجبُ لشكرِ الرّحمنِ

لم يقُلْ: (ولَئِن أذقناهُ نعمةً بعدَ ضرٍّ مَسَّهُ)؛ لأنَّهُ لمّا كانَ المَقامُ مَقامَ إظهارِ الشّكرِ على نعمِهِ ﷻ على الإنسانِ، ذَكَرَ لفظَ ﴿نَعۡمَآءَ﴾ الّذي هو بمعنى النّعمةِ الّتي يَظهرُ أثرُها على صاحبِها؛ أي: على

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/153.

بدنِهِ وحالِه، بإزاءِ لفظِ ﴿ضَرَّآءَ﴾ الّذي هو بمعنى مَضرَّةٍ يَظهرُ أثرُها على صاحبِها؛ أي: على بدنِه وحالِه؛ لِلإشعارِ بأنَّ ظهورَ الحالةِ الحسنةِ على الإنسانِ بعدَ ظهورِ الحالةِ السّيّئةِ عليه، كصحّةٍ ظاهرةٍ بعدَ سَقَمٍ مُضرٍّ ببدنِه، وغنىً ظاهرٍ بعدَ عُدمٍ يَظهرُ أثرُهُ السّيّئُ على بدنِهِ وحالِهِ - أوجبُ لحقِّ الشّكرِ للّه تعالى وأوفى لهُ؛ لِظهورِ أثرِ نعمةِ اللّه تعالى وتفضُّلِهِ عليهِ بتبدُّلِ الحالِ عندَهُ، وعندَ النّاسِ من مَضرَّةٍ إلى نعمةٍ، والشُّعورِ بها، وأمّا (النّعمةُ والمَضرَّةُ) فإنّهُما أعمُّ؛ لأنَّهُما يَشمَلانِ الباطنَ والظّاهرَ[1]، فعُبِّرَ بالأخصِّ لِمُقتضَى المَقامِ.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بأسلوبِ الطّباقِ في: ﴿نَعۡمَآءَ﴾ و﴿ضَرَّآءَ﴾:

حُصولُ الإنعامِ بعدَ الإضرارِ ألذُّ لِلمرءِ، وأنفعُ لِلاعتبارِ

عُبِّرَ بأسلوبِ الطّباقِ لِلجمعِ بينَ الحالينِ المُختلفينِ، وقد جاءَا مُتطابِقينِ زنةً تأكيدًا على التّضادِّ المُثْبَتِ انقلابَ حالِ الإنسانِ من حالٍ إلى حالٍ مُباينةٍ لِلأُولى، وذَكَرَ الإضرارَ قبلَ الإنعامِ؛ لأنّه ألذُّ، وجَمَعَ بينَهُما في صورةٍ واحدةٍ؛ لأنّ الضِّدَّ يُظهِرُهُ الضِّدُّ، والإنعامُ بهِ أظهرُ.

الغرضُ مِن حذفِ حرفِ الجرِّ (مِن) في: ﴿بَعۡدَ ضَرَّآءَ﴾:

طيشُ الكافرِ وخِفّتُهُ حينَ إذاقتِهِ النّعماءَ بعدَ الضّرّاءِ

جاءَ ظرفُ الزّمانِ بنزعِ الخافضِ منهُ، فلم يقُل: (مِن بعدِ ضرّاءَ مَسّتهُ)؛ لِيدلَّ على اتّصالِ زمنِ الضُّرِّ بالقولِ؛ لِلإشعارِ بأنَّهُ قالَ: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ﴾ مع قربِ عهدِهِ بالضَّرّاءِ، لِيكونَ زيادةً في توبيخِه، وإيذانًا بأنَّ قولَه ما هو إلّا خفّةٌ وطَيشٌ[2].

سرُّ التّعبيرِ بظرفِ الزّمانِ ﴿بَعۡدَ﴾:

حُصولُ النّعمةِ بعدَ الضُّرِّ، يكونَ الشّكرُ به أتمَّ وأوفى

لَمّا كانَ السّياقُ في بيانِ لذّةِ النّعمةِ وتذوّقِها عُبِّرَ عن وقوعِ الإذاقةِ بعدَ مَسِّ الضُّرِّ؛ لِيفيدَ أنَّ لذّةَ إذاقةِ النَّعماءِ على أتمِّها؛ لأنَّ الشُّعُورَ بها عَقِبَ زَوالِ ضِدِّها يَكونُ أتَمَّ وأكمَلَ، فيقتضي أن يكونَ الشُّكرُ أتمَّ وأوفى[3].

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/31.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/234.
(3) رضا، تفسير المنار: 11/274.

نكتةُ اختلافِ المُسندِ إليه في الفعلين: ﴿أَذَقۡنَٰهُ﴾ و﴿مَسَّتۡهُ﴾:

وَقَعَ الاختلافُ في المُسنَدِ إليه في الفعلين، فقد أسندَ الذّوقَ إلى الضّميرِ الدّالِّ على التّعظيم لوقوعِ الفعلِ على الرّحمةِ والنّعماءِ؛ ليؤذنَ بلذَّتِها وكَونِهما ممّا يُرغَبُ فيه، وإسنادُ المسِّ إلى الضّرّاءِ ليشعرَ بكونِها في أدنى ما يُطلَقُ عليهِ اسمُ المُلاقاةِ من مَراتبِها، ففي مُقابلةِ التّعبيرين إيماءٌ إلى أنَّ إصابَةَ الضَّرّاءِ أخَفُّ مِن إصابَةِ النَّعماءِ، وأنَّ لُطفَ اللّه شامِلٌ لِعبادِهِ في كُلِّ حالٍ.

مُرادُ الله بعبادِهِ اليُسرُ، وما ينالُهُم مِنَ الضُّرِّ نيلًا يَسيرًا، هو لطفٌ منه ورحمةٌ

كما أنَّ في لفظِ الإذاقةِ والمَسِّ تنبيهًا على أنَّ ما يَجدُهُ الإنسانُ في الدُّنيا مِنَ النِّعمِ والمِحَنِ كالأنموذَجِ لِما يَجدُهُ في الآخرةِ. كما أنّ إسنادَ الإذاقةِ إلى ضميرِ المتكلِّمِ العائدِ إلى اللّه تعالى، وإسنادَ المسِّ إلى الضّميرِ العائدِ على الضّرّاءِ، فلم يقُل: (مَسسْناه)؛ لِلدّلالةِ على أنّ مُرادَهُ تعالى إنّما هو إيصالُ الخيرِ المَرغوبِ فيهِ على أحسَنِ ما يكونُ، وأنّه إنّما يُريدُ بعبادِهِ اليُسرَ دونَ العُسرِ، وإنّما ينالُهُم الضُّرُّ بسوءِ اختيارِهم نيلًا يَسيرًا، كأنّما يُلاصِقُ البَشَرَةَ مِن غيرِ تَأثيرٍ، كما أنَّ فيه إشعارًا بأنَّ مِن مَقامِ الشّكرِ مُراعاةَ الأدبِ مع ربِّ العالَمين. وذِكرَ المسَّ المُنبِئَ عنِ الضّعفِ؛ للإشعارِ بتلهُّفِ الإنسانِ للنّعمةِ، ورغبتِهِ فيها، وشدّةِ تمسُّكِهِ بها، وضجرِهِ مِنَ الضُّرِّ، وعدمِ تحمّلِهِ له، وإنْ مَسَّهُ مَسًّا خفيفًا. كما يفيدُ أنَّه يقعُ في الكُفرانِ والبَطَرِ بأدنى شيءٍ؛ لأنَّ المَسَّ أوّلُ الوصولِ[1].

الغرضُ مِن إسنادِ جَوابِ القَسمِ إلى القولِ في ﴿لَيَقُولَنَّ﴾:

جُعِلَ جَوابُ القسمِ هنا القوْلَ، وجُعِلَ في الآيةِ السّابقةِ قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾؛ للإشعارِ بالحالةِ النَّفسيَّةِ الّتي تُصيبُ الإنسانَ إذا نُزِعَتْ منه النّعَمُ، وهي عدمُ ظهورِ الكلامِ منهُ لِغمِّهِ ويأسِهِ، وإذا

نزولُ الضّرّاءِ يحبسُ اللّسانَ، وحضورُ النّعماءِ يُطلقُهُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/129، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/243، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/19.

أذاقَهُ اللّه نعماءَ بعدَ ضرّاءَ مَسَّتهُ تهيَّجَ لِلقولِ، وتَبَجَّحَ، وتَفاخَرَ، وتَباهى بالنّعمةِ أمامَ النّاسِ[1].

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالمَجازِ العقلّي:

ترقُّبُ ما يَسوءُ في حالِ النّعماءِ، يُكدِّرُ السّرورَ، ويُنغِّصُ العَيشَ

قولُهُ: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾، أرادَ بالسّيّئاتِ كلَّ ما يَسوءُ مِن ضُرٍّ وفقرٍ ومَرضٍ ومُصيبة، بمعنى: ذَهَبَ الّذي يَسوؤُني، ولن يَعترِيَني بَعدُ أمثالُها؛ فإنَّ التَّرقُّبَ لِورودِ أمثالِها، ولا سيّما في حالِ النَّعماءِ ممّا يُكدِّرُ السُّرورَ، ويُنغِّصُ العيشَ. وإسنادُ الذّهابِ إلى السّيّئاتِ مِن بابِ إسنادِ الفعلِ إلى سببِهِ، مُبالغةً في بيانِ أهمّيّةِ السّببِ، وأنّ ما وَقَعَ عليهم إنّما هو بسببِهِم.

الغرضُ مِنَ الكنايةِ في: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾:

جمعُ المعنيين الظّاهرِ والكنائيِّ مُفصِحٌ عن بلاغةِ السّياقِ ومَقاصدِهِ

أفادَ الإخبارُ بذهابِ السّيّئاتِ عنهُ مَعنيين على سبيلِ الجمعِ بينَ المعنى الظّاهرِ والكنائيِّ: أحدهما المعنى الظّاهر، فإنّهُ لَمّا أذاقَهُ اللّه النّعماءَ بعدَ ضرّاءَ مَسّتهُ اعتقدَ أنَّ السّيّئاتِ ذهبَت عنهُ، ولن تَرجعَ إليه، والثّاني: هو كنايةٌ عن أنّهُ يقولُ هذا القولَ لِلازدهاءِ ولِلإعجابِ ولِلتَّباهي[2].

دلالةُ التّعبيرِ بحرفِ الجرِّ في: ﴿عَنِّيٓ﴾:

غرورُ الكافرِ أنّهُ حقيقٌ بهِ، أن تَذهبَ عنهُ كلُّ المصائبِ الّتي تَسوؤُهُ

لَمّا كانَ حرفُ الجرِّ (عن) يُستعمَلُ لِلمُجاوزةِ أشعرَ الكلامُ بأنَّهُ يعتقِدُ أنَّ السّيّئاتِ تجاوزَتهُ وذهبَت، ولن ترجعَ إليه، كما أنَّ في التّعبيرِ بـ ﴿عَنِّيٓ﴾ إشارةً إلى اعتقادِ كُلِّ واحدٍ مِنَ الكافرين أنَّهُ حَقيقٌ بأنْ تَذهَبَ عَنهُ كلُّ المصائبِ الّتي تَسوؤهُ، غُرُورًا مِنهُ بنَفسِه، كما في قَولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [فُصِّلت: 50][3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/14.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/14.

شبهُ كمالِ الاتّصالِ في الجملةِ المُؤكَّدةِ بالأداةِ (إنَّ):

مُنتهَى غايةِ الكافرِ الفوزُ بالسَّعاداتِ الدُّنيويّةِ؛ لإنكارِه السَّعاداتِ الأخرويَّةِ

قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾، أفادَت ﴿إِنَّهُۥ﴾ ربطَ الجملةِ الّتي بعدَها بما قبلَها على معنى بيانِ علَّةِ قولِه: ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ﴾، والمعنى بسببِ شدّةِ فرحِهِ بالنّعمةِ بعدَ الضّرّاءِ الّتي مَسّتهُ، وكثرةِ فخرِهِ بها، قالَ تلك المقولةَ الّتي وردَت على سبيلِ ذمٍّ قائلِها، لتباهي صاحبِها وإعجابِهِ بما حصلَ لهُ، فكأنّها في جوابِ سؤالٍ تقديرُهُ: ما سببُ قولِهِ تلك المَقولَة، فجاءَ الجوابُ ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾[1]؛ أي: بسببِ اتّصافِهِ بهذين الوصفين اللّذين صارا لازمَين لهُ، وتحتملُ جملةُ ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾ أن تكونَ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لِلتَّعجُّبِ من حالِه[2]، وأفادَتِ الآيةُ أنَّهُ عندَ انتقالِ الإنسانِ مِنَ المحنةِ إلى النِّعمةِ، يكونُ الكافرُ فَرِحًا فخورًا؛ لأنَّ مُنتهَى طبعِ الكافرِ هو الفوزُ بهذهِ السَّعاداتِ الدُّنيويّةِ، وهُو مُنكرٌ لِلسَّعاداتِ الأخرَويَّةِ[3].

سرُّ مجيءِ تأكيدَين في: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾:

على الإنسانِ شكرُ اللهِ بدلًا مِن أن يكونَ فَرِحًا فَخورًا

أفادَ التّأكيدُ بـ ﴿إِنَّهُۥ﴾ واللّامِ أنَّ الجملةَ وقعَت جوابًا لِمُنكرٍ[4]؛ بمعنى: أنَّه لمّا أذاقَهُ اللهُ تعالى النّعمةَ بعدَ الضُّرِّ الّذي مَسَّهُ اعتقدَ أنَّ الّذي أصابَهُ مِنَ النّعمةِ بجدِّهِ واجتهادِهِ، فهو باستحقاقِهِ، ولا يَراهُ مِنَ اللهِ تعالى؛ جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ﴾؛ لِلإشعارِ بأنَّهُ مُنكرٌ لأنْ يكونَ فرحُه وتباهيه على النّاسِ بغيرِ حقٍّ، فجاءَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾ ردًّا على ما يعتقدُهُ، ليؤذنَ بتوبيخِهِ على كونِهِ فرِحًا فخورًا، وليُفيدَ أنّهما قد ذُكرَا على جهةِ الذّمِّ، وأنَّهُ كانَ ينبغي أن يَشكُرَ اللهَ بدلًا من أن يكونَ فَرِحًا فَخورًا.

---

(1) عبد القاهر الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 316 - 324.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/14.

(3) ابن عادل، اللّباب: 10/445.

(4) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 171.

بلاغةُ الإيجازِ في الآيةِ الكريمةِ:

تحذيرُ المؤمنينَ مِنَ الاتّصافِ بأوصافِ الكافرينَ المذمومةِ

نُسِجَت هذه الآيَةُ على هذا المِنوالِ مِنَ الإجمالِ، فَذَكَرَ فيها الإنسانَ مُطلَقًا، ولم يقيّدهُ بالكافرِ؛ لِتَذهَبَ نُفوسُ السّامِعينَ مِنَ المؤمنينَ في طُرُقِ الحَذَرِ مِن صِفَتَي اليَأسِ وكُفرانِ النِّعمَةِ، ومِن صِفَتَي الفَرَحِ والفَخرِ كُلَّ مَذهَبٍ مُمكِنٍ[1].

دلالةُ الاستثناءِ بيَن الاتّصالِ والانقطاعِ:

ديدنُ الكافرين أنْ لا يَصبروا ولا يَشكروا، ولكنْ عادةُ المؤمنينَ خلافُ ذلك

يحتملُ أن تكونَ اللّامُ للجنسِ في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ - المستثنى منه - في قولِه: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾، فيُحمَلُ على الاستغراقِ لِعُمومِ النّاسِ، فيكونُ الاستثناءُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾: مُتّصِلًا، وهو قولُ كثيرٍ مِنَ النّحاةِ والمفسِّرينَ، فيكونُ على مِنوالِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: 2 - 3]،. ويحتملُ أن يُحمَلَ الإنسانُ على الكافرِ، فتكونُ (اللّام) لِلعهدِ، ويكونُ الاستثناءُ مُنقطِعًا، وتكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (لكن) كأنَّه قيلَ: مِن ديدنِ الكافرين وعادتِهم أن لا يَصبروا على الضّرّاءِ، ولا يَشكروا على السّرّاءِ، ولكنْ عادةُ المؤمنينَ الصّبرُ والشّكرُ[2].

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلتِهِ ﴿صَبَرُواْ﴾:

مُقابَلَةُ حالِ المؤمنينَ الصّابرينَ، بحالِ الكُفّارِ اليائسينَ

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ لِتضمُّنِه صلةً تكشفُ سببَ الاستثناءِ، ولمّا كانَ مِن معاني الصَّبرِ انتِظارُ الفَرَجِ أُوثِرَ هُنا وَصفُ ﴿صَبَرُواْ﴾ دُونَ (آمَنُوا)؛ لأنَّ المُرادَ مُقابَلَةُ حالِهم بحالِ الكُفّارِ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾.

سرُّ التّعبيرِ بالفعلِ غيْرَ مُقيَّدٍ في قولِه ﴿صَبَرُواْ﴾:

الصّبرُ معنًى عامٌّ يشمَلُ الصّبرَ على الضّرّاءِ والشّهواتِ والطّاعاتِ

لم يُقيَّدِ الفعلُ ﴿صَبَرُواْ﴾؛ لِيفيدَ العُمومَ؛ بمعنى: أنّهُم صبروا على الضّرّاءِ وعنِ الشّهواتِ وعلى الطّاعاتِ[3]، وهو أبلغُ في مدحِهم، وأجلى لِمكانِهم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/14.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/27.

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/33.

الشّكرُ قرينُ الصّبرِ، والأعمالُ الصّالحةُ ضميمةُ الإيمانِ

دلالةُ العطفِ في سياقِ جملتي الصّبرِ والعملِ الصّالحِ:

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، دلَّ عطفُ قولِه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على ﴿صَبَرُواْ﴾ على تضمينِ الصّبرِ معنى الإيمانِ؛ لأنَّ الأعمالَ الصّالحةَ ضميمةُ الإيمانِ، ودلَّ ذكرُ الصّبرِ على تضمينِ الأعمالِ الصّالحاتِ معنى الشّكرِ؛ لأنَّ الشُّكرَ قرينُ الصّبرِ، فكأنَّه ذَكَرَ هنا الصّبرَ والشّكرَ والإيمانَ والعملَ الصّالحَ، ففيه تكثيفٌ في المعنى.. كما أنَّ الاستثناءَ مِنَ الكلامِ السّابقِ يقتضيه، فإنَّه لمّا كانَ شأنُ الإنسانِ ومُوجبُ جبلَّتِهِ؛ أنَّه إذا أصابَتْه الضَّرّاءُ بعدَ السَّرّاءِ لم يَصبِرْ، وإذا انقلبَت هذه الحالةُ لم يَشكر، استثنى منه المؤمنينَ، ولكنّهُ وَضَعَ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مَوضِعَ (المؤمنين) كنايةً؛ لِيُصرِّحَ بهذا المعنى لِمُناسبتِهِ لِلمَقامِ ولاقتضائِهِ لهُ[1].

التَّحذيرُ مِنَ الوُقوعِ، فيما يُماثِلُ صفاتِ الكافِرينَ

دلالةُ التّعبيرِ بالاستثناءِ:

قولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، لمّا كانَ الاستثناءُ هو بمعنى الاستدراكِ ممّا مضى مِنَ الكلامِ دلَّ على أنَّ المرادَ مِنَ الإنسانِ أن يَكونَ عندَ البلاءِ مِنَ الصّابرينَ، وأن يَكونَ عندَ الرّاحَةِ والخَيرِ مِنَ الشّاكِرينَ.. ولمّا كانَ الاستثناءُ على معنى إخراجِ المُستثنى مِن حُكمِ المُستَثنى منهُ دلَّ على أنَّ الّذينَ صبروا وعَمِلوا الصّالحاتِ مُتَّصِفونَ بضدِّ صفاتِ المُستَثنى مِنهُم، وفي هذا تَحذيرٌ مِنَ الوُقوعِ فيما يُماثِلُ صفاتِ الكافرينَ[2].

عاقبةُ الصّبرِ والعملِ الصّالحِ المَغفرةُ والأجرُ عندَ اللهِ تعالى

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

لمّا كانَ اسمُ الإشارةِ عائدًا إلى الاسمِ الموصولِ مع صلتِهِ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دلَّ على أنَّ سببَ بناءِ الخبرِ على اسمِ الإشارةِ هو لأجلِ ما ذُكِرَ في حَيِّزِ الصّلةِ، فأفادَ أنَّهم استَحَقُّوا

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/27، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/33.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/323، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/15.

المغفرةَ والأجرَ الكبيرَ لأجلِ مَا ذُكِرَ مِن وصفِهم بالصّبرِ والعملِ الصّالحِ. ولمّا كانَ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ فيه معنى البُعدِ آذنَ بعلوِّ درجتِهم وبُعدِ مَنزلَتِهم في الفضلِ؛ أي: أولئكَ المَوصوفونَ بتلكَ الصّفاتِ الحميدةِ لَهُم مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ[1].

الغرضُ مِنَ التّقديمِ والتّأخيرِ:

المبادرةُ إلى الاتّصافِ بالصّبرِ والعملِ الصّالحِ مِنَ اللهِ تعالى

قولُهُ: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾، وفيه تقديمُ الخبرِ ﴿لَهُم﴾ على المبتدأ ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾، وإنْ كانَ في عرفِ القواعدِ النّحويّةِ واجبَ التّقديمِ، ولكنّه لا يخلو من فائدةِ الحصرِ الادعائيِّ؛ بمعنى أنَّ أولئكَ المذكورينَ في الموصولِ وصلتِه هُم وحدَهُم لَهُم مَغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ دونَ اليؤوسِ الكَفورِ والفَرِحِ الفَخورِ؛ لِيفيدَ الحصرُ المبالغةَ في المدحِ، ولِتنبيهِ المؤمنينَ على المبادرةِ إلى الاتّصافِ بالصّبرِ والعملِ الصّالحِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ المُصدَّرةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

التّعبيرُ بالجملةِ الاسميّةِ استعلاءٌ على الزّمنِ، واستمرارٌ لِلحدثِ

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾، وفيه أنّه لمّا كانَ قولُهُ تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ خبرًا عن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وكانَتِ الجملةُ اسميّةً مِنَ الطّرفين؛ أي: الجملةُ الكبرى والصّغرى دلَّ هذا على تقويةِ ثبوتِ المغفرةِ والأجرِ الكبيرِ للّذين صبروا وعَملوا الصّالحاتِ وتأكيدِه؛ لأنّ في التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ استعلاءً على الزّمنِ واستمرارًا للحدث.

دلالةُ اللّامِ في: ﴿لَهُم﴾:

مُجازاةُ الّذين صبروا وعَملوا الصّالحاتِ، بتمامِ المَغفرةِ والأجرِ الكبيرِ

لمّا كانَ حالُ الكافرين مِنَ النّعماءِ في الدُّنيا هي الإذاقةَ فقط، فهي لا تفيدُ مُلكًا لِلشّيءِ ولا الاختصاصَ به، فغايةُ الذّوقِ أقلُّ ما يُدرَكُ به طعمُ المطعومِ وما يجري عليه، فلمّا كانَ الأمرُ كذلك ذَكَرَ اللّه تعالى حالَ المؤمنينَ يومَ القيامةِ على سبيلِ المقابلةِ؛ أي: لَهُمُ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/15.

المَغفرةُ والأجرُ الكبيرُ على جهةِ الاختصاصِ؛ لِما تفيدُهُ اللّامُ في ﴿لَهُم﴾ مِن معنى الاختصاصِ؛ بمعنى: أنّهُم لا يكتفونَ بذوقِ المَغفرةِ والأجرِ الكبيرِ فيفيدُ حصولَهُم على أقلِّ الأمرِ، بل المَغفرةُ والأجرُ الكبيرُ مُختصّانِ بهِم، فتفيدُ اللّامُ حصولَهم على تَمامِ المَغفرةِ وتمامِ الأجرِ الكبيرِ.

دلالةُ الواوِ في: ﴿مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾:

جمعُ المتعاطفين تأكيدٌ على حصولِ المغفرةِ والأجرِ معًا، لا أحدِهما فقط

لمّا كانَت واوُ العطفِ على معنى الجمعِ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ لِتفيدَ التّشريكَ في الحكمِ، دلَّ على ثبوتِ حصولِ المَغفرةِ والأجرِ الكبيرِ على سبيلِ الاجتماعِ.

فائدةُ تنكيرِ: ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾:

الصّابرون الشّاكرون لَهُم مَغفرةٌ عظيمةٌ لِذنوبِهم، وإنْ تكاثرَت

أفادَ التّنكيرُ تعظيمَ المَغفرةِ؛ بمعنى: لَهُم مَغفرةٌ عظيمةٌ لِذنوبِهم، وإنْ جَمَّت[1].

بلاغةُ جملةِ التّذييلِ في السّياقِ الكريمِ:

جَمَعَ اللهُ لِلمُؤمنينَ يومَ القيامةِ زوالَ العقابِ والفوزَ بالثّوابِ

قولُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ جملةُ التّذييلِ، حيث أنّه إنَّه لمّا كانَ غايةُ الفلاحِ هي الخلوصَ مِنَ الأذى والضُّرِّ، وتحصيلَ الرّحمةِ، والتَّرفُّهَ بالنِّعمِ يومَ القيامةِ، جَمَعَ اللهُ لِلمُؤمنينَ هَذَينِ المَطلوبَينِ، فكانَ أحَدُهُما: زَوالُ العِقابِ والخَلاصُ منه، وهو المُرادُ مِن قَولِهِ: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾، والثّاني: الفَوزُ بالثَّوابِ، وهو المُرادُ مِن قولِهِ: ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾[2].

توجيهُ المُتشابِهِ اللّفظيِّ في آيتي: سورةِ هود، وسورةِ فُصّلت:

مُناسبةُ التّعبيرِ لِمُناسبةِ المقامِ في الآيتين الكريمتين

قالَ اللّهُ تعالى هنا في سورةِ هودٍ: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾، وقالَ في سورةِ فُصِّلَت: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 1/377.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [فُصّلت: 50]؛ ففيه زيادةُ ﴿مِّنَّا﴾ وزيادةُ ﴿مِنۢ﴾ في سورةِ فُصِّلَت عمّا في سورةِ هودٍ:

ووجهُ ذلك أنَّه لم يَرِد في هودٍ ما يَستَدعي تلك الزِّيادةَ، وأمّا سورةُ فُصِّلَت فتقدَّمَ فيها قولُهُ: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي﴾ [فُصّلت: 47] قطعًا بهم، وتَنبيهًا على سُوءِ مُرتَكَبِهم، وقد عايَنُوا الحقَّ، وضلَّ عنهُم ما كانوا يَدْعونَ مِن قَبلُ مِن شُركاءِ اللّه سبحانَهُ، وأيقَنوا وعَلِموا أنَّه لا مَحيصَ لهم ولا مَفرَّ؛ فلمّا تَقدَّم ذِكرُ الشُّركاءِ قالَ تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ [فُصّلت: 50]، فنبَّهَ تعالى بقولِهِ: ﴿مِّنَّا﴾ على أنْ لا شريكَ لهُ، ولا مُعطيَ غيرُهُ، وأنَّه لا يأتي العبدَ شيءٌ مِن سواهُ سبحانَهُ. ولمّا لم يَتقدَّمْ في سورةِ هود ذكرٌ لِذلكَ لم يَرِدْ فيها التَّنبيهُ بقولِهِ: ﴿مِّنَّا﴾.

وأمّا زيادةُ: ﴿مِنۢ﴾ في قولِهِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ [فُصّلت: 50] فَمُناسِبٌ لإطنابِ هذا الغرضِ في هذهِ السّورةِ؛ لإفادتِهِ تعيينَ ابتداءِ زمنِ إذاقةِ النَّعماءِ مِن بعدِ إمساسِهِ بالضّرّاءِ؛ لِيكونَ أوثقَ في ظهورِ منّةِ اللّه تعالى عليه، فناسبَ ذلك الزّيادةَ. وأمّا حذفُ (مِنْ) في سورةِ هودٍ فقد تَقدَّمَ أنَّه لإفادةِ اتّصالِ زمنِ الضُّرِّ بالقولِ؛ لِلإشعارِ بأنَّه قالَ: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ﴾ مع قُربِ عهدِهِ بالضّرّاءِ، كما أنَّ مَا أطنبَ في سورةِ فُصّلت ممّا يَتعلَّقُ بالتّوحيدِ قد أوجزَ، فناسبَهُ سقوطُ (مِنْ)، فجاءَ كلٌّ على ما يُناسِبُ ويَجِبُ، ولم يكنْ لِيُلائِمَ كلًّا مِنَ الموضوعينِ إلّا ما وَرَدَ فيه(1).

وفي توجيهِ المتشابِهِ المذكورِ وجهٌ آخرَ، وهو أنَّه في سورةِ فُصِّلَت بيَّنَ تعالى جِهةَ الرَّحمةِ، بقولِهِ: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [فُصّلت49]؛ فناسَبَ ذِكرُ ﴿مِّنَّا﴾، وحَذَفَهُ هنا اكتفاءً بقولِه قبلُ: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾ [هود: 9]، وزادَ ﴿مِنۢ﴾ في سورةِ فُصِّلَت؛ لأنَّه لَمّا حدَّ الرَّحمةَ وجِهَتَها حدَّ الظَّرفَ بعدَها؛ لِيَتشاكلا في التَّحديدِ، وهنا لَمّا لم يَذكُرِ الأوَّلَ، لم يَذكُرِ الثّانيَ لِيتشاكلا(2).

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/253.
(2) الكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 223، والأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 259 - 260.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢﴾ [هود: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ثباتُ الرّسولِ الأكرمِ على دعوتِهِ، على الرّغمِ مِن تكرُّرِ التّكذيبِ والاستهزاءِ

لمّا كانَ مِن شأنِ تكذيبِ الكُفّارِ وعنادِهِم واستهزائِهِم أن يدخلَ اليأسُ في قلبِ رسولِ اللّه ﷺ من انتفاعِهِم بدعائِهِم إلى التّوحيدِ وإلى شرائعِ الإسلامِ؛ جاءَ التّفريعُ في الآيةِ على قولِهِ: ﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ﴾ إلى قولِه ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لِيُشيرَ هَذا التَّفريعُ إلى أنَّ مَضمونَ الكلامِ المُفَرَّعَ عليهِ سَبَبٌ لِتوجيهِ هذا التَّوَقُّعِ؛ لأنَّ من شَأنِ المُفَرَّعَ عليهِ اليأسَ مِن ارعِوائِهِم لِتَكرُّرِ التَّكذيبِ والاستِهزاءِ يَأسًا قد يَبعَثُ على تَركِ دُعائِهِم(1).

كما أنّه لمّا استثنى اللّه سبحانه مِنَ الجارينَ مَعَ الطّبعِ الطّائشينَ في الهوى؛ مَن تَحَلَّى بِرَزانةِ الصّبرِ النّاشِىءِ عن وَقارِ العِلمِ المُثمِرِ لِصالحِ العمل، وكانَ رسولُ اللّه ﷺ رأسَ الصَّابرينَ، وكانَ ما مَضى من أقوالِهِم وأفعالِهِم مِثلَ قولِهِم: ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ﴾، وتَثنِّيهِم صُدُورَهم أسبابًا لِضيقِ صدرِهِ ﷺ، فَرُبّما كانَت مَظِنَّةً لِرجائِهِم تَركَهُ ﷺ بعضَ ما يُوحَى إلَيهِ من عيبِ آلهتِهِم وذِكرِ البعثِ والعذابِ يومَ القيامةِ، وغيرِ ذَلكَ ممّا يَشُقُّ عليهِم طَمَعًا في إقبالِهِم أو خوفًا من إدبارِهِم، فإنّهم كانُوا يَقولونَ: ما نراهُ يَذكُرُ مَن خالفَ دِينَهُ مِنَ اليهودِ والنّصارى بمثلِ الّذي يَذكُرُنا بِهِ مِنَ الشَّرِّ؛ قالَ تعالى مُسَبِّبًا عَن ذلكَ ناهيًا في صيغةِ الخبرِ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾(2).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/16.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/245.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَضَآئِقُۢ﴾: يدورُ معنى الضّيقِ على خِلافِ السَّعَةِ، يُقالُ: ضاقَ المكانُ والدّارُ والثّوبُ، ضدّ اتّسعَ، ثمَّ استُعملَ في الضّيقِ المعنويِّ، ومنهُ يُستعمَلُ (الضَّيقَةُ) في الفقرِ والبُخلِ والغمِّ ونحوِ ذلكَ، ومنهُ ضاقَ بهِ صدرُهُ، والضِّيِّقُ: إذا كانَ عارضًا غيرَ لازمٍ يُعبَّرُ عَنهُ (بضائق) مثل: (سَائد) و(جَائد) و(حَاسن) في سيِّد وجَواد وحَسن[1].

2) ﴿كَنزٌ﴾: يدورُ معنى (كنز) على تَجَمُّعٍ في شَيءٍ إلى حدِّ الامتلاءِ، ويُقالُ: شدَدْتَ كنزَ القربَة إذا ملأتَها، ورجل مُكتنِزُ اللّحم وكَنيزُ اللّحم؛ أي: كثيرُه، وكَنَزتُ التَّمرَ في وعائِهِ إذا جمعتَهُ حتّى امتلأَ، والكَنيزُ: التَّمرُ يُكتَنَزُ للشِّتاءِ في أوعيةٍ، وفلانٌ يَكتنزُ المالَ: يَجمعُ المالَ الكثيرَ بعضَهُ إلى بعضٍ على سبيلِ الادّخارِ. والأصلُ في الكنزِ أن يُطلَقَ على المالِ المَدفونِ تحتَ الأرضِ، ثمَّ أُطلِقَ على المالِ العظيمِ المجموعِ في وعاءٍ، ومعنى ﴿كَنزٌ﴾ في الآيةِ مالٌ خطيرٌ مَخزونٌ.

3) ﴿وَكِيلٌ﴾: الوكيلُ في صِفةِ اللهِ جلَّ وعزَّ الَّذي توكَّلَ بالقِيامِ بِجَميعِ ما خَلَقَ، ويُقالُ: قد أوكلتَ على أخيكَ العَمَلَ: خلَّيتَه كلَّهُ عليه، وأصلُ التَّوكيلِ: أن تعتمدَ على غيرِكَ، وتجعلَهُ نائبًا عنكَ لِيتولَّى الأمورَ، ففيه معنى التَّعهُّدِ بالشّيءِ والقيامِ بأمورِهِ، كما أنَّ معنى الهيمنةِ مُتحقِّقٌ في كلِّ لفظِ (وكيل)، والوَكيلُ فَعيلٌ بمعنى المفعول؛ أي: قد وُكِلَت إليه الأمورُ كلُّها، وربّما فُسِّرَ الوَكيلُ بالكفيلِ، والوَكيلُ أعمُّ؛ لأنّ كلَّ كفيلٍ وَكيلٌ، وليسَ كلُّ وَكيلٍ كفيلًا، كما يأتي الوكيلُ بمعنى الحفيظِ.

الدّاعي إلى اللهِ لا يَصُدُّهُ اعتراضُ المُعتَرِضينَ، ولا قَدحُ القادِحينَ، بـل يـثـبـتُ على اليقين

❁ المَعنى الإجماليُّ:

فلعلَّكَ - أيُّها الرّسولُ لِعظمِ ما تَراهُ منهُم مِنَ الكُفرِ والتّكذيبِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضيق)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 575.

- تاركٌ بعضَ ما يُوحَى إليكَ ممّا أنزلَهُ اللّه عليك وأمرَكَ بتبليغِه، وضائقٌ به صدرُكَ؛ خشيةَ أن يَطلبوا منكَ بعضَ المَطالِبِ على وجهِ التَّعنُّتِ، كأن يَقولوا: لولا أُنزِلَ عليهِ مالٌ كثيرٌ، أو جاءَ معهُ مَلَكٌ يصدقُهُ في رسالتِه، فيبلّغُهم ما أوحيتُهُ إليكَ؛ فإنّه ليسَ عليك إلّا الإنذارُ بما أُوحِي إليك، واللّه على كلِّ شيءٍ حفيظٌ، فهو الّذي يتولّى جميعَ شؤونِ خلقِه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ﴾:

تهكُّمُ الكافرينَ واستهزاؤُهُم ينبغي أن لايُورثَ اليأسَ، ويبعث على ترك دعائِهِم

أفادَتِ الفاءُ التّفريعَ والسَّببيّةَ؛ لِيشيرَ إلى أنّ ما تَقَدَّمَ مِن تكذيبِ الكُفّارِ وعنادِهم وتهكُّمِهم واستهزائِهم في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، وقولِه: ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، سببٌ في هذا التّفريعِ، ولتوجيهِ قولِه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾، ففيه إشعارٌ بأنَّ قولَ الكافرينَ هذا ينبغي أنْ لا يُورثَ اليأسَ ممّا قد يَبعثُ على تركِ دُعائِهم[1].

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالاستعارةِ:

النّهيُ بمقصِدِ التّحذيرِ مِن تركِ التّبليغِ، خرجَ مَخرَجَ التّأمينِ لرسولِهِ وعصمتِه مِن ذلك

قولُهُ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾، جاءَ ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ الّذي هو حرفُ إشفاقٍ لِتوقُّعِ مَحذورٍ هنا على معنى النّهي عن فعلِه، ويفيدُ هنا بمعونةِ السّياقِ التّحذيرَ، فاستُعيرَ ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ استعارةً تبعيّةً حرفيّةً لمعنى التّحذيرِ مِن فعلِ المكروهِ؛ لِلإشعارِ بشدّةِ تكذيبِهم وكثرةِ استهزائِهم وتأثيرِه في رسولِ اللّه ﷺ، فأفادَ ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ تحذيرَ مَن شأنُهُ التّبليغ مِن تركِ بعضِ ما يُوحَى إليه، أو مِن أن يضيقَ صدرُهُ بما يَقولونَ، وإنْ كانَ مَعلومًا أنَّ الرّسولَ ﷺ لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/16.

يفعلُ ذلك؛ أي: لا تتركْ بعضَ ما يُوحَى إليك، وهو كما يقولُ الرَّجلُ لآخرَ: لعلَّكَ تريدُ أنْ تفعلَ كذا، وهو ينهاهُ عنهُ.

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ التَّوقُّعُ المُستفادُ من ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ بتقديرِ استِفهامٍ حُذِفَت أداتُهُ، والتَّقديرُ: ألَعلَّكَ تارِكٌ؟! فيكونُ الاستفهامُ مُستعمَلًا في النَّفيِ لِلتَّحذيرِ، فالكلامُ عمومًا جاءَ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ، فحرَّكَ اللّه تعالى بهذا الأسلوبِ مِن رسولِه ﷺ، وهيّجَهُ لأداءِ الرّسالةِ وطَرحِ المُبالاةِ بِرَدِّهم واستِهزائِهم واقتراحِهم[1].

وفي الآيةِ وجهٌ آخرَ: فإنّه لمّا جاءَ الكلامُ على معنى النّهيِ بمَقصِدِ التّحذيرِ مِن تركِ التّبليغِ خرجَ مَخرَجَ البشارةِ للرّسولِ ﷺ بما كانَ يخافُ مِن ضيقِ صدرِهِ واشتغالِ قلبِه عندَ سوءِ مُعاملتِهم إيّاهُ، فيقعُ له فيهِ تأخيرٌ في إبلاغِ ما أُمِرَ بتبليغِهِ فأمنَهُ اللّهُ عن ذلكَ وعَصمَهُ[2].

دلالةُ التّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿تَارِكُۢ﴾ و﴿وَضَآئِقُۢ﴾:

أفعالُ الكُفّارِ وأقوالُهُم تبعثُ على ضيقِ الصّدرِ، لولا أنَّ رسولَ اللهِ مُكلَّفٌ بإنذارِهِم

أفادَ التّعبيرُ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ أنَّ التّحذيرَ مِنَ التّركِ والضِّيقِ، إنّما هو في الزّمنِ المُستقبَلِ، فدلَّ على أنَّ رسولَ اللّه ﷺ لم يترُكْ تبليغَ بعضَ الوحيِ، ولا كُلَّه كما أنَّه لم يضِقْ صدرُهُ، فهو مُتوقَّعٌ لا واقِعٌ[3]، بمعنى: أنّه لمّا عاينَ رسولُ اللّه ﷺ اجتراءَ الكافرينَ على اقتراحِ مثلِ هذهِ العظائمِ، وشاهد مُكابرتَهُم ومُسارعتَهُم إلى التّكذيبِ والاستهزاءِ، مَثَّلَ حالَهُ ﷺ بحالِ مَن يُتوقَّعُ منهُ تركُ تبليغِ بعضِ ما يُوحَى إليه، وأن يضيقَ صدرُهُ بتلاوةِ تلك الآياتِ السّاطعةِ عليهِم، وتبليغِها إليهِم[4].

---

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/105، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382، والسّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 110، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/191، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/16.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/105.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/16.

(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/37.

دلالةُ التّعبيرِ بالمفعولِ بهِ:

الكافِرونَ يَخشونَ آياتِ إنذارِهِم وتخويفِهِم

في قولِهِ تعالى: ﴿بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾، ذَلِكَ البَعضُ هو ما فيهِ دَعوَتُهُم إلى الإيمانِ باللهِ تعالى وتوحيدِهِ وتركِ آلهتِهِم، وإنذارُهُم بالعَذابِ، وإعلامُهُم بالبَعثِ، كَما يدُلُّ عليه قَولُهُ تعالى في آيَةٍ أُخرَى، ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ [الأعراف: 203]، ويؤيّدُهُ تعقيبُهُ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾، وإنّما عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ بكلمةِ (بعض) إبهامًا لِلمُرادِ، واكتفاءً بما أشارَت إليه المَواطِنُ الأخرى، وما جاءَ في كتبِ السّيرِ مِن مساواماتِهِم رسولَ اللهِ ﷺ، وفي التّعبيرِ بطريقِ الإبهامِ تناسبٌ مع عدمِ تركِهِ ﷺ أيَّ شيءٍ مِنَ البلاغِ.

دلالةُ مجيءِ الفعلِ مَبنيًا لِلمَفعولِ في: ﴿يُوحَىٰٓ﴾:

التّعامي عنِ الآياتِ البيّناتِ لِلتّمادي في العنادِ والتّكذيبِ

لَمّا كانَ المُوحَى به قد صارَ مَعلومًا لَهُم - وإنْ نازعوا فيه - بَنَى لِلمَفعولِ[1]، كما أشعرَ أنَّ عنادَهُم في القرآنِ المُوحَى إليكَ، ولمّا كانَ قولُهُ: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾؛ بمعنى: يُوحَى إليكَ مِنَ الآياتِ البيّناتِ الدّالّةِ على حقيقةِ نبوَّتِكَ المناديَةِ بكونِها من عندِ اللهِ ﷻ، دلَّ على أنَّهُم بقولِهِم هذا مُتعامُونَ عنِ البراهينِ الواضحةِ، لِيفيدَ تماديَهُم في العنادِ والتّكذيبِ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿وَضَآئِقُۢ﴾:

رسولُ اللهِ الأكرمُ، أوسَعُ النّاسِ صدرًا، والضّيقُ عندَهُ عارِضٌ لِلإشفاقِ

لَمّا كانَ لفظُ ﴿وَضَآئِقُۢ﴾ يُذكَرُ للضّيقِ العارضِ، والضِّيقُ يُذكَرُ للضِّيقِ اللّازمِ، عَدَلَ عن لفظِ ضيّقٍ إلى ضَائقٍ؛ لِلإيذانِ بأنَّ الضّيقَ الّذي حَذَّرَ من حصولِهِ لِرسولِ اللهِ ﷺ من كلامِهِم، هو ضِيقٌ عارِضٌ لا ثابتٌ؛ لأنَّ ﴿وَضَآئِقُۢ﴾ لا دلالةَ فيهِ على تَمَكُّنِ وَصفِ الضّيقِ مِن صَدرِهِ بخلافِ ضَيِّقٍ، إذ هو صفةٌ مُشبَّهَةٌ، وهي دالَّةٌ على تَمكُّنِ الوَصفِ مِنَ المَوصوفِ، إيماءً إلَى أنَّ أقصى ما يُتَوهَّمُ تَوَقُّعُهُ في جانِبِهِ ﷺ هو ضِيقٌ قَليلٌ يَعرِضُ لَهُ؛ لأنّه ﷺ كانَ أوسَعَ النّاسِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/245.

صدرًا، ففي التّعبيرِ بلفظِ ﴿وَضَآئِقُۢ﴾ تخفيفٌ على رسولِ اللّه ﷺ مِن تأثيرِ قولِهم، كما أنَّ التّعبيرَ بـ ﴿وَضَآئِقُۢ﴾ يوافِقُ نظيرَهُ في قولِه: ﴿تَارِكُۢ﴾ في بناءِ الصّيغةِ واللّفظِ، فهو أحسنُ فَصاحةً(1).

سرُّ إيثارِ ذكرِ ضيقِ الصّدرِ:

خوفُ الكتمانِ يدفعُ الخوفَ مِن أيِّ لَائمةٍ

لمّا كانَ رسولُ اللّه ﷺ يخافُ اللّه في كتمانِ الوحي وتركِ إظهارِه، وكانَ يخافُ لائمةَ قومِه في إظهارِ الآياتِ الّتي تَعيبُ آلهتَهُم وتدعوهُم إلى توحيدِ اللّه وإلى الإيمانِ بالبعثِ، وإنذارِهم بالعذابِ، عَبَّرَ بقولِه: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ لِلإشارةِ إلى هذا(2).

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالمجازِ في سياقِ ضيقِ الصّدرِ:

ضيقُ الصّدرِ يُذهِبُ الفرحَ والمَسرَّةَ، ويملأُ المكانَ غمًّا

الأصلُ في الضِّيقِ أن يكونَ في المكانِ، وهو ضدُّ السَّعةِ، وجاءَ هنا على سبيلِ المجازِ؛ لِلدّلالةِ على الغَمِّ والأَسَفِ، فكأنَّ الغمَّ يملأُ الصّدرَ، فيضيقُ به، حتّى لا يبقى فيه مَكانٌ لِلفرحِ والمَسَرَّةِ(3).

فائدةُ الباءِ في: ﴿بِهِۦ﴾:

بيانُ السّببِ يدفعُ إلى تركِهِ إنْ كانَ

الباءُ سببيّةٌ(4)، بمعنى: لعلّكَ ضائقٌ صدرُكَ بسببِ بعضِ مَا يُوحَى إليكَ.

دلالةُ عودِ الضّميرِ في: ﴿بِهِۦ﴾:

تحذيرُ الرّسولِ مِن أن يضيقَ صدرُهُ مِن مُقترحاتِ الكافرينَ

يحتملُ أن يعودَ الضّميرُ في قولِه: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ إلى ﴿بَعۡضَ﴾ أو إلى ﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾، وأجازَ بعضُ المُفسِّرينَ أن يعودَ الضّميرُ إلى مُتأخِّرٍ؛ أي: إلى ﴿أَن يَقُولُواْ﴾، والتّقديرُ: وضائقٌ بـ ﴿أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ صدرُكَ، وفي هذا التّقديرِ معنًى بلاغيٌّ لطيفٌ، وبيانُهُ أنّه

---

(1) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 8/170، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/154، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/129، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/16.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 11/362.

(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ضيق)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/16.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/16.

سيكونُ تَحذيرًا من أن يَضيقَ صَدرُهُ لاقتراحِهِمُ الآياتِ بِأن يَقولوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾، مع ذلكَ التَّحذيرُ من أن يَضيقَ صَدرُهُ من قولِهِم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، ومن قولِهِم: ما يَحبِسُ العَذابَ عنّا، بِواسِطَةِ كَونِ ﴿وَضَآئِقُۢ﴾ داخِلًا في تَفريعِ التَّحذيرِ على قَولَيهِمُ السّابِقَين.

وإنَّما جِيءَ بالضَّميرِ، ثُمَّ أُبدِلَ منهُ لِقَصدِ الإجمالِ الَّذي يَعْقُبُهُ التَّفصيلُ لِيكُونَ أشَدَّ تَمَكُّنًا في الذِّهنِ، ولِقَصدِ تقديمِ المَجرورِ المُتَعَلِّقِ باسمِ الفاعِلِ على فاعِلِه تَنبيهًا على الاهتِمامِ بالمُتَعَلِّقِ؛ لأنَّهُ سَبَبُ صُدورِ الفِعلِ عَن فاعِلِه فَجِيءَ بالضَّميرِ المُفَسِّرِ فيما بَعدُ لِما في لَفظِ التَّفسيرِ مِنَ الطُّولِ، فَيَحصُلُ بِذِكرِهِ بُعدٌ بَينَ اسمِ الفاعِلِ ومَرفوعِه، فلِذلِكَ اختُصِرَ في ضَميرٍ يَعودُ عليه، فَحَصَلَ الاهتِمامُ، وقَوِيَ الاهتِمامُ بما يدُلُّ على تَمَكُّنِهِ في الذِّهنِ[1].

دلالةُ ذكرِ سببِ الضّيقِ:

لَمّا كانَ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ على معنى التّحذيرِ من تركِ تبليغِ الوحي وضيقِ صدرِهِ ﷺ، جاءَ ذكرُ سببِ الضّيقِ كشفًا، وفي ذكرِ السّببِ إيضاحٌ وبيانٌ حتّى لاتذهبَ النّفوسُ مَذاهِبَ شتّى في بيانِ سببِ ضيقِ صدرِهِ ﷺ "فاقتراحُ الكافرينَ الآياتِ إنّما هو على سبيلِ التَّعنُّتِ لا الاسترشادِ؛ لأنَّهُم لو كانوا مُسترشِدينَ لكانَت آيةٌ واحدةٌ، ممّا جاءَ به، كافيةً في رشادِهِم[2].

اقتراحُ الكافرينَ الآياتِ، إنّما هو على سبيلِ التّعنُّتِ لا الاسترشادِ

سرُّ الحذفِ قبلَ: ﴿أَن يَقُولُواْ﴾:

في التّعبيرِ حذفٌ يُفيدُ معنى السّببيّة، ويدُلُّ عليهِ السّياقُ، والتّقديرُ: مخافةَ أن يقولوا لَولا أُنزِلَ عليهِ كَنزٌ أو جاءَ معهُ مَلَكٌ،

تجدُّدُ مُقترحاتِ الكافرينَ وأقوالِهِم؛ لِلنّيلِ مِنَ القرآنِ، والطّعنِ في الدّينِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/154، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/129، والكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 729، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/17.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382.

ويحتملُ أن يكونَ التّقديرُ: لأن يَقولوا أو بأنْ يَقولوا[1]، وعلى هذا التّقديرِ يكونُ الفعلُ المضارعُ بتقديرِ الماضي؛ لأنَّهُم قد قالُوا هذا القولَ.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿يَقُولُواْ﴾:

الكافرونَ مُجدِّدونَ لهذا القولِ مُستمرّونَ فيهِ

نكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ الدّالِّ على الحالِ والاستقبالِ دونَ الماضي الإشعارُ بتجدُّدِ هذا القولِ وتكرُّرِهِ منهُم، وأنَّهُم مُستمرّونَ عليه، ولِتصويرِ الحالةِ القبيحةِ في قولِهِم، وعلى القولِ بأنَّ الضّميرَ في ﴿بِهِۦ﴾ يعودُ إلى المصدرِ المؤوّلِ ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ فلا حَذفَ ولا تقديرَ كما تَقَدَّمَ، ويفيدُ الفعلُ المضارعُ ﴿يَقُولُواْ﴾ المضيَّ، ونكتةُ التّعبيرِ بهِ دونَ الماضي هو التّجدُّدُ كذلكَ[2].

سرُّ التّعبيرِ بحرفِ التّمنّي: ﴿لَوۡلَآ﴾:

تعنّتُ الكافرينَ سببٌ لِتحذيرِ الرّسولِ مِن تركِ التّبليغِ وضيقِ الصّدرِ

جاءَ حرفُ التّمنّي ﴿لَوۡلَآ﴾ في قولِهِ: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾؛ ليفيدَ محبّةَ الكافرينَ لِما اقترحوهُ وطلبَهُم لهُ، ولمّا اقترنَ به الفعلُ الماضي ﴿أُنزِلَ﴾، ﴿جَآءَ﴾ أفادَ التّنديمَ؛ بمعنى: قصدوا تنديمَ رسولِ اللّه والمؤمنينَ على تركِ إنزالِ الكنزِ إليهِ، ومجيءِ المَلَكِ معَهُ، فكأنَّهُم قصدوا لومَهُ على تركِ حصولِ ما اقترحوا، ولومَهُ كذلك على أنَّ المُنزّلَ هو القرآنُ، وأنَّ رسولَ اللّه هو الّذي أُرسِلَ إليهم، فكأنَّهُم قالوا: هلّا أُنزِلَ عليهِ ما اقترحْنا نحنُ مِنَ الكنزِ والملائكةِ، ولَمْ أُنزلَ عليهِ ما لا نريدُهُ ولا نقترحُهُ، فأفادَ هذا القولُ مَبلغَ تعنُّتِ الكافرينَ وقُبحِ قولِهِم وتهاونهم بالقرآنِ وعدم اعتدادِهم به، لِيُؤذنَ بأنَّهُ كانَ سببًا لقولِهِ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾[3]، وذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ

---

(1) ، والواحدي، التّفسير البسيط: 11/362، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/17.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382، والسّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 307، والتّفتازانيّ، المطوّل، ص: 408.

﴿لَوۡلَآ﴾ لِلتّحضيضِ بمعنى: (هلّا)[1]؛ بمعنى تحضيضِ الرّسولِ على أن يُنزَلَ إليه كنزٌ أو يأتي مَعَهُ مَلكٌ.

سرُّ العدولِ عنِ التّعبيرِ بالمُستقبلِ إلى التّعبيرِ بالماضي:

عِظَمُ الرّغبةِ تُخرِجُ المَرغوبَ في صورةِ الموجودِ

عَبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالماضي ﴿أُنزِلَ﴾، والأصلُ أن يُعبَّرَ بالمُستقبلِ: لولا يُنزَلُ... لكنّهُ عَبَّرَ بالماضي كشفًا عن حرصِهم على تحقُّقِ مَرغوبِهِم، فإنّ النّفسَ إذا اشتدَّ تعلّقُها بالشّيءِ تصوَّرَتْه في صورةِ الموجودِ.

دلالةُ مجيءِ الفعلِ ﴿أُنزِلَ﴾ مَبنيًّا لِلمفعولِ:

عنادُ الكافرينَ في تكذيبِ القرآنِ، مع علمِهِم أنّه هو الآيةُ العُظمى

بُنِيَ الفعلُ لِلمفعولِ؛ لأنَّ المقصودَ مُطلَقُ الحصولِ، وكأنَّ المعنى: لِيُنزِلَ عليكَ كنزًا مِنَ السّماءِ أيُّ أحدٍ كانَ، لِيفيدَ تعنّتَهُم في الأمرِ وعنادَهُم في التّكذيبِ، كما أنَّ في قولِهِم هذا إشعارًا بتكذيبِهِم نزولَ القرآنِ وتهاونِهِم فيه، لِعلمِهِم أنّه الآيةُ العُظمى، فَكانوا لا يَعُدُّونَهُ آيةً عِنادًا ومُكابَرةً[2].

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾:

تعظيمُ المالِ الوفيرِ عندَ الكافرينَ أعماهُم عن تعظيمِ القرآنِ

لمّا طلبوا مِن رسولِ اللّه ﷺ أنْ يُنَزَّلَ عليه كنزٌ أو أنْ يأتي معه مَلَكٌ دلَّ على أنَّ لِلكنزِ والمَلَكِ مَحلًّا في قلوبِ أُولَئِكَ وقَدْرًا، وأفادَ أنّهُم لا يقدرونَ القرآنَ المُنَزّلَ قَدرَهُ، ولا وجودَ رسولِ اللّه بينَ أظهرِهِم، فإذا أُنزِلَ عليهِ كنزٌ عظّموهُ وصدَّقوهُ على مَا يدَّعِي[3]، كما أنّ في ذلك بيانًا لأنماطِ فكرِهِم، وفضحًا لها، وأنّهُم يَربطونَ السّيادةَ بالمالِ، وأنّه وحدَهُ سببُ التّعظيمِ، وهذه آفةُ الكافرينَ في كلِّ زمنٍ.

دلالةُ العطفِ في قولِهِ ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾:

آفةُ الاستكبارِ تستبعدُ الجمعَ بينَ الرّسالةِ والبشريّةِ

بَيَّنَ العطفُ دواخلَ نفوسِهِم، وقبحَ تصوّراتِهِم، إذ يدفعُهُم

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/149، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/342، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/17.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/245.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/105.

الاستكبارُ إلى استبعادِ الجمعِ بينَ البشريّةِ والرّسالةِ، والمَلَكُ له محلٌّ عظيمٌ عندَهُم إذا كانَ معهُ عظمّوهُ وصدّقوهُ[1].

بلاغةُ التّعريضِ:

قولُهُ تعالى ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾، وفيه أفادَ اقتراحُهُم تنزيل الكنزِ ومجيء المَلَكِ التّعريضَ بالكافرينَ، وتوبيخَهم، والإيذانَ بضعف عقولِهم؛ إذْ تركوا القرآنَ المنزّلَ، وطلبوا الكنزَ، وما علموا أنَّ القرآنَ أفضلُ مِنَ الكنزِ، وأعرضوا عَن رسولِ اللّه ﷺ، وطلبوا مجيءَ مَلَكٍ مِنَ الملائكة معه شاهدًا على رسالتِه، وجهلوا أنَّ رسولَ اللّه ﷺ أفضلُ مِنَ المَلَكِ، وهذا مِن جَهلِهم بحَقائِقِ الأُمورِ، وتَوَهُّمِهم أنَّ اللّه يَعبأُ بإعراضِهم، ويَتَنازَلُ لإجابَةِ مُقتَرِحِ عِنادِهِم[2]، فأشعرَ الكلامُ أنَّه كانَ ينبغي أن يكتفوا بالوحي المنزَّلِ وبرسولِ اللّه ﷺ، وينتفعوا منهُما.

الغباءُ يودي بصاحبِهِ إلى المَهالِكِ؛ لعدمِ التَّبصُّرِ بالعَواقِبِ

الغرضُ مِن أسلوبِ القصرِ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾:

أفادَ القصرُ هنا قصرَ إفرادٍ بمعنى تخصيصِ الرّسولِ ﷺ بوصفِ النِّذارةِ، وكأنَّه ليسَ له وصفٌ سوى هذا الوصفِ؛ بمعنى إثباتِ وصفِ النِّذارةِ، وانتفاءِ أيِّ وصفٍ آخرَ لهُ ﷺ ليكونَ على طريقِ القصرِ الإضافيِّ، فلا يضرُّ كونُهُ ﷺ بشيرًا، وعَبَّرَ بالأداةِ ﴿إِنَّمَآ﴾ للإشعارِ بأنَّ وَصفَ رسولِ اللّه بالنِّذارةِ جليٌّ وواضحٌ في نفسِ الأمرِ، فلا يحتاجُ إلى تحقيقٍ ودليلٍ[3]، ولمّا كانَ النّبيُّ ﷺ شديدَ الحرصِ على هدايةِ الخَلقِ، وما كانَ مُتمنّاهُ سوى رجوعِ الكافرينَ عنِ الكفرِ، وكانَت شفقتُهُ عليهم، ورغبتُه لَهُم، تجعلُه يتكلَّمُ معَهُم بالنّذارةِ والبشارةِ، أبرزَ ذلك في مَعرِضِ المُتردّدِ بينَ وصفي النّذارةِ والبشارةِ، فَقَصَرَ

بعضُ الكافرينَ لا تنفعُ معَهُمُ البشارةُ، ولا يستحقّونَها، وليسَ لَهُم إلّا النِّذارة

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/105.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/17.
(3) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 295.

وصفَهُ على النِّذارةِ قصرَ إفرادٍ؛ لِيفيدَ أنَّ هؤلاء لا تنفعُ معَهُمُ البشارةُ ولا يَستحقّونها، وليسَ لَهُم إلّا النِّذارة لِمَا يَرتكبونَهُ مِن قبائحِ الأقوالِ والأعمالِ، وأفادَ التّعبيرُ بالأداةِ ﴿إِنَّمَآ﴾ تأكيدَ المعنى وتقريرَهُ، ويحتملُ أن يكونَ القصرُ قصرَ قَلبٍ؛ أي: أنتَ نَذيرٌ لا مُوَكَّلٌ بإيقاعِ الإيمانِ في قُلوبِهِم إذ لَيسَ ذلِكَ إليكَ بَل هو للهِ، كما دلَّ عليهِ قولُهُ قَبلَهُ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾[1].

سرُّ إيثارِ ذكرِ وصفِ النِّذارةِ:

الاقتصارُ على النِّذارةِ لِلمُتعنِّتينَ المُستحقِّينَ لها راحةٌ لِلمُنذِرِ المعصومِ

كانَ الاقتصارُ على النّذيرِ في أقصى غايةٍ مِن إصابةِ المَحزِّ؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ تخويفٍ لِلمُتعنِّتينَ المُكذِّبينَ وترهيبٍ لَهُم مِن أن يُؤذوا رسولَ اللهِ ﷺ، أو أنْ يجعلوا صدرَهُ ضائِقًا، فكيفَ إنْ زادوا على ذلكَ؟، فالمَقامُ يَقتضي الاقتصارَ على النِّذارةِ لأنّهُم أهلٌ لها[2]. كما أنَّه لمّا أفهمَ التّعبيرُ بـ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ الإنكارَ لِما يفتُرُ عنِ الإنذارِ، كانَ كأنَّه قِيلَ لهُ: لا تترُكْ بعضَ ما يُوحَى إليك، ولا يضِقْ صدرُكَ ممّا يَقولون؛ لأنَّ المَقصودَ الأعظمَ مِنَ الرّسالةِ هو النِّذارةُ؛ لأنَّها هي الشّاقَّةُ على النُّفوسِ، وأمّا البشارةُ فكلُّ مَن قامَ يقدرُ على إبلاغِها، فَبلِّغْهُم ما أُرسلتَ به[3].

نكتةُ مجيءِ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾:

صاحبُ الدّعوةِ إلى اللهِ نَذيرٌ لا وَكيلٌ على تَحصيلِ إيمانِ الكافرينَ

لمّا جاءَ قولُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾ إثرَ قولِهِم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ دلَّ على أنَّه جاءَ لردِّ ما قبلَهُ؛ أي: عليكَ أن تنذرَهُم، وليسَ أنْ تأتيَهُم بما يَقترحونَ، فلا عليكَ بما رَدُّوا أو اقترَحُوا، فما بالُكَ يَضيقُ بهِ صدرُكَ، كما أنَّ تصديرَ الجملةِ بـ ﴿إِنَّمَآ﴾ يُفيدُ أنَّها جاءَت في مَوقِعِ العِلّةِ للتَّحذيرِ مِن تَركِهِ بَعضَ ما يُوحَى إليهِ وضِيقِ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/36، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/17.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/129، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/191.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/105.

صَدرِهِ من مَقالَتِهِم، فكأنَّهُ قِيلَ: لا تَترُكْ إبلاغَهُم بَعضَ ما يُوحَى إليكَ ولا يَضِقْ صَدرُكَ مِن مَقالِهِم؛ لأنَّكَ نَذيرٌ لا وَكيلٌ على تَحصيلِ إيمانِهِم، حتَّى يَترَتَّبَ على يَأسِكَ مِن إيمانِهِم تَركُ دَعوَتِهِم[1].

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالكنايةِ:

الأخيارُ إذا ابتُلوا بالأشرارِ قد يُؤذَنُ لَهُم بمفارقتِهِم

قولُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾ جملةُ القصرِ هذه كنايةٌ عنِ البشارةِ بالأمنِ ممّا يُخافُ أنْ يلحقَ رسولَ اللهِ ﷺ من جهةِ الكُفّارِ، كما أنَّ فيها إيذانًا بِلُزومِ التَّبليغ؛ وذلكَ أنَّ الأخيارَ إذا ابتُلوا بالأشرارِ فقد يُؤذَنُ لَهُم بمفارقتِهِم، وتركِ الأمرِ فيهم، فبيَّنَ أنّه ليسَ لهُ ذلك، وعليهِ التَّبليغُ مع ذلك[2].

بلاغةُ التّعريضِ في: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾:

رسولُ اللهِ لا يملكُ الإتيانَ بالخوارقِ بل الأمرُ للهِ أوّلًا وأخيرًا

في جملةِ القَصرِ تَعريضٌ بالمُشرِكينَ بِرَدِّ اعتِقادِهِم أنَّ الرَّسولَ يأتي بما يُسألُ عنهُ مِنَ الخَوارقِ، فإذا لَم يأتِهِم بِهِ جَعَلوا ذَلِكَ سَنَدًا لِتَكذيبِهِم إيَّاهُ رَدًّا حاصِلًا مِن مُستَتبَعاتِ الخِطابِ، كَما تَقَدَّمَ عِندَ قَولِهِ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾، إذْ كَثُرَ في القُرآنِ ذِكرُ نَحوِ هَذِهِ الجُملَةِ في مَقامِ الرَّدِّ على المُشرِكينَ والكافِرينَ الَّذينَ سَألُوا الإتيانَ بِمُعجِزاتٍ على وَفْقِ هَواهُم[3].

بلاغةُ الجملةِ التّذييليّةِ:

التّسليةُ بأنَّ اللّهَ مُطَّلِعٌ على مَكرِ الكافرينَ، وحافظٌ للرّسولِ ولِلمؤمنينَ

قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾، وفيه أنّه لمّا جاءَت جملةُ التّذييلِ على معنى القصرِ الحقيقيِّ بتقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على الخبرِ ﴿وَكِيلٌ﴾؛ أي: اللهُ وحدَهُ على كلِّ شيءٍ وكيل، أفادَ ما أنتَ عليهِم بوكيلٍ على إلجائِهِم إلى الإيمانِ، وفيهِ تعريضٌ بأنّه ليسَ عليكَ أن تتوصّلَ إلى ردِّهِم إلى الإيمانِ بالقهرِ والغلبةِ بل الوكيلُ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/105، والواحديّ، التّفسير الوجيز، ص: 514، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/129، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/17.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/105.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/17.

هو اللّه الفاعِلُ لِما يشاءُ، فهو الّذي يحفَظُ أحوالَك. وجاءَت جملةُ التّذييلِ مَعطوفةً على جملةِ القصرِ الّتي قَصرَت وصفَ الرَّسولِ على النِّذارةِ؛ لِلإشعارِ بالأمرِ بالتَّوكُّلِ على اللّه، وبأنَّهُ تعالى وكيلٌ على قلوبِ المُكذِّبينَ وهُمُ المقصودُ، وإنَّما جاءَ الكلامُ بصيغَةِ العُمومِ لِيَكونَ تذييلًا وإتيانًا لِلغَرَضِ بما هو كالدَّليلِ لِما تَقدَّمَ، ولينتقلَ من العمومِ إلى تسليةِ النَّبيِّ ﷺ بأنَّ اللّه مُطَّلِعٌ على مَكرِ أُولَئِكَ، وأنَّ اللّه عالِمٌ بِبَذلِ النَّبيءِ جُهدَهُ في التَّبليغِ، والمعنى: فتوكَّلْ عليهِ في جميعِ أمورِكَ، فإنّه فاعِلٌ بهم ما يليقُ بحالِهم جزاءَ أقوالِهم وأفعالِهِم، كما أنَّ عمومَ جملةِ التّذييلِ وكُلّيّتَها جعلَها بمثابةِ المَثَلِ في جريانها في الكلامِ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بـ حرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾:

اللّهُ تعالى الّذي يَتولّى أمورَ الخلقِ كلِّها هو الرّقيبُ عليهِم جميعًا

قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ وَكِيلٌ﴾، وفيه لمّا كانَ حرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ لِلاستعلاءِ كان على معنى العُلوِّ، فدَلَّ على تضمينِ لفظِ ﴿وَكِيلٌ﴾ معنى رَقيبٍ ومُطّلِعٍ، فهو المُهيمنُ[2]؛ أي: واللّه مُتولّي الأمورِ كلّها، وهو مُطَّلِعٌ عليها؛ والمعنى: إنّما أنتَ نذيرٌ، واللّه هو الّذي يَتولّى أمورَكَ وأمورَهُم، فهو الرّقيبُ عليكُم، وعلى أعمالِكُم وأقوالِكُم جميعًا.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/129، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/18.

(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 1078.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾ [هود: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مواساة النّبيّ ﷺ في مَواجهةِ الافتراءاتِ، بأنّ القرآنَ دَليل على صدقِهِ

لمّا كانَ القومُ قد طلبوا تركَ بعضِ ما يُوحَى إلى الرّسولِ ﷺ لدعواهم أنّه مُفترًى، وكانوا قد طَلبوا منه المُعجزَ بإنزالِ الكنزِ أو مَجيءِ مَلَكٍ جاءَت هذه الآيةُ، فكانَ كأنَّه قِيلَ ما يطلبونَه منكَ، إنَّما هو على وجهِ التَّعنُّت، وأنَّ المُعجزَ هو ما يُوحَى إليكَ، وهو القرآنُ، ثمَّ أقامَ الدّليلَ على إعجازِه.

وأيضا لَمّا طَلَبَ المشركونَ من رسولِ اللّه ﷺ المُعجزَ، قالَ: مُعجزي هَذا القُرآنُ، ولمّا حَصلَ المُعجزُ الواحِدُ كانَ طَلَبُ الزّيادَةِ بإنزالِ الكنزِ أو مَجيءِ المَلكِ بَغيًا وجهلًا، ثُمَّ أقامَ الحُجّةَ على كَونهُ مُعجِزًا بأنْ تَحَدّاهُم بالمُعارَضةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾: الفَرْيُ: قَطعُ الجلدِ لِلخَرزِ والإصلاحِ، وَمِنَ البابِ: فُلانٌ يَفري الفَرِيَّ، إذا كانَ يَأتي بالعَجَب، كأنَّهُ يَقطَعُ الشَّيءَ قَطعًا عَجَبًا، وأفرَيتُ الثّوبَ، إذا أنتَ قَطَعتَهُ للإفسادِ، ويُستعمَلُ الإفراءُ في الإفسادِ أكثرَ، وكذلكَ استُعمِلَ في القرآنِ كنايةً عن الكذبِ والشّركِ والظّلمِ، وفَرَى الكذبَ وافتراه: اختلقهُ؛ أي: ابتكرَهُ من عندِ نفسِهِ وهيّأَهُ، وسُمّيَ الكذبُ: فريةً وافتراءً؛ لأنَّ المفتريَ يقتطعُ الكلامَ اقتِطاعًا من تلقاءِ نفسِهِ، ويقطعُ، ويفسدُ في عِرْضِ غيرِهِ، ولا يكونُ الافتراءُ إلّا فيما عَظمَ أمرُهُ، وكلُّ ما في القرآنِ من لفظِ الافتراءِ فهو بمعنى اختلاقِ ما لا حقيقةَ له[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/324.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فري)، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فرى)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرئ).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إقامةُ الحجّةِ على إعجازِ القرآنِ، وأنّه مُنزَّلٌ مِنَ اللهِ لا ريبَ فيه

لا يضِقْ صدرُك - يا محمد ﷺ - ممَّا يرميكَ به هؤلاءِ المشركونَ، فإنَّهُم لم يكتفوا بما طلبوهُ منكَ، بل تجاوزوا ذلكَ إلى ما هو أشدُّ جُرمًا، وهو قولُهُم: إنَّك افتريتَ القرآنَ الكريمَ، واخترعتَهُ مِن عندِ نفسِك، قلْ لَهُم: إنْ كانَ الأمرُ كما تزعمونَ فأتوا بعشرِ سورٍ مثل القرآنِ مُفترياتٍ، واستعينوا بمَنِ استطعتُم مِنْ دونِ اللّه إلى المعاونةِ على مُعارضةِ القرآنِ، إنْ كُنتُم صادِقينَ في قولِكُم: افتراهُ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ ﴿أَمْ﴾ المنقطعة:

القولُ بافتراءِ القرآنِ أشنعُ مِن عدمِ الاعتدادِ بهِ، وأدلُّ على عنادِ أهلِ الكفر

الظّاهرُ أنَّ ﴿أَمْ﴾ هنا مُنقطِعةٌ، ولمّا كانَت ﴿أَمْ﴾ المنقطعةُ مُضمّنةً معنى (بَلْ) وهمزةِ الاستفهام، وهي للإضرابِ الانتقاليِّ، وكانَت همزةُ الاستفهامِ فيها للإنكارِ المُضمَّنِ معنى النّهي، والمفيدِ غرضَ التّوبيخِ والاستبعادِ والتّعجيبِ، أفادَتِ انتقالَ الكلامِ بها مِن غرضِ التّوبيخِ والتّعجيبِ مِنِ اقتراحِهُمُ المعجزاتِ إلى غرضٍ آخرَ هو الإنكارُ على قولِهِم: إنَّ الرَّسولَ قدِ افترى القرآنَ، وتوبيخُهُم عليهِ، والتّعجيبُ مِن قولِهِم واستبعادُهُ، ولمّا كانَت ﴿أَمْ﴾ لِلتَّوسُّطِ في الكلامِ دلَّ على أنَّ هذا التّوبيخَ والتَّعجيبَ له علاقةٌ بما قبلَهُ؛ لأنَّهُما في موضوعٍ واحدٍ، فهو استفهامٌ مُعترِضٌ في وسطِ الكلامِ، ولهذا قالَ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾، ولم يقُلْ: (أيقولون افتراه)؛ ولمَّا كانَت ﴿أَمْ﴾ للإضرابِ الانتقاليِّ لِما هو أهمُّ أفادَتِ الانتقالَ لِما هو أشنعُ مِن عدمِ اعتدادِهم بما يُوحَى إلى الرّسولِ ﷺ، وأقبحُ مِنِ اقتراحِهِمُ المعجزاتِ وهو قولُهُم: إنَّه مُفترًى، وليسَ مِن عندِ اللّه[2]، ويُحتمَلُ أن تكونَ ﴿أَمْ﴾

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/259، والواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/567، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/174، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 223.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/383، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/155، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/130، والرّضيّ، شرح كافية ابن الحاجب: 4/416، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/37.

مُتَّصلةً لِتفيدَ عطفَ ما بعدَها على ما قبلَها في المعنى؛ لِيكونَ العطفُ على وجهِ المعادلةِ والمقايَسة، والتّقديرُ: أيكتفونَ بما أوحينا إليكَ مِنَ القرآنِ أو أيقرُّونَ بما أُوحِي إليكَ أنّهُ مِن عندِ اللّه أم يقولونَ افتراهُ؛ لِيفيدَ تمامَ إقامةِ الحُجّةِ عن طريقِ النّظرِ والاستدلالِ[1].

دلالةُ الفعلِ المضارعِ ﴿يَقُولُونَ﴾:

تجدُّدُ القولِ بافتراءِ القرآنِ مع ثباتِ الدّليلِ على بطلانِ هذا الزَّعمِ

أفادَ التّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ استمرارَ قولِهم هذا وتجدُّدَهُ وقتًا فوقتًا، وفيه إشعارٌ بقولهم بأنَّ القرآنَ مُفترًى سيقولُهُ ناسٌ آخرونَ؛ لاقترانِ الكلامِ بالدّليلِ على إبطالِ هذه الفريةِ.

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾:

القولُ بافتراءِ القرآنِ مُكابرةٌ وجَهلٌ بالقرآنِ وبالرّسولِ ﷺ

عُبِّرَ بالافتراءِ دونَ الكذبِ أو الاختلاقِ مثلًا؛ للإشعارِ بتعنُّتِهم ومُكابرتِهم في أنْ نسبوا إلى رسولِ اللّه ﷺ اختلاقَ القرآنِ وتهيئتَهُ مِن عندِه، فالضَّميرُ المُستترُ في ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ عائدٌ إلى النّبيِّ عليه السلام المَذكورِ في قولِه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ [هود: 12]، ولمّا كانَ الافتراءُ لا يكونُ إلّا في أمرٍ مُنكَرٍ عظيمٍ، كانَ كأنَّهُم قصدوا تعظيمَ اللّه تعالى مِن أن يُنسبَ القرآنُ إليه، وكأنَّهم كانوا أكثرَ حرصًا على حدودِ اللّه مِن رسولِه ﷺ، ففيه تعجيبٌ مِن حالِهم وإنكارٌ على جهلِهم.

دلالةُ الضّميرِ البارزِ في: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾:

علمُ الكافرينَ في قرارةِ أنفسِهم بحقّيَّةِ القرآنِ

لمّا كانَ الضّميرُ عائدًا على الاسمِ الموصولِ ﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾، دلَّ على أنَّهم نسبوا القرآنَ إلى الافتراءِ مع علمِهم في قرارةِ أنفسِهم أنَّه قد أُوحِي إليكَ بهِ، لِمَا تفيدُهُ جملةُ الصّلةِ مِن كونِها معلومةَ الانتسابِ إلى مُشارٍ إليهِ عندَ السّامِعينَ[2].

---

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/295، وابن عادل، اللّباب: 10/333، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/37.

(2) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 181.

سرُّ الفصلِ في الجملةِ المُصدَّرة بـ: ﴿قُلۡ﴾:

لا بُدَّ في إثباتِ الدّينِ مِن تقريرِ الدَّلائِلِ بالمحاورةِ والحجاجِ

قولُه: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾، نجدُ أنّه لمّا قالَ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ لم يُعرِضْ عن قولِهم، بل أرخى لهم العنانَ، وأجابَهُم بالقولِ المُضمَّنِ بالحجّةِ، فهو جوابٌ لِكلامِهم، فلذلِكَ فُصِلَتْ على ما هوَ مُستعمَلٌ في المُحاوَرَةِ؛ وفيه إشعارٌ بأنَّه لا بُدَّ في إثباتِ الدّينِ مِن تَقريرِ الدَّلائِلِ والبَراهينِ بالمحاورةِ والحجاجِ؛ وذلِكَ لأنَّهُ تعالى أورَدَ في إثباتِ نُبوَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ هذا الدَّليلَ وهذِهِ الحُجَّةَ، ولولا أنَّ الدّينَ لا يَتِمُّ إلّا بالدّليلِ لم يكُنْ في ذكرِهِ فائِدةٌ[1].

نكتةُ مجيءِ لفظِ ﴿قُلۡ﴾:

تسليةُ الرّسولِ ﷺ وتكريمُهُ وتشريفُهُ بالإجابةِ

لمّا أخبرَ اللّه تعالى عنِ استهزاءِ المشركينَ وتعنُّتِهم لرسولِ اللّه ﷺ، وذكرَ قولَهُ: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ [هود: 12]، أمرَ حبيبَهُ ﷺ أنْ يجيبَهُم تكريمًا له وتشريفًا وتسليةً، كما أنَّ فيه تقريرًا لِما تقدَّمَ مِن أنّهُ يُبلِّغُ ما يُوحَى إليهِ، فيكونُ التّعبيرُ مِن تمامِ الحجّةِ على أنَّ القرآنَ مِن عندِ اللّه، وأنَّ رسولَهُ ﷺ مُبلِّغٌ عَنِ اللّه تعالى.

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَأۡتُواْ﴾:

إذا كانَ الافتِراءُ يأتي بهذا القرآنِ، فما للكافرينَ لا يفترونَ مِثلَهُ!

أفادتِ الفاءُ تعلُّقَها بشرطٍ مُقدَّرٍ لِوقوعِها في الجوابِ، والتّقديرُ: قُلْ إنْ كانَ الأمرُ كما تزعمونَ أو إنْ صحَّ أنّي اختلقتُهُ مِن عندِ نفسي، فأتوا أنتُم بعَشرِ سوَرٍ مِثلِه مُفتَرَياتٍ، فتفيدُ الفاءُ معنى التّعقيبِ والتّرتيبِ، فنكتةُ مجيءِ الفاءِ الإشعارُ بوجودِ الشّرطِ والجزاءِ؛ لإظهارِ إقامةِ الحجَّةِ عليهِم، ولمّا كانَ الشّرطُ على معنى السّببِ لِلجزاءِ أفادَ معنى المُلازَمَةِ بَينهما؛ أي: إذا كانَ الافتراءُ يأتي بهذا القرآنِ، فما لَكُم لا تفترونَ أنتُم مِثلَهُ، فَتَنهَضَ حُجَّتُكُم، فإنْ عَجزتُم دلَّ على بطلانِ الشّرطِ المُقدَّرِ[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/325، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/19.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/347، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/191، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/39، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/21.

بلاغةُ الأمرِ في: ﴿فَأۡتُواْ﴾:

عجزُ المُشركينَ عنِ الإتيانِ بمثلِ القرآنِ عجزٌ لغيرِهِم بطريقِ الأَولى

لّما كانَ قولُ المشركينَ، بأنَّ القرآنَ مُفترىً مِن عندِ رسولِ اللّه ﷺ بمثابةِ نفيِ إعجازِهِ، كانَ قولُهُم كَمَن ادّعَى أنَّ في وسعِهِم فِعلَهُ والإتيانَ بمثلِهِ؛ لأنَّه على وفقِ دَعواهُم هو مِن كلامِ البشرِ، فلمّا ادّعوا أمرًا ليسَ في وسعِهِم كانَ الأمرُ في قولِهِ: ﴿فَأۡتُواْ﴾ على معنى امتناعِ أن يكونَ المطلوبُ بالأمرِ الإتيانَ بعشرِ سورٍ مثلِهِ لعلمِ اللّه بامتناعِهِ منهُم، فتوجَّهَ الأمرُ على مطلوبٍ ممكنِ الحصولِ، وهو بيانُ عجزِهِم؛ لِيكونَ الأمرُ على طريقِ المجازِ، وتولَّدَ منه التَّعجيزُ؛ أي: إظهارُ عجزِهِم، وإفحامُهُم عنِ الإتيانِ بعشرِ سورٍ مُفترياتٍ، وفي تعجيزِهِم بالأمرِ زيادةُ بيانٍ وتثبيتٍ لإعجازِ القرآنِ بطريقِ التّحدّي، فإنَّ كلَّ ظهيرٍ مِن سواهُم دونَهُم في البلاغةِ، فعجزُهُم عَجزٌ لِغيرِهِم بطريقِ الأولى[1].

دلالةُ واوِ الجمعِ في: ﴿فَأۡتُواْ﴾:

الإيذانُ بقوّةِ حُجّةِ القرآنِ في أنّه مُعجِزٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ

لّما جاءَ الأمرُ بصيغةِ الجمعِ دلَّ على أنَّه مُوجَّهٌ إلى جميعِ المُخاطَبينَ الّذينَ قالوا بالافتراءِ، فالخطابُ لا يختصُّ بمعيَّنينَ وقتَ نزولِ القرآنِ؛ لِيتناولَ كلَّ مَن يقولُ بافتراءِ القرآنِ، ويدخل فيه المشركون وقتَ النّزولِ دخولًا أوّليًّا، ونكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ الخطابِ الإيذانُ بقوّةِ حُجّةِ القرآنِ في أنّهُ مِن عندِ اللّه في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

نكتةُ التّعبيرِ بـ﴿فَأۡتُواْ﴾:

التَّحدّي بالإتيانِ بعشرِ سورٍ، سواءٌ كانَ بالاسترفادِ أم بالاختراعِ

لم يقُلْ نحو: (فليقولوا عشرَ سورٍ مثلِهِ مُفترياتٍ)، وعُبِّرَ بالأمرِ بالإتيانِ؛ لأنَّه لّما كانَ الإتيانُ بالشَّيءِ بمعنى جلبِهِ وإحضارِهِ، سواءٌ كانَ بالاسترفادِ مِنَ الغيرِ أم بالاختراعِ مِنَ الجالبِ، أفادَ التَّوسعةَ عليهِم في التَّحدِّي؛ أي: سواءٌ أكانَ الإتيانُ مِن قِبَلِكُم أم مِن جهةٍ أخرى تقومُ مقامَكُم؛ ليُظهِرَ عجزَهُم مِن جميعِ الجهاتِ[2].

(1) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 8/171، والسّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 304، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/249، والسّبكيّ، عروس الأفراح: 1/464.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/19.

سببُ إيثارِ ذكرِ العددِ في: ﴿بِعَشۡرِ سُوَرٖ﴾:

لا فرق في التحدّي بأيّ سُوَرٍ عشرة من القرآن كان

لمّا كانَ القرآنُ على تنوُّعِ سورِه لا يوجدُ فيه اختلافٌ مِن جهةِ المعاني والألفاظِ والإخبارِ عنِ المغيّباتِ والقصصِ والأحكامِ والأخلاقِ وغيرِ ذلك، ولم يكُنْ فيه تناقضٌ، خُصِّصَ العددُ لأمرين: أحدهما لإيثارِ طريقِ القصدِ في العددِ، والثّاني للإيذانِ بأنَّ هذا العددَ ممّا تختلفُ بهِ المعاني؛ وذلكَ لِدفعِ الافتراءِ، ونفيِ التُّهمَةِ، والاحتجاجِ على أنّه مِن عندِ اللّه لا مِن عندِه، يعني: لو كانَ مُفترًى مِن عندي لَوجدتُم فيهِ اختلافًا كثيرًا[1].

دلالةُ الضّميرِ في: ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾:

لمّا كانَ القرآنُ وحيًا مِن عندِ اللهِ اقتضى أنْ لا يكونَ له مِثلٌ ولا نظيرٌ

لمّا عادَ الضّميرُ على الاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ [هود: 12] دلَّ على أنَّ المعنى: فأتوا بعشرِ سورٍ مثلِ الّذي يُوحَى إليكَ مُفترياتٍ، فأفادَ عودُ الضّميرِ تعظيمَ شأنِ القرآنِ، وتقريرَ وصفِهِ؛ بأنَّهُ وحيٌ مِنَ اللّهِ إلى رسولِهِ ﷺ، وفيه إيذانٌ بأنَّ كونَهُ وحيًا مِنَ اللّه يقتضي أنْ لا يكونَ لهُ مثلٌ، فيدلُّ على أنَّ الطّلبَ جاءَ على سبيلِ التّعجيزِ والتّبكيتِ.

مناسبةُ إفرادِ الصِّفةِ في: ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾:

التّوافقُ في المعاني والألفاظِ في سورِ القرآنِ مُوصِلٌ إلى مرتبةِ الإعجازِ

لمّا كانَ مِن شرطِ النّعتِ مُساواتُهُ المنعوتَ في الإفرادِ والجمعِ كانَ الظّاهرُ أن يقولَ: (بعشرِ سورٍ أمثالِه) لتعدُّدِ الموصوفِ؛ لكنْ جاءَ الوصفُ في قولِه: ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ مُفردًا مُراعاةً لِمُقتضَى الحالِ؛ للإيذانِ بأنَّ سورَ القرآنِ كلَّها شيءٌ واحدٌ، فلا اختلافَ في معانيها ولا في بلاغتِها؛ لِيدُلَّ على اعتبارِ أفرادِ المعدودِ واحدًا واحدًا لا باعتبارِ مجموعِ السّورِ العشرِ، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ المفهومَ مِن مجموعِ السّورِ العشرِ؛ أي: أنْ يكونَ المُرادُ هوَ المَجموعَ؛ لأنَّ مَجموعَ السّورِ العَشرَةِ شيءٌ واحِدٌ؛ للإيماءِ إلى أنَّ وجهَ الشّبهِ ومدارَ المماثلةِ في

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/31.

الجميعِ شيءٌ واحدٌ هو التّوافقُ في المعاني والألفاظِ المؤدِّيةِ إلى مرتبةِ الإعجازِ، فكأنّ الجميعَ واحدٌ، أو لأنَّ لفظَ ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ مصدرٌ في الأصلِ، فيُوصَفُ بها المثنى والمجموعُ والمؤنَّثُ، كقولِه تعالى: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ [المؤمنون: 47]، ويجوزُ المطابقةُ كما في قولِه تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٞ ٢٢ كَأَمۡثَٰلِ﴾ [الواقعة: 22 - 23]، وقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمد ﷺ: 38][1].

دلالةُ: ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾:

التّوسُّعُ في التّحدّي؛ لِتقويةِ الحجّةِ وظهورِ عجزِ الكافرينَ عنِ الإتيانِ بمثلِه

أفادَ لفظُ المثلِ أنَّ المرادَ مثلُه في نوعِ إعجازِ القرآنِ، لِما يدُلُّ عليه لفظُ ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ من أنَّ المرادَ وجهٌ من وجوهِ المُماثَلة، وهو هنا النّظمُ والبلاغةُ وحسنُ البيانِ المُتآلِفِ مع المعنى؛ أي: وإنْ لم يكُنْ مثلَه في سردِ المعاني والأحكامِ؛ لأنَّه لمّا قالَ: ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ دلَّ على أنَّ المرادَ مثلُه في البلاغةِ، وإنْ كانَ مُفترًى من عندِ أنفسِكُم، وفيه إشعارٌ بأنَّكم غيرُ مُلزَمينَ بحقائقِ المعاني وصدقِ الأخبارِ؛ لِيكونَ أقوى في إثباتِ الحجَّةِ بعدَ التَّوسُّعِ في التّحدِّي[2].

نكتةُ مجيءِ: ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾:

مُسايرةُ القائِلينَ بالافتراءِ؛ لِتمامِ إظهارِ الحُجّةِ عليهم، فيما يَفترونَ

جاءَ اللَّفظُ على مُقتضَى سؤالِهم، وهو كالقولِ بالمُوجِبِ المذكورِ في علمِ البديعِ؛ ليكونَ أظهرَ في إقامةِ الحجّةِ عليهم، فإنَّهُم لمّا زعموا أنَّ القرآنَ مُفترًى خاطَبَهُم على وَجْهِ التَّبْكِيتِ لَهُم والمقابَلَةِ لِلَفْظِهِمْ فقالَ: ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾؛ لِيُقيمَ عليهم تمامَ الحجَّةِ مِنَ اللّفظِ الّذي وصفوا به القرآنَ، فيكونُ اللّفظُ على معنى المقابلةِ لقولِهم، لا لِتحقيقِ وصفِ القرآنِ بأنَّه مُفترًى، يعني: إنْ كانَ كما تزعمونَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/324، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/130، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/3395، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/2، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/191، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/38.

(2) عبد القاهر الجرجانيّ، الرّسالة الشّافية ضمن دلائل الإعجاز، ص: 606، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/383، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/155، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/248.

مُفترًى، وأنّي اختلقتُهُ مِن نفسي، ولم يوحَ إليَّ كما قلتُم، فأتوا أنتُم بعشرِ سورٍ مثلِهِ مُفترياتٍ، فأنتُم عربٌ فصحاءُ مثلِي لا تعجزونَ عن فَصِيحِ الكَلامِ وبَليغِهِ[1].

براعةُ التّعبيرِ بوصفِ: ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾:

الإشعارُ بأنَّ وجهَ إعجازِ القرآنِ، إنّما هو في بلاغتِهِ ونظمِهِ

في التّعبيرِ بوصفِ ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ إشعارٌ بأنَّ وجهَ إعجازِ القرآنِ هو بلاغتُهُ لا باشتمالِهِ على المغيّباتِ وكثرةِ العلومِ؛ لأنَّهُ لو كانَ وَجهُ الإعجازِ هو كَثرَةَ العُلومِ أوِ الإخبارَ عَنِ الغُيوبِ أو عَدَمَ التَّناقُضِ لم يَكُنْ لِقولِهِ: ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ معنًى، أمّا إذا كانَ وَجهُ الإعجازِ هوَ البلاغة صَحَّ ذلِكَ؛ لأنَّ فصاحةَ الفصيحِ تَظهرُ بالكلامِ، سواءٌ كانَ الكلامُ صِدقًا أو كَذِبًا[2].

بلاغةُ التّعريضِ في: ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾:

ما قالَ المُشركونَ بالافتراءِ إلّا لوقوعِهِ منهُم وتعوّدِهِم عليه خلالَ معاركِهِم مع الحقِّ

في التّعبيرِ بلفظِ ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ تعريضٌ بالكافرينَ بأنّ الافتراءَ إنّما يقعُ مِنهُم لِتعوّدِهِم عليهِ، وفيه إشعارٌ بوقوعِ الافتراءِ منهُم لمّا تقوّلُوا على رسولِ اللّه ﷺ، ونسبوهُ إلى الافتراءِ، وتوبيخٌ لَهُم كذلك، فإنَّه ما دعاهُم إلى الافتراءِ إلّا لِقدرتِهِم عليهِ.

براعةُ تقديمِ وصفِ ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ على ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾:

براعةُ بلاغةِ القرآنِ في تقديمِ المقصودِ بالتّحدّي في السّياقِ البليغِ

أُخِّرَ وصفُ ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ عن قولِهِ: ﴿مِّثْلِهِۦ﴾؛ لأنَّ المماثلةَ هي الصِّفةُ المقصودةُ بالتّكليفِ والتّحدِّي، إذ بها يَظهرُ عجزُهُم وقُعودُهُم عنِ المُعارَضةِ، وأمّا وصفُ الافتراءِ فلا يَتعلَّقُ بِهِ غرضٌ يَدورُ عليهِ شيءٌ في مَقامِ التّحدِّي، وإنّما ذُكِرَ على نهجِ المُساهَلَةِ وإرخاءِ العِنانِ، كما أنَّ في التّقديمِ احتراسًا؛ لأنّه لو عُكِسَ التَّرتيبُ لَرُبَّما تُوُهِّمَ أنَّ المرادَ هو المُماثَلةُ في الافتراءِ، فيكون فيه إثباتُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/383، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/31، والسّبكيّ، عروس الأفراح: 2/278.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/325، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/39.

الافتراءِ لسورِ القرآنِ[1]، فانظرْ إلى لطيفِ بلاغةِ القرآنِ وحسنِ تأليفِه ونظمِه.

دلالةُ الواو في: ﴿وَٱدۡعُواْ﴾:

العجزُ عنِ الإتيانِ بعشرِ سورٍ دليلٌ قاطِعٌ على إعجازِ القرآنِ الخالدِ

أفادتِ الواوُ التَّشريكَ بينَ الجملتين على معنى الجمعِ بينَهما؛ لِتكونَ الجملتانِ مِن مَقولِ القولِ؛ لِيفيدَ العطفُ دعوتَهُم إلى آخرِ مَراتبِ التّحدِّي، بأنْ يَقوموا بالأمرِ بأنفسِهم وفي الوقتِ نفسِه لِيدعوا مَن يعينُهُم فيهِ؛ لِيكونَ فعلُ الآخرين تقويةً لفعلِهم، فالمُرادُ منهُ: تَعليمُ أنَّهُ كيفَ يُمكِنُ الإتيانُ بهذِهِ المُعارَضَةِ لَو كانوا قادِرينَ عليها، وتَقريرُهُ أنَّ الجماعةَ إذا تَعاوَنَت وتَعاضَدَت صارَت تلكَ العُقولُ الكَثيرَةُ كالعَقلِ الواحِدِ، فإذا تَوَجَّهوا نَحوَ شيءٍ واحدٍ، قَدَرَ مَجموعُهُم على ما يَعجَزُ كُلُّ واحِدٍ مِنهُم، فكأنَّ لسان البلاغ يخاطب البشرية: هَبْ أنَّ عَقلَ الواحِدِ والاثنَينِ مِنكم لا يَفي باستِخراجِ مُعارَضَةِ القُرآنِ فاجتَمِعوا، وليُعِنْ بَعضُكم بَعضًا في هذِهِ المُعارَضَةِ، فإذا عَرَفتُم عَجزَكُم حالَةَ الاجتماعِ وحالَةَ الانفرادِ عَن هذهِ المُعارَضةِ، فحينَئِذٍ يَظهَرُ أنَّ تَعَذُّرَ هذهِ المُعارَضةِ إنَّما كانَ لأنَّ قُدرَةَ البَشرِ غَيرُ وافيَةٍ بها، فَحينَئِذٍ يَظهَرُ أنَّ ذلِكَ فِعلُ اللهِ لا فِعلُ البشرِ، ويحتملُ أن يكونَ العطفُ على معنى التّرقِّي في التّحدِّي؛ أي: فأتوا بعشرِ سورٍ مثلِه مُفترياتٍ، فإنْ عجزتُم عنِ الإتيانِ بها مِن تلقاءِ أنفسِكُم، فَلَكُم أن تَدعوا مَن يُعينُكُم ممَّن تَتَوَسَّمونَ فيهِ الاستطاعةَ على ذلكَ.

بلاغةُ التّعريضِ في: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾:

الرَّدُّ على دعوى إعانةِ قومٍ آخرينَ لرسولِ اللهِ ﷺ في الافتراءِ

لمّا قالَ اللّه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ﴾ [الفرقان: 4]، وكانَ نزولُ سورةِ الفرقانِ قبلَ سورةِ هود جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/191.

للتّعريضِ بما قالَهُ الكافرونَ، وللرَّدِّ عليهِم في دعوى إعانةِ قومٍ آخرينَ لرسولِ اللّه ﷺ.

دعاءُ مَن يستطيعُ المعاونةَ أقوى في المؤازرةِ، وأظهرُ في التّحدّي والمواجهةِ

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿وَٱدۡعُواْ﴾:

عُبِّرَ بـ ﴿وَٱدۡعُواْ﴾ على طريقِ الكنايةِ أو المجازِ[1]، والكنايةُ أظهرُ؛ لِما يلزمُ مِن دعاءِ قومٍ إلى أمرٍ عظيمٍ أنْ يستعينوا بهِم، ويَستمدّوا منهُم، ويتَّفقوا معهُم في اختلاقِ السّوَرِ، وعُبِّرَ بـ ﴿وَٱدۡعُواْ﴾ دونَ (واستعينوا) على طريقِ الكنايةِ؛ لأنَّ الدّعاءَ هنا هو نداءُ كلِّ مَن يستطيعُ إعانتَهُم بمَعنَى طَلَبِ حُضورِهِ؛ لِيكونَ أقوى في المؤازرةِ، وفيه كذلك معنى طلبِ استعطافِه وسؤالِه للإتيانِ بالسّورِ المُفترياتِ، ويشمَلُ الدُّعاءُ نداءَ القريبِ والبعيدِ، كما أنَّه يقتضي الاستجابةَ بالقبولِ أو الانتفاءِ، ولهذا أعقبَهُ بقولِه: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾، فتكونُ الكنايةُ هنا على معنى الجمعِ بينَ اللّازمِ والمَلزومِ، ويحتملُ أن يكونَ التّعبيرُ بـ ﴿وَٱدۡعُواْ﴾ على طريقِ المجازِ المُرسَلِ؛ لأنَّ الاستعانةَ تنشأُ عنِ النّداءِ إلى المُعاونةِ[2].

إفحامُ الكافرينَ المُتحامِلينَ بعجزِهِم عنِ الإتيانِ بالمطلوبِ

دلالةُ فعلِ الأمرِ في: ﴿وَٱدۡعُواْ﴾:

الأمرُ هنا للإباحَةِ؛ أي: فَلَكُم أن تَدعوا مَن ترونَ فيهم المَقدِرَةَ على ذلكَ ليُعاوِنوكُم، وفي مجيءِ الأمرِ بمعنى الإباحةِ، إلهابٌ لعزيمةِ الكافرينَ، وإفحامٌ لَهُم بأنَّهُم عاجزينَ عنِ الإتيانِ بالمَطلوبِ.

روعةُ البيانِ في إيجازِ التّركيبِ، ودقّةِ المذكورِ والمُقدَّرِ

الإيجازُ بحذفِ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿وَٱدۡعُواْ﴾:

لمّا كانَ الدّعاءُ لأمرٍ مُعيَّنٍ، وقد دلَّ عليه المقامُ، حُذِفَ مُتَعَلَّقُ الفعلِ، والتّقديرُ: وادعُوا لِذَلِكَ[3]؛ أي: للإتيانِ بعشرِ سورٍ مثلِ القرآنِ مُفترياتٍ، فالحذفُ للإيجازِ.

(1) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/52، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/466.
(2) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/349، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/339: 12/20.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/20.

فائدةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ: ﴿مَن﴾:

تعميمُ الدّعوة لكُلِّ عاقلٍ؛ ليظهرَ إعجازُ القرآنِ بيّنًا جليًّا للجميع

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ ﴿مَن﴾ دونَ (الّذي) في قوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾؛ لأنّه أكثرُ عمومًا وأوفقُ بمَقامِ التّحدِّي بالإتيانِ بعشرِ سورٍ مُفترياتٍ؛ لِدلالتِهِ على العاقلِ في الاستعمالِ الغالبِ، والمعنى: ادعوا كلَّ مَن استطعتُم دعاءَهُ لِيعينَكُم مِن دونِ اللّه، فيدخلُ فيه كلُّ عاقلٍ، ومَن يَعرِفُ العربيّةَ، ومَن لايَعرفُها بأنْ يعينَهُ بطريقةٍ ما؛ لِيظهرَ إعجازُ القرآنِ للجميع.

نكتةُ التّعبيرِ بـ: ﴿ٱسۡتَطَعۡتُم﴾:

عدمُ الاستطاعةِ على خوضِ غمارِ التّحدِّي دليلٌ على العجزِ التّامِّ عن ذلك

عُبِّرَ في الآيةِ بقولِهِ: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾، ولم يقُلْ: (مَن قدرتُم)؛ للفرقِ بينَ الاستطاعةِ والقُدرةِ، فلفظُ الاستطاعةِ يَتضمَّنُ معانيَ مُناسبةً للسّياقِ لا توجدُ في لفظِ القُدرةِ، فيُشعِرُ التّعبيرُ بـ﴿ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ بتهيُّئِهم للإتيانِ بعشرِ سورٍ مُفترياتٍ، بما يَتملكونَهُ من سلامةِ آلةِ الفصاحةِ والبلاغةِ، وأنَّ الأمرَ بِإرادتِهم مِن غيرِ عائقٍ أو مَانعٍ يمنعُهُم، كما أشعرَ اللّفظُ بدعوتِهم إلى الاستعانةِ بمَن يُعينُهُم على الإتيانِ بها، والأخذِ بأسبابِ ما يتوقّفُ عليه فعلُ الاستعانةِ، وبكلِّ مَن أمكنَهُم دعوتُهُ، ولمّا كانَ العجزُ ضدَّ الاستطاعةِ عُبِّرَ بها؛ للتّنبيهِ على أنَّهُم إنْ لم يَستطيعوا فقد عجزوا، وهو المقصودُ مِنَ الكلامِ[1].

بلاغةُ الحذفِ في: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾:

حذفُ المفعولِ هنا أقضى لحقِّ البلاغةِ، وأدلُّ على دقّةِ البيانِ

حذفُ مفعولِ ﴿ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ للإيجازِ في الكلامِ، ولِتقريرِ معنى العمومِ الواردِ في لفظِ ﴿مَن﴾، ولوضوحِ المعنى مِنَ السّياقِ، فالتّقديرُ: (وادعوا مَن استطعتُم دعاءَهُ مِن دونِ اللّه)، ولو ذُكِرَ المفعولُ لكانَ الكلامُ غثًّا، وكانَ شيئًا يَمجُّهُ السّمعُ، وتَعافُهُ النّفسُ، بَلْ مِنَ البلاغةِ أن يُجاءَ بِهِ كذلك مَحذوفًا[2].

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 108 - 109.

(2) عبد القاهر الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 164.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّـهِ﴾:

لمّا كانَ لفظُ ﴿دُونِ﴾ يُستعمَلُ لأقربِ مكانٍ إلى ما يُضافُ إليهِ استُعملَ على طريقِ المجازِ بمعنى أسفل مَرتبة؛ للإيذانِ بأنَّ المضافَ إليهِ أعلى مَرتبةً، ولمّا كانتِ الرُّتَبُ كلُّها تحتَ رتبتِهِ تعالى، والنّاسُ مُقرِّونَ بذلكَ قالَ: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: المَلِكِ الأعلى[1]، فإذا كانَ كلُّ ما سوى اللّه تحتَ رتبتِهِ سبحانَهُ دلَّ على أنَّ كتابَ اللّه أعلى رُتبةً مِن جميعِ الكُتُبِ.

كتابُ اللهِ أعلى رتبةً مِن جميعِ الكتبِ، وقد ظهرَ إعجازُهُ في بديعِ نظمِهِ

دلالةُ حرفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾:

لمّا كانَ ﴿مِّن﴾ حرفَ ابتداءٍ دلَّ على إدخالِ كُلِّ مَن سوى اللّه تعالى؛ والمعنى: ادعوا مَنِ استطعتُم دعاءَهُ، وليبتدئْ دعاؤُكُم مِن أيِّ عاقلٍ يعينُكُم دونَ اللّه؛ لِيفيدَ تحقيقَ معنى الإحاطةِ والعمومِ لكلِّ مَن هو دونَ اللّه[2].

تحقيقُ معنى الإحاطةِ والعمومِ في دعاءِ كلِّ مَن هو دونَ اللهِ للتّحدّي

براعةُ مجيءِ الوصفِ في: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّـهِ﴾:

ذُكِرَ هذا الوَصفُ لِلتّذكيرِ بأنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ اللّه، وأنَّهُم أنكروا أن يكونَ مِن عندِ اللّه، فلمّا عَمَّمَ لَهُم في الاستعانةِ بِمَن استطاعوا، أكَّدَ أنَّ مَن يدعونَهُم دونَ اللّه تعالى في الرّتبةِ والعلمِ والقُدرةِ، فإنْ عَجَزوا عنِ الإتيانِ بعشرِ سورٍ مِثلِهِ - مَعَ تمكُّنِهِم مِنَ الاستعانةِ بكُلِّ مَن عدا اللّه - تبيَّنَ أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ اللّه تعالى[3].

إبرازُ ملامحِ الإعجازِ الّتي تطالُ كلَّ المخلوقاتِ، وتؤكِّدُ صدقَ الآياتِ

إيثارُ التّعبيرِ باسمِ الجلالةِ: ﴿ٱللَّـهِ﴾:

أُوثِرَ التَّعبيرُ باسمِ الجلالةِ في قولِهِ: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دونَ لفظِ (الرّحمن) أو غيرِهِ؛ لأنَّ الاسمَ الجليلَ (اللّه) علمٌ على الذّاتِ العليَّةِ، لا يُسمَّى به غيرُهُ، قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا

اسمُ الجلالةِ خاصٌّ به سبحانَهُ، وهو جامعٌ لكلِّ أسمائِهِ وصفاتِهِ الحسنى

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/249.

(2) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 780.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/20 - 21.

﴿بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: 65]، وهو جامعٌ لكلِّ صفاتِه؛ دالٌّ على العظمةِ، وكلِّ معاني الألوهيَّة؛ ولذا ذَكَرَ لفظَ الجلالةِ الّذي يُربِّي المهابةَ، وخشيتُهُ سبحانَهُ في النُّفوسِ؛ لأنَّه المعبودُ وحدَهُ.

مناسبةُ التّعبيرِ بأداةِ الشّرطِ ﴿إِن﴾:

استحالةُ صدقِ الكافرينَ في قولِهم بالافتراءِ؛ لأنّ الدّلائلَ عكسُ ذلك

قولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، وفيه إيرادُ كلمةِ الشّكِّ الدّالَّةِ هنا على استحالةِ الوقوعِ للإيذانِ بأنَّ صدقَهُم في مَقامِ الاستحالةِ، ومجيءُ الكلامِ بأسلوبِ الشّرطِ إلهابٌ لعَزيمةِ الكافرينَ الطّاعنينَ في القرآنِ؛ ليَأتوا بعشرِ سورٍ مِثلِهِ مُفترياتٍ؛ لِيَكونَ عدَمُ إتيانِهم بمثلِهِ حُجَّةً على كَذِبِهم.

دلالةُ حذفِ المُتعلَّقِ في: ﴿صَٰدِقِينَ﴾:

مَنْ يُكذِّبُ الرّسولَ الأمينَ والقرآنَ المبينَ، فليسَ مِنَ الصّادقينَ

المُرادُ إنْ كُنتُم صادِقينَ في ادِّعاءِ كَونِهِ مُفترًى، أو إنْ كنتُم صَادقينَ في ادّعاءِ أنّي افتريتُهُ، وجاءَ هذا التّقديرُ لِقولِهِ بدايةَ الآيةِ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾، ونكتةُ حذفِ المُتعلَّقِ هي إنكارُ اتّصافِهِم بصفةِ الصّدقِ على وجهِ المبالغةِ؛ للإشعارِ بأنَّ مَن يُكذِّبُ رسولَ اللّٰه ﷺ فقد انتفى عنهُ وصفُ الصّدقِ، ويدخلُ فيه كذبُهُم في الادّعاءِ المذكورِ دخولًا أوّليًّا، وعُلِّقَ الإتيانُ على كونِهِم صادِقينَ في ادّعائِهِم؛ لأنَّ ذلك يَستلزِمُ إمكانَ الإتيانِ بمثلِهِ، وهو أيضا يَستلزِمُ قدرتَهُم عليه، فلمّا لم يأتوا بعشرِ سورٍ مثلِهِ دلَّ على كذبِهِم وعجزِهِم، ففيه توبيخٌ لهم وتبكيتٌ.

سرُّ حذفِ جوابِ الشّرطِ:

تأكيدُ عجزِ الكافرينَ عنِ الإتيانِ بعشرِ سورٍ مُفترياتٍ

لمّا كانَ جوابُ الشَّرطِ محذوفًا، وقد دلَّ عليه المذكورُ قبلُ[1]، كانَ التّقديرُ: إنْ كنتُم صادِقينَ فأتوا بعشرِ سورٍ مثلِهِ مُفترياتٍ، وادعوا مَن

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/223.

استطعتُم مِن دونِ الله، فالكلامُ بمثابةِ المكرَّرِ لتأكيدِ عجزِهم عنِ الإتيانِ بعشرِ سورٍ مثلِه، ووجهُ الملازَمةِ بينَ الشَّرطِ وجَزائه؛ أنَّه إذا كانَ الافتراءُ يأتي بهذا القرآنِ؛ فما لَكُم لا تفترون أنتُم مِثلَهُ، فتَنهَضَ حُجَّتُكم(1).

توجيهُ المُتشابِهِ اللّفظيِّ:

التَّــدرُّجُ في التَّحدِّي على سبيلِ التَّهكُّمِ بهم، مُتنزِّلًا معهم إلى الأخفِّ فالأخفِّ

قالَ اللّه تعالى في سورةِ هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وقالَ في سورةِ البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: 23]، وقالَ في سورةِ يونس: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: 38]، وتوجيهُ هذه الآياتِ هو أنَّه في سورةِ هود لمّا قالوا: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ قابلَ قولَهُم بـ ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾، فلمّا وسَّعَ عليهِم بأن سمحَ لَهُم بأنْ يأتوا بالكلامِ المُفترَى ناسبَهُ التّوسعةُ في العددِ المطلوبِ، فقالَ: ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾؛ لأنَّ الكلامَ المُفترَى أسهلُ، فناسبَتهُ التّوسعةُ، فهذه غايةُ التّوسعةِ، وليسَ المعنى: عَارِضوا عشرَ سوَرٍ بعشرٍ، أمّا الواردُ فى سورةِ البقرةِ وفي سورةِ يونس فلم يذكُرْ لَهُم فيها أنْ يكونَ مُفترًى، بل السّابقُ مِنَ الآيتينِ المماثَلةُ مُطلقًا، فذلك أصعبُ وأشقُّ عليهِم معَ عجزِهم في كلِّ حالٍ، فوَقَعَ الطّلبُ حيث التَّضييقُ بسورةٍ واحدةٍ، وحيثُ التَّوسعةُ بعشرِ سورٍ، ففيه مُناسبةٌ جليلةٌ واضِحةٌ، ويؤيّدُ هذا النَّظرَ أنَّ التَّكليفَ في آيةِ البقرة إنَّما هو بسببِ الرَّيبِ؛ لقولِه تعالى ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: 23]، ولا يُزيلُ الرَّيبَ إلّا العِلمُ بأنَّهُم لا يَقدِرونَ على المُماثَلَةِ التّامَّةِ، وفي آيةِ سورةِ هود إنَّما التَّكليفُ بسببِ قولِهم ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾، فَكُلِّفوا نحوَ ما قالُوا(2).

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/192، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/21.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/155، والغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/27.

توجيهُ الفرقِ بيَن ﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾، و﴿مِّثۡلِهِۦ﴾:

"تنزَّلَ معَهم في هذه المرتبةِ مِن طلبِ المُماثِلِ إلى طلبِ شيءٍ ممَّا يماثِلُ، كأنَّه يقولُ: لا أكلّفُكم بالمماثلةِ العامَّةِ، بل حسبُكم أن تأتوا بشيءٍ فيه جنسُ المماثلةِ ومُطلقُها، وبما يكونُ مثلًا على التّقريبِ لا على التّحديدِ، وهذا أقصى ما يمكنُ مِنَ التَّنزُّلِ؛ ولذا كانَ هو آخرَ صيغِ التَّحدِّي نزولًا، فلم يجئِ التّحدِّي بلفظِ ﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: 23] إلّا في سورةِ البقرةِ المدنيَّةِ، وسائر المَراتبِ بلفظِ ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ [يونس: 38] في السّورِ الّتي نزلَت قبلَ ذلكَ بمكّةَ"[1].

أقصى ما يتنزّلُ إليـهِ معَـهُـم مِـنَ الـتّـحـدِّي، هـو طـلـبُ شيءٍ ممّا يماثِلُ على سبيلِ التّقريبِ

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافتراءُ والكذبُ والبهتانُ:

الافتراءُ أخصُّ مِنَ الكذبِ؛ لأنَّ الكذبَ في حقِّ الآخرِ بما لا يرتضيه، بخلافِ الكذبِ، فإنَّه قد يكونُ في حقِّ المُتكلّمِ نفسِه، ولذا يُقالُ لِمَن قالَ: (فعلتُ كذا، ولَم أفعلْ كذا) مع عدمِ صدقِهِ في ذلك: هو كاذبٌ، ولا يُقالُ: هو مُفترٍ، وكذا مَن مَدحَ أحدًا بما ليسَ فيه، يُقالُ: إنَّه كاذبٌ في وصفِه، ولا يُقالُ: هو مُفترٍ؛ لأنَّ في ذلكَ ممّا يرتضيهِ المَقولُ فيه غالبًا، ولا يُستعمَلُ الافتراءُ إلّا فيما بَهَتَ به المرءُ وكابرَ، وجاءَ بأمرٍ عظيمٍ منكَرٍ، فالافتراءُ أعظمُ مِنَ الكذبِ، ومِنَ الفروقِ بينَهُما أنَّ مُتعَلَّقَ الافتراءِ القولُ، ومُتَعَلَّقَ الكذبِ الفعلُ، فمَن قالَ: (قالَ زيدٌ كذا)، ولم يكُنْ قالَهُ فهو افتراءٌ، وإنْ قالَ: (قامَ زيدٌ)، ولم يقُمْ فهو كَذِبٌ، وأيضًا قد يحسنُ الكذبُ على بعضِ الوجوهِ، كالكذبِ في الحربِ، وإصلاحِ ذاتِ البينِ، بخلافِ الافتراءِ، فهو مذمومٌ دائمًا، والفرقُ بينَ الافتراءِ والبهتانِ أنَّ البهتانَ يكونُ بحضرَةِ المَقولِ فيهِ؛ أي: يُواجَهُ به صاحبُهُ على وجهِ المُكابرةِ بخلافِ الافتراءِ فإنَّه يكونُ بغيبتِهِ[2].

الافـتراءُ أخصُّ؛ فـهـو الـقـولُ في حقِّ الآخرِ بما لا يرتضيه

---

(1) دراز، النّبأ العظيم: هامش (1)، ص: 84.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/155، والبسيليّ، نكت وتنبيهات: 2/227، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 450.

﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤﴾ [هود: 14]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العجز عن معارضةِ القرآنِ أو قليلٍ منهُ، دليلٌ على أنَّه مُنزَّلٌ بعلمِ اللهِ؛ لإقناعِ مَن يُسلمُ

لمّا دعاهُم إلى مُعارضةِ عشرِ سورٍ مُفترياتٍ؛ ليكونَ حُجّةً عليهم، قرّرَ في هذه الآيةِ هَذا الاحتِجاجَ مِن أنَّ العَجزَ عَنِ المُعارَضةِ دليلٌ على أنَّ القرآنَ مِنَ العِلمِ الإلَهيِّ؛ فقال: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾(1).

وأيضًا لمّا قالَ اللّه تعالى: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ [هود: 13] فرَّعَ عليهِ هذه الآيةَ؛ ليكونَ أثبتَ في قيامِ الحجّةِ عليهم؛ أي: فإنْ لم يَستَجِبْ لكُم مَن تَدعوهُم، فأنتُم أعجَزُ مِنهُم؛ لأنَّكُم ما تَدعونَهُم إلّا حينَ تَشعُرونَ بعَجزِكُم دونَ مُعاوِنٍ، فلا جَرَمَ يكونُ عَجزُ هَؤلاءِ مُوقِعًا في يَأسِ الدّاعِينَ مِنَ الإتيانِ بعَشرِ سُوَرٍ(2).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

العلمُ بأنَّ القرآنَ مِن عندِ اللهِ يقتضي العلمَ بوحدانيّتِهِ تعالى والإسلامَ له

فإنْ لم يستجِبْ لكُم - أيُّها المشركونَ - مَن تدعونَ مِن دونِ اللّه إلى أنْ يأتوا بعشرِ سوَرٍ مثلِ هذا القرآنِ مُفترياتٍ، ولم تطيقوا أنتُم وهُم أنْ تأتوا بذلكَ، فاعلموا وأيقنوا أنَّه إنّما أُنزِلَ القرآنُ بعلمِ اللّه وإذنِهِ، وأنَّ محمَّدًا لم يفترِهِ، ولا يقدرُ أنْ يفتريَهُ، وأيقنوا أيضًا أنْ لا مَعبودَ يستحقُّ الألوهيَّةَ على الخلقِ إلّا اللّه، فهل أنتُم مُنقادونَ للّه، مُخلِصونَ لهُ في العبادةِ(3).

ويحتملُ المعنى: فإنْ لم يستجبْ هؤلاء المشركونَ لكُم - أيّها

(1) رضا، تفسير المنار: 12/39.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/21.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/261، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/155.

الرّسولُ ومَن آمنَ معَكَ - لِما تدعونَهُم إليه؛ لِعَجزِ الجميعِ عن ذلكَ، ازدادوا علمًا ويقينًا أنَّ هذا القرآنَ إنَّما أنزلَهُ اللّه على رسولِه بعلمِه، وليسَ مِن قولِ البشرِ، وازدادوا يقينًا أنْ لا إلهَ يُعبَدُ بحقٍّ إلّا اللّه، فهل أنتُم ثابتونَ على إسلامِكُم، مُلتزِمون فيه(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ﴾:

عدمُ الاستجابةِ للبلاغِ، لا يثني الدّاعيةَ عنِ اليقينِ بنصرِ اللهِ، عاجلًا أو آجلًا

جاءتِ الفاءُ لِلتّفريعِ على الطَّلبِ في قولِه: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾؛ للإشعارِ بأنَّ المُخاطَبَ ينتظرُ ما يحصلُ بعدَ أنْ يدعوا مَنِ استطاعوا أنْ يعينَهُم مِن دونِ اللّه.

دلالةُ الشّرطِ في: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾:

التّهكُّمُ بمَن يدّعي الافتراءَ؛ لِسخافةِ عقلِه، وعظيمِ جهلِه

تصديرُ الشَّرطِ بكلمةِ الشَّكِّ ﴿فَإِلَّمۡ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ حقَّ استجابتِهِم أن يكونَ ضعيفًا مَشكوكَ الوقوعِ، وإيرادُ كلمةِ الشَّكِّ مع الجزمِ بعدمِ الاستجابةِ مِن جهةِ مَن يدعونَهُ؛ إمّا أن يكونَ تهكُّمًا بهم وتسجيلًا عليهِم بكمالِ سخافةِ العقلِ، وإمّا أنْ يكونَ بناءً على حسبِ ظنِّهِم، فإنَّ العجزَ قبلَ التَّدبُّرِ في بلاغتِه لم يكُنْ مُحقَّقًا عندَهُم(2).

دلالةُ النّفي بـ الأداةِ ﴿فَإِلَّمۡ﴾:

القطعُ باستمرارِ مُعارضةِ القرآنِ، وأنّ نفيَ الاستجابةِ هو حالُ الكافرينَ

أفادَ التّعبيرُ بأداةِ النّفي (لم) في قولِه تعالى: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ أنَّ نفيَ استجابتِهم مَقطوعٌ بها، ولمّا سبقَ حرفُ النّفي (إنْ) الشّرطيّة الدّالّ على المستقبلِ دلَّ على استمرارِ نفيِ استجابتِهم في الماضي والحالِ والمُستقبلِ على سبيلِ القطعِ؛ لِيفيدَ عدمَ قدرتِهم على المعارضةِ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/262، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/156، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 223.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/192، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/40، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/223.

مناسبةُ الاكتفاءِ بنفيِ الاستجابةِ:

الاكتفاءُ بنفيِ الاستجابةِ إيذانٌ بالعجزِ عنِ المعارضةِ

لمّا قالَ تعالى: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وكانَ الأمرُ يقتضي التّفريعَ باحتمالِ الاستجابةِ وعدمِها، كانَ الاكتفاءُ بنفيِ استجابتِهم إيذانًا بعجزِ كلِّ مَن يدعونَهُم إلى المعاونةِ عنِ الإتيانِ بعشرِ سُورٍ مُفترياتٍ؛ أي: لا يحصُلُ سوى انتفاءِ الاستجابةِ، ففيهِ إشارةٌ إلى الإخبارِ بالغيبِ عنِ المُستقبلِ.

نكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ﴾:

تحقُّقُ إعجازِ القرآنِ، وظهورُ التّحدِّي على كمالِهِ

عُبِّرَ عنِ الفعلِ بنفيِ الاستجابةِ؛ إذ الظّاهرُ أن يقولَ (فإنْ لم تَفعلوا) كما في سورةِ البقرةِ - على القولِ بأنَّ الخطابَ للرّسولِ ﷺ - إيماءً إلى أنّه ﷺ كانَ على كمالِ أمنٍ مِن أمرِه، وأنَّ أمرَهُ لَهُم بالإتيانِ بمثلِه دعاءٌ لَهُم إلى أمرٍ يريدُ وقوعَه؛ ليتحقَّقَ إعجازُ القرآنِ، ويظهرَ التّحدِّي على كمالِه[1].

دلالةُ الخطابِ في: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ﴾:

حقُّ المؤمنينَ أنْ لا ينفكّوا عن نصرةِ رسولِ اللهِ ودينِه

لَمّا اشتملَتِ الآيَةُ المُتَقَدِّمَةُ على خِطابَينِ: أحدُهُما: خِطابُ الكُفّارِ، وهو قَولُهُ: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والثّاني: خِطابُ الرَّسولِ المُصدَّرُ بلفظِ ﴿قُلۡ﴾، وهو قولُهُ: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ فلمّا أتبعَهُ بقولِه: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ احتَمَلَ أن يَكونَ المُرادُ أنَّ الكُفّارَ لَم يَستَجيبوا في المُعارَضةِ لِتَعَذُّرِها عليهِم، واحتَمَلَ أنَّ مَن يَدعونَهُ مِن دونِ اللّه لم يَستجيبوا، فلهذا السَّببِ اختلفَ المُفسِّرونَ على قولَينِ في توجيهِ الخطابِ في الآيةِ: فيحتملُ الخطابُ في ﴿لَكُمۡ﴾ أن يكونَ خطابَ النّبيِّ ﷺ للكفّارِ، فيكونُ مِن تمامِ مَقولِ ﴿قُلۡ﴾، وضميرُ (الواو) في ﴿يَسۡتَجِيبُواْ﴾ يعودُ إلى الاسمِ الموصولِ في ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾؛ أي: فإنْ لم يستجبْ مَن تدعونَهُ مِن دونِ اللّهِ إلى المعاونةِ على المُعارَضةِ ولا قَدرَ جميعُكُم

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/40.

عليها، فأذعنوا حينئذٍ، واعلموا أنَّه مِن عندِ اللّه، واعلموا عندَ ذلكَ أنْ لا إلهَ إلّا اللّه وحدَهُ، وذهبَ إلى هذا التّوجيهِ الطّبريُّ وابنُ عطيّة وأبو حيّان وغيرُهُم، ويحتملُ الخطابُ في ﴿لَكُمۡ﴾ أن يكونَ خطابَ اللّه تعالى للرّسولِ ومَن معَهُ مِنَ المؤمنينَ، والواو في ﴿يَسۡتَجِيبُواْ﴾ يعودُ إلى المُشركينَ، والتّقديرُ: فإنْ لَم يَستجيبوا لكَ ولِلمؤمنينَ؛ لأنّ رسولَ اللّه ﷺ والمؤمنين كانوا يَتحدّونَهُم، ففي صيغةِ الجمعِ إدخالٌ للمؤمنين؛ لِيكونوا مع الرّسولِ في التّحدِّي، وفيه تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ حقَّ المؤمنينَ أنْ لا ينفكّوا عنهُ ﷺ، وأنْ يُناصِبوا معهُ لمعارضةِ المُعارِضينَ، كما كانوا يفعلونَهُ في الجهادِ، وفيه إرشادٌ إلى أنَّ التّحدِّيَ ممّا يُوجِبُ رسوخَ إيمانِهم وقوّةَ يقينِهم فلا يَغفلونَ عنهُ، ولذلك رُتِّبَ عليه قولُهُ ﷻ: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ كما سيأتي، أو أن يكونَ خطابَ اللّه تعالى لرسولِ اللّه ﷺ دونَ المؤمنينَ، ويكونَ الجمعُ لتعظيمِ رسولِ اللّه ﷺ، واختارَ هذا الوجهَ الزّمخشريُّ وغيرُهُ[1].

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بـ ﴿يَسۡتَجِيبُواْ﴾:

الاستجابةُ تحصيلُ المطلوبِ، فهي أقوى وأعمُّ مِنَ الإجابةِ

آثرَ التّعبيرَ بالاستجابةِ على الإجابةِ، إذ لم يقُلْ: (فإنْ لم يُجيبوكم)؛ لأنّ الاستجابةَ خاصّةٌ بتحصيلِ المطلوبِ، والإجابةَ بمعنى إعطاءِ الجوابِ، فتعمُّ الجوابَ بتحصيلِهِ أو دونِهِ[2]؛ فالمعنى: فإنْ لَم يستجيبوا بأنْ لم يحصِّلوا المطلوبَ بالإتيانِ بعشرِ سورٍ مُفترياتٍ.

سببُ إيثارِ حذفِ مُتعلّقِ الفعلِ ﴿يَسۡتَجِيبُواْ﴾:

الإيجازُ ودلالةُ السّياقِ من بيانِ الدّلالةِ في الآيةِ

قد يُقالُ ما الشّيءُ الّذي لم يَستجيبوا فيه؟ وجوابُهُ التّقدير: (فإنْ لم يَستَجيبوا لَكُم في الإتيانِ بعشرِ سورٍ مثلِ القرآنِ مُفترياتٍ)، وحَذَفَ هذا المُتعلَّقَ للإيجازِ بما دلَّ عليه السّياقُ، وفيهِ إشعارٌ بأنَّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/261، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/442، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/383، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/156، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/325، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/130، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/131.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/40.

عدمَ الاستجابةِ ديدنُهُم وعادتُهُم، فليسَ الأمرُ مُختصًّا في المعارضةِ بالقرآنِ وتحدِّيهِم فيهِ.

توجيهُ المُتشابِهِ بين آيتي: سورة هود، والقَصص:

تحويلُ المُخاطَبةِ مِنَ الإفرادِ إلى الجمعِ تعظيمًا وتفخيمًا، ومُخاطَبةُ الرّسولِ في سورةِ القصصِ

جاءَ الضّميرُ في هذه الآيةِ بصيغةِ الجمعِ فقالَ تعالى: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾، وفي سورةِ القَصص قالَ تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ﴾ [القصص: 50] جاءَ مُفردًا، ووجهُ جمعِ الخِطابِ هاهنا في قولِه: ﴿لَكُمۡ﴾، وتوحيدِهِ في القَصَص في قولِهِ: ﴿لَكَ﴾، أنَّ ما في هذه السّورةِ خِطابٌ للرَّسولِ وللمؤمنينَ، ويجوزُ أنْ يكونَ الجمعُ لتَعظيمِ رسولِ اللّه ﷺ، وقيلَ: لأنَّه خِطابٌ لِلكفّارِ، والفعلُ يَعودُ لـ ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾، وأمّا ما في القَصصِ فهو خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، والفِعلُ للكفّارِ، فناسبَ وضعُ كلِّ ضميرٍ سياقَهُ[1].

بلاغةُ الالتفاتِ في: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

تقويةُ المعنى في نفوسِ المُخاطَبين، وتهديدُهُم بمغبّةِ الافتراءِ

إنْ كانَ الخطابُ لِلكفّارِ في قوله: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ فيكونُ الكلامُ على طريقِ الالتفاتِ إلى الخطابِ مِنَ الغيبةِ، والأصلُ: (فليَعلموا)؛ لِيناسبَ ما جاءَ في سياقِهِ في قولِهِ: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾، وفائدةُ الالتفاتِ تقويةُ المعنى في نفوسِ المُخاطَبينَ وتقريرُهُ؛ لمجيئِهِ في صيغةِ الخطابِ، كما أنَّ فيه إيماءً إلى تهديدِهِم إنِ استمرّوا على قولِهِم بالافتراءِ.

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

ترتُّبُ حصولِ العلمِ بتوحيدِ اللهِ على العجزِ عن معارضةِ القرآنِ

أفادَتِ الفاءُ الواقعةُ في جوابِ الشّرطِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ التَّرتُّبَ والسّببيّةَ، بمعنى يترتَّبُ على نفيِ الاستجابةِ على المعاونةِ وعدمِ قدرتِهِم على الإنزالِ وظهورِ عجزِهِم وجوبُ حصولِ العلمِ بأنَّ القرآنَ أُنزِلَ بعلمِ اللّه، والعلمُ بأنَّه لا إلهَ إلّا هو.

---

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 143.

الكناية والمجاز المُرسَل في ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

إنْ كانَ المرادُ مِنَ العلم حقيقتَهُ، فيكونُ كنايةً عنِ الإيمانِ والتّصديقِ، فإنَّ الإيمانَ يتبعُ العلمَ، وهو لازمٌ لهُ، والمعنى: طَلَبُ علمِهم وطَلَبُ الإيمانِ بالقرآنِ وبتوحيدِ اللّه تعالى؛ لِما يَترتَّبُ على العلمِ بعجزِهم عنِ الإتيانِ بعشرِ سورٍ مثلِهِ مُفتريات مِنَ الإيمانِ بالقرآنِ وبالتّوحيدِ، فتكونُ الكنايةُ هنا على إرادةِ المعنيين معًا، وعُبِّرَ به دونَ أن يقولَ: (فآمنوا)؛ للإشعارِ بأنَّ الإيمانَ مَبنيٌّ على العلمِ، ويحتملُ أن يكونَ ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ على طريقِ المجازِ المُرسَلِ، فإنَّ العلمَ العمليَّ إذا أُمِرَ بهِ لم يُرَدْ منهُ العلمُ المجرَّدُ؛ لأنَّه مَقصودٌ بالعرض، والمقصودُ بالذّاتِ هو الإيمانُ، بقرينةِ السّياقِ، والعلاقةُ هي اللُّزومُ؛ بمعنى: ذَكرَ الملزومَ وأرادَ اللّازمَ، فالمرادُ هو العلمُ الّذي يَلزَمُ منه الإيمانُ، وإنْ كانَ المرادُ مِنَ العلمِ مجازَهُ، فيكون كنايةً عنِ الثّباتِ على علمِهم؛ أي: اثبتوا على علمِكُم، بأنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ بعلمِ اللّه، واثبتوا على التّوحيدِ، أو ازدادوا علمًا إلى علمِكُم، وازدادوا يقينًا في توحيدِ اللّه، وعُبِّرَ بهِ للإيذانِ بأنَّ ما عداهُ مِن مَراتِبِ العلمِ ليسَ بعلمٍ، لكنْ لا للإشعارِ بانحطاطِ تلكَ المَراتبِ بل بارتفاعِ هذه المَرتَبةِ[1].

الإيمانُ باللهِ يتبعُ العلمَ، وهو لازمٌ له، لا ينفكُّ عنه ولا ينفصمُ

دلالةُ ﴿أَنَّمَآ﴾:

﴿أَنَّمَآ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ تفيدُ الحصرَ، بمعنى: ما أُنزلَ إلّا مُلتَبسًا بعلمِهِ تعالى لا بعلمِ غيرِه[2]؛ أي: حَصْرَ أحوالِ القرآنِ في حالِ إنزالِهِ بأنَّه مُلتَبسٌ بعلمِ اللّه، وفائدةُ التّعبيرِ بـ ﴿أَنَّمَآ﴾ هو أنَّه لمّا زَعَمَ الكفّارُ أنَّ القرآنَ مُفترًى، ونسبوهُ

تعظيمُ شأنِ القرآنِ عِلمًا وعَملًا؛ لِنزولِهِ بعلمِ اللهِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/383، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/131، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/192.

(2) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/137، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/223، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/21.

إلى رسولِ اللّه ﷺ جاءَ بـ ﴿أَنَّمَآ﴾ لِيرُدَّ عليهم قولَهُم[1]، وينفيَ افتراءَه، ويثبتَ إنزالَهُ بعلمِ اللّه، ونفيَهُ عن علمِ غيرِهِ سبحانَهُ، فالأداةُ تفيدُ قصرَ القلبِ.

مناسبةُ بناء الفعلِ ﴿أُنزِلَ﴾ لما لم يسمَّ فاعله:

القرآن أعرفُ المعارفِ

قولُهُ: ﴿أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾، جاءَ الفعلُ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ لِمناسبتِهِ للفعلِ في قولِهِ: ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾، إذ أُعيدَ إليه الضَّميرُ في قولِهِ: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾، ولأنَّ المقصودَ بالنَّظرِ هو المُنزَّلُ، وهو القرآن الكريم.

دلالةُ الباءِ في: ﴿بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾:

نزلَ القرآنُ وكلُّ معانيهِ ومبانيهِ بعلمِ اللهِ

الباءُ هنا لِلمُلابسةِ؛ بمعنى: أنَّه ما أُنزِلَ إلّا مُلتَبِسًا بعلمِ اللّه؛ للإيذانِ بأنَّ القرآنَ نزلَ محفوظًا بعلمِ اللّه، وأنَّ معانيهِ ومبانيهِ هي بعلمِهِ تعالى، فإذا كانَ مُلتَبِسًا بعلمِهِ على معنى حصرِ القلبِ، فمعناهُ: لا يعلمُ حقيقةَ العِلمِ به إلّا هو؛ للإشعارِ بعظمِ مزايا القرآنِ الّتي بها يقعُ الإعجازُ والتَّحدِّي[2].

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾:

الاستدلالُ على حقّيَّةِ القرآنِ، بأنَّه أُنزِلَ بعلمِ اللهِ

ليسَ المرادُ بهذه الجملةِ مُجرَّدَ الإخبارِ بأنَّه أنزلَهُ، وأنَّه مَعلومٌ لهُ، كما يعلمُ سائرَ الأشياءِ، فإنَّ كلَّ شيءٍ معلومٌ له سبحانَهُ من حقٍّ وباطلٍ، وإنَّما المعنى: إنزالُهُ مُلتبَسًا بعلمِهِ سبحانَهُ، فإذا كانَ إنزالُهُ مُشتمِلًا على علمِهِ فيكون آيةَ كونِهِ من عندِهِ، ففيه كنايةٌ بذكرِ الملزومِ وإرادةِ اللّازمِ؛ أي: فإذا كانَ من عندِهِ فإنَّهُ حقٌّ وصدقٌ، وليسَ مُفترًى[3].

سببُ إيثارِ التّعبير بـ: ﴿بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾:

كلُّ ما في القرآنِ مِن ألفاظٍ، هو مُتّصِلٌ بعلمِ اللهِ وحكمتِهِ

لم يقُلْ: (أنّما أُنزِلَ بقدرةِ اللّه) بل قال: ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/353.
(2) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/138.
(3) ابن القيّم، التّفسير القيّم، ص: 200.

لِمَا يُشعِرُ به الكلامُ مِن أنَّه لا يقدرُ أحدٌ على إنزالِ القرآنِ غيرُ اللّه تعالى، فلمّا قيَّدَ الإنزالَ بعلم اللّه أفادَ أنّ نفيَ العلم بالشّيءِ يَستلزمُ نفيَ القدرةِ؛ لأنَّه لا يقدرُ أحدٌ على ما لا يعلمُ، فأفادَ إثباتَ إنزالِه بعلم اللّه ونفيِه عن غيرِه سبحانَهُ أنّه أُنزِلَ بعلم اللّه، وأنَّه لا يقدرُ أحدٌ عليه سوى اللّه تعالى؛ لظهورِ عجزِهم وعجزِ مَن استعانوا به[1]، والظّاهرُ أنَّ سببَ تقييدِ الإنزالِ بالعلم هو تقريرُ التّحدِّي بالقرآنِ وإثباتُ إعجازِه؛ لأنَّ فيه إيذانًا بأنَّ ما في القرآنِ من بديعِ النّظمِ وسرِّ المعاني لا يستطيعُ أحدٌ أن يأتيَ بمثلِه؛ لأنَّ كلَّ ما فيهِ من ألفاظٍ مُفردةٍ ومنظومةٍ ومعانٍ مَرسومةٍ مُلتَبِسٌ بعلمِ اللّه، فالقرآنُ قائِمٌ على علم اللّه في نظمِه ومعانيه.

دقّةُ اختيارِ اللّفظةِ؛ لِلتّعريضِ بقولِ الكافرينَ، والتّنديدِ بافترائِهِم المشينِ

بلاغةُ التّعريضِ بـ ﴿بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾:

لم يقُلْ: (مِنْ عندِ اللّه)؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ تعريضٌ بقولِهم: (افْتَرَاهُ)؛ أي: هو بعلمِ اللّه، ولم يفترِه على اللّه، وفيه إشارةٌ إلى علمِهِ بقولِهِم الّذي قالوهُ، ففيهِ توبيخٌ وتهديدٌ لَهُم، مع دلالتِهِ على أنّه مِن عندِ اللّه[2].

ثبوتُ حقّيّةِ القرآنِ، يدلُّ على ثبوتِ نبوّةِ النّبيِّ ﷺ

مناسبةُ العطفِ:

في قولِه: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أفادَ العطفُ بالواو أنَّ العلمَ؛ بأنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ بعلمِ اللّه، سببٌ للعلمِ بتوحيدِ اللّه والإيمانِ به؛ لاشتمالِ القرآنِ على معاني الإيمانِ، ولِما يتضمّنُهُ من كونِه مُعجِزًا في بلاغتِهِ ونظمِه، فلمّا ثَبَتَ كونُ القرآنِ حقًّا ثَبَتَ كونُ مُحَمَّدٍ ﷺ صادِقًا في دَعوَى الرِّسالةِ، ولمّا ثَبَتَ كونُهُ مُحقًّا في دَعوى الرّسالةِ ثَبَتَ قولُهُ: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، وأيضًا لأنَّهُم إذا عَجَزوا عن الإتيانِ بعشرِ سورٍ مثلِهِ مُفترياتٍ، هُم ومَن استنصروهُم، فقد ظَهَرَ أنَّ مَن

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/42، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/223.
(2) البسيليّ، نكت وتنبيهات: 2/229.

استَنصَروهُم مِن آلهتِهم وغيرِهم لا يَستَطيعونَ نَصرَهُم، فَثَبَتَ انتفاءُ الإلهيَّةِ عن سوى اللّه تعالى، فيكونُ العطفُ مِن عطفِ المُسبَّبِ على السّببِ، أو المعلولِ على العلَّةِ[1]، وذهبَ البسيليُّ إلى أنَّ ذِكرَ المعطوفِ ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ جاءَ على سبيلِ الاحتراسِ والتّكميلِ؛ لأنّهُ إذا لم يكُنْ إلهٌ غيرُهُ تعيّنَ كونُهُ مِن عندِه، إذْ لا يلزمُ مِن إنزالِه بعلمِه كونُهُ مِن عندِه إلّا بعدَ ثبوتِ الوحدانيّةِ[2].

بلاغةُ التّعبيرِ في جملةِ توحيدِ الألوهيّةِ:

العـجـزُ عن معارضةِ القرآنِ يُوجِبُ العلمَ بتوحيدِ اللهِ، وتركِ الإصرارِ على الكفرِ

يجري قولُهُ: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ مَجرَى التَّهديدِ، كأنَّهُ قِيلَ: لَمّا ثَبَتَ بهذا الدَّليلِ كَونُ محمَّدٍ ﷺ صادِقًا في دَعوَى الرِّسالةِ، وعَلِمتُم أنَّهُ لا إلهَ إلّا اللّه، فكونوا خائِفينَ مِن قَهرِه وعذابِه، واترُكوا الإصرارَ على الكُفرِ، واقبَلوا الإسلامَ، كما أنَّ فيه إيذانًا بأنَّ مِن خصائِصِ الإلَه أنْ يَعلَمَ ما لا يَعلَمُهُ غيرُهُ، وأنْ يَعجِزَ كُلُّ مَن عَداهُ عَن مِثلِ ما يَقدِرُ هوَ عليه، كما ظَهَرَ بهذا التَّحدِّي عَجزُكُم وعَجزُ آلِهَتِكُم وغَيرِهِم عَنِ الإتيانِ بِعشرِ سورٍ مثلِه مُفترياتٍ[3].

دلالةُ ﴿وَأَن﴾ في جملةِ التّوحيدِ بصفةِ الألوهيّةِ:

تعظيمُ شأنِ اللهِ، وتبريزُ مَظهَرِ ألوهيّتِهِ

﴿وَأَن﴾ هي المخفَّفةُ مِنَ الثّقيلةِ فيكونُ اسمُها ضميرَ الشّأنِ محذوفًا؛ لِيفيدَ الكلامُ تعظيمَ شأنِ خبرِ ﴿وَأَن﴾.

دلالةُ الفاءِ في مَطلَعِ جملةِ الاستفهامِ:

تنبيهُ الكافرينَ على قيامِ مُوجِبِ الإسلامِ بظهورِ الحجّةِ

قولُهُ: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾، أفادَتِ الفاءُ معنى التّرتُّبِ والسّببيّةِ، فإذا كانَ الخطابُ للكافرينَ فتفيدُ الفاءُ تنبيهَهُم على قيامِ مُوجِبِ إسلامِهم بتقريرِ الحجّةِ وزوالِ العذرِ بما ادّعوهُ مِنَ الافتراءِ؛ أي: فهل أنتُم داخلونَ في الإسلامِ بعدَ قيامِ الحجّةِ، وإذا كانَ الخطابُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/326، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/42، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/21.

(2) البسيليّ، نكت وتنبيهات: 2/229.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/327، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/40.

للرّسولِ ﷺ والمؤمنين معه فتكونُ الفاءُ جوابَ شرطٍ مُقدَّرٍ، تقديرُهُ: إذا تحقَّقَ إعجازُهُ عندَكُم، فهل أنتُم ثابتونَ على الإسلامِ راسِخونَ فيه مُخلِصونَ[1].

بلاغةُ الاستفهامِ في: ﴿فَهَلۡ﴾:

اجتماعُ التّرغيبِ والتّرهيبِ والتّنبيهِ في أسلوبِ الاستفهامِ

إنْ كانَ الخطابُ للكافرينَ فيكونُ الاستفهامُ على معنى الطّلبِ المُضمَّنِ معنى التّحريضِ على الدّخولِ في الإسلامِ، والحثِّ عليه بدونِ تأخيرٍ، بأبلغِ عبارةٍ، فيدخُلُ فيه الإذعانُ لكونِ القرآنِ من عِندِ اللّه تعالى دخولًا أوّليًّا، أو يكونُ الاستفهامُ على معنى طلبِ الانقيادِ إلى الحقِّ الّذي هو كونُ القرآنِ من عِندِ اللّه تعالى، وتاركون لما كنتُم فيه مِنَ المُكابرةِ والعِنادِ، وفيهِ تهديدٌ لَهُم إنْ لم يُسلموا، وفيه كذلك تنبيهٌ لَهُم على قيامِ مُوجِبِ إسلامِهم بتقريرِ الحُجّةِ وزوالِ العذرِ بما ادّعوهُ مِنَ الافتراءِ، وإقناطٌ من أن يُجيرَهُم آلهتُهُم من بأسِ اللّه، فَجَمَعَ الاستفهامُ هنا بينَ التّرغيبِ والتّرهيبِ والتَّنبيه، وإنْ كانَ الخطابُ لِلمُسلمينَ فيكونُ الاستفهامُ على معنى تقريرِ ما هُم عليه مِنَ الإسلامِ والانقيادِ وطلبِ الزّيادةِ فيه لِتحقُّقِ إعجازِ القرآنِ عندَهُم[2].

دلالةُ الجملةِ الاسميّةِ:

انقطاعُ معارضتهم للقرآنِ، أكسبَ اليَقينَ بصحّةِ الإسلامِ

لمّا كانَتِ الجملةُ الاسميَّةُ دالَّةً على ثبوتِ مَضمونِها، ودوامِه، وتقريرِ المعنى، وتأكيدِه، عُبِّرَ بها هنا، ولَم يَقُلْ: (فَهَل تُسلِمونَ)؛ لأنَّ حالَةَ عدمِ الاستِجابَةِ لمعارضةِ القرآنِ تُكسِبُ اليَقينَ بصِحَّةِ الإسلامِ، فَتقتَضي تَمكُّنَهُ مِنَ النُّفوسِ، وذلِكَ التَّمَكُّنُ تدُلُّ عليه الجملةُ الاسميّةُ[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/261، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/130، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/43.

(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/567، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/155 - 156، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/327، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/131، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/250، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/193.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/22.

الإســـلامُ هو الانقيادُ لأمرِ اللهِ

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿مُّسۡلِمُونَ﴾:

عُبِّرَ بلفظِ ﴿مُّسۡلِمُونَ﴾ دونَ أن يقولَ: (فهل أنتُم مُؤمنونَ) مثلًا؛ لأنَّه إنْ كانَ الخطابُ لِلمشركينَ فيكونُ على معنى طلبِ دخولِهم في الإسلامِ؛ بمعنى: فهل أنتُم داخلونَ في الإسلامِ، كما أنَّهم لمّا نسبوا إلى رسولِ اللّه صلَّى اللّه عليه سلَّم افتراءَ القرآنِ كانَ عملُهُم على سبيلِ المُكابرةِ والعِنادِ، فناسبَ أن يخاطبَهُم بلفظٍ يدُلُّ على الانقيادِ لِلحقِّ وتركِ المُكابرةِ، فقالَ: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾، وإنْ كانَ الخطابُ لِلمُسلمينَ فيكونُ على معنى التّرقيةِ في الانقيادِ لأمرِ اللّه والثّباتِ عليهِ؛ لِيكونَ في مُقابلةِ مُكابرةِ المُشركينَ وعنادِهِم.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ١٥﴾ [هود: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كشف ما وراء تكذيب الكفرة للنّبيّ الأكرم ﷺ

لمّا كانَ الكُفّارُ يُنازِعونَ رسولَ اللّه ﷺ في القرآنِ، وينسبونَهُ إلى الافتراءِ، فكانوا يُظهِرونَ من أنفُسِهم أنَّ رسولَ اللّه مُبطِلٌ، ونَحنُ مُحِقّونَ، وإنّما نُبالِغُ في مُنازَعتِه لتحقيقِ الحَقِّ وإبطالِ الباطِلِ، وليسَ لغرضٍ في الحياةِ الدّنيا، كذَّبَهُم في هذه الآيةِ، وبيَّنَ أنَّ غرضَهُم هو حرصُهُم على الحياةِ الدّنيا وزينتِها[1].

وأيضًا لمّا جاءَ في الآياتِ السّابقةِ الحثُّ على الثّباتِ على الإسلامِ والدّخولُ فيه والوعيدُ على التّقاعسِ عنهُ ما مِن حَقِّ السّامعِ أن يُبادِرَ إليه، وكانَ حقُّ المسلمِ الإعراضَ عنِ الدّنيا لسوءِ عاقبتِها، وكانَ أعظمُ الموانعِ لِلمُشركينَ مِنَ التّصديقِ بالقرآنِ استيلاءَ أحوالِ الدّنيا عليهِم، جاءَت هذه الآيةُ لبيانِ سببِ التّقاعُسِ والمانعِ مِنَ الرّضوخِ لِلحَقِّ[2].

وأيضًا لمّا أقامَتِ الآياتُ السّابقةُ الحُجَّةَ على أنَّ القرآنَ من عندِ اللّه تعالى جاءَت هذه الآيةُ؛ لبيانِ أنَّهم إنْ كانوا طالبِينَ الحَقَّ والفوزَ فقدِ استَتَبَّ لَهُم ما يَقتَضي تَمَكُّنَ الإسلامِ من نُفوسِهم، وإنْ كانوا إنَّما يَطلُبونَ الكِبرياءَ والسّيادَةَ في الدُّنيا، ويأنَفونَ من أنْ يكونوا تَبَعًا لِغيرِهم، فَهُم مُريدونَ الدُّنيا، فلذلكَ حُذِّروا من أن يَغتَرُّوا بالمَتاعِ العاجِلِ، وأُعلِموا بأنَّ وراءَ ذلكَ العذابَ الدّائِمَ، وأنَّهُم على الباطِلِ[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/327.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/251.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/22.

وأيضًا بَعدَ أنْ قامَتِ الحُجَّةُ القَطعيَّةُ على إعجازِ القرآنِ، وحَقّيَّةِ دعوةِ الإسلامِ، بما يَقطَعُ ألسِنَةَ المُفتَرينَ، ويُبطِلُ مَعاذيرَهُم، بَيَّنَ لَهُم في هاتينِ الآيتينِ الصّارِفَ النَّفسيَّ لَهُم عَنهُ، وكَونَهُ شَرًّا لَهُم لا خَيرًا، وهو أنَّهُ لا حظَّ لَهُم مِن حَياتِهِم إلّا شَهَواتُ الدُّنيا وزينَتُها[1].

ونكاتُ المناسباتِ لا تتزاحمُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَزِينَتَهَا﴾: يدُلُّ لفظُ (زين) على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِهِ. فالزَّينُ نَقيضُ الشَّينِ، والزّينةُ تحسينُ الشّيءِ ظاهرًا بغيرِهِ مِن لبسةٍ أو حليةٍ أو هيئةٍ، فالزّينةُ زيادةٌ ظاهرةٌ تتعَلَّقُ بظاهرِ الشّيءِ، ومنه زَينُ الدّيكِ عرفُهُ، وزينةُ الأرضِ النّباتُ، ثمَّ عُمِّمَ اللَّفظُ في كلِّ ما يُستَحلَى، ومعنى ﴿وَزِينَتَهَا﴾ الزّينةُ الدّنيويّةُ مِنَ المالِ والقصورِ والقوّةِ والجاهِ وغيرِها[2].

2) ﴿نُوَفِّ﴾: الوافي: الّذي بلغَ التّمامَ والإكمالَ، ويدورُ المعنى المحوريُّ للكلمةِ على نموٍّ أو زيادةٍ يبلغُ بها الشّيءُ تمامَ قوامِهِ، ويُقالُ: كيلٌ وافٍ؛ أي: تمَّ، ومنه: أوفَيتُ الكيلَ والوزنَ بمعنى مَلَأْتَهُ إلى التّمامِ، وتَوَفَّيتُ الشَّيءَ واستَوفَيتُهُ إذا أخذتَهُ كُلَّهُ حتَّى لم تَترُكْ مِنهُ شيئًا، ومعنى ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾ في الآيةِ نُؤتِهِم ثوابَ أعمالِهِم فيها كاملًا[3].

3) ﴿يُبۡخَسُونَ﴾: البخسُ هو النّقصُ القليلُ الطّفيفُ على سبيلِ الظّلمِ، ومنه: بَخسُ الكيلِ والميزانِ: نقصُهُ، وثَمَنٌ بَخسٌ؛ أي: ناقصٌ، ومعنى ﴿لَا يُبۡخَسُونَ﴾ لا يُنقَصونَ شيئًا مِن جَزائِهِمُ الدُّنيَويِّ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَنْ كانَ يُريدُ الحَياةَ الدُّنيا ومَتاعَها بما يعملُ مِن أعمالِ الخيرِ والإحسانِ نُوصِّلُ إليهِم

(1) رضا، تفسير المنار: 12/41.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (زين).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وفى)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 202.

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بخس)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 202.

جزاءَ أعمالِهِم في الدّنيا مِنَ الصّحّةِ والرّئاسةِ وسعةِ الرّزقِ وكثرةِ الأولادِ، وهُم فيها لا يُنْقَصون شيئًا مِن أجورِهِم[1].

مَن أحسنَ القيامَ بالأسبابِ أعطَتهُ، بسننِ اللهِ في الكونِ، ما يرتجيه

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغِيُّ:

دلالةُ الشّرطِ بـ ﴿مَن﴾:

أفادَ لفظُ ﴿مَن﴾ العمومَ؛ ليتناولَ كلَّ مَن يريدُ زينةَ الحياةِ الدّنيا، ولمّا كانَ السّياقُ في بيانِ أوصافِ الكافرينَ وأحوالِهِم دخلَ فيه عمومُ الكافرينَ ومنافقيهم دخولًا أوّليًّا، ويؤيّدُه حصرُهُم في الآيةِ التّاليةِ في الكينونةِ في النّارِ، في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾، ولمجيءِ الآيةِ على طريقِ الاستئنافِ يدخلُ أهلُ الرّياءِ في الطّاعاتِ في لفظِ العمومِ، ويكونُ المرادُ مِن سَوقِها التّغليظَ في الوعيدِ لِلمُرائين، فيحملُ كلٌّ فريقٍ منها ما يقتضيه الوصفُ والجزاءُ، ويكونُ معنى الحصرِ في الآيةِ التّاليةِ في حَقِّ المُرائينَ: ليسَ يجبُ لَهُم، ولا يَحِقُّ لَهُم إلّا النّارُ، فإنْ عفا اللهُ عنهم فبفضلِهِ ورحمتِهِ[2].

الكافرونَ والمنافقونَ أكثرُ النّاسِ حرصًا على الحياةِ الدّنيا، وزينتِها الفانيةِ

دلالةُ التّركيبِ: ﴿كَانَ يُرِيدُ﴾:

أفادَ هذا التّركيبُ استمرارَ إرادتِهِم الحياةَ الدّنيا وزينتَها وتجدُّدَها منهُم، وكأنَّه ليسَ لَهُم شأنٌ سوى فيما وصفَهُم بِهِ، فإدخالُ ﴿كَانَ﴾ على الفعلِ ﴿يُرِيدُ﴾ دلَّ على استمرارِ إرادتِها منهُم، بحيثُ لا يكادونَ يريدونَ الآخرةَ أصلًا[3].

إفادةُ تركيبِ (كانَ يفعلُ) استمرارَ الفعلِ والمداومةَ عليه

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿يُرِيدُ﴾:

عُبِّرَ بلفظِ ﴿يُرِيدُ﴾ للإشعارِ بأنَّ المرادَ مَنْ سعى إلى الحياةِ الدّنيا، مُتوجِّهًا إليها، قاصدًا إيّاها، ومَن توجَّهَ إلى أمرٍ مالَ عن

مَن توجَّهَ إلى الحياةِ الدّنيا قاصدًا إيّاها مالَ عنِ الآخرةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/262، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/130.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/156، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/328، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/362، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/132.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/193.

مقابلِه، فلمّا كانَتِ الآخرةُ في مُقابلِ الحياةِ الدّنيا كانَ المعنى: مَن كانَ يريدُ الحياةَ الدّنيا، بحيث يكونُ مُتوجِّهًا إليها، راغبًا فيها، مَائلًا عن إرادةِ الآخرة.

المذمومُ هو إرادةُ الحياةِ الدّنيا فقط، وتركُ إرادةِ الآخرة

بلاغةُ تقييدِ فعلِ الشّرطِ في مَقامِ الخطابِ:

لمّا جاءَ فعلُ الشّرطِ في المقامِ الخطابيِّ لا البرهانيِّ أفادَ اقتِصارَ الفاعلِ على ذلكَ الفعلِ، فالمَعنَى: مَن كانَ يُريدُ الحياةَ الدُّنيا وزينتَها فقط؛ أي: تكونُ إرادتُهُ مقصورةً على حُبِّ الدّنيا وزينتِها، بِقَرينَةِ قَولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾، إذ حُصِرَ أمرُهُم في استِحقاقِ النّارِ، وهو مَعنَى الخُلودِ(1).

الحياةُ الدّنيا زخرفٌ زائلٌ، لا يدومُ بها الحالُ

نكتةُ ذكرِ: ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾:

لم يقُلْ: (مَن كانَ يريدُ الدّنيا)؛ للإشارةِ إلى أنَّهم يريدونَ التَّمتُّعَ في الحياةِ الدّنيا، كما أنَّ عطفَ ﴿وَزِينَتَهَا﴾ يقتضي ذكرَ الحياةِ؛ لِعودِ الضّميرِ في ﴿وَزِينَتَهَا﴾ إلى ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾.

تحذيرُ المسلمينَ مِنَ الركونِ إلى الدّنيا وزينتِها، وتركِ العملِ للآخرةِ ونعيمِها

مناسبةُ العطفِ في: ﴿وَزِينَتَهَا﴾:

عَطفُ ﴿وَزِينَتَهَا﴾ على ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ يفيدُ أنَّ إرادةَ الحياةِ الدّنيا بطولِ العمرِ والتَّعلُّقِ بالحياةِ غيرُ إرادةِ زينتِها والتَّعلُّقِ بها، فهما أمرانِ مُتغايرانِ، وأنَّ المعطوفَ عليه سببٌ لحصولِ المعطوفِ، وفي العطفِ إشعارٌ بأنَّ ما كانوا يَختلقونَهُ مِن افتراءِ القرآنِ إنّما كانَ بسببِ إرادتِهم الحياةَ الدّنيا وزينتَها وتعلُّقِهم بها، كما أنَّه لمّا جاءَ في سياقِ الآياتِ طلبُهُم أن يُنزَّلَ إلى رسولِ اللهِ كنزٌ دلَّ على تعظيمِهم للمالِ الّذي هو مِن زينةِ الحياةِ الدّنيا ورغبتِهم فيه، وأفادَ العطفُ تقريرَ أنَّ المرادَ مِن إرادةِ الحياةِ الدّنيا هو التَّمتُّعُ بِلَذّاتِها وطَيِّباتِها، والانتِفاعُ بخَيراتِها وشَهَواتِها، والرّكونُ إليها،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/327، وابن عادل، اللّباب: 10/451، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/23.

وفيه تحذيرٌ لِلمسلمينَ مِن إرادتِهم لها على جهةِ الاقتصارِ عليها، وتوجُّهِ قصدِهم إليها.

فائدةُ الإضافةِ في: ﴿وَزِينَتَهَا﴾:

لمّا أضافَ الزِّينةَ إلى الضّميرِ العائدِ إلى الحياةِ الدّنيا، وكانَتِ الإضافةُ على معنى التّخصيصِ، دلَّ على أنَّ الزّينةَ المذمومةَ هنا هي المخصَّصةُ بالحياةِ الدّنيا على معنى توجُّهِ الإنسانِ إليها وتعلُّقِه بها فقط دونَ الآخرةِ.

الزّينةُ المذمومةُ هي المخصَّصةُ بالدّنيا دونَ الآخرةِ

دلالة التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿نُوَفِّ﴾ في جزاءِ الشّرطِ:

كانَ الظّاهرُ أن يقولَ: (وفّينا)؛ لأنَّه لمّا جاءَ فعلُ الشّرطِ ماضيًا ناسبَهُ أن يكونَ فعلُ الجزاءِ ماضيًا كذلكَ[1]، لكنّه قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾ فلمّا عَدَلَ إلى المضارعِ دلَّ على أنَّ اللّه تعالى يُوفِّي إليهم أعمالَهُم في الدّنيا شيئًا شيئًا إلى أن يُتمِّمَ جزاءَ أعمالِ برِّهم وإحسانِهم فيها.

مَن يُتقِنْ عملَهُ في الدّنيا يأخُذْ ثمرةَ عملِهِ فيها

فائدةُ التّعبيرِ بصيغةِ ﴿نُوَفِّ﴾:

أشعرَ التّعبيرُ بنونِ العظمةِ أنَّ توفيةَ ثوابِ الأعمالِ بفضلِ اللّه ومنَّتِه، وبما يليقُ بعظمتِهِ سبحانَهُ ومشيئتِهِ، وليسَ واجبًا عليه، فهو المَلِكُ الأعلى.

تعظيمُ شأنِ اللهِ بتوفيتِهِ سبحانَهُ الكافرَ حقَّهُ في الدّنيا

بلاغةُ التَّضمينِ في: ﴿نُوَفِّ﴾:

لّما كانَ الفعلُ ﴿نُوَفِّ﴾ مُتعدِّيًا إلى مَفعولين كانَ الظّاهرُ أن يقولَ: (نوفِّهِم أعمالَهُم)، ولكنْ عُدِلَ إلى ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾؛ فتعدّى الفعلُ بـ ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ لتضمينِ الفعلِ معنى (نُوَصِّلُ أو نُبلِغُ)؛ لِيفيدَ التّعبيرُ بالفعلِ ﴿نُوَفِّ﴾ معنى تمامِ الجزاءِ على أعمالِهم وإيصالِهِ إليهم، وفيه إشعارٌ بأنَّ ثوابَ أعمالِهم قد يصلُ إليهم، وهُم لا يعلمونَ أنَّ ما يَصِلُهُم ممّا يَتمتّعونَ بِهِ في الحياةِ الدّنيا هو

مَن أجادَ عملًا في الدّنيا أخذَ حظًّا فيه، سواء أكانَ مُؤمِنًا أم كافرًا

(1) الكرمانيّ، غرائب التّفاسير: 1/499.

جزاءُ أعمالِهم، وهذِهِ التَّوفيَةُ مُتَفاوِتَةٌ، والقَدرُ المُشتَرك فيها بَينَهُم هو خَلُوُّهُم مِن كُلَفِ الإيمانِ ومَصاعِبِ القيامِ بالحَقِّ والصَّبرِ على عِصيانِ الهَوَى، فكأنَّهُ قِيلَ نَترُكُهُم وشَأنَهُم في ذلكَ، وفي هذا المعنى جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨﴾ [الإسراء: 18]، كما يحتملُ أن يكونَ الفعلُ ﴿نُوَفِّ﴾ قد جاءَ على طريقِ المجازِ بذكرِ التّوفيةِ وإرادةِ الإيصالِ؛ ليكونَ على سبيلِ المجازِ اللّغويِّ، والمآلُ في المعنى واحدٌ[1].

فائدةُ مجيءِ الفعلِ بنونِ الجمعِ ﴿نُوَفِّ﴾:

توفيةُ جميعِ ثوابِ الكافرينَ تعظيمٌ لشأنِ عدلِ اللهِ

عُبِّرَ بنونِ الجمعِ للتّعظيمِ؛ بمعنى قدرةِ اللّٰه المَلِكِ الأعظمِ على توفيةِ جميعِ ثوابِ أعمالِهم مِن غيرِ أن ينقصَ منها شيءٌ، ومجيءُ فعلِ التّوفيةِ الّذي بمعنى تمامِ الجزاءِ يناسبُ تعظيمَ ما شأنُهُ التّعظيمُ.

فائدةُ تقديمِ ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾:

إتمامُ توفيةِ أعمالِ برِّ الكافرينَ، قبلَ انقضاءِ آجالِهِم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ: ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ على المفعولِ بهِ: ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾؛ للإشعارِ باستعجالِ تمامِ التّوفيةِ إليهم قبلَ انقضاءِ آجالِهِم.

بلاغةُ الحذفِ في: ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾:

مَن عملَ لدارِ الزّوالِ زالَت أعمالُهُ بزوالِها

لمّا كانَتِ الأعمالُ لا تُوفَّى دلَّ على أنَّ المعنى (جزاءُ أعمالِهم)، فيكونُ مِنَ المجازِ بالحذفِ، أو يكونُ قد ذكرَ الأعمالَ، وأرادَ ثمراتِها على سبيلِ المجازِ المُرسَلِ[2]، وعُبِّرَ بطريقِ المجازِ للإيذانِ بتوفيةِ جزاءِ جميعِ أعمالِهم، وللإشعارِ بأنّه كأنَّ أعمالَهُم رُدَّت عليهم، ورجعَت إليهم؛ لعدمِ انتفاعِهِم منها في الآخرةِ.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/384، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/139، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/225، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/24.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/193، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/44، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/225.

بلاغةُ العدولِ إلى الجمعِ في: ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾:

توفيةُ جميعِ مَن يريدونَ الحياةَ الدّنيا، ويقتصرونَ عليها، أجورَ أعمالِهم في الدّنيا

لمّا قالَ في الشّرطِ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ كانَ الكلامُ لِلمُفردِ على سبيلِ العمومِ، ثمَّ عَدَلَ في الجزاءِ، فجاءَ بصيغةِ الجمعِ بإضافةِ الأعمالِ إلى ضميرِ (هُمْ)، ولم يقُلْ: (نوفِّ إليهِ أعمالَهُ)؛ لأنَّه لمّا كانَتِ التّوفيةُ تدلُّ على معنى التّمامِ ناسبَ أنْ يقرنَ بها صيغةَ الجمعِ؛ للإشارةِ إلى أنَّهم جميعًا يوفَّونَ أعمالَهُم، كما أنَّ إضافةَ الأعمالِ إلى الضَّميرِ أفادَت أنَّها الأعمالُ الَّتي عَنَوا بها، وأعَدّوها لِصالِحِهِم[1].

دلالةُ ﴿فِيهَا﴾:

متعةُ الدّنيا ليسَت دليلًا على متعةِ الآخرة

لمّا كانتِ التّوفيةُ هنا؛ بمعنى إيصالِ تمامِ أجورِ أعمالِهم، وكانَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيهَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾ في مَوضِعِ الحالِ، دلَّ المعنى على أنَّ كُلَّ ما يَستَحِقّونَ فيها مِنَ الثّوابِ فإنَّهُ يَصِلُ إليهِم حالَ كَونِهِم في دارِ الدُّنيا، وأفادَ بطريقِ اللّازمِ أنَّهم إذا خَرَجوا مِنَ الدُّنيا لَم يَبقَ مَعَهُم مِن تِلكَ الأعمالِ أثرٌ مِن آثارِ الخَيراتِ، ويلزمُ منه أنْ لَيسَ لَهُم منها إلّا النّارُ[2]، فكأنَّ مجيءَ الجارِّ والمجرورِ حالًا، أفادَ التّكنيةَ بالتّوفيةِ على حصرِ كينونتِهِم في النّارِ، ويكونُ قولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ كالتّصريحِ بعدَ التّلويحِ زيادةً في التّبكيتِ.

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾:

الكُفرُ لا يَمنَعُ مِن نِعمَةِ اللّهِ؛ لأنّه تعالى يرزقُ المؤمنَ والكافرَ

تحتملُ الواوُ أن تكونَ حاليَّةً[3]؛ بمعنى: نوفِّ إليهِم جزاءَ أعمالِهِم في حالِ هُم في الحياةِ الدّنيا لا يُبخسونَ هذا الجزاءَ، ولو كانَ شيئًا طفيفًا قليلًا؛ ليكونَ الحالُ على معنى تأكيدِ التّوفيةِ وتقريرِها، وتحتملُ الواوُ أن تكونَ عاطفةً لهذهِ الجملةِ الاسميّةِ على جملةِ ﴿نُوَفِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/24.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/328.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/326.

﴿إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾؛ لتفيدَ الجملةُ معنىً آخر مُغايرًا لتوفيةِ جزاءِ أعمالِهم، وهو إفادةُ أنَّهم لا يُجازَونَ على كُفرِهم بِجَزاءِ سَلبِ بَعضِ النِّعَمِ عنهُم بَل يُترَكون وشَأنَهُم استِدراجًا لهُم وإمهالًا، فالكُفرُ لا يَمنَعُ مِن نِعمَةِ اللّه، فتكونُ الجملةُ المعطوفةُ كالتَّكمِلَةِ لِمعنى جملَةِ: ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾[1].

بلاغةُ الاحتراسِ بتكرارِ ﴿فِيهَا﴾:

تأكيدُ توفيةِ ثوابِ أعمالِ الكفّارِ في الحياةِ الدّنيا

قولُهُ: ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾، وفيه لمّا كانَ الظّاهرُ أنّ الضّميرَ في الجارِّ والمجرورِ يعودُ إلى الحياةِ الدّنيا كانَ على سبيلِ التّكرارِ، وفائدتُهُ بيانُ أنَّ عدمَ البخسِ ليسَ إلّا في الدّنيا، فلو لم يذكرْ ﴿فِيهَا﴾ لَتوهَّمَ أنَّ عدمَ البخسِ مُطلَقٌ في الدّنيا والآخرةِ، كما أفادَ التّكرارُ تأكيدَ توفيةِ ثوابِ أعمالِهم في الحياةِ الدّنيا، والإعلامَ بأنَّ الآخرةَ لَيسَت كالدُّنيا في وَفاءِ كَيلِ الجَزاءِ وفي بَخسِهِ[2].

دلالةُ النفي وصيغة المضارع في ﴿لَا يُبۡخَسُونَ﴾:

اللهُ عدلٌ لا يبخسُ النّاسَ شيئًا

تفيدُ ﴿لَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا يُبۡخَسُونَ﴾ استمرارَ نفيِ البخسِ المقيَّدِ، بكونِهِ في الحياةِ الدّنيا.

وللإشعارِ بأنَّ نفيَ بخسِ جزاءِ أعمالِهم يكونُ شيئًا فشيئًا، كما هو ظاهرٌ في الحياةِ الدّنيا، فليسَ مِن ديدنِ العدلِ الإلهيِّ بخسٌ ولا تطفيفٌ.

نكتةُ التّعبيرِ بـ صيغة ﴿يُبۡخَسُونَ﴾:

تجلِّي العدلِ الإلهيِّ للكافرينَ في انتفاءِ بخسِ أعمالِهم

عُبِّرَ بالبخسِ الّذي هو نقصُ الحقِّ، مع أنّه ليسَ لَهُم شائبةُ حقٍّ فيما أُوتوهُ، كما عُبِّرَ عن إعطائِهِ بالتَّوفيةِ الّتي هي إعطاءُ الحقوقِ، مع أنَّ أعمالَهُم بمعزِلٍ عن كونِها مُستَوجَبَةً لِذلِكَ؛ بناءً لِلأمرِ على ظاهرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/22.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/225، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/41.

الحالِ، ومُحافَظةً على صورِ الأعمالِ، ومُبالَغةً في نفيِ النَّقصِ، كأنَّ ذلكَ نقصٌ لِحقوقِهم، فلا يَدخُلُ تحتَ الوقوعِ والصّدورِ عنِ الكريمِ أصلًا، والمعنى: أنَّهُم في الحياةِ الدّنيا خاصّةً لا يُنقَصون ثَمَراتِ أعمالِهِم وأُجورَها نَقصًا كُلِّيًّا مُطَّرِدًا، ولا يُحرَمونَها حِرمانًا كُلِّيًّا، وأمّا في الآخرةِ فَهُم في الحِرمانِ المُطلَقِ واليأسِ المُحَقَّقِ[1]، فالأمرُ على جهةِ المقابلةِ والمقايسةِ بينَ حالِهم في الحياةِ الدّنيا والآخرةِ.

فائدةُ مجيءِ الخبرِ جملةً فعليَّةً:

المرادُ هنا انتفاءُ نقصِ الأعمالِ عندَ السّامِعينَ للخطابِ

أفادَ مجيءُ خبرِ المبتدأ ﴿وَهُمۡ﴾ جملةً فعليَّةً في قولِه: ﴿لَا يُبۡخَسُونَ﴾ تقويةَ الحكمِ وتقريرَهُ بنفسِ التّركيبِ، والمرادُ تحقيقُ انتفاءِ نقصِ جزاءِ أعمالِهم عندَ السّامِعينَ، وليسَ المرادُ تخصيصَ انتفاءِ نقصِ الجزاءِ بهِم[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/193.
(2) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 221.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [هود: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا بيَّنَ حالَ مَن يريدُ الحياةَ الدّنيا وزينتَها، بيَّنَ حالَهُم في الآخرةِ فقالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَبِطَ﴾: يدورُ معنى الحبطِ على الفسادِ والألم، فأمّا الفسادُ فمنهُ قولُهُم: حبطَ عملُهُ، وذلك إذا عَمِلَ الرّجلُ عملًا، ثمَّ أفسدَهُ، وأمّا الألَمُ فمنهُ: حبطُ البعيرِ، وهو الوجعُ الّذي يأخذُهُ لكثرةِ الأكلِ حتّى ينتفخَ بطنُهُ فيهلكَ بسببِهِ، وكذلِكَ عَمَلُ المُنافقِ والمُشركِ يَحبطُ فيهلكُ بسببِه[1]، ومعنى ﴿حَبِطَ﴾ فسدَ[2].

2) ﴿وَبَٰطِلٞ﴾: يدورُ معنى الكلمةِ على ذَهابِ الشَّيءِ وقِلَّةِ مُكثِهِ ولُبثِهِ، والباطلُ ما لا ثباتَ لهُ عن فحصِهِ والتّنقيرِ عنهُ، فهو الشّيءُ الزّائلُ، والباطلُ نقيضُ الحقِّ الّذي هو الشّيءُ الثّابتُ، والبَطَلُ: الرّجلُ الشّجاعُ المُعرِّضُ نفسَهُ للموتِ. فقيل: سُمِّي بذلكَ لأنه مُبطِلٌ لِدمِه، وكلُّ ما ذُكِرَ في القرآنِ مِنَ هذا اللّفظِ ومُشتقّاتِهِ فهو بمعنى المُهْدَرِ؛ لأنّه غيرُ صحيحٍ أو غيرُ نافعٍ، والباطِلُ كلُّ ما تقتضي ذاتُهُ أن لا تُنالَ به غايةٌ في ثوابٍ ونحوِهِ، واستُعملَ اللّفظُ هنا بمعنى فسادِ العملِ المُقتضي لِعدمِ الثّوابِ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

أولئكَ الّذين ذكرتُ أنّا نوفّيهم أجورَ أعمالِهم في الدّنيا، وليسَ لَهُم في الآخرةِ إلّا النّارُ يصلونَها، وذهبَ ما عَملوا في الدّنيا، وبطلَ ما كانوا يعملونَ؛ لأنَّهم كانوا يعملونَ لغيرِ اللّه، فأبطلَهُ اللّه.

مَن كانَتِ الدّنيا مـــرادَهُ، ولها يعملُ، ليس له في الآخرةِ نصيبٌ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حبط).
(2) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 186، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 106.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بطل).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ مجيءِ اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

مَن يدخلِ النّارَ فهو مُستحقٌّ لها؛ لأنّ اللهَ لا يظلمُ أحدًا

أفادَ اسمُ الإشارةِ العنايةَ بتمييزِ المذكورينَ أكملَ تمييزٍ بما ذكرَ مِن أوصافِهم؛ لِتصييرِهم كالمشاهدِينَ؛ أي: أولئكَ المَوصوفونَ بتوفيتِهم ثمراتِ أعمالِهم من غيرِ نقصٍ، فقد اجتَنَوا ثمراتِها من غيرِ نقصٍ وبإرادتِهم الحياةَ الدّنيا وزينتَها، فلم يكونوا يريدونَ بها شيئًا آخرَ، فلا جَرَمَ لم يكُنْ لَهُم في الآخرةِ إلّا النّارُ، وفي التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ تَنبيهٌ على أنَّ المُشارَ إليهم استَحَقّوا النّارَ وعذابَها المُخلَّدَ، وأنَّهم جديرون بما حَكَمَ عليهم، أحقّاءُ بِهِ من أجلِ الصّفاتِ الّتي ذُكِرَت قبلَ اسمِ الإشارةِ(1).

نكتةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

سفالةُ المحلِّ في الآخـرةِ مُـؤذنٌ ببعدِ المَنزلةِ في سوءِ الحالِ

التّعبيرُ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِهم في سوءِ الحالِ وبعدِهم عن ساحةِ القبولِ في الآخرةِ، كما أنَّ سفالةَ مَحلِّهم - وهي النّارُ - أنزلَتهُم مَنزِلة بعدِ المسافة(2).

دلالةُ الحصرِ بالمُسندِ والمُسنَدِ إليهِ:

المبالغةُ في ذمِّ الّذين يريدونَ الحياةَ الدّنيا، مُقتصِرينَ عليها

قولُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ وفيه لمّا جاءَ المُسندُ والمُسندُ إليهِ مَعرِفتَين، أفادَ الإسنادُ القصرَ، بمعنى: أنَّ نفيَ الحصولِ على أيِّ شيءٍ في الآخرةِ لا يكونُ إلّا لأولئكَ المُوصوفِينَ بالصّفاتِ المذكورةِ؛ لِلمبالغةِ في ذمِّهم، وتقبيحِ أعمالِهم، ولتأكيدِ المعنى وتقريرِهِ، فهو من قصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ قصرًا إضافيًّا.

دلالةُ الحصرِ:

خيبةُ مَن يَقصِدُ بسعيهِ الحياةَ الدّنيا، فليسَ له في الآخرةِ إلّا النّارُ

قولُهُ: ﴿لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾، وفيه الحصرُ هنا بأسلوبِ

(1) التّفتازانيّ، المطوّل، ص: 223 - 224، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/194، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/25.

(2) التّفتازانيّ، المطوّل، ص: 223، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/193، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/24 - 25.

النّفي و﴿إِلَّا﴾، وعُبِّرَ بهذا الأسلوبِ لِيفيدَ أنَّه أنزلَهُم مَنزِلةَ مَن يعتقدُ أنَّ جزاءَهُم في الآخرةِ الجنَّةُ لِما عملوهُ مِن أعمالِ البرِّ والإحسانِ، وأنَّهُم لن يكونوا في النّارِ، فلمّا كانوا مُخطِئينَ في اعتقادِهِم، وكانوا مُصرِّينَ عليهِ بدلالةِ أعمالِهِمُ القبيحةِ الباطلةِ، عُبِّرَ بالنّفي والاستثناءِ دونَ غيرِهِ مِن أساليبِ الحصرِ، وأفادَ الأسلوبُ قصرَ الصّفةِ على الموصوفِ؛ بمعنى حصولِهِم في الآخرةِ على أمرٍ واحدٍ فقط، هو النّارُ.

فائدةُ الاستثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾:

مَن ليسَ لهُ في الآخرةِ إلّا النّارُ، يخلدُ فيها، ويذوقُ عذابَها باستمرارٍ

﴿لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾، وفيه أفادَ الاستثناءُ المُفرَّغُ نفيَ عمومِ المُستثنى؛ بمعنى: لَيسَ لَهُم شيءٌ مِمّا يُعطاهُ النّاسُ في الآخرةِ إلّا النّارُ، ففيه كنايةٌ عن خلودِهِم فيها[1]، وفيه تعريضٌ بأنَّ غيرَهُم ممّن أرادَ الآخرةَ، وعملَ لها بصدقٍ وإحسانٍ، ليسَ لهُ إلّا الجنّةُ.

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾:

حبطُ العملِ سببٌ لدخولِ النّارِ، والخلودِ فيها

الواو هنا حاليَّةٌ؛ بمعنى: أنَّ جملةَ ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ حالٌ مِنَ الضّميرِ المجرورِ في ﴿لَيۡسَ لَهُمۡ﴾، وتُشعِرُ جملةُ الحالِ بمعنى السّببيَّةِ، فكأنَّه قِيلَ: ليسَ لَهُم في الآخرةِ إلّا النّارُ لِحالِ حبطِ ثوابِ ما صَنعوا، فجملةُ الحالِ بمثابةِ العِلّةِ لِما قبلَها[2].

براعةُ التّعبيرِ في: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾:

شرطُ الاعتدادِ بالعملِ الصّالحِ التّوحيدُ والإخلاصُ

لمّا كانَ الصّنعُ هو إجادةَ الفعلِ بجمعِ شيءٍ أو تحصيلِهِ بتدبيرٍ وإحكامٍ[3] أخبرَ عن ما صنعوهُ أو عن صنعِهِم بأنَّه ﴿وَحَبِطَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ ما كانوا يتّكلونَ عليهِ مِن أعمالِ البرِّ والخيرِ والإحسانِ، ممّا كانَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/25.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/130، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ، ص: 141، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/46.

(3) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صنع).

يعظمُ عندَهُم؛ لإجادتِهِم إيّاهُ في العملِ، قد فَسَدَ وهَدَرَ، فأشعرَ لفظُ ﴿وَحَبِطَ﴾ أنَّهُم لم ينتفعوا ممّا صنعوهُ مِنَ الأعمالِ، الّتي كانَت تؤدّي إلى الثّوابِ، لو كانَت مَعمولةً لِلآخرةِ؛ لأنَّها قد فسدَت؛ إذ شرطُ الاعتدادِ بها التّوحيدُ والإخلاصُ.

بلاغةُ الاستعارةِ التّصريحيّةِ في: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾:

بيانُ فسادِ أعمالِ الكافرينَ، وهُم يظنّونَ أنّهُم يُحسِنونَ صُنعًا

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ وفيه عُبِّرَ عن فسادِ أعمالِهم وعدمِ إنتاجِ ثمرتِها بالحبطِ على طريقِ المجازِ؛ ليكونَ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً، فشبَّهَ حالَ مَن عملَ أعمالَ البرِّ فلم يجدْ لَها أثرًا نافعًا بالأنعامِ الّتي تأكلُ الخضرَ بكثرةٍ وشهوةٍ للشّبعِ، فَتستطيبُهُ حتَّى ينتفخَ بطنُها وتفسدَ أحشاؤُها فتهلكَ؛ لِما يصيبُها مِنَ الحبَطِ، وهو وجعُ البطنِ؛ للإشعارِ بأنَّهُم كانوا يَتلذّذونَ بأعمالِهم كما يتلَذَّذُ الحيوانُ بالأكلِ، وهو غيرُ نافعٍ لهُ بل هو سببُ هلاكِه، فظاهِرُ كَثرَةِ الأكلِ للأنعامِ أنَّهُ سَبَبٌ للقوَّةِ، فكانَ في هذِهِ الحالةِ سَبَبًا للضَّعفِ والهلاكِ، كذلكَ ما ظاهِرُهُ البِرُّ والإحسانُ مِن أعمالِ النّاسِ، إذا كانَ الباعِثُ عليه الاقتصارَ على إرادةِ الحياةِ الدّنيا وزينتِها والعملِ مِن أجلِها[1].

فائدةُ الإخبارِ بالفعلِ الماضي: ﴿وَحَبِطَ﴾:

التّعبيرُ بالفعلِ الماضي للإيذانِ بِتحقُّقِ الوقوعِ

أفادَ التّعبيرُ بصيغةِ الماضي الإيذانَ بتحقُّقِ وقوعِ حبوطِ ما صنعوا.

دلالةُ ﴿مَا﴾ بيَن الموصوليّةِ والمصدريّةِ:

التّعبيرُ بالموصولِ (ما)؛ لِلمبالغةِ في استيعابِ عمومِ كُلِّ أعمالِهم

تحتملُ ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا صَنَعُواْ﴾ أن تكونَ بمعنى (الّذي)، فالعائدُ محذوفٌ، والتّقديرُ: حبطَ الّذي صنعوهُ فيها، فيكونُ الحبطُ للأعمالِ، وعُبِّرَ بـ ﴿مَا﴾ دونَ (الّذي) لِلمبالغةِ في استيعابِ عمومِ كلِّ أعمالِهم فردًا فردًا، وتحتملُ أن تكونَ مصدريّةً، والتّقديرُ: وحَبِطَ صنعُهُم فيها، فيكونُ الحبطُ للحدثِ

(1) رضا، تفسير المنار: 12/42.

الّذي قاموا به على سبيلِ المبالغةِ، فإنَّه إذا حبطَ الحدثُ حبطَ ما نتجَ منه، وهو الأعمالُ[1].

دلالةُ عودِ الضّميرِ المجرورِ في: ﴿فِيهَا﴾:

حَبطُ الأعمالِ في الدّنيا، وظهورُهُ للعيانِ في الآخرةِ

الظّاهرُ أن يكونَ الضّميرُ في قولِه: ﴿مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ عائِدًا على ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، والجارُّ والمجرورُ ﴿فِيهَا﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ ﴿وَحَبِطَ﴾؛ والمعنى: وظَهَرَ في الآخرةِ حُبوطُ ما صَنَعوا مِنَ الأعمالِ الّتي كانَت تؤدّي إلى الثّوابِ لو كانَت مَعمولَةً للآخرةِ، كما يحتملُ أن يكونَ عائدًا إلى ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ في الآيةِ السّابقةِ، فيكونُ الجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقًا بالفعلِ ﴿صَنَعُواْ﴾؛ والمعنى: حبطَ الّذي صنعوهُ في الحياةِ الدّنيا مِن أعمالِ البِرِّ[2].

دلالةُ الواو على الحالِ:

العملُ الباطلُ لا يثمرُ الثّوابَ الجزيلَ عندَ اللهِ

تحتملُ الواو أن تكونَ حاليَّةً، وتكون جملةُ ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ حالًا مِنَ الضّميرِ في ﴿صَنَعُواْ﴾؛ لِتفيدَ الحالُ معنى التّعليلِ لما قبلَها؛ أي: حبطَ ثوابُ صنيعِهم؛ لأنَّ ما كانوا يَعملونَهُ في نفسِهِ باطلٌ، والباطلُ لا يُثمرُ الثّوابَ[3]، كما تحتملُ أن تكونَ عاطفةً لجملةٍ على جملةٍ، فيكونُ ﴿وَبَٰطِلٞ﴾ خبرًا مُقدَّمًا للاسم الموصولِ ﴿مَا﴾، وفائدةُ عطفِ الجملةِ على الجملةِ أنَّه قد أخبرَ عن ذواتِهم الموصوفةِ بما تقدَّمَ وعن أعمالِهِم؛ للاهتمامِ بشأنِ مآلِ أعمالِهم الّتي كانوا يريدونَ بها الحياةَ الدّنيا، كما أنَّ الجملةَ الاسميّةَ تفيدُ أنَّ بطلانَ أعمالِهم وصفٌ لازمٌ ثابتٌ فيهم[4]، كما تحتملُ الواو أن تكونَ عاطفةً لمفردٍ على مفردٍ؛ أي: تعطفُ ﴿وَبَٰطِلٞ﴾ على ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والتّقديرُ: (أولئكَ باطلٌ ما كانوا يَعملونَ)، ويكونَ الاسمُ الموصولُ ﴿مَا﴾ فاعلًا لاسم الفاعلِ ﴿وَبَٰطِلٞ﴾، فيكون قد أخبرَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/133، وابن عادل، اللّباب: 10/454.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/133، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/194.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/130، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ، ص: 141، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/46.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/194.

عن ذواتِهِمُ الموصوفةِ خبرين؛ للإيذانِ بأنَّ السّببَ واحدٌ؛ وهو إرادتُهُم بأعمالِهِمُ الحياةَ الدّنيا وزينتَها، والتّقديرُ: أي أولئكَ الّذين ليسَ لَهُم في الآخرةِ إلّا النّارُ، وحبطَ ما صنعُوا فيها، وأولئكَ باطلٌ ما كانوا يَعملونَ[1].

فائدةُ الإخبارِ بـ: ﴿وَبَٰطِلٌ﴾:

أعمالُ الخيرِ الّتي تكونُ لغيرِ اللهِ زائلةٌ، لا نفعَ منها في الآخرة

في قولِهِ تعالى: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ إخبارٌ عنِ الّذي كانوا يعملونَهُ مِن أعمالِ الخيرِ لِتحصيلِ المَطالبِ الدّنيويّةِ، بأنَّه في نفسِهِ باطلٌ؛ أي: زائلٌ ليسَ ثابتًا.

براعةُ التّعبيرِ بـ: ﴿وَحَبِطَ﴾، و﴿وَبَٰطِلٌ﴾:

الحبوطُ لِما حَسُنَ مِنَ الأعمالِ، والبطلانُ لِمَا ليسَ له جهةٌ صالحةٌ أصلًا

في قوله تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾، و﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ إشارة إلى أنّه لمّا كانَت أعمالُ البرِّ والإحسانِ الّتي كانوا يَعملونَها مِن شأنِها استتباعُ الثّوابِ والأجرِ، وأنَّ سقوطَها إنّما هو لعدمِ مُقارنتِها للإيمانِ والنِّيَّةِ الصّحيحةِ، عُلِّقَ الحبوطُ بما صنعوا ممّا كانوا يجيدونَهُ مِنَ الأعمالِ، فآذنَ التّعبيرُ بالحبوطِ بسقوطِ أجرِهِ بصيغةِ الفعلِ الماضي المُنبِىءِ عن وقوعِ الحبوطِ وتَحقُّقِهِ، ولمّا كانَ الّذي كانوا يَعملونَهُ ممّا ليسَ لهُ جهةٌ صالحةٌ قطُّ عُلِّقَ بهِ البُطلانُ المُفصِحُ عن كونِهِ لا طائلَ تحتَهُ أصلًا.

دلالةُ تركيبِ: ﴿مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

حرصُ مَن يريدُ الحياةَ الدّنيا على المطالبِ الدّنيويّةِ أكيدٌ وجليٌّ

أفادَ تركيبُ ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أنَّهُم كانوا في الدّنيا مُستمرِّينَ على عملِهِمُ الّذي كانوا يُريدونَ به الحياةَ الدّنيا وزينتَها، وأنّه كانَ يتجدَّدُ منهُم وقتًا فوقتًا، وفي زيادةِ ﴿كَانُواْ﴾ هنا دونَ أن يقولَ في الأوّلِ: (حبطَ ما كَانوا يَصنعونَ)؛ لِلإيماءِ إلى أنَّ صدورَ أعمالِ البرِّ منهُم - وإنْ كانَ لغرضٍ فاسدٍ - ليسَ في الاستمرارِ والدّوامِ كصدورِ الأعمالِ الّتي هي مِن مُقدِّماتِ مَطالبِهِمُ الدّنيَّةِ[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/133، وابن عادل، اللّباب: 10/455.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/194.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ١٧﴾ [هود: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ حبطِ الأعمالِ وجزاءِ الضّلالِ بعدمِ التّسويةِ بينَ المُهتدِي والمُعتدي

لمّا اتّضَحتِ الحُجَجُ، وانتهضتِ الدَّلائلُ، فأغرقَتهُم عوالي اللُّججِ، كانَ ذلك مَوضِعَ الإنكارِ على مَن يُسوِّي بينَ المُهتدِي والمُعتدِي، فكيفَ بمَن يُفضِّلُ إمّا باعتبارِ النَّظرِ إلى الرّئاسةِ الدُّنيويّةِ غفلةً مِن حقائقِ الأمورِ، وإمّا عنادًا كمَن قالَ مِنَ اليهودِ للمُشركين: أنتُم أهدى منهُم، فقالَ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[1].

وأيضًا: لمّا ذَكَرَ اللّه تعالى المُكذِّبينَ بالقرآنِ، وذكرَ أوصافَهُم ومُكابرتَهُم، وبيَّنَ أحوالَهُم، فرَّعَ عليه تفريعَ الضّدِّ على ضدِّه، فَذَكَرَ حالَ مَن هُم عكسُ أولئكَ ممّن نفعَتهُمُ البيّناتُ والشّواهدُ، فَهُم يُؤمنونَ بالقرآنِ، وهُمُ المُسلمونَ، فجاءَت هذه الآيةُ في بيانِ أوصافِ المؤمنينَ في مُقابلِ أوصافِ أولئكَ المُكذِّبينَ[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿بَيِّنَةٍ﴾: يدورُ معنى الكلمةِ على الوضوحِ وظهورِ الشّيءِ، بحيثُ لا يشكُّ فيه، وبانَ الشَّيءُ: اتّضَحَ فهو بَيِّنٌ، والبيّنةُ هو الأمرُ الظّاهرُ الواضحُ في نفسِهِ، فَيُسَلَّمُ مِنَ الجدالِ، وقد تكونُ عقليّةً أو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/252.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/134، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/26.

محسوسةً، يُقالُ بَيَّنتُهُ وأبَنتُهُ: إذا جعلتَ لهُ بيانًا تكشِفُهُ[1]، و﴿بَيِّنَةٍ﴾ هنا بمعنى الفطرةِ أو القرآنِ[2].

2) ﴿وَيَتْلُوهُ﴾: يدورُ معنى جذر الكلمةِ على اتّباع الشّيءِ ما يسبقُهُ لحوقًا بِهِ مِن خلفِه، وإمّا أن يكونَ لفظُ ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ هنا مِنَ التّلوِ، وهو الاتّباعُ، يُقالُ: تَلَوتُهُ إذا تَبعتَهُ مُتابعةً ليسَ بينَهُم ما ليسَ منهَا، ويكونُ الاتّباعُ بالجسمِ أو بالاقتداءِ في الحُكمِ، ومعنى ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ على هذا التّوجيهِ (يتبعُهُ)، وإمّا أن يكونَ مِنَ التّلاوةِ؛ بمعنى: القراءةِ، ومِنهُ تِلاوةُ القُرآنِ؛ لأنَّهُ يُتبِعُ آيةً بَعدَ آيةٍ، والمعنى على هذا التّوجيهِ (يقرأُهُ)[3].

3) ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾: الحِزبُ والحِزباءُ: الأرضُ الغليظةُ الشّديدةُ، وهو الأصلُ في الكلمةِ، ومِن ذلكَ: حِزبُ الرّجلِ: أصحابُهُ وجُندُهُ الّذين على رأيِه، فَهُم مجموعةٌ مُتماسِكةٌ مُتميّزةٌ عنِ الآخرين، والحِزبُ الجماعةُ المُتماسِكةُ مِنَ النّاسِ، المُتميّزةُ عنِ الآخرينَ، المتَّفقةُ في الرّأيِ والهوى، والّتي يكونُ فيها غلظةٌ بتماسُكِها، والطّائِفَةُ مِنَ النّاسِ حِزبٌ[4]، ومعنى ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ في الآيةِ جميعُ أهلِ المللِ المُتحزِّبةِ من غيرِ المُسلمينَ[5].

4) ﴿مِرۡيَةٍ﴾: المِريةُ التَّردُّدُ في الأمرِ، وهي أخصُّ مِنَ الشّكِّ، وذهبَ بعضُ اللّغويّينَ إلى أنّها الشَّكُّ، وأصلُ الكلمةِ مِن (مَريتُ النّاقةَ)، إذا مَسَحتُ ضَرعَها باليدِ لِلحَلبِ، ومِن هذا: المِراءُ بمعنى المجادلةِ؛ إذ هي بسببِ الشّكِّ وعدمِ اليقينِ في ما يقولُ الآخرُ[6].

المَعنى الإجماليُّ:

اختلفَ المفسّرونَ في بيانِ معنى هذه الآيةِ للاختلافِ في المرادِ من أربعِ كلماتٍ؛ هي: ما المرادُ بِمَن وَصَفَهُ اللّهُ تعالى بأنَّهُ على بَيِّنَةٍ من ربِّهِ مَن هوَ؟ وما المُرادُ بهذِهِ البيِّنَةِ؟ ودلالةُ قولِهِ: ﴿وَيَتۡلُوهُ﴾، هل بمعنى تلاوةِ القُرآنِ أو بمعنى أن يقعَ عَقيبَ غيرِهِ؟ والمُرادُ بالشّاهدِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بين).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/311، والنّيسابوريّ، إيجاز البيان، ص: 409.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تلا)، والرّاغب، المفردات: (تلى)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلو - تلى)، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/176، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/158.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حزب).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/278، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/167.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مري)، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مرى)، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 160.

ما هوَ؟ فهذِهِ الألفاظُ الأربَعَةُ مُجمَلَةٌ، فلهذا كَثُرَ اختِلافُ المُفَسِّرينَ في هذِهِ الآيةِ، كما وَقَعَ خلافٌ في عودِ بعضِ الضّمائرِ فيها، وذُكِرَت تفسيراتٌ مُتنوِّعةٌ لهذهِ الآيةِ، وقد أوجزَ ابنُ عطيّة اختلافَهُم، فيمكنُ الرّجوعُ إليه[1]، ونوجزُ هنا المعنى الإجماليَّ بذكرِ وجهين لِلمعنى ممّا ذكرَهُ جمهورُ المفسّرينَ، ويلتئمُ بِهِ مَبنَى الآيةِ وسياقُها.

قــراءةُ القـرآنِ مِن غيرِ إيمانٍ لا تنفعُ في الآخرةِ، والتّكذيبُ بالقرآنِ سببٌ لِلخلودِ في النّارِ

أفمَن كانَ على حجَّةٍ وبرهانٍ مِن ربِّهِ وهو القرآنُ، ويتلوه برهانٌ آخرُ شاهِدٌ مِن ربِّ العالمِينَ، وهو جبريلُ أو محمَّدٌ عليهما الصّلاةُ والسّلام، ويؤيّدُ ذلك برهانٌ ثالثٌ مِن قبلِ القرآنِ، وهو التّوراةُ كتابُ مُوسى الّذي جعلَهُ اللّه إمامًا يُؤتَمُّ بِهِ في الدّينِ، ورحمةً لِمَن عملَ بِهِ مِن بني إسرائيلَ قبلَ نسخِهِ بالقرآنِ، فقد بَشَّرَ بمجيءِ محمَّدٍ ﷺ وبالقرآنِ، كمَن كانَ يُكذِّبُ بالقرآنِ، ويريدُ الحياةَ الدّنيا وزينتَها، ويعرِضُ عنِ الآخرةِ؟! لا يَستويان، أولئكَ يُصدِّقونَ بهذا القرآنِ، ويَعملونَ بأحكامِهِ، ومَن يكفرْ بهذا القرآنِ أنَّه مِن عندِ اللّه مِنَ الّذين تحزَّبوا على رسولِ اللّه ﷺ، فالنّارُ مكانُ وعدِهِ، يصيرُ إليها في الآخرةِ، يَرِدُها لا مَحالةَ، فلا تكُ أيُّها الرّسولُ في شكٍّ من أمرِ القرآنِ، وكونِهِ من عندِ اللّه تعالى بعدَ ما شهدَت بذلكَ الأدلّةُ والحججُ، إنّ هذا القرآنَ الّذي أنزلناهُ إليكَ هو الحقُّ مِن ربِّكَ لا شكَّ فيهِ، ولكنّ أكثرَ النّاسِ لا يُصدِّقونَ بأنَّ ذلك كذلكَ[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيِّ:

شتّانَ بينَ مَن كانَ على بيّنةٍ مِن ربِّهِ، ومَن يريدُ الحياةَ الدّنيا وزينتَها فقط

قولُهُ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وفيه تحتملُ الهمزةُ أن تكونَ للاستفهامِ الإنكاريِّ، وتكونَ الفاءُ للتّعقيبِ، بمعنى إنكارِ أنْ يَعقُبَ مَن كانَ على بيّنةٍ مِن ربِّهِ من كانَ يريدُ الحياةَ الدّنيا وزينتَها؛

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/157، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/330.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/159، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 223.

أي: إنكارُ توهُّمِ المقاربةِ بينَهُما في المَنزِلةِ، وتقديرُهُ: أفَمَن كانَ على بَيِّنَةٍ كَمَن كانَ يريدُ الحياةَ الدّنيا؛ أي: أيثبتُ في العقولِ، ويحصلُ في الوجودِ، مثلُ هذا التَّوهُّمِ؟!، فيفيدُ الإنكارُ تباينَ المَنزِلتين، كما تحتملُ أن تكونَ لِلتّقريرِ بمعنى تقريرِ إيمانِ مَن كانَ على بيّنةٍ مِن ربِّهِ، وتكونَ الفاءُ للتّفريعِ، بمعنى: إنْ كَفَرَ بها هؤلاء الّذينَ يريدونَ الحياةَ الدّنيا وزينتَها فيؤمنْ بها مَن كانَ على بيّنةٍ مِن ربِّهِ[1].

دلالةُ الاسمِ الموصولِ ﴿أَفَمَن﴾:

كلُّ مُؤمِنٍ هو على بيّنةٍ مِن ربِّهِ، وهو في حمى رحمتِهِ ولطفِهِ

يفيدُ الاسمُ الموصولُ هنا معنى العمومِ، فيَعَمُّ كُلَّ مُؤمِنٍ مُخلِصٍ، ويدخلُ فيه النّبيُّ ﷺ دخولًا أوّليًّا، وذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ المرادَ به النّبيُّ ﷺ، وذهبَ آخرون إلى أنَّ المرادَ مُؤمِنو أهلِ الكتابِ[2].

براعةُ الحذفِ في الآيةِ الكريمةِ:

لا تكافؤَ بينَ مَن هو على بيّنةٍ مِن ربِّهِ، ومَن هو في الضّلالةِ مُتردِّدٌ فيها

حُذِفَ المُقابِلُ في الآيةِ اكتفاءً بدلالةِ ما ذُكِرَ عليه منه، والتّقديرُ: أفمَن كانَ على بيّنةٍ مِن ربِّهِ، ويتلوهُ شاهِدٌ منهُ، ومِن قبلِهِ كتابُ موسى إمامًا ورحمةً، كمَن يريدُ الحياةَ الدّنيا وزينتَها، فهو في الضّلالةِ مُتردِّدٌ فيها، أو يكونُ قد حَذَفَ الأوّلَ وذَكَرَ الثّاني؛ والتّقديرُ: أفمَن كانَ يريدُ الحياةَ الدّنيا وزينتَها كمَن كانَ على بيّنةٍ مِن ربِّهِ، وفائدةُ حذفِ المُقابلِ بيانُ أنَّ بينَ الفريقين تفاوتًا بعيدًا وتبايُنًا بيِّنًا[3]، والإيماءُ لنفيِ إمكانِ التّكافؤِ بينَ الفريقين، بحيثُ لا يمكنُ مقارنتُهُ، وفيه إيجازٌ بالحذفِ، كما أفادَ الحذفُ معنى العمومِ؛ أي: لِتذهبَ نفسُ السّامعِ كلَّ مَذهَبٍ مُمكِنٍ في تقديرِ المقابِلِ مِن قبائحِ أعمالِ مَن لا يكونُ على بيّنةٍ مِن ربِّهِ، فيشمَلُ مَن يريدُ الحياةَ الدّنيا وزينتَها، ومَن كابرَ، وعاندَ، وطلبَ إنزالَ الكنزِ، أو مجيءَ المَلكِ مع الرّسولِ ﷺ، ومَن كفرَ باللّه، وكذَّبَ

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/131، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/38.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/158، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/131.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/277، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/384، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/134، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/299، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/26.

رسلَهُ، ومَن يفتري على اللهِ الكذبَ، وكلُّ ما يجري في هذا السّياقِ، وفيه كذلك إبقاءُ ذهنِ السّامعِ على مكثٍ بخلافِ ما لو عُيِّنَ، فإنَّه يُعرِضُ عنهُ بعدَ التَّعيينِ، ويَذهلُ عنهُ بسرعةٍ لتوطينِ نفسِهِ عليه، فكانَ حذفُ المقابِلِ مع كلمةِ التّشبيهِ هنا أبلغَ مِنَ الذّكرِ(1).

فائدةُ حرفِ الاستعلاءِ: ﴿عَلَىٰ﴾:

مَـن تمسَّكَ بالبيّنةِ أدركَ حقَّهُ دونَ مَظلمةٍ

عَبَّرَ بحرفِ الاستعلاءِ للإشعارِ بتمَكُّنِهم مِنَ البيّنةِ، وثباتِهم عليها، وتمسُّكِهم بها.

دلالةُ تنكيرِ: ﴿بَيِّنَةٖ﴾:

أفادَ التّنكيرُ تعظيمَ البيّنةِ وتفخيمَها؛ أي: برهانٍ نَيِّرٍ واضحٍ عظيمِ الشّأنِ(2).

نكتةُ التّعبيرِ: ﴿بَيِّنَةٖ﴾، ودلالتُهُ:

البيّنةُ مِن ربِّ العالَمين، واضحةٌ في نفسِها، مُرشِدةٌ إلى الحقِّ

لمّا كانَتِ البيّنةُ بمعنى الدّليلِ الشّاملِ للعقليِّ والنّقليِّ، وأفادَ اللّفظُ أنَّهُ كثيرُ الوضوحِ والبيانِ في نفسِهِ باقترانِهِ بالتّاءِ الّتي للمُبالغةِ، دلَّ بلازمِ معناهُ على أنّه كثيرُ الإرشادِ إلى الحقِّ والصَّوابِ، المناسبُ للفظِ العمومِ ﴿أَفَمَن﴾؛ والمعنى: أفمَن كانَ على برهانٍ مِنَ اللهِ يدلُّهُ على الحقِّ والصَّوابِ فيما يأتيهِ ويَذرُهُ(3).

فائدةُ مجيءِ حرفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾:

فضلُ اللهِ على عبادِهِ المؤمنينَ، بإرشادِهم وهدايتِهم إلى الحقِّ المُستبينِ

أفادَ مجيءُ ﴿مِّن﴾ الّتي لابتداءِ الغايةِ المجازيّةِ هنا؛ أنَّ البيّنةَ الممدوحَةَ هي الّتي تكونُ من ربِّهِ القائمِ على تربيتِهِ وإصلاحِهِ، ولم يقُلْ: (بيّنة ربِّه) على الإضافةِ؛ لدلالةِ ﴿مِّن﴾ على مَعنى الابتداءِ؛ للإشعارِ بخصوصيَّةِ هذهِ البيّنةِ.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/159، والحنفيّ، الأطول شرح التّلخيص: 2/75.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/195.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/157، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/131، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/83.

دلالةُ التعبير: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾:

صلاحُ الأحوالِ في الدّنيا والآخرة، بالثّباتِ على البيّنةِ

لمّا أسندَ البيّنةَ إلى لفظِ الرّبوبيّةِ أفادَ أنّه تعالى أقامَهُم على البيّنةِ بفضلِهِ ومنّتِه، وأنّه الهادي لَهُم، المُصلِحُ لأحوالِهِم بمُقتضَى ما ركَزَهُ سبحانَهُ في النّفوسِ، وبمُقتضَى ما هَدَى إليهِ بالرّسالاتِ الإلهيّة، وأنَّ بهذهِ البيّنةِ صلاحَ الأحوالِ في الدّنيا والآخرة، كما أفادَ الإسنادُ قوّةَ هذه البيّنةِ، وزيادةَ تعظيمِها بكونِها مِن ربِّ العالَمين، وليسَت مِن غيرِه[1].

سببُ إيثارِ صيغةِ المضارعِ: ﴿وَيَتۡلُوهُ﴾:

تصويرُ الحالةِ وتجدُّدُها

لمّا جاءَ الفعلُ بصيغةِ المضارعِ دلَّ على استمرارِ التّلوِ أو التّلاوةِ - على كلا المعنيَين - وتجدُّدِها؛ ليفيدَ تجدُّدَ فعلِ الشّاهدِ، كما أنَّ في إيرادِ هذه الصّيغةِ تصويرًا للحالةِ؛ ليكونَ أكثرَ تأثيرًا في نفوسِ السّامِعين.

دلالةُ الضّميرِ في ﴿وَيَتۡلُوهُ﴾:

البيّنةُ هي الأساسُ، والإيمانُ هو المقصودُ، وغيرُه تبعٌ له

يعودُ ضميرُ الهاءِ في ﴿وَيَتۡلُوهُ﴾ إلى ﴿بَيِّنَةٖ﴾، سواء أكانَتِ البيّنةُ بمعنى القرآنِ أوِ البرهانِ مِنَ الفطرةِ أو العقلِ، وذُكِرَ الضَّميرُ مُراعاةً لِلمعنى، فلمّا قالَ: ﴿وَيَتۡلُوهُ﴾ آذنَ بأنَّ البيّنةَ هي الأساسُ، وأنَّ الإيمانَ هو المقصودُ.

دلالةُ تنكيرِ: ﴿شَاهِدٞ﴾:

تفخيمُ الشّاهدِ هنا مَلمَحٌ في الدّلالةِ عنِ المُرادِ

يفيدُ التّنكيرُ هنا تفخيمَ الشّاهدِ وتعظيمَهُ[2]، بما دلَّ عليه السّياقُ، وبتعلُّقِ الجارِّ والمجرورِ في قولِه: ﴿مِّنۡهُ﴾؛ أي: مِن ربِّه.

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ﴾:

تنوُّعُ المعنى لِتنوُّعِ التّوجيهِ في السّياقِ الوجيهِ

تحتملُ الواوُ أن تكونَ عاطفةً لمُفردٍ على مُفردٍ، فإذا كانَ ﴿وَيَتۡلُوهُ﴾ بمعنى التّلاوةِ؛ أي: القراءةِ، فالتّقديرُ: يتلوهُ شاهدٌ منهُ، ويتلوهُ مِن

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3685.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/195.

قبلِه كتابُ مُوسى، وعُطِفَ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ على ﴿شَاهِدٌ﴾ مع كونِه مُقدَّمًا عليهِ في النّزولِ، فكأنَّهُ قِيلَ: أفَمَن كانَ على بيّنةٍ مِن ربِّه، ويَشهَدُ به شاهدٌ منه، وشاهدٌ آخرُ مِن قبلِه هوَ كتابُ مُوسى، وإنَّما قُدِّمَ في الذّكرِ المُؤخَّرِ في النّزولِ؛ لكونِه وَصفًا لَازمًا لهُ غيرَ مُفارِقٍ عنهُ، ولِعراقتِهِ في وصفِ التّلْوِ[1]، وإذا كانَ الفعلُ بمعنى التّلاوةِ، ففيه مَجازٌ بإسنادِ التّلاوةِ الّتي هي القراءةُ إلى الكتابِ، وفائدتُهُ تقريرُ معنى مَضمونِ الكتابِ المؤيّدِ للبيّنةِ، وإذا كانَ ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ بمعنى عقيبه، فالمعنى: يتلو القرآنَ ويُتبِعُهُ؛ لكونِ كتابِ مُوسى شاهدًا يَشهدُ بصحَّةِ البيّنةِ، وتحتملُ أن تكونَ عاطفةً لجملةٍ على جملةٍ؛ لتكونَ جملةُ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ خبرًا مُقدَّمًا ومُبتدأً مُؤخَّرًا؛ لِتفيدَ تقريرَ شهادةِ كتابِ مُوسى على القرآنِ، وعلى نبوَّةِ سيّدِنا محمَّدٍ ﷺ، كما تحتملُ أن تكونَ استئنافيّةً[2].

سببُ تخصيصِ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ - التّوراةِ - بالذّكرِ:

إيــرادُ الدّلـيـلِ المُـجـمَـعِ عليهِ أوفى في قيامِ الحجَّةِ وتقريرِها

قد يُقالُ: لِمَ لَمْ يذكرِ الإنجيلَ، وهو بينَ القرآنِ وكتابِ مُوسى؟ وجوابُهُ: أنَّه خَصَّ كتابَ موسى - التّوراةَ - بالذِّكرِ؛ لأنَّ المِلّتَين - أي اليهود والنّصارى - مُجمِعَتانِ على أنَّهما مِن عندِ اللّه، والإنجيلُ ليسَ كذلكَ؛ لانَّ اليهودَ يُخالِفونَ فيه، فكانَ الاستشهادُ بما تقومُ به الحُجَّةُ على الطّائفتينِ أولى: وهذا يجري مع قولِ الجنِّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: 30][3].

نكتةُ إيثارِ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾:

الـوحـيُ الّـذي أُنزِلَ على مُوسى هو نفسُهُ الّذي أنزِلَ القرآنَ على النّبيِّ الخاتمِ

ذُكرَ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ دونَ أن يقولَ (التّوراة)؛ للإيماءِ إلى تكثيرِ الشّهادةِ، بذكرِ المضافِ والمضافِ إليهِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الوحيَ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/195.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/441، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/17، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/131، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/28.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/158، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/135.

الّذي أنزلَ الكتابَ على مُوسى ﵇ هو الوحيُ نفسُهُ الّذي أوحى القرآنَ إلى رسولِ اللّه محمَّدٍ ﷺ، وفيه تنبيهٌ كذلكَ إلى أنَّ المُعتَبَرَ هو الكتابُ الّذي أُنزِلَ على مُوسى، وليسَ الكتابُ الّذي حُرِّفَ بعدَ موسى؛ أي: التّوراةُ المُحرَّفةُ.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿إِمَامًا﴾:

المَمدوحُ بوصفِ الإمامةِ، هو التَّوراةُ غيرُ المُحرَّفةِ مِنَ البشرِ

لمّا كانَ الإمامُ هو القدوةَ الّذي يُؤتَمُّ بهِ شبَّهَ كتابَ مُوسى بالإمامِ بجامعِ الاقتداءِ بهِ في الدّينِ، وأشعرَتِ الإضافةُ أنَّ الممدوحَ بوصفِ الإمامةِ والرّحمةِ هو الكتابُ الّذي نَزَلَ على مُوسى، وليسَ الّذي حرّفوهُ.

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في: ﴿وَرَحۡمَةً﴾:

التَّوراةُ غيرُ المُحرَّفةِ سببٌ لرحمةِ اللهِ في الدّنيا والآخرةِ

وُصِفَ كتابُ مُوسى بأنّه رحمةٌ؛ لأنَّهُ يَهدي إلى الحقِّ في الدُّنيا والدّينِ، وذلِكَ سَبَبٌ لِحُصولِ الرَّحمةِ والثَّوابِ، فلمّا كانَ سببًا للرَّحمةِ أطلَقَ اسمَ الرَّحمَةِ عليهِ إطلاقًا لاسمِ المُسَبَّبِ على السَّببِ[1].

مناسبةُ مجيءِ الحالَينِ ﴿إِمَامًا وَرَحۡمَةً﴾:

مدحُ المتلوِّ وتفخيمُهُ، تأكيدٌ لجلالِهِ وقدسيّتِهِ

لمّا جاءَ الحالانِ على معنى المدحِ لكتابِ مُوسى ﵇ الّذي هو شاهدٌ آخرُ على البيّنةِ أفادا مَدحَ المتلوِّ وتفخيمَهُ؛ إذِ التَّعرُّضُ للوصفينِ في سياقِ كونِ كتابِ مُوسى شاهدًا يقتضي فخامةَ المتلوِّ، وهو القرآنُ، إنْ كانَ المرادُ مِنَ البيّنةِ القرآنَ، أو مدحَ البرهانِ الفطريِّ والعقليِّ إنْ كانَ المرادُ مِنَ البيّنةِ الفطرةَ والعقلَ[2].

نكتةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

الإيمانُ بالقرآنِ دليلُ الهدايةِ مِنَ اللهِ الرّحمنِ

أشارَ بـ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إلى مَنْ كانَ على بيّنةٍ من ربِّهِ، وجَمَعَ على المعنى؛ أي: النّبيّ ومَن معهُ مِنَ المؤمنينَ، ونكتةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ بيانُ أنَّهم استحقُّوا أنْ يُؤمنوا به بما اتَّصِفوا بهِ من تلكَ الأوصافِ،

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/330.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/195، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/51.

وهيَ كَونُهم على بيِّنةٍ مِن ربِّهم مُعَضَّدَةٍ بشاهدٍ يَتلوهُ ومن قَبلِهِ كتابُ موسى؛ أي: التَّوراةُ غيرُ المُحرَّفة[1].

فائدةُ التّعبيرِ بصيغةِ المضارع: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

الإيمانُ الممدوحُ هو القائمُ على البرهانِ لا التّقليدِ

أفادَ التّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ استمرارَ إيمانِهم وتجدُّدَهُ حالًا فحالًا بسببِ ما ذُكِرَ مِنَ الأوصافِ الّتي قبلَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لِيفيدَ أنَّ إيمانَهُم مُتجدِّدٌ بالحقائقِ لا بالتّقليدِ، حسبما تشهدُ بهِ الشّواهدُ الحقّةُ المُعرِبةُ عن حقِّيَّتِهِ[2].

مِن مُناسباتِ التّعبيرِ:

الإقرارُ بالإيمانِ لِلمُؤمنينَ، والتّمهيدُ لِلكلامِ عنِ الكافرينَ

مِن مُناسباتِ التّعبيرِ بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾ أنّه لمّا كان مَن كانَ على بيّنةٍ مِن ربِّهِ يقتضي أن يكونَ مُؤمِنًا بالقرآنِ كانَ التّصريحُ بإيمانِهم بالقرآنِ بعدَ ذكرِهِ مُجملًا؛ للإشعارِ بالاعتدادِ بإيمانِهم، وكونِهِ إيمانًا مُقرًّا بهِ، ولتمهيدِ الكلامِ على ضدِّهِم، وهُمُ الّذين يَكفرونَ به[3].

دلالةُ الإخبارِ عنِ اسمِ الإشارةِ:

تتابعُ البراهينِ سببُ اليقينِ لدى المؤمنينَ

لمّا ذَكَرَ قولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾ تمكُّنَ المؤمنينَ مِنَ البيّنةِ، وتأييدَهُ بشاهدٍ مِن ربِّ العالَمين، وهو القرآنُ، ومِن قبلِ القرآنِ كتابُ مُوسى عَلَيۡهِ السَّلَامُ، أفادَ أنَّ اجتماعَ هذهِ الثّلاثةِ قد بَلَغَ بهذا اليَقينِ في القوّةِ والظُّهورِ والجلاءِ إلى حيثُ لا يُمكنُ الزِّيادَةُ عليه[4].

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾:

الجمعُ بينَ التّرغيبِ والتّرهيبِ؛ لتقويةِ الإيمانِ وتثبيتِه

أفادتِ الواوُ العطفَ على جملةِ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ فيكونُ بعدَ أنْ مَدَحَ المؤمنينَ بالقرآنِ عَطَفَ عليهِ التّحذيرَ مِنَ الكُفرِ به والإعراضِ عمّا تبيَّنَ لهُ مِن بيِّنةِ ربِّهِ وشواهدِ رُسُلِه؛ لِيجمعَ بينَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/28.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/195.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/51.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/330.

التّرغيبِ والتّرهيبِ؛ والمعنى: مَن يكفُرْ بالقرآنِ، ولَم يُصَدِّقْ بتلكَ الشّواهدِ الحقّةِ الواضحةِ مِن أيِّ جماعةٍ مُتحزّبةٍ، فالنّارُ مَوعِدُهُ[1].

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾:

قوّةُ المُتحزّبينَ على المؤمنينَ لا تُغني عنهُم مِنَ اللهِ شيئًا

عُبِّرَ بلفظِ ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ للإيذانِ بأنَّ أهلَ كُلِّ ملَّةٍ كافرةٍ مُتحزِّبةٌ مُتماسِكةٌ على المؤمنين، ففيه إشعارٌ بقوّتِهم وغلظتِهم، وأنَّ قوّتَهُم لا تغني عنهُم مِنَ اللهِ شيئًا؛ إذ جَعَلَ مَصيرَهُمُ النّارَ، وفيه تعريضٌ بكفرِ مَن تجمَّعَ على حربِ رسولِ اللهِ ﷺ[2]، وأفاد التعريف بـ (أل) الاستغراقَ، فيتناولُ اللّفظُ جميعَ أهلِ المللِ مِن غيرِ المؤمنينَ.

فائدةُ التّعبيرِ بـ ﴿أَفَمَن﴾:

جزاءُ كلِّ فردٍ يكفرُ مِنَ الأحزابِ هو النّارُ

يفيدُ اسمُ الشّرطِ العمومَ، وجاءَ قولُهُ ﴿مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾؛ بيانًا للإبهامِ المُضمَّنِ في اسمِ الشّرطِ، ولمّا كانَ لفظُ (مَن) يُؤذِنُ بعمومِ الأفرادِ، كما دلَّ عليه عودُ الضّميرِ في قولِهِ: ﴿مَوۡعِدُهُۥۚ﴾، دلَّ على أنَّهُم، وإنْ كانوا مُتحزِّبينَ مُستقوينَ لاجتماعِهِم، لكنّهُم سيحاسبونَ فردًا فردًا، فجزاءُ كلِّ فردٍ يكفرُ مِنَ الأحزابِ هو النّارُ.

دلالةُ الجملةِ الفعليّةِ:

تحقيقُ تعليقِ الشّرطِ؛ لتقويةِ الحُكمِ المُعلّقِ وتقريرِهِ

أفادَ مجيءُ خبرِ اسمِ الشّرطِ جملةً فعليّةً في قولِهِ: ﴿يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾ تقويةَ الحُكمِ؛ بمعنى تحقيقِ تعليقِ أنْ تكونَ النّارُ مَوعِدَ مَن يكفرُ بالقرآنِ.

وأفاد التعبير بصيغة المضارع لا بصيغة الماضي الإشعار باستمرارِ كفرِهِم بالقرآنِ، وتجدُّدِ هذا الكفر حالًا فحالًا بتجدّدِ زواجر القرآن ونواهيه في مسامِعِهِم.

دلالةُ مجيء جزاء الشّرط جملة اسمية مصدّرة بالفاء:

الكفرُ بالقرآنِ سببٌ للخلودِ في النّارِ، وبئسَ القرارُ

في قوله تعالى: ﴿فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾، وقعت الفاء في محلّ جزاء الشرط: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾، فدلّتْ على التَّرتُّبِ والسّببيّةِ وأفادَت أنَّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/195، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/29.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/52.

وقوعَ الجزاءِ بسببِ كفرِهم بالقرآنِ، وأنّ هذا الجزاء ثابتٌ بما دلّ عليه التعبير بالجملة الاسمية لكون النّارِ موعدَهم، ومَن كانَتِ النّارُ مَوعِدَهُ سيكونُ في سعيرِها مَورِدُهُ.

لا مفرَّ لمَن يكفرُ بالقرآنِ مِن ورودِ النّارِ والخلودِ فيها

براعةُ الكنايةِ في: ﴿مَوۡعِدُهُۥ﴾:

في قوله: ﴿فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾ أخبرَ عَنِ النّارِ بأنَّها مكانُ وَعدِهِ الَّذي يَصيرُ إليه، فيفيدُ أنَّه يَرِدُ هذا المكانَ لا مَحالةَ مع مقاساةِ حرِّها؛ لأنَّ وعدَ الله لا يتخلَّفُ، ولدلالةِ الجملةِ الاسميّةِ ﴿فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾ على ثبوتِ المعنى، كما أشعرَ بالورودِ قَطعًا لزومُ وقوعِ الجزاءِ بوقوعِ الشّرطِ، وأنْ لا مَفرَّ لهُ منها، وفي جعلِها مَوعِدًا إشعارٌ بأنَّ لهُ فيها ما لا يُوصَفُ من أفانينِ العَذابِ[1].

النّارُ مَوعِدُ الكافرينَ بالقرآنِ، والجنَّةُ مَوعِدُ المؤمنينَ بِهِ

مفهومُ الشّرطِ والجزاءِ في سياقِ جعلِ النّارِ جزاءً لِمَن كفرَ:

لَمّا دَلَّ قولُه: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾ على أنَّ مَنْ يَكفُرُ بالقرآنِ فالنّارُ مَوعِدُهُ، دَلَّت على أنَّ مَنْ لا يَكفُرُ بِهِ لَن تكونَ النّارُ مَوعِدَهُ، أو يُقالُ لَمّا كانَتِ النّارُ مَوعِدَ الكافرينَ بالقرآنِ كانَتِ الجنَّةُ مَوعِدَ المؤمنينَ بِهِ، فَحَذَفَ جزاءَ مَن آمنَ وذَكَرَ جزاءَ مَن كَفَرَ؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ تهديدٍ ووعيدٍ لِمَن نَسَبَ إلى الرّسولِ ﷺ افتراءَ القرآنِ، وعاندَ، وكذَّبَ، وطلبَ المعجزاتِ، وفي التّعبيرِ حثٌّ على الإيمانِ بالقرآنِ والعملِ بهِ[2].

التّحريضُ على النّظرِ الصّحيحِ المُزيلِ للشّكِّ، في أنَّ القرآنَ مِن عندِ اللهِ

براعةُ التّعبيرِ بالخطابِ في النّهيِ عنِ المريةِ منهُ:

ظاهر الخطابِ في قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ لِلنَّبيِّ ﷺ، ولكنْ لأنَّ النَّهيَ يَقتَضي فسادَ المَنهيِّ عنهُ ونَقصَهُ، فمِنْ لوازمِه ذمُّ المُتَلَبِّسِ بالمَنهيِّ عنه، ولمّا كانَ المُخاطَبُ غيرَ مَظِنَّةٍ لِلتَّلَبُّسِ بالمَنهيِّ عنهُ، فيُطلَبُ منه تَركُهُ، ويكونُ النَّهيُ طَلَبَ تَحصيلِ الحاصِلِ، تَعَيَّنَ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/195، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/52.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/331.

أن يكونَ النَّهيُ غيرَ مُرادٍ بِهِ الكَفُّ والإقلاعُ عَنِ المَنهيِّ عنهُ، فَيَكونُ مُستعمَلًا في لازِمِ ذلِكَ بقرينةِ المَقامِ، ولازِمُهُ هو جميعُ المُكلَّفينَ[1]، أو يكونُ كنايةً تعريضيّةً بالكافرينَ بالقرآنِ، والكلامُ على الوجهين يكونُ على خلافِ مُقتضى الظّاهرِ، ونكتةُ توجيهِ الخطابِ للنّبيِّ ﷺ التّهييجُ وزيادةُ التّثبيتِ، ولِتحقيقِ حقّيَّةِ القرآنِ، وأنَّه بحيثُ لايشكُّ فيه، والتّحريضِ على النّظرِ الصّحيحِ المُزيلِ للشّكِّ في أنَّ القرآنَ مِن عندِ اللّه، باجتنابِ أسبابِ الشّكِّ والأخذِ بلوازمِ الحقِّ، وفيه تعريضٌ كذلك بأنَّه إذا كانَ النّبيُّ مُخاطَبًا في النّهي فنهيُ غيرِهِ مِنَ المُكلَّفينَ عنِ الشّكِّ في القرآنِ أولى وأحرى، ويدخلُ فيه الكافرون دخولًا أوّليًّا[2].

فائدةُ التّعبيرِ بـ ﴿فِي﴾:

النّهيُ عنِ الشّكِّ في القرآنِ، والانغماسِ فيه

أفادَ حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ الظّرفيَّةَ المجازيّةَ، بمعنى النّهي عن أن يكونوا مُتلبِّسينَ في المِريةِ، بحيثُ تكونُ المِريةُ ظرفًا لَهُم، فيكونُ الكلامُ كنايةً عن ذمِّهم، بما أشعرَ بِهِ اللّفظُ مِن أنَّ مِريتَهُم في القرآنِ قد تَمكَّنَت منهُم، وهُم مُنغمسونَ فيها؛ لِشدَّتِها[3].

دلالةُ الضّميرِ في: ﴿مِّنۡهُۚ إِنَّهُ﴾:

تنوُّعُ عودِ الضّميرِ توسُّعٌ في المعنى الأثيرِ

يحتملُ الضّميرُ في ﴿مِّنۡهُ﴾ و﴿إِنَّهُ﴾ أن يعودَ على الضّميرِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾، والتّقديرُ: فلا تكُ في مِريةٍ مِنَ القرآنِ، إنَّ القرآنَ الحقَّ من ربِّكَ، ويحتملُ أن يعودَ على المفهومِ مِن جزاءِ الشّرطِ، والتّقديرُ: فلا تكُ في مِريةٍ مِن أنَّ مَوعِدَ الكافرِ النّارُ، والأوّلُ أظهرُ وأليقُ بالسّياقِ[4].

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/18.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/52، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/29.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/29.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/350، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/331.

سببُ إيثارِ النّهي عَنِ المِريةِ دونَ التّكذيبِ:

اختيرَ النَّهيُ على المِريَةِ دونَ النَّهي عَنِ اعتِقادِ أنَّهُ كَذِبٌ كما هوَ حالُ المُشرِكينَ؛ لأنَّ النَّهيَ عَنِ الامتِراءِ في القرآنِ يَقتَضي النَّهيَ عَنِ الجَزمِ بالكذِبِ بالأولَى؛ فالنَّهيُ عنِ العامِّ يقتضي النّهيَ عنِ الأخصِّ منهُ، فإذا كانَ التّردُّدُ في القرآنِ، والشّكُّ فيه مَذمومًا مَنهيًّا عنهُ، كانَ الاعتقادُ بكذبِ القرآنِ أشدَّ ذمًّا وقبحًا، فإنَّ الشّكَّ في القرآنِ مبدأٌ للتّكذيبِ فيهِ، فنهى عنِ الأدنى؛ لتعظيمِ شأنِ الإيمانِ بالقرآنِ، وفيه تَعريضٌ بأنَّ ما فيهِ المُشرِكونَ مِنَ اليَقينِ بكذِبِ القُرآنِ أشدُّ ذمًّا وشناعةً[1].

إذا كانَ الشَّكُّ في القرآنِ مَذمومًا، فالاعتقادُ بكذبِ القرآنِ أشدُّ ذمًّا وقبحًا

فائدةُ التّعبيرِ بـ ﴿مِن﴾:

لمّا كانَت ﴿مِن﴾ ابتدائيَّةً كانَ المعنى فلا تكُ في شكٍّ ناشئٍ عَنِ القرآنِ؛ ليفيدَ الشّكَّ في ذاتِهِ وحقيقتِهِ وفي نزولِهِ وفي كونِهِ كتابًا من عندِ اللّه، فالشَّكُّ النّاشئُ على نُزولِهِ شكٌّ في مجموعِ حقيقتِهِ[2]، ولو قالَ: (فلا تكُ في شكٍّ فيه) لأفادَ الشّكَّ في معانيهِ ودلالاتِهِ، فكانَ مجيءُ ﴿مِن﴾ أعمَّ وأشملَ في المعنى.

الشَّكُّ في نُزولِ القرآنِ مِن عندِ اللهِ شَكٌّ في مَجموعِ حقيقَتِهِ

براعةُ التّعبيرِ في: ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾:

لمّا نهى اللّه تعالى عنِ المِريةِ في القرآنِ أقامَ الحجّةَ والدّليلَ بحرفِ التّأكيدِ، فكأنَّ ﴿إِنَّهُ﴾ قامَ مَقامَ بيانِ السّببِ، مع تقريرِ ما دلَّت عليه جملةُ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾؛ بمعنى: أنَّه من وضوحِ حقيقتِهِ لا يَنبَغي أنْ يُمتَرَى في صدقِهِ، كما أنَّ حرفَ التّأكيدِ يقومُ مَقامَ الأمرِ باعتِقادِ حقّيَّتِهِ لِما يدلُّ عليهِ التّأكيدُ مِنَ الاهتمامِ[3].

القرآنُ حقيقةٌ واضحةٌ، فلا يَنبَغي أن يُمتَرَى في صِدقِهِ

براعةُ مجيءِ: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ مُعرَّفًا:

تعريفُ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ بـ (ألـ) الجنسيّةِ؛ للإيذانِ بقصرِ جنسِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/31.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/29.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/29.

الحقِّ على القرآنِ، وهو قصرٌ إضافيٌّ؛ للإشعارِ بكمالِ الحقِّ فيه؛ أي: في حقيقتِهِ ونزولِهِ ومعانيهِ ومبانيهِ، حتَّى كأنَّهُ لا يوجدُ حقٌّ غيرُهُ، كما في قولِ العربِ: حاتمٌ الجَوادُ، ويحتملُ أن يكونَ قصرًا حقيقيًّا بالنّظرِ إلى الكتبِ المُنَزَّلَةِ في وقتِ نزولِ القرآنِ؛ لِيفيدَ حصرَ الحقِّ فيه دونَ سائرِ الكتبِ؛ للإشعارِ بأنَّها قد حُرِّفَت عمّا كانَت عليه.

كمالُ الحقِّ في القرآنِ؛ لأنّه الحقُّ بيقينٍ، دونَ سائرِ الكتبِ

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بـ ﴿رَّبِّكَ﴾:

لم يقُل: (إنّه الحقُّ مِنَ اللّه) أو (إنَّه الحقُّ مِن ربِّهِم)، وبيانُهُ أنَّه لمّا كانَ الرَّبُّ هو المُصلِحَ لأحوالِ النّاسِ، القائمَ عليهِم وعلى شؤونِهِم، اختِيرَ لفظُ الرّبوبيّةِ هنا ليدُلَّ على أنَّ القرآنَ الحقَّ يُصلِحُ أحوالَهُم وشؤونَهُم، وهو الّذي يتولّاهُم، ويقومُ بتربيتِهِم، إنْ أقاموا عليه، فالقرآنُ يُرَبِّيكَ في دينِكَ ودُنياكَ[1].

القرآنُ الّذي هو الحقُّ يصلِحُ أحوالَ النّاسِ وشؤونَهم، ويقومُ بتربيتِهم

دلالةُ الإضافةِ في: ﴿رَّبِّكَ﴾:

أفادتِ الإضافةُ إلى كافِ الخطابِ تشريفَ رسولِ اللّه ﷺ وتفخيمَ شأنِهِ الكريمِ؛ والمعنى: هو مُتولّيكَ وقائمٌ بأمرِكَ، وإنْ كذّبوكَ، وكفروا بالقرآنِ، كما أفادَتِ الإضافةُ الإيذانَ بأنَّ تكذيبَ رسولِ اللّه تكذيبٌ للحقِّ الّذي هو مِن عندِ ربِّكَ يا محمَّد ﷺ.

تكذيبُ رسولِ اللهِ تكذيبٌ للحقِّ الّذي هو مِن عندِ اللهِ

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

تفيدُ الواو الحاليَّة؛ بمعنى: إنَّ القرآنَ هو الحقُّ مِن ربِّكَ، والحالُ: أنَّ أكثرَ النّاسِ لا يُؤمنون، وفي مجيءِ واو الحالِ هنا تعجيبٌ مِن انتفاءِ إيمانِهِم مع ظهورِ حقّيَّةِ القرآنِ ووضوحِها.

التَّعجيبُ مِنَ الكُفرِ بالقرآنِ، مع ظهورِ حقّيّتِهِ ووضوحِها

سببُ إيثارِ الاستدراكِ في: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

لمّا حَصَرَ اللّه تعالى الحقَّ في القرآنِ دلَّ بمُقتضَى العقلِ أن يؤمنَ بِهِ كلُّ النّاسِ، فجاءَ الاستدراكُ ليفيدَ رفعَ توهُّمِ أنَّ كلَّ النّاسِ قد

مَن لم يؤمنْ بالقرآنِ، إمّا لقلّةِ نظرِهِ، وإمّا لعنادِهِ ومُكابرتِهِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/195.

آمنوا به، ففيه كنايةٌ عنِ التّعجيبِ مِن حالِهم، كما دلَّ على أنَّ مَن لم يؤمِنْ بِهِ فلِقلَّةِ نظرِهِ واختلالِ فكرِهِ أو لعنادِهِ ومُكابرتِهِ[1].

دلالةُ حذفِ مُتعلَّقِ الفعلِ في: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

تغليبُ الهوى على اتّباعِ الحقِّ مِن أوصافِ الكافرينَ

يحتملُ أن يكونَ حذفُ المتعلَّقِ لإفادةِ العمومِ؛ والمعنى: لايؤمنونَ باللهِ ولا بالقرآنِ ولا بالرّسولِ وغيرِ هذا ممّا هو مِن مُقتضياتِ الإيمانِ وأصولِهِ، ففيه إيذانٌ بانتفاءِ حقيقةِ الإيمانِ عَنهُم في كُلِّ ما طُلِبَ الإيمانُ بِهِ مِنَ الحَقِّ؛ أي: إنَّ في طباعِ أكثرِ النّاسِ تَغليبَ الهَوَى على الحقِّ، فإذا جاءَ ما يُخالِفُ هَواهُم لم يُؤمنوا[2]، ويحتملُ أنْ يكونَ المُرادُ لا يُؤمِنونَ بما تقدّمَ ذكرُهُ مِن وصفِ القرآنِ.

مناسبةُ مجيءِ جملةِ التّذييلِ:

متابعةُ الحقّ وعدمُ المبالاةِ بالجاهلينَ الّذين لا يؤمنونَ بالقرآنِ

قولُهُ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، أفادَت جملةُ التّذييلِ هاتِهِ تسليةَ الرّسولِ ﷺ والمؤمنين، والتّقدير: لَمّا ظَهَرَ الحَقُّ ظُهورًا في الغايَةِ، ودلَّت عليه البراهينُ القيّمةُ، فكُنْ أنتَ والمؤمنون مُتابِعين له، وَلا تُبالوا بالجُهّالِ الّذين لا يُؤمنونَ[3].

توجيهُ المُتشابِهِ اللّفظيِّ بيَن آيتي: سورةِ هود، والسّجدة:

حُذِفَتِ النّونُ مِنَ المضارعِ المجزومِ إيجازًا ومبالغةً، وأُثبِتَت في السّجدةِ مُجاراةً لطولِ الكلامِ

جاءَتِ النّونُ محذوفةً هنا في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وقالَ في آيةٍ أخرى مِن هذه السّورةِ في قولِهِ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ﴾ [هود: 109]، وثبتَتِ النّونُ في سورةِ السَّجدةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ﴾ [السجدة: 23]، ومُناسبةُ هذا الاختلافِ: أنَّ تخفيفَ اللّفظِ بحذفِ النّونِ في سورةِ هود يُناسِبُ إيجازَ الكلامِ المُتعلِّقِ بقولِهِ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/131، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/195.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/31.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/331.

﴿مِّنۡهُۚ﴾، والمتَّصِل به تَمامُهُ، تمامُ مَعنى المقصودِ، وذلك قولُهُ: ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وكذلك قولُهُ في آخِرِ السّورةِ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [هود: 109] إلى قولِهِ: ﴿غَيۡرَ مَنقُوصٖ ١٠٩﴾ [هود: 109]، ووَرَدَ في سورةِ السَّجدةِ على أصلِ الكلمةِ قبلَ حذفِها، فقيلَ: ﴿فَلَا تَكُ﴾؛ ليَجريَ ذلكَ مع ما وَرَدَ في هذه السّورةِ مِن طولِ الكلامِ المُتعلِّقِ بقولِهِ: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ﴾ [السجدة: 23]؛ فنُوسِبَ الإيجازُ بالإيجازِ والطّولُ بالطّولِ(1)، ويحتملُ أن يكونَ حذفُ صوتِ النّونِ؛ للإشعارِ بالنّهي عن أقلِّ ما يُطلَقُ عليه مِريةٌ في كونِ القرآنِ مِنَ اللهِ تعالى، ويُناسبُهُ تسلُّطُ النّهي على الكونِ.

---

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/253 - 254.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ١٩﴾ [هود: 18 - 19]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبلَهما:

مَن نَسَبَ الفِريةَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ هو المُفتري على اللهِ تعالى

لمّا كانَ الكافرونَ قد كَذَبوا على اللّٰه بما أحدَثوهُ مِنَ الدّينِ مِن غيرِ دليلٍ، وما نَسبوا إليهِ النّبيَّ ﷺ مِنَ الافتراءِ، أتبع البيان الإلهي هاتين الآيتين، فذكَرَ أنَّهم هُمُ المفترونَ على اللّٰه، فَذكَرهُم وذَكَرَ أوصافَهُم[1].

ولَمّا انقضَى الكلامُ مِن إبطالِ زَعمِهم أنَّ النَّبيَّ ﷺ افتَرَى القرآنَ ونَسَبَهُ إلى اللّٰه، وتَعجيزُهُم عَن بُرهانٍ لِما زَعَموهُ، كَرَّ عليهِم، فَوَضَّحَ أنَّهُمُ المُفتَرونَ على اللّٰه عِدَّةَ أكاذيبَ، مِنها نَفيُهُم أنْ يكونَ القرآنُ مُنَزَّلًا مِن عِندِهِ، وذَكَرَ أنَّهُم مع افترائِهِم كانُوا يَصدّونَ عن سبيلِ اللّٰه، ويَبغونَها عِوجًا[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُعْرَضُونَ﴾: يدورُ المعنى المحوريُّ للكلمةِ على اتّساعِ ما يواجهُ النّاظرَ مِنَ الشّيءِ الكثيفِ، وأصلُ الكلمةِ يرجعُ إلى العَرضِ الَّذي يُخالِفُ الطّولَ، وعُرْضُ الشّيءِ: ناحيتُهُ من أيِّ وجهٍ جئتَهُ، ووسَطُه، وعرضُ الشَّيءِ: بمعنى إمرارِهِ أمامَ النّظرِ أو إتاحتهِ بقصدِ أن يُنظَرَ إليه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/254.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/32.

2) ﴿ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾: جمعُ شاهدٍ، مثلُ: أصحابٍ جمعُ صاحبٍ، أو جمعُ شهيدٍ مثلُ: شريفٍ وأشرافٍ، وهُمُ الملائكةُ والأنبياءُ الّذين شَهدُوهُم، وحفظوا عليهِم ما كانوا يَعملونَ، وقِيلَ: الملائكةُ والأنبياءُ والمؤمنون جميعًا(1).

3) ﴿لَعۡنَةُ﴾: اللّعنُ يدلُّ على إبعَادٍ وإطّرَادٍ على سبيلِ السَّخطِ، واللَّعنَةُ على وزنِ الفَعلَةُ، ولَعَنَ اللّه الشَّيطانَ: أبعدَهُ عَنِ الخيرِ والجنَّةِ، ولَعَنَهُ اللّه بمعنى: أقصاهُ وأبعدَهُ مِن رحمتِهِ وتوفيقِهِ في الدّنيا، واستحقاق العذابِ في الآخرةِ، ويُعبَّرُ به عن شدَّةِ الغضبِ والسّخطِ(2).

4) ﴿يَصُدُّونَ﴾: يدورُ معنى الصَّدِّ على اعتراضٍ بقويٍّ أو كثيفٍ يَرُدُّ المُقبلَ أو يمنعُهُ كالجبلِ، وصَدَّهُ عنِ الأمرِ: مَنَعَهُ وصَرَفَهُ، وتصدَّى لفلانٍ: تعرّضَ له، ففيه معنى الاعتراضِ والصَّرفِ والرَّدِّ، ولمّا كانَ الفعلُ يحتملُ التّعدّيَ واللّزومَ، فالصَّدُّ والصّدودُ قد يكونُ صرفًا ومنعًا إذا كانَ الفعلُ مُتعدِّيًا، بمعنى: يَصدّونَ غيرَهُم، وقد يكونُ انصرافًا عنِ الشّيءِ، وإعراضًا عنه، وامتناعًا، إذا كانَ الفعلُ لازمًا غيرَ مُتعدٍّ، ويتبيّنُ ذلكَ بالمصدرِ، ففي الإعراضِ بنفسِهِ يُقالُ: صدَّ يصُدُّ صُدُودًا؛ كقولِهِ تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾ [النساء: 61]، وفي صرفِ غيرِهِ يُقالُ: صدَّ يصُدُّ صدًّا(3).

5) ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾: بَغَى الشّيءَ يبغيه: طلبَهُ على سبيلِ التّزايدِ في الطّلبِ والمبالغةِ فيهِ، ومنهُ بَغيُ المطرِ، وهو شدَّتُهُ ومُعظمُهُ، وبَغَى عليهم: عَدَلَ عنِ الحقِّ واستطالَ وظلمَ، ففيه معنى التّزيُّدِ في التّعدّي، وكلُّ مجاوزةٍ وإفراطٍ على المقدارِ الّذي هو حدُّ الشّيءِ يُقالُ لهُ: بغيٌ، والبغيُ هنا على معنى تجاوزِ الحقِّ إلى الباطلِ(4).

6) ﴿عِوَجٗا﴾: أصلُ الكلمةِ يدُلُّ على عطفٍ عن حالِ الانتصابِ، والعَوَجُ هو ميلٌ في شيءٍ مُمتدٍّ كالميلِ في الحائطِ، والعَوَجُ يُقالُ في المحسوساتِ كاعوجاجِ الحائطِ والعودِ والعصا، وفي المعاني كاعوجاجٍ في الدّينِ والمَعَاشِ، والأعوَجُ يُكنَّى به عن سَيِّئِ الخُلُقِ، وسائرُ ما جاءَ من تركيبِ ﴿تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ [آل عمران: 99] في القرآنِ للخطابِ أو الغيبةِ؛

(1) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/44، والواحديّ، التّفسير البسيط: 11/379.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (لعن)، وابن جرير، جامع البيان: 3/245، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/113.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (صد)، والرّاغب، المفردات: (صدد)، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/113.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بغي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بغو - بغى).

بمعنى: يطلبونَ لسبيلِ اللّه اعوجاجًا عنِ الاستقامةِ، وانحِرافًا لها بإيهامِ النّاسِ ذلكَ[1].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

لا أحدَّ أشدُّ ظلمًا ممَّن كذَبوا على الله، وسيحاسبُهُمُ اللهُ على رؤوس الأشهادِ يومَ القيامةِ

ولا أحدَ أظلمُ ممَّنِ اختلقَ على اللّه كذبًا، فأولئكَ الكاذبونَ سيُعرَضونَ على ربِّهم يومَ القيامةِ؛ لِيحاسبَهُم على أعمالِهم، ويقولُ الأشهادُ مِنَ الملائكةِ والنّبيّينَ وغيرِهِم: هؤلاء الّذين كَذَبوا في الدّنيا على ربِّهم قد غَضِبَ اللّه عليهِم، ولَعَنَهُم لعنةً لا تنقطعُ بسببِ ظلمِهِم وكذبِهِم[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ بيَن الإنكارِ والتّقرير:

الافتِراءُ على اللّهِ تعالى أعظَمُ أنواعِ الظُّلمِ، وأشدُّها عقوبةً

يحتملُ الاستفهامُ أن يكونَ إنكاريًّا بمعنى إنكارِ ظلمِهم؛ لأنّهُم كانوا أظلمَ النّاسِ، فيفيدُ تهويلَ ظُلم مَنِ افتَرَى على اللّه كَذِبًا، ويحتملُ أن يكونَ استفهامًا تقريريًّا؛ بمعنى تقريرِ أنَّهُم أظلمُ النّاسِ لافترائِهمُ الكذبَ على اللّه، وجاءَ الإنكارُ أو التّقريرُ بطريقِ الاستفهامِ حتّى يجيبَ المُخاطَب، ويقولَ: لا أحدَ أظلمُ منه، فيكونُ ظهورُ الحجّةِ عليه أوضحَ وأبينَ[3].

دلالةُ الاسمِ الموصولِ في: ﴿مِمَّن﴾:

مَن له أدنى عقلٍ لا يفتري على اللهِ، واللهُ يعلمُ ما في الصّدور

أفادَ الاسمُ الموصولُ العمومَ، بمعنى تناولِهِ لكلِّ مَنِ افترى على اللّه الكذبَ، وعُبِّرَ بـ ﴿مِمَّن﴾ دونَ (الّذي)؛ لأنَّ ﴿مِمَّن﴾ أكثرُ عمومًا لِمناسبةِ المَقامِ، وللإشعارِ بأنَّ مَن له أدنى عقلٍ لا يفتري على اللّه الّذي هو خالقُهُ.

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عوج)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عوج - عيج).

(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/168، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 123.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/159.

بلاغةُ التّعبيرِ باسمِ التّفضيلِ ﴿أَظْلَمُ﴾:

لمّا نَسَبوا القرآنَ إلى غَيرِ مَن أنزَلَهُ، وزَعَموا أنَّ الرَّسولَ ﷺ افتَراهُ، كانوا بالِغِينَ غايةَ الظُّلمِ وأشدَّهُ في الافتراءِ على اللّه، حتَّى لَقَد يُسألُ عَن وُجودِ فريقٍ أظلَمَ مِنهُم سُؤالَ إنكارٍ أو تقريرٍ يؤولُ إلى معنى النَّفيِ؛ أي: لا أحدَ أظلَمُ على نفسِهِ ممّنِ افترى على اللّه الكذبَ، فهو أظلَمُ مِن غيرِهِ؛ لأنَّه نفى عنِ اللّه كلامَهُ، وأضافَهُ إلى غيرِهِ؛ والمعنى: لا أحدَ أفحشُ ظلمًا على نفسِهِ مِن غيرِهِ ممّنِ افترى على اللّه الكذبَ[1].

لا أحـدَ أظـلَـمُ ممّنِ افترى على اللـهِ كـذبًـا، أو نَسَبَ الوحيَ إلى غيرِ اللهِ

دلالةُ تركيبِ جملةِ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾:

هذا التّركيبُ المُركَّبُ مِنِ اسمِ الاستفهامِ الإنكاريِّ مع اسمِ التّفضيلِ، وإنْ كانَ سبكُهُ على إنكارِ أن يكونَ أحدٌ أظلمَ منهُم مِن غيرِ تعرُّضٍ لإنكارِ المساواةِ ونَفيِها، ولكنّ المقصودَ بِهِ قَصدًا مُطَّرِدًا إنكارُ المساواةِ ونفيُها، وإفادةُ أنَّهُم أظلمُ مِنْ كُلِّ ظالمٍ[2].

مَن يختلق على اللهِ الكذبَ، فلا يساويه أحدٌ في ظلمِهِ وجرأتِهِ

بلاغةُ التّعريضِ في الآيةِ:

قولُهُ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ﴾، أفادَ الاستفهامُ الإنكاريُّ التّعريضَ بأنَّهم هُمُ الكاذِبونَ إبطالًا لِتكذيبِهم إنزالَ الكتابِ[3]، فإذا كانوا كاذبينَ دلَّ على صدقِ القرآنِ في أنَّه حقٌّ مِن عندِ اللّه، كما أنَّ فيه ردًّا عليهم، حينَ نسبوا الافتراءَ إلى رسولِ اللّه ﷺ.

إثـبـاتُ حـقّـيَّـةِ الـقـرآنِ بطريقِ الحجَّةِ العقليّةِ

فائدةُ تنكيرِ: ﴿كَذِبًاۚ﴾:

أفادَ تنكيرُ لفظِ ﴿كَذِبًاۚ﴾ العمومَ؛ لورودِهِ في سياقِ النّفيِ، فلَم يقُلْ: (ومَن أظلمُ ممّنِ افترى على اللّه الكذبَ)؛ ليتناولَ الاسمُ النّكرةُ قليلَ الكذبِ وكثيرَهُ، ويشملَ جميعَ أنواعِهِ، فيدخل فيهِ كلُّ ما

قـلـيـلُ الـكـذبِ على اللهِ تعالى وكثيرُهُ سواءٌ في عِـظَـمِ الافـتـراءِ وقُبحِهِ

---

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/11.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/196.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/374.

يُسمَّى كذبًا، فكانَ قليلُ الكذبِ على اللهِ تعالى وكثيرُهُ سواءً في عظمِ الذّنبِ، وأنّه أشدُّ ظلمًا وقبحًا مِن غيرِهِ.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي:

استـــدرارُ الأسـمـاءِ فيما عَظُمَ شأنُ جزائِهِ يومَ القيامةِ

لمّا قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ﴾، وعَلِمَ السّامعُ أنَّ فاعِلَ هذا أظلمُ النّاسِ، تَطلَّبَ بيانَ جَزاءِ المُفتَرِي على اللهِ الكذبَ، فكأنَّ السّامعَ في مَقامِ السّائلِ عن جزائِهِ يومَ القيامةِ، فجاءَتِ الجملةُ في قولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ استئنافًا بيانيًّا؛ استدرارًا لأسماعِ المُخاطَبينَ فيما عَظُمَ جزاؤُهُ يومَ القيامةِ، ولِتشويقِهِم، ولإغنائِهِم عنِ السّؤالِ.

بلاغةُ مجيءِ اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

عَـرضُ المفترينَ عــلى ربِّـهِــم يــومَ القيامةِ، هـو عَـرضُ ذلَّـةٍ ومهانةٍ

تَصديرُ الجملةِ الاستئنافيّةِ باسمِ الإشارةِ للتَّنبيهِ على استحضارِ وصفِهِمُ القبيحِ، أي: الموصوفون بالظّلمِ البالغِ الّذي لا يوجدُ أظلمُ منه، وللإشعارِ بأنَّهُم استحقّوا أن يحكمَ عليهم بما بَعدَ اسم الإشارةِ بسببِ افترائِهِم على اللهِ الّذي هو أعظمُ الافتراءِ، ولمّا آذنَ اسمُ الإشارةِ أنَّ ما قبلَهُ علّةٌ لِما بعدَهُ، عُلِمَ أنَّ عَرضَهُم على ربِّهِم، عَرضُ زَجرٍ وانتِقامٍ وذلَّةٍ ومهانةٍ[1].

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿يُعْرَضُونَ﴾:

عـرضُ المفترينَ عـلى ربِّـهِـم؛ لـيـكـونُـوا أكـثَرَ حسرةً وندامةً

لمّا كانَ اللهُ تعالى عالمًا بالمفترينَ وبأعمالِهِم، وكانَ العرضُ يومَ القيامةِ لكلِّ النّاسِ كانَ تخصيصُ عرضِهِم لِلتّشهيرِ بخزيِهِم، ولتأكيدِ حالِهِم بالانتقامِ منهُم، فشبّهَ حالَهُم بحالِ مَن يُعرَضون على المَلِكِ؛ للإشعارِ بأنَّ إحضارَهُم إحضارٌ بإراءةٍ؛ لِما يدُلُّ عليه العرضُ مِن أنّه إظهارُ الشّيءِ بحيث يُرى للتّوقيفِ على حالةٍ، ولِما تدُلُّ عليه تعديةُ الفعلِ بحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾؛ ليكونَ العرضُ المُضمَّنُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/33.

معنى الحبسِ والإراءةِ وعرضِ الأعمالِ أكثرَ حسرةً عليهم، وأظهرَ لكذبِهم وافترائِهم[1].

سببُ إيثارِ العرضِ للذّواتِ في: ﴿يُعۡرَضُونَ﴾:

عرضُ العاملِ مع عملِهِ أفظعُ مِن عرضِ عملِهِ مع غَيبتِهِ

لمّا تقرّرَ أنَّ العرضَ يكونُ للأعمالِ، كان إيثارُ أن يكونَ العرضُ بذواتِهِم للأبلغيَّةِ، فإنَّ عرضَ العاملِ بعملِهِ أفظعُ من عرضِ عملِهِ مع غَيبتِهِ، كما أنَّه بإيرادِ اسمِ الإشارةِ حَصلَتِ الغُنيَةُ عن إسنادِ العرضِ إلى أعمالِهم، ويحتملُ أن يكونَ مِنَ المجازِ في النِّسبةِ؛ لأنَّ العرضَ في الحقيقةِ إلى الأعمالِ لا إلى الذّواتِ، كما يحتملُ أن يكونَ كنايةً عن عرضِ الأعمالِ[2].

نكتةُ إيرادِ لفظِ الرّبِّ في: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾:

مِن أقبحِ الظّلمِ مقابلةُ نعمِ اللهِ بالافتراءِ عليه ﷻ

عَبَّرَ هنا بقولِهِ: ﴿رَبِّهِمۡ﴾ دونَ أن يقولَ: (على الله)؛ للإيماءِ إلى بطلانِ رأيِهم في اتّخاذِهم أربابًا من دونِ اللّه ﷻ[3]، وللتّعريضِ بتوبيخِهم على افترائِهم على اللّه تعالى مع أنّه مُتفضِّلٌ عليهم بتربيتِهم وإصلاحِ حالِهم، فقد قابلوا نعمَهُ بالافتراءِ عليهِ سبحانَه.

فائدةُ العطفِ في: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾:

فضيحةُ المُفترينَ على اللهِ بالإشهادِ عليهم يومَ القيامةِ

قولُهُ: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾، وفيه فائدةُ إخبارِ الأشهادِ بما اللّه يعلمُهُ، وتعظيمُ الأمرِ على المشهودِ عليهِم، وحسمُ طمعِهم من أنْ يجدوا سبيلًا إلى التّخلُّصِ ممّا هُم فيه بالجحدِ أو بالمُدافعةِ، كما أنَّ فيه توبيخًا آخرَ لَهُم غيرَ التّوبيخِ الّذي يكونُ بالعرضِ، وهو توبيخُ الأشهادِ لِمَن افترى على اللّه كَذِبًا، لِهتكِ سترِهم، وللمُبالغةِ في إظهارِ فضيحتِهم وتبكيتِهم، فَحَصَلَ

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/159، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/365، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/131، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/256، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/53، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/33.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/112، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/196، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/85، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/53.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/196.

لَهُم مِنَ الخِزي والنَّكالِ ما لامَزِيدَ عليهِ، فكلا الفِعلَينِ ﴿يُعۡرَضُونَ﴾، ﴿وَيَقُولُ﴾ مَقصودٌ بالإخبار عَنِ اسمِ الإشارَةِ[1].

دلالةُ التعبير بـ ﴿ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾:

فضحُ المُفترينَ بالجمعِ بينَ قولِ الأشهادِ وحضورِهم

يحتملُ أن يكونَ اللّفظُ جمعًا لـ(شاهد)؛ لِيكونَ مِنَ الشّهادةِ على المُفترينَ، ويحتملُ أن يكونَ جمعًا لـ(شهيد)؛ لِيكونَ مِنَ الحضورِ[2]، والجمعُ بينَ المعنيين على سبيلِ الاشتراكِ سائغٌ، ولاسيَّما أنَّ فيه تكثيرًا لِلمعنى مع اقتضائِهِ لِلمَقام؛ لِيجتمعَ قولُ الأشهادِ وحضورُهُم، فيكونَ أشدَّ فضيحةً ومَهانةً على المُفترينَ، فلا سبيلَ لَهُم إلّا الإقرارُ.

مناسبةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

إشهارُ المُفترينَ على اللهِ بالسّوءِ، وتحقيرُهُم لسوءِ مُرتَكَبِهِم

عُبِّرَ باسمِ الإشارةِ دونَ الضّميرِ لِتمييزِهِم أكملَ تمييزٍ للنّاسِ كلِّهِم بأوصافِهِمُ المذكورةِ حتَّى يَشتهِرَ ما سَيُخبَرُ بِهِ عَن حالِهِم، والمقصودُ مِن ذلكَ شُهرَتُهُم بالسّوءِ وافتِضاحُهُم، ولِلإشعارِ بحضورِهِم فتكونُ الإشارةُ إليهِم حسًّا أوضحَ وأبينَ، كما أنَّ في التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ هنا تحقيرًا لَهُم، وإصغارًا بسوءِ مُرتَكَبِهِم[3].

دلالةُ مجيءِ المُسندِ والمُسندِ إليه مُعرَّفتين:

حصرُ الكاذبينَ على اللهِ يومَ القيامةِ في الموقفِ؛ للإشهارِ بفضيحتِهِم

قولُهُ تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾، وفيه لمّا جاءَ المُسندُ إليه اسمَ إشارةٍ على معنى تمييزِهِم أكملَ تمييزٍ بما وُصِفوا به، وجاءَ المُسندُ اسمًا موصولًا أُزيلَ إبهامُهُ بصلتِهِ المعلومةِ الانتسابِ إلى مُشارٍ إليه عندَ المُخاطَبينَ دلَّ على حصرِ الكاذبينَ على اللّهِ يومَ القيامةِ، وجمعِهِم في الموقفِ؛ للإشهارِ بفضيحتِهِم وفعلتِهِمُ الشّنيعةِ.

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 11/380، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/332، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/13، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/33.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/53.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/136، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/33.

فائدةُ مجيءِ الموصولِ مع صلتِهِ:

الكذبُ على اللهِ أشدُّ مِنَ الكذبِ على المَخلوقين

في قولِه تعالى: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾ جاءَ الاسمُ الموصولُ لِتعيينِ مَن صَدَرَ منهُ الكذبُ كأنّ وقوعَهُ أمرٌ واضحٌ غنيٌّ عنِ الشّهادةِ، ولمّا كانَت جملةُ الصّلةِ معلومةَ الانتسابِ عندَ المُخاطَبينَ أفادَ التّعبيرُ بها؛ أنَّ الحاضرينَ يومَ العرضِ يَعرفونَهُم بكذبِهم على ربِّهم، فلم يُصرِّحوا بما كَذَبوا بهِ، كأنّهُ كانَ أمرًا معلومًا عندَ أهلِ ذلك المَوقِفِ، ولِهَذا لا يذكرُ الأشهادُ في أيِّ شيءٍ كانَ كذبُهُم.

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بـ ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾:

حقُّ اللهِ وجليلُ نعمِهِ على العبادِ أن لا يُكذَبَ عليه

عُبِّرَ بلفظِ الرَّبِّ لِلإيذانِ بقبحِ عملِهم وقلَّةِ عقولِهم، إذِ افتروا على مَن يُحسِنُ إليهِم، ويَملِكُ نَواصيَهُم؛ للإشعارِ بأنَّهُم كانوا جَديرينَ أنْ لا يَكذِبوا عليهِ، وقد أحسنَ إليهِم في خلقِهم وحياتِهم[1].

فائدةُ مجيءِ ﴿أَلَا﴾:

تقريرُ الهولِ العظيمِ، ممّا يصيبُ المُفترينَ مِن لعنةِ اللهِ

جاءَ الافتتاحُ بحرفِ التّنبيهِ ﴿أَلَا﴾ لِمُناسبةِ مَقامِ التّشهيرِ، ولمّا كانَت تفيدُ تقريرَ معنى ما يأتي بعدَها عندَ السّامِعينَ، وتأكيدَهُ لعظمِ شأنِهِ، أفادَت معنى التّهويلِ العظيمِ ممّا يَحيقُ بهِم حِينئذٍ لِظُلمِهِم بالكذبِ على اللهِ، ولأنَّ كُلَّ مَن يراهُم يلعنُهُم[2].

بلاغةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ:

المُفترونَ ملعونونَ في حالِ افترائِهِم، مع ثباتِ اللَّعنِ عليهم واستمرارِهِ

قولُهُ: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، هذا التّركيبُ إخبارٌ مِنَ اللهِ تعالى عن لعنتِهِ على الظّالمين، مُستَعمَلٌ في الدُّعاءِ خزيًا وتحقيرًا لَهُم، ولمّا جاءَ على طريقِ الجملةِ الاسميّةِ دلَّ على ثبوتِ اللَّعنِ عليهم، فبيَّنَ أنَّهُم في الحالِ مَلعونونَ عندَ اللهِ مع ثباتِ اللّعنِ عليهم واستمرارِه، وفيه كذلك تعليمٌ لِلخَلقِ أنْ يَلعنوهُم، ويحتملُ أن يكونَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/136.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/131، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/85، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3690.

من تمام كلام الأشهادِ؛ أي: يقولونَ: هؤُلاءِ الَّذينَ كَذَبوا على ربِّهم، ويقولونَ: ألَا لَعنَةُ اللهِ على الظّالمِينَ الَّذينَ ظَلَموا أنفُسَهُم بالافتراءِ[1].

دلالةُ ﴿عَلَى﴾:

مَن استغرقَتهُم اللّعنةُ فهُم مِنَ الهالِكينَ

أفادَ التّعبيرُ بحرفِ الجرِّ استغراقَ لعنةِ اللهِ للظّالمِينَ، وتمكُّنَها مِنهُم.

بلاغةُ الإظهارِ في مَوضِعِ الإضمارِ:

عمومُ اللّعنةِ على كُلِّ ظالمٍ أثيمٍ

لمّا كانَ الكلامُ على المُفترينَ على اللهِ تعالى كانَ الظّاهرُ أن يقولَ: (ألَا لعنةُ اللهِ عليهِم)، فلمّا جاءَ بالاسمِ الظّاهرِ ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أفادَ إثباتَ وصفِ الظّلمِ عليهِم، ولِبيانِ أنّ هذا الظّلمَ قد بَلَغَ أقصى حدودِه، وأنّه هو السّببُ في بُعدِهِم عن رحمةِ اللهِ تعالى، ولِيفيدَ الحكمُ معنى العمومِ؛ لِيشمَلَ كُلَّ ظالمٍ مُتَّصفٍ بالصّفاتِ المذكورةِ[2].

نكتةُ التّعبيرِ بالمُشتقِّ في: ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾:

الافتراءُ على اللهِ نوعٌ مِن أنواعِ الظّلمِ السّاحقِ الماحِقِ

أفادَ التّعبيرُ باسمِ الفاعلِ المُشتقِّ أنَّهُم استحقُّوا اللّعنةَ بما اتَّصفوا بِهِ مِنَ الظّلمِ، وعَبَّرَ بصيغةِ الجمعِ؛ للإشعارِ بأنَّهُم ظالمونَ في حالِ كونِهِم فُرادى، وفي حالِ كونِهِم مُجتمِعينَ، والتَّعبيرُ عنهُم بالظّالمِينَ تعريفٌ لَهُم بوَصفٍ، جَرى مَجرَى اللَّقبِ، تُعرَفُ بِهِ جَماعتُهُم.

فائدةُ حذفِ مَفعولِ: ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾:

المُفترونَ ظلمُوا أنفُسَهُم، وظلمُوا النّاسَ، بصدِّهِم عن سبيلِ اللهِ

لم يقُل: (الظّالمِينَ أنفسَهُم أو الظّالمِينَ النّاسَ)؛ لِيُفيدَ عمومَ ظلمِهِم؛ أي: إنّهُم ظلموا أنفسَهُم وضرّوها إذ وَضعوا العبادةَ في غيرِ مَوضِعِها[3]، وظلموا النّاسَ بالافتراءِ عليهِم، وصدِّهِم عن سبيلِ اللهِ، وطلبِهِم لها الاعوجاجَ، فيكونُ المرادُ بالظّالمِينَ ما يَعُمُّ الظّالمِينَ بالافتراءِ، والظّالمِينَ بغيرِ ذلكَ، ويَدخُلُ فيه الأوّلونَ دُخولًا أوّليًّا[4].

(1) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 8/179، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/332، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/136، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/556، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/33.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3690.

(3) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 8/179.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/231.

فائدةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ، وصلتِهِ:

الظّلمُ سببٌ في استحقاقِ لعنةِ اللهِ تعالى

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ وفيه لَمّا جاءَ الاسمُ الموصولُ وَصفًا لِمَن حَكَمَ عليهم باللّعنةِ دلَّ على أنَّ ما وصفوا بِهِ مِنَ الصّدِّ والبغي المذكورين، وتكرّر هذه الأوصافِ منهُم، سببٌ لاستحقاقِهِمُ اللّعنةَ، كما أفادَتِ الصّلةُ أنَّ المُخاطَبين يَعلمونَ مَن هُمُ الّذين يَصدّونَ عن سبيلِ اللّه، ويَبغونها عِوجًا، وأنَّ الظّالمينَ كذلكَ يَعلمونَ أنَّ هذهِ هي أوصافُهُم؛ لِمَا تشيرُ إليهِ جملةُ الصّلةِ مِن كونِها مَعلومةَ الانتسابِ عندَ المُخاطَبينَ، وفي التّعبيرِ إيماءٌ إلى تعظيمِ قبحِ أفعالِهِم، وفيه تنبيهُ المُخاطَبينَ إلى أنَّ هذا هو طريقُ المَلعونينَ.

مجيءُ الفعلِ ﴿يَصُدُّونَ﴾ بيَن التّعديةِ واللّزومِ:

الصّادُّ عن سبيلِ اللهِ صادٌّ لِنفسِهِ ولغيرِهِ

يحتملُ أن يكونَ أصلُ الفعلِ ﴿يَصُدُّونَ﴾ مُتعدِّيًا، فإمّا أن يكونَ مِن بابِ حذفِ المفعولِ؛ لإفادةِ عمومِ صدِّهِم؛ أي: يَصدّونَ المؤمنينَ السّائرينَ في سبيلِ اللّه بِردِّهِم عن سبيلِهِ، بإلقاءِ الشّبهِ وغيرِها، ويَصدّونَ غيرَ المؤمنينَ باعتراضِهِم ومنعِهِم عن سبيلِ اللّه، ولمّا جاءَ الفعلُ مِن غيرِ ذكرٍ لمصدرِهِ أفادَ عمومَ معنى الصَّدِّ؛ لِيشمَلَ صدَّ نفسِهِ عن سبيلِ اللّه، وصدَّ عمومِ النّاسِ عن سبيلِهِ، بإلقاءِ الشّبهِ عليهِم؛ والمعنى: يَصدّونَ أنفسَهُم والنّاسَ مِنَ المؤمنينَ وغيرِهِم عن سبيلِ اللّه، ففي التّعبيرِ بالصّدِّ عنِ المعنيين إيجازٌ، وإمّا أن يكونَ من بابِ تضمينِ الفعلِ معنى اللّزومِ؛ بمعنى: صارَ الصّدُّ سجيّةً لَهم؛ أي: شأنُهُم هو الصّدُّ عن سبيلِ اللّه، كما يحتملُ أن يكونَ أصلُ الفعلِ لازمًا مِنَ الصّدِّ؛ بمعنى المنعِ، والتّقديرُ: يَمتنعونَ عن سبيلِ اللّه، ويُعرِضونَ عنهُ، والوجهُ الأوّلُ أظهرُ وأكثرُ معنى[1].

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿سَبِيلِ﴾:

توبيخُ الكافِرينَ إذا استبدَلوا سلوكَ سبيلِ اللهِ السّهلِ، بالصَّدِّ عنهُ

لم يقُلْ هنا طريقِ اللّه ولا صراطِ اللّه، لِما في لفظِ السَّبيلِ من

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/160، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/19.

معنى القصدِ لِمَنْ يسلكُه، والشّروعِ فيه معَ الرَّغبةِ في سلوكِهِ[1]، ولمّا كانَ السَّبيلُ بمعنى الطّريقِ الّذي فيه سهولةٌ[2] دلَّ النّهيُ على قبحِ ما يَفعلونَهُ مِن صدِّ مَنْ آمنَ حينَ يَقصِدُ سلوكَ سبيلِ اللّه، ويشرعُ فيه على سبيلِ المحبَّة، وفي التّعبيرِ توبيخٌ لَهُم إذ لَم يَسلكوا سبيلَ اللّه السّهلَ بل صدُّوا عنهُ.

مجازُ التّعبير بـ ﴿سَبِيلِ﴾:

دينُ الله سهلٌ واضحُ المَعالم، لا تكلُّفَ فيه ولا غلوّ

في التّعبيرِ بلفظِ ﴿سَبِيلِ﴾ استعارةٌ بتشبيهِ الدِّينِ بالسَّبيلِ؛ لاستقامتِهِ ووضوحِهِ وسهولتِهِ، فحَذَفَ المشبَّهَ، وصَرَّحَ بالمشبَّهِ بهِ؛ لِيكونَ استعارةً تصريحيَّةً[3].

مناسبةُ الإضافةِ في: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

إفادةُ الإضافةِ التّخصيصَ؛ لِتعظيمِ سبيلِ اللهِ وتشريفِهِ

أفادَتِ الإضافةُ الاختصاصَ، فهُم يَصدّونَ عن سبيلِ اللّه، وليسَ عن سبيلِ الشّيطانِ، كما أفادَتِ الإضافةُ تشريفَ هذا السَّبيلِ وتعظيمَهُ، وفيها إشعارٌ بالتّحذيرِ مِنَ الصَّدِّ لإضافةِ السَّبيلِ إلى الاسمِ الجليلِ الّذي فيه معنى الألوهيّة.

مناسبةُ مجيءِ الأفعالِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يَصُدُّونَ﴾ ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾:

تحذيرُ المؤمنينَ مِنَ الاتّصافِ بأوصافِ الظّالِمِينَ

أفادَتِ الصّيغتانِ تكرُّرَ فعلِ الظّالِمينَ بصدِّهم وبغيهم سبيلَ اللّه عِوَجًا في الدّنيا، وأفادَتا أنَّهُم كانوا مُستمرِّينَ على هذينِ الأمرَينِ، ولمّا كانَ المُؤَذِّنُ بلَعنِ هؤلاءِ الظّالمينَ الّذينَ أُسنِدَ إليهمُ الصَّدُّ عن سبيلِ اللّه وبَغيِها عِوَجًا بصيغةِ المُضارِعِ، ووُصِفوا بالكُفرِ بالآخرةِ في الآخرةِ بعدَ أنْ زالَ الكُفرُ بها بعَينِ اليقينِ فيها، وفاتَ زمنُ الصَّدِّ عنها، وبَغيِها عِوَجًا، كانَ التّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ لِتصويرِ حالةِ التَّجدُّدِ الّتي كانوا عليها في الدُّنيا، ولبيانِ ما ترتَّبَ عليها ما صاروا إليهِ في الآخرةِ، لِيَتذَكَّروها هُم، وكُلُّ مَن سَمِعَ التَّأذينَ بها، ويَعلَموا

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 298.

(2) الرّاغب، المفردات: (سبل).

(3) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/85، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/53.

عَدلَ اللّه بِعِقابِهِم عليها، ولِيَعتَبِرَ بها في الدُّنيا مَنْ يَتَصَوَّرُ حالَهُم هذه، فَكانَتِ البلاغةُ أنْ يَعدِلَ هُنا عَن صيغةِ الماضي إلى صيغةِ الحالِ حتَّى يُخَيَّلَ أنَّهُ هوَ الواقِعُ عندَ إطلاقِ الكلامِ[1].

دلالةُ الواو في: ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾:

الظّالمونَ على علمٍ باستقامةِ دينِ اللهِ، وأنّهُ الحقُّ المُبينُ

الواو هنا عاطفةٌ لجملةٍ على جملةٍ؛ لتكونَ الصّلةُ مُكوَّنةً مِن جملتين، فيفيدُ الكلامُ أنَّ اللّعنةَ على مَن جَمَعَ بينَ الوصفَين، ويدلُّ التّركيبُ على أمرين: أحدهما: أنّهُم كانوا على علم باستقامةِ سبيلِ اللّه، وبكَيفيَّةِ العِوَجِ بما يلقونَهُ مِنَ الشُّبُهاتِ وتَقريرِ الضَّلالاتِ، والثّاني: الإيماءُ إلى أنَّ كلَّ سبيلٍ غيرِ سبيلِ اللّه هي عِوجٌ؛ والمعنى: يبغونَ سبيلًا غيرَ سبيلِ اللّه، وهي عِوجٌ، ليسَت مُستقيمةً[2].

نكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾:

بيانُ حرصِ الظّالِمينَ على المبالغةِ في طلبِ الزّيغِ عن سبيلِ اللهِ

عُبِّرَ بلفظِ ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾؛ لإفادةِ المبالغةِ في طلبِ زيغِ السّبيلِ، وتعدّيهِم في هذا البغي، وإفراطِهِم فيه، وأفادَ التّعبيرُ كذلك أنّهُم ظالمونَ فيهِ؛ لِحرصِهِم على طلبِ تجاوزِ الحقِّ إلى الباطلِ.

دلالةُ التعبيرِ في: ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾:

سبيلُ اللهِ مُستقيمةٌ، وإنْ وَصَفَها الظّالمونَ بالعِوَجِ لِلتّنفيرِ عنها

يحتملُ أن يكونَ المعنى يَصِفونَها بالعِوَجِ والالتِواءِ لِلتَّنفيرِ عنها، والمرادُ أنّهُم يَصِفونَها بِذلِكَ، وهِيَ مُستقيمةٌ، وإطلاقُ الطّلبِ على الوصفِ مَجازٌ مِن إطلاقِ السّببِ على المُسبَّبِ؛ لأنَّ مَن طَلَبَ شيئًا لآخرَ كأنَّهُ سببٌ لاتِّصافِهِ بِه، ويحتملُ أن يكونَ المعنى يُريدونَ أهلَ سبيلِ اللّه أنْ يَعوَجُّوا عنها، أو يُريدونَ أنْ تكونَ عَوجاءَ بموافَقَتِها لأهوائِهِم مِنَ الشّركِ، وإباحةِ الظُّلمِ والفِسقِ[3].

---

(1) رضا، تفسير المنار: 8/383.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/113، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/332.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/386، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/131، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/85، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/48.

ثباتُ استقامةِ سبيلِ اللهِ، وإنْ بالغَ الكافرونَ في محاولةِ زيغِها

مناسبةُ عودِ الضّميرِ في: ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾:

يعودُ الضَّميرُ إلى ﴿سَبِيلِ﴾، ولمّا كانَ السَّبيلُ مُضافًا إلى الله تعالى دلَّ على أنّهُم لن يَستطيعوا زيغَها، وإنْ بَالغوا في الطَّلبِ؛ لثباتِ السّبيلِ واستقامتِها؛ لأنّها سبيلُ الله.

طريقُ الحقِّ لا يعوجُّ، ولا يحيدُ عنِ الهدى والخيرِ

براعةُ التّعبيرِ بيَن الحقيقةِ والمجازِ:

يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ أنْ يكونَ على الظّاهرِ بمعنى يَطلبونَ الزَّيغَ والضّلالَ لمَنْ يَطلبُ الإيمانَ، بإلقاءِ الشُّبَهِ على المؤمنينَ، أو وصفِها للنّاسِ بأنَّها مُعوجَّةٌ، ويحتملُ أن يكونَ على سبيلِ المجازِ تَهكُّمًا بهِم؛ أي: إنَّهُم يَطلبونَ لسبيلِ الله ما هو محالٌ؛ لأنّ طريقَ الحقِّ لا يَعوَجُّ[1].

التّعجيبُ مِن حالِ مَن هو على الباطلِ، ويصدُّ النّاسَ عنِ الحقِّ

دلالةُ الواو ﴿وَهُم﴾:

قولُهُ: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، الواو هنا حاليَّةٌ، بمعنى: والحالُ أنَّهُم كافرونَ بالآخرةِ، ولمّا كانَ الحالُ على معنى اقترانِهِ بصاحبِهِ دلَّ على أنَّهُم كافرونَ بالآخرةِ في حالِ صدِّهِم عن سبيلِ اللّه وبغيهِم لها عِوَجًا؛ لِيفيدَ الحالُ التّعجيبَ مِن حالِهِم؛ أي: كيفَ يَصُدّونَ النّاسَ عن طريقِ الحقِّ، وهُم على الباطِلِ البَحتِ، كما أنَّ في الحالِ معنى العلّيَّةِ، وبيانِ السّببِ في إمعانِهِم في الكفرِ؛ والمعنى: كفرُهُم بالآخرةِ جعلَهُم يَفترونَ على اللّه الكذبَ، ولا يؤمنونَ إلّا بالدّنيا وزينتِها، وظنّوا أنَّها وحدَها هي الحياةُ؛ ممّا أدّى بهم إلى هذا الغباءِ، وهذه اللّجاجةِ فيهِ، وفي الحالِ كذلك زيادةٌ في التّوبيخِ والتّبكيتِ، إذِ اتّصفوا بالكفرِ بالآخرةِ بعدَ كفرِهِم باللّه وبكتابِهِ[2].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/315، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/23.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/131، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/53، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/557، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/23961.

دلالةُ الجملةِ الاسميّةِ:

قولُهُ: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، لمّا كانَ النَّظرُ شديدًا إلى بيانِ كذبِهم وتكذيبِهم، بُولِغَ في تأكيدِ المعنى، فجاءَ المبتدأُ ﴿هُمۡ﴾ مُخبَرًا عنه بجملةٍ اسميّةٍ ﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، وعَبَّرَ بالضّميرِ ﴿هُمۡ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ الإخبارَ هو عنِ المذكورينَ بصفاتِهم المَعلومينَ في أذهانِ السّامِعينَ، وللإشعارِ بأنَّهُم بضمائرِهِم وظواهِرِهِم بالآخرةِ هُم كافرون[1].

الظّالمون المفترونَ على اللهِ كافرونَ في ضمائرِهِم وظواهِرِهِم

سببُ المخالَفةِ في التّعبيرِ بيَن الاسميّةِ والفعليّةِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ عُبِّرَ بالجملةِ الاسميّةِ، وفي قولِهِ: ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ عُبِّرَ بصيغةِ الفعلِ، ومُناسبتُهُ أنَّه لمّا كانَ الكفرُ مِنَ الاعتِقاداتِ العقليَّةِ الَّتي لا يُناسِبُها التَّكرُّرُ؛ لأنَّه مِنَ الانفعالاتِ، وليسَ مِنَ الأفعالِ، عُبِّرَ بالجملةِ الاسميّةِ؛ لإفادةِ ثباتِ الكفرِ فيهم، وتمكُّنِه منهُم، ولمّا كانَ الصَّدُّ وبغيُ إظهارِ العوجِ مِنَ الأفعالِ القابلةِ للتّكريرِ عُبِّرَ بصيغةِ الفعلِ، فناسبَ كلٌّ معناهُ وصيغتَهُ[2].

مُناسبةُ التّعبيرِ بالصّيغةِ الموافِقةِ لِلمعنى

سببُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

لمّا كانَ تكذيبُهُم بالآخرةِ شديدًا، وأرادَ أن يُؤكِّدَ المعنى، ويكونَ لهم اختصاصٌ بمزيدِ كفرٍ، قَدَّمَ قولَهُ ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ على مُتعلَّقِه، ولايحسنُ مجيئُهُ على أصلِ الكلامِ بأنْ يُقالَ: (وهُم هم كافرونَ بالآخرة)، فلمّا تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ حَسُنَ النّظمُ وقَوِيَ المعنى.

حسنُ النّظمِ ودقّةُ المعنى مِن بديعِ نسجِ القرآنِ

سببُ تكرارِ ﴿هُمۡ﴾:

تكرَّرَت ﴿هُمۡ﴾ على جهةِ تأكيدِ تعيينِ أنَّهُم هُمُ الكافرونَ بالآخرةِ، واختصاصهم بهِ، على معنى الاختصاصِ الادّعائيِّ حتَّى كأنَّ كُفرَ

كفرُ المُفترينَ على اللهِ بالآخرةِ أعظمُ أنواعِ الكفرِ وأشدُّهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/256.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/140.

غيرِهِم غيرُ مُعتَدٍّ بِهِ بالنِّسبةِ إلى عظيمِ كُفرِهِم، فيكونُ الكلامُ على معنى الاختصاصِ الادِّعائيِّ مبالغةً في كفرِهِم بالآخرةِ، فكأنَّ كُفرَ غيرِهِم بها ليسَ بكُفرٍ في جنبِهِ[1].

فائدةُ مجيءِ اسمِ الفاعلِ: ﴿كَٰفِرُونَ﴾:

عـراقـةُ كـفـرِ المُفترينَ الظّالمينَ

لمّا أخبرَ عنهُم بأنَّهُم كافرونَ بصيغةِ المُشتقِّ أفادَ أنّهُم عريقونَ في وصفِ الكُفرِ، حتّى صارَ صفةً مِن صِفاتِهِم، فقَد كفروا بالآخرةِ فيما مَضَى في الحياةِ الدّنيا، فلا يخافونَ عِقابًا على إجرامِهِم، فيَتوبوا منهُ[2].

سببُ إيثارِ الإخبارِ بالجملةِ عنِ الضّميرِ ﴿هُمۡ﴾:

أفادَ الإخبارُ بالجملةِ الاسميّةِ ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ تقوِّيَ الحكمِ وتقريرَهُ، فمَن كَفرَ بالآخرةِ خَسرَ الدّنيا والآخرةَ.

توجيهُ المُتشابِهِ اللّفظيِّ بين آيتي: سورة هود، والأعراف:

زيادةُ (هم) هنا، يُـنـاسِـبُ مَـقـامَ إنكارِهِمُ البَعثَ وتَقريرِه

اختُصَّتْ هذهِ الآيةُ على نظيرِها في الأعرافِ بزيادةِ ﴿هُمۡ﴾ في قولِهِ: ﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، وهوَ توكيدٌ يُفيدُ تَقوِّيَ الحُكمِ؛ لأنَّ المَقامَ هُنا مَقامُ تَسجيلِ إنكارِهِمُ البَعثَ وتَقريرِهِ؛ إشعارًا بما يَترَقَّبُهُم مِنَ العِقابِ المُناسِبِ، فَحُكِيَ بِهِ مِن كلامِ الأشهادِ ما يُناسِبُ هذا، وما في سورَةِ الأعرافِ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥﴾ [الأعراف: 45] حكايَةٌ لِما قِيلَ في شأنِ قَومٍ أُدخلوا النّارَ، وظَهرَ عِقابُهُم فلا غَرَضَ لِحكايةِ ما فيه تأكيدٌ مِن كلامِ الأشهادِ، وكلتا المَقالَتَينِ واقِعٌ، وإنَّما يَحكي البَليغُ فيما يَحكيهِ ما لَهُ مُناسبةٌ لِمَقامِ الحِكايَةِ[3].

وأيضًا لمّا تقدَّمَ قولُهُ تعالى في سورةِ هود: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ

---

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/54، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/386، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/557.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/256، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/382.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/33.

﴿عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولَم يقُلْ: (عَلَيهِم)، كما هو الظّاهرُ بأنْ يذكرَ الضّميرَ لقربِ الاسمِ الظّاهرِ، وقد تبيَّنَ سببُ العدولِ إلى الاسمِ الظّاهرِ، فلمّا جاءَ بالاسمِ الظّاهرِ احتملَ الكلامُ اللَّبسَ، بأنّهُم هُم أم غيرهم، فكرَّرَ، وقالَ: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾؛ لِيعلمَ أنّهُم هُمُ المذكورونَ لا غيرُهُم[1].

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 119.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾ [هود: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لا ملجأَ من الله إلّا إليه، ولا مَحيصَ من العرْضِ عليه

لمَّا هدّدَ ربُّ العزّة سُبحانه المُكذّبين بأمورِ الآخرة؛ بيّنَ أنّه سبحانه القادرُ على تعجيلِ العذابِ لهم في الدّنيا دونَ أنْ يجدُوا النّصيرَ أو مَن يَدفعُ عنهمُ العذابَ؛ فهو الذي أحاطتْ قُدرتُه بكلّ المُمكناتِ؛ ولَكِنّه ﷻ أخّرَ ذلك لحكمةٍ تَقْتَضِيه(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُعۡجِزِينَ﴾: العجْزُ: الضَّعْفُ، وهو نقيضُ الحزْمِ(2).

وأصلُه في المعنى يدورُ حول رخاوةٍ في الشَّيءِ، ومن هذا الأصلِ يكونُ الضَّعفُ(3)، والتَّعْجيزُ: التَّثْبيطُ، وكذلك نسبةُ الشَّخصِ أوِ الشَّيءِ إلى العَجْز. وأعجزني فلانٌ إذا عجزتُ عن طلبِه وإدراكِه، والإعجازُ: الفوتُ والسَّبقُ. ومنه قولُ اللّه ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾. أي: لم يكونوا فائِتين من عذابِ اللّه ولا سابِقين، ولا مُفلِتين أنفُسَهم من أخذِه لو أرادَ ذلك(4)، و"المعنى: أنّهم لا يُعجِزون اللّه إذا أرادَهم بالعذاب والانتقامِ منهم، بل هم في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/331، والبقاعي، نظم الدّرر: 9/257، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/197، والآلوسي، روح المعاني: 6/232، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/34.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب: (عجز).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عجز).

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/19، والبغوي، معالم التنزيل: 2/444، والآلوسي، روح المعاني: 6/232.

قبضتِه وملكِه، لا يَقدرون على الامتناعِ منه إذا طلبَهم"[1]، "والمُعجِزُ هنا: الذي أفلتَ ممَّن يرومُ إضرارَه"[2].

2) ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: الوَلِيُّ: النَّصيرُ، وهو ضدُّ العدوِّ، والوِلايةُ: النُّصرةُ[3]. وأصلُه يدورُ حول معنى القُربِ[4]. وكذلك الوَلِيُّ: الصَّديقُ والمحبُّ التَّابعُ، وهو ضدُّ العدوِّ أيضًا[5] وجمعُ الوَلِيِّ: أولياء. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾. أي: ما لهم من أنصارٍ وأعوانٍ يحفظونَهم من عذابِ اللّه وعقابِه إذا أرادَ بهم ذلك[6].

3) ﴿يُضَٰعَفُ﴾: الضِّعْفُ: ضِعْفُ الشَّيءِ مِثْلَاه[7]، "وأضعفتُ الشَّيءَ إضعافًا، وضاعَفْتُه مُضَاعَفةً، وضَعَّفْتُه تَضْعِيفًا، وهو إذا زاد على أصلِه فجعلَه مِثْلَين أو أكثَر"[8]، فهو عند العرب: المِثْلُ إلى ما زاد، وليس مقصورًا على المِثْلَين. وضِعْفُ الشَّيءِ: مِثْلُه، وضِعْفَاه: مِثْلَاه، وأضْعافُه: أمْثَالُه[9]. وأصلُ معناه: هو أن يُزادَ الشَّيءُ مثلَه[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

هؤلاء الَّذين وصَفهمُ اللّه تعالى منَ المشركين بالصَّدِّ عن سبيلِه لم يكونوا سابِقين ولا فائِتين من عذابِ اللّه وبطْشِه في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ لأنَّهم في قبضتِه وتحت قهْرِه وسُلطانِه، وهو قادرٌ على

لا نجاةَ ولا نصيرَ لمَن أصمَّ عنِ الحقِّ سمعَه وأعمى بصرَه

(1) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/479.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/35.

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ولي).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).

(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ولي).

(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/19، والبغوي، معالم التنزيل: 2/444، والخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/479.

(7) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ضعف).

(8) الخليل، العين، وابن فارس، المجمل: (ضعف).

(9) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (ضعف).

(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضعف).

الانتقامِ منهم في أيِّ وقتٍ شاءَ، ولن يكونَ لهم من دونِه سُبحانه أعوانٌ وأنصارٌ يحفظونَهم ويَدفعون عنهم هذا العذابَ إذا نزلَ بهم، وسَيُزادُ لهم العذابُ والانتقامُ؛ لعلَّةٍ هي صمَمُهم عن سماعِ القرآنِ، وعدمُ إبصارِهم آياتِ اللّه في الكون(1).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاستئنافِ في: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ﴾:

اللــه عـزيــزٌ حكيمٌ، يُمهلُ ولا يُهملُ

قولُه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عنِ الاقتصارِ في تهديدِهم على وَصْفِ بعضِ عقابِهم في الآخرةِ؛ فإنَّ ذلك يثيرُ في نفسِ السَّامعِ أن يسألَ: هل هم سالمون من عذابِ الدُّنيا؟ فأجيبَ بأنَّهم لم يكونوا مُعجِزين في الدُّنيا؛ أي: لا يَخرجون عن مقدرةِ اللّه تعالى على تعذيبِهم في الدُّنيا إذا اقتضت حكمتُه سُبحانَه تعجيلَ عذابِهم(2).

بَلاغة تَكرار التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

المــشــركــون استحقُّوا عذابَ اللـه في الدُّنيا قبلَ الآخرة

إعادةُ الإشارةِ إلى المذكورين بقولِه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ بعد أن أُشيرَ إليهم بقولِه سُبحانه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [هود: 18] لتقريرِ فائدةِ اسْمِ الإشارةِ السَّابقِ، وهي: التَّنبيهُ على أنَّهم حريُّونَ بما سَيردُ بعد اسمِ الإشارةِ منَ الخبرِ بسببِ ما قبْلَ اسمِ الإشارة منَ الوصْفِ، ولِما يُؤذِنُ به اسمُ الإشارة من معنى تعليلِ ما قبلَه فيما بعدَه(3). فالإشارةُ إلى الموصوفين بصفاتٍ تدلُّ على أنَّ هذه الصِّفاتِ سببٌ لِما يقومون به من تحدٍّ للّه تعالى؛ ولذا قال سُبحانه: ﴿لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾(4)، والمعنى: أنَّهم يَصيرون إلى حُكم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/370، والبغوي، معالم التنزيل: 4/169، ومجمّع الملك فهد، التفسير الميسّر: 1/224.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/38.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/33.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3692.

ربِّهم في الآخرة، ولم يكونوا مُعجِزيه أن يعذِّبَهم في الدُّنيا متى شاء تعذيبَهم، ولكنَّه تعالى أرادَ إمهالَهم[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بلامِ البُعدِ في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الـكـافـرون مُـبـعَـدون عن رحمةِ الله

عُبِّرَ عنِ الكافرين الظَّالِمين الذين يَصدُّون عن سبيلِ اللّه، ويَبغونَها عِوجًا باسْمِ الإشارةِ المُشارِ به إلى البعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للدِّلالة على بُعدِهم عن كلِّ خيرٍ وكلِّ فضيلةٍ، فمعنى "﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: البُعَداءُ عن حضرةِ الرَّحمة"[2]، البُعَداءُ في درجة الكفرِ والإشراكِ، المُتميِّزون مِنْ غيرِهم منَ الخلْق[3].

وفي هذا إشارةٌ لطيفةٌ إلى أنَّهم كما حالوا بين النَّاسِ وسبيل الإيمانِ فأبْعَدوهم عن أنوارِ الوحي الإلهيِّ، أُبعِدُوا يومَ القيامة، ونُبِذوا نبْذَ ما لا يُعتَدُّ به، وهذه غايةُ الإهانة!

دَلالةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿مُعۡجِزِينَ﴾:

الـظَّـالـمـون عـاجِـزون عـن الفرارِ من عقابِ الله

أُوثِرَ التَّعبيرُ بالاسمِ ﴿مُعۡجِزِينَ﴾ دونَ الفعلِ (يُعجزون) للدِّلالة على الدَّيمومةِ التي لا ترتبطُ بزمنٍ دونَ زمنٍ، فقد نفَى عنهم بذلك أن يُعجِزوا اللّه سُبحانه ألبتَّةَ، في الماضي وفي الحال وفي المستقبل، وهذا ضربٌ من ضروب التَّوكيدِ، فقد "نفَى عنهم صفةَ الإعجازِ أصلًا؛ أي: لن يُفلِتوا من عذاب اللّه وعقابِه. وجاء بالاسمِ الذي هو أثبتُ وآكدُ منَ الفعل"[4].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالمسنَدِ جملةً اسميَّةً:

عذابُ الكافرين في الدُّنـيـا لا مَهربَ منه

جاء المُسندُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جملةً اسميَّةً مُصدَّرةً بالفعلِ النَّاقصِ مُسنَدًا إلى ضميرِ جمعِ الغائبين المُشارِ إليهم. وقد حقَّق هذا غيرَ فائدةٍ بلاغيَّةٍ، حيث

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/35.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.
(3) حجازي، الواضح: 2/112.
(4) الهلال، الثري الجامع: 5/183.

أفادَ مجيءُ المُسندِ جملةً تقوّيَ الحُكْمِ وتوكيدَه، وأفاد مجيئُه جملةً اسميَّةً الثُّبوتَ؛ فإنَّ من شأنِ الجملةِ الاسميَّةِ أنْ تدلَّ على الثُّبوت[1]، وفي ذلك تأكيدٌ لوقوعِه وتهديدٌ لهم.

معنى اللّامِ ودَلالتُها في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

لا ملجأَ للكافرين منَ الله؛ فالأرضُ جميعًا تحت سُلطانِه

اللَّامُ في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ لبيان الجنْسِ، فهي تصْدقُ على كلِّ ما تدلُّ عليه كلمةُ (أرض)، والمقصودُ من هذا التَّعريفِ الاستغراقُ، فإنَّهم لم يكونوا مُعجِزين في أيِّ أرضٍ، وهذا الاستغراقُ يفيدُ تأكيدَ النَّفيِ"فهذا نفيٌ للملاجئِ والمعاقلِ التي يَستعصمُ فيها الهاربُ[2].

نُكتةُ تخصيصِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالذِّكْرِ:

الكافرون تحت سُلطانِ الله؛ فالأرضُ كلُّها في قبضتِه

خصَّ النّظمُ الكريمُ الأرضَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ تصرُّفَ ابنِ آدم وتمتُّعَه إنَّما هو فيها، وهي قُصاراهُ لا يستطيعُ النُّفوذَ منها[3]، وأشار إلى عجْزِهم بأنَّهم لا يَقدرون على بلوغ العالَمِ العُلويِّ بقوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

معنى الحرفِ ﴿فِي﴾ ودلالتُه:

الكافرون في مُلكِ الله، والأرضُ وِعاؤُهم

﴿فِي﴾ هنا في قولِه تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تفيدُ الظَّرفيّةَ المكانيَّةَ، وهي على أصلِ معناها، حيث جُعلتِ الأرضُ كالوعاءِ الجامعِ لِما فيه[4]، وأمَّا دلالتُه هنا فهي بيانُ مدَى ضعْفِ هؤلاءِ المُخاطَبين؛ إذ هم في الأرض لا يَستطيعون النُّفوذَ منها.

تنوُّعُ إعرابِ جُملة ﴿لَمۡ يَكُونُواْ﴾ ودَلالتُه:

لن يَدْرأَ الكافرون عذابَ الله؛ فهو القاهرُ فوقَ عبادِه

قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في محلِّ رفعٍ مبتدأٌ، وجُملةُ ﴿لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ﴾ في محلِّ رفعٍ خبرُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، و﴿مُعۡجِزِينَ﴾ خبرُ

---

(1) الصعيدي، بغية الإيضاح: 1/187.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/197، والآلوسي، روح المعاني: 6/232، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/35.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/160.

(4) السامرائي، معاني النحو: 3/57.

﴿يَكُونُواْ﴾[1]، ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ﴾ حالًا، وجملةُ ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ خبرًا أوَّلَ[2]، فالآيةُ صيغتْ في قالبِ الجملةِ الاسميَّةِ، والتَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ يفيدُ الثُّبوتَ، فهذا هو الحالُ الدَّائمُ الذي لن يتغيَّرَ، فاللّه تعالى قويٌّ عزيزٌ لا يُغالَبُ، وهم لن يَبلُغوا أن يَدْرؤوا عن أنفسِهم العذابَ.

دَلالةُ الحالِ في قولِه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

لاخروجَ عن قبْضةِ الله

قولُه تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حالٌ منَ الضَّميرِ البارزِ المتَّصلِ في ﴿يَكُونُواْ﴾، ودَلالةُ هذه الحالِ بيانُ ملازمتِها لصاحبِها؛ أي: أنَّهم لا يَخرُجون عن قبضةِ اللّه سُبحانه على كلِّ حالٍ[3]، فأنَّى يُعجِزونه وقد ملكَهم وأحاطَ بهم؟!

دَلالةُ العطْفِ في ﴿وَمَا كَانَ﴾:

ما كان للكافرين مِن أنصارٍ يَمنعونَهم من عقابِ الله

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ معطوفٌ على قولِه سُبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وقد حَسُن هذا العطفُ؛ لِما بين الجُملتين الكريمتين ممَّا يُسمّيه البلاغيُّون التوسُّطَ بين الكمالَيْن، إضافةً إلى أنَّ هذا العطفَ قد عدَّد مظاهرَ قُدرةِ اللّه عليهم مع التَّدليل على ضعْفِهم، فلمَّا نفَى التَّعذُّرَ بأنفسِهم، نفاه من جهة غيرِهم[4]، "فجمع لهم نفيَ سببَيِ النَّجاةِ من عذاب القادرِ، وهُما: المكانُ الذي لا يصلُ إليه القادرُ، أو معارضةُ قادرٍ آخرَ إيَّاه يمنعُه من تسليط عقابِه"[5].

دَلالةُ ﴿وَمَا﴾ في ﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾:

﴿وَمَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾

(1) درويش، إعراب القرآن: 4/330، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 5/152.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36.
(3) درويش، إعراب القرآن: 4/330.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/35.

هي نافيةٌ[1]، والمعنى: نفيُ الإعجازِ عنهم، ونفيُ وجودِ الأولياء لهم. "وقيل: (ما) بمعنى: الذي. تقديرُه: أولئك لم يكونوا مُعجِزين، لا هم ولا الذين كانوا لهم من أولياءَ مِن دون الله"[2]. فالأوَّل فيه نفيٌ لشيْئَين عن فريقٍ واحدٍ: أن يكونوا مُعجِزين، وأن يكونَ لهم أولياءُ. والثَّاني فيه نفيٌ لشيءٍ واحدٍ، وهو الإعجازُ ولكن عن فريقين: الكافرين وأوليائِهم.

عجزُ الكافرين وأنصارِهم عن دفْعِ عذابِ الله

سرُّ التَّنوُّعِ بين ﴿لَمْ يَكُونُوٓاْ﴾، و﴿وَمَا كَانَ﴾:

نفيُ الإعجازِ والأولياءِ عنِ الكافرين في الماضي والمُستقبل

جاء النَّفيُ في الآية مُتنوِّعًا بين نفيِ المضارع في قولِه تعالى: ﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ونفيِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ ويرجعُ الفرقُ بينهما إلى دلالةِ كلِّ أداةٍ منهما على النَّفيِ في أصل الوضْعِ؛ فإنَّ (ما) النَّافيةَ هي حرفٌ لا عملَ له إذا دخل على الفعل، يَنفي الماضي والمضارعَ، أمّا (لم) فهو حرفُ نفيٍ وقلبٍ وجزمٍ، وتختصُّ بالدُّخول على المضارع، ويَقلبُه منَ الزَّمن الحاضرِ إلى الماضي ويَستغرقُ الماضيَ والمستقبلَ[3]، والملحوظُ أنَّ نفيَ المضارع - الذي قَلبت (لم) زمنَه إلى الماضي - جاء مع الإعجازِ، وذلك للدَّلالةِ على أنَّ حدَثَ الإعجازِ لم يَحصلْ في الماضي مع تطاوُلِ المدَّة واستمرارِها، وكثرةِ تقلُّبِ أحوالِ المخاطَبين، وهذا مبالغةٌ في تأكيد النَّفيِ[4]، وجاء نفيُ الماضي مسبوقًا بـ (ما) مع الأولياء، للدَّلالةِ على أنَّ هذا الأمرَ لم يقعْ ألبتَّة، وفي هذا تعريضٌ بهم، فإنَّ كلَّ مَن ظنُّوا أنَّه سيَنصرُهم مِن دون الله لم يكن لينصرَ نفسَه فضلًا عن أن ينصُرَهم[5].

(1) درويش، إعراب القرآن: 4/330.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/19.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/193، 197.
(4) السامرائي، معاني النحو: 4/195.
(5) السامرائي، معاني النحو: 4/197.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُم﴾:

العنادُ عاقبَتُه تخصيصُهم بعذابٍ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُم﴾ للتَّخصيصِ والاهتمامِ، فهؤلاء الكافرون المُعانِدون الذين ظنُّوا أنَّهم دفَعوا عن أنفسِهم العذابَ باستنصارِهم بأندادِهم وأصنامِهم فعَلوا ذلك ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، فهذا بيانٌ لِمدى جُحودِ القوم ومدَى تجرُّئِهم على ربِّهم جل وعلا.

معنى اللَّامِ ودَلالتُها في ﴿لَهُم﴾:

ليس للكافرين أنصارٌ يَمنعونَهم من عذابِ الله

اللَّامُ في قولِه تعالى: ﴿لَهُم﴾ للاختصاصِ، ومعناها هنا أنَّهم: لا يَملِكون مَن ينصرُهم ويدافعُ عنهم بين يدي اللّه تعالى، وليس معهم ما يَدفَعون به عن أنفسِهم العذابَ، أو يَفتدون به أنفسَهم منَ النَّار.

معنى ﴿مِّن﴾ ودَلالتُها:

اللهُ وحدَه هو الوليُّ النَّصيرُ

﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هي (مِن) الجارَّةُ التي تُزادُ في الظُّروف غيرِ المتصرِّفةِ[1]. وقد دلَّت على نفْي إمكانِ الولايةِ يومَ القيامة عن كلِّ مَن هو دونَ اللّه تعالى، فإنَّ اللّه سُبحانه هو وحدَه الوليُّ والنَّصيرُ، فلمَّا كانت الرُّتبُ التي هي دونَ عظمتِه سُبحانه متكاثرةً جدًّا، بيَّن أنَّهم معزولون عن كلٍّ منها بإثبات الجارِّ فقال: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الملكِ الأعظمِ[2].

معنى ﴿دُونِ﴾ ودَلالتُها:

اللهُ سُبحانه هو القاهرُ فوقَ عبادِه

قولُه تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بمعنى: من غيرِ اللّه، فـ﴿دُونِ﴾ اسمٌ غيرُ ظرفٍ[3] وتدور معاني جذرِه حول القُربِ[4]، والخفض عنِ الشَّيء، والقصورِ عنِ الغاية، والخِسَّةِ والحقارةِ[5]، ففيه دَلالةٌ على

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دون).
(5) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دون).

عُلوِّ اللّه سبحانه على جميع خلْقِه، فهو سُبحانه العليُّ، وجميعُ خلْقِه دونَه، وفيه دَلالةٌ أيضًا على حقارةِ ما كان الكافرون يَستنصرون بهم، وما دامَ المُستنصَرُ به حقيرًا فإنَّ مَن استنصرَ به أذلُّ وأحقرُ!

سِرُّ التَّعبيرِ في قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّـهِ﴾:

اللّه هو القهَّارُ الغالبُ على كلِّ شيءٍ

عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لِما في الألوهيَّةِ من مَعاني العُلوِّ والقهرِ والغلَبةِ والغِنى والكمالِ المُطلَقِ والاستحقاقِ للعبوديَّة، ولِما يتضمَّنُه لفظُ ﴿دُونِ﴾ منَ السُّفولِ والانحطاطِ والخِسَّةِ، فهذه المقابلةُ الصَّارخةُ بين الدِّلالتَيْن ممَّا له أبلغُ الأثرِ في إيقاعِ المعاني في القلوبِ.

معنى ﴿مِّن﴾ ودَلالتُها:

ليس للكافرين أيُّ وَلِيٍّ يَنصرُهم من دونِ الله

﴿مِّن﴾ الجارَّةُ لـ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ لتأكيدِ استغراقِ الجنسِ المَنفيِّ؛ أي: ما كان لهم فردٌ من أفرادِ جنسِ الأولياء[1]، فهي المُسمَّاةُ بـ (مِن) الاستغراقيّةِ؛ فقدِ استغرقتِ النّفيَّ المطلقَ، وعمَّمتْه، وأفادتِ التَّوكيدَ؛ أي: تأكيدَ نفيِ وجودِ الوليِّ[2]؛ أي: ما كان لهم أيُّ وليٍّ منَ الأولياءِ[3].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالأولياءِ دونَ غيرِها:

الوليُّ هو القريبُ الـذي يَـنـصـرُ ويُعينُ

تدورُ معاني الولايةِ حولَ القُربِ، والدّنوِّ، واللُّزوم، والمتابعةِ، والرِّعايةِ بالقيامِ على المصالحِ[4]. وقد عُبِّرَ عنِ الحلفاءِ والأنصارِ والأعوانِ هنا بلفظِ الأولياءِ لِما في الولايةِ من معاني المحبَّةِ والنُّصرةِ التي تلازمُ القُربَ غالبًا أو تنشأُ عنه، فنفَى اللّه سُبحانه في الآيةِ وجودَ أولياءَ يَنصرون الكافرين، وأغرقَ في النَّفيِ بقوله: ﴿مِنۡ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36، والآلوسي: روح المعاني: 6/232.

(2) الهلال، الثري الجامع: 5/184.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3692.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ولي).

﴿أَوۡلِيَآءَۘ﴾؛ أي: يفعلون معهم ما يفعلُ القريبُ من تَولّي المصالح، والحمايةِ مِن المصائبِ، ومَن لم يقدرْ على الامتناعِ وهو حيٌّ لم يمتنعْ بعد موتِه[1]، ويجوزُ أن يُرادَ بالأولياءِ الأصنامُ التي تولَّوْها؛ أي: أخلَصوا لها المحبَّةَ والعبادةَ، ومعنى نفْيِ الأولياءِ عنهم بهذا المعنى نفْيُ أثرِ هذا الوصْفِ؛ أي: لم تنفعْهُم أصنامُهم وآلهتُهم[2].

نُكتةُ الجمْعِ في ﴿أَوۡلِيَآءَۘ﴾:

لا يُغني الأولياءُ مِن دونِ الله مهما كثُروا وتنوَّعوا

جاء لفظُ ﴿أَوۡلِيَآءَۘ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ﴾ بصيغة الجمع، وذلك إمَّا باعتبار أفرادِ الكفرةِ، فكأنَّه قيل: وما كان لأحدٍ منهم مِن وليٍّ، وإمَّا باعتبار تعدُّد ما كانوا يَدْعون من دونِ اللّه تعالى، فيكونُ ذلك بيانًا لحالِ آلهتِهم مِن سقوطِها عن رُتبةِ الولايةِ[3].

بَلاغةُ الاستئنافِ في ﴿يُضَٰعَفُ﴾ ودَلالتُه:

عذابُ الكافرين مُضاعَفٌ؛ لأنَّهم صَدّوا عن سبيلِ الله

قولُه تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن سؤالٍ مقدَّرٍ بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ﴾، فكأنَّه قيل: هؤلاء الذين لن يكونَ لهم يومَ القيامة مَن ينصرُهم أو يدفعُ عنهم: ماذا يُفعل بهم؟ فقيل: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾؛ أي: يُفعل فيه فعْلُ من يناظرُ آخَرَ في الزِّيادة[4]، فهي جملةٌ مستأنَفةٌ تتضمَّنُ حِكمةَ تأخيرِ المُؤاخذة، وتبيِّنُ ما يكونُ لهم ويَحلُّ بهم[5]، ولتأكيدِ أنَّ تأخيرَ العذابِ والتَّراخي عن تعجيلِه لهم ليكونَ عذابًا مُضاعَفًا بسبب صدِّهم عن سبيل اللّه وإنكارِهمُ البعثَ، بعدَ الموتِ[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/35 - 36.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/197، والآلوسي، روح المعاني: 6/232.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/197، والآلوسي، روح المعاني: 6/232.
(6) الشوكاني، فتح القدير: 2/557، والقنوجي، فتح البيان: 6/162.

دَلالةُ التَّعبيرِ بصيغة ﴿يُضَٰعَفُ﴾:

بُنيَ الفعلُ ﴿يُضَٰعَفُ﴾ للمفعول فلم يُسمَّ فاعلُه للعلْم به، وهو اللّه ﷻ، فهذا أمرٌ لا يقدرُ عليه إلا اللّه، ولأنَّ المراد وجودُ المضاعفةِ مطلقًا[1]، فمقصودُ الآية إثباتُ مضاعفةِ العذاب تنكيلًا بالكافرين الذين ظنُّوا أنَّ تأخيرَ العذابِ عنهم بسببِ أنَّ أولياءَهم وأنصارَهم منَ الأوثان قد حمَوهم ودافَعوا عنهم، فالآية تردُّ عليهم، وتُثبتُ وجودَ ما ادَّعَوا عدمَه!

مَن يتولَّى تعذيبَ هؤلاء الكافرين هو الله ﷻ وحدَه

نُكتةُ تقديم ﴿لَهُمُ﴾ على ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُمُ﴾ للدِّلالة على الاختصاصِ؛ أي أنَّ هذا العذابَ العظيمَ المُضاعَفَ إنَّما هو لهم هم، قد أُعِدَّ خصوصًا لهم؛ وذلك لعظَمِ جُرمِهم، فما كان اللّه ﷻ ليَظلمَ أحدًا ولو مثقالَ ذرَّةٍ.

الكافرون لهم عذابٌ يخصُّهم وحدَهم

تنوّعُ القراءاتِ في ﴿يُضَٰعَفُ﴾:

قُرئَ في المتواترِ بالتَّضعيف: (يُضعَّف لهم العذاب)، وبصيغة المفاعلة: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾، والفرقُ بينهما عائدٌ إلى الفرق بين صيغةِ (فاعَلَ)، وصيغة (فعَّل)، فأمَّا الأولى فتدلُّ على المشاركةِ بين شيئَين، وتدلُّ على المُوالاةِ والمتابعةِ، وأمَّا الثَّانية فتدلُّ على التَّكثير والتَّعديةِ والإزالةِ وغيرها[2]، وممَّا سبق يُلحظُ في المفاعلة معنى: الموالاةِ؛ أي: الاستمراريةِ وعدمِ الانقطاع. ويُلحظُ في التَّفعيل معنى: التَّكثير، وكلا المعنيَين مرادٌ هنا، فإنَّ عذابَ هؤلاء الكفرةِ الفجرةِ شديدٌ وكثيرٌ، وهو مع شدَّته مُستمرٌّ ومُتوالٍ، فمعنى المضاعفة: الشِّدَّةُ؛ لأنَّهم يُعذَّبون عذابَين: عذابًا على ضلالِهم في أنفسِهم، وعذابًا على إضلالِهم غيرَهم[3]، والعذابُ المضاعَفُ هو

عذابُ الكفرةِ شديدٌ كثيرٌ، وهو مُستمرٌّ مُتوالٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.

(2) الحملاوي، شذا العرف، ص: 31 - 32.

(3) الصاوي، حاشية على الجلالين: 2/211.

عذابُ الآخرة بقرينة قوله: ﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ المُشْعِرِ بتأخيرِ العذابِ عنهم في الدُّنيا لا عن عجْزٍ[1].

نُكتةُ توجيهِ معنى ﴿يُضَٰعَفُ﴾:

سَيِّئاتُ أهلِ الكفْرِ مُضاعفةٌ؛ لذا تَقتضي عِقابًا مُضاعَفًا

إن قيل: ما معنى تضعيفِ العذابِ، وقد قال في موضعٍ آخرَ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: 160]؟

فالجوابُ من وجهين: أحدُهما: أنَّ مضاعفةَ العذاب بمضاعفةِ الجُرم.

والآخرُ: أنَّ الآية في رؤساءِ أهلِ الشّرك، وتضعيفُ العذابِ عليهم بتضليلِ الأتباعِ ودُعائِهم إيَّاهم إلى شركِهم[2].

تنوّعُ الموقعِ الإعرابيِّ في ﴿يُضَٰعَفُ﴾ ودَلالتُه:

مُضاعفةُ العذاب حكمٌ ثابتٌ، وحالٌ مُستمرٌّ

قولُه تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ خبرٌ عنِ اسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ خبرًا أوَّلَ، وجملةُ ﴿يُضَٰعَفُ﴾ خبرًا ثانيًا، ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ﴾ حالًا وجملةُ ﴿يُضَٰعَفُ﴾ خبرًا أوَّلَ[3]، ودَلالةُ الخبرِ حُكمٌ للمسندِ إليه، ودَلالةُ الحالِ قيْدٌ لحالِهم في العذاب.

معنى ﴿مَا﴾ ودَلالتُها في قوله: ﴿مَا كَانُواْ﴾:

الكافرون لا يستطيعون سماعَ الحقِّ ولا رُؤيتَه

في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ﴾ يجوزُ في ﴿مَا﴾ هذه ثلاثةُ أوجُه:

أحدُها: أن تكونَ نافيةً، نفى عنهمُ السَّمعَ والبصرَ لَمَّا لم يَنتفعوا بهما وإن كانوا ذَوي أسماعٍ وأبصارٍ، أو يكونُ متعلَّقُ السَّمع والبصرِ شيئًا خاصًّا.

والثَّاني: أن تكونَ مصدريَّةً، وفيها حينئذٍ تأويلان:

أحدُهما: أنَّها قائمةٌ مقامَ الظَّرف؛ أي: مدَّةَ استطاعتِهم ذلك،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36.
(2) السمعاني، تفسير القرآن: 2/421.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36.

وتكونُ ﴿مَا﴾ منصوبةً بـ ﴿يُضَٰعَفُ﴾؛ أي: يضاعَفُ لهمُ العذابُ مدَّةَ استطاعتِهم السَّمعَ والإبصارَ؛ أي: أبدًا، كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: 107]؛ أي: مدَّةَ دوامِ السَّماوات والأرض؛ أي: أبدًا.

الثَّاني: أنَّها منصوبةُ المحلِّ على إسقاط حرفِ الجرِّ، كما يُحذف من أنْ وأنَّ أختيها، وإليه ذهب الفرَّاءُ، وذلك الجارُّ المقدَّرُ متعلِّقٌ أيضًا بـ ﴿يُضَٰعَفُ﴾؛ أي: يضاعفُ لهم بسبب كونِهم كانوا يَسمعون ويُبصرون ولا يَنتفعون.

الثَّالث من أوجُه ﴿مَا﴾: أن تكون بمعنى الذي، وتكونُ على حذْفِ حرفِ الجرِّ أيضًا، أي: بسببِ الذي كانوا، وفيه بُعدٌ؛ لأنَّ حذْفَ الحرفِ مع (ما) الموصولة لا يطَّرِدُ، والجملةُ من قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ﴾ مستأنَفةٌ[1].

تنوّعُ الموقعِ الإعرابيّ ودَلالتُه في ﴿مَا كَانُواْ﴾:

أهلُ الصَّممِ والعَمى لا يَصلُحون للولاية

يجوزُ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ خبرًا عنِ اسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أو حالًا منه، فتكونُ استطاعةُ السَّمعِ المَنفيَّةُ عنهم مُستعارةً لكراهيتِهم سماعَ القرآن وأقوالِ النَّبيِّ ﷺ. ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ حالًا لـ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، وسوَّغَ كونَها حالًا منَ النَّكرةِ أنَّ النَّكرةَ وقعتْ في سياقِ النَّفْيِ، والمعنى: أنَّهم جعَلوها آلهةً لهم في حالِ أنَّها لا تستطيعُ السَّمعَ ولا الإبصارَ! وإعادةُ ضميرِ جمْعِ العقلاءِ على الأصنامِ على هذا الوجْهِ منظورٌ فيه إلى أنَّ المشركين اعتقَدوها تعقِلُ، ففي هذا الإضمارِ مع نفْيِ السَّمعِ والبصرِ عنها ضربٌ منَ التَّهكُّم بهم[2].

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/302، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/137، والزحيلي، التفسير المنير: 12/44.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36.

سِرُّ التَّعليلِ بجُملةِ: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ﴾:

فُصِل قولُه تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ عن سابقِه لِما بينَهما من شِبْه كمالِ الاتِّصال، إذ قد ينشأُ سؤالٌ عن قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ مُفادُه: ما علَّةُ مضاعفةِ العذابِ لهم؟ وما الذي جعلَهم يَستحقُّون هذا الوعيدَ الشَّديدَ؟ فتكونُ الإجابةُ: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾، فلأجلِ أنَّهم أصَمّوا آذانَهم عن سماع الحقِّ، وكرِهوه أشدَّ الكراهةِ، واستثْقَلوا سماعَه أعظَمَ الاستثقالِ، وتعامَوْا عن آياتِ الملكِ المتعالِ[1]، وكان هذا منهم إصرارًا على الكفرِ والصَّدِّ عن سبيلِ اللّه - لأجل هذا كلِّه - ضوعِفَ عذابُهم، فلم يُجْزَوا إلَّا بما عملوا، فكان جزاءً وِفاقًا، وليس المرادُ نفْيَ السَّمعِ والبصرِ، بلِ المقصودُ أنَّهم - وإن كانوا يَسمعون ويُبصرون في الظَّاهر - ما استَخْدَموا هاتين الحاسَّتَيْن استخدامًا صحيحًا في تلقِّي المعارفِ والمعلوماتِ وتكوين العقيدةِ السَّليمةِ، ونظرًا لعنادِهم وعُتوِّهم وكراهتِهم الحقَّ والهُدى، ما كانوا يُطيقون سمْعَ آياتِ القرآنِ والتَّبصُّرَ بآياتِ الكونِ[2].

ليستِ العِبرةُ بوجودِ الآلةِ وإنَّما العِبرةُ بحسْنِ استثْمارِها

الغرَضُ منَ التَّشبيهِ التَّمثيليِّ في ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ﴾:

البديهةُ دلَّت على أنَّهم كانوا يَسمعون الأصواتَ والحروفَ، فوجبَ حمْلُ اللّفظِ على الثَّاني[3]، فليس المرادُ أنَّهم صُمٌّ حقيقةً، بل شُبِّهت حالُهم بحالِ الأصمِّ الذي لا يستطيعُ السَّمعَ؛ ذلك لأنَّهم لا يَتدبَّرون ما يَسمعون من دعوةٍ إلى الحقِّ وآياتٍ تُتلى وفيها الإعجازُ، فكانوا كأنَّهم لا يَسمعون[4] فقد شُبِّه حالُهم في إعراضِهم عنِ الحقِّ وبُغضِهم له واستثْقالِهم سماعَه لداء الكِبْرِ في نفوسِهم بحال مَن

مثلُ الكافرِ كمثلِ الأصمِّ الأعمَى؛ لا تنفعُه أُذناهُ ولا تَهْديه عيناهُ

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/232.

(2) الزحيلي، التفسير المنير: 12/47 - 48.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/333.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3693.

لا يستطيعُ أن يَسمعَ الأصواتَ لداءٍ في أذنِه بجامعِ عدمِ الانتفاعِ بالمسموعِ في كلٍّ. وكذلك شُبِّه حالُهم في تعاميهم عن رؤية الدَّلائلِ الباهرةِ والحُججِ السَّافرةِ بحال مَن لا يُبصرُ لداءٍ في عينَيْه بجامعِ عدمِ الانتفاعِ في كلٍّ، فهو تشبيهٌ لهم بالأعمَى والأصمِّ، ولمَّا كان وجهُ الشَّبه مُنتزَعًا من عدَّة أمورٍ كان تمثيليًّا؛ لأنَّه تشبيهُ مركَّبٍ بمركَّبٍ[1]، وقيل: في الكلام استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، ولا مانعَ مِن اعتبارِ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ بدلَها[2]؛ لأنَّ نفْيَ استطاعةِ السَّمعِ والبصرِ مع سلامةِ الحواسِّ هو استعمالٌ معروفٌ للخاصَّة والعامَّة، يقولون: لا أُطيقُ النَّظرَ إلى فلانٍ ولا أستطيعُ أن أسمعَ كلامَه مِن بُغضِه ونفرتِه عنه[3]، وكذا قول القائل: العاشقُ لا يستطيعُ أن يسمعَ كلامَ العاذلِ[4].

بَلاغةُ الكنايةِ في الآية:

أهلُ الكفرِ يَكرهون الحقَّ ويُعرِضون عنه

في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ كنايةٌ عن عدمِ قَبولِهم للحقِّ، وأنَّ شدَّةَ إعراضِهم عنه وصلت إلى حدٍّ صارت فيه تُوصَفُ بعدمِ الاستطاعةِ؛ كما يقولُ الإنسانُ لِما تشتدُّ كراهتُه له: هذا ممّا لا أستطيعُ أن أسمعَه[5]، وبلاغةُ الكنايةِ تتأتَّى من كونِها تأتي بالمعنى المُرادِ التَّعبيرُ عنه مصحوبًا بالدَّليلِ عليه في إيجازٍ.

نُكتةُ البدْءِ بنفْيِ السَّمعِ ثمَّ نفْيِ البَصرِ:

السَّمعُ مُقدَّمٌ على البصرِ

قُدِّمَ السَّمعُ في هذه الآية على البصر؛ لأنَّ حاسَّتَه أشرفُ من حاسَّةِ البصرِ، إذ عليه تُبنى في الأطفالِ معرفةُ دلالاتِ الأسماءِ، وهو كافٍ في أكثرِ المعقولاتِ دونَ البصر، إلى غير ذلك من

(1) درويش، إعراب القرآن: 4/331.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/232.
(3) ابن القيم، مفتاح دار السعادة: 1/280.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/232.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 9/258.

أسباب التقديم[1]، ويدلُّ التّقديمُ على أهميَّة السَّمعِ على البصرِ، قال الله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: 78][2].

دَلالةُ نفْيِ الاستطاعةِ في السَّمع:

ليس حجْبُ السَّمع كحجْبِ البصرِ

في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ خُصِّص السَّمعُ بنفيِ الاستطاعةِ فيه دونَ البصر؛ لأنَّ نفْيَ الاستطاعةِ أعرقُ في العيْبِ، وأدلُّ على النَّقصِ، وأنكأُ من نفيِ السَّمع؛ لأنَّهم قد يحملونَه على الإجابة، وأمَّا نفيُ البصر فغير مُنفكٍّ عنِ النَّقص سواءٌ كان للعين أو للقلب[3]؛ لذا بولِغ في نفيِ الأوَّل عنهم واكتُفِي في الثَّاني بنفيِ الإبصار[4]، فعبِّر مع السَّمع بنفيِ الاستطاعة، ولم يقل هنا: وما كانوا يستطيعون أن يُبصِروا؛ لأنَّهم كانوا يبصرونَها، ولكنَّ مجرَّدَ الإبصار غيرُ كافٍ في حصول الاستدلالِ حتى يُضمَّ إليه عملُ الفكر بخلاف السَّمعِ في قولِه: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾[5].

بَلاغةُ عطْفٍ في الآية:

تنوّعت أسبابُ ضَلالِ الكافرين وصُوَرُ إعراضِهم عــنِ الــحــقِّ والرّشادِ

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾، وقد حسُنَ الوصلُ لِما بين الجُملتَيْن من المناسبةِ، واتِّفاقِهما في الخبريَّة، ولأنَّه قد قُصد تشريكُ الثَّانية مع الأُولى في الحُكمِ الإعرابيِّ؛ فجملةُ: ﴿وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ لا محلَّ لها منَ الإعراب؛ لأنَّها معطوفةٌ على جملةِ ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ وهي جملةٌ تعليليَّةٌ[6]، وهذا العطفُ أفادَ تعديدَ الصِّفاتِ الخبيثةِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/161.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 5/184.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/258.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/197، والآلوسي، روح المعاني: 6/232.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/37.
(6) محمود صافي، الجدول: 6/243.

المَقيتةِ التي اتَّصفَ بها هؤلاء الكافرون الصّادّون عن سبيل اللّه، والتي استحَقّوا بها مضاعفةَ العذابِ لهم.

معنى ﴿وَمَا﴾ في ﴿وَمَا كَانُواْ﴾ ودلالتُها:

تأكيدُ نفيِ سماعِ الكافرين وإبصارِهم

﴿وَمَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ هي نافيةٌ[1]، ولَمَّا كانت (ما) أبلغَ في الدِّلالةِ على النَّفي من (لم) من حيث كوْنُها تأتي ردًّا على زعْمِ خاطئٍ يَسبقُها؛ دلَّ مجيئُها في هذا السِّياقِ على المبالغةِ في النَّفي، مع تضمُّنِها الردَّ على مَن يقول منَ المشركين: بل سمِعْنا وأبصرْنا ولم نجدْ في هذا حُجّةً لكي نؤمنَ!

دَلالةُ المضارعِ ﴿يَسۡتَطِيعُونَ﴾ و﴿يُبۡصِرُونَ﴾:

تكرُّرُ صَمِّ الكافرين وعَماهُم عن آياتِ رَبِّهِم، واستمرارُ هذه الحالِ

عُبِّر بالمضارعِ في قولِه تعالى: ﴿يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾، و﴿يُبۡصِرُونَ﴾ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ في الماضي، وذلك هو المفهومُ من سبْقِ الفعلَيْن ﴿يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾، و﴿يُبۡصِرُونَ﴾ بالفعل الماضي ﴿كَانُواْ﴾ والمفهومُ منَ النَّفي بـ ﴿مَا﴾، وما تُضْفيه دلالةُ المضارعِ على السِّياقِ أنَّ دواعِيَ السَّمعِ والإبصارِ قد توالت عليهم وتكرَّرتْ لهم، من آياتٍ تُتلَى، وآياتٍ تُرَى، ومع هذا لم يحصلْ منهم مجرَّدُ السَّماعِ ولا الإبصارِ، فضلًا عنِ التَّدبُّرِ والاعتبارِ.

لطيفةُ الإتيانِ بأفعالِ الكوْنِ:

تحقُّقُ عدَمِ سماعِهِم وإبصارِهم في الماضي والمستقبل

أُوثِر الإتيانُ بأفعالِ الكوْنِ في هذه الجمل من الآية الكريمة أربعَ مرَّاتٍ ابتداءً بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ﴾ إلى حتى قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ لإفادةِ ما يدلُّ عليه فعلُ الكونِ من تمكُّنِ الحدثِ المُخبَرِ به، فقولُه: ﴿لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ﴾ آكدُ من: لا يعجزون، وكذلك أخواتُه[2]. والجمعُ بين الماضي والمستقبل في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ للدِّلالةِ على استمرارِ غفلتِهم عنِ الآياتِ

(1) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 5/153.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/37.

وتجدُّدِها وقتًا بعدَ آخرَ، فكلمةُ ﴿كَانُواْ﴾ تدلُّ على الماضي، وكلمةُ ﴿يُبۡصِرُونَ﴾ تدلُّ على المستقبل، وكذلك الأمرُ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾[1]، وروعِيَ الاختلافُ بين صِيَغ أفعالِ الكون إذ جاء أوَّلُها بصيغةِ المضارع والثَّلاثةُ بعدَه بصيغة الماضي؛ لأنَّ المضارع المجزومَ بحرف (لم) له معنى المُضيِّ، فليس المخالفةُ منها إلا تفنُّنًا[2].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّة:

الولايةُ والنَّصرُ:

الواو واللّام والياء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على القُرب[3]، وأصلُ الوَلْي جعلُ الثّاني بعد الأوّل من غيرِ فصلٍ من قولهم: هذا يَلي ذاك وَليًا. ووليَ فلانٌ فلانًا: تبعَه من غير فصلٍ[4]، وكلُّ مَن يَليك أو يُقاربُك فهو وَليٌّ[5].

والنّون والصّاد والرّاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إتيان خيرٍ وإيتائِه[6]. ومعناه المحوريُّ: الإمدادُ بما فيه زيادةُ مناسِبةٌ وقوَّةٌ، ومن مَلحظِ الإمدادِ بالزِّيادةِ والقوَّةِ جاء النّصرُ، والنُّصرةُ: الإعانةُ[7]. فالملحَظُ في لفظِ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ القُربُ، وفي لفظِ (ناصرين) الإمدادُ بالقوَّةِ والإعانةِ، وهؤلاء ما كان لهم من دونِ اللّٰه أولياءُ يَفعلون معهم ما يفعلُ القريبُ من تَولّي المصالحِ والحمايةِ مِنَ المصائبِ[8]؛ لذا أُوثِر لفظُ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3693.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/37.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 284، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ولي).
(5) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 918.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل، والرّاغب، المفردات: (نصر).
(8) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١﴾ [هود: 21]

تجارةُ الكافرين خاسرةٌ، وعملُهم مُحبَطٌ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا أعرَضوا عنِ الشّريفِ الرّفيعِ، ورَضوا بالخسيسِ الوضيعِ؛ بيّنَ الله ﷻ أنَّهم لا شيءَ، وأنَّهم الخاسِرون من كلِّ وجْهٍ؛ فلا هم حصَّلوا مصلحةً دُنيويّةً ولا منفعةً أُخرويّةً، ولا اسْتطاعوا سترَ عَوارِ ادّعاءاتِهم الكاذبةِ على ربِّ العالَمين ﷻ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَسِرُوٓاْ﴾: الخُسْرُ والخُسْران: النَّقصُ، يقالُ: خَسِر يَخْسَرُ خُسْرًا وخُسْرَانًا؛ أي: نقصَ. ويقال: كِلتُه ووَزَنْته، فخَسَرْته وأخْسَرْته: نَقَصْته وأنْقَصْته(2). وأصلُه يدورُ حول معنى نقْصِ الشَّيءِ بذهابِ أجزاءٍ منه(3)، ويُستعملُ الخُسرانُ كذلك في "المُقتنياتِ النَّفسيَّةِ كالصِّحَّةِ والسَّلامةِ، والعقلِ والإيمانِ، والثَّوابِ، وهو الذي جعلَه الله تعالى الخُسرانَ المبينَ"(4). وخَسِر وخُسْرَانًا وخَسَارة وخَسَارًا، فهو خاسرٌ وخَسِرٌ، كلُّه بمعنى: ضلَّ. ومنه قولُ الله ﷻ: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾(5) [الحج: 11]. وأما قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢﴾ [العصر: 2]. أي: في عقوبةٍ بذنوبِه، وأن يخسرَ أهلَه ومنزلَه في الجنّةِ(6).

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/372، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/334، والبقاعي، نظم الدّرر: 9/258، والآلوسي، روح المعاني: 6/233، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/38.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خسر).

(4) الرّاغب، المفردات: (خسر).

(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خسر).

(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).

2) ﴿وَضَلَّ﴾: الضَّلالُ: ضدُّ الهُدى والرَّشادِ[1]، وهو العُدولُ عن الطَّريق المستقيم[2]. والفعلُ منه: ضَلَّ يضِلُّ ضلالًا وضلالةً، وأصلُه من ضياعِ الشَّيءِ وذهابِه في غير حقِّهِ[3]، ويقالُ أيضًا: ضلَّ الشَّيءُ إذا ضاع وهلكَ، فيكونُ الضَّلال بمعنى الضَّياع والتَّلف والفَوات[4]. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾. يعني: ضاع افتراؤُهم، وبطلَ ما كانوا يَزعُمون[5].

3) ﴿يَفْتَرُونَ﴾: الفَرْيُ: الإصلاحُ. فَرَيْتُ الشَّيءَ أَفْرِيه فَرْيًا: قَطَعْتُه لأُصلِحَه[6]. ومعناه المحوريُّ: قَطْعُ الشَّيء مع تهيئتِه لإصلاحٍ أو غيرِه كإفسادٍ ونحوه[7]، وفرَّى الشَّيءَ: شَقَّه وأفسده، وأفراه: كذلك بمعناه. يقال: أفراه يُفْرِيه إفراءً: أفسده. وفَرَى فلانٌ الكذبَ يَفْرِيه فَرْيًا، وافتراه يَفتريه افتراءً: خلَقَه واختلقَه[8]. و"استُعملَ في القرآن في الكذبِ، والشّركِ والظُّلمِ"[9]، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾. أي: "وبطلَ كذبُهم وإفكُهم وفِريتُهم على اللّه وادِّعاؤُهم أنَّ الملائكةَ والأصنامَ تشفعُ لهم"[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الصَّدُّ عن سبيلِ اللهِ عاقبَتُه خُسرانُ النَّفسِ، وحِرمانُ الشُّفعاءِ

أولئك الَّذين غَبنوا وفوَّتوا أنفسَهم حظوظَها من رحمة اللّه تعالى

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ضلل).
(2) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (ضلل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ضلل).
(4) الجوهري، الصحاح، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ضلل).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/20، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/237، والنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/53.
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فرى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فرى).
(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فرى).
(9) الرّاغب، المفردات: (فرى).
(10) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/479.

بافترائِهم عليه؛ فَحُرِموا أعظمَ الثَّوابِ واستحقُّوا أشدَّ العذابِ، وبَطَل كذبُهم وافتراؤُهم على الله بادِّعائِهم أنَّ له شركاءَ، وغاب عنهم ما كانوا يَزعُمون من شفاعةِ الملائكةِ والأصنامِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

الغرَضُ من كمالِ الاتِّصالِ في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾:

عــدمُ انـتـفـاعِ الكافرين بالآياتِ أنـزَلَـهـم منـازلَ الخاسِرين

بيْنَ الجملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ وسابقتِها كمالُ اتّصالٍ؛ لأنَّها في حُكمِ التَّوكيدِ لمضمونِها والبيانِ لِما فيها؛ ذلك أنَّ الآيةَ السَّابقةَ - وهي قولُه تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ - قد بيَّنتِ السَّببَ الدَّاعِيَ لأنْ يُضاعَفَ لهم العذابُ، "فعدمُ الإيمان مُسبَّبٌ عن حرمانِهم الانتفاعَ بأفضلِ نافعٍ. ويتسبَّبُ عن عدمِ الإيمان خُسرانٌ آخرُ، وهو خسرانُ الفوزِ في الدُّنيا بالسَّلامة منَ العذاب، وفي الآخرة بالنَّجاة منَ النَّار، وذلك يقال له خُسرانٌ ولا يقالُ له خُسرانُ الأنفس. وقد أشار إلى الخُسرانَيْن قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾"[2]. فلمَّا كانتِ الآيةُ مبيِّنةً لما قبلَها مُؤكِّدةً لمضمونِها أُوثِرَ فيها الفصلُ على الوصلِ، فاستُؤنِف بها، وأُوثِرَ الفصلُ أيضًا؛ لأنَّ الوصلَ قد يُوهِمُ أنَّ الكلامَ انتقل إلى فريقٍ آخرَ غيرِهم، فقيل: أولئك لم يكونوا مُعجِزين، وأولئك الذين خَسِروا أنفسَهم، فكأنَّهم فريقانِ، فلمَّا كان العطفُ قد يُوهِمُ خلافَ المقصودِ من أنَّ المُشارَ إليهم فريقٌ واحدٌ، وُصِفوا تارةً بأنَّهم لم يكونوا مُعجِزين، وتارةً بأنَّهم خسِروا أنفسَهم - لَمَّا كان ذلك كذلك - كان كمالُ الاتِّصالِ أنسبَ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/372، والبغوي، معالم التنزيل: 4/169، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/534.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/154.

سببُ خُسرانِ الكافرين هو كفْرُهم وصَدُّهم عن سبيل الله

دَلالةُ التّعبير باسم الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

تصديرُ الآية باسْمِ الإشارةِ للتَّنبيه على أنَّهم حَرِيُّون بما سيَرِدُ بعد اسم الإشارة مِنَ الخبرِ بسببِ ما قبْلَ اسم الإشارة مِنَ الوصْفِ، ولِما يُؤْذِنُ به اسمُ الإشارة من معنى تعليلِ ما قبْلَه فيما بعدَه[1]. واسمُ الإشارةِ هنا تأكيدٌ ثانٍ لاسم الإشارةِ في قولِه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [هود: 18][2] والتَّعبيرُ باسْمِ الإشارةِ في هذا السِّياقِ يفيدُ التَّحقيرَ؛ ذلك أنَّ مِن أغراضِ التَّعبيرِ باسم الإشارة: إفادةَ التَّحقيرِ، وذلك إذا وردَ في سياقِ الذَّمِّ، وممَّا يزيدُ هذا الذَّمَّ والتَّحقيرَ أنَّه عُبِّرَ فيه بصيغة البُعدِ؛ ليفيدَ بُعْدَهم عن كلِّ خيرٍ ورحمةٍ.

من لم يُزكِّ نفسَه بالهُدى عاقبَه الله بخُسران نفسِه

الغرَضُ مِنَ التَّعبيرِ باسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

مجيءُ المُسنَدِ اسمَ موصولٍ يفيدُ اتِّصافَ المُسندِ إليه بمضمون صلتِه، وأنَّ هذا الخُسرانَ لازَمَهم حتى أصبح شأنًا من شؤونِهم لا يَنفكُّ عنهم.

الكافرون خَسِروا بما بدَّلوا وضاعَ عنهم ما حصَّلوا فلم يَبقَ معهم سِوى الحَسرةِ

الغرَضُ مِنَ الاستعارةِ في ﴿خَسِرُوٓاْ﴾:

الخُسرانُ مُستعارٌ لإضاعةِ ما شأنُه أن يكون سببَ نفعٍ، وذلك أنَّهم لَمَّا أعرضوا عنِ التَّدبُّرِ في صدقِ الرَّسول ﷺ أضاعوا عن أنفسِهم أنفعَ سببٍ للفوز في العاجل والآجلِ، فكان ذلك سببَ أنْ لا يؤمنوا باللّه والرَّسولِ ﷺ واليومِ الآخرِ[3]، فالتَّعبيرُ عمَّا لحِقَهم من الضُّرِّ بالخسارة استعارةٌ؛ لأنَّه ضرٌّ أصابَهم من حيث كانوا يَرجون المنفعةَ، فهُم مثلُ التُّجّار الذين أصابَتْهم الخسارةُ من حيث أرادوا الرِّبحَ[4]؛ إذ إنَّهم اشتروا عبادةَ الآلهة بعبادة اللّه، فكان خُسرانُهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/32 - 33.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/38.
(3) ابن عاشور التحرير والتنوير: 7/154.
(4) ابن عاشور التحرير والتنوير: 12/39.

في تجارتهم أعظمَ خُسرانٍ[1]؛ لأنَّهم باعوا النَّفيسَ، واشتروا شيئًا هو سببُ عذابِهم المؤبَّدِ[2].

الكــــافــرون خــســـرت صـفـقـتُـهـم، وبـــــارت بـضـاعـتُـهـم، ولَـقُوا الـهوانَ، وذاقوا الحِرمانَ

الغرَضُ من حذفِ المضافِ في: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أُضيفَ الخُسرانُ إلى أنفسهم دون تعيينٍ لِما خسروه[3]، وهو على حذف مضافٍ؛ أي: خسروا راحةَ أو سعادةَ أنفسِهم، وإلا فأنفسُهم باقيةٌ معذَّبةٌ[4]، وأُوثِرَ حذفُ الرَّاحة أوِ السَّعادة مع إبقاء النَّفسِ؛ لأنَّه أنسبُ لمرامِ المقام؛ فإنَّ البقاء مع التّعذيبِ كلَا بقاءٍ! إذِ المقصودُ منَ البقاء الانتفاعُ به، وأينَ الانتفاعُ ببقاءٍ في الجحيم[5]!

خسارةُ الكافرين مُؤكَّدةٌ

دَلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿خَسِرُوٓاْ﴾:

في التَّعبيرِ بالماضي إفادةُ التَّحقُّق، وأنَّ هذا الأمرَ قد وقعَ وانتهى حدوثُه في زمنِ المُضِيِّ، وهذا ممَّا يفيدُ التَّوكيدَ.

الـكــــافـــرون خــــاسِـــرون؛ لأنّـهـمُ اشـتَرَوا الضّلالةَ بالهُدى

دَلالةُ العطْفِ في ﴿وَضَلَّ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، وقد ناسبَ أن يوصَلَ بينَهما لِما بينَهما مِن تمامِ المناسبةِ؛ حيث إنَّهما جملتان خبريَّتان، فعليَّتان، فعلُهما ماضٍ، وجيء بهما لتعديد عقوباتِ الكافرين الصَّادِّين عن دين اللّه تعالى.

الـضّـلالُ سبيلُ الافتراءِ ومُنتهاه

دَلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿وَضَلَّ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ عُبِّر عن ضلالِ المعبوداتِ الباطلةِ عمَّن عبَدوها بالفعلِ الماضي المفيدِ لتمامِ الوقوعِ، وأنَّ هذا أمرٌ كائنٌ لهم لا محالةَ، فلا مهربَ منه ولا مَحيدَ عنه. وآثرَ صيغةَ الماضي دونَ غيرِها للدِّلالةِ على تأكُّد هذا الخطأِ عند هؤلاء، وتحقُّقِ ضياعِهم

(1) القنوجي، فتح البيان: 6/163.
(2) الإيجي، جامع البيان: 2/169.
(3) الشهاب، حاشية على البيضاوي: 5/87.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/137.
(5) البروسوي، روح البيان: 4/113.

و﴿وَضَلَّ﴾ معناه: تلفَ، ولم يَجدوه حيث أمَّلوه[1]. والمعنى: أنَّهم لمَّا باعوا الدِّينَ بالدُّنيا خسِروا؛ لأنَّهم أعطَوا الشَّريفَ، ورضوا بأخذِ الخسيسِ، وهذا عينُ الخُسران في الدُّنيا، ثمَّ في الآخرة فهذا الخسيسُ يضيعُ ويهلِكُ ولا يبقَى منه أثرٌ، وهو المرادُ بقوله: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾[2].

معنى حرفِ الجرِّ ﴿عَنۡهُم﴾ ودَلالتُه:

يومَ القيامة يَتبرَّأُ الذين اتُّبِعوا ممَّن اتَّبعَهم من الكافرين

(عن) في قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ تفيدُ المجاوزةَ، ومعنى المجاوزةِ الابتعادُ[3].

وهذه مبالغةٌ في نفورِ المعبوداتِ الباطلةِ ممَّن عبَدها من دونِ الله، ومبالغةٌ في بيان ما سيكونُ يومَ القيامة مِن تبرُّؤ المَتبوعين مِن أتباعِهم، والتَّعبيرُ بـ (عن) دلَّ على بُعد المسافةِ بينهم وبين ما زعَموه إلهًا، وهذا تدليلٌ على فداحةِ الخسارةِ!

معنى ﴿مَّا﴾ ودَلالاتُها في ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾:

عبادةُ الكفرة الأصنامَ ضَلالٌ وافتراءٌ

﴿مَّا﴾ تحتملُ: الموصولةَ، والموصوفةَ، والمصدريَّةَ، فعلى الأوَّلَين مبنيَّةٌ على السُّكون في محلِّ رفعٍ فاعلٌ، والجملةُ الفعليَّةُ بعدَها صلتُها، أو صفتُها، والعائدُ، أوِ الرّابطُ: محذوفٌ، وتقديرُ الكلام: ضلَّ عنهمُ الذي، أو شيءٌ كانوا يفترونه، وعلى اعتبار ﴿مَّا﴾ مصدريَّةً: تُؤوَّل مع الفعلِ بعدَها بمصدرٍ في محلِّ رفعٍ فاعلٌ. والتّقديرُ: وضلَّ عنهمُ افتراؤهم[4]، وفي التَّعبيرِ عنِ الأوثانِ بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّها لا وجودَ لها في ذاتِها، وأنَّ وجودَها كآلهةٍ إنَّما هو في أوهامِهم وافترائِهم[5].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/161.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/334.
(3) السامرائي، معاني النحو: 3/53.
(4) الدرة، تفسير القرآن: 4/413.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3694.

سِرُّ إسنادِ الضَّلالِ إلى الأصنامِ:

كيفَ للكافرين أن يَهتدوا بمن لا يَسمعُ ولا يُبصرُ ولا يُغني شيئًا؟!

في إسناد الضّلالِ إلى الأصنام تهكُّمٌ على أصحابها؛ حيث شُبِّهت أصنامُهم بمَن سلك طريقًا لِيلحقَ بمَنِ استنجدَ به؛ فضلَّ في طريقه[1]، فكأنَّه قيل لهم: هذه أصنامُكم التي كنتم تَدعون، وبها تَطوفون، وعندها تجأرون، وتحت أحجارها تَذبَحون.. ولم تكن تسمعُ ولا تبصرُ، ولم تغنِ عنكم شيئًا..

دَلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الكوْنِ:

افتراءُ الكافرين دائمٌ فضلالُهم مُحقَّقٌ

التَّعبيرُ بفعل الكوْنِ في زمن الماضي: ﴿كَانُواْ﴾ جاء لإفادة ما يدلُّ عليه فعلُ الكون من تمكُّنِ الحدَثِ المُخبَر به، فقوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ آكدُ من: ما يَفترون[2]؛ لأنَّه يُعبِّر بماضيَّته عنِ التَّحقُّقِ والوقوعِ، وأنَّ هذا الوقوعَ كان متكرِّرًا في الماضي، وهو بمادَّته يعبِّر عمَّا فُطِروا عليه منَ الافتراء؛ فقولُه تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ﴾؛ أي: كوْنًا جُبِلوا عليه، فصاروا لا يَنفكُّون عنه[3].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَفۡتَرُونَ﴾:

افتراؤُهم مُتكرِّرٌ مُتجدِّدٌ

التَّعبيرُ بالمضارع ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ يفيدُ تكرُّرَ وقوعِ الفعلِ من فاعله، والإتيانُ به بعدَ الماضي ﴿كَانُواْ﴾ يدلُّ على أنَّ هذا الفعلَ كان ممَّا تكرَّرَ منهم في الماضي، فكأنَّهم مَرَدُوا على الافتراءِ، وتمرَّسوا فيه، فتجدَّدَ منهم وتكرَّرَ، وكلَّما جاءتْهُم آيةٌ من آيات الله ردُّوها وكفَروا بها، فوجبَ أن يوقَعَ بهم أقسى وأفظعُ ألوان العذاب.

الغرَضُ من حذْفِ مُتعلِّق الفعلِ ﴿يَفۡتَرُونَ﴾:

لا ينفعُ الكافرين كلُّ ما افترَوْه بعبادةِ غيرِ الله

حُذِف مُتعلَّقُ الفعل ﴿يَفۡتَرُونَ﴾، وتقديرُ المحذوفِ: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ من دونِ الله منَ الآلهة والأندادِ والأصنام، وشفاعتِها، فلم تُجدِ عنهم شيئًا، بل ضرَّتْهم كلَّ الضَّرَرِ[4].

(1) ابن عاشور التحرير والتنوير: 12/38.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/37.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/259.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/386، وابن كثير، تفسير القرآن: 4/314.

وسرُّ هذا الحذفِ هو القصدُ إلى التَّعميمِ في المفعول وامتناعِ أن يَقصرَه السَّامعُ على ما يُذكرُ معه دون غيره مع الاختصارِ[1]، وللاقتصارِ على إثبات المعاني، التي اشتُقَّت منها الأفعالُ لفاعليها، من غير تعرُّضٍ لذِكر المفعولين[2].

بَلاغةُ تنوع الجُملِ بين الاسميَّةِ والفعليَّةِ:

الكافرون ثابتون على حال خَسارتِهم بسببِ افتراءاتِهم المتكرِّرة

الجملةُ الاسميَّةُ هي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ والجملةُ الفعليَّةُ هي قوله: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾، وقوله: ﴿كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ فالجملةُ الاسميَّةُ تفيدُ الدِّلالةَ على الثُّبوت والدَّيمومةِ؛ لذا أُوثرت في أوَّلِ الآية لتجعلَ ما بعد اسْمِ الإشارة مُلازمًا له ملازمَةَ الصِّفة للموصوف، ثابتًا مُستقرًّا لا يتغيَّرُ. فناسبتِ الجملةُ الاسميَّةُ - بثبوتها - التَّعبيرَ عن الوصف، أمَّا الجملةُ الفعليَّةُ فتدلُّ على التجدُّدِ والحدوثِ؛ لذا أُوثرت مع بيان الخُسران، وبيانِ الافتراء؛ لأنَّ هذا في وصْفِ أفعالِهم التي استوجَبوا بها أشدَّ العذاب، فناسبتِ الجملةُ الفعليَّةُ - بتجدُّدها - التَّعبيرَ عنِ الفعل كما ناسبتِ الجملةُ الاسميَّةُ - بثبوتها - التَّعبيرَ عنِ الوصْفِ، فجاءت كلُّ جملةٍ - بدلالاتها - مُناسِبةً لما عبَّرت عنه.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافتراءُ والكذبُ:

الافتراءُ أخصُّ منَ الكذبِ

الافتراءُ: افتعالُ واختلاقُ ما لا يصحُّ أن يكونَ[3]، واستُعمِل في القرآن في الكذبِ والشِّركِ والظُّلم، وأصلُه القطعُ، والمُلاحظُ في استعماله القطعُ للإفساد[4]. أمّا الكذبُ فأصلُه النَّقصُ؛ فهو نقصٌ وفقدٌ للمُتوقّع منَ الكلام ولِما وُجِد من أجلِه وهو التَّعبيرُ عن حقيقةِ

(1) أحمد مطلوب، أساليب بلاغية، ص: 167.
(2) أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 98.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 154.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (فرى).

ما في النّفس[1]. والافتراءُ هو افتعالُ الكذبِ من قول نفسِه، أمّا الكذبُ فقد يكونُ على وجه التّقليدِ للغيرِ فيه[2].

والافتراءُ: أخصُّ منَ الكذب؛ لأنَّه الكذبُ في حقِّ الغير بما لا يرتَضيه، بخلاف الكذبِ فإنَّه قد يكونُ في حقِّ المتكلِّم نفسِه، ولذا يقال لمن قال: (فعلت كذا ولم أفعل كذا) مع عدمِ صدقِه في ذلك: هو كاذبٌ، ولا يقال: هو مُفترٍ، وكذا من مدح أحدًا بما ليس فيه، يقال: إنَّه كاذبٌ في وصْفِه، ولا يقال: هو مُفترٍ؛ لأنَّ في ذلك ما يرتَضيه المقولُ فيه غالبًا. والكذبُ قد يجوزُ في بعض الأمور، كالكذبِ في الحرب، والكذبِ لإصلاح ذاتِ البَيْن، وذلك بخلاف الافتراء[3].

والكذبُ يُستعمَل في المقال والفعال[4]، أمَّا الافتراءُ فمُتعلِّقٌ بالقول؛ ومثالُ ذلك مَن قال: "قال زيد كذا" ولم يكن قالَه فهو افتراءٌ وكذبٌ، وإن قال: "قام زيد" ولم يقم فهو كذِبٌ[5].

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كذب).

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 15/385، 23/193.

(3) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 449 - 450.

(4) الرّاغب، المفردات: (كذب).

(5) البسيلي، نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد: 1/158.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ٢٢﴾ [هود: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المُفترون هم أشدُّ النَّاس خسارةً؛ باعوا منازلَ الجِنانِ؛ فعَظُم الذَّنبُ وزادَ الخُسرانُ

لـمَّا بالغ المجْرِمون في ادّعاءاتِهم وافتراءاتِهم على ربِّ العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ أخبرَ أنّهم الأشدُّ خُسرانًا، وقد ضلَّ سعيُهم مع حُسبانِهم أنّهم يُحسنون صُنعًا؛ حيث إنّهم استبدلوا الدّركاتِ بالدّرجاتِ، والخبيثَ بالطيّب؛ فاجتمع لهم بذلك ما افترقَ بين الأممِ الضّالّةِ من أسباب الشّقاءِ والعذابِ[(1)].

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿جَرَمَ﴾: الجَرْمُ: القَطْعُ، وجَرَم النّخلَ يَجرِمه جَرْمًا، واجترمه يَجترمه اجتراما: قطعَه[(2)]. وأصلُ هذا الجذرِ يدورُ حول معنى القطعِ[(3)]، والجريمةُ والجُرمُ: الذَّنبُ. يقال: جرَمَ وأجرمَ جُرمًا وإجرامًا: إذا أذنبَ. والجارمُ: الجاني، والمجترِمُ: المذنبُ[(4)]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ [المائدة: 2]. أي: لا يَحملنَّكم بغضُ قوم[(5)]. و(لا جرَمَ)، هي في الأصل بمعنى: لا بدَّ، ولا محالةَ، ويُفسَّر بمعنى حقًّا. ومِن ذلك قولُ اللّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾. أي: حقًّا إنّهم في الآخرة همُ الأخسرون[(6)].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/288، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/334، والبقاعي، نظم الدرر: 9/259، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/38.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جرم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جرم).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جرم).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جرم).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جرم).

2) ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾: الخُسْر والخُسْرانُ: النَّقصُ، يقال: خَسِر يَخْسَر خُسْرًا وخُسْرَانًا؛ أي: نقصَ. ويقال: كِلتُه ووَزَنْته، فخَسَرْته وأخْسَرْته: نَقَصْته وأنْقَصْته[1]. وأصلُه يدورُ حول معنى نقْصِ الشَّيءِ بذهاب أجزاءٍ منه[2]. ويُستعملُ الخُسران في "المُقتنيات النَّفسيَّةِ كالصِّحَّة والسَّلامةِ، والعقلِ والإيمانِ، والثَّوابِ، وهو الذي جعلَه اللّه تعالى الخُسرانَ المبينَ"[3]. وخَسِر خُسْرًا وخُسْرَانًا وخَسَارة وخَسَارًا، فهو خاسرٌ وخَسِرٌ، كلُّه بمعنى: ضلَّ. ومنه قولُ اللّه ﷻ: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾[4] [الحج: 11]. وأما قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾. أي: "لا أحدَ أبينُ وأكثرُ خُسرانا منهم"[5].

المَعنى الإجماليُّ:

المُشركون بالله هـمُ الأخسَرون بلا شكٍّ في الدُّنيا والآخرةِ

لا محالةَ ولا شكَّ في أنَّ عاقبةَ هؤلاء الَّذين ذكرتُهم ممَّن اتَّصَفوا بهذه الصِّفاتِ من المشركين في الآخرة أنَّهم أشَدُّ النَّاسِ عذابًا وخُسرانًا؛ لحرمانِهم النَّعيمَ المخَلَّدَ، واستبدالِ العذابِ المؤبَّدِ به، وذلك هو الخُسران الواضحُ المبينُ[6].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاستئناف في ﴿لَا جَرَمَ﴾:

نتيجةُ الافتراءاتِ خَسارةُ الجنّاتِ

قولُه تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ جملةٌ مُستأنَفَةٌ واقعةٌ موقعَ النَّتيجةِ للجملِ المتقدِّمةِ من قوله تعالى:

---

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خسر).

(3) الرّاغب، المفردات: (خسر).

(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خسر).

(5) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/132، والآلوسي، روح المعاني: 6/233.

(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/373، والمراغي، تفسير المراغي: 12/22.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [هود: 18]؛ لأنَّ ما جُمعَ لهم منَ الزَّجِّ للعقوبةِ، ومنِ افتضاحِ أمرِهم، ومن إعراضِهم عنِ استماعِ النُّذُرِ، وعنِ النَّظرِ في دلائلِ الوَحدانيَّةِ؛ يوجبُ اليقينَ بأنَّهم الأخسرون في الآخرة[1]. فقولُه تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ زيادةٌ في تأكيدِ خُسرانِهم[2]؛ ولذلك حسُنَ الفصلُ بين الجُملتَين لِما بينَهما من شِبْه كمالِ الاتِّصال.

معنى ﴿لَا﴾ في ﴿لَا جَرَمَ﴾ ودَلالتُها:

الكافرون لا مَحالةَ خاسِرون

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ نافيةٌ للجنسِ، و﴿جَرَمَ﴾ اسمُها مبنيٌّ معها على الفتح، وهي واسمُها في محلِّ رفعٍ بالابتداء، وما بعدَهما خبرُ ﴿لَا﴾ النَّافيةِ، ومعناها: (لا محالة ولا بدَّ)[3]. وهذا التَّأويلُ؛ أي: تأويلُ ﴿لَا﴾ بأنَّها النَّافيةُ للجنس ممّا يفيدُ التَّوكيدَ؛ لأنَّها تَنفي خبرَها عن جميعِ جنْسِ اسمِها، وهذه الدِّلالةُ تأتي مَتَّسقةً مع باقي المُؤكِّداتِ في الآية.

معنى ﴿جَرَمَ﴾ ودَلالتُه:

خُسران الكافرين واقعٌ مُحقَّقٌ

﴿جَرَمَ﴾ معناه: (حقًّا) هو مأخوذٌ من ذلك؛ فإنَّ ما لا بُدَّ ولا مَفرَّ منه هو واقعٌ حقًّا[4]. فاتَّضحَ من هذا أنَّ تفسيرَها بـ (حقًّا) هو تفسيرُ معنًى لمجموعِ الكلمتَيْن؛ لأنَّه إذا نُفِيَ في مثل هذا السِّياقِ الظَّنُّ ثبتَ اليقينُ والقطعُ[5]، وعليه فإنَّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمةُ جزمٍ وتأكيدٍ ويقينٍ، جرتْ مجرَى المَثلِ[6].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/38.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/186.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/303، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/39، والسامرائي، معاني النحو: 1/384 - 385.
(4) جبل، الاشتقاقي المؤصل: (جرم).
(5) البقاعي، نظم الدرر: 9/262.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/38، والفراء، معاني القرآن: 2/8.

الكافرون في الآخرة ثابتون على حال الخسارةِ؛ فهم في النّارِ خالِدون

بَلاغةُ الجملةِ الاسميّةِ في هذا السّياق:

قولُه تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ، وللجملةِ الاسميَّةِ خصائصُها التي تُميِّزها عنِ الفعليَّةِ، منها: أنَّها أدلُّ على حصول المطلوبِ منَ الجملةِ الفعليَّةِ[1]، وأنَّها تدلُّ على الثُّبوت والدَّوامِ بقرينة المقامِ[2]، ولمَّا كان المقامُ مقامَ تأكيدٍ لخسارة هؤلاء الكافرين البُعداءِ عن كلِّ خيرٍ ورحمةٍ وفضلٍ ناسبَه أنْ يُعبَّر فيه بالجملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثُّبوت؛ لتدلَّ على أنَّ خسارَتهم أمرٌ ثابتٌ مُتحقِّقٌ لا شكَّ فيه، كما أنَّه دائمٌ لن يتغيَّرَ.

خَسارةُ الكافرين كبيرةٌ وهي واقعةٌ لا مَحالةَ

موقعُ المصدر المؤول ﴿أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ودَلالتُه:

قولُه تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ مصدرٌ مؤوَّلٌ مكوَّنٌ من أنَّ واسمِها وخبرِها، في محلِّ جرٍّ بحرف جرٍّ محذوفٍ تقديرُه (في أو (مِن)؛ أي: لا محالةَ في أنَّهم، أو لا بُدَّ مِن أنَّهم. وهو متعلِّقٌ بخبرِ (لا)[3]. وهذا أمرٌ يكثرُ: أنْ يجيء بعد (لا جرم) أنَّ واسمُها وخبرُها فتكونَ (أنَّ) معمولةً لحرف جرٍّ محذوفٍ، والتّقديرُ: لا جرم مِن أنَّ الأمرَ كذا. ولِما فيها من معنى التَّحقيقِ والتَّوثيقِ؛ تعامَلُ معاملةَ القسَم، فيجيءُ بعدَها في ما يصلحُ لجواب قسَمٍ، نحوَ: لا جرمَ لأفعلنَّ[4].

خَسارةُ الكفرة لا مَحالةَ مُحقّقةٌ

سِرُّ التَّوكيدِ بـ ﴿أَنَّهُمۡ﴾:

في قولهِ تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ توكيدٌ بـ (أنَّ). وفائدةُ التَّوكيدِ بها إفادةُ التَّحقيقِ مع تجنُّبِ التَّكرارِ؛ إذ إنَّها تنوبُ منابَ تكريرِ الجملةِ مرَّتين. وتكونُ مع ما بعدَها في تأويل مصدرٍ، فتقلبُ معنى الجملة إلى الإفراد، وتصيرُ في مذهبِ المصدرِ المؤكِّدِ[5].

---

(1) الزركشي، البرهان: 4/178.

(2) الصعيدي، بغية الإيضاح: 1/187.

(3) محمود صافي، الجدول: 6/244.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/39.

(5) ابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/526.

سِرُّ التَّوكيدِ بضميرِ الفصْلِ ﴿هُمُ﴾:

أكثرُ النّاسِ خسارةً هم هؤلاء الكافِرون

الضَّميرُ المنفصلُ في قولِه تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ ضميرُ فصْلٍ يفيدُ القصْرَ[1]، وجيءَ به لإفادةِ تأكيدِ الاختصاصِ. وإنْ جُعِل مبتدأً وما بعدَه خبرُه، والجملةُ خبرُ (أنَّ) أفادَ تأكيدِ الحُكمِ[2]، وسِرُّ التَّوكيدِ به أنَّه لمَّا كان المقامُ جديرًا بالمبالغةِ في وصْفِهم بالخسارةِ، أُعيدَ الضَّميرُ، فقال تعالى: ﴿هُمُ﴾؛ أي: خاصَّةً ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾[3].

بَلاغةُ القصْرِ في ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾:

الكافِرون في الآخرةِ أشدُّ خُسرانًا، وأوفرُ - منَ الخيراتِ - نُقصانًا

يجوزُ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ مبتدأً وخبرَه، وأن تكونَ الجملةُ الاسميَّةُ ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ في محلِّ رفعِ خبرَ (أنَّ)[4]. وإذا كان ذلك كذلك فإنَّ طرفَي الإسناد جاءا مَعرفتَيْن، الأوَّل كونُه ضميرًا، والثَّاني لوجودِ (أل). وتعريفُ الجُزأين يفيدُ الحصرَ حقيقةً أو مبالغةً[5]. وهو هنا قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ لأنَّهم بلَغوا الحدَّ الأقصَى في الخسارة، فكأنَّهم انفرَدوا بالأخسريَّةِ[6]، فهذا القصْرُ أفادَ حصْرَ الخسارِ فيهم، بل جعلَ لهم منه أشَدَّه لشدَّةِ حسْرتِهم وحرمانِهم وما يُعانون منَ المشقَّةِ والعذابِ، نَستجيرُ باللّه من حالِهم[7]! وهذا كلُّه ممَّا أفادَ التَّوكيدَ مع ما سبقَه منَ التَّعبيرِ بأسلوبِ ﴿لَا جَرَمَ﴾، والتَّوكيدِ بـ (أنَّ) وجُملتِها الاسميَّةِ؛ "لأنَّ القصْرَ ليس إلا تأكيدًا على تأكيدٍ"[8].

الغرَضُ من تقديمِ المَجرورِ ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

حياةُ الكافرين خُسرانٌ دائمٌ؛ فالآخرةُ هي الحيوانُ، والحياةُ الدّنيا قصيرةٌ زائلةٌ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لإفادةِ نُكتةِ التَّخصيصِ، فإنَّ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/39.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/233.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/259.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/305، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 5/155.
(5) السيوطي، الإتقان: 3/173.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/39.
(7) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 380.
(8) الصعيدي، بغية الإيضاح: 2/232.

الكافرين الصّادّين عن سبيلِ اللّه تعالى - وإن كانوا في الدُّنيا من الفائزين بمالٍ أو جاهٍ - فإنَّهم لا محالةَ خاسِرون في الآخرة، فالتَّقديمُ هنا لتخصيصِ الخسارةِ بالآخرة؛ إذ هي ميزانُ الأعمالِ الحقُّ لأنَّها الباقيةُ، أمَّا الدُّنيا فهي ذاهبةٌ فانيةٌ، ويُضافُ إلى نُكتة التَّخصيصِ نُكتةٌ أخرى هي أنَّهم لَمَّا بالَغوا في إنكار الآخرةِ كانت خسارتُهم مخصوصةً بما أنكروه[1]؛ ليكونَ ذلك أنْكى في تبْكيتِهم وتعذيبِهم.

دَلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ التَّفضيلِ ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾:

المَغبونون وضَلوا في الخُسران إلى حدٍّ يتقاصَرُ عنه غيرُهم

عُبِّر عنِ الكافرين الصّادّين عن سبيل اللّه بأنَّهم ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾، وإنَّما كانوا أخسَرين؛ لأنَّهم اجتمعتْ لهم خسارةُ الدُّنيا والآخرة[2]، ولأنَّهم خسِروا أنفسَهم، ولَمَّا كان خُسرانُ النَّفسِ أعظمَ الخُسران، حكمَ عليهم بأنَّهم همُ الزَّائدون في الخُسران على كلِّ خاسرٍ سِواهم مِن العُصاةِ مآلُه إلى الرَّاحةِ وإلى انقطاعِ خُسرانِه، بخلاف هؤلاء؛ فإنَّ خُسرانَهم لا انقطاعَ له[3]، فأفعلُ التَّفضيل للزِّيادةِ إمَّا في الكَمِّ وإمّا في الكيفِ[4]، وأفعلُ التَّفضيلِ هنا يدلُّ على أقصَى درجاتِ الخسارة؛ أي: لا خسارةَ فوقَها أو مثلُها، بل هي فوق كلِّ خسارةٍ، ذلك أنَّها خسارةٌ مُؤدَّاها البقاءُ في الجحيم خالدين فيها إلى ما شاء اللّه تعالى[5].

الغرَضُ منَ الاستعارةِ في ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾:

خَسارةُ المعنى أشَدُّ من خَسارةِ المادّةِ

في قولِه تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ عبِّر عمَّا لحقَهم منَ الضُّرِّ بالخسارةِ على جهة الاستعارة؛ لأنَّه ضُرٌّ أصابَهم من حيث كانوا يَرجون المنفعةَ، فهُم مثلُ التُّجّار الذين أصابَتْهمُ الخسارةُ من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/259.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/39.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/138.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/233.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3694.

حيث أرادوا الرِّبحَ[1]؛ ذلك أنَّهم اشتَرَوا عبادةَ الآلهة بعبادةِ اللّه، فكان خُسرانُهم في تجارتِهم ما لا خُسرانَ أعظمُ منه لأنَّهم خَسروا أنفسَهم[2]، وباعوا منازلَهم منَ الجِنان بمنازل أهلِ الجنَّة منَ النَّار؛ وذلك هو الخُسران المُبينُ[3].

دَلالةُ اللّام في ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ ومعناها:

خَسارةُ الكافِرين أكملُ الخَساراتِ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ هي لامُ الجنسِ التي تفيدُ الاستغراقَ، والمقصودُ بها هنا استغراقُ صفاتِ الخَسارةِ؛ "أي: همُ الكاملون في الخُسران، كأنَّ خُسران غيرِهم في جنب خُسرانِهم ليس بخُسرانٍ"[4]، فتعريفُ المُسندِ بلام الجنس يفيدُ الحصْرَ[5]؛ أي: حصْرَ صفةِ الخُسران فيهم.

نُكتةُ حذْفِ المفضَّلِ عليه في ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾:

لا أحدَ أكثرُ خُسرانًا منهم؛ باعوا النَّعيمَ المخلَّدَ واشتَرَوا به العذابَ المُؤبَّدَ

بُنِيَ قولُه تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ بناءَ أسلوبِ التَّفضيل، وذُكِرَ فيه المُفضَّلُ عليه، وحُذفَ المفضَّلُ عليه؛ وذلك لإفادةِ نُكتةٍ بلاغيَّةٍ وهي: "أنَّ حذْفَ المفضَّلِ يفيدُ العمومَ، فيكونُ المعنى: أنَّهم أخسَرُ من كلِّ أحدٍ، وهو بمنطوقِه يفيدُ الأخسريَّةَ فيهم"[6].

نُكتةُ تَوالي المُؤكِّداتِ وتنوُّعِها في الآية:

إنكارُ الكافرين يُناسبُه توكيدُ العذابِ الواقعِ بهم بأكثرَ من مُؤكِّدٍ

في قول الحقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ توالتِ المُؤكِّداتُ وتنوَّعت.. فأمَّا بالنَّظرِ إلى الجُملِ فنجدُ أنَّ الآيةَ قد تضمَّنت ثلاثَ جُملٍ، وكلُّها اسميَّةٌ، الأُولى هي قولُه تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾، والثَّانيةُ هي قولُه تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾. والثَّالثةُ هي قولُه تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/39.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/386.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/373.
(4) الطيبي، حاشية على الكشاف: 8/47.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/233.
(6) الشهاب، حاشية على البيضاوي: 5/87.

ولمَّا كانتِ الجُملةُ الاسميَّةُ تفيدُ الثُّبوتَ والدَّوامَ كان التَّعبيرُ بها يدلُّ على الاستقرارِ، وهذا ممَّا يفيدُ التَّوكيدَ؛ أي أنَّ الأمرَ ثابتٌ على هذه الصِّفة لا يتغيَّرُ. وأمَّا بالنَّظرِ إلى الأحرُفِ فنجدُ أنَّ المُؤكِّداتِ قد تمثَّلت في (لا) النَّافيةِ للجنس، التي تؤكِّدُ نفيَ خبرِها عن جميع جِنْسِ اسمِها، و(أنَّ) المُشبَّهةِ بالفعل والمُفيدةِ التَّوكيدَ، والضَّميرِ المنفصلِ (هم)، ولامِ الجنْسِ في ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾. وأمَّا بالنَّظرِ إلى الأساليبِ والصِّيغِ فنجدُ أنَّ المؤكِّداتِ قد تمثَّلت في أسلوبِ (لا جرم) الذي يفيدُ تأكيدَ الحصولِ بقطعِ النَّفي، مع تضمُّنِه معنى القسَمِ، وتقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، والقصْرِ بتعريف طرفَيِ الإسنادِ في ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾. وهذا الحشدُ الكبيرُ مِنَ المؤكِّداتِ في آيةٍ قليلةِ المبنى يدلُّ دلالةً قاطعةً على عظَمِ الجُرم الذي اقترفَه أولئك الكفرةُ الفجرةُ، وما ترتَّبَ عليه من عِظَمِ العذابِ يومَ القيامة. وقد حسُنَ تَوالي هذه المُؤكِّداتِ؛ لأنَّ الخطابَ مُوجَّهٌ إليهم وهم مُنكرون لما فيه، مُعرِضون عنه، مُستهزِئونَ به، فأُكِّدَ بأكثرَ من مُؤكِّدٍ؛ لأنَّه مُوجَّهٌ إلى مخاطَبٍ مُنكِرٍ، وهذا من باب إقامة الحُجَّةِ، وقطعِ العُذرِ.

مُتشابهُ النَّظمِ:

جاء قولُه تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ في سورة هود هنا، وجاء في مقابلِه في سورة النحل: ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾ [النحل: 109]، فما علَّةُ ذلك مع اتِّفاقِ أوَّلِ الآيتينِ؟

الـجـزاءُ مِـن جنْسِ العملِ، ومَن ضلَّ وأضلَّ كان جُرمُه أعظمَ وعقابُه أشقَّ

إنَّ الآيةَ التي في سورة (هود) قد تقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾، فأخبرَ عنِ السَّببِ الذي من أجلِه استحقُّوا أنْ ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾، وهو أنَّهم ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩﴾ [هود: 19]، فقد صدّوا

عنِ الدّين صُدودًا، وصَدّوا غيرَهم عنه صدًّا؛ فاستحقُّوا تضعيفَ العذابِ؛ لأنَّهم ضلُّوا وأضلُّوا، فمِن ثَمَّ كانوا (أخسرين).

وأمَّا الآيةُ التي في سورة (النَّحل) فإنَّه لم يُخبرْ فيها عنِ الكفَّار بأنَّهم مع ضلالِهم أضلُّوا غيرَهم، وإنَّما قال فيهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٠٧﴾ [النحل: 107]، فلم يذكرْ ما يوجبُ مضاعفةَ العذاب، ولا أنَّهم تسبَّبوا في ضلالِ غيرِهم، فكانوا أقلَّ منَ المذكورين في سورة هود؛ فلذا كانوا (خاسرين)[1]. ويُضافُ إلى ذلك أنَّ آيةَ "هود" تقدَّمَها ما يُفهِمُ المفاضَلَةَ، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ [هود: 17]، يُفهِمُ من سياقه أنَّ المرادَ: أفمَن كان على بيِّنة من ربِّه كمَن كفرَ وجحدَ وكذَّبَ الرُّسلَ؟ ثمّ أتبعَ هذا بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [هود: 18]، فهذا صريحُ مفاضلة، ثمَّ استمرّتِ الآيُ في وصف مَن ذُكر، وعرْضِهم على ربِّهم، وقولِ الأشهاد: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [هود: 18-19] إلى ذكْرِ مضاعفةِ العذاب لهم، واستمرَّ ذكرُهم إلى قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: 22]، فناسبَ لفظُ الأخسرين بصيغة التَّفاضُلِ، ومقصودُ التَّفاوتِ ما تقدَّم ممّا يُفهِم ذلك[2].

❁ الفروقُ المُعجَميَّة:

الجَرْمُ، والشَّكُّ:

أصلُ الجرم القطعُ. يقال: جرمَ التّمرَ: صرمَه، أي: قطعَ عذوقَه المتدلّيةَ منَ النّخل جَنْيًا له، والجُرامةُ: ما سقطَ منَ التّمر إذا جُرِم، ويقال: جَرَمتُ صوفَ الشّاة وأخذتُه. وجرَّمنا هذه السّنةَ، أي: خرجنا منها، وجرَّمنا القومَ: خرجنا عنهم[3]، وتلك الاستعمالاتُ تُعطي معنى الانفصالِ، ومنه (لا جرم) أي: لا فكاكَ ولا انفصالَ[4]. وعلى هذا معنى ﴿لَا جَرَمَ﴾، أي: لا قطْعَ قاطعٍ عن أنّهم في الآخرة همُ الأخسرون، إلَّا أنه كثُرَ حتى صار

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 2/753، 755، والكرماني، أسرار التكرار، ص: 143.
(2) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/254.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جرم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جرم).

كالمَثلِ، فإذا قالوا: لا جرمَ، فكأنهم قالوا: حقًّا، والأصلُ ما ذُكِر، ووُضِع موضعَ القسَم في قولهم: لا جرمَ لأفعلَنَّ كذا، كما قالوا: حقًّا لأفعلنَّ، إذ جعلوه بدلاً منَ اليمين[1]، وقد عُلِمَ من هذا أنَّ جميعَ تصاريفِ المادَّةِ تدورُ على الاضطرابِ وهو بيِّنٌ في غير العقلِ، وأمَّا فيه فإنَّه بقدرِ العقلِ يكون اضطرابُ الرَّأي؛ لأنَّ العاقل كلَّما أنعم النَّظرَ انفتح له ما كان مُغلقًا فيعدِلُ إليه، فإذا ظهر هذا ظهرَ أنَّ معنى ﴿لَا جَرَمَ﴾ لا ظنَّ ولا اضطرابَ في أنَّهم، ويكونُ نفيُ الظَّنِّ في مثل هذا السِّياقِ نفيًا لجميع ما يقابلُه إلَّا العِلمَ الذي هو بمعنى القطعِ، كما إذا قيل: لا شكَّ في كذا ولا ريبَ.

أمّا الشّكُّ فأصلُه يدلّ على التّداخُلِ، ومن ذلك قولُهم: شككتُه بالرّمح، وذلك إذا طعنتَه فداخل السِّنانُ جسمَه. قال عنترةُ:

فشَكَكْتُ بالرُّمحِ الأصَمِّ ثيابهُ *** ليس الكريمُ على القَنا بمُحرَّمِ

ومن هذا الباب الشّكُّ، الذي هو خلافُ اليقين، وإنّما سُمِّي بذلك؛ لأنَّ الشّاكَّ كأنّه شُكَّ له الأمران في مَشَكٍّ واحدٍ، وهو لا يَتيقَّنُ واحدًا منهما، فمن ذلك اشتقاقُ الشَّكّ. تقول: شككتُ بين ورقتَيْن، إذا أنت غرزتَ العودَ فيهما فجمعتَهُما[2].

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 11/385.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شكَّ).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣﴾ [هود: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

يُـعْـلي الـعـليُّ سُبحانه قَدْرَ أهـلِ الإيمان كما يضعُ قدْرَ أهـلِ الجُحود والنّكران

لَمَّا ذكرَ اللّه تعالى أحوالَ أهل الجُحودِ والتّكذيبِ والنّكرانِ، البالغين الغايةَ في الخُسران؛ ذكرَ سُبحانه حالَ مَن بلَغوا أعلى درجاتِ الإيمانِ والتّسليم والإذعانِ، فَكوفِئوا بتحصيل الرّضا والخلودِ في الجِنان؛ حيث إنَّ معرفةَ الضّدِّ ممَّا تَشْرئِبُّ إليه دائمًا نَفْسُ الإنسان[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ﴾: الخَبْتُ: الأرضُ المُطمئنَّةُ المُتَّسِعةُ[2]. ومعناه المِحوريُّ: انخفاضٌ مع اتِّساعٍ واستقرارٍ[3]. والإخباتُ: الخشوعُ، والمُخبِتُ: الخاشعُ المتضرِّعُ إلى اللّه. يقال: خَبَت يَخْبِتُ، وأخْبَتَ يُخْبِتُ إخباتًا إلى اللّه، وكذلك: خبتَ قلبُه للّه، أي: خشعَ وتضرَّعَ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

المُـؤمـنـون الـصّـادِقـون بـصَـلاحِـهـم سابِقون، وفي جـنَّـةِ ربِّـهـم خالِدون

إنَّ الَّذين صدَقوا واعترَفوا للّه ورسوله بخالص إيمانِهم؛ فآمنت قلوبُهم وعملت جوارحُهم الأعمالَ الصَّالحةَ قولًا وفعلًا منَ الإتيان بالطَّاعاتِ وتركِ المُنكرات، وأنابوا لربِّهم بمحبَّتِه وخوفِه ورجائِه، وخضَعوا له واسْتكانوا وذَلّوا لعظمتِه وسُلطانِه، أولئك المَوْصوفون

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/335، والخازن، لباب التأويل: 2/480، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/138، وابن عادل، اللّباب: 10/462، والبقاعي، نظم الدّرر: 9/263، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/39.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خبت).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خبت).

(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خبت).

بتلك الصِّفاتِ الجميلةِ هم سكَّانُ الجنَّةِ الَّذين لا يَخرجون منها ولا يموتون، بل هم فيها لابِثون إلى غيرِ نهايةٍ دائِمون[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاستئنافِ في ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

ذِكْرُ حالِ الأشقياءِ يَستدْعي وصْفَ حالِ السُّعداءِ

لَمَّا توعَّدَ الكافرين وأخبرَ عن مآلِهم، كان موضعَ أن يُسألَ عن حالِ المؤمنين؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[2]؛ فالجملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ النّفوسَ تشرئبُّ عند سماعِ حُكمِ الشّيءِ إلى معرفة حُكم ضدِّه[3]؛ فلمَّا ذكرَ تعالى حالَ الأشقياءِ ثنَّى بذكْرِ السُّعداء، وهمُ الذين آمنوا وعملوا الصّالحاتِ[4].

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِنَّ﴾:

تأكيدُ إثابةِ المؤمنين إغراءً لهم على الاسْتِمرارِ في العملِ الصّالحِ

التَّعبيرُ بـ (إنَّ) يدلُّ على توكيد معنى الآيةِ، وهو أنَّ الذين جمَعوا تلك الصّفاتِ الجليلةِ (الإيمانَ، والعملَ الصّالحَ، والإخباتَ إلى الله)؛ هم أصحابُ الجنَّة المُخلَّدون فيها[5].

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإيمانُ والعملُ الصّالحُ والإخباتُ لله أسبابٌ للفلاحِ والفوزِ بالجنّاتِ

عدلَ عنِ التّعبيرِ بـ (المؤمنين) إلى التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ سببَ الجزاءِ الذي يُعْطيهم ربُّهم، والثّناءِ الذي أضفاه عليهم[6]؛ اتِّصافُهم بتلك الصّفاتِ الصّالحةِ.

دَلالةُ عطْفِ العملِ الصّالحِ على الإيمانِ:

العملُ الصّالحُ مِنَ الإيمانِ

عطفَ العملَ الصّالحَ على الإيمانِ للدّلالةِ على بيانِ أهمّيةِ العملِ؛ فالعملُ الصّالحُ من كمالِ الإيمانِ.

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 4/170، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/273.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/263.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/39.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/273.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 380.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3695.

سِرُّ ترتيبِ الإيمانِ والعملِ والإخباتِ:

ذكرَ اللّه للمؤمنين أعمالًا ثلاثةً:

العملُ الصّالحُ ثـمرةُ الإيـمانِ، والإخـبـاتُ لله نتيجةُ دَوامِهما

أوّلُها: الإيمانُ الذي يقذفُه اللّه في قلب المؤمنِ؛ فيخضعُ للحقِّ، ويُذعنُ له. وإنَّ القلبَ إذا أشرقَ بالإيمان واسْتضاءَ به كانتِ الحكمةُ والاستقامةُ في القولِ والعملِ، فلا يكونُ منه إلا الخيرُ والإذعانُ للحقِّ.

وثانيها: العملُ الصّالحُ وهو ثمرةُ الإيمان. وإنَّ الايمانَ إنْ لم يُصاحبْه العملُ كان ذلك نقصًا في الإذعان، فإنَّ الإخلاصَ يتولَّدُ عنه الحكمةُ التي يتولَّد عنها القولُ الطيّبُ والعملُ الطيّبُ.

وثالثُها: هو الإخباتُ إلى اللّه، والإخباتُ هو الاطمِئْنانُ. والاطمِئنانُ يتضمَّنُ تصديقَ ما وعدَ اللّه به، والخضوعَ لما أمرَ ونهى[1]. فهذا التّرتيبُ الحكيمُ جاء على وَفْقِ العلاقاتِ بين هذه المعاني؛ فالإيمان يكونُ قَبْلًا، وثمرتُه العملُ الصّالحُ.

الغرَضُ منَ الاستعارةِ في قوله: ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ﴾:

المؤمنون لرَبِّهم خاشِعون

أصلُ اللّفظ منَ (الخبت)، وهو البراحُ القَفْرُ المُستوي أوِ المُنخفضُ منَ الأرض؛ فكأنَّ المُخبِتَ في القَفْرِ قدِ انكشف واستسلمَ وبقي دون مَنعةٍ[2]، فأُطلقَ الإخباتُ الذي هو نزولُ الخبتِ على اطمئنان النّفسِ والخشوعِ تشبيهًا للمعقول بالمحسوس[3]، وهذه الاستعارةُ المكنيَّةُ بيَّنتْ شدَّةَ خضوعِ النّفوس المؤمنةِ لربّها ﷻ واطمئنانِها إليه وخشوعِها له.

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالتُه في ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾:

خشوعُ المؤمنين وإخـلاصُـهـم مُوجَّهٌ إلى الله ﷻ

معنى الحرفِ (إلى) في قوله: ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ أي: لربِّهم[4]، ولمَّا كان المؤمنون يَعمدون بإخباتِهم إلى اللّه[5]؛ أُوثرتْ ﴿إِلَىٰ﴾ على

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3695.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/161.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/234.
(4) البغوي، معالم التنزيل: 4/170.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/291.

اللّام، رغمَ أنَّ العادةَ جاريةٌ بأنْ يُقال: أخبَتُوا لربِّهم؛ فالمعنى: وجَّهوا خوفَهم وخشوعَهم وإخلاصَهم إلى ربِّهم، واطْمأنّوا إلى ربّهم؛ فقد يجوزُ في العربيّةِ: فلانٌ يُخبتُ إلى اللّه، يريدُ: يفعلُ ذلك مُوجِّهَه إلى اللّه(1).

علّةُ التَّعبيرِ بالرُّبوبيّةِ ﴿رَبِّهِمۡ﴾:

ربُّ العبادِ لَطيفٌ بالمؤمنين به المُخبِتين إليه

أُوثرَ التَّعبيرُ بالرُّبوبيَّةِ دونَ الألوهيَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ رعايةٍ لعباد اللّه المؤمنين، فلفظُ (الرَّبِّ) مُشتمِلٌ على المعيَّةِ والرِّعايةِ والرَّحمةِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ من مُقتضياتِ الرُّبوبيَّةِ بثَّ الطّمأنينةِ في نفوس عبادِه المؤمنين العامِلين بأوامرِه رحمةً منَ الرَّحمن لهم ولُطفًا منَ اللّطيفِ بهم، فقال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ لِما يفيدُه معنى الرّبوبيّةِ والخلْقِ والقيامِ على حفظِهم وتربيَتِهم وما يترتّبُ على ذلك منَ الاطْمئنانِ والخضوعِ وعدمِ التّمرّدِ عليه سُبحانه والخروجِ عن طاعتِه(2).

سِرُّ الإضافةِ ﴿رَبِّهِمۡ﴾:

الإضافةُ إلى الرّبِّ طُمأنينةٌ للمؤمنِ ووعيدٌ للكافرِ

أُضيف لفظُ (الرَّبِّ) إلى الضَّميرِ العائدِ على المؤمنين لتشريفِهم مع تطْمينِهم، فلمّا كان السِّياقُ سياقَ وصْفٍ للمؤمنين بصفاتٍ جليلةٍ (الإيمانِ، والعملِ الصّالحِ، والإخباتِ) كانت هذه الإضافةُ - وهي إضافتُ كلمة "الرَّبِّ" إليهم - بليغةً مُؤدِّيةً لهذا المعنى، مُفيدةً أعلى درجاتِ الإجلالِ والتَّشريفِ مع تمامِ الطّمأنةِ لنفوسِ هؤلاء المؤمنين، لِما تحملُه لفظةُ (ربّ) من معانٍ.

دَلالةُ اسْمِ الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

المُؤمنون العامِلون المُخبِتون هم أصحابُ الجنّةِ الخالِدون

التَّعبيرُ باسمِ الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الذي يُفيدُ جمعَ العقلاءِ مُذكّرًا أو مؤنّثًا؛ يدلُّ على زيادةِ تمييزِ المؤمنين والمؤمنات، وتخصيصِهم

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/367.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3695.

بتلك الصّفاتِ الصّالحةِ؛ للتّنبيهِ على أنّهم حرِيُّون بما سيردُ بعد اسْمِ الإشارة منَ الخبرِ، بسببِ ما قبْلَ اسْمِ الإشارةِ منَ الوصْفِ[1]؛ والإشارةُ إلى صفاتِهم من إيمانٍ وعملٍ صالحٍ وإخباتٍ إلى ربّهم إيضاحُ أنَّها سببُ ذلك الجزاءِ العظيم[2]، فالمؤمنون العاملون المُخبتون حرِيُّون بالجزاء الحسنِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: إنَّ أولئك المَوصوفين بتلك الصّفاتِ الجليلةِ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾:

المُـؤمـنـون العـامِـلـون المُـخـبِـتـون هم أهـلُ الجـنـة ومُلّاكُها

المعنى المِحوريُّ للصُّحبة: لُزوقُ الشّيءِ بكثافةٍ أو قوّةٍ على ظاهرِ أصْلِه؛ أي: مُلازمتُه إيّاه. فالأصلُ في (الصّحبة) المُلازمةُ، وعبِّرَ بـ (أصحاب) في هذا التّركيبِ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ الذي صار مُلازِمًا لهم كأنَّه كنايةٌ عنهم؛ لأنَّ المُؤمنين سيَصيرون ملازِمين للجنّة؛ فهم أهْلوها ومُلّاكُها الذين يعيشون فيها[4]، ولمَّا كان معنى المُلازمةِ لا يُؤدَّى بلفظةِ (الأهل) أوِ (المُلّاك) - لأنّه ليس كلُّ (أهل) مُلازِمين مكانَهم، وليس كلُّ (مالكِ) مكانٍ مُقيمًا فيه - ناسبَ في هذا المقامِ التَّعبيرُ بـ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ التي تحملُ بين حروفِها معنى المُلازَمة.

دَلالةُ الضَّميرِ ﴿هُمۡ﴾:

الـذيـن آمـنـوا وعـمِـلـوا الـصّـالـحـاتِ وأخْـبَـتـوا لله خـالِـدون في الجنّةِ

عُبِّر بالضّميرِ ﴿هُمۡ﴾ في قوله: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ للتّنويعِ بين اسْمِ الإشارةِ والضّميرِ ولإفادةِ التَّوكيدِ، فلم يقل: (وأولئك خالدون فيها) وإنّما عُبِّر بالضّميرِ ﴿هُمۡ﴾؛ والمعنى: المُؤمنون العامِلون المُخبِتون خالدون في الجنّة، وليس المرادُ حصْرَ الخلود فيهم؛ لأنَّ العُصاةَ منَ المؤمنين يَدخلون الجنّةَ عند أهل الحقّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/32.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3695.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 2/558.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صحب).

ويَخلُدون فيها. ولعلَّ من يدَّعي ذلك يريدُ بنفْيِ الخلودِ عنِ العصاة نقْصَه من أوّلِه[1].

فلمَّا أكَّدَ اللّه ﷻ جزاءَ المُؤمنين العاملين المُخبِتين بأنّهم ملازمون للجنّة، وأنّهم أصحابُها الذين لهمُ اختصاصٌ يُشبهُ ملكَ المالكِ لِما يَملكُ؛ أكَّد قولَه أيضًا بضميرِ الموصولِ ﴿هُمْ﴾؛ فقال: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2].

المُـؤمـنـون الـعـامِـلـون المُخبِتون هُمُ الـخـالِـدون في الجنّةِ

موقعُ جُملةِ ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ودَلالتُه:

جملةُ ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ خبرٌ ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾[3]، وقد جاءت في موضع البيانِ لجملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾؛ لأنَّ الخلودَ في المكان هو أحقُّ الأحوالِ بإطلاقِ وصْفِ الصّاحبِ على الحالِّ بذلك المكانِ؛ إذ إنَّ الأمكنةَ لا تُقصدُ إلَّا لأجل الحُلولِ فيها؛ فتكونُ الجملةُ مستأنَفةً لبيانِ ما قبلَها، فمنزلتُها منزلةُ عطْفِ البيانِ[4].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالجُملةِ الاسميّةِ:

المُـؤمـنـون في الجنّةِ خالِدون

عُبِّر بالجُملة الاسميَّةِ ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الدَّالّةِ على الثُّبوت، أي: ثبوتِ المعنى وتحقُّقِه؛ لأنّ المَنعوتين بتلك النُّعوتِ الجليلةِ الشّأنِ (الإيمان، العمل، الإخبات) هم في الآخرة أصحابُ الجنّةِ، خالِدون فيها، دائِمون أبدًا[5].

نُكتةُ تقديمِ ﴿فِيهَا﴾ على الخبرِ:

في الـجـنّـةِ لا في غيرِها يَحيا المُؤمنون خالِدين

التّقديمُ في الجُملةِ للاهتمام بالمُتقدّم، فقُدِّم شبْهُ الجملة ﴿فِيهَا﴾ في قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ للاهتمام بمكان المؤمنين في الآخرةِ وتخصيصِهم بالجنّةِ؛ أيْ: أنَّ المؤمنين في الجنّةِ خاصَّةً لا في غيرِها[6].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/234.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3695.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/334.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/40.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/234.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 9/263.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الإخباتُ والخشوعُ:

الإخباتُ اطْمئنانٌ وخشوعٌ

الخشوعُ: يدورُ معناه المِحوريُّ حول هبوطِ ما شأنُه الارتفاعُ والغلظُ لتسيُّب أثنائِه. قال الله ﷻ: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا﴾ [الحشر: 21]؛ أي: هابطًا ومتسيِّبًا[1]، وخشع يخشعُ خُشوعًا: رمى ببصره نحو الأرض وغضَّه وخفضَ صوتَه. واختشع، إذا طأطأ صدرَه وتواضعَ[2].

والمعنى المِحوريُّ للخبتِ هو الانخفاضُ باتساعٍ واستقرارٍ، ومنه (أَخْبَتَ الرّجلُ) أي: اطْمأنّ وتواضعَ وخَشَع؛ كمَن نزَلَ الخبْتَ[3].

ولمَّا كانت نفوسُ المؤمنين مُطمئنّةً خاشعةً لربّها ﷻ مُطلقَ الاطمئنانِ والخُشوعِ؛ عبَّر عن خضوعِها واطْمئنانِها واستقرارِها على الإيمان بمحسوسٍ[4] يدلُّ تمامَ الدّلالةِ على هذا المعنى وهو الإخباتُ، أي: نزولُ الخبتِ (المنخفض المُستوي منَ الأرض) فناسب ذلك لفظُ الإخبات دونَ الخشوعِ؛ لأنّه يحملُ معنى الاطْمئنانِ والخشوعِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خشع).
(2) الأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خشع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خبت).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/234.

﴿۞مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٤﴾ [هود: 24]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ضربُ المثالِ يُقرّبُ الصّورةَ، ويصفُ الحالَ، ويُغني عن كثيرِ المَقالِ

لَمَّا بيّن اللّه سُبحانه حالَ الفريقَين: المؤمنِ والكافرِ، وجزاءَهما في الآخرة، ضربَ سُبحانه المثلَ المبيِّن لحال كلِّ فريقٍ منهما؛ وهو تشبيهُ الفريقِ الكافرِ بالأعمَى والأصمِّ؛ حيث إنّهم عَمُوا عنِ الحقّ وأصَمُّوا آذانَهم عن سماع دعوتِه، وتشبيهُ الفريقِ المؤمنِ بالبصيرِ والسّميع؛ حيث إنّهم أبصَروا الحُجَجَ، وأقرّوا بواحديّة اللّه، وسمِعوا داعيَ اللّه؛ فأجابوا دعوتَه، وعمِلوا بمقتضى هذه الاستجابةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَثَلُ﴾: المِثْلُ والمَثَل والمثيلُ: الشِّبْهُ، تقول: هذا مِثْله ومَثَلُه ومثيلُه، كما تقول: هذا شِبْهُه وشَبَهه وشبيهُه[2]. وأصلُه يدورُ حول مناظرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ، ومشابهتِه له[3]. ومثلُ الشَّيءِ صفتُه والخبرُ عنه. وذلك نحوُ قولِه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾[4] [الرعد: 35]، والمَثَلُ أيضًا والمِثَالُ: "عبارةٌ عن قولٍ في شيءٍ يُشبِه قولًا في شيءٍ آخرَ بينهما مشابهةٌ؛ لِيبيِّن أحدُهما الآخرَ ويُصوِّرَه"[5]. ومِن هذا المعنى الأخيرِ الأمثالُ التي ضربَها اللّه في القرآن.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/376، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/335، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/138، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/464، والبقاعي، نظم الدّرر: 9/263، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/40.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (مثل).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).

(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (مثل).

(5) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مثل).

2) ﴿ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾: الفَرْقُ: خلافُ الجمع. يقال: فرَقَه يفرُقه فرقًا، وفرَّقه: إذا فصلْتَ بين الشَّيئين[1]. ومعناه المِحوريُّ: التَّمييزُ والفصلُ بين شيئين[2]. والفِرْقُ، والفِرْقةُ، والفَريقُ: الطَّائفةُ منَ النَّاس، لكنَّ الفريقَ أكثرُ منَ الفِرْقِ والفِرْقة[3].

3) ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ﴾: العمَى: ذهابُ البصر كلِّه من كلتا العينَيْن، ولا يقال هذا فيمن ذهب بصرُ عينٍ واحدةٍ من عينيه، بلِ العينين معًا[4]. ومعناه المِحوريُّ: السَّتْرُ والتَّغطيةُ، واحتجابُ الرُّؤيةِ[5]. والعمَى أيضًا: ذهابُ نظرِ القلب. والموصوفُ بافتقاد البصرِ وافتقادِ البصيرةِ، يقال في كليْهما: أعمى، أما عَمٍ فيقال في افتقاد البصيرةِ فقط[6].

4) ﴿وَٱلۡأَصَمِّ﴾: الصَّمَمُ: انسدادُ الأُذُن، وثِقَلُ السَّمع أو ذهابُه بالكليَّة[7]. ومعناه المِحوريُّ: تضامُّ الشَّيء، وانسدادُه بزوالِ الخرقِ[8]. ويوصفُ بالصَّمَم أيضًا من لا يُصغي إلى الحقِّ، ولا يقبلُه[9]. والأصَمُّ من به صَمَمٌ، وجمعُه: صُمٌّ. ومنه قولُه تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾ [البقرة: 171]. "جعلَهم كذلك بمنزلةِ من لا يسمعُ ولا يَنطقُ ولا يُبصرُ ولا يَعي لعدمِ وعْيِهم واعتبارِهم بما عاينُوه من قدرةِ اللّه"[10].

5) ﴿وَٱلۡبَصِيرِ﴾: البَصَرُ: العينُ، وكذلك حاسَّةُ الرؤيةِ والقوَّةُ التي تحصل بها الرّؤيةُ[11]. ومعناه المِحوريُّ: العلمُ بالشَّيء[12]. ومنه كذلك البَصَرُ بمعنى: نفاذٍ في القلب، وهو العلْمُ. ويقال لهذا المعنى بصيرةٌ أيضًا[13]. ويقال: بصُرت بالشَّيء، وتبصَّرْتُه، واستبصرْتُه:

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فرق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فرق).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فرق).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عمى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عمى).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عمى).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (صمم).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صمم).
(9) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (صمم).
(10) الزبيدي، تاج العروس: (صمم).
(11) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بصر).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(13) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بصر).

علمتُه، وصرتُ ذا بصيرةٍ فيه[1]، أمَّا في الرّؤية، فيقال: أَبْصَرْتُ الشَّيءَ، أُبْصِره: رأيتُه. والبصيرُ: خلافُ الضَّرير. وكذلك في معنى البصيرة والعلمِ بالشَّيء، يقال لصاحبها: بصيرٌ[2]، ومِن "أسماءِ اللّه تعالى البصيرُ: هو الذي يشاهدُ الأشياءَ كلَّها ظاهرَها وخافيَها بغير جارحةٍ"[3].

6) ﴿وَٱلسَّمِيعِۚ﴾: السَّمْع: الأُذُن، وكذلك: قوَّةٌ في الأذن بها تُدركُ المسموعاتُ، وكذلك: ما وَقر في الأُذُن من شيء تسمعُه. ويُطلَقُ السَّمْعُ أيضًا على مصدر سمِع يسمعُ، فهو سامعٌ[4]. والسَّميعُ: هو الموصوفُ بأيِّ معنًى من هذه المعاني[5]. والسَّميعُ من أسماء اللّه ﷻ: وهو الذي وَسِع سمعُه كلَّ شيءٍ بغير جارحةٍ، فلا يعزُب عنه شيءٌ منَ المسموعاتِ وإن خفيَ[6]. ومعناه المِحوريُّ: إيناسُ الشَّيءِ بالأُذن[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يَستَوي مُؤمنٌ وكافرٌ كما لا يَستَوي أعمَى وبصيرٌ

مثلُ الفريقَين المذكورَين اللَّذينِ وُصفا سابقًا، وهما الكفَّارُ بالشَّقاء، والمؤمنون بالسَّعادة كمثلِ هذين الصِّنفَين منَ النَّاس، الأوَّلُ وهو الكافرُ الموصوفُ بالأعمى الَّذي لا يرى بعينِه شيئًا؛ لتَعاميهِ عن وجه الحقِّ في الدُّنيا والآخرة، وعدمِ اهتدائِه إليه، والموصوفُ كذلك بالأصمِّ الَّذي لا يسمعُ ما يُرشدُه إلى النَّجاة، والثَّاني وهو المؤمنُ الموصوفُ بالبصيرِ الذي يُبصرُ حُججَ اللّه ودلائلَ قُدرته ووَحدانيتِه فينتفعُ بها ويَهتَدي إليها، وبالسَّميعِ الَّذي يسمعُ ما ينتفعُ به، ويَهتَدي إليه، ويُبعدُه من

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بصر).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب: (بصر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بصر).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سمع).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سمع).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سمع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمع).

مواضعِ الهلاك؛ فهل يَستوي هذان الفريقانِ مع اختلافِ أمرَيْهما في الحال والمآلِ؟ أفلا تتفكَّرون أيُّها النَّاسُ فيما بين الباطل والحقِّ من خلافٍ فتَعتبروا به، وتَسيروا على الصِّراط المستقيمِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ الاستئنافِ في ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾:

لمّا استوفى أوْصافَ الحِزبَيْن وجَزاءَهما ضرَبَ للكلِّ مثَلًا

بعد أن تبيَّنَ الاختلافُ بين حال المُشركين المُفترين على اللّه كذبًا، وبين حالِ الذين آمنوا وعملوا الصّالحاتِ في منازل الآخرة؛ أعقبَ ببيانِ التّنظيرِ بين حالَي الفريقين المُشركين والمؤمنين بطريقة تمثيلِ ما تستحقُّه من ذمٍّ ومدحٍ. فالجملةُ فذلكةٌ للكلامِ، وتحصيلٌ له، وتحذيرٌ من مُواقَعة سببِه[2].

الغرَضُ من التَّشبيهِ في ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾:

مُقارنةٌ بين حالَيْ فريقِ أهلِ الكفرِ وفريقِ أهلِ الإيمانِ

إنَّ حالةَ الفريقَين (المُشركين والمؤمنين) تشبهُ حالَ (الأعمَى الأصمّ) من جهةٍ وحالَ (البصيرِ السّميع) منَ الجهةِ الأخرى، فالكلامُ تشبيهٌ وليس استعارةً لوجود كافِ التّشبيه، وهو أيضًا تشبيهٌ مفردٌ لا مركّبٌ[3]، فكلُّ فريق شُبِّه بشيئَين، أو شبِّه بمَن جمعَ بين الشّيئَين، فالكافرُ شُبِّه بمَن جمع بين العمَى والصّمم، والمؤمنُ شُبِّه بمَن جمعَ بين السّمعِ والبصرِ[4]، فهناكَ تَشبيهانِ[5]، أو تمثيلٌ بمِثالَين[6] حيث شبَّه اللّه سُبحانه حالَ فريق الكفّارِ في عدمِ الانتفاعِ بالنّظر في دلائلِ وَحدانيتِه الواضحةِ من مخلوقاتِه بحالِ الأعمَى، وشبّهَهُم في عدمِ الانتفاعِ بأدلّة القرآنِ بحالِ مَن هو أصمُّ. وشبَّه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/376، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/187.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/40.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/40.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 2/558.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/235.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/198.

اللّه ﷻ حالَ فريق المؤمنين في ضدِّ ذلك بحالِ مَن كان سليمَ البصر، سليمَ السّمع؛ فهو في هدًى ويقينٍ من مُدركاته[1]، فجعل فريقَ الغَوايةِ كالأعمَى الذي لا يُبصرُ والأصمِّ الذي لا يسمعُ، وفريقَ الهدايةِ كالبصيرِ الذي أُوتيَ حدّةً في البصرِ حتى كان بصيرًا يرى الأشياءَ والحقائقَ، والسّميعِ الذي أُرْهِفَ سمْعُه حتى صار يسمعُ دبيبَ النّمل[2].

دَلالةُ الواوِ في ﴿وَٱلۡأَصَمِّ﴾ و﴿وَٱلسَّمِيعِۚ﴾:

الاسْـتـبـصـارُ سبيلُ الإيمانِ، والإدبـارُ سبيلُ الكفرانِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَصَمِّ﴾ وفي قوله: ﴿وَٱلسَّمِيعِۚ﴾ لعطْفِ الصّفة على الصّفةِ[3]، فلمّا كانتِ الواوُ لعطف الصّفات؛ تبيّن أنَّ هذا تمثيلٌ للمؤمنين بمثالٍ واحدٍ، وهو من جمْعَ بين السّمع والبصرِ، وتمثيلٌ للكفّار بمثالٍ واحدٍ وهو من جمَعَ بين العَمى والصّمم[4]. وقد يَظنُّ النّاظرُ أنَّ المناسبَ تركُ عطْفِ صفةِ الأصمِّ على صفة الأعمى، كما لم يُعطفْ نظيراهُما في قوله تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: 18] في سورة ظنًّا بأنَّ موردَ الآيتَين سواءٌ في أنَّ المرادَ تشبيهُ مَن جمَعوا بين الصّفتَين، وذلك أحدُ وجهَين ذكرَهما صاحبُ (الكشَّاف). وقد أجاب أصحابُ حواشي (الكشاف) بأنَّ العطفَ مبنيٌّ على تنزيل تغايُرِ الصّفات منزلةَ تغايُرِ الذّواتِ. ولم يَذكروا لهذا التّنزيلِ نُكتةً، ولعلَّهم أرادوا أنه مجرَّدُ استعمالٍ في الكلام، الدّاعي إلى عطْفِ صفةِ الأصمّ على صفة الأعمَى أنّه ملحوظٌ فيه أنّ لفريق الكفّارِ حالَيْن كلُّ حالٍ منهما جديرٌ بتشبيهه بصفةٍ من تيْنِكَ الصّفتَين على حدةٍ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/40.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3695.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/198.
(4) ابن جُزَيّ، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/368.

الغرَضُ من اللّفِّ والنَّشرِ في ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾:

الكافرُ أعمَى عن الحقِّ أصمٌّ عن الرّشادِ، والمؤمنُ بصيرٌ بحُجج الله سميعٌ لداعيهِ

الكلامُ في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ﴾ من باب اللّفِّ والنّشر، واللّفُّ إمّا تقديريٌّ إن اعتُبرَ في الفريقين؛ لأنّه في قوّة الكافرين والمؤمنين، أو تحقيقيٌّ إن اعتُبر فيما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ الآية، وقولُه سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ﴾ الآية، وأمرُ النّشر ظاهرٌ[1] فإنَّ الكافرَ ذُكرَ فيما قبلُ أوّلًا ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ أي: العامِّ العمَى في بصره وبصيرته، ﴿وَٱلۡأَصَمِّ﴾ في سمْعِه كذلك، فهذا للكافرين. ﴿وَٱلۡبَصِيرِ﴾ بعينِه وقلبه، ﴿وَٱلسَّمِيعِۚ﴾ على أتمِّ أحوالِهما، وهذا للمؤمنين[2]. والواوُ في قوله: ﴿وَٱلۡبَصِيرِ﴾ لعطْفِ التّشبيهِ الثّاني على الأوّل، وهو النّشرُ بعد اللّفِّ؛ فهي لعطْفِ أحدِ الفريقَين على الآخرِ، والعطفُ بها للتّقسيمِ والقرينةُ واضحةٌ[3].

الغرضُ من الطّباقِ في الآية:

الكفرُ عَمًى عن الحقِّ وصممٌ عنِ الرّشادِ، والإيمانُ إبصارٌ واستجابةٌ لداعي الله

في قوله تعالى: ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ﴾ محسِّنُ الطّباقِ بين الأعمى والبصير، وبين الأصمِّ والسّميع[4]، وفيه مقابلةٌ بين الأعمى والأصم وبين البصير والسّميع؛ لتأكيدِ المفارقةِ وتوضيحِ التّبايُنِ بين الفريقَين الكافرِ والمؤمنِ؛ فالكافرُ أعمَى عن وجهِ الحقِّ في الدّنيا، وفي الآخرةِ لا يَهتدي إلى خيرٍ ولا يعرفُه، أصمُّ عن سماعِ الحُججِ، فلا يسمعُ ما ينتفعُ به، ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [الأنفال: 23]. أمَّا المؤمنُ ففطِنٌ ذكيٌّ لبيبٌ، بصيرٌ بالحقِّ، يُفرِّقُ بينه وبين الباطل؛ فيتَّبعُ الخيرَ ويتركُ الشّرَّ، سميعٌ للحُجَّة، يفرّقُ بينها وبين الشُّبهةِ؛ فلا يَرُوجُ عليه باطلٌ[5].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/235.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/264.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/41.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/235.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/273.

لطائف الترتيب في الآية:

الكافرُ أعمَى وأصمُّ لِتَعاميه عن آياتِ الله، أمَّا المؤمنُ فبَصيرٌ سميعٌ

في قوله تعالى: ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ﴾: جاء ترتيبُ الحالَين المُشبَّهِ بهما في الذِّكر على ترتيب ذِكر الفريقين فيما تقدَّم، وهذا التّرتيبُ المناسبُ يُنبئُ بالمرادِ من كلِّ فريقٍ على طريقة النّشر المرتَّب - والتّرتيبُ في اللّفِّ والنّشر هو الأصلُ والغالبُ - وقد عُلمَ أنَّ المشبَّهين بالأعمى والأصمِّ هم الفريقُ المقُولُ فيهم: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾[1].

فإنَّه سُبحانه لمَّا ذكر الكفّارَ، ووصَفهم بأنَّهم ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ ثم ذكَرَ المؤمنين، ووصَفَهم بالإيمان والعملِ الصّالح والإخباتِ إلى ربّهم، فوصَفَهم بعبوديّةِ الظّاهرِ والباطنِ؛ جعل أحدَ الفريقَين كالأعمى والأصمِّ من حيث كان قلبُه أعمَى عن رؤية الحقِّ أصَمَّ عن سماعِه، والفريقَ الآخرَ بصيرَ القلب سميعَه[2].

الغرضُ من كمالِ الانقطاعِ في ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾:

لا يَستوي فريقُ الكفرِ وفريقُ الإيمانِ أبدًا

وقعتْ جملةُ ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ موقعَ التّعليلِ للتّشبيه، وهو نفيُ استواءِ حالِهما، ونفيُ الاستواء كنايةٌ عنِ التّفضيل، والمفضَّلُ منهما معلومٌ منَ المقام، أيْ: معلومٌ تفضيلُ الفريقِ الممثَّل بالسّميع والبصير على الفريق المُمثَّلِ بالأعمى والأصمِّ[3].

الغرض من الاستفهامِ في ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾:

الكفرُ والإيمانُ لا يَستَويان

الاستفهامُ في قولِه: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ للإنكار[4]، والتّوبيخ[5]؛ فهو ممَّا يُتوقَّعُ جوابُه بالنّفي[6]. وهذا الاستفهامُ الإنكاريُّ مذكِّرٌ - على ما قيل - لِما سبَقَ من إنكارِ المُماثلةِ في قولِه سُبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/40.
(2) ابن القيم، التفسير القيم، ص: 324.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/43.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/43.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/335.
(6) السامرائي، معاني النحو: 4/249.

﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الآية[1]. وقد قال أبو عبيدةَ: ﴿هَلْ﴾ هاهنا بمعنى الإيجابِ، لا بمعنى الاستفهامِ، والمعنى: لا يَستويان[2].

والمعنى: كما أنَّ مثَلَيِ هذَين الفريقَين لا يَستويان عندكم أيُّها النّاسُ، فإنَّ حالَ الكافرِ والمؤمنِ كذلك لا يَستويان عندَ اللّه[3] وقال الفرّاءُ: لم يقُل (هل يستوون)؛ لأنَّ الأعمَى والأصمَّ في حيّزٍ كأنَّهما واحدٌ؛ لأنَّهما من وصْفِ الكافر، والبصيرُ والسّميع في حيّزٍ كأنَّهما واحدٌ، لأنّهما من وصْفِ المؤمنِ[4].

تنوُّعُ موقعِ ﴿مَثَلًا﴾ ودَلالتُه:

حالُ الكافرِ وحالُ المؤمنِ لا يَستَويان

معنى ﴿مَثَلًا﴾ أي: حالًا، وصفةً[5]، وتشبيهًا[6]. وهو منصوبٌ على التّمييزِ، من فاعلِ يَستويان[7]، والأصلُ: هل يَستوي مثلاهُما[8]. ويجوزُ أن يكونَ حالًا[9]، وفيه بُعد[10]، والمعنى: لا يستوي الفريقان تمثيلًا أو صفةً أو حالًا، بل يفترقان ويكونان بما يتَّفقُ مع حالِ كلٍّ منهما، فالأعمى الذي لا يرى حتى يعرفَ الطّريقَ، والأصمُّ الذي لا يسمعُ الهادِيَ الذي يُرشدُه؛ فهو يتردّى في المَهاوي غيرَ رشيدٍ ولا مُسترشدٍ. والبصيرُ الذي يرى أعلامَ سبيلِ اللّه تعالى وهو السّميعُ الذي يسمعُ المرشدَ الهاديَ إلى سواء السّبيل؛ لا بدَّ أن يسلكَ الطّريقَ الأقومَ، فلا يَستويان في الابتداء والانتهاء؛ ففريقٌ في الجنّةِ، وفريقٌ في السّعير[11].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/235، والشوكاني، فتح القدير: 2/558.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/367.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/378.
(4) البغوي، معالم التنزيل: 4/170.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/235.
(6) الزمخشري، الكشاف: 2/387.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/198.
(8) الآلوسي، روح المعاني: 6/235، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/139.
(9) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/162.
(10) الآلوسي، روح المعاني: 6/235.
(11) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3696.

الغرضُ منَ الاستفهامِ في ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾:

عـلاجُ العمَى والصّممِ يكونُ بالسَّعْيِ

قولُه: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يعني: أفلا تذكرون عدمَ استوائِهما، وأفلا ترونَ ما بينَهما منَ التّفاوُتِ الظّاهرِ الذي لا يخفَى على من له تذكُّرٌ، وعنده تفكُّرٌ وتأمُّلٌ. وصُدِّر قولُه تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بالهمزة لإنكار عدمِ التّذكّرِ واستبعادِ صدورِه عنِ المخاطَبين[1].

الحديثُ عن أمْرٍ منَ البديهيّاتِ لا يحتاجُ إلى أكثرَ منَ التّذكُّر؛ فلا يقتضي تفكيرًا، ولمَّا كان المقصودُ تنبيهَ المشركين لِما هم فيه منَ الضّلالة - لعلَّهم يتداركون أمْرَهم - فرّعَ عليه بـ (الفاء) جملةَ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

سِرُّ حذْفِ المفعولِ في ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾:

أولـو الألـبـابِ يَـعـتـبِرون، لا يَغفَلون

ختمَ اللهُ الآيةَ الكريمةَ مُوجِّهًا القولَ إلى النّاس ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وهو استفهامٌ للتّنبيهِ والتّحريض على التّذكُّر والاعتبارِ وإنَّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصارِ[3].

وحُذفَ المفعولُ به من جملةِ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ لإفادةِ عمومِ التّذكُّرِ لأيٍّ ممَّا تقدَّم ذِكرُه.

لَطيفةٌ في تنوُّعِ القراءاتِ في ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

قليلٌ منَ التّذكُّرِ يُجدي

قرأ الجمهورُ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتشديد الذّال، وأصلُه (تتذكَّرون) فأُبدِلت التّاءُ ذالًا لقُربِ مخرَجَيْهما وليتأتَّى الإدغامُ تخفيفًا، وقرأه حفصٌ، وحمزةُ، والكسائيّ - بتخفيف الذّال - على حذفِ إحدى التّاءَين من أوّل الفعل[4] وفي التّخفيف النّاتج عنِ الحذفِ في ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ - إدغامِ (التّاء) في الأصلِ في (الذّال)[5] - دلالةٌ على

---

(1) الشوكاني، فتح القدير: 2/558.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/43.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3697.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/43.
(5) المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين: 1/288.

القليل منَ التّذكُّر بالقليلِ منَ الجُهد؛ فقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: يحصل لكم أدنَى تذكُّرٍ - بما أشارَ إليه الحذف - فتَعلَموا صدقَ ما وُصِفوا به بما ترونَه من أحوالِهم، وذلك ما قُدِّم في حقِّ الكفّار من قولِه: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾(1).

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

العمَى والعَمَه والكَمَه:

كلُّ أكمَه أعمَى، وليس كلُّ أعمَى أكمَه

العمى: ذهابُ البصرِ كلِّه منَ العينَين كلتيْهما(2)، ويدورُ معناه المِحوريُّ حول احتجابِ الرّؤية(3). ويقال في افتقاد البصرِ والبصيرة، ويقال في الأوّل: أعمَى، وفي الثّاني: أعمَى وعَمٍ، وعلى الأوّل قولُ اللّه ﷻ: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ﴾ [النور: 61]، وعلى الثّاني ما وردَ من ذمِّ العمى في القرآن نحوَ قولِ اللّه ﷻ: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾ [البقرة: 18]، وقوله ﷻ: ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ [المائدة: 71](4).

أمّا العَمَه فأصلُه في العين، وهو أن يحارَ بصرُ الإنسان فلا يرى في تلك الحالة، ولكنّه كان يرى في غيرها(5)، ثم استُعمِل مجازًا في التّحيُّر والتّردُّد في الرّأي، وفلانٌ يعمَهُ في أمره: يتحيَّرُ فيه(6). والعَمَه: التردُّدُ في الضّلالة، والتّحيُّرُ في منازعةٍ أو طريقٍ، والعامِه: الذي يتردَّدُ متحيِّرًا لا يَهتدي لطريقِه ومذهبِه(7). ويقال: رجلٌ عامِهٌ وعَمِهٌ: حائرٌ متردِّد(8). قال اللّه ﷻ: ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/264.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عمى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عمى).
(4) الرّاغب، المفردات: (عمى).
(5) ابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 52.
(6) ابن الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس: 2/37، ومحمد الدوري، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص: 176.
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عمه).
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/209.

﴿١٥﴾ [البقرة: 15]؛ أي: في كفرِهم وضلالِهم يتردَّدون متحيِّرين[1]. وقدِ اقترن الفعلُ (يعمهون) بالطّغيان في خمس آياتٍ، وبالسَّكرةِ في آية وبالتّزيين في الآية الباقية؛ ممّا يدلُّ على فقد العَمِه التبصُّرَ والتنبُّهَ[2].

والفرقُ بين العَمَى والعَمَه أنَّ العمى عامٌّ في البصرِ والرّأي، والعمَه في الرّأي خاصّةً، والعمه يقال في عمى البصيرة الذي محلُّه القلبُ، أمّا العمَى فيقال في عمى العينِ والقلبِ، قال اللّه ﷻ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46]؛ ذلك في عمى البصيرة، وقال ﷻ في عمَى البصر: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾ [عبس: 1 - 2][3].

أمّا الكمَه فهو أن يعتريَ البصرَ ظُلمةٌ تطمسُ عليه، وهو العمى الذي يولَد به الإنسانُ[4]، والأكمه: الذي يولَد مطموسَ العين، أوِ الذي يولَد أعمى[5].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/209، والبغوي، تفسير البغوي: 1/68.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عمه).
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/69، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/311، والأزهري، تهذيب اللغة: (عمه)، ومحمد الدّوري، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص: 176.
(4) ابن سيده، المخصص: 1/102، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كمه).
(5) الجوهري، الصحاح، والأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كمه).

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥﴾ [هود: 25]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

القَصصُ القرآنيُّ عظةٌ للمُعتبِرين، وتسليةٌ للمُبتَلين

لَمَّا بيّن اللّه تعالى حالَ البُغضاءِ المُبعَدين، المُفترين على اللّه الكذبَ المبينَ، وتوعَّدَهم يومَ القيامة بالعذاب المهينِ؛ ذكّرَهم بعاقبةِ من كذّبَ منَ الأوَّلين؛ لتكونَ لهم فيهمُ العِظةُ والعِبرةُ، ولتكونَ تثبيتًا للنّبيِّ الكريم ﷺ وتسليةً، وتأييدًا له وتعزيةً؛ لئلّا يضيقَ صدرُه بشيءٍ ممّا أُمرَ بإبلاغه حِرصًا على إيمان أحدٍ وإن كان أقربَ الخلائقِ إليه وأعزَّهم عليه(1).

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَذِيرٞ﴾: الإنذارُ: إخبارٌ وإبلاغٌ مع تخويفٍ وتحذيرٍ(2). وأصلُه منَ التَّخويفِ والتَّحذيرِ ممّا يُخشى منه(3)، ومنه النَّذيرُ بمعنى المُنذِرِ، والنَّذيرُ بمعنى الإنذار، وجمعُه نُذُرٌ(4). والإنذارُ الإعلامُ بالشّيءِ يُحذَّر منه، والمُنذِر هو المبلّغ والمُعَلِم بهذا الشَّيءِ. والمُنذِر كذلك الرَّسولُ أوِ النَّبيّ يبلِّغُ الأمرَ العظيمَ من شأن الآخرة يُخوِّفُهم ويحذِّرُهم منها(5).

2) ﴿مُّبِينٌ﴾: البيانُ: الفصاحةُ والإيضاحُ والكشفُ عنِ الشَّيءِ. وكذلك: ما يتبيَّنُ به الشَّيءُ منَ الدّلالة وغيرِها من: بان الشَّيءُ بيانًا، فهو بيِّن: اتَّضحَ. وأبان الشّيءُ والشيءَ - يُستعملُ لازمًا ومتعدِّيًا -

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/465، والبقاعي، نظم الدّرر: 9/264، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/43، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/313.
(2) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نذر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نذر).
(4) الجوهري، الصحاح، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (نذر).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نذر).

فهو مُبين: اتَّضحَ إن كان لازما، وأوضحَه إن كان متعدِّيًا[1]. وأصلُه يدورُ حول معنى انكشافِ الشَّيء[2].

ومعنى مُبين: "مُبَيِّن، أي إنّه مُبَيِّن خيرَه وبركَته، مُبَيِّنٌ الحقَّ من الباطل، والحلالَ والحرامَ، ومُبَيِّنٌ أنَّ نبوَّة النَّبيِّ ﷺ حقٌّ، ومُبَيِّنٌ قصصَ الأنبياء"[3].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

حُجّةُ الله قائمةٌ على عبادِه بإرسالِ الرُّسلِ بِشارةً ونَذارةً

يُخبرُ المولى ﷻ عن نوحٍ عليه السلام، وكان أوَّلَ رسولٍ بعثه اللّه إلى أهل الأرضِ منَ المشركين عبدةِ الأصنام، أنَّه قال لقومه إنِّي مُخوِّفٌ ومحذِّرٌ لكم تحذيرًا واضحًا من عذاب اللّه وبأسِه، إن خالفتُم أمرَه سبحانه وعبدتُم غيرَه، ومُوضِّحٌ لكم كذلك مُوجباتِ العذابِ ووجْهَ الخلاص، فآمنوا باللّه وأطيعوا أمرَه سُبحانه[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ الواو في ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾:

عطْفُ الموعظةِ بالقَصصِ على الإنذارِ لزيادةِ وعيدِ الكافرين

الواوُ ابتدائيَّةٌ، وقد عطفَت قولَه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾ على ما جاء في مطلع السُّورة من قوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢﴾ [هود: 2] إذ هو إقرارٌ بنبوَّة النَّبيِّ ﷺ ورسالته، فهي من باب عطف القصَّة على القصَّةِ، فقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾ هو انتقالٌ من إنذارِ المشركين ووصْفِ أحوالِهم وما ناسبَ ذلك إلى موعظتِهم بما أصاب المُكذِّبين قبلَهم منَ المصائب، وفي ذلك تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ بما لاقاه الرُّسلُ عليهم السلام قبلَه من أقوامِهم[5]. والمعنى: واتلُ عليهم نبأ

---

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بان).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بان).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (بان).

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/132، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 380.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/43.

نوحٍ؛ يعني: إنْ لم يتَّعِظوا بما ذكرت، فاتْل عليهم خبرَ نوحٍ[1]، فالآيةُ فيها تمثيلٌ لقريشٍ وكفَّارِ العرب، وإعلامٌ بأنَّ محمّدًا ﷺ ليس ببِدعٍ منَ الرُّسل[2].

زيادةُ التّوكيدِ مناسِبٌ لشدّةِ إنكارِ الكافرين

الغرضُ من القسَمِ في ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ جوابٌ لقسَم محذوفٍ؛ أي: واللّه لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه. والدَّليلُ على هذا القسَم وجودُ لامِه في بدء الجملةِ[3]، وأُكِّدتِ الجملةُ بلام القسَم و(قد)؛ لأنَّ المخاطَبين لَمَّا غفلوا عنِ الحذر ممَّا بقوم نوحٍ مع مماثلة حالِهم؛ نُزِّلوا منزلةَ المنكِر لوقوعِ رسالتهِ[4]، وقد كان للقسَم عند العربِ منَ التَّأثير في تأكيد الكلامِ ما لا يخفَى على عالمٍ بحالِهم ولغتِهم وطرائقِهم في التَّعبير[5].

الرُّسلُ صلواتُ اللهِ عليهم أرسَلَهمُ العظيمُ ﷻ

سرُّ إسنادِ الفعلِ في ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

أُسندَ الفعلُ إلى نون العظَمةِ في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ لبيان كمالِ العنايةِ بأمرِ الإرسالِ، ولتشريفِ الرَّسول وتعظيم الرِّسالة، ولإبرازِ غايةِ التَّشنيع على مَن يجحَدُها. فقولُه تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾؛ "أي: بما لنا منَ العظَمةِ"[6]، فويلٌ لَمَن يكفرُ بها أو يُعرِضُ عنها، أو يَفتري على اللّه كذبًا فيقولُ: ما أرسلَ اللّه مِن رسولٍ، وما جاءنا مِن بشيرٍ ولا نذيرٍ!

أدّى نوحٌ عليه السلام الأمانةَ وبلّغ الرّسالةَ إلى قومِه

معنى حرف الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾ ودَلالتُه:

الأصلُ في (إلى) أن تكونَ لانتهاء الغايةِ[7]، فهذا المعنى هو أصلُ

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 2/145.
(2) الثعالبي، الجواهر الحسان: 3/279.
(3) طنطاوي، الوسيط: 7/189.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/43.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/52.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 9/265.
(7) السامرائي، معاني النحو: 3/16.

معانيها[1]، وقد أفادت أنَّ رسالةَ نوحٍ عليه السلام ونذارتَه قدِ انتهت إلى قومه، فبلغَتْهم ولم تقصرْ عنهم، وفيها إقامةٌ للحُجّة عليهم وتعذيبُهم.

سرُّ الإضافةِ في ﴿قَوۡمِهِۦٓ﴾:

يُصْطفَى الرّسولُ منَ النّاس الذين يُرسلُ إليهم، فهو ليس غريبًا عنهم

قومُ الرَّجل: هم أقرباؤه الذين يجتمِعون معه في جَدٍّ واحدٍ، وقد يقيمُ الرَّجلُ بين الأجانب فيُسَمّيهم قومَه مجازًا للمجاوَرة[2]، فقوله تعالى: ﴿قَوۡمِهِۦٓ﴾؛ أي: الذين هم على لسانِه[3]، الذين يألفُهم ويألفونَه، ويعرفون مقامَه فيهم، ونسبَه منهم، وقد ناداهم نداءَ الحدبِ عليهم المُحبّ المُنذرِ لهم[4].

بَلاغةُ حذْفِ فعلِ القولِ ودَلالتُه:

حـذفُ الـقـولِ لـلإيـجـازِ واسـتـحـضـارِ المَشْهَدِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي﴾؛ أي: فقال: إنِّي؛ لأنَّ في الإرسال معنى القولِ[5]. وحذْفُ فعْلِ القولِ مع بقاء المَقولِ كثيرٌ في القرآن، وهو يؤدِّي المعنى بأقصر طريق، وأقوى تحقيق، ويصرفُ الانتباهَ إلى المَقول لأهميَّتِه، كما أنَّه يلخِّصُ وظيفةَ الرِّسالة كلِّها ويُترجِمُها إلى حقيقةٍ واحدةٍ: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾.

موقعُ جملةِ ﴿إِنِّي﴾ ودَلالتُه:

الرّسولُ مُحذِّرٌ لـقـومـه مـنَ العذابِ

جملةُ: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ﴾ في محلِّ نصبِ مقولِ لقولٍ مقدَّر، والقولُ المقدَّرُ حالٌ من ﴿نُوحًا﴾[6]، وهذا قد جعل الجملةَ في موقع الاستئنافِ البيانيِّ النَّاشئَ عنِ السُّؤال المقدَّرِ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾، فكأنَّ سائلًا قال: وما أوَّلُ ما قال نوحٌ لقومه؟ وماذا كان شأنُه معهم؟ فجاءت الإجابةُ: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾؛ أي: "يا

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 385.
(2) طنطاوي، الوسيط: 7/189.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/265.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3698.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/22.
(6) محمود صافي، الجدول: 6/248.

قومُ إنّي لكم محذِّرٌ تحذيرًا واضحًا من مُوجبات العذابِ التي تتمثَّلُ في عبادتِكم لغير الله تعالى"[1].

أُرســلَ نــوحٌ لإنذارِ قومِه منَ العذاب

تنوُّعُ القراءاتِ في ﴿إِنِّي﴾:

تنوعّتِ القراءاتُ في قوله: ﴿إِنِّي﴾، فقرأ عامَّةُ قُرَّاء الكوفةِ وبعضُ المدنيِّين بكسر (إنَّ) على وجه الابتداء؛ إذ كان في الإرسال معنى القول. وقرأ بعضُ قُرَّاء أهل المدينةِ والكوفةِ والبصرةِ بفتح (أنَّ) على إعمال الإرسالِ فيها، كأنَّ معنى الكلام عندهم: لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه بأنّي لكم نذيرٌ مبين[2]. فقراءة ﴿إِنِّي﴾ بكسر الهمزة على أنَّه محكيٌّ بفعل قولٍ محذوفٍ في محلِّ حال، أي: قائلًا. وقراءةُ (أني) بفتح الهمزة على تقدير حرف جرٍّ، وهو الباءُ للملابسة؛ أي: أرسلناه مُتلبِّسًا بذلك؛ أي؛ بمعنى المصدرِ المَنسبك من (أنِّي نذير)؛ أي: متلبِّسًا بالنِّذارة البيِّنة[3]، فكأنَّ القراءةَ الأولى تعني الرِّوايةَ عن قصَّة البلاغ، والقراءةَ الثَّانية تحدِّدُ مضمونَ الرِّسالةِ[4].

توكيدُ مضمونِ الرِّسالةِ مُناسبٌ لإعـــراض الـكـافـريـن وإنكارِهم

سِرُّ توكيدِ الجُملة بـ ﴿إِنِّي﴾:

أُكِّد قولُه: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ بـ (إنَّ) المشبَّهة بالفعل، وفائدةُ التَّوكيد بها إفادةُ التَّحقيق مع تجنُّب التَّكرار؛ إذ إنَّها تنوبُ مَنابَ تكريرِ الجملة، فتُؤدّي المعنى مُوجزًا بلا تكرير في اللَّفظ، مع حصول الغرضِ منَ التَّأكيد[5].

نوحٌ عليه السلام مُرسلٌ لإنــذارِ قـومـه خاصَّةً

معنى اللَّامِ ودَلالتُها في ﴿لَكُمۡ﴾:

اللَّامُ تفيدُ الاختصاصَ، وهذا هو أصلُ معانيها[6]. فقوله تعالى: ﴿لَكُمۡ﴾؛ أي: خاصَّةً[7]، وهذا الاختصاصُ يُؤدّي معنى جليلًا، وهو أنَّ

(1) طنطاوي، الوسيط: 7/189.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/378.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/44.
(4) الشعراوي، الخواطر القرآنية: 10/6425.
(5) ابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/526.
(6) المرادي، الجنى الداني، ص: 96، والسامرائي، معاني النحو: 3/64.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 9/265.

اللّه ﷻ لم يتركِ النَّاسَ سُدًى، بل بيَّن لهمُ الطَّريقَين، وهداهمُ النَّجدَين، وأمرَهم بالتَّوحيد والإيمانِ، ونهاهُم عنِ الكفر والعصيانِ، وأنَّه تعالى أرسل لكلِّ أمَّة رسولًا يعرفونَه ويفهمونَه يُخبرُهم بمرادِ اللّه منهم لئلَّا يكونَ للنَّاس على اللّه حجَّةٌ بعد الرُّسل، وكان حَريًّا بقوم نوحٍ أن يُعظِّموا نعمةَ اللّه عليهم إذ أرسلَ لهم وحدهم خاصَّةً رسولًا منهم يبيِّنُ لهم، ولكنَّهم كفَروا فاستحقُّوا أشدَّ العذاب، وهذا تحذيرٌ للكافرين المخاطَبين مِن أُمَّة النَّبيِّ ﷺ.

الغرضُ من تقديم ﴿لَكُمْ﴾ على خبرِ إن:

غالبًا ما يكونُ التّخصيصُ لازمًا للتّقديمِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ على خبرِ (إنَّ) بحيث فَصلَ بين اسْمِ النَّاسخ وخبرِه، لإفادة التَّخصيصِ الذي هو لازمٌ للتَّقديم غالبًا[1]، فقوله: ﴿لَكُمْ﴾؛ أي: لكم أنتم خاصَّةً، وفي هذا غايةُ الرِّفق في النُّصحِ، والإشفاقِ في البلاغ.

دَلالةُ تنكير الخبر ﴿نَذِيرٌ﴾:

نوحٌ عليه السلام أحدُ الرّسلِ الكثيرين الذين كُذِّبوا

جاء المُسنَدُ في قوله: ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ نكرةً لقصد الإخبارِ بثبوتِ المُسنَدِ للمسندِ إليه من غير إرادةِ عهدٍ أو تخصيصٍ[2]، فكأنَّه عليه السلام قال لهم: إنِّي لكم نذيرٌ من نُذُر اللّه الكثيرين الذين لا يعلمُ عدَّتَهم إلَّا هو سُبحانه، فآمنوا بي، وبكلِّ نذيرٍ يأتيكم مِن ربِّكم.

الغرَضُ من وصْفِ الخبرِ بـ ﴿مُّبِينٌ﴾:

بيَّن نوحٌ عليه السلام لقومِه مُوجباتِ العذابِ، ووجهَ الخلاصِ منه

الإبانةُ: إظهارُ المعنى للنَّفس بما يمكنُ إدراكُه، وأصلُه القطعُ، فالإبانةُ: قطعُ المعنى مِن غيره لِيظهرَ في نفسه[3]، فقولُه: ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى أنَّه بيَّنَ ذلك الإنذارَ على الطَّريق الأكملِ والبيانِ الأقوى الأظهرِ[4] بيانًا زالَ به الإشكالُ[5]، وفيه بيانٌ لكمالِ الحُجّة.

(1) أحمد شعيب، بحوث منهجية في علوم البلاغة، ص: 278.
(2) حسن إسماعيل، البلاغة الصافية، ص: 144.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/268.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/336.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 380.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرسالُ والبعثُ:

البعثُ أشدُّ منَ الإرسالِ

الرّاء والسّين واللّام أصلٌ واحدٌ مُطّردٌ مُنقاسٌ، يدلُّ على الانبعاثِ والامتدادِ[1].

والرِّسْلُ: الانبعاثُ على التّؤدَةِ، ومنه: الرَّسولُ المُنبعثُ، وتُصوّرَ منه تارةً الرِّفقُ، فقيل: على رِسلك، إذا أمرته بالرِّفق، وتارةً الانبعاثُ؛ فاشْتُقّ منه الرَّسولُ[2].

والباء والعين والثّاء أصلٌ واحدٌ، وهو الإثارةُ[3]؛ فأصلُ البعث الإثارةُ والتّوجيهُ[4].

ويفترقُ الإرسالُ عنِ البعث بأنَّ الإرسالَ: يكونُ بإرسال شيءٍ جديدٍ؛ أي: برسالةٍ جديدةٍ، أو منهجٍ جديدٍ، أو تغيّرٍ، أو تعديلٍ في المنهج السّابقِ، حسبَ الزّمانِ والمكانِ. أمّا البعثُ: فهو إحياءُ منهجٍ كان موجودًا سابقًا، وغفلَ عنه النّاسُ، فإذا أراد اللّه ﷻ إحياءَ نفسِ المنهجِ الذي غفلَ عنه النّاسُ، بعث اللّه رسولًا أو نبيًّا لإحياء معالمِ ذلك المنهجِ السّابقِ الذي اندثرَ[5].

والإرسالُ: لا يصاحبُه إثارةٌ ولا تهييجٌ ولا حثٌّ كما في البعث. أمّا البعثُ: فيصاحبُه إثارةٌ وحضٌّ وتهييجٌ على القيام بالعمل، وحثٌّ عليه[6]. والإرسالُ: يكون من مكانٍ إلى مكانٍ، أو إلى مكان جديدٍ. أمّا البعث فيكونُ إلى نفس المكان، أوِ القرية، أوِ المدينةِ[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسل).
(2) الرّاغب، المفردات: (رسل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).
(4) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بعث).
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 1/221.
(6) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 1/221.
(7) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 1/221 - 222.

﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦﴾

[هود: 26]

العُبوديّةُ للمؤمن عِزّةٌ وفَخارٌ، والانسلاخُ منها ذِلّةٌ وصَغارٌ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا ضربَ اللّه تعالى المثَلَ لمكذّبي مكّةَ بالهالِكين من قوم نوحٍ؛ لِيرتدِعوا ويَزدجِروا؛ بيّن سُبحانه أنَّ أعظمَ ما جاء به نوحٌ عليه السلام والنّبيّون من بعدِه هو الدّعوةُ إلى عبادة الإله الواحدِ، وخلْعِ عبادةِ ما سواه؛ حيث إنَّ قومَ نوحٍ هم أوّلُ المتلبّسين بالشّركِ واتّخاذِ الأنداد؛ وكان جَزاؤهم عذابًا أليمًا، وأخذًا شديدًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَعۡبُدُوٓاْ﴾: والعبادةُ: الطّاعةُ. يقال: عَبَد يَعْبُدُ عبادةً، لمن يعبدُ اللّه فقط، ومَن عَبَد مِن دونه إلهًا فهو منَ الخاسرين، أما عَبْدٌ يخدمُ سيّدَه ومولاه، فلا يقال: عَبَدَه يَعْبُده، وعَبَد اللّه يَعبُده عبادةً: تألَّه له[2]، و"العُبوديّةُ: إظهارُ التّذلُّل، والعبادةُ أبلغُ منها؛ لأنّها غايةُ التّذلُّل، ولا يَستحقُّها إلا مَن له غايةُ الإفضال، وهو اللّه تعالى، ولهذا قال: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾". والعبادةُ ضربان: عبادةٌ بالتَّسخير، وهي تعمُّ جميعَ الخلْقِ المَربوبين للّه، وعبادةٌ بالاختيار، وهي لذوي النّطقِ والفكرِ والاختيارِ منَ البشر[3].

2) ﴿أَخَافُ﴾: الخوفُ: الذُّعْرُ والفَزَع، وهو توقُّعُ المكروه عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ[4]. ومعناه المِحوريُّ يدورُ حول معاني الذُّعَرِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/139، والبقاعي، نظم الدّرر: 9/268، والآلوسي، روح المعاني: 6/236، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/43، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/313.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عبد).
(3) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عبد).
(4) ابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خوف).

والفَزَع[1]. ومنه الخِيفةُ: بمعنى الحالةِ التي عليها الإنسانُ منَ الخوف[2]. يقال: خَاف الرَّجُل يَخَافُ خَوفًا ومَخَافَةً، فهو خائفٌ[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّوحيدُ سبيلُ نجاةِ العَبيدِ يومَ الوعيدِ

آمرُكُمْ أن لا تعبُدوا إلَّا اللّٰه سُبحانه، وأن لا تتَّخذوا من دونه شريكًا بعبادتِكم الآلهةَ والأوثانَ واتِّخاذِكمُ الأندادَ، فإن استمررتُم على عنادِكم وكفرِكم؛ فلم تقوموا بتوحيدِ اللّٰه، وتخصيصِه بالعبادة، وخلْعِ ما دونَه منَ الأوثان والأندادِ، ولم تُطيعوني فيما أمرتُكم به ونهيتُكم عنه؛ فإنِّي أخافُ عليكم عذابَ يومٍ مؤلمٍ عِقَابُه شَدِيدٍ عذابُه، وهو يومُ القيامة أوِ الطُّوفان[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ قوله: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ ودَلالتُه:

تتلخَّصُ رسالةُ نوحٍ عليه السلام إلى قومِه في عبادة اللّٰه وحدَه لا شريكَ له

جملةُ ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾؛ أي: أرسلناه بأن لا تعبُدوا إلا اللّٰه، فتقديرُ الآية كأنَّه تعالى قال: ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومِه بهذا الكلام، وهو قولُه: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾، ثم قال: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾، فهو بدلٌ منه[5].

ويجوزُ أن تكونَ جملةُ: ﴿لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ مُفسِّرةً لجملة ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾؛ لأنَّ الإرسالَ فيه معنى القولِ دونَ حروفِه، ويجوزُ كونُها تفسيرًا لـ﴿نَذِيرٞ﴾ لِما في ﴿نَذِيرٞ﴾ من معنى القول؛ كقولِه في سورة نوح: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ [نوح: 2-3]. وهذا الوجهُ متعيِّنٌ على قراءة فتحِ همزةِ (أني) إذا اعتُبرت

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خوف).
(2) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خوف).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خوف).
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 380، والزحيلي، التفسير المنير: 12/53.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/336.

(أنْ) تفسيريَّةً، ويجوزُ جعلُ (أنْ) مخفَّفةً منَ الثَّقيلةِ فيكونَ بدلًا من (أني لكم نذير مبين) على قراءة فتحِ الهمزة، واسمُها ضميرُ شأنٍ محذوفٌ؛ أي: أنَّه لا تعبدوا إلا اللّه(1).

معنى ﴿أَن﴾ ودَلالتُها في الآية:

دَعوةُ نوحٍ عليه السلام كانت إلى التّوحيدِ الخالصِ لله جل جلاله

يمكنُ حملُ ﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ بحسبِ قراءةِ مَن كَسَر ﴿إِنِّي﴾ في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، على ثلاثةِ أوجُهٍ: إمَّا أن تكونَ مصدريَّةً ناصبةً، وإمَّا مفسِّرةً، وإمَّا مخفَّفةً منَ الثَّقيلة، فأمَّا المصدريَّةُ النَّاصبةُ فهي معمولةٌ لـ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ في محلِّ جرٍّ أو نصبٍ(2)، فتقديرُ الجرِّ: أرسلنا نوحًا بأن لا تعبدوا إلَّا اللّه، فالباءُ مقدَّرةٌ هنا للتَّعديةِ، و(لا) ناهيةٌ؛ أي: أرسلناه مُتلبِّسًا بالنَّهيِ عن عبادة غيرِ اللّه(3).

معنى ﴿لَّا﴾ ودَلالتُها في الآية:

نهي نوحٍ عليه السلام قومَه عن عبادةِ غيرِ الله

﴿لَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ هي النَّاهيةُ، ودَلالتُها أنَّها تخلِّصُ الفعلَ المضارعَ للاستقبال؛ لأنَّها نقيضةُ لـ(تفعل) المُخلِّصةِ للحال(4)، فالمعنى أنَّ نوحًا عليه السلام ينهَى قومَه عن عبادة غيرِ اللّه أبدًا. وهو نهيٌ غرضُه النُّصحُ والإرشادُ يؤيِّده قولُه بعدَه: ﴿أَنصَحَ لَكُمۡ﴾ [هود: 34] وقيل: هي (لا) النَّافيةُ(5)، والتَّقديرُ: أرسلنا نوحًا إلى قومه برسالة تتضمَّنُ إبطالَ عبادةِ غيرِ اللّه، وهذه هي وظيفةُ الرُّسُل: إقامةُ التَّوحيد، وإبطالُ الشِّرك والكفر.

نُكتةُ حذْفِ مُتعلّق الفعل ﴿تَعۡبُدُوٓاْ﴾:

نهيٌ عامٌّ عن عبادةِ أحدٍ من دون الله جل جلاله

في قولِه تعالى: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ حُذِفَ متعلَّقُ الفعل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/44.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/309.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 6/86.
(4) المالقي، رصف المباني، ص: 339.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/280.

﴿تَعۡبُدُوٓاْ﴾، وتقديرُه: (الأصنامُ، أوِ الكواكبُ، أو غيرُها) لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ، وهي قصدُ التَّعميم مع الاختصارِ؛ لأنَّ حذفَ المعمول يُؤذِنُ بالعموم[1]، وعليه فإنَّ قوله: ﴿لَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾: معناه: شيئًا أصلًا ﴿إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾؛ أي: الملكُ الأعظمُ[2].

الغرضُ من القصْرِ في ﴿لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّـهَۖ﴾:

نهي نوحٌ عليه السلام قومَه عن عبادةِ غيرِ الله، وأمرَهم بعبادتِه وحدَه

قولُه تعالى: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ استثناءٌ منَ النَّهي، فهو يوجِبُ نفيَ غيرِ المُستثنى، وإيجابَ المُستثنى، وهذا يفسِّرُ الإنذارَ المتقدِّمَ في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾، فقد بيَّن تعالى أنَّ ذلك الإنذارَ إنَّما هو بنهْيِهم عن عبادة غيرِ الله، والأمرِ بعبادتِه جلَّ ذِكرُه[3]، والغرضُ منَ القصْرِ: تمكينُ الكلام وتقريرُه في الذِّهن مع المبالغةِ في المعنى[4]؛ إذ إنَّه يُستخدمُ لحبس الصِّفةِ على الموصوف بها مع نفْيِها عن غيره، فقولُه: ﴿لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾؛ أي: احبِسوا العبادةَ على الله تعالى فقط، واترُكوا كلَّ ما تعبدونَه من دونِه، وهذا فيه مِن التَّوكيدِ ما لا يخفَى، كما أنَّ القصْرَ من ضروب الإيجازِ الذي هو أعظمُ ركنٍ من أركان البلاغةِ، إذ إنَّ جملةَ القصْرِ في مقام جُملتين، فجملةُ (لا إله إلا الله) تعادلُ: الله إلهٌ، وليس إلهًا غيرُه[5]، وهو أيضًا درجةٌ عُليا من درجات التَّوكيدِ[6]، وسِرُّ إيثارِ القصْرِ بهذه الصُّورة يظهرُ من ثلاثةِ أوجُهٍ:

أحدُها: أنَّ القصْرَ باستخدام الاستثناءِ المُفرَّغِ أعمُّ من صُوَرِ الاستثناءِ الأخرى وأشملُ، وذلك أنَّه لو قيل: (ما حضرَ إلا زيدٌ) فقد

(1) عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 130.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/268.
(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 10/466.
(4) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 170.
(5) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 173.
(6) حسن طبل، علم المعاني، ص: 178.

نُفِي كلُّ حضور غيرِ حضور زيدٍ، فهذه الصُّورة منَ الاستثناء تَسلبُ الوصْفَ عن كلِّ أحدٍ، ثمَّ تُثبتُه لواحدٍ بعينه، فلا يكاد أحدٌ يتَّصفُ به سواه؛ ولذلك أُوثرت هذه الصُّورةُ في كلمة التَّوحيد العظمى: (لا إله إلا اللّه)، وهو معنى ما قاله نوحٌ عليه السلام لقومه: ﴿لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾؛ أي: اصْرِفوا العبادةَ عن كلِّ أحد، ووجِّهوها للّه وحده، ولا شكَّ أنَّ هذا أبلغُ في التَّأكيد وأقوَى.

والثَّاني: أنَّ (إلَّا) تفيدُ الاختصاص، فإذا قيل: (قام الرِّجال إلَّا زيدًا) فقد أُثبِتَ القيامُ لجميع الرِّجال، ونُفِي عن زيد حصْرًا، وإذا قيل: (ما قام إلَّا زيدٌ) فقد نُفِي القيامُ عن كلِّ أحدٍ وأُثبِت لزيد حصْرًا، وهذا هو المرادُ هنا: نفيُ الألوهيَّة عن كلِّ أحدٍ، وإثباتُها للّه تعالى حصْرًا.

والثَّالثُ: أنَّ القصْرَ بالنَّفي والاستثناء إنَّما يكونُ لِما يُنكِره المخاطَبُ، كأن يقال: (ما حضر إلَّا زيدٌ) إذا كان المخاطَبُ ينكرُ أن يكون الحاضرُ زيدًا. ولذلك لا يصحُّ استعمالُ هذه العبارةِ في الأمر الظَّاهرِ، فلا يقال لمَن يُرَقِّقُ على أخيه، ويُنبَّهُ لِما يجبُ عليه من صلة الرَّحم: (ما هو إلا أخوك)[1].

سِرُّ اختيارِ ﴿ٱللَّهَۖ﴾ مَقصورًا عليه:

اللـه هـو الإلـهُ الحقُّ المُستحقُّ للعبادةِ

في قوله تعالى: ﴿لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ جاء المقصورُ (العبادةُ) والمقصورُ عليه لفظُ الجلالةِ (اللّه)، ومنَ المعلوم أنَّ القصْرَ يفيد التَّخصيصَ؛ أي: تخصيصَ أمْرٍ بآخر[2]، وهو بهذا التَّخصيصِ يفيدُ أعلى درجاتِ التَّوكيد[3]، والمعنى هنا: تأكيدُ نفيِ الألوهيَّةِ وتوجيهِ العبوديَّة عن كلِّ ما سوى اللّه تعالى، وإثباتِها له وحدَه سُبحانه،

(1) السامرائي، معاني النحو: 2/250.
(2) أحمد شعيب، بحوث منهجية في علوم البلاغة، ص: 292.
(3) حسن طبل، علم المعاني، ص: 178.

وتخصيصِه بها ﷻ، وهذا قصرٌ حقيقيٌّ، مِن قصرِ الصِّفة التي هي الألوهيَّةُ واستحقاقُ العبوديَّة على موصوفٍ واحدٍ هو اللّه ﷻ، ويُراد منه قلبُ تصوُّرِ مَن يوجَّهُ له الخطابُ.

موقعُ جُملةِ ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ ودَلالتُه:

من شأنِ النِّذارة أن تَثقُلَ على النُّفوسِ، فمتى عُلِّلتْ بالخوفِ قُبلِتْ

قولُه: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ جُملةٌ تعليليَّةٌ لموجبِ النَّهي، والمعنى: نهيتُكم عن عبادة غيرِ اللّه لأنِّي أخاف عليكم. وفيها تصريحٌ بالمحذورِ، وتحقيقٌ لمعنى الإنذار[1]؛ فإنَّ شأنَ النِّذارة أنْ تثقُلَ على النُّفوسِ فكانت جديرةً بالتَّعليل لدفْعِ حرجِ ما يُلاقونَه[2]، وما حملَه عليه السلام على هذا التَّحذير الواضح إلَّا خوفُه على قومِه، وشفقتُه بهم، فهو منهم وهم منه بمقتضى القرابةِ والنَّسبِ[3].

دَلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿أَخَافُ﴾:

تكرُّرُ خوفِ نوحٍ عليه السلام على قومِه من عقابِ اللّه

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ يفيدُ تجدُّدَ الحدثِ وتَكرارَه واستمرارَه، وهو في هذا السِّياق يدلُّ على تكرُّر وقوعِ الخوفِ من نبيِّ اللّه نوح عليه السلام على قومه، وفيه إشارةٌ إلى تَكرار إنذارِه إيَّاهم مع استمرارِ إعراضِهم عنه.

نُكتةُ التَّعْدِيةِ في ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

حِرْصُ نوحٍ عليه السلام على استنقاذِ قومِه جميعًا من عذابِ اللّه

جملةُ ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ ونحوُها مثل: أخشَى عليك، تُستعملُ للتَّوقُّع في الأمرِ المظنونِ أوِ المقطوعِ به باعتبارِ إمكانِ الانفلاتِ مِنَ المقطوعِ به، فيتعدَّى الفعلُ بنفسِه إلى الخوف منه، ويتعدَّى إلى المَخوفِ عليه بحرف (على) كما في الآية[4]، والأصلُ الذي تدورُ عليه معاني الحرف (على) هو الاستعلاءُ، حقيقيًّا كان أو

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/200، والشوكاني، فتح القدير: 2/559.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/44.
(3) طنطاوي، الوسيط: 7/190.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/44.

مجازيًّا[1]، فكأنَّ نبيَّ اللّه نوحًا ﷺ جعلَ الخوفَ رداءً سابغًا نشرَه عليهم فجللهم به.

سِرُّ الإضافةِ في ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ﴾:

هَولُ العذابِ شاملٌ لليوم كلِّه الذي لا يعلمُ مُدّتَه إلا الله

في إضافةِ العذابِ إلى زمن الوقوعِ فيه تهويلٌ له لشمولِه مُدّةَ اليومِ كلِّه ولطولِ المدّة أثرٌ بالغٌ في قدرِ العذابِ.

الغرضُ منَ المجازِ في ﴿أَلِيمٍ﴾:

اليومُ الآخرُ مُؤلمٌ كلُّه للكافرين لشدّةِ العذابِ الواقعِ بهم

إنَّما وُصِفَ اليومُ بالألم؛ لأنَّ الألمَ فيه يقعُ، والمعنى: عذابَ يومٍ مُؤلم؛ أي: موجِعٍ[2].

ووصفُ اليوم بالأليم مجازٌ عقليٌّ، وهو أبلغُ من أن يوصَفَ العذابُ بالأليم؛ لأنَّ شدَّةَ العذابِ لمَّا بلغتِ الغايةُ جعل زمانَه أليمًا؛ أي مُؤلمًا[3]. وهذا تعظيمٌ للعذابِ المحذَّرِ منه، ومبالغةٌ في التَّخويف به، فإذا كان اليومُ مُؤلمًا فما الظَّنُّ بما فيه منَ العذاب[4]!

والمُتألِّم حقيقةً هو الشَّخصُ المعذَّبُ المُدرِك، لا وصفُه، ولا زمانُه، وإذا وُصِفَا بالتّألُّم دلَّ على أنَّ الشَّخص بلغَ في تألُّمِه إلى حيث سرَى ما به منَ التَّألُّم إلى ما يُلابسُه منَ الزَّمان والأوصاف، فالأليمُ بمعنى: المُؤلَم - بفتح اللَّام - على أنَّه اسمُ مفعولٍ منَ الإيلام، ويجوزُ أن يكونَ بمعنى المُؤلِم - بكسر اللَّام - على أنَّه اسمُ فاعلٍ، وهو صفةُ اللّه تعالى في الحقيقة؛ إذ هو الخالقُ للألم[5].

دَلالةُ صيغة ﴿أَلِيمٍ﴾:

عذابُهم ثابتٌ على حال إيلامِهم؛ لأنَّه دائمُ الشّدَّة

بناءُ فعيل في الصِّفة المُشبَّهةِ يدلُّ على الثُّبوت فيما هو خِلْقَةٌ أو بمنزلتِها، كطويلٍ، وقصيرٍ، وفقيهٍ، وخطيبٍ، وهو في المبالغة

---

(1) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/497، والسامرائي، معاني النحو: 3/47.
(2) الزجاج، معاني القرآن: 3/46.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/44.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/268.
(5) البروسوي، روح البيان: 4/116.

يدلُّ على معاناة الأمرِ وتَكرارِه، حتى أصبح كأنَّه خِلقةٌ في صاحبِه وطبيعةٌ فيه، كعليم؛ أي أنَّه لكثرةِ نظرِه في العلم وتبحُّرِه فيه أصبح العِلْمُ سجيَّةً ثابتةً فيه، وهذه الدِّلالةُ تنطبقُ على وصْفِ (الأليم) لِما يُعانيه المعذَّبُ من آلامِ التَّعذيبِ الحِسِّيِّ والنَّفسيِّ، فتنبعثُ أصواتُ تَألُّمه، وتُلازِمُه وتصيرُ ثابتةً له كالصِّفات الخَلقيَّة[1]، وقد جاء قولُه: ﴿أَلِيمٍ﴾ نكرةً لإفادة التَّهويل والتَّعظيم والتَّرويع؛ لتذهب النَّفسُ في تخيُّلِه كلَّ مذهبٍ من حيث الشِّدَّةُ والسَّطوةُ على صاحبه، ومن حيث الاستمرارُ والدَّوامُ، وهذا هو المناسبُ لمقام الزَّجرِ والإنذارِ والتَّخويفِ[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخوفُ والخشيةُ:

الخَشيةُ خوفٌ خاصٌّ وهي أشدُّ مِنَ الخوفِ

الخوفُ: توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ، أو معلومةٍ، كما أنَّ الرّجاءَ والطّمعَ توقُّعُ محبوبٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ، أو معلومةٍ، ويُضادُّ الخوفُ الأمنَ لِما فيه منَ الطّمأنينة. ويُستعملُ الخوفُ في الأمور الدّنيويّةِ والأخرويّةِ[3]، والخوفُ: فزعُ القلبِ تخفُّ له الأعضاءُ، ولخفّةِ الأعضاء به سُمِّي خوفًا[4].

والخَشيةُ: خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأكثرُ ما يكونُ ذلك عن علْمٍ بما يُخشَى منه[5]، وأصلُها طمأنينةٌ في القلب تبعثُ على التّوقّي[6]، والخشيةُ لا تكونُ إلا لمؤمنٍ مصدِّقٍ؛ لذا خصَّ اللّه العلماءَ بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28][7].

(1) عبد الرحمن فودة، في رحاب النص، ص: 8.
(2) عبد الرحمن فودة، في رحاب النص، ص: 9.
(3) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خوف).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/170.
(5) الرّاغب، المفردات: (خشي).
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/170.
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/332، والرّاغب، المفردات: (خشي).

والخشيةُ: أشدُّ منَ الخوف؛ لأنَّها مأخوذةٌ من قولهم: شجرةٌ خاشيةٌ: أي يابسةٌ[1]، وتفترقُ الخشيةُ عنِ الخوف بأنَّها تكونُ عن يقينٍ صادقٍ بعظمة مَن نخشاه، كما يفترقُ الخشوعُ عنِ الخضوع، بأنّنا لا نخشعُ إلا عنِ انفعال صادقٍ بجلالِ مَن نخشعُ له، أمّا الخوفُ فيجوزُ أن يحدثَ عن تسلُّطٍ بالقهر والإرهابِ، كما أنَّ الخضوعَ قد يكونُ تكلُّفًا عن نفاقٍ وخوفٍ، أو تقيَّةٍ ومداراةٍ[2]، وبين الخوفِ والخشيةِ فرقٌ آخرُ، وهو أنَّ الخوفَ يتعلَّقُ بالمكروه وبتركِ المكروه، أمّا الخشيةُ فتتعلَّقُ بمُنزلِ المكروهِ ولا يُسمَّى الخوفُ من نفس المكروهِ خَشيةً[3].

(1) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.

(2) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن، ص: 226.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 241.

﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ٢٧﴾ [هود: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إثارةُ الشُّبهاتِ مَسْلكُ المُفْتَرين، وحِيلةُ المُضلِّلين

لَمَّا حَكى ربُّ العزّة سُبحانه عن نوحٍ عليه السلام أنّه دعا قومَه إلى عبادة اللّه تعالى حَكى عنهم أنّهم طعَنوا في نبوّتِه بأنواعٍ منَ الشُّبهات؛ لِيبيّنَ لمكذّبي مكّة أنّ محمّدًا ﷺ ليس بِدَعًا، وأنَّ حالَه معهم كحالِ مَن قبْلَه منَ الرّسلِ عليهم السلام مع أقوامِهم جملةً وتفصيلًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾: المَلْء: مصدرُ مَلَأْتُ الإناءَ، وهو الامتلاءُ. والمِلْء: اسمُ ما يأخذُه الإناءُ منَ الماءِ إذا امتلأ[2]. وأصلُه منَ المُساواة والكمالِ في الشَّيء[3]، والمَلَأ: لجماعةٍ منَ النّاس، يجتمعون للتَّشاوُرِ والتَّحادُث؛ لأنَّ من معاني المَلَأ أيضًا التَّشاوُرَ[4]. وكذلك المَلأ: أشرافُ النَّاس ورؤساؤهم؛ سُمُّوا بذلك لأنَّهم مُمتلئون بما يُحتاجُ إليه، ولأنَّهم يملؤون القلوبَ هيبةً، والعيونَ جلالةً[5] ومالأْتُه على الأمر: عاونْتُه وظاهرتُه عليه، وصِرتُ من مَلَئِه. وتمالَؤوا على فلان: اجتمعوا عليه[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/520، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/140، والبقاعي، نظم الدّرر: 9/269، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/51، والمراغي، تفسير المراغي: 12/24، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/45، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/313.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ملأ).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملأ).

(4) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ملأ).

(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (ملأ).

(6) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ملأ).

2) ﴿أَرَاذِلُنَا﴾: الرَّذْلُ والرَّذيلُ والأَرْذَلُ: الدُّونُ منَ النَّاس، والرَّديءُ من كلِّ شيءٍ[1]. ومعناه المِحوريُّ: تميُّزُ الشَّيء ضعيفًا، رديئًا كان أو فاسدًا[2].

ورَذُل يَرْذُل، ومصدرُه رَذَالَة. والموصوفُ به الأَرْذَلُ والرَّذيلُ والرَّذْل، وجمع الأرذل: الأراذلُ، والأرذلون، والأرذال. وجمع الرَّذيل: الرُّذَلَاء. وجمع الرَّذْل: الرَّذْلون. وجميعُهم بمعنى واحدٍ، وهو الخسيسُ أوِ الدَّنيء من كلِّ شيء، المرغوبُ عنه لرداءته وخِسَّته[3]. وفي قول اللّه ﷻ: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء: 111]. قال قومُ نوح لنوحٍ: اتَّبعك أَرَاذلُنا، نسَبوهم إلى الحياكةِ والحجامةِ، والصِّناعاتُ لا تَضرُّ في باب الدِّيانات[4]. وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾. أي: أخِسَّاؤنا[5].

3) ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾: بدا الأمرُ، يبدو بَدْوًا وبُدُوًّا: ظهرَ. وأبديتُه: أظهرتُه[6]. وأصلُه من ظهور الشَّيءِ[7]، وبادي الرَّأي: ظاهرُه. إذا كان بغير همزٍ، وإذا هُمزت: يكونُ من الفعل بدأتُ، معناه: أوّلُ الرَّأي. وبكلِيْهما جاء قولُ اللّه تعالى حكايةً عن قوم نوح: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾. فعلى قراءة بادي الرأي: اتّبعوك، وهم أراذلُنا فيما يظهرُ لنا منَ الرَّأي. وعلى قراءة الهمز معناه: في أوّل الرَّأي وابتدائِه[8].

4) ﴿فَضۡلِۭ﴾: الفضلُ: الزِّيادةُ على الاقتصادِ، وكذلك الخيرُ أيضًا. وهو ضدُّ النَّقصِ والنَّقيصةِ، وجمعُه: فُضُول[9]. والإفضالُ: الإحسانُ. يقال أَفْضَلَ الرَّجلُ على غيره: أناله من فضله وأحسنَ إليه. وكذلك تَفَضَّل عليه، بالمعنى نفسِه[10]، والفَضْلُ أيضًا: الشَّرَفُ،

---

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رذل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رذل).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رذل).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رذل).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (رذل).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بدا).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدا).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بدا).
(9) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فضل).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فضل).

يقال: فضَل يفضُلُ فضلا: شَرُفَ. ورجلٌ فاضلٌ، أي: ذو فضلٍ[1]. و"الفضلُ ضربان: محمودٌ، كفضل العلْم والحِلم. ومذمومٌ: كفضل الغضبِ على ما يجبُ أن يكونَ عليه، والفضلُ في المحمود أكثرُ استعمالًا، والفُضُولُ في المذموم"[2]. ومعناه المِحوريُّ: زيادةٌ في الشَّيء متميِّزةٌ عنه[3].

5) ﴿نَظُنُّكُمْ﴾: الظَّنُّ: "اسمٌ لِما يحصلُ عن أمارةٍ، ومتى قويتْ أدَّت إلى العلْم، ومتى ضعفتْ جدًّا لم يتجاوزْ حدَّ التَّوهُّم"[4]، فهو يأتي بمعنى اليقين وبمعنى الشكِّ كذلك[5]، ومعناه المِحوريُّ: "توقُّعُ وجودِ شيء مهمٍّ في باطنٍ لأمارةٍ قويَّةٍ على ذلك"[6]، ومنه قولُه تعالى حاكيًا قولَ الملأ من قوم نوح: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾. أي: نتيقّنُكم كاذِبين[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

دعوةُ الأنبياء مُواجَهةٌ بالتَّكذيب منَ المُتكبِّرين، وبالتَّسليم منَ المُستضْعَفين

فقال الكبراءُ والأشرافُ رادِّين دعوةَ نوح ونبوَّتَه عليه السلام: ما نراك إلَّا آدَميًّا مثلَنا في الخلْقِ والصُّورة والجنسِ، ولا مزيَّةَ لك علينا تخصُّك بالنُّبوَّة ووجوبِ الطَّاعة دونَنا؛ وذلك على سبيل الإنكار والمكابرةِ والتَّكذيبِ، وما نراك اتَّبعك وأطاعك في دعوتِك إلَّا الَّذين هم سِفلَتُنا وأخِسَّاؤنا من أهل المِهن المُحتَقَرةِ مِنْ غير تفكُّرٍ وتدبُّرٍ وتروٍّ في بادئ رأيهم فيما يظهرُ لنا، وما نتبيَّن كذلك لكم علينا مِنْ فضلٍ من علم أو قوَّةٍ أو أصالةِ رأيٍ نِلْتُمُوهُ بمخالفتِكم إيَّانا في عبادة الأوثانِ إلى عبادةِ اللّه؛ حتَّى نتَّبِعَكم ونقبلَ قولَكم، بل نظنُّكم كاذبين

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فضل).
(2) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (فضل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فضل).
(4) الرّاغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (ظنن).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ظنن).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظنن).
(7) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/369.

فيما تدَّعونَه لكم منَ البرِّ والصَّلاحِ والعبادةِ والسَّعادةِ في الدَّار الآخرة إذا صرتُم إليها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ ودَلالتُها في ﴿فَقَالَ﴾:

مُبادرةُ أشرافِ الكفّارِ وزعمائِهم إلى تكذيبِ نوحٍ عليه السلام ومجادلتِه بالباطلِ

الفاءُ عاطفةٌ، عُطِف بها قولُ الملأ من قومِه على فعلِ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ للإشارةِ إلى أنَّهم بادَروه بالتَّكذيبِ والمجادلةِ الباطلةِ لمَّا قال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ إلى آخره. ولم تقعْ حكايةُ ابتداءِ محاورتِهم إيَّاه بـ (قال) مجرَّدًا عنِ الفاء كما وقعَ في الأعراف؛ لأنَّ ابتداءَ محاورتِه إيَّاهم هنا لم يقعْ بلفظ القولِ، فلم يحكِ جوابَهم بطريقةِ المُحاوراتِ بخلافِ آيةِ الأعراف[2]، فقوله: ﴿فَقَالَ﴾؛ أي: فتسبَّبَ عن هذا النُّصحِ العظيمِ أن قال أشرافُ قومِه: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾[3]، ودَلالةُ الفاء هنا هي بيانُ السُّرعةِ والمبادرةِ؛ أي: فبادرَ الأشرافُ والزُّعماءُ الذين كفَروا من قوم نوحٍ عليه السلام إلى الجواب؛ ليكونَ الدَّهماءُ تبعًا لهم كعادتِهم، وليُبطلوا بمبادرتِهم إلى الرَّدِّ دعوتَه بزعْمِهم[4].

سِرُّ الإسنادِ في ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾:

المُبادِرون بالكفرِ هُمُ الملأ من قومِ نوحٍ عليه السلام

أُسندَ الفعلُ إلى الفاعلِ المحلَّى باللَّام في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ لتعْيين الكافرين من قوم نوحٍ عليه السلام، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ فيه تعْيينٌ للمرسَلِ إليهم، وهم جميعُ أفرادِ قومِ نوحٍ عليه السلام، فلمَّا قال سُبحانه بعدَه: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تعيَّنَ أنَّ الذين كفروا همُ الملأ، وهم طائفةُ الأشرافِ والكبراءِ من قوم نوحٍ عليه السلام، فأخرجتِ اللّامُ التي في ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾ غيرَ الملأ مِن كبيرة الكفرِ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/379، والبغوي، معالم التنزيل: 4/171، والمراغي، تفسير المراغي: 12/25.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/45.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/269.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/52.

معنى اللّام ودَلالتُها في: ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾:

اللّامُ في قوله: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ هي لامُ العهد، وهي هنا للعهدِ الحُضوريِّ، والمقصودُ بها الملأُ الحاضرون في المجلس الذي كان يجلسُ فيه أكابرُ قوم نوحٍ وأشرافُهم إذ قدِمَ عليهم نوحٌ عليه السلام ليَدْعوَهم إلى عبادة اللّه وحدَه ونبْذِ عبادةِ الأصنام.

أوّلُ الكفرةِ المُجادِلين من قومِ نوحٍ عليه السلام همُ الأشرافُ والزّعماءُ الحاضِرون

دَلالةُ اسْم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

وُصِفَ الملأُ الكافرون من قوم نوحٍ عليه السلام بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وهو اسمٌ موصولٌ خاصٌّ، وجاءت صلتُه جملةً فعليَّةً، فأمَّا التَّعبيرُ بالموصولِ فلِأنَّه أُريدَ به الوصفُ بما تضمَّنَتْه صلةُ الموصول؛ أي أنَّه سُبحانه وصفَهم بالكفر لِذمِّهم والتَّسجيلِ عليهم بذلك من أوَّل الأمرِ، لا لأنَّ بعضَ أشرافهم ليسوا بكفَرةٍ[1]. وأمَّا التَّعبيرُ بالماضي في جملةِ الصِّلةِ فللتَّأكيد على أنَّ هذا الوصفَ قد تحقَّقَ فيهم وتمكَّنَ منهم، وكأنَّهم - لفرْطِ إعراضِهم عنِ الحقِّ - كفروا مِن قَبْلِ ما تأتيهمُ الدَّعوةُ إليه!

شدّةُ إعراضِ هؤلاء الزّعماءِ تبيّنُ وكأنَّ الكفرَ تحقَّقَ في نفوسِهم قبلَ سماعِ الدّعوةِ

دَلالةُ حرفِ الجرِّ ﴿مِن﴾ ومعناه:

يجوزُ أن تكونَ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ تبعيضيَّةً أو لبيان الجنسِ، فعلى الأوَّل يكونُ المعنى أنَّ الملأ هم بعضُ قوم نوحٍ عليه السلام، وقد مُلئوا بالكفر، أمَّا البقيَّةُ الذين وصفَهم الملأُ بقولهم: ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ فهمُ الذين آمنوا به واتَّبعوه، وعلى الثَّاني يكونُ المعنى أنَّ الكافرين ما هم إلَّا طائفةٌ من قوم نوحٍ عليه السلام، فليسوا غرباءَ عنهم، وليسوا بوافِدين، بل هم من جنسِ القوم.

أوّلُ الكافرين بنوحٍ عليه السلام طائفةٌ من أشرافِ قومه

سِرُّ الإضافةِ في ﴿قَوۡمِهِۦٓ﴾:

إضافةُ الضَّميرِ العائدِ إلى نوحٍ عليه السلام إلى كلمةِ (قوم) في قوله

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/237.

أوَّلُ مَن كذَّب نوحًا عليه السلام وكفرَ بدعوتِه وآذاه همُ الأقرَبون من قومِه

تعالى: ﴿مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ يبيِّنُ أنهم أقاربُ أعزَّةٌ؛ أي: الذين هم في غاية القوَّةِ لِما يريدون محاولةَ القيام به[1]، فهذه الإضافةُ تدلُّ على أنَّ طعنةَ الألم بالعُتوِّ والاستكبارِ والعصيانِ جاءتْه منَ الأقربين الذين يُضافون إليه قرابةً ونسبًا ويُضافُ هو إليهم كذلك، وفي هذا تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ كي لا يحزنَ قلبُه الشَّريفُ بما يُلاقيه من قومِه وبعضِ أعمامه منَ الكفر والعَداءِ.

يَستنكرُ الكافرون أن يكونَ الرَّسولُ بَشرًا، وما كانوا هم مَلائكةً

الغرضُ منَ القصْرِ ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾:

عُبِّر عن قيلِ الملأ من قوم نوحٍ عليه السلام بأسلوب القصْرِ لإفادة عددٍ منَ الأغراض، منها:

التَّوكيدُ؛ فإنَّ القصْرَ يُعدُّ درجةً عُليا من درجات التَّوكيدِ[2]، والتَّعريضُ، وهذا من مرامي القصرِ[3]، والغرضُ منه التَّعريضُ بنوحٍ عليه السلام، فقد أرادوا أن يقولوا: ما دمتَ بشرًا مثلَنا فلِمَ اختصَّك اللهُ بالنّبوَّة من دوننا؟ وهذا أيضًا ردٌّ على كفَّار قريشٍ الذين قالوا للنَّبيِّ ﷺ مثلَما قال قومُ نوحٍ لنوحٍ عليه السلام. وقد جاء القصرُ بالنَّفي والاستثناءِ وهو آكدُ صُوَرِ القصْرِ وأعمُّها وأشملُها خصوصًا إذا جاء مُفرَّغًا، إضافةً إلى ما تتضمَّنُه (إلَّا) من معنى التَّخصيص[4]، كما أنَّ القصرَ باستخدام النَّفيِ والاستثناءِ يُوجَّهُ إلى المخاطَبِ المنكِرِ أو مَن ينَزَّلُ منزلتَه[5]، ففيه دليلٌ على أنَّهم نزَّلوا نوحًا عليه السلام منزلةَ مَن يُنكِرُ أنَّه بشرٌ، وهذا من فرْطِ غُلوِّهم في اعتقادِهم الباطلِ أنَّ الرُّسلَ لا يكونون إلَّا ملائكةً، كما حكى القرآنُ عنهم في موضعٍ آخرَ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ [المؤمنون: 24].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/269.
(2) حسن طبل، علم المعاني، ص: 178.
(3) أحمد شعيب، بحوث منهجية في علوم البلاغة، ص: 298.
(4) السامرائي، معاني النحو: 2/249 - 250.
(5) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 170.

سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالرُّؤية:

في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾ عبَّر الملأُ عنِ اعتراضِهم بما يَبدو لهم من ظاهرِ الأمر رأيًا يرونَه بأعينِهم. ومرادُهم: ما أنت إلَّا بشرٌ مثلُنا، ليس فيك مزيَّةٌ تخصُّك من دونِنا بما تدَّعيه منَ النُّبوَّة، ولو كان كذلك لرأيناه، لا أنَّ ذلك محتملٌ ولكن لا نراه[1]، وفي التَّعبيرِ بالرُّؤيةِ إشارةٌ إلى سفهِ القوم إذْ وقَفوا عندَ ظواهرِ الأشياء ولم يتعمَّقوا في حقائقِها.

مِن ضيقِ العَطَنِ الوقوفُ عندَ الظَّواهرِ، وعدمُ التَّدبُّرِ في الحقائقِ البواهِرِ

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نَرَىٰكَ﴾:

في التَّعبير بالمضارع في قول الملأ: ﴿مَا نَرَىٰكَ﴾ إفادةٌ لمعنى تجدُّدِ الرُّؤية، ومرادُهم مِن ذلك أنَّهم كلَّما رأوا نوحًا عليه السلام رأوْه على حالٍ لا تتغيَّرُ، فكأنَّهم أرادوا أنْ يَنسِبوا له صفةً ثابتةً لا تتغيَّرُ مهما تغيَّرتِ الرُّؤيةُ زمانًا أو مكانًا، فقالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾، فلستَ تتقلَّبُ بين البشريَّةِ وغيرِها، بل أنت بشرٌ مثلُنا، وهذا يدلُّ أيضًا على تكرُّرِ ورودِ المَرئيِّ - وهو نوحٌ عليه السلام - عليهم في مجالسِهم ممَّا يُفهَمُ منه تكرُّرُ الدَّعوة والإنذارِ على ما حكاه القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥﴾ [نوح: 5].

لا يَكفُّ الرُّسلُ عن دعوةِ أقوامِهم، وغِشيانِهم في مجالسِهم ونَواديهم

دَلالةُ المقصورِ عليه نكرةً ﴿بَشَرٗا﴾:

جاء المقصورُ عليه نكرةً في قول الملأ: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا﴾ للدِّلالةِ على أنَّهم أرادوا التَّحقيرَ والتَّصغيرَ، والتَّجاهلَ والاستهزاءَ[2]؛ تقليلًا من شأن نوحٍ عليه السلام وتقليلًا من شأن أتباعِه، واستبعادًا لفكرةِ أن يكون الرَّسولُ منَ البشر.

إثباتُ استهزائِهم تقبيحٌ لشأنِهم

مَن عميَ عن جليِّ حكمةِ ربِّه مَنعَ أن يكونَ النَّبيُّ بشرًا وجعَلَ الإلهَ حجرًا

سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالبشريَّة:

المرادُ بقولهم: ﴿بَشَرٗا﴾؛ أي: آدميًّا. والمعنى: أنَّهم قالوا له: ما

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/200.

(2) السامرائي، معاني النحو: 1/41.

نراك إلا آدميًّا مثلَنا في الخلْق. فأنكروا أن يُرسلَ اللّه ﷻ بشرًا إلى الخلْق[1]؛ أي: لستَ بملَكٍ، ولكنَّك بشرٌ، فكيف أوحِي إليك من دونِنا[2].

تَمادي المُشركين في السّخريةِ والاستهزاءِ مِنَ الرُّسلِ

دَلالةُ وصْفِ المقصورِ بـ ﴿مِّثۡلَنَا﴾:

المِثل: السَّادُّ مسدَّ غيرِه في الحسِّ، بمعنى أنَّه لو ظهرَ للمشاهدة لَسَدَّ مسَدَّه[3]. وقولُهم: ﴿مِّثۡلَنَا﴾؛ أي: في مُطلق البشريَّة، لستَ بملَك تصلح لما لا تصلحُ له من الرِّسالة[4]؛ يعني: أنت مساوينا في البشريَّة ولا فضلَ لك علينا، فكيف امتزت بأنَّك رسولُ اللّه[5]؟

يدَّعي المُشركون لأنفسِهم الشَّرفَ، ولا يُوَقِّرون إلَّا أهلَ الغِنى والتَّرفِ

سِرُّ الإضافةِ ﴿مِّثۡلَنَا﴾:

إضافةُ الصِّفةِ إلى ضميرِ الجمعِ (نا) في قول الملأ: ﴿مِّثۡلَنَا﴾ أريدَ بها الاستهزاءُ والتَّهكمُ؛ كمَنْ يقولُ لمن يسخرُ منه: هذا رئيسنا وزعيمُنا، مع أنَّه لا يصلح إلَّا أن يكون تابعًا خادمًا، وهكذا أرادوا، بل إنَّهم ادَّعَوْا لأنفسهم الشَّرفَ والفضلَ إذ جعلوه عليه السلام منسوبًا ومضافًا إليهم، فكأنَّهم همُ الأصلُ المعوَّلُ عليه.

حُجَّةُ المُشركين داحضةٌ، وأهواؤهم على قلوبِهم رابِضةٌ

دَلالةُ الواو في ﴿وَمَا نَرَىٰكَ﴾:

الواو في قول الملأ: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾ عاطفةٌ لا محلَّ لها منَ الإعراب، وجملةُ: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ﴾ في محلِّ نصبٍ معطوفةٌ على جملة مقولِ القول[6]، ولأجل قصْدِ هذا التَّشريك بين الجُملتَين في المحلِّ الإعرابيِّ، ولكوْنِ الجملتَين خبريَّتَين، ولتمام المناسبةِ بينَهما؛ أوثِرَ أن يوصَلَ بينَهما بالواو، وقد دلَّ الوصلُ على شدَّةِ مجادلةِ الملأ من قوم نوح نوحًا عليه السلام، وأنَّهم أخذوا يُعدِّدون الحُجج - بزعمهم - ليُبطلوا بها نبوَّته عليه السلام.

---

(1) مكي، الهداية: 5/3375.

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/87.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/271.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/269.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/140.

(6) محمود صافي، الجدول: 6/250.

الغرَضُ من أسلوبِ القصْرِ:

مبالغتُهم في تحقير نوحٍ تأكيدٌ لاستِحْقاقِهم العذابَ الشّديدَ

الغرض من أسلوب القصر في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ هو المبالغةُ في المعنى وقصْدُ توكيدِه، وذلك عن طريق استخراجِ مُثْبَتٍ واحدٍ من عموم ما نُفيَ، فلمَّا نفوا الرُّؤية عنه فتشوَّفَ السَّامعُ إلى ما يقعُ عليه منَ المعاني، بيَّنوا أنَّ مرادَهم رؤيةٌ مِن اتَّبعه فقالوا: ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾؛ أي: تكلَّفَ اتِّباعَك ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ﴾؛ أي: خاصَّةً ﴿أَرَاذِلُنَا﴾[1] وقدِ اختيرَ النَّفيُ والاستثناءُ في صياغة أسلوبِ القصْرِ لِما يفيدُه منَ التَّأكيد والعموم، ولِما في (إلَّا) من معنى الاختصاص[2]؛ إذ إنَّهم أرادوا تخصيصَ اتِّباع دعوةِ نوحٍ عليه السلام بالأراذل من قومِه، ليكونَ هذا مطعنًا يوجِّهونَه إلى الدَّعوةِ المباركةِ بزعْمِهم، بالإضافة إلى أنَّهم نزَّلوا نوحًا عليه السلام مَنزلةَ المُنْكِرِ لِما يقولونه[3]؛ مبالغةً في التَّعريض به، والإنكارِ عليه.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿وَمَا نَرَىٰكَ﴾:

حركاتُ الدَّاعِيةِ مَرصودةٌ من أعدائِه، مَتبوعةٌ من أوليائِه

يدلُّ التَّعبيرُ بالمضارعِ على تجدُّدِ الحدثِ وتَكرارِه، والمقصودُ به هنا أنَّ هؤلاء الملأ الكافرين كلَّما نظَروا إلى مَن آمنَ بنوحٍ عليه السلام واتَّبعه فيما يقولُ رأوْا أنَّهم منَ السُّوقةِ، والضُّعفاءِ، فصدَّهم هذا عنِ الإيمان به، وكأنَّهم - لعنهم الله - أرادوا أن يجعَلوا سُخريتَهم منه عليه السلام محلَّ اعتذارٍ عن عدم اتِّباعه، فقالوا: لو اتَّبعك واحدٌ من أشرافِنا وكبرائِنا لاتَّبعناك لكنَّ هذا لم يحصلْ!

دَلالةُ بالماضي ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾:

مَن وقرَ الإيمانُ في قلبِه اطْمأنَّ به، ومَن قُضِيَ عليه بالشَّقاءِ فلن يَهْدِيَه هادٍ

يفيدُ التَّعبيرُ بالماضي التَّحقيقَ والتَّأكيدَ، وذلك بأصلِ الوضعِ؛ إذ إنَّه يدلُّ على أنَّ الفعْلَ قد وقع في الزَّمان الماضي وانتهى، وهذا مرادٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/270.
(2) السامرائي، معاني النحو: 2/249، وحسن طبل، علم المعاني، ص: 178.
(3) حسن عبد الرزاق، البلاغة الصافية، ص: 175، وأحمد مطلوب، أساليب بلاغية، ص: 183.

هنا، وهو ما يفيدُه الفعلُ الماضي: ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾؛ لأنَّ هؤلاء الملأ أرادوا أن يجْعَلوا حجَّتَهم قويَّةً ليَدحَضوا بها نبوَّةَ نوحٍ عليه السلام.

موقعُ جُملةِ ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ ودَلالتُه:

يقعُ الكافرُ اللّائمُ على المُؤمِنِ فيما عابَ فيه عليه، وهيهاتَ أن يَستويا

قولُ الملأ ﴿مَا نَرَىٰكَ﴾ يجوزُ أن تكون هذه الرُّؤيةُ قلبيَّةً، وأن تكونَ بصريَّةً، فعلى الأوّل يكونُ قولُه: ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ في محلِّ نصبٍ مفعولًا ثانيًا، وعلى الثَّاني في محلِّ نصبٍ على الحال[1]، وعلى كلا التَّقديرين يدلُّ موقعُ الجملة على ما وقرَ في قلوب الملأ مِن اعتقادِهم الباطلِ النَّاشئِ عن مجرَّد النَّظرِ الظَّاهريِّ لا المتأمِّلِ، ومن هنا يظهرُ أنَّهم وقَعوا فيما جعَلوه بزعْمِهم عيبًا في أتباعِ نبيِّ اللّٰه نوحٍ عليه السلام إذ قالوا: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾. فما أظلَمَهم!

سِرُّ المقصورِ عليه بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

لا يعلمُ الكافرون إلَّا ظاهِرًا منَ الحياةِ الدُّنيا، تُغْريهمُ الظَّواهِرُ، وتَغرُّهمُ المَظاهِرُ

عبِّر عنِ المؤمنين بنوحٍ عليه السلام بالموصولِ والصِّلةِ لحكايةِ أنَّ في كلام الذين كفروا إيماءً إلى شُهرة أتباع نوحٍ عليه السلام بين قومهم بوصْفِ الرَّذالةِ والحقارةِ، وكان أتباعُ نوحٍ عليه السلام من ضعفاءِ القوم، ولكنَّهم من أزكياءِ النُّفوس ممَّن سبقَ لهمُ الهُدى[2]، وإنَّما لم يقولوا: (إلا أراذلنا)؛ مبالغةً في استرذالِهم، لِما في التَّعبير بالموصول منَ التَّأكيد على ما تضمَّنَتْه جملةُ الصِّلة من وصْفٍ أريد إلصاقُه بالموصوفِ، وكأنَّهم إنَّما استرْذَلوهم لفقْرِهم؛ لأنَّهم لَمَّا لم يعلَموا إلا ظاهرًا منَ الحياة الدُّنيا كان الأشرفُ عندَهم الأكثرَ منها حظًّا، والأرذلَ من حُرِمها، ولم يَفقهوا أنَّ الدُّنيا بحذافيرِها لا تَعدلُ عند اللّٰه تعالى جناحَ بعوضةٍ، وأنَّ النَّعيمَ إنَّما هو نعيمُ الآخرة، والأشرفُ مَن فاز به والأرذلُ مَن حُرِمه[3].

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/309 - 310.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/48.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/237.

نُكتةُ اسمية جملةِ الصّلةِ ﴿هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾:

بالمعاني يحصلُ الامتيازُ لا بالمبَاني

في مجيء صلةِ الموصول جملةً اسميَّةً توكيدٌ لِما تضمَّنَتْه من صفةٍ أريدَ وصفُ الموصول بها، ومبالغةٌ في إلصاقِها بالموصوف بها. وقد أفاد هذا المعنى ما في الجملةِ الاسميَّةِ منَ الدِّلالة على الثُّبوتِ والدَّيمومةِ، وزاد من هذا التَّوكيدِ وقوعُ هذه الجملةُ صلةً لموصولٍ موصوفٍ به أتباعُ نوحٍ عليه السلام، وأنَّ هذه الصِّفةَ ملازمةٌ لهم غيرُ مُنفكَّةٍ عنهم، فقد كانوا كذلك في الماضي، ولم يتغيَّرْ حالُهم بعد اتِّباعِهم نوحًا عليه السلام، وفي هذا تعريضٌ بنوحٍ عليه السلام، وكأنَّهم قالوا له: لم ينفعْ أتباعَك اتِّباعُهم إيَّاك، فلم تتغيَّرْ حالُهم!

الغرَضُ منَ القصْرِ في ﴿هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾:

الكفّارُ يُريدون تأكيدَ إلصاقِ صِفةِ الرّذالةِ بالمؤمنين

في قول الملأ: ﴿هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ حصْرٌ مُستفادٌ من تعريفِ طرفَيِ الإسنادِ أفادَ تخصيصَ صفةِ الرَّذالة بالأتباع المؤمنين كما رماهُم بها الملأ الكافرون لعنَهمُ الله، وقد دلَّ على المبالغةِ في الإخبار، وكأنَّه مُؤْذنٌ بتأكيدِ حصْرِ مَن اتَّبعه، وأنَّهم همُ الأراذلُ لم يَشركْهم شريفٌ في ذلك[1].

دَلالةُ مجيء الجمعِ ﴿أَرَاذِلُنَا﴾:

سبيلُ الذَّمِّ لا يَسلكُها إلَّا مَن عجز عنِ الحِجاجِ، فيَستُرُ ضعْفَه باللِّجاجِ

الأراذِلُ فيه وجهان، أحدُهما: أنه جمعُ الجمعِ، والثَّاني: أنَّه جمعٌ فقط. والقائلون بالأوَّل اختلَفوا فقيل: جمعٌ لـ(أرْذُل)، وأرْذُل جمعٌ لـ(رَذْل)؛ نحو: كَلْب وأكْلُب وأكَالب. وقيل: بل جمعٌ لـ(أرْذال)، وأرْذال جمعٌ لـ(رَذْل) أيضًا. والقائلون بأنَّه ليس جمعَ جمعٍ، بل جمعٌ فقط قالوا: هو جمعٌ لـ(أرْذَل)، وإنَّما جاز أن يكونَ جمعًا لـ(أرْذَل)؛ لجرَيانِه مجرَى الأسماء من حيث إنَّه هُجِرَ موصوفُه كالأبْطحِ والأبرقِ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/140.

وقال بعضُهم: هو جمعُ (أرْذَل) الذي للتَّفضيل، وجاء جمعًا كما جاء ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾ [الأنعام: 123] و«أحاسِنُكم أخلاقًا»[1]. وهذا هو الظَّاهرُ أنَّه جمعُ (أرْذَل) التي هي أفعلُ التَّفضيل[2]؛ أي: وما نراك اتَّبعك يا نوحُ إلا الذين هم أقلُّنا شأنًا، وأحقرُنا حالًا، وأهونُنا أمرًا من غير أن يتثبَّتوا من حقيقة أمرك، ولو تَثبَّتوا وتَفكَّروا ما اتَّبعوك[3].

وهذه مبالغةٌ منهم في تحقيرِ شأنِ أتباعِ نبيِّ اللّه نوحٍ عليه السلام لتكونَ ذريعةً لتحقيرِ الدَّعوةِ والدَّاعي؛ ولذلك عظُمَ انتقامُ اللّه تعالى منهم.

سِرُّ العُدولِ في ﴿أَرَاذِلُنَا﴾:

بالغَ الكفَّارُ في ذمِّ المؤمنين حتى جعَلوا فقْرَهم عَلَمًا عليهم لا مُجرَّدَ وصْفٍ زائلٍ

قولُ الملأ: ﴿أَرَاذِلُنَا﴾؛ أي: أخسَّاؤنا وأدانينا، وهو جمعُ (أرذل)، والأغلبُ الأقيَسُ في مثله إذا أريد جمعُه أن يُجمَع جمعَ سلامةٍ؛ كـ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾، جمع: (أخسر)، وهو ما جاء في سورة الشعراء ﴿۞قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء: 111] لكنَّه كُسِر هنا؛ لأنَّه صار بالغلبة جاريًا مجرَى الاسم؛ ولذا جُعل الرَّذلُ والأرذلُ بمعنى، وهو الخسيسُ الدَّنيء، ومعنى جريانِه مجرَى الاسم أنَّه لا يكاد يُذكرُ الموصوفُ معه كالأبطحِ والأبرقِ[4] فكأنَّهم من فرْطِ مُبالغتِهم في وصفِ أتباع نوحٍ عليه السلام بالرَّذالة جعَلوها علَمًا عليهم لا مجرَّد وصْفٍ فحسبُ!

سِرُّ الإضافةِ في ﴿أَرَاذِلُنَا﴾:

عظُمتْ نفسُ الكافرِ لدَيه فأبى أن يُخضِعَها إلا لهواه، فأضلَّه وأذلَّه وأوْداه

(أراذل) جمعُ (أرْذَل) التي هي للتَّفضيل، والأصلُ فيه أن يقال: هو أرذلُ من كذا، ثم كثُرَ حتى قالوا: هو الأرذلُ، فصارت الألف واللَّام عِوضًا عنِ الإضافة[5]، ولمَّا أضيفَ إلى الضَّمير حُذفتِ الألف

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/310.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/388، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/140.
(3) طنطاوي، الوسيط: 7/191.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/237.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/337.

واللَّامُ. وقدِ اختير له أن يُضافَ إلى ضميرِ جماعةِ المُتكلِّمين لتعيين القبيلةِ؛ أي: أراذلُ قومِنا[1]، وفي هذا ما فيه مِنَ الكِبْرِ والصَّلَف، حيث جعَلوا أنفسَهم الأعْلَيْن، ثمّ عبَّروا عن أتباع نوح عليه السلام بأنّهم أراذلُ، ثمَّ أضافوهم إلى الضَّمير العائدِ إليهم، فكأنَّهم قالوا: هم خدمُنا وحُقراؤنا.

دَلالةُ وصْفِ المقصورِ عليه بـ ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾:

مِن فرْطِ إعجابِ الكافرِ بنفسه يذهبُ فيُسفِّهُ عقْلَ مَن لم يكْفُرْ ككُفرِه

دلَّ وصفُ المقصورِ عليه، وهو الاسمُ الموصولُ، بـ ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾[2] على المبالغةِ في تسفيه الدَّعوةِ والدَّاعي عن طريق تسْفيهِ مَن آمن بها واتَّبعها؛ فإنَّ المعنى: أفنكونُ مع هؤلاء في صفٍّ واحدٍ؟! على أنَّ إقبالَ هؤلاء عليك واتِّباعَهم لك في بادئ الأمر وظاهرِه بدون تأمُّلٍ ولا تفكُّرٍ ولا نظرٍ في عواقب الأمور وبواطنِها، ولو أنَّهم أعْمَلوا فكرَهم ما اتَّبعوك! وكلُّ هذا يدعونا نحن إلى مخالفتِك وعدمِ اتِّباعك[3].

سِرُّ إضافةِ ﴿بَادِيَ﴾ إلى ﴿ٱلرَّأۡيِ﴾:

إيمانُ المؤمنِ صادِرٌ عن قناعةٍ، ورأيِ الكافر صادر عن هوى

إضافةُ ﴿بَادِيَ﴾ إلى ﴿ٱلرَّأۡيِ﴾ من إضافة الصِّفةِ إلى الموصوف، ومعنى كلامِهم: لا يلبثُ أن يرجعَ إلى متَّبعيك رُشدُهم فيُعيدوا التَّأمُّلَ في وقتٍ آخرَ ويُكشفَ لهم خَطؤهم[4]، ومرادُ الكافرين تحقيقُ رأيِهم في تسْفيه المؤمنين بإضافةِ رأيهم إلى ما يَبدو لهم، دونَ تدبُّرِ العواقبِ.

تنوُّعُ القراءاتِ القرآنيّةِ في ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾:

رأيُ السُّفهاءِ ابتداؤه من هواهم وما يبدو لهم

قولُ الملأ: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ اختلف القُرَّاءُ في قراءتِه، فقرأه عامَّةُ قُرَّاء المدينة والعراق: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ بغير همز ﴿بَادِيَ﴾، بمعنى: ظاهرُ الرَّأي، من قولهم: بدا الشّيءُ يبدو، إذا ظهرَ، معناه: اتَّبعوك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/48.

(2) وهو وصف معنويٌّ لا نحويٌّ، إذ إنَّ ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ منصوب على الظرفيّة، يُنظر: العكبري، التبيان: 2/695.

(3) محمود حجازي، التفسير الواضح: 2/117.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/49.

ظاهرًا من غير أن يتدبَّروا ويتفكَّروا باطنًا[1]، وقرأ بعضُ أهل البصرةِ: ﴿بَادِئَ﴾، مهموزًا، بمعنى: مبتدأ الرَّأي، من قولِهم: بدأتُ بهذا الأمر، إذا ابتدأت به قبْلَ غيره[2]. وقرأ آخرون بغير همز، أي: ظاهر الرَّأي من قولهم: بدا الشَّيء: إذا ظهر.

الموقعُ النَّحويُّ والبيانُّي لجملة: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾:

قولُ الملأ: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ منصوبٌ على الظَّرفيَّة لـ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ أو على النِّيابة عنِ الظَّرف على معنى: اتَّبعوك في ظاهر رأيهم أو أوَّلِه؛ أي: في وقت الرَّأي دون بحثٍ عن خَفيِّه، أو في الرَّأي الأوَّلِ دون إعادةِ نظرٍ، فحُذفَ ذلك، وأُقيم المضافُ إليه مقامَه. أرادوا: أنَّ اتِّباعَهم لك إنَّما هو شيء عنَّ لهم بديهةً من غير رَويَّة ونظرٍ، ولم يتأمَّلوا ولم يتثبَّتوا، ولو فعلوا ذلك لم يتَّبعوك، وغرضُهم من هذا: المبالغةُ في عدمِ اعتبارِ ذلك الاتِّباع. وقيل: المعنى: إنَّهم اتَّبعوك في أوَّل رأيهم أو ظاهرِه، وليسوا معك في الباطن. وقيل: هو ظرفٌ لـ﴿نَرَىٰكَ﴾؛ أي: ما نراك في أوَّل رأينا أو فيما يظهرُ منه[3].

زعمَ الكفَّارُ أنَّ المزيَّةَ عندَ الله بالمالِ والجاهِ، فطَمِعوا أن يُؤتَوا مثلَما أوتي رُسُلُ الله

ويجوز أن يتعلَّق ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ بقوله: ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ أي: كونُهم كذلك أمرٌ ظاهرٌ لكلِّ من يراهم عَيانًا؛ لأنَّ رذالتَهم مكشوفةٌ لا تحتاجُ إلى تأمُّلٍ. ويتأكَّد هذا التَّأويلُ بما نُقل عن مجاهدٍ أنَّه قرأ (إلَّا الذين هم أراذلنا باديَ رأي العين) وإنَّما استرْذَلوا المؤمنين لاعتقادِهم أنَّ المزيَّةَ عند اللّه سُبحانه بالمال والجاهِ ولم يعْلَموا أنَّ ذلك مُبعِدٌ منَ الحقِّ لا مُقرِّبٌ منه، وأنَّ الأنبياءَ ما بُعثوا إلَّا لترك الدُّنيا والإقبالِ على الآخرة فكيف يُجعلُ قلَّةُ المال طعْنًا في النُّبوَّة وفي متابعة النَّبيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ[4]؟!

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 4/171، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/368.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/380.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/388، والآلوسي، روح المعاني: 6/238، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/49.
(4) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/18.

الغرضُ منَ الكنايةِ في ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾:

إذا تمكّنَ الكفرُ منَ القلوبِ غلّفَها ببطَرِ الحقِّ وغَمْطِ النّاسِ

في قول الملأ الذين كفَروا من قومِ نوحٍ عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ كنايةٌ عن صفةِ عدمِ الرُّشد، حيث إنَّ الملأ الكافرين قدِ اتَّهموا المؤمنين من قومِ نوحٍ عليه السلام بالسَّفهِ وعدمِ الرُّشد، ولكنَّهم لم يُصرِّحوا بذلك، بل عَمدوا إلى الكنايةِ ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾؛ لِما في الكناية من إثباتِ المعنى والمبالغةِ فيه عن طريقِ تجسيمه والإتيانِ بالدَّليل عليه[1]. وهذا يضافُ إلى حشْدِ المُؤكِّدات في الآية الكريمة، منَ التَّعبير بأسلوبِ القصْرِ مرَّتين نفيًا واستثناءً، ومرَّةً بتعريف الجُزأين، إلى جانب إيثارِ الجُملة الاسميَّة تارةً، والفعليَّةِ ذاتِ الفعل الماضي تارةً، والتَّعبيرِ بالاسم الموصول الذي يفيدُ تأكيدَ اتِّصال الصِّفة بما جاء في صلتِه، وغيرِ ذلك من المُؤكِّدات، وفيه دليلٌ على تمكُّن الكفْرِ من قلوبِهم، وأنَّه صار لهم بمنزلة العقيدةِ الرَّاسخةِ.

دَلالةُ الواوِ في ﴿وَمَا نَرَىٰ﴾:

جَنى عقْلُ الكافر عليه، وصوَّرَ له الحقَّ باطلًا، والباطلَ حقًّا

الواوُ في قول الملأ: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾ هي العاطفةُ، حيث عطفتْ جملةَ ﴿وَمَا نَرَىٰ﴾ على جملة مَقولِ القول، فهي في محلِّ نصبٍ على العطف[2]، وقد أوثِرَ الوصلُ هنا لأغراض، منها: اتِّفاقُ الجملتَيْن في الخبريَّةِ، واتِّفاقُهما لفظًا ومعنى، وتناسُبُهما في الفعليَّة والمضارعة، وعدمُ وجودِ ما يوجبُ الفصلَ بينَهما، فمِن ثَمَّ حسُنَ الوصلُ بينهما، وهذا هو المعروفُ بـ (التَّوسُّط بين الكمالَين) كما يُسمِّيه البلاغيُّون[3]. وقد أفاد هذا العطفُ تعديدَ مقالاتِ الملأ الكافرين التي حاجَجوا بها نوحًا عليه السلام، والتي دلَّت على كِبْرٍ في نفوسِهم، وحقْدٍ في صدورِهم، وسفَهٍ في عقولِهم، ودلَّت كذلك على شدَّةِ ما كابدَه نوحٌ عليه السلام معهم.

---

(1) أحمد شعيب، بحوث منهجية في البلاغة، ص: 212.

(2) محمود صافي، الجدول: 6/250.

(3) القزويني، الإيضاح: 3/127.

نُكتةُ تَكرارِ الفعْلِ (نَرَى) ثلاثَ مرّات:

أصمَّ الكفْرُ آذانَ الكافرين وأعمَى أبصارَهم، فما عادوا يَرَوْن حقًّا ولا بيِّنةً

هؤلاء الكفرةُ من قومِ نوحٍ عليه السلام لَمَّا قصُروا عن إدراك أسبابِ الكمالِ وتطلَّبوا الأسبابَ من غير مكانِها نظَروا نوحًا عليه السلام وأتباعَه فلم يَروه من جنسٍ غيرِ البشرِ، وتأمَّلوه وأتباعَه فلم يَروا في أجسامهم ما يُميِّزُهم من النَّاس وربَّما كان في عموم الأُمَّة مَن هُم أجملُ وجوهًا، أو أطولُ أجسامًا، من أجل ذلك أخطؤوا الاستدلالَ فقالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، فأسْنَدوا الاستدلالَ إلى الرُّؤيةِ، والرُّؤيةُ هنا رؤيةُ العين لأنَّهم جعَلوا استدلالَهم ضروريًّا منَ المحسوس من أحوالِ الأجسام؛ أي: ما نراك غيرَ إنسان، وهو مماثلٌ للنَّاس لا يزيدُ عليهم جوارحَ أو قوائمَ زائدةً[1]، وهذا دليلٌ على أنَّهم إنَّما اعتمَدوا في حُجَّتهم على الظَّواهرِ دونَ سبْرِ أغوارِ الحقائقِ البواهرِ، فوقَعوا فيما عابوا فيه المؤمنين بأنَّهم لم يُعْمِلوا عقولَهم ولم يدَّبَّروا الأمرَ.

الغرَضُ من تقديم ﴿لَكُمْ﴾:

لا يُقِرُّ الكافرون اتِّباعَ مَن لم يُؤتَ مُلكًا ولا مالًا وإن كان نَبيًّا يوحَى إليه

في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ على عاملِه تخصيصٌ للمتقدِّم بالحُكم أفادَ قصْرَ الحُكم عليه، وهذا هو سرُّ التَّقديم هنا؛ فإنَّ هؤلاء الكافرين أرادوا أن يجعَلوا عدمَ اتِّباعهم نوحًا عليه السلام وعدمَ الإيمان به كما آمن به الضُّعفاءُ منهم؛ أرادوا أن يجعَلوا ذلك أمرًا مَنطقيًّا بناءً على مقدِّمةٍ ادَّعَوا صحَّتَها، فقالوا: لستَ يا نوحُ بملَك، ولكنَّك بشرٌ، فكيف أوحِيَ إليك من دوننا؟ ثمَّ ما نراك اتَّبعك إلَّا أراذلُنا كالباعةِ والحاكةِ وأشباهِهم، ولم يتَّبعْك الأشرافُ ولا الرُّؤساءُ منَّا، ثمَّ إنَّ هؤلاء الذين اتَّبعوك لم يكن اتِّباعُهم إيَّاك عن تروٍّ منهم ولا فكرةٍ ولا نظرٍ، بل بمجرَّد ما دعوتَهم أجابوك فاتَّبعوك، ثمَّ ما نرى لكم أنتم خصوصًا يا مَن تريدون منَّا نحن الأشرافَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/47.

أن نتَّبعكم في دعوتِكم أيَّ تقدُّمٍ يُؤهِّلكم للنُّبوَّةِ واستحقاقِ المتابعةِ، فكيف تَطلبون بعد هذا كلِّه أن نتَّبعكم[1]؟

انْطوتْ نفوسُ الكافرين على الكِبْرِ والغُرورِ

دَلالةُ حرْفِ الجرِّ في ﴿عَلَيۡنَا﴾ ومعناه:

يدلُّ الحرفُ (على) على معنى الاستعلاءِ والفوقيَّةِ، سواء أكان استعلاءً حقيقيًّا أم مَجازيًّا، وهذا هو أصلُ معانيه[2]، وقد أشار استخدامُه هنا إلى ما انْطوت عليه نفوسُ هؤلاء الملأِ الكافرين منَ الكِبْرِ والغُرورِ، وأنَّهم ما عادوا يَرون النَّاسَ إلَّا على منزلتَين: منزلةِ السَّادة الأعْلين، ومنزلةِ العبيدِ الأدْنين؛ فلذلك واجَهوا نوحًا عليه السلام والذين آمنوا معه بهذا الخطاب.

تأبى نفسُ الجاحدِ أن يجمَعَه بالفقير دِينٌ يُساوي بينَهما

دَلالةُ ﴿مِن﴾ ومعناها في ﴿مِن فَضۡلِۭ﴾:

جيء بحرفِ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قول الملأ: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾ لإفادة الاستغراقِ؛ أي: استغراقُ النَّفي ليعمَّ كلَّ أجزائِه، فيحصلُ به التَّأكيدُ فقد أغْرَقوا في النَّفي بقولهم: ﴿مِن فَضۡلِۭ﴾[3]؛ أي: وما نرى لك ولِمَنِ اتَّبعك علينا أدنى فضْلٍ تمتازون به في جماعتِكم، كالقوَّةِ والكثرةِ والعلم[4]، يَعنون أنَّ اتِّباعَهم لك لا يدلُّ على نبوَّتِك ولا يُجديهم فضيلةً تَستتبعُ اتِّباعَنا لكم، واقتصارُهم ههنا على ذكر عدمِ رؤيةِ الفضل - بعد تصريحِهم برذالتِهم فيما سبق - باعتبار حالِهم السَّابقِ واللَّاحقِ، ومرادُهم أنَّهم كانوا أراذلَ قبْلَ اتِّباعِهم لك، ولا نرى فيهم وفيك بعد الاتِّباع فضيلةً علينا[5].

عُبَّادُ الدُّنيا لا يُفاضِلون بين أهلِها إلَّا بمقياسِ المالِ

دَلالةُ تنكيرِ ﴿فَضۡلِۭ﴾:

جاء الفضلُ نكرةً لإفادة التَّقليلِ مع العمومِ المُستفادِ من استغراق

(1) مأمون حموش، التفسير المأمون: 4/36.
(2) المالقي، رصف المباني، ص: 433، والسامرائي، معاني النحو: 3/47.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/270.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/53.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/201.

النَّفي بـ (مِن)؛ أي: لانرى لكم علينا أيَّ فضلٍ وإنْ قلَّ، بل لا نرى لكم علينا فضلًا أصلًا.

معنى ﴿بَلۡ﴾ ودَلالتُها في ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ﴾:

لا يجدُ الكافرون حُجَّةً يردُّون بها الحقَّ إلَّا اتِّهامَ دُعاتِه بالتَّكذيب

﴿بَلۡ﴾ في قول الملأ: ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ حرفُ إضرابٍ، ويدلُّ هنا على الإضرابِ الانتقاليِّ، حيث انتقل الكلامُ من غرَضِ التَّعريضِ إلى غرض التَّكذيبِ، مع عدم إرادةِ إبطالِ الكلام الأوَّلِ[1]، وقيل: هو إضرابُ إبطالٍ، وجملةُ ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ إبطالٌ للمنفيِّ كلِّه الدَّالِّ على صدقِه في دعواه بإثباتِ ضدِّ المنفيِّ، وهو ظنُّهم إيَّاهم كاذبين؛ لأنَّه إذا بطلَ الشَّيءُ ثبت ضدُّه، فزعموا نوحًا عليه السلام كاذبًا في دعوى الرِّسالةِ، وأتباعَه كاذبين في دعوى حصولِ اليقينِ بصدْقِ نوحٍ عليه السلام، بل ذلك منهم اعتقادٌ باطلٌ، وهذا الظَّنُّ الذي زعَموه مُستندٌ إلى الدَّليل المحسوسِ في اعتقادِهم[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نَظُنُّكُمۡ﴾:

لا تملأُ البراهينُ المُتكبِّرَ إلَّا عِنادًا، ولا تَزيدُه عنِ الحقِّ إلَّا ابْتِعادًا

التَّعبيرُ بالمضارعِ يفيدُ التَّجدُّدَ وتَكرارَ الحدوث؛ ولهذا عبَّر الملأُ الكافرون بالمضارع ﴿نَظُنُّكُمۡ﴾ ليفيدَ تجدُّدَ هذا الظَّنِّ منهم، وقد دلَّ على أنَّ نوحًا عليه السلام وأتباعَه قد تكرَّرت منهمُ الدَّعوةُ وتجدَّدتْ لهؤلاء الكافرين لِيتركوا كُفرَهم، وكلَّما تجدَّدتْ هذه الدَّعوةُ تجدَّدت مِنَ الكافرين اتِّهامُ النَّبيِّ وأتباعِه بالكذب، وهذا ما حكاه القرآنُ على لسان نوحٍ عليه السلام: ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦﴾ [نوح: 6].

المقصودُ بالظَّنِّ ودَلالتُه في ﴿نَظُنُّكُمۡ﴾:

لا يتَّبعُ الكافرون إلَّا ظنًّا وما هم بِمُستيْقِنين، ويَتَّهِمون المؤمنين مُتكبِّرين

استُعمل الظَّنُّ هنا في العِلم كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ [البقرة: 46] وهو إطلاقٌ شائعٌ في الكلام[3]. وإنَّما لم يَبتُّوا القول

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/257.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/49.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/49.

بذلك مع جزْمِهم به وإصرارِهم عليه إراءةً بأنَّ ذلك لم يصدرْ عنهم جُزافًا، بل بعد التَّأمُّلِ في الأمر والتَّدبُّرِ فيه، ولذلك اقتصَروا على ذلك الظَّنِّ[1] واقتصروا على الظَّنِّ كذلك احترازًا منهم عن نسْبتِهم إلى المجازفةِ كما أنَّهم عبَّروا بما عبَّروا أوَّلًا لذلك مع التَّعريض من أوَّل الأمر برأي المُتَّبعين، ومُجاراةً معه عليه السلام بطريق الآراء على نهج الإنصاف[2]، ثمَّ كرَّموا أنفسَهم بعدمِ الجزمِ بالتَّكذيب فعبَّروا عنه بالظَّنِّ[3].

الغرضُ منَ التَّعبيرِ في ﴿لَكُمْ﴾ و﴿نَظُنُّكُمْ﴾:

أتباعُ الأنبياءِ أنصارٌ لهم وأعوانٌ، وهذا من أثرِ بَشاشةِ الإيمانِ

في تغليبِ الحاضِرين على الغائِبين في قول الملأ: ﴿لَكُمْ﴾، و﴿نَظُنُّكُمْ﴾ دَلالةٌ على أنَّ هؤلاء المتكَلَّم عنهم كانوا حاضرين ساعةَ قال الملأ ما قالوا، وهو يشيرُ إلى دلالةٍ لطيفةٍ، وهي أنَّ أتباعَ نوحٍ عليه السلام لم يتركوه، بل لازَموه في سيرِه وقعودِه، وشاركوه في الدَّعوة؛ ولذلك قال له الملأ: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾ دون أن يقولوا مثلًا: (آمن بك)، وهذا يدلُّ على صدْقِ إيمانِ الأتباعِ، وشدَّةِ كفرِ الكبراءِ وتمكُّنِ الكِبرِ من نفوسِهم؛ إذ إنَّهم لم يتورَّعوا أنْ يسبُّوهم في حضورهم.

سِرُّ الانتقالِ من المفردِ إلى الجمْعِ:

ما أقبحَ الكِبرَ! يُطغي النَّفسَ، ويُقعِدُ عنِ الفضل، ويُلقي في الرَّذْلِ

يُلاحِظُ المتأمِّلُ في محاورة الملأِ الكافرين نوحًا عليه السلام أنَّهم خاطَبوه في الوجهَين الأوَّلَين منفردًا، وفي هذا الوجهِ خاطَبوه مع مُتَّبعيه[4]، فقالوا: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾، والمرادُ منه تكذيبُ نوحٍ عليه السلام في دعوى الرِّسالة[5]؛ وذلك أنَّهم إنَّما كذَّبوا نوحًا دون أتباعِه، لأنَّ أتباعَه لم يكونوا رُسلًا، وأخرج الخطابَ وهو واحدٌ مخرجَ خطابِ الجميع،

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/200.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/201، والآلوسي، روح المعاني: 6/238.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/53.
(4) القنوجي، فتح البيان: 6/167.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/337.

كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: 1]. وتأويلُ الكلام: بل نظنُّك يا نوحُ كاذبًا في دعواك أنَّ الله ابتعثَك إلينا رسولًا(1). وقيل: بلِ الخطابُ لأتباعِه عليه السلام فقط فيكونُ التفاتًا؛ أي: ما نرى لكم علينا شرَفًا في تلك التَّبعيَّة لِنوافقَكم فيها. ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ جميعًا لكوْنِ كلامِكم واحدًا ودعوتِكم واحدةً(2)؛ يعني: تواطأْتُم على الدَّعوةِ والإجابةِ تسبيبًا للرِّئاسة(3). والحاصلُ أنَّهم لَمَّا وصفوا كلَّ فريق منَ التَّابع والمتبوع بما يَنفي سيادةَ المتبوع وتزكيةَ التَّابع جمَعوا الوصْفَ الشَّاملَ لهما، وهو المقصودُ منَ الوصفَين المفرَّقَين، وذلك قولُهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾ فنفَوا أن يكونَ لنوحٍ عليه السلام وأتباعِه فضلٌ على الذين لم يؤمنوا به حتى يكونَ نوحٌ عليه السلام سيِّدًا لهم ويكونَ أتباعُه مُفضَّلين بسيادةِ متبوعِهم(4).

الغرَضُ من أسلوبِ التَّعريضِ في ﴿مَا نَرَىٰكَ﴾:

يحسدُ الكافرون الرُّسلَ على ما آتاهمُ الله من فضلِه، والله يُؤتي مُلكَه مَن يشاء

في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ تعريضٌ بنوحٍ عليه السلام وبمَن آمن معه، وغرضُهم هنا منه التَّعريضُ بأنَّهم أحقُّ منه بالنُّبوَّة، وأنَّ الله لو أراد أن يجعلَها في أحدٍ لَجعلَها فيهم، وقد زعمَ هؤلاء أنْ يحجُّوا نوحًا عليه السلام من وجهين: أحدُهما: أنَّ المتَّبِعين أراذلُ، ليسوا قدوةً ولا أسوةً. والثَّاني: أنَّهم مع ذلك لم يتروَّوْا في اتِّباعه عليه السلام ولا أمْعَنوا الفكرةَ في صحَّة ما جاء به، وإنَّما بادَروا إلى ذلك ارتجالًا ومن غير فكْرٍ ولا رويَّة(5)، فنفَوا عنه سببَ السِّيادة من جهتَيِ ذاتِه وأتباعِه، وذلك تعريضٌ بأنَّهم لا يتَّبعونه لأنَّهم يترفَّعون

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/381.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/238.
(3) النسفي، مدارك التأويل: 2/54.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/49.
(5) درويش، إعراب القرآن: 4/340.

عن مخالطةِ أمثالِهم، وأنَّه لو أبعدَهم عنه لاتَّبعوه؛ ولذلك ورد بعدَه قولُه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [هود: 29] الآية[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿كَٰذِبِينَ﴾:

إذا تمكَّنتْ من أرضِ التَّكذيبِ الأقدامُ، كلَّتْ عنِ الاستبصارِ الأفهامُ

عبَّر الملأُ عنِ اتِّهامهم نوحًا عليه السلام وأتباعِه بالكذب باسم الفاعل: ﴿كَٰذِبِينَ﴾ للدِّلالةِ على ثبوت الصِّفةِ وتمكُّنِها منَ الموصوف؛ أي: لكم هذا الوصفُ لازمًا دائمًا لأنَّكم لم تتَّصِفوا بما جعلناه مَظنَّةَ الاتِّباع ممَّا يوجبُ العظمةَ في القلوب والانقيادِ للنُّفوس بالتَّقدُّم في الدُّنيا بالمالِ والجاه؛ فكان داؤهم بطرَ الحقِّ وغمْطَ النَّاس، وهو احتقارُهم[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الظّنُّ والحِسبانُ:

الظّنُّ بخطورِ النّقيضَين، والحِسبانُ بخطورِ واحدٍ منهما

الحِسبانُ أنْ يَحكمَ الإنسانُ لأحدِ النّقيضَين من غير أن يخطرَ الآخرُ بباله، ويكونُ بعرض أن يعتريَه فيه شكٌّ، ويُقاربُ ذلك الظّنَّ، لكنَّ الظّنّ أن يَخطُرَ النّقيضان بباله فيغلبَ أحدُهما على الآخر[3].

والظّنُّ ضربٌ منَ الاعتقاد وقد يكونُ الحِسبانُ ليس باعتقادٍ؛ فيقال: أحسبُ أنَّ زيدًا قد مات ولا يجوزُ أن تعتقدَ أنَّه مات مع علْمِك بأنَّه حيٌّ.

وأصلُ الحسبان منَ الحساب، يقال: أحسبُه بالظّنّ قد مات كما يقال: أعدُّه قد مات ثم كثرَ حتّى سُمِّي الظّنُّ حِسبانًا على جهة التّوسُّعِ وصارَ كالحقيقة بعد كثرة الاستعمالِ، وفُرِّق بين الفعْلِ منهما والمصدرِ؛ فيقال في الظّنّ: حَسِب حِسبانًا، وفي الحساب: حَسَب حُسبانًا[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/48، والإبياري، الموسوعة القرآنية: 10/91.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/271.
(3) الرّاغب، المفردات: (حسب).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 99، وابن فارس، المقاييس: (حسب).

والظّنُّ: هو رجحانُ كفَّةِ الإثباتِ على كفَّة النّفيّ. والحسبان: هو الظّنُّ القائمُ على حسابٍ حسّيٍّ وقلبيٍّ، أوِ الاعتقادِ القائم على النّظرِ والتّجربةِ، بخلاف الظّنّ الذي يَدخلُ الذّهنَ ويُلابسُه لأدنى سببٍ، وقال اللّه ﷻ: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: 42]، هنا أوثرَ لفظُ الظّنِّ على الحِسبان؛ لأنّه ظنٌّ بناه على رُؤيا وليس في ذلك عملٌ حِسابيٌّ[1].

البشرُ والإنسانُ:

الإنسانُ فيه معنى الأُنسِ والأُلفةِ وهذان ليْسا في أصلِ البشرِ

أصلُ الإنس والإنسان: منَ الإيناس وهو الإبصارُ، يقال: أَنَسته وأنِسته: أي: أبصرتُه، ويقال: آنستُ الشّيءَ: إذا رأيتُه[2]. وقيل: سُمِّي الإنسانُ بذلك لأنّه يأنسُ بكلِّ ما يألفُه، ومعناه المحوريُّ: الأُنسُ والأُلفة[3]، وسُمِّي الإنسانُ إنسانًا لأنّه يَنسَى ما علِمَه، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: إنّما سُمِّي الإنسانُ إنسانًا لأنّه عُهِد إليه فنَسِيَ[4].

والباءُ والشّينُ والرّاءُ أصلٌ واحدٌ، وهو ظهورُ الشّيء مع حسنٍ وجمالٍ[5]. وعُبِّر عنِ الإنسان بالبشرِ اعتبارًا بظهورِ جلدِه منَ الشَّعر، بخلاف الحيواناتِ التي عليها الصّوفُ أوِ الشَّعرُ أوِ الوبرُ، وذلك بأنَّ البَشَرةَ ظاهرُ الجِلد[6]، أو سُمِّي البشرُ بذلك لظهورِهم[7]، أو لأنَّ لفظَ (البشر) مُشتقٌّ منَ البَشارة، وهي حُسنُ الهيئة، يقال: رجلٌ بشيرٌ وامرأة بشيرةٌ إذا كانا حسنَي الهيئة[8]. وقد كان من جملةِ ما نقمَ الكفّارُ به على الرُّسل بَشريَّتَهم؛ لأنّهم لم يكونوا يَتصوَّرون اتّفاقَ الخلقةِ بينهم وبين الرُّسُلِ، وأنّهم يَظهرون ويَتراءون للنّاظرِ،

(1) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 4/48، 49، والسامرائي، معاني النحو: 2/23.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المقاييس: (أنس).
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 94، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أنس).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (أنس)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 274.
(5) ابن فارس، المقاييس: (بشر).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بشر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر).
(8) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 276.

بل أرادوا غيرَ جنس البشرِ حتّى يؤمنوا؛ لذا كان إنكارُهم مقرونًا بتعجُّبِهم من بشريّة الرُّسلِ[1]، ممّا سبقَ يظهرُ أنَّ لفظَ (البشر) مقصودٌ منه أصلُ المادّة؛ فهُم إمّا أن يُرادَ بهم حُسنُ الهيئة وتناسقُ الأعضاء، كما صرَّحت بذلك آياتُ أصلِ الخلْقِ، أو أنَّ البشرَ سُمّوا بذلك لظهورِهم كما كشفت آياتُ الرّسل، ويندرجُ تحتَها منَ الآيات ما يرادُ منها الصّورةُ، كقول الله ﷻ: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾ [مريم: 17]؛ أي: إنَّ المَلَك تشبَّحَ لها وتراءى لها بصورةِ بشرٍ[2]، ولِعنايتِهم بالمظهرِ عبّرَ بـ (بشرا).

(1) محمد الدّوري، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص: 96.

(2) الرّاغب، المفردات: (بشر)، محمد الدّوري، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص: 99.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾

[هود: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

شُبهاتُ المُضلِّلين دائمًا تُنبِئُ عن ضَحالةِ عقولِهم، وسَخافةِ تفكيرِهم

لمّا حكى ربُّ العزّة ﷻ شُبهَ المُكذّبين بدعوة نوحٍ ؈؛ ذكر ﷻ جوابَ نوحٍ ؈ المُبيِّنَ لضلالاتِهم، الكاشفَ عن جهالاتِهم، الدّاعيَ إلى الإشفاقِ عليهم؛ الدّالَّ على سخافة شُبهاتِهم وسطحيّتِها، المُخبِرَ أنَّ الجهلَ والإصرارَ على الباطل والإنكارِ والجحودِ هو دَيْدَنُ الكفّارِ المعانِدين في كلِّ زمانٍ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَيِّنَةٖ﴾: البيِّنةُ: الحُجَّةُ الواضحةُ الظّاهرةُ، عقليَّةً كانت أو محسوسةً، وتُطلقُ على المعجزةِ، فتكونُ بمعنى الآية[2]. وهي مِنَ البيان بمعنى الإيضاحِ والكشفِ عنِ الشَّيء. وكذلك: ما يَتَبيَّنُ به الشَّيءُ مِنَ الدَّلالة وغيرِها. نقول: بان الشّيءُ بيانًا، فهو بيِّن: اتَّضحَ. وأبان الشَّيءُ والشيءَ يُستعمل لازما ومتعدِّيًا، فهو مُبِين: اتضح إن كان لازمًا، وأوضحه إن كان متعدِّيًا[3]. وأصلُها يدورُ حول معنى انكشاف الشَّيء وظهورِه[4].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/338، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/142، والبقاعي، نظم الدّرر: 9/271، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/201، والآلوسي، روح المعاني: 6/239، والمراغي، تفسير المراغي: 12/26، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/50، والهرري، حدائق الروح والريحان: 13/60.
(2) الرّاغب، المفردات: (بان)، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/133، والآلوسي، روح المعاني: 6/314، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/51.
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بان).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بان).

2) ﴿رَحۡمَةٗ﴾: الرَّحمةُ: رقَّةٌ وتعطُّفٌ يقتضي الإحسان[1]. ومعناها المِحوريُّ: اتِّساعٌ في الشَّيء مع رقَّةٍ وعطفٍ ورأفةٍ[2]. والرَّحمةُ أيضا: المغفرةُ؛ لأنَّها من مقتضيات الإحسان[3]. والرَّحمةُ في قوله تعالى حاكيًا قولَ نوحٍ عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾. تعني: النُّبوَّةَ. ومثلُها قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: 105]، أي: بنبوَّتِه[4].

3) ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾: عَمِيَ عليه الأمرُ، وعُمِّي عليه: اشتبهَ عليه والتبسَ حتى صار كالأعمى، والمصدرُ: التَّعميةُ[5]. وهو منَ العَمى الذي هو ذهابُ البصر كلِّه من كلتا العينَين، ولا يقال هذا لمن ذهب بصرُه من عين واحدة، بل منهما معًا[6]. ومعناه المِحوريُّ: السَّتْرُ والتَّغطيةُ، واحتجابُ الرُّؤية[7].

4) ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾: اللِّزام: الدَّوامُ على الشَّيء وعدمُ الانفكاك عنه. "والالتزام: الاعتناقُ". وشرٌّ لازمٌ، أي: دائمٌ. "واللَّازمُ: ما يمتنعُ انفكاكُه عنِ الشَّيء. ورجلٌ لُزَمَة: يَلزَمُ الشَّيءَ فلا يفارقُه"[8] والمعنى المِحوريُّ: شدُّ شيءٍ إلى شيءٍ شدًّا لا يُمَكِّنُ منَ المفارَقة والإفلاتِ؛ فيكونُ مصاحبًا مصاحبةً دائمةً[9]، والإلزام ضربان: ضربٌ بالتَّسخير منَ اللهِ، أو بالقهر منَ الإنسان، وضربٌ بالأمرِ والحُكم[10]. والمعنى في الآية: أنُكرِهُكم على قَبولها ونَقهرُكم على الاهتداء بها[11]؟

5) ﴿كَٰرِهُونَ﴾: الكَره والكُره: الإباءُ. وكَرِه الشَّيءَ كراهيةً: لم يُرِدْه فهو كارِه. والكُره على ضربين: أحدُهما: ما يعافُه الإنسانُ من حيث الطَّبعُ، والثّاني: ما يعافُه من حيث

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رحم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رحم).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (رحم).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رحم)، والبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/133، والآلوسي، روح المعاني: 6/239.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عمى).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عمى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عمى).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (لزم).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لزم).
(10) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (لزم).
(11) الزمخشري، الكشاف: 2/390، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/133، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/201، والآلوسي، روح المعاني: 6/239.

العقلُ والشَّرعُ[1]. ومعناه المِحوريُّ: الصَّدُّ والرَّدُّ وعدمُ القَبول؛ لأنَّ القَبول دخولٌ وتغلغلٌ في النَّفس[2]. والكارِه: المُبغِض للشَّيء. والمعنى في الآية: أنَّهم لا يريدونها ولا يختارونها، فهم مُعرِضون عنها غيرُ مُتدبِّرين فيها[3].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

الإيمانُ الصَّادقُ يكونُ عن اقتناعٍ واختيارٍ لا عن إكراهٍ وإجبارٍ

قال يا قومي أخبروني ماذا ترَوْن إنْ كنتُ على علْمٍ ومعرفةٍ من رَّبي بصحَّة دَعْواي، ورزقني منه نعمةَ التَّوفيق والنُّبوَّةِ والحكمةِ فالتزمتُ أمرَ ربي، فخفيتْ والتبستْ عليكم هذه النِّعمةُ فلم تَهتدوا إليها؛ فكيف نُجبرُكم على قَبولها، وأنتم لها كارهون[4]؟

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

الغرضُ من شبْهِ كمالِ الاتِّصال في ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾:

لم يأخذِ الرُّسلُ أقوامَهم بالشِّدَّةِ والقَسوةِ، بل حاوَروهم مُناصفةً ورحمةً

قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ[5] ناشئٌ عن سؤالٍ مستفادٍ منَ الآية السَّابقةِ، فكأنَّ سائلًا قال: بماذا أجاب نوحٌ عليه السلام الملأَ الكافرين من قومه الذين قالوا له ما قالوا؟ فجاءت هذه الآيةُ بالإجابة، ففُصلتِ الجملةُ عنِ التي قبْلَها على طريقة حكايةِ الأقوال في المُحاورات، فهذه لمَّا وقعت مُقابلًا لكلام محكيٍّ يقالُ، فُصلت الجملةُ ولم تُعطَفْ[6]، فالجملةُ مستأنَفةٌ مَسوقةٌ للتَّلطُّف بهم في الخطاب ومُناصفتِهم[7].

---

(1) الرّاغب، المفردات، السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز، والزبيدي، تاج العروس: (كره)، وأبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 769.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كره).

(3) البغوي، معالم التنزيل: 4/171، والزمخشري، الكشاف: 2/390، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/55، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/201، والآلوسي، روح المعاني: 6/239، 240، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/53.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/381، والبغوي، معالم التنزيل: 4/171، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/275.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/239.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/50.

(7) درويش، إعراب القرآن: 4/338.

الغرَضُ من النِّداءِ في ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

افتُتِحت مراجعةُ نوحٍ عليه السلام قومَه بالنِّداء لطلب إقبالِ أذهانهم لوعْيِ كلامِه عليه السلام[1]، فقال مخاطبًا إيَّاهم: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ وشرع يكرِّرُ هذه اللَّفظةَ في كلِّ مقالةٍ تذكيرًا لهم بأنَّه منهم لِتعْطِفهمُ الأرحامُ وتردَّهمُ القراباتُ عن حسده أوِ اتِّهامه إلى قَبول ما يُلقي إليهم منَ الكلام، وأشار بأداة البُعد - مع قُربِهم - إلى مباعدتِهم فيما يقتضي غايةَ القُرب[2].

مَن نأَى بنفسِه عنِ اتِّباع الحقِّ نأتْ به نفسُه عن مجالسِ أهلِه

دَلالةُ اصطفاء (قوم) مُنادًى:

النِّداءُ في قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ نداءُ استعطافٍ لهم[3]، وفيه غايةُ التَّلطُّف بهم[4]، والاستدراجِ لهم[5]، أي: يا أهلي وعشيرتي الذين يسُرُّني ما يسُرُّهم ويُؤلمني ما يُؤلمُهم[6]. وخاطبَهم عليه السلام بلقب القوم مضافًا إلى ضمير المتكلِّم الذي حُذف منَ الرَّسم مُراعاةً للنُّطق؛ استعطافًا وإيذانًا بأنَّه عليه السلام يَدعوهم إلى ما هو خيرٌ لهم[7]، واستنزالًا لطائرِ نفورِهم تذكيرًا لهم بأنَّه منهم فلا يريدُ لهم إلا خيرًا[8].

امتلأت قلوبُ الرُّسلِ رحمةً بأقوامِهم، وألسنتُهم حُسنًا مِن طِيب أقوالِهم

الغرَضُ منَ الاستفهامِ في: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾:

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾؛ أي: أخبروني؛ فإنَّ الرُّؤية سببٌ للإخبار[9]؛ أي: أخبروني. وفيه إيماءٌ إلى ركاكةِ رأيِهمُ المذكورِ[10]، و﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ استفهامٌ عنِ الرُّؤية بمعنى الاعتقادِ، وهو استفهامٌ

هيهاتَ لا ينفعُ مع الجاهلِ نُصحٌ، ولا ينجحُ في المُصرِّ وعظٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/50.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/272.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/273.
(4) القنوجي، فتح البيان: 6/168.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/240.
(6) طنطاوي، الوسيط: 7/193.
(7) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/54.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/50.
(9) البروسوي، روح البيان: 4/118.
(10) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/201.

تقريريٌّ إذا كان فعلُ الرُّؤية غيرَ عاملٍ في مفرد، فهو تقريرٌ على مضمون الجملةِ السَّادَّةِ مَسدَّ مفعولَيْ (رأيتم)؛ ولذلك كان معناه آيِلًا إلى معنى (أخبروني)، ولكنَّه لا يُستعملُ إلَّا في طلبِ مَن حالُه حالُ مَن يجحدُ الخبرَ[1]، فالاستفهام للتَّقرير ليجعلَ المعنى على سبيل العرْضِ لهم والاستدراجِ للإقرار بالحقِّ، وقيامِ الحُجَّة على الخصمِ، ولو قال: على أنّي على حقٍّ من ربِّي لقالوا له: كذبت.

الغرضُ منَ التَّعبير بأسلوبِ الشَّرطِ:

احتمالُ الصّوابِ يُلزمُ العقلاءَ بالتّفكيرِ في عواقبِ التّكذيبِ

دخولُ الشَّرط في قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾: لا يوجب شكًّا لحقِّ النَّبيِّ نوحٍ عليه السلام في أمره، لكنَّ الشَّكَّ لاحقٌ للمخاطَبين، وتلخيصُ الكلامِ: قل أرأيتم إن كنتُ على بيِّنة من ربِّي عندكم، وفيما يصحُّ من عقولِكم وتقبلُه أفهامُكم، فدخل الشَّرطُ في كلام النَّبيِّ عليه السلام لهذا التَّرتيب[2].

معنى أداةِ الشّرطِ ﴿إِن﴾ ودَلالتُها:

آتى الله رُسُلَه الحُجَّةَ على أقوامِهم، وبعثَهم بالرَّحمة والشَّفقةِ عليهم

تُستعمل (إنْ) في المعاني المحتملةِ الوقوعِ، والمشكوكِ في حصولِها، والموهومةِ، والنَّادرةِ، والمستحيلةِ، وسائرِ الافتراضات الأخرى، فهي لتعليق أمرٍ بغيره عمومًا. وربَّما وردَ بعدَها المُتيقَّنُ قليلًا، وتُستخدمُ في هذه الحال لمعانٍ، منها: تنزيلُ المخاطَب منزلةَ الجاهل، لعدم جرْيِه على موجِبِ العلم[3]، وهذا هو المقصودُ هنا، فإنَّ نوحًا عليه السلام لم يتشكَّك في إيتاء اللّه إيَّاه النُّبوَّةَ والبيِّناتِ، ولكنَّه تنزَّلَ مع قومه لإقامة الحُجَّةِ عليهم.

معنى حرْفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ ودَلالتُه:

صاحبُ البيِّنةِ مُستعلٍ بها على المُشكِّكين، مُستعينٌ بالحقِّ على المُبطِلين

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ هو الاستعلاءُ؛ لأنَّ صاحبَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/51.
(2) الواحدي، البسيط: 11/389.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/69.

البيِّنة يكونُ مُستعليًا على سواه[1]؛ أي: على يقين وجزم، مُتمكِّنٌ من ذلك أشدَّ التّمكُّن، يعني: وهو الرَّسولُ الكاملُ القدوةُ، الذي ينقادُ له أولو الألبابِ، ويَضمحلُّ في جنْب عقلِه عقولُ الفحولِ منَ الرِّجال، وهو الصَّادق حقًّا، فإذا قال: إنِّي على بيِّنة من ربِّي، فحسبُ المخاطَبِ بهذا القول شهادةً له وتصديقًا[2].

الغرَضُ منَ الاستعارة في ﴿عَلَىٰ﴾:

يفيدُ الحرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ معنى الاستعلاءِ، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[3]، وهو هنا من باب الاستعلاءِ المَجازيِّ، حيث شبَّه البيِّنةَ بأكَمَةٍ يقفُ عليها الدَّاعي ثابتًا فوقَها مُتمكِّنًا منها، يُشرفُ منها على المخاطَبين، بحيث يراهم، ولا يخفى عليه حالُهم، أو بفرسٍ قويٍّ يَمتطي فارسُه صهوتَه، ويتحكَّمُ فيه، ومن بديع هذه الاستعارة أنَّها تجعلُ صاحبَ البيِّنة مُستعليًا بالحقِّ على المُبطلين المُضلِّين، مُتمكِّنًا منه أشدَّ التَّمكُّن. فقولُه: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾؛ أي: مع بيِّنةٍ، أي: مصاحبًا لبيِّنةٍ[4]. فاستُعير الحرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ دون غيرِه لأداء هذا المعنى، وقد حَسُنَت استعارتُه على طريقة الاستعارةِ التَّبعيَّةِ، باعتبارِ أنَّ معانيَ الحروف تابعةٌ للمعاني في الأسماء.

مَـــنِ امـتـطَـى صهـوةَ البيِّناتِ هـابَـتْـه فـوارسُ الشُّبهاتِ

معنى حرْفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾ ودَلالتُه:

يدلُّ الحرف ﴿مِّن﴾ على ابتداء الغاية، أوِ ابتداء الفعل، وإليه تعودُ أغلبُ معانيه[5]. وقولُ نوحٍ عليه السلام: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ يدلُّ على أنَّ ابتداءَ إرسال هذه البيِّنةِ كان منَ اللّٰه تعالى، فمصدرُها منه سُبحانه، وهو تعالى الآمرُ والمُقدِّرُ. وإذا كان ذلك كذلك فإنَّه يدلُّ

مَـنِ اقتبسَ منَ الوحْيِ استنارَ، ومَـــنْ أعـــرضَ أكلَتْه النَّارُ

(1) درويش، إعراب القرآن: 4/338.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 380.
(3) المالَقي، رصف المباني، ص: 433، وفهد زايد، الحروف، ص: 134.
(4) الجمل، حاشية على الجلالين: 3/425.
(5) السامرائي، معاني النحو: 3/76.

على اصطفاءِ اللّه نبيَّه نوحًا ﷺ بالرِّسالة، وفيه ردٌّ على الملأ من قومه الذين زعَموا أنَّ نوحًا ﷺ كاذب - حاشاه - في ادِّعاء النُّبوَّة، وأنَّ الرُّسلَ لا يكونون منَ البشرِ.

دَلالةُ لفظ ﴿رَّبِّي﴾ وسِرُّ إضافتِه:

في الرُّبوبيَّةِ جمالُ الرِّعايةِ، وفي النُّبوَّةِ كمالُ الرَّحمةِ والعنايةِ

اختيرَ وصفُ الرَّبِّ دون اسم الجلالة في قوله: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ للدَّلالة على أنَّ إعطاءَه البيِّنةَ والرَّحمةَ فضلٌ منَ اللّه أراد به إظهارَ رِفقِه وعنايتِه به[1]، ويُضاف إلى ذلك أنَّه ﷺ أراد أن يزيدَ من ترغيب قومِه في الإيمان باللّه ﷻ؛ لذلك قال: ﴿مِّن رَّبِّي﴾ مُضافًا لياء المتكلِّم؛ أي: الذي أوجدني وأحسنَ إليَّ بالرِّسالة وغيرها يشهدُ بصحَّةِ دعْواي شهادةً لا يتطرَّقُ إليها عند المُنصفِ شُبهةٌ فكيف بالظَّنِّ[2]!

دلالة العطف بالواو في ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾:

بين البَيِّنةِ والرَّحمةِ عُمومٌ وخصوصٌ

الواو هي العاطفةُ، حيث عطفت جملةَ ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾ على جملةِ: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، وعطفُ الرَّحمةِ على البيِّنةِ يقتضي المغايرةَ بينهما، وهي مغايرةٌ بالعموم والخصوص؛ لأنَّ الرَّحمةَ أعمُّ منَ البيِّنة؛ إذِ البيِّنةُ على صدْقه من جملة الرَّحمةِ به؛ ولذلك لمَّا أُعيدَ الضَّميرُ في قوله: ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾ أُعيدَ على الرَّحمة لأنَّها أعمُّ[3].

الغرَضُ من تنكير ﴿رَحۡمَةٗ﴾:

النُّبوَّةُ رحمةٌ جليلةٌ، يُنقذُ اللّه بها عبادَه منَ المهالكِ والمُوبقاتِ

جاء لفظُ ﴿رَحۡمَةٗ﴾ نكرةً في قول نوحٍ ﷺ لقومه: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ﴾ لإفادة التَّعظيم؛ لأنَّها في سياق المدْحِ، وذكرِ عظيم فضلِ اللّه تعالى عليه؛ أي: آتاني ربِّي نعمةً عظيمةً منه سُبحانه[4]، ورحمةً من عنده خاصَّةً بي فوق رحمتِه العامَّةِ للنَّاس جميعًا[5]، والمرادُ بتلك الرَّحمةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/52.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/272.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/51.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/239.
(5) محمود حجازي، الواضح: 2/118.

إمَّا النُّبوَّةُ وإمَّا المعجزةُ الدَّالَّةُ على النُّبوَّة[1]، وإنَّما جُعلت النُّبوَّةُ رحمةً؛ لأنَّ اللّه ﷻ يُنقذُ بها الخَلقَ منَ العطَب والهلَكةِ[2].

معنى حرفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾ ودَلالتُه:

الوحيُ سببٌ، طرفُه عندَ الله، والآخرُ عند المؤمنين به من عبادِه

في قوله: ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ دخلت ﴿مِّن﴾ على الظَّرفِ ﴿عِندِهِۦ﴾، وإذا دخلت (من) على الظُّروف فإنَّها تعني ابتداءَ الغاية[3]؛ أي: أنَّ ابتداءَ الوحْيِ كان مِن عند اللّه تعالى، ففيه ما يدلُّ على تعظيم هذا الوحْي، وبيانِ مصدرِه ومنشئِه.

دَلالةُ الظَّرف ﴿عِندِهِۦ﴾ وسِرُّ إضافتِه:

التّعبيرُ بالعِنديّةِ كمالٌ للرِّفعةِ وتعظيمٌ للتّنزيلِ

في قول نوحٍ عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ تقييدٌ للرَّحمة بكونِها ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ تأكيدًا كما قال: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: 38]، وفائدتُه رفعُ الاشتراكِ ولو بالاستعارة[4]. وفي إضافتِه للضَّمير العائدِ على الاسم الجليلِ تعظيمٌ وتشريفٌ، وبيانُ رِفعةِ قدْرِ هذه الرَّحمةِ التي أوتيها نوحٌ عليه السلام، فهي من عند العليِّ الرَّحيم سُبحانه. فالتَّعبيرُ بالعِنديَّة يوحي بكمال الرِّفعة، وعظَمةِ التَّنزيلِ، وشُمولِ الرَّحمةِ للمُجتبَى بها.

معنى حرفِ الفاءِ ودَلالتُه في ﴿فَعُمِّيَتْ﴾:

الكفّارُ عندهم عمًى بصيرةٍ يظهرُ نورُ الحُجّةِ فلا يَرونَه

الفاءُ لترتيب ما بعدَها على ما قبلَها؛ أي: جاءتِ البيِّنة فلمْ تدركوها فخَفِيَت عليكم[5]. وعطفَ (عميت) بفاء التَّعقيب إيماءً إلى عدم الفترةِ بين إيتائِه البيِّنةَ والرَّحمةَ وبين خفائِها عليهم، وهو تعريضٌ لهم بأنَّهم بادروا بالإنكار قبلَ التَّأمُّل[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/338.
(2) الواحدي، البسيط: 11/398.
(3) أبو حيّان، التذييل: 11/151، والسامرائي، معاني النحو: 3/77.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/164.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3700.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/52.

الغرَضُ منَ الاستعارة في ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾:

معنى ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾: فخفيت، وهو استعارةٌ، إذْ شُبِّهت الحُجَّةُ التي لم يُدركْها المخاطَبون كالعمياءِ في أنَّها لم تصلْ إلى عقولهم كما أنَّ العمياء لا يَهتدي للوصول إلى مقصدِها فلا يصلُ إليه. ولمَّا ضمِّن معنى: الخفاء عُدِّي فعلُ ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾ بحرفِ على تجريدًا للاستعارة، ويجوز أن يكون هناك استعارةٌ تمثيليَّةٌ بأن شبَّه الذي لا يهتدي بالحُجَّة لخفائِها عليه بمَن سلك مفازةً لا يعرفُ طُرقَها واتَّبع دليلًا أعمَى فيها[1].

العِلْمُ نورُ البصيرةِ الباطنةِ، والأبصارُ نورُ البصرِ الظَّاهِرِ

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالعمَى دونَ الخفاءِ:

التَّعبيرُ بـ ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾ مخفَّفةً ومُشدَّدةً أبلغُ منَ التَّعبير بـ (خَفِيَتْ) و(أُخْفِيَتْ)؛ لأنَّه مأخوذٌ منَ العمَى المُقتضي لأشَدِّ أنواع الخَفاءِ[2]، والخطابُ أرفقُ ما يكون لقُربِهم إليه، ولم يقل: كفرتُم بل قال: خفيتْ عليكم. وترك الأمرَ لاختيارِهم، ووجَّه أنظارَهم إلى أنَّ الأمرَ ليس لفضلٍ شخصيٍّ، ولكن لهدْيٍ إلهيٍّ، ولأنَّ رسالاتِ اللّه بيِّناتٌ وهدايةٌ[3].

قد يَخفَى عنِ العينِ المُبصرة شيءٌ، لكنْ يَخفَى عنِ العينِ الكفيفةِ كلُّ شيءٍ

نُكتةُ مقابلةِ الاستعارة للقول المَحكي عنهم:

قولُه: ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾ وقولُه: ﴿مَا نَرَىٰكَ﴾ و﴿وَمَا نَرَىٰكَ﴾ و﴿وَمَا نَرَىٰ﴾: إنَّما قصد نبيُّ اللّه نوحٌ عليه السلام بهذا القول لقومه أن يرُدَّ عليهم قولَهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾ ليظهرَ فضلُه عليهم بأنَّه على بيِّنة من ربِّه جل جلاله، وأنَّ اللّه سُبحانه قد آتى نوحًا عليه السلام رحمةً من عنده، وهم قد سُلِبوا ذلك، فأيُّ فضلٍ أعظمُ منه[4]؟

منْ إخقاقِ الحقِّ إعلاءُ شأنِ الفاضلِ، وبيانُ مآثرِ الكريمِ

ومن بديع هذه الاستعارةِ هنا أنَّ فيها طِباقًا لمقابلة قولِهم في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/239، والهرري، الحدائق: 13/84.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/55.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3700.

(4) الماوردي، النكت والعيون: 2/466.

مجادلتِهم ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا﴾، ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾، ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾. فقابلَ نوحٌ عليه السلام كلامَهم مقابلةً بالمعنى واللّفظ إذ جعل عدمَ رؤيتِهم من قَبيل العمَى[1]، وفي هذا فنٌّ رفيعٌ من فنون البديع، وهو الجمعُ مع التَّقسيم، وهو أن يجمعَ المتكلِّمُ بين شيئَين أو أكثرَ، ثمَّ يقسِّمُ ما جمعَ. وفي هذه الآيات ردٌّ على ما أوردوه من شُبَه، حيث قالوا في الآية السَّابقة: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ فردَّ عليهم ردًّا يمكنُ إرجاعُه إلى ما أوردوه من شُبَه[2].

تنوُّعُ القراءةِ في ﴿فَعُمِّيَتْ﴾:

اختلف القُرَّاءُ في قراءة ذلك، فقرأه عامَّةُ قُرَّاءِ أهلِ المدينة وبعضُ أهل البصرة والكوفة: ﴿فَعَمِيَتْ﴾ بفتح العين وتخفيفِ الميم، بمعنى: فعَمِيتِ الرَّحمةُ عليكم، فلم تَهتدوا لها، فتُقرُّوا بها، وتُصدِّقوا رسولَكم نوحًا عليها، وقرأ عامَّةُ قُرَّاء الكوفيِّين: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ بضمِّ العين وتشديد الميم، لقُربه من قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾، فأضاف الرَّحمة إلى اللّه، فكذلك تعميتُه على الآخرين[3]، فعلى قراءةِ ما لم يُسَمَّ فاعلُه يكون المعنى: أُلبِسَتْ وشُبِّهَتْ. وعلى قراءة فتح العين وتخفيف الميم، بمعنى: اِلْتَبَسَتْ وَاشْتَبَهَتْ[4]، وعلى هذه القراءة أُسندَ الفعلُ إليها مجازًا[5]، ففي إسناد العمَى إلى الضمير العائدِ على البيّنةِ مَجازٌ عقليٌّ يفيدُ المبالغةَ في كُرهِ البيّنةِ لهم وبغضِهم لدرجة أنَّها تتوارى عنهم بُغضًا لهم ومَقتًا.

مَن أراد الهدايةَ وسعَى لها هُديَ بإذنِ الله، ومَن استَعمى عنِ الحقِّ أضلَّه الله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/51.
(2) محمود صافي، الجدول: 6/257.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/298.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/338.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/313.

تَوجيهُ عوْدِ الضَّميرِ في ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾ ودَلالتُه:

يُعاقَبُ المُعرِضُ عنِ الهدايةِ بالضَّلالِ والعَمايةِ

اختُلِفَ في الضَّمير في ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾ هل هو عائدٌ على البيِّنة، فيكونَ قولُه: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ﴾ جملةً مُعترضةً بين المُتعاطفَين؛ إذ حقُّه (على بَيِّنَةٍ مِّن ربي فَعُمِّيَتۡ)، أم هو عائدٌ على الرَّحمةِ فيكونُ قد حُذِفَ منَ الأوَّل لدلالة الثَّاني، والأصلُ: على بيِّنة من ربي فَعُمِّيَتۡ[1]، ويجوزُ عوْدُ الضَّمير إلى البيِّنة لاقتضاء خفائِها خفاءَ الرَّحمةِ كما هو شأنُ الدَّليل مع المدلول، ويجوزُ عودُه إلى الرَّحمة باعتبار ذكْرِها بعد البيِّنة كأنَّه قال: فخفيت عليكم رحمةُ اللَّه لكم بهذه النُّبوَّةِ لخفاء البيِّنةِ الدَّالَّة عليها، أو لأنَّ البيِّنةَ خاصَّةٌ به ﷺ، وهي العلمُ الضَّروريُّ الذي يعلمُ به النَّبيُّ أنَّه نبيٌّ[2].

معنى حرفِ الجرِّ في ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ ودلالتُه:

إذا عَميتِ البصائرُ تَبِعتْها الأبصارُ

قولُه: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾ وهو حرفٌ تتعدَّى به الأفعالُ الدَّالَّةُ على معنى الخفاء، مثل: خفي عليك، ولمَّا كان (عمي) في معنى (خفي) عُدِّي بـ (على)، وهو للاستعلاءِ المجازيِّ؛ أي: التَّمكُّن؛ أي: قوَّةُ ملازمةِ البيِّنة والرَّحمةِ له[3]، وشدَّة تجلُّل قومِه بالعَماءِ عن إبصارِ نورِ الحقِّ، والمبالغةِ في التَّدثُّرِ منه! وهو كما حكاه القرآنُ في موضعٍ آخرَ على لسان نوحٍ عليه السلام: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ [نوح: 7].

الغرَضُ منَ الاعتراضِ في الآية:

الأنبياءُ هم رَحمةُ الحَقِّ بالخلْقِ

جملةُ: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ﴾ لا محلَّ لها منَ الإعراب لأنَّها اعتراضيَّةٌ بين جملةِ ﴿كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ وجملةِ ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾ المعطوفةِ عليها[4]، إذ حقُّه (على بينة من ربي فعميت)[5]، والغرَضُ من هذا الاعتراضِ تخصيصُ إيتاء الرَّحمةِ بزيادة التَّأكيدِ في أمرٍ عَلِقَ بها، وهي كونُها

---

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/314.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/55.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/51.
(4) محمود صافي، الجدول: 6/252.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/314.

من عند اللّه تعالى[1]، ولإفادة التَّقريرِ في نفس السَّامعِ أنَّ اللّه تعالى هو الذي اصطفى نوحًا واجْتباه ومَنَّ عليه بالرِّسالة، وهي من أعظمِ صُوَرِ رحمةِ اللّه تعالى بخلْقِه[2].

الغرَضُ من حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

يُعاقَبُ المُعرِضُ عنِ الهدايةِ بالضَّلالِ والعَمايةِ

قول نوحٍ عليه السلام: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ جملةُ شرطٍ حُذفَ جوابُها، ودلَّ عليه فعلُ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ وما سدَّ مسَدَّ مفعولَيْه، وتقديرُ الكلام: يا قوم إن كنتُ على بيِّنة من ربِّي إلى آخره أترون أنلزمُكم قبولَ البيِّنة، وأنتم لها كارهون[3]؟ فنُكتةُ حذفِ الجوابِ هي العلمُ به لتقدُّمِ معناه. والتَّقديرُ: إن كنت على بيِّنة من ربِّي فأخبروني ... إلخ[4].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾:

في حمْلِ النَّفسِ على ما تكرهُ مَشقَّةٌ وضَنًى، لفظًا ومعنى

جاءت هذه الكلمةُ في سياق خطابِ نوحٍ عليه السلام إلى قومه، وقد أَعْرَضوا عنِ الهُدى، وصمَّموا على رفض الهُدى والإسلامِ، لذا فإنَّ نوحًا عليه السلام أحسَّ بالصُّعوبةِ الشَّديدةِ في إبلاغِهم الهدايةَ، بل هي مستحيلةٌ، وكأنَّه يُرغِمُ إنسانًا على شيءٍ وهو كارهٌ له، نافرٌ منه، فجاءت كلمة ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ بلفظِها المديدِ أوَّلًا، وقد حُشِر فيها الضَّميران: الكاف (وها)، وإشباعِ حركةُ الميم التي هي ضمَّةٌ، فأصبحت واوًا ثانيًا، وورودُ الاستفهامِ الاستنكاريِّ في بدايتها ثالثًا، وجرسُ حروفِها وإيقاعِها رابعًا، لتتضافر هذه العواملُ، وترسمَ معنى الإكراه ومحاولةِ إبلاغِ الشَّيء بصعوبةٍ شديدةٍ إلى من يرفضُه ويأباه، ولو وضعْنا بديلًا عنها: (أنلزمكم إيَّاها) لَتلاشَى ذلك الجرسُ والإيقاعُ الذي كان لها، وضعُفت فيها القوَّةُ التي كانت تُؤدّيها؛ فهذا سِرٌّ من أسرار الإعجازِ[5].

---

(1) القزويني، الإيضاح: 3/216.
(2) المراغي، علوم البلاغة، ص: 197.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/52.
(4) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 5/161.
(5) محمود صافي، الجدول: 6/257.

لا يُكرِهُ الرُّسلُ النَّاسَ حتّى يَكونوا مُؤمِنين

الغرَضُ منَ الاستفهامِ في ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾:

الاستفهامُ إنكاريٌّ؛ أي: ما كان لنا ذلك؛ لأنَّ اللّٰه لم يأمرْه بإكراهِهم إعراضًا عنِ العنايةِ بهم فتركَ أمرَهم إلى اللّٰه، وذلك أشدُّ في توقُّع العقابِ العظيم، وهذا تعريضٌ بأنَّهم لو تأمَّلوا تأمُّلًا بريئًا منَ الكراهيةِ والعداوةِ لعلِموا صدْقَ دعوتِه عليه السلام[1]، فكأنَّه قال: إن شئتم تلقِّيَها فزكّوا نفوسَكم، واتْرُكوا إنكارَكم، ففي طيِّ جوابِه عليه السلام حثٌّ على تدبُّرِها، وردٌّ عنِ الإعراضِ عنها، بأسلوبٍ فائقٍ[2]، ويجوزُ أن يكونَ الاستفهامُ للحمْلِ على الإقرارِ لمناسبتِه مقامَ المُحاجَّة، وحينئذٍ يكونُ كلامُه عليه السلام جوابًا عن شُبَهِهم التي أدْرَجوها في خلال مَقالِهم من كونِه عليه السلام بشرًا قُصارَى أمرِه أن يكونَ مثلَهم من غير فضْلٍ له عليهم، وقطْعًا لشأفة آرائِهم الرَّكيكةِ[3].

سِرُّ ضميرِ المُتكلّمِ المشاركِ في ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾:

لا يَعدمُ الحقُّ أعوانًا وأنصارًا

في قولِه: ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ ضميران متَّصلان، وتقدَّمَ ضميرُ الخطاب لأنَّه أخصُّ، ولو جيء بالغائب أوَّلاً لانفصل الضَّميرُ وجوبًا، وقد أجاز بعضُهمُ الاتِّصالَ[4]، وإسنادُ الإلزامِ لضمير الجماعة إمَّا للتَّعظيمِ أو لاعتبارِ متَّبِعيه عليه السلام معه في ذلك[5]، وجيء بضميرِ المتكلِّم المشاركِ هنا للإشارة إلى أنَّ الإلزامَ لو فُرض وقوعُه لكان له أعوانٌ عليه، وهم أتباعُه، فأراد أن لا يُهملَ ذكرَ أتباعِه، وأنَّهم أنصارٌ له لو شاء أن يُهيبَ بهم. والقصدُ من ذلك: التَّنويهُ بشأنِهم في مقابلة تحقيرِ الآخرين إيَّاهم[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/51 - 52.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/89.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/202.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/315.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/240.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/52.

بَلاغةُ الجملةِ الاسميّةِ في ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾:

كراهيةُ الحقِّ تُعمي عنه وتُصِمُّ

يفيدُ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ الثُّبوتَ والدّيمومةَ، وأريد بها هنا تأكيدُ إثباتِ الصِّفةِ للموصوفِ بها، أي: إثباتُ كراهيةِ الاهتداءِ والإيمانِ للملأ الكافرين من قوم نوح عليه السلام، فقوله: ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ مع تسميته لها بيِّنةً إشارةٌ إلى أنّها لم تُعمّ ولا خفيت عليهم لقوَّة نورِها وشدَّة ظهورِها، وإنَّما هم معانِدون في نفيهم لفضله وفضلِ من تبعَه، والتَّعبيرُ عن ذلك بالجملةِ الاسميَّةِ واسم الفاعل إشارةٌ إلى أنَّ أفعالَهم أفعالُ مَن كراهتُه لها ثابتةٌ مستحكِمةٌ[1].

الغرَضُ من تقديمِ ﴿لَهَا﴾ على الخبرِ:

ما كُرِه الحقُّ إلَّا بسببِ مرضٍ في القلبِ مُؤثِّرٍ، وإعراضٍ عن التَّدبُّرِ

عُدِّي قولُه: ﴿كَٰرِهُونَ﴾ باللَّام إلى مفعوله لزيادة تقويةِ تعلُّقِ الكراهيةِ بالرَّحمةِ أوِ البيِّنة؛ أي: وأنتم مُبغضون قَبولَها لأجل إعراضِكم عنِ التَّدبُّر فيها، وتقديمُ المجرورِ على ﴿كَٰرِهُونَ﴾ لرعايةِ الفاصلةِ مع الاهتمامِ بشأنِها. والمقصودُ من كلامِه بعثُهم على إعادة التَّأمُّلِ في الآيات، وتخفيضُ نفوسِهم، واستنزالُهم إلى الإنصافِ، وليس المقصودُ معذرتَهم بما صنعوا ولا العُدولَ عن تكرير دَعْوتِهم[2].

مُتشابهُ النَّظْمِ:

قال تعالى في قصة نوحٍ عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾

وقال في قصَّة صالحٍ عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ [هود: 63].

حيث خاطب النَّبيَّان نوحٌ وصالحٌ عليهما السلام قومَهما بلفظين تساويا إلَّا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/272.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/53.

فيما اختلفا فيه من تقديم المفعول الثَّاني في الآية الأولى على الجارِّ والمجرور وتأخيرِه عنهما في الآية الثَّانية، فما علَّةُ ذلك؟

مَـن بـالَـغَ في إسـاءةِ الجوابِ بولِغَ له في تأكيدِ الخطابِ

إنَّ قومَ صالح عليه السلام بالغوا في إساءة الجوابِ حين قالوا: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾ [هود: 62]؛ أي: قد كنتَ مرجوًّا أن تسودَ فينا حتى نقطعَ عن رأيكِ ونرجعَ إليك من أمورنا، فرَموا مقامَه النَّبويَّ بحطِّ مرتبتِه عنهم، فلمَّا بالغوا في إساءة الجوابِ جاوبَهم صالحٌ عليه السلام ردًّا لمقالِهم الشَّنيعِ بقوله: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ [هود: 63]، ولا شكَّ أنَّ صالحًا عليه السلام كذلك، وأنَّه على بصيرةٍ من أمره، ولكنَّه خاطبَهم على ما يَجري في مناظرةِ مَن فَرَضَ ما لا يعتقدُه المناظرُ على حسبِ نطقِه، ولكنَّه يستنزل بذلك مُناظرَه ليقيم الحُجَّة عليه، فيقول: هبْ كذا على ما تقولُه، فعلى هذا جرى قولُ النَّبيِّ الكريم عليه السلام: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾؛ أي: كيف ترون إن كنتُ على واضحةٍ وعلى يقينٍ من ربّي، وآتاني منه رحمةً فعصيتُه بموافقتِكم، فإنْ فعلتُ ذلك فمَن ينصرُني ويمنعُني من عذابِه؟ فخاطبَهم عليه السلام بطريقة فرْضِ هذا: إن كان كذا، وهو عليه السلام العليمُ بحاله الجليل، وعلى بيِّنةٍ من ربِّي، وأكّدَ بتقدُّم المجرورِ في قوله ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ [هود: 63]؛ لِما يُحرزُ تقديمُه من التَّأكُّد، ويَعيه مفهومُه من أنَّ الرَّحمةَ منه سُبحانه لا يُشركُ فيها غيرَه، فهو مخصوصٌ لا يحصلُ مع تأخيره، فتقديمُ هذا الضَّمير المجرورِ كتقديمه في قولِه سُبحانه: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص: 4]، فلمَّا بالَغوا في قُبحِ الجوابِ؛ بالَغَ عليه السلام في ردِّ مقالِهم، فقدَّم المجرورَ لتأكيدِ أنَّ الرَّحمةَ من عند اللّه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ [هود: 63].

ولمَّا لم يكن في مراجعةِ قوم نوحٍ عليه السلام مثلُ هذا في شناعة الجوابِ، لأنَّ أقصَى المفهومِ من قولِهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾ إلحاقُه بهم

ومُماثلتُه إيَّاهم، وكلُّهم يقولون: لو كنتَ رسولًا لكنتَ منَ الملائكة ولم تكن لِتُماثِلَنا. فلم يكن في قول هؤلاء ما في قول قوم صالحٍ عليه السلام، فجرَى جوابُه ﷺ على نسبةِ ذلك، فقال: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾، فأتى بالمجرور مؤخَّرًا في محلّه على ما يجبُ، حيث لا يُقصدُ في إحراز المفهوم ما قُصدَ في الآية الأخرى، فوردَ كلٌّ على ما يلائمُ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الإيتاءُ والإعطاءُ:

الإيتاءُ أقوى منَ الإعطاءِ

يفترقُ الإيتاءُ عنِ الإعطاء بأنَّ الإعطاء له مُطاوعٌ يقال: أعطاني فعطوت، ولا يقال في الإيتاء آتاني فأتيتُ، وإنّما يقال: آتاني فأخذتُ، والفعلُ الذي له مطاوعٌ أضعفُ في إثبات مفعولِه منَ الذي لا مطاوعَ له؛ لأنّه يقال: قطعتُه فانقطع، فيدلّ على أنَّ فعلَ الفاعل كان موقوفًا على قَبول المحلِّ ولولاه لما ثبت المفعولُ، ولهذا يصحُّ قطعتُه فما انقطعَ، ولا يصحُّ فيما لا مطاوعَ له ذلك، فلا يجوزُ أن يقال: ضربتُه فانْضرب أو ما انْضرب ولا قتلتُه فانقتل أو ما انقتل؛ لأنَّ هذه الأفعالَ إذا صدرت منَ الفاعل ثبت لها المفعولُ في المحلّ، والفاعلُ مستقلّ بالأفعال التي لا مطاوعَ لها؛ فالإيتاء إذن أقوَى منَ الإعطاء في إثبات مفعولِه[2].

ويدلُّ أيضًا على أنَّ الإيتاءَ أقوى منَ الإعطاء أنَّ الإيتاءَ في أكثرِ مواضعِ القرآن في ما له ثباتٌ وقرارٌ، كالحكمةِ والسّبعِ المثاني، والمُلكِ الذي لا يُؤتَى إلّا لذي قوَّةٍ، والإعطاءُ فيما ينتقلُ منه بعد قضاءِ الحاجةِ منه كإعطاء كلّ شيءٍ خلقَه لتكرّر حدوثِ ذلك باعتبارِ الموجوداتِ، وإعطاءِ الكوثرِ للانتقال منه إلى ما هو أعظمُ منه،

(1) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/255 - 256.
(2) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/85، وأبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

وكقولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضحى: 5]؛ لأنَّ اللّه تعالى بعدما يُرضي النّبيَّ ﷺ يزيدُه وينتقلُ به من كلِّ الرِّضا إلى أعظمِ ما كان يَرجو منه[1].

عندَ أعمُّ من لَدُن

عندَ ولدُن:

الفرق بينهما أنَّ (عند) لا يَستدعي حضورًا؛ فهو للحاضر والغائب، و(لَدن) يَستدعي حضورًا، تقول: عندي مال وإن كان غائبًا عنك، ولا تقول: لدنِّي مالٌ إلا والمالُ حاضرٌ عندك؛ فـ (عند) بهذا الاعتبارِ أعمُّ من (لدن)[2]، وممّا يجعلُ (لدن) أخصَّ من (عند) أنَّ (لدن) يدلُّ على ابتداء نهايةٍ، نحوَ: أقمتُ عنده من لَدُنِ طلوع الشّمس إلى غروبها ولَدُن أقربُ مكانًا وأبلغُ من عند. ومن لدنّا: تُستعمَلُ للشّيء الخاصّ الذي يرادُ إعطاؤه لشخص مُقرَّبٍ إلى اللّه تعالى؛ مثل: شيءٍ من علْم الغيب، قال اللّه ﷻ: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥﴾ [الكهف: 65][3]؛ (عند) في لسان العرب لِما ظهر، و(لدن) لِما بطن، فيكونُ المرادُ بالرّحمة ما ظهرَ من كراماته، وبالعلْم الباطنَ الخفيَّ المعلومَ قطعًا أنَّه خاصٌّ باللّه ﷻ. ولـمَّا كان هذا العلمُ أشرفَ الأشياء استُعملَ معه (لدن) الأخصُّ تنبيهًا على شرفِه[4].

(1) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/86، وأبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 298، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لدن)، وبدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/290.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لدن)، ومحمد الهلال، تفسير القرآن الثريّ الجامع: 6/482.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/106، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لدن).

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩﴾ [هود: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مواصلةُ مناقشةِ نوحٍ عليه السلام قومَه، وردُّ شُبُهاتِهِم بالحججِ الدّامغة

لَمّا ذَكَرَ نوحٌ عليه السلام لَهُم أوّلًا: أنَّهُ على حُجَّةٍ ظاهِرَةٍ وبَيِّنَةٍ واضِحَةٍ مِن رَبِّهِ لا مِراءَ فيها، وأنَّ نُبُوَّتَهُ ليست كَسْبًا بَشَرِيًّا ولا هَوًى نَفْسِيًّا، وأنَّهُ لَيسَ مِثْلَهُم، فهوَ مُرْسَلٌ من ربِّهِ مُبَلِّغٌ عنه، وقد أوتيَ منه رَحْمَةً عُمّيَتْ عليهم بَراهينُها ودَلائِلُها؛ أردف ذلك بذكر الدليل على صدقه معهم وإخلاصه لهم، مبيِّنًا أنَّه لا يُريدُ مالًا على بَلاغِهِ، وإنَّما الَّذي يكافِئُهُ ويكافئُ من آمن معه من الضعفاء الَّذينَ ناصَروهُ، وصَدَّقوا بَلاغَه، هوَ رَبُّهُ الَّذي أرْسَلَهُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَالًاۖ﴾: المالُ: الأجرُ أو العَطِيَّةُ مُقابِلَ عَمَلٍ ونَحْوِهِ، وهوَ مِنَ المَيْلِ، قال الرّاغِبُ: "والمالُ سُمّي بذَلِكَ؛ لِكَونِهِ مائِلًا أبَدًا وزائِلًا، ولِذَلِكَ سُمّي عَرَضًا"[1] والمراد هنا: عطيّة مقابل عمل.

2) ﴿أَجۡرِيَ﴾: الأجرُ هوَ الجَزاءُ، "والأُجرَةُ: ما يَعودُ مِن ثَوابِ العَمَلِ دُنْيَوِيًّا كانَ أو أُخرَوِيًّا، وجَمْعُ الأجْرِ أُجورٌ... والأجرُ والأُجرَةُ يُقالُ فيما كانَ عَن عَقْدٍ، وما يَجْري مَجرى العَقْدِ، ولا يُقالُ إلّا في النَّفْعِ دونَ الضَّرِّ"[2]، وهو المراد هنا.

3) ﴿بِطَارِدِ﴾: الطَّرْدُ هوَ الإبعادُ والإقْصاءُ، يُقالُ: "طَرَدَهُ طَرْدًا وطَرَدًا، وطَرَّدَهُ وأطْرَدَهُ: أبْعَدَهُ ونَحّاهُ، وهوَ شَريدٌ طَريدٌ، ومُشَرَّدٌ مُطَرَّدٌ"[3].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (ميل).

(2) الرّاغب، المفردات: (أجر).

(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (طرد).

وقالَ الرّاغِبُ: الطَّرْدُ: هوَ الإزعاجُ والإبْعادُ على سَبيلِ الاسْتِخفافِ، يُقالُ: طَرَدْتُهُ[1]، والمراد هنا: ولست بمبعدهم عن مجلسي استخفافًا بهم وتحقيرًا[2].

4) ﴿تَجْهَلُونَ﴾: الجَهلُ ضِدُّ العِلْمِ بالشَّيءِ والإحاطَةِ بهِ، وعدمُ الفهْمِ والتَّعقُّلِ، قال الزَّمَخْشَري: "فُلانٌ جَهولٌ، وقَد جَهِلَ بالأمْرِ، وجَهِلَ حَقَّ فُلانٍ، وهوَ يَجْهَلُ على قَوْمِه: يَتَسافهُ عَلَيهِم.. واستجهله: عدَّه جاهلًا، وتجاهل: أرى من نفسه أنَّه جاهل، وجاهلَه: سافهه"[3] والمراد هنا: تسفهون، وتفعلون أفعال أهل الجهل، فتكذبون[4].

المَعْنى الإجْماليّ:

من أدلَّة صدق الرَّسول، أنَّهُ لا يطلبُ أجرًا على تبليغ دَعْوَتِه، ولا تثنيه جهالةٌ ولا إنكارٌ.

في هذه الآيَةِ الكَريمَةِ يُنادي نَبيُّ اللّه نوحٌ ﷺ قومَهُ قائلًا لَهُم: "لا أَطْلُبُ مِنْكُم على تَبْليغِ رِسالَةِ ربي مالًا، وإنَّما أَطْلُبُ جَزائي مِن اللّه، وما أنا بطارِدِ الَّذينَ آمَنوا بِرَبِّهِمْ عَن مَجْلِسي ومُعاشَرَتي، لِمُجَرَّدِ احتِقارِكُمْ لَهُمْ؛ لِأَنَّهم سَيُلاقونَ رَبَّهُم يومَ القيامَةِ، فيَشْكونَني إلَيهِ إنْ طَرَدْتُهُمْ لِفقْرِهِمْ، ولكنّي أراكُمْ قَوْمًا تَجْهَلونَ، ما يَصِحُّ أنْ يتفاضلَ بِهِ الخَلْقُ عِنْدَ اللّه، أهوَ الغِنَى والجاهُ، كَما تَزْعُمونَ؟ أم اتِّباعُ الحَقِّ وعَمَلُ الخَيرِ؟"[5].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الواو في قَولِهِ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾:

الواو هُنا عاطِفَةٌ لِجُملَةِ ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ على الجُملَةِ

دَعوَةُ الأنبياءِ، قائِمَةٌ على الحوارِ الفعّالِ، والمُناقَشَةِ الإيجابيَّة

(1) الرّاغب، المفردات: (طرد).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/55.
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (جهل).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/374.
(5) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 312.

السّابِقَة: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [هود: 28] وهو مِن عَطفِ الجُمَلِ على بَعضِها لاتِّفاقِ الجُملَتَينِ في الإنشائيةِ، ولِتَشْرِيكِ الجُملَتَينِ في حُكمٍ واحِدٍ، وهوَ مُناقَشَةُ قومِهِ وردُّ شُبُهاتِهِم.

الغَرضُ مِن النِّداءِ في قوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾:

بيانُ أدَبِ الأنْبياءِ مَـعَ أقـوامِـهـم، وتَعظيمِ شَأنِهِم

رَدَّدَ سَيدُنا نوحٌ عليه السلام النِّداءَ لِقَومِهِ بـ (يا) الدالَّةِ على بُعْدٍ، والمراد بالبُعد هنا: البُعدُ في المنزلة ورِفعَةِ القَدر، فلا شكَّ أنَّه عليه السلام كان حريصًا على إيمان قومه، مشغولًا بشأنهم.

سرُّ إعادة النِّداء بـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾، وسرُّ عطفه بالواو:

إعــادة الـنِّـداء لونٌ من الحرص والإشــفــاق عليهم

وفي إعادَة الخِطاب بـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ تَأْكيدٌ لِما في الخِطابِ بِهِ أوَّلَ مَرَّةٍ من الدلالة على حرصه على إيمان قومه، لاستنزال طائر نفورهم تذكيرًا لهم، بأنَّه منهم، فلا يريد لهم إلّا خيرًا[1].

وأمّا عَطْفُ النِّداءِ بالواوِ مَعَ أنَّ المُخاطَبَ بِهِ واحِدٌ، وشَأْنُ عَطفِ النِّداءِ أنْ يَكونَ عِنْدَ اخْتِلافِ المُنادَى... فأمّا إذا اتَّحَدَ المُنادى؛ فالشَّأْنُ عَدَمُ العَطْفِ"[2]، بحيث "يتعيّن هنا أن يكون العطف من مقول نوح عليه السلام لا من حكاية اللّه عنه، ثمّ يجوز أن يكون تنبيهًا على اتّصال النّداءات بعضها ببعض، وأنّ أحدها لا يغني عن الآخر، ولا يكون ذلك من قبيل الوصل؛ لأنّ النّداء افتتاح كلام، فجملته ابتدائيّة، وعطفها - إذا عطفت - مجرّد عطف لفظيّ، ويجوز أن يكون ذلك تفنّنًا عربيًّا في الكلام عند تكرّر النّداء استحسانًا للمخالفة بين التّأكيد والمؤكَّد"[3].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالمُنادى (قَومِ) في السّياق:

تلطُّف الدّاعي بالمدعوّين من أخلاق المرسلين

حينَ أرادَ نوحٌ عليه السلام مُخاطَبةَ هَذا الجمعِ ناداهُم بكَونِهِم قَومَه، وليسوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/50.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/53.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/54.

بَعيدينَ عنهُ أو غُرَباءَ، بَل جَعَلَهُم الأهلَ والعشيرةَ تَلَطُّفًا بهم واستدراجًا لَهُم؛ لَعَلَّه يَجِدُ منهم صَوابًا أو إرشادًا، فإنَّ المُحبَّ دومًا يَرى قَومَهُ أولَى النّاسِ بالقُربِ، فخاطَبَهُم خِطابًا في غايَةِ التَّلَطُّفِ بهم"[1].

دلالَةُ الفعلِ المُضارِعِ المَنفيِّ ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ في الآية:

الأنـبـيـاءُ لا يُـريـدونَ نَـفْـعًـا دُنـيَـوِيًّـا، ولا عرضًا ماديًّا

عبَّر هُنا بالفعلِ المُضارِعِ الدّالِّ على التَّجَدُّدِ والحدوثِ دِلالَةً على تَجَدُّدِ مَقولَتِهِ لَهُم وتكرُّرِها لإشعارِهم، بِعَدَمِ حاجَتِهِ إلَى مالهم لِكَونِهِ مَمدودًا بِغِنى اللّه تعالى وعَطائِه، والمُرادُ أنَّهُ ﷺ: "لَمّا أظهَرَ لَهُمْ نوحٌ ﷺ أنَّهُ يُجْبِرُهُمْ على إيمانٍ يَكْرَهونَهُ؛ انْتَقَلَ إلى تَقْريبِهِمْ مِنَ النَّظَرِ في نَزاهَةِ ما جاءَهُمْ بِه، وأنَّهُ لا يُريدُ نَفْعًا دُنْيَوِيًّا بأنَّهُ لا يَسْأَلُهُمْ على ما جاءَ بِهِ ما لا يُعْطونَهُ إيّاهُ، فبماذا يَتَّهِمونَهُ حَتَّى يَقْطَعوا بكَذِبِه"[2].

مَعنَى حَرْفِ الجَرِّ (على) ودِلالَتُه:

نـفـاسـةُ دَعـوَةِ الرُّسُلِ الكِرامِ، وعـلـوُّ قـدرِ ما يدعون إليه

حَرْفُ الجَرِّ (على) يَأتي مُفيدًا لِلاسْتِعْلاءِ، ولَمّا كانَ ما جاءَ بِهِ نوحٌ ﷺ أمرًا عاليَ القدْرِ رَفيعَ الشَّأنِ، وهوَ دَعْوَتُهُ لَهُم بإفرادِ اللّه تعالى بالوَحدانيَّةِ والعُبوديَّةِ الخالِصَةِ المُطْلَقَةِ صارَ إبْلاغُه وإنذارُهُ مِن أعْلى ما يُلتَفتُ إلَيهِ إشعارًا بعُلو هذهِ الدَّعْوَةِ ورِفعَةِ قَدْرِها.

مَرْجِعُ الضَّميرِ في ﴿عَلَيۡهِ﴾، وعلاقَتُهُ بالمَعْنى:

عُـلـوُّ الـبَـلاغِ والإنْذارِ مِن اللهِ ورُسُلِهِ ﷺ

الضَّميرُ في قَولِه: ﴿عَلَيۡهِ﴾ إمّا " لِلتَّبْليغِ المَفْهومِ مِمّا تَقَدَّمَ، وقيلَ: الضَّميرُ لِلإنْذارِ، وإفرادِ اللّه سُبحانَهُ بالعِبادَةِ، وقيلَ: لِلدُّعاءِ إلى التَّوحيد، وقيلَ: غيرُ ذلِكَ، وكُلُّها أقوالٌ مُتَقارِبَةٌ"[3].

أو أنَّه: "عائِدٌ إلى المَذْكورِ بمَنْزِلَةِ اسْمِ الإشارَةِ في قَوْلِه: ومَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ؛ فإنَّ الضَّميرَ يُعامَلُ مُعامَلَةَ اسْمِ الإشارَةِ "[4]، وكلُّ وجهٍ ينتج معنى، وكلُّها تتعانق، والرَّسم واحد، وهو من الإيجاز البليغ.

---

(1) الصّاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 7/118.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/54.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/41.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/55.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ المَفْعولِ ﴿مَالًاۖ﴾ في السّياق:

جاءَ لَفظُ ﴿مَالًاۖ﴾ نكرةً "لِلتَّحقيرِ والتَّقليلِ مِن قيمَةِ هَذا المَطْلوبِ - إذا طُلِب - لأنَّ الأنْبياءَ الكِرامَ صَلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيهِم ما بُعِثوا أُجَراءَ لِأحدٍ؛ لأنَّ المُتكفِّلَ بأجرِهِم هو مَن أرْسَلَهُم ﷻ، ولا يَكونُ مِنْهُم أيُّ التِفاتٍ إلى تَفاهاتِ الدُّنيا وما حَوَتْهُ، وكُلُّ ما اسْتَقَرَّ في أيدي البَشَرِ بالنِّسْبَةِ لَهُم مِن مُحَقِّراتِ الأُمورِ، فأعيُنُهُم مَنْصوبَةٌ إلى ما عِنْدَ اللهِ تعالى مِن عَظيمِ الأجْرِ والنَّعيمِ.

حقارةُ المالِ في مُقابِلِ البلاغِ عن اللهِ ذي الجلالِ

بَلاغَةُ الاحْتِراسِ في قَولِهِ: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾:

أدَبُ النُّبوةِ أدَبٌ راقٍ، والبَلاغُ عِنْدَ اللهِ تعالى لا يَكونُ إلّا مِن أصْحابِ الهِمَّةِ العالِيَةِ، ولِمَ لا؟ وهُم مَنْ ربّاهُمُ اللهُ تعالى على عَيْنِهِ، واصْطَفاهُمْ لِحَمْلِ مَنْهَجِهِ ودَعْوَتِهِ إلى الخَلائِقِ، وسَيِّدُنا نوحٌ ﵇: "لَمّا نَفى أنْ يَسْأَلَهُمْ مالًا، والمالُ أجْرٌ، نَشَأَ تَوَهُّمُ أنَّهُ لا يَسْأَلُ جَزاءً على الدَّعْوَةِ، فجاءَ بجُمْلَةِ ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ احْتِراسًا"[1].

اللهُ وحدَهُ مَن يُعطي الأجورَ العظامَ لأنبيائِهِ الكِرامِ

الغَرَضُ مِن التَّعبيرِ بأسلوبِ القَصْرِ في السّياقِ:

في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ قَصَرَ سيِّدُنا نوحٌ أجْرَهُ على اللهِ تعالى قَصْرًا حَقيقيًّا، وهو هُنا يُفيدُ القَلْبَ؛ أي: قَلْبَ مُعْتَقَدِ هَؤلاءِ القَومِ - وبَيانَ أنَّ أجرَهُ لَيسَ على أحَدٍ مِنْهُم، إنَّما أجْرُهُ على اللهِ تعالى وحْدَهُ، قال الإمامُ البِقاعيُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى: "ولَمّا كانَ نَفْيُ ذَلِكَ عامًّا لِلفَضْلِ الدُّنْيَوي، وكانَ الاتِّصافُ بقِلَّةِ ما في اليَدِ إنَّما يَكونُ ضارًّا؛ إذا كانَ صاحِبُهُ يَسْأَلُ غَيْرَهُ؛ نَفى عنهُ هَذا اللازِمَ العائِبَ، فقالَ مُجيبًا عَن نَفْيِهِم الفضلَ عنهُ وعَن أتباعِهِ بأنَّهُ قَد يُريدُ مِنهُم على ذَلِكَ ثَوابًا دُنْيَوِيًّا.. ونَبَّهَ بهَذا على أنَّهُ لا غَرَضَ لَهُ مِن عَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ يُنَفِّرُ المَدعو عنه، فوَجَبَ تَصْديقُهُ، وفيهِ تَلْقينٌ لِلجَوابِ عَن قَولِ قُرَيْشٍ: لَولا أُلْقِيَ إلَيهِ كَنْزٌ"[2].

أجرُ المرسلين على التَّبليغ مضمونٌ بنصِّ الوعدِ البليغ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/55.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 9/274، 273.

نفيُ النّفع الدُّنيويِّ على التّبليغ ابتغاءً للأجر من الله وحده

نُكْتَةُ خِلافِ الظّاهِرِ بِالْمُغايَرةِ بَيْنَ ﴿مَالًاۖ﴾ و﴿أَجۡرِيَ﴾:

"والمُخالَفةُ بَيْنَ العِبارَتَيْنِ في قَوْلِه: ﴿مَالًاۖ﴾ و﴿أَجۡرِيَ﴾ تُفيدُ أنَّهُ لا يَسْأَلُ مِنَ اللهِ مالًا، ولكِنَّه يَسْألُ ثَوابًا، والأَجْرُ: العِوَضُ على عَمَلٍ، ويُسَمّى ثَوابُ اللهِ أجْرًا؛ لأنَّهُ جَزاءٌ على العَمَلِ الصّالِحِ"[1].

أو أن يكون التَّعبير بالأجر بعد التَّعبير بالمال؛ نفيًا لظنِّهم أن يكون عوضًا، والمعنى: "أي: على ما قُلْتُه في أثناءِ دَعوَتِكم ﴿مَالًاۖ﴾ تؤدّونَهُ إليَّ بعدَ إيمانِكُم واتِّباعِكُم لي، فيكونُ ذَلِكَ أجرًا لي في مُقابلةِ اهتدائِكُم ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ الَّذي يُثيبُني في الآخِرَةِ، وفي التَّعبيرِ عَنهُ حينَ نُسبَ إليهم بالمالِ ما لا يَخفَى مِن المَزِيَّة"[2]. ففي التَّعبير بالأجْرِ إحاطَةٌ بالعوض بكلِّ سبيل إمّا بالمالِ، وإمّا بالثَّوابِ والجَزاءِ، وفي المغايرة دلالة الارتِقاءِ بعلوِّ الهِمَّةِ ورُقيٍّ في النَّفْسِ.

الإيمان بالله سببٌ للقرب، والاعتقاد بأفضليَّة المال عليه سببٌ للبُعد

دِلالَةُ العَطفِ في عبارة: ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾:

طَلَبَ قَومُ نوحٍ مِنهُ أنْ يُقصيَ، ويُنَحِّيَ عَنهُ المؤمنينَ برِسالَتِه إزراءً لَهُم وتَقْبيحًا لِشَأنِهم لِضَآلةِ منزلتِهم - مِن وُجهةِ نَظرِهِم السيئةِ - وكَما قيلَ: "وَلَكِنَّ عَينَ السُّخطِ تُبدي المَساوِيا"، فجاءَ قولُه عليه السلام نافيًا هذا الطَّلَبَ وعاطِفًا إيّاهُ على قَولِهِ السابق: ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾، فعطَفَ جُملَةَ ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ على جملَةِ ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾؛ لِأَنَّ مَضمونَها كالنَّتيجَةِ لِمَضمونِ المَعْطوفِ عَلَيْها؛ لِأَنَّ نَفْيَ طَمَعِهِ في المُخاطَبينَ يَقْتَضي أنَّهُ لا يُؤْذي أتْباعَهُ لِأجْلِ إرْضاءِ هَؤُلاءِ"[3]. "ولَمّا كانَ التَّعبيرُ بِرَذالَةِ المُتَّبِعِ مِمّا يُنَفِّرُ أهلَ الدُّنيا عَن ذَلِكَ التّابِعِ؛ بَيَّنَ لَهُم أنَّ شَأنَهُ غيرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/55.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 12/55.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/55.

شَأنِهم، وأنَّه رَقيقٌ على مَن آمنَ بِه رَفيقٌ به، رَحيمٌ لهُ، وإنْ كانَ متأخِّرًا في الدُّنيا مَحرومًا مِنها خوفًا مِن اللهِ الَّذي اتَّبَعوه فيه، فقالَ: ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾، وأغرَقَ في النَّفي بقولِه: ﴿بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾، أي: أقَرّوا بألسنَتِهم بالإيمانِ"(1).

لطيفةُ ارتباط نفي الطَّرد بجملة: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾:

تَعانُقُ الجُمَلِ مَعَ بعْضِها، يَجعَلُ لِلكَلامِ مَزيَّةَ التَّعالُقِ والتَّواصل

في قَوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ قيلَ: هوَ جَوابٌ عَمّا لوَّحوا بهِ بقولِهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27]، من أنَّهُ لَو اتَّبَعَهُ الأشرافُ؛ لَوافقوهُمْ، وأنَّ اتِّباعَ الفُقَراءِ مانِعٌ لهَمُ عن ذَلكَ، كَما صَرَّحوا بهِ في قَولِهِم: ﴿۞قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء: 111]، فكانَ ذَلكَ التِماسًا مِنهُم لِطَردِهِم، وتَعليقًا لإيمانِهم به ﷺ بذَلكَ؛ أنَفةً مِن الانتظامِ مَعهم في سلكٍ واحدٍ"(2).

سِرُّ التَّعبيرِ بالجُملَةِ الاسْميَّةِ في السّياق:

الثَّباتُ على المَبْدَأ شِعارُ المُخْلِصينَ الرَّبانيين

نجد في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ أنَّ التعبيرَ بالجُملَةِ الاسْميَّةِ يفيد الدَّلالة على الثُّبوتِ والدَّوام والاسْتِمرارِ على مَبْدَأِ الحقِّ، والتِزامِ الرَّأفةِ والرَّحمَةِ بقَومِه، فهوَ لا يَتَغيَّرُ، ولا يَتَحَوَّلُ عَن هذه المَبادِئِ - وهَذا شَأنُ الأنبياءِ جَميعًا - فهُم مَفْطورونَ على الرَّأفةِ والرَّحمَةِ واللّينِ ومَكارِمِ الأخلاقِ(3).

بَلاغَةُ التَّعبيرِ بالمسنَدِ إلَيهِ ضَميرِ التَّكَلُّم ﴿أَنَا۠﴾:

حِفْظُ كرامةِ الفُقراءِ، واستيفاءُ حقوقِهِم، دأبُ الأنبياءِ وديدنُهم

عَرَّضَ قَومُ نوحٍ بِجبروتِهم وكِبَرِ نُفوسِهم ألّا يُؤمِنوا بنوحٍ ودَعْوَتِه إلّا إذا أبْعَدَ هَؤلاءِ الأراذِلَ، "وهُم سفلةُ النّاسِ، وإنَّما وصَفوهُم بذَلكَ لِفقْرِهِم، جَهلًا مِنْهُم واعْتِقادًا أنَّ الشَّرَفَ هوَ بالمالِ والجاهِ، ولَيْسَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/274.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/41، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/202.

(3) قال الشَّيخ عبد القاهر: "الفرقُ بينَ الخبَرِ إذا كانَ بالاسمِ، وإذا كانَ بالفِعلِ: أنَّ موضوعَ الاسمِ على أنْ يُثبتَ بِهِ المَعنَى للشَّيءِ مِن غيرِ أن يَقتَضي تَجَدُّدَهُ شَيئًا بَعدَ شَيءٍ، وأمّا الفِعلُ، فمَوضوعُهُ على أنَّه يَقتَضي تَجَدُّدَ المَعنَى المثبتِ بِهِ شَيئًا بَعدَ شَيءٍ"، يُنظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 174.

الأمْرُ كما اعْتقَدوا، بلِ المُؤمنونُ كانوا أشْرَف مِنْهُم على حالِ فقْرِهِم وخُمولِهِم في الدُّنيا"[1].

ومِن هُنا أسْنَدَ ﷺ نَفْيَ طَرْدِهِم إلَى نَفْسِهِ بضَميرِ المُتَكَلِّمِ مُبالَغَةً في نَفْيِ أنْ يَقعَ مِنْهُ ما أرادَهُ هَؤلاءِ، والتَّعْبيرُ بإضافةِ النَّفْيِ إلى المُتَكَلِّمِ نَفْسِهِ أقوى في أداءِ المُرادِ مِن أنْ لو عَبَّرَ بقَولِهِ: "لَنْ أطرُدَهُم"؛ ليَكونَ الرَّدُّ أقوَى وأبْلَغَ على غُرورِ أنْفُسِهِم وصَلَفِ عِنادِهِم.

مَعنَى الباء ودلالَتُها في قَولِهِ: ﴿بِطَارِدِ﴾:

المُـؤمِـنـونَ المُسْتَضعَفونَ، مـوصـولـون بـأنـبـيـائـهـم ملاصِقونَ لهم باطِّراد

الباءُ في قَولِهِ: ﴿بِطَارِدِ﴾ حَرفُ جَرٍّ زائدٌ جاءَ تَأكيدًا مِنْهُ ﷺ نَفيَ طَرْدِ هَؤلاءِ الأتْباعِ عَن مَجْلِسِهِ أو التَّعامُلِ مَعَهُم لِكَونِهِم هُمُ المُصَدِّقينَ لَهُ ﷺ وقَد قالوا ذَلِكَ؛ "التِماسًا مِنْهُم لطرِدِهِم، وتَعْليقًا لإيمانِهِم بِهِ ﷺ أنَفَةً مِن الانْتِظامِ مَعَهُم في سِلْكٍ واحِدٍ، فأدَّتِ الباءُ هُنا دَوْرًا بارِزًا تَأكيدًا لِعَدَمِ وُقوعِ الطَّرْدِ لَهُم مِنْهُ ﷺ[2]. "وقرِئَ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، بالتنوينِ على الأصلِ"[3]. ممّا يدلُّ على أنَّ زيادةَ الباءِ هُنا لتوكيدِ المعنى، فهو حرفٌ يُتوصَّل به لزيادةِ التوكيد.

سِرُّ إضافةِ خَبَرِ (ما) لِلاسْمِ المَوصولِ:

الـحُـكـمُ يَـكـونُ بالظَّواهِرِ المعلنة الـدّالَّـةِ على صِدقِ الإيمانِ ورسوخه

أُضيف خبرُ ما الحِجازيَّةِ هُنا، إلى الاسمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، لِكَونِهِم المَخصوصينَ بالطَّردِ والإبعادِ، والتَّنبيهِ على خَطَأِ هَؤلاءِ القَومِ في طَلَبِهِم هَذا، مَعَ وصْفِ هَؤلاءِ المُرادِ إبعادُهُم، بكَونِهِم آمَنوا بنَبيِ اللهِ نوحٍ ﷺ وناصَروهُ، ولِأنَّ مَصيرَهُمْ إلَى اللهِ تعالَى؛

(1) ابن جُزَيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/368.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/202.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/266. وفي معنى قول الزمخشري: "التنوين على الأصل"، قال السمين: "يعني: أن أصل اسم الفاعل بمعنى الحال والاستقبال العملُ، وهو ظاهرُ قولِ سيبويه. قال أبو حيّان: ويمكن أن يُقال: الأصلُ الإضافةُ لا العملُ، لأنه قد اعتوره شَبَهان، أحدهما: لشَبَهِه بالمضارع وهو شَبَهٌ بغير جنسه، والآخر: شَبَهُه بالأسماء، إذا كانت فيه الإضافة، فكان إلحاقُه بجنسه أَوْلى"، يُنظر: السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/317.

فيُحاسِبُهُم على سِرِّهم وعَلَنِهِم، أمّا أنا، فأكتَفي مِنْهُم بظَواهِرِهِم الَّتي تَدُلُّ على صِدقِ إيمانِهِم وشِدَّةِ إخلاصِهِم.

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسْمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

شَـرَفُ التَّعبيرِ بوَصفِ الإيمانِ تـنـويـهٌ بـما يقتضيه من علوِّ الشَّأنِ

عَبَّرَ سَيدُنا نوحٌ عليه السلام "عن أتْباعِهِ بطَريقِ المَوْصوليَّةِ بقَوْلِه: الَّذينَ آمَنوا لِما يُؤْذِنُ بِهِ المَوْصول من تَغْليظ قَوْمِهِ في تَعْريضِهِمْ لَهُ بأنْ يَطْرُدَهُمْ بما أنَّهُمْ لا يُجالِسونَ أمْثالَهُمْ؛ إيذانًا بأنَّ إيمانَهُمْ يوجِبُ تَفْضيلَهُمْ على غَيْرِهِمُ الَّذينَ لَمْ يُؤْمِنوا بِهِ، والرَّغْبَةَ فيهِمْ، فكَيْفَ يَطْرُدُهُمْ؟ وهَذا إبْطالٌ لِما اقْتَضاهُ قولهِمْ: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27] مِنَ التَّعْريضِ بأنَّهُمْ لا يُماثِلونَهُمْ في مُتابَعَتِهِ، والطَّرْدُ: الأمْرُ بالبُعْدِ عن مَكانِ الحُضورِ تَحْقيرًا أو زَجْرًا"[1].

مَوقِعُ جُملَةِ ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ مِمّا قبلَها ودِلالَتُها:

أهـلُ الإيـمـانِ لا يُـضـامـونَ عِـنـدَ مُلاقاةِ رَبِّهِم، بل في ملاقاتهم لهُ سموٌّ ومقام

هذه الجملة ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ مفصولة عمّا قبلها، لما بينهما من (كمال الاتصال)، فقد جيء بها على سبيل الاستئناف؛ "تَعْليلًا لامْتِناعِهِ عليه السلام عن طَردِهِمْ، أي: إنَّهُم فائِزونَ في الآخِرَةِ بلِقاءِ رَبِّهِم، موقِنونَ بِهِ، عالِمونَ أنَّهُم مُلاقوهُ لا مَحالَةَ، فأطْرُدُهُمْ؟ أو أنَّهُم مُلاقوا رَبِّهِم، فيُخاصِمونَ طارِدَهُمْ عِندَهُ، فيُعاقِبُهُ على ما فعَلَ، وقيلَ: المعنى: إنَّهُم يُلاقونَهُ تعالى، فيُجازيهِم على ما في قُلوبِهِم مِن إيمانٍ ثابِتٍ، كَما ظَهَرَ لي أو على خِلافِ ذَلِكَ مِمّا تَعرِفونَهُم بِهِ مِن بِناءِ أمرِهِم على بادِئِ الرَّأيِ مِن غَيرِ تَعَمُّقٍ في الفِكْرِ، وما عَلَيَّ أنْ أشُقَّ عن قُلوبِهِم، وأتَعرَّف سِرَّ ذَلِكَ مِنهُم حَتَّى أطرُدَهُم، إنْ كانَ الأمرُ كَما تَزعُمونَ[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/55.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/41، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/202، والزّمخشريّ، الكشاف: 2/266.

تَذْكيرٌ بالعَودَةِ إلَى اللهِ القدير، ولِـقـاءِ فضله المغدق الأثير

دلالَةُ التَّعبيرِ بالجُملَةِ الاسْميَّةِ المُؤَكِّدَةِ في السّياق:

جاءَتْ جُملَةُ ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ مُؤَكِّدَةً؛ لِأَنَّ الملَأ الَّذين كَفروا مِن قَومِهِ كانوا يُنْكِرونَ البَعثَ والحِسابَ، فخاطبهم القرآنُ الكريم خطابَ المتردِّد بالتأكيد بإنَّ واسمية الجملة تعريضًا بشكِّهم في يوم البعث وإنكارهم له، ففي التَّأكيد "تَنْبيهٌ على العَودَةِ إلى اللّه ولِقاءِ جَزائِهِ، فيوصلُهُم إلَى حَقِّهِم عِندي إنْ ظَلَمتُهُم بالطَّرد"[1].

وهذا التَّوجيه مبنيٌّ على كون المراد بلقائهم ربَّهم حَقيقَتَهُ، أي: يوم القيامة، فيكون واردًا "لِرَدِّ إنْكارِ قَوْمِهِ البَعْثَ، وإنْ كانَ اللِّقاءُ مَجازًا؛ فالتَّأْكيدُ لِلاهْتِمامِ بذَلِكَ اللِّقاءِ"[2].

لِقاءُ اللهِ تعالى مـانعٌ مـن ظلم الـنّـاس؛ لما فيه من رهبةِ الملاقاة

سرُّ الحملِ على الحقيقة أو المجاز:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ من حيث الحمل على الحقيقة أو المجاز قولان:

الأول - الحمل على الحقيقة: وعليه، تكون " جُملَةُ ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ في مَوْضِعِ التَّعْليلِ لِنَفيِ الطَّرد"[3].

الثاني - الحمل على المجاز: وعليه، فإنه يحتمل أن يكون المراد بلقاء اللّه تعالى، أي: في الصلاة، أو حين حضورهم مجلسَهُ عليه السلام على معنى:

"أنّهُم يدعون ربّهُم في صلاتِهِم، فينتصِرُ اللّه لهُم... أو أنّهُم مُلاقو ربِّهِم حين يحضُرون مجلِس دعوتي؛ لِأنّي أدعو إلى اللّه لا إلى شيء يخُصُّني، فهُم عِند مُلاقاتي، كمن يُلاقون ربّهُم؛ لِأنّهُم يتلقّون ما أوحى اللّه إليّ[4].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/165.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/56، 55.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/55.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/55.

سِرُّ الإضافة في لفظ ﴿رَبِّهِمْ﴾:

الإضافـةُ إلَى المَلِكِ العَلّامِ شَرَفٌ لِكُلِّ الأنامِ

جاء التّعبير المُفصِحُ عَن حِوار نوحٍ عليه السلام مع قومه في قوله: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ بإضافة الضّمير العائد إلى الثلّة المؤمنة التي آمنت به إلَى اسم الربِّ إضافةَ تَشْريفٍ وتعظيم لِعُمق يقينهم وإيمانهم به سبحانه، والمُرادُ: أنَّهُم أيْقَنوا، وأذْعَنوا بإيمانٍ ويَقينٍ لله تعالى، فهو مَنْ أوْجَدَهُمْ، ورَبّاهُمْ، وتَكَفَّلَ بهِم، وهو المُحْسِنُ إليهم بَعْدَ إيْجادِهِم، ورَبّاهُمْ على عَينِ بَصيرَتِهِ ونورِ هِدايَتِه، وتَكَفَّلَ لَهُم بالثَّوابِ والعَطايا.

مَعنى الواوِ ودلالتُها في لفظ ﴿وَلَٰكِنِّيٓ﴾:

يُحجبُ المُتَكَبِّرون - بجهلهم - عَن الخَيرِ، لما في الجهالة من الضّير

الواوُ هُنا إمّا أنْ تكونَ حاليةً حِكايَةً لِحالِ رؤيته هَؤلاءِ القومَ في نَظرَتِهِم القاصِرَةِ إلَى المُؤمنينَ الموحِّدينَ، وأنَّهُم مِن الزرايَةِ بمَكانٍ، لا يَستَحِقونَ مُعامَلَةً أو مُجامَلَةً، وإمّا عاطِفةً لِجُملَة ﴿أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ وصْفًا لَهُم بجهالَةِ هَؤلاءِ المُتَكبِّرينَ وعِنادِهِمْ، فجاءتِ الجُملَةُ معطوفةً على ما سَبَقَ رَدًّا على شُبُهاتِهِم المَزعومَةِ بسَفاهَةِ هَؤلاءِ المُؤمنينَ وتَحْقيرِ شَأنِهِم.

دِلالَة التَّعبير بالاسْتدراكِ في لفظ ﴿وَلَٰكِنِّيٓ﴾:

جَهْلُ القيمِ الَّتي يُقَدَّرُ بها النّاسُ عِندَ اللهِ مِن أسوَءِ الجَهْلِ وأقساه

جاءَ قَولُهُ: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ﴾ اسْتِدْراكًا مُؤَكِّدًا لِمَضمونِ ما قَبْلَه، أي: لَنْ أطْرُدَهم؛ لأنَّ ذلِكَ لَيْسَ مِنْ حَقّي بَعْدَ أنْ آمَنوا، وبَعْدَ أنْ تَكَفَّلَ اللّه بمُحاسَبَتِهِم، ولَكِنّي مَعَ هَذا البَيانِ المَنْطقي الواضِح، أراكُم قَوْمًا تَجْهَلونَ القِيَمَ الحقيقيةَ الَّتي يُقَدَّرُ بها النّاسُ عِندَ اللّه[1]. "فمَوْقِعُ الاسْتِدْراكِ هوَ أنَّ مَضمونَ الجُمْلَةِ ضِدُّ مَضْمونِ الَّتي قَبْلَها، وهيَ جملَة ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾، أيْ: لا رَيْبَ في ذَلِكَ، و﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾، فتَحْسَبونَهُمْ لا حَضرَةَ لَهُمْ، وأنْ لا تَبِعَةَ في طَرْدِهِمْ"[2].

---

(1) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 7/195.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/56.

جَـهـلٌ مُـحْـكَـمٌ مُتَجَدِّدٌ تنبئُ به العبارة في هذه الآية

دَلالَةُ التَّعبِير بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿أَرَىٰكُمْ﴾ في السّياق:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ عَبَّرَ سيدُنا نوحٌ عليه السلام هُنا بقولِ: ﴿أَرَىٰكُمْ﴾ فِعلًا مُضارِعًا دالًّا على تَجَدُّدِ الرُّؤيَةِ لِحالَةِ الجَهلِ الَّتي هُمْ عَلَيها واستمرارها، كَما عبَّروا هُمْ سابِقًا في قَولِهِم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ﴾ بالفِعلِ المُضارِعِ الدّالِّ على تَجَدُّدِ استهزائِهِم وسُخْرِيَّتِهِم مِنهُ عليه السلام فهوَ لَمْ يَصِلْ إلَى دَرَجَةٍ أعلَى مِن دَرَجَتِهِم البَشَرِيَّة، وهَذا مِن بابِ (مُراعاةِ النَّظيرِ) بِرَدِّ الألفاظِ ومَعانيها إلَى وادٍ واحِدٍ، وهوَ وادي الرُّؤيَةِ، فجاءَ التَّعبيرُ بها هُنا موافِقًا لِتعبيرِهِم جَوابًا بجَوابٍ ورَدًّا بِرَدٍّ.

زيـادَةُ تَجهيلِ فِـكْـرِهِـم ونَهْجِهم، وكأنَّه سجيَّة فيهم

سِرُّ التَّعبير بـ لفظ ﴿قَوۡمًا﴾، بَعدَ ضَمير الخِطابِ ﴿أَرَىٰكُمْ﴾:

أقحم عليه السلام لَفظَ ﴿قَوۡمًا﴾ مَعَ أنَّهُ يَجوزُ حَذْفُها زيادَةً في الإهانَة، ومُبالَغَةً في تَجهيلِ أمرِهِم، وبيانًا لكون الجهل فيهم، كأنَّه طبعٌ وسجيَّةٌ، فأراد عليه السلام بالنصِّ عليه بيانَ أنَّهم مطبوعون على هذا الجهل وتلك السفاهة، وبَيانَ أنَّهُم هُم المَخصوصونَ بهَذا الوَصفِ، المقصودون به دون غيرهم، وأنَّه الأليَقُ بهم، ولَو لم يُذكر لَرُبَّما انْتَفى عَنهُم هَذا.

الشَّرَفُ الحَقيقيُّ قَرِينُ الإيمانِ، والجهل قرين الكفران

سِرُّ التَّعبير بالفِعلِ المُضارعِ ﴿تَجۡهَلُونَ﴾:

جاءَ الفِعلُ ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ مُضارِعًا لِلدِّلالَةِ على التَّجَدُّدِ والاسْتِمرارِ، والمَعنَى: تَتَسافهونَ على المُؤمِنينَ بِنِسْبَتِهِم إلَى الخَساسَةِ، وتَتَطاوَلونَ عَلَيهِم تَطاوُلًا يَدُلُّ على طُغْيانِكُمْ وسَفاهَتِكُمْ، وتَدْعونَهُمْ أراذِلَ النّاسِ زَعمًا مِنكُم أنَّ الرَّذالَةَ بالفقرِ، وأنَّ الشَّرَفَ بالغِنَى، وهَذا يَدُلُّ على أنَّ جَهْلَهُمْ مُتَجَدِّدٌ مَعَهُمْ ما تَجَدَّدَتْ حَياتُهُمْ.

شِـدَّةُ الجَـهْلِ، مَجْلَبَةٌ لِظُلُماتِ الكُفرِ

نُكْتَةُ حَذْفِ المَفعولِ للفعل ﴿تَجۡهَلُونَ﴾:

حَذفُ مَفْعولِ ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ لِلعِلْمِ بِهِ، ولِلإشارَةِ إلَى شِدَّةِ جَهْلِهِم، أي: تَجْهَلونَ كُلَّ ما يَنبغي ألّا يَجْهَلَهُ عاقِلٌ"[1]، فالمراد توفير العناية

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/194.

على الفعل، والمراد من الحذف التعميم، والمعنى: ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ بكُلِّ ما يَنبَغي أنْ يُعلَمَ، ويَدخُلُ فيهِ جَهْلُهُم بلِقاءِ اللّه ﷻ وبِمَنْزِلَتِهِم عِنْدَهُ وبِاستيجابِ طَرْدِهِمْ، لِغَضَبِ اللّه – عليهم – وبِرَكاكَةِ رَأْيِهِم في التِماسِ ذَلِكَ، وتَوقيفِ إيْمانهم عَلَيه أنَفةً عَن الانْتِظامِ مَعَهُم في سِلْكٍ واحِدٍ"[1].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/202، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/42.

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾

[هود: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

على شاكلة ما سبق، رَدُّ شُبهَةٍ أُخرَى من شُبُهاتِ صَلَفِهم في أمرِه بطَردِ المُؤمنينَ به

جاءَ قولُهُ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ رَدًّا آخَرَ على عِنادِهِم وعُتوِّهِم، ففي الآيةِ السّابِقَةِ بَيَّنَ لَهُم عَدَمَ حاجَتِهِ إلى ما لَدَيهِم مِن مالٍ أو عَطاءٍ على دَعوَتِهِ لَهُم وإنْذارِهِ إيّاهُم؛ لأنَّ ثَوابَهُ وجَزاءَهُ مِن اللّه تعالى، وردَّ على دعوتهم إيّاه طرْدَ الَّذين آمنوا من مجلسه، لكونهم فقراء لا يدانون مكانتهم؛ إذ هم أغنياء ومن عِلية القوم، فأبى أن يجيبهم إلى طلبهم ونفاه نفيًا مؤكَّدًا، ووصفهم بالجهل المركَّب في طبعهم، بعد ذلك بيَّن لهم سبب رفضه هذا، لعلَّهم إن علموه؛ أفاقهم من غيِّهم، وهذا السبب هو خَوْفُهُ مِن عقابِ اللّه تعالى؛ إذا طَرَدَ عباده المؤمنين من مجلسه، أو أساءَ إلَيهِم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنصُرُنِي﴾: قال الرّاغِبُ: "النَّصْرُ والنُّصْرَةُ: العَوْنُ، ونُصْرَةُ اللّه لِلعَبدِ ظاهِرَةٌ، ونُصْرَةُ العَبدِ للّه هوَ نُصرَتُه لِعِبادِهِ، والقيامُ بحفظِ حُدودِهِ، ورِعايَةُ عُهودِهِ، واعتِناقُ أحكامِهِ، واجتِنابُ نَهيِهِ"[1].

والمراد هنا: يَحميني، ويُجيرُني من عَذابِ اللّه.

2) ﴿طَرَدتُّهُمۡۚ﴾: الطَّردُ الإبعادُ والمَنْعُ، جاءَ في المُفرَداتِ: "الطَّرْدُ: هوَ الإزعاجُ والإبعادُ على سَبيلِ الاسْتِخْفافِ، يُقالُ: طَرَدْتُهُ، ويقال: أطْرَدَهُ السّلطانُ، وطَرَدَهُ؛ إذا أخرجَهُ عَن بَلَدِهِ، وأمرَ أنْ يَطْرُدَ من مَكانِ حِلِّهِ"[2]. والمراد: إن أبعدتهم عن مجلسي.

(1) الرّاغب، المفردات: (نصر).

(2) الرّاغب، المفردات: (طرد).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يُبيِّنُ نبيُّ اللّه نوحٌ عليه السلام في هذا القولِ بعد نِدائِه على قومِه، فيُضيفُهُم إلى نفسِهِ أن لا أحد يستطيعُ منع عِقابِ اللّه عنهُ إن طرد هؤلاءِ المُؤمنين بِهِ، وكيف تُصِرّونُ على جهالتِكم بعدما بيّنتُ لكُم، ولا تتذكّرون أنّ لِهؤلاءِ المؤمنين ربًّا ينصُرُهُم، وينتقِمُ لهُم، وهُم أكرمُ عِندهُ سبحانه وتعالى منكُم، فكيف إذًا يحِقُّ لي أن أطردهُم؟ أفلا تتذكّرون، وتتّعِظون؟ فإنّهُم يُفوّضون أمرهُم إلى من لهُ العظمةُ، ولو لم يشكني إليهِ لاطِّلاعِهِ على ما دقّ وعظُم.

المُؤمِنُ الحَقُّ، يَخافُ عِقابَ اللهِ، إنْ تَجاوَزَ في حَقِّ العِبادِ أو ظلمهم

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ العَطفِ في قَولِه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾:

وجَّهَ نوحٌ عليه السلام نِداءً ثالثًا لِقومِه لَعَلَّهُم يَفيئونَ إلى رُشْدِهِمْ رَدًّا على قَولِهِم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27] فعَطَفَ جُملَةَ ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ على ما سَبَقَ في قَولِه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾، وهَذا مِن بابِ عَطفِ الجُمَلِ.

وفيهِ بَيانٌ لِعُقوبَةِ طَرْدِهِ هَؤلاءِ المُؤمنينَ التي يستحقها لو أنّه أطاعهم، وفعل هذا، وإتمامٌ للفائِدَةِ حيْنَ وصَفهُمْ بالجَهْلِ، حيث أقرَّ لهم أنْ لا ناصِرَ لَهُ مِن اللهِ إذا فعَلَ فِعْلَتَهُ تلكَ، وهيَ طَرْدُ هَؤلاءِ المُؤمنينَ الفُقَراءِ مِن مَجلِسِه، فمَنْ ذا يَحميه، ويُجيرُه مِن عَذابِ اللهِ تعالى؟

طَرْدُ المُؤمِنينَ الفُقَراءِ من مجالس الأنبياء، غير مقبول، وقد بعثهم الله رحمة لا نقمة

سِرُّ تَكرارِ المُنادَى (قَوْمِ):

جاءَ النِّداءُ بلَفْظِ (قَوْمِ) تَلَطُّفًا بهِم، وحُنوًّا عَلَيهِم؛ لِأَنَّهُ - كَما ذَكَرنا - أنَّ قَومَ الرَّجُلِ هُمْ أقْرَبُ النّاسِ إلَيه، وهُم الَّذينَ يعْنيهِ أمرُهُمْ مَعَ رَجاءِ الخَيْرِ والنَّفعِ لَهُم، فـ" قَولُهُ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ هَذا خِطابٌ في غايَةِ التَّلَطُّفِ بهِم"(1).

تلطُّفٌ زائدٌ مِنْهُ عليه السلام لبيان رحمة الله المودعة في قلبه

(1) الصّاوي، حاشية على تفسير الجلالين: 7/118.

سِرُّ إضافةِ المُنادَى إلى ياءِ المُتَكَلِّمِ:

جاءَ لَفظُ (قَوم) المكرَّرُ هُنا في القِصَّةِ مَنسوبًا ومُضافًا إليهِ ﷺ مُرادًا بِهِ التخصيصُ، فهُمْ قَومُهُ الأقرَبونَ، والَّذينَ أُرسِلَ إليهِم خاصَّةً، فهُم أَولَى النّاسِ باتِّباعِهِ، وإنَّما أضافَهُم إليهِ مِن بابِ اسْتمالَةِ قُلوبِهِم شفقةً عَلَيهِم وبِرًّا بعَهْدِ القُربِ والصِّلَةِ الَّتي تَربِطُهُ بِهِم، فعَلَيهِم أنْ ينزَجِروا، ويَكُفّوا عَمّا هُمْ فيهِ.

استِمالَةٌ كُلُّها رَحْمَةٌ وشَفقَةٌ، تـعـبِّر عن خفض الجناح للمؤمنين

الغَرضُ مِن الاسْتِفهامِ في سياقِ الآيَةِ:

في قولِه: ﴿مَن يَنصُرُنِي﴾ استفهامٌ إنْكاريٌّ متضمِّن معنى النَّفي، أي: لا أحد ينصرني من ذلك، "والنَّصْرُ: إعانَةُ المُقاوِمِ لِضِدٍّ أو عَدوٍّ، وضُمِّنَ مَعْنى الإنْجاءِ، فعُدّيَ بـ (مِنْ)، أيْ: مَنْ يُخَلِّصُني؟ أيْ: يُنْجيني مِنَ اللّه، أيْ: مِنْ عِقابِهِ؛ لِأنَّ طَرْدَهُمْ إهانَةٌ تُؤْذيهِمْ بلا موجِبٍ مُعْتَبَرٍ عِنْدَ اللّه، واللّه لا يُحِبُّ إهانَةَ أوْليائِهِ"[1].

اللّـهُ تـعـالـى لا يُـحِـبُّ إهـانَـةَ أوْلـيـائِـهِ، بل إنّـهـم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون

أو أن يكون الاستفهامُ "بمعنَى التَّقريرِ والتَّوقيفِ، أي: لا ناصِرَ يَدفعُ عَنّي عِقابَ اللّه إنْ ظَلَمتُهُم بالطَّرد عَن الخَيرِ الَّذي قَبلوه، ثُمَّ وقفَهُم بقَولِهِ: أفلا تَذَكَّرونَ؟ وعَرَضَ عليهم النَّظَرَ المُؤدّي إلَى صِحَّةِ هَذا الاحتِجاجِ"[2].

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿يَنصُرُنِي﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارِعِ في قَولِهِ: ﴿مَن يَنصُرُنِي﴾ دلالةً على نفي أن يستطيع أحد أن ينصره من اللّه تعالى نصرًا متواصلًا متجدِّدًا؛ لأنَّ النُّصرَةَ والمَنَعَةَ لا تكون إلّا من اللّه تعالى وكذا الحِمايَةَ لا تكون إلّا منهُ سبحانه وتعالى أمّا أنتم؛ فلا تستطيعون أن تجيروني من عذاب اللّه إن أراد معاقبتي على طردي المؤمنين، فإذا التَزَمَ العبدُ حُدودَ ربِّه فاللّه وحده هو ناصره، أمّا إذا خالَفها، وتَعَدّاها؛ فلا حاميَ لَهُ

تَـجَـدُّد الاتِّـبـاعِ يَـجـلِـبُ تَـجُـدُّدَ النَّصرِ، وبِتَجدُّدِ المُخالَفةِ يَتَجَدَّدُ العِقابُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/56.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/165.

ولا مُناصِرَ، فمَعَ تَجَدُّدِ الاتِّباعِ يَقَعُ النَّصرُ، وتوجَدُ الحِمايَةُ، ومَعَ تَجَدُّدِ المُخالَفةِ يَتَجَدَّدُ العِقابُ، ولا مُدافعَةَ مَعَهُ حينَئذٍ.

مَعْنَى حَرفِ الجَرِّ (مِن) ودلالَتُهُ في قَولِهِ: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾:

عصيانُ أوامِرِ اللهِ تعالى، جالِبٌ لِعِقابِهِ لا محالة

جاءَ التَّعبيرُ بقَولِهِ: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، و﴿مِنَ﴾ هُنا حَرفُ جَرٍّ داخلٌ على مَحْذوفٍ، أي: مِنْ عِقابِ اللهِ وعَذابِهِ، لِبَيانِ كَونِ مَصدَرِ هَذا العَذابِ هوَ عِصيانُ أوامِرِ اللهِ تعالى لِأنَّهُ هوَ الَّذي يَملِكُ، ويَقْدِرُ على العِقابِ وغَيرِهِ، والتَّعبيرُ بهَذا الأُسلوبِ فيهِ مَزيدُ زَجرٍ وتَخويفٍ لِلمُتَعرِّضِ لِهَذا العِصيانِ، فمَن ذا يُجيرُ مِن عِقابِ اللهِ إنْ نَزَلَ؟ وميزانُهُ تعالى في تَقويمِ النّاسِ لَيسَ كميزانِ البَشَرِ، وأُسنِدَ النَّصرُ والمَنَعَةُ إلَيهِ سبحانه تَهويلًا لِلأمرِ الَّذي طَلَبوهُ، وهوَ طَرْدُ هَؤلاءِ المُؤمنينَ.

دَلالَةُ التَّعبيرِ باسْمِ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

تضمُّن العبارة الزَّجرَ والتَّخويف لِأهلِ الجَورِ والحيف

أكَّد نوحٌ عليه السلام كَلامَهُ بأنَّه لا يستطيع أحد نُصرَتَهُ من اللهِ تعالى لو طرد عباده، وأوثر التعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه إذا أُطلِقَ اسْمُ الجلالةِ (الله)؛ كانَ لِتَربيةِ المَهابَةِ في النُّفوسِ، وليَكونَ ذَلِكَ التصريح باسمه الجليل زَجرًا وتَخويفًا لكونِهِ صاحِبَ القوة والقُدرة، بعَكسِ التَّعبيرِ باسْمِ (الرَّبِ) الَّذي يَأتي في سياقِ الرَّحمَةِ والتَّذكيرِ بالنِّعَمِ.

الغَرَضُ مِن التَّعبيرِ بأُسلوبِ الشَّرطِ في الآيَةِ:

بيانُ أنَّ الفُقَراءَ المُؤمِنينَ في مُجاوَرَةٍ دائمَةٍ لِأنبيائِهِم المرسلين

ورَدَ التعبيرُ هُنا بقَولِهِ: ﴿إِن طَرَدتُّهُمۡ﴾ الدّالِّ على الشَّرطِ غَيرِ المَقطوعِ بوقوعِهِ؛ لأنَّه عليه السلام لم يكن ليفعل هذا، فلذا ساق جملة الشرط بحرف التقليل ﴿إِن﴾ دون (إذا).

ويمكن حمل الشَّكِّ الذي تفيده (إنْ) محملًا آخر كَأنَّه عليه السلام صارَ شاكًّا فيما يطلُبونه مِنهُ، أي: لِماذا هَذا الأمرُ خاصَّةً، وهوَ إبعاد المُؤمنينَ الفقراءِ مِن مجلسه، وإصرارُهم على أنَّ إيمانَهم لَن يَتَحقَّقَ إلّا بتَنفيذِ هَذا الشَّرطِ؟ كَما أنَّ التَّعبيرَ بـ ﴿إِن﴾ يُفيدُ أنَّه عليه السلام

لَن يُقْدِمَ على هَذا الأمرِ أبدًا، كما مضى ذكره، ففيه تَيْئيسٌ لَهُم وصَرفٌ لَهُم أنْ يَتَعَلَّلوا بأمرٍ غيرِ هَذا.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بفعِلِ الشَّرطِ ماضيًا ﴿طَرَدتُّهُمْۚ﴾:

مُـجـاراةٌ مَـحْـمـودَةٌ، تَـسْـتَـدعـي التَّعَقُّلَ والرُّجوعَ إلى سبيلِ الرُّسلِ المعهودة

جاءَ التَّعبيرُ بالفِعلِ الماضي في ﴿طَرَدتُّهُمْۚ﴾ الدالِّ على تَحَقُّقِ الوقوعِ مِن طَرَفِهِ ﷺ من بابِ المُجاراةِ لِطَلَبِهم، والمُرادُ: أتَظُنونَ أنْ يَقَعَ مِنِّي طَردٌ؟ ولو وقَعَ؛ فهَل أنْتُمْ ناصِروني؟ فهوَ يَنْفي أنْ يَقومَ بهذهِ الفِعلَةِ النَّكراءِ بأرقى أُسْلوبٍ لِيَقودَهُم إلَى التَنَبُّهِ والتَّعقُّلِ والرُّجوعِ عَن طَلَبِهِم.

سِرُّ حَذْفِ جوابِ الشَّرطِ:

بـروزُ مشاكلةِ النَّصِ للواقعِ، حيث يغيب من هذا ما غاب من ذاك

حُذِفَ جوابُ الشَّرطِ مِن قَولِه: ﴿إِن طَرَدتُّهُمْۚ﴾ لِدَلالَةِ ما قبلَهُ عَلَيهِ، والمَعْنَى: إنْ طَرَدتُهُم؛ فمَن يَنْصُرُني إذًا؟ وفي حذف الجوابِ - بعد الاختصار والإيجاز - إلماعٌ على عدم وجود النَّصر مع طرد المؤمنين، فغاب من النص ما غاب عن الواقع، ليشاكل النص مع الواقع.

الغَرَضُ مِنَ التَّعبيرِ بأُسلوبِ الاسْتِفْهامِ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾:

إهْـمالُ الكفرةِ للتَّذَكُّرِ، مَدْعاةٌ لِلـتَّـعَـجُّبِ من التنكُّر

قَولُهُ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ لَمّا تَمَّ الجَوابُ عَن ازْدِرائِهِم؛ سَبَّبَ عنهُ الإنْكارَ لِعَدَمِ تَذَكُّرِهِمْ ما قالَهُ لَهُم بما يَجِدونَهُ في أنْفُسِهِم، فقالَ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾"[1]، فقد: "فرَّعَ على ذَلِكَ إنْكارًا على قَوْمِهِ في إهْمالِهِمُ التَّذَكُّرَ، أي: التَّأمُّلُ في الدَّلائِلِ ومَدْلولاتِها، والأسْبابِ ومُسَبِّباتِها"[2]، والاسْتِفهامُ "لِتَوْبيخِهِم وزَجرِهِم، والجُملَةُ مَعْطوفةٌ على مُقدَّرٍ.

سِرُّ حَذفِ المَعطوفِ وتَقديرُهُ في: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾:

إسقاط طلبهم مـن الـوجـود، وجعله في حكم غير الموجود

الهَمزَةُ في قَولِه: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ لِلاسْتِفهامِ الإنْكاري، وهي إمّا داخِلَةٌ على مُقَدَّرٍ، تَقديرُهُ: أتَأمُروني بطَردِهِم، فلا تَذَكَّرونَ؟

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 5/275.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/56.

وإمّا مُقَدَّمَة مِنْ تَأخيرٍ، والأصلُ: فألا تَذَكَّرون، وقُدِّمَتِ الهَمْزَةُ على الفاءِ؛ لِأَنَّ لَها الصَّدارَة"[1]، وفي حذف المعطوف إسقاطٌ لأي طلب منهم وإدخاله في حكم المعدوم.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ المُضارعِ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ مُخَفَّفًا مِن الإدغامِ:

مغبَّةُ الجَهلِ المُستَمِرِّ، وعَدَمُ التَّذَكُّرِ والتَّبصُّرِ

الفعل ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾ مضارع حُذفت منه إحدى التاءين، "وأَصْلُهُ: تَتَذَكَّرونَ، فأُبْدِلَتِ التّاءُ ذالًا، وأُدْغِمَتْ في الذّالِ (تذَّكَّرون). وقَرَأَهُ حَفْصٌ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتَخْفيفِ الذّالِ وبِحَذْفِ إحْدى التّاءَيْنِ"[2].

والمعنى: "أَتَسْتَمِرُّونَ على ما أنتُم عَلَيهِ مِن الجَهلِ المَذكورِ، فلا تَتَذَكَّرونَ ما ذُكِرَ مِن حالِهِم حَتَّى تَعرِفوا أَنَّ ما تَأتونَهُ بِمَعْزِلٍ عَن الصَّوابِ، ولِكَونِ هذه العِلَّةِ مُستَقبَلَةً بوجهٍ مَخصوصٍ ظاهِرِ الدَّلالَةِ على وُجوبِ الامتِناعِ عن الطَّردِ، أُفرِدَتْ عَنِ التَّعليلِ السّابِقِ، وصُدِّرَتْ بـ ﴿وَيَقَوْمِ﴾"[3]، والتَّعبيرُ بالفعلِ المُضارعِ مفيدٌ للتَّجدُّدِ والاستمرارِ واستحضارِ حالَتِهِم الماضِيَةِ، فعَدَمُ التَّذكُّرِ عِنْدَهُم مُتَجَدِّدٌ ومُلازِمٌ لَهُم، لا يَنقَطِعُ عِنْدَهُم أبَدًا.

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/342.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/56.
(3) إرشاد العقل السّليم: 4/203، روح المعاني: 12/42.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾ [هود: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تفصيلُ الرَّدِّ على تعلُّلِهم، بعدم إيمانهم بأنَّه بشر مثلهم، بتأكيد عبوديَّته واستمداده من ربِّه

وذلك أنَّهم لما قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾، فتعلَّلوا في عدم إيمانهم به، بهذه العلَّة الواهية، وهي كونه بشرًا مثلهم، وليس لأجل أنَّ رسالته لا تعبِّر عن صدقه، وهي حجَّة عليلة، ولو كانوا منصفين؛ لآمنوا به، ولحمدوا الله أنَّه أرسل إليهم بشرًا منهم، يأنسون إليه، ويتلقّون عنه، حيث الجنس إلى جنسه آنس، لكنه ﷺ يعلم أنَّهم كاذبون، وأنهم لم يؤمنوا به جحودًا وحسدًا، فراح يفنِّد لهم هذه العلَّة، ويبيِّن لهم أنَّه لم يَدَّعِ لنفسه فضلًا عليهم إلّا في بلاغ الوحي، فقال لهم كما حكت الآية الكريمة: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ رَدًّا مفصَّلًا على قولِهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾ [هود: 27].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿خَزَآئِنُ﴾: "خَزَنَ المالَ في الخِزانَةِ: أَحْرَزَهُ، واخْتَزَنَهُ لِنَفْسِه، واسْتَخْزَنَهُ المالَ، ولَهُ مَخْزَنٌ حَريزٌ، وهوَ صاحِبُ مَخْزَنِ الأمير"(1) والخزائِنُ: جَمعُ خِزانةٍ - بكسر الخاء - وهوَ المَكانُ الَّذي يُخَزَّنُ فيهِ المالُ أو الطَّعامُ أو غيرُهما خَشْيَةَ الضَّياع، والمُراد هُنا: "أنواعُ رِزْقِهِ سبحانه الَّتي يَحتاجُ إليها عِبادُه"(2).

2) ﴿تَزۡدَرِيٓ﴾: الزّاءُ والرّاءُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ، أصل (زرى): "يَدُلُّ

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (خزن).
(2) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 7/195.

على احْتِقارِ الشَّيْءِ والتَّهاوُنِ بِهِ، يُقالُ: زَرَيْتُ عليه؛ إذا عِبْتَ عليه، وأَزْرَيْتُ بِهِ: قَصَّرْتَ به"[1] قال الرّاغب: "زَرَيْتُ عليه: عِبتَه، وأَزْرَيْتُ به: قصَّرت به، وكذلك ازْدَرَيْتُ، قال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾، أي: تستقلُّهم، تقديره: تَزْدَريهِمْ أعينكم، أي: تستقلُّهم، وتستهين بهم"[2].

3) ﴿خَيۡرًاۖ﴾: قال الرّاغِبُ: "الخَيْرُ: ما يرغَبُ فيهِ الكلُّ، كالعَقلِ مثلًا، والعَدْلِ، والفضلِ، والشَّيءِ النّافِعِ، وضِدُّهُ: الشرُّ"[3]، والمراد بـ ﴿خَيۡرًاۖ﴾ هنا، أي: توفيقًا وهُدًى.

المَعْنى الإجْماليّ:

بيانُ رَدِّهِ عليه السلام على ما أثاروه مِن شُبَهٍ باطِلَةٍ، ما أنزل الله بها من سلطان

نفى نوحٌ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ هذه الثَّلاث؛ لأنَّ الكُفّارَ مَعَ الأنبياءِ جَميعًا كانوا يَعْتَقِدونَ لِنَظرَتِهِم المادّيَّةِ لِلأشياءِ أنَّ الأنْبياءَ لا بُدَّ أنْ يَكونوا أغْنياءَ موسِرينَ، يَعلَمونَ الغيبَ، ويَجِبُ أنْ يَكونوا مِن المَلائِكَةِ لا مِن البَشَرِ وإلّا كانوا كَسائِرِ النّاسِ لا فضلَ لَهُم، فكَيف يَدَّعونَ النُّبوَّةَ؟"[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالَةُ الواوِ في قَولِهِ: ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾:

الواو لها دورٌ في بناء الجملة وسياقها الدِّلاليِّ

الواو في قَولِه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ عاطِفةٌ لِهَذا الرَّدِّ على ما سَبَقَ، نَفيًا لِما أثاروه مِن شُبَهٍ، في كَونِهِ بَشَرًا مِثلَهُم، وأنَّ أتباعَهُ هُم أراذِلُ النّاسِ وأحقَرُهُم، فجاءَ رَدُّهُ هَذا إبطالًا لِزَعمِهِم وأكاذيبهم.

دِلالَةُ العَطفِ في قَولِه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾:

موقع قوله (ولا أقول لكم)، ومنزلته من سوابقه

قَولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ مَعطوفٌ على ما سَبَقَ شُروعًا"،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زرى).
(2) الرّاغب، المفردات: (زرى).
(3) الرّاغب، المفردات: (خير).
(4) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/118.

وهَذا تَفْصيلٌ لِما رَدَّ بِه مَقالَةَ قَوْمِهِ إجْمالًا، فهُمُ اسْتَدَلّوا على نَفْيِ نُبوَّتِهِ بأنَّهُمْ لَمْ يَرَوا لَهُ فضْلًا عليهم، فجاءَ هوَ في جَوابِهِمْ بالقَوْلِ بالموجِبِ - وهو: "حَمْلُ لفظٍ وقعَ في كَلامِ الآخَرِ على خِلافِ مُرادِهِ، مِمّا يَحتمِلُه بذِكرِ مُتَعَلِّقِه"[1] - أنَّهُ لَمْ يَدَّعِ فضْلًا غيرَ الوَحيِ إليْهِ، واقْتَصَرَ على بَعْضِ ما يَتوَهَّمونَهُ من لَوازِمِ النُّبوءة، وهوَ أنْ يَكونَ أغْنى مِنْهُمْ، أو أنْ يَعْلَمَ الأمورَ الغائِبَةَ، والقَوْلُ بمَعْنى الدَّعْوى"[2]، وهذا "شُروعٌ في دَفعِ الشُّبَهِ الَّتي أورَدوها تَفصيلًا، وذَلِكَ مِن قَبيلِ النَّشْرِ المُشَوَّشِ ثِقَةً بعِلْمِ السّامِعِ، وتَخَلُّلِ ما تَخَلَّلَ بَيْنَ شُبَهِهِم؛ لِأنَّهُ مقدِّمةٌ وتَمهيدٌ لِلجَوابِ"[3].

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ المَنفي ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾:

الفعل المضارع يختلف في أداء المراد هنا عن الماضي

جاءَ تَعبيرُهُ ﷺ هُنا بالفِعلِ المُضارِعِ دِلالَةً على تَجَدُّدِ هَذا القَولِ النافي لصدور ذلك عنه ﷺ في الحال، أي: ﴿لَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ واستمراره منهُ، واستحضارًا لِصورَتِه الماضيةِ في تَوالي رُدودِه عَلَيهِم نَفيًا لِمَزاعِمِهِم وأراجيفِهِم، وكَأنَّ قولَهُ ذَلِكَ صارَ حَديثَ هَؤلاءِ وحَديثَه مَعَهُم في كُلِّ وقتٍ مِنَ الأوقاتِ يثيرون فيه؛ كونه بشرًا مثلهم.

و(لا) لنفي الحال، "وإنَّما نفى ذلك بصيغة المضارع للدَّلالة على أنه منتفٍ عنه ذلك في الحال، فأمّا انتفاؤه في الماضي؛ فمعلوم لديهم حيث لم يقله، أي: لا تظنُّوا أنّي مضمرٌ ادِّعاء ذلك، وإن لم أقلْهُ"[4].

نُكتَةُ تَقديمِ المَجرورِ ﴿لَكُمۡ﴾:

قد يفيد المقدَّم أمرًا، لا يفيده؛ إذا أُخِّر، وذلك من بلاغة السّياق

قَدَّمَ نوحٌ ﷺ هُنا الجارَّ والمَجرورَ ﴿لَكُمۡ﴾ لِلتَّخصيصِ والاهتِمامِ في كَونِ الحَديثِ مَعَهُم، فهُم المَخصوصونَ بالحِوارِ لِرَدِّ شُبُهاتِهِم، أي: أقولُ لَكُم لا لِغيرِكُم، فهُم مَصدَرُ الحِوارِ وأساسُه.

(1) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 6/87.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/57.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/42.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/57.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالظَّرفِ ﴿عِندِى﴾ مُقَدَّمًا في السِّياق:

قَولُهُ: ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، ظَرفُ مَكانٍ مُتعَلِّقٍ بمَحذوفِ خَبَرٍ مُقَدَّمٍ لِنَفيِ تَخصيصِ نوحٍ عليه السلام في كَونِهِ يَملِكُ خَزائِنَ الأرضِ وما فيها؛ لأنَّ هَذا لَيسَ مِن سَمتِ الأنبياءِ ولا خُصوصيّاتِهم، ولا من شروطِ النُّبوَّة، والمُرادُ نَفيُ الملكيَّةِ على الإطلاقِ، فلَيسَت عِندَه ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، ولا في مقدوره إيجاد هذه الخَزائِنِ إطلاقًا.

تَخصيصٌ آخَرُ لِلرَدِّ على شَرطِ هَؤلاء، أنْ يَكونَ النَّبيُّ مِن ذَوِي الثَّراءِ

نُكتَةُ تَأخيرِ المُسنَدِ إلَيهِ ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّـهِ﴾:

هُنا أخَّر نوحٌ عليه السلام المُسنَدَ إليه ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ المُبتَدأ المُؤَخَّرَ لِتَخصيصِ المُسنَدِ - عِندي - بالمُسنَدِ إليَه ونَفيِهِ عَن غيرِه، إذِ المُرادُ تَخصيصُ خَزائِنِ اللهِ بكَونِها لَدَيهِ، وعِندَه هوَ لا عِندَ غيرِه، وعَلَيه قُدِّمتِ العِنديَّةُ، وأُخِّرَتِ الخَزائِنُ.

خَزائنُ اللهِ تعالى لا يَملِكُها إلّا الله، ولا يتصرَّف فيها أحد سواه

الغَرَضُ مِنَ الاستِعارَةِ المَكنيَّة في ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّـهِ﴾:

"ذِكْرُ الخَزائِنِ هُنا في قوله تعالى: ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ اسْتِعارَةٌ مَكْنِيَّةٌ شُبِّهَتِ النِّعَمُ والأشْياءُ النّافِعَةُ بالأمْوالِ النَّفيسَةِ الَّتي تُدَّخَرُ في الخَزائِنِ، ورَمَزَ إلَى ذَلِك بذِكْرِ ما هوَ مِنْ رَوادِفِ المُشَبَّهِ بِه، وهوَ الخَزائِنُ، وإضافةُ ﴿خَزَآئِنُ﴾ إلَى اللهِ لِاخْتِصاصِ اللهِ بها"[(1)]، والذي سوَّغ هذه الاستعارة ما بين الخزائن، وصنوف النعم هو التَّقاربُ والتَّداني في المعنى، "وإنَّما استَعارَتِ العَربُ المَعنَى لما لَيسَ لَهُ؛ إذ كانَ يُقارِبُه، أو يُدانيه، أو يُشبِهُهُ في بَعضِ أحوالِه، أو كانَ سَبَبًا من أسبابِه، فتكونُ اللَّفظَةُ المُستَعارَةُ حينئذٍ لائقةً بالشَّيءِ ومُلائمَةً لِمعناه"[(2)].

ما بين الخزائن وصنوف النِّعَم، علاقة تسوِّغُ المشابهةَ بينهما

دلالَةُ التَّعبيرِ بجملة مَقولِ القول اسميَّة مؤكَّدة:

أعادَ عليه السلام ردَّه عَلَيهم نافيًا كَونه مِن المَلائِكَة، فقَولُهُ: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ نَفيٌ لِشُبهَةِ قَولِهِم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: 27]، ولِذَلِك

أنبياءُ اللهِ تعالى بشرٌ، ليسوا مِن الملائكة، خِلقةً ولا مهمَّةً

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/57.

(2) الآمديّ، الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتريّ، ص: 214، 213.

أعادَ مَعَهُ فِعْلَ القَوْلِ؛ لِأَنَّهُ إبْطالُ دَعْوَى أُخْرَى أَلْصَقوها بهِ، وتَأْكِيدُهُ بـ (إنَّ)؛ لِأَنَّهُ قَوْلٌ لا يَقولُهُ قائِلُهُ إلّا مُؤَكَّدًا لِشِدَّةِ إنْكارِهِ لَو ادَّعاهُ مُدَّعٍ، فلَمّا نَفاهُ؛ نَفى صيغَةَ إثْباتِه"(1).

لَطيفةٌ في عَلاقَةِ جُملَة نفي الملائكيَّة بتأكيد البشريَّة:

تعلُّق الكلام بعضه ببعض، له ارتباط بأداء المعنى

"لَمّا أرادَ إبْطالَ قَوْلِهِمْ: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27]؛ أبطلهُ بطريقةِ التّغليطِ؛ لِأنّهُم جعلوا ضعفهُم وفقرهُم سببًا لِانتِفاءِ فضلِهِم، فأبطلهُ بأنّ ضعفهُم ليس بحائِلٍ بينهُم، وبين الخيرِ مِن اللّه؛ إذ لا ارتباط بين الضّعفِ في الأُمورِ الدُّنيويّةِ مِن فقرٍ وقِلّةٍ وبين الحِرمانِ مِن نوالِ الكمالاتِ النّفسانيّةِ والدّينيّةِ، وأعاد معهُ فِعل القولِ؛ لِأنّهُ أراد مِن القولِ معنًى غير المُرادِ مِنهُ، فيما قيل، فالقولُ هُنا كِنايةٌ عنِ الاعتِقادِ؛ لِأنّ المرء إنّما يقولُ ما يعتقِدُ، وهي تعريضيّةٌ بالمخاطبين؛ لأنّهم يضمرون ذلك ويُقدِّرونهُ"(2)، وهناك لطيفة أخرى أنّها "ردٌّ لِقولِهِم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾ [هود: 27]، أي: لا أقولُ ترويجًا لِما أدّعيهِ مِن النُّبوّةِ إنّي ملكٌ حتّى تقولوا لي ذلِك، وتُكذِّبوني، فإنّ البشريّة ليست مِن موانِعِ النُّبوّةِ، بل مِن مبادِيها، يعني: كما قيل: إنّكُم اتّخذتُم فُقدان هذه الأُمورِ الثّلاثةِ، ذريعةً إلى تكذيبي، والحالُ أنّي لا أدّعي شيئًا مِن ذلك ولا الّذي يتعلّقُ بشيءٍ مِنها، وإنّما الّذي أدّعيهِ يتعلّقُ بالفضائِلِ الّتي تتفاوتُ بها مقاديرُ البشرِ، وقيل: أراد بهذا لا أقولُ: إنّي روحانيٌّ غيرُ مخلوقٍ مِن ذكرٍ وأُنثى، بل إنّما أنا بشرٌ مِثلُكُم، فلا معنى لِردِّكُم عليّ بقولِكُم: ما نراك إلّا بشرًا مِثلنا، وعلى القولينِ لا دليل فيهِ على أنّ الملائكة أفضلُ مِن الأنبياءِ عليهم السلام خِلافًا لِمن استدلّ بِهِ"(3).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/57.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/57.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/43.

دِلالَةُ العَطفِ في قولِه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ﴾:

ردٌّ آخر من رُدودِهِ، على إبطالِ شُبُهاتِهِم، يجلّي الحقَّ ويرسّيه

جاءَ قَولُهُ تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ﴾، مَعطوفًا على الرَّدَّينِ السّابِقَينِ مِنهُ عليه السلام - وهُنا " لَم يَكتَفِ نوحٌ عليه السلام بهَذا الرَدِّ المُبطِلِ لدعواهم الفاسِدَةِ، بَل أضافَ إلَى ذَلِكَ - كَما حَكَى القُرآنُ عَنهُ - ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ "[1]، "وقيل: هو ردٌّ على قولِهِمُ: اتّبعك أراذِلُنا، أي: لستُ أحكُمُ عليهم بألّا يكون لهُم خيرٌ لِظنِّكُم بهم، إنّ بواطِنهُم ليست كظواهِرِهِمُ، اللّه عز وجل أعلمُ بما في نُفوسِهِم"[2].

سِرُّ استِخدامِ الاسمِ المَوصولِ ﴿لِلَّذِينَ﴾:

تعظيم أهل الإيمان، وتحقير أهل الكفران

جاءَ التَّعبيرُ في قَولِه: ﴿لِلَّذِينَ﴾ باسمِ المَوصولِ للتَّنبيهِ على خَطَأ ما يَقصِدُه هَؤلاءِ القَومُ مِن الازدِراءِ الحاصِلِ لهَؤلاءِ الضُّعَفاءِ، والمُرادُ: "لَيسَ احتِقارُكم إيّاهُم يُنقِصُ ثَوابَهُم عِندَ اللّه تعالى، ولا يُبطِلُ أُجورَهُم، ولَستُ أحكُمُ عَلَيهِم بشَيءٍ مِن هَذا، وإنَّما الحُكمُ بذَلِكَ لِلَّذي يَعلَمُ ما في أَنْفُسِهِم، فيُجازيهِم عَلَيه"[3]، ومن لطيف التَّناسب أنَّه "لَمّا كانَ تعريضُهُم بنَفيِ المَلَكيَّةِ عَنهُ مِن بابِ الإزراءِ؛ أتبَعَهُ تأكيدَ قَبولِه لِمَن آمَنَ كائنًا مَن كانَ، وإن ازدَرَوه بقَولِه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ﴾، أي: لأجلِ الَّذينَ ﴿تَزۡدَرِيٓ﴾، أي: تحتَقِرُ ﴿أَعۡيُنُكُمۡ﴾، أي: تُقَصِرونَ بهِ عَنِ الفضلِ عِندَ نَظَرِكُم لَهُ، وتُعيبونَه"[4].

نُكتَةُ تَقديمِ المَجرورِ ﴿لِلَّذِينَ﴾:

قد يُقدَّم الشَّيء على أصله، ليفيد فائدة زائدة

قُدِّمَ الاسمُ المَوصولُ المَجرورُ باللّامِ على مَقولِ القَولِ ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ﴾، والجارُّ والمجرورُ مُتَعَلِّقٌ بالفِعلِ ﴿أَقُولُ﴾ لِتَخصيصِ الحَديثِ عَن هَؤلاءِ الضُّعَفاءِ، ولِكَونِهِم عَصَبَ الحَديثِ وأساسَه،

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/195.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/218.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/44.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/275.

ولو أخَّرَ المَوصولَ هُنا ما أفادَ مَعنى، ولَكانَ رَدُّ نوح ﷺ غيرَ مُفيدٍ، فينصَرِفُ الذِّهْنُ إلَى ما لا طائِلَ تحتَهُ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿تَزۡدَرِيٓ﴾:

استحضار الجريمة السّابقة، تبشيع للمجرمين، وتشنيع بفعالهم

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارِعِ على لِسانِ سَيدِنا نوح ﷺ ﴿تَزۡدَرِيٓ﴾ دِلالَةً على تَجَدُّدِ هَذا الازدِراءِ واستِمرارِهِ منهُم مَعَ استِحضارِ صورَتِهِ في أنفُسِ السّامِعينَ.

لطيفة في تكرار الفعل ﴿أَقُولُ﴾ ثلاث مرّات:

تكرار القول أكثرَ من مَرَّةٍ، للتأكيد، ونَفي المَزاعِمِ والأوهامِ

جاء التّعبير بقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ ثلاث مرات ردًّا على مقولاتهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾ [هود: 27] و﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27]، و﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾ [هود: 27] فجاءتِ الرُّدودُ والأجوبة ثَلاثًا، كَما جاءَ الصَّلَفُ والعِنادُ والمُكابَرَةُ منْهُم ثَلاثًا، فهذهِ ثَلاثٌ بثَلاثٍ، وكَأنَّها تُشيرُ من طَرفٍ خَفيٍّ إلَى مُراعاةِ النَّظيرِ لِلنَّظيرِ وإلحاقِ الشَّيءِ بلِفْقِه، وإعادَةِ الألفاظِ للتأكيد على الرَّدِ ونَفيِ المَزاعِمِ الكاذِبَةِ والأوهامِ المَغلوطَةِ.

والمَعنَى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ حينَ أدَّعي النُّبوَّةَ ﴿عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي: رزقُهُ وأموالُهُ حَتَّى تَستدِلوا بعدمِها على كَذِبي بقَولِكُم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ٢٧﴾ [هود: 27] فإنَّ النُّبوَّةَ أعزُّ مِن أن تُنالَ بأسبابٍ دُنيويَّةٍ ودَعواها بمَعزِلٍ عَن ادِّعاءِ المالِ والجاه.. ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ حَتَّى تقولوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾ [هود: 27]، فإنَّ البَشَرِيَّةَ لَيسَتْ مِن مَوانِعِ النُّبوَّةِ بَل مِن مَباديها، يَعني: أنَّكُم اتخَذْتُم فُقدانَ هذه الأُمورِ الثَّلاثَةِ ذَريعَةً إلَى تَكذيبي، والحالُ أنّي لا أدَّعي شَيئًا مِن ذَلِكَ..﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ مُساعَدَةً لَكُم، كَما تَقولونَ: ﴿لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾، أي: تَقتَحِمُهُم، وتَحتَقِرُهُم"[1].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/203.

سِرُّ جَمعِ الفاعِلِ وإضافته لِضَمير المُخاطَبِ:

لَمّا كثُر المُزدَرون، كَثُرت الأعينُ المَغرورَةُ

قَولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ كِنايَةٌ عَن أنَّ الَّذينَ عيبوا بكَونِهم ضُعَفاءَ، وأنَّ أمرَهُم حَقيرٌ لا يُؤبَه لهم؛ كَثيرونَ، كَثُرَتِ الأعينُ المحتقِرةُ لَهُم، وإن كانتِ الأَعْيُنُ هُنا جَمعَ قِلَّةٍ، وهَذا دَليلٌ على أنَّهُم جَميعًا وقَعوا في ازدِراءِ الفُقَراءِ، وأنَّ كَلِمَتَهُم واحِدَةٌ، ومَطلَبَهُم واحِدٌ، وهوَ طَردُ الفُقَراءِ المُؤمِنينَ مِن مَجْلِسِهِ عليه السلام والمُفتَرَضُ في غَيرِ هَذا التَّعبيرِ بـ (تَزْدَري عُيونُكم)، لكنه عبَّر بصيغة القلَّة تحقيرًا للأثر.

بلاغة المجاز العقلّي في إسناد الازدراء إلى الأعين:

الازدراء بِناءً على الظّاهِر، دلالةٌ على تفاهة المُزدرى

إسنادُ الازدِراءِ إلَى الأعيُنِ إنَّما هوَ مِن أفعالِ النَّفسِ (مَجازٌ عَقليٌّ)؛ لِأنَّ الأعيُنَ سَبَبُ الازدِراءِ غالِبًا؛ لِأنَّ الازدِراءَ يَنشَأُ عن مُشاهَدَةِ الصِّفاتِ الحَقيرَةِ عِندَ النّاظِرِ"[1]، و﴿تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ التَّعبيرُ هُنا لِلمُبالَغَةِ والتَّنبيه على أنَّهُم استَرذَلوهُم بادي الرُّؤيَةِ، أي: بمُجَرَّدِ النَّظَرِ إليهِم مِن غيرِ رَوِيَّةٍ بِسَبَبِ ما عايَنوه مِن رَثاثَةِ حالِهِم وقِلَّةِ مَنالِهِم.

دلالَةُ وقوعِ مَقولِ القَولِ جملةً فعليةً ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ﴾:

الدّلالَةُ علَى المُرادِ، تختلفُ بينَ الفِعليَّةِ والاسميَّةِ

جاءَ قَولُه: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ﴾ جُملَةً فِعليَّةً منفية "بحرف ﴿لَن﴾ الدالة على تأكيد نفي الفعل في المستقبل، تعريضًا بقومه؛ لأنَّهم جعلوا ضَعْف أتباع نوح عليه السلام وفقرهم دليلًا على انتفاء الخير عنهم، فاقتضى دوام ذلك ما داموا ضعفاء فقراء، فلسان حالهم يقول: لن ينالوا خيرًا، فكان ردُّه عليهم بأنَّه لا يقول: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾[2].

ففيه دلالةٌ على تَجَدُّدِ دعواهم على عَدَمِ الإتيانِ واستِمرارِ مَنعِهِ واستِحضارِ حالَتِهِم الماضيَةِ، فقد "يُرادُ من ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ﴾ (ما

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/57.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/58.

آتاهُم)، فكأنَّهُم قالوا: إنَّهُم اتَّبَعوكَ، وآمَنوا بكَ بلا تَأمُّلٍ، ومثل ذَلكَ الإيمانُ في مَعرِضِ الزَّوالِ، فهُم لا يَثبُتونَ عَلَيهِ، ويرتَدّونَ، فرَدَّ عَلَيهِم عليه السلام بأنّي لا أحكُمُ على أولَئكَ بأنَّ اللّه تعالى ما آتاهُم إيمانًا لا يَزولُ، وأنَّهُم سَيرتَدّونَ كَما زَعمتُم"[1].

مَعنَى حَرفِ النَّفي ﴿لَن﴾ ودِلالَتُهُ:

ما تفيده (لن) من معنًى، أوضح وأمكن من سواها

﴿لَن﴾ هُنا: حَرفُ نَفيٍ ونَصبٍ جاءَت لِنَفيِ إتيانِ هَؤلاءِ الفُقَراءِ خيرًا منهُ سبحانه وتعالى - على حَدِّ زَعمِ هَؤلاءِ المُتكَبِّرينَ - والتَّعبيرُ بها لِنَفيِ هَذا الإتيانِ في المُستَقبَلِ، وإن كانَ الإتيانُ محتملًا لكونِه في الماضي.

سِرُّ إسنادِ الفِعْلِ لاسمِ الجَلالَة ﴿ٱللَّهُ﴾:

المُعطي والمانِحُ لِلخَلائِقِ، هوَ اللهُ الخالق

قولُهُ تعالى: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ تعبيرٌ عن نَفيِ إيتاءِ اللّه تعالى أولئكَ الخيرَ، كَما يَزعُمُ هؤلاءِ المُتَكَبِّرونَ، ويرغبون، ثم إنَّهم لِشِدَّةِ جَهلِهِم حاولوا إقرار ذلك علة تسوِّغ لهم عدم اتِّباعه عليه السلام.

وإسنادُ الإيتاءِ إلَى اللّه تعالى إسنادٌ حقيقيٌّ، فاللّه تعالى هوَ المُعطي وحدَه، وعَطاؤه لا يَنقَطِعُ أبَدًا، وخَزائنُه مُمتَلِئَةٌ على الدَّوامِ.

نُكتَةُ تَنكيرِ المَفعولِ به ﴿خَيۡرًاۖ﴾ في الآيَة:

قد يُنَكَّرُ الشَّيءُ إمّا تعظيمًا لِشَأنِهِ، أو لبيانِ نوعِهِ

ورَدَ المَفعولُ في قَولِهِ تعالى: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ منكَّرًا للتَّحقير تناسبًا مع السياق الحاكي معنى ما قالوه من الازدراء مجاراةً لهم، أو التعظيم لكونه حكاية عن معنى ما قاله نوح عليه السلام.

مَوقِعُ جُملَة ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ مِمّا قبلَها:

ملمح كمال الاتِّصال في كون الجملة مفصولة عمّا قبلها

قَولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ تَعْليلٌ لِنَفْيِ أنْ يَقولَ: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾، ولِذَلِكَ فُصِلَتِ الجُمْلَةُ، ولَمْ تُعْطَفْ"[2]. وجاءَت رَدًّا على قَولِهِم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27] على ما

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/44.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/58.

يَظهَرُ مِنهُم"، فالمَعنى: لَستُ أنا أحكمُ عَليهِم بألّا يكون لَهُم خَيرٌ بظَنِّكُم بهِم أنَّ بَواطِنَهُم لَيسَت كَظواهِرِهِم، اللّه ﷻ أعلَمُ بما في نُفوسِهِم"[1]، وهو" تَسليمٌ للّه تعالى، أي: لَستُ أحكُمُ عَلَيهِم بشَيءٍ مِن هَذا، وإنَّما يَحكُمُ عَلَيهِم بذَلِكَ، ويَخرُج حُكمُهُ إلَى حَيِّز الوجودِ، اللّه تعالى الَّذي يَعلَمُ ما في نُفوسِهِم، ويُجازيهِم بذَلِكَ"[2].

دلالةُ وُقوعِ المُسنَدِ ﴿أَعۡلَمُ﴾ على صيغَةِ (أفعَل):

ورودُ المُسنَدِ هُنا ﴿أَعۡلَمُ﴾ على وزنِ أفعلَ، لَيسَ مُرادًا بِه التَفضيل، وإنَّما المَقصودُ كَثرةُ العِلمِ وشدَّتُه، فلَيسَ هُنا مفضِّلٌ ولا مفضَّلٌ عَلَيه حَتَّى يُحكَمَ بكَونِه للتفضيلِ، وإنَّما أُريدَ بِه العِلمُ الكامِلُ المُحيطُ بدَقائقِ الأمورِ وخَفاياها، فالمُفاضَلَةُ هُنا لا وُجودَ لَها أبدًا.

ورود العلم هنا على صيغة أفعل، ودلالة ذلك

مَعنَى حَرفِ الباء في قوله: ﴿بِمَا﴾ ودِلالَتُه:

الباءُ هُنا حَرفُ جَرٍّ أُريدَ به الملابسةُ، ولا يَنفكُّ عَنها مَعنَى الإلصاقِ، وقَد دَخَلَتْ على (ما) المَوصولَة، والمَعنَى: ما تَلَبَّسَت به أنفُسُهُم مِن الخَيرِ وسائِرِ الكَمالاتِ، وما وهَبَهُم اللّه مِن هَذا الخَيرِ الَّذي أُشرِبَتهُ نُفوسُهُم، والتَّعبيرُ أفادَ تعظيمَ ما حَوتْهُ أنفُسُهُم مِنَ الإيمانِ والخَيرِ، واستِصحابِ هَذا الإيمانِ إلَى أن يَلقَوا اللّه تعالى، فيُجازيَهُم عَلَيه.

لا أعظَمَ مِن استِصحابِ الإيمانِ، والثَّباتِ عَلَيه في كلِّ آنٍ

دلالة (ما) الموصولة، وسرُّ إيثارِها على غيرِها:

ورَدَت (ما) هُنا اسمًا مَوصولًا بمَعنَى الَّذي، والمُرادُ بالَّذي في نُفوسِهِم، أي: ما يَتَأهَّلونَ بِه لإفاضَةِ التَّوفيقِ عَلَيهِم، وهوَ المَدارُ لِذَلِكَ، لا الأحوالُ الظّاهِرَةُ ممّا لا أقولُ به، وأوثرت (ما) على (الذي) لكونها أعمَّ وأشمل في الدلالة، وفي إبراز هذه الجملة ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾؛ إشارة إلى أنَّهم

شمول علم الله تعالى، لكلِّ خَبايا النُّفوسِ الصّالِحَةِ، وتَعظيمها

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/165.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/165.

طلبوا منه ﵇ أن يقول ذلك، فأجابهم بالنَّفي، "وإنَّما اقتُصِر على نَفي القَولِ المَذكورِ، مع أنّهُ ﷺ جازِمٌ بأنّ اللّه سُبحانهُ سيُؤتيهم خيرًا عظيمًا في الدّارينِ، وأنّهُم على يقينٍ راسِخٍ في الإيمانِ، جريًا على سُنَنِ الإنصافِ مع القومِ، واكتفاءً بمُخالفةِ كلامِهم، وإرشادًا لهُم إلى مسلكِ الهدايةِ بأنّ اللّائق لِكُلِّ أحدٍ ألّا يبُتّ القول إلّا فيما يعلمُه يقينًا، ويبني أُمورهُ على الشّواهِدِ الظّاهِرةِ، ولا يُجازِفُ فيما ليس فيهِ على بيِّنةٍ ظاهِرةٍ"(1).

سِرُّ الاستعارة التَّبعيَّة في التَّعبيرِ بحرفِ الجَرِّ ﴿فِيٓ﴾:

استقرارُ الإيمانِ في النُّفوسِ، دَليلُ الإيمانِ الحقِّ

جاءَ التَّعبيرُ بحرفِ الجَرِّ ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ، للدلالة على تمكُّن علمه سبحانه بكلِّ ما في النُّفوس من خلجاتها وخفاياها من إيمان وغيره، ودِلالَةُ الظَّرفِ هُنا استِعارَةٌ تَبَعيَّةٌ، حيث استُعيرَ الحَرفُ ﴿فِيٓ﴾ من مَعناهُ الحَقيقيِّ، وهوَ تَمَكُّنُ الظَّرفِ مِن المَظْروفِ تمكُّنًا حقيقيًّا للدلالةِ على استِقرارِ الإيمانِ في نُفوسِهِم، وكانَ يُمكِنُ الاكتِفاءُ بأنْ يَكونَ التَّعبيرُ (اللّه أعْلَمُ بأنْفُسِهِمْ)، دون ذكر حرف الظَّرف ﴿فِيٓ﴾، لكنَّ ذكره بيّن أنَّ هَؤلاء قَد استَقَرَّ الإيمانُ في بَواطِنهم، وتشرَّبته نفوسُهم، فجاء التعبير بحرف الجر ﴿فِيٓ﴾ مدحًا لهم، وتعظيمًا لشأنهم ورفعة لحالهم.

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَنفُسِهِمۡ﴾ على (نُفوسِهِم):

تَبادُلُ الجُموعِ بَينَ القِلَّةِ والكَثْرَةِ، يؤكِّد بأنَّ لِكُلٍّ منها غرضَه الدّلاليّ

قَد يُعبَّرُ بجَمعِ القِلَّةِ في مَوضِعِ الكَثْرَةِ وبِالعَكسِ إلّا أنَّ مَجيءَ (أنفُس) هُنا جمع قلة دلالة على قلة العدد الذي آمن معه ﵇، فأوثر التَّعبيرُ بجَمعِ القِلَّةِ؛ ليناسب لفظ (الأنفس) العددَ الَّذي آمَن به بدَليلِ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود: 40].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/204، 203.

موقع جملة ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ممّا قبلَها:

رَدٌّ آخر بنفي الظُّلم عن الضُّعفاءِ

قَولُهُ تعالى على لِسانِ سيِّدنا نوحٍ عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، جُملَةٌ تَعليليَّةٌ لا محلَّ لَها مِن الإعراب، وجاءَت تعليلًا ثانيًا لِنَفي أنْ يَقولَ: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾.

سِرُّ التّعبيرِ بحرفِ الجَوابِ ﴿إِذٗا﴾:

التَّعبيرُ بحرفِ الجَوابِ، ودَورُه في بنيَةِ الجُملَةِ في السّياق

في قوله: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نجد أنّ ﴿إِذٗا﴾ حرفُ جوابٍ وجزاءٍ مُهملٌ، والتّعبيرُ بِهِ "مجازاةٌ لِلقولِ، أي: لو قُلت ذلك؛ لكُنت مِن الظّالمين، وذلك أنّهُ يظلِمُهُم بالقضاءِ عليهم بما لا يعلمُ مِن حقيقتِهم، ويظلِمُ نفسهُ، باقتِحامِ القولِ بما لا يصدق"[1]. وهذا أُسلوبُ ردعٍ مِنهُ لهُم، على معنى: إنّي إن قلتُ ذلك؛ فسأكونُ ظالِمًا مُستحِقًّا لِلعِقابِ.

نُكتَةُ تَقديمِ ﴿إِذٗا﴾ على خَبَرِ (إنَّ):

تأكيد وقوع ما وقع عليه حرف الجواب، وهو كونه من الظّالمين لو أطاعهم

جاءَت ﴿إِذٗا﴾ مُقدَّمَةً على الجُملَةِ الخَبَريَّة مُبالَغَةً مِنْهُ، وتَأكيدًا على وُقوعِ ظُلم نَفْسِه، إنْ فعَلَ ما أرادوه مِنهُ، كَما ورَدَت ﴿إِذٗا﴾ هُنا مُنوَّنَةً مُبالَغَةً في تَصويرِ نَفْسِه بكَونِه مِن الظّالِمينَ العَريقينَ في الظُّلمِ إنْ أقدَمَ على مُرادِهِم.

دلالَةُ التَّوكيدِ بثَلاثَةِ مُؤكِّداتٍ في الجملة:

توكيد الكلام، دليل على كونه من الأهمّيّة بمكان

قوله: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، "أكَّدَهُ بثلاثةِ مُؤكِّداتٍ: إنَّ ولام الابْتِداءِ وحَرْفِ الجَزاءِ، تَحقيقًا لِظُلْمِ الَّذينَ رَمَوا المُؤمنينَ بالرَّذالَة، وسَلَبوا الفضلَ عنهُمْ؛ لِأنَّهُ أرادَ التَّعريضَ بقَومِهِ في ذَلِكَ"[2]. و"تَحقيقًا لِظُلْمِ كُلِّ مَن يَدَّعي شَيئًا من هذه الدَّعاوى، وتَكذيبًا لِأولئكَ الكافِرينَ الَّذينَ احتَقَروا المُؤمنينَ، وزَعَموا أنَّ اللّه تعالى لَن يُؤتيَهُم خَيرًا"[3]، وتعريضًا بأنَّهم أشدُّ الناس ظلمًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/58.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/58.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/196.

دلالةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجَرِّ (مِن)، ودوره في البيان

نكتة إيثار قوله: ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، على قوله: (إنّي ظالِمٌ):

قوله: ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أَبْلَغُ في إثْباتِ الظُّلْمِ مِنْ: إنّي ظالمٌ، لِأَنَّهُ على الأوَّلِ أدخَلَ نفسَهُ في جُملَةِ الظّالمينَ، لا يَنْفكُّ عنهُم أبَدًا، أمّا قَولُهُ: (إنّي ظالمٌ)؛ فربَّما يَكونُ قالهُ حَياءً دونَ إثباتِ الظُّلم إثباتًا تامًّا، وكَذَلِكَ يَكونُ مُرادُهُ بالتَّعبيرِ الأوَّلِ مِن الظّالمينَ لِأَنفُسِهِم بذَلِكَ، وفي الكَلامِ تَعريضٌ بأنَّهم ظالمونَ في ازدِرائِهِم.

دلالَةُ التَّعبيرِ بجملة ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في السّياق:

الظُّلم أبشعُ وصفٍ، وأقبح مظهر للتَّعامل الجائر

المُرادُ بالظّالمينَ هُنا العَريقونَ في وضعِ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِه، وتعريفُهم بـ (أل) لِاستِغراقِ الوصفِ جميعَ الظّالمينَ وجميع أنواعِ الظُّلمِ أيضًا، ووَبالُ الظُّلمِ راجِعٌ دَومًا إلَى أَنْفُسِ الظّالمينَ.

والمعنى: لو أطعتكم فيما طلبتم منّي؛ إنّي إذًا لمن هؤلاء الظالمين المطبوعين على الظُّلم حتى صار فيهم سجيَّة وخُلُقًا.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(يؤتي) و(يعطي):

هناك في القرآن الكريم أفعال مستعملة في مواطنها، لا يعبِّر عنها غيرها

يقال: (أتى) الشَّيءَ: هيَّأَهُ، وسَهَّلَهُ، وأتى فُلانًا الشَّيءَ: أتَى بِهِ إلَيهِ: أعطاهُ إيّاه، و"الإتيانُ: مَجيءٌ بسُهولَة، ومنه قيلَ للسَّيلِ المارِّ على وجهِهِ: أَتيٌّ وأتاويٌّ، وبه شُبِّه الغريبُ، فقيلَ: أتاويٌّ، والإتيانُ يُقالُ لِلمَجيءِ بالذّاتِ وبالأمرِ وبِالتَّدبيرِ، ويُقالُ في الخَيرِ وفي الشَّرِّ وفي الأعيانِ والأعراضِ"[1].

(يُعطي): "العَطْوُ: التَّناول، والمعاطاة: المناولة، والإعطاء: الإنالة، واختصَّ العطيَّة والعطاء بالصِّلة،

يعطي من يشاء"[2]، وعطا الشيء عطوًا تناوله، والعطاء ما يعطى، والجمع أعطياتٌ".

(1) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(2) الرّاغب، المفردات: (عطا).

قال أبو هلال العسكري: "الإِعْطاء: هوَ اتِّصال الشَّيْء إِلَى الآخِذ لَهُ ألا ترى أنَّك تُعْطي زيدًا المالّ ليَرُدَّهُ إِلَى عَمْرو، وتعطيه ليتَّجر لَك به، ثمَّ كثر اسْتِعْمال الإِعْطاء حَتَّى صار لا يُطلق إلّا على التَّمْليك، فيُقال: أعطاهُ مالًا؛ إذا ملَّكه إيّاه"[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 175.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢﴾ [هود: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مواصلة قصَّة قـوم نـوح، لتأكيد أنَّ يَأْس من لا حُجَّةَ لَهُ، ينصرف به إلى تمنّي الهلاك

لمّا يئس الكُفّارُ مِن حِوارِهِم مع نوحٍ عليه السلام وردِّه عليهم كُلّ ما أثاروه مِن شُبهٍ، لجؤوا إلى أُسلوبِ الهارِبِ مِن مُجادلةِ قويِّ الحُجّةِ، فأوردوا هذه الشُّبهة عليهِ، مِمّا يدُلُّ على أنّهُ عليه السلام كان قد أكثر في الجِدالِ معهُم، ولمّا لم يجِدوا وسيلةً معهُ؛ استعجلوا العذاب الّذي كان يتوعّدهُم بهِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَٰدَلۡتَنَا﴾: (جدل) الجيمُ والدّالُ واللّامُ أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ مِنْ بابِ اسْتِحْكامِ الشَّيْءِ في اسْتِرْسالٍ يَكونُ فيهِ، وامْتِدادِ الخُصومَةِ ومُراجَعَةِ الكَلامِ، وهوَ القِياسُ الَّذي ذَكَرْناهُ"[1]. والجدال "هو المعارضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جَدَلَ الحَبْلَ: أحكم فتْلَهُ كأنَّ كلًّا من المتجادلينَ يفتِل الآخرَ عنْ رأيه، وقد ورد في القرآن على وجوه مختلفةٍ منها: معارضة نوح وقومه: ﴿يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا﴾[2].

2) ﴿تَعِدُنَآ﴾: الوَعْدُ يكون في الخَيرِ والشَّرِّ، يُقالُ: وَعَدْتُهُ بنفعٍ وضرٍّ وَعْدًا ومَوْعِدًا وميعادًا، والوَعيدُ في الشَّرِّ خاصَّة، يقال منه: أَوْعَدْتُهُ، ويقال: واعَدْتُهُ، وتَواعَدْنا"[3]. ومرادهم هنا بما تعدنا به من العذاب.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جدل).
(2) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 2/373.
(3) الرّاغب، المفردات: (وعد).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ اشتِداد الحالِ على الكافرين حَتَّى استَعْجَلوا العَذابَ المهين

عِنْدَما وجَدَ كفارُ قوم نوح أنفُسَهُم عاجِزينَ عَنِ الرَّدِ على نَبيِّهِم بأُسلوبِ مُقارَعَةِ الحُجَّةِ؛ لجؤوا - على عادَةِ طَبَقَتِهِم - إلَى أُسْلوب التَّحَدّي، وقَد أخَذَتْهُم العِزَّةُ بالإثم، كَما حَكَى القُرآنُ عنهُم، وقالوا: ﴿يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: خاصَمْتَنا، ونازَعْتَنا، فأكثَرْتَ في ذَلِكَ حَتَّى أنَّك لَمْ تدعْ لَنا مَنْفذًا لِلرَّد عَلَيك، ثُمَّ أضافوا إلَى هَذا العَجزِ عَن مُجابَهَةِ الحُجَّة سَفاهَةً في القَولِ، فقالوا: "فَأْتِنا بالعَذابِ الَّذي تَتَوَعَّدُنا به، إنْ كُنتَ مِن الصّادِقينَ في دعواكَ النُّبوَّة، وفي وعيدِكَ لَنا بعِقابِ اللَّه، فإنَّنا مُصرّونَ على عِبادَةِ آلِهَتِنا، وكارِهونَ لِما تَدعونا إليه"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ فصل الجُمَلةِ مع وجود شبه كمال الاتِّصال:

أثر الاستئناف البيانيّ في اكتمال الحوار وتناسقه

لَمّا "اسْتَوفى نوحٌ عليه السلام نَقْضَ ما أبرَموه في زَعمِهِم مِن جَوابِهِم على غايَةِ الإنصافِ واللّينِ والاستِعْطافِ؛ استَأنَفَ الحِكايَةَ عَنهُم بقَولِهِ: ﴿قَالُواْ﴾، أي: قَولَ مَن لَم يَجِدْ في رَدِّهِ شبهةً يُبديها ولا مَدفعًا يُغير بِهِ"[2]،والجُملَةُ هُنا مُستَأنَفَةٌ استِئنافًا بيانيًّا، وهِي مَفصولَةٌ عَمّا سَبَقَ فَصْلًا"، على طَريقَةِ حِكايَةِ الأقْوالِ في المُحاوَراتِ"[3]. أي: كأنَّ هنالك مَن سأل: فماذا قال قوم نوح بعد أن امتنع نوح عليه السلام من مطاوعتهم؟ فجاء الجواب: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾.

الغَرَضُ مِن أُسلوبِ النِّداءِ:

استهزاء قوم نوح بنبيّهم دليل فشلهم في الحوار

في قولِه: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ﴾ أُعيدَ نِداؤهُم لِنَبي اللَّه نوحٍ عليه السلام إحضارًا لَهُ في مَشْهَدِ مُحاوَرَتِهِم، ولِكَونِه مَقصَدَ الحَديثِ هُنا ولبَيانِ حُجَّةِ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/197، 196.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 5/277.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/58.

المُجادَلَة عَلَيه، وألّا يَكونَ بمَعزِلٍ عَن حَديثِهِم، ثُمَّ إنَّهُم نادوه نِداءَ البَعيدِ؛ تَهَكُّمًا واستِهزاءً، ويَعْكِسُ هَذا بُعدَ ما يَدعوهُم إلَيهِ مِن الإيمانِ عَن قُلوبِهِم.

ضيق الكافرين ذرعًا بنوح عليه السلام، نموذجٌ للصِّراع بين الحقِّ والباطل

دلالة ﴿قَدۡ﴾ على التَّحقيق في السّياق الكريم:

في قوله: ﴿قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا﴾ قَد: حَرفُ تَحقيقٍ ودَورُها هُنا تَحقيقُ أمرِ هذه المُجادَلَة، وأنَّه طالَ مِنْهُ الجِدالُ.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿جَٰدَلۡتَنَا﴾ بصيغَةِ التَّشارُك:

إثبات المشاركة في الجدال، دلالة على شدَّة الخصومة.

التَّعبيرُ بالفِعلِ الماضي ﴿جَٰدَلۡتَنَا﴾ لِتَحَقُّقِ وُقوعِ هَذه المُجادَلَة، وهي المُراجَعَةُ والمُخاصَمَةُ، والمُقابَلَةُ بالأقوالِ حَتَّى تَقَعَ الغَلَبَةُ، والفِعلُ مَأخوذٌ مِن فِعالٍ، مَصدَرِ فاعَلَ، وهو يَقَعُ مِن اثنَينِ، ومِنه ما هو مَحمودٌ، ومِنهُ ما هو مَكْروهٌ[1]، "وإنَّما أرادوا أنَّهُ جادَلَهُمْ فيما هوَ شَرٌّ، فعَبَّرَ عن مُرادِهِمْ بلَفْظِ الجِدالِ المُوَجَّه"[2].

مَعنَى حَرفِ الفاءِ في لفظ ﴿فَأَكۡثَرۡتَ﴾ ودِلالَتُه:

كثرة الجدال مبالغة في الخصومة المفضية للضَّلال

الفاءُ هُنا لِلتَّعقيب، وعَطفِ إكثارِ جِدالِه مَعَهُم على جِدالِهِم، قال الآلوسيُّ: "عطَفَ على ما قبلَهُ على مَعنَى شَرَعتَ في جِدالِنا، فأطَلْتَهُ، أو أتَيتَ بنَوعٍ مِن أنواعِ الجِدالِ، فأعقَبْتَه بأنواعٍ أُخَر"[3].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالماضي (أكثرت) في السّياق:

حدوث الإكثار في المجادلة، أمرٌ محقَّقٌ بيقين

التّعبيرُ بالفِعل الماضي دِلالَةٌ على تحقُّقِ وُقوعِ الإكثارِ في المُجادلة وحُدوثِها، وقد "تعيّن أنّ تِلك المُجادلة كانت آخِر مُجادلةٍ جادلها قومهُ، وأنّ ضجرهُم وسآمتهُم مِن تكرارِ مُجادلتِه حصل ساعتئذٍ، فقالوا قولهُم هذا، كانت كُلُّها مُجادلاتٍ مضت، وكانتِ المُجادلةُ الأخيرةُ هي الّتي استفزّتِ امتعاضهم مِن قوارِعِ جدلِه

(1) ابن عطّية، المحرّر الوجيز: 3/165.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/58.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/45.

حتّى سئِموا مِن تزييفِ مُعارضتِهِم وآرائِهِم شأن المُبطِلِ؛ إذا دمغتهُ الحُجّةُ"[1].

سِرُّ تَقييدِ الفِعلِ ﴿جِدَٰلَنَا﴾ بالمَفعولِ به:

تـذمُّـر أهـل البـاطـل مـن حـجـج أهـل الحـقِّ، وصفٌ دائـم لأهـل الباطل

أعادَ هَؤلاءِ التَّعبيرَ بالمَفعولِ به ﴿جِدَٰلَنَا﴾ مَعَ إمكانِ الاستِغناءِ عَنهُ وحَذفِه، ويَكونُ تَعبيرُهُم (قدْ جادَلْتَنا، فأكْثَرتَ) مَعَ العِلمِ بهَذا المَفعولِ إلّا أنَّهُم أعادوه لِتَذَمُّرِهِم، وتَضجُّرِهِم ويَأسِهِم مِن الإقناعِ، وتَعبيرُهُم هَذا (كِنايَةٌ) عَن التَّمادي والاستِمرارِ في حالَةِ الكُفرِ المُخَيِّمَةِ عَلَيهِم.

سِرُّ إضافةِ المَفعولِ بِهِ ﴿جِدَٰلَنَا﴾ إلى الضَّمير:

المغرور بنفسه، لا يستبين الحقَّ، ولا يهتدي إلى الصِّراط السَّويِّ

أضاف قَومُ نوحٍ عليه السلام المفعولَ إلَى أنفُسِهِم في ﴿جِدَٰلَنَا﴾، تَعظيمًا لِشَأنِهِم، وتَشريفًا لَهُم، مِن وُجهَةِ نَظَرِهِم، كَأَنَّهُم قالوا: جادلتَنا، وما ينبَغي لِمثلِنا أن يُجادَلَ، فنَحنُ أعزُّ وأرفعُ مِن ذَلِكَ، والتَّشريفُ هُنا مِن تَشريفِ المُضافِ إليهِ.

دَلالَةُ الفاءِ في قَولِهِ: ﴿فَأۡتِنَا﴾:

الحـذف إيجازٌ واختصار، يزيد في بيان السّياق وجماله

الفاءُ هُنا فصيحَةٌ، وهي الَّتي تُفصِحُ عَن شَرطٍ مُقَدَّرٍ، والمُرادُ: إنْ كُنتَ صادِقًا في قَولِكَ؛ فأتِنا، والتَّعبيرُ بالفاء كَشَفَ عَن مَدى غُرورِهِم وتَكذيبِهِم لِنَبيِّهِم نوحٍ عليه السلام إذ المُرادُ: ائتِنا بالعَذابِ على الفورِ، فلَم يَترُكوا لِأنفُسِهِم فُرصَةً لِلتَّرَوّي ومُراجَعَةِ الأمرِ، فقد حذف الجواب لدلالة ما سبق عليه، وفي ذلك عونٌ على التَّدبُّر.

الغرضُ مِن التَّعبيرِ بفِعلِ الأمرِ ﴿فَأۡتِنَا﴾:

اسـتـعـجـالُ العَذابِ، هُروبٌ مِن الجِدالِ

ورَدَ التَّعبيرُ بِفعلِ الأمرِ هُنا ﴿فَأۡتِنَا﴾ تَعجيلًا مِنهُم بوقوعِ العَذابِ وعدَمِ إنظارِه وانتِظارِهِ، وبَلَغَ مِن كِبرِهِم أنَّهُم عَبَّروا بالإتيانِ الَّذي يَأتي غالِبًا في الشَّيءِ المَحبوبِ السَّهلِ[2]. وهَذا مِن كِبرِهِم وعِنادِهِم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/60.

(2) حمدان، الإتيان والمجيء، فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، ص: 17.

واستِهزائِهم، والمُرادُ: إنْ وقعَ ما توَعَّدتَنا بهِ مِن العَذابِ؛ فهَذا أمرٌ سَهلٌ علَينا، ومُحبَّبٌ إلَى قُلوبِنا، وجائز أن يكونوا قد استَعجَلوا وُقوعَ العَذابِ يَأسًا مِنهُم في الغَلَبَةِ والانتِصارِ في المُجادَلَةِ، فأعيَتْهُم الحُجَّةُ، وضاقَتْ علَيهِم السُّبُلُ، فاستَعجَلوا العَذابَ، والأوَّلُ أرجَحُ؛ لِأنَّهم في نِهايَةِ الآيَةِ شَكَّكوا في صِدْقِهِ ﷺ والسّياق مشعرٌ بأنَّ فعل الأمر، المراد به هنا التَّعجيز.

مَعنَى حَرفِ الجَرِّ ودِلالَتُه في شبه الجملة ﴿بِمَا﴾:

المبالغة في التَّعجيز، بتأكيد تحقُّق الموعود به

الباءُ في قَولِه: ﴿بِمَا﴾ حَرفُ جَرٍّ زائدٌ جاءَ تَأكيدًا لِأمر الصِّلة المَطلوبِ مِنهُ ﷺ وهوَ استِعجالُ العَذابِ خَلاصًا مِن المُجادَلَةِ.

دلالة (ما) الموصولة في شبه الجملة ﴿بِمَا﴾:

إفادة السّياق أنَّ اليَأسَ يَنقَلِبُ إلَى استِهزاءٍ، وتَهَكُّمٍ أحيانًا

في قوله: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ ما: اسمٌ موصولٌ، وهو اسم مبهم الدّلالة؛ لولا صلته الكاشفة للمراد به، والتي يحصل بها التعريف، وهذا الإبهام الأوّليّ في اسم الموصول يُحدِث في نفس السّامع تشوّقًا، وتطلّعًا لمعرفة المراد به عن طريق صلته، فتتلقّفها نفسُه بالدّافع الذّاتي إلى المعرفة[1]، والتَّعبيرُ بهِ أفادَ التَّهَكُّمَ والاستِهزاءَ مِنهُ ﷺ ومن العَذابِ الَّذي تَوَعَّدَهُم بهِ، وهَذا شَأنُ الجاهِلِ المعانِدِ، أنَّهُ يُشهِرُ السَّيفَ إذا أعجزَتْهُ الحُجَّةُ، ويُعلِنُ التَّحدي؛ إذا يَئِسَ عَن مواجَهَةِ الحَقِّ.

الغَرَضُ استعمال لفظ ﴿تَعِدُنَآ﴾ بمعنى (تَتَوَعَّدُنا):

بيان أنَّ الكِبْرَ يَقلِبُ الحَقائقَ، ويَخلِطُ المَفاهيمَ

في قوله: ﴿تَعِدُنَآ﴾ استعارةٌ تَهَكُّمِيَّةٌ حيثُ نُزِّلَ التَّضادُ بَينَ الوَعدِ والوَعيدِ منزِلَةَ التَّناسُبِ بَينَهُما، ثُمَّ شُبِّهَ الوعدُ بالوَعيدِ، واشتُقَّ مِن الوَعدِ الفعلُ تَعِدُنا على سَبيلِ الاستِعارَةِ التَّهَكُّمِيَّةِ، وهي أيضًا عِنادِيَّةٌ؛ لِعَدَمِ تَأتّي اجتِماعِ الوَعدِ والوَعيدِ في شَيءٍ واحِدٍ، وهَذا مِنْ

(1) حسن، بلاغة اللغة: 1/429.

كِبْرِهِم وعِنادِهِم واستِهزائِهِم، وذَلكَ حينَ جَعَلوا أمرَ ما توعِّدوا بهِ سَهْلًا عَليهِم ومُحَبّبًا إلَى قُلوبِهِم.

الغَرَضُ مِن الأُسلوبِ الخَبَريِّ في الجملة المصدّرة بـ ﴿قَدْ﴾:

قَولُهُم: ﴿قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ خَبَرٌ مُستَعمَلٌ في التَّذَمُّرِ والتَّضجُّرِ والتَّأييسِ مِنَ الاقْتِناعِ، أجابَهُمْ بالمُبادَرَةِ لِبَيانِ العَذابِ؛ لِأنَّ ذَلِكَ أدْخَلُ في المَوْعِظَةِ، فبادَرَ بِهِ؛ ثُمَّ عادَ إلَى بَيانِ مُجادَلَتِهِ"[1].

بيان ملمح التَّذَمُّرِ والتَّأييس مِنَ الاقْتِناعِ

مَوقِعُ أُسلوبِ الشَّرطِ مِمّا قبلَهُ:

قَولُهُم: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ شَرطٌ جَوابُهُ دَلَّ عَلَيهِ ما قَبلَهُ، والمَعنَى: إنْ كُنتَ مِن الصّادِقينَ؛ فأتِنا، فجاءتِ الجُملَةُ الشَّرطيَّةُ مِنهُم استِهزاءً وتَهكُّمًا واستِعجالًا لِوُقوعِ هَذا العَذابِ، وهي تأكيد لمعنى الجملة السّابقة إمعانًا في التَّهكُّم والاستهزاء.

أُسلوبُ الشَّرطِ، مُستعمَلٌ مِن قِبَلِهِم تَهَكُّمًا

دلالَةُ التَّعبيرِ بحرفِ الشَّرطِ ﴿إن﴾ الدالَّةِ على التَّقليلِ:

التَّعبيرُ بـ ﴿إن﴾ يَأتي لِلفعلِ المَشكوكِ في وُقوعِهِ، و(إذا) تَأتي لِلأمرِ المَقطوعِ بِوُقوعِهِ، وَقولُهُم: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، شَكٌّ في كَونِهِم مصدِّقيه في مُجادَلَتِهِ، بدِلالَةِ استِعجالِهِم العذابَ تَهَكُّمًا واستهزاءً، والمُرادُ: إن كُنتَ تَزْعُمُ أنَّك مِن الصّادِقينَ؛ فأتنا بهَذا العذابِ.

فرقٌ في التَّعبير بـ (إنْ) عن (إذا)، لتنوُّع المعنى بتنوُّع الاستعمال

سِرُّ إيثار التَّعبير بـ ﴿مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ هُنا بقَولِهِ: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، بَيانًا لِتَعريفِهِ في جُملَةِ جَميعِ الصّادِقينَ؛ لِأنَّ (أل) في الصّادِقينَ تُفيدُ الجنسَ، والمُرادُ بِهِم العَريقونَ في الصِّدقِ المَوسومونَ بِهِ الَّذينَ لا تَنحَلُّ عنهُم صفةُ الصِّدق، ولأنَّ المُعرَّف بـ (أل) الجنسيَّة يُفيدُ العُمومَ والشُّمولَ، فالمراد: أنَّك من جنس الصّادقين المجبولين على الصِّدق الثّابتين عليه، وهَذا أبلَغُ مِن أنْ يُقالَ: (إن كنت صادقًا).

انتقاء الصّيغة الملائمة للمعنى دليلٌ على دقَّة اللُّغة ورقائها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/60.

التَّـهَـكُّـمُ والاستِـهـزاءُ، دَيـدَنُ الكَـفَرَةِ المُعانِدينَ

حَـذفُ ما يُعلَمُ جائِزٌ، وهـو من فصيح البيان

الغَرَضُ مِن أُسلوبِ التَّعريضِ في جملة جواب الشَّرطِ:

قَولُهُم لَهُ عليه السلام: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، تَعريضٌ مِنهُم بكَذِبِه - حاشاه - في وعْدِهِ إيّاهُم بإتيانِ عَذابِ اللّه عَلَيهِم، فقالوا ذَلِكَ؛ تَهَكُّمًا وتَعْجيزًا ظَنًّا مِنْهُم أنَّ اللّه تعالى سَيَخْذُلُهُ وألّا يَنصُرَه.

بَلاغَةُ حَذفِ الجَوابِ، وتَقديرُه ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾:

حَذفُ جَوابِ الشَّرطِ في قَولِه: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، والتَّقديرُ: وقالوا: فَأْتِنا بما تَعِدُنا مِن العَذابِ المُعَجَّل، ويُحذَفُ؛ إذا سَبَقَ في الكَلامِ ما يَدُلُّ عَليَه؛ إذْ "يَجوزُ أَنْ يَكونَ المُرادُ به العَذابَ الَّذي أُشيرَ إلَيهِ في قَولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦﴾ [هود: 26] بناءً على ألّا يَكونَ المُرادُ باليَومِ يَومَ القيامَةِ"[1].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/45.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣﴾ [هود: 33]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ردُّ نوح عليه السلام عليهم، حين استعجلوا وقوع العذاب، بأنَّ الله لا يعجزه ذلك

على نهج الآيات في الرَّدِّ على لسان نوح عليه السلام على المشركين من قومه في دعاويهم الباطلة جاء قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾؛ ردًّا عليهم في قولهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وهذا الردُّ منه عليه السلام قصْمٌ لظهورهم، فلا تتعجَّلوا عذابه؛ إذ إنَّ ما تستعجلونه واقعٌ لا محالة، ولكن يأتي به الله إن شاء، ولستم بمعجزيه سبحانه وتعالى.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾: "العَيْنُ والجيمُ والزّاي أصْلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أحَدُهُما على الضَّعْفِ، والآخَرُ على مُؤَخَّرِ الشَّيْءِ، فالأوَّلُ عَجِزَ عَنِ الشَّيْءِ يَعْجِزُ عَجْزًا، فهوَ عاجِزٌ، أيْ: ضَعيفٌ، وقولهمْ: إنَّ العَجْزَ نَقيضُ الحَزْمِ، فمِنْ هَذا؛ لِأنَّهُ يَضْعُفُ رَأْيُهُ، ويقولونَ: "المَرْءُ يَعْجِزُ لا مَحالَةَ". ويُقالُ: أعْجَزَني فُلانٌ؛ إذا عَجِزْتُ عن طَلَبِهِ وإدْراكِهِ، ولَنْ يُعْجِزَ اللهَ تعالى شَيْءٌ، أيْ: لا يَعْجِزُ اللهُ تعالى عنهُ مَتى شاءَ"(1).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مُستَعجِلُ الشَّيءِ يلْقاه، وإنْ طالَ الزَّمن واتَّسع مَداهُ

قال نوحٌ عليه السلام رَدًّا عَليهِم: هَذا الأمرُ الَّذي تطلبونه بيدِ اللّه تعالى؛ فهوَ وحدَهُ الَّذي يَأتيكُم بهِ - إن شاءَ - حَسَبَ حِكمَتِهِ وإرادَته، ولَستُم بناجينَ أو مُفلتِينَ مِن عَذابِهِ إن وقَعَ بكُم أو جاءَ مَوعِدُه، فاللّه سبحانه وتعالى لا يُعجِزُهُ شَيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجز).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوقِعُ الجُملَةِ مِمّا قبلها، وأثر الفصل في شبه كمال الاتِّصال:

المجابهة بين الحقِّ والباطل أمر واقع ما له من دافع

وقعَتْ هذه الجُملَةُ مِن سابِقَتِها موقعَ الاستئناف البيانيِّ، ومِن هُنا فُصِلَتْ عنها لِشِبهِ كَمالِ الاتِّصالِ، فكأنَّه قيلَ: فما كانَ رَدُّه عليه السلام عَلَيهم حينَ استعجَلوا العَذابَ؟ فجاءَ رَدُّه على طَريقَةِ الأقوالِ السّابِقَةِ والمُحاوَراتِ الّتي مرَّت قال: ﴿إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾.

السِّرُّ في تَعبيرِه عليه السلام بأُسلوبِ القَصرِ:

بيانُ حمْلِ كلام المجادل على الظّاهر على طَريقَةِ مُجاراةِ الخَصمِ في المُناظَرَة

في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ قَصرُ صفةٍ على موصوفٍ، فقد قَصَرَ فيه الإتيانَ بالعَذابِ عَلَيهِ ﷻ إذا اقتضت مشيئَتُه، والمغزى من هذا الإتيانِ لا يكونُ هُنا إلّا منهُ ﷻ: "والقصرُ... قصرُ قلبٍ بناءً على ظاهِرِ طلبِهم، حملًا لِكلامِهم على ظاهِرِه على طريقةِ مُجاراةِ الخصمِ في المُناظرةِ، وإلّا فإنّهُم جازِمون بتعذُّرِ أن يأتيهُم بما وعدهُم؛ لِأنّهُم يحسبونهُ كاذِبًا، وهُم جازِمون بأنّ اللّه لم يتوعّدهُم، ولعلّهُم كانوا لا يُؤمِنون بوُجودِ اللّه"(1).

والمقصود من أسلوب القصر تأكيدُ المعنى وإيجازه؛ لأنَّ القصر في قوَّة جملتين، وهو قصر قلب جاء ردًّا على مطالبتهم نوحًا عليه السلام أن يأتيهم بالعذاب، فكان قصرُ القلب أنسبَ أسلوبٍ في الرَّدِّ عليهم.

سِرُّ إيثار أداة القصر ﴿إِنَّمَا﴾ في معرض السّياق:

إتيان الله بالعذاب، ممّا لا يجهله المخاطب، ولا ينكره

جاءَ بأُسلوبِ القَصرِ هُنا بـ ﴿إِنَّمَا﴾؛ لِتَنبيهِهِم إلَى وُقوعِ ما يُنكِرونَهُ، فلا تَنصَرِفُ عُقولُهم إلَى عَدَمِ وُقوعِه؛ لِأنَّهم ما قالوا ذَلِك إلّا استِهزاءً وتَهَكُّمًا بِهِ عليه السلام كما أنَّ فيهِ تَعريضًا بأنَّه عليه السلام لا يَستَطيعُ أنْ يُنزِلَ بِهِم هَذا العَذابَ؛ إذ لَيسَ في مَقدورِه، وسرُّ التَّعبير بها أنَّها تكون فيما لا ينكره المخاطَب، ولا يجهله؛ تعريضًا بجهلهم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/60.

مَفادُ التَّعبيرِ بالفِعلِ (يَأتي)

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ ﴿يَأۡتِيكُم﴾:

عبَّرَ نَبيُّ اللّه نوحٌ ﷺ عَن إتيانِ عَذابِ اللّه تعالى بالفعلِ المُضارِعِ الدالِّ على وُقوعِهِ إمّا حالًا، وإمّا مُستقبَلًا مَع إعطاءِ المُهلَةِ للرُّجوعِ والإنابَةِ، والفعلُ المُضارِعُ دالٌّ على التَّجدُّدِ والاستِمرارِ مَعَ الوقوعِ واستِحضارِ صورَتِهِ ليلتَزموا طريقَ الحَقِّ.

تَقديمُ الشَّيءِ يُفيدُ فائِدَةً أفضَلَ مِن تأخيرِه

نُكتَةُ تقديمِ المَجرورِ ﴿بِهِ﴾ على الفاعِلِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

جاءَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ هُنا (بِهِ) على فاعِلِهِ اسم الجَلالَةِ (اللّه) لِتَخصيصِ وُقوعِ العَذابِ والإتيانِ لِكونِهِ المقصودَ بالذِّكرِ، وتَقديمُهُ تَهويلٌ لِلأمرِ وردٌّ سَريعٌ مِنهُ ﷺ بِلِسانِ الحالِ عَلَيهِم، أي: هوَ آتٍ لا مَحالَةَ، والمُرادُ هوَ آتيكُم بهَذا العَذابِ الَّذي تَنتَظِرونَهُ لا بغيرِه، وفيهِ مِن تَخويفِهِم بالمَوعودِ ما لا يَصلُحُ مَعَهُ إلّا التَّقديمُ، قال الآلوسيُّ: "وفيهِ كَما قيلَ: ما لا يَخفى مِن تهويلِ المَوعودِ، فكَأنَّهُ، قيلَ: الإتيانُ بهِ أمرٌ خارِجٌ عَن دائرَةِ القوى البَشَريَّةِ، وإنَّما يَفعَلُه اللّه تعالى. وفي الإتيانِ بالاسمِ الجَليلِ الجامِعِ تأكيدٌ لِذَلكَ التَّهويلِ"[1].

الأمرُ إلَى مالِكِهِ سبحانه يوقِعُهُ حَسَبَ مَشيئتِهِ

الغَرضُ مِن ذِكرِ جُملَةِ الشَّرطِ ﴿إِن شَآءَ﴾:

قولُه: ﴿إِن شَآءَ﴾ احْتِراسٌ راجِعٌ إلَى حَمْلِ العَذابِ، على عَذابِ الدُّنيا، والمَعنَى: يَأتيكُم بِهِ اللّه الَّذي لَهُ الإحاطَةُ الشّامِلَةُ، بكُلِّ شَيءٍ، وهَذا أدَبٌ عالٍ مِنهُ ﷺ في إسنادِ الأمرِ إلَى القادِرِ عَلَيهِ، فهو يَبرَأُ مِن الحَولِ والقوَّةِ، ويَردُّ ذَلِكَ إلَى مَن لَهُ الحَولُ والقوَّةُ، فرَدَّ إلَيهِ الأمرَ مُحتَرِسًا، فقالَ: ﴿إِن شَآءَ﴾، والمُرادُ: أنَّه مُخيَّرٌ في إيقاعِهِ أو عَدَمِهِ، والتَّعْليقُ بـ ﴿إِن شَآءَ﴾ مَنْظورٌ فيه، إلَى كَوْنِ العَذابِ مُعَجَّلًا أو مُؤَخَّرًا"[2].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/45.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/278، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/60، بتصرّف.

دلالَةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَمَآ أَنتُم﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم﴾، الواو هُنا: حاليَّة؛ لِبَيانِ حالتِهِم من العَجزِ والخَطَأ في كَونِهِم مُعَرَّضينَ للهلاكِ؛ فإنَّهُم لا يُعجِزونَهُ ﷻ لا فوتًا ولا هَرَبًا.

بيان رَدِّ نوح عليه السلام مُبيِّنًا لَهُم حالَهُم مِن عَذابِ الله تعالى

الغرض من التَّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالجملة الاسمية المنفية ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾: لبيان عجزِهم الكاملِ عَن النَّجاةِ مِن العَذابِ إن حَلَّ بهِم، والتَّعبيرُ بالجُملَةِ الاسميَّةِ دَليلٌ على ثبوت العجز لهم واستمراره منهم حَتَّى وإن وُصفوا في بَعضِ الأحوالِ بالقوَّةِ، إلّا أنَّهم أمامَ مَقدورِ اللّه لَيسوا بناجينَ، ولا مُفلِتينَ مِن عِقابِهِ في أيِّ وقتٍ من أوقاتِ حَياتِهِم، أو بَعدَ حَياتِهِم، وأنَّ العذابَ الَّذي استعجَلوه واقِعٌ لا مَحالَة، والمعنى: "﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ بمُصَيِّرِيهِ ﷻ عاجِزًا بدَفعِ العَذابِ أو الهَرب منه، والباءُ زائِدَةٌ للتَّأكيدِ، والجُملَةُ الاسميَّةُ لِلاستمرارِ، والمُرادُ: استمرارُ النَّفيِ وتأكيدُه لا نَفيِ الاستمرارِ"[1].

البَشَرُ عاجِزونَ، لا يملِكونَ مِن أمرِهِم شَيئًا، ولا يعجِزون الله شيئًا

دلالَةُ الخطاب بالضَّمير ﴿أَنتُم﴾:

جاءَ التَّعبيرُ هُنا بقولِهِ: ﴿أَنتُم﴾، والعادة أنَّ التَّعبير بالضَّمير هَذا، إمّا أن يُخاطَبَ بِهِ معيَّنٌ، أو يخاطَبَ بِهِ مَن يصلحُ لَهُ الخِطابُ على سبيلِ البَدَلِ والتَّناوُبِ، وهُنا الخِطابُ لمعيَّنِينَ مُشاهَدينَ يُحاوِرونَه، ويُحاوِرُهُم، وقَد ينسحِبُ الحُكْمُ على غَيرِهِم، مِمَّن يَنْهَجُ نَهجَهُم، ويَسيرُ على مِنوالِهم، إلّا أنَّه عليه السلام يقولُ: ﴿أَنتُم﴾ لا غَيرُكُم؛ لِكَونِهِم المخصوصينَ بهَذا الوعيدِ دونَ سِواهُم، فلا هَرَبَ يَقَعُ مِنهُم ولا إفلاتَ، والمَقامُ هُنا مقامُ خطابٍ لهُم، فخاطَبَهُم خطابَ الحاضِرِ المشاهَدِ المعيَّنِ المعايِن.

بيان التَّحدّي بالعَذابِ، والتَّأكيد بأنَّه لا هَرَبَ ولا إفلاتَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/45.

دلالة الباءِ ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ في خبَر ﴿وَمَآ﴾:

جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ مقترنًا بالباءِ الَّتي جاءَت لتأكيدِ وصفِهم بالعَجزِ، وكانَ في غيرِ هذا التَّعبيرِ أنْ يقولَ: (وما أنتُم مُعجزِينَ) إلّا أنَّ المَقامَ لمّا كانَ مَقامَ تحدٍّ وإظهارِ المُعاندة مِنهُم؛ أكَّدَ الاسمَ بالباءِ الَّتي دَلَّت - أيضًا - على أنَّ وصفَهُم بالعَجزِ صارَ مُلاصِقًا لَهُم لا ينفكُّ عنهُم أبدًا.

ورود السّياق بإبراز عَجزهم الدّائِم المُلاصِق لَهُم

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَأْتيكُم) و(يَجيئُكُم):

﴿يَأۡتِيكُم﴾: الإتيان بالشَّيء: الإتيان: مجيء بسهولة، والإتيان يقال للمجيء بالذّات وبالأمر وبالتَّدبير، ويقال في الخير وفي الشَّرِّ وفي الأعيان والأعراض"[1].

هنالك أفعالٌ مستعمَلَةٌ في مواطِنِها، لا يُعبِّر عَنها غيرُها

(يجيئكم): المجيء: "المجيء كالإتيان، لكن المجيء أعمُّ؛ لأنَّ الإتيان مجيء بسهولة، والإتيان قد يقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال اعتبارًا بالحصول، ولما يكون مجيئه بذاته وبأمره، ولمن قصد مكانًا أو عملًا أو زمانًا"[2].

قال أبو هلال العسكريُّ: "الفرق بَين قَوْلك: أَتَى فلان، وجاء فلان: أنَّ قَوْلك: جاءَ، كَلام تامٌّ لا يحْتاج إِلَى صلَة، وقولك: أَتَى فلان، يَقْتَضي مجيئه بشَيْء، ولِهَذا يُقال: جاءَ فلانٌ نَفسه، ولا يقال: أَتَى فلانٌ نَفسه، ثمَّ كثر ذَلِك حَتَّى استُعمِل أحد اللَّفْظَيْنِ، في مَوضِع الآخر"[3].

(شاءَ) و(أرادَ):

قال أبو هلالٍ العَسكَريُّ: "الفرق بَين الإرادَة والمشيئة: أَنَّ الإرادَة تكون لما يتراخى وقته، ولما لا يتراخى، والمشيئة لِما لَم يَتراخَ، والشّاهِد

الإرادَة تكون لما يتراخى وقته، ولما لا يتراخى، والمشيئة لِما لَم يَتراخَ فقط

(1) الرّاغب، المفردات: (أتى).

(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).

(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 330.

أنَّك تَقول: فعلتُ كَذا شاءَ أو أبى، فيقابل بها إيّاه، وذَلِكَ يكون عِنْد محاولة الفِعْل، وكَذَلِكَ مَشيئَةٌ إنَّما تكون بَدَلًا من ذَلِك في حاله"[1].

وقال الرّاغب: "والمَشيئَةُ عند أكثر المتكلِّمين كالإرادة سواء، وعند بعضهم: المشيئة في الأصل: إيجاد الشيء وإصابته، وإن كان قد يستعمل في التُّعارف موضع الإرادة، فالمشيئةُ من اللّه تعالى: هي الإيجادُ، ومن النّاس هي الإصابَةُ، قال: والمشيئةُ من اللّه تقتضي وجودَ الشَّيء، ولِذلكَ قيلَ: (ما شاءَ اللّه كان، وما لم يَشَأْ لم يكن)، والإرادة منه لا تقتضي وجود المراد لا محالة"[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 128، 129.

(2) الرّاغب، المفردات: (شيء).

﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٣٤﴾ [هود: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ختم ما مضى من قصَّة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قومِه بما مفاده (اللَّهُم هَل بلَّغتُ)

لَمَّا طال الحوار جدًّا بين نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه بلا جدوى ولا بارقة أمل فيها، وما أكثر ما رَدَّ عليهم نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما أوردوه من شُبَهٍ وآراء فاسدة! جاءَ قولُه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ﴾ ختامًا للكَلامِ معهُم بَعدَ كلِّ ما أثاروا من شُبَهٍ وافتراءات، وأجابَهُم عَلَيها الواحدةَ تِلو الأخرى، جاءَ هُنا بخاتِمَةٍ قاطِعَةٍ بقولِه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ﴾ قال ذلك لَمّا لَم يتحقَّق له ما أرادَ مِن نُصحِهِم الَّذي طال أمده كثيرًا، ثُمَّ دَعوتِهِم، وإقامَةِ الحُجَّةِ عليهم، حيث إنَّه يئِس مِن حالِهِم، فقالَ قولَتَه تلك.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنفَعُكُمۡ﴾: "النَّفْعُ: ما يُستَعانُ به في الوُصولِ إلى الخَيْراتِ، وما يُتَوَصَّلُ به إلى الخَيْرِ، فهو خَيْرٌ، فالنَّفْعُ خَيْرٌ، وضِدُّهُ الضُّرُّ"(1).

والمراد هنا النَّفع ضدُّ الضرِّ.

2) ﴿نُصۡحِيٓ﴾: النّونُ والصّادُ والحاءُ أصلٌ يَدُلُّ على مُلاءَمَةٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ وإصْلاحٍ لَهُما.. ومِنْهُ النُّصْحُ والنَّصيحَةُ: خِلافُ الغِشِّ، ونَصَحْتُهُ أَنْصَحُهُ، وهوَناصِحُ الجَيْبِ لِمَثَلٍ، إذا وُصِف بخُلوصِ العَمَلِ، والتَّوْبَةُ النصوحُ مِنْهُ، كَأَنَّها صَحيحَةٌ لَيْسَ فيها خَرْقٌ ولا ثُلْمَةٌ"(2).

والنُّصح: قول أو عمل يريد صاحبه صلاح المعمول لأجله، وأكثر ما يطلق على الأقوال النافعة المنقذة من الأضرار، ويكون أيضًا بالعمل، كقوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ في سورة التوبة [91](3).

---

(1) الرّاغب، المفردات: (نفع).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصح).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/61.

3) ﴿يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾: الغَيُّ: جهل من اعتقاد فاسد، وذلك أنَّ الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقدٍ اعتقادًا، لا صالحًا، ولا فاسدًا، وقد يكون من اعتقاد شيء فاسد، وهذا النَّحو الثاني، يقال له: غَيٌّ"[1]. والمراد: أن يضلَّكم[2].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

موقفُ المفاصلةِ الأخيرُ بينَ سيِّدنا نوحٍ وقومِهِ الرّافضينَ دَعوتَه وهديه

لَمّا فرَغَ نوحٌ عليه السلام مِن إجاباتِهِ المتعدِّدة رَدًّا على ما أثاروه من شُبهات، وقابَلَ منهم عدمَ الإذعانِ لدعوتِه؛ عَلِمَ أن لا نفعَ يُرجَى من نُصحِهِ إيّاهُم، وأنَّه ما توانَى، ولا قَصَّرَ في دعوتِهم، ولا في نَصيحَتِهم، وأنّهم لا زالوا في غوايتِهم وكِبرهم، أضَلَّهم اللّٰه تعالى عن طَريقِ الحَقِّ والخير، لما كان منهم من عِنادِهم وصَلَفِهم وغُرورِهم، فأعلَمَهُم عليه السلام أنَّ مصيرَهم راجعٌ إليه سبحانه وتعالى، وسيجازيهم الجزاءَ الَّذي يستحقونه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ العطفِ في ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ﴾:

ختامُ الحوارِ مع القـومِ، ببيانِ عدمِ نفعِ النُّصحِ لهُم

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ﴾ "عَطْفٌ على وعْظِهِمْ بحُلولِ العَذابِ وتَوَقُّعِهِ بَيانَ حالِ مُجادَلَتِهِ إيّاهُمُ الَّتي امْتَعَضوا مِنها بأنَّها مُجادَلَةٌ لِنَفْعِهِمْ وصَلاحِهِمْ، وفي ذَلِكَ تَعْرِيضٌ بتَحْميقِهِمْ وتَسْفيهِ آرائِهِمْ حَيْثُ كَرِهوا ما هوَ نَفْعٌ لَهُمْ"[3].

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ﴾:

إلــحــاحٌ في الدَّعوةِ مع طول الـزَّمـانِ، ومع ذلك فلا جَدوى ولا إيمان

ورد التَّعبيرُ بالفعل المضارِعِ ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ﴾ المنفي دِلالَةً على تَجَدُّدِ عدم النَّفعِ وحدوثِه واستمرارِه طالَما أنَّه لَم يَجِدْ آذانًا صاغيةً أو قُلوبًا متقبِّلةً للنُّصحِ مَعَ استحضارِ صورةِ هذا النُّصحِ الَّذي تَكرَّر مرارًا وتكرارًا.

(1) الرّاغب، المفردات: (نغوى).
(2) الرّاغب، المفردات: 3/167.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/61.

نُكتَةُ تَقديمِ المفعولِ به (كُم) على الفاعِلِ ﴿نُصۡحِيٓ﴾:

مَن يُخصُّ بالحديثِ؛ يُقصَدُ بالنَّظرِ، فيصيرُ مُقدَّمًا

في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ﴾ قُدِّمَ المفعولُ بِهِ على فاعِلِه ﴿نُصۡحِيٓ﴾ لِلاختصاصِ، لِكَونِهم المَخصوصينَ بالنَّفعِ لا غَيرِهِم، ولِقَصدِ حُصولِ التَّبكيتِ والتَّعجيبِ مِن حالِهِم.

سِرُّ إضافةِ الفِعلِ إلى ياءِ المُتكَلِّم ﴿نُصۡحِيٓ﴾ ودلالته:

شَرفُ المضافِ، مِن شَرَفِ المضافِ إِلَيه

أضاف نوحٌ عليه السلام النُّصْحَ إلَى نَفسِهِ تَشريفًا وتَعظيمًا لِأمر هَذا النُّصحِ لِكَونِهِ نُصحًا خالِصًا مِن مُخلِص، "والنُّصْحُ: قَوْلٌ أو عَمَلٌ يُرِيدُ صاحِبُهُ صَلاحَ المَعْمولِ لِأجْلِه، وأكْثَرُ ما يُطْلَقُ على الأقْوالِ النّافِعَةِ المُنْقِذَةِ مِنَ الأضْرارِ، ويَكونُ بالعَمَلِ، والمُرادُ بالنُّصْحِ هُنا هوَ ما سَمّاهُ قَوْمُهُ بالجِدالِ، أيْ: هوَ أوْلَى بأنْ يُسَمَّى نُصْحًا؛ لِأنَّ الجِدالَ يَكونُ لِلْخَيْرِ والشَّرِّ، كَما تَقَدَّمَ"[1].

الغَرضُ من الاعتراضِ بأسلوب الشَّرط في السّياق:

النُّصح دليل الاهتمام، وهو لبُّ الدّين، وأسُّ إصلاح الأنام

قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ﴾، هوَ شَرْطٌ مُعْتَرِضٌ بَيْنَ الشَّرْطِ وبَيْنَ دَليلِ جَوابِه؛ لِأنَّهُ لَيْسَ هوَ المَقْصودُ مِنَ التَّعْليقِ ولَكِنَّهُ تَعْليقٌ على تَعْليقٍ، وغَيْرُ مَقْصودٍ بِهِ التَّقْييدُ أصْلًا. فلَيْسَ هَذا مِنَ الشَّرْطِ في الشُّروطِ المَفْروضَةِ في مَسائِلِ الفِقْهِ وأُصولِهِ في نَحْوِ قَوْلِ القائِلِ: إنْ أكَلْتِ، إنْ شَرِبْتِ؛ فأنْتِ طالِقٌ؛ لِأنَّها مَفْروضَةٌ في شَرْطٍ مُقَيَّدٍ لِشَرْطٍ آخَرَ، على أنَّ المَقْصودَ إذا اجْتَمَعَ فِعْلا الشَّرْطَيْنِ؛ حَصَلَ مَضْمونُ جَوابِهِما"[2]، وتقييد عدم نفع النُّصح بإرادته مع أنَّه لا محالة؛ للإيذان بأن ذلك النصح مقارن للإرادة والاهتمام به.

نُكتَةُ حَذفِ جَوابِ الشَّرط في الجملة الشَّرطيَّة:

الإيجازُ في موطِنِه، يدلُّ على المُرادِ باختصارٍ

في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ﴾ شرطٌ حُذف جوابه لدلالة ما سبق عليه، وليس جوابًا لامتناع تقدُّم الجواب على الشرط

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/61.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/61.

على الراجح، والتقدير: "إنْ أرَدْتُ أنْ أنْصحَ لَكُمْ لا يَنفعُكُمْ نُصْحي، وهذه الجملة دليل على ما حذف من جواب قوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾[1]. وفي حذف الجواب دلالة على عدم جدوى نصحهم ولا انتفاعهم به.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِنۡ﴾، المستعملةِ فيما يَقِلُّ وُقوعُهُ:

كَثرَةُ الجِدالِ، تَصرِفُ الإنسانَ إِلَى قِلَّةِ نُصحِهِ لِلمُجادِلِ

ورَدَ التَّعبيرُ على لِسانِهِ ﷺ بـ ﴿إِنۡ﴾ الدالَّةِ على الشَّكِ، وعَلَى قِلَّةِ وُقوعِ الشَّيءِ المَقطوعِ بِصِحَّةِ وُقوعِهِ، كَما تُستَعمَلُ إنْ في مَقامِ التَّوبيخِ إنكارًا لِحُدوثِ الفعلِ مِن فاعِلِه، لِذا عَدَلَ نوحٌ ﷺ إِلَى ﴿إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ﴾ مُؤْذِنٌ بعَزْمِه على تَجْديدِ النُّصْحِ في المُسْتَقْبَلِ؛ لِأَنَّ واجِبَهُ هوَ البَلاغُ وإنْ كَرِهوا ذَلِكَ"[2]. ومراده من فعل النُّصح هنا "الإعلام بموضع الغيِّ لِيُتَّقى، والرشد لِيُتَّبع"[3].

الغرض من التَّعبير بأسلوب الشَّرط في سياق الآية الكريمة:

ارتباط الكلام، يجعل بعضه آخذًا بحجز بعضه الآخر

الغرض من تعبيره ﷺ في قوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾، بأسلوب الشرط زيادة تأكيد منه ﷺ لعموم قدرة الله وإرادته، والمعنى: إنْ كانَ اللهُ يُريدُ أنْ يُغْويَكُمْ، فإنْ أرَدْتُ أنْ أنْصحَ لَكُمْ؛ لا يَنْفعُكُمْ نُصْحي، وذلك أنَّ القاعدة - كما يقول النُّحاة - إذا اجتمع في الكلام شرطان وجواب؛ يُجعل الجواب للثاني والشرط الثاني وجوابه جواب عن الأول.

"وجُمْلَةُ الشَّرْطِ في قَوْلِه: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ هيَ المَقْصودُ مِنَ الكَلامِ، فجَوابُها في مَعْنَى قَوْلِه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ﴾، ولَكِنَّ نَظْمَ الكَلامِ بُنِيَ على الإخْبارِ بعَدَمِ نَفْعِ النُّصْحِ اهْتِمامًا بذَلِكَ، فجُعِلَ مَعْطوفًا على ما قَبْلَهُ، وأُتيَ بالشَّرْطِ قَيْدًا لَهُ"، "وأشارَ بقَوْلِه: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ إِلَى ما هُمْ فيهِ مِنْ كَراهيَةِ دَعْوَةِ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/204، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/46.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 12/62.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 5/279.

نوح عليه السلام سَبَبُهُ خِذْلانُ اللهِ إيّاهُمْ، ولَوْلاهُ؛ لَنَفَعَهُمْ نُصْحُهُ، ولَكِنَّ نوحًا عليه السلام لا يَعْلَمُ مُرادَ اللهِ مِنْ إغْوائِهِمْ ولا مَدَى اسْتِمْرارِ غَوايَتِهِمْ، فلِذَلِكَ كانَ عليه أنْ يَنْصَحَ لَهُمْ إلَى نِهايَةِ الأمْرِ"[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بـ فعل الكينونة ﴿كَانَ﴾:

لا يقعُ في مُلكِ اللهِ شَيءٌ، كبر أو صغر على خِلافِ ما نهى وما أمر

جاءَ التَّعبيرُ هُنا بزيادَةِ الفِعلِ ﴿كَانَ﴾ لِلإشعارِ بتَقَدُّمِ إرادَتِه تعالى زَمانًا كَتقدُّمِها رُتبةً ولِلدِّلالَةِ على تَجَدُّدِها واستِمرارِها، وإنَّما قُدِّمَ على هَذا الكَلامِ ما يَتَعَلَّقُ بقولِهِم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾؛ رَدًّا عَلَيهِم مِن أوَّلِ الأمرِ وتَسجيلًا عَلَيهِم بحُلولِ العَذابِ مَعَ ما فيهِ مِن اتِّصالِ الجَوابِ بالسُّؤالِ، وفيهِ دَليلٌ على أنَّ إرادَتَه تعالى يَصِحُّ تعلُّقُها بالإغواءِ، وأنَّ خِلافَ مُرادِه غيرُ واقِعٍ"[2].

الغَرضُ مِن التَّعبيرِ باسمِ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

ورود اسم اللهِ تعالى، يكون لِتَربيةِ المَهابَةِ في النُّفوسِ عادة

ورَدَ التَّعبيرُ باسمِ اللهِ الأعظَمِ سبحانَهُ، والمُرادُ مَن بيَدِهِ مقاليدُ الأُمورِ كلِّها، فإذا أرادَ إضلالَكُم لِكَونِ هَذا ما جُبِلَتْ عَلَيهِ نفوسُكم، ويُركِبُكم طَريقًا غَيرَ طَريقِ الصَّوابِ، فإنَّ إرادَتَه سبحانه وتعالى تغلِبُ إرادتي وتتعَدّاها، وهُنا لا ينفعُكُم أيُّ شَيءٍ، فلا تستطيعونَ دَفْعَ الضُّرِّ عنكُم، ولا تَرُدّونَ عَذابَهُ، فاحذَروا غَضَبَهُ.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ ﴿يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾:

الغَوايةُ متجدِّدةٌ، ومَن كتب الله عليه الغَوايةَ؛ خسر الدُّنيا والآخرة

ورَدَ التَّعبيرُ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ المنصوبِ دِلالَةً على ما هم فيه من غواية متجددة، تُرجمت في كراهيتهم نوحًا عليه السلام، وعدم الانصياع لدعوته إيّاهم إلى التَّوحيد.

مَوقِعُ جُملَةِ ﴿هُوَ رَبُّكُمۡ﴾، مِمّا قبلها ودِلالَتُه:

وقعت جملةُ ﴿هُوَ رَبُّكُمۡ﴾ "ابتدائيَّةً لِتَعْلِيمِهِمْ أنَّ اللهَ رَبُّهُمْ إنْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/62.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/205، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/47.

تَـذكـيرٌ بـالـلـهِ رَبِّـهِـم، لَعلَّهُم يَرجِعونَ

كانوا لا يُؤْمِنونَ بوُجودِ اللّه، أو لِتَذْكيرِهِمْ بذَلِكَ إنْ كانوا يُؤْمِنونَ بوُجودِهِ، ويُشْرِكونَ مَعَهُ ودًّا، وسواعًا، ويغوثَ، ويَعوقَ، ونَسْرًا"[1]، فالرُّبوبيَّة معنًى تأسيسيٌّ، يجب اصطحابه دائمًا.

دِلالةُ التَّعبيرِ بالجُملَةِ الاسميَّةِ ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾:

الامـتـنـانُ على البَشَريَّةِ بعَطايا الرُّبوبيَّة، يُلقي في النَّفسِ وازِعَ الإيمانِ

دلَّ تَعبيرُه عليه السلام بقوله: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ جُملَةً اسميَّةً وقعت بَين طَرَفين: طَرَفٍ يَخُصُّ الدُّنيا وافتراءاتِها، وطَرَفٍ يُعيدُ النَّفسَ إلَى عالَمِها الأخرَوي، لِتنزَجِرَ، وتتَّعِظَ إن كانَ لَدَيها الاستعدادُ الكاملُ لِذَلِكَ، وفي ورود قَوله تعالَى: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ كذلك جُملةً اسميَّةً مُعرَّفَةَ الطَّرَفين تَأكيدٌ وبَيان لِلنُّفوسِ بأنَّ خالِقَها ومُدَبِّرَ أمرِها ومَن أوجَدَها، ومَنَحَها؛ هوَ الرَّبُّ الَّذي يَجِبُ الإيمانُ بِهِ والإذعانُ لِجَنابِهِ.

سِرُّ اصطِفاءِ المُسنَدِ ﴿رَبُّكُمْ﴾، وإضافته إلى ضميرهم:

وصـــفُ الـــرَّبِّ سبحانه وتعالى، إلزامٌ لهم بالإقرارِ بالنِّعَمِ

سَبَقَ في العُنوانِ المُتَقَدِّمِ مَعنَى الرَّبِ، ومَجيءُ المسندِ هُنا، وهوَ الخَبَرُ ﴿رَبُّكُمْ﴾ مُضافًا إلَيهِم تَشريفًا لَهُم وتنبيهًا على ضَرورَةِ النَّظَرِ إلَى نِعَمِ اللّه عَلَيهِم، وتَعريفُهُ بالضَّميرِ هوَ وإنْ كانَ ضَميرَ غَيبَةٍ إلّا أنَّه حاضِرٌ في النُّفوسِ والقُلوبِ لا يَغيبُ فيُستَدرَكَ، ولا يبعدُ فيُنتَظرَ، وعبَّر به هنا تنبيهًا وتذكيرًا بعطاءاتِ اللّه الَّتي لا تنقطع، للدِّلالَةِ على أنَّه حقيقٌ أن يُعبد.

دِلالَةُ العطفِ في ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

ضَـرورةُ المرجِعِ إلَيـهِ سبحانه وتعالى والمآلِ في كـلِّ وضعٍ وحالٍ

جاءَ قَولُهُ تعالَى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تَذييلًا وخِتامًا لِحواراتِه عليه السلام مَعَ قَومِهِ، وهوَ يتضمَّنُ إخبارًا في ضِمنِهِ وعيدٌ وتَخويفٌ لَهُم، والمُرادُ: بَعدَ ما فعلْتُم، وغَوَيتُم، وانقَلَبتُم على أعقابِكُم في دُنياكُم، اعلَموا أنَّ مَصيرَكُم ومَآلَكُم إلَى هَذا الَّذي لَم تُذعِنوا لَهُ بالإيمانِ، ولَم تلجؤوا إليه ليُخَلِّصَكُم مِمّا أنتُم فيهِ، وهوَ الَّذي سَيُجازيكُم على أعمالِكُم لا مَحالَةَ، فلَستُم بناجينَ ولا مُفلِتينَ مِن عَذابِهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 12/63.

نُكتةُ تقديمِ الجارّ والمَجرورِ ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ في السّياق:

ورَدَ التَّعبيرُ هنا بتقديمِ المسنَدِ الجارِّ والمجرورِ ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ على مُتَعَلِّقِه، وهوَ ﴿تُرۡجَعُونَ﴾، للاهتمام ولِرِعايَةِ الفاصِلَة، ولَيْسَ لِلْقَصْرِ؛ لِأَنَّهُمْ لا يُؤْمِنونَ بالبَعْثِ أَصْلًا، بَلْهَ أَنْ يَزْعُموا أَنَّهُمْ يَحْضُرونَ إِلَى اللّه وإِلَى غَيْرِهِ"[1]. ولا مانِعَ مِن كَونِ المراد تأكيدَ الرُّجوعِ إليهِ سُبحانَه لا إِلَى غيرِه: ﴿وَإِلَيۡهِ﴾، أي: لا إلى غيره ﴿تُرۡجَعُونَ﴾، أي: بأيسرِ أمرٍ وأهوَنِه بالمَوتِ، ثُمَّ البَعثِ، فيُجازيكُم على أعمالِكُم، كَما هيَ عادَةُ المُلوكِ مَعَ عُمّالِهِم"[2].

اختِصاصُهُ سُبحانَهُ بكَونِ الرُّجوعِ إليهِ وحدَه

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ ﴿تُرۡجَعُونَ﴾، مبنيًّا للمفعول:

جاءَ التَّعبيرُ القرآنيُّ هُنا بالفعلِ المضارعِ ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ مبنيًّا للمفعول، دلالة على أنَّ رجوعه إلى اللّه تعالى هو أمر واقع عليهم، وليس اختيارًا منهم، فبقدرته سبحانه يبعثهم من موتهم.

الفرق بين (رجَعُوا) و(سيرجِعون)

وهو هنا كِنايَةٌ دَقيقَةٌ عن أنَّهُم لا يستطيعونَ نَجاةً ولا هَربًا ولا إفلاتًا من عقابِهِ مَعَ ما في عبارَةِ الرُّجوعِ من تخويفٍ وزجرٍ تهتزُّ من أراجيفِ حوادِثِه النُّفوسُ المؤمنةُ الموقنةُ بأمرِ اللّه.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّة:

الغَيُّ والضلال:

(الغيُّ): "أصل الغيِّ: الفسادُ، ومِنه يُقال: غوي الفصيل؛ إذا بشم من كَثْرَة شرب اللَّبن، وإذا لم يُروَ من لبن أمِّه؛ فماتَ هزلًا، فالكلمة من الأضداد، وأصلُ (الضَّلالِ) الهَلاكُ، ومِنه قَولُهم: ضَلَّت النّاقة؛ إذا هَلَكت بضياعِها، وفي القُرآن ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة: 10] أي: هلكنا بتقطُّع أوصالنا، فالَّذي يوجِبهُ أصل الكلِمَتَيْن أن يكون الضَّلالُ عَن الدّين أبلغَ من الغي فيهِ، ويسْتَعْمل الضلال أيْضًا في

أكثر استعمال الغيِّ في الدّين خاصَّة، والضَّلال استعماله أعمُّ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/63.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّوَر: 5/280.

الطَّريق، فيُقال: ضلَّ عَن الطَّريق إذا فارقه، ولا يستعمل الغي إلّا في الدّين خاصَّة رُبما اسْتُعْمل الغيُّ في الخيبة، يُقال: غوى الرجل؛ إذا خابَ في مطلبه"[1]. ويأتي (الضَّلال) بمَعْنى الضّياع، يُقال: هوَ ضالٌّ في قومه، أي: ضائع، والضلال يتَصَرَّف في وُجوه، لا يتَصَرَّف الغي فيها.

في الحشر معنى زائد، هو الاجتماع، وأمّا الرُّجوع؛ فهو مطلق الإعادة

(تُرْجَعونَ) و(تحشرون):

(الرّجوع): "هو المصير إلى الموضع الذي قد كان فيه قبلُ، هوَ الرُّجوع إلَى مُنْتَهى المَقْصد والرُّجوع يكون لذَلِك ولغيره، ألا ترى أنَّه يُقال: رَجَعَ إلَى بعض الطَّريق"[2].

(الْحَشْر) هوَ الجمع مَعَ السَّوق، ومِنْه يَوْم الحَشْر؛ لِأَنَّ الخلق يجمعونَ فيهِ، ويساقون إلى الموقف"[3].

قال الراغب: "الرُّجوعُ: العود إلى ما كان منه البدء، أو تقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله. فالرُّجوعُ: العود، والرَّجْعُ: الإعادة، والرَّجْعَةُ والرِّجْعَةُ في الطَّلاق، وفي العود إلى الدُّنيا بعد الممات"[4]، و" الحَشْرُ: إخراج الجماعة عن مقرِّهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها، ويقال ذلك في الإنسان وفي غيره، يقال: حَشَرَتِ السنةُ مالَ بني فلان، أي: أزالته عنهم، ولا يقال الحشر إلّا في الجماعة"[5].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 227، 226.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 324، 323.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 150.
(4) الرّاغب، المفردات: (رجع).
(5) الرّاغب، المفردات: (حشر).

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ٣٥﴾ [هود: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط غوايتهم واليأس من نصحهم، بالانتقال مِن شَبيهٍ إلى شَبيهِه، ومِن مُقارِنٍ إلى مُقارِنٍ

بعدَ أنْ أنهَى اللّه تعالى الكَلامَ عَن قِصَّةِ نوحٍ وما جَرى بَينَهُ وبَينَ مُكذِّبي قَومِه لَهُ انتقَلَت السّورَةُ انتِقالًا آخَرَ سَريعًا إلَى الحَديث عَن مُشركي مَكَّة مَعَ رَسولِ اللّه ﷺ حينَ زَعَموا في قَولِهِم: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ [هود: 13]، وأنكروا كَونَ هَذا القرآنِ المنزَّل مِن عندِ اللّه، وكانَ موقفُهُم شَبيهًا بمَوقِفِ قَوم نوح عليه السلام فجاءَت الآيَةُ رَدًّا عَلَيهِم بقوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾: افترى: قطعٌ على الكَذِبِ وإخبارٌ به؛ لِأَنَّ أصل افترى: قطع[1]، قال الرّاغِبُ: الفَرْيُ: قطعُ الجِلدِ لِلخَرزِ والإصلاحِ، والإِفْراءُ للإفساد، والافْتِراءُ فيهما، وفي الإفساد أكثر، وكذلك استعمل في القرآن في الكذب والشِّرك والظُّلم"[2]،وهم أرادوا به التَّكذيبَ والاختِلاقَ، فالافتِراءُ كَذِبٌ مُتعَمَّدٌ مَعَ عَدَمِ وجودِ أدنى شُبهَةٍ في الكَلامِ.

2) ﴿إِجۡرَامِي﴾: (جرَمٌ) الجيمُ والرّاءُ والميمُ أَصْلٌ واحِدٌ يَرْجِعُ إِلَيْهِ الفُروعُ، فالجَرْمُ القَطْعُ"[3]. وهوَ هُنا مُستَعارٌ من القَطعِ إلَى الكَسبِ، فالجُرمُ اكتِسابُ الشَّيءِ القَبيحِ المستحقُّ فاعِلُه العِقابَ عَلَيهِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 44 بتصرّف.
(2) الرّاغب، المفردات: (فرى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).

۞ المَغنى الإجماليُّ:

بيان أنَّ سوء عاقبة الافتراء والإجرام، تعود على صاحبها بالوبال وسوء الختام

جادَلَ قومُ نوح كثيرًا، وفاضتْ رُدودُه عليهم دونَ جَدوى رُجوعٍ أو إذعانٍ منهُم لدَعواهُ، وبعدَ أن واجَهَهُم بالكثيرِ من الحُجَجِ والبَراهينِ، لعلَّهُ يَجدُ منهُم الآذانَ الصاغيَةَ أو القُلوبَ الواعيَةَ لَم يزدهُم ذلكَ إلّا عِنادًا وصَلَفًا وغُرورًا، انتقَلَ الحديثُ مُباشَرَةً إلَى ما أثاره مشركو مَكَّةَ مَعَ رسول اللّه ﷺ في أنّه قد اختلَقَ القرآنَ، وافتَراهُ من عِنديّاتِ نفسِهِ ومن بُنَيّاتِ أفكارِه، فجاء هَذا نَعيًا عَليهم بما رَمَوهُ به، إنْ كانَ أمرُه كذلكَ؛ فعلَيه عاقبةُ إجرامِهِ، وهُم بريئونَ منها تمامًا.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى ﴿أَمْ﴾ بين الإضراب والاستفهام ودلالتها:

الارتباط بين قصة نوح عليه السلام وبين موقف مشركي مكَّة من القرآن

قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ أَم: هُنا منقطعة بمعنى (بل) التي هي لِلْإِضْرابِ، وهو الانتقالُ مِنْ غَرَضٍ إلى غَرَضٍ، "فالاسْتِفْهامُ الَّذي يُؤْذِنُ بِهِ حَرْفُ (أمْ) الْمُخْتَصُّ بعَطْفِ الاسْتِفْهامِ اسْتِفْهامٌ إنْكاريٌّ، ومَوْقِعُ الإنْكارِ بَديعٌ لِتَضَمُّنِهِ الحُجَّةَ عليهم"[1].

الآية الكريمة بين الاعتراض وعدمه:

تنوُّع الموقع، يثري المعنى، ويبين عن الدّلالة

هذه الجملة "جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ جُمَلَةِ أجْزاءِ القِصَّةِ، ولَيْسَتْ مِنَ القِصَّةِ، ومَنْ جَعَلَها مِنْها؛ فقدْ أبْعَدَ، وهيَ تَأْكيدٌ لِنَظيرِها السّابِقِ في أوَّلِ السّورَةِ، ومُناسَبَةُ هَذا الاعْتِراضِ أنَّ تَفاصيلَ القِصَّةِ الَّتي لا يَعْلَمُها الْمُخاطَبونَ تفاصيلُ عَجيبَةٌ تَدْعو الْمُنْكِرينَ إلَى أنْ يَتَذَكَّروا إنْكارَهُمْ، ويُعيدوا ذِكْرَهُ، وكَوْنُ ذَلِكَ مُطابِقًا لِما حَصَلَ في زَمَنِ نوحٍ عليه السلام وشاهِدَةً بِهِ كُتُبُ بَني إسْرائيلَ يَدُلُّ على صِدْقِ النَّبيِّ ﷺ لِأنَّ عِلْمَهُ بِذَلِكَ مَعَ أُمّيَّتِهِ وبُعْدِ قَوْمِهِ عن أهْلِ الكِتابِ آيَةٌ على أنَّهُ وحْيٌ مِنَ اللّهِ لا يَأْتيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، ولا مَنْ خَلْفِهِ"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/64.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/63.

والمَعنَى: لَقَد سُقنا لَكَ - يا محمد ﷺ - مِن أخبارِ السابقِينَ ما هوَ الحَقُّ الَّذي لا يحومُ حَولَه باطِلٌ، ولَكِنَّ المُشركينَ مِن قَومِكَ لَم يَعتَبِروا بذَلِكَ، بَل يَقولونَ: إنَّكَ قَد افتَريتَ هذا القُرآنَ، قُلْ لَهُم: إن كُنتُ قَد افتريتُه - على سَبيلِ الفرضِ - فعَلَى وحدي تَقَعُ عُقوبَةُ إجرامي وافترائي الكَذِب، وأنا بَريءٌ مِن عُقوبَةِ إجرامِكُم وافترائِكُم الكَذِب.

وإمّا أن تكون غيرَ معترضة، وإنَّما هي من قصَّة نوحٍ عليه السلام وعليه يكون المعنى: بل أيقول قوم نوحٍ: إنَّ نوحًا عليه السلام قد افترى واختلق ما جاء به من عند نفسه، ثمَّ نسبه إلى اللّه تعالى؟ قل لهم: إن كنتُ قد افتريتُه؛ فعليَّ سوءُ عاقبة إجرامي وكذبي، وأنا بريء مما تقترفونه من منكرات، وما تكتسبونه من ذنوب"[1].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿يَقُولُونَ﴾:

استحضار الصّورة، يبشّع الفعل، ويجلّي خطورته

وردَ التَّعبيرُ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿يَقُولُونَ﴾ لِلدِّلالَةِ على تَجَدُّدِ هَذا القَولِ وتكرُّرِه واستِمرارِهِ مِنهُم مَعَ استحضارِ هذه الصّورَةِ، وجَعْلِها ماثِلَةً في العُقولِ.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بجُملَةِ مَقولِ القَولِ بالفِعلِ الماضي ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾:

التَّعبيرُ بالتَّعريضِ إلَى نِسبَةِ الافتراءِ إلَيهِ

وردَ التَّعبيرُ في مَقولِ القَولِ: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ ماضيًا لتَحقُّقِ وُقوعِ هذا الافتراءِ وحُصولِهِ مِنهُ عليه السلام وكَأنَّه اختَلَقَه، وادَّعاهُ لِبَيانِ صِدقِه، وعَلَى كُلِّ حالٍ إذا كانَ المَقصودُ نوحًا عليه السلام فإنَّه اختَلَقَ هذه الأخبارَ، ومَوَّهها عَلينا، أو كانَ المقصودُ محمَّدًا عليه الصلاة والسلام فإنَّه اختَلَقَ هَذا القُرآنَ مِن عِندِ نفسِه.

الغَرضُ مِن التَّعبيرِ بأُسلوبِ الأمرِ: ﴿قُلۡ﴾:

تَلقين الردِّ من الله تعالى له عليه السلام آية على ضرورة الردِّ

جاءَ التَّعبيرُ بفعلِ الأمرِ رَدًّا عَلَيهِم في تَكذيبِهِم ودَعواهُم

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/199، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/220، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/167.

الباطِلَةِ، ومَعلومٌ أنَّ الأمرَ هوَ طَلَبٌ على جِهَةِ الاستِعلاءِ، وآمِرُهُ بالردِّ هوَ اللّه تعالى، وقَد خَرَجَ الأمرُ إلَى الإرشادِ حَيثُ أرشدهُ تعالى إلَى الرَدَّ عَلَيهِم بمثلِ ما رَمَوْه به، وجاءَت الجُملَةُ مَفصولَةً عَمّا سَبَقَ لِشبه كَمالِ الاتِّصالِ، والمُرادُ: فما كانَ رَدُّه عَلَيهم؟ فقيلَ: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ الآية، وهنا أُمرَ ﷺ أنْ يُعرِضَ عن مُجادَلَتِهِم بالدَّليلِ؛ لِأنَّهم لَيسوا أهلًا لِذَلك حيثُ أُقيمَت عَلَيهِم الحُجَّةُ أكثرَ مِن مَرَّة، ولَم تُقَدِّمْ شَيئًا مَعَهُم.

الغَرَضُ مِن التَّعبيرِ بأُسلوبِ الشَّرط:

ورِدَ التَّعبيرُ بقوله: ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ وهي جُملَةٌ شَرطيَّةٌ مُقترِنَةٌ بـ ﴿إِنِ﴾ الدالَّة على الشَّكِّ لِبَيانِ أنَّه على سَبيلِ الفرضِ مِنهُ، والمَعنَى: إنِ افتَرَيْتُهُ كَما تَزعُمونَ، وهَذا أيضًا مِن بابِ المُشاكَلَةِ اللَّفظية، فإنَّهُم لَمّا قالوا: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ جاءَ رَدُّه مَن جِنسِ ما تَفوَّهوا بِه؛ لِيَكونَ أقطعَ للخصمِ في دَحضِ الحُجَّةِ بالحُجَّة، وأنَّهُم ما قالوا ذَلِكَ إلّا عِنادًا، وهُم يَعلَمونَ خِلافَهُ بَعدَ ما قامَتْ عَلَيهِم الحُجَّةُ.

أدَبُ النُّبوَّةِ، أدَبٌ راقٍ، عَلَّمَهُم اللهُ إيّاه

دِلالَةُ التَّعبيرِ بجُملَةِ جَوابِ الشَّرطِ اسميَّة:

جاء التَّعبير بقوله: ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾، جملة اسميَّة مكوَّنة من خبر مقدَّم، ومبتدأ مؤخَّر للدَّلالة على ثبوت الإجرام ودوامه، إن وقع منه هذا الافتراء، وفي الكلام حذفٌ، والمعنى: فعليَّ عقوبة إجرامي، فعُبِّر بالسبب وأراد المسبَّب، ومعلوم أنَّ التعبير بالجملة الاسمية يكون أقوى في الدلالة على المراد لثبوت دوامها.

دائمًا ما يتحمَّل الكريم تبعات غيره، مع نزاهته وبراءته

نُكتَةُ تَقديمِ الخبرِ ﴿فَعَلَيَّ﴾، على المُبتَدَأ ﴿إِجْرَامِى﴾:

كانَ مِن أدَبِهِ ﷺ أن يَجعَلَ الجُرمَ خاصًّا بِه لا يَتعَدّاه إلَى غَيرِه، ومِن هُنا وجدنا التَّعبيرَ بتقديم الجار والمجرورِ لِغَرضِ القَصرِ والتَّخصيص، والمُرادُ "تقديمُ ﴿فَعَلَيَّ﴾ مُؤْذِنٌ بالقَصرِ، أيْ: إجْرامي عَلَيَّ لا عَلَيكُم، فلماذا تُكثِرونَ ادِّعاءَ الِافْتِراءِ،

الـواثِـقُ باللـهِ تعـالى؛ لا تَهُزُّه الأراجيفُ

كَأنَّكُمْ سَتُؤاخَذونَ بتَبِعَتِهِ، وهَذا جارٍ على طَريقَةِ الاسْتِدْراجِ لَهُمْ والكَلامِ المُنْصِفِ"[1].

دِلالَةُ حَرفِ الجَرِّ ﴿فَعَلَيَّ﴾ ومعناهُ:

الإجرام يستعلي على صاحبه، ويوبقه في المخازي والآثام

التَّعبيرُ بحرفِ الجَرِّ ﴿فَعَلَيَّ﴾ يفيد الاستعلاءَ، أي: عُلوَّ الشَّيء على شَيءٍ، "وذِكْرُ حَرْفِ ﴿فَعَلَيَّ﴾ مَعَ الإجْرامِ مُؤْذِنٌ بأنَّ الإجْرامَ مُؤاخَذٌ بِهِ، كَما تَقْتَضيهِ مادَّةُ الإجْرامِ"، وهذا ردٌّ كريمٌ مِن نَبيٍّ كريمٍ، وإن كانَ أبعدَ النّاسِ أنْ يُلقى على نَفسِه تَبِعَةُ إجرامِهم وافتراءاتِهم.

سِرُّ إضافةِ المبتَدَأ إلى ياءِ المُتَكَلِّمِ في ﴿إِجۡرَامِي﴾:

مُجاراةٌ ومُباراةٌ للتَّوَصُّلِ إلَى إبطالِ مزاعم الخصم

أضيف الاسم إلى الضَّمير العائد على نوح ﷺ إعلانًا لتحمُّله وحده نتيجة إجرامه لو كان، وفيه تعريضٌ بإجرامهم هم وتحمُّلهم عقوبة ذلك. والمَعنَى: إنْ كُنتُ افتريتُه - كَما تَزعُمونَ - فهو جُرمٌ عَظيمٌ وقَعَ مِنّي، وعَلَيَّ وحدي إثمُه، حَيثُ كُنتُ السَّببَ المُحدِثَ لَه، "فهذا أُسلوبٌ جَدَليٌّ بَيانيٌ فيهِ مُجاراةٌ مؤقَّتةٌ لِلخَصمِ لِلتَّوَصُّلِ إلَى إبطالِ دَعواهُ"[2].

لطيفةُ المُغايرَةِ بَيَن الشَّرطِ وجَزائِهِ، والفرق بين الإجرام والافتراء:

الافتراء أشدُّ الإجرام، والإجرام منبوذٌ في الدّين والقانون

(قُل: إنِ افترَيتُه؛ فعَلَيَّ افترائي): "لَمّا كانَ الافْتِراءُ على اللَّه إجْرامًا؛ عَدَلَ في الجَوابِ عَنِ التَّعبيرِ بالافْتِراءِ مَعَ أنَّهُ المُدَّعي إلَى التَّعْبيرِ بالإجْرامِ، بحيث لا تبدو حاجةٌ إلَى تَقْديرِ: فعَلَيَّ إجْرامُ افْتِرائي"[3]، وفي المغايرة تأكيد أنَّ الافتراء إجرامٌ.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بجُملَةِ التَّذييلِ اسميَّةً:

براءة الأنبياء من الإجرام ثابتة، وإجرام الكافرين متجدِّد

هذه الجملة "تَذْييلٌ لِلْكَلامِ وتَأْييدُهُ بمُقابِلِه، أيْ: فإجْرامي عَلَيَّ لا عَلَيْكُمْ، كَما أنَّ إجْرامَكُمْ لا تَنالُني مِنْهُ تَبِعَةٌ"، وفي هَذا التَّذييلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/64.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 2/107.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/64.

تَعريضٌ بكَونِهم المجرمين لا هوَ ﷺ ولا حاجَةَ إلَى تَقْديرِ المُضافِ في قَوْلِه: مِمّا تُجْرِمونَ، أيْ: تَبِعَتِه، وإنَّما هوَ تَقْديرُ مَعْنًى، لا تقديرُ إعْرابٍ، والشَّيْءُ يُؤَكَّدُ بضِدِّه"(1). وقد عَبَّرَ النَّظم الكريم في جانب نوح ﷺ بالجُملَةِ الاسميَّةِ للدَّلالَةِ على الثُّبوتِ والدَّوام، وعَنهُم بالجُملَةِ الفِعليَّةِ الدالَّةِ على التَجَدُّدِ والحُدوثِ مِمّا يَدُلُّ على أنَّ جُرمَهُم واقِعٌ مِنهُم، ومُتَجَدِّدٌ لا ينقطِعُ، ففي كُلِّ وقتٍ يَقَعُ مِنهُم جُرمٌ.

بلاغة الاحتباك في سياق الآية الكريمة:

الأنبياءُ معصومونَ، ولا يمكن لهم أن يفتروا على الله الكذب

في قوله تعالى: ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ إيجاز بالحذف، وهو النَّوع المعروف بـ (الاحتباك)، والإيجاز في الكلام يفيد فائدة، إذ لو ذكر المحذوف؛ لكان حشوًا لا طائل تحته، وفي هذهِ الجُمْلَةِ تَوْجيهٌ بَديعٌ، وهوَ إفادَةُ تَبْرِئَةِ نَفْسِهِ مِنْ أنْ يَفْتَرِيَ القُرْآنَ، فإنَّ افْتِراءَ القُرْآنِ دَعْوًى باطلةٌ ادَّعَوْها عليه، فهيَ إجْرامٌ مِنْهُمْ عليه، فيَكونُ المَعْنَى: وأنا بَريءٌ مِنْ قَوْلِكُمُ الَّذي تُجْرِمونَهُ عليَّ باطِلًا"(2).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/64.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/64.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ [هود: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين البراءة والافتراء، ونهي نوح عن الابتئاس؛ لأنّه لن يؤمن إلّا من آمن في الأساس

بَعدَ أن ذَكَر القرآنُ دعوةَ نوحٍ عليه السلام مَعَ طول ما دَعا وأنذَرَ، ومجادلتَهم لَهُ، فلَم يَرعَووا، ولَم يُقرّوا بوَحدانيَّةِ اللّه تعالى مَعَ صَبرِهِ عَلَيهِم، وما جابَهَهُم بِهِ مِن دَلائِلَ وبَراهين إلّا أنَّهُم ظلّوا على كُفرِهِم وعِنادِهِم؛ أوحَى اللّه لَهُ بصُنعِ السَّفينَةِ؛ لتَكونَ سَبيلَ النَّجاةِ لَهُ، ولِمَن مَعَهُ وهَلاكًا للظّالمين، فجاءَتْ هذه الآيَةُ فرْقًا بينَ حالتي الإيمانِ بنجاةِ أهلِه، وحالةِ الكُفرِ بهَلاكِ حِزبِهِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَبْتَئِسْ﴾: الابتئاس افتعالٌ من البؤس، وهو الهمُّ والحزن، أي: لا تحزن، "والبائس الرجل؛ إذا لحقه بَأْسٌ، وإذا لحقه بؤسٌ أيْضًا، وقالَ تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾، أي: "لا يلحقك بؤسٌ، ويجوز أن يكون من البَأْس، أي: لا يلحقك خوف بما فعلوا"[1].

2) ﴿يَفْعَلُونَ﴾: "الفاءُ والعَيْنُ واللّامُ أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على إحْداثِ شَيْءٍ مِنْ عَمَلٍ وغَيْرِهِ، مِنْ ذَلِكَ: فعَلْتُ كذا أفْعَلُهُ فعْلًا، وكانَتْ مِنْ فُلانٍ فعْلَةٌ حَسَنَةٌ أو قَبيحَةٌ"[2]، و"الفِعْل عبارَة عَمّا وجد في حال كانَ قبلها مَقْدورًا سَواء كانَ عَن سَبَب أو لا"[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

دعوة الله نوحًا عليه السلام، لعدم اليأس من عِنادِ قومِهِ وصَلَفِهِم

أوحَى اللّه تعالى إلَى نوحٍ عليه السلام أنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إلّا مَنْ قدْ

(1) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 209.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فعل).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 138.

آمَنَ، فلا تَحزَنْ على كُفرِهم، ولا تبتئسْ لِفعلِهم، فقَد سَبَقَ فيهِم القَضاءُ، وحَقَّتْ كلمَةُ ربِّكَ على الَّذينَ كَفروا.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالَةُ العطفِ بالواوِ، وبَيانُ معنَى العطفِ:

مسلكُ نوحٍ عليه السلام أن ينفض يديه مـن الأمـل في إيمانهم باليأس منه

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ جملة معطوفة بالواو على قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾، والمراد: بعد ذلك ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ وهذا "إقناط له عليه السلام من إيمانهم، وإعلام بأنَّه لم يبقَ فيهم من يتوقَّع إيمانه"[1]، "أيْأسَهُ اللّه مِنْ إيمانِهِمْ، وأنَّهُ صارَ كالْمُسْتَحِيلِ عَقْلًا بِإخْبارِهِ تعالى عنهُمْ. ومَعْنَى ﴿إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾، أيْ: مَنْ وُجِدَ مِنْهُ ما كانَ يَتَوَقَّعُ مِنْ إيمانِهِ، ونَهاهُ تعالى عَنِ ابْتِئاسِهِ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ، وهوَ حُزْنُهُ عليهم في اسْتِكانَةٍ"[2].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المبني للمَفعولِ ﴿وَأُوحِىَ﴾:

العِلمُ بفاعِلِ الشَّيءِ يغني عَن ذِكرِهِ

ورَدَ التَّعبيرُ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَأُوحِىَ﴾ بالبِناءِ لِما لَم يُسمَّ فاعِلُه، وهوَ المسندُ، ولا يحتاجُ إلى التَّصريحِ بالفاعِلِ؛ لِكَونِهِ معلومًا ومركوزًا في العقل، فمن دواعي الاختصار والبلاغة عدم التَّصريح بما يمكن الاستغناء عن ذكره، فمعلومٌ أنَّه لا موحيَ إلّا اللّه تعالى، إضافةً إلى ما يفيده أيضًا من صرف الاهتمام إلى الأمر الَّذي أوحيَ بهِ إلَيه، وما يترتَّبُ على ذَلِكَ مِن نُزولِ العَذابِ والوسيلَةِ الَّتي سَينجو بها نوحٌ عليه السلام ومَن مَعَهُ من المؤمنينَ.

علَّة التَّصريحِ بالموحَى إليه ﴿إِلَىٰ نُوحٍ﴾:

المقصودُ بالحَديثِ يُنَوَّهُ بِهِ، وهو هنا نوح عليه السلام، وفيه تسليةٌ له

صرَّح باسم الموحَى إلَيه، وهو نوحٌ عليه السلام لِكَونِهِ المخصوصَ بالوحي، وهوَ المَقصودُ مِن الحديثِ، وأيضًا للتَّسليَةِ لَهُ والتَّسريَةِ عَن قَلبِهِ بإذهابِ حُزنِهِ وأسفِهِ على عَدَمِ إيمانِ هؤلاءِ القَومِ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/48.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/220.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالموحَى بِهِ جُملَةً اسميَّة:

أوثر أن يكون التَّعبير عن الموحى به في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ جُملَةً اسميَّةً، مُكوَّنَةً من (أنّ)، واسمِها ضميرِ الشَّأن، وخَبرِها المنفيِّ على التَّأبيدِ، سدّت مسدّ نائبِ الفاعِلِ؛ للدّلالة على خُطورة الأمرِ الموحَى، ولِنَفي السَّآمَةِ عنه عليه السلام، وتأكيدِ بيان نهاية من كفر به، وانتهاء دعوته.

لا يَقَعُ إيمانٌ إلّا بتوفيقٍ مِن اللهِ تعالى وتيسير منه سبحانه

مَرجِعُ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ﴾:

وَرَدَ التَّعبيرُ هُنا بـ ﴿أَنَّهُۥ﴾، واسْمُها ضَميرُ الشَّأْنِ ليدلّ على أنَّ مفاد الجُمْلَة بعده يتضمّن أمْرًا خَطيرًا؛ لِأنَّها تَأْييسٌ لنوح عليه السلام من إيمانِ بَقيَّةِ قومه[1]، وضَميرُ الشَّأنِ في ﴿أَنَّهُۥ﴾ يَتَناسَبُ مَع ما سبقَ مِن بناءِ الفِعلِ للمَفعولِ، وتَصويرِ شِدَّة الهَولِ وخُطورَة ما سَيحدُثُ، فالجَزمُ بعَدَمِ إيمانِهم يُلَوِّحُ بنُزولِ العَذابِ، واشْتِدادِ غَضَبِ الجَبّارِ عَلَيهم.

ورود الحرف بين روابط الحديث يقوّيها

الغَرضُ من التَّعبيرِ بأُسلوبِ القَصرِ في السّياق:

وَرَدَ التَّعبيرُ بأسلوبِ القَصرِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ ليفيدَ الكلامُ الإقناطَ على أتَمِّ وجهٍ وأبلَغِه، أي: لَن يحدُثَ مِن قومِكَ إيمانٌ، ويُحَصِّلَهُ بعدُ إلّا مَن قد أحدثَهُ، وحَصَّلَهُ قَبلُ، وذَلِكَ مِمّا لا يُمكِنُ لِما فيه مِن تَحصيلِ الحاصِلِ، وإحداثِ المُحدث، فإحداثُ الإيمانِ وتحصيلُه بَعدُ مِمّا لا يُكونُ أصلًا"[2].

بيانٌ بسَبْقِ القَولِ منهُ تعالَى بإيمانِ مَن آمَنَ، ونَفيِ ضِدِّه

نكتة اختيارِ طَريقِ النَّفي والاستثناءِ، طَريقًا لِلقَصْرِ:

ورِدَ التَّعبيرُ عَن تَحقُّقِ إيمانِ المؤمنينَ بأقوى طُرقِ القَصرِ، وهوَ النَّفيُ والاستثناء، ليؤكدَ به انتفاء إيمانهم، وليفيدَ أنَّه لن يَحصُلَ إيمانٌ فوقَ ما حصلَ قبلَ صُدورِ الأمرِ بهَلاكِهِم، "وقيلَ: إنَّ الاستثناءَ

حُكمُ اللهِ تعالى، بإيمانِ مَن آمَنَ، وتَحقُّقُه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/65.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/49.

منقطعٌ، وأنَّ المَعنَى لا يؤمنُ أحدٌ بَعدَ ذَلِكَ غيرَ هَؤلاءِ؛ لَكانَ معنى بَليغًا، فتَدَبَّرْ"[1].

مَعنَى الحَرفِ ﴿لَن﴾ ودِلالَتُه في السّياق:

تأكيد عدم إيمانهم مستقبلًا، معجزة غيبيَّة قطعيَّة

حرف ﴿لَن﴾ حرف نفي، من شأنه الدلالة على نفي وقوع المنفي مستقبلًا، وأوثر التعبير به للدلالة على هذا، كما هو مصرَّح به في الآية: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ وفي التَّعبير به راحة لقلب نوح عليه السلام وطمأنة له، بأنَّه قد أدَّى ما عليه تجاههم، وصبر معهم صبرًا استحقَّ به أن يكون من أولي العزم من الرسل.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ ﴿يُؤْمِنَ﴾:

التَّأكيد على استمرار عدم حصول ما سُلِّط عليه النَّفي

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ ﴿يُؤْمِنَ﴾ مضارعًا، ووَرَدَ تَسليطُ أداةِ النَّفي عَلَيه لتقطعَ كُلَّ رَجاءٍ في إيمانِ هَؤلاءِ المُعانِدينَ المُتَكَبِّرينَ، فلا تَتوقَّعْ منهم إيمانًا.

علَّة القيدِ بالمجرورِ ﴿مِن قَوْمِكَ﴾:

القَليلُ من قوم نوح عليه السلام هوَ الَّذي آمَنَ به وصَدَّقَهُ

قُيِّد التَّعبير بـ ﴿مِن﴾ الجارة في ﴿مِن قَوْمِكَ﴾، للدَّلالة على قلَّتهم فـ﴿مِن﴾ هي التبعيضيَّة، والمُرادُ بهِم بَعضُ مَن آمنَ به، وهم القَليلونَ الَّذينَ وصَفهُم الأشرافُ مِن قومِهِ بالأراذِلِ، كَأصحابِ الحِرَفِ الصَّغيرَةِ والصَّنائِعِ الرَّخيصةِ - على حدِّ زعمهم - حَتَّى قالوا لَهُ: "لَوْ كُنْتَ صادِقًا؛ لاتَّبَعَكَ الأكْياسُ مِنَ النّاسِ والأشْرافُ مِنْهُمْ"[2].

والتخصيص بـ ﴿مِن قَوْمِكَ﴾ لكونه مرسلًا إليهم خاصَّةً، أي: من قومك لا من غيرهم.

سِرُّ إضافةِ القَومِ إلَى ضَميرِ الخِطابِ في ﴿قَوْمِكَ﴾:

الإضافة للتَّخصيص أو لأدنى ملابسة

وفي إضافة ضميره عليه السلام إلى لفظ (قوم)؛ لكونه منهم منتسبًا إليهم، ورسالته كانت خاصَّة بهم، ويجوز أن تكون الإضافة لأدنى

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/49.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/219.

ملابسة؛ لأنَّ قومه، لم يؤمنوا به، فليس للانتساب إليهم شرف، وعليه فقد نفى ربُّه سبحانه أن يكون ابنه الكافر من أهله في قوله جل شأنه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هود: 45، 46].

مَعنَى ﴿قَدۡ﴾ ودُخولُها على الماضي:

تَمييزُ المؤمِنِ، من أهلِ الزَّيفِ والإلحادِ

استِخدامُ حَرفِ التَّحقيقِ ﴿قَدۡ﴾ هُنا الدّاخِلِ على الفِعلِ الماضي ﴿ءَامَنَ﴾، "للتنصيص على أن المراد من حصل منهم الإيمان يقينًا دون الذين تردَّدوا"(1).

وكذلك ليُفيدَ حَصرَ النَّجاةِ في المؤمنينَ الصّادقينَ الَّذينَ وقَرَ الإيمانُ في صُدورِهِم، وتَحقَّقَ في جَميعِ جَوارِحِهِم، وبِهَذا يَخرُجُ كُلُّ أهلِ الزَّيفِ والإلحادِ مِن قَومِهِ.

مَعنَى حَرفِ الفاءِ ودِلالَتُه في ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾:

تَطييبُ اللهِ تعالى لِقَلبِ نوحٍ عليه السلام من لطفه بأنبيائه

جاءَ قَولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ مُقترِنًا بفاءِ التَّفريعِ، لِتفريعِ التَّسليةِ على الخَبَرِ المُحزِنِ، ولِتَهوينِ الأمرِ على نَفسِ نَبيِّه نوحٍ عليه السلام يذكِّرُهُ بأفعالِهِم وصدِّهِم عَن دَعوتِه، ولَمّا كانَ الأمرُ شَديدًا عَلَيه؛ جاءَ مُعَقِّبًا لَهُ ذَلِكَ بتَسليَتِهِ بعَدَمِ الابتِئاسِ مِن نُفورِ هَؤلاءِ وصَلَفِهِم وما ارتَكَبوهُ مَعَهُ مِن حَماقاتٍ.

دِلالَةُ اختيارِ الفعلِ المضارعِ بصيغةِ افتَعَل:

طُمأنينة رَبّانيَّةٌ لِرُسلِ اللهِ، وأولِيائِه، والمؤمنين

أرادَ اللّه أن يُلقي الطُّمأنينةَ في نفسِ سيدِنا نوحٍ عليه السلام فجاء النَّظم الكريم بالفعل المضارع الكثير الحروف، ومَعلومٌ أنَّ الفِعلَ المُضارِعَ يَدُلُّ على تَجَدُّدِ الفِعلِ واستمراريَّتِهِ واستحضارِ صورَتِه، فوَرَدَ التَّعبيرُ بالفعلِ ﴿تَبۡتَئِسۡ﴾ وهو تفعيلٌ مِن البُؤسِ، وهو الحزنُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/66.

الشَّديدُ؛ ليُصَوِّرَ شِدَّة الأمرِ على نَفْسِ نوحٍ ﷺ وما أصابَه مِن الغَمِّ والضّيق، فالبُؤْسُ أشدُّ إيلامًا للنَّفسِ من الحُزنِ، ونوحٌ مُرَشَّحٌ لِلبؤسِ الَّذي هو أقسَى مِن الحُزنِ؛ لِأنَّ هَؤلاءِ الَّذينَ لَن يؤمنَ منهُم إلّا مَن قَد آمنَ، هُم مِن ناحيَةِ قومِه، واللّه مُحيطٌ عِلمُهُ أنَّ نوحًا سيحزنُ لِمُصيبةِ قَومِه، والغَرَقُ أُمُّ المصائِبِ، واللّه يُرشِدُه إلَى ألّا يَصِلَ إلَى هذه الدَّرجَةِ"[1].

مَعنَى حرف الباءِ ودِلالَتُه في شبه الجملة ﴿بِمَا﴾:

هَلاكُ الإنسانِ، بِسَبَبِ خَطاياهُ، أمرٌ واقع مجرَّب

الباءُ في قَولِه: ﴿بِمَا﴾ سَبَبيَّة، أي: بِسَبَبِ أفعالِهم وما حَدَثَ مِنهُم، لا تشغَلْ نَفسَكَ بهذه الأفعالِ، وما وقَعَ منهم مِن تكذيبٍ وجِدالٍ وصَلَفٍ واستِكبارٍ.

دِلالَةُ التعبير بـ الأداة ﴿بِمَا﴾:

التَّعبيرُ بـ لفظ (مـــا) أجـمـع وأخصر

جاء التَّعبيرُ بـ ﴿بِمَا﴾ الَّتي هي اسمُ موصولٍ، وهي أعمُّ الموصولات وأدخلها في الإبهامِ؛ لتشمل كلَّ صنوف العمل، وتَذكيرًا لَهُ ﷺ بكَثرَةِ أفعالِهم وأعمالِهم الَّتي صَنعوها مَعَهُ؛ لِأنَّ اسم الموصولِ هُنا يُفيدُ العمومَ مَعَ الكَثرَةِ - كما مضى التنويه عن ذلك - أي: كَثيرًا ما فعلوهُ مَعَكَ، وأنتَ تَلتَزِمُ مَعَهم كُلَّ رَوابِطِ الصَّبرِ وتَحَمُّل الأذَى، وحَيثُ إنَّه لا مَطمَعَ في إيمانِ أحدٍ من قومِكَ بعدَ اليوم، فانفُضْ يَدَكَ مِن الاهتِمامِ بشَأنِهم ولا تَحزنْ عَلَيهِم.

دِلالَةُ التَّعبير بالفِعلِ المُضارعِ ﴿يَفْعَلُونَ﴾:

الآيَةُ بدايتُها أمرٌ تَحَقَّق، وختامُها أمرٌ يَتَجَدَّدُ

جاءَ خِتامُ الآيَةِ هنا تَعبيرًا بالفعلِ المُضارع ﴿يَفْعَلُونَ﴾ الدّالِّ على تَجَدُّدِ الفِعلِ، واستِمرارِه مَع استحضارٍ لصورَةِ هذه الأعمالِ، كَأنَّها شاخِصَةٌ أمامَ عَينَيه عَن طَريقِ صيغَةِ الفِعلِ المُضارِعِ، ولَم يَقُلْ: (بما فعَلوا) حيث الغَرَضُ جَعْلُ ما فعَلوه مَشاهَدًا في دائِرَةِ

(1) عودة الله منيع القيسيّ، الإعجاز اللُّغويّ في قصّة نوح ﷺ في القرآن الكريم، ص: 87.

الضَّوءِ، وهَذا يُزيلُ الغَمَّ عنه، فلا يَلتَزِمُ البُؤسَ، ولا يَحزَنُ بسَبَبِ "ما كانوا يَتَعاطونَهُ مِن التَّكذيبِ والاستِهزاءِ والازدراء والإيذاءِ في هذه المُدَّةِ الطَّويلَةِ، فقَد حانَ وقتُ الانْتِقامِ مِنهُم"(1).

❖ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَفْعَلونَ) و(يَعْمَلونَ):

أفـــعـــال مستعملة في مـواطـنـهـا، لا يعبِّر عنها غيرها

الفِعْلُ: التَّأثيرُ مِن جِهَةِ مُؤثِّر، وهو عامٌّ لِما كانَ بإجادَةٍ أو غَيرِ إجادَةٍ، ولِما كانَ بعِلمٍ أو غيرِ عِلمٍ، وقَصدٍ أو غَيرِ قَصدٍ، ولِما كانَ مِن الإنسانِ والحَيَوانِ والجَماداتِ، والعَمَلُ مثلُه"(2). فاصطفى النَّظم الكريم الأعمَّ، وأمّا العَمَلُ: فكُلُّ فعلٍ يَكونُ مِن الحَيَوانِ بقَصدٍ، فهوَ أخصُّ مِن الفِعلِ؛ لِأنَّ الفعلَ قَد يُنسَبُ إلى الحَيَواناتِ الَّتي يَقَعُ مِنها فِعلٌ بغَيرِ قَصدٍ، وقَد يُنسَبُ إلَى الجَماداتِ، والعَمَلُ قَلَّما يُنسَبُ إلى ذَلِكَ، ولَم يُستَعمل العَمَلُ في الحيواناتِ إلّا في قَولِهِم: البَقَرُ العَوامِلُ، والعَمَلُ يستعملُ في الأَعْمالِ الصّالِحَةِ والسَّيِّئَة"(3).

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/49.
(2) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(3) الرّاغب، المفردات: (عمل).

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾ [هود: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبلَها:

بَعدَ اليَأسِ يَأتي الفرجُ، وإثر العسر، لا مندوحة من اليسر

لمّا نَهَى اللّه تعالَى نَبيَّه نوحًا عليه السلام ألّا يحزنَ وألّا ييأسَ مِن عَدَمِ إيمانِ قومِه، وألّا يبتئسَ من أفعالِهم المُشينة؛ كانَ هَذا مُؤذِنًا بأنَّ اللّه تعالى ينتصرُ لَهُ، فأعقبَهُ بالأمرِ بصُنعِ السفينَةِ لِتهيئَةِ نَجاتِه، ونَجاةِ مَن آمنَ به من العَذابِ الَّذي قَدَّره اللّه لقومِه، لا سيَّما وقَد دَعا ربَّهُ، فقالَ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤﴾ [القمر: 10 - 14]

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱصۡنَعِ﴾: الصُّنع تَرْتيب العَمَل وإحكامه على ما تقدم علمٌ به، وبِما يوصل إلَى المُراد مِنْهُ، ولذَلِك قيل للنجّار: صانعٌ، ولا يُقال للتاجر: صانع؛ لِأَنَّ النجار قد سبق علمه بما يُريد علمه من سَرير أو باب، وبالأسبابِ الَّتي توصِّل إلَى المُراد من ذَلِك، والتّاجر لا يعلم إذا اتَّجر أنَّه يَصِلُ إلَى ما يُريدهُ من الرِّبح أو لا، فالعَمَل لا يَقْتَضي العلم به"[1]. قال الرّاغب: "الصُّنْعُ: إجادةُ الفعل، فكلُّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلُّ فعل صُنْعًا، ولا ينسب إلى الحيوانات والجمادات، كما ينسب إليها الفعل... والاصْطِناعُ: المبالغةُ في إصلاحِ الشَّيءِ"[2].

2) ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾: السَّفينة، ويستعملُ ذَلكَ للواحدِ والجَمعِ، والفَلَكُ: مجرَى الكَواكِبِ، وتَسميتُه بذَلكَ لِكَونِه كالفُلْكِ"[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 141.
(2) الرّاغب، المفردات: (صنع).
(3) الرّاغب، المفردات: (فلك).

3) ﴿تُخَٰطِبۡنِي﴾: الخَطْبُ والمُخاطَبَة والتَّخاطُب: المراجعة في الكلام، ومنه: الخُطْبَة والخِطْبَة لكن الخُطبة تختصُّ بالموعظة، ويقالُ من الخُطْبَة: خاطِب وخطيب، وفصل الخِطاب: ما ينفصلُ به الأمرُ من الخطابِ"[1].

4) ﴿مُّغۡرَقُونَ﴾: (غرق) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على انْتِهاءٍ في شَيْءٍ يَبْلُغُ أَقْصاهُ"[2]، قال الرّاغب: "الغَرَقُ: الرّسوب في الماء وفي البلاء، وغَرِقَ فلان يَغْرَقُ غَرَقًا، وأَغْرَقَهُ، وفلان غَرِقَ في نعمة فلان تشبيهًا بذلك"[3].

۞ المَعْنى الإجْماليّ:

تَـوجـيـهـه وإرشـادُهُ عليه السلام باتِّخاذِ أسبابِ نجاتِهِ في صُنعِ السَّفينةِ

معنى قوله تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ إلى آخرِ الآيَةِ، أي: "وقلنا لَهُ: اصنَعِ الفُلكَ لِنُنَجّيكَ عَلَيها بعنايَتِنا، وتحتَ رِعايَتِنا، ولا تُخاطِبْني في شَأنِ هؤلاءِ الظالمينَ؛ لِأنَّني استجبتُ دعاءَكَ، وأمرتُ بإهلاكِهِم غَرَقًا"[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ﴾:

إذا كـانَ الأمـرُ المتضمِّن وعـدًا بـالـنَّـجـاةِ من القادِرِ، فالنَّجاةُ واقِـعَـةٌ مهما كانت المخاطر

قوله تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ ورد معطوفًا على قوله: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ لَمّا كانَ نَهْيُهُ عَنِ الابْتِئاسِ بفِعْلِهِمْ مَعَ شِدَّةِ جُرْمِهِمْ مُؤْذِنًا بأنَّ اللهَ يَنْتَصِرُ لَهُ؛ أَعْقَبَهُ بالأمرِ بصُنْعِ الفُلْكِ؛ لِتَهْيِئَةِ نَجاتِه ونَجاةِ مَنْ قدْ آمَنَ بِهِ مِنَ العَذابِ الَّذي قَدَّرَهُ اللهُ لِقَوْمِه، فجُمْلَةُ ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ عَطْفٌ على جُمْلَةِ ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾، وهيَ بذَلِكَ داخِلَةٌ في الموحَى بهِ، فتَدُلُّ على أنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيْهِ كَيْفيَّةَ صُنْعِ الفُلْكِ"[5].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (خطب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غرق).
(3) الرّاغب، المفردات: (غرق).
(4) المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 313.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 12/66.

الغرضُ من التَّعبيرِ بفعلِ الأمرِ ﴿وَٱصۡنَعِ﴾:

صُنعُ السَّفينةِ بشارة بوسيلة النَّجاة، ونذارة بإغراق الهالكين

الأمرُ هُنا هَل هو لِلإيجابِ أم الإباحَةِ؟ قال الإمام الفخر الرّازيُّ: "فإنْ قيلَ: قوله تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ أمْرُ إيجابٍ أو أمْرُ إباحَةٍ؟ قُلْنا: الأظْهَرُ أنَّه أمْرُ إيجابٍ؛ لِأنَّهُ لا سَبيلَ لَهُ إلَى صَوْنِ روحِ نَفْسِهِ وأرْواحِ غَيْرِهِ عَنِ الهَلاكِ إلّا بِهَذا الطَّريقِ، وصَوْنُ النَّفْسِ عَنِ الهَلاكِ واجِبٌ، وما لا يَتِمُّ الواجِبُ إلّا بِهِ؛ فهوَ واجِبٌ، ويَحْتَمِلُ ألّا يَكونَ ذَلِكَ الأمْرُ أمْرَ إيجابٍ بَلْ كانَ أمْرَ إباحَةٍ، وهوَ بِمَنْزِلَةِ أنْ يَتَّخِذَ الإنْسانُ لِنَفْسِهِ دارًا لِيَسْكُنَها، ويُقيمَ بها"[1]، وفي هذا الأمر بشارةٌ بوسيلة النَّجاة، ونذارة للهالكين بطريق الهلاك.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ به، مُعرَّفًا باللّام:

لِكُلِّ شَيءٍ سببٌ، والسَّفينةُ سببُ نَجاتِهِم

وردَ التَّعبيرُ عَن الفُلكِ مُعرَّفًا باللّامِ العَهديَّةِ، كَأنَّه قَد عَهِد إليه، أو أوحي إلَيه بشَأنِها، "والظّاهِرُ مِنْ تَعْرِيفِهِ هُنا أنَّ اللَّه تعالى كانَ أخْبَرَهُ خَبَرَهُ"[2]. وكلمة (الفُلك) تطلق على المفردِ والجَمعِ، والوزنُ واحدٌ، فإطلاقها على المُفردِ كَما هُنا: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾، وعلى الجمع كَما في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ [يونس: 22]، وقَد عَبَّر عنها بالفُلكِ في جَميعِ المَواضِعِ، وبِالسَّفينةِ في موضعٍ واحدٍ، في قَولِه: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: 15].

التَّعبير بالجارّ والمجرور: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾، وما فيه من الكناية:

الحِفظُ والرِّعايَةُ مِن اللهِ، مانعٌ قويٌّ مِن الغَرَقِ

الباء في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ لِلمُلابَسَةِ، أي: متلبِّسًا بحفْظِنا ورِعايَتِنا، وهي هُنا في مَوضِعِ حالٍ مِن الضَّميرِ في الفِعلِ ﴿وَٱصۡنَعِ﴾، والتَّعبيرُ بِلَفظِ الأعيُنِ كنايةٌ عن الحراسة والحفظ؛ "لِأنَّ مَنْ كانَ عَظيمَ العِنايَةِ بالشَّيْءِ؛ فإنَّهُ يَضَعُ عَيْنَهُ عليه،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/230.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/62.

فلَمّا كانَ وضْعُ العَيْنِ على الشَّيْءِ سَبَبًا لِمُبالَغَةِ الاحْتياطِ والعِنايَةِ؛ قال المُفسِّرونَ: مَعْناهُ بحِفْظِنا إيّاكَ حِفْظَ مَنْ يَراكَ، ويَمْلِكُ دَفْعَ السّوءِ عنكَ، وحاصِلُ الكَلامِ: أنَّ إقْدامَهُ على عَمَلِ السَّفينَةِ مَشْروطٌ بأمْرَيْنِ أحَدُهُما: ألّا يَمْنَعَهُ أعداؤُهُ عن ذَلِكَ العَمَلِ. والثّاني: أنْ يَكونَ عالِمًا بأنَّهُ كَيْفَ يَنْبَغي تَأْليفُ السَّفينَةِ وتَرْكيبُها ودَفْعُ الشَّرِّ عنهُ"[1].

دلالة عَطفِ الوحي على الأعيُن في ﴿وَوَحۡيِنَا﴾:

قوة السَّبب (الفلك) من قوَّة المسبِّب (الله تعالى) الآمر

قولُه تعالى: ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ مَعطوفٌ على ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ لِلدِّلالَةِ على عَدمِ كونِهِ نَجّارًا؛ إذ لَو كانَ كَذَلكَ؛ لَهَداهُ عَقلُه إلَى صِناعَتِها، إنَّما هوَ صَنَعَها بوحيٍ مِن اللهِ وتوجيهاتِهِ ورِعايَتِهِ، "والمُرادُ بالوَحْيِ هُنا الوَحْيُ الَّذي بهِ وصفَ كَيفيَّةِ صُنْعِ الفُلْكِ، كَما دَلَّ عليه عَطْفُهُ على المَجْرورِ بباءِ المُلابَسَةِ المُتَعَلِّقَةِ بالأمْرِ بالصُّنْعِ"[2].

الغَرضُ مِن أُسلوبِ النَّهي في ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي﴾:

لا جَدوَى لِلتَّوسُّلِ لِمَن خالَفَ أوامِرَ اللهِ؛ إذ لا نَجاةَ لَهُ منه

ورَدَ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ مرادًا به نهيه عليه السلام لأنَّ كُفّارَ قَوْمِهِ سَيَنْزِلُ بهم عِقابٌ عَظيمٌ؛ لِأنَّ المُرادَ بالمُخاطَبَةِ المَنْهيِّ عنها المُخاطَبَةُ الَّتي تَرْفَعُ عِقابَهُمْ، فتَكونُ لِنَفْعِهِمْ كالشَّفاعَةِ، وطَلَبِ تَخْفيفِ العِقابِ لا مُطْلَقَ المُخاطَبَةِ[3]، وفي النَّهي من شدَّة المغاضبة ما فيه، ومن تعجيل عذابهم ما فيه، والمعنى: "لا تَطْلُبْ مِنّي تَأْخيرَ العَذابِ عنهُمْ، فإنّي قدْ حَكَمْتُ عليهم بهَذا الحُكْمِ، فلَمّا عَلِمَ نوحٌ عليه السلام ذَلِكَ؛ دَعا عليهم بَعْدَ ذَلِكَ، وقالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح: 26] أو المعنى: ولا تُخاطِبْني في تَعْجيلِ ذَلِكَ العِقابِ على الَّذينَ ظَلَموا، فإنّي لَمّا قَضَيْتُ إنْزالَ ذَلِكَ العَذابِ في وقْتٍ مُعَيَّنٍ؛ كانَ تَعْجيلُهُ مُمْتَنِعًا"[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/231.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/66.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/66.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/231.

معنَى حَرفِ الجَرِّ ﴿فِى﴾ ودلالتُه:

نَهَى اللّه تعالى نوحًا ﷺ عَن مُخاطَبَته ودِفاعِه في شَأنِ قومِه، وورد التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ ﴿فِى﴾ الدالِّ على الظَّرفيَّة المتوغِّلَة، فكأنَّه ألحَّ في مُخاطبَتِهِ ربَّه ﷻ وأغرق فيها إغراقًا، لَو استَطاعَ مَعَهُ دَفْعَ الأذَى؛ لَفعَلَ، ودَخلَتْ ﴿فِى﴾ هُنا على مَحذوفٍ، والمَعنَى: ولا تُخاطبْني في شَأنِ هَؤلاءِ الظّالِمينَ ولا في أمرِ مُعاقَبتِهم، فمَصيرُهُم إلَى الغرَقِ والهَلاكِ لا مَحالَة.

رَحمَةُ الأنبياءِ بأقوامِهم مستمرَّةٌ وإن كثُرَ لددُهُم

نُكتَةُ التَّعبيرِ بالاسمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في السّياق:

وردَ التَّعبيرُ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ مَعَ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي لِتَحقُّق الظُّلم مِنهُم وحصولِه، وقيلَ: المُرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ مَن لَم يُؤمِن من قَومِه مُطلَقًا، وقيل: زَوجَتُه وابنُه"[(1)]، "ولَعَلَّ هَذا تَوْطِئَةٌ لِنَهيِه عن مُخاطَبَتِهِ في شَأنِ ابْنِه الكافرِ قَبلَ أنْ يَخْطُرَ ببالِ نوحٍ ﷺ سُؤالُ نَجاتِهِ حَتَّى يَكونَ الرَّدُّ عليه حينَ السُّؤالِ أَلْطَفَ"[(2)].

الإعلامُ عن علَّة النَّهي عن الدُّعاء، والظُّلم أبشع شيء

مَوقِعُ جُملَةِ ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ ودِلالَتُه:

قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ جُملَةٌ مُستأنفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا مَفصولَةٌ عمّا سَبقَ لِشبْهِ كَمالِ الاتِّصال، فكَأنَّهُ ﷺ قال: ولِم لا أُخاطِبُكَ فيهِم يا رَبِّ؟ فجاءَ الجَوابُ: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾، والجُملَةُ "إخْبارٌ بما سَيَقَعُ، وبَيانٌ لِسَبَبِ الأمْرِ بِصُنْعِ الفُلْكِ"[(3)].

النِّهايَةُ مَحسومَةٌ، وقَضاءُ اللهِ نافِذٌ، ما منه مفرٌّ

الغَرضُ مِن خُروجِ الكَلامِ على خلافِ مُقتضَى الظّاهِرِ:

وردَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ عِندَ البلاغيين بما يُعرَفُ بـ "خُروجِ الكَلامِ على خِلافِ مُقتضَى الظّاهِر"، بأنْ يُنَزَلَ غيرُ السّائلِ منزِلَةَ السّائل، فيُؤَكَّدُ له الكَلامُ على سَبيلِ الاستِحسانِ، وأن يُنَزَلَ

القَضاءُ المَحسومُ، لا رادَّ لَهُ، لكونه قدر الله المحتوم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/50، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/231.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/67.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/67.

غيرُ المُنكِر منزلةَ المُنكِر، فيُؤكَّدُ له الكَلامُ بأكثَرَ من مُؤكَّد، وأن يُنزَلَ المُنكِرُ منزلةَ غيرِ المُنكِر، فلا يُؤكَّد له، وَهُنا وردتِ العِبارَةُ ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ لِتنزيلِ غيرِ السائِلِ منزلةَ السّائِل؛ إذْ هو في الحَقيقَةِ لَيسَ بسائلٍ إلّا أنَّ الخِطابَ الَّذي خوطِبَ به جَعَلَهُ يُقَلِّبُ الأمرَ، فيسأَلُ عَن الغايَةِ والنَّتيجَةِ، وإن لَم يَتلفظْ بسُؤالِه، فجاءَ الكَلامُ ردًّا عَلَيه.

دَلالَةُ التَّعبير بالجُملَةِ الاسميَّة في الآية القرآنية:

جاء التَّعبيرُ بقوله: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ جُملةً اسميَّةً لتصويرِ تَحَقُّقِ أمرِ الغَرَقِ بالنِسبَةِ لَهُم، فلَم يَقُل: (سَأُغرِقُهُم)، وقالَ: مُغرَقونَ لِما في الاسمِ مِن الدِّلالَةِ على الثُّبوتِ والتَّحقُّق.

تحقُّق أمر الله، فيهم حتميٌّ، لا مندوحة عنه

دلالَةُ التَّعبيرِ بخبرٍ هو اسم مفعول في ﴿مُّغۡرَقُونَ﴾:

لم يقل النَّظم الكريم: (غارقونَ)؛ لِأنَّ كلمة (غارِقينَ) توحي بأنَّ سببَ غرقِهِم كانَ لِعدمِ معرفتِهِم بالسِباحَة، أمّا ﴿مُّغۡرَقُونَ﴾؛ فهي أدَلُّ في سياقِها على أنَّ غَرَقَهَم كانَ رغمَ أُنوفِهِم بأمرٍ من اللّه تعالى جَزاءَ خَطيئاتِهِم وطُغيانِهِم، كَما جاءَ في قَولِه تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾ [نوح: 25]. والإيقاعُ في نِهايَةِ الأمرِ ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ يصوّر لنا النّهاية الحتميّة المرتقبة حيث أحدثت (إنّ) المضعّفة تأكيدًا للعبارة يتوغّل في النّفس عبر قوّة التّوكيد للمعنى، يزاد على ذلك توافق إنّ المضعّفة مع نهاية الفاصلة في حرف النّون الّتي امتدّ الإيقاع بها مع حرف الواو لتحكي لنا نهاية الأمر، وهو الغرق"[1].

إغـراقــهــم في الـطّـوفـان كـان بسبب إغراقهم في الكفر والشِّرك

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّة:

(الفُلْك) و(السَّفينة):

كلمة (الفلك) تدلُّ على المفرد والجمع، والوزن واحد في المفرد والجمع، وتطلق على الكبير من السُّفن، وعبَّر عن فُلك نوح عليه السلام،

الـفُـلْـكَ تطلق عــلى الـكـبـير مـن الـسُّـفـن، والـسَّـفـيـنـة وسـيـلـة نـقـل لــلإنـســان والبضائع فوق الماء

(1) العلياني، تصوير هلاك المكذّبين في القرآن الكريم، ص: 230، رسالة دكتوراه في كليَّة اللُّغة العربية جامعة أمّ القرى.

في جميع المواضع بالفُلك، والتَّعبير بالسَّفينة، جاء في موضع واحد، مُعبِّرًا به عن حال رسوِّها واستوائها، على الأرض.

والسَّفينة مأخوذة من السَّفن؛ لأنَّها تسفِن على وجه الأرض، أي: تلزق بها، أو أنَّها تسفِن الرَّمل؛ إذا قلَّ الماء، أي: تقشره، قال ابن سيده: "السَّفينَة فعيلة، بمَعْنى فاعلة، مُشْتَقَّة من السُّفن، أي: القشر؛ لِأنَّها تسفِن الماء، كَأنَّها تقشره"[1]، والمناسب للسّياق هنا الفُلك.

(ظَلَموا) و(كَفروا):

الظُّلْمُ أعمُّ من الكفر؛ لأنَّه يشمل الكفر وغيره، ممّا هو أدنى منه من المعاصي

الظُّلْمُ عندَ أهل اللُّغة وكَثيرٍ من العلماء: وضعُ الشَّيء في غيرِ موضعِهِ المختصِّ به، إمّا بنقصان أو بزيادةٍ، وإمّا بعدولٍ عن وقتِه أو مَكانِهِ، والظُّلْمُ يقالُ في مُجاوَزَةِ الحَقِّ الَّذي يَجري مَجرَى نقطةِ الدَّائرة، ويقالُ فيما يَكثُر، وفيما يَقِلُّ من التَّجاوزِ، ولِهَذا يُستعمل في الذَّنْبِ الكَبيرِ، وفي الذَّنب الصَّغير"، والمناسب للسّياق التَّعبير بالظُّلم، والكُفْرُ في اللُّغة: ستر الشَّيء، ووصف اللَّيل بالكافِرِ لستره الأشخاص، والزُّرّاع لسترِهِ البذر في الأرض، وكُفْرُ النِّعمة وكُفْرانُها: سترها بترك أداء شكرها، والكُفرانُ في جحود النِّعمة، أكثر استعمالًا، والكُفْرُ في الدِّينِ أكثر، يُقال: كَفرَ، فهو كافِرٌ"[2].

(1) ابن سيده، المخصّص، وابن منظور، لسان العرب: (سفن).
(2) الرّاغب، المفردات: (ظلم، كفر).

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾ [هود: 38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الاستجابةُ النَّبويَّةُ للأمرِ الإلهيِّ سرُّ النَّجاةِ ومبدأُ الفلاحِ

المُناسبة بين هذه الآية والتي قبلها جليَّةٌ واضحة، وهي أنَّ اللّٰه ﷻ لمّا أمر نبيَّه نوحًا ﷺ بصُنع الفُلك في قوله: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ [هود: 37]؛ أخبر هُنا أنَّه امتثل ذلك بقوله: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾[1]، ففي هذه الآية بيانٌ لامتثال نوحٍ لأمر ربِّه ﷻ[2]، فهي مناسبةٌ لبيان ترتُّب الاستجابةِ النَّبويَّة على الأمر الإلهيِّ دون توانٍ أو تردُّدٍ، بل مسارعة ومسابقة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَصۡنَعُ﴾: من الجذر اللغوي (صنع)، وهو أصلٌ صحيح يدلُّ على عملِ الشيء صُنعًا، تقول: امرأة صَناعٌ، ورجل صَنَعٌ؛ إذا كانا حاذِقَين فيما يصنعانِه[3]، فهو العمل الذي ينتهي بتشكيل هيئةٍ جديدة وتحصيلها بإحكام[4]، فالصُّنع: إجادة الفعل[5]، يُقال: صنَعْتُ الشَّيءَ أصنَعُه صُنْعًا[6]، والصُّنّاع: الذين يعملون بأيديهم[7]، ومعنى ﴿وَيَصۡنَعُ﴾ في الآية: يبني، وينحتُ، ويُشكِّلُ غايةً في الإتقان والإحكام[8].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/283.
(2) البغوي، معالم التَّنزيل: 2/447، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/202.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صنع).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صنع).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (صنع).
(6) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (صنع).
(7) الخليل، العين: (صنع).
(8) السمرقندي، بحر العلوم: 2/149، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صنع).

2) ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾: السَّفينة: والفاءُ واللّامُ والكافُ تدور تصاريفُها عَلى اسْتِدارَةٍ في شَيْءٍ، والفَلَكُ: قِطَعٌ من الأرْض تستديرُ، وترتفع عَمّا حولها(1)، وفَلَكُ كُلِّ شَيْءٍ: مُسْتدارهُ ومُعْظمه(2)؛ ومنه سمِّيت السَّفينَةُ فُلْكًا؛ لِأنَّها تُدارُ في الماءِ(3).

3) ﴿مَرَّ﴾: أصل مرَّ يدلُّ على مُضيِّ شَيْءٍ، ومَرُّ السَّحابِ: انْسِحابُهُ ومُضيُّهُ(4)، يُقال: مَرَّ يَمُرُّ مَرًّا ومُرورًا: جازَ، وذَهَبَ، ومَرَّ بِهِ، ومَرَّه: جازَ عَلَيْهِ(5)، فالمرورُ: هو المُضيُّ والاجتياز بالشَّيء دون توقُّفٍ، ويُقال لما هو خِلافُ الحلاوة والطّيب: المُرُّ، فمرارة الشَّيء تمنع النّاس من المكث فيه، فسُمّي الأمَرّ؛ لأنَّه غيرُ طيّب، ثمَّ سمِّيت بعد ذلك كلُّ شدَّة وشديدة بهذا البناء، يقولون: أمررتُ الحبلَ: فتلتُه، وهو مُمَرٌّ، والمَرُّ: شدَّةُ الفَتْل، والمَرير: الحبل المفتول(6). وقد استُعمل المرور في القرآن فيما كان اجتيازًا سريعًا دون توقُّف، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾، وقد استعمل القرآن ما كان لجزء يسير من الزّمان مرَّةً، ومرَّتين، قال تعالى: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾ [الإسراء: 5]، استبشارًا بسرعة الزَّوال.

4) ﴿مَلَأٞ﴾: أصل ملأ يدلُّ على الكمال في الشَّيْءِ(7)، والملأ: الأشْرافُ والرُّؤساء من النّاسِ، وهو اسْمُ الجَماعَةِ، كالقَوْم والرَّهْطِ والجَيْش، وجَمْعُهُ أمْلاءٌ، وأصْلُها: منَ المَلْءِ، وهُمُ الَّذينَ يَمْلَؤونَ العُيونَ هَيْبَةً ورواءً، وقيلَ: هُمُ الَّذينَ يَمْلَؤونَ المَكانَ؛ إذا حَضَروا، والرُّؤَساءُ سُمّوا بِذَلِكَ؛ لِأنَّهم يَمْلَؤونَ القُلوبَ بِما يُحْتاجُ إلَيْهِ من قَوْلِهِمْ: مَلَأَ الرَّجُلُ يَمْلَأُ مَلاءَةً، فَهو مَليءٌ(8).

5) ﴿سَخِرُواْ﴾: السُّخرية: تَعَجُّبٌ مَشوبٌ باحْتِقارِ الحالِ المُتَعَجَّبِ منْها، فيدلُّ على احتقار واستذلال، ومن الباب: سَخِرتُ منه، إذا هزِئتُ به، وسَخِرْتُ بِه، واسْتَسخرتُه للهزْءِ منه،

(1) الأزهري، تهذيب اللُّغة: 10/142.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فلك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مرّ).
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: 10/247، وابن منظور، لسان العرب: 5/165.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (مرّ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: 5/346.
(8) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 6/168، وابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/161.

أصل (سخر): انقيادٌ بيُسرٍ مع عدم مقاومةٍ، ومن الانقيادِ مع عدم المقاومة، وهو خفَّةُ حالٍ وقَدْر، قالوا: "سَخِر منه سِخْريًّا وسُخْريًّا: هَزِئَ"، وهذا يعبِّر عنِ الاستخفافِ وعدم التَّقدير[1].

وقد وردت مشتقّات الجذر (سَخِرَ) في هذه الآية أربع مرّات، وتُطلق السُّخرية على ثلاثةِ معانٍ، وهي: الهُزْءُ بالشَّخص، والمجازاة جزاءَ السُّخرية[2]، والعمل بدون أجر، والمعنى الأخير غير مُراد هُنا في هذا الموضع؛ قال الزَّمخشري "فلان سُخْرةٌ: يضحك منه النّاس، ويضحك منهم، وسَخِرْتُ منه واستسخرت، واتَّخذوه سخريًّا، وهو مَسخرة من المساخر، وتقول: رُبَّ مَساخِرَ يَعُدُّها النّاس مفاخر، وسخَّره اللّه لك، وهؤلاء سُخرة للسُّلطان يتسخَّرهم: يستعملهم بغير أجر"[3].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الـثِّـقـةُ بالله تعالى في الأمرِ كـلِّـه عـمادُها الإيمانُ ووقودُها الصَّبر

تُبيِّن الآية حالَ نوح عليه السلام حين أمره اللّه تعالى بصناعةِ الفُلك بعيدًا عن البحر، فامتثل أمرَ ربِّه، وشرع في صناعةِ السَّفينة دون توانٍ أو تباطؤٍ، وتُصوِّر الآيةُ حالَ الملأ الذين اعتادوا المرورَ عليه لإبداءِ السُّخرية المضمَّنةِ بالعَجب؛ فهو يقومُ بصناعةِ أمرٍ لا فائدةَ منه في نظرِهم، وهو ما جعل عجَبَهم القاصرَ المضمر في نفوسهم سخريةً ظاهرةً مكرورةً عند المرورِ به، فكان جوابُه مناسبًا لسخريتِهم مساويًا لهزئهم؛ بأن توعَّدهم السُّخرية الحقيقيَّة عند مجيءِ الوعدِ الصّادق في المستقبل القريبِ، وهو غرق السّاخرِ اليوم الذي سيُسخر منه غدًا، ونجاة المسخور منه اليوم الذي سيَسخر غدًا، فالآيةُ أصلٌ في الثِّقةِ باللّه تعالى، والصَّبر على أمرِه إلى حين لقائه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيُّ، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سخر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/296.
(2) ابن الحداد، كتاب الأفعال: 3/547.
(3) الزَّمخشري، أساس البلاغة: 1/443.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في ﴿وَيَصۡنَعُ﴾:

الامتثالُ للأمرِ الإلهيِّ استسلامٌ وخضوعٌ موازٍ للسُّجود والرُّكوع

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾: إمّا أنّها عطفٌ على جملة ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [هود: 37]، أي: أوحيَ إليه: اصنع الفلك، وصنعَ الفلك[1]، وإمّا أنّها استئنافيَّةٌ بذاتِها، أو استئنافيَّة باعتبارِها معطوفةً على محذوفٍ مُستأنف، فتأخذ حكمَه، أي: يتهيَّأ للصُّنع بعد أمرنا له به، ويصنع[2].

وعلى كلا التَّقديرَيْنِ فهذه الجُملة تُبَيِّن استجابة نبيِّ اللّه نوح عليه السلام وامتثاله لأمر رَبِّه؛ فلمّا أمره تعالى؛ أخبر أنَّه امتثل ذلك بقوله عاطفًا على ما تقديره: فأيس من إيمان أحد منهم، فترك دعاءهم، وشرع يسلّي نَفْسه، وطفق يصنع الفلك[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿وَيَصۡنَعُ﴾:

استحضار صورة الصُّنع العجيبة التي لم يُعهد مثلُها حكايةٌ للحال الماضية

جاء التَّعبير بالفعل المضارع مع أنَّ الصُّنع كان في الماضي؛ استحضارًا لصورة الصُّنع العجيبة التي لم يُعهد مثلها، فهي حكايةٌ للحال الماضية، كأنَّها حاضرة يُشاهدها سيِّدنا محمَّد ﷺ وغيره، حال كونِ نوحٍ عليه السلام يصنعها[4].

والتَّقدير: فشرع يصنع، فحُكيت حال الاستقبال[5]، أي: يصنع الفلك الآن، ويدلُّ على أنَّ الصُّنع بدأ منذ حينٍ وأنَّه مستمرٌّ، وفيه ملاءمةٌ للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة حالًا ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ من ضميره[6]، أي: حالَ استمرار العمل،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/67.
(2) أطفيش، تيسير التَّفسير: 6/389.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/283، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/202.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/76، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/202، وأطفيش، تيسير التَّفسير: 6/389.
(5) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/282.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 4/206.

وليس بداية العمل، فهي نقلٌ للمُخاطَب إلى المشهد، ونوحٌ مُنهمكٌ في العمل، لتخييل السّامع أنَّ نوحًا عليه السلام بصدد العمل، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ [فاطر: 9]، وقوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤﴾ [هود: 74][1].

نكتةُ اختيارِ لفظ الصُّنع: ﴿وَيَصۡنَعُ﴾:

رسوخ الصَّنعة والتَّمكُّن فيها عنايةٌ إلهيَّةٌ ورعايةٌ ربّانيَّة

الصُّنْعُ: تَرْتِيبُ العَمَلِ وإِحْكامُهُ على ما تَقَدَّمَ عِلْمٌ به، وبما يوصِلُ إلى المُراد منه، ولذا قيل لِلعِلْم المُتَعَلِّق بكيفيَّةِ العملِ: صِناعةٌ[2]، ويَدُلُّ على رسوخِ العَمَلِ وإجادَتِه، فَيُقالُ للنَّجّار: صانِعٌ؛ لأنَّ النَّجار قد سَبَقَ عِلْمُهُ بما يُريدُ عَمَلَهُ، وعَلِمَ بالأسبابِ التي توصِلُ إلى المُرادِ من ذلك؛ فالصُّنْعُ أَخَصُّ من غيرِه، وقد وصِفَ نوحٌ عليه السلام بهذا الوصف، فدلَّ على الرُّسوخ والتَّمكُّن في الصُّنع، فقد أحكم نوحٌ صَنْعَةَ السَّفينة، وأجادها حتَّى قارعت أمواجًا عظيمةً، وصفَها اللّه تعالى بأنَّها في عِظَمها وحجمها كالجبال، فقال: ﴿وَهِىَ تَجۡرِى بِهِمۡ فِى مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾.

وفي أمرِ اللّه تعالى بصنعِ السَّفينة، والتَّعبير عن بناءِ السَّفينة بالصُّنعِ؛ إشارةٌ سرمديَّة إلى أنَّ نوحًا عليه السلام سيُتقن الأمرَ، فعبَّر عمّا سيكون، وأخبر بما هو كائنٌ، ترسيخًا للمعاني الثّابتة، وإلهابًا للنُّفوسِ الآمنة، أنَّها ستزداد إيمانًا في مركبٍ صُنِعَ بأمرِ اللّه تعالى، وبقوَّة اللّه كان، وبرحمته استقرَّ وجال.

ولا شَكَّ أنَّ سفينة نوح لم تكن سفينة عاديَّة، ولم تنته بسهولة مع وسائل ذلك الزمان وآلاته؛ إذ كانت سفينة كبيرة تحمل بالإضافة إلى المؤمنين الصّادقين زوجين اثنين من كلِّ نوع من الحيوانات، وتحمل متاعًا وطعامًا كثيرًا يكفي للمدَّة التي يعيشها المؤمنون والحيوانات في السَّفينة حال الطّوفان، ومثل هذه السَّفينة بهذا

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/67.
(2) الشّريف الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 134، والتّهانويّ، كشّاف اصطلاحات الفنون: 2/1097.

الحجم وقدرة الاستيعاب، لم يسبق لها مثيل في ذلك الزَّمان بل حتَّى في هذه الأزمنة ممّا يَدُلُّ على إحكام صُنعها، وتمكُّن صانعها من تلك الصَّنعة العجيبة، وعليه فذِكْرُ لفظ الصُّنع هو الأنسب بالسّياق والمقام، فالسّياق هو حديث عن أعجوبةٍ، ولفظ الصُّنع هو الأليق بها، والمقام حديثٌ عن سفينة، ولفظُ الصُّنع هو الملائم لها؛ لأنَّ السَّفينة لا تُفعل، ولا تُعمل؛ بل تُصنع.

سرُّ إضمارِ المسندِ إليه في ﴿وَيَصۡنَعُ﴾:

شُهرةُ نوحٍ عليه السلام بصنع الفلك أغنى من أن تُذكر

لم يُظهرِ النَّظمُ الكريم المُسند إليه ﴿نُوحٍ﴾ هُنا، فأتى به مُضمرًا لكونه معلومًا معيَّنًا، في قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: 36]، فمقتضى الحالِ الإضمارُ؛ لأنَّ سياق المقطع في قصَّته، وسياقُها صرَّح به، والذي صنع الفُلك هو لا سِواه عليه السلام، فشُهرةُ أمره أعلى من ذكرِه، ومن كان كذلك؛ كان إضمارُ اسمه أولى من إظهارِ حرفِه ورسمه.

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَكُلَّمَا﴾:

شأنُ قادةِ الكفرِ تثبيطُ الهمم وزعزعةُ القِمم

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ﴾ حاليَّة، ومعنى الكلام: يصنع الفُلكَ، وحاله في وقتِ صناعةِ الفلك مع قومه: أنَّه كلَّما مَرَّ ملأٌ؛ سخروا منه، فالحال تُبيّن صعوبةَ الصُّنعِ مع سخريةِ القوم، فهو فوق أنَّه منهمكٌ في صناعةِ الفلك، لمعرفته بغاية الصُّنع؛ يمرّون أولئك فيسخرون، ومن صور السُّخرية التي قالها المفسِّرون: إنَّهم كانوا يقولون له: صرتَ نجارًا بعد أن كنتَ نبيًّا[1]، فأشار بقوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا﴾ إلى أنَّهم ازدادوا بَغْيًا، فسخروا منه[2].

سرُّ التَّعبير بتركيب (كلَّما):

في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ﴾، جاءت كلمة (كلّما) وهي

(1) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 2/135.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/284، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/68.

مُركَّبة من (كُلَّ) و (ما) الظَّرفية المصدريَّة الوقتيَّة، وانتصبت (كلّ) على الظرفيَّة؛ لأنَّها اكتسبت الظرفيَّة بالإضافة إلى الظَّرف، وهو متعلِّقٌ بـ ﴿سَخِرُواْ﴾، وهو جوابه من جهة أخرى، والمعنى: وسخر منه ملأ من قومه في كلِّ زمنِ مرورهم عليه(1).

السُّخرية هي المرامُ والغايةُ، والمرورُ هو الأداةُ والوسيلة

فتركيب ﴿وَكُلَّمَا﴾: ظرفُ زمانٍ مُتضمِّنٌ معنى الشَّرط، متعلِّقٌ بقوله: ﴿سَخِرُواْ﴾(2)، فهذا الظَّرف يَدُلُّ على تَكَرُّر فعل السُّخرية منهم في كُلِّ وقتٍ يمرّون عليه فيه، ونكتةُ التَّعبير به دون أن يقول: (وسخروا منه عند مرورهم)، ونحوِه؛ لبيانِ أنَّه ما خلا مرورٌ من سخريةٍ واستهزاءٍ؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّهم يمرّون لأجلِ السُّخرية لا لأجل المرور، فالسُّخرية غايتُهم، والمرورُ وسيلتهم، وبه يتبيَّن مدى حقدِ القوم وحسدِهم وعداوتِهم لنوحٍ عليه السلام ومن معه من المؤمنين، فلا تجزعْ على غرقِهم، بل افرح بتطهير الأرض من دنسهم.

نكتةُ استعمالِ المرور في ﴿مَرَّ﴾:

قومُ نوحٍ عليه السلام جمعوا في موقفِهم منه بين الخَبْطِ الشُّعوريِّ والحسد

استعمل النَّظم القرآنيُّ مفردةَ المرور ﴿مَرَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ﴾، دون أن يقول: (وكلَّما أتوه) ونحو ذلك، لبيانِ أنَّ مرورهم كان مَرًّا سريعًا، فإنَّ مفردةَ المرور تدلُّ على الاجتيازِ السَّريع، وتتضمَّنُ في أثناء دلالاتها المعجميَّة مرارة المعنى، ويُؤكِّد ذلك أو ينفيه استعمال السّياق، والسُّرعةُ دليلُ الحسد والحقد، فإذا تكرَّر؛ دلَّ على الخَبْطِ الشعوريِّ، فهم يمرّون مسرعين، ولا يرغبون بأن يُشعَر بأنَّ مرورهم كان للاطِّلاعِ، فيوارون هذا المقصد بالسُّرعةِ، لكنَّ تَكرارَ المرور كاشفٌ، أنَّى لهم بدفعِه؟

دلالةُ الحرف (على):

في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ﴾ تدلُّ (على) على أنَّ سيِّدنا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/68.
(2) القنوجي، فتح البيان: 3/312.

تصويرُ المشهدِ التّاريخيّ في مرورِ الملأ قصدًا لا وفاقًا

نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يَصْنَعُ الفُلك في طريق المارَّة، وإنَّما في مكانٍ متنحٍّ منخفضٍ، ولذلك لم يقل: (وكلما مروا به)، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠﴾ [المطفّفين: 30]، فحرف (على) استُعمل للاستعلاء الحقيقي، وهذا ما يقتضيه الظّاهر ما لم يرد مانعٌ من ذلك، فهم يمرّون آتين من مكانٍ مرتفعٍ، وهو مُتَنَحٍّ عنهم في مكانٍ منخفضٍ، فهو ليس في طريقِهم، وهذا ما يُؤكِّد أنَّهم قصدوا المرور، لا أنَّه جاءَ لِمامًا، وهي إشارةٌ من النَّظم، تُصوِّر المشهد التّاريخيَّ، لاستحضارِ الصّورةِ، واستجلاءِ الحقيقة.

فائدة استعمالِ: ﴿مَلَأٞ﴾:

في الأوقاتِ العصيبةِ يتولّى الملأ الأعمال الميدانيَّة

جاءَ استعمالُ لفظةِ ﴿مَلَأٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ﴾، دون أن يقولَ: (جماعةٌ، أو طائفةٌ، أو فرقةٌ) ونحو ذلك؛ لبيانِ أنَّ الغيظَ والحسدَ والانشغال قد أصاب الملأ، وهم أشراف القوم وكبراؤهم[1]، الذين استحقّوا هذا الوصفَ وهُم الذين يملؤون صدور المَجالس، وتمتلئ القلوب من هَيْبَتِهم، وتمتلئُ الأبصارُ من رُؤيتهم، وهذه الصِّفاتُ لا تحصل إلّا في الرُّؤساءِ[2]، فهم الذين يعادون نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ على الحقيقةِ، وهم الذين يُحرِّكون الجماهير التَّعيسة من قوم نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهم الذين يمرّون بأنفسهم دون أن يوكلوا ذلك لآحادِ النّاس، ففيه إشارةٌ إلى أنّهم أصحابُ فضولٍ كبيرٍ، وتراودهم أفكارٌ ومشاعر، كتلك التي راودت قريشًا عند سماعِ القرآنِ، فتناقضت مشاعرُهم بين الرَّغبةِ في المشاهدة، والمقاومة لتلك الرَّغبة، فأبرز النَّظمُ تلك التَّصرفات الرَّعناء، والأفعال الحمقاء، بألفاظٍ دلَّت على المراد، وكشفت عن المقصود.

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1139، ووهبة الزُّحيلي، التَّفسير المنير: 12/68.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/179.

الغرضُ من تنكيرِ: ﴿مَلَأٌ﴾:

المـلأُ يتقاسمون الأدوارَ، ويتناوبون فيما بينهم خوفًا باعثُه الجهل من القادم

أشارتِ الآيةُ بتنكير لفظة ﴿مَلَأٌ﴾ دون تعريفِها إلى أنَّ الذين كانوا يتحرَّكون هم جزءٌ من الملأِ لا جميعهم، ففيه أنَّهم كانوا يقومون بجولاتٍ تفقديَّة، وينقسمون إلى فِرَقٍ، كلُّ فرقةٍ تقوم بدورِها الفاحص حول ما يقوم به نوحٌ عليه السلام، ولو قال: (الملأ)؛ لفُهِمَ أنَّ المرادَ بالملأِ هنا: جميعُهم، والنَّظم أفاد أنَّ الذين يمرُّون هم بعضُ الملأِ، وهذه إشارةٌ إلى أنَّهم كانوا منتظمين على المرور، متناوبين في الأعمال، لسانُ أفعالِهم كلسانِ قولِ المشركين: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦﴾ [ص: 6].

دلالة ﴿مِّن﴾:

المـتـصـدّون لـعداوةِ الحقِّ هـم رؤسـاءُ الـقــوم لا رعـاعُـهـم، والأسـيـادُ لا الأسياف

حرف ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ معناه التَّبعيض[1]، فالملأُ هم بعضُ القوم، وهم قادتهم الذين تصدّوا لمجادلة نوح والمُناضلة عن دينهم، فإنَّ قوم نوح، وإن كان أكثرهم قد كفر بدعوته ورسالته، وما آمن لنوحٍ إلّا قِلَّةٌ قليلةٌ منهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾؛ إلّا أنَّ الذين تَصدّوا لمجادلته هم الرُّؤساء والأشراف الأغنياء المتبوعون الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحقِّ، ومجادلتهم لرسلهم[2]، فالملأُ هم من قوم نوحٍ عليه السلام الذين ينطقون عن عامَّةِ النّاسِ، وعامَّةُ النّاس يوافقونَهم في العادةِ.

سرُّ الإضافةِ في ﴿قَوۡمِهِۦ﴾:

إعـــراضُ قـوم الـدّاعـي عن الإيمان حسرةٌ عظيمةٌ ولهفةٌ جسيمةٌ

أُضيف لفظ (القوم) في قولِه تعالى: ﴿مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ إلى الضَّميرِ العائدِ على نوحٍ عليه السلام؛ لبيانِ أنَّهم يعرفونه، ويعرفون صدقَه وحسنَ سيرته، فكان حريًّا بهم تصديقه واتِّباعه، وأنَّهم القوم أنفسهم الذين خاطبهم، ودعاهم مرارًا، وعايشهم سنين طويلة، فهم من

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 9/179.
(2) السَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 293.

قومه لا من قومٍ آخرين، فالحديث عن ملأٍ من قومه، ممّا يزيد من أسى نوحٍ عليه السلام من عدم إيمانِهم وسخريتِهم وعنادِهم؛ فإنَّ المؤمنَ عظيمُ الأخلاقِ، تزدادُ شفقتُهُ ورحمتُهُ بقومه الذين كابد في سبيل هدايتِهم، وفي طريق يقظتهم.

سخريةُ الملأِ ثابتةٌ في كلِّ زمان والرَّدُّ عليها بما يوافقُ كلَّ مقام

توجيهُ جوابِ الشَّرطِ:

لتعيينِ جواب ﴿وَكُلَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ احتمالان:

الأوَّل: أن يكون الجوابُ قولَه تعالى: ﴿سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾، فيكون المعنى: كُلَّما مَرَّ الملأ عليه؛ سخروا، فالسُّخرية مستمرة عند كلِّ مُرور، وتكون جملة ﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾ استئنافيةً[1]، وتكون الجملة بالشَّرطِ وجوابه كاملةً بقولِه تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾، وحينها لا يدلُّ على أنَّ الإجابة ﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾ كانت في كلِّ مرَّة يسخر الملأ فيها من نوحٍ عليه السلام، وإنَّما سخريتهم هي التي كانت في كلِّ مرَّةٍ.

الآخر: أن يكون جواب ﴿وَكُلَّمَا﴾ قولَه تعالى: ﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾، وجملة ﴿سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ صفة للملأ[2]، فيكون المعنى: (كُلَّما مَرَّ عليه ملأ ساخر؛ قال: إنْ تسخروا منّا)، فهو لا يترك ملأً ساخرًا إلّا رَدَّ عليه، وكلَّما سخر ملأٌ؛ أجابه نوح عليه السلام بقوله: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾، أي: إنَّ الإجابةَ والرَّدَّ كان في كلِّ سخريةٍ صادرةٍ عن الملأِ المارِّ بنوحٍ عليه السلام[3].

والاحتمالُ الأوَّل أقربُ إلى القبول؛ لما فيه من سلاسةِ التَّوجيه،

(1) أبو حيّان، النّهر المادّ: 2/66، والقنوجي، فتح البيان: 3/312.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/149، والنيسابوري، تفسير غرائب القرآن: 4/20.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 2/394، والآلوسي، روح المعاني: 6/248.

واتساق المعاني، وهو ما يتوافق مع طبيعةِ تعامل الأنبياءِ مع أقوامهم، فإنَّ الصَّواب يقتضي أن يكون الرَّدُّ بما تقتضيه الحكمةُ، وتستحسنه الفكرة.

دلالةُ التعبير بالفعل ﴿سَخِرُواْ﴾:

لا يوفِّر الظّالم المعتدي شيئًا من مظاهرِ السُّخرية وألفاظ الاستهزاء إلّا ذكره

ذكر المفسِّرون في معنى لفظ السُّخريَّة في الآيةِ معانيَ كثيرةً، تدلُّ على التَّحطيم المعنويِّ، وتكريس ملمح الصِّراع بين الحقِّ والباطل، ومعنى ﴿سَخِرُواْ﴾ العام: هو هزِئُوا منه، وأسمعوه ما يؤذيه من قوارص الكلم، وقالوا عنه ما حكاه القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩﴾ [القمر: 9][1]، وفي سخريتهم منه وجوهٌ أخرى مذكورةٌ عند المفسِّرين، يحتملها اللَّفظُ القرآنيُّ، ولا ينفر عنها السِّياق، وهي وجوهٌ دالَّةٌ على سعة المعنى في اللَّفظِ القرآني، بما يدلُّ على حيويَّته وثرائه:

الأول: أنَّهم كانوا يقولون: يا نوح كنتَ تدَّعي رسالة الله تعالى، فَصِرْتَ بعد ذلك نجّارًا.

الثاني: أنَّهم كانوا يقولون له: لو كنت صادقًا في دعواك؛ لكان إلهك يُغنيك عن هذا العمل الشّاق.

الثالث: أنَّهم ما رأوا السَّفينة قبل ذلك، وما عرفوا كيفية الانتفاع بها، وكانوا يتعجَّبون منه، ويسخرون.

الرابع: أنَّ تلك السَّفينة كانت كبيرة، وهو كان يصنعها في موضع بعيدٍ عن الماء جدًّا، وكانوا يقولون: ليس هاهنا ماء، ولا يمكنك نقلها إلى الأنهار العظيمة وإلى البحار، فكانوا يعدّون ذلك من باب السَّفه والجنون.

الخامس: أنَّه لمّا طالت مُدَّته مع القوم، وكان ينذرهم بالغرق،

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1139.

وما شاهدوا من ذلك المعنى خبرًا ولا أثرًا؛ غلب على ظنونهم كونه كاذبًا في ذلك المقال، فلمّا اشتغل بعمل السَّفينة؛ لا جرم سخروا منه، وكلُّ هذه الوجوه مُحتمَلةٌ[1]، ففي التعبير بالفعل ﴿سَخِرُواْ﴾ إيجازٌ بليغ لشمول كلِّ هاتيك المعاني.

دلالةُ اختلافِ التَّعبيرِ في المقابلة:

التَّنبيه على الفرق بين السُّخريَّتيْن وتغاير المسلكين

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ تغييرٌ في الأسلوب عن قوله تعالى: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾، وذلك بجعله جملةً اسميَّة مصدَّرة بالتَّأكيد للتَّنبيه على الفرق بين السُّخريتين في قوله تعالى: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾، أي: سخرية الملأِ وسخرية نوحٍ عليه السلام، وعلى تغاير المَسْلَكَيْن، والتَّنبيه بناءً على ظاهره لذمِّهم، وعلى كون سخريتهم أعرفَ عندهم[2]، وهذه عادةُ القرآنِ أن يُنبِّهَ على اختلاف المعاني بوساطةِ اختلافِ التَّعبير في الألفاظِ المتقابلةِ.

دلالةُ المسخورِ منه في الجملة الشرطية:

كثرةُ التّقديرات الدّلاليَّة مقصدٌ أداتُه الإيجاز لدَرْك الإعجاز

اختُلف في تعيينِ المسخورِ منه في جملة الشَّرطِ وجوابها في قوله تعالى: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ على خمسةِ أقوالٍ، وهي:

الأوّل: إن تسخروا من قولنا؛ فإنّا نسخر من غفلتكم.

الثّاني: إن تسخروا من فعلنا عند بناء السَّفينة؛ فإنّا نسخر منكم عند الغرق[3].

الثّالث: إن تسخروا منّا في الدنيا؛ فإنّا نسخر منكم في الآخرة[4].

الرّابع: إن تستجهلونا؛ فإنّا نستجهلكم[5].

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/30، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/372، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب، 17/345.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/76.

(3) العِزُّ بن عبد السَّلام، تفسير العزِّ بن عبد السَّلام: 1/283.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/310.

(5) الخازن، تفسير الخازن: 2/483.

الخامس: إن تسخروا منّا؛ فإنّا نستنصر اللّه عليكم، فسمّى هذا سخرية؛ ليتّفق اللّفظان كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: 15](1).

وتظهر بلاغةُ التَّقدير في عدم تعيين المسخورِ منه، وإطلاقِ الكلام، وتنزيلِ النَّفس في قوله تعالى: ﴿مِنَّا﴾ منزِلةَ المسخورِ منه، فإنَّ مدارَ سُخرية الملأِ نوحٌ عليه السلام ومن معه، كما أنَّ مدارَ سُخريةِ نوحٍ عليه السلام هم الملأُ، فكان ذِكرُ المقصودِ بالسُّخريةِ وحذف القيود المتعلِّقة مرادًا لبيانِ كثرة أصناف السُّخرية التي يوجِّهها الملأُ لنوحٍ عليه السلام ومن معه، وهذا يدلُّ على طول زمانِ السُّخرية، ومرارة المعاناة، ولا يمنع أن تكون هناك تقديراتٌ أخرى سوى المذكور. وما جاء عليه النَّظم الكريم هو عمود البلاغة؛ إذِ الإطلاقُ مقصودٌ، وعدمُ التَّقييدِ مرادٌ.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿تَسۡخَرُواْ﴾ و﴿نَسۡخَرُ﴾:

سخريةُ الملأِ كنايةٌ عن الكفر، وسخرية المؤمنين كنايةٌ عن عقوبة الدُّنيا وعذاب الآخرة

جاء التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾، ولم يقل: (إن سخرتم منّا)؛ للدَّلالة على أنَّ السُّخرية قد صدرت عنهم في وقتِ قول نوحٍ عليه السلام: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾، أي: (إن تسخروا منّا الآن)، فدلَّ الفعل المضارع على استحضارِ فعل السُّخرية الصّادر عن الملأ؛ ليكون الجواب: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ في المستقبل، أي: إن تسخروا منّا الآن، فتستمرّوا على سخريتكم، وتصرّوا عليها؛ فإنّا نسخرُ منكم في المستقبل بسببِ عنادِكم على سخريَّتكم التي هي كنايةٌ عن الكفر، فاستحضار سخرية الملأِ لغرضِ إقامة الدَّليل على استحقاقهم السُّخرية في المستقبل، وهي العقوبةُ في الدُّنيا غرقًا، وفي الآخرةِ عذابًا.

سرُّ اختلافِ مقابلةِ الجمعِ للمفردِ في ﴿مِنۡهُۚ﴾ و﴿مِنَّا﴾:

في قوله تعالى: ﴿سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾ جاء التَّعبير

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/372.

السُّخريةُ من النَّبيِّ تستلزمُ السُّخرية من الأتباعِ

القرآنيُّ عن جواب نوح ﵇ بضمير الجمع (نا) دون أن يقول: (إن تسخروا مني)؛ وذلك: إمّا لأنَّ سُخريَّتهم منه ﵊ سخريَّةٌ من المؤمنين عن طريق دلالةِ اللُّزوم، فإنَّ من سخر من الدّاعي؛ فهو ساخرٌ بمن آمن به أيضًا، وإمّا لأنَّهم كانوا يسخرون من نوحٍ ﵇ والمؤمنين معًا، إلّا أنَّه اكتفى بذكر سخريَّتهم منه ﵇ في قوله تعالى: ﴿سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ باعتبارِه صاحب الرِّسالة، وهذا يدخل كذلك في دلالةِ اللُّزوم؛ ولذلك تعرَّض الجميع للمجازاة في قوله تعالى: ﴿نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾، فتكافأ الكلام من الجانبين[1]، فاكتفى النَّظمُ القرآنيُّ بذكر ضمير الإفرادِ للتَّنبيه على أنَّه المقصودُ أصالةً، وهذا من كلام اللّه تعالى في ذكر الحدث، وجمع الضَّمير لمّا كان الكلام جاريًا على لسانِ نوحٍ ﵇؛ لبيانِ أنَّه والمؤمنين يدٌ واحدةٌ، فكان إفرادُ الضَّمير في الإخبارِ عن الحدث، وجمعه في نقل كلام نوحٍ ﵇ بلاغةً عاليةً لا يُضاهيها كلامٌ آخر.

دلالة التَّعبير بالمضارع: ﴿نَسۡخَرُ﴾:

قَصْدُ المجازاة في الدُّنيا بالغرق وفي الآخرة بالحرق

ذكر النّظمُ القرآنيُّ ردَّ نوحٍ ﵇ على الملأِ بصيغة الفعل المضارع ﴿نَسۡخَرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾، ولم يقل: (سنسخر منكم) أو (سوف نسخر منكم)، وذلك أن الفعل (نسخر) يحتمل الحال والاستقبال، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ يحتمل أنَّهم يسخرون من الكافرين في الحال لعدم معرفتهم بما سيحيق بهم وهم لاهون عابثون ساخرون، وهؤلاء يستحقون أن يُسخر منهم في هذه الحال والمستقبل أيضًا، عندما يحلُّ عليهم العذاب، فيأخذهم الطوفان، فيغرقهم أجمعين، ويسخرون منهم في الآخرة، وهم في السَّعير[2].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/248.

(2) السّامرائي، على طريق التَّفسير البياني: 3/150.

فقوله: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ يستوفي حال نوحٍ والمؤمنين مع الكافرين، في حال سخريَّتهم، وعند الغرق، ويوم يُبعث النّاس لربِّ العالمين في القيامة، ولذا قيل: يكون ذلك في الدُّنيا عند الغرق، وفي الآخرة عند الحرق[1]، فهو استيعابٌ للحاضرِ والمستقبل القريبِ والبعيد، وهذا أدقُّ في تعيينِ المراد.

التعبير بالسخرية بين المشاكلة والمجاز:

سخريةُ الأنبياءِ من السّاخرين منهم مجازاةٌ عادلةٌ، وإصابةٌ ناجزةٌ

في قوله تعالى: ﴿نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ أثار بعض المفسِّرين سؤالًا، مفاده أنَّ السُّخريَّة من آثار المعاصي وإطلاقها على قوم نوحٍ حقيقةٌ، فكيف يليق صدورها من الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام؟ والجواب عن ذلك بأحد الأوجه الآتية:

الأوّل: أن تكونَ من قبيل المُشاكلة؛ لأنَّها لا تليق بالأنبياء عليهم السلام، فجيء بالألفاظِ المشاكلةِ للألفاظِ التي قالها القوم جزاءً وفاقًا.

الثّاني: أن يكون الكلام من قبيل المجاز المرسل بعلاقة السَّببيَّة؛ لأنَّ الاستجهال سببٌ للسُّخرية، فأُطلقت السُّخرية، وأريد سببها[2]، والمعنى: إن تستجهلوني؛ فإنّي أستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتَّعرُّض لسخط الله وعذابه، فأنتم أولى بالاستجهال منّا، أو إن تستجهلونا؛ فإنّا نستجهلكم في استجهالكم؛ لأنَّكم لا تستجهلون إلّا عن جهل بحقيقة الأمر. واستجهاله لهم باعتبار إظهاره لهم ومشافهتهم، وإلّا فهم عنده جُهّال قبل هذا وبعده[3]، وبناء على ظاهر الحال كما هو عادة الجهلة في البُعد عن الحقائق[4].

الثالث: أن تُحمل على المجازاةِ بالمقابلةِ، ويكون الاستعمالُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/248.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/248.
(3) القِنَّوجي، فتح البيان: 3/312.
(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/393، والخازن، تفسير الخازن: 2/483.

حقيقيًّا، والمعنى: إن تسخروا منا فسترون عاقبة سخريتكم(1)؛ فالمقصود من هذه السُّخرية إصابة جزاء السُّخرية، وكلُّ أحدٍ إنَّما يُجازى من جنس عمله لا من خلاف جنسه، فالآية نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [المطففين: 29]، وقال بعدها في الجزاء: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المطففين: 34] ثُمَّ تمَّمَ بقوله تعالى: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: 36]؛ فسمّيتِ المقابلةُ سُخريَّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشّورى: 40](2).

فهي منه ﷺ على الحقيقة لمّا كانت لجزائهم من جنس صنيعهم؛ فلا تَقبحُ، ولا حاجة لارتكاب خلاف الظّاهر؛ فلا مانع من أن يُراد الظّاهر، ولا ضرر في ذلك؛ ومن هُنا قال بعضهم: إنَّ في الآية دليلًا على جواز مُقابلة الجاهل والأحمق بمثل فعله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ﴾ [البقرة: 194]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النّحل: 126] إلى غير ذلك(3)، أي: أنتم محلُّ السُّخرية والاستهزاء، لأنَّ من كان على أمرٍ باطلٍ؛ فهو أحقُّ بالاستهزاء و السُّخرية، وعليه فلا حاجة لكون الكلام من باب المشاكلة(4).

غرضُ التوكيد في: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾:

ثقةُ النَّبيِّ بالموعود كأنَّه مُشاهد قبل الوجود

ورد مؤكِّدان في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾، هما: أداة التوكيد: (إنَّ)، واسميَّة الجملة؛ بقصد توكيد وقوع المعنى لا محالة؛ لأنَّه وعد الله للمتَّقين، بأن ينتهي بهم الحال بالتَّمكين؛ فنظر نوح

(1) البغوي، معالم التّنزيل: 4/175.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/345.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/248.
(4) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 2/135.

ﷺ إلى الموعود بطرف التَّصديق، فكان كالمُشاهد له قبل الوجود[1]، وتأكيدُ السُّخرية هو كنايةٌ عن وقوعِ العذاب.

معنى الكافِ في ﴿كَمَا﴾:

تعليلُ الأعمالِ للمخالفِ أدعَى لقبولِها وأبيَنُ في حضورِها

يجوز في (الكاف) في قوله تعالى: ﴿كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ احتمالاتٌ عدَّة:

الأول: أن تكون اسمًا بمعنى (مثل)، مبنيًّا على الفتح في محلِّ نصب صفة.

الثّاني: أن تكون نائبًا عن المفعول المطلق المحذوف، بتقدير: (نسخر منكم سخريَّة مثل سخريتكم).

الثالث: أن تكون تعليليَّة كالتي في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: 198]، والمعنى: فإنّا نسخر منكم؛ لأنَّكم تسخرون منا، فيُفيد التَّفاوتَ بين السُّخريَّتَيْن؛ لأنَّ السُّخرية المعلَّلَة أحقُّ من الأخرى، فالكفار سَخروا من نوحٍ ﷺ لعملٍ يجهلون غايته، ونوح ﷺ وأتباعه سخروا من الكفار لعِلمهم بأنَّهم جاهلون في غرور، كما دَّل عليه قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ بعد ذلك؛ وبذلك يتَّضح وجه التَّشبيه في قوله تعالى: ﴿كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ فهو تشبيه في السَّبَبِ الباعث على السُّخرية، وإن كان بين السَّببين بونٌ[2]، فالمعنى: إنّا نسخر منكم سخرية متحقِّقة واقعة، كما تسخرون منّا كذلك، أو متجدِّدة متكرِّرة، كما تسخرون منّا كذلك، وهذا التَّشبيه واقع إمّا في مجرَّد التَّحقُّق والوقوع، وإمّا في التَّجدُّد والتَّكرُّر حسبما صدر عن ملأ بعد ملأ[3].

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/136.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/68.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/248.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يصنعون) و(يعملون) و(يفعلون):

الصُّنْعُ أخصُّ المعاني الثَّلاثَةِ وأرْسَخُها، والفعل أعَمُّها، والعَمَلُ أوْسَطُها

الفِعْلُ لَفْظٌ عامٌّ يَدُلُّ عَلَى إحْداثِ شَيْءٍ مِنْ عَمَلٍ وغَيْرِه[1]، فَهو مُطْلَقُ التَّأثيرِ من جهة مُؤَثِّرٍ[2] سواء كان عن سبب أم لا، ويُقال لِما كان بإجادة وبدونها، ولِما كان بِعِلْمٍ أو غَيْرِ عِلْمٍ، وقَصْدٍ أو غَيْرِ قَصْدٍ[3].

وأمّا العمل؛ فهو عبارة عن إيجاد الأثر في الشَّيْءِ مع امتداد زمان، ولا يُقالُ إلّا لما كان بقصد وعِلْمٍ دون ما لم يكن عن قصد وعلم، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25]، فعبَّر عن ذلك بالعمل؛ لأنَّه لا يكون إلّا بِقَصْدٍ وامتداد زمان.

وأمّا الصُّنْعُ؛ فَهو: تَرْتيبُ العَمَلِ وإحْكامُهُ على ما تَقَدَّمَ عِلْمٌ به، وبما يوصِلُ إلى المُراد منه، ولذا قيل لِلْعِلْمِ المُتَعَلِّقِ بكيفيَّةِ العملِ: صناعةٌ[4]، ويَدُلُّ على رسوخ العَمَلِ وإجادَتِه، فَيُقالُ للنَّجار: صانِعٌ؛ لأنَّ النَّجار قد سَبَقَ عِلْمُهُ بما يُريدُ عَمَلَهُ، وعَلِمَ بالأسبابِ التي توصِلُ إلى المُراد من ذلك والصُّنْعِ.

فالصُّنْعُ أخصُّ المَعاني الثَّلاثَةِ، والفعل أعَمُّها، والعَمَلُ أوْسَطُها؛ فكلُّ صُنْعٍ عَمَلٌ، وليس كُلُّ عَمَلٍ صُنْعًا، وكلُّ عملٍ فِعْلٌ، وليس كُلُّ فِعْلٍ عَمَلًا[5].

السُّخرية والاستهزاء:

الفرق بينهما من وجهين: لفظيٍّ ومعنويٍّ

فأمّا اللَّفظيُّ؛ فالغالبُ في فِعْلِ الاسْتِهْزاءِ أنْ يتعدَّى بـ (الباء)، والغالب في فعل السُّخريَّة أن يتعدّى بحرف (من)، وتعديةُ كلٍّ واحدٍ بالحرف المذكورِ مُطَّردٌ في القرآنِ الكريم لا يتخَلَّفُ، ولكنْ ورَدَ منْ غير الغالبِ في كلام العربِ[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغةِ: (فعل).
(2) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(3) المناويّ، التّوقيف على مهمّاتِ التّعاريفِ، ص: 262.
(4) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 134.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 134.
(6) الزبيدي، تاج العروس: 11/521.

وأمّا المعنويُّ؛ فَيَظْهَرُ بملاحظَةِ أصلِ المادَّةِ؛ فالسُّخريَّةُ مَلْحوظٌ فيها مَعْنى التَّسْخيرِ والطّاعة؛ والمسخِّرُ غيرَه يَراه دونَهُ، فيتَّصِفُ بالكِبْرِ والطُّغيان[1]، فالسّاخِرُ مُتكبِّرٌ في تعامُلِه مع المَسْخورِ منْهُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾[2].

أمّا الاسْتِهزاءُ؛ فَمَلْحوظٌ فيه معنى الخِفَّة والحركة اللّاهيَةِ، وهو ما يورِّثُ لَدى المستهزِئَ معنى الاستخفافِ والاسْتِصْغارِ بالمهزوءِ بِهِ، وعليه فمعنى الكِبْرِ والطُّغيان أوْضَحُ في كلمة السُّخريَّةِ، ومعنى الاستخفافِ والاحتقارِ أوْضَحُ في كلمةِ الِاسْتِهْزاء، وهما يشتَرِكان في أصل المعنَى، فإذا اجتَمعا؛ افترقا، وإذا افترقا؛ اجْتَمَعا.

وهنالك أمران يُذكران في الاستعمال القرآنيِّ لهذين اللَّفظين: أوَّلهما: أنَّ الاستهزاء عامٌّ سواء تعلَّق بالأشخاص أم بغير الأشخاص، قال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا﴾ [المائدة: 58] فالصَّلاة ليست شخصًا، وإنَّما أقوالٌ وأفعالٌ، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ﴾ [الجاثية: 9]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ [البقرة: 231]، فالاستهزاء عامٌّ في الأشخاص وفي غير الأشخاص، أمّا السُّخرية؛ فتكون من الأشخاص تحديدًا، قال تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾؛ فالاستهزاء أعمُّ من السُّخرية.

والأمر الثّاني: أنَّ الإنسان يُستهزَأ به من غير أن يسبقَ منه فعلٌ يُستهزَأ به من أجله، والسُّخرية تدلُّ على فعلٍ يسبقُ من المسخور منه، وذلك أنَّك تقول: استهزَأتُ به، فتعدّي الفعل منك بالباء، والباء للإلصاق، كأنَّك ألصقت به استهزاءً من غير أن يدلَّ على شيء وقع الاستهزاء من أجله، وتقول: سخرتُ منه، فيقتضي ذلك من وقع السُّخر من أجله، كما تقول: تعجَّبت منه، فيدلُّ ذلك على فعلٍ وقع التعجُّب من أجله[3].

فالسُّخرية تتعلَّق بالأفعال، أمّا الاستهزاء؛ فلا يتعلَّق بالفعل؛ فقوم نوحٍ مثلًا سخروا منه، وهو يصنع الفلك، وهذا عملٌ، وهم سخروا من فعلٍ يفعله، ومثله قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾ [التَّوبة: 79] هذا فعل.

(1) القاضي عياض، مشارق الأنوار: 2/209، والصُّحاري، الإبانة في اللُّغة العربيَّة: 3/224.
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 50، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/147.
(3) المصطفوي، التَّحقيق في كلمات القرآن: 5/76.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ٣٩﴾ [هود: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عند التّمادي بالاستهزاء يجب التّنادي بالاستخزاء

لمّا كان مدار سخريَّة قوم نوح استجهالَهُم إيّاه عليه السلام في مكابدة المشاقِّ الفادحة لدفع ما لا يكادُ يدخل تحت الصِّحة على زعمهم من الطّوفان ومقاساة الشَّدائد في عمل السَّفينة، وكانوا يَعُدّونه عذابًا، فلمّا جهلوا حقيقة السَّفينة والغرض منها، ولم يحسبوا لمخبّآت الدَّهر ومُلِمّاته، فاسترسلوا مع أهوائهم يهزؤون، ويسخرون، قيل بعد استجهالهم: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من يُعذَّب(1)، فالمناسبة بين الآيتين هو أنَّ الأولى وصفٌ لواقع المجرمين بالتَّمادي بالاستهزاءِ والسُّخرية، فجاءتِ الآيةُ الثّانية لبيانِ مآل هذا الاستهزاء، وهو طلبُ الاستخزاء، وإلحاق العار بهم في الدُّنيا، والعقوبة في الآخرة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُخْزِيهِ﴾: أَصلُ الخِزْيِ ذلٌّ يُستَحَى منهُ؛ ولذلكَ يُستَعْمل في كلٍّ منهما، أي: الذُّلُّ والاستِحياء(2)، وقيل: أصلُه: الإبعاد، فقولُهُم: أَخْزاهُ الله، أي: أَبْعَدَهُ ومَقَتَهُ(3)، والخِزْيُ الفَضيحةُ، وقَدْ خَزِيَ يَخْزى خِزْيًا؛ إذا افْتَضَحَ وتَحيَّرَ فَضيحَةً(4)، الخِزْيُ أيضًا: السّوء(5)، والهَوانُ(6)، والمقصود بالخزي في الآية: الإهانَةُ والذُّلُّ(7).

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/207، والآلوسي، روح المعاني: 6/250.
(2) الزَّبيدي، تاج العروس: (خزي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خزي).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (خزي).
(5) الخليل، العين، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (خزي).
(6) الزَّبيدي، تاج العروس: (خزي).
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/290.

2) ﴿وَيَحِلُّ﴾: أصلُ الحَلِّ فَتْحُ الشَّيء[1]، ومنه حَلَّ المسافر عُقَدَ أحمالِه لينزل بالمكان، ثمَّ جُرِّد استعمالُه للنُّزول[2]، والحِلَّة هيئة النُّزول، ومكانه والنّازلون[3]، والمَحَلَّةُ: المكانُ يَنْزِلونَ فيه[4]، يُقال حَلَّ يَحُلُّ حُلولًا؛ إذا نزل، والمعنى هُنا: ينزلُ عليه عذاب دائمٌ[5].

3) ﴿مُّقِيمٌ﴾: أصل (قوم) يدلُّ عَلَى انْتِصاب؛ يُقال: قامَ قيامًا؛ إذا انْتَصَبَ[6]، والمُقام يُقال للمصدر والزَّمان والمكان والمفعول[7]، يُقال: أقامَ الشَّيْءَ يُقيمه إقامَةً؛ إذا أدامَهُ، ومنْهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 3][8]، فيُعبَّر بالإقامة عن الدَّوام والاستقرار، كقوله تعالى: ﴿عَذَابُ مُّقِيمٌ﴾؛ يعني: هو دائمٌ مستمرٌّ، ولا ينقطع أبدًا[9].

المَعنى الإجماليُّ:

جزاءُ السُّخرية الطَّويلة الخزيُ واستمرارُ العذاب

تقصُّ الآيةُ خطابَ نوحٍ عليه السلام بعد أن سخر قومُه من صنع الفلك، موجِّهًا كلامَه لجملتهم بخطابٍ تهديديٍّ أخير ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، وقد ذكرتِ الآيةُ صفتين للعذاب في الدُّنيا والآخرة، الأولى: الخزي، والأخرى: الدَّوام، وهاتان الصفتان عذابان فوق العذاب، فكيف يكون العذاب؟ وذلك يكون جزاءً وفاقًا، فإنَّ من سخر من المؤمنين سيُخزى، ومن أدام السُّخرية؛ حُقَّ له دوام العذاب.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حلل).
(2) الفيروز آبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 2/493، والرّاغب، المفردات: (حلَّ).
(3) الأزهري، تهذيب اللُّغة، مادّة: (حل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصّل: (حلل).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (حلل).
(5) السَّمرقندي، بحر العلوم: 2/150، والقنوجي، فتح البيان: 6/178.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 5/43.
(7) الفِيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 4/311، والأحمد نكري، دستور العلماء: 3/216.
(8) الرازي، مختار الصّحاح، والجوهري، الصِّحاح: (قوم).
(9) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (قوم)، وابن كثير، تفسير القرآن الكريم: 4/277.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاء في ﴿فَسَوۡفَ﴾:

التَّهديدُ بالعذابِ نتيجةٌ لازمةٌ عند الإفراطِ في السُّخرية

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ تحتمل معنيين:

الأوَّل: أن تكون استئنافيَّة سببيَّة؛ إذ سَبَقَهُ ذِكر وعدٍ يجري مجرى السَّببِ[1]؛ لأنَّه لما كان قوله: ﴿نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ واقعًا موقع هذا الإخبار، وهي ذاتها معنى الفاء التَّفريعيَّة، وهي التي يُذكر ما بعدها نتيجةً لما قبلها، فهذا التَّهديد هو تفريعٌ على جملة ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ أي: سيظهر من هو الأحقُّ بأن يُسخر منه[2]، فقوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ تفريعٌ على الجملة الشرطيَّة السّابقة ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾، فالتَّفريعيَّة والسَّببيَّة ملتقاهما واحدٌ؛ إذِ التَّفريع هو إنشاءُ معنًى متفرِّعٍ عن السّابق، ففيها معنى الاستئنافِ والسَّببيَّة.

الآخر: أن تكون عاطفةً جيء بها تهديدًا لأولئك السّاخرين[3]، فأضاف نوحٌ عليه السلام إلى تهديدهم تهديدًا آخر بقوله: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾[4].

وهذه التوجيهات الاصطلاحيَّة للفاءِ تلتقي في كون ما بعدها نتيجةً لما قبلها، فالتَّهديد نتيجة السُّخرية، وهي ردٌّ عادلٌ لمن تصدَّى للحقِّ، وركب متن الحماقة، بدلًا من ركوب متن النجاة.

توجيه المتشابه اللَّفظي:

إدخال الفاء ونزعُها للتَّفنُّن في البلاغة مع أنَّ نَزْعَها أبلغُ في التَّهويل

إدخال الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٌ﴾ وصلٌ ظاهرٌ بحرفٍ موضوعٍ للوصل - كما سبق بيان ذلك - لاسيَّما على جعل الفاء تفريعيَّةً للجملة السّابقة ﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾.

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/77. والدَّعاس، إعراب القرآن الكريم: 2/56.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/69.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/33، وابن عطيَّة الاندلسي، المحرَّر الوجيز: 3/170.
(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/203.

وأمّا حذفها في قوله تعالى: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ [هود: 93]؛ فهو وصلٌ خفيٌّ تقديريٌّ إمّا بالاستئناف البيانيِّ الذي هو جوابٌ لسؤالٍ مقدَّر، كأنَّهم قالوا: فماذا يكون إذا عَملنا نحن على مكانتنا، وعملت أنت على مَكانَتِكَ؟ فقال: سوف تعلمون، وإمّا من باب البدل؛ فهو كمال اتِّصال؛ إذ جملة ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ أفادت التَّهديدَ، وكذلك جملة ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾، وكلتاهما للمستقبل، فجاءت كلُّ جملةٍ بما يُناسبها من ذكر الفاءِ وحذفها.

دلالة استعمال ﴿فَسَوۡفَ﴾ دون (السين):

الــخـــزيُ للسّاخرين واقعٌ حتمًا وإن طالَ زمانه

نلحظ في قول الحقِّ ﷻ: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ الفعل الذي يعلمه نوح ﵇، وهو أمر الإغراق سيحدثُ مُستقبلًا؛ لأنَّ الكلام عن حدثٍ لم يأتِ زمنه، فالأمر يقتضي أن يُسبق الكلام عن الاستقبال البعيد، فجيء بكلمة ﴿فَسَوۡفَ﴾؛ لأنَّ نوحًا ﵇ قضى العديد من السِّنين، وهو يصنع السَّفينة قبل أن يقع الإغراق، فجاء بـ﴿فَسَوۡفَ﴾؛ لتدلَّ على أوسع مدًى زمنيٍّ[1]، كما أنَّ فيها معنى التَّوكيدِ، فهو يُؤكِّد لهم أنَّه مهما طال الزَّمان؛ فسيقع العلمُ بإتيان العذاب المخزي، والعذاب الدّائم.

سرُّ التعبير بقوله: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾:

أبـلـغ ردٍّ على الـسـاخـريـن التهديد والوعيد

جيء بهذه الجملة لتحقيق العلم؛ لأنَّه سيكون علمَ معاينةٍ لا علم إخبارٍ به، وهذا وعيدٌ لهم[2] وتهديدٌ جزاء سخريتهم، وقد اختيرت مفردة العلم في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ لبيانِ وقوع عاقبة التَّكذيب والاستهزاء، أو لبيان من هو أحقُّ بالسُّخرية، ومن هو أحمد عاقبةً[3]، وجَعْلُ العلم بمعنى المعرفةِ راجعٌ إلى أنَّه لمّا كان

(1) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 11/6468.
(2) السمرقندي، تفسير السَّمرقندي: 2/150.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/372، والرّازي، تفسير الفخر الرّازي: 17/346.

مدارُ سخريتِهم استجهالَهم إياه ﷺ في مكابدة المشاقِّ الفادحةِ لدفع ما لا يكادُ يدخُل تحتَ الصِّحةِ على زعمهم من الطّوفان ومقاساةِ الشَّدائِد في بناء السفينةِ، وكانوا يعدّونه عذابًا، قيل بعد استجهالِهم: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مَنْ يَأْتِيهِ العذابُ، يعني: أنَّ ما أُباشرُه ليس فيه عذابٌ لاحقٌ بي، فسوف تعلمون مَنِ المعذَّبُ؟ ولقد أصاب العلمُ بعد استجهالِهم مَحزَّه[1]، فناسبَ لفظُ العلم بما سيقع عليهم معنى الاستجهال الصّادر عنهم، أي: إذا كنتم تروننا جهلةً؛ فتسخرون منّا، فإنَّنا نحن من يُعلِمكم بما سيكون، فأتى على الضِّدِّ من استجهالِهم، وهو تعليمهم؛ ففيه معنى التَّهكُّم.

توجيهُ معنى فعل: ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

معنى المعرفةِ هو الألصقُ بفعل العلم سياقًا ومقامًا ودلالةً، واليقين حاصلٌ باللُّزوم

يحتملُ الفعلُ ﴿تَعْلَمُونَ﴾ معنيين، وهما: الأوَّل: أن يكون من باب اليقين فيتعدَّى لاثنين.

والآخر: أن يكونَ فعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾ من باب العِرفان، فيتعدّى لواحد.

والمعنيان قويّان في السّياق، لكنَّ المعرفة هي المرادةُ في الآيةِ؛ إذ هو يُخبرهم بأنَّهم سيعرفون الذي يأتيه عذابٌ يُخزيه، وأمّا العلم اليقينيُّ؛ فهو تحصيلُ حاصلٍ بعد وقوعِ العذابِ، وعليه فإخبارُ نوحٍ ﷺ وقت أن خاطبَهم بقولِه: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أريدَ بالعلم العرفانُ، وهو ما يقتضيه لفظُ ﴿تَعْلَمُونَ﴾ في السّياق، أمّا كونهم بعد تحقُّقِ العلم سيستيقنون؛ فهذا من اللّازم السّياقي لا اللّازم اللَّفظيِّ.

نكتةُ إسنادِ فعلِ العلم ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

مقصودُ الخطابِ يتبعه اختيارُ النَّظم وبراعةُ التَّعبير

أسندَ النَّظم الكريم - في قولِه تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ - فعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾ إلى واو الفاعل العائدِ على المخاطَبين، وهم السّاخرون، دون أن يأتي بضميرٍ مشارِكٍ للطّرفين: المخاطَب والمتكلِّم، بأن يقال:

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 4/207.

(فسوف نعلم)، إيماءً إلى أنَّ المُخاطَبين هم الأحقُّ بعلم ذلك؛ لأنَّ الخطابَ خطابٌ تهديديٌّ، فتوجيهه إلى المهَدَّدِ هو المقصود أصالةً، فجاء النَّظم على ما يقتضيه الظّاهر والحال معًا، وهذا يُفيد بأنَّ من هو على الحقِّ، لا تزعزعه سفاهة السُّفهاء، بل عليه هو وأتباعه أن يسخروا من السّاخرين، ليقينهم بأنَّ العاقبة لهم دونهم[1].

دَلالَةُ ﴿مَن﴾:

مجيءُ العذابِ يحتاجُ إلى تعيين صاحبِه لتهديدِه ووعيدِه

تحتمل ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٌ﴾ معنيين:

الأوَّل: الاستفهام، فتكون ﴿مَن﴾ وما بعدها سادَّةً مَسَدَّ المفعولين، على جعل ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ بمعنى اليقين، ومفعولًا لفعل ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ على معنى العرفان.

الآخر: الموصوليَّة، فتكون ﴿مَن﴾ إمّا في موضع المفعول الأوَّل، والثّاني: محذوف، وقد جوَّز هذا الوجه طائفةٌ من المفسِّرين، كابن عطيَّة - رحمه الله تعالى - حين قال: "وجائز أن تكون التعدية إلى مفعولين، واقتصر على الواحد"[2]، ومنعه آخرون[3]، وإمّا أن تكون مفعولًا لفعل ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ على معنى العرفان.

وحملُها على الموصوليَّة أوضحُ دلالةً، لاسيَّما على ترجيح معنى المعرفة في الفعل ﴿تَعۡلَمُونَ﴾، أي: فسوف تعلمون الذي يأتيه عذابٌ يُخزيه.

سرُّ إيثارِ الغَيْبةِ في ﴿يَأۡتِيهِ﴾:

دفعُ المُجادلةِ وقَطْعُ الخصومةِ حكمةُ الرُّسلِ في مواضعِ النِّهايات

في قوله تعالى: ﴿مَن يَأۡتِيهِ﴾ تَرْكٌ للتَّصريح بذكْرِ الذين سخروا من صنعِ الفلك، والمواجهة لهم - فذكَّر بطريق المُنصفين - لأنَّ هذا أدخل في دفع مُجادلتهم الباطلة وقطع خصومتهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/69.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/170.
(3) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 4/98.

الفاسدة[1]، فإنَّه آثر الإخبار عن ذلك بطريق الغيبة لا الخطاب لدفعِ مجادلتهم عن أنفسِهم، فإنَّهم مبادرون في السُّخرية، فكيف بدفاعِهم عن أنفسهم؟

مفاجأةُ العذاب للظّالمين عذابٌ فوق العذاب

دلالةُ إسناد فعل الإتيان إلى العذاب:

إتيانُ العذاب - في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٌ﴾ - حلوله وحصوله، وهو مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ حقيقة الإتيان المجيء، وهو الانتقال من موضع بعيد إلى الموضع الذي استقرَّ فيه مفعول الإتيان، فيُطلق مجازًا على حصول شيء لم يكن حاصلًا، وأُسند فعل ﴿يَأۡتِيهِ﴾ إلى العذاب المخزي؛ لأنَّ الإتيان مُشعرٌ بأنَّه يُفاجئهم، كما يأتي الطّارق؛ وكذلك إسناد فعل ﴿وَيَحِلُّ﴾ إلى العذاب المقيم[2].

تشبيه وقوع العذاب بالإتيان استعارةٌ تصريحيَّة

نكتةُ الاستعارةِ في لفظِ الإتيانِ:

شبَّهتِ الآيةُ - في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٌ﴾ - وقوعَ العذابِ المفاجئَ بالسّاخرين من قوم نوحٍ ﷺ بالإتيان، على طريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، لما في ذلك من تأكيدِ الإتيانِ، بتجسيده في أذهان المخاطَبين؛ فإنَّ المعاني إذا تجسَّدت؛ فُهمت.

العذابُ الآتي عظيمٌ في وقوعه هائلٌ في آثارِه

دلالةُ التّنكير في: ﴿عَذَابٌ﴾:

تنكيرُ ﴿عَذَابٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٌ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ في الموضعين لتعظيمه وتفخيمه وتهويل أمره بحسب المُدَّة؛ فالعذاب الأوَّل: وهو عذاب الخزي، وإن كان في الدُّنيا؛ فإنَّ شدَّته بالغةٌ وألَمَه عظيمٌ؛ وأمّا عذاب الآخرة المقيم؛ فهو نوعٌ منه مجهولُ الكمِّ والكيف، لا يَعلم شِدَّته وعظمته إلّا اللّه تعالى، فأفاد التَّنكير النَّوع، مع استحضارِ التَّعظيم والتفخيم والتَّهويل، وهي معانٍ مستقاةٌ من السّياق.

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/77.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/21.

سرُّ وصف العذاب بالجملة الفعلية:

وُصِفَ العذابُ - في قولِه تعالى: ﴿عَذَابٌ يُخۡزِيهِ﴾ - بجملة فعلية، فعلُها مضارع للتنبيه على أنَّ الخزي متجدِّدٌ مستمرٌّ، لقاء سخريتهم المتجدِّدة في الدُّنيا من نوحٍ وقومه، واختارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ الخزي في قوله تعالى: ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٌ يُخۡزِيهِ﴾ لهذا المقام، دون لفظِ الذُّلِّ وما يُرادفُه؛ لأنَّ الخزيَ ذلٌّ مَعَ افتضاح، والخزاية الاستحياء؛ لأنَّه انقماعٌ عَن الشَّيء لما فيه من العَيب[1]، وهو لفظٌ مُناسب لفعلتهم الشنعاء، ولما في الاستهزاء والسُّخرية من لحوق الخزي والعار عادَةً[2]؛ فكان هذا من قبيل المُشاكلة والمجانسة الفعليَّة لأفعالهم التي كانوا يسترذلون بها المؤمنين سخريَّةً وإيذاءً؛ فوصف عذابهم بما يُذلُّهم، ويجلب لهم العار والتَّبار في الدُّنيا[3] جزاءً وفاقًا.

من أرادَ الخزيَ لأهلِ الكرامةِ لَحِقَه بلا كرامة

سرُّ اختلافِ التَّعبير بين إتيان العذابِ وحلولِه:

ذكرتِ الآيةُ في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٌ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ فعلَين للعذابِ: الأوَّل: فعل إتيانِ العذاب في قوله تعالى: ﴿يَأۡتِيهِ عَذَابٌ﴾، والآخر: فعل حلولِ العذابِ في قوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٌ﴾، والفرقُ بينهما: أنَّه في عذاب الدُّنيا قال: ﴿يَأۡتِيهِ﴾، والإتيان لا يستلزم الثَّبات والدَّوام، فقد يأتي، وقد يذهب، وأمّا في عذاب الآخرة؛ فقال: ﴿وَيَحِلُّ﴾ أي: يحلُّ عليه حلولَ الدَّين والحقِّ اللّازم الذي لا انفكاك له عنه[4]، فالحلول ضِدُّ الرَّحيل، ويفيد النُّزول من أعلى إلى مكان الإقامة، فحلَّ بالمكان، أي: نَزَلَ ليُقيم به[5]، فالحلول هو الوجوب والثَّبات والدَّوام؛ لأنَّ هذا

الإتيان لا يستلزم الدَّوامَ، بخلاف الحُلول؛ فهو دوامٌ واستقرارٌ

(1) العَسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 250.
(2) الجاوي، مراح لبيد: 1/507، وإسماعيل البروسوي، روح البيان: 4/126.
(3) محمَّد رشيد رضا، تفسير المنار: 12/74.
(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/393، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 3/134.
(5) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي، ص: 6468.

العذاب يجب، ولا يذهب، ولا ينفك عنهم، ولا يرحل، أو يتحوَّل[1]؛ فاختلف الفعل لاختلاف الدَّلالة.

فقدِ اختارَ لكلِّ موصوفٍ الصِّفةَ الأليق به باعتبارِ زمانِ وقوعه، وباعتبارِ الفعل الذي أُسنِد إليه العذاب، أمّا الأوَّل: وهو قوله تعالى: ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٌ يُخۡزِيهِ﴾ فالمقصودُ به عذاب الدُّنيا، وهو عذابٌ يخزي أصحابه في العاجلةِ، وهو مناسبٌ لفعل الإتيان، وأمّا الآخر؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، فالمقصود به عذاب الآخرة، وهو عذابٌ مقيم لخلودِ النّارِ، وهو المناسب لفعل الحلول، فإنَّ مقتضى الحلول البقاءُ الدّائمُ، فجاء كلُّ وصفٍ بما يناسبُ زمانَ الموصوف، وفعلَهُ الذي أُسند إليه.

نكتةُ الاستعارة في: ﴿وَيَحِلُّ﴾:

سعةُ احتمالاتِ الاستعارةِ دليلُ قــوَّةِ الـبـيـانِ وعظيم التَّصوير

في قوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ فعل ﴿وَيَحِلُّ﴾: إمّا أن يُحمل على الاستعارة المكنيَّة، أو التَّمثيليَّة، أمّا المكنيَّة؛ فهي من تشبيه العذاب الأخرويِّ الذي قضى اللّه تعالى به في حقِّهم بالدَّين المُؤَجَّل الواجب الحلول، وأثبتَ له الحلولَ الذي هو من لوازمه[2]، فقوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ﴾ أي: حلول الدَّين المطلوب لصاحبِه الذي لا انفكاك عنه؛ ففي الكلام استعارةٌ مكنيَّة تبعيَّة.

وأمّا الاستعارة التَّمثيليَّة[3]؛ فهي من تشبيه الحصول بحلول القادم إلى المكان[4].

دلالةُ تعدية فعل ﴿وَيَحِلُّ﴾ بحرف الاستعلاء:

جـمـعَ الـلـه عليهم العذابَ المعنويَّ والحسيَّ

تعدَّى فعلُ ﴿وَيَحِلُّ﴾ بحرف "على" للدَّلالة على تَمَكُّنِه؛ لأنَّه دائمٌ عليهم سَرۡمَدٌ[5]، ونكتةُ ذلك: تصوير مشهد الحلولِ من أعلى إلى

---

(1) السّامرائي، على طريق التَّفسير البياني، ص: 153.
(2) إسماعيل البروسوي، روح البيان: 4/126.
(3) أطفيش، تيسير التفسير: 6/392.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/69.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/150.

أسفل، وحلول العذاب عليهم من أشرف مواضع الجسد إلى أخمص القدمين، وفيه معنى الخزي؛ فإنَّ علوَّ العذابِ - وهم دونه - خزيٌ وعارٌ وتبابٌ، جمعَ الله لهم في هذا التَّعبير العذابَ الماديَّ والمعنويَّ.

سرُّ المغايرة بين أوصافِ العذاب:

عذابُ الخزيِ عامٌّ في الدّارين، والإقامةُ خاصّةٌ بعذاب الآخرة

في قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ و﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ حمل أكثرُ المُفسِّرين العذابَ الذي يُخزي على الغرق؛ لقوله بعده: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، فإنَّ المُراد به عذاب الآخرة، والدَّليل على ذلك هو المُقابلة، وتكرُّرُ العذاب مُنَكَّرًا في اللَّفظ، ووصفُ الأوَّل بالإخزاء والثّاني بالإقامة، فحسُنَ التَّقابلُ بذلك[1].

ويجوز حملُ العذاب المُخزي على العموم، والمقيم على عذاب الآخرة، تخصيصًا بعد تعميم، وتهويلًا لعذاب الآخرة لشدَّته ودوامه، وهذا أبلغ، والأوَّل أظهر لتبادر أنَّ الأصل عدم العموم ثُمَّ التَّخصيص[2]، وأيًّا ما كان، فالخزيُ حاصلٌ في الدُّنيا والآخرة، والإقامةُ مختصَّةٌ في الآخرةِ. وقد غاير النَّظمُ الكريم بين وصفي العذاب، فجاء في قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ بالصّيغة الفعليَّة، وجاء في قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ بالصّيغة الاسميَّة، وهو العذاب السَّرمديُّ الأبديُّ؛ فعبَّر بالفعل في إتيان عذاب الخزي في الدُّنيا؛ لأنَّه لا يستلزم الدَّوام، ثُمَّ جاء بلفظ ﴿مُّقِيمٌ﴾؛ للدَّلالة على دوام العذاب، ورفع اللَّبس، وإبعاد الاحتمال؛ فالعذاب المقيم: هو عذابُ النّار الدّائم، وفي نعته بالاسم تهديدٌ بليغ[3]؛ إذ كلُّ ما في الدُّنيا فهو هيِّن ليِّن بالنِّسبة إلى ما يكون في الآخرة لانقضائه وزواله، وبقاء ذاك ودوامه[4]، فالمُغايرة في نعت كلِّ عذابٍ للتَّنبيه

(1) القونوي، حاشية القونوي: 10/77.
(2) أطفيش، تيسير التفسير: 6/392.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/207.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 12/35.

عَلى أنَّ عذاب الآخرَة أشَدُّ وأبقى، وأنَّ عذاب الدُّنْيا في جنبها كَلا عذاب[1].

بلاغةُ المجازِ في التَّعبير بلفظ (الإقامة):

الإقامةُ دوامٌ لا يزول، واستقرارٌ لا يتحوَّل

معنى ﴿مُّقِيمٌ﴾، أي: دائمٌ مستمرٌّ أبدًا[2]، والتعرُّض لحلول العذاب المُقيم للمُبالغة في التَّهديد[3]، فَحلَّ بهم عذابُ الغرق حتَّى ماتوا، وصاروا معذَّبين في البرزخ إلى يوم القيامة، ثُمَّ مَردُّهم إلى عذاب النّار، وبئس المصير[4]، فصفة ﴿مُّقِيمٌ﴾ تَدُلُّ على الدَّوام والاستمرار، واستُعيرت الإقامة للدَّوام من قبل المجاز اللُّغوي؛ إذ الدَّوام يستلزم الإقامة، ويجوز أن يكون مَجازًا إسناديًّا، أي: مقيمٌ فيه صاحبه[5].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المجيءُ والإتيانُ والحلولُ:

المَجيءُ: إتْيانٌ مُحَقَّقٌ، والحلول: إتيانٌ بقصد الإقامة

الإتْيانُ: مجيءٌ بسهولة، وهو بدايَةُ المجيءِ[6]، فإذا اكتمل، وبَلَغَ مَقْصدَهُ من مكان أو زمان أو شخص؛ أصبح مجيئًا، فالمجيءُ هو إتيانٌ مُحَقَّقٌ بَعيدٌ عن عوامل النَّقص، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِمَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: 129]، فالإتيانُ بداية المجيء زمانيًّا أو مكانيًّا، وقد لا يتمُّ، فلا يكونُ مَجيئًا، أمّا المجيءُ؛ فهو إتيانٌ مُحَقَّقٌ قريبٌ زمانيًّا ومكانيًّا[7].

أمّا الحلول؛ فهو ضِدُّ الرَّحيل، ويفيد النُّزولَ والإتيانَ من أعلى إلى مكانٍ بقصد الإقامة، يُقال: حلَّ بالمكان، أي: نَزَلَ ليُقيم به[8].

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي: 16/535.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/277، ووهبة الزُّحيلي، التَّفسير الوسيط: 2/1041.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/207، والآلوسي، روح المعاني: 6/250.
(4) ثناء الله المظهري، التَّفسير المظهري: 5/84.
(5) القونوي، حاشية القونوي: 10/77.
(6) الرّاغب، المفردات، ص: 283.
(7) جبل، المعجم الاشتِقاقيّ المؤصّل: 1/264.
(8) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: 1/158، والكفوي، الكلِّيّات، ص: 827، والشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 11/6468.

الذُّلُّ والخزي:

الذُّلُّ والذِّلَّة والمذَلَّةُ ما كانَ عن قهرٍ وضعفٍ وهوانٍ، يُقال: ذَلَّ المرءُ؛ إذا ضعُف، وهان؛ فهو ذَليلٌ، والجمع أذِلّاءُ[1]، والخزي ذُلٌّ مع افتضاح، وقيل: هو الانقماع لقبح الفعل، والخزاية الاستحياء؛ لأنَّهُ انقماعٌ عن الشَّيء لما فيهِ من العَيْب، يُقال: خَزيَ يَخْزى خِزْيًا؛ إذا استحيا من سوء فعله[2]، فالخزي لا يكونُ إلّا ما يجري مَجرى العقوبةِ منَ الهوان والإذلال، فكلُّ ما هذه صفته يدخلُ تحتهُ، وذلك رَدْعٌ منَ اللّه تعالى[3].

الذُّلُّ ضَعفٌ وهوان، والخزي ذُلٌّ مع افتضاحٍ جارٍ مجرى العقوبة

(1) الفيومي، المصباح المنير: 1/210، والكفوي، الكليّات، ص: 462.

(2) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 250.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/4.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد التَّهديد الصّادقِ يقع العذابُ الماحقُّ

هذه الآية الكريمة بيَّنت حُكم اللّه الفاصل في شأن قوم نوح ﷺ بعد أن لَبِثَ فيهم زمنًا طويلًا يدعوهم إلى الحقِّ، ولكنَّهم صَمّوا آذانهم، ولم يزِدهم تطاولُ الأيام إلّا كفرًا، و صمَّموا على عقد تكذيبهم؛ فما كان من أمره وأمرهم بعد ذلك إلّا أنْ جاءهم وعْدُ اللّه الذي لا يتخلَّف، فأمر اللّه تعالى نوحًا ﷺ أن يحمل في السَّفينة - بعد أن أتمَّ صُنعها - مَن آمنَ معه من المؤمنين، وأن يحمل معهم من كلِّ نوعٍ من أنواع الحيوانات ذكرًا وأنثى، ثم نَزَلَ الطّوفان، ففار الماء من التَّنور المسجور، وجادت السَّماء بالمطر المعبور، ذلك الطوفان الذي طهَّر سطح الأرض من لوث المستكبرين؛ ففي هذه الآية بيانٌ لمرحلة جديدة من مراحل قصَّة نوح ﷺ مع قومه[1]؛ إذ الآية تتعرَّض لموضوعٍ ثالثٍ، وهو كيف كانت النِّهاية؟ وكيف تحقَّق نزولُ العذابِ على القوم الكافرين.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَفَارَ﴾: أصل (فور) يدُلُّ عَلَى غَلَيانٍ، يُقالُ: فارَتِ القِدْرُ تَفورُ فَوْرًا غلت، والفوّارة ما ترمي به القدر عند فورانها، وفَوّارة الماء على التَّشبيه بذلك[2]، ومعنى فار: اندفع وجاش، والفوران جَيَشانٌ

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/136، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/203.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (فور).

إلى أعلى بقوَّة واندفاع، يقال: فارَ الماءُ من العين يَفور؛ إذا جاشَ[1]، والمعنى هُنا: نبعَ منه الماءُ، وارتفع بشدَّة، كما تفور القِدْرُ بغَليانها[2].

2) ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾: أصل معنى (التَّنر) امتلاءُ الجوف بشيءٍ لطيف الجِرْم أو الحركة، يَنفذ منه كالماء في مَفْجَره، وكالنّار في جوف التّنور؛ ومنه القول بأنَّ التَّنور يُطلق على تنوير الصُّبح، وله وجهٌ من معنى التَّركيب لِلُطف الضَّوءِ واسترساله[3]، والتَّنّورُ: الكانونُ أو المَوْقِدُ الذي يُخبَزُ فيه[4]، وكُلُّ مَفْجَر ماءٍ تَنّورٌ كسَفّود؛ وصاحِبُه تَنّار، ويُطلق على وجه الأرْضِ، وعلى المَوْضِع الذي يَنْبُعُ منه الماءُ من العَيْنِ[5].

واختُلف فيه وفي مادته؛ فقيل: إنَّه عربيٌّ وزنه (تفعول) من النّور، وأصله تَنْوور، فَقُلِبَتِ الواو الأولى همزة لانضمامها، ثُم حُذفت تخفيفًا، ثُمَّ شُدِّدَت النّون عوضًا عمّا حُذِفَ، وهذا القول عن ثعلب، وقال أبو علي الفارسي: وزنه (فعول)، وقيل على هذا: إنَّه أعجميٌّ، والاشتقاق له ومادَّته (تنر)، وليس في كلام العرب نون قبل راءٍ - مثل نرجس - معرب أيضًا، وعلى هذا فلا اشتقاق له، والمشهور أنَّه مما اتَّفق فيه لغة العرب والعجم كالصّابون[6].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تنتقل الآية لبيانِ المشهد العظيم بعد إتمام الفُلك التي أمر اللّه نوحًا عليه السلام بِصُنْعِها، حتَّى إذا جاء الأمر الإلهيُّ بالإهلاكِ، فتذكرُ الآيةُ علامةَ الإغراق بفَوران التَّنور الذي

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فور).

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/208.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: 1/221.

(4) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (تنر)، وابن جرير، جامع البيان: 12/401.

(5) ابن عبّاد، المحيط: (تنر).

(6) قال الزَّبيدي: "التَّنّورُ: الكانونُ الَّذي يُخْبَزُ فيهِ، يُقال: هو في جَميع اللُّغاتِ كذلك، وقالَ اللَّيْثُ: التَّنّورُ عَمَّتْ بكلِّ لسانٍ. قالَ أبو مَنْصور: وهذا يَدُلُّ على أنّ الاسمَ في الأصل أعْجَميٌّ، فعَرَّبَتْها العربُ، فصارَ عربيًّا على بناءِ فَعولٍ، والدَّليلُ على ذلك أنّ أَصلَ بنائِه تنر، قالَ: ولا نعرفُه في كَلام العرب، لأنه مُهْمَلٌ، وهو نَظيرُ ما دَخَلَ في كلام العربِ من كلام العَجَم، مثلُ الدّيباجِ، والدّينارِ، والسّنْدُسِ، والإسْتَبْرَقِ، وما أشبَهها، ولمّا تكلَّمتْ بها العربُ صارَت عربيَّةً". يُنظر: ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (تنر)، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/77، والسَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 4/98.

بـدايـةُ نـزول العـذابِ لحظةَ إنـقـاذِ المؤمنين تأييدًا ونصرةً

كانوا يخبزون فيه؛ إعلامًا ببدء الطّوفان، وحينها أمر الله نوحًا عليه السلام أن يحمل في السَّفينة من كلِّ نوعٍ من أنواع الحيوانات ذكرًا وأنثى، وأهل بيتك جميعًا - إلّا مَن سبق عليه القول ممَّن لم يؤمن بالله؛ كابنه وامرأته - ومَن آمنَ معه من قومه، وهم عددٌ قليلٌ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ استعمال ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

جمعت (حتّى) بين وظيفتين؛ كونها ابتدائيَّة وكونها غايةً لما قبلها

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ لبيانِ ابتداءِ الغاية ممّا ذُكر قبله من الاستعداد لهلاك قوم نوح، أي: وكان يصنع الفُلك كما أُمر، ويُقابل السُّخرية بغير ابتئاس ولا ضجر، إلى زمن مجيء أمرنا بهلاكهم[1].

فـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هُنا هي التي يُبتدأ بها الكلام، دخلت على الجملة الشَّرطيَّة وهي مع ذلك غاية لقوله تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾؛ فإنَّ كونها حرفَ ابتداءٍ لا يُنافي كونَ ما بعدها غايةً لما قبلها؛ فإنَّ بين المفرَّع والمفرَّع عليه تناهيًا برجوع المفرَّع إلى المفرَّع عليه[2]، وهذا من بديع الاستعمالِ، أن تكون ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائيَّةً، وهي غايةٌ لما قبلها؛ فجمعت بين وظيفتين في غايةِ الإبداع.

دلالة ﴿إِذَا﴾ الظَّرفيَّة الشَّرطيَّة وجوابها:

تـرتُّـبُ الأمـر بـحـملِ زوجين على وقت مجيءِ الأمر

في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾: ﴿إِذَا﴾ ظرفٌ مُضمَّنٌ معنى الشَّرط، ولذلك جيء له بجواب في هذه الآية؛ وهو جملة ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ﴾، وجُعِلَ الشَّرط وجوابه غايةً باعتبار ما في حرف الشَّرط من معنى الزَّمان، وإضافتِه إلى جملة الشَّرط، فحصل معنى الغاية عند حصول مضمون جملة الجزاء، وهو نظمٌ بديعٌ بإيجازه[3].

(1) رضا، تفسير القرآن الحكيم: 12/75، والخطيب، التَّفسير القرآني: 6/1140، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/69.

(2) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 3/134، والبروسوي، روح البيان: 4/126.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/69 - 70.

نكتةُ استعمال لفظ ﴿جَآءَ﴾:

مـــع نـــزول الـــعـــقـــوبـــةِ استعمل (جاء) وقبـل نـزولها استعمل (أتى)

يُستعمل الفعل ﴿جَآءَ﴾ لما هو أشقُّ وأصعب[1] من (أتى) في غالبِ التّعبير القرآنيِّ، ويُستعمل فعل (أتى) أيضًا للعذاب، كما ورد في الآية السابقة: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٌ﴾، فالعقوبة لم تنزل بعدُ، وهُنا في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ استُخدِم فعلُ ﴿جَآءَ﴾؛ لأنَّ العقوبة نزلت، وأصبحت واقعًا مشاهدًا، وهذا استعمالٌ غالبٌ في القرآن، وفي هذه السورة على وجه الخصوص، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [هود: 58]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [هود: 66]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢﴾ [هود: 82]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [هود: 94]، فمعوَّل الكلام قائمٌ على مُلابسات الحدث نفسِه.

دلالة لفظ ﴿أَمۡرُنَا﴾:

الأمرُ شاملٌ لأمر التَّكوين وأمر الشَّأن

المُراد بالأمر في قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ قَدَرُنا بحلول وقت نزول العذاب بهم، فهو مفرد الأمور، أي: حتى إذا حلَّ بهم وقت عذابنا، قلنا: احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين؛ ويَصِحُّ أن يكون المراد به الأمر بالشَّيء على أنَّه مفرد الأوامر، فيكون المعنى: حتَّى إذا جاء أمرنا لنوح بركوب السَّفينة، وللأرض بتفجير عيونها، وللسَّماء بإنزال أمطارها[2]، أو أمرُنا للماء بالفوران[3]، أو للسَّحاب بالإرسال، أو للملائكة بالتَّصرف في ذلك، ونحو هذا ممّا يُقدَّر في النّازلة[4]، قُلنا: احمل فيها، فيكون واحدَ الأوامر، فالأمر هُنا دائرٌ بين احتمال

(1) يُنظر الفروق المعجميَّة في الآية السابقة.
(2) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 437، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/204.
(3) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/283.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/170.

أمر التَّكوين بهلاك الكثرة الكافرة، ونجاة القلَّة المؤمنة، واحتمال الشَّأن، وهو حادث الغرق[1].

سِرُّ إضافة الأمر إلى ضمير العظمة:

تعظيمُ الأمر وتهويل شأنه

أُضيف الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ إلى ضمير العظمة والكبرياء (نا)؛ لتهويله وتعظيم شأنه، وأنَّه فوق ما يعرفون ويتصوَّرون[2]، فهو أمرُ اللّه تعالى غيرُ المعهود، لا أمرُ غيرِه ممّا يعهدونه.

دلالةُ الاستعارة في: ﴿وَفَارَ﴾:

تصوير شدَّة نبوع الماء وقوَّة تفجُّره وتدفُّقه

في قوله تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ استعارةٌ، ومعنى فوران التَّنور: نبعَ منها الماء، وارتفعَ بشدَّة، كما تفور القدر بغليانها[3]، والفوران: غليان القدر، ويُطلق على نبع الماء بشدَّة، تشبيهًا بفوران ماءٍ في القدر؛ إذا غُلي، وهو محمول على ما جاء في آيات أخرى من قصة نوح عليه السلام مثل قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ [القمر: 12]، ففي الكلام على هذا المعنى استعارة تصريحيَّةٌ تبعيَّة، حيث شبَّه نبوعَ الماء وظهورَهُ من التَّنور بفوران القِدْرِ في شدَّة الحركة والخُروج، فذكر المُشبَّهَ به، وأُريد المُشبَّهُ[4].

لفظُ ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

جعل هذه الحالة من نبوعِ الماء من التَّنور وارتفاعِه علامةً لحدوث هذه الواقعة

اختلف المفسِّرون في التَّنّورُ، فقالت فرقةٌ وهي الأكثرُ: إنَّهُ تنّور الخبز الذي يُوقد فيه[5]، فهو على حقيقته، وجعل الفوران خروج الماء من أحد التَّنانير، وأنَّه علامةٌ جعلها اللّه لنوح عليه السلام على هذا الأمرِ العظيم، فإذا فار الماء من داخل التَّنور - الذي يُصنع في مكانٍ يابسٍ ومحفوظٍ من الرُّطوبة - فغيره أشَدُّ فورانًا، وبهذا يعلمون أنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/70.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/70.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/250.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/77، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 3/134.
(5) ابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 3/170، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/33.

أمرًا مُهمًّا قد حدث، وأنَّه قد ظهر في التَّكوين أمرٌ خطير، وعلموا أنَّ ذلك مبدأ الطّوفان، فركب نوحٌ الفُلكَ، وأركب من معه، فكان ذلك علامة لنوح ﵇ وأصحابه أن ينهضوا ويتهيَّؤوا[1]؛ لأنَّ هذه واقعة عظيمة، وقد وعد الله تعالى المؤمنين النَّجاة، فلا بُدَّ أن يجعل لهم علامةً بها يَعرفون الوقتَ المعيَّن، فجعل هذه الحالة علامةً لحدوث هذه الواقعة[2].

ويجوز أن يكون فوران التَّنور مجازًا عن ظهور العذاب وشِدَّة الهول[3] بطريق الاستعارة التَّمثيليَّة، كما قال ﷺ لشدَّة الحرب يوم حنين: «حمي الوطيس»[4]، والمراد ما وقع من حَرِّ القِراع وشِدَّة المصاع، والتفاف الأبطال، واختلاط الرِّجال، وكأنَّما تمثِّل لك دماء ناريَّة أو نارًا دموية[5]، والوطيس أيضًا: مُستوقَد النّار، فلا فرق بين حَميَ وفار؛ إذ يستعملان في النّار؛ قال الله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧﴾ [الملك: 7] ولا فرق بين الوطيس والتَّنور[6]، وذلك يُخيِّل إلى السّامع أنَّ هناك صورةً شبيهة بصورته في حَميها وتوقُّدِها؛ فأُخرج الكلام مخرج التَّمثيل لحضور العذاب واشتداد الحال[7]، والعرب تقول: فارت قِدرُ القوم؛ إذا اشتدَّ حربهم، قال الشّاعر[8]:

تركْتُمْ قِدْرَكُمْ لا شَيءَ فيها *** وقِدْرُ القوم حامية تفورُ[9].

وقيل: إنَّ التَّنور هو وجه الأرض، لا تنّور الخبز، والعرب يسمّون وجه الأرض تَنّورًا، إمّا حقيقةً أو مجازًا، وقيل: التَّنور هو أشرف مواضع الأرض، أي: أعلى مكانٍ فيها، فأخرج

(1) ابن جُزي، التَّسهيل لعلوم التنزيل: 1/370، والخازن، تفسير الخازن: 2/484، والبغوي، معالم التَّنزيل: 2/448، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/546.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/346، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/204.

(3) قال ابن عاشور: "والذي يظهر لي أنَّ قوله: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ مثلٌ لبلوغ الشَّيء إلى أقصى ما يتحمَّل مثله، كما يُقال: بلغ السَّيل الزُّبى، وامتلأ الصّاع، وفاضت الكأس". ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/70 - 71.

(4) وهو طرف من حديث، رواهُ مسلم، والعبارة بتمامها: «هَذا حينَ حمي الوطيس». يُنظر: مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، برقم: (1775).

(5) الشَّريف الرَّضي، المجازات النَّبوية، ص: 46، والرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النَّبوية، ص: 223.

(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/151.

(7) قال القاسميُّ: "عندي أنَّه أظهرُ الأوجه المذكورة وأرقُّها وأبدعها وأبلغها، كأنَّه قيل: واشتد الأمر، وقوي انهمار الماء ونبوعه، وهذا الإيجاز في مجازه الرَّهيب، قد بيَّنته آياتٌ أخر، وهي: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ۝١٢﴾ [القمر: 11 - 12] الآيات، ومما يؤيده شموله لشدَّة الأمر من السَّماء والأرض، فيُطابق هذه الآيات، وأمّا غيره فمقصور على ناحية الأرض فقط وجليٌّ أنَّ الأمر كان أعمَّ". يُنظر: القاسمي، محاسن التَّأويل: 6/93.

(8) البيت من الوافر، وهو لجبل بن جوال الثَّعلبي. ينظر: ابن هشام: سيرة ابن هشام: 2/272، والسُّهيليُّ، الرَّوض الأنف: 6/358، وأبو تمام، الوحشيات، ص: 173.

(9) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/33.

اللّه تعالى الماء من ذلك الموضع؛ ليكون ذلك معجزة له ﷺ، كما أنَّ نبوع الماء من تنّور الخبز الذي يوقد فيه النّار معجزة له، ونبوع الماء من الأمكنة المرتفعة القولُ به أقرب من القول بوجه الأرض؛ إذ الأمكنة المرتفعة شِبْهُ التَّنانير في الارتفاع[1].

وقيل: إنَّ المُراد بالتَّنور موضع اجتماع الماء في السَّفينة، وقيل: بل هو طلوع الفجر من قولهم: تَنَوَّر الفجر[2]. والأصل حمل الكلام على حقيقته، ولفظ التَّنور حقيقة في الكانون الذي يُخبز فيه، فوجب حمْلُ اللَّفظ عليه، لأنَّ اللَّفظ إذا دار بين الحقيقة والمجاز؛ كان حمله على الحقيقة أولى[3].

دلالة (اللام) في ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾:

تقوية احتمال الحقيقة في مُسمّى التَّنور

ذُكِرَ التَّنور بالألف واللّام، وهذا إنَّما يكون لمعهودٍ سابقٍ معيَّنٍ معلوم عند السّامع، ولا يبعد أن يُقال: إنَّ ذلك التَّنور كان لنوح ﷺ بأن كان تنُّورَ آدم أو حواء أو كان تنُّورًا عيَّنه اللّه تعالى لنوح ﷺ، وعرَّفه بأنَّك إذا رأيت الماء يفور؛ فاعلم أنَّ الأمر قد وقع، كما سبق بيان ذلك في معنى التَّنور، وعلى هذا التَّقدير يكون تقويةً للكلام السابق في إرادة الحقيقة من معنى التَّنور، فلا حاجة إلى صرف الكلام عن ظاهره[4].

دلالة إسناد القول إلى ضمير العظمة:

تعظيم القول وتفخيم شأنه

معنى قوله تعالى: ﴿قُلْنَا﴾ أي: بعظمتنا[5]، فإضافة هذا القول إلى ضمير العظمة والكبرياء (نا) لتعظيم هذا القول وتفخيم شأنه، وأنَّه قوله ﷻ الذي هو فوق كلِّ قول، وأنَّه قولٌ حقٌّ ليس بالهزل.

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/77.
(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/204.
(3) الخازن، تفسير الخازن: 2/484، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/346، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/204.
(4) الخازن، تفسير الخازن: 2/484، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/346.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/285.

سِرُّ اصطفاء (في):

رعايةُ الله تعالى لعبادِه وأخذٌ بالأسبابِ

آثر النَّظم القرآني في قوله تعالى: ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾ استعمال حرف الظرفيَّة (في) دون (على)، والحمل يكون على السَّفينة، وذلك أنَّه لمّا كان اللّه تعالى قد أمر نوحًا ﷺ أن يجعل للسَّفينة غِطاءً - كما قاله بعض أهل التَّفسير - لئلّا تَمتلئَ من شِدَّة الأمطار المُتتابعة والهتّان الذي لا يُقلع ولا يفتر[1]، والذي وصف اللّه انهماره وتدفُّقَه بقوله تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١﴾ [القمر: 11]، كانت الظَّرفيَّة فيها بخلاف غيرها من السُّفن واضحة، فلذلك قال: ﴿فِيهَا﴾، أي: السَّفينة[2].

والظّاهر أنَّ مجيء (في) هُنا لرعاية جانب المحلّيَّة والمكانيَّة في الفُلْكِ؛ لأنَّه يكون مظروفًا فيها، وإن جلس على ظهرها، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ [يونس: 22]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ [العنكبوت: 65][3]، فالمقصود أن يحمل نوحٌ ﷺ في السفينةِ في داخلِها، لا على ظهرها، ولو قال: (واحمل عليها)؛ لكان لا بدَّ من تقدير محذوفٍ، وهو الظَّهر، ففي استعمال هذا الحرف بيانُ عناية اللّه تعالى بعبادِه، حمايةً لهم من أسباب الهلاك، وأخذًا بالأسباب.

فائدة الأمر بحمل عموم الحيوان قبل غيره:

المحمولُ مقدَّمٌ على الحاملِ، ولولا العاقلِ لما حُملت البهائم

قُدِّم الأمر بحمل الحيوان في قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ على الأهل وسائر المؤمنين؛ لأنَّه إنَّما يُحمل بمباشرة البَشر، فهو يحتاج إلى مزاولة وسياسة، كما يُحتاج في تمييز بعضه من بعض وتعيين الأزواج، وأمّا البشر؛ فإنَّما يدخل الفُلكَ باختياره، فيخفُّ فيه معنى الحمل[4]، فالأمر لنوحٍ ﷺ، والذي سيُنفِّذ الأمر هم

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/278.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/285.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/209، ومحمَّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 12/76.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/207، والشَّربيني، تفسير الشَّربيني: 2/64.

المؤمنون، فهم الذين سيقودون الحيوانات إلى السَّفينةِ، ويُركبونها فيها، فإذا رَكِبَ الإنسان العاقل، فمن هذا الذي سيُركب تلك البهائمَ؟

فإن قيل: الإنسان أشرف من سائر الحيوانات، فلِمَ بدأ بالحيوان؟ أجيب: بأنَّ الإنسان عاقل، فهو لعقله مُضطرٌّ إلى دفع أسباب الهلاك عن نفسه، فلا حاجة فيه إلى المُبالغة في التَّرغيب، بخلاف السَّعي في تخليص سائر الحيوانات، وكذلك لأنَّ قوام حياة الإنسان وصلاحها يكون بالحيوان، فكيف يعيش الإنسان إذا لم يكن هناك حيوان يأكل منه، ويحتاجه في قضاء حوائجه فلهذا السبب وقع الابتداء بِحملِ الحيوان[1].

توجيهُ القراءات القرآنيَّة في ﴿كُلِّ﴾:

القراءة بالتَّنوين نصٌّ في الجنس والعموم، والقراءة بالإضافة نصٌّ على العدد

تعدّدتِ القرّاءاتُ في قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾، فروى حفص ﴿كُلِّ﴾ بالتَّنوين، وقرأ الباقون بغير تنوين (من كُلِّ زوجين اثنين) على الإضافة[2]، فالمعنى عند من قرأ على الإضافةِ: احمل اثنين من كُلِّ صنفِ ذكرٍ وصنف أنثى، لا تزد على اثنين[3].

ومن قرأ بالتَّنوين على حذف المضاف إليه، والتَّقدير: أن احمل فيها من كلّ جنسٍ وكلِّ نوعٍ زوجين ذكرٍ وأنثى؛ لأنَّ الأنثى زوجُ الذَّكر، والذَّكرَ زوج الأنثى، يُقال: عندي زوجا حمامٍ ذَكَرٍ وأنثى[4].

فتنوين لفظ ﴿كُلِّ﴾ تنوين عوضٍ عن مضاف إليه[5]؛ ومن قرأ بالإضافة أعملَ (الحمل) في قوله: ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾، وجاء قوله: ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾ بمعنى العموم، أي: من كلِّ ما له ازدواج[6].

(1) الشَّربيني، تفسير الشَّربيني: 2/64.
(2) ابن الجزري، النَّشر: 2/288.
(3) البيضاويُّ، أنوار التنزيل: 3/134، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/72.
(4) ابن خالويه، إعراب القراءات السَّبع وعللها: 1/280.
(5) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/204.
(6) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/170، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/98.

نكتةُ اختيار لفظ (زوج):

الوعدُ الضِّمنيُّ على إبقاء النَّسل بعد الطّوفان

في قوله تعالى: ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾، الزوجان: كلُّ اثنين لا يستغني أحدهما عن الآخر، يُقال لكلِّ واحد منهما: زوج، والزَّوج: شيء يكون ثانيًا لآخر في حالة، وأصله: اسم لما ينضمُّ إلى فرد؛ فيصير زوجًا له لا يكمل نفعُه إلّا به[1]، يُقال: زوجُ خُفٍّ وزوجُ نعلٍ، والمراد بالزَّوجين هاهنا: الذَّكر والأنثى[2]، وكلٌّ منهما زوجٌ للآخر؛ فنكتةُ ذكر الزوجين هنا دون الاثنين، أو عددٍ آخر؛ لبقاء أصل النَّسل بعد الطّوفان[3]، وفيها وعدٌ ضمنيٌّ أنَّ اللّه ﷻ سيُحافظ على حياةِ الأزواج لتتكاثر وتتناسل.

دلالةُ الاحتراس في ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾:

تعيينُ المحمول بأنَّه اثنان لا أقلَّ ولا أكثر

في قولِه تعالى: ﴿زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾، لفظ ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ صفةٌ مؤكِّدةٌ لمفعول ﴿ٱحۡمِلۡ﴾، وهو ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾، وذلك لفائدتين:

الأولى: زيادةُ بيانٍ، كقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ [النّحل: 51][4]، وهو بيانٌ لئلّا يتوهَّم أن يحمل من كلِّ زوجين واحدًا منهما؛ لأنَّ الزَّوج هو واحدٌ من اثنين مُتَّصلين، كما في قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ﴾ [الأنعام: 143]، ودفعُ التَّوهُّم هذا ليس لنوحٍ عليه السلام، فهو يعلمُ أمرَ ربِّه، ويفقَهُ عنه، بل لمن يقرأ هذا الكلام، فيظنُّ أنَّه حملَ اثنين، فحصل تكاثرٌ بفعلٍ خارقٍ.

الأخرى: لئلّا يحمل أكثر من اثنين من نوعٍ؛ فتضيق السَّفينة وتثقل[5]، وهذا كذلك إرشادٌ للسّامعين، ونوحٌ عليه السلام يعلم المراد، وإنَّما ذكره في هذا السّياق لتعليم النّاس مرادَ اللّه تعالى.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/285.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 2/448.
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/33.
(4) إسماعيل البروسوي، روح البيان: 4/126.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/72.

سِرُّ الكنايةِ والإفراد في ﴿وَأَهۡلَكَ﴾:

الإشارة إلى توخّي نجاة الأهل؛ لأنَّهم الأقرب والأولى بالنَّجاة والعناية

المُرادُ بالأهل - في قوله تعالى: ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ - أهلُ بيته كزوجته وأولاده، وأكثر ما يُطلق لفظ الأهل على الزَّوجة، كما في قوله تعالى: ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ﴾ [القصص: 29]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [طه: 10]؛ فأهل الرجل: قرابته وأهل بيته، وهو اسم جمع لا واحد له، وزوجُه أوَّل ما يُتبادر من اللَّفظ، ويطلق لفظ الأهل على امرأة الرجل[1].

وفي ذكر الأهل هنا إشارة إلى توخّي نجاة الأهل؛ لأنَّهم الأقرب والأولى بالنَّجاة، وقد ورد في القرآن: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال: 75]؛ ولهذا أفرد لفظ (الأهل) منهم لمزيد العناية بهم[2].

دلالةُ الاستثناء:

سبقُ القولِ قبل ركوبِ السَّفينةِ كالغرغرة للميّت في عدم قبول الإيمان

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ استثناءٌ من الأهل، أي: احمل فيها أهلَك إلّا من سبق عليه قضاؤنا بكُفره منهم فلا تحمله، والمراد بمن سبق عليه القول: زوجته التي جاء ذِكْرُها في سورة التَّحريم في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ﴾ [التحريم: 10]، وابنه الذي أبى أن يركب معه السَّفينة[3]؛ وهذا الاستثناء مشعرٌ بأنَّ كُلَّ من سبق عليه القول؛ فإنَّه لا يتغيَّر عن حاله[4].

والاستثناء إمّا أن يكون منقطعًا إن أريد بالأهل الأهلُ إيمانًا؛ فيدخل فيه كلُّ كافرٍ سواءٌ أكانوا من الأقاربِ أم من غيرهم، وإمّا أن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/72، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/204.
(2) القِنوجي، فتح البيان: 3/314.
(3) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/204.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/346.

يكون مُتَّصلًا إن أريد بالأهلِ الأهلُ قرابةً، ويُكتفى في صِحَّة الاستثناء المعلوميَّة عند المراجعة إلى أحوالهم والتَّفحُّص عن أعمالهم[1].

نكتةُ تعديةِ الفعل ﴿سَبَقَ﴾:

تضمين معنى فعل (سَبَقَ) معنى الحُكْم بالعقوبةِ بسببِ الكفر

معنى السبقِ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾: الحكم على من سخر، وعاند عن إرادةٍ واختيارٍ بالشّقاوة والكفر، وهذا لا يُحمل في سفينة النَّجاة، وعُدّي الفعل ﴿سَبَقَ﴾ بحرف (على) لتضمين ﴿سَبَقَ﴾ معنى: حَكَمَ، كما عُدّي باللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١﴾ [الصافات: 171] لتضمينه معنى الالتزام النّافع[2]؛ فجيء بحرفِ (على) لكون السّابق ضارًّا لهم، كما جيء باللّام فيما هو نافعٌ لهم من قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١﴾[3] [الصافات: 171].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾:

الإشارةُ إلى وعيدِ الله الذي لا يُرَدُّ، وحكمه الذي لا يُنازع

معنى ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾: الوعيدُ بالعذاب[4]، فالتَّعْريفُ في لفظِ ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ لِلْعَهْد، وفيه تعريفٌ بأنَّ حُكم الأزل لا يُردُّ، والحقُّ سبحانه لا ينازَع، والجبّار لا يُخاصَم، وأنَّ من أقصاه ربُّه؛ لم يُدنه تنبيهٌ ولا بِرٌّ ولا وعظ[5].

نكتةُ التَّعبيرِ بالإفرادِ: ﴿ءَامَنَۚ﴾:

الإشعارُ بقلّة عدد المؤمنين

قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾، أي: احملِ المؤمنين من غير أهلك[6]، وإيثار صيغة الإفراد في ﴿ءَامَنَۚ﴾ مراعاةٌ للفظ ﴿وَمَنۡ﴾ للإيذان بقلَّتهم، كما أعرب عنه قوله عزَّ من قائل: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 4/207.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/72.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/207.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/72، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/170.
(5) القشيري، لطائف الإشارات: 2/136.
(6) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/283، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 4/436.

﴿قَلِيلٌ﴾[1]، فهم نزرٌ يسيرٌ مع طول المدَّة والمقام بين أظهرهم ألفَ سنةٍ إلّا خمسين عامًا[2].

سِرُّ ذِكر المعيّة في ﴿مَعَهُۥٓ﴾:

المعيَّة المعتبرةُ هي معيَّة الأبرار في السَّرّاء والضَّرّاء

جاء التَّعبير في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، دون أن يقولَ: (وما آمن إلّا قليل) ومعلومٌ أنَّهم آمنوا معه، وذلك لاعتبارِ المعيَّةِ في إيمانِهم، فإيمانُهم كان بمعيَّتهم لنوحٍ عليه السلام، لا إيمانَ منفصلٍ عنه، فقد يؤمن الإنسانُ، وينفرد بنفسِه عن رسولِه الذي آمن به، وهذا غير معتبر، فالمعتبر هو الإيمان المصاحب للنَّبيِّ في السَّرّاء والضَّرّاء، وكذلك حالُ عموم المؤمنين، يجب أن يكون إيمانًا بالمعيَّة لأهل العلم الرَّبانيّين، دون انفصالٍ عنهم وانفرادٍ عن مصاحبتهم، فهو إيماءٌ إلى المعيَّةِ في مَقرِّ الأمانِ والنَّجاةِ[3].

دلالةُ الاعتراض بالقصر:

الصّالحون قلَّةٌ قليلةٌ وفئةٌ عزيزةٌ؛ بهم يبقى نورُ الله في الأرض، وبذهابِهم تقوم السّاعة

جملة ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ اعتراضٌ لتكميل الفائدة من القصَّة في قلَّة الصّالحين، وهو من قبيل قصر صفة الإيمان على موصوفٍ، وهم القِلَّة القليلة من قوم نوح عليه السلام، قيل: كان جميع المؤمنين به من أهله وغيرهم نيِّفًا وسبعين بين رجالٍ ونساء[4].

وتشير هذه الجملة من جهة أخرى: إلى أنَّ ثمرة جهاد نوح عليه السلام بعد هذه السِّنين الطِّوال والسَّعي الحثيث المتواصل في التَّبليغ لدعوته، لم يكن سوى هذا النَّفر المؤمن القليل، وهذا الأمر يَدُلُّ على ما كان عليه هذا النَّبيُّ العظيم من الصَّبر والاستقامة في درجةٍ قصوى؛ بحيث كان مُعَدَّلُ ما يبذله من جهدٍ لهداية

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/208، والقاسمي، محاسن التَّأويل: 6/94.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/278.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 4/208.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/73.

شخصٍ واحد عشرَ سنواتٍ تقريبًا، وهذا الجهد الذي لا يبذله النّاس حتّى لأولادهم.

توجيه المتشابه اللَّفظيِّ:

الحملُ إدخالٌ عامٌّ، والسَّلك إشارةٌ إلى تفصيل العموم

ذكر الله ﷻ - في قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ - أنَّه أمر نبيَّه نوحًا ﵇: أن يحمل في سفينته من كلِّ زوجين اثنين، وبَيَّن في قوله تعالى في سورة (المُؤمنون): ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [المؤمنون: 27] أنَّه أمره أن يسلكهم، أي: يُدخلهم فيها، فَدَلَّ ذلك على أنَّ فيها بيوتًا يدخل فيها الرّاكبون، ومعنى ﴿فَٱسۡلُكۡ﴾: أدخلْ فيها من كلِّ زوجين اثنين، تقول العرب: سلكتُ الشَّيءَ في الشيء: أدخلتُه فيه، وأصل السَّلك يَدُلُّ على نُفوذِ شَيْءٍ في شَيْءٍ، ومنه السِّلْكُ، أي: الخيط الذي يُسلَك، أي: يُدخل في الخرز لينظم[1].

روعي في التَّفصيلِ ألفاظُ العموم، وفي الإيجازِ ألفاظُ الخصوص

كما أنَّ لفظ ﴿ٱحۡمِلۡ﴾ أوسعُ موقعًا في اللُّغة، وأكثر تصرُّفًا في الكلام، تقول: حملتُ الشَّيءَ إلى فلان، وحملته على كاهلي، وحملتُ العلم عن فلان، وحملَ فلانٌ الأمانة، وحملَهُ الغضبُ على كذا، وحملَ الفارسُ على صاحبه، وحملَتِ المرأةُ والشَّجرُ، ولا تقول في شيء من هذا: سلك إلّا أن يكون المحصور فيه حسبما تعاقب (سلك) و(حمل)، إن لم يعرض في المعنى ما يمنع، وأمّا (سلك)؛ فإنَّ العرب تقول: سلكتُ الشَّيء في الشيء وأسلَكْتُه، أي: أدخلتُه، وكل ما يُخْرِجُ (سلك) عن هذا المعنى من الدُّخول حقيقةً ومجازًا، ففيها من حيث معناها الخصوص، وأمّا (حمل)؛ ففيها اتِّساعٌ لا يكون في (سلك)، فوجهُ ورودها في سورة هود مُناسبتُها للمعنى من حيث ما اقترن بها من لفظ: ﴿قُلۡنَا﴾، فطال الكلام لفظًا مع ما تدلُّ عليه من سعة المحامل، وناسب مجموعَ هذه العبارة ما ورد في سورة هود من استيفاء قصَّة نوح ﵇، وطولِ الكلام بذلك قولُه

(1) الشِّنقيطي، أضواء البيان: 3/19، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سلك).

تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾ إخبارًا عمّا كان من الله تعالى إلى نوح عليه السلام من الأمر بحمل ما يحمله في السَّفينة، ومَن يحمله من المؤمنين، وتقدَّم إليه بإعدادهم للرُّكوب معه، ومنعِ من حُظر عليه استصحابه، ثُمَّ بعد ذلك أمره بقوله: ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾، فالأوَّل أمرٌ بتهيئته ما يستبقي من الحيوان، ومَن يستبقي من المؤمنين، والثّاني أمرٌ بركوب السَّفينة، والثّالث أمرٌ بالهبوط منها بقوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ [هود: 48]، فالذي جاء في سورة هود جاء على مقتضى أوامر الله تعالى المفصَّلة من إعداد مَن يركب معه، وأمّا آية (المؤمنون)؛ ففي قصَّة نوح -فيها- إيجاز وإجمال، ألا ترى أنَّها في كلمها وعدد حروفها في آية هود على الضِّعف أو أطول ممّا في سورة المؤمنون، فلذلك ورد في سورة المؤمنون لفظ ﴿فَٱسۡلُكۡ﴾ لإيجازه من حيث معناه تجرُّده عن اقتران لفظ (قلنا) أو غيره ممّا يحرز الطُّول، بخلاف ما في سورة هود، وممّا يُعضِّد هذا المقصود، ويشهد له قوله تعالى في سورة هود: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾، وفي سورة المؤمنون: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾، فتأمَّل ﴿حَتَّىٰٓ﴾، وهي على أربعة أحرف بفاء التَّعقيب في سورة (المؤمنون) في قوله: ﴿فَإِذَا﴾ [المؤمنون: 27]، وإنَّما الفاء على حرفٍ واحد، فناسب بالفاء موضعها المبنيَّ على الإيجاز، وبِـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ موضعها المبنيُّ على الاستيفاء والطُّول[1].

(1) الإسكافي، دُرَّة التَّنزيل: 1/937 - 938، وابن الزُّبير الغرناطي، ملاك التَّأويل: 2/256 - 257.

المحتويات

الجزء الحادي عشر 7

سورة يونس 9

- [يونس: 76 - 77] 10
- [يونس: 78] 21
- [يونس: 79] 28
- [يونس: 80] 35
- [يونس: 81] 43
- [يونس: 82] 55
- [يونس: 83] 65
- [يونس: 84] 80
- [يونس: 85] 87
- [يونس: 86] 94
- [يونس: 87] 100
- [يونس: 88] 113
- [يونس: 89] 127
- [يونس: 90] 135
- [يونس: 91] 155
- [يونس: 92] 161
- [يونس: 93] 174
- [يونس: 94] 189
- [يونس: 95] 206
- [يونس: 96] 212
- [يونس: 97] 218
- [يونس: 98] 222
- [يونس: 99] 238
- [يونس: 100] 250
- [يونس: 101] 260
- [يونس: 102] 274
- [يونس: 103] 284
- [يونس: 104] 294
- [يونس: 105 - 106] 309
- [يونس: 107] 322
- [يونس: 108] 345
- [يونس: 109] 356

سورة هود 365

- [هود: 1] 376
- [هود: 2] 385
- [هود: 3] 392
- [هود: 4] 409
- [هود: 5] 415

الجزء الثاني عشر 427

- [هود: 6] 428
- [هود: 7] 439
- [هود: 8] 454
- [هود: 9] 466
- [هود: 10 - 11] 478
- [هود: 12] 492
- [هود: 13] 505
- [هود: 14] 520
- [هود: 15] 531
- [هود: 16] 540
- [هود: 17] 546
- [هود: 18 - 19] 562
- [هود: 20] 578
- [هود: 21] 596
- [هود: 22] 605
- [هود: 23] 615
- [هود: 24] 622
- [هود: 25] 633
- [هود: 26] 640
- [هود: 27] 649
- [هود: 28] 672

- [هود: 29] 689
- [هود: 30] 702
- [هود: 31] 708
- [هود: 32] 722
- [هود: 33] 729
- [هود: 34] 735
- [هود: 35] 743
- [هود: 36] 749
- [هود: 37] 756
- [هود: 38] 763
- [هود: 39] 782
- [هود: 40] 794